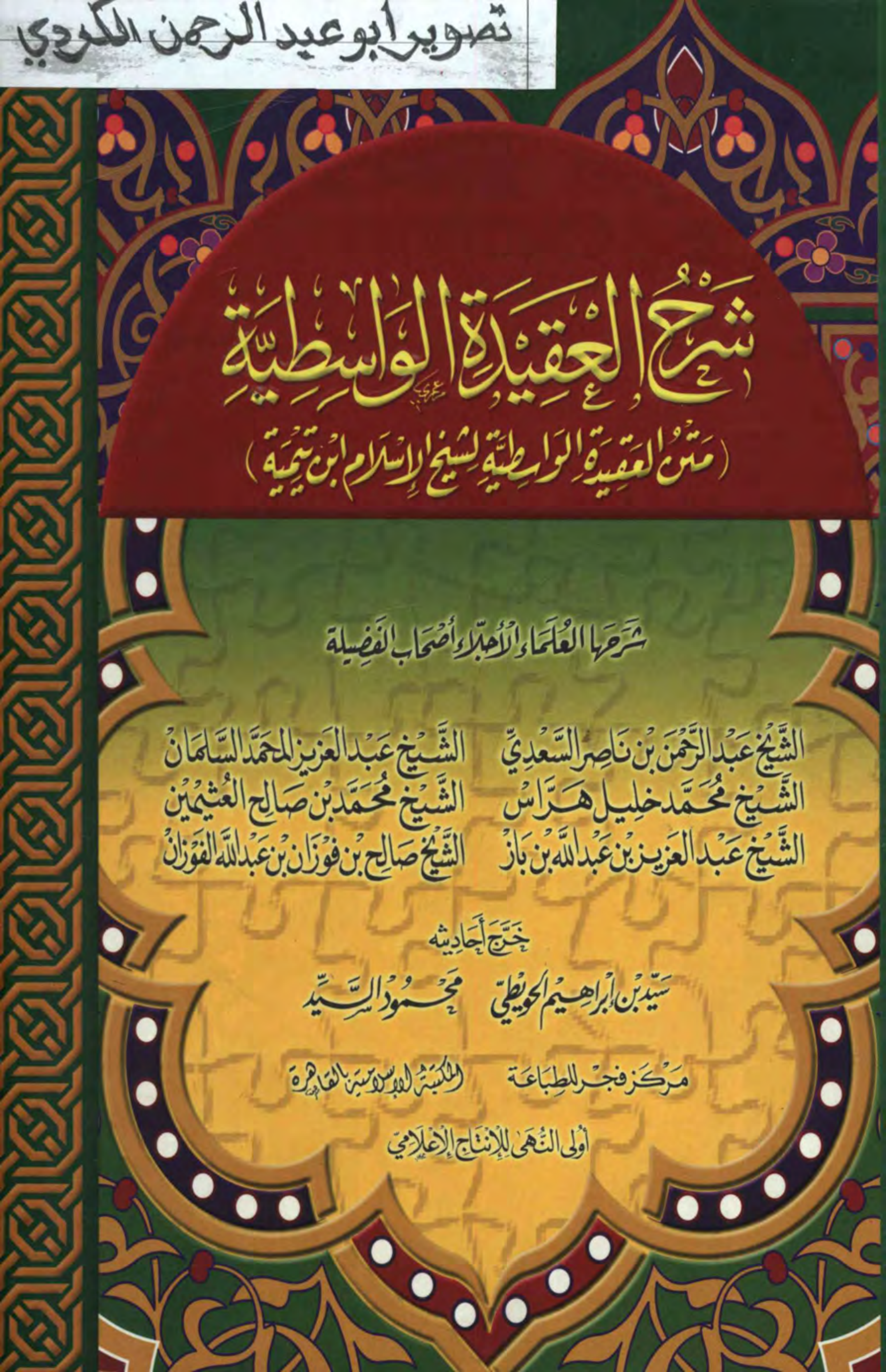
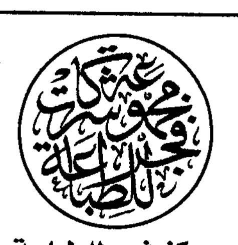


تصوير أبو عبد الرحمن الكردي
شرح العقيدة الواسطية
(متن العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية)
شرحها العلماء الأجلاء أصحاب الفضيلة
الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي
الشيخ عبد العزيز المحمد السلمان
الشيخ محمد خليل هراس
الشيخ محمد بن صالح العثيمين
الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز
الشيخ صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان
خرج أحاديثه
سيد بن إبراهيم الحويطي
محمود السيد
مركز فجر للطباعة
المكتبة الإسلامية بالقاهرة
أولى النهى للإنتاج الإعلامي

رقم الإيداع
٢٠٠٣/١٩١١٢



مركز فجر للطباعة
والنشر والتوزيع
40 ش د. على إبراهيم رامز
مصر الجديدة ـ القاهرة
ت، فاكس: 2404201

أولى النهى للإنتاج
الإعلامى والتوزيع

المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر
القاهرة - 52 شارع صعب صالح
عين شمس الشرقية
ت وفاكس: 4991254 (202)


منتدى إقراء الثقافي
www.iqra.ahlamontada.com
للكتب (كوردى , عربي , فارسي)

شرح العقيدة الواسطية

(متن العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية)

شرحها العلماء الأجلاء أصحاب الفضيلة
الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي
الشيخ محمد خليل هراس
الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز
الشيخ عبد العزيز المحمد السلمان
الشيخ محمد بن صالح العثيمين
الشيخ صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان

خرج أحاديثه
سيد بن إبراهيم الحويطي   محمود السيد



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة التحقيق

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلامضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

[آل عمران: ١٠٢]

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾.

[الأحزاب: ٧٠، ٧١]

أما بعد، فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

فإن شرف كل علم على قدر شرف المعلوم به، ولما كان المعلوم من علم العقيدة هو الله تبارك وتعالى، دلَّ ذلك على شرف علم العقيدة، فإن علم العقيدة من أهم المهمات في حيات الإنسان.

وهذه الأهمية تتأكد في هذا الزمان الذي امتلأ فتنًا كقطع الليل المظلم من خارج الأمة الإسلامية تهدف إلىٰ إفساد العقيدة علىٰ أهل الإسلام، ومن داخل الأمة الإسلامية من انتشار بعض صور الشرك والفتنة بالمقبورين، الصالحين منهم وغير الصالحين، والخرافات وغيرها مما يلبس علىٰ بسطاء الناس دينهم وعقيدتهم، وقد عرف علماء الإسلام أهمية هذا الباب من العلوم؛ فتسارعوا في التأليف فيه والتنقيح من بين مؤلفٍ لمتن، أو شارحٍ له، أو معلق عليه، كلٌّ علىٰ حسب ما ألهمه اللَّه تعالىٰ من الخير والعلم والبركة.

وممن كان له اليد الطولىٰ في هذا الباب، بل في أبواب العلم جميعها، هو شيخ الإسلام، عالم عصره، وفريد دهره، ناصر الملة، ومدحض البدعة الذي رفع لواء الحرب طوال حياته علىٰ كل مبتدع، وكل مارق عن دين الإسلام: شيخ الإسلام:

تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني.

وقد تنوعت مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه اللَّه تعالىٰ، وتعددت في فنون مختلفة، وعلىٰ رأسها علم العقيدة الذي أجاد فيه وأفاد.

وكان من هذه المؤلفات العظيمة النفع رسالته القيمة التي أرسل بها إلىٰ أهل واسط عندما طلبوا منه ذلك، وقد وسمها بـ «العقيدة الواسطية» نسبة إليهم، وإلا فهي توضح اعتقاد أهل السنة والجماعة الخالص عن الشوائب والعلائق.

ونظرًا لأهمية هذا المؤلَّف فقد تبارت أقلامُ العلماء قديمًا وحديثًا في بسط هذا المتن وشرح ما وَرَدَ فيه من آيات وأحاديث تخص كل باب من أبواب العقيدة.

* * *

ذكر بعض من أسهم في شرح متن العقيدة الواسطية

العلامة الفاضل عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله تعالى:

وقد جاء شرح الشيخ العلامة السعدي موجزاً غير مُخِلٍّ وبالرغم من صغر حجم التعليقات وعدم التوسع فيها إلا أنها قد جاءت - بفضل الله تبارك وتعالى - مفيدة جداً ومهمة للغاية ؛ وذلك لأن العلامة السعدي هو من أعلام العصر الحديث في التنظير للعلوم الشرعية والنظر إليها نظرة عامة شاملة تدل على سعة اطلاعه.

وأيضًا فهي من أهم الشروح والتعليقات ؛ لأن الشيخ السعدي قد اطلع اطلاعًا واسعًا في كتب شيخ الإسلام ابن تيمية ، وقد ألّف من خلالها مؤلفات قام فيها بترتيب المادة العلمية وأحسن في الجمع بين القواعد والمسائل المتشابهة في مؤلفات خاصة - وهي من شتات مؤلفات ابن تيمية رحمه الله تعالى -.

وقد وسمه الشيخ السعدي بـ«التعليقات اللطيفة فيما احتوت عليه العقيدة الواسطية من المباحث المنيفة».

الشيخ محمد خليل هراس رحمه الله تعالى:

وجاء شرحه بمثابة التعليق - موجزاً وهو قريب من حجم تعليقات الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي مع الاختلاف في أسلوب العرض.

وقد وسمه الشيخ خليل هراس بـ«شرح العقيدة الواسطية».

الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله تعالى - مفتى الديار السعودية الأسبق -:

وقد جاء تعليقًا موجزاً.

الشيخ الراحل العلامة محمد بن صالح العثيمين:

فقد كان له الحظ الأوفر في شرح متن العقيدة الواسطية وفي التعليق عليها حيث جاء شرحًا ماتعًا ممتعًا موسعًا منسقًا، وقد أجاد فيه وأفاد حيث قام بعرض كل موضوع على حدة مع الإفادة بقواعد علمية في الأسماء والصفات قد أتحف بها الشرح فجاء مدحضًا للبدع مفندًا للشبهات، مفيدًا لطلبة العلم، وهذا لأن الشيخ ابن عثيمين رحمه الله تعالى كان من تلامذة العلامة الجهبذ الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمة الله تعالى عليه وعلى كل من أسهم في شرح هذا المتن العظيم النفع.

فقد استفاد كثيرًا من أسلوب شيخه في طريقة عرض المادة العلمية، والتنظير لها في شكل منظم سهل.

وقد وسمه الشيخ بـ«شرح العقيدة الواسطية».

الشيخ عبد العزيز المحمد السلمان:

فله شرح موسع نظيرٌ لشرح الشيخ ابن عثيمين رحمة الله عليهم أجمعين.

وقد وسمه الشيخ بـ«الكواشف الجلية عن معاني العقيدة الواسطية».

ثم إن الشيخ السلمان قام - بعد ما شرح العقيدة الواسطية شرحًا وافيًا - بعمل اختصار لكتابه السابق، وجعله في صورة سؤال وجواب، وذلك بعد طلب وإلحاح من طلبة العلم.

وقد أسماه «الأسئلة والأجوبة الأصولية على العقيدة الواسطية»؛ ليكون على صورة أخرى وجديدة من الشروح التي تعرضت لمتن العقيدة الواسطية.

الشيخ الفاضل صالح الفوزان حفظه الله تعالى:

فقد جاء تعليقه موجزاً غير مخل.

وقد جاءت تعليقاته حفظه الله تعالى على شكل أبواب وفصول لتَكُوْن خطوطًا عريضة في فهم العقيدة الواسطية .

وقد وسمه بـ«شرح العقيدة الواسطية».

فرحم اللَّه كلَّ من أسهم بالشرح أو التعليق على العقيدة الواسطية، ورحمة اللَّه على شيخ الإسلام ابن تيمية الذي قد أتعب من بعده؛ وذلك لأنه ما ترك فنًّا أو علمًا من علوم الشريعة إلا وقد أسهم فيه بما فتح اللَّه به عليه، وبما يرد به على المبتدعين بدعهم، وعلى المخرفين خرافاتهم.

ورحمه اللَّه من إمام لأهل السنة، فمعظم من تكلَّم في العقيدة بعده فهم عيال عليه.

* * *

عملنا في الكتاب

وهذا وقد قمنا نحن «دار إحياء السنة» بجمع هذه الشروح والتعليقات في كتاب واحد وقد جاء عملنا في هذا الكتاب كالآتي .

١ ـ عمل ترجمة لشيخ الإسلام ابن تيمية صاحب متن العقيدة الواسطية مع عمل ترجمة لبعض العلماء الذين أسهموا في شرح العقيدة الواسطية .

٢ ـ صَدَّرنا الكتاب بمتن العقيدة الواسطية كاملاً .

٣ ـ قمنا بتقسيم الكتاب إلىٰ أبواب ، كل باب منها يخص جانبًا في باب العقيدة .

٤ ـ قمنا بجمع شروح العلماء لكل باب علىٰ حدة .

٥ ـ زيَّلنا كل موضوع أو باب بأسئلة وأجوبتها النموذجية وذلك من كتاب الشيخ عبد العزيز المحمد السلمان ليكون كالمنهج العملي علىٰ مدىٰ الاستفادة من قراءة هذا الكتاب

٦ ـ قمنا بتخريج الأحاديث الواردة في الكتاب .

٧ ـ قمنا بوضع عنوان لكل موضوع علىٰ حدة وذلك من صنعنا وقد وضعناه بين معكوفين هكذا [ ] .

وحرصنا أن يكون مصدَّرًا في أول الباب قبل وضع متن العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية .

٨ ـ قمنا بوضع المتن الخاص بكل باب أو موضوع في أوله .

٩ ـ قمنا بعمل فهارس لموضوعات الكتاب .

١٠ ـ قمنا بصف الكتاب متنًا وشروحًا وتعليقات ، وبمراجعته مراجعة لغوية جيدة .

هذا ؛ ونسأل الله تبارك وتعالىٰ أن يتقبل منا صالح الأعمال وممن أسهم في نشر العلم النافع إنه وليُّ ذلك والقادر عليه وهو حسبنا ونعم الوكيل ، وصلِّ اللهم علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه الطاهرين وعلىٰ ذريته إلىٰ يوم الدين .

بالله يَا قارئًا كُتْبِيْ وسَامِعَهَا ... أَسْبِلْ عَلَيْهَا رِداءَ الحُكْمِ والكَرَمِ

واسْتُرْ بلُطْفِكَ مَا تَلْقَاهُ مِن خَطَأ ... أَوْ أَصْلِحنهُ تُثَبْ إنْ كُنْتَ ذَا فَهمِ

فَكَمْ جَوادٍ كَبَى والسَّبْقُ عَادَتُهُ ... وكَمْ حُسَامٍ نَبَا أَوْ عَادَ ذُوْ ثُلَمِ

وكُلُّنَا يَاً أَخِي خَطاءُ ذُوْ زَلَلٍ ... والعُذْرُ يَقْبَلُهُ ذو الفَضْلِ وَالشِّيَمِ

وكتب

أشرف بن كمال



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الشيخ
عبد الرحمن بن ناصر السعدي

الحمد لله الموصوف بصفات العظمة و الكبرياء والكمال، المنزه عن الشريك والنقص والشبه والمثال.

وأشهد أنه المتفرد بالوحدانية المستحق لإفراده بالعبودية في كل الأحوال.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم في العقائد والأخلاق والأقوال والأفعال.

أما بعد:

فهذا تعليق لطيف على عقيدة شيخ الإسلام ابن تيمية المسماة بـ (الواسطية)، التي جمعت - على اختصارها ووضوحها - جميع ما يجب اعتقاده من أصول الإيمان وعقائده الصحيحة. وهي - وإن كانت واضحة المعاني محكمة المباني - تحتاج إلى تعليق يزيد في توضيح بعض ما فيها من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وتبيين وجه دلالتها على المقصود، وبيان وجه ارتباط بعض المسائل ببعض، وجميع ما يحتاج إلى جمعه في موضع واحد، والإشارة إلى بعض آثارها وفوائدها في القلوب والأخلاق، والتنبيه لكل ما يحتاج إلى تنبيه عليه.

وأرجو الله أن يكون هذا التعليق على هذا الوصف، وأن يكون خالصًا لوجهه الكريم، مقربًا إليه نافعًا سهلاً في ألفاظه ومعانيه.. آمين.

عبد الرحمن بن ناصر السعدي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الشيخ
محمد خليل هراس

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، نبينا محمد، عبد الله ورسوله وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فلما كانت العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله من أجمع ما كتب في عقيدة أهل السنة والجماعة مع اختصار في اللفظة ودقة في العبارة، وكانت تحتاج في كثير من مواضعها إلى شرح يجلي غوامضها ويزيح الستار عن مكنون جواهرها، ويكون مع ذلك شرحًا بعيدًا عن الإسهاب والتطويل والإملال بكثرة النقول حتى يلائم مدارك الناشئين ويعطيهم زبدة الموضوع في سهولة ويسر.

فقد استخرت الله تبارك وتعالى، وأقدمت على هذا العمل رغم كثرة الشواغل وزحمة الصوارف، سائلاً الله عز وجل أن ينفع به كل من قرأه وأن يجعله خالصًا لوجهه إنه قريب مجيب.

محمد خليل هراس

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الشيخ
عبد العزيز المحمد السلمان

الحمد لله الذي تفرد بالجلال والعظمة والكبرياء والجمال، وأشكره شكر عبد معترف بالتقصير عن بعض ما أوليه من الإنعام والإفضال.

وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيراً.

وبعد:

فبما أنه طَلَب مني أحد إخواننا أن أحوال الأسئلة والأجوبة الأصولية إلى شرح للعقيدة الواسطية فأجبته إلى ذلك وزدت ما أرى أن الحاجة ماسة إليه، وحذفت ما أرى أن الحاجة إليه قليلة، وراعيت في ذلك أن يكون مناسبًا للأستاذ والتلميذ، ليس بالطويل الممل ولا بالقصير المخل، على أني جمعت الكثير فيه من كتب المحققين كالشيخين شيخ الإسلام مؤلف العقيدة وتلميذه ابن القيم ونحوهما، ومن الكتب التي تستمد من كتبهما وأمثالهما من المتبصرين، وسميته «الكواشف الجلية عن معاني الواسطية».

وأسأل الله الحي القيوم، العلي العظيم، الأول الآخر، الظاهر الباطن، العليم بكل شيء، ذو الجلال والإكرام، الواحد الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحداً، القريب المجيب أن يجعل عملنا خالصًا لوجهه الكريم، وأن ينفع به من قرأه، ومن سمعه، ومن سعى في بَثِّهِ، إنه على كل شيء قدير، وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

بالله يا ناظرًا فيه ومنتفعًا منه سل الله توفيقًا لجامعه
وقل أنه إله العرش مغفرة واقبل دعاه وجنب عن موانعه
وخص نفسك من خير دعوت به ومن يقوم بما يكفي لطابعه
والمسلمين جميعًا ما بدا قمر أو كوكب مستنير من مطالعه

عبد العزيز المحمد السلمان

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الشيخ
محمد بن صالح العثيمين

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين:

أما بعد:

فإن هذا الكتاب الذي يسمى «العقيدة الواسطية» ألفه حبر الأمة في زمانه: أبو العباس، شيخ الإسلام، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني - رحمه الله - المتوفى سنة ٧٢٨هـ.

ولهذا الرجل من المقامات - التي يُشكر عليها والتي نرجو من الله له المثوبة عليها - في الدفاع عن الحق ومهاجمة أهل الباطل ما يعلمه كل من تتبع كتبه وسبرها، والحقيقة أنه من نعم الله على هذه الأمة؛ لأن الله سبحانه وتعالى كف به أموراً عظيمة خطيرة على العقيدة الإسلامية.

وهذا الكتاب كتاب مختصر، يسمى «العقيدة الواسطية» ألفه شيخ الإسلام؛ لأنه حضر إليه رجل من قضاة (واسط)، شكا إليه ما كان الناس يعانونه من المذاهب المنحرفة فيما يتعلق بأسماء الله وصفاته، فكتب هذه العقيدة التي تُعدُّ زبدة لعقيدة أهل السنة والجماعة فيما يتعلق بالأمور التي خاض الناس فيها بالبدع وكثر فيها الكلام والقيل والقال.

وقبل أن نبدأ الكلام على هذه الرسالة العظيمة نحب أن نبين أن جميع رسالات الرسل، من أولهم نوح عليه الصلاة والسلام، إلى آخرهم محمد ﷺ، كلها تدعو

إلى التوحيد.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وذلك أن الخلق خلقوا لواحد، وهو الله عز وجل، خلقوا لعبادته؛ لتتعلق قلوبهم به، تألها، وتعظيمًا، وخوفًا، ورجاءً، وتوكلا، ورغبة، ورهبة، حتى ينسلخوا عن كل شيء من الدنيا لا يكون معينًا لهم على توحيد الله عز وجل في هذه الأمور؛ لأنك أنت مخلوق، لا بد أن تكون لخالقك، قلبًا وقالبًا في كل شيء.

ولهذا كانت دعوة الرسل عليهم الصلاة والسلام إلى هذا الأمر الهام العظيم، عبادة الله وحده لا شريك له.

ولم يكن الرسل الذين أرسلهم الله عز وجل إلى البشر يدعون إلى توحيد الربوبية كدعوتهم إلى توحيد الألوهية، ذلك أن منكري توحيد الربوبية قليلون جدًا، وحتى الذين ينكرونه هم في قرارة نفوسهم لا يستطيعون أن ينكروه، اللهم إلا أن يكونوا قد سُلبوا العقول المدركة أدنى إدراك، فإنهم قد ينكرون هذا من باب المكابرة.

وقد قسم العلماء ـ رحمهم الله ـ التوحيد إلى ثلاثة أقسام:

أحدها: توحيد الربوبية:

وهو إفراد الله سبحانه وتعالى في أمور ثلاثة: في الخلق، والملك، والتدبير.

دليل ذلك، قوله تعالى: ﴿أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، ووجه الدلالة من الآية: أنه قدم فيها الخبر الذي حقه التأخير، والقاعدة البلاغية: أن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر. ثم تأمل افتتاح هذه الآية بـ «ألا» الدالة على التنبيه والتوكيد: ﴿أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، لا لغيره؛ فالخلق هذا هو، والأمر هو التدبير.

أما الملك؛ فدليله مثل قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [الجاثية: ٢٧]،

فإن هذا يدل على انفراده سبحانه وتعالىٰ بالملك، ووجه الدلالة من هذه الآية كما سبق تقديم ما حقه التأخير.

إذًا؛ فالرب عز وجل منفرد بالخلق والملك والتدبير.

فإن قلت: كيف تجمع بين ما قررت وبين إثبات الخلق لغير الله؛ مثل قوله تعالىٰ: ﴿فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]، ومثل قوله ﷺ في المصورين: «**يقال لهم: أحيوا ما خلقتم**»(١)، ومثل قوله تعالىٰ في الحديث القدسي: «**ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي**»(٢)؛ فكيف تجمع بين قولك: أن الله منفرد بالخلق، وبين هذه النصوص؟!

فالجواب أن يقال:

إن الخلق هو الإيجاد، وهذا خاص بالله تعالىٰ، أما تحويل الشيء من صورة إلىٰ أخرىٰ؛ فإنه ليس بخلق حقيقة، وإن سمي خلقًا باعتبار التكوين، لكنه في الواقع ليس بخلق تام؛ فمثلا: هذا النجار صنع من الخشب بابًا، فيقال: خلق بابًا، لكن مادة هذه الصناعة الذي خلقها هو الله عز وجل، لا يستطيع الناس كلهم مهما بلغوا في القدرة أن يخلقوا عود أراك أبدًا، ولا أن يخلقوا ذرة، ولا أن يخلقوا ذبابًا.

واستمع إلىٰ قول الله عز وجل: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ**﴾ [الحج: ٧٣].

﴿**الَّذِينَ**﴾ اسم موصول يشمل كل ما يدعىٰ من دون الله من شجر وحجر وبشر وملك وغيره، كل الذين يدعون من دون الله ﴿**لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ**﴾، ولو انفرد كل واحد بذلك؛ لكان عجزه من باب أولىٰ، ﴿**وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ**﴾، حتىٰ الذين يدعون من دون الله، لو سلبهم الذباب شيئًا ما

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٩٥١) ومسلم (٢١٠٨) والنسائي في «الكبرىٰ» (٥٣٦١) من حديث عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٩٥٣) ومسلم (٢١١١) من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

استطاعوا أن يستنقذوه من هذا الذباب الضعيف، ولو وقع الذباب على أقوى ملك في الأرض، ومص من طيبه؛ لا يستطيع هذا الملك أن يستخرج الطيب من هذا الذباب، وكذلك لو وقع على طعامه؛ فإذًا الله عز وجل هو الخالق وحده.

فإن قلت: كيف تجمع بين قولك: إن الله منفرد بالملك، وبين إثبات الملك للمخلوقين؛ مثل قوله تعالى: ﴿**أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ**﴾ [النور: ٦١]، ﴿**إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ**﴾ [المؤمنون: ٦]؟

فالجواب أن يجمع بينهما من وجهين:

الأول: أن ملك الإنسان للشيء ليس عامًّا شاملا، لأنني أملك ما تحت يدي، ولا أملك ما تحت يدك، والكل ملك الله عز وجل؛ فمن حيث الشمول: مُلكُ الله عز وجل أشمل وأوسع، وهو ملك تام.

الثاني: أن ملكي لهذا الشيء ليس ملكًا حقيقيًّا أتصرف فيه كما أشاء، وإنما أتصرف فيه كما أمر الشرع، وكما أذن المالك الحقيقي، وهو الله عز وجل، ولو بعت درهمًا بدرهمين؛ لم أملك ذلك، ولا يحل لي ذلك؛ فإذًا ملكي قاصر، وأيضًا لا أملك فيه شيئًا من الناحية القدرية؛ لأن التصرف لله؛ فلا أستطيع أن أقول لعبدي المريض: ابرأ! فيبرأ، ولا أستطيع أن أقول لعبدي الصحيح الشحيح: امرض! فيمرض، لكن التصرف الحقيقي لله عز وجل، فلو قال له: ابرأ! برأ، ولو قال: امرض! امرض؛ فإذًا لا أملك التصرف المطلق شرعًا ولا قدرًا، فملكي هنا قاصر من حيث التصرف، وقاصر من حيث الشمول والعموم، وبذلك يتبين لنا كيف كان انفراد الله عز وجل بالملك.

وأما التدبير؛ فللإنسان تدبير، ولكن نقول: هذا التدبير قاصر؛ كالوجهين السابقين في الملك، ليس كل شيء أملك التدبير فيه، وإنما أملك تدبير ما كان تحت حيازتي وملكي، وكذلك لا أملك تدبيره إلا على وفق الشرع الذي أباح لي هذا التدبير.

وحينئذ يتبين أن قولنا: «إن الله عز وجل منفرد بالخلق والملك والتدبير»: كلية

عامة مطلقة، لا يستثنى منها شيء، لأن كل ما أوردناه لا يعارض ما ثبت للّه عز وجل من ذلك.

القسم الثاني: توحيد الألوهية:

وهو إفراد الله عز وجل بالعبادة، بألا تكون عبداً لغير الله، لا تعبد ملكًا ولا نبيًّا ولا وليًّا ولا شيخًا ولا أمًا ولا أبًا، لا تعبد إلا الله وحده، فتُفرد الله عز وجل وحده بالتأله والتعبد، ولهذا يسمى: توحيد الألوهية، ويسمى: توحيد العبادة؛ فباعتبار إضافته إلى الله هو توحيد ألوهية، وباعتبار إضافته إلى العابد هو توحيد عبادة.

والعبادة مبنية على أمرين عظيمين: هما المحبة والتعظيم، الناتج عنهما: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠]. فبالمحبة تكون الرغبة، وبالتعظيم تكون الرهبة والخوف.

ولهذا كانت العبادة أوامر ونواهي: أوامر مبنية على الرغبة وطلب الوصول إلى الآمر، ونواهي مبنية على التعظيم والرهبة من هذا العظيم.

فإذا أحببت الله عز وجل؛ رغبت فيما عنده، ورغبت في الوصول إليه، وطلبت الطريق الموصل إليه، وقمت بطاعته على الوجه الأكمل، وإذا عظمته؛ خفت منه، كلما هممت بمعصية؛ استشعرت عظمة الخالق عز وجل، فنفرت ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ [يوسف: ٢٤]؛ فهذه من نعمة الله عليك؛ إذا هممت بمعصية، وجدت الله أمامك، فهبت وخفت وتباعدت عن المعصية؛ لأنك تعبد الله رغبةً ورهبةً.

فما معنى العبادة؟

العبادة: تطلق على أمرين، على الفعل والمفعول.

تطلق على الفعل الذي هو التعبد، فيقال: عبد الرجل ربه عبادة وتعبداً، وإطلاقها على التعبد من باب إطلاق اسم المصدر على المصدر، ونعرفها باعتبار إطلاقها على الفعل بأنها: التذلل لله عز وجل حبًّا وتعظيمًا، بفعل أوامره واجتناب

نواهيه، وكل من ذل لله عز بالله ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ ﴾ [المنافقون: ٨].

وتطلق على المفعول؛ أي: المتعبد به، وهي بهذا المعنى تُعَرَّف بما عرفها به شيخ الإسلام ابن تيمية؛ حيث قال ـ رحمه الله ـ: «العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة».

هذا الشيء الذي تعبدنا الله به يجب توحيد الله به، لا يصرف لغيره؛ كالصلاة والصيام والزكاة والحج والدعاء والنذر والخشية والتوكل... إلى غير ذلك من العبادات.

فإن قلت: ما هو الدليل على أن الله منفرد بالألوهية؟

فالجواب: هناك أدلة كثيرة، منها:

قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥] ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦].

وأيضًا قوله تعالى: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ ﴾ [آل عمران: ١٨]، لو لم يكن من فضل العلم إلا هذه المنقبة، حيث إن الله ما أخبر أن أحدًا شهد بألوهيته إلا أولو العلم، نسأل الله أن يجعلنا منهم: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ﴾ بالعدل، ثم قرر هذه الشهادة بقوله: ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ فهذا دليل واضح على أنه لا إله إلا الله عز وجل، «أشهد أن لا إله إلا الله» وأنتم تشهدون أن لا إله إلا الله.

هذه الشهادة الحق؛ إذا قال قائل: كيف تقرونها مع أن الله تعالى يثبت آلهة غيره؛ مثل قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ﴾ [القصص: ٨٨]، ومثل قوله: ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ ﴾ [المؤمنون: ١١٧]، ومثل قوله: ﴿ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ [هود: ١٠١]. ومثل قول إبراهيم: ﴿ أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴾ [الصافات: ٨٦]. إلى غير ذلك من الآيات؛ كيف تجمع بين هذا وبين الشهادة بأن لا إله إلا الله؟

فالجواب: أن ألوهية ما سوى الله ألوهية باطلة، مجرد تسمية، ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ [النجم: ٢٣]، فألوهيتها باطلة، وهي وإن عبدت وتأله إليها من ضل؛ فإنها ليست أهلاً لأن تعبد؛ فهي آلهة معبودة، لكنها آلهة باطلة، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ﴾ [لقمان: ٣٠].

وهذان النوعان من أنواع التوحيد لا يجحدهما ولا ينكرهما أحد من أهل القبلة المنتسبين إلى الإسلام؛ لأن الله تعالى موحد بالربوبية والألوهية، لكن حصل فيما بعد أن من الناس من ادعى ألوهية أحد من البشر؛ كغلاة الرافضة مثلا، الذين يقولون: إن عليًا إله؛ كما صنع زعيمهم عبد الله بن سبأ، حيث جاء إلى علي ابن أبي طالب رضي الله عنه، وقال له: أنت الله حقًا!

لكن عبد الله بن سبأ أصله يهودي دخل في دين الإسلام بدعوى التشيع لآل البيت؛ ليفسد على أهل الإسلام دينهم، كما قال ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، وقال: «إن هذا صنع كما صنع بولص حين دخل في دين النصارى ليفسد دين النصارى».

هذا الرجل عبد الله بن سبأ قال لعلى ابن أبي طالب رضي الله عنه: أنت الله حقًا! وعلى ابن أبي طالب لا يرضى أن أحداً ينزله فوق منزلته هو حتى إنه رضي الله عنه من إنصافه وعدله وعلمه وخبرته كان يقول على منبر الكوفة: «**خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر**»(١)، يعلن ذلك في الخُطبة، وقد تواتر النقل عنه بذلك رضي الله عنه.

والذي يقول هكذا ويقر بالفضل لأهله من البشر كيف يرضى أن يقول له قائل: إنك أنت الله؟! ولهذا عزرهم أبشع تعزير؛ أمر بالأخاديد فخدت، ثم ملئت حطبًا، وأوقدت، ثم أتى بهؤلاء فقذفهم في النار وأحرقهم بها؛ لأن فريتهم عظيمة -

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (١/ ١١٠) والطبراني في «الأوسط» (٩٩٦).

والعياذ بالله ـ وليست هينة، ويقال: إن عبد الله بن سبأ هرب ولم يمسكوه. المهم أن عليَّ ابن أبي طالب رضي الله عنه أحرق السبئية بالنار؛ لأنهم ادعوا فيه الألوهية.

فنقول: كل من كان من أهل القبلة لا ينكرون هذين النوعين من التوحيد، وهما: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وإن كان يوجد في بعض أهل البدع من يؤله أحداً من البشر.

لكن الذي كثر فيه النزاع بين أهل القبلة هو:

القسم الثالث وهو توحيد الأسماء والصفات:

هذا هو الذي كثر فيه الخوض، فانقسم الناس فيه إلىٰ ثلاثة أقسام، وهم: ممثل، ومعطل، ومعتدل، والمعطل: إما مكذب، أو محرف.

وأول بدعة حدثت في هذه الأمة هي بدعة الخوارج؛ لأن زعيمهم خرج علىٰ النبي ﷺ، وهو ذو الخويصرة من بني تميم، حين قسم النبي ﷺ ذهيبة جاءت، فقسمها بين الناس، فقال له هذا الرجل: يا محمد! اعدل![1] فكان هذا أول خروج خُرج به علىٰ الشريعة الإسلامية، ثم عظمت فتنتهم في أواخر خلافة عثمان وفي الفتنة بين علي ومعاوية، فكفَّروا المسلمين، واستحلوا دماءهم.

ثم حدثت بدعة القدرية مَجُوسي هذه الأمة[2]، الذين قالوا: إن الله سبحانه وتعالىٰ لم يقدِّر أفعال العباد، وليست داخلة تحت مشيئته، وليست مخلوقة له، بل كان زعماؤهم وغلاتهم يقولون: إنها غير معلومة لله، ولا مكتوبة في اللوح المحفوظ، وأن الله لا يعلم بما يصنع الناس؛ إلا إذا وقع ذلك، ويقولون: إن الأمر

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٩٣٣) ومسلم (١٠٦٤) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) حسن: أخرجه أبو داود (٤٦٩١) والحاكم في «المستدرك» (١/ ١٥٩) والبيهقي في «السنن» (٢٠٦٥٨) من حديث عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما.

قال الحاكم: «هذا حديث صحيح علىٰ شرط الشيخين إن صحي سماع أبي حازم من ابن عمر ولم يخرجاه.

والحديث حسنه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٤٤٤٢).

أنف؛ أي: مستأنف، وهؤلاء أدركوا آخر عصر الصحابة؛ فقد أدركوا زمن عبد الله ابن عمر رضي الله عنه وعبادة بن الصامت وجماعة من الصحابة، لكنه في أواخر عصر الصحابة.

ثم حدثت بدعة الإرجاء، وأدركت زمن كثير من التابعين، والمرجئة هم الذين يقولون: إنه لا تضر مع الإيمان معصية! أنت مؤمن؟ تقول: نعم. يقول لك: لا تضرك المعصية مع الإيمان، تزني، وتسرق، وتشرب الخمر، وتقتل، ما دُمت مؤمنًا، فأنت مؤمن كامل الإيمان، وإن فعلت كل معصية!

لكن شيخ الإسلام ابن تيمية قال: إن كلام القدرية والمرجئة حين رده بقايا الصحابة كان في الطاعة والمعصية والمؤمن والفاسق، لم يتكلموا في ربهم وصفاته.

فجاء قوم من الأذكياء! ممن يدعون أن العقل مقدم على الوحي، فقالوا قولا بين القولين ـ قول المرجئة وقول الخوارج ـ قالوا: الذي يفعل الكبيرة ليس بمؤمن كما قاله المرجئة، وليس بكافر كما قاله الخوارج، بل هو في منزلة بين منزلتين؛ كرجل سافر من مدينة إلى أخرى، فصار في أثناء الطريق؛ فلا هو في مدينته، ولا هو في التي سافر إليها، بل في منزلة بين منزلتين، هذا في أحكام الدنيا، أما في الآخرة؛ فهو مخلد في النار؛ فهم يوافقون الخوارج في الآخرة، لكن في الدنيا يخالفونهم.

ظهرت هذه البدعة وانتشرت، ثم حدثت بدعة الظلمة والجهمة، وهي بدعة جهم ابن صفوان وأتباعه، ويسمون الجهمية، حدثت هذه البدعة، وهي لا تتعلق بمسألة الأسماء، والأحكام، مؤمن أم كافر أم فاسق، أم في منزلة بين منزلتين، بل تتعلق بذات الخالق.

انظر كيف تدرجت البدع في صدر الإسلام، حتى وصلوا إلى الخالق جل وعلا، وجعلوا الخالق بمنزلة المخلوق، يقولون كما شاءوا، فيقولون: هذا ثابت لله، وهذا غير ثابت، هذا يقبل العقل أن يتصف الله به، وهذا لا يقبل العقل أن يتصف به، فحدثت بدعة الجهمية والمعتزلة، فانقسموا في أسماء الله وصفاته إلى أقسام متعددة:

١ـ قسم قالوا: لا يجوز أبدًا أن نصف الله لا بوجود ولا بعدم؛ لأنه إن وصف بالوجود؛ أشبه الموجودات، وإن وصف بالعدم، أشبه المعدومات، وعليه يجب نفي الوجود والعدم عنه، وما ذهبوا إليه؛ فهو تشبيه للخالق بالممتنعات والمستحيلات؛ لأن تقابل العدم والوجود تقابل نقيضين، والنقيضان لا يجتمعان ولا يرتفعان، وكل عقول بني آدم تنكر هذا الشيء ولا تقبله، فانظر كيف فروا من شيء فوقعوا في أشر منه!

٢ـ وقسم آخر قالوا: نصفه بالنفي ولا نصفه بالإثبات، يعني: أنهم يجوِّزون أن تسلب عن الله سبحانه وتعالى الصفات، لكن لا تُثبت، يعني: لا نقول: هو حي، وإنما نقول: ليس بميت! ولا نقول: عليم، بل نقول: ليس بجاهل.. وهكذا. قالوا: لو أثبت له شيئًا، شبهته بالموجودات؛ لأنه على زعمهم كل الأشياء الموجودة متشابهة، فأنت لا تثبت له شيئًا، وأما النفي، فهو عدم، مع أن الموجود في الكتاب والسنة في صفات الله من الإثبات أكثر من النفي بكثير.

قيل لهم: إن الله قال عن نفسه: سميع بصير!

قالوا: هذا من باب الإضافات، بمعنى: نُسب إليه السمع، لا لأنه متصف به، ولكن لأن له مخلوقًا يسمع، فهو من باب الإضافات، فـ(سميع)، يعني: ليس له سمع، لكن له مسموع. وجاءت طائفة ثانية، قالوا: هذه الأوصاف لمخلوقاته، وليست له، أما هو، فلا يثبت له صفة.

٣ـ وقسم ثالث قالوا: يثبت له الأسماء دون الصفات، وهؤلاء هم المعتزلة، أثبتوا أسماء الله، قالوا: إن الله سميع بصير قدير عليم حكيم... لكن قدير بلا قدرة، سميع بلا سمع، بصير بلا بصر، عليم بلا علم، حكيم بلا حكمة.

٤ـ وقسم رابع قالوا: نثبت له الأسماء حقيقة، ونثبت له صفات معينة دل عليها العقل، وننكر الباقي، نثبت له سبع صفات فقط، والباقي ننكره تحريفًا لا تكذيبًا؛ لأنهم لو أنكروه تكذيبًا، كفروا، لكن ينكرونه تحريفًا، وهو ما يدَّعون أنه «تأويل».

الصفات السبع هي مجموعة في قوله:

لَـهُ الْحَيَـاةُ وَالْكَلامُ وَالْبَصَر مع إرادَةٌ وَعِلْمٌ وَاقْتَدَرْ

فهذه الصفات نثبتها؛ لأن العقل دل عليها، وبقية الصفات ما دل عليها العقل، فنثبت ما دل عليه العقل، وننكر ما لم يدل عليه العقل، وهؤلاء هم الأشاعرة؛ آمنوا بالبعض، وأنكروا البعض.

فهذه أقسام التعطيل في الأسماء والصفات، وكلها متفرعة من بدعة الجهم، **«ومن سن في الإسلام سنة سيئة؛ فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة»**(١).

فالحاصل: أنكم أيها الأخوة لو طالعتم في كتب القوم التي تعتني بجمع أقاويل الناس في هذا الأمر؛ لرأيتم العجب العجاب، الذي تقولون: كيف يتفوه عاقل - فضلا عن مؤمن - بمثل هذا الكلام؟! ولكن. . . . من لم يجعل الله له نوراً فما له من نور! فالذي أعمى الله بصيرته كالذي أعمى الله بصره، فكما أن أعمى البصر لو وقف أمام الشمس التي تكسر نور البصر لم يرها، فكذلك من أعمى الله بصيرته لو وقف أمام أنوار الحق ما رآها والعياذ بالله.

ولهذا ينبغي لنا دائمًا أن نسأل الله تعالى الثبات على الأمر، وأن لا يُزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا؛ لأن الأمر خطير، والشيطان يدخل على ابن آدم من كل صوب ومن كل وجه، ويشككه في عقيدته وفي دينه وفي كتاب الله وسنة رسوله؛ فهذه في الحقيقة البدع التي انتشرت في الأمة الإسلامية.

ولكن - ولله الحمد - ما ابتدع أحدٌ بدعة؛ إلا قيض الله له بمنه وكرمه من يبين هذه البدعة، ويدحضها بالحق؟ وهذا من تمام مدلول قول الله تبارك وتعالى: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾ [الحجر: ٩]، هذا من حفظ الله لهذا الذكر، وهذا أيضًا هو مقتضى حكمة الله عز وجل؛ لأن الله تعالى جعل محمداً ﷺ خاتم النبيين،

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٠١٧) والنسائي (٢٣٢٥) والبيهقي (٧٥٣٠) والطبراني في «الكبير» (٢٣٧٢) من حديث جرير بن عبد الله - رضي الله عنه.

والرسالة لا بد أن تبقى في الأرض، وإلا لكان للناس حجة على الله، وإذا كانت الرسالة لا بد أن تبقى في الأرض، لزم أن يقيض الله عز وجل، بمقتضى حكمته عند كل بدعة من يبينها ويكشف عورها، وهذا هو الحاصل، ولهذا أقول لكم دائمًا: احرصوا على العلم؛ لأننا في هذا البلد في مستقبل إذا لم نتسلح بالعلم المبني على الكتاب والسنة، فيوشك أن يحل بنا ما حل في غيرنا من البلاد الإسلامية، وهذا البلد الآن هي التي يركز عليه أعداء الإسلام ويسلطون عليه سهامهم، من أجل أن يضلوا أهلها، فلذلك تسلحوا بالعلم، حتى تكونوا على بينة من أمر دينكم، وحتى تكونوا مجاهدين بألسنتكم وأقلامكم لأعداء الله سبحانه وتعالى.

وكل هذه البدع انتشرت بعد الصحابة، فالصحابة رضي الله عنهم لم يكونوا يبحثون في هذه الأمور؛ لأنهم يتلقون الكتاب والسنة على ظاهرهما وعلى ما تقتضيه الفطرة، والفطرة السليمة سليمة، لكن أتى هؤلاء المبتدعون، فابتدعوا في دين الله تعالى ما ابتدعوا: إما لقلة علمهم، أو لقصور فهمهم، أو لسوء قصدهم، فأفسدوا الدنيا بهذه البدع التي ابتدعوها، ولكن كما قلنا: إن الله تعالى بحكمته وحمده ومنته وفضله ما من بدعة خرجت إلا قيض الله لها من يدحضها ويبينها.

ومن جملة الذين بينوا البدع وقاموا قيامًا تامًّا بدحضها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، وأسأل الله لي ولكم أن يجمعنا به في جنات النعيم.

هذا الرجل الذي نفع الله بما آتاه من فضله ومنَّ على الأمة بمثله، ألف هذه «العقيدة» كما قلت إجابة لطلب أحد قضاة (واسط) الذي شكا إليه ما كان الناس عليه من البدع وطلب منه أن يؤلف هذه «العقيدة» فألفها.

❊ ❊ ❊

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الشيخ
صالح بن عبد الله الفوزان

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد:

فهذا شرح مختصر على العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية جمعته من المصادر التالية:

١ ـ «الروضة الندية شرح العقيدة الواسطية» للشيخ زيد بن عبد العزيز بن فياض.

٢ ـ «التنبيهات السنية على العقيدة الواسطية» للشيخ عبد العزيز بن ناصر الرشيد.

٣ ـ «التنبيهات اللطيفة فيما احتوت عليه الواسطية من المباحث المنيفة» للشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي.

٤ ـ نقلت من فوائد علقتها على نسختي وقت الطلب.

٥ ـ وفيما يتعلق بتفسير الآيات نقلت من كتب التفسير كـ«فتح القدير» للإمام محمد بن علي الشوكاني.

و«تفسير القرآن» العظيم للشيخ إسماعيل بن كثير، وكانت جامعة الإمام محمد ابن سعود الإسلامية قد طبعته عدة مرات ووزعته على طلبة المرحلة الثانوية.

فشكر الله القائمين عليها وزادهم من الخير والتوفيق لما فيه صلاح المسلمين.

كما إني أسأل الله أن ينفع به ويجعله مؤديًا للمطلوب من توضيح هذه العقيدة العظيمة. وأن يغفر لي ما وقع مني من خطأ، ويثيبني على ما فيه من صواب إنه سميع مجيب.

وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه

والحمد لله رب العالمين

صالح بن عبد الله الفوزان

ترجمة شيخ الإسلام
ابن تيمية

قال الإمام الذهبي ـ رحمه الله ـ:

ابن تيمية: الشيخ، الإمام، العالم، المُفَسِّر، الفقيه، المجتهد، الحافظ، المُحَدِّث شيخ الإسلام، نادرة العصر، ذو التصانيف الباهِرة، والذكاء المُفْرط، تقي الدين أبو العباس أحمد ابن العالم المُفْتي شهاب الدين عبد الحليم ابن الإمام شيخ الإسلام مجد الدين أبي البركات عبد السلام مؤلف «الأحكام» ابن عبد الله ابن أبي القاسم الحَرَّاني ابن تيمية، وهو لقب لجده الأعلىٰ.

مولده في عاشر ربيع الأول سنة إحدىٰ وستين وستمائة بِحَرَّان.

وتَحوَّل به أبوه وأقاربه إلىٰ دمشق في سنة سبع وستين عند جور التتار منهزمين في الليل يجرون الذرية والكتب علىٰ عَجَلَة، فإن العدو ما تركوا في البلد دواب سوىٰ بقر الحرث. فَسَمِعَ من ابن عبد الدائم، وابن أبي اليُسْر، والكمال بن عَبْد، وابن أبي الخير، وابن الصَّيْرَفي، والشيخ شمس الدين، والقاسم الإربلي، وابن علان، وخلق كثير، وأكثر، وبالَغَ، وقرأ بنفسه علىٰ جماعة، وانتخب ونَسَخَ عدة أجزاء، ونظر في الرجال والعلل، وصار من أئمة النقد، ومن علماء الأثر مع التَّدَيُّن والنَّبالة والذِّكر والصِّيانة، ثُمَّ أقبل علىٰ الفقه، ودقائقه، وقواعده، وحِججه، والإجماع، والاختلاف، حتىٰ كان يُقضىٰ منه العجب، إذا ذكر مسألة من مسائِل الخلاف، ثُمَّ يستدل، ويُرجح، ويجتهد، وحُقَّ له ذلك.

ولقد سارت بتصانيفه الرُّكبان في فنون من العلم وألوان، لعل تواليفه وفتاويه في الأصول والفروع، والزهد واليقين، والتوكل، والإخلاص، وغير ذلك، تبلغ ثلاثمائة مجلد، لا بل أكثر. وكان قَوَّالاً بالحق، نَهَّاءً عن المنكر، لا تأخذه في الله لومة لائم، ذا سطوة وإقدام، وعدم مداراة الأغيار.

وأصحابه وأعداؤه خاضعون لعلمه، مقرون بسرعة فهمه، وأنه بحر لا ساحل

له، وكنز لا نظير له، وأن جُودَه حاتمي، وشجاعته خالديَّة، ولكن قد ينقمون عليه أخلاقًا، وأفعالاً، منصفهم فيها مأجور، ومقتصدهم فيها معذور، وظالمهم فيها مأزور، وغاليهم مغرور، وإلىٰ الله ترجع الأمور. وكل أحد يؤخذ من قوله ويترك، والكمال للرسل، والحجة في الإجماع، فرحم الله امرأً تكلم في العلماء بعلم، أو صمت بحلم، وأمعن في مضايق أقاويلهم بِتَؤُدة وفهم، ثُمَّ استغفر لهم، ووسع نطاق المعذرة، وإلا فهو لا يدري، ولا يدري أنه لا يدري.

وإن أنت عذرت كبار الأئمة في معضلاتهم، ولا تعذر ابن تيمية في مفرداته، فقد أقررت علىٰ نفسك بالهوىٰ، وعدم الإنصاف، وإن قلت لا أعذره لأنه كافر، عدو الله تعالىٰ ورسوله، قال لك خَلْق من أهل العلم والدِّين: ما علمناه والله إلا مؤمنًا، محافظًا علىٰ الصلاة، والوضوء، وصوم رمضان، معظمًا للشريعة ظاهرًا وباطنًا، لا يؤتىٰ من سوء فهم، بل له الذكاء المفرط، ولا من قلة علم فإنه بحر زخار، بصير بالكتاب والسنة، عديم النظير في ذلك، ولا هو بمتلاعب بالدين، فلو كان كذلك لكان أسرع شيء إلىٰ مداهنة خصومه وموافقتهم ومنافقتهم، ولا هو يتفرد بمسائل بالتَّشهي، ولا يفتي بما اتفق.

وكان الشيخ أبيض، أسود الشعر واللحية، قليل الشيب، شعره إلىٰ شحمة أُذنيه، كأنَّ عينيه لسانان ناطقان، رَبْعَةٌ من الرِّجال، بعيد ما بين المنكبين، جهوري الصوت، فصيحًا، سريع القراءة، تعتريه حِدَّةٌ، ثُمَّ يقهرها بحلم وصفح، وإليه كان المنتهىٰ في فرط الشجاعة والسماحة، وقوة الذكاء، ولم أر مثله في ابتهاله، واستغاثته بالله تعالىٰ، وكثرة توجهه. وقد تعبت بين الفريقين، فأنا عند مُحِبِّه مُقَصِّر، وعند عَدُوِّه مُسْرِف مُكْثِر، كلا والله. انتهىٰ كلام الإمام الذهبي.

وأما تواضعه: فكان يتواضع للكبير والصغير والجليل والحقير، وكان يدني الفقير الصالح، ويكرمه ويؤنسه ويباسطه بحديثه: زيادة علىٰ مثله من الأغنياء. وكان لا يسأم ممن يستفتيه ويسأله بل يقبل عليه ببشاشة وجه ولين عريكة ويقف معه حتىٰ يكون هو الذي يفارقه، ولا يحرجه، بل يجيبه ويفهمه.

وفاة الشيخ ـ رحمه الله:

توفي الشيخ سنة (٧٢٨) هجريًا عن عُمُرٍ يقارب (٦٧) سنة في سجن القلعة بالشام، وقد كان مدة إقامته في السجن يختم القرآن في كل عشرة أيام، وختم هنالك (٨١) ختمة، انتهىٰ في آخره عند قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر٥٤: ٥٥]، وعندها فاضت روحه إلىٰ خالقها.

وصلىٰ الناس عليه، وقد كانوا قرابة (٥٠) ألف، فلم يُسْمع بجنازة مثلها إلا جنازة الإمام أحمد بن حنبل.

وصُلِّي عليه صلاة الغائب في غالب البلاد القريبة والبعيدة حتىٰ في اليمن والصين، وأخبر المسافرون بأنه نودي بأقصىٰ الصين للصلاة عليه يوم جمعة: الصلاة علىٰ ترجمان القرآن.

❊ ❊ ❊

بعض المراثي
التي رُثي فيها شيخ الإسلام رحمه الله

قال الدقوقي:

مَضَى عالمُ الدنيا الذي عَزَّ فقدُهُ ... وأضرمَ نارًا في الجَوانحِ بعدُهُ
مَضَى الزاهدُ الندبُ ابن تيمية الذي ... أقَرَّ لهُ بالعلم والفَضْلِ ضِدُّهُ
يحنُّ إليه في النهار صيامه ... ويشتَاقُهُ في ظلمة الليل وردُهُ
مَضَى الطاهر الأثوابِ ذو العلم والحجَى ... ولم يَتَدنَّس بالمآثم بردُهُ
حَمَى نفسه الدنيا وعفَّ تكَرُّمًا ... ولما يُصَعِّر للدَّنيَّات خدَّهُ
وما مات مَن تَبقَى التَّصَانيفُ بعده ... مُخَلَّدَة والعلم والفضل ولدُهُ
وكان يقول الحق والحق حُلوُهُ ... مَريرٌ لِهَذَا كان يكرَهُ ردُّهُ
وفي الله لم تأخُذهُ لومةُ لائمٍ ... ولا خَاف من غُمر تَشَدَّد حردُهُ
ولم تُلهِه الدنيا وزُخرُفُهَا الذي ... يروقُ لمن لم يُؤنسِ الدَّهرَ رُشدَهُ
وكان إمامًا يُستَضَاءُ بِنُورِهِ ... وبحرًا من الأفضال قد غيض عدُّهُ
تَركتَ لَهُم دُنيَاهُم تركَ عَالِمٍ ... علا قَدرُهُ عند الإلهِ ومَجدُهُ

وقال الخياط الجوخي:

تنَكَّرت الدُّنيا عَلَى كُل عَارف ... رأى منك مَأهُولَ المنازل بَلقَعَا
فيا أحمَدُ المَحمُود قد كُنت للهُدَى ... مَنَارًا وللشَّرعِ الحَنِيفي مَشرَعَا
لَقَد كُنتَ عن شَر بَطيئًا ووَانيًا ... وفي طَلَب الخيرات عَجلانَ مُسرعَا
وللحُكم طَودًا راسِخًا باذِخَ الذُّرَى ... وللجُود والإحسانَ والعلم منبَعَا
ورُكنًا لدين الله حين تَهَدَّمَت ... قَواعِدُهُ منه.وَهَى وتَضَعْضَعَا

فكم مـن طريق في المبـاحـث مُـبْـهَمٌ بإيضَـاحـه أضْحَى لِسَاريه مَهْيَعَا
تَوَلَّى عن الـدنيـا حَـمـيـدًا ولـم يَكُن لزُخْـرُفـهَـا المذمُـوم يُبْـدي تَطَلُّعَـا
وعَـاشَ إلى أن مـاتَ لم يُـعطِ نَفسَـهُ بتـأميـلِ مـا في دار دنـيـاه مَطمَـعَـا

ومن مرثية لبرهان الدين:

لفقـدِ الفتى التـيمي تجـري المَدامعُ وتَصدَعُ بالنَّوحِ الحَـمَـامُ الصَّـوادِعُ
علـى مـاجِـد جلَّت مـآثِرُه التي لهـا في قُلُوبِ العـارفين مَـواقِعُ
عُلُـوم وأخـلاق كِـرَام وسُـؤْدُد وجُـود ومَـجـد باذخٌ وتَـوَاضُعُ
وزُهد وإيـثـارٌ وتقـوى وعِـفَّـةٌ وتلك سَجَايا حَازَهَا وَهُوَ يَافعُ
هو الحَبـرُ أمـا المُشكلات فَحلُّهَا يَسِيـر لَديه وَهُوَ في الحَلِّ بارعُ
تَصَانيـفُـهُ في كُلِّ علـم بَديعَـة وفِيـهـا لأهل الابتـدَاعِ بـدائعُ
ولم يَبـتَغِ شـيـئًا سوَى وجـه رَبِّه وفي زُخْـرُف الـدُّنيـا عَـدَتْهُ المطامعُ
فـيـا فَـوزَ من يَحـوي تَصَانيفَهُ ولا يَـزَالُ لهـا في كُلِّ وَقـت يُطالـعُ
عُلُومًـا لمن يَبـغِي النَّجَـاةَ اعتَنَى بها وللناسِ في تلـك العُلُومِ مَنَافِعُ

ومن مرثية الشيخ ابن خضْر:

لَقَـد عَـذَّبُوا قَلبِي بنَارِ الأحـبَّـة وذابَ فُؤادي مـن فِـرَاقِ الأحَـبَّـة
فـقـدتُ إمـامًا كـانَ بالعلم عَـامِلاً وكَـانَ حَـقيـقًـا قَامـعًا كـل بدعَـة
تَزَهَّـدُ في كُل الـوُجُـود وغَـيـره يدورُ عـلى الـدنيـا بنفس دَنِيَّـة
ألا يا تَـقِي الديـن يا فَـردَ عَـصـرِه بَرُوقُك قَـد لاحَت كَشَمس مُضيئَة
ظَهَـرْتَ بأنواعِ العُلُومِ وجنسـهَـا وسَـارَت بهـا الرُّكبـانُ في كُل بلدة
فـأوْضَحتَ إشْكَالاً وبينتَ مُبـهَـمًا وأبديـتَ أسْـرارًا بنفس علـيـمـة
وكَم غُصتَ في بحرِ المَعَارفِ غَوصَـةً ولَجَجْتَ فـاسـتـخـرجتَ كل يَتيـمَة

ظَهَرتَ بإحسان وحُسن سَمَاحَة ودين وتوحيد وكُل فضيلة
صَبَرتَ على الأحكام طوعًا وطاعةً وذُقتَ من الآلام طَعمَ البَليّة
وكُنتَ حَمُولاً للنَّوائب كُلِّها صَبُورًا على الأقدار في دار غُربة
لقد عشتَ محبوبًا ومُتَّ مُكرمًا عَليْكَ من الرَّحمن أزْكَى تَحيَّة
وبعدُ فلله المَحَامِدُ كُلُّها عَلَى مَا أرانا مِن وُضُوحِ المحجة

❊ ❊ ❊

ترجمة العلامة الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السّعدي

هو الشيخ أبو عبد الله عبد الرحمن بن ناصر بن ناصر بن عبد الله بن ناصر آل سعدي من قبيلة بني تميم.

مولده ونشأته:

ولد رحمه الله في بلدة عنيزة من القصيم في ١٢ من شهر المحرم عام ١٣٠٧هـ، وتوفيت والدته وهو صغير له من العمر أربع سنوات، وتوفي والده وله من العمر سبع سنوات.

أتقن حفظ القرآن وتجويده ولم يتجاوز الأحد عشر عامًا ثم اشتغل بالدراسة وطلب العلم على علماء بلده وعلى من قدم إلى بلده من العلماء.

من أشهر مشايخه:

الشيخ إبراهيم بن محمد بن حاسر، والشيخ محمد بن عبد الكريم الشبل، والشيخ صالح بن عثمان قاضي عنيزة، والشيخ محمد الشنقيطي نزيل الحجاز، وغيرهم.

ولقد صدق من قال إن أعظم مشايخه: شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم؛ لحرصه وإقباله على مؤلفاتهما.

كان على جانب كبير من الأخلاق الفاضلة متواضعًا جم التواضع للصغير والكبير وكان يتكلم مع كل إنسان بما يصلح له ويصلحه، وكان زاهدًا معرضًا عن مفاتن الدنيا ومباهج الحياة لا يشارك الناس فيما يهتمون به من المناصب والجاه والنفوذ.

نبذة من أخلاق المؤلف ـ رحمه اللَّه ـ :

كان على جانب كبير من الأخلاق الفاضلة، متواضعًا للصغير والكبير والغني والفقير، وكان يقضي بعض وقته في الاجتماع بمن يرغب حضوره فيكون مجلسهم ناديًا علميًا، حيث أنه يحرص أن يحتوي على البحوث العلمية والاجتماعية، ويحصل لأهل المجلس فوائد عظمى من هذه البحوث النافعة التي يشغل وقتهم فيها، فتنقلب مجالسهم العادية عبادة ومجالس علمية، ويتكلم كل فرد بما يناسبه، ويبحث معه في المواضيع النافعة له دنيا وأُخرى، وكثيراً يحل المشاكل برضاء الطرفين في الصلح العادل.

وكان ذا شفقة على الفقراء والمساكين والغرباء مادًا يد المساعدة لهم بحسب قدرته، ويستعطف لهم المحسنين ممن يعرف عنهم حب الخير في المناسبات، وكان على جانب كبير من الأدب والعفة والنزاهة والحزم في كل أعماله.

وكان من أحسن الناس تعليمًا وأبلغهم تفهيمًا، مرتبًا لأوقات التعليم، ويعمل المناظرات بين تلاميذه المحصلين لشحذ أفكارهم، ويجعل الجعل لمن يحفظ بعض المتون، وكل من حفظه أُعطي الجعل ولا يحرم منه أحداً.

ويتشاور مع تلاميذه في اختيار الأنفع من كتب الدراسة، ويرجح ما عليه رغبة أكثرهم ومع التساوذي يكون هو الحكم، ولا يمل التلاميذ من طول وقت الدراسة إذا طال؛ لأنهم يتلذذون من مجالسته، ولذا حصل له من التلاميذ المحصلين عدد كثير[١].

مصنفاته:

تفسير القرآن ثمان مجلدات، وحاشية فقهية، وديوان خطب، والقواعد الحسان، وتنزيه الدين؛ رداً على القصيمي، والحق الواضح المبين، وبهجة

---

(١) نقلاً من مقدمة «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان».

قلوب الأبرار، والرياض الناضرة، وغير ذلك.

لم يزل الشيخ رحمه الله على حالة مرضية وسيرة محمودة حتى توفاه الله في ثاني عشرين جمادى الثانية سنة ١٣٧٦هـ.

فرحمه الله ورضي عنه وبلغه منازل الصديقين في أعلى عليين، آمين.





ترجمة العلامة الشيخ عبد العزيز بن باز

هو عبدالعزيز بن عبد الله بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله آل باز .

مولده ونشأته:

ولد بمدينة الرياض في ذي الحجة سنة ١٣٣٠هـ. وكان بصيراً في أول الدراسة ثم أصابه المرض في عينه عام ١٣٤٦هـ، وضعف بصره بسبب ذلك ثم ذهب بالكلية في مستهل محرم ١٣٥٠هـ.

بدأ الدراسة منذ الصغر وحفظ القرآن قبل البلوغ ثم بدأ في تلقي العلوم الشرعية والعربية على أيدي كثير من علماء الرياض ومن أشهرهم: سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف آل الشيخ يقول الشيخ عنه: «لازمت حلقاته نحو من عشر سنوات وتلقيت عنه جميع العلوم الشرعية ابتداء من سنة ١٣٤٧هـ إلى سنة ١٣٥٧هـ.

يقول الشيخ ابن باز عن نفسه:

مذهبي في الفقه هو مذهب الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله وليس على سبيل التقليد ولكن على سبيل الاتباع في الأصول التي سار عليها، أما في مسائل الخلاف فمنهجي فيها هو ترجيح ما يقتضي الدليل ترجيحه، والفتوى بذلك سواء وافق مذهب الحنابلة أم خالفه، لأن الحق أحق بالاتباع.

مناصبه التي تولاها:

تولى أعمالاً عديدة ومناصب بارزة آخرها مفتي المملكة العربية السعودية،

وله عضوية في كثير من المجالس العلمية والإسلامية .

مصنفاته:

الفوائد الجلية في المباحث الفرضية، والتحقيق والإيضاح لكثير من مسائل الحج والعمرة، ونقد القومية العربية .

كما له عدد وفير من الفتاوىٰ المتنوعة والتي طبعت في مجلدات ورسائل مرارًا .

* * *

ترجمة فضيلة الشيخ ابن عثيمين

نسبه:

هو أبو عبد الله محمد بن صالح بن محمد بن عثيمين الوهيبي التميمي.

مولده:

ولد في مدينة عنيزة في السابع والعشرين من شهر رمضان المبارك عام ١٣٤٧هـ.

نشأته:

قرأ القرآن الكريم على جده من جهة أمه عبد الرحمن بن سليمان آل دامغ - رحمه اللَّه - فحفظه، ثم اتجه إلى طلب العلم فتعلم الخط والحساب وبعض فنون الآداب، وكان الشيخ عبدالرحمن السعدي - رحمه اللَّه - قد أقام اثنين من طلبة العلم عنده ليدرِّسا للطلبة الصغار أحدهما الشيخ علي الصالحي، والثاني: الشيخ محمد بن عبد العزيز المطوع - رحمه اللَّه -، قرأ عليه «مختصر العقيدة الواسطية» للشيخ عبد الرحمن السعدي، و«منهاج السالكين» في الفقه للشيخ عبد الرحمن أيضًا، والأَجْرُومِيَّة والأَلْفِيَّة.

وقرأ على الشيخ عبد الرحمن بن علي بن عودان في الفرائض والفقه.

وقرأ على الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي الذي يعتبر شيخه الأول حيث لازمه وقرأ عليه التوحيد والتفسير والحديث والفقه وأصول الفقه والفرائض ومصطلح الحديث والنحو والصرف.

وكانت لفضيلة الشيخ منزلة عظيمة عند شيخه - رحمه اللَّه - فعندما انتقل والد الشيخ محمد - رحمه اللَّه - إلىٰ الرياض إبان أول تطوره رغب في أن ينتقل معه ولده - الشيخ رحمه الله - فكتب له الشيخ عبد الرحمن السعدي، رحمه الله «إن هذا لا يمكن نريد محمدًا أن يمكث هنا حتىٰ يستفيد».

ويقول فضيلة الشيخ رحمه الله «إنني تأثرت به كثيرًا في طريقة التدريس وعرض العلم وتقريبه للطلبة بالأمثلة والمعاني، وكذلك أيضًا تأثرت به من ناحية الأخلاق لأن الشيخ عبد الرحمن رحمه الله كان علىٰ جانب كبير من الأخلاق الفاضلة، وكان رحمه الله علىٰ قدر كبير في العلم والعبادة، وكان يمازح الصغير، ويضحك إلىٰ الكبير، وهو من أحسن من رأيتُ أخلاقًا».

قرأ علىٰ سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز حيث يعتبر شيخه الثاني، فابتدأ عليه قراءة «صحيح البخاري»، وبعض رسائل شيخ الإسلام ابن تيمية وبعض الكتب الفقهية.

يقول الشيخ: «تأثرت بالشيخ عبد العزيز بن باز - رحمه الله - من جهة العناية بالحديث، وتأثرت به من جهة الأخلاق أيضًا وبسط نفسه للناس».

وفي عام ١٣٧١ هـ جلس للتدريس في الجامع، ولما فتحت المعاهد العلمية في الرياض التحق بها عام ١٣٧٢ هـ.

يقول الشيخ رحمه الله: «دخلت المعهد العلمي من السنة الثانية، والتحقت به بمشورة من الشيخ علي الصالحي، وبعد أن استأذنت من الشيخ عبد الرحمن السعدي عليه رحمة الله، وكان المعهد العلمي في ذلك الوقت ينقسم إلىٰ قسمين خاص وعام، فكنت في القسم الخاص، وكان في ذلك الوقت أيضًا من

شاء أن يقفز - كما يعبرون - بمعنى أنه يدرس السنة المستقبلة له في أثناء الإجازة ثم يختبرها في أول العام الثاني، فإذا نجح انتقل إلى السنة التي بعدها وبهذا اختصرتُ الزمن» اهـ.

وبعد سنتين تخرج وعُيّن مدرسًا في معهد عنيزة العلمي مع مواصلة الدراسة انتسابًا في كلية الشريعة ومواصلة طلب العلم على يد الشيخ عبد الرحمن السعدي.

ولما توفي فضيلة الشيخ عبد الرحمن رحمه الله تولى إمامة الجامع الكبير بعنيزة والتدريس في مكتبة عنيزة الوطنية بالإضافة إلى التدريس في المعهد العلمي ثم انتقل إلى التدريس في كليتي الشريعة وأصول الدين بفرع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالقصيم حتى الآن، بالإضافة إلى عضوية هيئة كبار العلماء بالمملكة العربية السعودية، ولفضيلة الشيخ رحمه الله نشاط كبير في الدعوة إلى الله عز وجل وتبصير الدعاة في كل مكان وله جهود مشكورة في هذا المجال.

والجدير بالذكر أن سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله قد عرض بل ألحَّ على فضيلة الشيخ في تولي القضاء، بل أصدر قراره بتعيينه رحمه الله تعالى رئيسًا للمحكمة الشرعيّة بالإحساء فطلب منه الإعفاء، وبعد مراجعات واتصال شخصي من فضيلة الشيخ سمح رحمه الله تعالى بإعفائه من منصب القضاء.

مؤلفاته: له - رحمه الله تعالى - مؤلفات كثيرة تبلغ (٤٠) ما بين كتاب ورسالة.

فمن هذه المؤلفات:

١ - فتح رب البرية بتلخيص الحموية، وهو أول كتاب للشيخ، كتبه عام ١٣٨٠هـ.

٢ - مجالس شهر رمضان.

٣ - المنهج لمريد العمرة والحج.

٤ - تسهيل الفرائض.

٥ - شرح لمعة الاعتقاد.

٦ - شرح العقيدة الواسطية.

٧ - أقسام المداينة.

٨ - الضياء اللامع من الخطب الجوامع.

٩ - المجموع الثمين من فتاوىٰ ابن عثيمين.

١٠ - أصول التفسير.

١١ - إزالة الستار عن الجواب المختار.

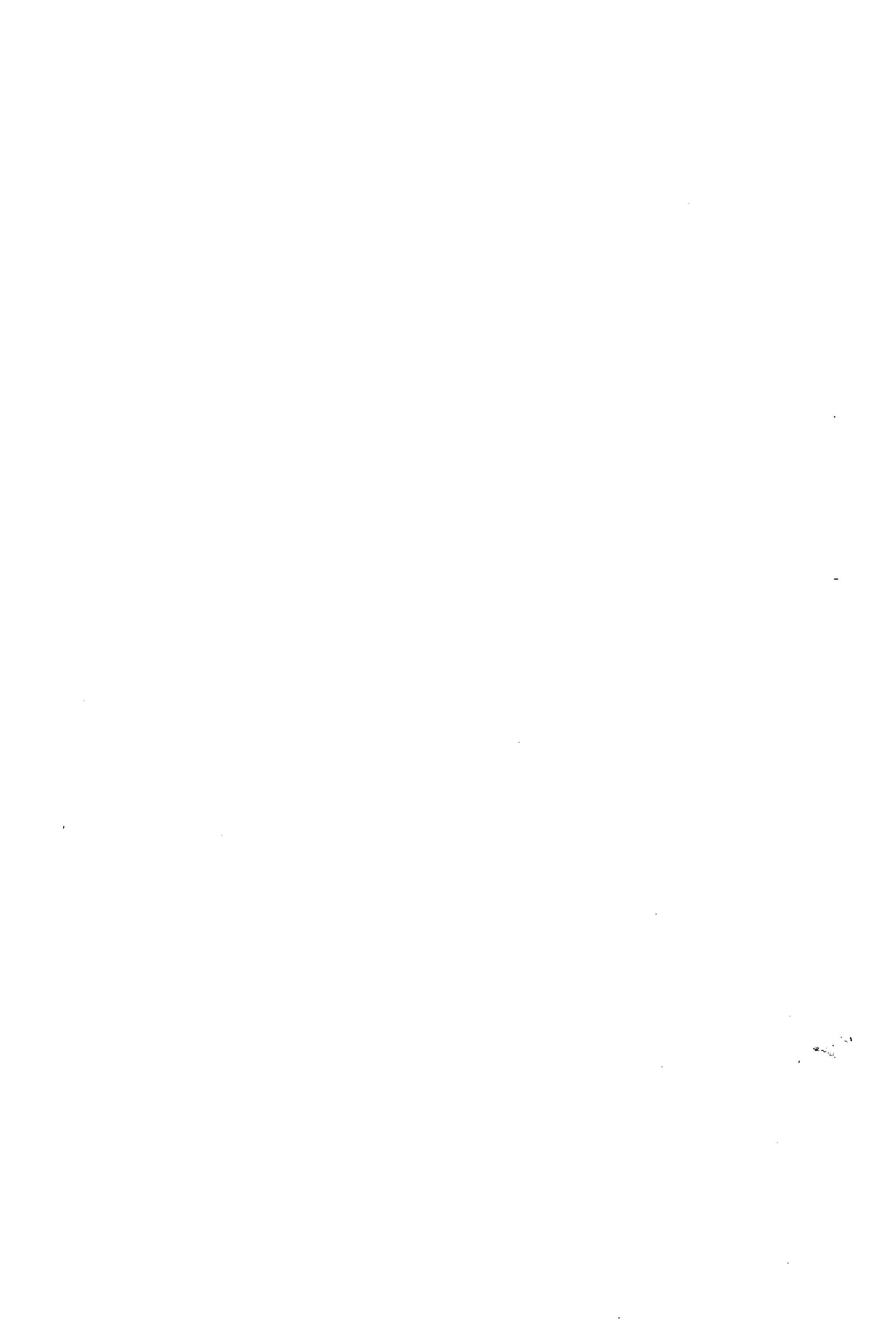
وفاته:

تُوفي الشيخ رحمه الله يوم الأربعاء ١٥ شوال ١٤٢١هـ، وكانت وفاته في الساعة السادسة مساء بمستشفىٰ الملك فيصل التخصصي بجدة إثر إصابته بسرطان القولون الذي ظل يعاني منه لفترة طويلة، ولم يكتشف إلا في شهر صفر من العام نفسه إثر مراجعة الشيخ لمستشفىٰ الملك فهد في الحرس الوطني

بالرياض .

وقد ظل الشيخ رحمه الله صابراً محتسباً مواصلاً مهامه ووظائفه العلمية بالتدريس والإفتاء في مدينة عنيزة وفي المسجد الحرام بمكة المكرمة، إلى أن وافته المنية، فرحمه اللّه رحمة واسعة .

* * *



ترجمة الشيخ صالح بن عبد الله فوزان

هو الشيخ صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان .

مكانته العلمية: عضو هيئة كبار العلماء، وعضو اللجنة الدائمة للإفتاء والبحوث العلمية وإمام وخطيب جامع الأمير متعب بن عبد العزيز بالرياض .

كما تقلد من الوظائف أيضًا مدير المعهد العالي للقضاء .

له رحمه الله مجهود كبير في الدعوة إلى الله في جميع المجالات من تدريس وإفتاء وخطابة وردود علمية ومقالات متنوعة في المجلات الإسلامية .

ومن مؤلفاته: شرح العقيدة الواسطية، والملخص الفقهي (١/ ٢)، وكتاب في المباحث الفرضية، وتنبيهات على أحكام تختص بالمؤمنات، وتعقيبات على كتاب «السلفية ليست مذهبًا» للبوطي، ومن مشاهير المجددين في الإسلام شيخ الإسلام ابن تيمية وشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب، والمنتقى من فتاوى الشيخ صالح بن فوزان (١/ ٣) كما أنه دائم الإجابة على أسئلة المستمعين في البرنامج الشهير «نور على الدرب» .

جزاه الله خيراً عما يقدمه للإسلام والمسلمين، آمين .

* * *

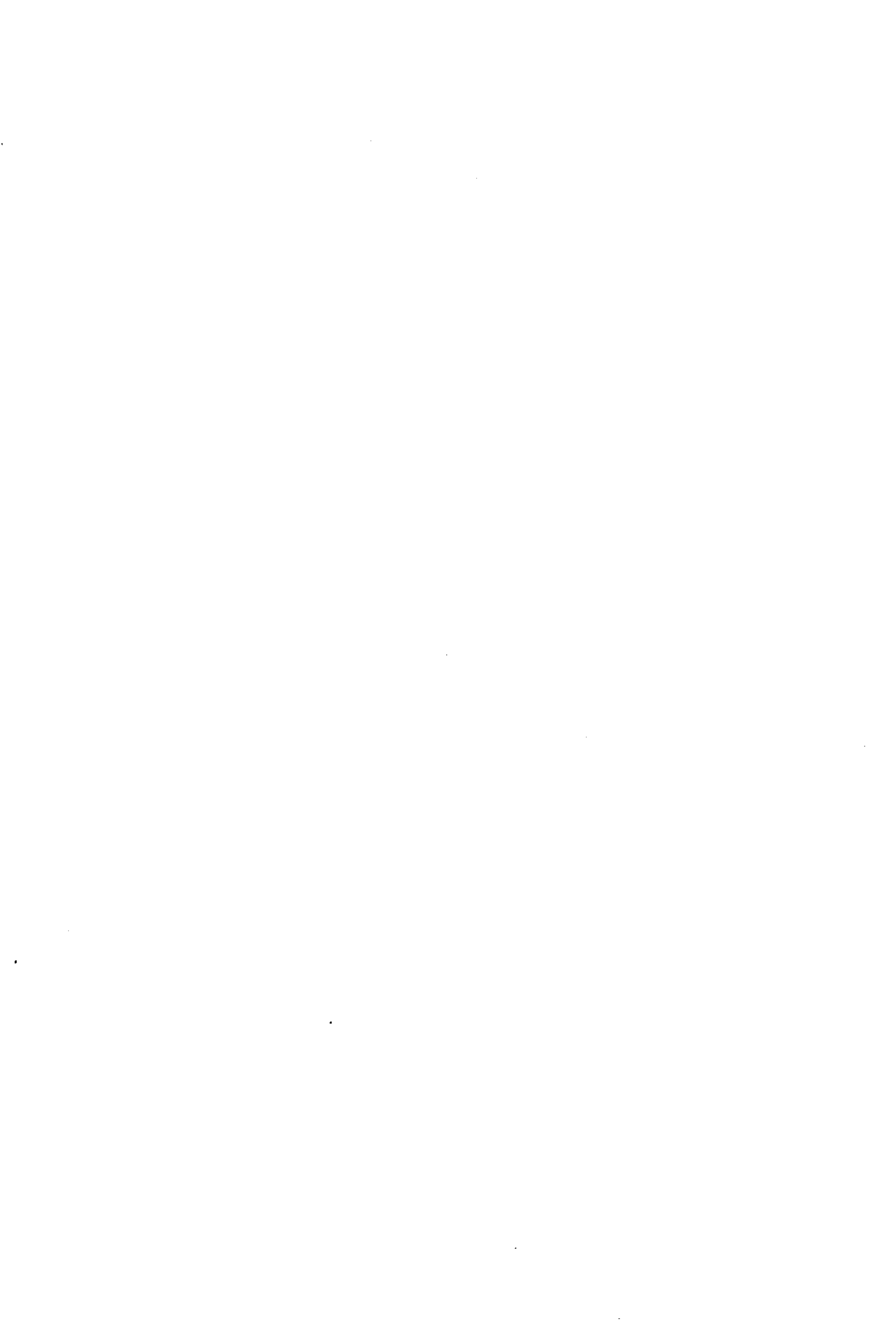


متن
العقيدة الواسطية

لشيخ الإسلام

أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام
ابن تيمية

رحمة اللّٰه تعالى





متن العقيدة الواسطية

الحَمْدُ للَّه الَّذي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بالهُدَى وَدِينِ الحَقِّ؛ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّين كُلِّه، وكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا. وأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِله إلاَّ اللَّه وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ؛ إقرارًا به وتَوْحيدًا.

وأَشْهَدُ أَنْ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ ورَسُولُه، صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَعَلَى آلهِ وصَحْبِهِ وَسَلَّم تَسْليمًا مَزيدًا.

أَمَّا بَعدُ فَهذَا اعْتِقَادُ الفِرْقَةِ النَّاجِيَةِ المَنْصُورةِ إلى قِيامِ السَّاعَةِ أهْلِ السُّنَّة والجَماعَة.

وهو الإيمانُ بِـ اللَّه، ومَلاَئكَتِه، وكُتُبِه، ورُسُلِه، والبَعْثِ بَعْد المَوْتِ والإيمان بالقَدَر؛ خَيْره وشَرِّه.

ومنَ الإيمان باللَّه: الإيمانُ بِمَا وَصَفَ بِه نَفسه من غير تحريف في كِتَابه، وبِما وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ مِن غَيْرِ تَحْرِيفٍ ولاَ تَعْطِيلٍ، ومِن غَيْرِ تكيِيفٍ ولاَ تَمْثيلٍ.

بَلْ يُؤْمِنونَ بأنَّ اللَّهَ سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

فَلاَ يَنْفُونَ عَنْهُ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ. ولاَ يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعه. ولاَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَاءِ اللَّه، وآيَاتِه. ولا يُكَيِّفُونَ ولاَ يُمَثِّلُونَ: صِفَاته بِصِفَات

خَلْقه.

لأنَّه سُبْحَانَهُ؛ لا سَمِيَّ لَهُ، وَلاَ كُفءَ لَهُ، وَلا نِدَّ لَه، وَلاَ يُقَاسُ بِخَلْقِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعالَى.

فَإِنَّه أَعْلَمُ بِنَفْسِه وَبِغَيْرِه، وَأَصْدَقُ قِيلاً، وَأَحْسَنُ حَدِيثًا مِنْ خَلْقه.

ثُمَّ رُسُلُهُ صَادِقُون مُصَدَّقُون؛ بِخِلاَفِ الذين يَقُولُونَ عَلَيْه مَا لاَ يَعلَمُونَ.

وَلهذا قالَ: ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الصافات: ١٨٠-١٨٢].

فَسَبَّحَ نَفْسَهُ عَمَّا وَصَفَهُ بِهِ الْمُخَالِفونَ للرُّسُلِ، وَسَلَّمَ على الْمُرْسَلِينَ لِسَلامَةِ ما قالوهُ مِنَ النَّقْصِ وَالعَيْبِ.

وَهُوَ قد جَمَعَ فِيما وَصَفَ وَسَمَّى بِهِ نَفْسَه بَيْنَ النَّفي وَالإثْبَاتِ.

فَلاَ عُدُولَ لأَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ عَمَّا جَاءَ بِهِ الْمُرْسَلُونَ.

فَإِنَّهُ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، صِرَاطُ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ، وَالشُّهَدَاء، وَالصَّالِحِينَ.

وَقَدْ دَخَلَ في هَذِه الجُمْلَة

ما وَصَفَ اللَّهُ بِهِ نَفْسَهُ في «سُورَةِ الإخْلاصِ» التي تَعْدلُ ثُلُثَ القُرْآنِ.

حَيْثُ يَقولُ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١-٤].

وَما وَصَفَ بِه نَفْسَهُ في أَعْظَم آيَة في كِتابه. حَيْثُ يَقولُ: ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي

يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وَلهذا كَانَ مَنْ قَرأَ هذهِ الآيَةَ في لَيْلَةٍ؛ لَم يَـزَلْ عَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ حافظٌ ولا يَقربُهُ شَيطانٌ حتَّى يُصبحَ.

وَقَوْلُهُ سُبْحانَهُ: ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣].

وَقَوْلُهُ سُبْحانَهُ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨].

وقوله: ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [التحريم: ٢] ﴿الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [التحريم: ٣].

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ [سبأ: ٢]. ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

وقوله: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلا تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ﴾ [فاطر: ١١].

وقـوله: ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢].

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨].

وَقَوْلُهُ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨].

وقوله: ﴿ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله﴾ [الكهف: ٣٩].

وقوله: ﴿ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد﴾ [البقرة: ٢٥٣].

وقوله: ﴿أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم غير محلي الصيد وأنتم حرم إن الله يحكم ما يريد﴾ [المائدة: ١].

وقوله: ﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء﴾ [الأنعام: ١٢٥].

وقوله: ﴿وأحسنوا إن الله يحب المحسنين﴾ [البقرة: ١٩٥]. ﴿وأقسطوا إن الله يحب المقسطين﴾ [الحجرات: ٩]. ﴿فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين﴾ [التوبة: ٧]. ﴿إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين﴾ [البقرة: ٢٢٢]. ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم﴾ [آل عمران: ٣١]. ﴿فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه﴾ [المائدة: ٥٤]. ﴿إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص﴾ [الصف: ٤]

وقوله: ﴿وهو الغفور الودود﴾ [البروج: ١٤].

وقوله: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ [النمل: ٣٠]. ﴿ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما﴾ [غافر: ٧].

﴿وكان بالمؤمنين رحيما﴾ [الأحزاب: ٤٣].

﴿كتب ربكم على نفسه الرحمة﴾ [الأنعام: ٥٤].

﴿ورحمتي وسعت كل شيء﴾ [الأعراف: ١٥٦]

﴿وهو الغفور الرحيم﴾ [يونس: ١٠٧].

﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤].

وقوله: ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [البينة: ٨]. ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ﴾ [النساء: ٩٣].

وقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾ [محمد: ٢٨].

﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥].

وقوله: ﴿وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٦].

وقوله: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٣].

وقوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ﴾ [البقرة: ٢١٠].

وقوله: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ﴾ [الأنعام: ١٥٨].

وقوله: ﴿ كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (٢١) وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ [الفجر: ٢١، ٢٢].

وقوله: ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنزِيلاً ﴾ [الفرقان: ٢٥]

وقوله: ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧]. ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨].

وقوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]. ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [المائدة: ٦٤].

وقوله: ﴿واصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨].

﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (١٣) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ [القمر: ١٣-١٤]. ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ [طه: ٣٩].

وقوله: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١].

وقوله: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾ [آل عمران: ١٨١].

وقوله: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠].

﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]. ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق: ١٤].

﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (٢١٩) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الشعراء: ٢١٨-٢٢٠]. ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥].

وقوله: ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ [الرعد: ١٣].

وقوله: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤].

وقوله: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ٥٠].

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (١٥) وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق: ١٥، ١٦].

وقوله: ﴿إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٤٩].

وقـوله: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢].

وقوله: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

وقوله عن إبليس: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢].

وقوله: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٧٨].

وقوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥].

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤].

وقوله: ﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]. ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وقوله: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء: ١١١]. ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التغابن: ١].

وقوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (١) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ١-٢].

وقـوله: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (٩١) عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١-٩٢]. ﴿فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٤]. ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ

وَأَن تُشْـرِكُـوا بِاللَّهِ مَـا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُـولُوا عَلَى اللَّهِ مَـا لا تَعْلَمُـونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

وقوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥].

في سَبْعِ مواضع: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وقال في سورة يونس عليه السلام: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [يونس: ٣].

وقـال في سورة الرعـد: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ [الرعد: ٢].

وقال في سورة طه: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥].

وقال في سورة الفرقان: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾[الفرقان: ٥٩].

وقال فـي سورة آلم السـجدة: ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾[السجدة: ٤].

وقال في سورة الحديد: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾[الحديد: ٤] .

وقوله: ﴿ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: ٥٥]. ﴿بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: ١٥٨]. ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠]. ﴿يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾ [غافر: ٣٦-٣٧].

وقـوله: ﴿أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ (١٦) أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ [الملك: ١٦-١٧].

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤].

وقـوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٧]. ﴿لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

وقوله: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]. ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]. ﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

وقوله: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧].

﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً﴾ [النساء: ١٢٢].

وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١١٦]. ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً﴾ [الأنعام: ١١٥].

وقوله: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]. ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٥٣].
﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ [الأعراف: ١٤٣]. ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ [مريم: ٥٢].

وقوله: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠].

﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ﴾ [الأعراف: ٢٢].

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص: ٦٢].

وقوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥].

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]. ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥]. ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الفتح: ١٥].

﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ [الكهف: ٢٧].

وقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النمل: ٧٦]. ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ [الأنعام: ١٥٥]. ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١].

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ (١٠٢) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠١-١٠٣].

وقوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣].

﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطففين: ٢٤].

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

وقوله: ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥].

وهذَا البَابُ فِي كِتَابِ اللَّهِ كَثِيرٌ، مَنْ تَدَبَّرَ القُرْآنَ طَالِبًا للهُدَى منه؛ تَبيَّن لَهُ طَرِيقُ الحَقِّ.

فصلٌ

في سنة رسول الله ﷺ: فالسُّنَّةُ تُفَسِّرُ القرآنَ، وتُبيِّنُهُ، وتَدُلُّ عليهِ، وتُعبِّرُ عنْهُ.

ومَا وَصَفَ الرَّسُولُ به ربَّهُ عز وجل، من الأحَاديثِ الصِّحاحِ الَّتي تلَقَّاها أهْلُ المَعْرِفَةِ بالقبول؛ وَجبَ الإيمان بهَا كذَلكَ.

فَمنْ ذَلكَ مثل قوله ـ ﷺ ـ: «يَنْزِلُ رَبُّنا إلى السَماءِ الدُّنْيا كُلَّ لَيْلَةٍ، حينَ يَبْقى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرِ، فيَقُولُ: مَنْ يَدْعوني فأَسْتَجيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُني فأُعْطِيَهُ؟، مَنْ يَسْتَغْفِرُني فأَغْفِرَ لَهُ؟». متفق عليه.

وقوله ـ ﷺ ـ: «للهُ أشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ المُؤمِنِ، مِنْ أَحَدِكُمْ براحِلَتِه...» الحديثَ متفق عليه.

وقوله ـ ﷺ ـ: «يَضْحَكُ اللَّهُ إلى رَجُلَيْنِ؛ يَقْتُلُ أحَدُهُما الآخَرَ؛ كِلاهُما يَدْخُلُ الجَنَّةَ» متفق عليه.

وقوله ـ ﷺ ـ: «عَجِبَ رَبُّنا مِنْ قُنوطِ عِبادِهِ وقُرْبِ خَيْرِهِ؛ يَنْظُرُ إلَيْكُمْ أَزِلينَ قَنِطينَ، فَيَظَلُّ يَضْحَكُ؛ يَعْلَمُ أنَّ فَرَجَكُمْ قَريبٌ» حَديثٌ حَسَنٌ.

وقوله ـ ﷺ ـ: «لا تزالُ جهَنَّمُ يُلقى فيها، وهي تَقولُ: هَل مِنْ مزيدٍ؟ حتّى يَضَعَ رَبُّ العِزَّةِ فيها رِجْلَهُ ـ وفي رواية: عليها قَدَمَهُ ـ فَيَنْزَوي بَعضُها إلى بَعْضٍ، فَتَقولُ: قَط قَط». متفق عليه.

وقوله ـ ﷺ ـ: «يَقُولُ تعالى: يا آدمُ! فَيَقولُ: لَبَّيْكَ وسَعْدَيْكَ. فَيُنادي بِصَوْتٍ: إنَّ اللَّهَ يأمُرُكَ أنْ تُخْرِجَ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ بَعْثًا إلى النَّارِ» متفق عليه.

وقوله - ﷺ -: «مَا مِنكُم من أَحَدٍ إلاَّ سَيُكَلِّمُهُ ربُّه؛ وليْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ».

وقوله - ﷺ -: في رُقْيَةِ المريض: «ربّنا اللّه الذي في السَّماء تَقَدَّسَ اسْمُكَ، أمْرُكَ في السَّماءِ والأرض؛ كما رَحْمَتُكَ في السَّماء؛ اجْعَلْ رَحْمَتَكَ في الأرضِ اغْفِرْ لَنا حُوبَنا وخَطايانا، أنتَ رَبُّ الطَّيِّبينَ، أنْزِلْ رَحْمَةً مِنْ رَحْمَتِكَ وَشِفاءً مِنْ شِفائكَ على هذا الوَجعِ فيبرأ» حديثٌ حسنٌ رواه أبو داود وغيره.

وقوله - ﷺ -: «أَلا تأمَنوني وأنا أَمينُ مَنْ في السَّماءِ» حَديثٌ صحيحٌ.

وقوله - ﷺ -: «وَالعَرْشُ فَوْقَ المَاءِ، وَاللَّهُ فَوْقَ العَرْشِ، وَهُوَ يَعْلَمُ ما أَنْتُمْ عَلَيْه» حديثٌ حسنٌ رواهُ أبو داود وغيره.

وقوله: للجَارية: «أَيْنَ اللَّهُ؟». قَالت: فِي السَّمَاءِ. قَالَ: «مَنْ أَنَا؟» قَالَت: أَنْتَ رَسُول اللَّه. قَالَ: «أعْتِقْها؛ فإنَّها مُؤْمنَة» رواه مسلم.

وقوله: «أفْضَلُ الإيمَان أن تعْلَمَ أنَّ اللَّهَ معَكَ حَيْثُما كُنْتَ» حَديثٌ حَسَنٌ.

وقوله: «إذَا قَامَ أَحدُكُم إلَى الصَّلاة؛ فَلا يَبْصُقَنَّ قِبَلَ وَجهِه، ولا عَن يَمِينِه، فإنّ اللّهَ قِبَلَ وَجهِهِ ولكِنْ عَنْ يَساره، أو تَحْتَ قَدَمِه» متفق عليه.

وقوله - ﷺ -: «اللَّهُمَّ! رَبَّ السَّموات السَّبْعِ والأرض، وَرَبَّ العَرْشِ العَظيم! ربّنا وربَّ كُلِّ شَيءٍ! فالق الحَبِّ والنَّوى! مُنزِّلَ التَّوراة وَالإنْجيلِ وَالقُرآن، أعوذُ بكَ مِنْ شرِّ نفسي ومن شرِّ كُلِّ دابَّة أنْتَ آخذٌ بناصيتها أنْتَ الأوّلُ؛ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيءٌ، وأنتَ الآخرُ؛ فَلَيْس بَعْدَكَ شَيءٌ، وأنتَ الظَّاهرُ؛ فَلَيْسَ فَوقَكَ شَيءٌ، وأنْتَ الباطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيءٌ؛ اقْضِ عَنِّي الدَّيْنَ، وأغْنِني مِنَ الفَقْرِ» رواية مسلم.

قولُهُ: «اللَّهُمَّ ربَّ السموات... إلخ» تَضَمَّنَ الحديثُ إثباتَ أسمائه.

وقــوله ـ ﷺ ـ: لَمَّا رفع الصَّحَـابَةُ أصواتهم بالذِّكر: «أيُّهـا النَّاسُ أربَعُوا عَلى أنْفُسكُمْ؛ فَـإنَّكُمْ لا تَدْعُون أصمًّا ولا غائبًا؛ إنَّما تَدْعونَ سَـميعًا بصيرًا قريبًا؛ إنَّ الذي تَدْعونَهُ أقْرَبُ إلى أحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ راحِلَتِه» متفق عليه.

«إنَّكُمْ سَتَرَوْنَ ربَّكمْ؛ كَما ترَوْنَ القمرَ لَيْلَةَ البَدْرِ لا تُضامُّونَ في رُؤْيَته؛ فَإنِ اسْتَطَعْـتُمْ أن لا تُغْلَبُوا على الصَّلاة قَـبْلَ طُلوعِ الشَّمْسِ، وَصَلاةٍ قَبْلَ غُـروبِها؛ فَافْعلوا» مُتَّفَقٌ عليه.

إلى أمثال هذه الأحـاديث التي يُخْبر فيـها رسول الله ـ ﷺ ـ عـن ربه؛ بمـا يُخْبر به.

فَإنَّ الفـرْقَةَ النَّاجيـة أَهْل السُّنَّة وَالجمَاعَـة يُؤْمنُون بذَلك. كَمَـا يُؤْمنُونَ بمَا أَخْبـرَ اللَّهُ به في كتَـابه، من غَيْـرِ تَحْريف وَلاَ تَعْطيـلٍ، وَمن غَيْرِ تَكْـييفٍ وَلاَ تَمْثيلٍ. بَلْ هُمُ الوسَطُ في فرَقِ الأمَّة؛ كَما أنَّ الأمَّةَ هِيَ الوَسَطُ في الأمَمِ.

فَـهُـمْ وَسَطٌ في باب صـفات اللَّه سُبْحـانَهُ وتَعالى بَيْنَ أَهلِ التَّـعْطيلِ «الجَهْميَّة»، و أَهْلِ التَّمْثيلِ «المُشبِّهَة».

وَهُمْ وَسَطٌ في: باب أفْعال اللَّه بَيْنَ الجَبْريَّة و القَدَريَّة وَغيرهمْ.

وَفي باب وَعيد اللَّه بَيْنَ «المُرجئَة»، و«الوَعيديَّة من القَدَريَّة» وَغَيْرهِمْ.

وَفــي: باب أسـمَاء الإيمانِ و الدِّين بَيْن «الحَـرُوريَّة» وَ «المُعْتَـزِلَة»، وبَيْنَ «المُرْجئَة» و«الجَهْميَّة».

وَفي: أصْحاب رَسُول اللَّه ـ ﷺ ـ بَيْنَ «الرافضة»، و «الخَوارِجِ»

فَصلٌ

وَقَدْ دَخَلَ فيما ذَكَرْناهُ منَ الإيمانِ باللَّه:

الإيمانُ بِما أَخْبَرَ اللَّهُ بِهِ في كِتابِهِ، وَتَواتَرَ عَنْ رَسولِهِ وَأَجْمَعَ عَلَيْهِ سَلَفُ الأُمَّةِ:

منْ أَنَّه سُبْحَانَهُ فَوْقَ سَمَاواته عَلَى عرشه، بائنٌ عَلَى خَلْقه. وَهُو سُبْحانَهُ مَعَهُمْ أَيْنَما كانُوا؛ يَعْلَمُ ما هُمْ عاملونَ. كَمَا جَمعَ بَيْنَ ذَلكَ في قَوْله: ﴿هُوَ الَّذي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤].

وَلَيْس مَعْنى قَوْله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ أَنَّهُ مُخْتَلطٌ بالخَلْقِ؛ فَإِنَّ هذا لا تُوَجِّهُهُ اللُّغَةُ، بَلِ القَمَرُ آيَةٌ منْ آيات اللَّه، منْ أَصْغَرِ مَخْلوقاته، وهُوَ مَوْضوعٌ في السَّماءِ، وَهُوَ مَعَ المُسافرِ وغَيرِ المُسَافرِ أَيْنَمَا كَانَ.

وَهُوَ سُبْحَانَهُ فَوْق عرشه، رَقيبٌ عَلَى خَلْقه، مُهَيْمنٌ عَلَيْهِم مُطَّلِعٌ عَلَيهم؛ إلى غَيْرِ ذَلكَ من مَعَاني رُبُوبيَّته.

وَكُلُّ هذَا الكَلامِ الَّذي ذَكَرَهُ اللَّهُ؛ ـ منْ أَنَّه فَوْقَ العَرْشِ، وَأَنَّهُ مَعَنا ـ؛ حَقٌّ على حَقيقَته، لا يَحْتاجُ إلى تَحْريف، وَلَكن يُصَانُ عَنِ الظُّنُون الكَاذبَة. مثل أن يُظَنَّ ظَاهرَ قوله (في السَّمَاء) أن السَّماءَ تُظِلُّهُ أو تُقِلُّهُ، وهذا باطلٌ بإجماع أهل العلمِ والإيمان، فإن الله قد وَسِع كُرسيُّهُ السماوات والأرض وهو يُمسكُ السماوات والأرضَ أن تزولا، ويُمسكُ السماء أن تَقع على الأرض إلا بإذنه ومن آياته أن تقُومَ السماء والأرض بأمرِهِ.

فصل

وقد دخل في ذلك: الإيمانُ بأنَّهُ قريبٌ مُجيبٌ كما جمعَ بين ذلك في قوله: ﴿وإذا سألكَ عبادي عنّي فإنّي قريبٌ﴾ الآية [البقرة: ١٨٦].

وقولُهُ ـ ﷺ ـ: «إنَّ الَّذي تدْعُونَهُ، أقْرَبُ إلى أحدِكُمْ منْ عُنُقِ راحلَته».

ومَا ذُكرَ في الكتاب والسنَّة، منْ قُربه ومَعيَّته، لا يُنافي ما ذُكرَ منْ عُلُوِّه وفَوْقيَّته، فإنَّه سبْحانهُ ليْس كمثْله شيءٌ في جميعِ نُعوته، وهُوَ عالٍ في دُنُوِّه، قَريبٌ في عُلُوِّه.

ومنَ الإيمان بالله وكُتُبه: الإيمانُ بأنَّ القُرآنَ كلامُ الله، مُنَزَّلٌ، غيْرُ مَخْلوقٍ، منْهُ بدأ، وإليْه يعُودُ، وأنَّ اللَّهَ تكلَّمَ به حقيقةً.

وأنّ هذا القُرآنَ الذي أنْزلَه على مُحمَّد، ـ ﷺ ـ هُوَ كلامُ الله حقيقةً، لا كلامُ غيْره. ولا يجوزُ إطْلاقُ القوْل بأنَّهُ حكايةٌ عنْ كلامِ اللّه أو عبارةٌ بلْ إذا قرأهُ النّاسُ أوْ كتبوهُ في المَصاحف؛ لمْ يَخْرُجْ بذلكَ عنْ أن يكُونَ كلامَ اللَّه تعالى حقيقةً؛ فإنَّ الكلامَ إنَّما يُضافُ حقيقةً إلى منْ قالهُ مُبْتدئًا، لا إلى منْ قالَهُ مُبلِّغًا مُؤدِّيًا. وهُوَ كلامُ اللَّه حُرُوفُهُ ومعَانيه؛ ليْسَ كلامُ اللّه الحُروف دُونَ المعَاني، ولاَ المعَاني دُونَ الحُروف.

وقَدْ دخلَ أيضًا فيما ذكَرْناهُ منَ الإيمان به وبكُتُبه وبملائكته وبرُسُله: الإيمانُ بأنّ المؤمنينَ يرونهُ يومَ القيامة عيانًا بأبصارهم. كمَا يرَوْنَ الشَّمْسَ صحْوًا ليْس بها سَحابٌ.

وكمَا يرَوْنَ القمرَ ليْلةَ البدْرِ، ولاَ يُضامُّون في رُؤْيَته.

يَرَوْنَهُ سُبْحانَهُ وَهُم فِي عَرَصات القِيامَة.

ثُمَّ يَرونَهُ بَعْدَ دُخولِ الجَنَّة كَما يَشاءُ اللَّهُ تَعالى.

فصلٌ

ومِن الإيمَان بِاليومِ الآخِرِ:

الإيمانُ بِكُلِّ ما أخبرَ به النبيُّ - ﷺ - مِمَّا يكون بَعْد المَوتِ

فيؤمنونَ بـ فتنة القبر، و بعذاب القبر ونعيمه.

فأمَّا الفتْنَة: فإنَّ النَّاس يُمتَحَنُونَ في قُبُورهم.

فيقال للرَّجُلِ: مَنْ ربُّكَ؟ وَمَا دِينُكَ؟ وَمَنْ نَبيُّكَ؟

فـ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾. فيقول المؤمن: ربِّي اللَّهُ، والإسلامُ دِيني، ومُحَمَّد ﷺ نَبِيِّي.

وأمَّا المُرْتَاب فَيَقُول: هاه هاه! لا أدْري؛ سَمِعْتُ النَّاس يقولون شَيْئًا فَقُلْتُه.

فَيُضْرَبُ بِمَرزَبَة من حَديد، فَيَصِيح صَيْحةً يَسْمَعُهَا كُلُّ شَيء إلاَّ الإنسان، وَلو سَمِعَها الإنسانُ لَصُعِقَ.

ثُمَّ بعد هَذه الفتْنة: إمَّا نَعيمٌ وَإمَّا عَذَابٌ إلى أن تَقُومَ القيامَة الكُبْرى.

فَتُعادُ الأَرْواحُ إلى الأجْساد.

وَتَقومُ القِيامَةُ التي أخْبرَ اللَّهُ بِها في كِتابِهِ، وعلَى لِسانِ رَسولِهِ، وَأجْمَعَ علَيْها المُسْلمُونَ.

فَيقومُ النَّاسُ مِنْ قُبورِهِمْ لِربِّ العالَمينْ، حُفاةً عُراةً غُرْلاً. وَتَدْنُو مِنْهُمُ

الشَّمْسُ. ويُلْجِمهُمُ العرَقُ. فَتُنْصَبُ المَوازين، فَتُوزَنُ بها أعْمالُ العباد.

﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٢، ١٠٣] وَتُنْشَرُ الدَّواوينُ، وهي صَحَائفُ الأعْمَال. فآخِذٌ كتابَهُ بيَمينه، وآخِذٌ كتَابه بشماله، أوْ من وَرَاء ظَهْره. كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وتَعَالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا (١٣) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤].

ويُحاسِبُ اللَّهُ الخَلائقَ. ويَخْلو بعَبْده المُؤْمن، فيُقَرِّرُهُ بذُنوبه كما وُصِفَ ذلك في الكتاب والسُّنَّة.

وأَمَّا الكفار؛ فلاَ يُحاسَبُون مُحَاسَبة مَنْ تُوزَنُ حَسَنَاته وَسَيِّئَاته فإنَّهم لاَ حَسَنَات لَهم، ولكن تُعدُّ أَعْمَالهم، فتحْصى فيُوقفون عَلَيْها ويُقرَّرُونَ بها،

وَفي عرصَات القيَامَة: «الحَوْضُ المَوْرودُ للنَّبيِّ ﷺ». مَاؤُهُ أشَدُّ بياضًا من اللَّبَنِ وأَحْلَى من العسَلِ.

آنيَتُه عَدَدَ نُجُومِ السَّماء.

طُولُه شَهْرٌ، وعَرْضُه: شَهْرٌ.

مَنْ يَشْرَب مِنْهُ شَرْبَةً؛ لا يَظْمأ بَعدَهَا أَبدًا.

و«الصِّرَاطُ» مَنْصوبٌ على مَتْنِ جَهَنَّمَ. وَهُوَ الجِسْرُ الذي بين الجنَّة والنَّار.يَمرُّ النَّاس عَلَى قَدْر أَعْمالهم فَمنْهُم من يَمرُّ كلَمْحِ البَصَرِ، ومنْهُم من يَمُرُّ كالبرقِ، وَمِنْهُم مَن يَمُرُّ كالرِّيحِ، وَمِنْهُم من يمرُّ كالفَرَس الجَوَاد، وَمِنْهُم

مَن يَمُرُّ كرِكَاب الإبل، وَمِنْهُم من يَعْدو عَـدْواً، وَمِنْهُم من يَمْشِي مَشْيًا، وَمِنْهُم من يزْحَف زَحْفًا. وَمِنْهُم من يُخْطَفُ خَطْفًا ويُلقى في جَهَنَّم؛ فإنَّ الجسْر عليه كَـلاَليبُ تَخْطفُ النَّاس بأعْـمالهم. فَـمَنْ مَـرَّ عَلى الصِّرَاط؛ دَخَلَ الجَنَّة. فـإذا عَبَروا علـيه؛ وُقفوا عَلَى قَنْطَرة بيْن الجَنَّة والنَّار؛ فَـيُقْتَص لِبَعْـضهم مِن بعض، فإذا هُذِّبوا ونُقُّوا؛ أُذِن لهم في دُخُول الجَنَّة.

وَأَوَّلُ من يَسْتَـفْتِح بَاب الجنَّة محـمدٌ ـ ﷺ ـ . وَأَوَّل مَن يَـدْخُل الجَنَّـة من الأُمم أُمَّتُه.

وَلَهُ ـ ﷺ ـ في القِيَامَة ثَلاثُ شفَاعات:

أَمَّا الشَّفَاعَةُ الأُولى: فَيَشْفَعُ في أهَل المَوْقف، حَـتَّى يُقْضى بيْنَهُم بَعْد أن يَتَرَاجَع الأَنْبِـيَاءُ ـ آدَم ونُوحٌ وإبْرَاهيمُ وموسى وعـيسى ابن مريم عَنِ الشَّفَـاعة حتى تنتهي إليه.

وَأَمَّا الشَّـفَاعَةُ الثَّـانِيَةُ: فَيَـشْفَعُ فِي أَهْلِ الْـجَنَّة أَنْ يَدْخُلُوا الْجنَّةَ. وَهَاتَانِ الشَّفَاعَتَانِ خَاصَّتَان لَهُ.

وأَمَّا الشّفَاعَةُ الثَّالثة: فَيَشْفَعُ فِيمَن اسْتَحَقَّ النّار.

وهذه الشّفاعةُ لَهُ وَلِسَائِر النّبِيِّن والصِّديقين وَغَيرهم. فيَشْفَعُ فيمن اسْتَحَقَّ النّار أن لا يَدْخُلها.

وَيشْفَعُ فِيمن دَخَلَها أن يَخْرُج منها.

ويُخْرِجُ اللّه من الـنار أقْوامًا بغـيرِ شَفَـاعةٍ بل بِفَضْلِـه ورَحْمَتِـه. ويَبْقَى في الجَنَّةِ فَضْلٌ عمَّنْ دَخَلَها مِنْ أَهْلِ الدُّنْيا.

فَيُنْشِئُ اللَّه لَهَا أَقْوَامًا، فَيُدْخِلهم الجنَّة.

وأَصْنَافُ مَا تضمَّنَتْهُ الدَّارُ الآخرةُ مِن الحِسَاب، وَالثَّواب وَالعِقَاب، وَالجَنَّة وَالنَّار.

وَتَفَاصِيلُ ذَلكَ مَذْكُورة في الكُتُب المنزلة مِن السَّمَاء، والآثَار مِن العِلْمِ؛ المأثور عَن الأنبياء. وفي العِلْم المَوْرُوث عن مُحَمَّدٍ ـ ﷺ ـ منْ ذلكَ؛ مَا يَشْفِي وَيَكْفِي، فَمَن ابْتَغَاهُ وَجَدَهُ.

وتُؤْمِنُ الفِرْقَةُ النَّاجِيَةُ من أهْلِ السُّنَّة والجَماعَةِ بِالقَدَرِ خَيْرِه وَشرِّه.

وَالإيمانُ بِالقَدَر عَلَى دَرَجَتَيْنِ، كُلُّ دَرَجَةٍ تَتَضمَّنُ شَيْئَيْنِ.

فالدَّرَجَة الأُولى: الإيمان بـ:

أَنَّ اللَّه تَعَالى عَلِمَ مَا الخَلْق عَامِلُون بعِلْمه القَديمِ الَّذي هُو مَوْصُوفٌ به أزلاً وأبدًا. وعَلِمَ جَميع أحْوالهِم، مِنَ الطَّاعات وَالمعَاصي وَالأرْزاقِ وَالآجال. ثُمَّ كَتَبَ اللَّهُ في اللَّوْحِ المَحْفوظِ مقاديرَ الخَلْق.

فَأَوَّل مَا خَلَقَ اللَّهُ القَلَمَ؛ قال له: اكتُبْ!؟ قال: ما أَكْتُبُ؟ قَال: اكْتُبْ مَا هُو كَائِنٌ إلى يوم القيامة.

فَمَا أصابَ الإنْسان لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ، وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُن لِيُصيبَهُ، جَفَّت الأقْلامُ وَطُوِيَت الصُّحُفُ. كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إنَّ ذَلكَ فِي كِتَابٍ إنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسيرٌ﴾ [الحج: ٧٠].

وقال: ﴿ما أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن

نَبْرأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢].

وَهَذا التَّقْديرُ التَّابعُ لعلمِه سُبْحانَهُ يَكونُ في مَواضعَ جمْلَةً وتَفْصيلاً. فقَدْ كَتَبَ في اللَّوْحِ المَحفُوظ ما شاءَ.

وإذا خَلَقَ جَسَدَ الجنين قَبْلَ نَفْخِ الرُّوح فيه؛ بَعَثَ إليه مَلَكًا فيُؤْمَرُ بأرْبَعِ كَلماتٍ، فَيُقالُ له اكْتُبْ رِزْقَهُ وأَجَلَهُ وعَمَلَهُ وَشَقِيٌّ أم سَعيدٌ، ونَحْوَ ذَلكَ.

فهذا التقدير قَد كَانَ يُنْكِره غُلاَةُ القَدَريَّة قَديمًا، ومُنْكِروه اليوم قَليل.

وَأمّا الدَّرَجَةُ الثَّانيَةُ: فَهِيَ: مَشيئَة اللَّه النَّافذَةُ، وَقُدْرَتُهُ الشَّامِلَةُ.

وَهُوَ الإيمانُ بِأنَّ ما شاءَ اللَّهُ كانَ، ومَا لَمْ يَشأ لَمْ يَكُنْ.

وَأَنَّهُ ما في السَّموات وما في الأرض، مِن حَرَكَةٍ وَلا سُكونٍ إلا بِمَشيئَةِ اللَّه سُبْحانَهُ، لا يَكونُ في مُلْكِه إلا ما يُريد.

وَأَنَّهُ سُبْحانَهُ على كُلِّ شيءٍ قَديرٌ مِنَ المَوْجودات وَالمَعْدومات.

فَما مِنْ مَخْلوق في الأرْضِ وَلا في السَّماءِ إلاَّ اللَّه خالِقُهُ سُبْحانَهُ لا خالِقَ غَيْرُهُ، وَلاَ رَبَّ سواهُ.

ومن ذلك فَقَد أَمَرَ العباد بطاعَته وَطَاعَة رُسُله، ونَهاهم عن معصيته.

وَهُو سُبْحانَهُ يُحِبُّ المُتَقين وَالمُحْسنينَ وَالمُقْسطينَ.

ويَرْضى عن الَّذين آمَنوا وَعَملوا الصَّالحات، ولا يُحِبُّ الكافرينَ، وَلا يَرْضى عَن القَومِ الفَاسِقين، ولاَ يأمُرُ بالفَحْشاء.

وَلاَ يَرْضى لِعبَاده الكُفر، ولا يُحِبُّ الفَسَادَ.

وَالعِبادُ فاعِلونَ حَقيقَةً، وَاللَّهُ خالق أفْعالِهِم.

وَالعَبْدُ هُوَ المُؤْمِنُ وَالكافِرُ، وَالبرُّ وَالفاجِرُ، وَالمُصَلِّي وَالصَّائِمُ.

وَللعبادِ قُدْرَةٌ عَلى أعْمالِهِم ولهم إرادَةٌ، وَاللَّهُ خالقُهم وقُدْرَتهم وإرادَتهم كَمَا قَالَ تعَالى: ﴿ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٨، ٢٩].

وَهذه الدَّرَجَةُ مِنَ القَدَرِ، يُكذِّب بها عامة القَدَرِيَّة ، الذين سمَّاهم النَّبيُّ ﷺ: «مَجُوس هذه الأمة» .

ويَغْلو فيها قَوْمٌ مِنْ أهْلِ الإثْبات، حتَّى سَلَبُوا العَبْدَ قُدْرَتَهُ وَاخْتِيارَهُ وَيُخْرِجونَ عَن أفْعالِ اللَّه وَأحْكامِه؛ حُكْمَها وَمَصالِحها.

فَصْلٌ

ومِنْ أُصول أهلِ السنة والجَماعة:

أن الدِّينَ وَالإيمانَ: قَوْلٌ، وعَمَلٌ.

قولٌ: القَلْب، وَاللِّسان.

وعَمَلٌ: القَلْب، وَاللِّسَانِ، وَالجوَارِحِ.

وَأنَّ الإيمانَ: يَزيدُ بِالطَّاعة، وَيَنْقُصُ بِالمَعْصِيَة.

وَهُمْ مع ذَلكَ، لا يُكَفِّرُونَ أهْلَ القِبْلَة بِمُطْلَقِ المَعاصي وَالكَبائر كما يفعلُه الخوارجُ، بل الأخوَّةُ الإيمانيةُ ثابتةٌ مَعَ المَعَاصِي. كَمَا قالَ سُبْحانَهُ: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ١٧٨].

وقال: ﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا

عَلَى الأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ٩، ١٠].

وَلاَ يَسْلُبُون الفَاسِقَ المِلِّيَّ الإسلامَ بالكُلِّيَّة، وَلاَ يُخَلِّدونَهُ في النَّارِ كَمَا تَقُولُ المُعْتَزِلَةُ، بلِ الفَاسِقُ يَدْخلُ في اسْمِ الإيمانِ المُطْلَق.

في مِثْلِ قَوْله تَعَالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء: ٩٢].

وقد لا يدخلُ في اسْمِ الإيمانِ المُطْلَقِ.

كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: ٢].

وقوله ﷺ: «لا يَزْني الزَّاني حين يَزْني، وهو مُؤْمن وَلاَ يَسْرقُ السَّارقُ حينَ يَسْرقُ وهُوَ مُؤْمنٌ ولا يَشْرب الخمر حين يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمنٌ، وَلاَ يَنْتَهب نهبةً ذَاتَ شَرَفٍ يرفعُ النَّاسُ إِلَيْه فيها أبصارَهم حينَ ينتهبُها وهو مُؤْمن» .

ونقولُ: هو مؤمنٌ ناقصُ الإيمانِ، أو مُؤْمنٌ بإيمانه، فَاسِقٌ بِكَبِيرَتِه؛ فلا يُعْطى الاسمَ المُطْلقَ، ولا يُسْلب مطلقَ الاسمِ.

وَمِنْ أُصُولِ أهلِ السُّنة والجماعة:

سَلاَمَةُ قُلُوبِهِم وأَلْسِنَتِهم لأَصْحَابِ رسول الله ﷺ.

كما وصفهمُ اللَّهُ به في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

وَطَاعةُ النَّبي ـ ﷺ ـ في قوله: «لا تَسبُّوا أَصْحَابِي؛ فَوَالَّذي نَفْسِي بِيَدِه؛ لَوْ أَنَّ أَحدَكُم أَنْفقَ مِثْل أُحُد ذَهبًا؛ ما بَلَغ مُدَّ أَحدِهم ولاَ نَصيفَهُ» .

ويتقبلون مَا جَاء به الكتابُ أو السُّنَّةُ أو الإجْمَاع، من فَضَائلهم ومرَاتبهم.

ويُفضِّلُونَ مَنْ أَنْفقَ من قَبْلِ الفَتْحِ ـ وهو صُلْحُ الحُدَيْبية ـ وقَاتَلَ عَلَى مَنْ أَنْفقَ من بَعْدُ وقَاتَلَ .

ويُقدِّمُونَ المُهَاجِرِينَ عَلَى الأنْصَار.

ويُؤْمنُون بِأَنَّ اللَّهَ قَالَ لأَهلِ بَدْر ـ وكانوا ثَلاثمائةٍ وبضعة عشر ـ : «اعْمَلُوا مَا شئْتُم؛ فَقَد غَفَرْتُ لكُم» .

وبأنَّه لا يَدْخُلُ النَّار أَحدٌ بَايَعَ تَحْت الشَّجرةِ ؛ كما أَخْبَرَ به النَّبيُّ ـ ﷺ ـ، بَل لَقَد رَضِي الله عنهم ورَضُوا عَنه وكَانوا أكثرَ منْ أَلف وأَرْبعمائة.
وَيَشْهَدُون بالجَنَّة لِمَن شَهِدَ لَهُ رسول الله ﷺ: كالعَشَرةِ، وكَثَابت بن قَيْسِ بن شَمَّاس» ، وغيرهم منَ الصَّحابةِ.

ويُقرُّون بـما تواترَ به النَّقلُ عن أميرِ المؤمنين عليٍّ بن أبي طالب رضيَ اللَّهُ عنهُ وغيره؛ من أن خيرَهَذه الأُمةِ بعد نبيِّها أبو بكرٍ ثُمَّ عُمرُ، ويُثَلِّثُونَ بعُثْمَانَ، ويُرَبِّعُون بعَلِيٍّ ـ رضي اللَّه عنهم ـ؛ كما دلَّتْ عليه الآثارُ. وكما أجمع الصَّحابةُ على تقديم عثمانَ في البيعة، مَعَ أَنَّ بَعْض أَهْلِ السُّنَّة كانوا قد اخْتَلَفُوا في عثمانَ وَعليٍّ رضي الله عنهما بعد اتِّفَاقِهم عَلَى تَقْدِيمِ أبي بكرٍ وعُمرَ؛ أيهما أَفْضلُ؟

فَقَدَّم قومٌ عثمانَ، وَسَكَتُوا، وْ رَبَّعُـوا بِعليٍّ، وقدَّم قَومٌ عليًا، وقومٌ تَوَقَّفُوا. لكن استقرَّ أَمْرُ أهلِ السَّنَةِ على تقديم عثمانَ، ثُمَّ عَلِيّ.

وإن كانتْ هذه المسألةُ ـ مَسْأَلة عُثمانَ وعَلَيٍّ ـ ليستْ مـنَ الأُصُولِ التي يُضَلَّلُ المُخَـالِفُ فِيهـا عِنْدَ جُمْهُـورِ أَهْلِ السُّنَّةِ. لكنَّ الَّتي يُضَلَّلُ فـيها: مَـسْأَلةُ الخِلاَفة.

وَذَلِك أَنَّهم يُؤمنون أَنَّ الخليـفـةَ بعدَ رَسُولِ اللَّه ﷺ: أَبُو بَكْرٍ عُـمَـرُ، ثُمَّ عُثْـمانُ، ثْمَّ عَلِيٌّ. وَمن طَعَنَ فِي خِلاَفـة أَحَدٍ مِن هؤلاءِ فَهُو أَضَلُّ مِن حِـمَارِ أَهْله.

ويُحِبُّونَ أهْلَ بَيْتِ رَسول اللَّه ﷺ، ويَتَوَلَّوْنَهُم.

ويَحْـفَظُون فِيهم وَصِيَّةَ رَسُولِ اللَّه ؛ حَيْثُ قال يَوْم غدير خُمٍّ: «أُذَكِّرُكُم اللَّهَ فِي أَهْل بيتي» .

وقال أيضًا للعبّاس عَمِّه؛ وقد اشتكى إليه أنَّ بعضَ قُرِيشٍ يَجْفُو بَني هاشمٍ؛ فقال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِه؛ لا يُؤْمِنُونَ حتى يُحِبُّوكم لِلَّه وَلِقَرَابَتِي» .

وقال: «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى بني إِسْمَاعِيل، واصْطَفَى من بَنِي إِسْمَـاعِيلَ كَنَانةَ، واصْطَفَى من كَنَانةَ قُرِيشًا، واصْطَفَى من قريش بَنِي هَاشِمٍ، واصْطَفَانِي مِن بَنِي هَاشمٍ».

وَيَتَـولَّوْنَ أزواجَ رَسُـولِ اللَّه ـ ﷺ ـ أمـهاتِ المؤمـنينَ. يُؤمنُونَ: بأنهنَّ أزواجُهُ فِي الآخـرةِ. خُصُوصًا «خـديجةَ» ـ رضي الله عنها ـ أمَّ أكـثَرِ أَوْلادِهِ، وأَوَّلُ مَن آمنَ بِهِ وعَاضَدَه عَلَى أمْرِه، وكَان لَهَا مِنْهُ المنزلَةُ العَالِيَةُ.

والصِّدِّيقةَ بنتَ الصِّديقِ ـ رضي الله عنها ـ التي قال فيها النَّبيُّ ـ ﷺ ـ: «فَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعام».

ويتبرءون من: طريقة «الرَّوَافِضِ» الذين يبغضونَ الصحابةَ ويسبونهُم.

وطريقة «النَّواصب»، الَّذينَ يُؤْذُون «أَهْلَ البيتِ»، بِقَوْلٍ أو عَمَلٍ.

ويُمْسكُون عمَّا شَجَرَ بين الصَّحابة.

ويَقُولُونَ: إنَّ هَذِه الآثارَ المَرْوية في مَسَاوِيهِمْ:

منها: مَا هُو كاذبٌ.

ومنها: مَا قد زيد فيه ونَقص، وَغُيِّر عن وجهه.

والصَّحيحُ منهُ: هم فيه مَعْذُورونَ:

إمَّا مُجْتَهِدونَ مُصيبونَ.

وإمَّا مُجْتَهِدونَ مُخْطِئُونَ.

وَهُم مَعَ ذَلك لا يَعْتَقِدُون أَنَّ كلَّ وَاحدٍ من الصَّحابةِ مَعْصُومٌ عن كبائرِ الإثمِ وصَغَائرِه. بلْ يَجُوزُ عليهمُ الذُّنوب في الجُمْلة.

ولهم منَ السَّوابِقِ والفَضَائلِ مَا يُوجبُ مَغْفرةَ مَا يَصْدُر منهم إنْ صَدَرَ. حتَّى إنَّهم يُغْفَرُ لهم من السَّيِّئات مَا لاَ يُغْفَرُ لمَنْ بَعْدَهُم، لأَنَّ لهم مِنَ الحَسَنَاتِ التي تَمْحُو السَّيِّئات مَا لَيْس لِمَنْ بَعْدَهُم.

وَقد ثبتَ بقولِ رسول اللَّه ـ ﷺ ـ: «أَنَّهم خَيرُ القُرُون».

وأنَّ «المُدَّ مِن أَحَدِهم إذا تصدّق به؛ كان أَفْضَلَ مِن جَبَلِ أُحُدٍ ذَهبًا ممن

بَعْدَهم».

ثُم إذا كان قد صَدَرَ من أَحَدِهم ذَنبٌ؛ فيكونُ قد تَابَ منْهُ أَوْ أَتَى بحَسَنَاتٍ تَمْحُوهُ أَو غُفِرَ لَهُ بفَضْلِ سَابِقَتِه أو بشَفَاعة مُحَمَّدٍ ـ ﷺ ـ الذي هُم أَحَقُّ الناسِ بشفاعتِه أو ابْتُلي ببَلاءٍ في الدُّنيا كُفِّرَ به عَنْهُ.

فَإذَا كَانَ هذا في الذُّنوب المُحقَّقة؛ فكيفَ الأمورُ التي كـانُوا فيها مُجْتَهدِينَ إنْ أَصَابُوا؛ فَلَهُم أَجْرانِ، وإنْ أخطأوا؛ فَلَهُم أجْرٌ وَاحدٌ، وَالخَطَأُ مَغْفُورٌ.

ثم إنَّ القَدْرَ الذي يُنْكَرُ من فعلِ بعضِهم قَليلٌ نَزْرٌ مَـغْفُورٌ في جَنْبِ فَضَائلِ القـومِ ومَحَـاسِنِهم من الإيمانِ باللَّهِ ورَسُـولِه، والجِهَـادِ في سَبِـيله، والهِجْـرَة، والنُّصرةِ، والعِلْمِ النَّافِعِ، والعَمَلِ الصَّالحِ.

وَمن نَظَرَ في سيرةِ القَوْمِ بعِلْمٍ وبَصِيـرةٍ، وَمَا مَنَّ اللَّهُ عَلَيهم به من الفَضَائلِ عَلِمَ يَقِينًا أنَّهم خَيرُ الخَلْقِ بعدَ الأنبياء.

لاَ كَانَ وَلاَ يَكُونُ مثْلَهُمْ.

وأَنَّهُم الصَّفْوة منْ قُرُونِ هَذه الأُمةِ، التي هيَ خَيرُ الأُمَمِ وأَكْرَمُها عَلَى اللَّهِ.

ومن أصُولِ أهلِ السُّنَّة:

التَّصْدِيقُ بكَرَامَات الأَوْلياء. وَما يُجْـرِي اللَّهُ عَلَى أَيْديهِم؛ من خَوَارِقِ العَادَاتِ، في أنواعِ العُلُومِ، والمُكَاشَفَات، وأنْواعِ القُدْرة، والتَّأثيرات، وكالمأثُورِ عن سَالِفِ الأُمَمِ، في «سُورة الكَهْف» وغيرها.

وعن صَدْرِ هذه الأمةِ من الصَّحَابةِ والتَّابعينَ وَسَائرِ فِرَقِ الأُمَّة.

وَهِيَ مَوجودةٌ فيها إلى يومِ القيامة.

فصـــلٌ

ثُمَّ من طريقة أهل السُّنَّة والجماعة:

اتِّبَاعُ: آثار رسول الله ـ ﷺ ـ بَاطنًا وَظاهرًا.

واتِّباعُ: سبيل السَّابقينَ، الأولينَ من المهاجرين والأنصار.

واتِّبــاعُ: وَصِـيَّة رسُـول اللَّه ـ ﷺ ـ، حَـيثُ: قَالَ: «عَلَيْـكُم بِسُنَّتي وَسُنَّة الخُلَفَاء الرَّاشِـدينَ المهديِّينَ مِنْ بَعْدى، تَمَسَّكوا بهـا، وَعُضُّوا عَلَيْهَـا بِالنَّواجذ، وَإيَّاكُم ومُحْدَثَات الأُمُور فَإنَّ كُلَّ بِدْعَة ضَلاَلَةٌ».

ويَعْلَمُونَ: أَنَّ أَصْدَقَ الكَلاَمِ كَلامُ اللَّه، وخيرَ الهَدْيِ هَدْيُ محمَّدٍ ﷺ.

يُؤْثِرونَ: كَلاَمَ اللَّه عَلَى غَيْرِه مِنْ كَلاَمِ أَصْنَاف النَّاسِ.

ويُقَدِّمُونَ: هَدْيَ مُحَمَّدٍ ﷺ عَلَى هَدْيِ كُلِّ أَحَدٍ.

ولهذا سُمُّوا: «أهلَ الكتابِ والسُّنَّة».

وسُمُّوا «أهلَ الجمـاعة» ؛ لأن الجماعة هي الاجتمـاعُ وضدُّها الفرقة، وإن كان لفظ «الجماعة» قد صَارَ اسْمًا لِنفْسِ القَوْمِ المُجْتَمِعينَ.

والإجْمَاعُ: هُوَ الأَصْلُ الثَّالثُ الَّذي يُعتمدُ عَليه في العلم الدِّينِ.

وَهُم يَزِنُونَ بِهذه الأُصُـول الثَّلاثَةِ جَمِيـعَ مَا عَلَيْه النَّاسُ من أَقْوَالٍ وأعـمالٍ بَاطِنَةٍ أو ظَاهِرةٍ، ممَّا لَهُ تَعلُّقٌ بالدِّينِ.

والإجمَاعُ الذي يَنْضَـبِطُ هُوَ مَا كَانَ عَليهِ «السَّلَفُ الصَّالِحُ». إذْ بَعْـدَهُم كَثُرَ الاختلافُ، وانْتَشَرَ في الأمةِ.

فصل

ثُمَّ هُمْ مَعَ هَذِهِ الأُصُول:

يَأْمُرُونَ بِـ المَعْرُوفِ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ؛ عَلَى ما تُوجِبُهُ الشَّرِيعَةُ.

وَيَرَوْنَ إِقَامَةَ: الحجِّ، والجِهَادِ، والجُمَعِ، والأَعْيادِ؛ مَعَ الأُمَراءِ؛ أَبْرارًا كَانُوا، أو فُجّارًا.

وَيُحَافِظُونَ على: الجَمَاعات.

وَيَدِينُونَ بِـ: النَّصِيحة للأُمَّة.

وَيعتقدُونَ مَعْنَى قوله - ﷺ -: «المُؤْمِنُ للمُؤْمِنِ كالبُنْيانِ، يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا» وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابعه ﷺ.

وقوله ﷺ: «مَثَلُ المُؤْمنينَ في تَوادِّهم وَتَراحُمِهم وتَعاطُفِهم؛ كَمَثَل الجَسَد، إِذَا اشْتَكَى منه عُضْوٌ؛ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الجَسَدِ بالحُمَّى والسَّهَرِ».

وَيَأْمُرون بِـ الصَّبرِ عَلَى البَلاءِ، والشُّكْرِ عِنْد الرَّخاءِ، والرِّضَا بِمُرِّ القَضَاءِ.

وَيَدْعون إلى مَكَارِم الأَخْلاَقِ، وَمَحَاسِن الأَعْمَال.

وَيَعْتَقِدُونَ مَعْنَى قَوله - ﷺ -: «أَكْمَلُ المُؤْمنينَ إيمَانًا أَحْسَنُهم خُلُقًا».

وَينْدُبُونَ إلى أن تَصِلَ من قَطَعَكَ، وتُعْطِي مَنْ حَرَمَكَ، وتعفو عَمَّنْ ظَلَمَكَ.

ويأمرون بِـ بِرِّ الوالدَيْنِ، وصِلَةِ الأَرْحَام، وحُسْنِ الجِوارِ، والإحْسَانِ إلى اليتَامَى، والمسَاكِين، وابنِ السَّبيل. والرِّفْق بالمَمْلُوك.

وينهون عن: الفَخْرِ، والخُيلاءِ، والبَغْيِ، والاستطَالَةِ على الخَلْقِ بحَقٍّ أوْ بِغَيْرِ حقٍّ.

ويأمرون بـ مَعَالِي الأخْلاقِ.

وينهون عن سِفْسَافِهَا.

وكُلُّ ما يَقُولُونَهُ وْ يفْعَلُونَهُ من هذا و غيره، فإنَّما هم فيه مُتَّبِعُونَ للكتابِ والسُّنَّة.

وطريقتهم: هي دينُ الإسْلام، الذي بعثَ اللَّهُ به مُحَمَّدًا ﷺ.

لكن لما أخب النبيُّ ـ ﷺ ـ: «أنَّ أُمَّتَه ستفْتَرِقُ على ثلاثٍ وسبْعِينَ فِرْقَةٍ، كُلّها في النَّارِ إلا وَاحِدةً؛ وَهِيَ الجَمَاعَةُ» .

وفي حَدِيثٍ عنه أنهُ قالَ: «هُمْ مَنْ كَانَ عَلَى مِثْلِ مَا أَنَا عَلَيْهِ اليوم وأَصْحَابِي» ؛ صَارَ المُتَمَسِّكُونَ بالإسلامِ المَحْضِ الخَالِصِ عنِ الشَّوبِ هم أهل السُّنَة والجماعةِ.

وفيهم: الصِّدِّيقُونَ، والشهداء، والصالحون ومنهم أعلامُ الهُدَى، ومَصَابِيحُ الدُّجَى.

أُولُو المَنَاقِبِ المأثُورَةِ، والفضَائِلِ المَذْكُورَةِ.

وفيهم: الأَبْدَالُ.

ومنهم: أئمة الدين؛ الذين أجْمَعَ المسلمونَ على هِدَايتِهِم ودِرَايَتِهِمْ.

وَهُمُ الطَّائِفَةُ المَنْصُورةُ، الَّذينَ قالَ فيهمُ النَّبيُّ ـ ﷺ ـ: «لا تَزَالُ طَائِفَـةٌ مِنْ أُمَّتِي عَـلَى الحَقِّ ظاهرينَ؛ لاَ يَضُرُّهُم مَنْ خَـالَفَهُمْ ولاَ مَنْ خَذَلَـهُمْ، حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ».

فنسأل اللَّهَ العظيمَ أن يجعلنا منهُم، وأَنْ لا يُزِيغَ قُلُوبَنا بَعْدَ إذْ هَدَانا، وأن يَهَب لَنَا مِن لَّدُنْهُ رَحْمَـةً؛ إنَّهُ هُـوَ الوَهَّـابُ والله أعلم.

وصلّى الله عَلَى مُحَمَّدٍ وآلهِ وصحبه وسلّم تسليمًا كثيرًا.

* * *

مقدمة المصنف

الحَمْـدُ للَّه الَّذي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالهُدَى وَدِينِ الحَـقِّ؛ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّين كُلِّه، وكَفَى بِاللَّه شَهِيدًا.

وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِله إِلاَّ اللَّه وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ؛ إِقرارًا به وَتَوْحِيدًا.

وأَشْـهَـدُ أَنْ مُحَـمَّـدًا عَـبْـدُهُ وَرَسُولُه، صَـلَّى اللَّه عَلَيْـهِ وَعَلَى آلهِ وصَحْبِهِ وَسَلّم تَسْلِيمًا مَزِيدًا.

• الشَّرح •

• قال العلامة ناصر السعدي:

• قال المصنف رحمه الله وقدس روحه في عليين: «الحمدُ للِّه»:

أي: جميع أوصاف الكمال ثابتة للَّه على أكمل الوجوه وأتمها.

ومما يُحمد عليه نِعَمهُ على العباد التي لا يُحصي أحَد من الخلق تِعدَادها.

وأعظمُها: إرساله مُحمداً ﷺ رحمة للعالمين.

(بالهدى): الذي هو العلم النافع (ودين الحق): الذي هوالعمل الصالح.

(ليظهره): على جميع الأديان بالحجة والبرهان وبالعِزّ والسلطان.

(وكفى بالله شهيداً): على صدق رسوله وحقيقة ما جاء به.

وشهادته تعالى بقوله وفعله وتأييدهُ لرسوله بالنصر والمعجزات والبراهين المتنوعة الدال على كل واحد منه - فكيف بجميعها - على رسالته وصِدقه، وأن جميع ما جاء به هو الحق من عقائد وأخلاق وآداب وأعمال وغيرها.

● (وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شَريكَ لَهُ؛ إقرارًا به وتَوحيدًا):

أي: أُقرُّ وأعترف مصدقًا ومنقادًا أنه لا يستحق الألوهية ـ وهي التَّفرُّد بِكُلِّ كمال ـ إلاَّ الله، وأنَّه لا يستحق العبادة إلاَّ هو وحده لا شريك له.

ولهذا قال: (إقرارًا به): أي: بالقلب واللسان.

(وتوحيدًا): أي: إخلاصًا لله في كُلِّ عبادة قولية أو عملية أو اعتقادية.

وأعظم ما يُوَحَّد به ويُتَقَرَّب إليه به: «تحقيق العقيدة السلفية» المحتوي عليها هذا الكتاب، وبتحقيق العقيدة تَصلُح الأعمال، وتُقبَل وتستقيم الأمور.

● (وأشهد أنَّ مُحمَّدًا عبدُهُ ورسُولُه. صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم تسليمًا مَزيدًا)

الشَّهادة للرَّسول بالرِّسالة.

والعبودية مَقرُونة بالشهادة لله بالتوحيد لا يكفي إحداهما عن الأخرىٰ؛ ولا بد فيها من اعتراف العبد بكمال عبودية النبي ﷺ لربه وكمال رسالته المتضمة لكماله ﷺ، وأنه فاق جميع البشر في كل خصلة كمال.

ولا تتم الشهادة حتىٰ يُصدِّقه العبد في كل ما أخبَر، ويُطِيعه في كل مَا أمَر وينتهي عمَّا نهىٰ عنه.

وبهذه الأُمور تتحقق الشهادة للَّه بالتوحيد، وللرسول بالرِّسالة.

● الشيخ محمد خليل هراس:

اختلف العلماء في البسملة، هل هي آية من كل سورة افتتحت بها، أو هي آية مستقلة أنزلت؛ للفصل بها بين السور، وللتبرك بالابتداء بها؟ والمختار القول الثاني.

واتفقوا علىٰ أنها جزء آية من سورة النمل وعلىٰ تركها في أول سورة براءة لأنها جعلت هي والأنفال كسورة واحدة.

والباء في ﴿بِسْمِ﴾ للاستعانة، وهي متعلقة بمحذوف قدره بعضهم فعلاً وقدره بعضهم اسمًا، والقولان متقاربان وبكل ورد القرآن قال تعالىٰ: ﴿اقْرأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ وقال: ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا﴾.

ويحسن جعل المقدر متأخرًا؛ لأن «اسم» أحق بالتقديم ولأن تقديم الجار والمجرور

يفيد اختصاص الاسم الكريم بكونه متبركًا به، والاسم هو اللفظ الموضوع لمعنى تعيينًا له أو تمييزًا.

واختلف في أصل اشتقاقه، فقيل: إنه من السمة بمعنى العلامة وقيل: من السمو وهو المختار، وهمزته همزة وصل، وليس الاسم نفس المسمى كما زعم بعضهم، فإن الاسم هو اللفظ الدال، والمسمى هو المعنى المدلول عليه بذلك الاسم.

وليس هو كذلك نفس التسمية فإنها فعل المسمى يقال: سميت ولدي محمداً مثلاً.

وقول بعضهم: إن لفظ الاسم هنا مقحم؛ لأن الاستعانة إنما تكون بالله عز وجل لا باسمه، ليس بشيء؛ لأن المراد ذكر الاسم الكريم باللسان كما في قوله: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾ أي: سبحه ناطقًا باسم ربك متكلمًا به، فالمراد التبرك بالابتداء بذكر اسمه تعالى.

«واسم الجلالة»: قيل إنه اسم جامد غير مشتق؛ لأن الاشتقاق يستلزم مادة يشتق منها، واسمه تعالى قديم والقديم لا مادة له، فهو كسائر الأعلام المحضة التي لا تتضمن صفات تقوم بمسمياتها.

والصحيح أنه مشتق، واختلف في مبدأ اشتقاقه، فقيل: من أَلَهَ يَأْلَهُ أُلوهَة وإلاهة وأُلوهِية. بمعنى عبد عبادة، وقيل: من أَلِه بكسر اللام يأْلَه بفتحها أَلهًا إذا تحير، والصحيح الأول، فهو إله بمعنى مألوه أي: معبود، ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما: الله ذو الإلهية والعبودية على خلقه أجمعين، وعلى القول بالاشتقاق يكون وصفًا في الأصل، ولكن غلبت عليه العلمية فتجري عليه بقية الأسماء أخبارًا وأوصافًا، يقال: الله رحمن رحيم سميع عليم، كما يقال: الله الرحمن الرحيم... إلخ.

«والرحمن الرحيم»: اسمان كريمان من أسمائه الحسنى دالان على اتصافه تعالى بصفة الرحمة، وهي صفة حقيقية له سبحانه على ما يليق بجلاله ولا يجوز القول بأن المراد بها لازمها كإرادة الإحسان ونحوه كما يزعم المعطلة، وسيأتي مزيد بيان لذلك إن شاء الله.

واختلف في الجمع بينهما فقيل: المراد بالرحمن الذي وسعت رحمته كل شيء في

الدنيا؛ لأن صيغة فعلان تدل على الامتلاء والكثرة، والرحيم الذي يختص برحمته المؤمنين في الآخرة وقيل: العكس.

وقد ذهب العلامة ابن القيم رحمه الله إلى أن الرحمن دال على الصفة القائمة بالذات، والرحيم دال على تعلقها بالمرحوم، ولهذا لم يجئ الاسم الرحمن متعديًا في القرآن، قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣] ولم يقل رحمانًا، وهذا أحسن ما قيل في الفرق بينهما.

وروي عن ابن عباس أنه قال: هما اسمان رقيقان أحدهما أرق من الآخر، ومنع بعضهم كون الرحمن في البسملة نعتًا لاسم الجلالة؛ لأنه علم آخر لله لا يطلق على غيره والأعلام لا ينعت بها.

والصحيح أنه نعت له باعتبار ما فيه من معنى الوصفية، فالرحمن اسمه تعالى ووصفه ولا تنافي إسميته وصفيته، فمن حيث هو صفة جرى تابعًا على اسم الله، ومن حيث هو اسم ورد في القرآن غير تابع بل كقوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾.

«**الحمد لله**» وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «**كل كلام لا يبدأ فيه بحمد الله والصلاة عليّ فهو أقطع أبتر ممحوق البركة**»(١) وورد مثل ذلك في البسملة ولهذا جمع المؤلف بينهما عملاً بالروايتين ولا تعارض بينهما فإن الابتداء قسمان: حقيقي وإضافي والحمد ضد الذم، يقال: حمدت الرجل أحمده حمداً، ومحمداً ومحمدة فهو محمود وحميد ويقال: حمد الله بالتشديد أثنى عليه المرة بعد الأخرى وقال: الحمد لله.

«**والحمد**» هو الثناء باللسان على الجميل الاختياري، نعمة كان أو غيرها، يقال: حمدت الرجل على إنعامه وحمدته على شجاعته، وأما الشكر فعلى النعمة خاصة ويكون بالقلب واللسان والجوارح قال الشاعر:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة ... يدي ولساني والضمير المحجبا

وعلى هذا فبين الحمد والشكر عموم وخصوص من وجه، يجتمعان في الثناء باللسان، على النعمة، وينفرد الحمد في الثناء باللسان على ما ليس بنعمة من الجميل الاختياري، وينفرد الشكر بالثناء بالقلب والجوارح على خصوص النعمة. فالحمد أعم متعلقًا وأخص آلة والشكر بالعكس.

---

(١) ضعيف: وانظر «ضعيف الجامع» (٨/ ٤٢).

وأما الفرق بين الحمد والمدح: فقد قال ابن القيم: إن الحمد إخبار عن محاسن المحمود مع حبه وتعظيمه فلابد فيه من اقتران الإرادة بالخير بخلاف المدح فإنه إخبار مجرد، ولذلك كان المدح أوسع تناولاً؛ لأنه يكون للحي والميت وللجماد أيضًا.

و«أل» في الحمد للاستغراق، ليتناول كل أفراد الحمد المحققة والمقدرة وقيل: للجنس ومعناه: أن الحمد الكامل ثابت لله، وهذا يقتضي ثبوت كل ما يحمد عليه من صفات كماله ونعوت جماله؛ إذ من عدم صفات الكمال فليس بمحمود على الإطلاق، ولكن غايته أن يكون محمودًا من كل وجه وبكل اعتبار بجميع أنواع الحمد إلا من حاز صفات الكمال جميعها.

«الرسول»: في اللغة: هو من بعث برسالة. يقال: أرسله بكذا، إذا طلب إليه تأديته وتبليغه، وجمعه رسل بسكون السين، ورسل بضمها.

وفي لسان الشرع: إنسان ذكر حر أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه. فإن أوحي إليه ولم يؤمره بالتبليغ فهو نبي، فكل رسول نبي ولا عكس فقد يكون نبيًّا غير رسول.

والمراد بالرسول المضاف إلى ضمير الرب هنا محمد ﷺ.

«والهدى» في اللغة: البيان والدلالة كما في قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ ﴾ فإن المعنى بينا لهم، وكما في قوله: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾.

والهدى بهذا المعنى عام لجميع الناس، ولهذا يوصف به القرآن كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ ويوصف به الرسول ﷺ كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾.

وقد يأتي الهدى بمعنى التوفيق والإلهام، فيكون خاصًّا بمن يشاء الله هدايته، قال تعالى: ﴿ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ ﴾ ولهذا نفاه الله عن رسوله، قال تعالى: ﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾.

والمراد بالهدى هنا كل ما جاء به النبي ﷺ من الإخبارات الصادقة والإيمان الصحيح والعلم النافع والعمل الصالح.

«والدين» يأتي لعدة معان، منها الجزاء كما في قوله تعالى: ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ ومنه قولهم: (كما يدين الفتى يدان).

ومنها الخضوع والانقياد، يقال: دان له بمعنى ذل وخضع، ويقال: دان الله بكذا أو على كذا بمعنى اتخذه دينًا يعبده به.

والمراد بالدين هنا جميع ما أرسل الله به رسول الله ﷺ من الأحكام والشرائع، اعتقادية كانت أم قوليه أم فعلية، وإضافته إلى الحق من إضافة الموصوف إلى صفته، أي: الدين الحق، والحق مصدر حق يحق إذا ثبت ووجب. فالمراد به الثابت الواقع، ويقابله الباطل الذي لا حقيقة له.

اللام في قوله: «ليظهره» لام التعليل وهي متعلقة بأرسل، وهو من الظهور بمعنى العلو والغلبة، أي: ليجعله عاليًا على الأديان كلها بالحجة والبرهان.

«وأل» في الدين للجنس، فيدخل فيه كل دين باطل، وهو ما عدا الإسلام.

«والشهيد» فعيل، وهو مبالغة من شهد، وهو إما من الشهادة بمعنى الإخبار والإعلام، أو من الشهادة بمعنى الحضور والمعنى ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ مخبراً بصدق رسوله أو حاضراً مطلعًا لا يغيب عنه شيء.

والمعنى الإجمالي لما تقدم أن جميع أوصاف الكمال ثابتة لله على أكمل الوجوه وأتمها.

ومما يحمد عليه سبحانه، نعمه على عباده التي لا يحصي أحد من الخلق عدها. وأعظمها إرساله محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق رحمة للعالمين، وبشرى للمتقين، ليظهره على جميع الأديان بالحجة والبرهان، والعز والتمكين والسلطان، وكفى بالله شهيداً على صدق رسوله وحقيقة ما جاء به.

وشهادته سبحانه تكون بقوله وفعله وتأييده لرسوله بالنصر والمعجزات والبراهين المتنوعة على ما جاء به هو الحق المبين.

«الشهادة» الإخبار بالشيء عن علم به واعتقاد لصحته وثبوته، ولا تعتبر الشهادة إلا إذا كانت مصحوبة بالإقرار والإذعان وواطأ القلب عليها اللسان، فإن الله قد كذب المنافقين في قولهم: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ مع أنهم قالوا بألسنتهم.

«لا إله إلا الله» هي كلمة التوحيد التي اتفقت عليها كلمة الرسل صلوات الله

وسلامه عليهم أجمعين، بل هي خلاصة دعواتهم وزبدة رسالاتهم، وما من رسول منهم إلا جعلها مفتتح أمره وقطب رحاه، كما قال نبينا ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله عز وجل**».

ودلالة هذه الكلمة على التوحيد باعتبار اشتمالها على النفي والإثبات المقتضي للحصر وهو أبلغ من الإثبات المجرد، كقولنا: الله واحد مثلاً، فهي تدل بصدرها على نفي الإلهية عما سوى الله تعالى، وتدل بعجزها على إثبات الإلهية له وحده.

ولابد فيها من إضمار خبر تقديره لا معبود بحق موجود إلا الله.

وأما قوله: «وحده لا شريك له»: فهو تأكيد لما دلت عليه كلمة التوحيد.

وقوله «إقرارًا به» مصدر مؤكد لمعنى الفعل أشهد، والمراد إقرار القلب واللسان.

وقوله: «توحيدًا» أي: إخلاصًا لله عز وجل في العبادة فالمراد التوحيد الإرادي الطلبي المبني على توحيد المعرفة والإثبات.

وجعل الشهادة للرسول ﷺ بالرسالة والعبودية، مقرونة بالشهادة لله بالتوحيد للإشارة إلى أنه لابد من كل منهما، فلا تغني إحداهما عن الأخرى، ولهذا قرن بينهما في الأذان وفي التشهد. وقال بعضهم في تفسير قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾: يعني لا أذكر إلا ذكرت معي.

وإنما جمع له بين وصفي الرسالة والعبودية؛ لأنهما أعلى ما يوصف به العبد، والعبادة هي الحكمة التي خلق الله الخلق لأجلها كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾فكمال المخلوق في تحقيق تلك الغاية، وكلما ازداد العبد تحقيقًا للعبودية ازداد كماله وعلت درجته، ولهذا ذكر الله نبيه بلقب العبد في أسمى أحواله وأشرف مقاماته كالإسراء به وقيامه بالدعوة إلى الله والإيحاء إليه والتحدي بالذي أنزل عليه، ونبه بوصف العبودية أيضًا إلى الرد على أهل الغلو الذين قد يتجاوزون بالرسول ﷺ قدره ويرفعونه إلى مرتبة الألوهية. كما يفعل ضلال الصوفية قبحهم الله،

وقد صح عنه ﷺ أنه قال: «**لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، وإنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله**»(١) ، والمقصود أن هذه الشهادة تتضمن اعتراف العبد بكمال عبوديته ﷺ لربه وكمال رسالته، وأنه فاق جميع البشر في كل خصلة كماله، ولا تتم هذه الشهادة حتىٰ يصدقه العبد في كل ما أخبر به، ويطيعه في كل ما أمر به، وينتهي عما نهىٰ عنه.

«**الصلاة**» في اللغة الدعاء، قال تعالىٰ: ﴿**وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ**﴾ وأصح ما قيل في صلاة الله علىٰ رسوله هو ما ذكره البخاري في «صحيحه» عن أبي العالية قال: صلاة الله علىٰ رسوله ثناؤه عليه عند الملائكة.

والمشهور أن الصلاة من الملائكة الاستغفار كما في الحديث الصحيح «**والملائكة يصلون على أحدكم ما دام في مجلسه الذي صلى فيه، يقولون: اللهم اغفر له اللهم ارحمه**» ومن الآدميين التضرع والدعاء.

«**وآل**» الشخص هم من يمتون إليه بصلة وثيقة من قرابة ونحوها، وآله ﷺ يراد بهم أحيانًا من حرمت عليهم الصدقة وهم بنو هاشم وبنو عبد المطلب ويراد بهم أحيانًا كل من تبعه علىٰ دينه، وأصل «آل» أهل، أبدلت الهاء همزة فتوالت همزتان فقلبت الثانية منهما ألفًا ويصغر علىٰ أهيل أو أويل، ولا يستعمل إلا فيما شرف غالبًا فلا يقال آل الإسكاف وآل الحجام.

والمراد «**بالصحب**» أصحابه ﷺ وهم كل من لقيه حال حياته مؤمنًا ومات علىٰ ذلك.

«**والسلام**» اسم مصدر من سلم تسليمًا عليه، بمعنىٰ طلب له السلامة من كل مكروه، وهو اسم من أسمائه تعالىٰ، ومعناه البراءة والخلاص من النقائص والعيوب أو الذي يسلم علىٰ عباده المؤمنين في الآخرة.

«**ومزيدًا**» صفة لتسليمًا وهو اسم مفعول من زاد المتعدي، والتقدير: مزيدًا فيه.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٣٢٦١) من حديث عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ.

●الشيخ محمد بن صالح العثيمين:

قول المؤلف رحمه الله «بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ»:

البداءة بالبسملة هي شأن جميع المؤلفين؛ اقتداءً بكتاب الله؛ حيث أنزل البسملة في ابتداء كل سورة، واستناداً إلىٰ سنة الرسول ﷺ(١).

وإعراب البسملة ومعناها تكلم فيه الناس كثيراً؛ وفي متعلقها، وأحسَنُ ما يُقال في ذلك: إنها متعلقةٌ بفعل محذوف مُتأخِّر مُناسب للمقام، فإذا قدَّمتها بين يدي الأكل، يكون التقدير: بسم الله آكل، وبين يدي القراءة يكون التقدير: بسم الله اقرأ.

نقدره فعلا؛ لأنَّ الأصل في العمل الأفعال لا الأسماء، ولهذا كانت الأفعال تعمل بلا شرط، والأسماء لا تعمل إلا بشرط؛ لأن العمل أصل في الأفعال، فرعٌ في الأسماء.

ونقدِّره متأخراً لفائدتين:

الأولىٰ: الحصر؛ لأن تقديم المعمول يفيد الحصر، فيكون: باسم الله اقرأ، بمنزلة: لا أقرأ إلا باسم الله.

الثانية: تيمناً بالبداءة باسم الله سبحانه وتعالىٰ.

ونقدره خاصا؛ لأن الخاص أدل علىٰ المقصود من العام؛ إذ من الممكن أن أقول: التقدير: باسم الله أبتدئ، لكن (باسم الله أبتدئ) لا تدل علىٰ تعيين المقصود، لكن (باسم الله أقرأ) خاص، والخاص أدل علىٰ المعنىٰ من العام.

«الله» علم علىٰ نفس الله عز وجل، ولا يُسمىٰ به غيره، ومعناه: المألوه، أي: المعبود محبةً وتعظيمًا، وهو مشتقٌ علىٰ القول الراجح لقوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ [الأنعام: ٣]، فإن ﴿فِي السَّمَاوَاتِ﴾ متعلق بلفظ الجلالة، يعني: وهو المألوه في السموات وفي الأرض.

---

(١) وذلك لما ثبت في «الصحيحين» من حديث هرقل عظيم الروم وفيه «ثم دعا بكتاب فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم» من محمد عبد الله ورسوله إلىٰ هرقل عظيم الروم... الحديث أخرجه البخاري (٦)، ومسلم (٢٣٢٢).

«الرحـــمن» فهو ذو الرحمة الواسعة؛ لأن (فعلان) في اللغة العربية تدل على السعة والإمتلاء، كما يقال: رجل غضبان: إذا امتلأ غضبًا.

«الرحيم» اسم يدل على الفعل؛ لأنه فعيل بمعنى فاعل، فهو دال على الفعل.

فيجتمع من «الرحمن الرحيم»: أن رحمة الله واسعة، وأنها واصلة إلى الخلق، وهذا هو ما أومأ إليه بعضهم بقوله: الرحمن رحمة عامة، والرحيم رحمة خاصة بالمؤمنين، ولما كانت رحمة الله للكافر رحمة خاصة في الدنيا فقط؛ فكأنها لا رحمة لهم؛ لأنهم في الآخرة يقول تعالى لهم إذا سألوا الله أن يخرجهم من النار وتوسلوا إلى الله تعالى بربوبيته واعترافهم على أنفسهم: ﴿**رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ**﴾ [المؤمنون: ١٠٧]، فلا تدركهم الرحمة، بل يدركهم العدل، فيقول الله عز وجل لهم: ﴿**قَالَ اخْسَؤُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ**﴾ [المؤمنون: ١٠٨].

قوله: «الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق، ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدًا».

قوله: «الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق»: الله تعالى يُحمد على كماله عز وجل وعلى إنعامه؛ فنحن نحمد الله عز وجل؛ لأنه كامل الصفات من كل وجه، ونحمده أيضًا؛ لأنه كامل الإنعام والإحسان ﴿**وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ**﴾ [النحل: ٥٣]، وأكبر نعمة أنعم الله بها على الخلق إرسال الرسل الذي به هداية الخلق، ولهذا يقول المؤلف: «الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق».

والمراد بالرسول هنا الجنس؛ فإن جميع الرسل أرسلوا بالهدى ودين الحق، ولكن الذي أكمل الله به الرسالة محمد ﷺ، فإنه قد ختم الله به الأنبياء، وتم به البناء، كما وصف النبي ﷺ نفسه بالنسبة للرسل، كرجل بنى قصرًا وأتمه؛ إلا موضع لبنة، فكان الناس يأتون إلى هذا القصر ويتعجبون منه، إلا موضع هذه اللبنة، يقول: «**فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين**»[١]، عليه الصلاة والسلام.

وقوله: «بالهدى»: الباء هنا للمصاحبة، والهدى هو العلم النافع، ويحتمل أن

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٥٣٥) ومسلم (٢٢٨٦) من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

تكون الباء للتعدية، أي: إن المرسل به هو الهدىٰ ودين الحق.

و«دين الحق»: هو العمل الصالح؛ لأن الدين هو العمل أو الجزاء على العمل؛ فمن إطلاقه على العمل: قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]، ومن إطلاقه على الجزاء: قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ [الإنفطار: ١٧]، والحق ضد الباطل، وهو - أي: الحق - المتضمن لجلب المصالح ودرء المفاسد في الأحكام والأخبار.

قوله: «لِيُظهره على الدين كله»: اللام للتعليل. ومعنىٰ «ليظهره»؛ أي: يعليه؛ لأن الظهور بمعنىٰ العلو، ومنه: ظهر الدابة أعلاها، ومنه: ظهر الأرض سطحها، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥].

والهاء في «يظهره» هل هو عائد على الرسول أو على الدين؟

إن كان عائدًا علىٰ «دين الحق»، فكل من قاتل لدين الحق سيكون هو العالي؛ لأن الله يقول: «ليظهره»، يظهر هذا الدين على الدين كله، وعلىٰ ما لا دين له، فيظهره عليهم من باب أولىٰ؛ لأن من لا يدين أخبث ممن يدين بباطل، فإذًا: كل الأديان التي يزعم أهلها أنهم علىٰ حق سيكون دين الإسلام ظاهرًا ومن سواهم من باب أولىٰ.

وإن كان عائدًا إلىٰ الرسول عليه الصلاة والسلام، فإنما يظهر الله رسوله لأن معه دين الحق.

وعلىٰ كلا التقديرين؛ فإن من تمسك بهذا الدين الحق، فهو الظاهر العالي، ومن ابتغىٰ العزة في غيره، فقد ابتغىٰ الذل، لأنه لا ظهور ولا عزة ولا كرامة إلا بالدين الحق، ولهذا أنا أدعوكم معشر الإخوة إلىٰ التمسك بدين الله ظاهرًا وباطنًا في العبادة والسلوك والأخلاق، وفي الدعوة إليه، حتىٰ تقوم الملة وتستقيم الأمة.

قوله: «وكفى بالله شهيدًا»: يقول أهل اللغة: إن الباء هنا زائدة، لتحسين اللفظ والمبالغة في الكفاية، وأصلها: «وكفىٰ الله».

و«شهيدًا»: تمييز محول عن الفاعل؛ لأن أصلها: «وكفت شهادة الله».

المؤلف جاء بالآية؛ ولو قال قائل: ما مناسبة «كفىٰ بالله شهيدًا»؛ لقوله:

«ليظهره على الدين كله»؟ .

قيل: المناسبة ظاهرة؛ لأن هذا النبي عليه الصلاة والسلام جاء يدعو الناس ويقول: «**من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني دخل النار**»[١] . ويقول بلسان الحال: من أطاعني سالمته، ومن عصاني حاربته. ويحارب الناس بهذا الدين، ويستبيح دماءهم وأموالهم ونساءهم وذريتهم، وهو في ذلك منصور مؤزر غالب غير مغلوب؛ فهذا التمكين له في الأرض، أي: تمكين الله لرسوله في الأرض: شهادة من الله عز وجل فعليه بأنه صادق، وأن دينه حق، لأن كل من افترى على الله كذبًا؛ فمآله الخذلان والزوال والعدم، وانظر إلى الذين ادعوا النبوة ماذا كان مآلهم؟ أن نسوا وأهلكوا، كمسيلمة الكذاب، والأسود العنسي.... وغيرهما ممن ادعوا النبوة، كلهم تلاشوا، وبان بطلان قولهم، وحرموا الصواب والسداد، لكن هذا النبي محمد ﷺ على العكس، دعوته إلى الآن والحمد لله باقية، ونسأل الله أن يثبتنا وإياكم عليها، دعوته إلى الآن باقية، وإلى أن تقوم الساعة، ثابتة راسخة، يستباح بدعوته إلى اليوم دماء من ناوأها من الكفار وأموالهم، وتسبى نساؤهم وذريتهم، هذه الشهادة فعلية، ما أخذه الله ولا فضحه ولا كذبه، ولهذا جاءت بعد قوله: «ليظهره على الدين كله».

قوله: «وأشهد أن لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، إقرارًا به وتوحيدًا».

«**أشهد**»، بمعنى: أقر بقلبي ناطقًا بلساني؛ لأن الشهادة نطق وإخبار عما في القلب؛ فأنت عند القاضي تشهد بحق فلان على فلان، تشهد باللسان المعبر عما في القلب، واختيرت الشهادة دون الإقرار؛ لأن الشهادة أصلها من شهود الشيء، أي: حضوره ورؤيته؛ فكأن هذا المخبر عما في قلبه الناطق بلسانه، كأنه يشاهد الأمر بعينه.

«**لا إله إلا الله**» أي: لا معبود حق إلا الله، وعلى هذا يكون خبر لا محذوفًا، ولفظ الجلالة بدلا منه.

«**وحده لا شريك له**»: «وحده»: هي من حيث المعنى توكيد للإثبات، «لا

---

(١) صحيح: أخرجه البخاي (٧٢٨٠) وأحمد في «مسنده» (٢/ ٣٦١) من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه.

شريك له»: توكيد للنفي.

«إقرارًا به وتوحيدًا»: «إقرارًا»: هذه مصدر، وإن شئت؛ فقل: إنه مفعول مطلق؛ لأنه مصدر معنوي لقوله: «أشهد»، وأهل النحو يقولون: إذا كان المصدر بمعنى الفعل دون حروفه؛ فهو مصدر معنوي، أو مفعول مطلق، وإذا كان بمعناه وحروفه؛ فهو مصدر لفظي فـ: قمت قيامًا: مصدر لفظي، و: قمت وقوفًا: مصدر معنوي، و: جلست جلوسًا: لفظي، و: جلست قعودًا: معنوي.

وقوله: «وتوحيدًا»: مصدر مؤكد لقوله: «لا إله إلا الله».

قوله. «وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله».

نقول في: «أشهد» ما قلنا في «أشهد» الأولى.

«ومحمد»: هو ابن عبد الله بن عبد المطلب القرشي الهاشمي، الذي هو من سلالة إسماعيل بن إبراهيم، أشرف الناس نسبًا، عليه الصلاة والسلام.

هذا النبي الكريم هو عبد الله ورسوله، وهو أعبد الناس لله، وأشدهم تحقيقًا لعبادته، كان عليه الصلاة والسلام يقوم في الليل حتى تتورم قدماه، ويقال له: كيف تصنع هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟! فيقول: «أفلا أكون عبدًا شكورًا؟»؛ لأن الله تعالى أثنى على العبد الشكور حين قال عن نوح: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣]، فأراد النبي عليه الصلاة والسلام أن يصل إلى هذه الغاية، وأن يعبد الله تعالى حق عبادته، ولهذا كان أتقى الناس، وأخشى الناس لله[1]، وأشدهم رغبةً فيما عند الله تعالى؛ فهو عبد الله، ومقتضى عبوديته أنه لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعًا ولا ضرًا، وليس له حق في الربوبية إطلاقًا، بل هو عبد محتاج إلى الله مفتقر له يسأله ويدعوه ويرجوه ويخافه، بل إن الله أمره أن يعلن وأن يبلغ بلاغًا خاصا بأنه لا يملك شيئًا من هذه الأمور، فقال: ﴿قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاء اللهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ [الأعراف: ١٨٨]، وأمره أن يقول: ﴿قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللهِ وَلاَ أَعْلَمُ الغَيْبَ

---

(١) وفي الحديث «والله إني لأخشاكم وأتقاكم له» أخرجه البخاري (٥٦٠٣) ومسلم (١٤٠١) من حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه.

وَلا أَقُول لكُمْ إِنِّي مَلكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ ﴾ [الأنعام: ٥٠]. وأمره أن يقول: ﴿ قُل إِنِّي لا أَمْلكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا رَشَدًا * قُل إِنِّي لن يُجِيرَنِي مِنَ اللهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِه مُلْتَحَدًا * إِلا بَلاغًا ﴾ [الجن: ٢١-٢٣]: إلا استثناء منقطع؛ أي: لكن أبلغ بلاغًا من الله ورسالاته.

فالحاصل أن محمدًا صلوات الله وسلامه عليه عبدٌ لله، ومقتضى هذه العبودية أنه لا حق له في شيء من شئون الربوبية إطلاقًا..

وإذا كان محمدٌ رسول الله صلوات الله وسلامه عليه بهذه المثابة؛ فما بالك بمن دونه من عباد الله؟! فإنهم لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًّا، ولا لغيرهم أبدًا، وبهذا يتبين سفه أولئك القوم الذين يدعون من يدّعونهم أولياء من دون الله عز وجل.

وقوله: «ورسوله»: هذا أيضًا وصف لا يكون لأحد بعد رسول الله ﷺ؛ لأنه خاتم النبيين؛ فهو رسول الله الذي بلغ مكانًا لم يبلغه أحدٌ من البشر، بل ولا من الملائكة فيما نعلم، اللهم إلا حملة العرش، وصل إلى ما فوق السماء السابعة، وصل إلى موضع سمع فيه صريف أقلام القضاء الذي يقضي به الله عز وجل في خلقه[1]، ما وصل أحد فيه للعلم إلى هذا المستوى، وكلمه الله عز وجل بدون واسطة، وأرسله إلى الخلق كافة، وأيده بالآيات العظيمة التي لم تكن لأحد من البشر أو الرسل قبله، وهو هذا القرآن العظيم؛ فإن هذا القرآن لا نظير له في آيات الأنبياء السابقين أبدًا، ولهذا قال الله تعالى: ﴿ وَقَالُوا لوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُل إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ ﴾ [العنكبوت: ٥٠، ٥١]، هذا يكفي عن كل شيء، ولكن لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد؛ أما المُعرض؛ فسيقول كما قال من سبقه: هذا أساطير الأولين!

الحاصل أن محمدًا ﷺ رسول الله وخاتم النبيين، ختم الله به النبوة والرسالة أيضًا؛ لأنه إذا انتفت النبوة، وهي أعم من الرسالة؛ انتفت الرسالة التي هي أخص؛ لأن انتفاء الأعم يستلزم انتفاء الأخص؛ فرسول الله عليه الصلاة والسلام هو خاتم

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٤٩) ومسلم (١٦٣) من حديث أبي ذر ـ رضي الله عنه.

النبيين.

قوله: «صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا مزيدًا».

معنى «صلى الله عليه»: أحسن ما قيل فيه ما قاله أبو العالية - رحمه الله - قال: «صلاة الله على رسوله: ثناؤه عليه في الملأ الأعلى».

وأما من فسر صلاة الله عليه بالرحمة؛ فقوله ضعيف[1]؛ لأن الرحمة تكون لكل أحد، ولهذا أجمع العلماء على أنك يجوز أن تقول: فلان رحمه الله، واختلفوا؛ هل يجوز أن تقول: فلان صلى الله عليه؟ وهذا يدل على أن الصلاة غير الرحمة. وأيضًا؛ فقد قال الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة: ١٥٧]، والعطف يقتضي المغايرة، إذًا؛ فالصلاة أخص من الرحمة؛ فصلاة الله على رسوله ثناؤه عليه في الملأ الأعلى.

وكذلك قوله: «وعلى آله»، (وآله) هنا: أتباعه على دينه، هذا إذا ذكرت الآل وحدها أو مع الصحب؛ فإنها تكون بمعنى أتباعه على دينه منذ بعث إلى يوم القيامة. ويدل على أن الآل بمعنى الأتباع على الدين قوله تعالى في آل فرعون: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦]؛ أي: أتباعه على دينه.

أما إذا قرنت بالأتباع؛ فقيل: آله وأتباعه؛ فالآل هم المؤمنون من آل البيت أي: بيت الرسول عليه الصلاة والسلام.

وشيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - لم يذكر الأتباع هنا؛ قال: «آله وصحبه»؛ فنقول: آله هم أتباعه على دينه، وصحبه كل من اجتمع بالنبي ﷺ مؤمنًا به ومات على ذلك.

وعطف الصحب هنا على الآل من باب عطف الخاص على العام؛ لأن الصحبة أخص من مطلق الاتباع.

قوله: «وسلم تسليمًا مزيدًا»: (سلم) فيها السلامة من الآفات، وفي الصلاة

---

(١) جاء ذلك عن سفيان الثوري وغير واحد من أهل العلم أنهم قالوا: «صلاة الرب الرحمة وصلاة الملائكة الاستغفار».

حصول الخيرات؛ فجمع المؤلف في هذه الصيغة بين سؤال الله تعالىٰ أن يحقق لنبيه الخيرات ـ وأخصها: الثناء عليه في الملأ الأعلىٰ ـ وأن يزيل عنه الآفات، وكذلك من اتبعه.

والجملة في قوله: «صلىٰ» و«سلم» خبرية لفظًا طلبية معنىٰ؛ لأن المراد بها الدعاء.

وقوله: «مزيدًا»؛ بمعنىٰ: زائدًا أو زيادة، والمراد تسليمًا زائدًا علىٰ الصلاة، فيكون دعاءً آخر بالسلام بعد الصلاة.

والرسول عند أهل العلم: «من أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه».

وقد نبئ ﷺ بـ ﴿اقْرَأْ﴾ [العلق: ١][1]، وأرسل بالمدثر[2]؛ فبقوله تعالىٰ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ إلىٰ قوله: ﴿عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١ـ٥]، كان نبيًّا، وبقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر: ١، ٢]، كان رسولا عليه الصلاة والسلام.

● الشيخ صالح الفوزان:

ابتدأ المصنف رحمه الله كتابه بالبسملة؛ اقتداءً بالكتاب العزيز حيث جاءت البسملة في ابتداء كل سورة، ما عدا سورة (براءة). واقتداءً بالنبي ﷺ حيث كان يبدأ بها مكاتباته[3].

وقوله: «بسم الله»: الباء للاستعانة، والاسم في اللغة: ما دل علىٰ مسمىٰ، وعند النحويين: ما دل علىٰ معنىً في نفسه ولم يقترن بزمان. والجار والمجرور متعلق بمحذوف ينبغي أن يقدر متأخرًا؛ ليفيد الحصر.

و (الله): علم علىٰ الذات المقدسة، ومعناه: ذو الألوهية والعبودية علىٰ خلقه أجمعين. مشتق من ألِهَ يَأْلَه ألوهة بمعنىٰ: عَبد يُعبَد عبادة. فالله إله بمعنىٰ: مألوه، أي: معبود.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤) ومسلم (١٦٠) من حديث عائشة ـ رضي الله عنها.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥)، ومسلم (١٦١) من حديث جابر بن عبد الله الأنصاري ـ رضي الله عنه.

(٣) كما في حديث هرقل في البخاري (٧) ومسلم (١٧٧٣).

و (الرحمن الرحيم) اسمان كريمان من أسمائه الحسنىٰ دالان علىٰ اتصافه تعالىٰ بالرحمة علىٰ ما يليق بجلاله.

فـ (الرحمن): ذو الرحمة العامة لجميع المخلوقات. و «الرحيم»: ذو الرحمة الخاصة بالمؤمنين، كما قال تعالىٰ: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

افتتح هذه الرسالة الجليلة بهذه الخطبة المشتملة علىٰ حمد الله والشهادتين والصلاة والسلام علىٰ رسوله؛ تأسّيًا بالرسول ﷺ في أحاديثه وخطبه، وعملاً بقوله ﷺ: «كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بحمد الله فهو أقطع» رواه أبو داود وغيره[1].

ويروىٰ: «ببسم الله الرحمن الرحيم»[2]. ومعنىٰ أقطع: أي: معدوم البركة، ويجمع بين الروايتين بأن الابتداء ببسم الله حقيقي وبالحمد لله نسبي إضافي.

قوله: «الحمد لله»: الألف واللام للاستغراق، أي: جميع المحامد لله ملكًا واستحقاقًا، والحمد لغة: الثناء بالصفات الجميلة والأفعال الحسنة. وعرفًا: فعل ينبئ عن تعظيم المنعم بسبب كونه منعمًا وهو ضد الذم.

«لله»: تقدم الكلام علىٰ لفظ الجلالة.

«الذي أرسل رسوله»: الله سبحانه يُحمد علىٰ نعمه التي لا تحصىٰ ومن أجلّ هذه النعم أن (أرسل) أي: بعث (رسوله) محمداً ﷺ. والرسول لغة: من بعث برسالة. وشرعًا: هو إنسان ذكر أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه.

«بالهدى»: أي: العلم النافع، وهو كل ما جاء به النبي ﷺ من الإخبارات الصادقة والأوامر والنواهي وسائر الشرائع النافعة.

والهدى نوعان:

النوع الأول: هدىً بمعنىٰ الدلالة والبيان، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧]، وهذا يقوم به الرسول ﷺ كما في قوله

---

(١) أخرجه أبوداود (٤٨٤٠) وابن ماجه (١٨٩٤) من حديث أبي هريرة.

(٢) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (١/ ٣١) وقال: أخرجه الحافظ عن عبد القادر الرهاوي في «الأربعين». بسند حسن عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

تعالىٰ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورىٰ: ٥٢].

النوع الثاني: هدىٰ بمعنىٰ التوفيق والإلهام، وهذا هو المنفي عن الرسول ﷺ ولا يقدر عليه إلا الله تعالىٰ، كما في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦].

«ودين الحق»: هو العمل الصالح، والدين يطلق ويراد به الجزاء، كقوله تعالىٰ: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]، ويطلق ويراد به الخضوع والانقياد، وإضافة الدين إلىٰ الحق من إضافة الموصوف إلىٰ صفته، أي: الدين الحق، والحق: مصدر حق يحق، بمعنىٰ: ثبت ووجب، وضده الباطل.

«ليظهره على الدين كله» أي: ليعليه علىٰ جميع الأديان بالحجة والبيان والجهاد حتىٰ يظهر علىٰ مخالفيه من أهل الأرض، من عرب وعجم مِلِّيِّين ومشركين، وقد وقع ذلك، فإن المسلمين جاهدوا في الله حق جهاده حتىٰ اتسعت رقعة البلاد الإسلامية، وانتشر هذا الدين في المشارق والمغارب.

«وكفى بالله شهيدًا» أي: شاهدًا أنه رسوله ومُطَّلع علىٰ جميع أفعاله وناصره علىٰ أعدائه، وفي ذلك دلالة قاطعة علىٰ صدق هذا الرسول، إذ لو كان مفتريًا لعاجله الله بالعقوبة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٦].

«وأشهد أن لا إله إلا الله» أي: أقر وأعترف أن لا معبود بحق إلا الله.

«وحده لا شريك له» في هاتين الكلمتين تأكيد لما تضمنته شهادة أن لا إله إلا الله من النفي والإثبات - نفي الإلهية عما سوىٰ الله وإثباتها لله.

فقوله: «وحده» تأكيد للإثبات.

وقوله: «لا شريك له» تأكيد للنفي.

وقوله: «إقرارًا به وتوحيدًا»: مصدران مؤكدان لمعنىٰ الجملة السابقة.

«وأشهد أن لا إله إلا الله» إلخ أي: إقرارًا باللسان، وتوحيدًا، أي: إخلاصًا في كل عبادة قولية أو فعلية أو اعتقادية.

وقوله: «وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله» أي: أقر بلساني وأعتقد بقلبي أن الله

أرسل عبده محمداً ﷺ إلىٰ الناس كافة؛ لأن الشهادة لهذا الرسول بالرسالة مقرونة بالشهادة لله بالتوحيد لا تكفي إحداهما عن الأخرىٰ.

وفي قوله: «عبده ورسوله» رد علىٰ أهل الإفراط والتفريط في حق الرسول ﷺ، فأهل الإفراط غلوا في حقه ورفعوه فوق منزلة العبودية، وأهل التفريط قد نبذوا ما جاء به وراء ظهورهم، كأنه غير رسول، فشهادة أنه عبد الله تنفي الغلوّ فيه ورفعه فوق منزلته، وشهادة أنه رسول الله تقتضي الإيمان به وطاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما نهىٰ عنه، واتباعه فيما شرع.

وقوله: «صلى الله عليه»: الصلاة لغة: الدعاء، وأصح ما قيل في معنىٰ الصلاة من الله علىٰ الرسول: ما ذكره البخاري في صحيحه عن أبي العالية قال: صلاة الله علىٰ رسوله ثناؤه عليه في الملأ الأعلىٰ[1].

«وعلى آله» آل الشخص: من ينتمون إليه بصلة وثيقة من قرابة ونحوها. وأحسن ما قيل في المراد بآل الرسول ﷺ هنا أنهم أتباعه علىٰ دينه.

«وأصحابه» جمع صاحب، من عطف الخاص علىٰ العام. والصحابي: هو من لقي النبي ﷺ مؤمناً به ومات علىٰ ذلك.

«وسلم تسليمًا مزيدًا» السلام: بمعنىٰ التحية أو السلامة من النقائص والرذائل.

وقوله: «مزيدًا» اسم مفعول من الزيادة وهي النمو، وجمع بين الصلاة والسلام؛ امتثالاً لقوله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ [الأحزاب: ٥٦].

* * *

(١) ذكره البخاري تعليقًا (٨/ ٦٥٤).

[أسئلة وأجوبة نموذجية على القواعد الأساسية في الإيمان بأسماء الله وصفاته]

• قال الشيخ عبد العزيز المحمد السلمان:

س ـ ما المراد من درس العقائد؟

ج ـ معرفة الله بإثبات ما أثبته لنفسه، وأثبته له رسوله ﷺ من صفات الكمال ونعوت الجلال وتنزيهه عن كل عيبٍ ونقص، وعن مشابهة المخلوقين، وتفريع هذا الأصل العظيم، وتقريره والتنبيه على أصول العقائد كلها، وعلى أدلة ذلك من الكتاب والسنة والعقل، والفطرة، وتقرير توحيد العبادة، وعبودية الله، ومحبته وحده، والإنابة إليه، ودفع ما يعارض هذه الأصول، والرد على المبتدعين المعارضين وذم الغافلين المعرضين، وبيان طريقة أهل السنة والجماعة، القائمين بهذه الأصول علمًا، وعملاً، وحالاً، ودعوة، وأن يصير الإيمان، والتصديق بالأحكام الشرعية متقنًا محكمًا لا تزلزله شبهة من شبه المبطلين.

س ـ ما المراد بمذهب السلف؟

ج ـ المراد به ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه الكرام ـ رضوان الله عليهم أجمعين ـ وأعيان التابعين لهم بإحسان، وأتباعهم وأئمة الدين ممن شهد له بالإمامة، وعرف عظم شأنه في الدين، وتلقى الناس كلامهم خلف عن سلف دون من رمي ببدعة أو شهر بقلب غير مرضي مثل الخوارج، والرافضة، والقدرية، والمرجئة، والجبرية، والجهمية، والمعتزلة، والكرامية، ونحوهم.

ومذهب السلف هو المذهب المنصور والحق الثابت المأثور، وأهله هم الفرقة الناجية، والطائفة المرحومة التي هي بكل خير فائزة، ولكل كرامة راجية من الشفاعة والورود على الحوض ورؤية الحق وسلامة الصدر والإيمان بالقدر والتسليم لما جاءت به النصوص من الكتاب والسنة.

س - ما وجه خطأ من قال: إن طريقة السلف أسلم، وطريقة الخلف أعلم وأحكم. وما مضمون مقالته هذه وبم يرد عليه وعلى من سلك طريقته؟

ج - وإنما أتوا من حيث ظنوا أن طريقة السلف هي مجرد الإيمان بألفاظ القرآن والحديث من غير فقه لذلك بمنزلة الأميين الذين قال الله فيهم ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلا أَمَانِيَّ﴾ [البقرة: ٧٨]. وأن طريقة الخلف هي استخراج معاني النصوص المعروفة عن حقائقها بأنواع المجازات وغرائب اللغات. فهذا الظن الفاسد أوجب تلك المقالات التي مضمونها نبذ الإسلام وراء الظهر، وقد كذبوا على طريقة السلف، وضلوا في تصويب طريقة الخلف فجمعوا بين الجهل بطريقة السلف في الكذب عليهم، وبين الجهل والضلال بتصويب طريقة الخلف، ويرد عليهم من وجوه:

١ - ظهور جهالة قول الخلف وضلاله عند تدبره وقول الواقف على نهاية إقدامهم بما انتهى إليه أمرهم، قال الشهرستاني في أول كتابه لما قال: قد أشار إليَّ من إشارته غنمٌ وطاعته حتمٌ أن أجمع له من مشكلات الأصول ما أشكل على ذوي العقول ولعله استسمن ذا ورمٍ ونفخ في غير ضرمٍ.

لعمري لقد طفت المعاهد كلها ... وسيرت طرفي بين تلك العوالم
فلم أر إلا واضعًا كف حائرٍ ... على ذقنٍ أو قارعًا سن نادم

وقال القشيري: معربًا عن حيرته:

تجاوزت حدَّ الأكثرين إلى العلا ... وسافرت واستبقتهم في المفاوز
وخضت بحارًا ليس يدرك قعرها ... وسيرت طرفي في قسيم المفاوز
ولججت بالأفكار ثم تراجع أخر ... تياري إلى استحسان دين العجائز

وقال الفخر الرازي مما يدل على حيرته:

نهاية إقدام العقول عقال ... وأكثر سعي العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشةٍ من جسومنا ... وغاية دنيانا أذىً ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا ... سوى أن جمعنا فيه قيل وقال

وقال في آخر حياته:

لعمري وما أدري وقد أذن البلى ... بعاجلٍ ترحالي إلى أين ترحالي

وأين محل الروح عند خروجها ... من الهيكل المنحل والجسد البالي

٢ـ وقول الآخر: لقد خضت البحر الخضم وتركت أهل الإسلام وعلومهم وخضت في الذي نهوني عنه، والآن إن لم يتداركني ربي برحمته فالويل لفلانٍ وها أنا أموت على عقيدة أمي.

ويقول الآخر: أكثر الناس شكًّا عند الموت أصحاب الكلام.

٣ ـ أن هؤلاء المتكلمين المخالفين للسلف إذا حقق عليهم الأمر لا يوجد عندهم من حقيقة العلم بالله وخالص المعرفة خبر ولا وقفوا من ذلك على عين ولا أثر.

٤ ـ يستحيل أن يكون أولئك: الحيارى المتهوكون أعلم بالله وأسمائه وصفاته وأحكم في باب ذاته وآياته من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان من ورثة الأنبياء وخلفاء الرسل وأعلام الهدى.

س ـ لماذا بدأ المصنفون بالبسملة في كتبهم؟

ج ـ تأسيًا بالكتاب المنزل على النبي المرسل ﷺ، واقتداءً بالنبي في مكاتباته للملوك وغيرهم وامتثالاً لقوله ﷺ: «**كل امر ذي بال لا يبدأ فيه بباسم الله الرحمن الرحيم فهو أقطع**» والباء للاستعانة وهي متعلقة بمحذوف والتقدير: أبتدئ باسم الله المعبود المستحق لإفراده بالعبادة لما اتصف به من صفات الألوهية وهي صفات الكمال، و «**الرحمن الرحيم**» اسمان دالان على أنه تعالى ذو رحمة واسعة عظيمة وسعت كل شيء، وعمت كل حي، وهما من أبنية المبالغة لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، والرحمن خاص بالله لا يسمى به غيره بخلاف الرحيم فيوصف به غيره ويدل على تعلقها بالمرحوم فيقال فلانٌ رحيم. والرحمة صفة من صفاته فيؤخذ من البسملة فوائد:

١ ـ صفة الألوهية.

٢ ـ إثبات صفة الرحمة.

٣ ـ تضمنت إثبات الرسالة، والمأخذ من لفظ الجلالة لأنه المألوه المعبود ولا طريق إلى عبادته إلا من طريق الرسالة، وكذلك من اسم الرحمن لأن رحمته تمنع من إهمال عباده وتركهم سدى.

٤ ـ إثبات صفة الكلام والرد علىٰ من أنكر الرحمة أو أولها بتأويل باطل.

س ـ ما مراد المؤلف بتصنيف هذه العقيدة وما سبب تأليفها؟ ولماذا سميت بالواسطية؟ وما معنى «الحمد» لغةً وعرفًا؟

ج ـ مراده بيان عقيدة أهل السنة في توحيد الأسماء والصفات، وما جاء بالكتاب، وأجمع عليه سلف الأمة من العقيدة السليمة من شوائب البدع، وآراء أهل الكلام المضللة وسبب تأليفها.

قيل: إنه سأله رجل من أهل واسط أن يكتب له عقيدة تكون عدة له ولأهل بيته وبلده.

وقيل: لأنَّ المصنف ذكر فيها أن أهل السنة وسط بين فرق الضلال والزيغ من هذه الأمة، و«الحمد» لغة الثناء بالصفات الجميلة والأفعال الحسنة، وعرفًا فعل ينبئ عن تعظيم المنعم على الحامد، وغيره، وقيل: إن «الحمد» ذكر صفات المحمود مع حبه وتعظيمه وإجلاله فإن تجرد عن ذلك فهو مدح فيكون الفرق بينهما واضح.

س ـ من هو الرسول ومن هو النبي؟

ج ـ «الرسول» لغة: من بعث برسالةٍ، واصطلاحًا: إنسان ذكرٌ أُوْحي إليه بشرعٍ وأُمِر بتبليغه فإن أُوْحي إليه ولم يؤمر فهو نبي فكل رسول نبيٌ ولا عكس.

س ـ ما هو «الهدى» وما هي أقسامه؟

ج: «الهدىٰ» لغة: الدلالة، والبيان. وهو ينقسم إلىٰ قسمين:

هدى دلالةٍ وبيان: وهو الذي يقدر عليه الرسل وأتباعهم.

وهدى معناه: التوفيق والإلهام، وهذا لا يقدر عليه إلا الله مختص بمن يشاء الله هدايته.

س ـ ما دليل كل قسم من أقسام الهداية؟

ج ـ أما الدليل الأول وهو هدىٰ الدلالة والبيان فقوله تعالىٰ ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧] وقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورىٰ: ٥٢] وقوله ﷺ لعلي ابن أبي طالب ـ رضي الله تعالىٰ عنه ـ «**لأنْ يهدي الله بك رجلاً واحدًا خير لك من حمر النعم**».

ودليل القسم الثاني وهو الذي لا يقدر عليه إلا الله قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦].

س ـ ما المراد بالهدى المذكور في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ﴾ الآية؟

ج: المراد ما جاء به النبي ﷺ من الإخبارات الصادقة، والإيمان الصحيح، والعلم النافع، والعمل الصالح.

س ـ ما المراد بـ «دين الحق»؟ وما معنى قوله تعالى ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾؟ وما الذي ينحصر به الصلاح؟

ج ـ المراد دين الإسلام وإضافته إلىٰ الحق من إضافة الموصوف إلىٰ صفته، أي الدين الحق فجميع ما شرعه من الأحكام حق وصدق ومعنىٰ قوله: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ أي ليعليه علىٰ الأديان كلها بالحجة والبرهان، و «أل» في الدين للجنس فيدخل فيه كل دين باطل وهو ما عدا دين الإسلام. أعز الله الإسلام وأهله.

والصلاح منحصر في نوعين: في العلم النافع والعمل الصالح وقد بعث الله محمداً ﷺ بأفضل ذلك وهو الهدىٰ ودين الحق ليظهره علىٰ الدين كله وكفىٰ بالله شهيداً، فالعلم النافع هو الإيمان، والعمل الصالح هو الإسلام، العلم النافعُ من علم الله، والعمل الصالح هو العمل بأمر الله، هذا تصديق الرسول فيما أخبر، وهذا طاعته فيما أمر، وضد الأول: أن يقول علىٰ الله بلا علم، وضد الثاني: أن يشرك بالله ما لم ينزل به سلطانًا، والأول أشرف فكل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمنًا.

س ـ بأي شيء تكون معرفة الإنسان لدينه؟

ج ـ تكون بمعرفة أركانه الثلاثة المذكورة في حديث جبريل المشهور وهي: الإسلام، والإيمان، والإحسان، وقد بينها ﷺ بيانًا واضحًا شافيًا كافيًا.

س ـ ما معنى قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾؟

ج ـ المعنىٰ وكفىٰ بشهادته سبحانه إثباتًا لصدقه، وكفىٰ بالله شهيداً في علمه واطلاعه علىٰ أمر محمد ﷺ كفاية في صدق هذا المخبر عنه إذ لو كان مفتريًا لعاجله بالعقوبة كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ

﴿لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٦].

س - بأي شيء تكون شهادته سبحانه وتعالى؟

ج - بقوله وفعله ونصره وتأييده، ومن أسمائه تعالى «الشهيد» ومعناه الذي لا يغيب عنه شيء، وهو مرادف لـ«الرقيب» سبحانه، مطلع على كل شيء، مشاهد له عليم بجميع المعلومات الخفية والجلية سميع لكل الأصوات، مبصر لجميع المبصرات.

قال ابن القيم رحمه الله:

وهو الرقيب على الخواطر واللوا حظ كيف بالأفعال بالأركان

س - ما معنى شهادة أن لا إله إلا الله؟

ج - معناها لا معبود بحق إلا الله، وأركانها اثنان نفيٌ وإثبات، وحد النفي من الإثبات (لا إله) أي: نافيًا جميع ما يعبد من دون الله والإثبات قوله (إلا الله) أي: مثبتًا العبادة لله وحده لا شريك له في عبادته كما أنه ليس له شريك في ملكه.

س - كم شروط لا إله إلا الله، وما هي، وما الذي ينافيها؟

ج - شروطها سبعة فأولها: العلم المنافي للجهل، والثاني: اليقين المنافي للشك، والثالث: الإخلاص المنافي للشرك، والرابع: الصدق المنافي للكذب، والخامس: المحبة المنافية لضدها، والسادس: الانقياد المنافي للامتناع، والسابع: القبول المنافي للرد. قال بعضهم:

علم يقين وإخلاص وصدقك مع محبة وانقياد والقبول لها

س - هل يكتفى بالنطق بالشهادة، أم لابد من العلم بمعناها والعمل بمقتضاها؟ وما هي عبارات السلف في لفظة شهد وما هي مراتب الشهادة وما هي الأشياء التي تتضمنها الشهادة؟

ج - لا تعتبر إلا لمن تكلم بها عارفًا لمعناها عاملاً بمقتضاها ظاهراً وباطنًا فلابد للشهادتين من العلم بمدلولهما والعمل بذلك، قال تعالى: ﴿إِلاَّ مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦] وقال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾ [محمد: ١٩].

وعبارات السلف في «شهد» تدور على الحكم والقضاء والإعلام والبيان والإخبار

وهذه الأقوال كلها حق لا تنافي بينها فإن الشهادة تتضمن كلام الشاهد وخبره وتتضمن إعلامه وإخباره وبيانه، ولها أربع مراتب فأول مراتبها: علم ومعرفة واعتقاد لصحة المشهود به وثبوته، والثاني: تكلم بذلك وإن لم يعلم به غيره بل يتكلم بها مع نفسه ويتذكرها وينطق بها أو يكتبها، وثالثها: أن يعلم غيره بما شهد به ويخبره به ويبينه له، ورابعها: أن يلزمه بمضمونها ويأمره به.

س - ما معنى شهادة أن محمداً رسول الله؟

ج - طاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما عنه نهى وزجر، وأن لا يُعبد الله إلا بما شرع، وأن يعظم أمره ونهيه فلا يقدم عليه قول أحد كائناً ما كان.

س - ما الحكمة في جعل الشهادة للرسول بالرسالة مقرونة بالشهادة لله بالتوحيد وما الذي يدخل في الشهادتين؟

ج - فيه إشارة إلى أنه لابد من كل منهما فلا تغني إحداهما عن الأخرى ولهذا قرن بينهما في الأذان وفي التشهد، وقال الحسن في قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤] وذلك أن الله لا يذكر في موضع إلا ذكر معه ﷺ، وقال قتادة: رفع الله ذكره في الدنيا والآخرة فليس خطيب ولا متشهد ولا صاحب صلاة إلا ينادي فيقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله. وقال مجاهد: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾، يعني بالتأذين.

قال حسان مشيراً إلى هذا المعنى:

أغر عليه للنبوة خاتم ... من الله مشهور يلوح ويشهد

وضم الإله اسم النبي إلى اسمه ... إذا قال في الخمس المؤذن أشهد

وشق له من اسمه ليجله ... فذو العرش محمود وهذا محمد

قال الشيخ رحمه الله:

وجميع الدين داخل في الشهادتين إذ مضمونهما أن لا نعبد إلا الله وأن نطيع رسوله، والدين كله داخل في هذا في عبادة الله بطاعة الله وطاعة رسوله وكل ما يجب أو يستحب داخل في طاعة الله ورسوله.

س ـ ما الحكمة في الجمع له ﷺ بين وصفي العبودية والرسالة؟

ج ـ لأنهما أعلى ما يوصف به العبد، والرسول ﷺ أكمل الخلق فيهما، وفيه التنبيه للرد على الذين رفعوه فوق منزلته كالبوصيري وأشباهه والذين نبذوا ما جاء به وراء ظهورهم واعتمدوا على الآراء التي تخالف ما جاء به ﷺ كالجهمية والمعتزلة ومن نحا نحوهم.

س ـ ما حق الله، وما حق الرسول وما الحق المشترك الذي لله ولرسوله؟

ج ـ أما حق الله: فهو عبادته وحده لا شريك له، فأنواع العبادة التي أمر الله بها كلها له وحده وذلك كالصلاة، والحج والذبح، والسجود، والتوكل، والرغبة، والرهبة، والاستعانة، والاستغاثة، والاستعاذة، والنذر، والخوف، والرجاء، والدعاء، والتسبيح، والتهليل، والتكبير، والإنابة والتقى،

وحق الرسول ﷺ تعزيره، وتوقيره وتبجيله، قال تعالى: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ [الفتح: ٩].

والحق المشترك هو الإيمان والتصديق والحب. قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ:

الرب رب والرسول فعبده	حق وليس لنا إله ثان
فلذاك لم نعبده مثل عبادة الر	حمن فعل المشرك النصراني
كلا ولا نغل الغلو كما نهى	عنه الرسول مخافة الكفران
لله حق لا يكون لغيره	ولعبده حق هما حقان
لا تجعلوا الحقين حقًّا واحدًا	من غير تمييز ولا فرقان
فالحج للرحمن دون رسوله	وكذا الصلاة وذبح ذي القربان
وكذا السجود ونذرنا ويميننا	وكذا متاب العبد من عصيان
وكذا التوكل والإنابة والتقى	وكذا الرجاء وخشيه الرحمن
وكذا العبادة واستعاذتنا به	إياك نعبد ذان توحيدان
وعليهما قام الوجود بأسره	دنيا وأخرى حبذا الركنان

وكذلك التسبيح والتكبير والت تهليل حق إلهنا الديان

لكنما التعزير والتوقير حقْ قٌ للرسول بمقتضى القرآن

والحب والإيمان والتصديق لا يختص بل حقان مشتركان

هذه تفاصيل الحقوق ثلاثة لا تجهلوها يا أولي العرفان

س ـ ما معنى الصلاة على النبي ﷺ ومن هم آله ﷺ؟

ج ـ ثناء الله على رسوله ﷺ في الملأ الأعلى وآل الشخص هم المنتسبون إليه الذين تجمعهم به صلة وثيقة من قرابةٍ، ونحوها، وآلهُ ﷺ أحسن ما قيل في ذلك أنهم أتباعه على دينه إلى يوم القيامة كما قيل:

آل النبي هموا أتباع ملته على الشريعة من عجمٍ ومن عربِ

لو لم يكن آله إلا قرابته صلى المصلي على الطاغي أبي لهبِ

والصحابي كل من لقيه ﷺ مؤمنًا، ومات على ذلك.

س ـ ما معنى قوله: وسلم تسليمًا مزيدًا؟ ولم جمع المصنف بين الصلاة والسلام؟

ج ـ السلام اسم مصدر بمعنى طلب له السلامة مما يكره والسلام من أسمائه تعالى، ومعناه السالم من كل عيب ونقص قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ:

وهو السلام على الحقيقة سالم من كل تمثيل ومن نقصان.

وأما جمع المصنف لهما فالظاهر والله أعلم أنه اتِّباعًا للآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ [الأحزاب: ٥٦] ولو اقتصر على أحدهما جاز بلا كراهة.

* * *

اعتقاد الفرقة الناجية

(اهل السنة والجماعة)

أمَّا بعدُ فهَذَا اعْتقَادُ الفرْقَةِ النَّاجيَةِ المَنْصُورةِ إلى قيامِ السَّاعَةِ أهْلِ السُّنَّةِ والجَمَاعَةِ.

وهـو الإيمانُ بــ اللَّه، ومَلائكَتِـه، وكُتُبِه، ورُسُلِه، والبَـعْثِ بَعْدَ المَوْتِ والإيمانِ بالقَدَرِ؛ خَيْرِه وشَرِّه.

• الشَّرح •

● قال العلامة ناصر السعدي:

يقول المصنِّف رحمه الله: إنَّ ما احتوت عليه هذه الرِّسالة هو العقيدة المنجية من الهلاك والشرور، المُحصِّلة لخير الدنيا والآخرة، والمورُوثة عن محمد ﷺ، المأخُوذة عن كتاب اللَّه وسُنَّةِ رسوله، وهي التي عليها الصَّحابة والتابعون لهم بإحسان إلىٰ يوم القيامة، الذين ضمن اللَّه لهم علىٰ لسان رسوله النَّصر إلىٰ قيام السَّاعة، والنَّصر إنَّما حَصَلَ لهم ببركة هذه العقيدة والعمل بها وتحقيقها بالقيام بجميع أُمور الدِّين.

وأصلها الذي تُبنَىٰ عليه هو: الإيمان بهذه الأصول السِّتَّة التي صرَّح بها الكتاب والسُّنَّة في مواضع كثيرة، جُملة وتفصيلاً، وتأصيلاً وتفريعًا.

وهذ المذكورة في حديث جبريل المشهور حين سأل جبريل النبي ﷺ: «ما الإيمان؟» فأجابه بها.

فهذه الرسالة من أولها إلىٰ آخرها تفصيلٌ لهذه الأصول السِّتَّة.

● قال الشيخ محمد خليل هراس:

«أما بعد» كلمة يؤتى بها للدلالة على الشروع في المقصود، وكان النبي ﷺ يستعملها كثيراً في خطبه وكتبه. وتقديرها عند النحويين مهما يكن من شيء بعد.

والإشارة بقوله «هذا» إلى ما تضمنه هذا المؤلف من العقائد الإيمانية التي أجملها في قوله «وهو الإيمان بالله... إلخ».

«والاعتقاد» مصدر اعتقد كذا إذا اتخذه عقيدة له، بمعنى عقد عليه الضمير والقلب ودان لله به، وأصله من عقد الحبل، ثم استعمل في التصميم والاعتقاد الجازم.

«والفرقة» بكسر الفاء: الطائفة من الناس، ووصفها بأنها «الناجية المنصورة» أخذًا من قوله عليه السلام **«لا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله»**(١).

ومن قوله في الحديث الآخر: **«ستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلهم في النار إلا واحدة، وهي من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي»**(٢).

وقوله: «أهل السنة والجماعة»: بدل من الفرقة، والمراد بالسنة الطريقة التي كان عليها رسول الله ﷺ وأصحابه قبل ظهور البدع والمقالات. والجماعة في الأصل القوم المجتمعون، والمراد بهم هنا سلف هذه الأمة من الصحابة والتابعين الذين اجتمعوا على الحق الصريح من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ.

هذه الأمور الستة هي أركان الإيمان فلا يتم إيمان أحد إلا إذا آمن بها جميعًا على الوجه الصحيح الذي دل عليه الكتاب والسنة، فمن جحد شيئًا منها أو آمن به على غير هذا الوجه فقد كفر، وقد ذكرت كلها في حديث جبريل المشهور حين جاء إلى النبي ﷺ في صورة أعرابي يسأله عن الإسلام والإيمان والإحسان، فقال: **«أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وتؤمن بالبعث بعد الموت وبالقدر خيره وشره، حلوه ومره من الله تعالى»**(٣).

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٤٤٢)، ومسلم (١٠٣٧).

(٢) حسن: أخرجه الترمذي (٢٦٤١)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٣٤٣).

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

«والملائكة»: جمع ملك وأصله مألك من الألوكة وهي الرسالة، وهم نوع من خلق الله عز وجل أسكنهم سمواته، ووكلهم بشئون خلقه ووصفهم في كتابه بأنهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وأنهم يسبحون بالليل والنهار لا يفترون. فيجب علينا الإيمان بما ورد في حقهم من صفات وأعمال في الكتاب والسُّنَّة، والإمساك عما وراء ذلك، فإن هذا من شئون الغيب التي لا نعلم منها إلا ما علمنا الله ورسوله.

«والكتب»: جمع كتاب وهو من الكتب بمعنى الجمع والضم والمراد بها الكتب المنزلة من السماء على الرسل عليهم الصلاة والسلام. والمعلوم لنا منها صحف إبراهيم، والتوراة التي أنزلت على موسى في الألواح، والإنجيل الذي أنزل على عيسى، والزبور الذي أنزل على داود، والقرآن الكريم الذي هو آخرها نزولاً، وهو المصدق لها والمهيمن عليها، وما عداها يجب الإيمان به إجمالاً.

«والرسل» جمع رسول وقد تقدم أنه من أوحى الله إليه بشرع وأمره بتبليغه. وعلينا أن نؤمن تفصيلاً بمن سمى الله في كتابه منهم وهم خمسة وعشرون، ذكرهم الشاعر في قوله:

في «تلك حجتنا» منهم ثمانية ... من بعد عشر ويبقى سبعة وهم

إدريس هود شعيب صالح وكذا ... ذو الكفل آدم بالمختار قد ختموا

وأما من عدا هؤلاء من الرسل والأنبياء فنؤمن بهم إجمالاً على معنى الاعتقاد بنبوتهم ورسالتهم دون أن نكلف أنفسنا البحث عن عدتهم وأسمائهم، فإن ذلك مما اختص الله بعلمه، قال تعالى: ﴿ وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾.

ويجب الإيمان بأنهم بلغوا جميع ما أرسلوا به على ما أمرهم الله عز وجل، وبينوه بيانًا لا يسع أحدًا ممن أرسلوا إليه جهله، وأنهم معصومون من الكذب والخيانة، والكتمان والبلادة، وأن أفضلهم أولو العزم، والمشهور أنهم؛ محمد وإبراهيم وموسى وعيسى ونوح؛ لأنهم ذكروا معًا في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﴾ وقوله: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾.

«والبعث»: في الأصل الإثارة والتحريك، والمراد به في لسان الشرع إخراج الموتى من قبورهم أحياء يوم القيامة لفصل القضاء بينهم، فمن يعمل مثقال ذرة خيراً

يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره، ويجب الإيمان بالبعث على الصفة التي بينها الله في كتابه، وهو أنه جمع ما تحلل من أجزاء الأجساد التي كانت في الدنيا وإنشاؤها خلقًا جديدًا وإعادة الحياة إليها، ومنكر البعث الجثماني كالفلاسفة والنصارى كفار، وأما من أقر به ولكنه زعم أن الله يبعث الأرواح في أجسام غير الأجسام التي كانت في الدنيا فهو مبتدع وفاسق.

وأما (القدر) فهو في الأصل مصدر، تقول: قدرت الشيء بفتح الدال وتخفيفها، أقدره بكسرها قدراً وقدرًا، إذا أحطت بمقداره والمراد به في لسان الشرع: أن الله عز وجل علم مقادير الأشياء وأزمانها أزلاً، ثم أوجدها بقدرته ومشيئته على وفق ما علمه منها، وأنه كتبها في اللوح قبل إحداثها، كما في الحديث: «**أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب، قال: وما أكتب؟ قال: اكتب كل ما هو كائن**»وقال تعالى: ﴿**مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا**﴾.

● قال الشيخ ابن العثيمين:

قوله: «أما بعد؛ فهذا اعتقاد الفرقة الناجية المنصورة إلى قيام الساعة: أهل السنة والجماعة».

«أما بعد»: (أما) هذه نائبة عن اسم شرط وفعله، التقدير: مهما يكن من شيء؛ قال ابن مالك:

أما كَمَهْما يَكُ مِنْ شَيءٍ وَفَا   تلو تلوها وُجُوبًا أُلِفَا[١]

فقولهم: أما بعد:

التقدير: مهما يكن من شيء بعد هذا؛ فهذا.

وعليه؛ فالفاء هنا رابطةٌ للجواب، والجملة بعدها في محل جزم جواب الشرط، ويحتمل عندي أن تكون: «أما بعد؛ فهذا»؛ أي أن (ما) حرف شرط وتفصيل، أو حرف شرط فقط مجرد عن التفصيل، والتقدير: أما بعد ذكر هذا؛ فأنا أذكر كذا وكذا. ولا حاجة أن نقدر فعل شرط، ونقول: إن (أما) حرف ناب مناب الجملة.

«فهذا اعتقاد»: «فهذا»: الإشارة لا بد أن تكون إلى شيء موجود، أنا عندما

---

(١) ألفية ابن مالك فصل (أما، ولولا، ولوما).

أقول: هذا؛ فأنا أشير إلىٰ شيء محسوس ظاهر، وهنا المؤلف كتب الخطبة قبل الكتاب وقبل أن يبرز الكتاب لعالم الشاهد؛ فكيف ذلك؟!.

أقول: إن العلماء يقولون: إن كان المؤلف كتب الكتاب ثم كتب المقدمة والخطبة؛ فالمشار إليه موجود ومحسوس، ولا فيه إشكال، وإن لم يكن كتبه، فإن المؤلف يشير إلىٰ ما قام في ذهنه عن المعاني التي سيكتبها في هذا الكتاب، وعندي فيه وجه ثالث، وهو أن المؤلف قال هذا باعتبار حال المخاطب، والمخاطب لم يُخاطب بذلك إلا بعد أن برز الكتاب وصدر؛ فكأنه يقول: «فهذا الذي بين يديك كذا وكذا».

هذه إذًا ثلاثة أوجه.

«اعتقاد»: افتعال من العقد، وهو الربط والشد، هذا من حيث التصريف اللغوي، وأما في الاصطلاح عندهم؛ فهو حكم الذهن الجازم؛ يقال: اعتقدت كذا؛ يعني: جزمت به في قلبي؛ فهو حكم الذهن الجازم؛ فإن طابق الواقع؛ فصحيح، وإن خالف الواقع؛ ففاسد؛ فاعتقادنا أن الله إله واحد صحيح، واعتقاد النصارىٰ أن الله ثالث ثلاثة باطل؛ لأنه مخالف للواقع، ووجه ارتباطه بالمعنىٰ اللغوي ظاهر؛ لأن هذا الذي حكم في قلبه علىٰ شيء ما كأنه عقده عليه وشده عليه بحيث لا يتفلت منه.

و «الفرقة»، بكسر الفاء؛ بمعنىٰ: الطائفة: قال الله تعالىٰ: ﴿**فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ**﴾ [التوبة: ١٢٢]، وأما الفُرقة بالضم؛ فهي مأخوذة من الافتراق.

قوله: «الناجية»: اسم فاعل من نجا، إذا سلم؛ ناجية في الدنيا من البدع سالمة منها، وناجية في الآخرة من النار.

ووجه ذلك أن النبي ﷺ قال: «**وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة**» قالوا: من هي يا رسول الله؟ قال: «**من كان على مثل ما أنا عليه وأصحابي**»[1].

---

(١) حسن: أخرجه الترمذي (٢٦٤١) من حديث عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنه ـ وقال: «هذا حديث حسن غريب مفسر لا نعرف مثل هذا إلا من هذا الوجه» والحديث حسنه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٥٣٤٣).

هذا الحديث يبين لنا معنى (النَّاجية)؛ فمن كان على مثل ما عليه النبي ﷺ وأصحابه؛ فهو ناج من البدع. و «كلها في النار إلا واحدة»: إذًا هي ناجية من النار؛ فالنجاة هنا من البدع في الدنيا، ومن النار في الآخرة.

«المنصورة إلى قيام الساعة»: عبَّر المؤلف بذلك موافقة للحديث؛ حيث قال النبي ﷺ: «**لا تزال طائفة من أُمتي على الحق ظاهرين**»[١] والظهور الانتصار؛ لقوله تعالى: ﴿**فَأَيَّدْنَا الذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ**﴾ [الصف: ١٤]، والذي ينصرها هو الله وملائكته والمؤمنون؛ فهي منصورة إلى قيام الساعة؛ منصورة من الرب عز وجل، ومن الملائكة، ومن عباده المؤمنين، حتى قد يُنصر الإنسان من الجن؛ ينصره الجن ويُرهبون عدوَّه.

«إلى قيام الساعة»؛ أي: إلى يوم القيامة؛ فهي منصورة إلى قيام الساعة.

وهنا يرد إشكال، وهو أن الرسول عليه الصلاة والسلام أخبر بأن الساعة تقوم على شرار الخلق[٢]، وأنها لا تقوم حتى لا يقال: الله الله[٣]، فكيف نجمع بين هذا وبين قوله: «**إلى قيام الساعة**»؟!.

والجواب: أن يقال: إن المراد: إلى قرب قيام الساعة؛ لقوله في الحديث: «**حتى يأتي أمر الله**»[٤]، أو: إلى قيام الساعة؛ أي: ساعتهم، وهو موتهم؛ لأن من مات فقد قامت قيامته[٥]، لكن الأول أقرب؛ فهم منصورون إلى قرب قيام الساعة، وإنما لجأنا إلى هذا التأويل لدليل، والتأويل بدليل جائز؛ لأن الكل من عند الله.

«أهل السنة والجماعة»: أضافهم إلى السنة؛ لأنهم متمسكون بها، والجماعة؛

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٧٣١١) ومسلم (١٩٢١) من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (١٩٢٤) من حديث عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنه.

(٣) صحيح: أخرجه مسلم (١٤٨)، والترمذي (٢٢٠٧) وأحمد في «مسنده» (٣/ ١٦٢) من حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه.

(٤) صحيح: أخرجه البخاري (٧١) وأحمد في «مسنده» (٤/ ٩٩) من حديث معاوية ابن أبي سفيان ـ رضي الله عنه.

(٥) ضعيف: أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٢٦٨) من طريق داود بن المجد ثنا الواحد بن الخطاب قال: سمعت زياد النميري ونحن في جنازة وذكروا القيامة فقال زياد: «من مات قامت قيامته» وذكره العجلوني في «كشف الخفاء» (٢/ ٣٦٨) وضعفه الشيخ الألباني في «السلسلة الضعيفة» (١١٦٦).

لأنهم مجتمعون عليها .

فإن قلت: كيف يقول: «أهل السنة والجماعة»؛ لأنهم جماعة؛ فكيف يضاف الشيء إلى نفسه؟!

فالجواب: أن الأصل أن كلمة الجماعة بمعنى الاجتماع؛ فهي اسم مصدر، هذا في الأصل، ثم نقلت من هذا الأصل إلى القوم المجتمعين، وعليه؛ فيكون معنى أهل السنة والجماعة؛ أي: أهل السنة والاجتماع، سُمُّوا أهل السنة؛ لأنهم متمسكون بها، وسموا أهل الجماعة؛ لأنهم مجتمعون عليها.

ولهذا تفترق هذه الفرقة كما افترق أهل البدع؛ نجد أهل البدع؛ كالجهمية متفرقين، والمعتزلة متفرقين، والروافض متفرقين، وغيرهم من أهل التعطيل متفرقين، لكن هذه الفرقة مجتمعة على الحق، وإن كان قد يحصل بينهم خلاف، لكنه خلاف لا يضر، وهو خلاف لا يضلل أحدهم الآخر به؛ أي: أن صدورهم تتسع له، وإلا؛ فقد اختلفوا في أشياء مما يتعلق بالعقيدة؛ مثل: هل رأى النبي ﷺ ربه بعينه أم لم يره؟ ومثله: هل عذاب القبر على البدن والروح أو الروح فقط؟ ومثل بعض الأمور يختلفون فيها، لكنها مسائل تعد فرعية بالنسبة للأصول، وليست من الأصول. ثم هم مع ذلك إذا اختلفوا؛ لا يضلل بعضهم بعضاً؛ بخلاف أهل البدع.

إذاً؛ فهم مجتمعون على السنة؛ فهم أهل السنة والجماعة.

وعلم من كلام المؤلف - رحمه الله - أنه لا يدخل فيهم من خالفهم في طريقتهم؛ فالأشاعرة مثلا والماتريدية لا يعدُّون من أهل السنة والجماعة في هذا الباب؛ لأنهم مخالفون لما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه في إجراء صفات الله سبحانه وتعالى على حقيقتها، ولهذا يخطئ من يقول: إن أهل السنة والجماعة ثلاثة: سلفيون، وأشعريون، وماتريديون؛ فهذا خطأ؛ نقول: كيف يكون الجميع أهل سنة وهم مختلفون؟! فماذا بعد الحق إلا الضلال؟! وكيف يكونون أهل سنة وكل واحد يرد على الآخر؟! هذا لا يمكن؛ إلا إذا أمكن الجمع بين الضدين؛ فنعم، وإلا؛ فلا شك أن أحدهم وحده هو صاحب السنة؛ فمن هو؟! الأشعرية، أم الماتريدية، أم السلفية؟! نقول: من وافق السنة؛ فهو صاحب السنة، ومن خالف السنة؛ فليس صاحب سنة؛ فنحن نقول: السلف هم أهل السنة والجماعة، ولا يصدق الوصف

على غيرهم أبداً، والكلمات تعتبر بمعانيها. لننظر كيف نسمي من خالف السنة أهل سنة؟! لا يمكن! وكيف يمكن أن نقول عن ثلاث طوائف مختلفة: إنهم مجتمعون؟! فأين الاجتماع؟! فأهل السنة والجماعة هم السلف متعقداً، حتى المتأخر إلى يوم القيامة إذا كان على طريقة النبي ﷺ وأصحابه؛ فإنه سلفي.

قوله: «وهو الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، والبعث بعد الموت. والإيمان بالقدر خيره وشره».

هذه العقيدة أصَّلها لنا النبي ﷺ في جواب جبريل حين سأل النبي ﷺ: ما الإسلام؟ ما الإيمان؟ ما الإحسان؟ متى الساعة؟ فالإيمان ـ قال له ـ: **«أن تؤمن بالله وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره»**[١].

«الإيمان بالله»: الإيمان في اللغة: يقول كثير من الناس: إنه التصديق؛ فصدقت وآمنت معناهما لغةً واحد، وقد سبق لنا في التفسير أن هذا القول لا يصح، بل الإيمان في اللغة: الإقرار بالشيء عن تصديق به؛ بدليل أنك تقول: آمنت بكذا، وأقررت بكذا، وصدقت فلانًا. ولا تقول: آمنت فلانًا.

إذاً؛ فالإيمان يتضمن معنى زائداً على مجرد التصديق، وهو الإقرار والاعتراف المستلزم للقبول للأخبار والإذعان للأحكام، هذا الإيمان، أما مجرد أن تؤمن بأن الله موجود؛ فهذا ليس بإيمان، حتى يكون هذا الإيمان مستلزمًا للقبول في الأخبار والإذعان في الأحكام، وإلا؛ فليس إيمانًا.

والإيمان بالله يتضمن أربعة أمور:

١ـ الإيمان بوجوده سبحانه وتعالى.

٢ـ والإيمان بربوبيته؛ أي: الانفراد بالربوبية.

٣ـ والإيمان بانفراده بالألوهية.

٤ـ والإيمان بأسمائه وصفاته.

لا يمكن أن يتحقق الإيمان إلا بذلك.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٠) ومسلم (٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فمن لم يؤمن بوجود الله؛ فليس بمؤمن، ومن آمن بوجود الله لا بانفراده بالربوبية؛ فليس بمؤمن، ومن آمن بالله وانفراده بالربوبية لا بالألوهية؛ فليس بمؤمن، ومن آمن بالله وانفراده بالربوبية وبالألوهية لكن لم يؤمن بأسمائه وصفاته؛ فليس بمؤمن، وإن كان الأخير فيه من يسلب عنه الإيمان بالكلية وفيه من يسلب عنه كمال الإيمان.

الإيمان بوجوده:

إذا قال قائل: ما الدليل على وجود الله عز وجل؟.

قلنا: الدليل على وجود الله: العقل، والحس، والشرع؛ ثلاثة كلها تدل على وجود الله، وإن شئت؛ فزد: الفطرة، فتكون الدلائل على وجود الله أربعة: العقل، والحس، والفطرة، والشرع. وأخرنا الشرع، لا لأنه لا يستحق التقديم، لكن لأننا نخاطب من لا يؤمن بالشرع.

ـ فأما دلالة العقل؛ فنقول: هل وجود هذه الكائنات بنفسها، أو وُجدت هكذا صدفة؟

فإن قلت: وُجدت بنفسها؛ فمستحيل عقلا، ما دامت هي معدومة؛ كيف تكون موجودة وهي معدومة؟! المعدوم ليس بشيء حتى يوجد، إذًا؛ لا يمكن أن توجد نفسها بنفسها!

وإن قلت: وُجدت صدفة؛ فنقول: هذا يستحيل أيضًا؛ فأنت أيها الجاحد؛ هل ما أنتج من الطائرات والصواريخ والسيارات والآلات بأنواعها؛ هل وُجد هذا صدفة؟! فيقول: لا يمكن أن يكون. فكذلك هذه الأطيار والجبال والشمس والقمر والنجوم والشجر والجمر والرمال والبحار وغير ذلك، لا يمكن أن توجد صدفة أبدًا.

ويقال: إن طائفة من السُّمنية جاءوا إلى أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ وهم من أهل الهند، فناظروه في إثبات الخالق عز وجل، وكان أبو حنيفة من أذكى العلماء، فوعدهم أن يأتوا بعد يوم أو يومين، فجاءوا؛ قالوا: ماذا قلت؟ قال: أنا أفكر في سفينة مملوءة من البضائع والأرزاق، جاءت تشق عباب الماء، حتى أرست في الميناء، ونزلت الحمولة، وذهبت، وليس فيها قائد ولا حمالون. قالوا: تفكر بهذا؟! قال: نعم. قالوا: إذًا ليس لك عقل! هل يُعقَل أن سفينة تأتي بدون قائد وتنزل

وتنصرف؟! هذا ليس معقول! قال: كيف لا تعقلون هذا، وتعقلون أن هذه السموات والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب والناس كلها بدون صانع؟! فعرفوا أن الرجل خاطبهم بعقولهم، وعجزوا عن جوابه هذا أو معناه[١].

وقيل لأعرابي من البادية: بم عرفت ربك؟ فقال: الأثر يدل على المسير، والبعرة تدل على البعير؛ فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج؛ ألا تدل على السميع البصير؟[٢]

ولهذا قال الله عز وجل: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥].

فحينئذ يكون العقل دالاً دلالة قطعية على وجود الله.

ـ وأما دلالة الحس على وجود الله؛ فإن الإنسان يدعو الله عز وجل؛ يقول: يا رب! ويدعو بالشيء، ثم يُستجاب له فيه، وهذه دلالة حسية، هو نفسه لم يدع إلا الله، واستجاب الله له، رأى ذلك رأي العين. وكذلك نحن نسمع عمَّن سبق وعمن في عصرنا؛ أن الله استجاب له.

فالأعرابي الذي دخل والرسول ﷺ يخطب الناس يوم الجمعة قال: هلكت الأموال، وانقطعت السبل، فادع الله يغيثنا. قال أنس: والله، ما في السماء من سحاب ولا قزعة (أي: قطعة سحاب)، وما بيننا وبين سَلعٍ (جبل في المدينة تأتي من جهته السحب) من بيت ولا دار... وبعد دعاء الرسول ﷺ فوراً خرجت سحابة مثل الترس، وارتفعت في السماء، وانتشرت، ورعدت، وبرقت، ونزل المطر، فما نزل الرسول ﷺ إلا والمطر يتحادر من لحيته عليه الصلاة والسلام[٣].

وهذا أمر واقع يدل على وجود الخالق دلالة حسية.

وفي القرآن كثير من هذا؛ مثل: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ [الأنبياء: ٨٣، ٨٤]، وغير ذلك من الآيات.

ـ وأما دلالة الفطرة؛ فإن كثيراً من الناس الذين لم تنحرف فطرهم يؤمنون بوجود الله، حتى البهائم العُجم تؤمن بوجود الله، وقصة النملة التي رُويت عن سليمان؛

(١، ٢) انظر تفسير ابن كثير (١/ ١٠٠).

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (٩٣٣) ومسلم (٨٩٧) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

خرج يستسقي، فوجد نملة مستلقية على ظهرها، رافعةً قوائمها نحو السماء، تقول: اللهم! أنا خلق من خلقك؛ فلا تمنع عنا سقياك. فقال: ارجعوا؛ فقد سقيتم بدعوة غيركم[1].

فالفطر مجبولة على معرفة الله عز وجل وتوحيده.

وقد أشار الله تعالى إلى ذلك في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُواْ إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢، ١٧٣]؛ فهذه الآية تدل على أن الإنسان مجبول بفطرته على شهادته بوجود الله وربوبيته وسواءٌ أقلنا: إن الله استخرجهم من ظهر آدم واستشهدهم، أو قلنا: إن هذا هو ما ركب الله تعالى في فطرهم من الإقرار به؛ فإن الآية تدل على أن الإنسان يعرف ربه بفطرته.

هذه أدلة أربعة تدل على وجود الله سبحانه وتعالى.

- وأما دلالة الشرع؛ فلأن ما جاءت به الرسل من شرائع الله تعالى المتضمنة لجميع ما يُصلحُ الخلق يدل على أن الذي أرسل بها رب رحيم حكيم، ولا سيما هذا القرآن المجيد، الذي أعجز البشر والجن أن يأتوا بمثله.

«وملائكته»: الملائكة جمع: ملأك، وأصل ملأك: مألك؛ لأنه من الألوكة، والألوكة في اللغة الرسالة؛ قال الله تعالى: ﴿جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَى﴾ [فاطر: ١].

فالملائكة عالم غيبي، خلقهم الله عز وجل من نور، وجعلهم طائعين له متذللين له، ولكل منهم وظائف خصه الله بها، ونعلم من وظائفهم.

أولاً: جبريل: موكل بالوحي، ينزل به من الله تعالى إلى الرسل.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٦/ ٦٢) من طريق زيد العمي عن أبي الصديق الناجي... فذكره.

والحديث ضعفه الشيخ الألباني في «إرواء الغليل» (٦٧٠) وقال: رواه الطبراني في «معجمه» بإسناده عن الزهري، وروى الطحاوي وأحمد نحوه عن أبي الصديق الناجي وعن أبي هريرة مرفوعًا ورواه الدارقطني.

ثانيًا: إسرافيل: موكل بنفخ الصور، وهو أيضًا أحد حملة العرش.

ثالثًا: ميكائيل: موكل بالقطر والنبات.

وهؤلاء الثلاثة كلهم موكلون بما فيه حياة؛ فجبريل موكل بالوحي وفيه حياة القلوب، وميكائيل بالقطر والنبات وفيه حياة الأرض، وإسرافيل بنفخ الصور وفيه حياة الأجساد يوم الميعاد. ولهذا كان النبي ﷺ يتوسل بربوبية الله لهم في دعاء الاستفتاح في صلاة الليل، فيقول: «**اللهم! رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل! فاطر السموات والأرض! عالم الغيب والشهادة! أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك؛ إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم**»[1]، هذا الدعاء الذي كان يقوله في قيام الليل متوسلا بربوبية الله لهم.

كذلك نعلم أن منهم من وكل بقبض أرواح بني آدم، أو بقبض روح كل ذي روح، وهم: ملك الموت وأعوانه، ولا يسمى عزرائيل، لأنه لم يثبت عن النبي عليه الصلاة والسلام أن اسمه هذا.

قال تعالى: ﴿**حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ**﴾ [الأنعام: ٦١].

وقال تعالى: ﴿**قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ**﴾ [السجدة: ١١].

وقال تعالى: ﴿**اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا**﴾ [الزمر: ٤٢].

ولا منافاة بين هذه الآيات الثلاث؛ فإن الملائكة تقبض الروح؛ فإن ملك الموت إذا أخرجها من البدن تكون عند ملائكة، إن كان الرجل من أهل الجنة؛ فيكون معهم حنوط من الجنة، وكفن من الجنة، يأخذون هذه الروح الطيبة، ويجعلونها في هذا الكفن، ويصعدون بها إلى الله عز وجل، حتى تقف بين يدي الله، ثم يقول: اكتبوا كتاب عبدي في عليين، وأعيدوه إلى الأرض، فترجع الروح إلى الجسد من أجل الاختبار: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ وإن كان الميت غير مؤمن والعياذ بالله؛ فإنه ينزل ملائكة معهم كفن من النار وحنوط من النار، يأخذون الروح،

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٧٧٠) والنسائي في «الكبرى» (١٦٢٠) وأبو داود (٧٦٧) والترمذي (٣٤٢٠) من حديث عائشة - رضي الله عنها.

ويجعلونها في هذا الكفن، ثم يصعدون بها إلىٰ السماء، فتغلق أبواب السماء دونها، وتطرح إلىٰ الأرض؛ قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١]، ثم يقول الله: اكتبوا كتاب عبدي في سجين(١). نسأل الله العافية!.

هؤلاء موكلون بقبض الروح من ملك الموت إذا قبضها، وملك الموت هو الذي يباشر قبضها، فلا منافاة إذن، والذي يأمر بذلك هو الله، فيكون في الحقيقة هو المتوفي.

ومنهم ملائكة سياحون في الأرض، يلتمسون حلق الذكر، إذا وجدوا حلقة العلم والذكر؛ جلسوا(٢).

وكذلك هناك ملائكة يكتبون أعمال الإنسان: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠-١٢]. ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨].

دخل أحد أصحاب الإمام أحمد عليه وهو مريض -رحمه الله- فوجده يئن من المرض، فقال له: يا أبا عبد الله تئن، وقد قال طاوس: إن الملك يكتب حتىٰ أنين المريض؛ لأن الله يقول: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾؟ فجعل أبو عبد الله يتصبر، وترك الأنين؛ لأن كل شيء يكتب، ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ﴾: (من) زائدة لتوكيد العموم، أي قول تقوله؛ يكتب، لكن قد تجازىٰ عليه بخير أو بشر، هذا حسب القول الذي قيل.

ومنهم أيضًا ملائكة يتعاقبون علىٰ بني آدم في الليل والنهار، ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ١١].

ومنهم ملائكة رُكَّع وسُجَّد لله في السماء، قال النبي عليه الصلاة والسلام: «أطت السماء، وحق لها أن تئط»، والأطيط: صرير الرحل؛ أي: إذا كان علىٰ البعير

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (٤/ ٢٨٧، ٢٨٨) وأبو داود (٤٧٥٣) والنسائي في «الكبرىٰ» (٢٠٠١) وابن ماجه (١٥٤٨) مختصراً. جميعًا من حديث البراء بن عازب -رضي الله عنه- والحديث صححه الشيخ الألباني في «صحيح ابن ماجه» (١٢٥٨).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٤٠٨) ومسلم (٢٦٦٩) من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه.

حمل ثقيل؛ تسمع له صرير من ثقل الحمل، فيقول الرسول عليه الصلاة والسلام: «**أطت السماء، وحق لها أن تئط، ما من موضع أربع أصابع منها؛ إلا وفيه ملك قائم لله أو راكع أو ساجد**»(١)، وعلى سعة السماء فيها هؤلاء الملائكة.

ولهذا قال الرسول ﷺ في البيت المعمور الذي مر به في ليلة المعراج؛ قال: «**يطوف به - أو قال: يدخله - سبعون ألف ملك كل يوم، ثم لا يعودون إليه آخر ما عليهم**»(٢)، والمعنى: كل يوم يأتي إليه سبعون ألف ملك غير الذين أتوه بالأمس، ولا يعودون له أبدًا، يأتي ملائكة آخرون غير من سبق، وهذا يدل على كثرة الملائكة، ولهذا قال الله تعالى: ﴿**وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلا هُوَ**﴾ [المدثر: ٣١].

ومنهم ملائكة موكلون بالجنة وموكلون بالنار؛ فخازن النار اسمه مالك؛ يقول أهل النار: ﴿**يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ**﴾ [الزخرف: ٧٧]؛ يعني: ليهلكنا ويميتنا؛ فهم يدعون الله أن يميتهم؛ لأنهم في عذاب لا يُصبر عليه، فيقول: ﴿**إِنَّكُم مَّاكِثُونَ**﴾ [الزخرف: ٧٧]، ثم يقال لهم: ﴿**لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ**﴾ [الزخرف: ٧٨].

المهم: أنه يجب علينا أن نؤمن بالملائكة.

وكيف الإيمان بالملائكة؟

نؤمن بأنهم عالم غيبي لا يشاهدون، وقد يشاهدون، إنما الأصل أنهم عالم غيبي، مخلوقون من نور، مكلفون بما كلفهم الله به من العبادات، وهم خاضعون لله عز وجل أتم الخضوع، ﴿**لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ**﴾ [التحريم: ٦].

كذلك نؤمن بأسماء من علمنا بأسمائهم، ونؤمن بوظائف من علمنا بوظائفهم، ويجب علينا أن نؤمن بذلك على ما عُلمنا.

---

(١) حسن: أخرجه أحمد في «مسنده» (٥/ ١٧٣) والترمذي (٢٣١٢) وابن ماجه (٤١٩٠) والبيهقي في «السنن» (١٣١١٥) من حديث أبي ذر - رضي الله عنه.
قال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب ويروى من غير هذا الوجه» والحديث حسنه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (١٧٢٢).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٢٠٧) ومسلم (١٦٢) من حديث مالك بن صعصعة - رضي الله عنه.

وهم أجساد؛ بدليل قوله تعالىٰ: ﴿جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ﴾ [فاطر: ١]، ورأىٰ النبي ﷺ جبريل علىٰ صورته التي خُلق عليها، له ستمائة جناح، قد سد الأفق (١)؛ خلافًا لمن قال: إنهم أرواح.

إذا قال قائل: هل لهم عقول؟ نقول: هل لك عقل؟ ما يسأل عن هذا إلا رجل مجنون؛ فقد قال الله تعالىٰ: ﴿لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]؛ فهل يثني عليهم هذا الثناء وليس لهم عقول؟! ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠]؛ أنقول: هؤلاء ليس لهم عقول؟! يأتمرون بأمر الله، ويفعلون ما أمر الله به، ويبلغون الوحي، ونقول: ليس لهم عقول؟! أحق من يوصف بعدم العقل من قال: إنه لا عقول لهم!!.

«وكتبه»: أي: كتب الله التي أنزلها مع الرسل.

ولكل رسول كتاب؛ قال الله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ [الحديد: ٢٥]، وهذا يدل علىٰ أن كل رسول معه كتاب، لكن لا نعرف كل الكتب، بل نعرف منها: صحف إبراهيم وموسىٰ، التوراة، الإنجيل، الزبور، القرآن؛ ستة؛ لأن صحف موسىٰ بعضهم يقول: هي التوراة، وبعضهم يقول: غيرها، فإن كانت التوراة؛ فهي خمسة، وإن كانت غيرها؛ فهي ستة، ولكن مع ذلك نحن نؤمن بكل كتاب أنزله الله علىٰ الرسل، وإن لم نعلم به، نؤمن به إجمالا.

«ورسله»: أي: رسل الله، وهم الذين أوحىٰ الله إليهم بالشرائع، وأمرهم بتبليغها، وأولهم نوح، وآخرهم محمد ﷺ.

الدليل علىٰ أن أولهم نوح: قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ﴾ [النساء: ١٦٣]؛ يعني: وحيًا؛ كإيحائنا إلىٰ نوح والنبيين من بعده، وهو وحي الرسالة.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [الحديد: ٢٦]: ﴿فِي ذُرِّيَّتِهِمَا﴾؛ أي: ذرية نوح وإبراهيم، والذي قبل نوح لا يكون

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٢٣٢) ومسلم (١٧٤) من حديث عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه.

من ذريته.

وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [الذاريات: ٤٦]؛ قد نقول: إن قوله: ﴿مِّن قَبْلُ﴾: يدل علىٰ ما سبق.

إذًا من القرآن ثلاثة أدلة تدل علىٰ أن نوحًا أول الرسل.

ومن السنة ما ثبت في حديث الشفاعة: «**أن أهل الموقف يقولون لنوح: أنت أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض**»[1] وهذا صريح.

أما آدم عليه الصلاة والسلام؛ فهو نبي، وليس برسول.

وأما إدريس؛ فذهب كثير من المؤرخين أو أكثرهم وبعض المفسرين أيضًا إلىٰ أنه قبل نوح، وأنه من أجداده، لكن هذا قول ضعيف جدًا، والقرآن والسنة ترده، والصواب ما ذكرنا.

وآخرهم محمد عليه الصلاة والسلام؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، ولم يقل: وخاتم المرسلين؛ لأنه إذا ختم النبوة؛ ختم الرسالة من باب أولىٰ.

فإن قلت: عيسىٰ عليه الصلاة والسلام ينزل في آخر الزمان، وهو رسول[2]؛ فما الجواب؟.

نقول: هو لا ينزل بشريعة جديدة، وإنما يحكم بشريعة النبي ﷺ.

فإذا قال قائل: من المتفق عليه أن خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر، وعيسىٰ يحكم بشريعة النبي ﷺ، فيكون من أتباعه؛ فكيف يصح قولنا: إن خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر؟.

فالجواب: أحد ثلاثة وجوه:

أولها: أن عيسىٰ عليه الصلاة والسلام رسول مستقل من أولي العزم، ولا يخطر بالبال المقارنة بينه وبين الواحد من هذه الأمة؛ فكيف بالمفاضلة؟! وعلىٰ هذا يسقط

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٧١٢) ومسلم (١٩٤) من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه -.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٢٢٢) ومسلم (١٥٥) من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه -.

هذا الإيراد من أصله؛ لأنه من التنطع، وقد هلك المتنطعون؛ كما قال النبي ﷺ [(١)].

الثاني: أن نقول: هو خير الأمة إلا عيسى.

الثالث: أن نقول: إن عيسى ليس من الأمة، ولا يصح أن نقول: إنه من أمته، وهو سابق عليه، لكنه من أتباعه إذا نزل، لأن شريعة النبي ﷺ باقية إلى يوم القيامة.

فإن قال قائل: كيف يكون تابعًا، وهو يقتل الخنزير، ويكسر الصليب، ولا يقبل إلا الإسلام مع أن الإسلام يقر أهل الكتاب بالجزية؟!.

قلنا: إخبار النبي ﷺ بذلك إقرار له، فتكون من شرعه، ويكون نسخًا لما سبق من حكم الإسلام الأول.

«والبعث بعد الموت»: البعث بمعنى الإخراج؛ يعني إخراج الناس من قبورهم بعد موتهم.

وهذا من معتقد أهل السنة والجماعة.

وهذا ثابت بالكتاب والسنة وإجماع المسلمين، بل إجماع اليهود والنصارى؛ حيث يقرون بأن هناك يومًا يُبعثُ الناس فيه ويجازون:

- أما القرآن؛ فيقول الله عز وجل: ﴿**زَعَمَ الذِينَ كَفَرُوا أَن لن يُبْعَثُوا قُل بَلى وَرَبي لَتُبْعَثُنَّ**﴾ [التغابن: ٧].

وقال عز وجل: ﴿**ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ تُبْعَثُونَ**﴾ [المؤمنون: ١٥، ١٦].

- وأما في السنة؛ فجاءت الأحاديث المتواترة عن النبي ﷺ في ذلك.

- وأجمع المسلمون على هذا إجماعًا قطعيًا، وأن الناس سيبعثون يوم القيامة، ويلاقون ربهم، ويجازون بأعمالهم؛ ﴿**فَمَن يَعْمَل مِثْقَال ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَل مِثْقَال ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ**﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

﴿**يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ**﴾ [الانشقاق: ٦]؛ فتذكر هذا اللقاء، حتى تعمل له؛ خوفًا من أن تقف بين يدي الله عز وجل يوم القيامة وليس

---

(١) صحيح: أخرجه (٢٦٧٠) وأبو داود (٤٦٠٨) وأحمد في «مسنده» (١/ ٣٨٦) من حديث ابن مسعود - رضي الله عنه -.

عندك شيء من العمل الصالح، انظر ماذا عملت ليوم النقلة؟ وماذا عملت ليوم اللقاء؟ فإن أكثر الناس اليوم ينظرون ماذا عملوا للدنيا؛ ومع العلم بأن هذه الدنيا التي عملوا لها لا يدرون هل يدركونها أم لا؟ قد يخطط الإنسان لعمل دنيوي يفعله غداً أو بعد غد، ولكنه لا يدرك غداً ولا بعد غد، لكن الشيء المتيقن أن أكثر الناس في غفلة من هذا؛ قال الله تعالى: ﴿**بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَذَا**﴾ [المؤمنون: ٦٣]، وأعمال الدنيا يقول: ﴿**وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ**﴾ [المؤمنون: ٦٣]؛ فأتى بالجملة الإسمية المفيدة للثبوت والاستمرار: ﴿**هُمْ لَهَا عَامِلُونَ**﴾، وقال تعالى: ﴿**لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا**﴾ [ق: ٢٢]؛ يعني: يوم القيامة: ﴿**فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ**﴾ [ق: ٢٢].

هذا البعث الذي اتفقت عليه الأديان السماوية وكل متدين بدين هو أحد أركان الإيمان الستة، وهو من معتقدات أهل السنة والجماعة، ولا ينكره أحد ممن ينتسب إلى ملة أبداً.

«والإيمان بالقدر خيره وشره» هذا الركن السادس: الإيمان بالقدر خيره وشره.

القدر: هو تقدير الله عز وجل للأشياء

وقد كتب الله مقادير كل شيء قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة[١]؛ كما قال الله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ**﴾ [الحج: ٧٠].

وقوله: «خيره وشره»: أما وصف القدر بالخير؛ فالأمر فيه ظاهر. وأما وصف القدر بالشر؛ فالمراد به شر المقدور لا شر القدر الذي هو فعل الله؛ فإن فعل الله عز وجل ليس فيه شر، كل أفعاله خير وحكمة، لكن الشر في مفعولاته ومقدوراته؛ فالشر هنا باعتبار المقدور والمفعول، أما باعتبار الفعل؛ فلا، ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**والشر ليس إليك**»[٢].

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٦٥٣) والترمذي (٢١٥٦) وأحمد في «مسنده» (٢/ ١٦٩) من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه.

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٧٧١) والنسائي في «الكبرى» (٨٩٧) وأبو داود (٧٦٠) والترمذي (٣٤٢٢) من حديث علي ابن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ.

فمثلا؛ نحن نجد في المخلوقات المقدورات شرًّا؛ ففيها الحيات والعقارب والسباع والأمراض والفقر والجدب وما أشبه ذلك، وكل هذه بالنسبة للإنسان شر؛ لأنها لا تلائمه، وفيها أيضًا المعاصي والفجور والكفر والفسوق والقتل وغير ذلك، وكل هذه شر، لكن باعتبار نسبتها إلى الله هي خير؛ لأن الله عز وجل لم يقدرها إلا لحكمة بالغة عظيمة، عرفها من عرفها، وجهلها من جهلها.

وعلى هذا يجب أن نعرف أن الشر الذي وصف به القدر إنما هو باعتبار المقدورات والمفعولات، لا باعتبار التقدير الذي هو تقدير الله وفعله.

ثم اعلم أيضًا أن هذا المفعول الذي هو شر قد يكون شرًّا في نفسه، لكنه خير من جهة أخرى؛ قال الله تعالى: ﴿ **ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** ﴾ [الروم: ٤١]، النتيجة طيبة، وعلى هذا؛ فيكون الشر في هذا المقدور شرًّا إضافيًّا؛ يعني: لا شرًّا حقيقيًّا؛ لأن هذا ستكون نتيجته خيراً.

ولنفرض حد الزاني مثلا إذا كان غير مُحصن أن يجلد مائة جلدة ويُسَفَّر عن البلد لمدة عام، هذا لا شك أنه شر بالنسبة إليه؛ لأنه لا يلائمه، لكنه خير من وجه آخر؛ لأنه يكون كفارة له؛ فهذا خير؛ لأن عقوبة الدنيا أهون من عقوبة الآخرة؛ فهو خير له، ومن خيره أنه ردع لغيره ونكال لغيره؛ فإن غيره لو هم أن يزني وهو يعلم أنه سيفعل به مثل ما فُعل بهذا؛ لارتدع، بل قد يكون خيراً له هو أيضًا، باعتبار أنه لن يعود إلى مثل هذا العمل الذي سبب له هذا الشيء.

أما بالنسبة للأمور الكونية القدرية؛ فهناك شيء يكون شرًّا باعتباره مقدوراً، كالمرض مثلا؛ فالإنسان إذا مرض؛ فلا شك أن المرض شر بالنسبة له؛ لكن فيه خير له في الواقع[1]، وخيره تكفير الذنوب، قد يكون الإنسان عليه ذنوب ما كفرها الاستغفار والتوبة؛ لوجود مانع؛ مثلا لعدم صدق نيته مع الله عز وجل، فتأتي هذه الأمراض والعقوبات، فتكفر هذه الذنوب.

---

(١) وذلك لما رواه مسلم (٩٩٩) من حديث صهيب بن سنان قال: قال رسول الله ﷺ «عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذلك لأحد إلا المؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له».

ومن خيره أن الإنسان لا يعرف قدر نعمة الله عليه بالصحة؛ إلا إذا مرض، نحن الآن أصحاء، ولا ندري ما قدر الصحة، لكن إذا حصل المرض؛ عرفنا قدر الصحة؛ فالصحة تاج على رءوس الأصحاء، لا يعرفها إلا المرضى. هذا أيضًا خير، وهو أنك تعرف قدر النعمة.

ومن خيره أنه قد يكون في هذا المرض أشياء تقتل جراثيم في البدن لا يقتلها إلا المرض؛ يقول الأطباء: بعض الأمراض المعينة تقتل هذه الجراثيم التي في الجسد وأنت لا تدري.

فالحاصل أننا نقول:

أولا: الشر الذي وصف به القدر هو شر بالنسبة لمقدور الله، أما تقدير الله؛ فكله خير، والدليل قول النبي ﷺ: «**والشر ليس إليك**»(١).

ثانيًا: أن الشر الذي في المقدور ليس شرًا محضًا، بل هذا الشر قد ينتج عليه أمور هي خير، فتكون الشرية بالنسبة إليه أمرًا إضافيًا.

هذا؛ وسيتكلم المؤلف ـ رحمه الله ـ على القدر بكلام موسع بين درجاته عند أهل السنة.

● الشيخ صالح الفوزان:

«**أما بعد**» هذه الكلمة يؤتى بها للانتقال من أسلوب إلى أسلوب آخر ومعناها: مهما يكن من شيء. ويستحب الإتيان بها في الخطب والمكاتبات اقتداءً بالنبي ﷺ حيث كان يفعل ذلك(٢).

«**فهذا**» إشارة إلى ما تضمنته هذه الرسالة واحتوت عليه من العقائد الإيمانية التي أجملها بقوله: (وهو الإيمان بالله...) إلخ.

«**اعتقاد**» مصدر: اعتقد كذا إذا اتخذه عقيدة، والعقيدة: هي ما يعقد عليه المرء قلبه ـ تقول: اعتقدت كذا ـ أي: عقدت عليه القلب والضمير، وأصله مأخوذ من عقد الحبل إذا ربطه؛ ثم استعمل في عقيدة القلب وتصميمه الجازم.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

«الفرقة» أي: الطائفة والجماعة.

«الناجية» أي: التي سلمت من الهلاك والشرور في الدنيا والآخرة، وحصلت على السعادة. وهذا الوصف مأخوذ من قوله ﷺ: **«لا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة، لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله»** رواه البخاري ومسلم[1].

«المنصورة» أي: المؤيدة على من خالفها.

«إلى قيام الساعة» أي: مجيء ساعة موتهم بمجيء الريح التي تقبض روح كل مؤمن، فهذه هي الساعة في حق المؤمنين. وأما الساعة التي يكون بها انتهاء الدنيا فهي لا تقوم إلا على شرار الناس؛ لما في «صحيح مسلم»: **«لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض: الله الله»**[2] وروى الإمام الحاكم من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وفيه **«ويبعث الله ريحًا ريحها ريح المسك، ومسها مس الحرير، فلا تترك أحداً في قلبه مثقال ذرة من إيمان إلا قبضته، ثم يبقى شرار الناس فعليهم تقوم الساعة»**[3].

«أهل السنة» أهل بالكسر على أنه بدل من الفرقة، ويجوز الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف تقديره (هم). والسنة: هي الطريقة التي كان عليها رسول الله ﷺ من أقواله وأفعاله وتقريراته. وسموا أهل السنة؛ لانتسابهم لسنة الرسول ﷺ دون غيرها من المقالات والمذاهب بخلاف أهل البدع فإنهم ينسبون إلى بدعهم وضلالاتهم؛ كالقدرية والمرجئة، وتارة ينسبون إلى إمامهم كالجهمية، وتارة ينسبون إلى أفعالهم القبيحة؛ ؛ كالرافضة والخوارج.

«والجماعة» لغة: الفرقة المجتمعة من الناس. والمراد هنا: الذين اجتمعوا على الحق الثابت بالكتاب والسنة، وهم الصحابة والتابعون لهم بإحسان ولو كانوا قلة، كما قال ابن مسعود رضي الله عنه: الجماعة ما وافق الحق وإن كنت وحدك، فإنك أنت الجماعة حينئذ[4].

«وهو» أي: اعتقاد الفرقة الناجية.

---

(١) أخرجه البخاري (٧٣١١) من حديث المغيرة بن شعبة ومسلم (١٩٢٠) من حديث ثوبان. واللفظ له.

(٢) أخرجه مسلم (١٤٨) والترمذي (٢٢٠٧) من حديث أنس ـ رضي الله عنه ـ.

(٣) أخرجه مسلم (١٩٢٤) والحاكم في «المستدرك» (٤/ ٥٠٣) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص.

(٤) أخرجه اللالكائي في «اعتقاد أهل السنة» (١٦٠) وذكره المزي في «تهذيب الكمال» (٢٢/ ٢٦٤).

«الإيمــان» الإيمان: معناه لغة: التصديق، قال الله تعالى في الآية (١٧) من سورة يوسف: ﴿وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ أي: مصدق.

وتعريفه شرعًا: أنه قول باللسان واعتقاد بالقلب وعمل بالجوارح.

وقوله: «بالله، وملائكته، وكتبه،ورسله، والبعث بعد الموت، والإيمان بالقدر خيره وشره» هذه هي أركان الإيمان الستة التي لا يصح إيمان أحد إلا إذا آمن بها جميعًا على الوجه الصحيح الذي دل عليه الكتاب والسنة، وهذه الأركان هي:

١ ـ الإيمان بالله: وهو الاعتقاد الجازم بأنه رب كل شيء ومليكه، وأنه متصف بصفات الكمال، منزه عن كل عيب ونقص، وأنه المستحق للعبادة وحده لا شريك له. والقيام بذلك علمًا وعملاً.

٢ ـ الإيمان بالملائكة: أي: التصديق بوجودهم، وأنهم كما وصفهم الله في كتابه، كما في الآيتين (٢٦، ٢٧) من سورة الأنبياء: ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ (٢٦) لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦، ٢٧]، وقد دل الكتاب والسنة على أصناف الملائكة وأوصافهم، وأنهم موكلون بأعمال يؤدونها، كما أمرهم الله، فيجب الإيمان بذلك كله.

٣ ـ الإيمان بالكتب: أي: التصديق بالكتب التي أنزلها الله على رسله، وأنها كلامه، وأنها حق ونور وهدى، فيجب الإيمان بما سمى الله منها؛ كالتوراة والإنجيل والزبور والقرآن، والإيمان بما لم يُسم الله منها.

٤ ـ الإيمان بالرسل الذين أرسلهم الله إلى خلقه: أي: التصديق بهم جميعًا، وأنهم صادقون فيما أخبروا به، وأنهم بلّغوا رسالات ربهم، لا نفرق بين أحد منهم، بل نؤمن بهم جميعًا من سمى الله منهم في كتابه ومن لم يسم منهم، كما قال تعالى: في الآية (١٦٤) من سورة النساء: ﴿وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾، وأفضلهم أولو العزم وهم: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام، ثم بقية الرسل ثم الأنبياء، وأفضل الجميع خاتم الرسل نبينا محمد ﷺ. وأصح ما قيل في الفرق بين النبي والرسول: أن النبي: من أوحي إليه بشرع ولم يؤمر بتبليغه، والرسول: من أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه.

٥ ـ الإيمان بالبعث: وهو التصديق بإخراج الموتى من قبورهم أحياء يوم القيامة؛ لفصل القضاء بينهم، ومجازاتهم بأعمالهم على الصفة التي بينها الله في كتابه، وبينها الرسول ﷺ في سنته.

٦ ـ الإيمان بالقدر خيره وشره: وهو التصديق بأن الله سبحانه علم مقادير الأشياء وأزمانها قبل وجودها، ثم كتبها في اللوح المحفوظ، ثم أوجدها بقدرته ومشيئته في مواعيدها المقدرة. فكل محدث من خير أو شر فهو صادر من علمه وتقديره ومشيئته وإرادته، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

هذا شرح مجمل لأصول الإيمان وسيأتي ـ إن شاء الله ـ شرحها مفصلاً.



[أسئلة وأجوبة نموذجية على القواعد الأساسية في الإيمان بأسماء الله وصفاته]

● قال الشيخ عبد العزيز المحمد السلمان:

س ـ ما معنى كلمة أما بعد، ولأي شيء يؤتى بها؟

ج ـ معناها: مهما يكن من شيء، ويؤتى بها للانتقال من أسلوب إلى أسلوب بعد البسملة والحمدلة والصلاة والسلام على الرسول ﷺ وعلى آله وصحبه، ويستحب الإتيان بها في الخطب والمكاتبات، لأن النبي ﷺ كان يأتي بها في خطبه ومكاتباته للملوك وغيرهم، واختلف في أول من نطق بها كما أشار إلى ذلك الميداني بقوله:

جرى الخلف أما بعد من كان بادئًا ... بها عد أقوال وداود أقرب

ويعقوب أيوب الصبور وآدم ... وقسٌ وسحبان وكعب ويعرب

س ـ إلى أي شيء أشار المصنف في قوله: فهذا اعتقاد الفرقة الناجية؟

ج ـ إلى ما تضمنته العقيدة إن كان قد ألفها وإلا فإلى ما تصوره في الذهن مما سيصنفه من العقائد الإيمانية.

س ـ ما معنى الاعتقاد؟

ج ـ مصدر اعتقد وهو يطلق على التصديق مطلقًا، وعلى ما يعتقده الإنسان من أمور الدين بمعنى عقد عليه الضمير والقلب ودان الله به.

س ـ من هي الفرقة الناجية ومن أين أخذ وصفها بأنها الناجية؟

ج ـ هم أهل السنة والجماعة، وأخذ وصفها بأنها ناجية من قوله ﷺ «ستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة» ومن قوله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى تقوم الساعة» قال السفاريني ـ رحمه الله ـ:

اعلم هديت أنه جاء الخبر ... عن النبي المقتفى خير البشر

بأن ذي الأمة سوف تفترق ... بضعًا وسبعين اعتقادًا والمُحق

ما كان في نهج النبي المصطفى وصحبه من غير زيغ وجفا
وليس هذا النص جزمًا يعتبر في فرقة إلا على أهل الأثر

س ـ ما هي السنة؟ ومن هم أهلها؟ ولماذا نسبوا إليها؟

ج ـ هي لغة: الطريقة.

وشرعًا: أقوال النبي ﷺ وأفعاله وإقراراته، وأهلها هم المتبعون لها نسبوا إليها لتمسكهم بها وانتسابهم إليها دون الطرق الأخرى.

س ـ ما المراد بالجماعة؟ وما الدليل على لزومها؟

ج ـ الجماعة في الأصل القوم المجتمعون، والمراد بهم هنا سلف الأمة من الصحابة، والتابعين الذين اجتمعوا على الحق الصريح من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم القيامة فهو منهم. وقد تكاثرت الأدلة في الحث على لزومها فروى الترمذي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ مرفوعًا: «**أن يد الله مع الجماعة**» وعن أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا: «**عليكم بالجماعة إن الله لم يجمع أمتي إلا على هدى**». وعن أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا: «**من فارق الجماعة شبرًا فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه**».

س ـ ما هو الإيمان بالله الذي هو الركن الأول من أركان الإيمان؟

ج ـ هو الاعتقاد الجازم بأن الله رب كل شيء، ومليكه، وأنه الخالق، الرازق، المحيي، المميت، وأنه المستحق لأن يفرد بالعبادة، والذل والخضوع، وجميع أنواع العبادة، وأنه المتصف بصفات الكمال المنزه عن كل عيب ونقص.

س ـ ما هو الإيمان بالملائكة الذي هو الركن الثاني من أركان الإيمان؟

ج ـ هو التصديق الجازم بأن لله ملائكة موجودين مخلوقين من نور، وأنهم كما وصفهم الله عباد مكرمون يسبحون الليل والنهار لا يفترون، وأنهم لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون، وأنهم قائمون بوظائفهم التي أمرهم الله بالقيام بها.

س ـ هل يكفي الإيمان بالملائكة إجمالاً؟

ج ـ أما من ورد تعيينه باسمه المخصوص كجبريل، وميكائيل، وإسرافيل، ورضوان، ومالك، ومن ورد تعيين نوعه المخصوص كحملة العرش، والحفظة،

والكتبة فيجب الإيمان بهم على التفصيل، وأما البقية فيجب الإيمان بهم إجمالاً والله أعلم بعددهم لا يحصي عددهم إلا هو.

س ـ ما هو الإيمان بكتب الله الذي هو الركن الثالث من أركان الإيمان؟

ج ـ هو التصديق الجازم بأن لله كتبًا أنزلها على أنبيائه ورسله، وهي من كلامه حقيقة، وأنها نور وهدى وأن ما تضمنته حق وصدق، ولا يعلم عددها إلا الله. وأنه يجب الإيمان بها إجماليًا جملة إلا ما ورد مفصلا كالتوارة والإنجيل والقرآن والزبور فإنه يجب الإيمان بها على التفصيل ويجب مع الإيمان بالقرآن وأنه منزل من عند الله الإيمان بأن الله تكلم به حقيقة كما تكلم بالكتب المنزلة على أنبيائه ورسله. وأنه المخصوص بمزية الحفظ من التبديل والتغيير والتحريف قال تعالى ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] وقال تعالى: ﴿لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

س ـ ما هو الإيمان برسل الله الذي هو الركن الرابع من أركان الإيمان؟

ج ـ هو التصديق الجازم بأن لله رسلاً أرسلهم لإرشاد الخلق في معاشهم ومعادهم اقتضت حكمة اللطيف الخبير أن لا يهمل خلقه بل أرسل إليهم رسلاً مبشرين ومنذرين، فيجب علينا الإيمان بمن سمى الله منهم في كتابه على التفصيل والإيمان جملة بأن لله رسلاً غيرهم وأنبياء لا يحصي عددهم إلا الله، ولا يعلم أسماءهم إلا هو جل وعلا، قال تعالى: ﴿وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٤].

س ـ كم عدد الأنبياء والرسل المذكورين في القرآن؟

ج ـ عددهم خمسة وعشرون هم: آدم، نوح، إدريس، صالح، إبراهيم، هود، لوط، يونس، إسماعيل، إسحاق، يعقوب، يوسف، أيوب، شعيب، موسى، هارون، اليسع، ذو الكفل، داوود، زكريا، سليمان، إلياس، يحيى، عيسى، محمد، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. قال الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٨٣) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٤) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ (٨٥) وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ

وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلاً فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٨٣-٨٦]

وقال الشاعر:

في تلك حجتنا منهم ثمانية ... من بعد عشر ويبقى سبعة وهم

إدريس هود شعيب صالح وكذا ... ذو الكفل آدم بالمختار قد ختموا

س - ما موضوع الرسالة، وما هي الحكمة في إرسال الرسل إلى الخلق؟

ج - موضوعها التبشير والإنذار قال تعالى ﴿رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥] والحكمة في ذلك دعوة أممهم إلىٰ عبادة الله وحده، قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ﴾ [النحل: ٣٦].

س - من هم أولوا العزم؟ اذكرهم بوضوح؟

ج - هم المذكورون في سورة الشورىٰ، وفي سورة الأحزاب قال الله تعالىٰ: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ [الشورىٰ: ١٣] الآية.

وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: ٧].

وقد نظم أسماءهم بعضهم:

محمد إبراهيم موسى كليمه ... فعيسى فنوح هم أولوا العزم فافهم

س - ما الواجب علينا نحو الرسل عليهم أفضل الصلاة والسلام؟

ج - يجب علينا تصديقهم وبأنهم بلغوا جميع ما أُرسلوا به علىٰ ما أمروا به، وبينوه بيانًا واضحًا شافيًا كافيًا لا يسع أحدًا ممن أُرسلوا إليه جهله. ولا يحل خلافه، قال تعالىٰ: ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] وقال تعالىٰ: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٦] الآية، وقال سبحانه ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦].

ويجب علينا الإيمان بأنهم معصومون عن الكذب والخيانة والكتمان، وأنهم معصومون من الكبائر، وأما الصغائر فقد تقع منهم. والكتاب والسنة يدلان على ذلك، ولكن لا يُقَرُّون عليها بل يوفقون للتوبة منها. ويجب احترامهم وأن لا يفرق بينهم، ويجب الاهتداء بهديهم والائتمار بأمرهم والكف عن ما نهوا عنه، ويجب الاعتقاد، أنهم أكمل الخلق علمًا، وعملاً، وأصدقهم، وأبرهم، وأكملهم أخلاقًا، وأن الله خصهم بفضائل لا يلحقهم فيها أحدٌ، وبرأهم من كل خلق رذيل، ويجب محبتهم وتعظيمهم، ويَحْرم الغلو فيهم ورفعهم فوق منزلتهم التي أنزلهم الله إياها.

س ـ ما الأشياء التي تجوز على الرسل عليهم أفضل الصلاة والسلام؟

ج - يجوز في حقهم شرعًا وعقلاً النوم، والنكاح، والأكل، والجلوس، والمشي، والضحك، وسائر الأعراض البشرية التي لا تؤدي إلى نقص في مراتبهم العلية، فهم بشرٌ يعتريهم ما يعتري سائر أفراده فيما لا علاقة له بتبليغ الأحكام. وتمتد إليهم أيدي الظلمة وينالهم الاضطهاد والأذى وقد يُقتل الأنبياء بغير حق. ومن أدلة ما ذكرنا أولاً قوله تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ**﴾ [الفرقان: ٢٠]، وقال عز وجل: ﴿**مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ**﴾ [المائدة: ٧٥].

وقال ﷺ: «**ولكني أصلي وأنام، وأصوم وأفطر، وأتزوج النساء**» وكان ﷺ يمرض ويتألم ويشتكي، وكان يصيبه الحر والبرد والجوع والعطش والغضب والضجر والتعب، ونحو ذلك مما لا نقص عليه فيه.

س ـ ما الدليل على صدق الرسل والأنبياء وبأي شيء أيدهم الله؟

ج - أما الأدلة على صدقهم فكثيرة، أعظمها شهادة الله لهم بأنهم صادقون قال الله تعالى: ﴿**وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ**﴾ [الزمر: ٣٣] وقال عز شأنه عن إسماعيل عليه السلام ﴿**إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا**﴾ [مريم: ٥٤] وقال تعالى عن إبراهيم عليه السلام ﴿**وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا**﴾ [مريم: ٤١]، إلى

غير ذلك من الأدلة فهم أصدق الخلق على الإطلاق عليهم أفضل الصلاة والسلام، وأيدهم الله بالمعجزات الدالة على صدقهم في دعواهم الرسالة. والمعجزة هي ما يجريه الله على أيدي الرسل والأنبياء من خوارق العادات التي يتحدون بها العباد ويخبرون عن الله لتصديق ما بعثهم به.

فمن معجزات نبينا ﷺ القرآن العظيم الذي أعجز الورى كلهم، ومثل انشقاق القمر، وحراسة السماء بالشهب، ومعراجه إلى السماء سدرة المنتهى إلى مستوى سمع فيه صريف الأقلام، وكفاية الله أعداءه، وعصمته من الناس، وإجابة دعائه، وإعلامه بالمغيبات الماضية والمستقبلة، وتأثيره في تكثير الطعام والشراب إلى غير ذلك من الدلالات الباهرة، وكما أيد الله موسى بالآيات البينات قال تعالى: ﴿ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات﴾ [الإسراء: ١٠١] وكما أيد الله سائر رسله مع انضمام ذلك إلى أحوالهم الجليلة وأخلاقهم الفاضلة الجميلة من سلامة الفطرة، والعفاف، والكرم، والشجاعة والعدل، والنصح والمروءة، إلى غير ذلك من الأدلة لمن تأملها أن ما جاءوا به حق وصدق لا مرية فيه.

قال الناظم ـ رحمه الله تعالى ـ:

بعثت برسل قاطعي كل حجة ... فأيدتهم بالمعجز المتأيد

فبلغ كل منهموا ما أمرته ... فمن شاكر النعما ومن متمرد

ختمتهم بالهاشمي مشرفًا ... وأول من يُدعى ويشفع في غد

س ـ ما حاصل ما ذكر الشيخ ـ رحمه الله ـ في إثبات الواسطة بين الله وبين عباده؟

ج ـ حاصل جوابه أنها على قسمين:

واسطة من تمام الدين والإيمان إثباتها: وهي أن الرسول ﷺ وغيره من الرسل وسائط بين الله وبين عباده في تبليغ دينه وشرعه.

والقسم الثاني واسطة شركية: وهي التقرب إلى أحد من الخلق ليقربه إلى الله وليجلب له المنافع التي لا يقدر عليها إلا الله أو يدفع عنه المضار فهذا النوع من الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله فالخلق مضطرون إلى وساطة الرسل في تبليغ الدين وليس بهم حاجة إلى وساطة أحد في طلب الحوائج من الله فليس بين العبد وبين الله حجاب ولا واسطة.

س ـ ما هو البعث وما دليله من القرآن؟

ج ـ هو لغة: التحريك والإثارة وشرعًا: إعادة الأبدان وإدخال الأرواح فيها فيخرجون من الأجداث أحياء مهطعين إلىٰ الداع كما ذكر الله تعالىٰ: ﴿خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ [القمر: ٧] الآية، وقال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ [المعارج: ٤٣] الآية ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ [يس: ٥١] الآية، وقال: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٣، ١٤] وقال تعالىٰ: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٥] ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨] ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ٤-٦].

س ـ ما هو الدليل من السنة؟

ج ـ الأدلة من السنة أكثر من أن تحصر منها قوله ﷺ للعاص بن وائل وقد جاء بعظم قديم ففته بيده وقال: يا محمد يحيي الله هذا بعدما أرم؟ قال: «نعم يبعث الله هذا ثم يميتك ثم يحييك ثم يدخلك نار جهنم». فنزلت هذه الآية ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (٧٧) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ [يس: ٧٧، ٧٨] الآية.

س ـ ما حكم الإيمان به، وما حكم إنكاره، وما هو الدليل على ذلك؟

ج ـ الإيمان به واجب لما تقدم من الأدلة من الكتاب والسنة وأما إنكاره فكفر ناقل عن الملة الإسلامية، قال تعالىٰ: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾ [التغابن: ٧] الآية، وقوله عز وجل ﴿وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [يونس: ٥٣] وقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ [سبأ: ٣] الآية، والآيات المتقدمة دليل علىٰ ذلك؛ لأن إنكاره تكذيب لله ورسوله.

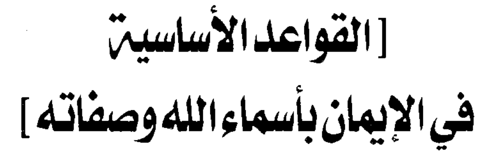
قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ:

إيماننا بالله ثم بكتبه ... وبرسله وقيامة الأبدان

وبجنده وهم الملائكة الأولى ... هم رسله لمصالح الأبدان

هذي أصول الدين حقًا لا أصو ... ل الخمس للقاضي هو الهمدان

* * *



[القواعد الأساسية في الإيمان بأسماء الله وصفاته]

وَمِنَ الإيمان باللَّه: الإيمانُ بمَا وَصَفَ به نَفسه من غير تحريف في كِتَابه، وبما وَصَفَهُ به رَسُولهُ من غَيْرِ تحْريف ولاَ تعْطيل، وَمن غَيْرِ تكييف ولاَ تمْثيل. بَلْ يُؤْمنون بأنَّ اللَّهَ سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِه شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]. فَلاَ يَنفُونَ عَنْهُ مَا وَصَفَ به نَفْسَهُ. وَلاَ يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ عَنْ مَوَاضعه. وَلاَ يُلْحدُونَ في أَسْمَاء اللَّه، وَآيَاته. ولا يُكَيِّفُونَ وَلاَ يُمثِّلُونَ: صفَاته بصفَات خَلْقه؛ لأَنَّه سُبْحَانَهُ؛ لا سَمِيَّ لَهُ، وَلاَ كُفءَ لَهُ، وَلا ندَّ لَه، وَلاَ يُقَاسُ بخَلْقه سُبْحَانَهُ وَتعالَى.

فَإنَّه أَعْلَمُ بنَفْسه وَبغَيْره، وَأَصْدَقُ قيلاً، وَأَحْسَنُ حَديثًا منْ خَلْقه.

ثُمَّ رُسُلُهُ صادقُون مُصَدَّقُونَ؛ بخلاَف الذينَ يَقُولُونَ عَلَيْه مَا لاَ يَعلَمُونَ. وَلهذا قالَ: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات: ١٨٠-١٨٢]؛ فَسَبَّحَ نَفْسَهُ عَمَّا وَصَفَهُ به المُخَالفُونَ للرُّسُلِ، وَسَلَّمَ على المُرْسَلينَ لسَلامَة مَا قَالوهُ منَ النَّقْص وَالعَيْبِ، وَهُوَ قد جَمَعَ فيما وَصَف وَسَمَّى به نَفْسَه بَيْنَ النَّفي وَالإثْبَات.

• الشرح •

• قال العلامة ناصر السعدي:

ذكر المُصنِّف رحمه الله هذا الأصل والضَّابط العظيم في الإيمان بالله إجمالاً قبل

أن يشرع في التفصيل ليبني العبد على هذا الأصل جميع ما يَرِد عليه من الكتاب والسُّنَّة؛ ليستقيم له إيمانه، ويَسلَم من الانحراف.

[illegible] أنَّهُ يجب ويتعيَّن الإيمان بكل ما أخبر اللَّه به في كتابه وأخبر به الرسول ﷺ عن ربه إيمانًا صَحيحًا سالمًا من التحريف والتعطيل، وسالمًا من التكييف والتمثيل، بل يُثبِت ما أثبته الله ورسوله، ولا يزيد على ذلك ولا يُنقِص، فإن الكلام على ذات الباري وصفاته بابهُ واحدٌ؛ فكما أن للَّه ذاتًا لا تشبه الذوات، فله تعالى صفات لا تشبهها الصِّفَات.

فمن مال إلى نفي الصِّفات أو بعضها فهو نَافٍ مُعَطِّلٌ مُحرِّف، ومن كيَّفَهَا أو مَثَّلَهَا بصفات الخلق فهو مُمَثِّلٌ مُشَبِّه.

والفرق بين «التَّحريف» و«التَّعطيل»:

أن «التعطيل» نفي للمعنى الحق الذي دلَّ عليه الكتاب والسنة.

و«التحريف»: تفسير للنُّصوص بالمعاني الباطِلة التي لا تَدُلُّ عليها بوجه من الوجوه.

فـ «التَّحريف» و«التَّعطيل» قد يكونان متلازمين، إذا أُثبِتَ المعنى الباطل ونُفِيَ المعنى الحق. وقد يوجد «التَّعطيل» بلا تحريف كحال النَّافين للصِّفات الذين ينفون الصِّفات الواردة في الكتاب والسنة، ويقولون: ظاهرها غير مُرَاد! ولكنهم لا يعينون معنى آخر، ويُسمُّونَ أنفسهم: «مُفَوِّضة» ويظنون أن هذا مذهب «السَّلف» وهو غَلَطٌ فَاحِش!!

فإنَّ السَّلف يُثبِتُون الصِّفات، وإنَّما يُفَوِّضون علم كيفيتها إلى الله، فيقولون: الوصف المذكور مَعلُوم، والكيف مَجهول، والإيمان به واجب وإثباته واجب والسُّؤالُ عن كيفيته بدعة، كما قال الإمام مالك وغيره في الاستواء وغيره.

وأما قوله: «من غير تكييف ولا تمثيل»، فالفرق بينهما:

أن «التَّكييف»: أن تُكيِّف صفات الله وأن يُبحَث عن كُنهِها.

و «التَّمثيل»: أن يقال فيها أنها مثل صفات المخلوقين.

فقوله: ﴿ليس كمثله شيءٌ﴾ - نفي الكُفو والنِّد والسَّمِي - يَنفي ذلك «التكييف» و«التمثيل».

وقوله: ﴿وهو السميع البصير﴾ ونحوها - من إثبات الله وصفاته - تَنفي «التَّعطيل» و«التحريف».

فـ«المؤمن المُوحِّد» يُثبت الصِّفات كلها على الوجه اللائق بِعَظَمَةِ اللَّه وكبريائه.

و«المُعطِّل» ينفيها أو ينفي بعضها.

و«المُشبِّه المُمثل»: يُثبِتُها على وَجهٍ يَلِيقُ بالمخلوق.

ونُصُوص الكتاب والسُّنَّة التي يتعذَّر إحصاؤها كلها تشترك في دلالتها على هذا الأصل، وهو: إثبات الصفات على وجه الكمال الذي لا يشبهه كمال أحد، وهي في غاية الوضوح والبيان وأعلى مراتب الصدق.

فإن الكلام إنما يقصر بيانُه ودلالتُه لأمورٍ ثلاثةٍ:

١ - إما جهل المُتكلِّم وعدم عِلمه وقُصُوره.

٢ - وإما عدم فَصَاحَته وبيانه.

٣ - وإما كذبه وغِشه.

أما نصوص الكتاب والسنة فإنَّها بريئة من هذه الأُمور الثلاثة من كل وجه.

فكلام الله ورسوله في غاية الوضوح والبيان وفي غاية الصدق.

كما قال: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً﴾ [النساء: ١٢٢].

﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧].

ونظيرها: قوله تعالى: ﴿وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً﴾ [الفرقان: ٣٣].

والرسول ﷺ في غاية النصح والشَّفقة العظيمة على الخلق.

فمن كان أعلم الخلق، وأصدق الخلق، وأفصح الخلق، وأنصح الخلقِ للخَلق هل يُمكن أن يكون في كلامه شيء من النَّقص أو القُصُور؟ أم تقول - والحق تقول - إن كلامه هو النهاية التي لا فوقها في الوُضُوح والبيان للحقائق كلها.

وهذا برهانٌ على أن كلام الله وكلام رسوله يُوصِّل إلى أعلى درجات العلم

واليقين، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

فالحق النَّافع هو ما اشتمل عليه كلام الله وكلام رسوله في جميع الأبواب لا سيما في هذا الباب الذي هو أصل الأصول كلها.

وهذا معنى قول المُصنِّف في إيراده للآية الكريمة: «﴿سبحان ربك رب العزة عما يصفون (١٨٠) وسلامٌ على المرسلين (١٨١) والحمدُ لله ربّ العالمين﴾ فسبَّحَ نفسَهُ عمَّا وصفَهُ بِهِ المُخالفونَ للرُّسُلِ، وسلَّمَ على المُرسَلينَ لِسَلامَةِ ما قالوهُ مِنَ النَّقصِ والعَيبِ».

أي قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾؛ لدلالة الحمد على الكمال المُطلق من جميع الوُجُوه.

هذا الذي ذكر المُصنِّف ضابطٌ نافع في كيفية الإيمان بالله وبأسمائه الحُسنى وصفاته العليا، وأنَّه مبنيٌّ على أصلين: أحدهما: النَّفي، وثانيهما: الإثبات.

● أما النفي:

فإنه ينفي عن الله: ما يُضَاد الكمال، من أنواع العيُوب والنَّقائص.

وينفي عنه أيضًا: أن يكون له شريك أو نديد أو مثيل في شيء من صفاته أو في حقٍّ من حقُوقه الخاصة.

فكل ما نَافَى صفات الكمال فإن الله مُنزَّه عنه مُقَدَّس.

والنَّفي مقصودٌ لغيره. القصدُ منه: الإثبات، ولهذا لم يَرِد نفي شيءٍ في الكتاب والسُّنَّة عن الله إلا لِقَصد إثبات ضدّه.

فَنَفي: «الشَّريك والنّديد» عن الله؛ لكمال عظمته وتفرُّده بالكمال.

ونفي: «السِّنَة» و«النَّوم» و«الموت»؛ لكمال حياته.

ونَفي: عُزوبَ شيءٍ عن علمه وقدرته وحكمته؛ كُلٌّ ذلك لإثبات سعة علمه وشُمُول حكمته وكمال قدرته.

ولهذا كان التنزيه والنَّفي لأُمُور مُجمَلة عامة.

● وأما الإثبات:

فإنَّه يَجمع الأمرين:

إثبات المجملات: كالحَمد المُطلَق، والكمال المطلق، والمجد المطلق ونحوها.

وإثبات المُفصّلات: كتفصيل علم الله، وقدرته، وحِكمَته، وَرَحمَتهُ ونحو ذلك من صِفَاته.

فأهل السنة والجماعة لزموا هذا الطريق الذي هو الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم عليهم وبلزومهم لهذا الطريق النافع تمت عليهم النعمة وصحت عقائدهم، وكملت أخلاقهم.

أما من سلك غير هذا السبيل فإنه منحرف في عقيدته وأخلاقه وأدبه.

فلا عدول لأهل السنة والجماعة عمَّا جاءت به المرسلون؛ فإنه الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم اللَّه عليهم من النبيين والصِّدِّيقين والشهداء والصالحين.

● قال الشيخ محمد خليل هراس:

وقوله: «ومن الإيمان بالله... إلخ»: هذا شروع في التفصيل بعد الإجمال و«من» هنا للتبعيض والمعنى: ومن جملة إيمان أهل السنة والجماعة بالأصل الأول الذي هو أعظم الأصول وأساسها، وهو الإيمان بالله؛ أنهم يؤمنون بما وصف به نفسه... إلخ.

وقوله: «من غير تحريف»: متعلق بالإيمان قبله يعني أنهم يؤمنون بالصفات الإلهية على هذا الوجه الخالي من كل هذه المعاني الباطلة إثباتًا بلا تمثيل وتنزيهًا بلا تعطيل.

والتحريف في الأصل مأخوذ من قولهم: حرفت الشيء عن وجهه حرفًا، من باب ضرب إذا أملته وغيرته والتشديد للمبالغة.

وتحريف الكلام إمالته عن المعنى المتبادر منه إلى معنى آخر لا يدل عليه اللفظ إلا باحتمال مرجوح، فلا بد فيه من قرينة تبين أنه المراد.

وأما «التعطيل» فهو مأخوذ من العطل الذي هو الخلو والفراغ والترك، ومنه قوله تعالى: ﴿وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ﴾ أي: أهملها أهلها وتركوا وردها، والمراد به هنا نفي الصفات الإلهية، وإنكار قيامها بذاته تعالى. فالفرق بين التحريف والتعطيل أن التعطيل نفي للمعنى الحق الذي دل عليه الكتاب والسنة، وأما التحريف فهو تفسير النصوص بالمعاني الباطلة التي لا تدل عليها.

والنسبة بينهما العموم والخصوص المطلق، فإن التعطيل أعم مطلقًا من التحريف بمعنى أنه كلما وجد التحريف وجد التعطيل دون العكس، وبذلك يوجدان معًا فيمن

أثبت المعنىٰ الباطل ونفىٰ المعنىٰ الحق، ويوجد التعطيل بدون التحريف فيمن نفىٰ الصفات الواردة في الكتاب والسنة وزعم أن ظاهرها غير مراد ولكنه لم يعين لها معنىٰ آخر وهو ما يسمونه بالتفويض.

ومن الخطأ القول بأن هذا هو مذهب السلف كما نسب ذلك إليهم المتأخرون من الأشاعرة وغيرهم، فإن السلف لم يكونوا يفوضون في علم المعنىٰ، ولا كانوا يقرءون كلامًا لا يفهمون معناه بل كانوا يفهمون معاني النصوص من الكتاب والسنة، ويثبتونها لله عز وجل، ثم يفوضون فيما وراء ذلك من كنه الصفات أو كيفياتها كما قال مالك حين سئل عن كيفية استوائه تعالىٰ علىٰ العرش: «الاستواء معلوم والكيف مجهول».

وأما قوله: «ومن غير تكييف ولا تمثيل»: فالفرق بينهما أن التكييف أن يعتقد أن صفاته تعالىٰ علىٰ كيفية كذا، أو يسأل عنها بكيف.

وأما التمثيل فهو اعتقاد أنها مثل صفات المخلوقين، وليس المراد من قوله: من غير تكييف، أنهم ينفون الكيف مطلقًا، فإن كل شيء لابد أن يكون علىٰ كيفية ما، ولكن المراد أنهم ينفون علمهم بالكيف إذ لا يعلم كيفية ذاته وصفاته إلا هو سبحانه.

قوله: «ليس كمثله» هذه الآية المحكمة من كتاب الله عز وجل هي دستور أهل السنة والجماعة في باب الصفات فإن الله عز وجل قد جمع فيها بين النفي والإثبات، فنفىٰ عن نفسه المثل وأثبت لنفسه سمعًا وبصرًا: فدل هذا علىٰ أن المذهب الحق ليس هو نفي الصفات مطلقًا، كما هو شأن المعطلة ولا إثباتها مطلقًا، كما هو شأن الممثلة، بل إثباتها بلا تمثيل. وقد اختلف في إعراب ﴿ليس كمثله شيء﴾ علىٰ وجوه أصحها أن الكاف صلة زيدت للتأكيد كما في قول الشاعر:

ليس كمثل الفتى زهير ... خلق يوازيه في الفضائل

وقوله: «فلا ينفون عنه... إلخ»: تفريع علىٰ ما قبله، فإنهم إذا كانوا يؤمنون بالله علىٰ هذا الوجه فلا ينفون ولا يحرفون، ولا يكيفون ولا يمثلون.

والمواضع جمع موضع والمراد بها المعاني التي يجب تنزيل الكلام عليها لأنها هي المتبادرة منه عند الإطلاق فهم لا يعدلون به عنها.

وأما قوله: «ولا يلحدون في أسماء الله وآياته»: فقد قال العلامة ابن القيم

رحمه الله: والإلحاد في أسمائه هو العدول بها وبحقائقها ومعانيها عن الحق الثابت لها، مأخوذ من الميل كما يدل عليه مادة (ل ح د) فمنه اللحد وهو الشق في جانب القبر الذي قد مال عن الوسط، ومنه الملحد في الدين: (المائل عن الحق المدخل فيه ما ليس منه). اهـ.

فالإلحاد فيها إما أن يكون بجحدها وإنكارها بالكلية، وإما بجحد معانيها وتعطيلها، وإما بتحريفها عن الصواب وإخراجها عن الحق بالتأويلات الفاسدة، وإما بجعلها أسماء لبعض المبتدعات كإلحاد أهل الاتحاد.

وخلاصة ما تقدم أن السلف رضي الله عنهم يؤمنون بكل ما أخبر الله به عن نفسه في كتابه وبكل ما أخبر به عنه رسوله ﷺ إيمانًا سالمًا من التحريف والتعطيل، ومن التكييف والتمثيل، ويجعلون الكلام في ذات الباري وصفاته بابًا واحدًا، فإن الكلام في الصفات فرع الكلام في الذات يحتذى فيه حذوه. فإذا كان إثبات الذات إثبات وجود لا إثبات تكييف فكذلك إثبات الصفات، وقد يعبرون عن ذلك بقولهم: (تمر كما جاءت بلا تأويل) ومن لم يفهم كلامهم ظن أن غرضهم بهذه العبارة هو قراءة اللفظ دون التعرض للمعنى وهو باطل فإن المراد بالتأويل المنفي هنا هو حقيقة المعنى وكنهه وكيفيته.

قال الإمام أحمد رحمه الله: لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله لا يتجاوز القرآن والحديث.

وقال نعيم بن حماد شيخ البخاري: من شبه الله بخلقه كفر ومن جحد ما وصف الله به نفسه كفر، وليس فيما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله تشبيه ولا تمثيل.

قوله: «لأنه سبحانه لا سمي له... إلخ»: تعليل لقوله فيما تقدم إخبارًا عن أهل السنة والجماعة: لا يكيفون ولا يمثلون.

ومعنى: «لا سمي له»: أي لا نظير له يستحق مثل اسمه، أو لا مسامي له يساميه، وقد دل على نفيه قوله تعالى في سورة مريم: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ فإن الاستفهام هنا إنكاري معناه النفي.

وليس المراد من نفي السمي أن غيره لا يسمى بمثل أسمائه، فإن هناك أسماء مشتركة بينه وبين خلقه، ولكن المقصود أن هذه الأسماء إذا سمي الله بها كان معناها مختصًا به لا يشركه فيه غيره، فإن الاشتراك إنما هو في مفهوم الاسم الكلي، وهذا

لا وجود له إلا في الذهن، وأما في الخارج فلا يكون المعنىٰ إلا جزئيًا مختصًا، وذلك بحسب ما يضاف إليه، فإن أضيف إلىٰ الرب كان مختصًا به لا يشاركه فيه العبد، وإن أضيف إلىٰ العبد كان مختصًا به لا يشاركه فيه الرب.

وأما «الكفء»: فهو المكافئ المساوي، وقد دل علىٰ نفيه قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾.

وأما «الند»: فمعناه المساوي المناوئ، قال تعالىٰ: ﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

وأما قوله: «ولا يقاس بخلقه» فالمقصود به أنه لا يجوز استعمال شيء من الأقيسة التي تقتضي المماثلة والمساواة بين المقيس والمقيس عليه في الشئون الإلهية.

وذلك مثل قياس التمثيل الذي يعرفه علماء الأصول بأنه إلحاق فرع بأصل في حكم الجامع، كإلحاق النبيذ بالخمر في الحرمة لاشتراكهما في علة الحكم وهي الإسكار.

فقياس التمثيل مبني علىٰ وجود مماثلة بين الفرع والأصل، والله عز وجل لا يجوز أن يمثل بشيء من خلقه.

ومثل قياس الشمول المعروف عند المناطقة بأنه الاستدلال بكلي علىٰ جزئي بواسطة اندراج ذلك الجزئي مع غيره تحت هذا الكلي. فهذا القياس مبني علىٰ استواء الأفراد المندرجة تحت هذا الكلي، ولذلك يحكم علىٰ كل منها بما حكم به عليه.

ومعلوم أنه لا مساواة بين الله عز وجل وبين شيء من خلقه وإنما يستعمل في حقه تعالىٰ قياس الأولىٰ ومضمونه: أن كل كمال ثبت للمخلوق وأمكن أن يتصف به الخالق، فالخالق أولىٰ به من المخلوق، وكل نقص تنزه عنه المخلوق فالخالق أحق بالتنزه عنه.

وكذلك **قاعدة الكمال** التي تقول: إنه إذا قدر اثنان أحدهما موصوف بصفة كمال والآخر يمتنع عليه أن يتصف بتلك الصفة كان الأول أكمل من الثاني، فيجب إثبات مثل تلك الصفة لله ما دام وجودها كمالاً وعدمها نقصًا.

قوله: «فإنه أعلم بنفسه وبغيره ـ إلى قوله ـ ثم رسله صادقون مصدقون»: تعليل لصحة مذهب السلف في الإيمان بجميع الصفات الواردة في الكتاب والسنة. فإنه إذا

كان الله عز وجل أعلم بنفسه وبغيره، وكان أصدق قولاً وأحسن حديثًا، وكان رسله عليهم الصلاة والسلام صادقين في كل ما يخبرون به عنه، معصومين من الكذب عليه والإخبار عنه بما يخالف الواقع. وجب التعويل إذًا في باب الصفات نفيًا وإثباتًا على ما قاله الله وقاله رسوله الذي هو أعلم خلقه به، وأن لا يترك ذلك إلى قول من يفترون على الله الكذب ويقولون عليه ما لا يعلمون.

وبيان ذلك أن الكلام إنما تقصر دلالته على المعاني المرادة منه لأحد ثلاثة أسباب: إما لجهل المتكلم وعدم علمه بما يتكلم به، وإما لعدم فصاحته وقدرته على البيان، وإما لكذبه وغشه وتدليسه، ونصوص الكتاب والسنة بريئة من هذه الأمور الثلاثة من كل وجه، فكلام الله وكلام رسوله في غاية الوضوح والبيان، كما أنه المثل الأعلى في الصدق والمطابقة للواقع لصدوره عن كمال العلم بالنسب الخارجية وهو كذلك صادر عن تمام النصح والشفقة، والحرص على هداية الخلق وإرشادهم.

فقد اجتمعت له الأمور الثلاثة التي هي عناصر الدلالة والإفهام على أكمل وجه. فالرسول ﷺ أعلم الخلق بما يريد إخبارهم به، وهو أقدرهم على بيان ذلك، والإفصاح عنه، وهو أحرصهم على هداية الخلق وأشدهم إرادة لذلك، فلا يمكن أن يقع في كلامه شيء من النقص والقصور بخلاف كلام غيره فإنه لا يخلو من نقص في أحد هذه الأمور أو جميعها، فلا يصح أن يعدل بكلامه كلام غيره فضلاً عن أن يعدل عنه إلى كلام غيره، فإن هذا هو غاية الضلال ومنتهى الخذلان.

قوله: «ولهذا قال... إلخ»: تعليل لما تقدم من كون كلام الله وكلام رسوله أكمل صدقًا وأتم بيانًا ونصحًا؛ وأبعد عن العيوب والآفات من كلام كل أحد.

«وسبحان»: اسم مصدر من التسبيح، الذي هو التنزيه والإبعاد عن السوء، وأصله من السبح الذي هو السرعة والانطلاق والإبعاد ومنه فرس سبوح إذا كانت شديدة العدو.

وإضافة الرب إلى العزة من إضافة الموصوف إلى صفته، وهو بدل من الرب قبله، فهو سبحانه ينزه نفسه عما ينسبه إليه المشركون من اتخاذ الصاحبة والولد وعن كل نقص وعيب.

ثم يسلم على رسله عليهم الصلاة والسلام بعد ذلك للإشارة إلى أنه كما يجب

تنزيه الله عز وجل وإبعاده عن كل شائبة نقص وعيب، فيجب اعتقاد سلامة الرسل في أقوالهم وأفعالهم من كل عيب كذلك فلا يكذبون على الله ولا يشركون به ولا يغشون أممهم ولا يقولون على الله إلا الحق.

قوله: «والحمد لله رب العالمين»: ثناء منه سبحانه على نفسه بما له من نعوت الكمال وأوصاف الجلال وحميد الفعال، وقد تقدم الكلام على معنى الحمد فأغنى عن إعادته.

لما بين فيما سبق أن أهل السنة والجماعة يصفون الله عز وجل بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله، ولم يكن ذلك كله إثباتًا ولا كله نفيًا نبه على ذلك بقوله: «وهو سبحانه قد جمع . . . إلخ».

واعلم أن كلاً من النفي والإثبات في الأسماء والصفات مجمل ومفصل.

أما الإجمال في النفي: فهو أن ينفي عن الله عز وجل كل ما يضاد كماله من أنواع العيوب والنقائص مثل قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾.

وأما التفصيل في النفي: فهو أن ينزه الله عن كل واحد من هذه العيوب والنقائص بخصوصه، فينزه عنه الوالد والولد والشريك والصاحبة والند والضد والجهل والعجز والضلال والنسيان والسنة والنوم والعبث والباطل . . . إلخ.

ولكن ليس في الكتاب ولا في السنة نفي محض، فإن النفي الصرف لا مدح فيه، وإنما يراد بكل نفي فيهما إثبات ما يضاده من الكمال، فنفي الشريك والند لإثبات كمال عظمته وتفرده بصفات الكمال، ونفي العجز لإثبات كمال قدرته، ونفي الجهل لإثبات سعة علمه وإحاطته، ونفي الظلم لإثبات كمال عدله، ونفي العبث لإثبات كمال حكمته، ونفي السنة والنوم والموت لإثبات كمال حياته وقيوميته وهكذا، ولهذا كان النفي في الكتاب والسنة إنما يأتي مجملاً في أكثر أحواله بخلاف الإثبات فإن التفصيل فيه أكثر من الإجمال لأنه مقصود لذاته.

وأما الإجمال في الإثبات: فمثل إثبات الكمال المطلق، والحمد المطلق والمجد المطلق ونحو ذلك، كما يشير إليه مثل قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ﴾.

وأما التفصيل في الإثبات: فهو متناول لكل اسم أو صفة وردت في الكتاب والسنة، وهو من الكثير بحيث لا يمكن لأحد أن يحصيه فإن منها ما اختص الله عز وجل بعلمه كما قال عليه الصلاة والسلام: «**سبحانك لا نحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك**»[١]. وفي حديث دعاء الكرب: «**أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك**»[٢].

- الشيخ ابن باز:

- التحريف: معناه تغيير ألفاظ الأسماء والصفات، أو تغيير معانيها، كقول الجهمية في «استوى»: استولى، وكقول بعض المبتدعة أن معنى الغضب في حق الله إرادة الانتقام، وأن معنى «الرحمة» كذلك إرادة الإنعام وكل هذا تحريف.

فقولهم في: استوى: استولى من تحريف اللفظ، وقولهم: الرحمة إرادة الإنعام، والغضب إرادة الانتقام من تحريف المعنى، والقول الحق أن معنى الاستواء الارتفاع والعلو، وكما هو صريح لغة العرب وجاء به القرآن ليدل على أن معناه الارتفاع والعلو على العرش على وجه يليق بجلال الله وعظمته وكذا الغضب والرحمة صفتان حقيقيتان تليقان بجلال الله وعظمته، كسائر الصفات الواردة في القرآن والسنة.

التعطيل معناه: سلب الصفات ونفيها عن الله تعالى، وهو مأخوذ من قولهم: جيد معطل أي خالٍ من الحلي، فالجهمية وأشباههم قد عطلوا الله عن صفاته فلذلك سموا بالمعطلة، وقولهم هذا من أبطل الباطل، إذ لا يعقل وجود ذات بدون صفات، والقرآن والسنة متضافران على إثبات هذه الصفات على وجه يليق بجلال الله وعظمته.

التكييف: معناه بيان الهيئة التي تكون عليها الصفات، فلا يقال: كيف استوى؟ كيف يده؟ كيف وجهه؟ ونحو ذلك، إذ القول في الصفات كالقول في الذات يحتذى حذوه ويقاس عليه، فكما أن له ذاتاً ولا نعلم كيفيتها، فكذلك له صفات لا

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٤٨٦) من حديث عائشة رضي اللَّه عنها.
(٢) أخرجه أحمد (١/ ٣٩١، ٤٥٢).

نعلم كيفيتها، ولا يعلم ذلك إلا هو، مع إيماننا بحقيقة معناها.

أما التمثيل: فمعناه التشبيه فلا يقال: ذات الله مثل ذواتنا أو شبه ذواتنا، وهكذا فلا يقال في صفاته: إنها مثل صفاتنا أو شبه صفاتنا، بل على المؤمن أن يلتزم قوله تعالى: ﴿**ليس كمثله شيء**﴾ [الشورى: ١١]. و﴿**هل تعلم له سميا**﴾ [مريم: ٦٥] والمعنى: لا أحد يساميه أي يشابهه.

فائدة: ذكرها شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ قال: إذا قال لك: نؤول معنى الغضب: إرادة الانتقام، والرحمة: إرادة الإنعام فقل: وهل هذه الإرادة تشبه إرادة المخلوق، أم أنها إرادة تليق بجلاله وعظمته؟ فإن قال: الأول فقد شبه، وإن قال الثاني فقل: ولِمَ لا تقل: رحمة وغضب يليقان بجلاله وعظمته، وبذلك تحجه وتخصمه.

طريقة الكتاب والسنة في أسماء الله وصفاته: الإثبات المفصل والنفي المجمل. فقد جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين النفي المجمل، مثل قوله تعالى: ﴿**ليس كمثله شيء**﴾ [الشورى: ١١] ﴿**ولم يكن له كفوا أحد**﴾ [الإخلاص: ٤]. ﴿**هل تعلم له سميا**﴾ [مريم: ٦٥]. وكذلك قوله ﷺ في حديث أبي موسى: «**إنكم لا تدعون أصم و لا غائبًا**» في حكم النفي المجمل، لأن الصمم والغيبة تتضمنان نفي نقائص كثيرة تلزم من صفتي الصمم والغيبة، لأن الأصم هو الذي لا يسمع ولا يصلح أن يكون إلهًا لهذا النقص العظيم الذي يلزم منه عدم سماع دعاء الداعين، وأصوات المحتاجين وغير ذلك من النقائص، كما أن الغيبة يلزم منها عدم اطلاعه على أحوال عباده وعدم علمه بما ينبغي أن يعاملهم به ونحو ذلك.

● **الشيخ محمد بن صالح العثيمين:**

قوله: «**ومن الإيمان بالله: الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه، وبما وصفه به رسوله محمد ﷺ**».

قوله: «**ومن الإيمان**»: (من): هنا للتبعيض؛ لأننا ذكرنا أن الإيمان بالله يتضمن أربعة أمور: الإيمان بوجوده، وانفراده بالربوبية، وبالألوهية، وبالأسماء والصفات؛ يعني: بعضُ الإيمان بالله: الإيمانُ بما وصف به نفسه.

وقوله: «بما وصف به نفسه في كتابه»: ينبغي أن يقال: وسمى به نفسه، لكن المؤلف ـ رحمه الله ـ ذكر الصفة فقط: إما لأنه ما من اسم إلا ويتضمن صفة، أو لأن الخلاف في الأسماء خلاف ضعيف، لم ينكره إلا غلاة الجهمية والمعتزلة؛ فالمعتزلة يثبتون الأسماء، والأشاعرة والماتريدية يثبتون الأسماء، لكن يخالفون أهل السنة في أكثر الصفات.

فنحن الآن نقول: لماذا اقتصر المؤلف على «ما وصف الله به نفسه»؟.

نقول: لأحد أمرين: إما لأن كل اسم يتضمن صفة، وإما لأن الخلاف في الأسماء قليل بالنسبة للمنتسبين للإسلام.

«في كتابه»: (كتابه) يعني: القرآن، وسماه الله تعالى كتابًا، لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ، ومكتوب في الصحف التي بأيدي السفرة الكرام البررة، ومكتوب كذلك بين الناس يكتبونه في المصاحف؛ فهو كتاب بمعنى مكتوب، وأضافه الله إليه؛ لأنه كلامه سبحانه وتعالى؛ فهذا القرآن كلام الله، تكلم به حقيقة؛ فكل حرف منه؛ فإن الله قد تكلم به.

وفي هذه الجملة مباحث:

المبحث الأول: أن من الإيمان بالله الإيمان بما وصف به نفسه:

ووجه ذلك أن الإيمان بالله ـ كما سبق ـ يتضمن الإيمان بأسمائه وصفاته؛ فإن ذات الله تسمى بأسماء وتوصف بأوصاف، ووجود ذات مجردة عن الأوصاف أمر مستحيل؛ فلا يمكن أن توجد ذاتًا مجردة عن الأوصاف أبدًا، وقد يفرض الذهن أن هناك ذاتًا مجردة من الصفات، لكن الفرض ليس كالأمر الواقع؛ أي أن المفروض ليس كالمشهود؛ فلا يوجد في الخارج ـ أي: في الواقع المشاهد ـ ذاتٌ ليس لها صفات أبدًا.

فالذهن قد يفرض مثلا شيئًا له ألف عين، في كل ألف عين ألف سواد وألف بياض، وله ألف رجل، في كل رجل ألف أصبع، في كل أصبع ألف ظفر، وله ملايين الشعر، في كل شعرة ملايين الشعر.. وهكذا!! يفرضه وإن لم يكن له واقع؛ لكن الشيء الواقع لا يمكن أن يوجد شيء بدون صفة.

لهذا؛ كان الإيمان بصفات الله من الإيمان بالله، لو لم يكن من صفات الله إلا

أنه موجود واجب الوجود، وهذا باتفاق الناس، وعلىٰ هذا؛ فلا بد أن يكون له صفة..

المبحث الثاني: أن صفات الله عز وجل من الأمور الغيبية، والواجب علىٰ الإنسان نحو الأمور الغيبية: أن يؤمن بها علىٰ ما جاءت؛ دون أن يرجع إلىٰ شيء سوىٰ النصوص.

قال الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ: «لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله، لا يُتَجاوَزُ القرآنُ والحديث».

يعني: أننا لا نصف الله إلا بما وصف به نفسه في كتابه، أو علىٰ لسان رسوله ﷺ.

ويدل لذلك القرآن والعقل:

ففي القرآن: يقول الله عز وجل: ﴿ **قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ** ﴾ [الأعراف: ٣٣]؛ فإذا وصفت الله بصفة لم يصف الله بها نفسه؛ فقد قلت عليه ما لا تعلم، وهذا محرم بنص القرآن.

ويقول الله عز وجل: ﴿ **وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً** ﴾ [الإسراء: ٣٦]، ولو وصفنا الله بما لم يصف به نفسه؛ لكنا قَفَونا ما ليس لنا به علم، فوقعنا فيما نهىٰ الله عنه.

وأما الدليل العقلي؛ فلأن صفات الله عز وجل من الأمور الغيبية، ولا يمكن في الأمور الغيبية أن يدركها العقل، وحينئذ لا نصف الله بما لم يصف به نفسه، ولا نكيف صفاته؛ لأن ذلك غير ممكن.

نحن الآن لا ندرك ما وصف الله به نعيم الجنة من حيث الحقيقة، مع أنه مخلوق، في الجنة فاكهة ونخل ورمان وسرر وأكواب وحور، ونحن لا ندرك حقيقة هذه الأشياء، ولو قيل: صفها لنا؛ لا نستطيع وصفها؛ لقوله تعالىٰ: ﴿ **فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ [السجدة: ١٧]، ولقوله تعالىٰ في الحديث القدسي: «**أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت،**

ولا خطر على قلب بشر»[١] .

فإذا كان هذا في المخلوق الذي وُصف بصفات معلومة المعنى ولا تُعلم حقيقتها؛ فكيف بالخالق؟!

مثال آخر: الإنسان فيه روح، لا يحيا إلا بها، لولا أن الروح في بدنه ما حيي، ولا يستطيع أن يصف الروح، لو قيل له: ما هذه الروح التي بك؟ ما هي التي لو نزعت منك؛ صرت جثة وإذا بقيت؛ فأنت إنسان تعقل وتفهم وتدرك؟ لجلس ينظر ويفكر فلا يستطيع أن يصفها أبداً، مع أنها قريبة منه؛ في نفسه وبين جنبيه، ويعجز عن إدراكها، مع أنها حقيقة؛ يعني: شيء يُرى؛ كما أخبر النبي عليه الصلاة والسلام بـ**«أن الروح إذا قُبض؛ تبعه البصر»**[٢] ؛ فالإنسان يرى نفسه وهي مقبوضة، ولهذا تبقى العين مفتوحة عند الموت تشاهد الروح، وهي قد خرجت، وتُؤخذ هذه الروح، وتُجعل في كفن، ويُصعد بها إلى الله، ومع ذلك ما يستطيع أن يصفها، وهي بين جنبيه؛ فكيف يحاول أن يصف الرب بأمر لم يصف به نفسه؟!

ولا بد إذاً تحقق ثبوت الصفات لله.

المبحث الثالث: أننا لا نصف الله تعالى بما لم يصف به نفسه.

ودليل ذلك أيضاً من السمع والعقل:

ذكرنا من السمع آيتين:

وأما من العقل: فقلنا: إن هذا أمر غيبي، لا يمكن إدراكه بالعقل، وضربنا لذلك مثلين

المبحث الرابع: وجوب إجراء النصوص الواردة في الكتاب والسنة على ظاهرها، لا نتعداها.

مثال ذلك: لما وصف الله نفسه بأن له عيناً؛ هل نقول: المراد بالعين الرؤية لا حقيقة العين؟ لو قلنا ذلك؛ ما وصفنا الله بما وصف به نفسه.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٢٤٤) ومسلم (٢٨٢٤) من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٩٢٠) وابن ماجه (١٤٥٤) وأحمد في «مسنده» (٦/ ٢٩٧) من حديث أم سلمة ـ رضي الله عنه ـ.

ولما وصف الله نفسه بأن له يدين: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]؛ لو قلنا: إن الله تعالى ليس له يد حقيقة، بل المراد باليد ما يسبغه من النعم على عباده؛ فهل وصفنا الله بما وصف به نفسه؟ لا.

المبحث الخامس: عموم كلام المؤلف يشمل كل ما وصف الله به نفسه من الصفات الذاتية المعنوية والخبرية والصفات الفعلية.

فالصفات الذاتية هي التي لم يزل ولا يزال متصفًا بها، وهي نوعان: معنوية وخبرية:

فالمعنوية؛ مثل: الحياة، والعلم، والقدرة، والحكمة... وما أشبه ذلك، وهذا على سبيل التمثيل لا الحصر.

والخبرية؛ مثل: اليدين، والوجه، والعينين... وما أشبه ذلك مما سماه، نظيره أبعاض وأجزاء لنا.

فالله تعالى لم يزل له يدان ووجه وعينان، لم يحدث له شيء من ذلك بعد أن لم يكن، ولن ينفك عن شيء منه؛ كما أن الله لم يزل حيًا ولا يزال حيًا، لم يزل عالمًا ولا يزال عالمًا، ولم يزل قادراً ولا يزال قادراً... وهكذا؛ يعني: ليس حياته تتجدد، ولا قدرته تتجدد، ولا سمعه يتجدد، بل هو موصوف بهذا أزلا وأبدًا، وتجدد المسموع لا يستلزم تجدد السمع؛ فأنا مثلا عندما أسمع الأذان الآن؛ فهذا ليس معناه أنه حدث لي سمع جديد عند سماع الأذان، بل هو منذ خلقه الله فيَّ، لكن المسموع يتجدد، وهذا لا أثر له في الصفة.

واصطلح العلماء ـ رحمهم الله ـ على أن يسموها الصفات الذاتية؛ قالوا: لأنها ملازمة للذات، لا تنفك عنها.

والصفات الفعلية هي الصفات المتعلقة بمشيئته، وهي نوعان:

صفات لها سبب معلوم؛ مثل: الرضا؛ فالله عز وجل إذا وجد سبب الرضا؛ رضي؛ كما قال تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧].

وصفات ليس لها سبب معلوم؛ مثل: النزول إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر.

ومن الصفات ما هو صفة ذاتية وفعلية باعتبارين؛ فالكلام صفة فعلية باعتبار آحاده، لكن باعتبار أصله صفة ذاتية؛ لأن الله لم يزل ولا يزال متكلماً، لكنه يتكلم بما شاء متى شاء؛ كما سيأتي في بحث الكلام إن شاء الله تعالى.

اصطلح العلماء رحمهم الله أن يسموا هذه الصفات الصفات الفعلية؛ لأنها من فعله سبحانه وتعالى.

ولها أدلة كثيرة من القرآن؛ مثل: ﴿ **وَجَاء رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا** ﴾ [الفجر: ٢٢]، ﴿ **هَل يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيهُمُ الْمَلآئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ** ﴾ [الأنعام: ١٥٨]، ﴿ **رَّضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ** ﴾ [المائدة: ١١٩]، ﴿ **وَلَكِن كَرِهَ اللهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ** ﴾ [التوبة: ٤٦]، ﴿ **أَن سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ** ﴾ [المائدة: ٨٠].

وليس في إثباتها لله تعالى نقص بوجه من الوجوه، بل هذا من كماله أن يكون فاعلا لم يريد.

وأولئك القوم المحرفون يقولون: إثباتها من النقص! ولهذا ينكرون جميع الصفات الفعلية؛ يقولون: لا يجيء، ولا يرضى، ولا يسخط، ولا يكره، ولا يحب . . . ينكرون كل هذه؛ بدعوى أن هذه حادثة، والحادث لا يقوم إلا بحادث، وهذا باطل؛ لأنه في مقابلة النص، وهو باطل بنفسه؛ فإنه لا يلزم من حدوث الفعل حدوث الفاعل.

المبحث السادس: أن العقل لا مدخل له في باب الأسماء والصفات:

لأن مدار إثبات الأسماء والصفات أو نفيها على السمع؛ فعقولنا لا تحكم على الله أبداً؛ فالمدار إذاً على السمع؛ خلافاً للأشعرية والمعتزلة والجهمية وغيرهم من أهل التعطيل، الذين جعلوا المدار في إثبات الصفات أو نفيها على العقل، فقالوا: ما اقتضى العقل إثباته؛ أثبتناه، سواء أثبته الله لنفسه أم لا! وما اقتضى نفيه؛ نفيناه، وإن أثبته الله! وما لا يقتضي العقل إثباته ولا نفيه؛ فأكثرهم نفاه، وقال: إن دلالة العقل إيجابية؛ فإن أوجب الصفة؛ أثبتناها، وإن لم يوجبها؛ نفيناها! ومنهم من توقف فيه، فلا يثبتها؛ لأن العقل لا يثبتها، لكن لا ينكرها؛ لأن العقل لا ينفيها، ويقول: نتوقف! لأن دلالة العقل عند هذا سلبية، إذا لم يوجب؛ يتوقف، ولم ينف!

فصار هؤلاء يحكِّمون العقل فيما يجب أو يمتنع على الله عز وجل.

فيتفرع على هذا: ما اقتضى العقل وصف الله به؛ وصف الله به، وإن لم يكن في الكتاب والسنة، وما اقتضى العقل نفيه عن الله؛ نفوه، وإن كان في الكتاب والسنة. ولهذا يقولون: ليس لله عين، ولا وجه، ولا له يد، ولا استوى على العرش، ولا ينزل إلى السماء الدنيا.. لكنهم يحرفون، ويسمون تحريفهم تأويلا، ولو أنكروا إنكار جحد؛ لكفروا؛ لأنهم كذبوا، لكنهم ينكرون إنكار ما يسمونه تأويلا، وهو عندنا تحريف.

والحاصل أن العقل لا مجال له في باب أسماء الله وصفاته.

فإن قلت: قولك هذا يناقض القرآن، لأن الله يقول: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا﴾ [المائدة: ٥٠]، والتفضيل بين شيء وآخر مرجعه إلى العقل، وقال عز وجل: ﴿وَلِلهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى﴾ [النحل: ٦٠]، وقال: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل:١٧]... وأشباه ذلك مما يحيل الله به على العقل فيما يثبته لنفسه وما ينفيه عن الآلهة المدعاة؟.

فالجواب أن نقول: إن العقل يدرك ما يجب لله سبحانه وتعالى ويمتنع عليه على سبيل الإجمال لا على سبيل التفصيل؛ فمثلا: العقل يدرك بأن الرب لا بد أن يكون كامل الصفات، لكن هذا لا يعني أن العقل يثبت كل صفة بعينها أو ينفيها، لكن يثبت أو ينفي على سبيل العموم أن الرب لا بد أن يكون كامل الصفات سالمًا من النقص.

فمثلا: يدرك بأنه لا بد أن يكون الرب سميعًا بصيراً؛ قال إبراهيم لأبيه: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٤٢].

ولا بد أن يكون خالقًا؛ لأن الله قال: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ﴾ [النحل:١٧]، ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئًا﴾ [النحل: ٢٠].

يدرك هذا، ويدرك بأن الله سبحانه وتعالى يمتنع أن يكون حادثًا بعد العدم؛ لأنه نقص، ولقوله تعالى محتجًا على هؤلاء الذين يعبدون الأصنام: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [النحل: ٢٠]؛ إذًا يمتنع أن يكون الخالق حادثًا بالعقل.

العقل أيضًا يدرك بأن كل صفة نقص فهي ممتنعة على الله ؛ لأن الرب لا بد أن يكون كاملا ، فيدرك بأن الله عز وجل مسلوب عنه العجز ؛ لأنه صفة نقص ، إذا كان الرب عاجزًا ، وعُصي ، وأراد أن يعاقب الذي عصاه ، وهو عاجز ؛ فلا يمكن !

إذًا ؛ العقل يدرك بأن العجز لا يمكن أن يوصف الله به ، والعمى كذلك ، والصمم كذلك ، والجهل كذلك . . . وهكذا على سبيل العموم ندرك ذلك ، لكن على سبيل التفصيل . . . لا يمكن أن ندركه ، فنتوقف فيه على السمع .

سؤال: هل كل ما هو كمال فينا يكون كمالا في حق الله، وهل كل ما هو نقص فينا يكون نقصًا في حق الله؟.

الجواب: لا ؛ لأن المقياس في الكمال والنقص ليس باعتبار ما يضاف للإنسان ؛ لظهور الفرق بين الخالق والمخلوق ، لكن باعتبار الصفة من حيث هي صفة ؛ فكل صفة كمال ؛ فهي ثابتة لله سبحانه وتعالى .

فالأكل والشرب بالنسبة للخالق نقص ؛ لأن سببهما الحاجة ، والله تعالى غني عما سواه ، لكن هما بالنسبة للمخلوق كمال ، ولهذا ؛ إذا كان الإنسان لا يأكل ؛ فلا بد أن يكون عليلا بمرض أو نحوه ، هذا نقص .

والنوم بالنسبة للخالق نقص ؛ وللمخلوق كمال ؛ فظهر الفرق .

التكبر كمال للخالق ونقص للمخلوق ؛ لأنه لا يتم الجلال والعظمة إلا بالتكبر ، حتى تكون السيطرة كاملة ، ولا أحد ينازعه . . . ولهذا توعد الله تعالى من ينازعه الكبرياء ، والعظمة ؛ قال : «**من نازعني واحدًا منهما عذبته**»[1] .

فالمهم أنه ليس كل كمال في المخلوق يكون كمالا في الخالق ، ولا كل نقص في المخلوق يكون نقصًا في الخالق ، إذا كان الكمال أو النقص اعتباريًا .

هذه ستة مباحث تحت قوله : «ما وصف به نفسه» ، وكلها مباحث هامة ، وقدمناها بين يدي العقيدة ؛ لأنه سينبني عليها ما يأتي إن شاء الله تعالى .

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٦٢) وأبو داود (٤٠٩٠) وابن ماجه (٤١٧٤) من حديث أبي سعيد وأبي هريرة ـ رضي الله عنهما ـ.

قولـه: «وبما وصفه به رسوله».

ووصف رسـول الله ﷺ لربه ينقسم إلىٰ ثلاثة أقسام: إمـا بالقول، أو بالفعل، أو بالإقرار.

أ ـ أما الـقول؛ فكثير؛ مثل: «ربنا! الله الذي في السماء! تقدس اسمك، أمرك في السماء والأرض»[(١)] .

وقوله في يمينه: «لا ومُقَلِب القُلُوب»[(٢)] .

ب ـ وأما الفعل؛ فهو أقل من القول؛ مثل إشارته إلىٰ السماء يستشهد الله علىٰ إقرار أمته بالبلاغ، وهذا في حجة الوداع في عرفة، خطب الناس، وقال: «ألا هل بلغت؟» قالوا: نعم، ثلاث مرات. قال: «اللهم! اشهد»[(٣)] . يرفع إصبعه إلىٰ السماء، وينكتها إلىٰ الناس. فرفع إصبعه إلىٰ السماء؛ هذا وصف الله تعالىٰ بالعلو عن طريق الفعل.

وجاء رجل وهو يخطب الناس يوم الجمعة؛ قال: يا رسول الله! هلكت الأموال.. فرفع يديه[(٤)] . وهذا أيضًا وصف لله بالعلو عن طريق الفعل.

وغير ذلك من الأحاديث التي فيها فعل النبي عليه الصلاة والسلام إذا ذكر صفة من صفات الله.

وأحيانًا يذكر الرسول عليه الصلاة والسلام الصفة من صفات الله بالقول ويؤكدها بالفعل، وذلك حينما تلا قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨]. فوضع إبهامه علىٰ أذنه اليمنىٰ، والتي تليها علىٰ عينه[(٥)] ، وهذا إثبات

---

(١) ضعيف: أخرجه أبو داود (٣٨٩٢) والنسائي في «الكبرىٰ» (١٠٨٧٦) وأحمد في «مسنده» (٦/ ٢٠) والحاكم (١/ ٤٩٤) من حديث أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ والحديث ضعفه الشيخ الألباني في «ضعيف أبي داود» (٨٣٩).

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٧٣٩١) وأبو داود (٣٢٦٣) والترمذي (١٥٤٠) من حديث عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ.

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٧٤١) ومسلم (١٦٧٩) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه ـ

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) صحيح: أخرجه أبو داود (٤٧٢٨) والطبراني في «الأوسط» (٩٣٣٤) من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ والحديث صححه الشيخ الألباني في «صحيح أبي داود».

للسمع والبصر بالقول والفعل.

وحينئذ نقول: إن إثبات الرسول عليه الصلاة والسلام للصفات يكون بالقول ويكون بالفعل؛ مجتمعين ومنفردين. أما الإقرار؛ فهو قليل بالنسبة لما قبله؛ مثل: إقراره الجارية التي سألها: «**أين الله؟**». قالت: في السماء. فأقرها، وقال: «**أعتقها**»[١].

وكإقراره الحبر من اليهود، الذي جاء وقال للرسول عليه الصلاة والسلام: إننا نجد أن الله يجعل السموات على إصبع، والأرضين على إصبع، والثرى على إصبع[٢].. إلى آخر الحديث، فضحك النبي ﷺ تصديقًا لقوله، وهذا إقرار.

إذا قال قائل: ما وجه وجوب الإيمان بما وصف الرسول به ربه، أو: ما دليله؟.

نقول: دليله قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُواْ آمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الذي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الذيَ أَنزَلَ مِن قَبْلُ**﴾ [النساء: ١٣٦]، وكل آية فيها ذكر أن الرسول عليه الصلاة والسلام مبلغ؛ فهي دالة على وجوب قبول ما أخبر به من صفات الله؛ لأنه أخبر بها وبلغها إلى الناس، وكل ما أخبر به؛ فهو تبليغ من الله، ولأن الرسول عليه الصلاة والسلام أعلم الناس بالله، وأنصح الناس لعباد الله، وأصدق الناس فيما قال، وأفصح الناس في التعبير؛ فاجتمع في حقه من صفات القبول أربع: العلم، والنصح، والصدق، والبيان؛ فيجب علينا أن نقبل كل ما أخبر به عن ربه، وهو ـ والله ـ أفصح وأنصح وأعلم من أولئك القوم الذين تبعهم هؤلاء من المناطقة والفلاسفة ومع هذا يقول: «**سبحانك لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك**»[٣].

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٥٣٧) وأبو داود (٩٣٠) والنسائي في «الكبرى» (١٢١٨) من حديث معاوية ابن الحكم السلمي ـ رضي الله عنه.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٨١١) ومسلم (٢٧٨٦) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٣) صحيح: أخرجه مسلم (٤٨٦) وأبو داود (٨٧٩) والترمذي (٣٤٩٣) من حديث عائشة ـ رضي الله عنها.

قوله: «من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل».

في هذه الجملة بيان صفة إيمان أهل السنة بصفات الله تعالى؛ فأهل السنة والجماعة يؤمنون بها إيمانًا خاليًا من هذه الأمور الأربعة: التحريف، والتعطيل، والتكييف، والتمثيل.

فالتحريف: التغيير، وهو إما لفظي وإما معنوي.

والغالب أن التحريف اللفظي لا يقع، وإذا وقع؛ فإنما يقع من جاهل؛ فالتحريف اللفظي يعني تغيير الشكل؛ فمثلا: فما تجد أحداً يقول: «الحمد لله رب العالمين» بفتح الدال؛ إلا إذا كان جاهلا... هذا الغالب!.

لكن التحريف المعنوي هو الذي وقع فيه كثير من الناس.

فأهل السنة والجماعة إيمانهم بما وصف الله به نفسه خال من التحريف؛ يعني: تغيير اللفظ أو المعنى.

وتغيير المعنى يسميه القائلون به تأويلا، ويسمون أنفسهم بأهل التأويل؛ لأجل أن يصبغوا هذا الكلام صبغة القبول؛ لأن التأويل لا تنفر منه النفوس ولا تكرهه، لكن ما ذهبوا إليه في الحقيقة تحريف؛ لأنه ليس عليه دليل صحيح؛ إلا أنهم لا يستطيعون أن يقولوا: تحريفًا! ولو قالوا: هذا تحريف؛ لأعلنوا على أنفسهم برفض كلامهم.

ولهذا عبَّر المؤلف ـ رحمه الله ـ بالتحريف دون التأويل مع أن كثيراً ممن يتكلمون في هذا الباب يعبرون بنفي التأويل؛ يقولون: من غير تأويل، لكن ما عبر به المؤلف أولى لوجوه أربعة:

الوجه الأول: أنه اللفظ الذي جاء به القرآن؛ فإن الله تعالى قال: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾ [النساء: ٤٦]، والتعبير الذي عبر به القرآن أولى من غيره؛ لأنه أدل على المعنى.

الوجه الثاني: أنه أدل على الحال، وأقرب إلى العدل؛ فالمؤول بغير دليل ليس من العدل أن نسميه مؤولا، بل العدل أن نصفه بما يستحق، وهو أن يكون محرفًا.

الوجه الثالث: أن التأويل بغير دليل باطل، يجب البعد عنه والتنفير منه، واستعمال التحريف فيه أبلغ تنفيراً من التأويل؛ لأن التحريف لا يقبله أحد، لكن

التأويل لين، تقبله النفس، وتستفصل عن معناه، أما التحريف؛ بمجرد ما نقول: هذا تحريف. ينفر الإنسان منه، وإذا كان كذلك؛ فإن استعمال التحريف فيمن خالفوا طريق السلف أليق من استعمال التأويل.

الوجه الرابع: أن التأويل ليس مذمومًا كله؛ قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**اللهم فقهه في الدين؛ وعلمه التأويل**»(١)، وقال الله تعالى: ﴿**وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي العِلمِ**﴾ [آل عمران: ٧]، فامتدحهم بأنهم يعلمون التأويل.

والتأويل ليس كله مذمومًا؛ لأن التأويل له معان متعددة، يكون بمعنى التفسير، ويكون بمعنى العاقبة والمآل، ويكون بمعنى صرف اللفظ عن ظاهره.

أ ـ يكون بمعنى التفسير؛ كقول كثير من المفسرين عندما يفسرون الآية؛ يقولون: تأويل قوله تعالى كذا وكذا. ثم يذكرون المعنى، وسمى التفسير تأويلا؛ لأننا أولنا الكلام؛ أي: جعلناه يئول إلى معناه المراد به.

ب ـ تأويل بمعنى: عاقبة الشيء، وهذا إن ورد في طلب؛ فتأويله فعله إن كان أمرًا وتركه إن كان نهيًا، وإن ورد في خبر؛ فتأويله وقوعه.

مثاله في الخبر، قوله تعالى: ﴿**هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ**﴾ [الأعراف: ٥٣]؛ فالمعنى: ما ينتظر هؤلاء إلا عاقبة ومآل ما أخبروا به، يوم يأتي ذلك المخبر به، يقول الذين نسوه من قبل: قد جاءت رسل ربنا بالحق.

ومنه قول يوسف عليه السلام لما خرَّ له أبواه وإخوته سجدًا؛ قال: ﴿**هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ**﴾ [يوسف: ١٠٠]، هذا وقوع رؤياي؛ لأنه قال ذلك بعد أن سجدوا له.

ومثاله في الطلب قول عائشة رضي الله عنها: كان النبي ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده بعد أن أنزل عليه قوله تعالى: ﴿**إِذَا جَاء نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ**﴾ [النصر: ١]؛ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: «**سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي**»(٢)؛ يتأول القرآن: أي: يعمل به.

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (١/ ٢٢٦) والطبراني في «الكبير» (١٠٦١٤) من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ وأصل الحديث في البخاري (١٤٣) دون قوله «وعلمه التأويل».

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٩٤) ومسلم (٤٨٤) من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ.

ج ـ المعنى الثالث للتأويل: صرف اللفظ عن ظاهره، وهذا النوع ينقسم إلى محمود ومذموم؛ فإن دل عليه دليل؛ فهو محمود، ويكون من القسم الأول، وهو التفسير، وإن لم يدل عليه دليل؛ فهو مذموم، ويكون من باب التحريف؛ وليس من باب التأويل.

وهذا الثاني هو الذي درج عليه أهل التحريف في صفات الله عز وجل.

مثاله قوله تعالى: ﴿**الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى**﴾ [طه: ٥]، ظاهر اللفظ أن الله تعالى استوى على العرش، استقر عليه، وعلا عليه، فإذا قال قائل: معنى: ﴿**اسْتَوَى**﴾: استولى على العرش؛ فنقول: هذا تأويل عندك؛ لأنك صرفت اللفظ عن ظاهره، لكن هذا تحريف في الحقيقة؛ لأنه ما دل عليه دليل، بل الدليل على خلافه؛ كما سيأتي إن شاء الله.

فأما قوله تعالى: ﴿**أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ**﴾ [النحل: ١]؛ فمعنى: ﴿**أَتَى أَمْرُ اللَّهِ**﴾؛ أي: سيأتي أمر الله، فهذا مخالف لظاهر اللفظ، لكن عليه دليل، وهو قوله: ﴿**فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ**﴾.

وكذلك قوله تعالى: ﴿**فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ**﴾ [النحل: ٩٨]؛ أي: إذا أردت أن تقرأ، وليس المعنى: إذا أكملت القراءة؛ قل: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم؛ لأننا علمنا من السنة أن النبي عليه الصلاة والسلام إذا أراد أن يقرأ؛ استعاذ بالله من الشيطان الرجيم[١]، لا إذا أكمل القراءة؛ فالتأويل صحيح.

وكذلك قول أنس بن مالك رضي الله عنه: كان النبي ﷺ إذا دخل الخلاء؛ قال: «**أعوذ بالله من الخبث والخبائث**»[٢]؛ فمعنى: «**إذا دخل**»: إذا أراد أن يدخل؛ لأن ذكر الله لا يليق داخل هذا المكان؛ فلهذا حملنا قوله: «**إذا دخل**» على: إذا أراد أن يدخل. هذا التأويل الذي دل عليه الدليل صحيح، ولا يعدو أن يكون تفسيراً.

لذلك قلنا: إن التعبير بالتحريف عن التأويل الذي ليس عليه دليل صحيح أولى؛ لأنه الذي جاء به القرآن، ولأنه ألصق بطريق المحرف، ولأنه أشد تنفيراً عن هذه

---

(١) عزاه السيوطي في «الدر المنثور» لابن أبي شيبة والبيهقي في «سننه» عن جبير بن مطعم.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٤٢) ومسلم (٣٧٥) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

الطريقة المخالفة لطريق السلف، ولأن التحريف كله مذموم؛ بخلاف التأويل؛ فإن منه ما يكون مذمومًا ومحمودًا؛ فيكون التعبير بالتحريف أولى من التعبير بالتأويل من أربعة أوجه.

«ولا تعطيل»: التعطيل بمعنى التخلية والترك؛ كقوله تعالى: ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ﴾ [الحج: ٤٥]؛ أي: مخلاة متروكة.

والمراد بالتعطيل: إنكار ما أثبت الله لنفسه من الأسماء والصفات؛ سواء كان كليًا أو جزئيًا، وسواء كان ذلك بتحريف أو بجحود، هذا كله يسمى تعطيلا.

فأهل السنة والجماعة لا يعطلون أي اسم من أسماء الله، أو أي صفة من صفات الله، ولا يجحدونها، بل يقرون بها إقرارًا كاملا.

فإن قلت: ما الفرق بين التعطيل والتحريف؟

قلنا: التحريف في الدليل، والتعطيل في المدلول؛ فمثلا: إذا قال قائل: معنى قوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]؛ أي: بل قوتاه. هذا محرف للدليل، ومعطل للمراد الصحيح؛ لأن المراد اليد الحقيقية، فقد عطل المعنى المراد، وأثبت معنى غير المراد. وإذا قال: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾؛ لا أدري! أفوض الأمر إلى الله، لا أثبت اليد الحقيقية، ولا اليد المحرف إليها اللفظ. نقول: هذا معطل، وليس بمحرف، لأنه لم يغير معنى اللفظ، ولم يفسر بغير مراده، لكن عطل معناه الذي يراد به، وهو إثبات اليد لله عز وجل.

أهل السنة والجماعة يتبرءون من الطريقتين:

الطريقة الأولى: التي هي تحريف اللفظ بتعطيل معناه الحقيقي المراد إلى معنى غير مراد.

والطريقة الثانية: وهي طريقة أهل التفويض؛ فهم لا يفوضون المعنى كما يقوله المفوضة، بل يقولون: نحن نقول: ﴿بَلْ يَدَاهُ﴾؛ أي: يداه الحقيقتان ﴿مَبْسُوطَتَانِ﴾، وهما غير القوة والنعمة.

فعقيدة أهل السنة والجماعة بريئة من التحريف ومن التعطيل.

وبهذا نعرف ضلال أو كذب من قالوا: إن طريقة السلف هي التفويض؛ هؤلاء

ضلوا إن قالوا ذلك عن جهل بطريقة السلف، وكذبوا إن قالوا ذلك عن عمد، أو نقول: كذبوا على الوجهين على لغة الحجاز؛ لأن الكذب عند الحجازيين بمعنى الخطأ.

وعلى كل حال؛ لا شك أن الذين يقولون: إن مذهب أهل السنة هو التفويض؛ أنهم أخطؤا؛ لأن مذهب أهل السنة هو إثبات المعنى وتفويض الكيفية.

وليعلم أن القول بالتفويض - كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية - من شر أقوال أهل البدع والإلحاد!.

عندما يسمع الإنسان التفويض؛ يقول: هذا جيد، أسلم من هؤلاء وهؤلاء، لا أقول بمذهب السلف، ولا أقول بمذهب أهل التأويل، أسلك سبيلا وسطًا، وأسلم من هذا كله، وأقول: الله أعلم، ولا ندري ما معناها. لكن يقول شيخ الإسلام: هذا من شر أقوال أهل البدع والإلحاد!.

وصدق - رحمه الله - إذا تأملته؛ وجدته تكذيبًا للقرآن، وتجهيلا للرسول ﷺ، واستطالة للفلاسفة.

تكذيب للقرآن؛ لأن الله يقول: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]، وأي بيان في كلمات لا يدري ما معناها؟! وهي من أكثر ما يرد في القرآن، وأكثر ما ورد في القرآن أسماء الله وصفاته، إذا كنا لا ندري ما معناها؛ هل يكون القرآن تبيانًا لكل شيء؟! أين البيان؟!.

إن هؤلاء يقولون: إن الرسول ﷺ لا يدري عن معاني القرآن فيما يتعلق بالأسماء والصفات! وإذا كان الرسول عليه الصلاة والسلام لا يدري؛ فغيره من باب أولى.

وأعجب من ذلك يقولون: الرسول ﷺ يتكلم بالكلام في صفات الله، ولا يدري ما معناه! يقول: «ربنا الله الذي في السماء»[١]، وإذا سُئل عن هذا؟ قال: لا أدري! وكذلك في قوله: «ينزل ربنا إلى السماء الدنيا»[٢]، وإذا سُئل: ما معنى: «ينزل ربنا»؟ قال: لا أدري.. وعلى هذا؛ فقس.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (١١٤٥) ومسلم (٧٥٨) من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه -.

وهل هناك قدح أعظم من هذا القدح بالرسول ﷺ، بل هذا من أكبر القدح!

رسول من عند الله ليبين للناس، وهو لا يدري ما معنى آيات الصفات وأحاديثها، وهو يتكلم بالكلام ولا يدري معنى ذلك كله!.

فهذان وجهان: تكذيب القرآن، وتجهيل الرسول ﷺ.

وفيه فتح الباب للزنادقة الذين تطاولوا على أهل التفويض، وقالوا: أنتم لا تعرفون شيئًا، بل نحن الذين نعرف، وأخذوا يفسرون القرآن بغير ما أراد الله، وقالوا: كوننا نثبت معاني للنصوص خير من كوننا أميين لا نعرف شيئًا، وذهبوا يتكلمون بما يريدون من معنى كلام الله وصفاته!! ولا يستطيع أهل التفويض أن يردوا عليهم؛ لأنهم يقولون: نحن لا نعلم ماذا أراد الله؛ فجائز أن يكون الذي يريد الله هو ما قلتم! ففتحوا باب شرور عظيمة، ولهذا جاءت العبارة الكاذبة: «**طريقة السلف أسلم، وطريقة الخلف أعلم وأحكم**»!

يقول شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «هذه قالها بعض الأغبياء»، وهو صحيح؛ أن القائل غبي.

هذه الكلمة من أكذب ما يكون نطقًا ومدلولا، «طريقة السلف أسلم، وطريقة الخلف أعلم وأحكم»؛ كيف تكون أعلم وأحكم وتلك أسلم؟! لا يوجد سلامة بدون علم وحكمة أبدًا! فالذي لا يدري عن الطريق؛ لا يسلم؛ لأنه ليس معه علم، لو كان معه علم وحكمة؛ لسلم؛ فلا سلامة إلا بعلم وحكمة.

إذا قلت: إن طريقة السلف أسلم؛ لزم أن تقول: هي أعلم وأحكم، وإلا لكنت متناقضًا.

إذًا؛ فالعبارة الصحيحة: «طريقة السلف أسلم وأعلم وأحكم» وهذا معلوم.

وطريقة الخلف ما قاله القائل:

لَعُمْرِي لَقَدْ طُفْتُ المَعَاهِدَ كُلَّهَا ... وَسَيَّرْتُ طَرْفِي بَيْنَ تِلْكَ المَعَالِمِ

فَلَمْ أَرَ إِلَّا وَاضِعًا كَفَّ حَائِرٍ ... عَلَى ذَقَنٍ أَوْ قَارِعًا سِنَّ نَادِمِ

هذه الطريقة التي يقول عنها: إنه ما وجد إلا واضعًا كف حائر على ذقن.

وهذا ليس عنده علم أو آخر: قارعًا سن نادم؛ لأنه لم يسلك طريق السلامة أبدًا.

والرازي - وهو من كبرائهم - يقول:

نهاية إقدام العقول عقال ... وأكثر سعي العالمين ضلال

وأرواحنا في وحشة من جسومنا ... وغاية دنيانا أذى ووبال

ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا ... سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا[(١)]

ثم يقول: «لقد تأملت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية؛ فما رأيتها تشفي عليلاً، ولا تروي غليلاً، ووجدت أقرب الطرق طريقة القرآن، أقرأ في الإثبات: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠]، وأقرأ في النفي: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]، ومن جرب مثل تجربتي؛ عرف مثل معرفتي»[(٢)].

أهؤلاء نقول: إن طريقتهم أعلم وأحكم؟!

الذي يقول: «إني أتمنى أن أموت على عقيدة عجائز نيسابور»، والعجائز من عوام الناس، يتمنى أنه يعود إلى الأميات! هل يقال: إنه أعلم وأحكم؟!

أين العلم الذي عندهم؟!

فتبين أن طريقة التفويض طريق خاطئ؛ لأنه يتضمن ثلاث مفاسد: تكذيب القرآن، وتجهيل الرسول، واستطالة الفلاسفة! وأن الذين قالوا: إن طريقة السلف هي التفويض. كذبوا على السلف، بل هم يثبتون اللفظ والمعنى، ويقررونه، ويشرحونه بأوفى شرح.

أهل السنة والجماعة لا يحرفون ولا يعطلون، ويقولون بمعنى النصوص كما أراد الله: ﴿اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]؛ بمعنى: علا عليه، وليس معناه: استولى.

بيده: يد حقيقية، وليست القوة والنعمة؛ فلا تحريف عندهم ولا تعطيل.

«ومن غير تكييف»: (تكييف): لم ترد في الكتاب والسنة، لكن ورد ما يدل على النهي عنها.

---

(١) انظر «فتاوى ابن تيمية» (١/ ٧٣).

(٢) انظر «سير أعلام النبلاء» (٢١/ ١٠٥) و«فتاوى ابن تيمية» (١/ ٧٣).

التكييف: هو أن تذكر كيفية الصفة، ولهذا نقول: كيف يكيف تكييفًا؛ أي: ذكر كيفية الصفة.

والتكييف يُسأل عنه بـ (كيف)؛ فإذا قلت مثلا: كيف جاء زيد؟ تقول: راكبًا. إذا كيفت مجيئه.

كيف لون السيارة؟ أبيض. فذكرت اللون.

أهل السنة والجماعة لا يكيفون صفات الله؛ مستندين في ذلك إلى الدليل السمعي والدليل العقلي:

ـ أما الدليل السمعي؛ فمثل قوله تعالى: ﴿ **قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ** ﴾ [الأعراف: ٣٣]، والشاهد في قوله: ﴿ **وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ** ﴾.

فإذا جاء رجل وقال: إن الله استوى على العرش، على هذه الكيفية... ووصف كيفية معينة.

نقول: هذا قد قال على الله ما لا يعلم! هل أخبرك الله بأنه استوى على هذه الكيفية؟! لا؛ أخبرنا الله بأنه استوى، ولم يخبرنا كيف استوى. فنقول: هذا تكييف وقول على الله بغير علم.

ولهذا قال بعض السلف: إذا قال لك الجهمي: إن الله ينزل إلى السماء؛ فكيف ينزل؟ فقل: إن الله أخبرنا أنه ينزل، ولم يخبرنا كيف ينزل. وهذه قاعدة مفيدة.

دليل آخر من السمع: قال الله تعالى: ﴿ **وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً** ﴾ [الإسراء: ٣٦]، لا تتبع ما ليس لك به علم؛ ﴿ **إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً** ﴾.

ـ وأما الدليل العقلي؛ فكيفية الشيء لا تدرك إلا بواحد من أمور ثلاثة: مشاهدته، أو مشاهدة نظيره، أو خبر الصادق عنه. أي: إما أن تكون شاهدته أنت وعرفت كيفيته. أو شاهدت نظيره؛ كما لو قال واحد: إن فلانًا اشترى سيارة داتسن موديل ثمان وثمانين رقم ألفين. فتعرف كيفيتها؛ لأن عندك مثلها. أو خبر صادق

عنها؛ أتاك رجل صادق وقال: إن سيارة فلان صفتها كذا وكذا.. ووصفها تمامًا؛ فتدرك الكيفية الآن.

ولهذا أيضًا قال بعض العلماء جوابًا لطيفًا: إن معنى قولنا: «بدون تكييف»: ليست معناه ألا نعتقد لها كيفية، بل نعتقد لها كيفية، لكن المنفي علمنا بالكيفية؛ لأن استواء الله على العرش لا شك أن له كيفية، لكن لا تعلم، نزوله إلى السماء الدنيا له كيفية، لكن لا تعلم؛ لأنه ما من موجود إلا وله كيفية، لكنها قد تكون معلومة، وقد تكون مجهولة.

سئل الإمام مالك - رحمه الله - عن قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]: كيف استوى؟ فأطرق مالك برأسه حتى علاه العرق، ثم رفع رأسه، وقال: «الاستواء غير مجهول»؛ أي: من حيث المعنى معلوم؛ لأن اللغة العربية بين أيدينا، كل المواضع التي وردت فيها ﴿اسْتَوَى﴾ معداة بـ (على) معناها العلو. فقال: «الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول»؛ لأن العقل لا يدرك الكيف؛ فإذا انتفى الدليل السمعي والعقلي عن الكيفية؛ وجب الكف عنها، «والإيمان به واجب»؛ لأن الله أخبر به عن نفسه، فوجب تصديقه، «والسؤال عنه بدعة»: السؤال عن الكيفية بدعة؛ لأن من هم أحرص منا على العلم ما سألوا عنها، وهم الصحابة رضي الله عنهم، لما قال الله: ﴿اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]؛ عرفوا عظمة الله عز وجل، ومعنى الاستواء على العرش، وأنه لا يمكن أن تسأل: كيف استوى؟ لأنك لن تدرك ذلك. فنحن إذا سُئلنا؛ فنقول: هذا السؤال بدعة.

وكلام مالك - رحمه الله - ميزان لجميع الصفات؛ فإن قيل لك مثلا: إن الله ينزل إلى السماء الدنيا؛ كيف ينزل؟ فالنزول غير مجهول: والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة.

والذين يسألون: كيف يمكن النزول وثلث الليل يتنقل؟!

فنقول: السؤال هذا بدعة، كيف تسأل عن شيء ما سأل عنه الصحابة رضي الله عنهم، وهم أحرص منك على الخير وعلى العلم بما يجب لله عز وجل، ولسنا بأعلم من الرسول عليه الصلاة والسلام؛ فهو لم يعلمهم. فسؤالك هذا بدعة، ولولا أننا نحسن الظن بك؛ لقلنا ما يليق بك بأنك رجل مبتدع.

والإمام مالك ـ رحمه الله ـ قال: «ما أراك إلا مبتدعًا»، ثم أمر به فأخرج؛ لأن السلف يكرهون أهل البدع وكلامهم واعتراضاتهم وتقديراتهم ومجادلاتهم.

فأنت يا أخي عليك في هذا الباب بالتسليم، فمن تمام الإسلام لله عز وجل ألا تبحث في هذه الأمور، ولهذا أحذركم دائمًا من البحث فيما يتعلق بأسماء الله وصفاته على سبيل التعنت والتنطع والشيء الذي ما سأل الصحابة رضي الله عنهم عنه؛ لأننا إذا فتحنا على أنفسنا هذه الأبواب؛ انفتحت علينا الأبواب، وتهدمت الأسوار، وعجزنا عن ضبط أنفسنا؛ فلذلك قل: سمعنا وأطعنا وآمنا وصدقنا؛ آمنا وصدقنا بالخبر، وأطعنا الطلب، وسمعنا القول؛ حتى تسلم!

وأي إنسان يسأل فيما يتعلق بصفات الله عن شيء ما سأل عنه الصحابة رضي الله عنهم، فقل كما قال الإمام مالك؛ فإن لك سلفًا: السؤال عن هذا بدعة. وإذا قلت ذلك؛ لن يلح عليك، وإذا ألح؛ فقل: يا مبتدع! السؤال عنه بدعة، اسأل عن الأحكام التي أنت مكلف بها، أما أن تسأل عن شيء يتعلق بالرب عز وجل وبأسمائه وصفاته، ولم يسأل عنه الصحابة رضي الله عنهم؛ فهذا لا نقبله منك أبدًا!.

وهناك كلام للسلف يدل على أنهم يفهمون معاني ما أنزل الله على رسوله من الصفات؛ كما نُقل عن الأوزاعي وغيره؛ نقل عنهم أنهم قالوا في آيات الصفات وأحاديثها: «أمروها كما جاءت بلا كيف»، وهذا يدل على أنهم يثبتون لها معنى من وجهين:

أولا: أنهم قالوا: «أمروها كما جاءت»، ومعلوم أنها ألفاظ جاءت لمعان، ولم تأت عبثًا، فإذا أمررناها كما جاءت؛ لزم من ذلك أن نثبت لها معنى.

ثانيًا: قولهم: «بلا كيف»؛ لأن نفي الكيفية يدل على وجود أصل المعنى؛ لأن نفي الكيفية عن الشيء لا يوجد لغو وعبث.

إذًا؛ فهذا الكلام المشهور عند السلف يدل على أنهم يثبتون لهذه النصوص معنى.

«ولا تمثيل»؛ يعني: ومن غير تمثيل؛ فأهل السنة يتبرءون من تمثيل الله عز وجل بخلقه؛ لا في ذاته، ولا في صفاته.

والتمثيل: ذكر مماثل للشيء، وبينه وبين التكييف عموم وخصوص مطلق؛ لأن

كل ممثل مكيف، وليس كل مكيف ممثلا؛ لأن التكييف ذكر كيفية غير مقرونة بمماثل؛ مثل أن تقول: لي قلم كيفيته كذا وكذا. فإن قُرنت بمماثل؛ صار تمثيلا؛ مثل أن أقول: هذا القلم مثل هذا القلم؛ لأني ذكرت شيئًا مماثلا لشيء، وعرفت هذا القلم بذكر مماثله.

وأهل السنة والجماعة يثبتون لله عز وجل الصفات بدون مماثلة؛ يقولون: إن الله عز وجل له حياة وليست مثل حياتنا، له علم وليس مثل علمنا، له بصر وليس مثل بصرنا، له وجه وليس مثل وجوهنا، له يد وليست مثل أيدينا... وهكذا جميع الصفات؛ يقولون: إن الله عز وجل لا يماثل خلقه فيما وصف به نفسه أبدًا ولهم على ذلك أدلة سمعية وأدلة عقلية:

أ ـ الأدلة السمعية:

تنقسم إلى قسمين: خبر، وطلب.

ـ فمن الخبر؛ قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]؛ فالآية فيها نفي صريح للتمثيل. وقوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]؛ فإن هذا وإن كان إنشاء، لكنه بمعنى الخبر؛ لأنه استفهام بمعنى النفي. وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤]؛ فهذه كلها تدل على نفي المماثلة، وهي كلها خبرية.

ـ وأما الطلب؛ فقال الله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة: ٢٢]؛ أي: نظراء مماثلين. وقال: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ [النحل: ٧٤].

فمن مثَّل الله بخلقه؛ فقد كذب الخبر، وعصى الأمر، ولهذا أطلق بعض السلف القول بالتكفير لمن مثل الله بخلقه؛ فقال نعيم بن حماد الخزاعي شيخ البخاري ـ رحمه الله ـ: «من شبه الله بخلقه؛ فقد كفر»؛ لأنه جمع بين التكذيب بالخبر وعصيان الطلب.

وأما الأدلة العقلية على انتفاء التماثل بين الخالق والمخلوق:

فمن وجوه:

أولا: أن نقول: لا يمكن التماثل بين الخالق والمخلوق بأي حال من الأحوال، لو لم يكن بينهما من التباين إلا أصل الوجود؛ لكان كافيًا، وذلك أن وجود الخالق

واجب؛ فهو أزلي أبدي، ووجود المخلوق ممكن مسبوق بعدم ويلحقه فناء؛ فما كانا كذلك لا يمكن أن يقال: إنهما متماثلان.

ثانيًا: أنا نجد التباين العظيم بين الخالق والمخلوق في صفاته وفي أفعاله؛ في صفاته يسمع عز وجل كل صوتٍ مهما خفي ومهما بعد، لو كان في قعار البحار؛ لسمعه عز وجل.

وأنزل الله قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١]؛ تقول عائشة رضي الله عنها: «الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، إني لفي الحجرة، وإنه ليخفى علي بعض حديثها»(١)، والله تعالى سمعها من على عرشه، وبينه وبينها ما لا يعلم مداه إلا الله عز وجل؛ ولا يمكن أن يقول قائل: إن سمع الله مثل سمعنا.

ثالثًا: نقول: نحن نعلم أن الله تعالى مباين للخلق بذاته: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ﴿وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الزمر: ٦٧]، ولا يمكن لأحد من الخلق أن يكون هكذا؛ فإذا كان مباينًا للخلق في ذاته؛ فالصفات تابعة للذات، فيكون أيضًا مباينًا للخلق في صفاته عز وجل، ولا يمكن التماثل بين الخالق والمخلوق.

رابعًا: نقول: إننا نشاهد في المخلوقات أشياء تتفق في الأسماء وتختلف في المسميات؛ يختلف الناس في صفاتهم: هذا قوي البصر وهذا ضعيفه، وهذا قوي السمع وهذا ضعيف، هذا قوي البدن وهذا ضعيفه وهذا ذكر وهذه أنثى... وهكذا التباين في المخلوقات التي من جنس واحد؛ فما بالك بالمخلوقات المختلفة الأجناس؟ فالتباين بينهما أظهر، ولهذا؛ لا يمكن لأحد أن يقول: إن لي يدًا كيد الجمل، أو لي يدًا كيد الذرة، أو لي يدًا كيد الهر؛ فعندنا الآن إنسان وجمل وذرة وهر، كل واحد له يد مختلفة عن الثاني، مع أنها متفقة في الاسم. فنقول: إذا جاز التفاوت بين المسميات في المخلوقات مع اتفاق الاسم؛ فجوازه بين الخالق والمخلوق

---

(١) صحيح. أخرجه ابن ماجه (١٨٨) والنسائي في «الكبرى» (٣٤٦٠) من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ والحديث صححه الشيخ الألباني في «صحيح ابن ماجه».

من باب أولى. بل نحن نقول: إن التفاوت بين الخالق والمخلوق ليس جائزًا فقط، بل هو واجب؛ فعندنا أربعة وجوه عقلية كلها تدل على أن الخالق لا يمكن أن يماثل المخلوق بأي حال من الأحوال.

ربما نقول أيضًا: هناك دليل فطري، وذلك لأن الإنسان بفطرته بدون أن يلقَّن يعرف الفرق بين الخالق والمخلوق، ولولا هذه الفطرة؛ ما ذهب يدعو الخالق. فتبين الآن أن التمثيل منتف سمعًا وعقلا وفطرة.

فإن قال قائل: إن النبي ﷺ حدثنا بأحاديث تشتبه علينا؛ هل هي تمثيل أو غير تمثيل؟ ونحن نضعها بين أيديكم:

ـ قال النبي ﷺ: «**إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر، لا تضامون في رؤيته**»(١)؛ فقال: «كما»، والكاف للتشبيه، وهذا رسول الله ﷺ، ونحن من قاعدتنا أن نؤمن بما قال الرسول كما نؤمن بما قال الله؛ فأجيبوا عن هذا الحديث؟

نقول: نجيب عن هذا الحديث وعن غيره بجوابين: الجواب الأول مجمل، والثاني مفصل.

فالأول المجمل: أنه لا يمكن أن يقع تعارض بين كلام الله وكلام رسوله الذي صح عنه أبدًا؛ لأن الكل حق، والحق لا يتعارض، والكل من عند الله، وما عند الله تعالى لا يتناقض: ﴿**وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا**﴾ [النساء: ٨٢]؛ فإن وقع ما يوهم التعارض في فهمك؛ فاعلم أن هذا ليس بحسب النص، ولكن باعتبار ما عندك؛ فأنت إذا وقع التعارض عندك في نصوص الكتاب والسنة؛ فإما لقلة العلم، وإما لقصور الفهم، وإما للتقصير في البحث والتدبر، ولو بحثت وتدبرت؛ لوجدت أن التعارض الذي توهمته لا أصل له، وإما لسوء القصد والنية؛ بحيث تستعرض ما ظاهره التعارض لطلب التعارض، فتحرم التوفيق؛ كأهل الزيغ الذين يتبعون المتشابه.

ويتفرع على هذا الجواب المجمل أنه يجب عليك عند الاشتباه أن ترد المشتبه إلى المحكم؛ لأن هذه الطريق طريق الراسخين في العلم، قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٥٤) ومسلم (٦٣٣) من حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه.

أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ ﴾ [آل عمران: ٧]، ويحملون المتشابه على المحكم حتى يبقى النص كله محكماً

وأما الجواب المفصل: فأن نجيب عن كل نص بعينه، فنقول:

إن قول النبي ﷺ: «**إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر لا تضامون في رؤيته**»(١)، ليس تشبيهاً للمرئي بالمرئي، ولكنه تشبيه للرؤية بالرؤية؛ «ترون.. كما ترون»؛ فالكاف في: «كما ترون»: داخله على مصدر مؤول؛ لأن (ما) مصدرية، وتقدير الكلام: كرؤيتكم القمر ليلة البدر، وحينئذ يكون التشبيه للرؤية بالرؤية لا المرئي بالمرئي، والمراد أنكم ترونه رؤية واضحة كما ترون القمر ليلة البدر، ولهذا أعقبه بقوله: «لا تضامون في رؤيته»، أو: «لا تضارون في رؤيته»، فزال الإشكال الآن!.

- قال النبي ﷺ: «**إن الله خلق آدم على صورته**»(٢)، والصورة مماثلة للأخرى، ولا يعقل صورة إلا مماثلة للأخرى، ولهذا أكتب لك رسالة، ثم تدخلها الآلة الفوتوغرافية، وتخرج الرسالة، فيقال: هذه صورة هذه، ولا فرق بين الحروف والكلمات؛ فالصورة مطابقة للصورة، والقائل: «**إن الله خلق آدم على صورته**»: الرسول عليه الصلاة والسلام أعلم وأصدق وأنصح وأفصح الخلق.

والجواب المجمل: أن نقول: لا يمكن أن يناقض هذا الحديث قوله تعالى: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**﴾ [الشورى: ١١]، فإن يسر الله لك الجمع؛ فاجمع، وإن لم يتيسر؛ فقال: ﴿**آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا**﴾ [آل عمران: ٧]، وعقيدتنا أن الله لا مثيل له؛ فبهذا تسلم أمام الله عز وجل.

هذا كلام الله، وهذا كلام رسوله، والكل حق، ولا يمكن أن يكذب بعضه بعضاً؛ لأنه كله خبر وليس حكماً كي ينسخ؛ فأقول: هذا نفي للمماثلة، وهذا

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٢٢٧) ومسلم (٢٨٤١) من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ.

إثبات للصورة؛ فقل: إن الله ليس كمثله شيء، وإن الله خلق آدم على صورته؛ فهذا كلام الله، وهذا كلام رسوله، والكل حق نؤمن به، ونقول: كل من عند ربنا، ونسكت، وهذا هو غاية ما تستطيع.

وأما الجواب المفصل: فنقول: إن الذي قال: «**إن الله خلق آدم على صورته**»: رسول الذي قال: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**﴾ [الشورى: ١١]، والرسول لا يمكن أن ينطق بما يكذب المرسل، والذي قال: «**خلق آدم على صورته**»: هو الذي قال: «**إن أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر**»(١) ؛ فهل أنت تعتقد أن هؤلاء الذين يدخلون الجنة على صورة القمر من كل وجه، أو تعتقد أنهم على صورة البشر، لكن في الوضاءة والحسن والجمال واستدارة الوجه وما أشبه ذلك على صورة القمر، لا من كل وجه؟! فإن قلت بالأول؛ فمقتضاه أنهم دخلوا وليس لهم أعين وليس لهم آناف وليس لهم أفواه! وإن شئنا قلنا: دخلوا وهم أحجار! وإن قلت بالثاني؛ زال الإشكال، وتبين أنه لا يلزم من كون الشيء على صورة الشيء أن يكون مماثلا له من كل وجه

فإن أبى فهمك، وتقاصر عن هذا، وقال: أنا لا أفهم إلا أنه مماثل

قلنا: هناك جواب آخر، وهو أن الإضافة هنا من باب إضافة المخلوق إلى خالقه؛ فقوله: «**على صورته**» مثل قوله عز وجل في آدم: ﴿**وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي**﴾ [ص: ٧٢]، ولا يمكن أن الله عز وجل أعطى آدم جزءاً من روحه، بل المراد الروح التي خلقها الله عز وجل، لكن إضافتها إلى الله بخصوصها من باب التشريف؛ كما نقول: عباد الله؛ يشمل الكافر والمسلم والمؤمن والشهيد والصديق والنبي، لكننا لو قلنا: محمد عبد الله؛ هذه إضافة خاصة، ليست كالعبودية السابقة

فقوله: «**خلق آدم على صورته**»؛ يعني: صورة من الصور التي خلقها الله وصورها؛ كما قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ**﴾ [الأعراف: ١١]، والمصوَّر آدم، إذاً؛ فآدم على صورة الله؛ يعني: أن الله هو الذي صوره على هذه الصورة التي تعد أحسن صورة في المخلوقات، ﴿**لَقَدْ خَلَقْنَا**

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٢٤٦) ومسلم (٢٨٣٤) من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه -.

الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]؛ فإضافة الله الصورة إليه من باب التشريف، كأنه عز وجل اعتنى بهذه الصورة، ومن أجل ذلك؛ لا تضرب الوجه؛ فتعيبه حسًا، ولا تقبحه فتقول: قبح الله وجهك ووجه من أشبه وجهك؛ فتعيبه معنى؛ فمن أجل أنه الصورة التي صورها الله وأضافها إلى نفسه تشريفًا وتكريمًا؛ لا تقبحها بعيب حسي ولا بعيب معنوي

ثم هل يعتبر هذا الجواب تحريفًا أم له نظير؟

نقول: له نظير، كما في: بيت الله، وناقة الله. وعبد الله؛ لأن هذه الصورة (أي: صورة آدم) منفصلة بائنة من الله، وكل شيء أضافه الله إلى نفسه وهو منفصل بائن عنه؛ فهو من المخلوقات؛ فحينئذ يزول الإشكال

ولكن إذا قال قائل: أيهما أسلم المعنى الأول أو الثاني؟

قلنا: المعنى الأول أسلم، ما دمنا نجد أن لظاهر اللفظ مساغًا في اللغة العربية وإمكانًا في العقل؛ فالواجب حمل الكلام عليه، ونحن وجدنا أن الصورة لا يلزم منها مماثلة الصورة الأخرى، وحينئذ يكون الأسلم أن نحمله على ظاهره

فإذا قلت: ما هي الصورة التي تكون لله ويكون آدم عليها؟

قلنا: إن الله عز وجل له وجه وله عين وله يد وله رجل عز وجل، لكن لا يلزم من أن تكون هذه الأشياء مماثلة للإنسان؛ فهناك شيء من الشبه، لكنه ليس على سبيل المماثلة؛ كما أن الزمرة الأولى من أهل الجنة فيها شبه من القمر، لكن بدون مماثلة، وبهذا يصدق ما ذهب إليه أهل السنة والجماعة؛ من أن جميع صفات الله سبحانه وتعالى ليست مماثلة لصفات المخلوقين؛ من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل

نسمع كثيراً من الكتب التي نقرأها يقولون: تشبيه؛ يعبرون بالتشبيه وهم يقصدون التمثيل؛ فأيهما أولى: أن نعبر بالتشبيه، أو نعبر بالتمثيل؟

نقول: بالتمثيل أولى.

أولا: لأن القرآن عبر به: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، ﴿فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلَّهِ

أَنداداً﴾ [البقرة: ٢٢]. . . وما أشبه ذلك، وكل ما عبر به القرآن؛ فهو أولى من غيره؛ لأننا لا نجد أفصح من القرآن، ولا أدل على المعنى المراد من القرآن، والله أعلم بما يريده من كلامه فتكون موافقة القرآن هي الصواب، فنعبر بنفي التمثيل. وهكذا في كل مكان؛ فإن موافقة النص في اللفظ أولى من ذكر لفظ مرادف أو مقارب

ثانيًا: أن التشبيه عند بعض الناس يعني إثبات الصفات، ولهذا يسمون أهل السنة: مشبهة؛ فإذا قلنا: من غير تشبيه. وهذا الرجل لا يفهم من التشبيه إلا إثبات الصفات؛ صار كأننا نقول له: من غير إثبات صفات! فصار معنى التشبيه يوهم معنى فاسداً؛ فلهذا كان العدول عنه أولى

ثالثًا: أن نفي التشبيه على الإطلاق غير صحيح؛ لأن ما من شيئين من الأعيان أو من الصفات إلا وبينهما اشتراك من بعض الوجوه، والاشتراك نوع تشابه، فلو نفيت التشبيه مطلقًا؛ لكنت نفيت كل ما يشترك فيه الخالق والمخلوق في شيء ما

مثلا: الوجود؛ يشترك في أصله الخالق والمخلوق، هذا نوع اشتراك ونوع تشابه، لكن فرق بين الوجودين؛ وجود الخالق واجب، ووجود المخلوق ممكن

وكذلك السمع؛ فيه اشتراك؛ الإنسان له سمع، والخالق له سمع، لكن بينهما فرق، لكن أصل وجود السمع مشترك.

فإذا قلنا: من غير تشبيه. ونفينا مطلق التشبيه؛ صار في هذا إشكال.

وبهذا عرفنا أن التعبير بالتمثيل أولى من ثلاثة أوجه.

فإن قلت: ما الفرق بين التكييف والتمثيل؟.

فالجواب: الفرق بينهما من وجهين:

الأول: أن التمثيل ذكر الصفة مقيدة بمماثل، فتقول يد فلان مثل يد فلان. والتكييف ذكر الصفة غير مقيدة بمماثل؛ مثل أن تقول: كيفية يد فلان كذا وكذا.

وعلى هذا نقول: كل ممثل مكيف، ولا عكس.

الثاني: أن الكيفية لا تكون إلا في الصفة والهيئة، والتمثيل يكون في ذلك وفي العدد؛ كما في قوله تعالى: ﴿اللهُ الذي خلقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ومنَ الأَرْضِ مثْلَهُنَّ﴾

[الطلاق: ١٢]؛ أي: في العدد.

قوله: «بل يؤمنون بأن الله! سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]».

قوله: «بل يؤمنون...»؛ أي: يقرُّ أهل السنة والجماعة بذلك إقرارًا وتصديقًا بأن الله ليس كمثله شيء؛ كما قال عن نفسه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، فهنا نفي المماثلة، ثم أثبت السمع والبصر، فنفى العيب، ثم أثبت الكمال؛ لأن نفي العيب قبل إثبات الكمال، ولهذا يقال: التخلية قبل التحلية. فنفي العيوب يُبدأ به أولا، ثم يُذكر إثبات الكمال

وكلمة ﴿شَيْءٌ﴾ نكرة في سياق النفي، فتعم كل شيء، ليس شيء مثله أبدًا عز وجل، أي مخلوق، وإن عظم؛ فليس مماثلا لله عز وجل؛ لأن مماثلة الناقص نقص، بل إن طلب المفاضلة بين الناقص والكامل تجعله ناقصًا؛ كما قيل:

ألم تر أن السيف ينقص قدره إذا قيل إن السيف أمضى من العصا[1]

فهنا لو قلنا: إن لله مثيلا؛ لزم من ذلك تنقص الله عز وجل؛ فلهذا نقول: نفى الله عن نفسه مماثلة المخلوقين؛ لأن مماثلة المخلوق نقص وعيب؛ لأن المخلوق ناقص، وتمثيل الكامل بالناقص يجعله ناقصًا، بل ذكر المفاضلة بينهما يجعله ناقصًا؛ إلا إذا كان في مقام التحدي، كما في قوله تعالى: ﴿آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٥٩]، وقوله: ﴿قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٠]

وفي قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾: رد صريح على الممثلة، الذين يثبتون أن الله سبحانه وتعالى له مثيل.

وحجة هؤلاء يقولون: إن القرآن عربي، وإذا كان عربيًا؛ فقد خاطبنا الله تعالى بما نفهم، ولا يمكن أن يخاطبنا بما لا نفهم، وقد خاطبنا الله تعالى، فقال: إن له وجهًا، وإن له عينًا، وإن له يدين... وما أشبه ذلك، ونحن لا نعقل بمقتضى اللغة العربية من هذه الأشياء إلا مثل ما نشاهد، وعلى هذا؛ فيجب أن يكون مدلول هذه الكلمات مماثلا لمدلولها بالنسبة للمخلوقات: يد ويد، وعين وعين، ووجه

---

(١) انظر «قرى الضيف» (٥/ ٩٩) لعبد الله بن محمد بن قيس.

ووجه . . . وهكذا؛ فنحن إنما قلنا بذلك لأن لدينا دليلا .

ولا شك أن هذه الحجة واهية، ويوهيها ما سبق من بيان أن الله ليس له مثيل، ونقول : إن الله خاطبنا به من صفاته، لكننا نعلم علم اليقين أن الصفة بحسب الموصوف، ودليل هذا في الشاهد؛ فإنه يقال للجمل يد وللذَّرَّة يد، ولا أحد يفهم من اليد التي أضفناها إلى الجمل أنها مثل اليد التي أضفناها إلى الذَّرَّة! هذا وهو في المخلوقات؛ فكيف إذا كان ذلك من أوصاف الخالق؟! فإن التباين يكون أظهر وأجلى .

وعلى هذا؛ فيكون قول هؤلاء الممثلة مردوداً بالعقل كما أنه مردود بالسمع .

قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾؛ فأثبت لنفسه سبحانه وتعالى السمع والبصر؛ لبيان كماله، ونقص الأصنام التي تُعبد من دونه؛ فالأصنام التي تُعبد من دون الله تعالى لا يسمعون، ولو سمعوا؛ ما استجابوا، ولا يبصرون، كما قال الله عز وجل : ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ * أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النحل: ٢٠، ٢١]؛ فهم ليس لهم سمع ولا عقل ولا بصر، ولو فرض أن لهم ذلك؛ ما استجابوا : ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ [الأحقاف: ٥] .

فأهل السنة والجماعة يؤمنون بانتفاء المماثلة عن الله؛ لأنها عيب، ويثبتون له السمع والبصر؛ لقوله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] .

وإيمان الإنسان بذلك يثمر للعبد أن يعظمه غاية التعظيم؛ لأنه ليس مثله أحد من المخلوقات، فتعظم هذا الرب العظيم الذي لا يماثله أحد، وإلا لم يكن هناك فائدة من إيمانك بأنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] .

إذا آمنت بأنه سميع؛ فإنك سوف تحترز عن كل قول يغضب الله؛ لأنك تعلم أنه يسمعك، فتخشى عقابه؛ فكل قول يكون فيه معصية الله عز وجل، فسوف تتحاشاه؛ لأنك تؤمن بأنه سميع، وإذا لم يحدث لك هذا الإيمان هذا الشيء؛ فاعلم أن إيمانك بأن الله سميع إيمان ناقص بلا شك .

إذا آمنت بأن الله سميع؛ فلن تتكلم إلا بما يرضيه؛ ولا سيما إذا كنت تتكلم معبراً

عن شرعه، وهو المفتي والمعلم؛ فإن هذا أشد، والله سبحانه يقول: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٤]؛ فإن هذا من أظلم الظلم، ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٠]، وهذا من عقوبة من يفتي بلا علم؛ أنه لا يُهدي؛ لأنه ظالم.

فحذار يا أخي المسلم أن تقول قولا لا يرضي الله؛ سواء قلته على الله، أو على غير هذا الوجه

وثمرة الإيمان بأن الله بصير أن لا تفعل شيئًا يغضب الله؛ لأنك تعلم أنك لو تنظر نظرة محرمة لا يفهم الناس أنها نظرة محرمة؛ فإن الله تعالى يرى هذه النظرة، ويعلم ما في قلبك، ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩]

إذا آمنت بهذا؛ لا يمكن أن تفعل فعلا لا يرضاه أبدًا

استحي من الله كما تستحيي من أقرب الناس إليك وأشدهم تعظيمًا منك

إذًا؛ إذا آمنا بأن الله بصير؛ فسوف نتحاشى كل فعل يكون سببًا لغضب الله عز وجل، وإلا فإن إيماننا بذلك ناقص.

لو أن أحدًا أشار بأصبعه أو شفته أو بعينه أو برأسه لأمر محرم؛ فالناس الذين حوله لا يعلمون عنه، لكن الله تعالى يراه؛ فليحذر هذا من يؤمن به، ولو أننا نؤمن بما تقتضيه أسماء الله وصفاته؛ لوجدت الاستقامة كاملة فينا. فالله المستعان.

قوله: «فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه ولا يحرفون الكلم عن مواضعه».

قوله: «فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه»؛ أي: لا ينفي أهل السنة والجماعة عن الله ما وصف به نفسه؛ لأنهم متبعون للنص نفيًا وإثباتًا؛ فكل ما وصف الله به نفسه يثبتونه على حقيقته؛ فلا ينفون عن الله ما وصف به نفسه، سواء كان من الصفات الذاتية أو الفعلية (أو الخبرية).

الصفات الذاتية؛ كالحياة، والقدرة، والعلم... وما أشبه ذلك، وتنقسم إلى: ذاتية معنوية، وذاتية خبرية، وهي التي مسماها أبعاض لنا وأجزاء؛ كاليد، والوجه، والعين؛ فهذه يسميها العلماء: ذاتية خبرية، ذاتية: لأنها لا تنفصل ولم يزل الله ولا يزال متصفًا بها. خبرية: لأنها متلقاة بالخبر؛ فالعقل لا يدل على ذلك، لو لا أن الله

أخبرنا أن له يدًا؛ ما علمنا بذلك، لكنه أخبرنا بذلك؛ بخلاف العلم والسمع والبصر؛ فإن هذا ندركه بعقولنا مع دلالة السمع، لهذا نقول في مثل هذه الصفات اليد والوجه وما أشبهها: إنها ذاتية خبرية، ولا نقول: أجزاء وأبعاض، بل نتحاشى هذا اللفظ لكن مسماها لنا أجزاء وأبعاض؛ لأن الجزء والبعض ما جاز انفصاله عن الكل؛ فالرب عز وجل لا يُتَصور أن شيئًا من هذه الصفات التي وصف بها نفسه - كاليد - أن تزول أبدًا، لأنه موصوف بها أزلا وأبدًا، ولهذا لا نقول: إنها أبعاض وأجزاء.

والصفات الفعلية: هي المتعلقة بمشيئته، إن شاء فعلها، وإن شاء لم يفعلها، وقد ذكرنا أن هذه الصفات الفعلية: منها ما يكون له سبب، ومنها ما ليس له سبب، ومنها ما يكون ذاتيًا فعليًا.

قوله: «**ولا يحرفون الكلم عن مواضعه**»: (الكلم): اسم، جمع كلمة، ويراد به كلام الله وكلام رسوله.

لا يحرفونه عن مواضعه؛ أي: عن مدلولاته؛ فمثلا قوله تعالى: ﴿**بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ**﴾ [المائدة: ٦٤]؛ يقولون: هي يد حقيقية ثابتة لله من غير تكييف ولا تمثيل. والمحرفون يقولون: قوته، أو نعمته. أما أهل السنة؛ فيقولون: القوة شيء واليد شيء آخر، والنعمة شيء واليد شيء آخر؛ فهم لا يحرفون الكلم عن مواضعه؛ فإن التحريف من دأب اليهود، ﴿**مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ**﴾ [النساء: ٤٦]؛ فكل من حرَّف نصوص الكتاب والسنة؛ ففيه شبه من اليهود؛ فاحذر هذا، ولا تتشبه بالمغضوب عليهم، الذين جعل الله منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت، لا تحرف، بل فسر الكلام على ما أراد الله ورسوله.

ومن كلام الشافعي - رحمه الله - ما يذكر عنه: «**آمنت بالله وبما جاء عن الله على مراد الله، وآمنت برسول الله وبما جاء عن رسول الله على مراد رسول الله**».

قوله: «**لا يلحدون في أسماء الله وآياته**».

قوله: «**لا يلحدون...**»؛ أي: أهل السنة والجماعة.

والإلحاد في اللغة: الميل، ومنه سمى اللحد في القبر؛ لأنه مائل إلى جانب منه وليس متوسطًا، والمتوسط يسمى شقًا، واللحد أفضل من الشق.

فهم لا يلحدون في أسماء الله، ولا يلحدون أيضًا في آيات الله، فأفادنا المؤلف ـ رحمه الله ـ أن الإلحاد يكون في موضعين: في الأسماء، وفي الآيات.

هذا الذي يفيده كلام المؤلف قد دل عليه القرآن؛ قال الله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٠]؛ فأثبت الله الإلحاد في الأسماء، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا ﴾ [فصلت: ٤٠]؛ فأثبت الله الإلحاد في الآيات.

ـ فالإلحاد في الأسماء هو الميل فيها عما يجب، وهو أنواع:

النوع الأول: أن يُسمي الله بما لم يسم به نفسه؛ كما سماه الفلاسفة: علة فاعلة، وسماه النصارى: أبًا، وعيسى: الابن؛ فهذا إلحاد في أسماء الله، وكذلك لو سمى الله بأي اسم لم يسم به نفسه؛ فهو ملحد في أسماء الله.

ووجه ذلك أن أسماء الله عز وجل توقيفية؛ فلا يمكن أن نثبت له إلا ما ثبت بالنص، فإذا سميت الله بما لم يسم به نفسه؛ فقد ألحدت وملت عن الواجب.

وتسمية الله بما لم يسم به نفسه سوء أدب مع الله وظلم وعدوان في حقه؛ لأنه لو أن أحدًا دعاك بغير اسمك أو سماك بغير اسمك؛ لاعتبرته قد اعتدى عليك وظلمك، هذا في المخلوق؛ فكيف بالخالق؟!

إذًا؛ ليس لك حق أن تسمي الله بما لم يسم به نفسه، فإن فعلت؛ فأنت ملحد في أسماء الله.

النوع الثاني: أن ينكر شيئًا من أسمائه؛ عكس الأول؛ فالأول سمى الله بما لم يسم به نفسه، وهذا جرد الله مما سمى به نفسه، فينكر الاسم؛ سواء أنكر كل الأسماء أو بعضها التي تثبت لله؛ فإذا أنكرها؛ فقد ألحد فيها.

ووجه الإلحاد فيها: أنه لما أثبتها الله لنفسه، وجب علينا أن نثبتها له؛ فإذا نفيناها؛ كان إلحادًا وميلا بها عما يجب فيها.

وهناك من الناس من أنكر الأسماء؛ كغلاة الجهمية، فقالوا: ليس لله اسم أبدًا! قالوا: لأنك لو أثبت له اسمًا؛ شبهته بالموجودات، وهذا معروف أنه باطل مردود.

النوع الثالث: أن ينكر ما دلت عليه من الصفات؛ فهو يثبت الاسم، لكن ينكر

الصفة التي يتضمنها هذا الاسم؛ مثل أن يقول: إن الله سميع بلا سمع، وعليم بلا علم، وخالق بلا خلق، وقادر بلا قدرة... وهذا معروف عن المعتزلة، وهو غير معقول!

ثم هؤلاء يجعلون الأسماء أعلامًا محضة متغايرة، فيقولوا: السميع غير العليم، لكن كلها ليس لها معنىٰ! السميع لا يدل علىٰ السمع! والعليم لا يدل علىٰ العلم! لكن مجرد أعلام!!

ومنهم آخرون يقولون: هذه الأسماء شيء واحدا؛ فهي عليم وسميع وبصير، كلها واحد، لا تختلف إلا بتركيب الحروف فقط، فيجعل الأسماء شيئًا واحدًا!!.

وكل هذا غير معقول، ولذلك نحن نقول: إنه لا يمكن الإيمان بالأسماء حتىٰ تثبت ما تضمنته من الصفات.

ولعلنا من هنا نتكلم علىٰ دلالة الاسم؛ فالاسم له أنواع ثلاثة في الدلالة: دلالة مطابقة، ودلالة تضمن، ودلالة التزام:

١- فدلالة المطابقة: دلالة اللفظ علىٰ جميع مدلوله، وعلىٰ هذا؛ فكل اسم دال علىٰ المسمىٰ به، وهو الله، وعلىٰ الصفة المشتق منها هذا الاسم.

٢- ودلالة التضمن: دلالة اللفظ علىٰ بعض مدلوله، وعلىٰ هذا؛ فدلالة الاسم علىٰ الذات وحدها أو علىٰ الصفة وحدها من دلالة التضمن.

٣- ودلالة الإلتزام: دلالته علىٰ شيء يُفهم لا من لفظ الاسم لكن من لازمه، ولهذا سميناه: دلالة التزام.

مثل كلمة الخالق: اسم يدل علىٰ ذات الله، ويدل علىٰ صفة الخلق.

إذًا؛ فباعتبار دلالته علىٰ الأمرين يسمىٰ دلالة مطابقة؛ لأن اللفظ دل علىٰ جميع مدلوله، ولا شك أنك إذا قلت: الخالق؛ فإنك تفهم خالقًا وخلقًا.

- وباعتبار دلالته علىٰ الخالق وحده أو علىٰ الخلق وحده يسمىٰ دلالة تضمن؛ لأنه دل علىٰ بعض معناه.

وباعتبار دلالته علىٰ العلم والقدرة يسمىٰ دلالة التزام؛ إذ لا يمكن خلق إلا بعلم وقدرة؛ فدلالته علىٰ القدرة والعلم دلالة التزام.

وحينئذ، يتبين أن الإنسان إذا أنكر واحداً من هذه الدلالة؛ فهو ملحد في الأسماء. ولو قال: أنا أؤمن بدلالة الخالق على الذات، ولا أؤمن بدلالته على الصفة؛ فهو ملحد في الاسم.

لو قال: أنا أؤمن بأن (الخالق) تدل على ذات الله وعلى صفة الخلق. لكن لا تدل على صفة العلم والقدرة.

قلنا: هذا إلحاد أيضاً؛ فلازم علينا أن نثبت كل ما دل عليه هذا الاسم؛ فإنكار شيء مما دل عليه الاسم من الصفة إلحاد في الاسم، سواء كانت دلالته على هذه الصفة دلالة مطابقة أو تضمن أو التزام.

ولنضرب مثلا حسيًا تتبين فيه أنواع هذه الدلالات: لو قلت: لي بيت. فكلمة (بيت) فيها الدلالات الثلاثة؛ فتفهم من (بيت) أنها تدل على كل البيت دلالة مطابقة. وتدل على مجلس الرجال وحده، وعلى الحمامات وحدها، وعلى الصالة وحدها؛ دلالة تضمن؛ لأن هذه الأشياء جزء من البيت، ودلالة اللفظ على جزء معناه دلالة تضمن. وتدل على أن هناك بانيًا بناه دلالة التزام؛ لأنه ما من بيت؛ إلا وله بان.

النوع الرابع من أنواع الإلحاد في الأسماء: أن يثبت الأسماء لله والصفات، لكن يجعلها دالة على التمثيل؛ أي: دالة على بصر كبصرنا، وعلم كعلمنا، ومغفرة كمغفرتنا... وما أشبه ذلك؛ فهذا إلحاد، لأنه ميل بها عما يجب فيها؛ إذ الواجب إثباتها بلا تمثيل.

النوع الخامس: أن ينقلها إلى المعبودات، أو يشتق أسماء منها للمعبودات؛ مثل أن يسمي شيئًا معبوداً بالإله؛ فهذا إلحاد، أو يشتق منها أسماء للمعبودات؛ مثل: اللات من الإله، والعزى من العزيز، ومناة من المنان، فنقول: هذا أيضًا إلحاد في أسماء الله؛ لأن الواجب عليك أن تجعل أسماء الله خاصة به، ولا تتعدى وتتجاوز فتشتق للمعبودات منها أسماء.

هذه أنواع الإلحاد في أسماء الله.

فأهل السنة والجماعة لا يلحدون في أسماء الله أبداً، بل يجرونها على ما أراد الله بها سبحانه وتعالى، ويثبتون لها جميع أنواع الدلالات، لأنهم يرون أن ما خالف

ذلك؛ فهو إلحاد.

ـ وأما الإلحاد في آيات الله تعالى؛ فالآيات جمع آية، وهي العلامة المميزة للشيء عن غيره، والله عز وجل بعث الرسل بالآيات لا بالمعجزات، ولهذا كان التعبير بالآيات أحسن من التعبير بالمعجزات.

أولا: لأن الآيات هي التي يُعبر بها في الكتاب والسنة.

ثانيًا: أن المعجزات قد تقع من ساحر ومشعوذ وما أشبه ذلك تُعجز غيره.

ثالثًا: أن كلمة (آيات) أدل على المعنى المقصود من كلمة معجزات؛ فآيات الله عز وجل هي العلامات الدالة على الله عز وجل، وحينئذ تكون خاصة به، ولولا أنها خاصة؛ ما صارت آية له.

وآيات الله عز وجل تنقسم إلى قسمين: آيات كونية، وآيات شرعية:

فالآيات الكونية:

ما يتعلق بالخلق والتكوين؛ مثال ذلك قوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ [فصلت: ٣٧]، ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ [الروم: ٢٠]، ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ * وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم ٢٢-٢٥]، فهذه الآيات كونية، وإن شئت؛ فقل: كونية قدرية، وكانت آية لله؛ لأنه لا يستطيع الخلق أن يفعلوها؛ فمثلا: لا يستطيع أحد أن يخلق مثل الشمس والقمر، ولا يستطيع أن يأتي بالليل إذا جاء النهار، ولا بالنهار إذا جاء الليل؛ فهذه الآيات كونية.

والإلحاد فيها أن ينسبها إلى غير الله استقلالا أو مشاركة أو إعانة، فيقول: هذا من الولي الفلاني، أو: من النبي الفلاني، أو: شارك فيه النبي الفلاني أو الولي الفلاني، أو: أعان الله فيه؛ قال الله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم

مِّن ظَهِيرٍ﴾ [سبأ: ٢٢]؛ فنفى كل شيء يتعلق به المشركون بكون معبوداتهم لا تملك شيئًا في السماوات والأرض استقلالا أو مشاركة، ولا معينة لله عز وجل، ثم جاء بالرابع: **﴿وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾** [سبأ: ٢٣]؛ لما كان المشركون قد يقولون: نعم؛ هذه الأصنام لا تملك ولا تشارك ولم تعاون، لكنها شفعاء؛ قال: **﴿وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾** [سبأ: ٢٣]؛ فقطع كل سبب يتعلق به المشركون.

القسم الثاني من الآيات:

الآيات الشرعية:

وهي ما جاءت به الرسل من الوحي؛ كالقرآن العظيم، وهو آية؛ لقوله تعالى: **﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾** [البقرة: ٢٥٢]، **﴿وَقَالُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾** [العنكبوت: ٥٠، ٥١]، فجعله آيات.

ويكون الإلحاد فيها إما بتكذيبها أو تحريفها أو مخالفتها:

فتكذيبها: أن يقول: ليست من عند الله، فيكذب بها أصلا، أو يكذب بما جاء فيها من الخبر مع تصديقه بالأصل، فيقول مثلا: قصة أصحاب الكهف ليست صحيحة، وقصة أصحاب الفيل ليست صحيحة والله لم يرسل عليهم طيراً أبابيل.

وأما التحريف: فهو تغيير لفظها، أو صرف معناها عما أراد الله بها ورسوله؛ مثل أن يقول: استوى على العرش؛ أي: استولى، أو: ينزل ربنا إلى السماء الدنيا؛ أي: ينزل أمره.

وأما مخالفتها: فبترك الأوامر أو فعل النواهي.

قال الله تعالى في المسجد الحرام: **﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾** [الحج: ٢٥]؛ فكل المعاصي إلحاد في الآيات الشرعية؛ لأنه خروج بها عما يجب لها؛ إذ الواجب علينا أن نمتثل الأوامر وأن نجتنب النواهي، فإن لم نقم بذلك؛ فهذا إلحاد.

قوله: «ولا يكيفون ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه؛ لأنه سبحانه لا سمي له

ولا كفو له ولا ند له، ولا يقاس بخلقه سبحانه وتعالىٰ».

قوله: «ولا يكيفون»؛ أي: أهل السنة والجماعة، وسبق أن التكييف ذكر كيفية الصفة، سواء ذكرتها بلسانك أو بقلبك؛ فأهل السنة والجماعة لا يكيفون أبدًا؛ يعني: لا يقولون: كيفية يده كذا وكذا، ولا: كيفية وجهه كذا وكذا؛ فلا يكيفون هذا باللسان ولا بالقلب أيضًا؛ يعني: نفس الإنسان لا يتصور كيف استوىٰ الله عز وجل، أو كيف ينزل، أو كيف وجهه، أو كيف يده، ولا يجوز أن يحاول ذلك أيضًا؛ لأن هذا يؤدي إلىٰ أحد أمرين: إما التمثيل، وإما التعطيل.

ولهذا لا يجوز للإنسان أن يحاول معرفة كيفية استواء الله علىٰ العرش أو يقوله بلسانه بل ولا يسأل عن الكيفية؛ لأن الإمام مالكًا ـ رحمه الله ـ قال: «**السؤال عنه بدعة**»، لا تقل: كيف استوىٰ؟ كيف ينزل؟ كيف يأتي؟ كيف وجهه؟ إن فعلت ذلك؛ قلنا: إنك مبتدع. . . وقد سبق ذكر الدليل علىٰ تحريم التكييف، وذكرنا الدليل علىٰ ذلك من السمع والعقل.

قوله: «ولا يمثلون»؛ أي: أهل السنة والجماعة: «صفاته بصفات خلقه»، وهذا معنىٰ قوله فيما سبق: «**من غير تمثيل**»، وسبق لنا امتناع التمثيل سمعًا وعقلا، وأن السمع ورد خبرًا وطلبًا في نفي التمثيل؛ فهم لا يكيفون ولا يمثلون.

قوله: «لأنه سبحانه»؛ (سبحان): اسم مصدر سبح، والمصدر تسبيح؛ فـ(سبحان) بمعنىٰ تسبيح، لكنها بغير اللفظ، وكل ما دل علىٰ معنىٰ المصدر وليس بلفظه؛ فهو اسم مصدر؛ كـ: سبحان من سبح، وكلام من كلم، وسلام من سلم، وإعرابها مفعول مطلق منصوب علىٰ المفعولية المطلقة، وعاملها محذوف دائمًا.

ومعنىٰ (سبح)؛ قال العلماء: معناها: نزه، وأصلها من السبح، وهو البعد، كأنك تبعد صفات النقص عن الله عز وجل؛ فهو سبحانه وتعالىٰ منزه عن كل نقص.

قوله: «لا سمي له»: دليل ذلك قوله تعالىٰ: ﴿**رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا**﴾ [مريم: ٦٥]، ﴿**هَلْ**﴾: استفهام، لكنه بمعنىٰ النفي، ويأتي النفي بصيغة الاستفهام لفائدة عظيمة، وهي التحدي؛ لأن هناك فرقًا بين أن أقول: لا سمي له، أو: ﴿**هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا**﴾؛ لأنه ﴿**هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا**﴾ متضمن للنفي وللتحدي أيضًا؛ فهو مشرب معنىٰ التحدي، وهذه قاعدة

مهمة: كلما كان الاستفهام بمعنى النفي؛ فهو مشرب معنى التحدي؛ كأني أقول: إن كنت صادقًا؛ فأتني بسمي له، وعلى هذا؛ فـ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾: أبلغ من: «لا سمي له».

والسمي: هو المسامي، أي: المماثل.

قوله: «ولا كفء له»: والدليل قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤]

قوله: «ولا ند له»: والدليل قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]، أي: تعلمون أنه لا ند له، والند بمعنى: النظير.

وهذه الثلاثة ـ السمي والكفء والند ـ معناها متقارب جدًّا؛ لأن معنى الكفء: الذي يكافئه، ولا يكافئ الشيء الشيء إلا إذا كان مثله، فإن لم يكن مثله؛ لم يكن مكافئًا له، إذًا: لا كفء له؛ أي: ليس له مثيل سبحانه وتعالى.

وهذا النفي المقصود منه كمال صفاته؛ لأنه لكمال صفاته لا أحد يماثله.

قوله: «ولا يقاس بخلقه سبحانه وتعالى»: القياس ينقسم إلى ثلاثة أقسام: قياس شمول، وقياس تمثيل، وقياس أولوية؛ فهو سبحانه وتعالى لا يقاس بخلقه قياس تمثيل ولا قياس شمول.

١ـ قياس الشمول: هو ما يعرف بالعام الشامل لجميع أفراده؛ بحيث يكون كل فرد منه داخلا في مسمى ذلك اللفظ ومعناه؛ فمثلا: إذا قلنا: الحياة؛ فإنه لا تقاس حياة الله تعالى بحياة الخلق من أجل أن الكل يشمله اسم (حي).

٢ـ وقياس التمثيل: هو أن يلحق الشيء بمثيله، فيجعل ما ثبت للخالق مثل ما ثبت للمخلوق.

٣ـ وقياس الأولوية: هو أن يكون الفرع أولى بالحكم من الأصل، وهذا يقول العلماء: إنه مستعمل في حق الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠]؛ بمعنى كل صفة كمال؛ فلله تعالى أعلاها، والسمع والبصر والعلم والقدرة والحياة والحكمة وما أشبهها موجودة في المخلوقات، لكن الله أعلاها وأكملها.

ولهذا أحيانًا نستدل بالدلالة العقلية من زاوية القياس بالأولى؛ فمثلا: نقول:

العلو صفة كمال في المخلوق، فإذا كان صفة كمال في المخلوق؛ فهو في الخالق من باب أولى، وهذا دائمًا نجده في كلام العلماء.

فقول المؤلف ـ رحمه الله ـ: «ولا يقاس بخلقه»؛ بعد قوله: «لا سمي له ولا كفء له، ولا ند له»؛ يعني: القياس المقتضى للمساواة، وهو قياس الشمول وقياس التمثيل.

إذًا؛ يمتنع القياس بين الله وبين الخلق للتباين بينهما، وإذا كنا في الأحكام لا نقيس الواجب على الجائز، أو الجائز على الواجب؛ ففي باب الصفات بين الخالق والمخلوق من باب أولى.

لو قال لك قائل: الله موجود، والإنسان موجود، ووجود الله كوجود الإنسان بالقياس.

فنقول: لا يصح؛ لأن وجود الخالق واجب، ووجود الإنسان ممكن.

فلو قال: أقيس سمع الخالق على سمع المخلوق.

نقول: لا يمكن؛ سمع الخالق واجب له، لا يعتريه نقص، وهو شامل لكل شيء، وسمع الإنسان ممكن؛ إذ يجوز أن يولد الإنسان أصم، والمولود سميعًا يلحقه نقص السمع، وسمعه محدود.

إذًا؛ لا يمكن أن يقاس الله بخلقه؛ فكل صفات الله لا يمكن أن تقاس بصفات خلقه؛ لظهور التباين العظيم بين الخالق وبين المخلوق.

قوله: «فإنه أعلم سبحانه بنفسه وبغيره، وأصدق قيلا، وأحسن حديثًا من خلقه».

قال المؤلف ـ رحمه الله ـ هذا تمهيداً وتوطئة لوجوب قبول ما دل عليه كلام الله تعالى من صفاته وغيرها، وذلك أنه يجب قبول ما دل عليه الخبر إذا اجتمعت فيه أوصاف أربعة:

الأول: أن يكون صادراً عن علم، وإليه الإشارة بقوله: «فإنه أعلم بنفسه وبغيره».

الوصف الثاني: الصدق، وأشار إليه بقوله: «وأصدق قيلا».

الوصف الثالث: البيان والفصاحة، وأشار إليه بقوله: «وأحسن حديثًا».

الوصف الرابع: سلامة القصد والإرادة؛ بأن يريد المخبر هداية من أخبرهم.

فدليل الأول ـ وهو العلم ـ قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ﴾ [الإسراء: ٥٥]؛ فهو أعلم بنفسه وبغيره من غيره؛ فهو أعلم بك من نفسك؛ لأنه يعلم ما سيكون لك في المستقبل، وأنت لا تعلم ماذا تكسب غداً؟.

وكلمة ﴿أَعْلَمُ﴾ هنا اسم تفضيل، ولقد تحاشاها بعض العلماء، وفسر ﴿أَعْلَمُ﴾ بـ (عالم)، فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥]، أي: هو عالم بمن ضل عن سبيله، وهو عالم بالمهتدين. قال: لأن ﴿أَعْلَمُ﴾ اسم تفضيل، وهو يقتضي اشتراك المفضل والمفضل عليه، وهذا لا يجوز بالنسبة لله، لكن (عالم) اسم فاعل، وليس فيه مقارنة ولا تفضيل.

فنقول له: هذا غلط؛ فالله يعبر عن نفسه ويقول: ﴿أَعْلَمُ﴾ وأنت تقول: عالم! وإذا فسرنا ﴿أَعْلَمُ﴾ بـ (عالم)؛ فقد حططنا من قدر علم الله؛ لأن (عالم) يشترك فيها غير الله على سبيل المساواة، لكن ﴿أَعْلَمُ﴾ مقتضاه أن لا يساويه أحد في هذا العلم؛ فهو أعلم من كل عالم، وهذا أكمل في الصفة بلا شك.

ونقول له: إن اللغة العربية بالنسبة لاسم الفاعل لا تمنع المساواة في الوصف، لكن بالنسبة لاسم التفضيل تمنع المشاركة فيما دل عليه.

ونقول أيضاً: في باب المقارنة لا بأس أن نقول: أعلم، بمعنى: أن تأتي باسم التفضيل، ولو فرض خلو المفضل عليه من ذلك المعنى؛ كما قال الله تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤]؛ فجاء باسم التفضيل، مع أن المفضل عليه ليس فيه شيء منه إطلاقاً.

وفي باب مجادلة الخصم ومحاجته يجوز أن نأتي باسم التفضيل، وإن كان المفضل عليه ليس فيه شيء منه؛ قال الله تعالى: ﴿آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٥٩]، ومعلوم أن ما يشركون ليس فيه خير. وقال يوسف عليه السلام: ﴿أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩]، والأرباب ليس فيها خير.

فالحاصل أن نقول: إن ﴿أَعْلَمُ﴾ الواردة في كتاب الله يراد بها معناها الحقيقي، ومن فسرها بـ(عالم)؛ فقد أخطأ من حيث المعنى ومن حيث اللغة العربية.

ودليل الوصف الثاني ـ الصدق ـ: قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً﴾ [النساء: ١٢٢]؛ أي: لا أحد أصدق منه، والصدق مطابقة الكلام للواقع، ولا شيء من الكلام يطابق الواقع كما يطابقه كلام الله سبحانه وتعالى؛ فكل ما أخبر الله به؛ فهو صدق، بل أصدق من كل قول.

ودليل الوصف الثالث ـ البيان والفصاحة ـ: قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧]، وحسن حديثه يتضمن الحسن اللفظي والمعنوي.

ودليل الوصف الرابع ـ سلامة القصد والإرادة ـ: قوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ﴾ [النساء: ١٧٦]، ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [النساء: ٢٦].

فاجتمع في كلام الله الأوصاف الأربعة التي توجب قبول الخبر.

وإذا كان كذلك؛ فإنه يجب أن نقبل كلامه على ما هو عليه، وأن لا يلحقنا شك في مدلوله؛ لأن الله لم يتكلم بهذا الكلام لأجل إضلال الخلق، بل ليبين لهم ويهديهم، وصدر كلام الله عن نفسه أو عن غيره عن أعلم القائلين، ولا يمكن أن يعتريه خلاف الصدق، ولا يمكن أن يكون كلاما عييًا غير فصيح، وكلام الله لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله، لما استطاعوا، فإذا اجتمعت هذه الأمور الأربعة في الكلام؛ وجب على المخاطب القبول بما دل عليه.

مثال ذلك: قوله تعالى مخاطبًا إبليس: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]؛ قال قائل: في هذه الآية إثبات يدين لله عز وجل يخلق بهما من شاء، فنثبتهما؛ لأن كلام الله عز وجل صادر عن علم وصدق، وكلامه أحسن الكلام وأفصحه وأبينه، ولا يمكن أن لا يكون له يدان لكن أراد من الناس أن يعتقدوا ذلك فيه، ولو فرض هذا؛ لكان مقتضاه أن القرآن ضلال؛ حيث جاء بوصف الله بما ليس فيه، وهذا ممتنع؛ فإذا كان كذلك، وجب عليك أن تؤمن بأن لله تعالى يدين اثنتين خلق بهما آدم عليه السلام.

وإذا قلت: المراد بهما النعمة أو القدرة.

قلنا: لا يمكن أن يكون هذا هو المراد؛ إلا إذا اجترأت على ربك، ووصفت كلامه بضد الأوصاف الأربعة التي قلنا، فنقول: هل الله عز وجل حينما قال: ﴿بِيَدَيَّ﴾:

عالم بأن له يدين؟ فسيقول: هو عالم. فنقول: هل هو صادق؟ فسيقول: هو صادق بلا شك. ولا يستطيع أن يقول: هو غير عالم، أو: غير صادق، ولا أن يقول: عبر بهما وهو يريد غيرهما عيًّا وعجزًا، ولا أن يقول: أراد من خلقه أن يؤمنوا بما ليس فيه من الصفات إضلالا لهم! فنقول له: إذًا؛ ما الذي يمنعك أن تثبت لله اليدين؟! فاستغفر ربك، وتب إليه، وقل: آمنت بما أخبر الله به عن نفسه؛ لأنه أعلم بنفسه وبغيره، وأصدق قيلا، وأحسن حديثًا من غيره، وأتم إرادة من غيره أيضًا.

ولهذا أتى المؤلف ـ رحمه الله ـ بهذه الأوصاف الثلاثة، ونحن زدنا الوصف الرابع، وهو: إرادة البيان للخلق وإرادة الهداية لهم؛ لقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [النساء: ٢٦].

هذا حكم ما أخبر الله به عن نفسه بكلامه الذي هو جامع للكمالات الأربع في الكلام.

أما ما أخبرت به الرسل:

فقال المؤلف: «ثم رسله صادقون مصدوقون؛ بخلاف الذين يقولون عليه ما لا يعلمون».

قوله: «ثم رسله صادقون مصدوقون»: الصادق: المخبر بما طابق الواقع؛ فكل الرسل صادقون فيما أخبروا به.

ولكن: لا بد أن يثبت السند إلى الرسل عليهم السلام؛ فإذا قالت اليهود: قال موسى كذا وكذا؛ فلا نقبل، حتى نعلم صحة سنده إلى موسى عليه السلام. وإذا قالت النصارى: قال عيسى كذا وكذا؛ فلا نقبل، حتى نعلم صحة السند إلى عيسى عليه السلام. وإذا قال قائل: قال محمد رسول الله كذا وكذا؛ فلا نقبل، حتى نعلم صحة السند إلى محمد ﷺ.

فرسله صادقون فيما يقولون؛ فكل ما يخبرون به عن الله وعن غيره من مخلوقاته؛ فهم صادقون فيه، لا يكذبون أبدًا.

ولهذا أجمع العلماء على أن الرسل عليهم الصلاة والسلام معصومون من

الكذب.

«مصدُوقون» أو «مصدَّقون»: نسختان:

أما على نسخة «مصدوقون»؛ فالمعنى أن ما أوحي إليهم؛ فهو صدق، والمصدوق: الذي أخبر بالصدق، والصادق: الذي جاء بالصدق، ومنه قول الرسول عليه الصلاة والسلام لأبي هريرة رضي الله عنه حين قال له الشيطان: إنك إذا قرأت آية الكرسي؛ لم يزل عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح قال له: «**صدقك وهو كذوب**»[1]؛ يعني أخبرك بالصدق.

فالرسل مصدوقون، كل ما أوحي إليهم؛ فهو صدق، ما كذبهم الذي أرسلهم، ولا كذبهم الذي أرسل إليهم، وهو جبريل: ﴿**إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ**﴾ [التكوير: ١٩-٢٢].

وأما على نسخة: «مصدقون»؛ فالمعنى أنه يجب على أممهم تصديقهم، وعلى هذا يكون معنى «مصدقون»؛ أي: شرعًا؛ يعني: يجب أن يصدقوا شرعًا؛ فمن كذب بالرسل أو كذبهم؛ فهو كافر، ويجوز أن يكون «مصدقون» له وجه آخر؛ أي: أن الله تعالى صدقهم، ومعلوم أن الله تعالى صدق الرسل؛ صدقهم بقوله وبفعله.

أما بقوله؛ فإن الله قال لرسوله محمد عليه الصلاة والسلام: ﴿**لَّكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ**﴾ [النساء: ١٦٦]، وقال: ﴿**وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ**﴾ [المنافقون: ١]؛ فهذا تصديق بالقول.

أما تصديقه بالفعل؛ فبالتمكين له، وإظهار الآيات؛ فهو يأتي للناس يدعوهم إلى الإسلام، فإن لم يقبلوا، فالجزية، فإن لم يقبلوا؛ استباح دماءهم ونساءهم وأموالهم، والله تعالى يمكن له، ويفتح عليه الأرض أرضًا بعد أرض، وحتى بلغت رسالته مشارق الأرض ومغاربها؛ فهذا تصديق من الله بالفعل، كذلك أيضًا ما يجريه الله على يديه من الآيات هو تصديق له، سواء كانت الآيات شرعية أم كونية؛ فالشرعية كان دائمًا يُسأل عن الشيء وهو لا يعلمه، فينزل الله الجواب:

---

(١) أخرجه البخاري (٤/ ٩٧٥) تعليقًا وابن خزيمة في «صحيحة» (٢٤٢٤) من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه.

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ [الإسراء: ٨٥](١) ؛ إذًا هذا تصديق بأنه رسول، ولو كان غير رسول؛ ما أجاب الله ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢١٧].

فالجواب: ﴿ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ ﴾ . . . إلخ؛ فهذا تصديق من الله عز وجل.

والآيات الكونية ظاهرة جدًا، وما أكثر الآيات الكونية التي أيد الله بها رسوله؛ سواء جاءت لسبب أو لغير سبب، وهذا معروف في السيرة.

ففهمنا من كلمة: «مصدقون»: أنهم مصدقون من قبل الله بالآيات الكونية والشرعية، مصدقون من قبل الخلق؛ أي: يجب أن يصدقوا، وإنما حملنا ذلك على التصديق شرعًا؛ لأن من الناس من صدق ومن الناس من لم يصدق، لكن الواجب التصديق.

قوله: «بخلاف الذين يقولون عليه ما لا يعلمون»: فهؤلاء كاذبون أو ضالون؛ لأنهم قالوا ما لا يعلمون.

وكأن المؤلف - رحمه الله - يشير إلى أهل التحريف؛ لأن أهل التحريف قالوا على الله ما لا يعلمون من وجهين: قالوا: إنه لم يرد كذا وأراد كذا!! فقالوا في السلب والإيجاب بما لا يعلمون.

مثلا: قالوا: لم يرد بالوجه الحقيقي! فهنا قالوا على الله ما لا يعلمون بالسلب، ثم قالوا: والمراد بالوجه الثواب! فقالوا على الله ما لا يعلمون في الإيجاب.

وهؤلاء الذين يقولون على الله ما لا يعلمون لا يكونون صادقين ولا مصدوقين ولا مصدقين، بل قامت الأدلة على أنهم كاذبون مكذبون بما أوحى إليهم الشيطان.

قوله: «ولهذا قال سبحانه وتعالى: ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ * وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الصافات: ١٨٠]».

وقوله: «ولهذا»؛ أي: لأجل كمال كلامه وكلام رسله.

«قال: ﴿ سبحان ربك ﴾»: وسبق معنى التسبيح، وهو تنزيه الله عن كل ما لا يليق به.

(١) كما أخرجه البخاري (٤٧٢١) ومسلم (٢٧٩٤) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

وقوله: «﴿ ربك ﴾»: أضاف الربوبية إلى محمد ﷺ، وهي ربوبية خاصة، من باب إضافة الخالق إلى المخلوق.

وقوله: «﴿ رَبِّ الْعِزَّةِ ﴾»: من باب إضافة الموصوف إلى الصفة، ومن المعروف أن كل مربوب مخلوق، وهنا قال: ﴿ رَبِّ الْعِزَّةِ ﴾، وعزة الله غير مخلوقة؛ لأنها من صفاته؛ فنقول: هذه من باب إضافة الموصوف إلى الصفة، وعلى هذا؛ فـ ﴿ رَبِّ الْعِزَّةِ ﴾ هنا معناها: صاحب العزة؛ كما يقال: رب الدار، أي: صاحب الدار.

قوله: «﴿ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾»؛ يعني: عما يصفه المشركون؛ كما سيذكره المؤلف.

قوله: «﴿ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴾»؛ أي: على المرسل.

قوله: «﴿ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾»: حمد الله نفسه عز وجل بعد أن نزهها؛ لأن في الحمد كمال الصفات، وفي التسبيح تنزيه عن العيوب؛ فجمع في الآية بين التنزيه عن العيوب بالتسبيح، وإثبات الكمال بالحمد.

قوله: «فسبح نفسه عما وصفه به المخالفون للرسل، وسلم على المرسلين لسلامة ما قالوه من النقص والعيب».

معنى هذه الجملة واضح، وبقي أن يقال: وحمد نفسه لكمال صفاته بالنسبة لنفسه وبالنسبة لرسله؛ فإنه سبحانه محمود على كمال صفاته وعلى إرسال الرسل؛ لما في ذلك من رحمة الخلق والإحسان إليهم.

قوله: «وهو سبحانه قد جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين النفي والإثبات».

بين المؤلف ـ رحمه الله ـ في هذه الجملة أن الله تعالى جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين النفي والإثبات، وذلك لأن تمام الكمال لا يكون إلا بثبوت صفات الكمال وانتفاء ما يضادها من صفات النقص؛ فأفادنا ـ رحمه الله ـ أن الصفات قسمان:

١ ـ صفات مثبتة: وتسمى عندهم: الصفات الثبوتية.

٢ ـ وصفات منفية: ويسمونها: الصفات السلبية، من السلب، وهو النفي، ولا حرج من أن نسميها سلبية، وإن كان بعض الناس توقف وقال: لا نسميها سلبية، بل نقول: منفية. فنقول: ما دام السلب في اللغة بمعنى النفي؛ فالاختلاف في اللفظ ولا يضر.

فصفات الله عز وجل قسمان: ثبوتية وسلبية، أو إن شئت؛ فقل: مثبتة ومنفية، والمعنى واحد.

فالمثبتة: كل ما أثبته الله لنفسه، وكلها صفات كمال، ليس فيها نقص بوجه من الوجوه، ومن كمالها أنه لا يمكن أن يكون ما أثبته دالا على التمثيل؛ لأن المماثلة للمخلوق نقص.

وإذا فهمنا هذه القاعدة؛ عرفنا ضلال أهل التحريف، الذين زعموا أن الصفات المثبتة تستلزم التمثيل، ثم أخذوا ينفونها فراراً من التمثيل.

ومثاله: قالوا لو أثبتنا لله وجهًا؛ لزم أن يكون مماثلا لأوجه المخلوقين، وحينئذ يجب تأويل معناه إلى معنى آخر لا إلى الوجه الحقيقي.

فنقول لهم: كل ما أثبت الله لنفسه من الصفات؛ فهو صفة كمال ولا يمكن أبدًا أن يكون فيما أثبته الله لنفسه من الصفات نقص.

ولكن؛ إذا قال قائل: هل الصفات توقيفية كالأسماء، أو هي اجتهادية؛ بمعنى أنه يصح لنا أن نصف الله سبحانه وتعالى بشيء لم يصف به نفسه؟.

فالجواب أن نقول: إن الصفات توقيفية على المشهور عند أهل العلم؛ كالأسماء؛ فلا تصف الله إلا بما وصف به نفسه.

وحينئذ نقول: الصفات تنقسم إلى ثلاثة أقسام: صفة كمال مطلق، وصفة كمال مقيد، وصفة نقص مطلق.

أما صفة الكمال على الإطلاق؛ فهي ثابتة لله عز وجل؛ كالمتكلم، والفعَّال لما يريد، والقادر... ونحو ذلك.

وأما صفة الكمال بقيد؛ فهذه لا يوصف الله بها على الإطلاق إلا مقيداً؛ مثل: المكر، والخداع، والاستهزاء... وما أشبه ذلك؛ فهذه صفات كمال بقيد، إذا كانت في مقابلة من يفعلون ذلك؛ فهي كمال، وإن ذكرت مطلقة؛ فلا تصح بالنسبة لله عز وجل، ولهذا لا يصح إطلاق وصفه بالماكر أو المستهزئ أو الخادع، بل تقيد، فنقول: ماكر بالماكرين، مستهزئ بالمنافقين، خادع للمنافقين، كائد للكافرين؛ فتقيدها؛ لأنها لم تأت إلا مقيدة.

وأما صفة النقص على الإطلاق؛ فهذه لا يوصف الله بها بأي حال من الأحوال؛ كالعاجز، والخائن، والأعمى، والأصم؛ لأنها نقص على الإطلاق؛ فلا يوصف الله بها، وانظر إلى الفرق بين خادع وخائن؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢]؛ فأثبت خداعه لمن خادعه، لكن قال في الخيانة: ﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ﴾ [الأنفال: ٧١]، ولم يقل: فخانهم؛ لأن الخيانة خداع في مقام الائتمان، والخداع في مقام الائتمان نقص، وليس فيه مدح أبداً.

فإذاً؛ صفات النقص منفية عن الله مطلقًا.

والصفات المأخوذة من الأسماء هي كمال بكل حال، ويكون الله عز وجل قد اتصف بمدلولها؛ فالسمع صفة كمال دل عليها اسمه السميع؛ فكل صفة دلت عليها الأسماء؛ فهي صفة كمال مثبتة لله على سبيل الإطلاق، وهذه نجعلها قسمًا منفصلا؛ لأنه ليس فيها تفصيل، وغيرها تنقسم إلى الثلاثة الأقسام التي سلف ذكرها، ولهذا لم يسم الله نفسه بالمتكلم، مع أنه يتكلم؛ لأن الكلام قد يكون خيراً، وقد يكون شرًّا، وقد لا يكون خيراً ولا شرًّا؛ فالشر لا ينسب إلى الله، واللغو كذلك لا ينسب إلى الله؛ لأنه سفه، والخير ينسب إليه، ولهذا لم يسم نفسه بالمتكلم؛ لأن الأسماء كما وصفها الله عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى﴾ [الأعراف: ١٨٠]؛ فليس فيها أي شيء من النقص، ولهذا جاءت باسم التفضيل المطلق.

إذا قال قائل: فهمنا الصفات وأقسامها؛ فما هو الطريق لإثبات الصفة ما دمنا نقول: إن الصفات توقيفية؟.

فنقول: هناك عدة طرق لإثبات الصفة:

الطريق الأول: دلالة الأسماء عليها؛ لأن كل اسم؛ فهو متضمن لصفة، ولهذا قلنا فيما سبق: إن كل اسم من أسماء الله دال على ذاته وعلى الصفة التي اشتق منها.

الطريق الثاني: أن ينص على الصفة؛ مثل: الوجه، واليدين، والعينين... وما أشبه ذلك؛ فهذه بنص من الله عز وجل، ومثل الانتقام، فقال عنه الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ [إبراهيم: ٤٧]، ليس من أسماء الله المنتقم؛ خلافًا لما يوجد في

بعض الكتب التي فيها عَدُّ أسماء الله؛ لأن الانتقام ما جاء إلا على سبيل الوصف أو اسم الفاعل مقيداً؛ كقوله: ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة: ٢٢].

الطريق الثالث: أن تؤخذ من الفعل؛ مثل: المتكلم؛ فنأخذها من ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤].

هذه هي الطرق التي تثبت بها الصفة، وبناء على ذلك نقول: الصفات أعم من الأسماء؛ لأن كل اسم متضمن لصفة، وليس كل صفة متضمنة لاسم.

وأما الصفات المنفية عن الله عز وجل؛ فكثيرة؛ ولكن الإثبات أكثر؛ لأن صفات الإثبات كلها صفات كمال، وكلما تعددت وتنوعت؛ ظهر من كمال الموصوف ما هو أكثر، وصفات النفي قليلة، ولهذا نجد أن صفات النفي تأتي كثيراً عامة، غير مخصصة بصفة معينة، والمخصص بصفة معينة لا يكون إلا لسبب؛ مثل تكذيب المدعين بأن الله اتصف بهذه الصفة التي نفاها عن نفسه أو دفع توهم هذه الصفة التي نفاها.

فالقسم الأول العامة؛ كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]؛ قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ في علمه وقدرته وسمعه وبصره وعزته وحكمته ورحمته... وغير ذلك من صفاته؛ فلم يفصِّل، بل قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾وهذا النفي العام المجمل يدل على كمال مطلق، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ في كل كمال.

أما إذا كان مفصلا؛ فلا تجده إلا لسبب؛ كقوله: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾ [المؤمنون: ٩١]، ردًّا لقول من قال: إن لله ولداً، وقوله: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص: ٣] كذلك، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨]؛ لأنه قد يفرض الذهن الذي لا يقدر الله حق قدره أن هذه السماوات العظيمة والأرضين العظيمة إذا كان خلقها في ستة أيام، فسيلحقه التعب، فقال: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾؛ أي: من تعب وإعياء.

فتبين بهذا أن النفي لا يرد في صفات الله عز وجل إلا على سبيل العموم أو على سبيل الخصوص لسبب؛ لأن صفات السلب لا تتضمن الكمال إلا إذا كانت متضمنة لإثبات، ولهذا نقول: الصفات السلبية التي نفاها الله عن نفسه متضمنة لثبوت كمال

ضدها؛ فقوله: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾: متضمن كمال القوة والقدرة، وقوله: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]: متضمن لكمال العدل، وقوله: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥]: متضمن لكمال العلم والإحاطة... وهلم جرا؛ فلابد أن تكون الصفة المنفية متضمنة لثبوت، وذلك الثبوت هو كمال ضد ذلك المنفي، وإلا؛ لم تكن مدحًا.

لا يوجد في الصفات المنفية عن الله نفي مجرد؛ لأن النفي المجرد عدم، والعدم ليس بشيء؛ فلا يتضمن مدحًا ولا ثناء، ولأنه قد يكون للعجز عن تلك الصفة، فيكون ذمًا، وقد يكون لعدم القابلية؛ فلا يكون مدحًا ولا ذمًا.

مثال الأول الذي للعجز قول الشاعر:

قَبِيلَةٌ لا يَغْدُرُونَ بِذِمَّةٍ ... وَلا يَظْلِمُونَ النَّاسَ حَبَّةَ خَرْدَلِ[1]

ومثال الثاني الذي لعدم القابلية: أن تقول: إن جدارنا لا يظلم أحدًا.

والواجب علينا نحو هذه الصفات التي أثبتها الله لنفسه والتي نفاها أن نقول: سمعنا وصدقنا وآمنا.

هذه هي الصفات فيها مثبت وفيها منفي، أما الأسماء؛ فكلها مثبتة.

لكن أسماء الله تعالى المثبتة منها ما يدل على معنى إيجابي، ومنها ما يدل على معنى سلبي، وهذا هو مورد التقسيم في النفي والإثبات بالنسبة لأسماء الله.

فمثال التي مدلولها إيجابي كثير.

ومثال التي مدلولها سلبي: السلام. ومعنى السلام؛ قال العلماء: معناه: السالم من كل عيب. إذًا؛ فمدلوله سلبي؛ بمعنى: ليس فيه نقص ولا عيب. وكذلك القدوس قريب من معنى السلام؛ لأن معناه المنزه عن كل نقص وعيب.

فصارت عبارة المؤلف ـ رحمه الله ـ سليمة وصحيحة، وهو لا يريد بالنسبة للأسماء أن هناك أسماء منفية؛ لأن الاسم المنفي ليس باسم لله، لكن مراده أن مدلولات أسماء الله ثبوتية وسلبية.

---

(١) انظر «جمهرة الأمثال» (١/ ٨١).

- الشيخ صالح الفوزان:

بعد ما ذكر المصنف رحمه الله الأصول التي يجب الإيمان بها مجملة شرع يذكرها على سبيل التفصيل، وبدأ بالأصل الأول وهو: الإيمان بالله تعالى، فذكر أنه يدخل فيه الإيمان بصفاته التي وصف نفسه بها في كتابه، أو وصفه بها رسوله في سنته، وذلك بأن نثبتها له، كما جاءت في الكتاب والسنة بألفاظها ومعانيها من غير تحريف لألفاظها، ولا تعطيل لمعانيها، ولا تشبيه لها بصفات المخلوقين. وأن نعتمد في إثباتها على الكتاب والسنة فقط لا نتجاوز القرآن والحديث؛ لأنها توقيفية.

والتحريف: هو التغيير وإمالة الشيء عن وجهه. يقال: انحرف عن كذا إذا مال، وهو نوعان:

النوع الأول: تحريف اللفظ: وهو العدول به عن جهته إلى غيرها، إما بزيادة كلمة أو حرف أو نقصانه أو تغيير حركة، كقول أهل الضلال في قوله تعالى: ﴿**الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى**﴾ [طه: ٥] أي: استولى، فزادوا في الآية حرفًا، وكقولهم في قوله تعالى: ﴿**وَجَاءَ رَبُّكَ**﴾ [الفجر: ٢٢]، أي: أمرُ ربك، فزادوا كلمة، وكقولهم في قوله تعالى: ﴿**وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا**﴾ [النساء: ١٦٤] بنصب لفظ الجلالة، فغيروا الحركة الإعرابية من الرفع إلى النصب.

النوع الثاني: تحريف المعنى: وهو العدول به عن وجهه وحقيقته وإعطاء اللفظ معنى لفظ آخر، كقول المبتدعة: إن معنى الرحمة: إرادة الإنعام، وإن معنى الغضب: إرادة الانتقام.

والتعطيل:

لغة: الإخلاء، يقال: عطله، أي: أخلاه، والمراد به هنا: نفي الصفات عن الله سبحانه وتعالى. والفرق بين التحريف والتعطيل: أن التحريف هو نفي المعنى الصحيح الذي دلت عليه النصوص، واستبداله بمعنى آخر غير صحيح. والتعطيل: هو نفي المعنى الصحيح من غير استبدال له بمعنى آخر، كفعل المفوضة، فكل محرِّف معطل، وليس كل معطل محرفًا.

والتكييف: هو تعيين كيفية الصفة، يقال: كيَّف الشيء إذا جعل له كيفية معلومة، فتكييف صفات الله هو: تعيين كيفيتها والهيئة التي تكون عليها، وهذا لا يمكن للبشر؛

لأنه مما استأثر الله تعالىٰ بعلمه فلا سبيل إلىٰ الوصول إليه؛ لأن الصفة تابعة للذات، فكما أن ذات الله لا يمكن للبشر معرفة كيفيتها، فكذلك صفته سبحانه لا تعلم كيفيتها؛ ولهذا لما سئل الإمام مالك رحمه الله، فقيل له: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ كيف استوىٰ؟ فقال: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة[1]. وهذا يقال في سائر الصفات.

والتمثيل: هو التشبيه، بأن يقال: إن صفات الله مثل صفات المخلوقين، كأن يقال: يد الله كأيدينا، وسمعه كسمعنا - تعالىٰ الله عن ذلك - قال تعالىٰ في الآية (١١) من سورة الشورىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾، فلا يقال في صفاته: إنها مثل صفاتنا أو شبه صفاتنا أو كصفاتنا، كما لا يقال: إن ذات الله مثل أو شبه ذواتنا، فالمؤمن الموحد يثبت الصفات كلها علىٰ الوجه اللائق بعظمة الله وكبريائه، والمعطل ينفيها أو ينفي بعضها، والمشبه الممثل يثبتها علىٰ وجه لا يليق بالله، وإنما يليق بالمخلوق.

لما ذكر المصنف رحمه الله: أن الواجب هو: الإيمان بصفات الله الثابتة في الكتاب والسنة من غير تحريف، ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل - بيّن موقف أهل السنة والجماعة من ذلك. وهو أنهم يؤمنون بتلك الصفات علىٰ هذا المنهج المستقيم، فيثبتونها علىٰ حقيقتها نافين عنها التمثيل، فلا يعطلون ولا يمثلون علىٰ وفق ما جاء في قوله تعالىٰ في الآية (١١) من سورة الشورىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾، فقوله تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ رد علىٰ الممثلة، وقوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ رد علىٰ المعطلة؛ لأن فيه إثبات السمع والبصر، فالآية الكريمة دستور واضح في باب الأسماء والصفات؛ لأنها جمعت بين إثبات الصفات لله ونفي التمثيل عنها. وسيأتي تفسيرها إن شاء الله.

وقوله: «فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه» أي: لا يحمل أهل السنة والجماعة إيمانهم بأن الله ليس كمثله شيء علىٰ أن ينفوا عنه ما وصف به نفسه، كما يفعل ذلك الذين غلوا في التنزيه حتىٰ عطلوه من صفاته بحجة الفرار من التمثيل بصفات المخلوقين. فأهل السنة يقولون: لله سبحانه صفات تخصه وتليق به، وللمخلوقين صفات تخصهم وتليق بهم، ولا تشابه بين صفات الخالق وصفات المخلوق، فلا يلزم هذا المحذور الذي ذكرتم أيها المعطلة.

---

(١) أخرجه اللالكائي في «اعتقاد أهل السنة» (٦٦٤).

وقوله: «ولا يحرفون الكلم عن مواضعه»: تقدم بيان معنى التحريف، أي: لا يغيرون كلام الله فيبدلون ألفاظه أو يغيرون معانيه فيفسرونه بغير تفسيره كما يفعل المعطلة الذين يقولون في ﴿ اسْتَوَىٰ ﴾: استولى، وفي: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾: جاء أمر ربك، ويفسرون رحمة الله بـ: إرادة الإنعام، ونحو ذلك.

«ولا يلحدون في أسماء الله وآياته» الإلحاد: لغة: الميل والعدول عن الشيء، ومنه اللحد في القبر، سمي بذلك؛ لميله وانحرافه عن سمت الحفر إلى جهة القبلة، والإلحاد في أسماء الله وآياته هو العدول والميل بها عن حقائقها ومعانيها الصحيحة إلى الباطل.

والإلحاد في أسماء الله وصفاته أنواع:

النوع الأول: أن تُسمى الأصنام بها، كتسمية اللات من الإله، والعزى من العزيز، ومناة من المنّان.

النوع الثاني: تسميته سبحانه وتعالى بما لا يليق به، كتسمية النصارى له أبًا، وتسمية الفلاسفة له موجبًا أو علة فاعلة.

النوع الثالث: وصفه سبحانه وتعالى بما ينزه عنه من النقائص، كقول اليهود الذين قالوا: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾، وقولهم: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤]، وأنه استراح يوم السبت، تعالى الله عما يقولون.

النوع الرابع: جحد معانيها وحقائقها، كقول الجهمية: إنها ألفاظ مجردة لا تتضمن صفات ولا معاني، فالسميع لا يدل على سمع، والبصير لا يدل على بصر، والحي لا يدل على حياة، ونحو ذلك.

النوع الخامس: تشبيه صفاته بصفات خلقه؛ كقول الممثل: يده كيدي، إلى غير ذلك ـ تعالى الله ـ.

وقد توعد الله الملحدين في أسمائه وآياته بأشد الوعيد، فقال سبحانه في الآية (١٨٠) من سورة الأعراف: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، وقال في الآية (٤٠) من سورة فصلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾.

قوله: «ولا يكيفون ولا يمثلون...» إلخ تقدم بيان معنى التكييف والتمثيل.

«لأنه سبحانه لا سمي له» هذا تعليل لما سبق من قوله عن أهل السنة: (ولا يكيفون ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه) و (سبحانه) سبحان مصدر مثل غفران، من التسبيح، وهو التنزيه.

«لا سمي له» أي: لا نظير له يستحق مثل اسمه، كقوله تعالىٰ في الآية (٦٥) من سورة مريم: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ استفهام معناه: النفي، أي: لا أحد يساميه أو يماثله.

«ولا كفؤ له» الكفؤ: هو المكافئ المماثل، أي: لا مثل له، كقوله تعالىٰ في سورة الإخلاص: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾.

«ولا ند له» الند: هو الشبيه والنظير، قال تعالىٰ في الآية (٢٢) من سورة البقرة: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾.

«ولا يقاس بخلقه»: القياس في اللغة: التمثيل - أي: لا يشبه ولا يمثل بهم - قال سبحانه في الآية (٧٤) من سورة النحل: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ فلا يقاس سبحانه بخلقه، لا في ذاته، ولا في أسمائه وصفاته، ولا في أفعاله، وكيف يقاس الخالق الكامل بالمخلوق الناقص - تعالىٰ الله عن ذلك.

«فإنه سبحانه أعلم بنفسه وبغيره» وهذا تعليل لما سبق من وجوب إثبات ما أثبته لنفسه من الصفات ومنع قياسه بخلقه، فإنه إذا كان أعلم بنفسه وبغيره وجب أن يُثْبَتَ له من الصفات ما أثبته لنفسه وأثبته له رسوله ﷺ.

والخلق لا يحيطون به علمًا، فهو الموصوف بصفات الكمال التي لا تبلغها عقول المخلوقين، فيجب علينا أن نرضىٰ بما رضيه لنفسه، فهو أعلم بما يليق به ونحن لا نعلم ذلك. وهو سبحانه:

«أصدق قيلاً، وأحسن حديثًا من خلقه» فما أخبر به فهو صدق وحق يجب علينا أن نصدقه ولا نعارضه، وألفاظه أحسن الألفاظ وأفصحها وأوضحها، وقد بين ما يليق به من الأسماء والصفات أتم بيان، فيجب قبول ذلك والتسليم له.

«ثم رسله صادقون مصدوقون» هذا عطف علىٰ قوله: (فإنه أعلم بنفسه... إلخ)، الصدق: مطابقة الخبر للواقع، أي: «صادقون» فيما أخبروا به عن الله تعالىٰ.

«مصدوقون» أي: فيما يأتيهم من الوحي بواسطة الملائكة؛ لأنه من عند الله، فهم لا ينطقون عن الهوىٰ. وهذا توثيق لسند الرسل عليهم الصلاة والسلام، فقد قيل لهم الحق وبلغوه للخلق، فيجب قبول ما وصفوا الله به..

فهم «بخلاف الذين يقولون عليه ما لا يعلمون» أي: بخلاف الذين يقولون علىٰ الله بلا علم في شرعه ودينه وفي أسمائه وصفاته: بل بمجرد ظنونهم وتخيلاتهم أو بما يتلقونه عن الشياطين كالمتنبئين الكذبة والمبتدعة والزنادقة والسحرة والكهان والمنجمين وعلماء السوء، كما قال تعالىٰ في الآيات (٢٢١-٢٢٣) من سورة الشعراء: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾، وقال تعالىٰ في الآية (٧٩) من سورة البقرة: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ الآية.

فإذا كان الله سبحانه وتعالىٰ أعلم بنفسه وبغيره، وكان أصدق قولاً، وأحسن حديثًا من خلقه، وكان رسله عليهم الصلاة والسلام صادقين في كل ما يخبرون به عنه، والواسطة بينهم وبين الله التي تأتيهم بالوحي من عنده واسطة صادقة من ملائكته الكرام - وجب التعويل إذًا علىٰ ما قاله الله ورسله، لا سيما في باب الأسماء والصفات نفيًا وإثباتًا، ورفض ما قاله المبتدعة والضُّلَّال ممن يدّعي المجاز في الأسماء والصفات وينفيها بشتىٰ وسائل النفي معرضين عما جاءت به الرسل. معتمدين علىٰ أهوائهم أو مقلدين لمن لا يصلح للقدوة من الضُّلال.

المفردات:

«ولهذا»: تعليل لما سبق من كون كلام الله وكلام رسله أصدق وأحسن.

﴿سُبْحَانَ﴾: اسم مصدر من التسبيح وهو التنزيه.

﴿رَبِّكَ﴾ الرب: هو المالك السيد المربي لخلقه بنعمه.

﴿الْعِزَّةِ﴾: القوة والغلبة والمنعة. وإضافة الرب إلىٰ العزة من إضافة الموصوف إلىٰ الصفة.

﴿يَصِفُونَ﴾ أي: يصفه به المخالفون للرسل مما لا يليق بجلاله.

﴿وَسَلَامٌ﴾ قيل: هو من السلام بمعنىٰ: التحية. وقيل: من السلامة من المكاره.

﴿على المرسلين﴾ الذين أرسلهم الله إلى خلقه، وبلغوا رسالات ربهم، جمع مرسل، وتقدم تعريفه.

﴿رب العالمين﴾: جمع عالم، وهم كل من سوى الله.

المعنى الإجمالي: قد بينه الشيخ رحمه الله بقوله: «فسبح نفسه...» إلخ.

ما يستفاد من الآيات:

١ - تنزيه الله سبحانه عما يصفه به الضلال والجهال مما لا يليق بجلاله.

٢ - صدق الرسل ووجوب قبول ما جاءوا به وما أخبروا به عن الله.

٣ - مشروعية السلام على الرسل عليهم الصلاة والسلام واحترامهم.

٤ - رد كل ما يخالف ما جاءت به الرسل، لا سيما ما يتعلق بأسماء الله وصفاته.

٥ - مشروعية الثناء على الله وشكره على نعمه التي من أجلّها نعمة التوحيد.

«**وهو سبحانه قد جمع**...» إلخ، هذا بيان للمنهج الذي رسمه الله في كتابه لإثبات أسمائه وصفاته، وهو المنهج الذي يجب أن يسير عليه المؤمنون في هذا الباب المهم. فإنه سبحانه: (**قد جمع فيما وصف وسمى به نفسه**) أي: في جميع أسمائه وصفاته (**بين النفي والإثبات**) وهو نفي ما يضاد الكمال من أنواع العيوب والنقائص، كنفي الند والشريك والسِّنة والنوم والموت واللغوب.

وأما «**الإثبات**»: فهو إثبات صفات الكمال ونعوت الجلال لله، كقوله تعالى في الآيتين (٢٣، ٢٤) من سورة الحشر: ﴿**هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾، وغير ذلك مما سيذكر له المؤلف نماذج فيما يأتي.

❊ ❊ ❊

[أسئلة وأجوبة نموذجية على القواعد الأساسية في الإيمان بأسماء الله وصفاته]

● قال الشيخ عبد العزيز المحمد السلمان:

س ـ ما حد التوحيد؟

ج ـ هو علم العبد واعترافه واعتقاده وإيمانه بتفرد الرب بكل صفة كمال وتوحيده في ذلك واعتقاده أنه لا شريك له في كماله وأنه ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين.

س ـ ما هي أقسام التوحيد عند من يجعلها ثلاثة أقسام؟

ج ـ توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات وتوحيد الألوهية.

س ـ ما هو توحيد الربوبية؟

ج ـ هو اعتقاد العبد أن الله هو الرب المتفرد بالخلق والرزق والتدبير الذي ربى جميع الخلق بالنعم، وربى خواص خلقه وهم الأنبياء وأتباعهم بالعقائد الصحيحة، والأخلاق الجميلة، والعلوم النافعة، والأعمال الصالحة.

س ـ ما هو توحيد الأسماء والصفات؟

ج ـ هو اعتقاد انفراد الله بالكمال المطلق من جميع الوجوه بنعوت العظمة والجلال والجمال، وذلك بإثبات ما أثبته لنفسه أو أثبته له رسوله ﷺ من الأسماء والصفات ومعانيها وأحكامها الواردة بالكتاب والسنة.

س ـ ما هو توحيد الألوهية؟

ج ـ هو العلم والاعتراف بأن الله ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين وإفراده وحده بالعبادة كلها، وإخلاص الدين لله وحده.

س ـ أي هذه الأقسام الذي دعت إليه الرسل وأنزلت به الكتب؟

ج ـ توحيد الألوهية ويقال له توحيد العبادة والتوحيد الفعلي وسمي فعليًّا لتضمنه

لأفعال القلوب، والجوارح، كالصلاة، والزكاة، والحج، والدليل على أنه الذي دعت إليه الرسل وأنزلت به الكتب قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ [النحل: ٣٦] ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ [الأعراف: ٦٥] ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ [الأعراف: ٧٣] ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ [الأعراف: ٨٥] ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ [العنبكوت: ١٦] ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾[يوسف: ٤٠] ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ [الأعراف: ٥٩] فكل رسول أول ما يقرع به أسماع قومه يقول: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩] فهذه دعوة الرسل من أولهم نوح إلى آخرهم محمد صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين.

س ـ ما أركان توحيد العبادة؟ اذكرها بوضوح؟

ج ـ أركانه اثنان: الإخلاص، والصدق، فالأول: توحيد المراد فلا يزاحمه مراد، والثاني: توحيد الإرادة ببذل الجهد والطاقة في عبادة الله وحده لا شريك له.

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ:

هذا وثاني نوعي التوحيد تو	حيد العبادة منك للرحمن
أن لا تكون لغيره عبداً ولا	تعبد بغير شريعة الإيمان
والصدق والإخلاص ركنا ذلك الت	توحيد كالركنين للبنيان
وحقيقة الإخلاص توحيد المرا	د فلا يزاحمه مراد ثان
والصدق توحيد الإرادة وهو بذ	ل الجهد لا كسلاً ولا متوان
والسنة المثلى لسالكها فتو	حيد الطريق الأعظم السلطان
فلواحد كن واحداً في واحد	أعني سبيل الحق والإيمان

س ـ ما ضد توحيد الربوبية؟

ج ـ هو أن يجعل له شريك أو يجعل لغيره معه تدبيراً فالربوبية منه لعباده والتأله من عباده له.

س ـ ما ضد توحيد الألوهية؟

ج ـ أمران:

أولاً: الإعراض عن محبته تعالىٰ والإنابة إليه والتوكل عليه.

ثانيًا: الإشراك به واتخاذ أولياء شفعاء من دونه.

س ـ ما ضد توحيد الأسماء والصفات؟

ج ـ أمران: التعطيل والتشبيه، فمن نفىٰ صفاته تعالىٰ وعطلها ناقض تعطيله توحيده وكذبه، ومن شبهه بخلقه ناقض تشبيهه توحيده وكذبه.

س ـ أي هذه الأقسام من أقسام التوحيد، التوحيد القولي الاعتقادي، ولماذا سمي بذلك؟

ج ـ هو توحيد الأسماء والصفات الذي يدخل فيه توحيد الربوبية وسمي بذلك لاشتماله علىٰ أقوال القلوب وهو اعترافها واعتقادها، وعلىٰ أقوال اللسان. والثناء علىٰ الله بتوحيده.

س ـ ما هي «أقسام التوحيد القولي» وهل بين أنواع التوحيد الثلاثة تلازم؟

ج ـ الأول: النفي وهو ينقسم إلىٰ قسمين:

الأول: نفي النقائص والعيوب عن الله.

الثاني: نفي التشبيه عن أسمائه وصفاته.

والثاني من أقسام التوحيد القولي الإثباتي: وهو إثبات كل صفة كمال للرحمن وردت في الكتاب والسنة. وبين أنواع التوحيد الثلاثة تلازم فتوحيد الربوبية مستلزم لتوحيد الإلهية والعبادة فهو منه كالمقدِّمَة من النتيجة فإنه إذا علم أنه سبحانه هو الرب وحده لا شريك له في ربوبيته كانت العبادة حقه الذي لا ينبغي إلا له وحده فإنه لا يصح أن يعبد إلا من كان ربًّا خالقًا مالكًا مدبراً، وما دام ذلك له وحده وجب أن يكون هو المعبود وحده الذي لا يجوز أن يكون لأحد معه شركة في شيء من صور العبادة كلها ولهذا جرت سنة القرآن علىٰ سوق آيات الربوبية ثم الخلوص منها إلىٰ

الدعوة إلى توحيد الألوهية فيجعل الأولى برهانًا على الثانية كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١] الآيتين وكما في قوله: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [النمل: ٦٠] الآيات الثلاث وأما توحيد الإلهية فهو متضمن لتوحيد الربوبية ومعنى كونه متضمنًا له أن توحيد الربوبية داخل في ضمن توحيد الإلهية فإن من عبد الله وحده ولم يشرك به شيئًا لابد أن يكون قد اعتقد أن الله هو ربه ومالكه الذي لا رب له غيره ولا مالك له سواه فهو يعبده لاعتقاده أن أمره كله بيده وأنه هو الذي يملك ضره ونفعه وأن كل ما يدعَى من دونه فهو لا يملك لعابديه ضراً ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشوراً.

وأما توحيد الأسماء والصفات العليا وأنه شامل للنوعين فهو يقوم على إفراد الله سبحانه بكل ما له من الأسماء الحسنى والصفات العليا التي لا تنبغي إلا له ومن جملتها كونه ربًّا واحداً لا شريك له في ربوبيته وكونه إلهًا واحداً لا شريك له في الإلهية فاسم الرب لا ينصرف إلا إليه عند الإطلاق فله وحده الربوبية المطلقة الشاملة لجميع خلقه وكذلك اسم الجلالة (الله) لا يطلق إلا عليه وحده فهو ذو الألوهية على جميع خلقه. ليس لهم إله غيره.

فهذه الأنواع الثلاثة متكافلة متلازمة يكتمل بعضها ببعض ولا ينفع أحدها بدون الآخرين فكما لا ينفع توحيد الربوبية بدون توحيد الإلهية فكذلك لا يصح توحيد إلهية بدون توحيد الربوبية فإن من عبد الله وحده ولم يشرك به شيئًا في عبادته ولكنه اعتقد مع ذلك أن لغيره تأثيراً في شيء أو قدرة على مالا يقدر عليه إلا الله أو أنه يملك ضر العباد أو نفعهم ونحو ذلك فهذا لا تصح عبادته فإن أساسها الإيمان بالله ربًّا له شئون الربوبية كلها وكذلك من وحد الله في ربوبيته وإلهيته لكنه ألحد في أسمائه فلم يثبت له ما دلت عليه تلك الأسماء من صفات الكمال أو أثبت لغيره مثل صفته لم ينفعه توحيده في الربوبية والإلهية فلا يكمل لأحدٍ توحيده إلا باجتماع أنواع التوحيد الثلاثة.

س ـ إلى كم ينقسم ما ينزه عنه الله وما ضابط كل قسمٍ؟

ج ـ إلى قسمين: متصل ومنفصل.

وضابط المتصل: نفي ما يناقض ما وصف به نفسه أو وصفه به رسول الله ﷺ من كل ما يضاد الصفات الكاملة.

وضابط المنفصل: تنزيه الله عن أن يشاركه أحدٌ من الخلق في شيءٍ من خصائصه التي لا تكون لغيره.

س ـ ما مثال المتصل مما ينزه عنه الله؟

ج ـ النوم والإعياء والتعب واللغوب والموت والجهل والظلم والغفلة والنسيان والسنة.

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ:

فالأول التنزيه للرحمن عن	وصف العيوب وكل ذي نقصان
كالموت والإعياء والتعب الذي	ينفي اقتدار الخالق المنان
والنوم والسنة التي هي أصله	وعزوب شيء عنه في الأكوان
وكذلك العبث الذي تنفيه حكـ	ـمته وحمد الله ذي الاتقان
وكذاك ترك الخلق إهمالاً سدى	لا يبعثون إلى معادٍ ثانِ
كلا ولا أمر ولا نهيٌ عليـ	ـهم من إله قادر ديانِ
وكذاك ظلم عباده وهو الغنـ	ـي فما له والظلم للإنسانِ
وكذاك غفلته تعالى وهو علـ	ـلام الغيوب فظاهر البطلانِ
وكذلك النسيان جل إلهنا	لا يعتريه قط من نسيانِ
وكذاك حاجته إلى طعم ورز	ق وهو رزاق بلا حسبانِ

س ـ ما مثال المنفصل مما ينزه عنه الله جل وعلا؟

ج ـ الزوجة والشريك والكفؤ والظهير والشفيع بدون إذن الله والولي من الذل.

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ:

سَلْبَ الشريك مع الظهير مع الشفيـ	ـع بدون إذن المالك الديان

وكذاك سلب الزوج والولد الذي   نسبوا إليه عابدو الصلبان
وكذاك نفي الكفؤ أيضًا والولي   ي لنا سوى الرحمن ذي الغفران

س ـ بماذا يوصف الله جل وعلا؟

ج ـ بما وصف به نفسه في كتابه العزيز وبما وصفه رسوله الله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل ولا تشبيه قال بعضهم:

فما أثبت الباري تعالى لنفسه   أو المصطفى نبديه لا نتوقف
كما جا بلا كيف ومثل لربنا   ومن غير تعطيل ولسنا نحرف

وقال ابن القيم:

لسنا نشبه ربنا بصفاتنا   إن المشبه عابد الأوثان
كلا ولا نخليه من أوصافه   إن المعطل عابد البهتان
من شبه الله العظيم بخلقه   فهو الشبيه لمشرك نصران
أو عطل الرحمن من أوصافه   فهو الكفور وليس ذا إيمان

س ـ ما هو التحريف، وإلى كم ينقسم؟

ج ـ هو التغيير والتبديل، واصطلاحًا تغيير ألفاظ الأسماء الحسنىٰ والصفات العلىٰ ومعانيهما وهو ينقسم إلىٰ قسمين: تحريف لفظ وتحريف معنىٰ.

س ـ أوجد مثالاً لتحريف اللفظ والمعنى؟

ج ـ مثاله قول الجهمية في قوله تعالىٰ: «استوىٰ» استولىٰ بزيادة اللام، ومثل قول اليهود: حنطة، لما قيل لهم «قولوا: حطة»، وكقول بعض المبتدعة بنصب لفظ الجلالة في قوله تعالىٰ ﴿ **وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيماً** ﴾ [النساء: ١٦٤]، وقوله: ﴿ **لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ** ﴾ [هود: ١٠١] ونحو ذلك.

س ـ أوجد مثالاً لتحريف المعنى؟

ج ـ مثاله تفسير بعض المبتدعة الغضب بإرادة الانتقام، وكقولهم: معنىٰ الرحمة إرادة الإنعام وكقولهم: إن المراد باليدين النعمة أو القدرة، وكتفسير بعض المبتدعة

التكليم بالتجريح .

قال ابن القيم:

أمر اليهود بأن يقولوا حطة	فأبوا وقالوا حنطة لهوانِ
وكذلك الجهمي قيل له استوى	فأبى وزاد الحرف للنكرانِ
نون اليهود ولام جهمي هما	في وحي رب العرش زائدانِ

س ـ ما هو التعطيل وما المراد به هنا؟

ج ـ مأخوذ من العُطل الذي هو: الخلو والفراغ والترك، ومنه قوله تعالى: ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ [الحج: ٤٥] أي أهملها أهلها وتركوها والمراد بالتعطيل هنا نفي الصفات الإلهية وإنكار قيامها بذاته تعالى.

س ـ ما هي أنواع التعطيل؟ اذكرها بوضوح؟

ج ـ أولاً: تعطيل الله جل وعلا من كماله المقدس، وذلك بتعطيل أسمائه وصفاته كتعطيل الجهمية والمعتزلة ومن نحا نحوهم.

ثانيًا: تعطيل معاملته بترك عبادته أو عبادة غيره معه.

ثالثًا: تعطيل المصنوع من صانعه كتعطيل الفلاسفة الذين زعموا قدم هذه المخلوقات وأنها تتصرف بطبيعتها فهذا من أبطل وأمحل المحال إذ لا يمكن وجود ذات بدون صفات.

س ـ ما الفرق بين التحريف والتعطيل؟

ج ـ التعطيل: نفي للمعنى الحق الذي دل عليه الكتاب والسنة، وأما التحريف فهو تفسير النصوص بالمعاني الباطلة التي لا تدل عليها، والنسبة بينهما العموم والخصوص والمطلق فإن التعطيل أعم مطلقًا من التحريف بمعنى أنه كلما وجد التحريف وجد التعطيل دون العكس، وبذلك يوجدان معا فيمن أثبت المعنى الباطل ونفي المعنى الحق ويوجد التعطيل بدون التحريف فيمن نفى الصفات الواردة في الكتاب والسنة وزعم أن ظاهرها غير مرادٍ، ولكنه لم يعين لها معنى آخر وهو ما يسمونه بالتفويض.

س ـ من أين أُخذ أصل مقالة التعطيل، ومن قال به أول مرة في الإسلام وما فائدة ذكر الذين أُخذت هذه المقالة عنهم ومتى انتشرت مقالة الجهمية ومن الذي نشرها واذكر من تستحضره من الأئمة الذين كثر في كلامهم ذم المريسية وتضليلهم؟

ج ـ أصل مقالة التعطيل للصفات إنما أُخذ من تلامذة اليهود، والمشركين وضلال الصابئين. ثم قال الشيخ: فإن أول من حفظ عنه أنه قال هذه المقالة في الإسلام الجعد ابن درهم وأخذها عنه الجهم بن صفوان وأظهرها، فنسبت مقالة الجهمية إليه، وقد قيل إن الجعد أخذ مقالته عن إبان بن سمعان وأخذها إبان من طالوت ابن أخت لبيد ابن الأعصم اليهودي، الساحر الذي سحر النبي ﷺ، وكان الجعد هذا فيما قيل من أهل حران وكان فيهم خلق كثير من الصابئة والفلاسفة بقايا أهل دين النمرود والكنعانيين، وأخذها أيضًا الجهم عن السمنية بعض فلاسفة الهند وهم الذين يجحدون من العلوم ما سوىٰ الحسيات. فهذه أسانيد الجهم ترجع إلىٰ اليهود والنصارىٰ والصابئين والمشركين والفلاسفة الضالين.

وانتشرت مقالة الجهمية في حدود المائة الثالثة بسبب بشر بن غياث المريسي وطبقته ومن العلماء المخطئين لبشر المريسي وطبقته مثل مالك وسفيان بن عيينة وابن المبارك وأبي يوسف وأحمد والشافعي وإسحاق والفضيل بن عياض وبشر الحافي وغيرهم.

س ـ من الذي قتل الجعد، ومن الذي قتل الجهم؟

ج ـ أما الذي قتل الجعد بن درهم فخالد بن عبد الله القسري وكان قتله له بعد استشارة علماء زمانه خطب يوم الأضحىٰ فقال: أيها الناس ضحوا تقبل الله ضحاياكم فإني مضحي بالجعد بن درهم أنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً ولم يكلم موسىٰ تكليمًا ثم نزل فذبحه، وذلك في أوائل المائة الثانية.

قال ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ:

ولأجل ذا ضحى بجعد خالد الـ	ـقسري يوم ذبائح القربان
إذ قال إبراهيم ليس خليله	كلا ولا موسى الكليم الداني

لـلــه درك مـــن أخـي قــربـــان　　　　شكر الـضحـيــة كل صــاحـب سنة

وأما الجهم بن صفوان فقتله سَلْمُ بن أحوز أمير خراسان.

س ـ ما هو التكييف وما هو التمثيل؟ وقَسِّم ما يحتاج إلى تقسيم؟

ج ـ التكييف: تعيين الكنه يقال كيف الشيء أي جعل له كيفية معلومة، وأما التمثيل: فهو التشبيه وهو ينقسم إلىٰ قسمين:

الأول: تشبيه المخلوق بالخالق وذلك كتشبيه النصارىٰ المسيح بن مريم بالله وكتشبيه اليهود عزيراً بالله وكتشبيه المشركين أصنامهم بالله.

الثاني: كتشبيه المشبهة الذين يشبهون الله بخلقه فيقولون له وجه كوجه المخلوق، ويد كيد المخلوق، وسمع كسمع المخلوق، ونحو ذلك تعالىٰ الله عن قولهم علواً كبيراً.

س ـ بين ما تعرفه عن معنى قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

ج ـ المراد بذكر المثل هنا المبالغة في النفي بطريقة الكناية فإنه إذا نفىٰ عمن يناسبه كان نفيه عنه أولىٰ كقولهم: مثلك لا يبخل وغيرك لا يجود هكذا قيل، وقيل: إن الكاف زائدة للتأكيد لأنه تعالىٰ لا مثيل له وهو المشهور عند المعربين، وقيل إن «مثل» زائدة قاله ثعلب وغيره كما في قوله تعالىٰ: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ﴾ [البقرة: ١٣٧] أي آمنوا بما آمنتم به، والأول أولىٰ.

فإن الكناية باب مسلوك عند العرب ومهيع مألوف لهم قال ابن قتيبة: العرب تقيم المثل مقام النفس فتقول مثلي لا يقال له هذا، أي أنا لا يقال لي. وقيل: المراد بالمثْل الصفة وذلك أن «المثْل» بمعنىٰ المَثَل، والمَثَلُ الصفة كقوله تعالىٰ: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ﴾ [محمد: ١٥] فيكون المعنىٰ ليس مثل صفة الله سبحانه وتعالىٰ شيء من الصفات، المعنىٰ ليس يشبهه ولا يماثله شيء من المخلوقات لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله؛ لأن أسماءه كلها حسنىٰ، وصفاته صفات كمال وعظمة، وأفعاله تعالىٰ أوجد بها المخلوقات العظيمة من غير مشارك فليس كمثله شيء لانفراده، وتوحده بالكمال من

كل وجه ومن فهم هذه الآية الكريمة حق فهمها، وتدبرها: مشىٰ بها عند اختلاف المختلفين في الصفات علىٰ طريقة بيضاء واضحة ويزداد بصيرة إذا تأمل معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١] فإن هذا الإثبات بعد ذلك النفي للمماثل قد اشتمل علىٰ برد اليقين وشفاء الصدور وانثلاج القلوب فبهذه الحجة والبرهان القوي يتحطم كثير من البدع ويرغم بها أنوف طوائف من القاصرين المتكلمين، والمتكلفين المتأولين ولا سيما إذا ضم إليه قوله سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠] وقوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١] أي وهو سميع لما ينطق به خلقه علىٰ اختلاف لغاتهم وتفنن حاجاتهم البصير: الذي أحاط بصره بجميع المبصرات فيرىٰ دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء علىٰ الصخرة الصماء، ويرىٰ سريان القوت في أعضاء الحيوانات الصغيرة. وسريان الماء في الأغصان.

قال بعضهم:

يا من يرى مَدّ البعوض جناحها … في ظلمة الليل البهيم الأليلِ
ويرى مناط عروقها في نحرها … والمخ في تلك العظام النُّحَلِ
امنن علي بتوبة تمحو بها … ما كان مني في الزمان الأولِ

س ـ ما الذي يُؤخذ من هذه الآية الكريمة؟

ج ـ فيها أولاً: رد علىٰ المشبهة الذين يشبهون الله بخلقه.

ثانيًا: رد علىٰ المعطلة وهم الذين ينفون الصفات كالجهمية.

ثالثًا: رد علىٰ المعتزلة ونحوهم ممن يثبتون الأسماء دون الصفات ويقولون سميع بلا سمع وبصير بلا بصر.

رابعًا: رد علىٰ الأشاعرة الذين يثبتون بعض الصفات ويؤولون البعض الآخر وهم متناقضون. التي ذكرها السفاريني في بيت فقال:

له الحياة والكلام والبصر … سمع إرادة وعلم واقتدر

خامسًا: فيها إثبات السمع والبصر علىٰ الوجه اللائق بجلاله وعظمته.

سادسًا: تنزيه الله عن مشابهة خلقه وأن صفاته ليست كصفات خلقه. بل هي

صفات لائقة بجلاله وعظمته.

سابعًا: تقديم النفي على الإثبات لأن الأول من باب التخلية والثاني من باب التحلية.

ثامنًا: فيها نفي مجمل وإثبات مفصل وعلى ضوئها يتمشى أهل السنة.

تاسعًا: الرد على من زعموا أن السمع والبصر بمعنى العلم.

عاشرًا: فيها دلالة على كثرة صفات كماله ونعوت جلاله وأنها لكثرتها وعظمتها لم يكن فيها مثل وإلا فلو أريد نفي الصفات لكان العدم المحض أولى بهذا المدح فهذه الآية تدل على إثبات الصفات.

الحادي عشر: فيها دليل لمن فضل السمع على البصر.

الثاني عشر: الحث على مقام الإحسان.

س ـ اشرح قول المصنف: فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه ومن المنحرفون عن طريقة السلف؟

ج ـ هذا تفريع على ما تقدم قبله فإنهم إذا كانوا يؤمنون بالله على هذا الوجه فلا ينفون عنه ذلك ولا يكيفون ولا يمثلون ولا يحرفون الكلم عن مواضعه أي لا يغيرونه ويفسرونه بغير معناه كالذين قال الله عنهم ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾ [النساء: ٤٦].

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: يتأولونه على غير تأويله ويفسرونه بغير مراد الله قصداً منهم وافتراء قال في شرح الطحاوية: والتحريف على مراتب منه ما يكون كفراً ومنه ما يكون فسقًا وقد يكون معصية وقد يكون خطأ. اهـ.

والمعنى أن أهل السنة رضوا لربهم ما رضيه لنفسه ورضيه له رسوله ﷺ فإنه سبحانه أعلم بنفسه وبغيره وكذلك رسله فإنهم أعلم بالله وأصدق وأنصح من جميع الخلق وأقدر على البيان والتبليغ وقد بَلَّغوا البلاغ المبين وسار على منهاجهم أصحاب النبي ﷺ والتابعون لهم بإحسان والخير في اتباعهم.

قال بعضهم:

وأما المنحرفون عن طريقة السلف فثلاث طوائف:

١ ـ أهل التخييل.

٢ ـ أهل التأويل.

٣ ـ أهل التجهيل.

فأهل التخييل: هم المتفلسفة ومن سلك سبيلهم من متكلم ومتصوف ومتفقه فإنهم يقولون إن ما ذكره الرسول ﷺ من أمر الإيمان بالله وباليوم الآخر إنما هو تخييل للحقائق لينتفع الجمهور به لا أنه بين به الحق ولا هدىٰ به الخلق ولا أوضح به الحقائق ثم هم علىٰ قسمين: منهم من يقول إن الرسول لم يعلم الحقائق علىٰ ما هي عليه ويقولون إن من المتفلسفة الإلهية من علمها وكذلك من الأشخاص الذين يسمونهم الأولياء من علمها ويزعمون أن من الفلاسفة والأولياء من هو أعلم بالله واليوم الآخر من المرسلين وهذا مقال غلاة الملاحدة من الفلاسفة والباطنية ـ باطنية الشيعة وباطنية الصوفية ـ ومنهم من يقول بل الرسول علمها لكن لم يبينها وإنما تكلم بما يناقضها وأراد من الخلق فهم ما يناقضها لأن مصلحة الخلق في هذه الاعتقادات التي لا تطابق الحق، ويقول هؤلاء: يجب علىٰ الرسول أن يدعو الناس إلىٰ اعتقاد التجسيم مع أنه باطلٌ وإلىٰ اعتقاد معاد الأبدان مع أنه باطل ويخبرهم بأن أهل الجنة يأكلون ويشربون مع أن ذلك باطل قالوا لأنه لا يمكن دعوة الخلق إلا بهذه الطريقة التي تتضمن الكذب لمصلحة العباد فهذا قول هؤلاء في نصوص الإيمان بالله واليوم الآخر أما الأعمال فمنهم من يقرها ومنهم من يجريها هذا المجرىٰ ويقول إنما يؤمر بها بعض الناس دون بعض ويؤمر بها العامة دون الخاصة فهذه طريقة الباطنية الملاحدة الإسماعيلية ونحوهم.

وأما أهل التأويل فيقولون: إن النصوص الواردة في الصفات لم يقصد بها الرسول أن يعتقد الناس الباطل ولكن قصد بها معان ولم يبين لهم تلك المعاني ولا دلهم عليها لكن أراد أن ينظروا ليعرفوا الحق بعقولهم ثم يجتهدوا في صرف تلك النصوص عن مدلولها ومقصوده امتحانهم وتكليفهم وإتعاب أذهانهم وعقولهم في أن يصرفوا كلامهُ عن مدلوله ومقتضاه ويعرفوا الحق من غير جهته وهذا قول الجهمية والمتكلمة والمعتزلة ومن دخل معهم في شيء من ذلك.

قال الشيخ ـ رحمه الله ـ في الفتوى الحموية: والذي قصدنا الرد في هذه الفتيا عليهم هم هؤلاء إذ كان نفور الناس عن الأولين مشهور. يريد أهل التخييل بخلاف هؤلاء يريد أهل التأويل فإنهم تظاهروا بنصر السنة في مواضع كثيرة وهم في الحقيقة لا للإسلام نصروا ولا للفلاسفة كسروا. وأيضًا فقد زعموا أنهم في نفيهم للصفات ينزهون الله عن مشابهة خلقه فحصل تمويه بدعتهم.

قال ابن القيم:

لكنه أبدى المقالة هكذا	في قالب التنزيه للرحمنِ
وأتى إلى الكفر الصريح فصاغه	عجلاً ليفتن أمة الثيرانِ
وكساه أنواع الجواهر والحلى	من لؤلؤ صاف ومن عقيانِ
فرآه ثيران الورى فأصابهم	كمصاب إخوتهم قديم زمانِ
عجلان قد فتنا العباد بصوته	إحداهما وبحرفه ذا الثانِ
والناس أكثرهم فأهل ظواهر	تبدو لهم ليسوا بأهل معانِ
فهم القشور وبالقشور قوامهم	واللب منه خلاصة الإنسانِ
لم ينج من أقواله طرًا سوى	أهل الحديث وشيعة القرآنِ
فتبرؤا منها براءة حيدرٍ	وبراءة المولود من عمرانِ

قال: وأما أهل التجهيل فهم كثير من المنتسبين إلى السنة وأتباع السلف يقولون إن الرسول ﷺ لم يعرف معاني ما أنزل الله إليه من آيات الصفات ولا جبريل يعرف معاني الآيات ولا السابقون الأولون عرفوا ذلك وكذلك قولهم في أحاديث الصفات إن معناها لا يعلمه إلا الله مع أن الرسول تكلم بها ابتداء.

وطريقتهم في نصوص الصفات إمرار لفظها مع تفويض معناها ومنهم من يتناقض فيقول تجري على ظاهرها مع أن لها تأويلاً يخالفه لا يعلمه إلا الله وهذا ظاهر التناقض إذ كيف يمكن إجراؤها على ظاهرها مع أن المراد بها خلافه.

والشبهة التي استدلوا بها هي قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧] قال الشيخ ـ رحمه الله ـ: وهؤلاء يظنون أنهم اتبعوا قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ﴾

[آل عمران: ٧] فإنه وقف أكثر السلف على قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ﴾ وهو وقف صحيح لكن لم يفرقوا بين معنى الكلام وتفسيره وبين التأويل الذي انفرد الله بعلمه وظنوا أن التأويل المذكور في كلام الله تعالى هو التأويل المذكور في كلام المتأخرين وغلطوا في ذلك فإن التأويل يراد به ثلاثة معانٍ:

المعنى الأول: التأويل في اصطلاح كثير من المتأخرين هو صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح لدليل يقترن به.

والمعنى الثاني: أن التأويل هو تفسير الكلام سواء وافق ظاهره أو لم يوافقه وهذا هو معنى التأويل في اصطلاح جمهور المفسرين.

والمعنى الثالث: أن التأويل هو الحقيقة التي يؤول إليها الكلام وهذا التأويل هو الذي لا يعلمه إلا الله وتأويل الصفات هو الحقيقة التي انفرد الله بعلمها وهو الكيف المجهول الذي قال فيه السلف كمالك وغيره: الاستواء معلوم والكيف مجهول فالاستواء معلوم يعلم معناه ويفسر ويترجم بلغةٍ أخرى وهو من التأويل الذي يعلمه الراسخون في العلم وأما كيفية ذلك الاستواء فهو التأويل الذي لا يعلمه إلا الله، انتهى كلامه باختصار.

س ـ ما هو الدليل على أن النبي ﷺ بين لأمته ما يجب اعتقاده لله من الأسماء والصفات وما يجوز على الله وما يمتنع؟

وما الذي يحكم به على من أعرض عن كتاب الله وعن سنة رسوله أو استهزأ بهما أو بأحدهما أو بحملتهما؟

ج ـ قال الشيخ تقي الدين: من المحال في العقل والدين أن يكون السراج المنير الذي أخرج الله به الناس من الظلمات إلى النور وأنزل معه الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، وأمر الناس أن يردوا ما تنازعوا فيه من أمر دينهم إلى ما بعث به من الكتاب والحكمة، وهو يدعو إلى الله وإلى سبيله بإذنه على بصيرة؛ وقد أخبر الله بأنه أكمل له ولأمته دينهم وأتم عليهم نعمته ـ محال مع هذا وغيره ـ أن يكون قد ترك باب الإيمان بالله والعلم به ملتبسًا مشتبهًا، ولم يميز بين ما يجب لله من الأسماء الحسنى والصفات العليا، وما يجوز عليه وما يمتنع عليه فإن معرفة هذا أصل

الدين وأساس الهداية وأفضل وأوجب ما اكتسبته القلوب، وحصلته النفوس، وأدركته العقول فكيف يكون ذلك الكتاب وذلك الرسول، وأفضل خلق الله بعد النبيين لم يُحكموا هذا الباب اعتقاداً وقولاً؟

ومن المحال أيضًا: أن يكون النبي ﷺ قد علم أمته كل شيء حتى الخراءة وقال: «**تركتكم على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك**»، وقال فيما صح عنه أيضًا «**ما بعث الله من نبي إلا كان حقًّا عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم وينهاهم عن شر ما يعلمه لهم**» وقال أبو ذر: «لقد توفي رسول الله ﷺ وما يقلب طائر جناحيه في السماء إلا ذكر لنا منه علمًا» وقال عمر بن الخطاب: «قام فينا رسول الله ﷺ مقامًا. فذكر بدء الخلق حتى دخل أهل الجنة منازلهم، وأهل النار منازلهم حفظ ذلك من حفظه. ونسيه من نسيه» رواه البخاري.

ومحال مع تعليمهم كل شيء لهم فيه منفعة في الدين وإن دقت: أن يترك تعليمهم ما يقولونه بألسنتهم، ويعتقدونه في قلوبهم في ربهم ومعبودهم رب العالمين الذي معرفته غاية المعارف وعبادته أشرف المقاصد والوصول إليه غاية المطلب. بل هذا خلاصة الدعوة النبوية، وزبدة الرسالة الإلهية فكيف يتوهم من في قلبه أدنى مسكة من إيمان وحكمة أن لا يكون بيان هذا الباب قد وقع من الرسول على غاية التمام. ثم إذا كان قد وقع ذلك منه فمن المحال: أن يكون خير أمته وأفضل قرونها قَصَّروا في هذا الباب: زائدين فيه، أو ناقصين منه.

ثم من المحال أيضًا: أن تكون القرون الفاضلة ـ القرن الذي بعث فيه رسول الله ﷺ، ثم الذين يلونهم، كانوا غير عالمين وغير قائلين في هذا الباب بالحق المبين لأن ضد ذلك: إما عدم العلم والقول، وإما اعتقاد نقيض الحق، وقول خلاف الصدق، وكلاهما ممتنع.

ولا شك أن من أعرض عن كتاب الله وسنة رسوله واعتاض عنهما بالقوانين الوضعية أنه كافر كفر ناقل عن الملة الإسلامية وكذلك من زعم أنه يسعه الخروج عن شريعة محمد ﷺ كما وسع الخضر الخروج عن شريعة موسى أو زعم أن هدي غير محمد أفضل من هديه ﷺ أو أحسن، أو زعم أنه لا يسع الناس في مثل هذه العصور إلا الخروج عن الشريعة وأنها كانت كافية في الزمان الأول فقط وأما في هذه الأزمنة

فالشريعة لا تساير الزمن ولابد من تنظيم قوانين بما يناسب الزمن فلا شك أن هذا الاعتقاد إذا صدر من إنسان فإنه قد استهان بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وتنقَّصها ولا شك في كفره وخروجه عن الدين.

وكذلك من زعم أنه محتاج للشريعة في الظاهر دون علم الباطن أو في علم الشريعة دون علم الحقيقة أو أن الإنسان حر في التدين وفي أي دين شاء من يهودية أو نصرانية أو غير ذلك أو أن هذه الشرائع غير منسوخة بدين محمد أو استهان بدين الإسلام أو تنقصه أو هزل به أو بشيء من شرائعه أو بمن جاء به وكذلك ألحق بعض العلماء الاستهانة بحملته لأجل حمله فهذه الأمور كلها كفر قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ (٦٥) لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥، ٦٦].

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ:

والله ما خوفي الذنوب فإنها	لعلى سبيل العفو والغفران
لكنما أخشى انسلاخ القلب من	تحكيم هذا الوحي والقرآن
ورضًا بآراء الرجال وخرصها	لا كان ذاك بمنة المنان
فبأي وجه ألتقي ربي إذا	أعرضت عن ذا الوحي طول زمان
وعزلته عما أريد لأجله	عزلاً حقيقيًّا بلا كتمان

س ـ ما مثال الأسماء الحسنى وما مثال آيات الصفات وأحاديثها؟

ج ـ مثال الأسماء الحسنى: الله، الحي، القيوم، الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، الغفور، الرحيم، الرءوف، الغني، الحميد، المجيد، السميع، البصير، العفُوُ، الرزاق، الجليل، الجميل، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، العليم المحيط، القوي، المتين، العظيم.

ومثال آيات الصفات قوله تعالى: ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ [البينة: ٨]، ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]، ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]، ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن: ٢٧]، ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]، ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤]، ﴿غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [المجادلة: ١٤]، ﴿كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٦]،

﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: ١٥]، ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢]، ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الحديد: ٤].

وأما مثال أحاديث الصفات: فمنها قوله ﷺ: «ينزل ربنا إلى سماء الدنيا»، «الله أشد فرحًا بتوبة عبده»، «يعجب ربك من الشاب ليست له صبوة»، «يضحك الله إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر كلاهما يدخل الجنة» «عجب ربنا من قنوط عباده» الحديث، وقوله: «لا تزال جهنم يلقى فيها وهي تقول: هل من مزيد حتى يضع رب العزة فيها رجله»، وفي رواية: «عليها قدمه» وفي حديث الشفاعة: «يا آدم أنت أبو البشر خلقك الله بيده»، ومثل قوله في الحديث المتفق عليه: «أنت موسى اصطفاك الله بكلامه وخط لك الألواح بيده» ومثلُ ما في «صحيح مسلم»: «وغرس كرامة أوليائه في جنة عدن بيده».

س ـ لِمَ كانت أسماء الله حسنى، وما هي أركانها؟

ج ـ لدلالتها على أحسن مسمى، وأشرف مدلول، وأركانها ثلاثة: الإيمان بالاسم، وبما دل عليه من المعنى، وبما تعلق به من الآثار.

س ـ أوجد مثالاً يوضح أركان الأسماء الحسنى؟

ج ـ مثال ذلك: نؤمن بأنه رحيم؛ هذا الاسم، وأنه ذو رحمة؛ هذا المعنى، وأنه يرحم من يشاء؛ هذا الأثر، ومثال ثاني: قدير ذو قدرة يقدر على كل شيء، عليم ذو علم يعلم كل شيء، وهلم جراً.

س ـ هل أسماء الله تعالى من قبيل المحكم وهل الوصفية فيها تنافي العلمية؟

ج ـ نعم هي من قبيل المحكم لأن معانيها واضحة في لغة العرب وإنما الكنه والكيف مما استأثر الله بعلمه. فمعنى الاستواء في اللغة معلوم، وأما كيفية استواء الله على عرشه فلا يعلمها إلا هو جل وعلا والوصفية فيها لا تنافي العلمية بخلاف أوصاف العباد وكل أسماء الله دالة على معانيها وكلها أوصاف مدح.

س ـ ما معنى أن أسماء الله تعالى توقيفية؟

ج ـ معناه أنه لا يتجاوز بها الوارد في الكتاب والسنة فهي تُتَلقى عن طريق السمع لا بالآراء فلا يوصف إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ ولا يسمى إلا بما

سمى به نفسه أو سماه به رسوله ﷺ.

س ـ هل أسماء الله من قبيل المترادف أم من قبيل المتباين؟

ج ـ هي بالنظر إلى الذات من قبيل المترادف لدلالتها على مسمى واحد وبالنظر إلى الصفات من قبيل المتباين لأن كل صفة غير الأخرى.

س ـ هل أسماء الله محصورة بعدد معروف، وهل في الحديث دلالة على حصرها؟

ج ـ ليست محصورة بعدد معروف وأما الحديث الوارد أن لله تسعًا وتسعين اسمًا من أحصاها دخل الجنة فلا يفيد أنها محصورة بالتسعة والتسعين وإنما غاية ما فيه أن هذه الأسماء موصوفة بأن من أحصاها دخل الجنة نسأل الله حفظها وفهمها ودعاء الله بها.

س ـ ما مراتب إحصاء الأسماء الحسنى وما هي أقسام الدعاء؟

ج ـ ثلاثة: حفظها، وفهمها، ودعاء الله بها دعاء عبادة ودعاء مسألة، فدعاء المسألة: يكون بلسان المقال، ودعاء العبادة: بلسان الحال.

والدعاء ثلاثة أقسام: أحدها أن تسأل الله تعالى بأسمائه وصفاته.

والثاني: أن تسأله بحاجتك وفقركَ وذُلّك فتقول أنا العبد الفقير المسكين البائس الذليل المستجير ونحو ذلك.

الثالث: أن تسأل حاجتك ولا تذكر واحدًا من الأمرين فالأول أكمل وهذه عامة أدعية النبي ﷺ وهذا القول قد جاء عن غير واحد من السلف.

قال الحسن البصري: «اللهم» مجمع الدعاء.

وقال أبو رجاء العطاردي: إن الميم في قوله: «اللهم» فيها تسعة وتسعون اسمًا من أسماء الله تعالى.

وقال النضر بن شميل: من قال اللهم فقد دعا الله بجميع أسمائه. اهـ. من كلام ابن القيم.

س ـ لماذا كان إحصاء أسماء الله الحسنى والعلم بها أصلاً للعلم بكل معلوم ولماذا ذكر الله قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ في ثلاثة مواضع من كتابه؟

ج ـ لأن المعلومات القدرية والشرعية صادرة عن أسماء الله وصفاته، ولهذا كانت في غاية الإحكام والإتقان والصلاح والنفع. وأما ذكر قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ في ثلاث مواضع؛ فليثبت عظمته في نفسه وما يستحقه من الصفات، وليثبت وحدانيته وأنه لا يستحق العبادة إلا هو، وليثبت ما أنزله على رسله، فعلى المؤمن أن يقدر الله حق قدره كما يتقيه حق تقاته، ويجاهد في الله حق جهاده.

س ـ ما هي أنواع دلالة الأسماء الحسنى؟ اذكرها بوضوح؟

ج ـ ثلاثة أنواع: دلالة مطابقة، إذا فسرنا الاسم بجميع مدلوله، ودلالة تضمن: إذا فسرنا ببعض مدلوله، ودلالة التزام: إذا استدللنا به على غيره من الأسماء التي يتوقف هذا الاسم عليها.

س ـ أوجد مثالاً يبين ذلك؟

ج ـ مثال ذلك لفظة «الرحمن» دلالتها على الرحمة و «الذات» دلالة مطابقة، وعلى أحدهما دلالة تضمن؛ لأنها داخلة في الضمن ودلالة على الأسماء التي لا توجد الرحمة إلا بثبوتها كالحياة والعلم والقدرة ونحوها دلالة التزام.

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ:

ودلالة الأسماء أنواع ثلا ... ث كلها معلومة ببيان
دلت مطابقة كذاك تضمنًا ... وكذا التزام واضح البرهان
أما مطابقة الدلالة فهي أن ... الاسم يفهم منه مفهومان
ذات الإله وذلك الوصف الذي ... يشتق منه الاسم بالميزان
لكن دلالته على إحداهما ... بتضمن فافهمه فهم بيان
وكذا دلالته على الصفة التي ... ما اشتق منها فالتزم ذان
وإذا أردت لذا مثالاً بينًا ... فمثال ذلك لفظة الرحمن
ذات الإله ورحمة مدلولها ... فهما لهذا اللفظ مدلولان
إحداهما بعض لذا الموضوع فهـ ... ـي تضمن ذا واضح التبيان

لكن وصف الحي لازم ذلك المعنىٰ لزوم العلم للرحمن

فلذا دلالته عليه بالتزا م بين والحق ذو تبيان

س ـ ما الاسم الذي ينبغي لمن أراد أن يسأل الله تعالى أن يدعو به؟

ج ـ ينبغي له أن يتوسل إليه بالاسم المقتضي لذلك المطلوب المناسب لحصوله حتىٰ كأن الداعي يستشفع إليه متوسلاً إليه به.

س ـ ما مثال ذلك؟

ج ـ مثاله: طالب المغفرة يقول: يا غفار اغفر لي، وطالب الرحمة يا رحمن ارحمني، وطالب التوبة يا تواب تب عليَّ، وطالب الرزق يا رزاق ارزقني، وطالب العلم يقول يا عليم علمني، وطالب العفو يا عفو اعف عني، وطالب الهدىٰ يا هادي اهدني . . . إلخ.

س ـ إذا كان الاسم منقسم إلى مدح وذم فهل يدخل في أسماء الله تعالى؟ وما مثال ذلك؟

ج ـ لا يدخل بمطلقه في أسمائه، وذلك كالمريد والصانع والفاعل فهذه ليست من الأسماء الحسنىٰ لانقسامها إلىٰ محمود ومذموم، بل يطلق عليه منها كمالها.

س ـ هل يلزم من اتحاد الاسمين تماثل مسماهما؟

ج ـ لا يلزم ذلك فإن الله سمىٰ نفسه بأسماء تسمىٰ بها بعض خلقه فلا يلزم من ذلك التشبيه وكذلك وصف نفسه بصفات وصف بها بعض خلقه فلا يلزم من ذلك التشبيه.

س ـ ما مثال ذلك؟

ج ـ مثال ذلك: أنه تعالىٰ وصف نفسه بالسمع والبصر والعلم والقدرة واليد والوجه والرضا والغضب ووصف بذلك بعض خلقه، ولكن ليس السميع كالسميع، ولا البصير كالبصير. فصفات كل موصوف تناسب ذاته وتليق به ولا مناسبة بين الخالق والمخلوق لأن الله سبحانه وتعالىٰ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ولم يكن له كفؤًا أحد.

س ـ ما مثال أسماء الله المزدوجة المتقابلة وما الذي تختص به؟

ج ـ مثال ذلك: المانع المعطي، الضار النافع، المعز المذل؛ القابض الباسط، الخافض الرافع، فهذه لا يطلق واحدٌ منها بمفرده على الله ولكن يكون مقرونًا مع الآخر، والحكمة في ذلك أن في إفرادها ما يوهم نوع نقص، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا، ولأن الكمال الحقيقي تمامه وكماله من اجتماعهما.

قال ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ:

هذا ومن أسمائه ما ليس يفـ ... ـرد بل يقال إذا أتى بقران

وهي التي تدعى بمزدوجاتها ... إفرادها خطر على الإنسان

إذ ذاك موهم نوع نقصٍ جل ربْـ ... ـبُ العرش عن عيب وعن نقصان

كالمانع المعطي وكالضار الذي ... هو نافعٌ وكماله الأمران

ونظير هذا القابض المقرون باسـ ... ـم الباسط اللفظان مقترنان

وكذا المعز مع المذل وخافضٌ ... مع رافعٍ لفظان مزدوجان

وحديث إفراد اسم منتقم فمو ... قوف كما قد قال ذو العرفان

ما جاء في القرآن غير مقيدٍ ... بالمجرمين وجا بذو نوعان

س ـ الصفات تنقسم إلى قسمين ما ضابط كل قسم وما مثال الصفات الذاتية؟

ج ـ أما ضابط الصفات الذاتية فهي التي لا تنفك عن الله، وصفات فعل: وهي التي تتعلق بالمشيئة والقدرة، ومثال الصفات الذاتية: العين والنفس والعلم والحياة والقدرة والسمع والبصر والوجه والكلام والقدم واليد والرجل والملك والعظمة والكبرياء والعلو والغنى والرحمة والحكمة، وضابط الصفة الذاتية أيضًا أن يقال: هي الملازمة للذات ويقال: هي التي لا ينفك الباري عنها، والصفات الذاتية الفعلية: مثل الكلام والرحمة والمغفرة.

س ـ ما مثال صفات الفعل؟

ج ـ الاستواء، النزول، المجيء، العجب، الضحك، الرِّضَا، الحب، الكره، السخط، الفرح، الغضب، وهذا القسم قديم النوع حادث الآحاد. ويقدر فيه إذا شاء.

س ـ هل القول في الصفات يخالف القول في الذات؟

ج ـ القول في الصفات كالقول في الذات؛ فكما أن لله ذاتًا لا تشبهها الذوات فله صفات لا تشبهها الصفات، فالصفات فرع الذات يحذىٰ حذوها والقول في بعض الصفات كالقول في البعض.

س ـ ما هي الأقسام الممكنة في آيات الصفات وأحاديثها؟

ج ـ هي ستة أقسام:

قسمان يقولون تُجرى على ظاهرها:

فقسم قالوا: تجرىٰ علىٰ ظاهرها اللائق بالله من غير تشبيه وهؤلاء هم السلف الصالح.

والقسم الثاني: المشبهة الذين غلوا في الإثبات وقالوا: تجعل كصفات المخلوقين، ومذهبهم باطل أنكره السلف.

وقسمان ينفيان ظاهرها: وهم الجهمية ومن تفرع عنهم، فقسم منهم يؤولونها بمعان أخر، وقسم منهم يقولون: الله أعلم بما أراد منها.

وقسمان واقفان:

فقسم يقولون: يجوز أن يكون المراد اللائق بالله، ويجوز أن لا يكون المراد صفة لله. وهذه طريقة كثير من الفقهاء وغيرهم.

وقسمٌ: يمسكون عن هذا كله ولا يزيدون علىٰ تلاوة القرآن، وقراءة الحديث معرضين بقلوبهم وألسنتهم عن هذه التقادير.

والصواب في آيات الصفات وأحاديثها القطع بالطريقة السلفية.

س ـ ما الواجب في آيات الصفات وأحاديثها؟

ج ـ يجب التصديق بها وإثباتها وإمرارها كما جاءت من غير تكييف ومن غير تشبيه ولا تعطيل ولا تحريف، ومما ينسب لشيخ الإسلام:

وجميع آيات الصفات أمرها حقًّا كما نقل الطراز الأول

وأرد عهدتها إلى نقالها وأصونها عن كل ما يتخيل

س ـ ما المنقول عن الشافعي وأحمد في هذا الباب؟ أي باب آيات الصفات وأحاديثها؟

ج ـ قال الإمام الشافعي ـ رضي الله عنه ـ: آمنت بالله وبما جاء عن الله علىٰ مراد الله، وآمنت برسول الله وبما جاء عن رسول الله علىٰ مراد رسول الله.

وقال الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ : نؤمن بها ونصدق بها لا كيف ولا معنىٰ ولا نرد شيئًا منها ونعلم أن ما جاء به الرسول حقٌ وصدق ولا نرد علىٰ رسول الله ﷺ ولا نصف الله بأكثر مما وصف به نفسه بلا حدٍ ولا غايةٍ، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

س ـ ما الذي درج عليه السلف وأئمة الخلف ـ رضي الله عنهم ـ في هذا الباب؟

ج ـ كلهم متفقون علىٰ الإقرار والإمرار والإثبات، لما ورد من الصفات في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، من غير تعرض لتأويله وقد أمرنا باقتفاء آثارهم والاهتداء بمنارهم وحذرنا من المحدثات، وأخبرنا أنها من الضلالات فقال النبي ﷺ: «**عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكلٍ بدعة ضلالةٌ**» وقال عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: اتبعوا ولا تبتدًعوا فقد كُفيتم.

س ـ ما الكلام الذي قاله عمر بن عبد العزيز ـ رضي الله عنه ـ في هذا الموضوع؟

ج ـ قف حيث وقف القوم فإنهم عن علم وقفوا، وببصر نافذٍ كفوا، ولهم علىٰ كشفها كانوا أقوىٰ وبالفضل لو كان فيها أحرىٰ، فإن قلتم حدث بعدهم فما أحدثه إلا من خالف هديهم، ورغب عن سنتهم، وقد وصفوا منه ما يشفي، وتكلموا منه بما يكفي، فما فوقهم محسر وما دونهم مقصر، ولقد قصر عنهم قوم فجفوا، وتجاوزهم آخرون فغلوا، وإنهم فيما بين ذلك لعلىٰ هدىٰ مستقيم.

س ـ ما الذي قاله الإمام أبو عمرو الأوزاعي، وما الذي قاله محمد بن عبد الرحمن الأدرمي لرجل تكلّم ببدعة؟

ج ـ قال الأوزاعي ـ رضي اللهً عنه ـ : عليك بآثار من سلف، وإن رفضك الناس، وإياك وآراء الرجال وإن زخرفوه لك بالقول.

وقال محمد بن عبد الرحمن الأدرمي لرجل تكلم ببدعة ودعا الناس إليها: هل علمها رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي أو لم يعلموها؟ قال لم يعلموها.

قال: فشيء لم يعلمه هؤلاء علمته؟ قال الرجل: فإني أقول قد علموها. قال: فوسعهم أن لا يتكلموا به ولا يدعوا الناس إليه أم لم يسعهم؟ قال بلىٰ وسعهم. قال: فشيء وسع رسول الله ﷺ وخلفاءه لا يسعك أنت؟ فانقطع الرجل. فقال الخليفة: ـ وكان حاضراً ـ لا وسع الله علىٰ من لم يسعه ما وسعهم.

س ـ ما هو الإلحاد في أسماء الله وصفاته؟

ج ـ هو الميل والعدول بها وبحقائقها ومعانيها عن الحق الثابت لها إلى الإشراك والتعطيل والكفر.

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ:

أسماؤه أوصاف مدح كلها ... مشتقة قد حملت لمعان

إياك والإلحاد فيها إنه ... كفر معاذ الله من كفران

وحقيقة الإلحاد فيها الميل بال ... إشراك والتعطيل والكفران

س ـ ما هي أقسام الإلحاد في أسماء الله وصفاته؟

ج ـ خمسة أقسام:

أولاً: تسميته بما لا يليق بجلاله وعظمته كتسمية النصارى له أبا، والفلاسفة موجبًا بذاته، أو علة فاعلة بالطبع، ونحو ذلك.

ثانيًا: أن يُسمى بها بعض المخلوقات كتسميتهم اللات من الإله، واشتقاقهم العزى من العزيز.

ثالثًا: وصفه بما يتقدس عنه كقول اليهود ـ قبحهم الله ـ: إن الله فقيرٌ، وقولهم: يد الله مغلولة، ونحو ذلك.

رابعًا: تعطيل الأسماء عن معانيها، وجحد حقائقها كقول من يقول: إنها ألفاظ مجردة لا تتضمن صفات، ولا معان.

خامسًا: تشبيه صفاته بصفات خلقه، تعالى الله عن قولهم علوًا كبيرًا.

س ـ ما معنى قول المصنِّف، لأنه لا سمي له ولا كفو له ولا ند له؟

ج ـ المعنى: ليس له مثيلاً، ولا شبيهًا، ولا موصوفًا، يستحق اسمه وصفته على التحقيق فهو سبحانه المتفضل بجليل النعم وحقيرها. وهو المستحق للعبادة والتعظيم الذي يجب الاعتراف بربوبيته والخضوع لسلطانه، وليس المعنى أنه لا يوجد من يتسمى باسمه لأن بعض أسمائه قد يطلق على غيره، ومعنى «الكفو» المكافىء المساوي، وأما «الند» فمعناه المساوي المثيل.

س ـ كيف استنتج المتأولون لآيات الصفات وأحاديثها نفي الصفات وما هي أدلتهم وكيف ترد عليهم وبم تصف عملهم؟

ج ـ كيفية استنتاجهم أنه لو كان له صفة مثل السمع والبصر واليد والوجه ونحو

ذلك لكان له مثيل من عباده ودليلهم قوله تعالىٰ: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾[مريم: ٦٥] وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤] والجواب أن يقال لا يلزم من إثبات الصفات لله أن يكون له مثيل أو سمي أو شبيه لأنه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير فلله ذات لا تشبهها الذوات وكذلك صفاته لا تشبهها الصفات فالكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات فهو لا سميَّ له ولا كفو له ولا ند، ويوصف عملهم هذا بالألغاز والتدليس الذي هو خلاف اللسان العربي المبين.

س ـ هل يجوز استعمال شيء من الأقيسة في جانب الله عز وجل؟

ج ـ لا يجوز أن يشرك هو والمخلوق في قياس تمثيل، ولا قياس شمول تستوي أفراده. ولكن يستعمل في حقه تعالىٰ المثل الأعلىٰ وهو أن كل ما اتصف به المخلوق من كمال فالخالق أولىٰ به، وكل ما ينزه عنه المخلوق من نقص فالخالق أولىٰ بالتنزه عنه، قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧].

س ـ ما الذي تعرفه عن معنى قول المصنف: فإنه أعلم بنفسه؟

ج ـ هذا تعليل لصحة مذهب السلف في الإيمان بجميع الصفات الواردة في الكتاب والسنة، ووجه ذلك: أنه إذا كان أعلم بنفسه وبغيره وأصدق قيلاً وأحسن حديثًا ثم رسله صادقون مصدقون، بخلاف الذين يقولون ما لا يعلمون، فإذًا يجب الرجوع في باب الأسماء والصفات نفيًا وإثباتًا إلىٰ ما قاله الله تعالىٰ وقاله رسوله ﷺ الذي هو أعلم خلقه به، وأن لا يترك ذلك إلىٰ قول من يفترون علىٰ الله الكذب ويقولون عليه ما لا يعلمون.

س ـ ما الذي يبين ذلك تبيانًا واضحًا كافيًا شافيًا؟

ج ـ هو أن الكلام إنما تقصر دلالته علىٰ المعاني المرادة منه لأحد ثلاثة أسباب: إما لجهل المتكلم وعدم علمه بما يتكلم به، وإما لعدم فصاحته وقدرته علىٰ البيان، وإما لكذبه وغشه وتدليسه. ونصوص الكتاب والسنة بريئة من هذه الأمور من كل وجه: فكلام الله وكلام رسوله في غاية الوضوح والبيان كما أنه المثل الأعلىٰ في الصدق والمطابقة للواقع.

س ـ لأي شيء ساق المصنف قول الله تعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يصفون﴾ [الصافات: ١٨٠] الآية؟ وبين مفرداتها؟

ج ـ ساقها المصنف في هذا المقام بقوله ولهذا... إلخ تعليل لما تقدم من كون

كلام الله وكلام رسوله أكمل صدقًا وأتم بيانًا ونصحًا وأبعد عن العيوب والآفات من كلام كل أحد وأما مفرداتها فإليك المفردات: «سبحان» اسم مصدر من التسبيح الذي هو التنزيه والإبعاد من السوء، «العزة» القوة والغلبة والامتناع، «الرب» السيد المربي جميع العالمين بأصناف النعم، قال بعضهم:

رب يربي العالمين ببره ... ونواله أبدًا إليهم واصل

«السلام»: بمعنى التحية والسلامة من النقائص والرذائل.

«المرسلين»: جمع رسول وهو من بعث برسالة، واصطلاحًا: إنسان ذكر أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه، «الحمد»: لغة المدح على فعل حسن صدر عن فاعله باختياره سواء أسداه إلى الحامد أو إلى غيره.

س ـ بين معنى هذه الآية الكريمة؟

ج ـ المعنى في هذه الآية أدب رباني وختام إلهي لتلك السورة التي نفت عن الله تعالى الصاحبة والزوجة والشريك والولد والقرين حتى يتأدب المسلمون بهذا ولا يخلوا به في ختام جلائل أعمالهم، فنزه نفسه عما وصفه به المخالفون للرسل مما لا يليق بجنابه الشريف ثم سلم على المرسلين لسلامة ما قالوه من النقص والعيب.

وفيه إشارة إلى أنه كما يجب تنزيه الله عز وجل وإبعاده عن كل شائبة عيب ونقص فيجب اعتقاد سلامة الرسل في أقوالهم وأفعالهم عن كل عيب كذلك، فلا يكذبون على الله ولا يشركون ولا يغشون أممهم ولا يقولون على الله إلا الحق، عليهم الصلاة والسلام.

س ـ ما الذي يؤخذ من هذه الآية الكريمة؟

ج ـ يؤخذ منها:

أولاً: تنزيه الله وتقديسه وتبرأته عمًّا يقوله الظالمون.

ثانيًا: صحة ما جاء به المرسلون وأنه الحق الذي لا مرية فيه. وأنه يجب اتباعهم فيما جاءوا به من عند الله.

ثالثًا: إثبات صفة الربوبية.

رابعًا: إثبات صفة العزة بأنواعها الثلاثة.

خامسًا: إثبات صفة الكلام والرد على المخالفين.

سادسًا: إرشاد عباده إلى حمده على إرسال رسله إليهم مبشرين ومنذرين.

سابعًا: تعليم العباد كيف يصنعون عند إنعامه عليهم وما يثنون عليه به .

ثامنًا: إثبات الحمد لله .

تاسعًا: إثبات الألوهية .

عاشرًا: الرد على المشبِّهة .

الحادي عشر: الرد على المعطلة .

الثاني عشر: الرد على من قال: إن القرآن كلام محمد ﷺ لأنه المخاطب .

الثالث عشر: الرد على النصارى .

الرابع عشر: الرد على اليهود .

الخامس عشر: الرد على المشركين .

س ـ لم جُمع في هذه الآية بين «التسبيح» و «الحمد»؟

ج ـ الذي يظهر ـ والله أعلم ـ أنه كما قال بعض المفسرين أنه لما كان «التسبيح» يتضمن التنزيه من النقص والتبرئة منه بدلالة المطابقة ويستلزم الكمال كما أن «الحمد» يدل على إثبات صفات الكمال بالمطابقة ويستلزم التنزيه من النقص قُرن بينهما في هذا الموضع .

س ـ لم كانت هذه الآية تتضمن أنواع التوحيد الثلاثة؟

ج ـ ذكر الإمام المحقق ابن القيم: أن «الحمد» يتضمن إثبات أنواع التوحيد الثلاثة: فإن «الحمد» مدح المحمود بصفات كماله ونعوت جلاله مع محبته والرضا عنه والخضوع .

ومن المعلوم أن فاقد الصفات الكاملة لا يكون إلهًا ولا مدبرًا بل هو مذموم معيب ليس له الحمد وإنما الحمد لمن له الكمال ونعوت الجلال التي لأجلها استحق الحمد .

س ـ ما هي طريقة أهل السنة والجماعة في النفي والإثبات الواردين في الكتاب والسنة؟

ج ـ طريقتهم أنهم ينفون نفيًا إجماليًّا غالبًا على حد قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] ويثبتون إثباتًا مفصلاً على حد قوله تعالى ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ فيثبتون لله كل ما أثبته لنفسه أو أثبته له رسوله ﷺ من جميع الأسماء والصفات على الوجه اللائق بجلاله وعظمته .

قال الشيخ: والله سبحانه بعث الرسل بما يقتضي الكمال من إثبات أسمائه وصفاته على وجه التفصيل والنفي على طريق الإجمال للنقص والتمثيل فالرب تعالى موصوف بصفات الكمال التي لا غاية فوقها منزه عن النقص بكل وجه ممتنع أن يكون له مثل في شيء من صفات الكمال فأما صفات النقص فهو منزه عنها مطلقًا.

وأما صفات الكمال فلا يماثله بل ولا يقاربه فيها شيء من الأشياء والتنزيه يجمعه نوعان: نفي النقص ونفي مماثلة غيره له في صفات الكمال كما يدل على ذلك النصوص والعقل.

وقال ـ رحمه الله ـ: وأما المخالفون للرسل من المشركين والصابئة ومن تبعهم من الجهمية والفلاسفة والمعتزلة ونحوهم فطريقتهم نفي مفصل وإثبات مجمل ينفون صفات الكمال ويثبتون ما لا يوجد إلا في الخيال فيقولون ليس بكذا ولا بكذا إلى آخر ما يقولون. اهـ.

س ـ هل في النفي مدح؟

ج ـ النفي المحض ليس فيه مدح ولا كمال إلا إذا تضمن إثباتًا فكل ما نفى الله عن نفسه من النقائص ومشاركة أحد من خلقه في شيء من خصائصه فإنها تدل على أضدادها من أنواع الكمال.

س ـ أوجد مثالاً يوضح ذلك؟

ج ـ نفي الشريك والند والنظير لإثبات كمال عظمته، ونفي الصاحبة والولد والظهير يتضمن كمال ربوبيته وقهره، ونفي العجز لكمال قدرته، ونفي الجهل والنسيان وعزوب شيء عن علمه يتضمن كمال علمه وإحاطته، ونفي الظلم لإثبات عدله، ونفي السِّنة والنوم لإثبات كمال حياته وقيوميته، ونفي المثل لكمال ذاته وصفاته.

* * *

[الصراط المستقيم]

فَلاَ عُدُولَ لأَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ عَمَّا جَاءَ بِهِ المُرْسَلُونَ.

فَإِنَّهُ الصِّـرَاطُ المُستَقِـيمُ، صِرَاطُ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْـهِم مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ، وَالشُّهَدَاءِ، وَالصَّالِحِينَ.

• الشَّرح •

● قال العلامة ناصر السعدي:

فأهل السُّنَّة والجماعة لَزِمُوا هذا الطَّريق الذي هو الصِّراط المستقيم، صِراط الذين أنعم الله عليهم، وبِلُزُومهم لهذا الطَّريق النَّافع تمَّت عليهم النِّعمة وصحَّت عقائدهم، وكَمُلَت أخلاقهم.

أما من سَلَك غير هذا السَّبيل، فإنَّه مُنحَرِفٌ في عقيدته وأخلاقه وآدابه.

● قال الشيخ محمد خليل هراس:

قوله: «فلا عدول... إلخ»: هذا مترتب على ما تقدم من بيان أن ما جاء به الرسل عليهم الصلاة والسلام هو الحق الذي يجب اتباعه ولا يصح العدول عنه، وقد علل ذلك بأنه الصراط المستقيم، يعني الطريق السوي القاصد الذي لا عوج فيه ولا انحراف.

والصراط المستقيم: لا يكون إلا واحداً؛ من زاغ عنه أو انحرف وقع في طريق من طرق الضلال والجور كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ والصراط المستقيم هو طريق الأمة الوسط الواقع بين طرفي الإفراط والتفريط ولهذا أمرنا الله عزو جل وعلمنا أن نسأله أن يهدينا هذا الصراط

المستقيم في كل ركعة من الصلاة، أي يلهمنا ويوفقنا لسلوكه واتباعه فإنه صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ﴿وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾.

● الشيخ محمد صالح العثيمين:

قوله: «فلا عدول لأهل السنة والجماعة عما جاء به المرسلون؛ فإنه الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين».

قوله: «فلا عدول لأهل السنة والجماعة عما جاء به المرسلون»: العدول: معناه الانصراف والانحراف؛ فأهل السنة والجماعة لا يمكن أن يعدلوا عما جاءت به الرسل.

وإنما جاء المؤلف - رحمه الله - بهذا النفي؛ ليبين أنهم لكمال اتباعهم رضي الله عنهم لا يمكن أن يعدلوا عما جاءت به الرسل؛ فهم مستمسكون تمامًا، وغير منحرفين إطلاقًا، عما جاءت به الرسل، بل طريقتهم أنهم يقولون: سمعنا وأطعنا في الأحكام، وسمعنا وصدقنا في الأخبار.

وقوله: «عما جاء به المرسلون»: ما جاء به محمد عليه الصلاة والسلام واضح أننا لا نعدل عنه؛ لأنه خاتم النبيين، وواجب على جميع العباد أن يتبعوه، لكن ما جاء عن غيره؛ هل لأهل السنة والجماعة عدول عنه؟ لا عدول لهم عنه؛ لأن ما جاء عن الرسل عليهم الصلاة والسلام في باب الأخبار لا يختلف؛ لأنهم صادقون، ولا يمكن أن يُنسخ؛ لأنه خبر؛ فكل ما أخبرت به الرسل عن الله عز وجل؛ فهو مقبول وصدق ويجب الإيمان به.

مثلا: قال موسى عليه السلام لفرعون لما قال له: ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَى * قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنسَى﴾ [طه: ٥١، ٥٢]؛ فنفى عن الله الجهل والنسيان؛ فنحن يجب علينا أن نصدق بذلك؛ لأنه جاء به رسول من الله. ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى * قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٤٩، ٥٠]؛ فلو سألنا سائل: من أين علمنا أن الله أعطى كل شيء خلقه؟ فنقول: من كلام موسى، فنؤمن بذلك، ونقول: أعطى كل شيء خلقه اللائق به؛ فالإنسان على هذا

الوجه والبعير على هذا الوجه والبقرة على هذا الوجه والضأن على هذا الوجه، ثم هدى كل مخلوق إلى مصالحه ومنافعه؛ فكل شيء يعرف مصالحه ومنافعه؛ فالنملة في أيام الصيف تدخر قوتها في جحورها، ولكن لا تدخر الحب كما هو، بل تقطم رؤوسه؛ لئلا ينبت؛ لأنه لو نبت؛ لفسد عليها، وإذا جاء المطر وابتل هذا الحب الذي وضعته في الجحور؛ فإنها لا تبقيه يأكله العفن والرائحة، بل تنشره خارج جحرها، حتى ييبس من الشمس والريح، ثم تدخله!.

لكن يجب التنبيه إلى أن ما نُسبَ للأنبياء السابقين يُحتاج فيه إلى صحة النقل؛ لاحتمال أن يكون كذبًا؛ كالذي نسب إلى رسول الله ﷺ أولى.

وقوله ـ رحمه الله ـ: **«عما جاء به المرسلون»**: هل يشمل هذا الأحكام أو أن الكلام الآن في باب الصفات؛ فيختص بالأخبار؟.

إن نظرنا إلى عموم اللفظ؛ قلنا: يشمل الأخبار والأحكام. وإن نظرنا إلى السياق؛ قلنا: القرينة تقتضي أن الكلام في باب العقائد، وهي من باب الأخبار.

ولكن نقول: إن كان كلام شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ خاصًا بالعقائد؛ فهو خاص، وليس لنا فيه كلام. وإن كان عامًا؛ فهو يشمل الأحكام.

والأحكام التي للرسل السابقين اختلف فيها العلماء: هل هي أحكام لنا إذا لم يرد شرعنا بخلافها، أو ليست أحكامًا لنا؟.

والصحيح أنها أحكام لنا، وأن ما ثبت عن الأنبياء السابقين من الأحكام؛ فهو لنا؛ إلا إذا ورد شرعنا بخلافه، فإذا ورد شرعنا بخلافه؛ فهو على خلافه؛ فمثلا: السجود عند التحية جائز في شريعة يوسف ويعقوب وبنيه، لكن في شريعتنا محرم، كذلك الإبل حرام على اليهود: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ﴾ [الأنعام: ١٤٦]، ولكن هي في شريعتنا حلال.

فإذًا؛ يمكن أن نحمل كلام شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ على أنه عام في الأخبار والأحكام، وأن نقول: ما كان في شرع الأنبياء من الأحكام؛ فهو لنا؛ إلا بدليل.

ولكن يبقى النظر: كيف نعرف أن هذا من شريعة الأنبياء السابقين؟

نقول: لنا في ذلك طريقان:

الطريق الأول: الكتاب.

والطريق الثاني: السنة.

فما حكاه الله في كتابه عن الأمم السابقين؛ فهو ثابت، وما حكاه النبي ﷺ فيما صح عنه؛ فهو أيضاً ثابت.

والباقي لا نصدق ولا نكذب؛ إلا إذا ورد شرعنا بتصديق ما نقل أهل الكتاب؛ فإننا نصدقه، لا لنقلهم، ولكن لما جاء في شريعتنا. وإذا ورد شرعنا بتكذيب أهل الكتاب؛ فإننا نكذبه؛ لأن شرعنا كذبه. فالنصارى يزعمون بأن المسيح ابن الله؛ فنقول: هذا كذب، واليهود يقولون: عزير ابن الله؛ فنقول: هذا كذب.

قوله ـ رحمه الله تعالى ـ: «فإنه الصراط المستقيم»: (فإنه): الضمير يعود على ما جاءت به الرسل، ويمكن أن يعود على طريق أهل السنة والجماعة، وهو الاتباع وعدم العدول عنه؛ فما جاءت به الرسل، وما ذهب إليه أهل السنة والجماعة: هو الصراط المستقيم.

(صراط): على وزن فعال، بمعنى: مصروط، مثل: فراش؛ بمعنى: مفروش، وغراس؛ بمعنى: مغروس، فهو بمعنى اسم المفعول. والصراط إنما يقال للطريق الواسع المستقيم، مأخوذ من الزرط ـ وهو بلع اللقمة بسرعة ـ لأن الطريق إذا كان واسعاً؛ لا يكون فيه ضيق يتعثر الناس فيه؛ فالصراط يقولون في تعريفه: كل طريق واسع ليس فيه صعود ولا نزول ولا اعوجاج.

إذاً؛ الطريق الذي جاءت به الرسل هو الصراط المستقيم الذي ليس فيه عوج ولا أمت، طريق مستقيم ليس فيه انحراف يميناً ولا شمالا: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وعليه؛ فيكون المستقيم صفة كاشفة على تفسيرنا الصراط بأنه الطريق الواسع الذي لا اعوجاج فيه؛ لأن هذا هو المستقيم، أو يقال: إنها صفة مقيدة؛ لأن بعض الصراط قد يكون غير مستقيم كما قال تعالى: ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ * وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ [الصافات: ٢٣، ٢٤]، وهذا الصراط غير مستقيم.

قوله: «صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين»: (صراط الذين أنعم الله عليهم)؛ أي: طريقهم، وأضافه إليهم لأنهم

سالكوه؛ فهم الذين يمشون فيه؛ كما أضافه الله إلى نفسه أحيانًا: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥٢، ٥٣]؛ باعتبار أنه هو الذي شرعه ووضعه لعباده، وأنه موصل إليه؛ فهو صراط الله تعالى باعتبارين، وصراط المؤمنين باعتبار واحد؛ صراط الله باعتبارين هما: أنه وضعه لعباده، وأنه موصل إليه. وصراط المؤمنين؛ لأنهم هم الذين يسلكونه وحدهم.

وقوله: «الذين أنعم الله عليهم»: النعمة: كل فضل وإحسان من الله عز وجل على عباده؛ فهو نعمة، وكل ما بنا من نعمة؛ فهو من الله، ونعم الله قسمان: عامة وخاصة، والخاصة أيضًا قسمان: خاصة أخص، وخاصة أعم.

فالعامة: هي التي تكون للمؤمنين وغير المؤمنين.

ولهذا؛ لو سألنا سائل: هل لله على الكافر نعمة؟.

قلنا: نعم؛ لكنها نعمة عامة، وهي نعمة ما تقوم به الأبدان، لا ما تصلح به الأديان، مثل الطعام والشراب والكسوة والمسكن وما أشبه ذلك؛ فهذه يدخل فيها المؤمن والكافر.

والنعمة الخاصة: ما تصلح به الأديان من الإيمان والعلم والعمل الصالح؛ فهذه خاصة بالمؤمنين، وهي عامة للنبيين والصديقين؛ كالشهداء والصالحين.

ولكن نعمة الله على النبيين والرسل نعمة هي أخص النعم، واستمع إلى قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣]؛ فهذه النعمة التي هي أخص لا يلحق المؤمنون فيها النبيين، بل هم دونهم.

وقوله: «صراط الذين أنعم الله عليهم»: هي كقوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧] فمن هم الذين أنعم الله عليهم فسرها تعالى بقوله: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ [النساء: ٦٩]؛ فهؤلاء أربعة أصناف:

أولا: النبيون: وهم كل من أوحىٰ الله إليهم ونبأهم، فهو داخل في هذه الآية، فيشمل الرسل، لأن كل رسول نبي، وليس كل نبي رسولا، وعلىٰ هذا، فيكون (النبيون) شاملا للرسل أولي العزم وغيرهم، وشاملا أيضًا للنبيين الذين لم يرسلوا، وهؤلاء علىٰ أصناف الخلق.

ثانيًا: الصديقون: جمع صديق، علىٰ وزن فعيل، صيغة مبالغة.

فمن هو الصديق؟

أحسن ما يفسر به الصديق قوله تعالىٰ: ﴿ **وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ** ﴾ [الزمر: ٣٣]، وقال تعالىٰ: ﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ** ﴾ [الحديد: ١٩]؛ فمن حقق الإيمان - ولا يتم تحقيق الإيمان إلا بالصدق والتصديق - فهو صدّيق:

الصدق في العقيدة: بالإخلاص، وهو أصعب ما يكون علىٰ المرء، حتىٰ قال بعض السلف - رحمه الله -: ما جاهدت نفسي علىٰ شيء مجاهدتها علىٰ الإخلاص؛ فلابد من الصدق في المقصد - وهو العقيدة - والإخلاص لله عز وجل.

الصدق في المقال: لا يقول إلا ما طابق الواقع؛ سواء علىٰ نفسه أو علىٰ غيره؛ فهو قائم بالقسط علىٰ نفسه وعلىٰ غيره؛ أبيه وأمه، وأخيه وأخته... وغيرهم.

الصدق في الفعال: وهي أن تكون أفعاله مطابقة لما جاء به النبي ﷺ، ومن صدق الفعال أن تكون نابعة عن إخلاص؛ فإن لم تكن نابعة عن إخلاص؛ لم تكن صادقة؛ لأن فعله يخالف قوله.

فالصديق إذًا: من صدق في معتقده وإخلاصه وإرادته وفي مقاله وفي فعاله.

وأفضل الصديقين علىٰ الإطلاق أبو بكر رضي الله عنه؛ لأن أفضل الأمم هذه الأمة، وأفضل هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر رضي الله عنه.

والصديقية مرتبة تكون للرجال والنساء؛ قال الله تعالىٰ في عيسىٰ ابن مريم عليه السلام: ﴿ **وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ** ﴾ [المائدة: ٧٥]، ويقال: الصديقة بنت الصديق عائشة رضي الله عنها، والله تعالىٰ يمن علىٰ من يشاء من عباده.

أما الشهداء؛ فقيل: هم الذين قتلوا في سبيل الله؛ لقوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء﴾ [آل عمران: ١٤٠]، وقيل: العلماء؛ لقوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ١٨]، فجعل أهل العلم شاهدين بما شهد الله لنفسه، ولأن العلماء يشهدون للرسل بالبلاغ وعلى الأمة بالتبليغ، ولو قال قائل: الآية عامة لمن قتلوا في سبيل الله تعالى وللعلماء؛ لأن اللفظ صالح للوجهين، ولا يتنافيان؛ فيكون شاملا للذين قتلوا في سبيل الله وللعلماء الذين شهدوا لله بالوحدانية وشهدوا للنبي ﷺ بالبلاغ وشهدوا على الأمة بأنها بلغت.

أما الصالحون؛ فإنه يشمل كل الأنواع الثلاثة السابقة ومن دونهم في المرتبة؛ فالأنبياء صالحون، والصديقون صالحون، والشهداء صالحون؛ فعطفها من باب عطف العام على الخاص.

والصالحون هم الذين قاموا بحق الله وحق عباده، لكن لا على المرتبة السابقة - النبوة والصديقية والشهادة - فهم دونهم في المرتبة.

هذا الصراط الذي جاءت به الرسل هو صراط هؤلاء الأصناف الأربعة؛ فغيرهم لا يمشون على ما جاءت به الرسل.

● الشيخ صالح الفوزان:

وقوله: «**فلا عدول لأهل السنة والجماعة عما جاء به المرسلون**» أي: لا ميل لهم، ولا انحراف عن ذلك، بل هم مقتفون آثارهم، مستضيئون بأنوارهم، ومن ذلك إثبات صفات الكمال لله وتنزيهه عما لا يليق به، فإن الرسل قد قرروا ذلك الأصل العظيم. وأما أعداء الرسل فإنهم قد عدلوا عن ذلك.

وقوله: «فإنه الصراط المستقيم» تعليل لقوله: (**فلا عدول لأهل السنة**) أي: لأن ما جاء به المرسلون هو الصراط المستقيم، والصراط المستقيم: هو الطريق المعتدل الذي لا تعدد فيه ولا انقسام، وهو المذكور في قوله تعالى من سورة الفاتحة: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، وقوله في الآية (١٥٣) من «سورة الأنعام»: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ

﴿ولا تتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾، وهو الذي ندعو الله في كل ركعة من صلواتنا أن يهدينا إليه.

أي: أن الصراط المستقيم الذي جاء به المرسلون في الاعتقاد وغيره وسلكه أهل السنة والجماعة هو:

(صراط الذين أنعم الله عليهم) أي: أنعم الله عليهم الإنعام المطلق التام المتصل بسعادة الأبد، وهم الذين أمرنا الله أن ندعوه أن يهدينا طريقهم. فهؤلاء الأصناف الأربعة هم أهل هذه النعمة المطلقة وهم:

١ ـ النبيون: جمع نبي، وهم الذين اختصهم الله بنبوته ورسالته وتقدم تعريفهم.

٢ ـ الصديقون: جمع صدّيق، وهو المبالغ في الصدق والتصديق، أي: المبالغ في الانقياد للرسول ﷺ مع كمال الإخلاص لله.

٣ ـ الشهداء: جمع شهيد، وهو المقتول في سبيل الله، سمي بذلك؛ لأنه مشهود له بالجنة، ولأن ملائكة الرحمة تشهده.

٤ ـ الصالحون: جمع صالح، وهو القائم بحقوق الله وحقوق عباده.

والصراط تارة يضاف إلى الله تعالى، كقوله تعالى في الآية (١٥٣) من سورة الأنعام: ﴿وأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾؛ لأنه هو الذي شرعه ونصبه، وتارة يضاف إلى العباد، كما في قوله تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾؛ لكونهم سلكوه. وفي قوله ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ تنبيه على الرفيق في هذا الطريق، وأنهم هم الذين أنعم الله عليهم من النبيين، والصديقين، والشهداء، والصالحين؛ ليزول عن سالك هذا الطريق وحشة التفرد عن أهل زمانه إذا استشعر أن رفقته على هذا الصراط: الأنبياء، والصديقون، والشهداء، والصالحون.

ثم أورد الشيخ رحمه الله فيما يلي: نماذج من الكتاب والسنة تشتمل على إثبات أسماء الله وصفاته، وفيما يلي إيراد ذلك.

* * *

[أسئلة وأجوبة نموذجية على الصراط المستقيم]

س ـ ما الذي جاء به المرسلون عليهم الصلاة والسلام؟

ج ـ جاءوا بالحق الثابت الذي يجب اتباعه ولا يصح العدول عنه، فإنه الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا.

س ـ ما هي أقوال المفسرين في الصراط المستقيم؟

ج ـ قيل: إنه القرآن، وقيل: إنه الرسول ﷺ وصاحباه من بعده، وقيل: الإسلام.

قال ابن القيم: والقول الجامع في تفسير الصراط المستقيم أنه الطريق الذي نصبه الله لعباده على ألسنة رسله وجعله موصلاً لعباده إليه ولا طريق لهم سواه.

وهو إفراده بالعبودية وإفراد رسله بالطاعة وهو مضمون شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، ونكتة ذلك وعقده، أن تحبه بقلبك كله، وترضيه بجهدك فلا يكون في قلبك موضع إلا معمور بحبه. ولا تكون إرادة إلا متعلقة بمرضاته وهذا هو الهدى ودين الحق وهو معرفة الحق والعمل به، وهو معرفة ما بعث الله به رسله والقيام به فقل ما شئت من العبارات التي هذا أحسنها.

س ـ لِمَ يضاف الصراط تارةً إلى الله وتارة إلى العباد؟

ج ـ أما إضافته إلى الله فلأنه شرعه ونصبه، وأما إضافته إلى العباد فلأنهم أهل سلوكه.

س ـ لِمَ يذكر الصراط مفرداً معرفًا باللام تارة وبالإضافة تارة؟

ج ـ لأن الحق واحد وهو صراط الله المستقيم الذي لا صراط يوصل إليه سواه وهو عبادة الله بما شرع على لسان رسوله ﷺ، وهذا بخلاف طرق الضلال فإنها

متعددة متشعبة، ولهذا يجمعها كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣] ولإفادة تعيينه واختصاصه.

س ـ بين ما تعرفه عن معنى قوله: صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا؟

ج ـ فيها تنبيه على الرفيق في هذا الطريق وأنهم الذين أنعم الله عليهم... إلخ. ليزول عن سالك هذا الطريق الوحشة في التفرد عن أهل زمانه وبني جنسه إذا استشعر أن رفيقه في هذا الطريق النبيون والشهداء والصالحون والمعنى كما تقدم أن ما جاء به المرسلون هو الصراط المستقيم الموصل إلى السعادة الأبدية وهو الذي لا طريق إلى الله ولا إلى جنته غيره والمستقيم المعتدل الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ الآية.

س ـ ماذا يفيد قول المصنف وقد دخل في هذه الجملة ما وصف به نفسه في سورة الإخلاص، ولماذا كانت سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن؟

ج ـ هذا شروع في إيراد النصوص من الكتاب والسنة المتضمنة لما يجب الإيمان به من الأسماء والصفات في النفي والإثبات وأما كون سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن فلأن القرآن الكريم اشتمل على ثلاثة مقاصد أساسية:

أولاً: الأوامر والنواهي المتضمنه للأحكام والشرائع التي هي موضوع علم الفقه والأخلاق.

ثانيًا: القصص والأخبار المتضمنة لأحوال الرسل مع أممهم وأنواع الهلاك التي حاقت بالمكذبين لهم وأحوال الوعد والوعيد وتفاصيل الثواب والعقاب.

ثالثًا: علم التوحيد وما يجب على العباد من معرفة الله بأسمائه وصفاته وهذا هو أشرف الثلاثة.

ولما كانت سورة الإخلاص قد تضمنت أصول هذا العلم واشتملت عليه إجمالاً صح أن يقال إنها تعدل ثلث القرآن.

قال شيخ الإسلام:

والعلم بالرحمن أول صاحب … وأهم فرض الله في مشروعه

وأخو الديانة طالب لمزيده … أبدًا ولما ينهه بقطوعه

والمرء فاقته إليه أشد من … فقر الغذاء لعلم حكم صنيعه

في كل وقت والطعام فإنما … يحتاجه في وقت شدة جوعه

وهو السبيل إلى المحاسن كلها … والصالحات فسوأة لمضيعه

* * *

[الإيمان بما وصف الله به نفسه في كتابه]

وَقَدْ دَخَلَ في هَذه الجُمْلَة:

مـا وَصَفَ اللَّهُ بِهِ نَفْسَـهُ في «سُـورَةِ الإخْلاصِ» التي تَعْـدِلُ ثُلُثَ القُرْآن.

حَيْثُ يَقولُ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١-٤].

وَما وَصَفَ بِه نَفْسَهُ في أَعْظَمِ آيَة في كـتابه. حَيْثُ يَقولُ: ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وَلِهذا كَـانَ مَنْ قَرَأَ هذه الآيَةَ في لَيْلَة؛ لَم يَزَلْ عَلَيْـهِ مِنَ اللَّهِ حافِظٌ وَلا يَقْرَبُهُ شَيطانٌ حَتَّى يُصْبِحَ.

• الشَّـرح •

• قال العلامة ناصر السعدي:

هذا شُروع في تفصيل النُّصوص الواردة في الكتاب والسُّنَّة الدَّاخلة في الإيمان بالله.

وأنَّه يجب فيها: إثباتها، ونفي «التَّعطيل» و« التحريف» و«التَّكييف» و»«التَّمثيل» عنها.

فثبت عنه ﷺ في «الصحيح» أن هذه السورة «تَعدِل ثُلُث القرآن».

وذلك كما قال أهل العلم: إن القرآن يحتوي علىٰ عُلُوم عظيمة كثيرة جدًّا وهي ترجع إلىٰ ثلاثة علوم:

أحدها: عُلُوم الأحكام والشَّرائع - الدَّاخلة فيها عُلُوم الفقه - كلها عباداته ومعاملاته، وتَوَابعهما.

الثاني: عُلُوم الجزاء علىٰ الأعمال والأسباب التي يُجَازي فيها العاملون من خيرٍ وشَرٍّ، وبيان تفصيل الثواب والعقاب.

الثالث: علوم التَّوحيد، وما يجب علىٰ العباد من معرفته الإيمان به، وهو أشرف العلوم الثلاثة.

و«سورة الإخلاص» كفيلة باشتمالها علىٰ أُصُول هذا العلم وقواعده.

فإن قوله: ﴿اللَّهُ أَحَدٌ﴾ أي: اللَّه متفرد بالعظمة والكمال، ومتوحد بالجلال والجمال والمجد والكبرياء.

يُحَقِّق ذلك قوله: ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ أي: اللَّه السَّيِّد العظيم الذي قد انتهىٰ في سُؤدده ومجده وكماله.

فهو العظيم الكامل في عظمته، العَلِيم الكامل في عِلِمه، الحليم الكامل في حِلِمه، فهو الكامل في جميع نُعُوته.

ومن مَعَانِىٰ «الصَّمد»: أنه الذي تَصمد إليه الخَلِيقة كلها، وتقصده في جميع حَاجَاتها ومُهَمَّاتها، فهو المقصود، وهو الكامل المعبود.

فإثبات الأحدية لله ومعاني الصَّمدية كلها يتضمَّن إثبات جميع تفاصيل الأسماء الحُسنىٰ والصِّفَات العُلَىٰ.

فهذا أحد نوعي التَّوحيد وهو الإثبات، وهو أعظم النوعين.

والنوع الثاني: التَّنزيه للَّه عن الولادة والند والكفو والمثل.

وهذا داخل في قوله تعالىٰ: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ أي: ليس

له مُكافئ ولا مُمَاثل ولا نَظِير.

فمتى اجتمع للعبد هذه المقامات المذكورة في هذه السُّورة بأن:

ـ نزّه اللَّه وقدَّسَهُ عن كل نَقص ونِدٍّ وكفو ومثيل.

ـ وشَهِدَ بقلبه تفرد الرَّب بالوحدانية والعظمة والكبرياء.

وجميع صفات الكمال التي ترجع إلى هذين الاسمين الكريمين؛ وهما «**الأحد الصمد**».

ثمَّ صَمَدَ إلى ربِّه وقصَدَهُ في عبوديته وحاجاته الظاهرة والباطنة.

متى كان كذلك تمّ له: التَّوحيد العِلمِي الاعتقادي، والتوحيد العَمَلي.

فَحُقَّ لسورة تشتمل عن هذه المعارف أن تَعدلَ ثُلُث القرآن.

وذلك لاشتمالها على أجل المعارف وأوسع الصِّفات.

فأخبر: أنه المُتَوَحِّد في الألوهية المستحق لإخلاص العبودية.

وأنه «**الحي**» الكامل ـ كامل الحياة. وذلك يقتضي كمال عزته، وقدرته، وسَعَة علمه، وشُمول حكمته، وعموم رحمته، وغيرها من صفات الكمال الذاتية.

وأنه «**القيوم**» الذي قام بنفسه، واستغنى عن جميع المخلوقات وقام بالموجودات كلها، فخلقها، وأحكمها، ورزقها، ودبَّرها، وأمدَّها بكل ما تحتاج إليه.

وهذا الاسم يتضمَّن جميع الصِّفات الفعلية.

ولهذا وَرَدَ: «أنَّ الحيَّ القيُّوم، هما الاسم الأعظم، الذي إذا دُعِيَ اللَّه به أجَابَ، وإذا سُئِلَ به أعطَى».

لدلالة: «**الحي**» على الصِّفات الذاتية.

و «**القيوم**» على الصِّفات الفعلية.

والصِّفات كلها ترجع إليهما.

ومن كمال قيوميته وحياته: أنه لا تأخذه سِنَةٌ ـ وهي النعاس ـ ولا نوم.

* ثم ذَكَرَ عُمومَ ملكه للعالم العُلويِّ والسُّفلي.

ومن تمام مُلكِهِ: أن الشَّفاعة كلها للَّه، فلا يشفع عنده أحد إلاَّ بإذنِهِ.

ففيها: ذكر الشَّفاعة التي يجب إثباتها وهي التي تقع بإذنِهِ لمن ارتَضَى والشفاعة

المنفية التي يعتقدها المشركون ما كانت تُطلب من غير الله وبغير إذنه .

فمن كمال عظمة الله أنه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه ولا يأذن إلا فيمن رضي قَوله وعَمَلُه ، وبين أن المشركين لا تنفعهم شفاعة الشافعين .

* ثم ذكر سعة عِلمه فقال : ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ أي : عِلمُه مُحيط بالأمور الماضية والمستقبلة ، فلا يخفىٰ عليه منها شيء ، وأما الخلق فلا يحيطون بشيء من علم اللَّه ، لا قليل ولا كثير - إلاَّ بما شاء أن يعلِمهُمُ اللَّه علىٰ ألسِنَة رُسُله ، وبِطُرقٍ وأسبَاب مُتَنَوِّعةٍ .

﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ﴾ : قيل : إنه العرش ، وقيل : إنه غيره ، وأنه كرسي مُلكِه من عظمته وسعته أنه وَسِعَ السموات والأرض .

ومع ذلك فـ﴿ لا يَئُودُهُ ﴾ أي : لا يُثقِلُه ويُكرِثُهُ حفظهما - أي : حفظ العالم العُلويّ والسُفليّ - وذلك لكمال قُدرته وقُوّته .

وفيها : بيان لعظيم نعمة اللَّه علىٰ الخلق إذ خَلَقَ لهم السَّموات والأرضين وما فيهما وحَفِظَهما وأمسكهما عن الزَّوال والتَّزَلزُل ، وجعلهما علىٰ نظامٍ بديعٍ جامع للأحكام والمَنافع المُتعدِّدة التي لا تحصىٰ .

﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ ﴾ : الذي له العلو المُطلق من جميع الوجوه :

عُلُوِّ الذَّات: بكونه فوق جميع المخلوقات علىٰ العرش استوىٰ .

وعُلُوِّ القَدر: إذ كان له كُلُّ صفة كمال ، وله من تلك الصفة أعلاها وغايتها .

﴿ الْعَظِيمُ ﴾ : الذي له جميع أوصَاف العظمة والكبرياء ، وله العظمة والتعظيم الكامل في قلوب أنبيائه وملائكته وأصفيائه الذي لا أعظمَ منه ولا أجَلَّ ولاأكبر .

فَحَقِيقٌ بآية تحتوي عَلَىٰ هذه المعاني الجليلة أن تكون أعظم آيات القرآن وأن يكون لها من المَنع وحفظ قارئها من الشُّرور والشَّياطين ما ليس لغيرها .

● **الشيخ محمد خليل هراس:**

قوله: «وقد دخل... إلخ»: شروع في إيراد النصوص من الكتاب والسنة المتضمنة لما يجب الإيمان به من الأسماء والصفات في النفي والإثبات .

وابتدأ بتلك السورة العظيمة ؛ لأنها اشتملت من ذلك علىٰ ما لم يشتمل عليه

غيرها. ولهذا سميت سورة الإخلاص لتجريدها التوحيد من شوائب الشرك والوثنية.

روى الإمام أحمد في مسنده عن أبي بن كعب رضي الله عنه في سبب نزولها أن المشركين قالوا: يا محمد انسب لنا ربك، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ إلخ السورة.

وقد ثبت في الصحيح أنها تعدل ثلث القرآن. وقد اختلف العلماء في تأويل ذلك على أقوال أقربها: ما نقله شيخ الإسلام عن أبي العباس وحاصله أن القرآن الكريم اشتمل على ثلاثة مقاصد أساسية:

أولها: الأوامر والنواهي المتضمنة للأحكام والشرائع العملية التي هي موضوع علم الفقه والأخلاق.

ثانيها: القصص والأخبار المتضمنة لأحوال الرسل عليهم الصلاة والسلام مع أممهم، وأنواع الهلاك التي حاقت بالمكذبين لهم، وأحوال الوعد والوعيد وتفاصيل الثواب والعقاب.

ثالثها: علم التوحيد وما يجب على العباد من معرفة الله بأسمائه وصفاته وهذا هو أشرف الثلاثة.

ولما كانت سورة الإخلاص قد تضمنت أصول هذا العلم، واشتملت عليه إجمالاً صح أن يقال: إنها تعدل ثلث القرآن.

وأما كيف اشتملت هذه السورة على علوم التوحيد كلها وتضمنت الأصول التي هي مجامع التوحيد العلمي الاعتقادي فنقول:

إن قوله تعالى: ﴿الله أحد﴾: دلت على نفي الشريك من كل وجه في الذات وفي الصفات وفي الأفعال، كما دلت على تفرده سبحانه بالعظمة والكمال والمجد والجلال والكبرياء، ولهذا لا يطلق لفظ أحد في الإثبات إلا على الله عز وجل، وهو أبلغ من واحد.

وقوله: ﴿الله الصمد﴾: قد فسرها ابن عباس رضي الله عنه بقوله: السيد الذي

كمل في سؤدده، والشريف الذي كمل في شرفه، والعظيم الذي قد كمل في عظمته، والحليم الذي قد كمل في حلمه، والغني الذي قد كمل في غناه[1]، والجبار الذي قد كمل في جبروته، والعليم الذي قد كمل في علمه، والحكيم الذي قد كمل في حكمه، وهو الذي قد كمل في أنواع الشرف والسؤدد، وهو الله عز وجل هذه صفته لا تنبغي إلا له ليس له كفؤ وليس كمثله شيء.

وقد فسر الصمد أيضًا بأنه الذي لا جوف له وبأنه الذي تصمد إليه الخليقة كلها وتقصده في جميع حاجاتها ومهماتها.

فإثبات الأحدية لله تتضمن نفي المشاركة والمماثلة، وإثبات الصمدية بكل معانيها المتقدمة تتضمن إثبات جميع تفاصيل الأسماء الحسنى والصفات العلى، وهذا هو توحيد الإثبات.

وأما النوع الثاني: وهو توحيد التنزيه فيؤخذ من قوله تعالى: ﴿ **لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ** ﴾ كما يؤخذ إجمالاً من قوله: ﴿**اللَّهُ أَحَدٌ**﴾ أي: لم يتفرع عنه شيء ولم يتفرع هو عن شيء، وليس له مكافئ ولا مماثل ولا نظير.

فانظر كيف تضمنت هذه السورة توحيد الاعتقاد والمعرفة وما يجب إثباته للرب تعالى من الأحدية المنافية لمطلق المشاركة والصمدية المثبتة له جميع صفات الكمال الذي لا يلحقه نقص بوجه من الوجوه، ونفي الولد والوالد الذي هو من لوازم غناه وصمديته وأحديته، ثم نفي الكفء المتضمن لنفي التشبيه والتمثيل والنظير فحق لسورة تضمنت هذه المعارف كلها أن تعدل ثلث القرآن.

روى مسلم في صحيحه عن أبي بن كعب أن النبي ﷺ سأله: «**أي آية في كتاب الله أعظم؟**» قال الله ورسوله أعلم، فرددها مرارًا ثم قال أبي: آية الكرسي فوضع النبي يده على كتفه وقال: «**ليهنك هذا العلم أبا المنذر**»[2] ـ وفي رواية عند أحمد: «**والذي نفسي بيده إن لها لسانًا وشفتين تقدس الملك عند ساق العرش**»[3].

---

(١) انظر تفسير ابن جرير (١/ ٢٢١)، (٣/ ١٣، ٦٤).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٨١٠).

(٣) أخرجه مسلم (٥/ ١٤١)، وقال الهيثمي في «المجمع» (٦/ ٣٢١): رجاله رجال الصحيح.

ولا غرو فقد اشتملت هذه الآية العظيمة من أسماء الرب وصفاته على ما لم تشتمل عليه آية أخرى.

فقد أخبر الله فيها عن نفسه بأنه المتوحد في إلهيته الذي لا تنبغي العبادة بجميع أنواعها وسائر صورها إلا له.

ثم أردف قضية التوحيد بما يشهد لها من ذكر خصائصه وصفاته الكاملة، فذكر أنه الحي الذي له كمال الحياة؛ لأن حياته من لوازم ذاته فهي أزلية أبدية، وكمال حياته يستلزم ثبوت جميع صفات الكمال الذاتية له من العزة والقدرة والعلم والحكمة والسمع والبصر والإرادة والمشيئة وغيرها، إذ لا يتخلف شيء منها إلا لنقص في الحياة. فالكمال في الحياة يتبعه الكمال في سائر الصفات اللازمة للحي. ثم قرن ذلك باسمه القيوم ومعناه الذي قام بنفسه واستغنى عن جميع خلقه غنى مطلقًا لا تشوبه شائبة حاجة أصلاً؛ لأنه غني ذاتي، وبه قامت الموجودات كلها، فهي فقيرة إليه فقراً ذاتيًا بحيث لا تستغني عنه لحظة، فهو الذي ابتدأ إيجادها على هذا النحو من الإحكام والإتقان وهو الذي يدبر أمورها ويمدها بكل ما تحتاج إليه في بقائها. وفي بلوغ الكمال الذي قدره لها، فهذا الاسم متضمن لجميع صفات الكمال الفعلية. كما أن اسمه الحي متضمن لجميع صفات الكمال الذاتية. ولهذا ورد أن الحي القيوم هما اسم الله الأعظم الذي إذا سئل به أعطى وإذا دعي به أجاب.

ثم أعقب ذلك بما يدل على كمال حياته وقيوميته فقال: «**لا تأخذه**»أي لا تغلبه «**سنة**» أي: نعاس ولا نوم، فإن ذلك ينافي القيومية، إذ النوم أخو الموت. ولهذا كان أهل الجنة لا ينامون، ثم ذكر عموم ملكه لجميع العوالم العلوية والسفلية، وأنها جميعًا تحت قهره وسلطانه فقال: «**له ما في السموات وما في الأرض**».

ثم أردف ذلك بما يدل على تمام ملكه، وهو أن الشفاعة كلها له فلا يشفع عنده أحد إلا بإذنه.

وقد تضمن هذا النفي والاستثناء أمرين؛ **أحدهما**: إثبات الشفاعة الصحيحة، وهي أنها تقع بإذنه سبحانه لمن يرضى قوله وعمله.

والثاني: إبطال الشفاعة الشركية التي كان يعتقدها المشركون لأصنامهم وهي أنها تشفع لهم بغير إذن الله ورضاه.

ثم ذكر سعة علمه وإحاطته وأنه لا يخفى عليه شيء من الأمور المستقبلة والماضية، وأما الخلق فإنهم لا يحيطون بشيء من علمه، قيل: يعني من معلومه، وقيل: من علم أسمائه وصفاته إلا بما شاء الله سبحانه أن يعلمهم إياه على ألسنة رسله أو بغير ذلك من طرق البحث والنظر والاستنتاج والتجربة.

ثم ذكر ما يدل على عظيم ملكه وواسع سلطانه، فأخبر أن كرسيه قد وسع السموات والأرض جميعًا. والصحيح في الكرسي أنه غير العرش وأنه موضع القدمين، وأنه في العرش كحلقة ملقاة في فلاة.

وأما ما أورده ابن كثير عن ابن عباس من تفسير الكرسي بالعلم فإنه لا يصح ويفضي إلى التكرار في الآية.

ثم أخبر سبحانه بعد ذلك عن عظيم قدرته وكمال قوته بقوله: ﴿**وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا**﴾ أي: السموات والأرض وما فيهما. وفسر الشيخ رحمه الله يئوده بـ(يثقله) ويكرثه من آده الأمر إذا ثقل عليه، ثم وصف نفسه سبحانه في ختام تلك الآية الكريمة، بهذين الوصفين الجليلين، وهما «**العلي والعظيم**».

«**فالعلي**»: هو الذي له العلو المطلق من جميع الوجوه، علو الذات: وكونه فوق جميع المخلوقات مستويًا على عرشه.

وعلو القدر: إذ كان له كل صفة كمال، وله من تلك الصفة أعلاها وغايتها.

وعلو القهر: إذ كان هو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير.

وأما «**العظيم**»: فمعناه الموصوف بالعظمة الذي لا شيء أعظم منه، ولا أجل ولا أكبر، وله سبحانه التعظيم الكامل في قلوب أنبيائه وملائكته وأصفيائه.

● **قال الشيخ عبد العزيز بن باز:**

وجه كون سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن: أن القرآن خبر وإنشاء، والخبر ينقسم في كلام الله إلى قسمين: خبر عن الله وعن أسمائه وصفاته، وخبر عن خلقه من الجنة والنار وأشراط الساعة، وجميع ما تضمنه الكتاب من وعد ووعيد ومما كان أو سيكون. وهذه الصورة تمحضت للخبر عن الله سبحانه، فكانت ثلث القرآن بهذا الاعتبار.

ولقد دلت هذه السورة على أصول عظيمة يُستفاد منها إثبات جميع صفات الكمال لله، ونفي جميع صفات النقائص والعيوب.

كما دلت على أنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الذات والصفات وذلك على سبيل المطابقة. وعلى توحيد الربوبية وذلك على طريق التضمن، وتوحيد العبادة بالالتزام.

إذ إن دلالة الشيء على كل معناه يسمى مطابقة، ودلالته على بعضه يسمى تضمنًا وعلى ما يلزم من جهة الخارج يسمى التزامًا.

● الشيخ محمد بن صالح العثيمين:

قوله: «وقد دخل في هذه الجملة ما وصف الله به نفسه في سورة الإخلاص، التي تعدل ثلث القرآن، حيث يقول: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١-٤]».

قوله: «دخل في هذه الجملة»: يحتمل أنه يريد بها قوله: «وهو قد جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين النفي والإثبات»، ويحتمل أن يريد ما سبق من أن أهل السنة والجماعة يصفون الله تعالى بما وصف به نفسه وما وصفه به رسوله، أيًّا كان؛ فإن هذه السورة وما بعدها داخلة في ضمن ما سبق؛ من أن الله تعالى جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين النفي والإثبات، وأن أهل السنة يؤمنون بذلك.

قوله: «في سورة الإخلاص»: (السورة): هي عبارة عن آيات من كتاب الله مسورة؛ أي: منفصلة عما قبلها وعما بعدها؛ كالبناء الذي أحاط به السور.

وقوله: «سورة الإخلاص»: إخلاص الشيء؛ بمعنى: تنقيته؛ يعني: التي نقيت ولم يشبها شيء، وسميت بذلك؛ قيل: لأنها تتضمن الإخلاص لله عز وجل، وأن من آمن بها؛ فهو مُخلص، فتكون بمعنى مخلصة لقارئها؛ أي: أن الإنسان إذا قرأها مؤمنًا بها؛ فقد أخلص لله عز وجل.

وقيل: لأنها مُخلصة - بفتح اللام - لأن الله تعالى أخلصها لنفسه، فلم يذكر فيها شيئًا من الأحكام ولا شيئًا من الأخبار عن غيره، بل هي أخبار خاصة بالله.

والوجهان صحيحان، ولا منافاة بينهما.

قوله: «التي تعدل ثلث القرآن»: الدليل قول النبي عليه الصلاة والسلام لأصحابه رضي الله عنهم: **«أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة؟»** قالوا: كيف يا رسول الله؟ قال: **«اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ، تعدل ثلث القرآن»**(١).

فهذه السورة تعدل ثلث القرآن في الجزاء لا في الإجزاء، وذلك كما ثبت عن النبي ﷺ أن: **«من قال: لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير؛ عشر مرات؛ فكأنما أعتق أربعة أنفس من بني إسماعيل»**(٢)؛ فهل يجزئ ذلك عن إعتاق أربع رقاب ممن وجب عليه ذلك، وقال هذا الذكر عشر مرات؟ فنقول لا يجزئ. أما في الجزاء فتعدل هذا، كما قال النبي عليه الصلاة والسلام؛ فلا يلزم من المعادلة في الجزاء المعادلة في الإجزاء. ولهذا؛ لو قرأ سورة الإخلاص في الصلاة ثلاث مرات؛ لم تجزئه عن قراءة الفاتحة.

قال العلماء: ووجه كونها تعدل ثلث القرآن: أن مباحث القرآن خبر عن الله، وخبر عن المخلوقات، وأحكام؛ فهذه ثلاثة:

١ـ خبر عن الله: قالوا: إن سورة: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾: تتضمنه.

٢ـ خبر عن المخلوقات؛ كالإخبار عن الأمم السابقة، والإخبار عن الحوادث الحاضرة، وعن الحوادث المستقبلة.

٣ـ والثالث: أحكام؛ مثل: أقيموا، آتوا، لا تشركوا... وما أشبه ذلك.

وهذا هو أحسن ما قيل في كونها تعدل ثلث القرآن.

قوله: «حيث يقول: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾».

﴿قُلْ﴾: الخطاب لكل من يصح خطابه.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥٠١٥) والنسائي في «الكبرى» (٩٩٥) وأبو داود (١٤٦١) من حديث أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٦٩٣) من حديث أبي أيوب الأنصاري ـ رضي الله عنه.
وأصل الحديث في البخاري (٦٤٠٤) من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

وسبب نزول هذه السورة: أن المشركين قالوا للرسول عليه الصلاة والسلام: صف لنا ربك؟ فأنزل الله هذه السورة[1].

وقيل: بل اليهود هم الذين زعموا أن الله خلق من كذا ومن كذا مما يقولون من المواد؛ فأنزل الله هذه السورة[2].

وسواء صح السبب أم لم يصح؛ فعلينا إذا سئلنا أي سؤال عن الله أن نقول: ﴿اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ﴾

قوله: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾: ﴿هُوَ﴾: ضمير، وأين مرجعه؟ قيل: إن مرجعه إلى المسئول عنه؛ كأنه يقول: الذي سألتم عنه الله

وقيل: هو ضمير الشأن، و﴿اللَّهُ﴾: مبتدأ ثان، و﴿أَحَدٌ﴾: خبر المبتدأ الثاني، وعلى الوجه الأول تكون ﴿هُوَ﴾: مبتدأ، ﴿اللَّهُ﴾: خبر المبتدأ، ﴿أَحَدٌ﴾: خبر ثان.

﴿اللَّهُ﴾: هو العلم على ذات الله، المختص بالله عز وجل، لا يتسمى به غيره، وكل ما يأتي بعده من أسماء الله؛ فهو تابع له؛ إلا نادراً.

ومعنى ﴿اللَّهُ﴾: الإله، وإله بمعنى مألوه؛ أي: معبود، لكن حذفت الهمزة تخفيفًا لكثرة الاستعمال؛ كما في (الناس)، وأصلها: الأناس، وكما في هذا خير من هذا، وأصله: أخير من هذا، لكن لكثرة الاستعمال حذفت الهمزة؛ فالله عز وجل ﴿أَحَدٌ﴾.

﴿أَحَدٌ﴾: لا تأتي إلا في النفي غالبًا، أو في الإثبات في أيام الأسبوع؛ يقال: الأحد، الإثنين... لكن تأتي في الإثبات موصوفًا بها الرب عز وجل؛ لأنه سبحانه وتعالى أحد؛ أي: متوحد فيما يختص به في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، ﴿أَحَدٌ﴾؛ لا ثاني له، ولا نظير له، ولا ند له.

قوله: «﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾»: هذه جملة مستأنفة، بعد أن ذكر الأحدية ذكر

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (٣٣٦٤) وأحمد في «مسنده» (٥/ ١١٣) من حديث أبي كعب ـ رضي الله عنه ـ بلفظ «انسب لنا ربك» والحديث صححه الشيخ الألباني في «صحيح الترمذي» (٢٦٨٠).

(٢) أخرجه أبو الشيخ في «العظمة» (٨٦).

الصمدية، وأتى بها بجملة معرفة في طرفيها؛ لإفادة الحصر، أي: الله وحده الصمد فما معنى الصمد؟

قيل: إن ﴿الصَّمَدُ﴾: هو الكامل؛ في علمه، في قدرته، في حكمته، في عزته، في سؤدده، في كل صفاته.

وقيل: ﴿الصَّمَدُ﴾: الذي لا جوف له؛ يعني: لا أمعاء ولا بطن، ولهذا قيل: الملائكة صمد؛ لأنهم ليس لهم أجواف؛ لا يأكلون ولا يشربون. هذا المعنى روى عن ابن عباس رضي الله عنهما، ولا ينافي المعنى الأول؛ لأنه يدل على غناه بنفسه عن جميع خلقه.

وقيل: ﴿الصَّمَدُ﴾: بمعنى: المفعول؛ أي: المصمود إليه؛ أي: الذي تصمد إليه؛ الخلائق في حوائجها؛ بمعنى: تميل إليه وتنتهي إليه وترفع إليه حوائجها؛ فهو بمعنى الذي يحتاج إليه كل أحد.

هذه الأقاويل لا ينافي بعضها بعضًا فيما يتعلق بالله عز وجل، ولهذا نقول: إن المعاني كلها ثابتة؛ لعدم المنافاة فيما بينها.

وتفسره بتفسير جامع، فنقول: ﴿الصَّمَدُ﴾: هو الكامل في صفاته، الذي افتقرت إليه جميع مخلوقاته؛ فهي صامدة إليه.

وحينئذ يتبين لك المعنى العظيم في كلمة ﴿الصَّمَدُ﴾: أنه مستغن عن كل ما سواه، كامل في كل ما يوصف به، وأن جميع ما سواه مفتقر إليه.

فلو قال لك قائل: إن الله استوى على العرش؛ هل استواؤه على العرش بمعنى أنه مفتقر إلى العرش بحيث لو أزيل لسقط؟.

فالجواب: لا، كلا؛ لأن الله صمد كامل غير محتاج إلى العرش، بل العرش والسماوات والكرسي والمخلوقات كلها محتاجة إلى الله، والله في غنى عنها، فنأخذه من كلمة ﴿الصَّمَدُ﴾.

لو قال قائل: هل الله يأكل أو يشرب؟

أقول: كلا؛ لأن الله صمد.

وبهذا نعرف أن ﴿الصَّمَدُ﴾ كلمة جامعة لجميع صفات الكمال لله، وجامعة

لجميع صفات النقص في المخلوقات، وأنها محتاجة إلى الله عز وجل.

ثم قال: «﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾»: هذا تأكيد للصمدية والوحدانية، وقلنا: توكيد؛ لأننا نفهم هذا مما سبق، فيكون ذكره توكيداً لمعنى ما سبق، وتقريراً له؛ فهو لأحديته وصمديته لم يلد؛ لأن الولد يكون على مثل الوالد في الخلقة، في الصفة، وحتى الشبه.

لما جاء مجزز المدلجي إلى زيد بن حارثة وابنه أسامة، وهما ملتحفان برداء، قد بدت أقدامها؛ نظر إلى القدمين، فقال: إن هذه الأقدام بعضها من بعض. فعرف ذلك بالشبه(١).

فلكمال أحديته وكمال صمديته ﴿لَمْ يَلِدْ﴾، والوالد محتاج إلى الولد بالخدمة والنفقة ويعينه عند العجز، ويبقى نسله.

﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾؛ لأنه لو ولد؛ لكان مسبوقًا بوالد، مع أنه جلا وعلا هو الأول الذي ليس قبله شيء، وهو الخالق، وما سواه مخلوق؛ فكيف يولد؟

وإنكار أنه ولد أبلغ في العقول من إنكار أنه والد، ولهذا لم يدع أحد أن لله والداً، وادعى المفترون أن له ولداً.

وقد نفى الله هذا وهذا، وبدأ بنفي الولد؛ لأهمية الرد على مدعيه، بل قال: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾ [المؤمنون: ٩١]، حتى ولو بالتسمي؛ فهو لم يلد ولم يتخذ ولداً.

بنو آدم قد يتخذ الإنسان منهم ولداً وهو لم يلده بالتبني أو بالولاية أو بغير ذلك، وإن كان التبني غير مشروع، أما الله عز وجل؛ فلم يلد ولم يولد، ولما كان يرد على الذهن فرض أن يكون الشيء لا والداً ولا مولوداً، لكنه متولد؛ نفى هذا الوهم الذي قد يرد، فقال: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾، وإذا انتفى أن يكون له كفواً أحدٌ؛ لزم أن لا يكون متولداً، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾؛ أي: لا يكافئه أحد في جميع صفاته.

في هذه السورة: صفات ثبوتية، وصفات سلبية:

الصفات الثبوتية: ﴿اللَّهُ﴾ التي تتضمن الألوهية، ﴿أَحَدٌ﴾ تتضمن الأحدية، ﴿الصَّمَدُ﴾ تتضمن الصمدية.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٥٥٥) ومسلم (١٤٥٩) من حديث عائشة رضي الله عنها.

والصفات السلبية: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾.

ثلاث إثبات، وثلاث نفي، وهذا النفي يتضمن من الإثبات كمال الأحدية والصمدية.

قوله: «وما وصف به نفسه في أعظم آية في كتاب الله حيث يقول: ﴿اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]».

قوله: «وما وصف به نفسه في أعظم آية في كتاب الله»: وهذه الآية تسمى آية الكرسي؛ لأن فيها ذكر الكرسي: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ﴾، وهي أعظم آية في كتاب الله.

والدليل على ذلك: أن النبي ﷺ سأل أبي بن كعب؛ قال: «**أي آية في كتاب الله أعظم؟**» فقال له: ﴿**اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ**﴾. فضرب على صدره، وقال: «**ليهنك العلم أبا المنذر**»[1].

يعني: أن النبي ﷺ أقره بأن هذه أعظم آية في كتاب الله، وأن هذا دليل على علم أبي في كتاب الله عز وجل.

وفي هذا الحديث دليل على أن القرآن يتفاضل؛ كما دل عليه أيضًا حديث سورة الإخلاص، وهذا موضع يجب فيه التفصيل؛ فإننا نقول: أما باعتبار المتكلم به؛ فإنه لا يتفاضل؛ لأن المتكلم به واحد، وهو الله عز وجل. وأما باعتبار مدلولاته وموضوعاته؛ فإنه يتفاضل؛ فسورة الإخلاص التي فيها الثناء على الله عز وجل بما تضمنته من الأسماء والصفات ليست كسورة المسد التي فيها بيان حال أبي لهب من حيث الموضوع، كذلك يتفاضل من حيث التأثير والقوة في الأسلوب؛ فإن من الآيات ما تجدها آية قصيرة لكن فيها ردع قوي للقلب وموعظة، وتجد آية أخرى

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٨١٠) وأبو داود (١٤٦٠) وأحمد في «مسنده» (٥/ ١٤١) من حديث أبي ابن كعب ـ رضي الله عنه.

أطول منها بكثير لكن لا تشتمل على ما تشتمل عليه الأولى؛ فمثلا قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢]. . . إلخ؛ هذه آية موضوعها سهل، والبحث فيها في معاملات تجري بين الناس، وليس فيها ذاك التأثير الذي يؤثره مثل قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]؛ فهذه تحمل معاني عظيمة، فيها زجر وموعظة وترغيب وترهيب، ليست كآية الدين مثلا، مع أن آية الدين أطول منها.

قوله المؤلف ـ رحمه الله ـ: «حيث يقول: ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ . . .﴾»: في هذه الآية يخبر الله بأنه منفرد بالألوهية، وذلك من قوله: ﴿اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾؛ لأن هذه جملة تفيد الحصر، وطريقة النفي والإثبات هذه من أقوى صيغ الحصر.

وقوله: «﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾»: ﴿الْحَيُّ﴾؛ أي: ذو الحياة الكاملة، المتضمنة لجميع صفات الكمال، لم تسبق بعدم، ولا يلحقها زوال، ولا يعتريها نقص بوجه من الوجوه.

و﴿الْحَيُّ﴾ من أسماء الله، وقد تطلق على غير الله؛ قال تعالى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ [الأنعام: ٩٥]، ولكن ليس الحي كالحي، ولا يلزم من الاشتراك في الاسم التماثل في المسمى.

﴿الْقَيُّومُ﴾: على وزن فيعول، وهذه من صيغ المبالغة، وهي مأخوذة من القيام.

ومعنى ﴿الْقَيُّومُ﴾؛ أي: أنه القائم بنفسه؛ فقيامه بنفسه يستلزم استغناءه عن كل شيء، لا يحتاج إلى أكل ولا شرب ولا غيرها، وغيره لا يقوم بنفسه، بل هو محتاج إلى الله عز وجل في إيجاده وإعداده وإمداده.

ومن معنى ﴿الْقَيُّومُ﴾ كذلك أنه قائم على غيره؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣]، والمقابل محذوف، تقديره: كمن ليس كذلك، والقائم على كل نفس بما كسبت هو الله عز وجل، ولهذا يقول العلماء: القيوم: هو القائم بنفسه القائم على غيره. وإذا كان قائمًا على غيره؛ لزم أن يكون غيره قائمًا به؛ قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاء وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ [الروم: ٢٥]؛ فهو إذًا كامل الصفات وكامل الملك والأفعال.

وهذان الاسمان هما الاسم الأعظم الذي إذا دُعي الله به أجاب، ولهذا ينبغي للإنسان في دعائه أن يتوسل به؛ فيقول: يا حي! يا قيوم![1] وقد ذكرا في الكتاب العزيز في ثلاثة مواضع: هذا أحدها، والثاني في سورة آل عمران: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [آل عمران: ٢]، والثالث في سورة طه: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ [طه: ١١١].

هذان الاسمان فيهما الكمال الذاتي والكمال السلطاني؛ فالذاتي في قوله: ﴿الْحَيُّ﴾، والسلطاني في قوله: ﴿الْقَيُّومُ﴾؛ لأنه يقوم على كل شيء، ويقوم به كل شيء.

وقوله: «﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾»: والسنة النعاس، وهي مقدمة النوم، ولم يقل: لا ينام؛ لأن النوم يكون باختيار، والأخذ يكون بالقهر.

والنوم من صفات النقص؛ قال النبي عليه الصلاة والسلام: **«إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام»**[2].

وهذه صفة من صفات النفي، وقد سبق أن صفات النفي لا بد أن تتضمن ثبوتًا، وهو كمال الضد، والكمال في قوله: ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ كمال الحياة والقيومية؛ لأنه من كمال حياته أن لا يحتاج إلى النوم، ومن كمال قيوميته أن لا ينام؛ لأن النوم إنما يحتاج إليه المخلوقات الحية؛ لنقصها؛ لأنها تحتاج إلى النوم من أجل الاستراحة من تعب سبق واستعادة القوة لعمل مستقبل، ولما كان أهل الجنة كاملي الحياة؛ كانوا لا ينامون؛ كما صحت بذلك الآثار.

لكن لو قال قائل: النوم في الإنسان كمال، ولهذا؛ إذا لم ينم الإنسان؛ عد مريضًا.

فنقول: كالأكل في الإنسان كمال، ولو لم يأكل؛ عد مريضًا، لكن هو كمال من

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (١٤٩٥) والترمذي (٣٥٤٤) والنسائي في «الكبرى» (١٣٠٠) وأحمد في «مسنده» (٣/ ١٥٨) من حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ والحديث صححه الشيخ الألباني في «صحيح أبي داود» (١٣٢٦).

(٢) صحيح. أخرجه مسلم (١٧٩) وابن ماجه (١٩٥) وأحمد في «مسنده» (٤/ ٣٩٥، ٤٠٠) من حديث أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه.

وجه ونقص من وجه آخر؛ كمال لدلالته على صحة البدن واستقامته، ونقص لأن البدن محتاج إليه، وهو في الحقيقة نقص.

إذًا؛ ليس كل كمال نسبي بالنسبة للمخلوق يكون كمالا للخالق؛ كما أنه ليس كل كمال في الخالق يكون كمالا في المخلوق؛ فالتكبر كمال في الخالق نقص في المخلوق، والأكل والشرب والنوم كمال في المخلوق نقص في الخالق، ولهذا قال الله تعالى عن نفسه: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ﴾ [الأنعام: ١٤].

وقوله: «﴿لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾»: ﴿لَّهُ﴾: خبر مقدم. و﴿مَا﴾: مبتدأ مؤخر؛ ففي الجملة حصر، طريقه تقديم ما حقه التأخير، وهو الخبر. ﴿لَّهُ﴾: اللام هذه للملك، ملك تام؛ بدون معارض. ﴿فِي السَّمَاوَاتِ﴾: من الملائكة والجنة وغير ذلك مما لا نعلمه. ﴿وَمَا فِي الأَرْضِ﴾: من المخلوقات كلها، الحيوان منها وغير الحيوان.

قوله: «﴿السَّمَاوَاتِ﴾»: تفيد أن السماوات عديدة، وهو كذلك، وقد نص القرآن على أنها سبع: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [المؤمنون: ٨٦].

والأرضون أشار القرآن إلى أنها سبع، بدون تصريح، وصرحت بها السنة؛ قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢]؛ مثلهن في العدد دون الصفة، وفي السنة قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**من اقتطع شبرًا من الأرض ظلمًا، طوقه الله به يوم القيامة من سبع أرضين**»(١).

وقوله: «﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾»: ﴿مَن ذَا﴾: اسم استفهام. أو نقول: ﴿مَن﴾: اسم استفهام، و﴿ذَا﴾: ملغاة، ولا يصح أن تكون ﴿ذَا﴾: اسمًا موصولا في مثل هذا التركيب؛ لأنه يكون معنى الجملة: من الذي الذي! وهذا لا يستقيم.

وقوله: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾.

الشفاعة في اللغة: جعل الوتر شفعًا؛ قال تعالى: ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ [الفجر: ٣].

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٤٥٢) ومسلم (١٦١٠) من حديث سعيد بن زيد ـ رضي الله عنه ـ.

وفي الاصطلاح: هي التوسط للغير بجلب منفعة أو دفع مضرة؛ فمثلا: شفاعة النبي ﷺ لأهل الموقف أن يُقضى بينهم: هذه شفاعة بدفع مضرة، وشفاعته لأهل الجنة أن يدخلوها بجلب منفعة.

وقوله: «﴿عنده﴾»؛ أي: عند الله.

«﴿إلا بإذنه﴾»؛ أي: إذنه له، وهذه تفيد إثبات الشفاعة، لكن بشرط أن يأذن، ووجه ذلك أنه لولا ثبوتها؛ لكان الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾: لغوًا لا فائدة فيه.

وذكرها بعد قوله: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ...﴾: يفيد أن هذا الملك الذي هو خاص بالله عز وجل؛ أنه ملك تام السلطان؛ بمعنى أنه لا أحد يستطيع أن يتصرف، ولا بالشفاعة التي هي خير؛ إلا بإذن الله، وهذا من تمام ربوبيته وسلطانه عز وجل.

وتفيد هذه الجملة أن لله إذنًا، والإذن في الأصل الإعلام؛ قال الله تعالى: ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٣]؛ أي: إعلام من الله ورسوله؛ فمعنى ﴿بِإِذْنِهِ﴾؛ أي: إعلامه بأنه راض بذلك.

وهناك شروط أخرى للشفاعة: منها: أن يكون راضيًا عن الشافع وعن المشفوع له؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨]، وقال: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ [طه: ١٠٩].

وهناك آية تنتظم الشروط الثلاثة: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم: ٢٦]؛ أي: يرضى عن الشافع والمشفوع له؛ لأن حذف المعمول يدل على العموم.

إذا قال قائل: ما فائدة الشفاعة إذا كان الله تعالى قد علم أن هذا المشفوع له ينجو؟

فالجواب: أن الله سبحانه وتعالى يأذن بالشفاعة لمن يشفع من أجل أن يكرمه وينال المقام المحمود.

وقوله: «﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم﴾»: العلم هو إدراك الشيء على ما هو عليه إدراكًا جازمًا، والله عز وجل: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ المستقبل، ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ الماضي، وكلمة ﴿مَا﴾ من صيغ العموم، تشمل كل ماض وكل مستقبل،

وتشمل أيضًا ما كان من فعله وما كان من أفعال الخلق.

وقوله: «﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ﴾»: الضمير في ﴿ **يُحِيطُونَ** ﴾ يعود على الخلق الذي دل عليهم قوله: ﴿ **لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ** ﴾؛ يعني لا يحيط من في السماوات والأرض بشيء من علم الله إلا بما شاء.

قوله: «﴿ مِّنْ عِلْمِهِ ﴾»: يحتمل من علم ذاته وصفاته؛ يعني: أننا لا نعلم شيئًا عن الله وذاته وصفاته إلا بما شاء مما علمنا إياه. ويحتمل أن (علم) هنا بمعنى معلوم؛ يعني: لا يحيطون بشيء من معلومه؛ أي: مما يعلمه؛ إلا بما شاءه، وكلا المعنيين صحيح. وقد نقول: إن الثاني أعم؛ لأن معلومه يدخل فيه علمه بذاته وبصفاته وبما سوى ذلك.

وقوله: «﴿ إِلَّا بِمَا شَاءَ ﴾»؛ يعني: إلا بما شاء مما علمهم إياه.

وقد علمنا الله تعالى أشياء كثيرة عن أسمائه وصفاته وعن أحكامه الكونية وأحكامه الشرعية، ولكن هذا الكثير هو بالنسبة لمعلومه قليل؛ كما قال الله تعالى: ﴿ **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا** ﴾ [الإسراء: ٨٥].

وقوله: «﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾»: ﴿ **وَسِعَ** ﴾ بمعنى: شمل؛ يعني: أن كرسيه محيط بالسماوات والأرض، وأكبر منها؛ لأنه لولا أنه أكبر ما وسعها.

والكرسي؛ قال ابن عباس رضي الله عنهما: «إنه موضع قدمي الله عز وجل»[1]، وليس هو العرش، بل العرش أكبر من الكرسي، وقد ورد عن النبي عليه الصلاة والسلام: **«أن السماوات السبع والأرضين السبع بالنسبة للكرسي كحلقة ألقيت في فلاة من الأرض، وأن فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على هذه الحلقة»**[2].

هذا يدل على عظم هذه المخلوقات، وعظم المخلوق يدل على عظم الخالق.

قوله: «﴿ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ﴾» يعني: لا يثقله ويكرثه حفظ السماوات

---

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٦٥٣) وأبو الشيخ في «العظمة» (٢٧).

(٢) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٣٦١) وأبو الشيخ في «العظمة» (١٧) وعبد الله بن أحمد في «السنة» (٥٩١) وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٦٧).

والأرض.

وهذه من الصفات المنفية، والصفة الثبوتية التي يدل عليها هذا النفي هي كمال القدرة والعلم والقوة والرحمة.

وقوله: «﴿وهو العلي العظيم﴾»: ﴿الْعَلِيُّ﴾ على وزن فعيل، وهي صفة مشبهة؛ لأن علوه عز وجل لازم لذاته، والفرق بين الصفة المشبهة واسم الفاعل أن اسم الفاعل طارئ حادث يمكن زواله، والصفة المشبهة لازمة لا ينفك عنها الموصوف.

وعلو الله عز وجل قسمان: علو ذات، وعلو صفات:

فأما علو الذات: فإن معناه أنه فوق كل شيء بذاته، ليس فوقه شيء ولا حذاءه شيء.

وأما علو الصفات: فهي ما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى﴾ [النحل: ٦٠]؛ يعني: أن صفاته كلها عُليا، ليس فيها نقص بوجه من الوجوه.

أما ﴿الْعَظِيمُ﴾؛ فهي أيضًا صفة مشبهة، ومعناها: ذو العظمة، وهي القوة والكبرياء وما أشبه ذلك مما هو معروف من مدلول هذه الكلمة.

وهذه الآية تتضمن من أسماء الله خمسة، وهي: الله، الحي، القيوم، العلي، العظيم. وتتضمن من صفات الله ستًا وعشرين صفة، منها خمس صفات تضمنتها هذه الأسماء.

السادسة: انفراده بالألوهية.

السابعة: انتفاء السنة والنوم في حقه؛ لكمال حياته وقيوميته.

الثامنة: عموم ملكه؛ لقوله: ﴿لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾.

التاسعة: انفراد الله عز وجل بالملك، ونأخذه من تقديم الخبر.

العاشرة: قوة السلطان وكماله؛ لقوله: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾.

الحادية عشرة: إثبات العندية، وهذا يدل على أنه ليس في كل مكان؛ ففيه الرد على الحلولية.

الثانية عشرة: إثبات الإذن من قوله: ﴿إِلاَّ بِإِذْنِه﴾.

الثالثة عشرة: عموم علم الله تعالىٰ؛ لقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾.

الرابعة عشرة والخامسة عشرة: أنه سبحانه وتعالىٰ لا ينسىٰ ما مضىٰ؛ لقوله: ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾، ولا يجهل ما يستقبل؛ لقوله: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾.

السادسة عشرة: كمال عظمة الله؛ لعجز الخلق عن الإحاطة به.

السابعة عشرة: إثبات المشيئة؛ لقوله: ﴿إِلاَّ بِمَا شَاء﴾

الثامنة عشرة: إثبات الكرسي، وهو موضع القدمين.

التاسعة عشرة والعشرون والحادية والعشرون: إثبات العظمة والقوة والقدرة؛ لقوله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ﴾؛ لأن عظمة المخلوق تدل علىٰ عظمة الخالق.

الثانية والثالثة والرابعة والعشرون: كمال علمه ورحمته وحفظه، من قوله: ﴿وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾.

الخامسة والعشرون: إثبات علو الله؛ لقوله: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ﴾.

ومذهب أهل السنة والجماعة أن الله سبحانه وتعالىٰ عال بذاته، وأن علوه من الصفات الذاتية الأزلية الأبدية.

وخالف أهل السنة في ذلك طائفتان: طائفة قالوا: إن الله بذاته في كل مكان! وطائفة قالوا: إن الله ليس فوق العالم ولا تحت العالم ولا في العالم ولا يمين ولا شمال ولا منفصل عن العالم ولا متصل!. والذين قالوا بأنه في كل مكان استدلوا بقول الله تعالىٰ: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلاثَةٍ إِلا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة: ٧]، واستدلوا بقوله تعالىٰ: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤]، وعلىٰ هذا؛ فليس عاليًا بذاته، بل العلو عندهم علو صفة.

أما الذين قالوا: إنه لا يوصف بجهة؛ فقالوا: لأننا لو وصفناه بذلك؛ لكان جسماً، والأجسام متماثلة، وهذا يستلزم التمثيل، وعلىٰ هذا؛ فننكر أن يكون في أي جهة!.

ولكننا نرد علىٰ هؤلاء وهؤلاء من وجهين:

الوجه الأول: إبطال احتجاجهم.

والثاني: إثبات نقيض قولهم بالأدلة القاطعة.

١ ـ أما الأول، فنقول لمن زعموا أن الله بذاته في كل مكان: دعواكم هذه دعوىٰ باطلة، يردها السمع والعقل:

ـ أما السمع: فإن الله تعالىٰ أثبت لنفسه أنه العلي، والآية التي استدللتم بها لا تدل علىٰ ذلك؛ لأن المعية لا تستلزم الحلول في المكان، ألا ترىٰ إلىٰ قول العرب: القمر معنا؛ ومحله في السماء؟ ويقول الرجل: زوجتي معي؛ وهو في المشرق وهي في المغرب؟ ويقول الضابط للجنود: اذهبوا إلىٰ المعركة وأنا معكم؛ وهو في غرفة القيادة وهم في ساحة القتال؟ فلا يلزم من المعية أن يكون الصاحب في مكان المصاحب أبداً، والمعية يتحدد معناها بحسب ما تضاف إليه؛ فنقول أحياناً: هذا لبن معه ماء. وهذه المعية اقتضت الاختلاط.

ويقول الرجل: متاعي معي. وهو في بيته غير متصل به. ويقول: إذا حمل متاعه معه: متاعي معي. وهو متصل به. فهذه كلمة واحدة لكن يختلف معناها بحسب الإضافة؛ فبهذا نقول: معية الله عز وجل لخلقه تليق بجلاله سبحانه وتعالىٰ؛ كسائر صفاته؛ فهي معية تامة حقيقية، لكن هو في السماء.

ـ وأما الدليل العقلي: علىٰ بطلان قولهم؛ فنقول: إذا قلت: إن الله معك في كل مكان؛ فهذا يلزم عليه لوازم باطلة؛ فيلزم عليه:

أولاً: إما التعدد أو التجزؤ، وهذا لازم باطل بلا شك، وبطلان اللازم يدل علىٰ بطلان الملزوم.

ثانيًا: نقول: إذا قلت: إنه معك في الأمكنة؛ لزم أن يزداد بزيادة الناس، وينقص بنقص الناس.

ثالثًا: يلزم على ذلك ألا تنزهه عن المواضع القذرة؛ فإذا قلت: إن الله معك وأنت في الخلاء؛ فيكون هذا أعظم قدح في الله عز وجل.

فتبين بهذا أن قولهم مناف للسمع ومناف للعقل، وأن القرآن لا يدل عليه بأي وجه من الدلالات؛ لا دلالة مطابقة ولا تضمن ولا التزام أبدًا.

٢ـ أما الآخرون فنقول لهم:

أولا: إن نفيكم للجهة يستلزم نفي الرب عز وجل؛ إذ لا نعلم شيئًا لا يكون فوق العالم ولا تحته، ولا يمين ولا شمال، ولا متصل ولا منفصل؛ إلا العدم، ولهذا قال بعض العلماء: لو قيل لنا صفوا الله بالعدم؛ ما وجدنا أصدق وصفًا للعدم من هذا الوصف.

ثانيًا: قولكم: إثبات الجهة يستلزم التجسيم! نحن نناقشكم في كلمة الجسم:

ما هذا الجسم الذي تنفرون الناس عن إثبات صفات الله من أجله؟!.

أتريدون بالجسم الشيء المكون من أشياء مفتقر بعضها إلى بعض لا يمكن أن يقوم إلا باجتماع هذه الأجزاء؟! فإن أردتم هذا؛ فنحن لا نقره، ونقول: إن الله ليس بجسم بهذا المعنى، ومن قال: إن إثبات علوه يستلزم هذا الجسم؛ فقوله مجرد دعوى، ويكفينا أن نقول:

لا قبول! أما إن أردتم بالجسم الذات القائمة بنفسها المتصفة بما يليق بها؛ فنحن نثبت ذلك، ونقول: إن لله تعالى ذاتًا، وهو قائم بنفسه، متصف الكمال، وهذا هو الذي يعلم به كل إنسان.

وبهذا يتبين بطلان قوله هؤلاء الذين أثبتوا أن الله بذاته في كل مكان، أو أن الله تعالى ليس فوق العالم ولا تحته ولا متصل ولا منفصل، ونقول: هو على عرشه استوى عز وجل.

أما أدلة العلو التي يثبت بها نقيض قول هؤلاء وهؤلاء، والتي تثبت ما قاله أهل السنة والجماعة؛ فهي أدلة كثيرة لا تحصر أفرادها، وأما أنواعها؛ فهي خمسة:

الكتاب، والسنة، والإجماع، والعقل، والفطرة.

- أما الكتاب: فتنوعت أدلته على علو الله عز وجل، منها التصريح بالعلو والفوقية وصعود الأشياء إليه ونزولها منه وما أشبه ذلك.

- أما السنة: فكذلك تنوعت دلالتها، واتفقت السنة بأصنافها الثلاثة على علو الله بذاته؛ فقد ثبت علو الله بذاته في السنة من قول الرسول ﷺ وفعله وإقراره.

- وأما الإجماع: فقد أجمع المسلمون قبل ظهور هذه الطوائف المبتدعة على أن الله تعالى مستو على عرشه فوق خلقه.

قال شيخ الإسلام - رحمه الله -: «ليس في كلام الله ولا رسوله ولا كلام الصحابة ولا التابعين لهم بإحسان ما يدل لا نصًّا ولا ظاهراً على أن الله تعالى ليس فوق العرش وليس في السماء، بل كل كلامهم متفق على أن الله فوق كل شيء».

- وأما العقل: فإننا نقول: كل يعلم أن العلو صفة كمال، وإذا كان صفة كمال؛ فإنه يجب أن يكون ثابتًا لله؛ لأن الله متصف بصفات الكمال، ولذلك نقول: إما أن يكون الله في أعلى أو في أسفل أو في المحاذي؛ فالأسفل والمحاذي ممتنع؛ لأن الأسفل نقص في معناه، والمحاذي نقص لمشابهة المخلوق ومماثلته، فلم يبق إلا العلو، وهذا وجه آخر في الدليل العقلي.

- وأما الفطرة: فإننا نقول: ما من إنسان يقول: يا رب! إلا وجد في قلبه ضرورة بطلب العلو.

فتطابقت الأدلة الخمسة.

وأما علو الصفات: فهو محل إجماع من كل من يدين أو يتسمى بالإسلام.

السادسة والعشرون: إثبات العظمة لله عز وجل؛ لقوله: ﴿الْعَظِيمُ﴾.

قول المؤلف - رحمه الله -: «ولهذا كان من قرأ هذه الآية في ليلة؛ لم يزل عليه من الله حافظ ولا يقربه شيطان حتى يصبح».

هذا طرف من حديث رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه في قصة استحفاظ النبي ﷺ إياه على الصدقة، وأخذ الشيطان منها، وقوله لأبي هريرة: إذا

أويت إلى فراشك؛ فاقرأ آية الكرسي: ﴿اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]؛ حتى تختم الآية؛ فإنك لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح. فأخبر أبو هريرة رضي الله عنه النبي ﷺ بذلك، فقال: «إنه صدقك، وهو كذوب»(١).

● قال الشيخ صالح الفوزان:

«وقد دخل في هذه الجملة» أي: التي تقدمت، وهي قوله: (وهو سبحانه قد جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين النفي والإثبات)، فأراد هنا أن يورد ما يدل على ذلك من الكتاب والسنة، وبدأ بسورة الإخلاص؛ لفضلها، وسميت بذلك؛ لأنها أخلصت في صفات الله، ولأنها تخلص قارئها من الشرك.

قوله «التي تعدل ثلث القرآن» أي: تساويه؛ وذلك لأن معاني القرآن ثلاثة أنواع: توحيد. وقصص. وأحكام، وهذه السورة فيها صفة الرحمن، فهي في التوحيد وحده، فصارت تعدل ثلث القرآن، والدليل على أن هذه السورة تعدل ثلث القرآن ما رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أن رجلاً سمع رجلاً يقرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ يرددها، فلما أصبح جاء إلى النبي ﷺ فذكر له ذلك و كأن الرجل يتقالُّها، فقال النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن»(٢).

قال الإمام ابن القيم: والأحاديث بكونها تعدل ثلث القرآن تكاد تبلغ مبلغ التواتر.

«حيث يقول» الله جل شأنه:

﴿قُلْ﴾ أي: يا محمد، وفي هذا دليل على أن القرآن كلام الله، إذ لو كان كلام محمد أو غيره لم يقل. ﴿قُلْ﴾.

﴿اللَّهُ أَحَدٌ﴾ أي: واحد لا نظير ولا وزير، ولا مثيل، ولا شريك له.

﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ أي: السيد الذي كمل في سؤدده وشرفه، وعظمته، وفيه جميع صفات الكمال، والذي تصمد إليه الخلائق وتقصده في جميع حاجاتها، ومهماتها.

﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ أي: ليس له ولد ولا والد، وفيه الرد على النصارى، ومشركي

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري (٥٠١٤) من حديث أبي سعيد الخدري، ومسلم (٨١٢) من حديث أبي هريرة.

العرب الذين نسبوا لله الولد.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ أي: ليس له مكافيء ولا مماثل ولا نظير.

والشاهد من هذه السورة: أنها تضمنت وجمعت بين النفي والإثبات، فقوله: ﴿اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ إثبات، وقوله: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ نفي.

«وما وصف به نفسه في أعظم آية في كتابه» أي: ودخل في الجملة السابقة ما وصف الله به نفسه الكريمة في أعظم آية، والآية في اللغة: العلامة، والمراد بها هنا: طائفة من كلمات القرآن متميزة عن غيرها بفاصلة، وتسمى هذه الآية التي أوردها هنا: آية الكرسي؛ لذكر الكرسي فيها.

والدليل على أنها أعظم آية في القرآن ما ثبت في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم عن أبي بن كعب رضي الله عنه أن النبي ﷺ سأله «**أي آية في كتاب الله أعظم؟**» قال: الله ورسوله أعلم، فرددها مراراً، ثم قال أُبَيٌّ: آية الكرسي، فقال النبي ﷺ: «**ليهنك العلم أبا المنذر**»[1]، وسبب كونها أعظم آية لما اشتملت عليه من إثبات أسماء الله وصفاته وتنزيهه عما لا يليق به.

فقوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا معبود بحق إلا هو، وما سواه فعبادته من أبطل الباطل.

﴿الْحَيُّ﴾ أي: الدائم الباقي الذي له كمال الحياة والذي لا سبيل للفناء عليه

﴿الْقَيُّومُ﴾ أي: القائم بنفسه المقيم لغيره، فهو غني عن خلقه، وخلقه محتاجون إليه، وقد ورد أن ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ هو الاسم الأعظم الذي إذا دعي الله به أجاب، وإذا سئل به أعطى[2]؛ لدلالة ﴿الْحَيُّ﴾ على الصفات الذاتية، ودلالة ﴿الْقَيُّومُ﴾ على الصفات الفعلية، فالصفات كلها ترجع إلى هذين الاسمين الكريمين العظيمين، ولكمال قيوميته.

﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ السنة: النعاس، وهو نوم خفيف ويكون في العين فقط، والنوم أقوى من السِّنَة، وهو أخو الموت، ويكون في القلب.

﴿لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ ملكاً وخلقاً وعبيداً، فهو يملك العالم العلوي والسفلي.

---

(١) أخرجه مسلم (١٤) و أبو داود (١٤٦٠).

(٢) أخرجه النسائي (١٣٠٠) وأبو داود (١٤٩٥) من حديث أنس ـ رضي الله عنه ـ.

﴿مَن ذَا الَّذِي﴾ أي: لا أحد ﴿يَشْفَعُ عِندَهُ﴾ الشفاعة: مشتقة من الشفع، وهو ضد الوتر، فكأن الشافع ضم سؤاله إلىٰ سؤال غيره فصيره شفعًا بعد أن كان وترًا، والشفاعة سؤال الخير للغير، بمعنىٰ: أن يسأل المؤمن ربه أن يغفر ذنوب وجرائم بعض المؤمنين، لكنها ملك لله سبحانه فلا تكون ﴿إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ أي: بأمره، وذلك لكبريائه وعظمته سبحانه وتعالىٰ، لا يستطيع أحد أن يتقدم إليه بالشفاعة عنده لأحد إلا بعد أن يأذن.

﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم﴾ أي: علمه واطلاعه محيط بالأمور الماضية والمستقبلة، فلا يخفىٰ عليه منها شيء.

﴿ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء﴾ أي: العباد لا يعلمون شيئًا من علم الله إلا مما علمهم الله إياه علىٰ ألسنة رسله وبطرق وأسباب متنوعة ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ كرسيه سبحانه قيل: إنه العرش، وقيل: إنه غيره، فقد ورد أنه موضع القدمين[1]، وهو كرسي بلغ من عظمته وسعته أنه وسع السموات والأرض.

﴿ولا يئوده حفظهما﴾ أي: لا يكرثه ولا يشق عيه ولا يثقله حفظ العالم العلوي والسفلي، لكمال قدرته وقوته.

﴿وهو العلي﴾ أي: له العلو المطلق علو الذات، بكونه فوق جميع المخلوقات ﴿عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، وعلو القدر فله كل صفات الكمال ونعوت الجلال، وعلو القهر فهو القادر علىٰ كل شيء المتصرف في كل شيء لا يمتنع عليه شيء.

﴿العظيم﴾ الذي له جميع صفات العظمة، وله التعظيم الكامل في قلوب أنبيائه وملائكته وعباده المؤمنين، فحقيق بآية تحتوي علىٰ هذه المعاني أن تكون أعظم آية في القرآن، وأن تحفظ قارئها من الشرور والشياطين.

والشاهد منها: أن الله جمع فيها فيما وصف وسمىٰ به نفسه بين النفي والإثبات، فقد تضمنت إثبات صفات الكمال ونفي النقص عن الله، ففي قوله: ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ نفي الإلهية عما سواه وإثباتها له. وفي قوله ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ إثبات الحياة والقيومية له، وفي

---

(١) أخرجه عبد الله بن أحمد في «السنة» (٥٨٦) والطبراني في «الكبير» (١٢/ ٣٩) من حديث ابن عباس - رضي الله عنه.

قوله: ﴿لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ﴾ نفي السنة والنوم عنه، وفي قوله: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ إثبات ملكيته الكاملة للعالمين العلوي والسفلي، وفي قوله: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ نفي الشفاعة عنده بغير إذنه؛ لكمال عظمته وغناه عن خلقه، وفي قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ إثبات كمال علمه بكل شيء ماضيًا أو مستقبلاً ـ وفي قوله: ﴿وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ﴾ بيان حاجة الخلق إليه وإثبات غناه عنهم، وفي قوله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ إثبات كرسيه وإثبات كمال عظمته وجلالته، وصغر المخلوقات بالنسبة إليه: وفي قوله: ﴿وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾ نفي العجز والتعب عنه سبحانه، وفي قوله: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ إثبات العلو والعظمة له سبحانه.

وقول المصنف رحمه الله: (ولهذا كان من قرأ هذه الآية في ليلة لم يزل عليه من الله حافظ ولا يقر به شيطان حتى يصبح).

يشير إلى ما رواه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه وفيه: «**إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي: ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾، حتى تختم الآية، فإنك لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح**»[1] الحديث. والشيطان: يطلق على كل متمردٍ عاتٍ من الجن والإنس، من (شطن) إذا بعد، سمي بذلك؛ لبعده من رحمة الله، أو من شاط يشيط إذا اشتد.

* * *

(١) أخرجه البخاري (٣٢٧٥) من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ.

[أسئلة وأجوبة نموذجية على الإيمان بما وصف الله به نفسه في كتابه]

● قال الشيخ عبد العزيز المحمد السلمان:

س ـ لم سميت هذه السورة «قل هو الله أحد» سورة الإخلاص؟ وما وجه دلاتها على أنواع التوحيد الثلاثة؟

ج - أما سبب تسميتها فقيل: لأنها أخلصت لوصف الرحمن، وقيل لأنها تخلص قارئها من الشرك العملي الاعتقادي.

وأما دلالتها على أنواع التوحيد فدلالتها على توحيد الأسماء والصفات فبالمطابقة، وعلى توحيد الربوبية فبالتضمن، وعلى توحيد الألوهية والعبادة فبالالتزام، لأن دلالة الدليل على كل معناه تسمى مطابقة، وعلى بعضه تضمن، وعلى ما يستلزمه من الخارج يسمى التزامًا.

س ـ ما الذي تفهم عن سياق المصنف لهذه السورة أي سورة «الإخلاص» في هذا الموضع؟

ج - لما تضمنه من النفي والإثبات لأن فيها شاهد للضابط الذي ذكر المصنف ـ رحمه الله ـ من أن الله سبحانه وتعالى قد جمع فيما وصف به نفسه بين النفي والإثبات.

س ـ ما معنى ما يلي: الأحد، الصمد، الكفو؟

ج - «الأحد» أي الواحد الذي لا نظير له ولا وزير ولا ند ولا شبيه ولا عديل ولا يطلق هذا اللفظ على أحد في الإثبات إلا على الله؛ لأنه الكامل في جميع صفاته وأفعاله. وأما معنى «الصمد» فهو الذي تصمد إليه الخلائق في حوائجهم ومسائلهم.

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ:

وهو الإله السيد الصمد الذي صمدت إليه الخلق بالإذعان

الكامل الأوصاف من كل الوجو ه كماله ما فيه من نقصان

وأما معنى «الكفو» فمعناه المكافئ والمماثل والنظير.

س ـ ما الذي يؤخذ من سورة الإخلاص؟

ج ـ أولاً: إثبات وحدانية الله.

ثانيًا: إثبات صفة الكلام.

ثالثًا: الرد على النصارى القائلين أن عيسى ابن الله.

رابعًا: الرد على اليهود القائلين عزير ابن الله.

خامسًا: الرد على المشركين القائلين الملائكة بنات الله.

سادسًا: كمال غناه سبحانه وفقر الخلائق إليه.

سابعًا: شرف علم التوحيد.

ثامنًا: أن هذه السورة تضمنت أعرض الخطوط الرئيسية في حقيقة الإسلام الكبيرة.

تاسعًا: أن من اعتقد وحدانية الله وصمديته وأنه الفعال لما يريد خلص قلبه من كل غاشية ومن كل شائبة ومن كل تعلق بغير الله.

عاشرًا: الرد على من قال إن القرآن كلام محمد ﷺ.

الحادي عشر: الحث على التوكل على الله إذ هو الواحد المقصود في الحوائج.

الثاني عشر: الحث عل عبادة الله وحده.

الثالث عشر: الاتجاه إلى الله في الرغبة والرهبة والسراء والضراء والنعماء والبأساء.

الرابع عشر: تلقي العقيدة عن الكتاب والسنة.

الخامس عشر: إثبات الألوهية لله.

السادس عشر : إثبات أولية الله .

السابع عشر : نفي الزوجة عن الله .

الثامن عشر : إثبات صفة الصمدية لله المقصود في الحوائج .

التاسع عشر : الرد على من قال بالطبيعة وأنها التي توجد الأشياء .

العشرون : الرد على من قال لله كفو أو ند أو مثيل أو نحو ذلك .

الخلاصة: أن السورة تضمنت نفي الشريك بجميع أنواعه فقد نفى عن نفسه أنواع الكثرة بقوله : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ونفى عن نفسه أنواع الاحتياج بقوله : ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ ونفى عن نفسه المشابهة والمجانسة بقوله : ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ ، ونفى عن نفسه الحدوث بقوله : ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ ونفى عن نفسه الأنداد والأشباه بقوله : ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ .

س ـ لماذا كانت آية الكرسي أعظم آية في كتاب الله تعالى؟

ج ـ لما اشتملت عليه من الأسماء والصفات فقد اجتمع فيها ما لم يجتمع في غيرها ، فآية احتوت على هذه المعاني الجليلة يحق أن تكون أعظم آية في كتاب الله ويحق لمن قرأها بتدبر وتفهم أن يمتلئ من اليقين والعرفان والإيمان وأن يكون محفوظًا بذلك من الشيطان الرجيم .

كما ورد بذلك الحديث الصحيح الذي رواه البخاري عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : وكلني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان إلى أن قال : «فإذا آويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] حتى تختم الآية فإنك لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح . الحديث وإليه أشار المصنف بقوله : ولهذا من قرأ هذه الآية في ليلة .

س ـ بين مفردات آية الكرسي؟

ج ـ «الله» المألوه المعبود المستحق لإفراده بالعبادة «لا إله إلا هو» : أي لا معبود بحق إلا هو «الحي» : الباقي الذي لا سبيل للفناء عليه . «القيوم» : القائم بنفسه المقيم لما سواه وورد أن اسم الحي ، واسم القيوم ، الاسم الأعظم فإنهما متضمنان لصفات الكمال أعظم تضمن ، فالصفات الذاتية ترجع إلى اسمه الحي والصفات الفعلية

ترجع إلى اسمه القيوم.

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ:

وله الحياة كمالها فلأجل ذا ... ما للممات عليه من سلطان

وكذلك القيوم من أوصافه ... ما للمنام لديه من غشيان

وكذاك أوصاف الكمال جميعها ... ثبتت له ومدارها الوصفان

فمصحح الأوصاف والأفعال وال ... أسماء حقًا ذانك الوصفان

ولأجل ذا جاء الحديث بأنه ... في آية الكرسي وذي عمران

اسم الإله الأعظم اشتمالاً على اسـ ... م الحي والقيوم مقترنان

فالكل مرجعها إلى الاسمين يد ... ري ذاك ذو بصر بهذا الشان

«السنة» النعاس وهو الذي يتقدم النوم من الفتور وانطباق العينين ويكون في الرأس من غير نوم ومنه الوسنان.

قال ابن الرقاع:

وكأنها بين النساء أعارها ... عينيه أحور من جآذر جاسم

وسنان أقصده النعاس فرنقت ... في عينه سنةٌ وليس بنائم

فإذا وصل إلى القلب صار نومًا: و «النوم»: غشية ثقيلة تقع على القلب تمنعه من المعرفة بالأشياء فلا يحس ولا يشعر بها. «الكرسي»: موضع القدمين لله سبحانه وتعالى وهو غير العرش: «وسع»: أي ملأ وأحاط. «ولا يؤوده»: أي لا يثقله ولا يكرثه ولا يعجزه حفظ السموات والأرض. «العلي»: الرفيع فوق خلقه والمتعال عن الأشباه والأنداد. «العظيم»: الكبير الذي لا شيء أعظم منه.

قال ابن القيم رحمه الله:

فهو العلي بذاته سبحانه ... إذ يستحيل خلاف ذا ببيان

وهو العظيم بكل معنى يوجب التـ ... تعظيم لا يحصيه من إنسان

س ـ ما الذي يؤخذ من هذه الآية الكريمة؟

ج ـ فيها أولاً: إثبات الألوهية لله وانفراده بذلك.

ثانيًا: إثبات صفة الحياة وهي من الصفات الذاتية.

ثالثًا: إثبات صفة القيوم.

رابعًا: تنزيه الله عن السنة والنوم والعجز لما في ذلك من المنافاة لكمال حياته وقيوميته وقدرته.

خامسًا: إثبات سعة ملكه وأنه تعالىٰ له ما في السموات وما في الأرض ملكًا وخلقًا وليس له في ذلك شريك ولا منازع وأن الجميع عبيده وتحت قهره وسلطانه.

سادسًا: إثبات سعة علمه وأنه محيط بجميع الكائنات ماضيها وحاضرها ومستقبلها وأنه لا ينسىٰ ولا يغفل ولا يلهيه شأن عن شأن.

سابعًا: اختصاصه بالتعليم وأن الخلق لا يعلمون إلا ما أعلمهم الله جل وعلا.

ثامنًا: إثبات الشفاعة بإذنه لقوله «من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه».

تاسعًا: أن عظمة الكرسي من جملة الأدلة الدالة علىٰ عظمة الله.

عاشرًا: إثبات صفة الكلام لله.

الحادي عشر: إثبات صفة العلم لله.

الثاني عشر: إثبات عظمة الله واقتداره وأنه لا يعجزه شيء.

الثالث عشر: إثبات علو الله علىٰ خلقه.

الرابع عشر: الترقي في نفي النقص من الأضعف إلىٰ نفي الأقوىٰ لأن من لا تغلبه السنة قد يغلبه النوم لأنه أقوىٰ.

الخامس عشر: إثبات المشيئة لله.

السادس عشر: الحث علىٰ الاتجاه إلىٰ الله وحده بالعبودية والعبادة فلا يكون عبدًا إلا لله ولا يتجه بالعبادة إلا لله ولا يلتزم بطاعة إلا طاعة الله وما يأمر به من الطاعات.

السابع عشر: أن العباد لا يملكون الأعيان ملكًا مطلقًا وإنما يملكون التصرف فيها

على مقتضى الشرع فقط .

الثامن عشر : أن شعور الإنسان بأن ما في السموات وما في الأرض وكل شيء ملك لله سبب لقمع حدة الشره والطمع والحرص والتكالب على الدنيا .

التاسع عشر : أن استحضار ذلك وأن ما في يده عارية إلى أمد محدود يُكسب في النفس القناعة والرضى بما يحصل من الرزق والسماحة بالموجود .

العشرون : أن العباد لم يؤتوا من العلم إلا قليلاً .

الحادي والعشرون : إثبات الرد على المشركين القائلين بأن أصنامهم تشفع .

الثاني والعشرون : الرد على القدرية القائلين أن الله لا يعلم الأشياء إلا بعد وقوعها تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً .

الثالث والعشرون : الرد على من زعم أن الكرسي علمه أو أنه قدرته أو ملكه أو نحو ذلك .

الرابع والعشرون : أن النوم والسنة صفة نقص ولهذا نزه جل وعلا نفسه عنهما .

الخامس والعشرون : تنزيه الله عن الولد والزوجة والرد على من نسب إلى الله ذلك ، تعالى الله عن ذلك .

السادس والعشرون : الرد على من قال إنه ما هناك سماء وإنما هو فضاء كما ترد عليه الآية الأخرى ﴿هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ [الملك : ٣] .

السابع والعشرون : أن في السموات خلقاً لله لا يعلمهم إلا هو جل وعلا .

الثامن والعشرون : أن الكرسي أوسع من السموات والأرض

التاسع والعشرون : أن العباد لا يجرؤون على الشفاعة أو التكلم إلا بإذنه وذلك لجلاله وعظمته .

الثلاثون : الخلاصة أن هذه الآية تملأ القلب مهابة من الله وجلاله وكماله حتى لا تدع موضعاً للغرور بالشفعاء الذين يعظمهم المغرورون ويتكلون على شفاعتهم فأوقعهم ذلك في ترك المباحات في الدين فخويت قلوبهم من ذكر الله وخلت من خشيته جهلاً منها بما يجب من معرفته وأفسدت فطرتهم الأهواء والجهالات .

س ـ ما الذي تفهم عن سياق المصنف لآية الكرسي؟

ج ـ الموجب لسياقه لها ـ والله أعلم ـ أنه لما تضمنته من النفي والإثبات لأن فيها شاهداً للضابط الذي ذكره المصنف من أنه سبحانه قد جمع فيما وصف به نفسه بين النفي والإثبات ولما احتوت عليه من المعاني الجليلة.

* * *

[صفة العلم]

وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣].

وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨].

وقوله: ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [التحريم: ٢] ﴿الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [التحريم: ٣].

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ [سبأ: ٢].

﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

وقوله: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلا تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ﴾ [فاطر: ١١].

وقوله: ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢].

• الشَّرح •

● الشيخ عبد الرحمن السعدي:

وقوله: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣].

قد فسَّر النبي ﷺ هذه الأسماء الأربعة بتفسيرٍ مختصرٍ جامعٍ واضحٍ حيث قال: **«أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدكَ شيء، وأنت الظاهر، فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليسَ دونكَ شيء»**.

وهذا يَدلُّ على كمال عظمته وأنه لا نهاية لها، وبيان إحاطته من كل وجه.

فـ «الأول والآخر»: إحَاطَتِهِ الزَّمانية.

و «الظاهر والباطن»: إحاطته المكانية.

ثُمَّ صَرَّح بإحاطة علمه بكل شيء؛ من الأمور الماضية والحاضِرة والمستقبلة، ومن العالم العُلوي والسُّفليّ، ومن الظواهر والبواطن والواجبات والجائزات والمستحيلات، فلا يغيب عن عِلمه مِثقَالُ ذَرَّة في الأرضِ ولا في السَّماء.

ذكر المُصنِّف رحمه الله في هذا المَوضع عِدّة آيات وكلها داخلة في الإيمان بالله، ويتَّضِحُ معناها عُمومًا وخُصوصًا بِذِكر أُصول وضوابط نوضحها فيما يأتي:

● منها: أن هذه النصوص القرآنية تنطبق عليها القاعدة المتفق عليها بين السَّلف وهو: أنه يجب الإيمان بجميع الأسماء الحسنى وما دلت عليه من الصِّفات وما نشأ عنها من الأفعال.

مثال ذلك: «القُدرة» يجب علينا الإيمان بأنَّه على كل شيء قدير والإيمان بكمال قدرة الله، والإيمان بأن قُدرته نشأت عنها جميع الكائنات وبأنه «عليم» ذو عِلم مُحِيط، وأنه يعلم الأشياء كلها.

وهكذا بقية الأسماء الحُسنى على هذا النَّمط.

فما في هذه الآيات التي ذكرها المُصَنِّف من الأسماء الحسنى فإنَّها داخلة في

الإيمان بالأسماء، وما فيها من ذكر الصفات مثل: «عزة اللَّه» و«قدرته» و«علمه» و«حكمته» و«إرادته» و«مشيئته» و«كلامه» و«أمره» و«قوله» ونحوها، فإنها داخلة في الإيمان بالصفات.

وما فيها من ذِكر الأفعال المُطلَقَة والمُقيَّدة مثل: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ ويعلَم كذا وكذا، ويَحكم ويُريد، وسَمِعَ ويسمع ويرىٰ، وأسمع وأرىٰ، وقال ويقول، وكلَّم ويُكَلِّم، ونادىٰ وناجىٰ، ونحوها من الأفعال فإنه داخل في الإيمان بأفعَاله تعَالىٰ.

فَعَلىٰ العبد الإيمان بكل ذلك إجمالاً وتفصيلاً وإطلاقًا وتقييدًا علىٰ الوجه اللائق بجلال الله وعظمته، وأن يعلم أن صفاته لا تشبهها صفات المخلوقين كما أن ذَاته لا تُشبِهُها ذَوَات المخلوقين.

● ومن الأُصول المتَّفق عليها بين «السَّلف» التي دَلَّت عليها هذه النصوص: أنّ صفات الباري قسمان:

«صفات ذاتية»: لا تَنفَك عنها الذَّات كصفة: «الحياة» و«العلم» و«القدرة»، و«القوة»، و«العزة»، و«الملك»، و«العظمة»، و«الكبرياء» ونحوها، والعلو المطلق.

و«صفات فعليَّة»: تَتعلَّقُ بها أفعاله كل وقت وآن وزمان، ولها آثارها في الخلق والأمر، فيؤمنون بأنه فَعَّالٌ لما يريد.

وأنه لم يزَل ولا يَزَال يقول ويَتكلَّم ويخلق ويُدبر الأُمور.

وأن أفعاله تقع شيئًا فشيئًا تبعًا لحكمته وإرادته، كما أن شرائعه وأوامره ونواهيه الشَّرعية لا تزال تقع شيئًا فشيئًا.

وقد دلَّ علىٰ هذا الأصل الكبير: ما في هذه النصوص من ذِكرِ: (قال) و(يَقُول)، و(سمع) و(يَسمع)، و(كَلَّم) و(يكلم)، و(نادىٰ) و(ناجىٰ)، و(عَلِم)، و(كتب) و(يكتب)، و(جاء) و(يجيء)، و(أتىٰ) و(يأتي)، و(أوحىٰ) و(يُوحي)، ونحوها من الأفعال المتنوعة التي تقع مُقَيَّدة بأوقاتها، كما سمعت في هذه النُّصوص المذكورة آنفًا.

وهذا من أكبَر الأُصول وأعظمها، ولقد صنف فيه المؤلف مُصنَّفًا مستقلاً وهو المسمىٰ بـ «الأفعَال الاختيارية».

فعَلَىٰ المؤمن: الإيمانُ بِكُلٍّ ما نَسَبَهُ الله لنفسه؛ من الأفعال المُتَعلِّقة بذاته كـ «الاستواء علىٰ العرش»، و«المجيء» و«الإتيان»، و«النزول إلىٰ السماء الدنيا»، و«القول»، ونحوها.

والمتعلقة بخلقِه كـ «الخَلْقِ» و«الرِّزق» و«أنواع التدبير».

● قال الشيخ محمد خليل هراس:

قوله: «﴿ هو الأول﴾»: الجملة هنا جاءت معرَّفة الطرفين، فهي تفيد اختصاصه سبحانه بهذه الأسماء الأربعة ومعانيها علىٰ ما يليق بجلاله وعظمته، فلا يثبت لغيره من ذلك شيء.

وقد اضطربت عبارات المتكلمين في تفسير هذه الأسماء، ولا داعي لهذه التفسيرات بعد ما ورد تفسيرها عن المعصوم صلوات الله وسلامه عليه، فقد روىٰ مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه كان يقول إذا أوىٰ إلىٰ فراشه: **«اللهم رب السموات السبع ورب الأرض رب كل شيء، فالق الحب والنوى، منزل التوراة والإنجيل والقرآن؛ أعوذ بك من شر كل ذي شر أنت آخذ بناصيته، أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقض عني الدين وأغنني من الفقر»**(١).

فهذا تفسير واضح جامع يدل علىٰ كمال عظمته سبحانه وأنه محيط بالأشياء من كل وجه (فالأول والآخر) بيان لإحاطته الزمانية، (والظاهر والباطن) بيان لإحاطته المكانية، كما أن اسمه الظاهر يدل علىٰ أنه العالي فوق جميع خلقه، فلا شيء منها فوقه.

فمدار هذه الأسماء الأربعة علىٰ الإحاطة، فأحاطت أوليته وآخريته بالأوائل والأواخر، وأحاطت ظاهريته وباطنيته بكل ظاهر وباطن فاسمه (الأول) دال علىٰ قدمه وأزليته، واسمه (الآخر) دال علىٰ بقائه وأبديته؛ واسمه (الظاهر) دال علىٰ

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٧١٣) من حديث أبي هريرة رضي اللّه عنه.

علوه وعظمته؛ واسمه (الباطن) دال على قربه ومعيته؛ ثم ختمت الآية بما يفيد إحاطة علمه بكل شيء من الأمور الماضية والحاضرة والمستقبلة؛ ومن العالم العلوي والسفلي؛ ومن الواجبات والجائزات والمستحيلات فلا يغيب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء. فالآية كلها شأن إحاطة الرب سبحانه بجميع خلقه من كل وجه؛ وأن العوالم كلها في قبضة يده كخردلة في يد العبد لا يفوته منها شيء؛ وإنما أتى بين هذه الصفات بالواو مع أنها جارية على موصوف واحد لزيادة التقرير والتأكيد؛ لأن الواو تقتضي تحقيق الوصف المتقدم وتقريره، وحسن ذلك لمجيئها بين أوصاف متقابلة قد يسبق إلى الوهم استبعاد الاتصال بها جميعًا؛ فإن الأولية تنافي الآخرية في الظاهر؛ وكذلك الظاهرية والباطنية فاندفع توهم الإنكار بذلك التأكيد.

قوله: «وتوكل... إلخ»: هذه الجملة من الآيات ساقها المؤلف لإثبات بعض الأسماء والصفات. فالآية الأولى فيها إثبات اسمه (الحي) كما تضمنت سلب الموت الذي هو ضد الحياة عنه؛ وقد قدمنا أنه سبحانه حي بحياة هي صفة له لازمة لذاته فلا يعرض لها موت ولا زوال أصلاً؛ وأن حياته أكمل حياة وأتمها فيستلزم ثبوتها له ثبوت كل كمال يضاد نفيه كمال الحياة.

وأما الآيات الباقية ففيها إثبات صفة العلم وما اشتق منها ككونه عليمًا ويعلم وأحاط بكل شيء علمًا... إلخ.

والعلم صفة الله عز وجل بها يدرك جميع المعلومات على ما هي به فلا يخفى عليه منها شيء كما قدمنا.

وفيها إثبات اسمه (الحكيم)؛ وهو مأخوذ من الحكمة؛ ومعناه الذي لا يقول ولا يفعل إلا الصواب؛ فلا يقع منه عبث ولا باطل، بل كل ما يخلقه أو يأمر به فهو تابع لحكمته.

وقيل: هو من فعيل بمعنى مفعل، ومعناه المحكم للأشياء من الإحكام؛ وهو الإتقان فلا يقع في خلقه تفاوت ولا فطور، ولا يقع في تدبيره خلل أو اضطراب.

وفيها كذلك إثبات اسمه (الخبير)؛ وهو من الخبرة بمعنى كمال العلم ووثوقه والإحاطة بالأشياء على وجه التفصيل ووصول علمه إلى كل ما خفي ودق من الحسيات والمعنويات.

وقد ذكر سبحانه في هذه الآيات بعض ما يتعلق به علمه من الدلالة على شموله وإحاطته بما لا تبلغه علوم خلقه، فذكر أنه يعلم ما يلج أي: يدخل في الأرض من حب وبذر ومياه وحشرات ومعادن، وما يخرج منها من زرع وأشجار وعيون جارية ومعادن نافعة كذلك وما ينزل من السماء، من ثلوج وأمطار وصواعق وملائكة، وما يعرج أي: يصعد فيها كذلك من ملائكة وأعمال وطير صواف إلى غير ذلك مما يعلمه جل شأنه، وذكر فيها أيضًا أن عنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو، ومفاتح الغيب قيل: خزائنه، وقيل: طرقه وأسبابه التي يتوصل بها إليه، جمع مفتح بكسر الميم أو مفتاح، بحذف ياء مفاعيل.

وقد فسرها النبي ﷺ بقوله: «**مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله**»[1] ثم تلا قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾.

وقد دلت الآيتان الأخيرتان على أنه سبحانه عالم بعلم هو صفة له قائم بذاته خلافًا للمعتزلة الذين نفوا صفاته، فمنهم من قال: إنه عالم بذاته وقادر بذاته... إلخ؛ ومنهم من فسر أسماءه بمعان سلبية فقال: عليم معناه لا يجهل؛ وقادر معناه لا يعجز... إلخ.

وهذه الآيات حجة عليهم فقد أخبر فيها سبحانه عن إحاطة علمه بحمل كل أنثى ووضعها من حيث المتى والكيف؛ كما أخبر عن عموم قدرته وتعلقها بكل ممكن وعن إحاطة علمه بجميع الأشياء؛ وما أحسن ما قاله الإمام عبد العزيز المكي في كتابه «الحيدة» لبشر المريسي المعتزلي وهو يناظره في مسألة العلم: (إن الله عز وجل لم يمدح في كتابه ملكًا ولا نبيًّا مرسلاً ولا مؤمنًا تقيًّا بنفي الجهل عنه ليدل على إثبات العلم له؛ وإنما مدحهم بإثبات العلم لهم فنفى بذلك الجهل عنهم؛ فمن أثبت العلم نفى الجهل، ومن نفى الجهل لم يثبت العلم).

والدليل العقلي على علمه تعالى: أنه يستحيل إيجاده الأشياء مع الجهل لأن إيجاده الأشياء بإرادته، والإرادة تستلزم العلم بالمراد ولهذا قال سبحانه: ﴿**أَلَا يَعْلَمُ مَنْ**

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٤٤٢٠) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾.

ولأن المخلوقات فيها من الإحكام والإتقان وعجيب الصنعة ودقيق الخلقة ما يشهد بعلم الفاعل لها لامتناع صدور ذلك عن غير علم.

ولأن من المخلوقات من هو عالم والعلم صفة كمال؛ فلو لم يكن الله عالمًا لكان في المخلوقات من هو أكمل منه.

وكل علم في المخلوق إنما استفاده من خالقه؛ وواهب الكمال أحق به؛ وفاقد الشيء لا يعطيه. وأنكر الفلاسفة علمه تعالىٰ بالجزئيات وقالوا: إنه يعلم الأشياء علىٰ وجه كلي ثابت، وحقيقة قولهم أنه لا يعلم شيئًا؛ فإن كل ما في الخارج هو جزئي. كما أنكر الغلاة من القدرية علمه تعالىٰ بأفعال العباد حتىٰ يعملوها، توهمًا منهم أن علمه بها يفضي إلىٰ الجبر؛ وقولهم معلوم البطلان بالضرورة في جميع الأديان.

● قال الشيخ العثيمين:

قول المؤلف ـ رحمه الله ـ: «وقوله سبحانه: ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣]».

«وقوله سبحانه»: هذا معطوف علىٰ (سورة) في قول المؤلف: «ما وصف به نفسه في سورة الإخلاص».

«﴿الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾»: هذه أربعة أسماء، كلها متقابلة، في الزمان والمكان، تفيد إحاطة الله سبحانه وتعالىٰ بكل شيء أولاً وآخرًا، وكذلك في المكان؛ ففيه الإحاطة الزمانية والإحاطة المكانية.

«﴿هُوَ الأَوَّلُ﴾»: ﴿الأَوَّلُ﴾: فسره النبي عليه الصلاة والسلام بقوله: **«الذي ليس قبله شيء»**.

وهنا فسر الإثبات بالنفي، فجعل هذه الصفة الثبوتية صفة سلبية، وقد ذكرنا فيما سبق أن الصفات الثبوتية أكمل وأكثر؛ فلماذا؟.

فنقول: فسرها النبي ﷺ بذلك؛ لتوكيد الأولية؛ يعني أنها مطلقة، أولية ليست

أولية إضافية، فيقال: هذا أول باعتبار ما بعده، وفيه شيء آخر قبله؛ فصار تفسيرها بأمر سلبي أدل على العموم على أنها أولية مطلقة، ولهذا قال: «**ليس قبله شيء**»، وهذا باعتبار التقدم الزمني.

«﴿الآخِرُ﴾»: فسره النبي عليه الصلاة والسلام بقوله: «**الذي ليس بعده شيء**»[(١)]، ولا يتوهم أن هذا يدل على غاية لآخريته؛ لأن هناك أشياء أبدية، وهي من المخلوقات؛ كالجنة والنار، وعليه؛ فيكون معنى ﴿وَالآخِرُ﴾ انه محيط بكل شيء؛ فلا نهاية لآخريته.

«﴿وَالظَّاهِرُ﴾»: من الظهور، وهو العلو؛ كما قال تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ**﴾ [التوبة: ٣٣]؛ أي: ليعليه، ومنه ظهر الدابة؛ لأنه عال عليها، ومنه قوله تعالى: ﴿**فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ**﴾ [الكهف: ٩٧]؛ أي: يعلوا عليه، وقال النبي عليه الصلاة والسلام في تفسيرها: «**الذي ليس فوقه شيء**»؛ فهو عال على كل شيء.

«﴿وَالْبَاطِنُ﴾»: فسره النبي عليه الصلاة والسلام قال: «**الذي ليس دونه شيء**»[(٢)]، وهذا كناية عن إحاطته بكل شيء، ولكن المعنى أنه مع علوه عز وجل، فهو باطن، فعلوه لا ينافي قربه عز وجل؛ فالباطن قريب من معنى القريب.

تأمل هذه الأسماء الأربعة؛ تجد أنها متقابلة، وكلها خبر عن مبتدأ واحد، لكن بواسطة حرف العطف، والأخبار بواسطة حرف العطف أقوى من الأخبار بدون واسطة حرف العطف؛ فمثلا: ﴿**وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ * ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ * فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ**﴾ [البروج: ١٤-١٦]؟ هي أخبار متعددة بدون حرف العطف، لكن أحيانًا تأتي أسماء الله وصفاته مقترنه بواو العطف، وفائدتها:

أولا: توكيد السابق؛ لأنك إذا عطفت عليه؛ جعلته أصلا؛ والأصل ثابت.

ثانيًا: إفادة الجمع، ولا يستلزم ذلك تعدد الموصوف، أرأيت قوله تعالى: ﴿**سَبِّحِ**

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٧١٣) وأبو داود (٥٠٥١) والترمذي (٣٤٠٠) من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-.

(٢) تقدم في الذي قبله.

اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴾ [الأعلى: ١-٣]؛ فالأعلى الذي خلق فسوى هو الذي قدر فهدى.

فإذا قلت: المعروف أن العطف يقتضي المغايرة.

فالجواب: نعم؛ لكن المغايرة تارة تكون بالأعيان، وتارة تكون بالأوصاف، وهذا تغاير أوصاف، على أن التغاير قد يكون لفظيًا غير معنوي؛ مثل قول الشاعر:

فألقى قولها كذبًا ومينا

فالمين هو الكذب، ومع ذلك عطفه عليه؛ لتغاير اللفظ، والمعنى واحد؛ فالتغاير إما عيني أو معنوي أو لفظي، فلو قلت: جاء زيد وعمرو وبكر وخالد؛ فالتغاير عيني، ولو قلت: جاء زيد الكريم والشجاع والعالم؛ فالتغاير معنوي؛ ولو قلت: هذا الحديث كذب ومين؛ فالتغاير لفظي.

واستفدنا من هذه الآية الكريمة إثبات أربعة أسماء لله، وهي: الأول، والآخر، والظاهر، والباطن.

واستفدنا منها خمس صفات: الأولية، والآخرية، والظاهرية، والباطنية، وعموم العلم.

واستفدنا من مجموع الأسماء: إحاطة الله تعالى بكل شيء زمنًا ومكانًا؛ لأنه قد يحصل من اجتماع الأوصاف زيادة صفة.

فإذا قال قائل: هل هذه الأسماء؛ متلازمة؛ بمعنى أنك إذا قلت: الأول؛ فلابد أن تقول: الآخر، أو: يجوز فصل بعضها عن بعض؟!.

فالظاهر أن المتقابل منها متلازم؛ فإذا قلت: الأول؛ فقل: الآخر، وإذا قلت الظاهر؛ فقل: الباطن؛ لئلا تفوت صفة المقابلة الدالة على الإحاطة.

قوله: «﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾»: هذا إكمال لما سبق من الصفات الأربع؛ يعني: ومع ذلك؛ فهو بكل شيء عليم.

وهذه من صيغ العموم التي لم يدخلها تخصيص أبدًا، وهذا العموم يشمل أفعاله وأفعال العباد الكليات والجزئيات؛ يعلم ما يقع وما سيقع، ويشمل الواجب والممكن والمستحيل؛ فعلم الله تعالى واسع شامل محيط، لا يستثنى منه شيء؛ فأما علمه

بالواجب؛ فكعلمه بنفسه وبما له من الصفات الكاملة، وأما علمه بالمستحيل، فمثل قوله تعالى: ﴿**لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا**﴾ [الأنبياء: ٢٢]. وقوله: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ**﴾ [الحج: ٧٣]، وأما علمه بالممكن؛ فكل ما أخبر الله به عن المخلوقات؛ فهو من الممكن: ﴿**يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ**﴾ [النحل: ١٩].

إذًا؛ فعلم الله تعالى محيط بكل شيء.

والثمرة التي ينتجها الإيمان بأن الله بكل شيء عليم: كمال مراقبة الله عز وجل وخشيته؛ بحيث لا يفقده حيث أمره، ولا يراه حيث نهاه.

قول المؤلف ـ رحمه الله ـ: «وقوله سبحانه: ﴿**وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ**﴾ [الفرقان: ٥٨]».

«﴿وَتَوَكَّلْ﴾»: التوكل: مأخوذ من وكَلَ الشيء إلى غيره؛ أي: فوَّضه إليه؛ فالتوكل على الغير؛ بمعنى: التفويض إليه.

وعرَّف بعض العلماء التوكل على الله بأنه: صدق الاعتماد على الله في جلب المنافع ودفع المضار، مع الثقة به سبحانه وتعالى، وفعل الأسباب الصحيحة.

وصدق الاعتماد: أن تعتمد على الله اعتماداً صادقًا؛ بحيث لا تسأل إلا الله، ولا تستعين إلا بالله، ولا ترجوا إلا الله، ولا تخاف إلا الله؛ تعتمد على الله عز وجل بجلب المنافع ودفع المضار، ولا يكفي هذا الاعتماد دون الثقة به وفعل السبب الذي أذن به؛ بحيث إنك واثق بدون تردد مع فعل السبب الذي أذن فيه.

فمن لم يعتمد على الله واعتمد على قوته؛ فإنه يُخذل؛ ودليل ذلك ما وقع للصحابة مع نبيهم محمد ﷺ في غزوة حنين، حين قال الله عز وجل: ﴿**لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ**﴾ [التوبة: ٢٥]؛ حيث قالوا: لن نغلب اليوم من قلة[١]، ﴿**فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا**﴾ [التوبة: ٢٥، ٢٦].

---

(١) أخرجه البيهقي في «الدلائل» (٥/ ١٢٣).

ومن توكل على الله، ولكن لم يفعل السبب الذي أذن الله فيه؛ فهو غير صادق، بل إن عدم فعل الأسباب سفه في العقل ونقص في الدين؛ لأنه طعن واضح في حكمة الله.

والتوكل على الله هو شطر الدين؛ كما قال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، والاستعانة بالله تعالى هي ثمرة التوكل؛ ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣].

ولهذا؛ فإن من توكل على غير الله لا يخلو من ثلاثة أقسام:

أولا: أن يتوكل توكل اعتماد وتعبد؛ فهذا شرك أكبر؛ كأن يعتقد بأن هذا المتوكل عليه هو الذي يجلب له كل خير ويدفع عنه كل شر، فيفوض أمره إليه تفويضًا كاملا في جلب المنافع ودفع المضار، مع اقتران ذلك بالخشية والرجاء، ولا فرق بين أن يكون المتوكل عليه حيًّا أو ميتًا؛ لأن هذا التفويض لا يصح إلا لله.

ثانيًا: أن يتوكل على غير الله بشيء من الاعتماد لكن فيه إيمان بأنه سبب، وأن الأمر إلى الله؛ كتوكل كثير من الناس على الملوك والأمراء في تحصيل معاشهم؛ فهذا نوع من الشرك الأصغر.

ثالثًا: أن يتوكل على شخص على أنه نائب عنه، وأن هذا المتوكل فوقه؛ كتوكل الإنسان على الوكيل في بيع وشراء ونحوهما مما تدخله النيابة؛ فهذا جائز، ولا ينافي التوكل على الله، وقد وكل النبي ﷺ أصحابه في البيع والشراء ونحوهما.

وقوله: «﴿على الْحيِّ الَّذي لا يمُوتُ﴾»: يقولون: إن الحكم إذا عُلِّق بوصف؛ دل على علِّيَّة ذلك الوصف.

لو قال قائل: لماذا لم تكن الآية: وتوكل على القوي العزيز؛ لأن القوة والعزة أنسب فيما يبدو؟!

فالجواب: أنه لما كانت الأصنام التي يعتمد عليها هؤلاء بمنزلة الأموات؛ كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ من دُونِ اللَّهِ لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ * أَمْواتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النحل: ٢٠، ٢١]؛ فقال: توكل على من ليس صفته كصفة هذه الأصنام، وهو الحي الذي لا يموت، على أنه قال في آية أخرى:

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴾ [الشعراء: ٢١٧]؛ لأن العزة أنسب في هذا السياق.

ووجه آخر: أن الحي اسم يتضمن جميع الصفات الكاملة في الحياة، ومن كمال حياته عز وجل أنه أهل لأن يُعتمد عليه.

وقوله: «﴿ لا يَمُوتُ ﴾»؛ يعني لكمال حياته لا يموت، فيكون تعلقها بما قبلها المقصود به إفادة أن هذه الحياة كاملة لا يلحقها فناء.

في هذه الآية من أسماء الله: الحي، وفيها من صفاته: الحياة، وانتفاء الموت، المتضمن لكمال الحياة؛ ففيها صفتان واسم.

قول المؤلف: «وقوله: ﴿ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ [التحريم: ٢]».

قوله: «﴿ وَهُوَ الْعَلِيمُ ﴾»: سبق تعريف العلم، وسبق أن العلم صفة كمال، وسبق أن علم الله محيط بكل شيء.

أما «﴿ الْحَكِيمُ ﴾»: هذه المادة (ح ك م): تدل على حكم وإحكام؛ فعلى الأول يكون الحكيم بمعنى الحاكم، وعلى الثاني الحكيم بمعنى المُحكم؛ إذًا: يدل هذا الاسم الكريم على أن الحكم لله، ويدل على أن الله موصوف بالحكمة؛ لأن الإحكام هو الإتقان، والإتقان وضع الشيء في موضعه. ففي الآية إثبات حكم وإثبات حكمة: فالله عز وجل وحده هو الحاكم، وحكم الله إما كوني وإما شرعي:

فحكم الله الشرعي: ما جاءت به رسله ونزلت به كتبه من شرائع الدين.

وحكم الله الكوني: ما قضاه على عباده من الخلق والرزق والحياة والموت ونحو ذلك من معاني ربوبيته ومقتضياتها.

دليل الحكم الشرعي: قوله تعالى في سورة الممتحنة: ﴿ ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [الممتحنة: ١٠].

ودليل الحكم الكوني: قوله تعالى عن أحد أخوة يوسف: ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ [يوسف: ٨٠].

وأما قوله تعالى: ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴾ [التين: ٨]؛ فشامل للكوني، والشرعي؛ فالله عز وجل حكيم بالحكم الكوني وبالحكم الشرعي، وهو أيضًا

محكم لهما، فكل من الحكمين موافق للحكمة.

لكن من الحكمة ما نعلمه، ومن الحكمة ما لا نعلمه؛ لأن الله تعالىٰ يقول: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الإسراء: ٨٥].

ثم الحكمة نوعان:

الأول: حكمة في كون الشيء علىٰ كيفيته وحاله التي هو عليها؛ كحال الصلاة؛ فهي عبادة كبيرة تُسبق بطهارة من الحدث والخَبَث، وتُؤدَّىٰ علىٰ هيئة معينة من قيام وقعود وركوع وسجود، وكالزكاة؛ فهي عبادة لله تعالىٰ بأداء جزء من المال النامي غالبًا لمن هم في حاجة إليها؛ أو في المسلمين حاجة إليهم كبعض المؤلفة قلوبهم.

والنوع الثاني: حكمة في الغاية من الحكم؛ حيث إن جميع أحكام الله تعالىٰ لها غايات حميدة وثمرات جليلة.

فانظر إلىٰ حكمة الله في حكمه الكوني؛ حيث يصيب الناس بالمصائب العظيمة لغايات حميدة؛ كقوله تعالىٰ: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]، ففيها رد لقول من يقول: إن أحكام الله تعالىٰ ليست لحكمة، بل هي لمجرد مشيئته.

وفي هذه الآية من أسماء الله: العليم، والحكيم.

ومن صفاته: العلم والحكمة.

وفيها من الفوائد المسلكية: أن الإيمان بعلم الله وحكمته يستلزم الطمأنينة التامة لما حكم به من أحكام كونية وشرعية؛ لصدور ذلك عن علم وحكمة، فيزول عنه القلق النفسي، وينشرح صدره.

وقوله: «﴿الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [التحريم: ٣]».

«﴿الْعَلِيمُ﴾»: سبق الكلام فيه.

«﴿الْخَبِيرُ﴾»: هو العليم ببواطن الأمور، فيكون هذا وصفًا أخص بعد وصف أعم؛ فنقول: العليم بظواهر الأمور، والخبير ببواطن الأمور، فيكون العلم بالبواطن مذكورًا مرتين: مرة بطريق العموم، ومرة بطريق الخصوص، لئلا يظن أن علمه

مختص بالظواهر.

وكما يكون هذا في المعاني يكون في الأعيان؛ فمثلا: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا﴾ [القدر:٤]، الروح: جبريل، وهو من الملائكة، فنقول: الملائكة، ومنهم جبريل، وخص جبريل بالذكر تشريفًا له، ويكون النص عليه مرتين: مرة بالعموم، ومرة بالخصوص.

وفي هذه الآية من أسماء الله تعالى: العليم، والخبير.

ومن صفاته: العلم، والخبرة.

وفيها من الفوائد المسلكية: أن الإيمان بذلك يزيد المرء خوفًا من الله وخشية؛ سرًّا وعلنًا.

وقوله: «﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ [سبأ: ٢]».

﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلا تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ﴾ [فاطر: ١١].

وقوله: «﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]».

هذه الآيات في تفصيل صفة العلم:

الآية الأولى: قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ [سبأ: ٢]:

هذا تفصيل لما سبق من عموم علمه تعالى:

«﴿مَا﴾»: اسم موصول يفيد العموم؛ كل ما يلج في الأرض مثل المطر والحب يبذر في الأرض والموتى والدود والنمل وغيرها ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾؛ كالماء والزروع.. وما أشبه ذلك، ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾؛ مثل المطر والوحي والملائكة

وأمر الله عز وجل، ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾؛ كالأعمال الصالحة والملائكة والأرواح والدعاء.

وهنا قال: ﴿وَمَا يَعْرُجُ فيهَا﴾؛ فعدَّىٰ الفعل بـ (في)؛ وفي سورة المعارج قال: ﴿تَعْرُجُ الْمَلائكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج: ٤]؛ فعدَّاه بـ (إلىٰ)، وهذا هو الأصل؛ فما وجه كونه عدَّىٰ بـ (في) في قوله: ﴿يَعْرُجُ فِيهَا﴾؟.

فالجواب: اختلف نحاة البصرة والكوفة في مثل هذا.

فقال نحاة البصرة: إن الفعل يُضمَّن معنىٰ يتلائم مع الحرف.

وقال نحاة الكوفة: بل الحرف يُضمن معنىٰ يتلائم مع الفعل.

فعلىٰ الرأي الأول: يكون قوله: ﴿يَعْرُجُ فِيهَا﴾: مضمنًا معنىٰ (يدخل)، فيصير المعنىٰ: وما يعرج فيدخل فيها وعليه؛ يكون في الآية دلالة علىٰ أمرين: علىٰ عروج ودخول.

أما علىٰ الرأي الثاني: فنقول: (في) بمعنىٰ (إلىٰ)، ويكون هذا من باب التناوب بين الحروف.

لكن علىٰ هذا القول لا تجد أن في الآية معنىٰ جديدًا، وليس فيها إلا اختلاف لفظ (إلىٰ) إلىٰ لفظ (في)، ولهذا كان القول الأول أصح، وهو أن نضمِّن الفعل معنًىٰ يتناسب مع الحرف.

ولهذا نظير في اللغة العربية؛ قال الله تعالىٰ: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّه﴾ [الإنسان: ٦]، والعين يُشرَب منها، والذي يُشرب به الإناء؛ فعلىٰ رأي أهل الكوفة نقول: ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾: الباء بمعنىٰ (من)؛ أي: منها.

وعلىٰ رأي أهل البصرة يُضمن الفعل ﴿يَشْرَبُ﴾ معنىٰ يتلائم مع حرف الباء، والذي يتلائم معها يُروىٰ، ومعلوم أنه لا ري إلا بعد شرب، فيكون هذا الفعل ضمن معنىٰ غايته، وهو الري.

وكذلك نقول في: ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾: لا دخول في السماء إلا بعد العروج إليها، فيكون الفعل ضُمِّن معنىٰ الغاية.

ففي الآية ذكر الله عز وجل عموم علمه في كل شيء بنوع من التفصيل، ثم فصل في آية أخرى تفصيلا آخر، فقال:

الآية الثانية: قوله: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

«﴿عِندَهُ﴾»؛ أي: عند الله، وهو خبر مقدم.

﴿مَفَاتِحُ﴾: مبتدأ مؤخر.

ويفيد هذا التركيب الحصر والاختصاص؛ عنده لا عند غيره مفاتح الغيب، وأكد هذا الحصر بقوله: ﴿لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ﴾؛ ففي الجملة حصر بأن علم هذه المفاتح عند الله بطريقتين: إحداهما: بطريقة التقديم والتأخير، والثانية: طريقة النفي والإثبات.

كلمة «﴿مَفَاتِحُ﴾»؛ قيل: إنها جمع مفتح؛ بكسر الميم وفتح التاء: المفتاح؛ أو أنها جمع مفتاح، لكن حذفت منها الياء، وهو قليل، ونحن نعرف أن المفتاح ما يفتح به الباب، وقيل: جمع مفتح؛ بفتح الميم وكسر التاء، وهي الخزائن؛ فـ﴿مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾: خزائنه، وقيل: ﴿مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾؛ أي: مبادئه؛ لأن مفتح كل شيء يكون في أوله، فيكون على هذا: ﴿مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾؛ أي: مبادئ الغيب؛ فإن هذه المذكورات مبادئ لما بعدها.

«﴿الْغَيْبِ﴾»: مصدر غاب يغيب غيبًا، والمراد بالغيب: ما كان غائبًا، والغيب أمر نسبي، لكن الغيب المطلق علمه خاص بالله.

هذه المفاتح؛ سواء قلنا: إن المفاتح: هي، المبادئ، أو: هي الخزائن، أو المفاتيح؛ لا يعلمها إلا الله عز وجل؛ فلا يعلمها ملك، ولا يعلمها رسول، حتى إن أشرف الرسل الملكي - وهو جبريل - سأل أشرف الرسل البشري - وهو محمد عليه الصلاة والسلام - قال: أخبرني عن الساعة؟ قال: «**ما المسئول عنها بأعلم من السائل**»[1]، والمعنى: كما أنه لا علم لك بها؛ فلا علم لي بها أيضًا. فمن ادَّعى علم الساعة. فهو كاذب كافر، ومن صدقه؛ فهو أيضًا كافر؛ لأنه مكذب للقرآن.

---

(١) سبق تخريجه.

وهذه المفاتح؟ فسرها أعلم الخلق بكلام الله محمد ﷺ حين قرأ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤][1]؛ فهي خمسة أمور:

الأول: علم الساعة: فعلم الساعة مبدأ مفتاح لحياة الآخرة، وسميت الساعة بهذا؛ لأنها ساعة عظيمة، يهدد بها جميع الناس، وهي الحاقة والواقعة، والساعة علمها عند الله، لا يدري أحد متى تقوم إلا الله عز وجل.

الثاني: تنزيل الغيث: ﴿وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾: ﴿الْغَيْثَ﴾: مصدر، ومعناه: إزالة الشدة، والمراد به المطر؛ لأنه بالمطر تزول شدة القحط والجدب، وإذا كان هو الذي ينزل الغيث؛ كان هو الذي يعلم وقت نزوله.

والمطر نزوله مفتاح لحياة الأرض بالنبات، وبحياة النبات يكون الخير في المرعى وجميع ما يتعلق بمصالح العباد.

وهنا نقطة: قال: ﴿وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾، ولم يقل: وينزل المطر؛ لأن المطر أحيانًا ينزل ولا يكون فيه نبات، فلا يكون غيثًا، ولا تحيا به الأرض، ولهذا ثبت في «صحيح مسلم»: «**ليست السَّنَةُ ألا تمطروا، إنما السَّنَة أن تُمطروا ولا تنبت الأرض شيئًا**»[2]، والسَّنَة: القحط.

الثالث: علم ما في الأرحام لقوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾؛ أي: أرحام الإناث، فهو عز وجل يعلم ما في الأرحام؛ أي: ما في بطون الأمهات من بني آدم وغيرهم، ومتعلق العلم عام، بكل شيء؛ فلا يعلم ما في الأرحام إلا من خلقها عز وجل.

فإن قلت: يقال الآن: إنهم صاروا يعلمون الذكر من الأنثى في الرحم؛ فهل هذا صحيح؟.

نقول: إن هذا الأمر وقع، ولا يمكن إنكاره، لكنهم لا يعلمون ذلك إلا بعد

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٤٦٢٧) وأحمد في «مسنده» (١/ ٣١٩) من حديث عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما -.

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٩٠٤) وأحمد في «مسنده» (٢/ ٣٥٨) من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه -.

تكوين الجنين وظهور ذكورته أو أنوثته، وللجنين أحوال أخرى لا يعلمونها؛ فلا يعلمون متى ينزل، ولا يعلمون إذا نزل إلى متى يبقى حيًّا، ولا يعلمون هل يكون شقيًّا أو سعيدًا، ولا يعلمون هل يكون غنيًّا أم فقيرًا . . . إلى غير ذلك من أحواله المجهولة.

إذًا؛ أكثر متعلقات العلم فيما يتعلق بالأجنة مجهول للخلق؛ فصدق العموم في قوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾.

الرابع: علم ما في الغد: وهو ما بعد يومك؛ لقوله: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾، وهذا مفتاح الكسب في المستقبل، وإذا كان الإنسان لا يعلم ما يكسب لنفسه؛ فعدم علمه بما يكسبه غيره أولى.

لكن لو قال قائل: أنا أعلم ما في الغد، سأذهب إلى المكان الفلاني، أو أقرأ، أو أزور أقاربي. فنقول: قد يجزم بأنه سيعمل، ولكن يحول بينه وبين العمل مانع.

الخامس: علم مكان الموت: لقوله: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾؛ ما يدري أي أحد هل يموت في أرضه أو في أرض أخرى؟ في أرض إسلامية أو أرض كافر أهلها؟ ولا يدري هل يموت في البر أو في البحر أو في الجو؟ وهذا شيء مشاهد.

ولا يدري بأي ساعة يموت؛ لأنه إذا كان لا يمكنه أن يدري بأي أرض يموت، وهو قد يتحكم في المكان؛ فكذلك لا يدري بأي زمن وساعة يموت.

فهذه الخمسة هي مفاتح الغيب التي لا يعلمها إلا الله، وسميت مفاتح الغيب؛ لأن علم ما في الأرحام مفتاح للحياة الدنيا، ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ مفتاح للعمل المستقبل، ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ مفتاح لحياة الآخرة، لأن الإنسان إذا مات؛ دخل عالم الآخرة؛ وسبق بيان علم الساعة وتنزيل الغيث؛ فتبين أن هذه المفاتح كلها مبادئ لكل ما وراءها؛ ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

ثم قال عز وجل: «﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [الأنعام: ٥٩]»: هذا إجمال؛ فمن يحصي أجناس ما في البر؟ كم فيها من عالم الحيوان والحشرات والجبال والأشجار والأنهار أمور لا يعلمها إلا الله عز وجل. والبحر كذلك فيه من العوالم ما لا يعلمه إلا خالقه عز وجل؛ يقولون: إن البحر يزيد على البر ثلاثة أضعاف من الأجناس؛

لأن البحر أكثر من اليابس .

قال: «﴿ وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ﴾ [الأنعام: ٥٩]»: هذا تفصيل؛ فأي ورقة في أي شجرة صغيرة أو كبيرة قريبة أو بعيدة تسقط؛ فالله تعالى يعلمها، ولهذا جاءت (ما) النافية و(من) الزائدة؛ ليكون ذلك نصًّا في العموم. والورقة التي تخلق يعلمها من باب أولى؛ لأن عالم ما يسقط عالم بما يخلق عز وجل .

انظر إلى سعة علم الله تعالى، كل شيء يكون؛ فهو عالم به، حتى الذي لم يحصل وسيحصل؛ فهو تعالى عالم به .

قال: «﴿ ولا حبة في ظلمات الأرض ﴾ [الأنعام: ٥٩]»: حبة صغيرة لا يدركها الطرف في ظلمات الأرض يعلمها عز وجل .

«﴿ ظلمات ﴾»: جمع ظلمة، ولنفرض أن حبة صغيرة غائصة في قاع البحر، في ليلة مظلمة مطيرة؛ فالظلمات: أولا: طين البحر، ثانيًا: ماء البحر، ثالثًا: المطر، رابعًا: السحاب، خامسًا: الليل؛ فهذه خمس ظلمات من ظلمات الأرض، ومع ذلك هذه الحبة يعلمها الله سبحانه وتعالى ويبصرها عز وجل .

قال: «﴿ ولا رطب ولا يابس ﴾»: هذا عام؛ فما من شيء إلا وهو إما رطب وإما يابس .

«﴿ إلا في كتاب مبين ﴾»: ﴿ كتاب ﴾؛ بمعنى: مكتوب. ﴿ مبين ﴾؛ أي: مُظهر وبين؛ لأن (أبان) تستعمل متعديًا ولازمًا، فيقال: أبان الفجر؛ بمعنى ظهر الفجر، ويقال: أبان الحق؛ بمعنى أظهره. والمراد بالكتاب هنا: اللوح المحفوظ .

كل هذه الأشياء معلومة عند الله سبحانه وتعالى، ومكتوبة عنده في اللوح المحفوظ؛ لأن الله تعالى: «**لما خلق القلم؛ قال له: اكتب. قال القلم: ماذا أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة**»[1] ؛ فكتب في تلك اللحظة ما هو كائن إلى يوم القيامة، ثم جعل سبحانه في أيدي الملائكة كتبًا تكتب ما يعمله الإنسان؛ لأن الذي في اللوح المحفوظ قد كتب فيه ما كان يريد الإنسان أن يفعل، والكتابة التي

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٤٧٠٠) والترمذي (٣٣١٩) وأحمد في «مسنده» (٥/ ٣١٧) من حديث عبادة بن الصامت ـ رضي الله عنه ـ.

والحديث صححه الشيخ الألباني في «صحيح الترمذي» (٢٦٤٥).

تكتبها الملائكة هي التي يُجزىٰ عليها الإنسان ولهذا يقول الله عز وجل: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾ [محمد: ٣١]، أما علمه بأن عبده فلانًا سيصبر أو لا يصبر؛ فهذا سابق من قبل، لكن لا يترتب عليه الثواب والعقاب.

الآية الثالثة: قوله: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلا تَضَعُ إِلا بِعِلْمِهِ﴾ [فاطر: ١١]

«﴿مَا﴾»: نافية.

«﴿أُنثَى﴾»: فاعل ﴿تَحْمِلُ﴾، لكنه معرب بضمة مقدرة علىٰ آخره منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد.

وهنا إشكال: كيف تقول زائد، وليس في القرآن زائد؟

فالجواب: أنه زائد من حيث الإعراب، أما من حيث المعنىٰ؛ فهو مفيد وليس في القرآن شيء زائد لا فائدة منه؛ ولهذا نقول: هو زائد؛ زائد بمعنىٰ أنه لا يخل بالإعراب إذا حذف، زائد من حيث المعنىٰ يزيد فيه.

وقوله: «﴿مِنْ أُنثَى﴾»: يشمل أي أنثىٰ؛ سواء آدمية أو حيوانية أخرىٰ، الذي يحمل حيوانًا واضح أنه داخل في الآية؛ كبقرة، وبعير، وشاة.. وما أشبه ذلك، ويدخل في ذلك الذي يحمل البيض؛ كالطيور، لأن البيض في جوف الطائر حمل.

«﴿وَلا تَضَعُ إِلا بِعِلْمِهِ﴾»: فابتداء الحمل بعلم الله، وانتهاؤه وخروج الجنين بعلم الله عز وجل.

الآية الرابعة: قوله: ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢].

«﴿لِتَعْلَمُوا﴾»: اللام للتعليل؛ لأن الله قال: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الطلاق: ١٢]؛ فقد خلق هذه السموات السبع والأرضين السبع، وأعلمنا بذلك؛ لنعلم: ﴿أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

فالقدرة وصف يتمكن به الفاعل من الفعل بدون عجز؛ فهو علىٰ كل شيء قدير، يقدر علىٰ إيجاد المعدوم وعلىٰ إعدام الموجود؛ فالسموات والأرض كانت معدومة،

فخلقها الله عز وجل وأوجدها على هذا النظام البديع.

«﴿ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾»: كل شيء؛ الصغير والكبير، والمتعلق بفعله أو بفعل عباده، والماضي واللاحق والحاضر؛ كل ذلك قد أحاط الله سبحانه به علمًا.

وذكر الله عز وجل العلم والقدرة بعد الخلق؛ لأن الخلق لا يتم إلا بعلم وقدرة، ودلالة الخلق على العلم والقدرة من باب دلالة التلازم، وقد سبق أن دلالات الأسماء على الصفات ثلاثة أنواع.

تنبيه: ذكر في «تفسير الجلالين» ـ عفا الله عنا وعنه ـ في آخر سورة المائدة ما نصه: «وخصَّ العقل ذاته؛ فليس عليها بقادر»!.

ونحن نناقش هذا الكلام من وجهين:

الوجه الأول: أنه لا حكم للعقل فيما يتعلق بذات الله وصفاته، بل لا حكم له في جميع الأمور الغيبية، ووظيفة العقل فيها التسليم التام، وأن نعلم أن ما ذكره الله من هذه الأمور ليس محالا، ولهذا يقال: إن النصوص لا تأتي بمحال، وإنما تأتي بمحار؛ أي: بما يحير العقول؛ لأنها تسمع ما لا تدركه ولا تتصوره.

الوجه الثاني: قوله: «فليس عليها بقادر»: هذا خطأ عظيم؛ كيف لا يقدر على نفسه وهو قادر على غيره؛ فكلامه هذا يستلزم أنه لا يقدر أن يستوي ولا أن يتكلم ولا أن ينزل إلى السماء الدنيا ولا يفعل شيئًا أبدًا، وهذا خطير جدًّا!!

لكن لو قال قائل: لعله يريد: «خص العقل ذاته؛ فليس عليها بقادر»؛ يعني: لا يقدر على أن يلحق نفسه نقصًا.

قلنا: إن هذا لم يدخل في العموم حتى يحتاج إلى إخراج وتخصيص؛ لأن القدرة إنما تتعلق بالأشياء الممكنة؛ لأن غير الممكن ليس بشيء؛ لا في الخارج ولا في الذهن؛ فالقدرة لا تتعلق بالمستحيل؛ بخلاف العلم.

فينبغي للإنسان أن يتأدب فيما يتعلق بجانب الربوبية؛ لأن المقام مقام عظيم، والواجب على المرء نحوه أن يستسلم ويسلم.

إذًا؛ نحن نطلق ما أطلقه الله، ونقول: إن الله على كل شيء قدير؛ بدون استثناء.

في هذه الآيات من صفات الله تعالى: إثبات عموم علم الله على وجه التفصيل، وإثبات عموم قدرة الله تعالى.

والفائدة المسلكية من الإيمان بالعلم والقدرة: قوة مراقبة الله والخوف منه.

● قال الشيخ صالح الفوزان:

قوله: ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ﴾ الآية، هذه الآية الكريمة قد فسرها النبي ﷺ في الحديث الذي راوه مسلم أنه ﷺ قال: «**اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء**»[1].

فقد فسر النبي ﷺ هذه الأسماء الأربعة بهذا التفسير المختصر الواضح، وفي هذه الأسماء المباركة إحاطته سبحانه من كل وجه، ففي اسمه «الأول والآخر» إحاطته الزمانية، وفي اسمه «الظاهر والباطن» إحاطته المكانية.

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: فهذه الأسماء الأربعة متقابلة: اسمان لأزليته وأبديته سبحانه واسمان لعلوه وقربه، فأوليته سبحانه سابقة على أولية كل ما سواه، وآخريته سبحانه ثابتة بعد آخرية كل ما سواه، فأوليته: سَبْقُهُ لكل شيء، وآخريته: بقاؤه بعد كل شيء، وظاهريته: فوقيته وعلوه على كل شيء. ومعنى الظهور يقتضي العلو، وظاهر الشيء: ما علا منه. وبطونه سبحانه: إحاطته بكل شيء بحيث يكون أقرب إليه من نفسه، وهذا قرب الإحاطة العامة. اهـ.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي: قد أحاط علمه بكل شيء من الأمور الماضية والحاضرة والمستقبلة، ومن العالم العلوي والسفلي، ومن الظواهر والبواطن لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء.

والشاهد من الآية الكريمة: إثبات هذه الأسماء الكريمة لله المقتضية لإحاطته بكل شيء زمانًا واطلاعًا وتقديرًا وتدبيرًا. تعالى وتقدس علوًا كبيرًا.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧١٣) وأبو داود (٥٠٥١) من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ.

«﴿ وتوكل على الحي الذي لا يموت ﴾» أبدًا، أي: فوض أمورك إليه، فالتوكل لغة: التفويض، يقال: وكلت أمري إلىٰ فلان، أي: فوضته.

ومعناه شرعًا: اعتماد القلب علىٰ الله في جلب ما ينفع ودفع ما يضر، والتوكل علىٰ الله نوع من أنواع العبادة، وهو واجب ولا ينافي الأخذ بالأسباب، بل يتفق معه تمامًا. وخص صفة الحياة إشارة إلىٰ أن الحي هو الذي يوثق به في تحصيل المصالح. ولا حياة علىٰ الدوام إلا لله سبحانه، وأما الأحياء المنقطعة حياتهم فإنهم إذا ماتوا ضاع من يتوكل عليهم.

والشاهد من الآية الكريمة: أن فيها إثبات الحياة الكاملة لله سبحانه، ونفي الموت عنه، ففيها الجمع بين النفي والإثبات في صفات الله تعالىٰ.

وقوله: «﴿ الحكيم ﴾» له معنيان: أحدهما: أنه الحاكم بين خلقه بأمره الكوني وأمره الشرعي في الدنيا والآخرة. والثاني أنه المحكم المتقن للأشياء مأخوذ من الحكمة وهي وضع الأشياء في مواضعها، فهو سبحانه الحاكم بين عباده الذي له الحكمة في خلقه وأمره لم يخلق شيئًا عبثًا ولم يشرع إلا ما هو عين المصلحة.

«﴿ الخبير ﴾»: من الخبرة وهي الإحاطة ببواطن الأشياء وظواهرها، يقال: خبرت الشيء إذا عرفته علىٰ حقيقته. فهو سبحانه الخبير: أي: الذي أحاط ببواطن الأشياء وخفاياها، كما أحاط بظواهرها.

والشاهد من الآية: أن فيها إثبات اسمين من أسمائه سبحانه: الحكيم، الخبير، وهما يتضمنان صفتين من صفاته، وهما: الحكمة، والخبرة.

﴿ يعلم ما يلج في الأرض ﴾ أي: ما يدخل فيها من القطر والبذور والكنوز والموتىٰ وغير ذلك.

﴿ وما يخرج منها ﴾ أي: من الأرض من النبات والمعادن وغير ذلك.

﴿ وما ينزل من السماء ﴾ أي: من المطر والملائكة وغير ذلك.

﴿ وما يعرج فيها ﴾ أي: يصعد في السماء من ملائكة وأعمال وغير ذلك.

والشاهد من الآية الكريمة: أن فيها إثبات علم الله سبحانه المحيط بكل شيء.

وقوله: «﴿ وعنده مفاتح الغيب ﴾»: أي: عند الله وحده خزائن الغيب، أو ما يتوصل به إلىٰ علمه.

«﴿ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ ﴾» فمن ادعى علم شيء منها فقد كفر، وقد ورد تفسير مفاتح الغيب في الحديث الذي رواه ابن عمر كما في «الصحيحين»(١) عنه، أن النبي ﷺ قال: «مفاتح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله»، ثم قرأ هذه الآية: ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾.

«﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ ﴾» أي: اليابس المعمور والقفار من السكان والنبات والدواب وغير ذلك.

«﴿ وَالْبَحْرِ ﴾» أي: يعلم ما فيه من الحيوانات والجواهر ونحو ذلك.

«﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ ﴾» أي: من أشجار البر والبحر وغير ذلك.

«﴿ إِلاَّ يَعْلَمُهَا ﴾» أي: يعلمها ويعلم زمان سقوطها ومكانه.

«﴿ وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ ﴾» أي: ولا تكون حبة في الأمكنة المظلمة أو في بطن الأرض.

«﴿ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ ﴾» من جميع الموجودات، عموم بعد خصوص.

«﴿ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾» أي: لا يحصل شيء من ذلك إلا وهو مكتوب في اللوح المحفوظ.

وجه الشاهد من الآية: أن فيها إثبات أنه لا يعلم الغيب إلا الله، وأن علمه محيط بكل شيء، وفيها إثبات القدر والكتابة في اللوح المحفوظ.

«﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلا تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ ﴾» أي: لا يكون حمل ولا وضع إلا والله عالم به فلا يخرج شيء عن علمه وتدبيره، فيعلم سبحانه في أي يوم تحمل الأنثى، وفي أي يوم تضع، ونوع حملها هل هو ذكر أو أنثى.

«﴿ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾» اللام متعلقة بقوله تعالى: ﴿ خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ أي: فعل ذلك لتعلموا كمال قدرته.

«﴿ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾» أي: ولتعلموا إحاطة علمه بالأشياء فلا يخرج عن علمه شيء منها كائنًا ما كان، و﴿ عِلْمًا ﴾ منصوب على التمييز أو على المصدرية؛ لأن أحاط بمعنى علم.

الشاهد من الآيتين: أن فيهما إثبات علم الله المحيط بكل شيء، وإثبات قدرته على كل شيء.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧٧٨) والحديث لم أقف عليه عند مسلم.

[أسئلة وأجوبة نموذجية على صفة العلم]

● قال الشيخ عبد العزيز المحمد السلمان:

س ـ ما الذي تعرفه عن معنى قوله: ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣]؟

ج - قد فسرها ﷺ بما لم يبق مقالاً لقائل حيث يقول: «**اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيءٌ**» فمدار هذه الأسماء الأربعة على الإحاطة.

وهي تنقسم إلى قسمين: زمانية ومكانية فأحاطت أوليته بالقبل، وأحاطت آخريته بالبعد، وأحاطت ظاهريته وباطنيته بكل ظاهر وباطن، فما من ظاهر إلا والله فوقه، وما من باطنٍ إلا والله دونه.

فالأول قدمه والآخر بقاؤه ودوامه والظاهر علوه وعظمته والباطن قربه ودنوه وقوله: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣] فلا يخفى عليه شيء لا دقيقٌ ولا جليل.

س ـ ما الذي يؤخذ من هذه الآية الكريمة؟

ج ـ فيها أولاً: إثبات أوليته سبحانه وسبقه لكل شيء.

ثانيًا: إثبات دوامه وبقائه وأنه لا شيء بعده.

ثالثًا: إثبات علو الله على خلقه.

رابعًا: إفادة قربه ودنوه وإحاطته سبحانه مع أنه فوقهم.

خامسًا: سعة علمه وأنه أحاط بكل شيء علمًا.

سادسًا: فيها رد على المعتزلة.

سابعًا: فيها رد على من ينكر صفة العلم من الجهمية والقدرية ونحوهم.

ثامنًا: الرد على من قال إنه يعلم الكليات دون الجزئيات.

تاسعًا: إثبات صفة الكلام.

عاشرًا: التنبيه على مقام المراقبة والخوف من الله.

س ـ بين معنى قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾ [الفرقان: ٥٨]؟

ج ـ التوكل اعتماد القلب على الله في جلب المنافع ودفع المضار مع الثقة بالله وفعل الأسباب، أي: وتوكل على ربك الدائم الباقي رب كل شيء ومليكه واجعله ملجأ وذخراً لك، وفوض أمرك إليه واستسلم له واصبر على ما نابك فيه فإنه كافيك وناصرك ومبلغك ما تريد.

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: ولا يتم التوكل الكامل إلا بمعرفة الله وصفاته وأفعاله وإثبات الأسباب والاجتهاد فيها وقوة الاعتماد على الله والاستناد إليه والسكون بحيث لا يبقى القلب مضطربًا من تشويش الأسباب ولابد من حسن الظن والثقة بالله في نيل ما توكل العبد على الله فيه والتفويض إلى الله واستسلام القلب له ويتوكل على الله في كل مطلوب حصوله أو دفع مكروه وأفضل التوكل ما كان في حصول خير ديني خاص أو عام. اهـ.

س ـ ما الذي يؤخذ من هذه الآية الكريمة؟

ج ـ أولاً: الأمر بالتوكل على الله.

ثانيًا: إثبات صفة الحياة وهي من الصفات الذاتية فحياته سبحانه أكمل حياة وأتمها ويستلزم ثبوتها ثبوت كل كمال يضاد نفيه كمال الحياة وخصص صفة الحياة إشارة إلى أن الحي هو الذي يوثق به في المصالح ولا حياة على الدوام إلا لله سبحانه دون الأحياء المنقطعة حياتهم فإنهم إذا ماتوا ضاع من يتوكل عليهم.

ثالثًا: الحث على تسبيح الله وتقديسه.

رابعًا: الحث على حمد الله. خامسًا: إثبات صفة الكلام لله.

سادسًا: الرد على من قال إن القرآن كلام محمد ﷺ.

س ـ ما الذي تعرفه عن اسمه تعالى الحكيم؟

ج ـ الحكيم مأخوذ من الحكمة وله معنيان أحدهما: بمعنى القاضي العدل الحاكم بين خلقه بأمره الديني الشرعي، وأمره الكوني القدري وله الحكم في الدنيا والآخرة كما قال تعالى: ﴿وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٧٠] المعنى الثاني: أنه المحكم للأمر كي لا يتطرق إليه الفساد.

قال ابن القيم رحمه الله:

وهو الحكيم وذاك من أوصافه ... نوعان أيضًا ما هما عدمان
حكم وإحكام فكل منهما ... نوعان أيضًا ثابتا البرهان
والحكم شرعي وكوني ولا ... يتلازمان وما هما سيان
بل ذاك يوجد دون هذا مفردًا ... والعكس أيضًا ثم يجتمعان
لن يخلو المربوب من إحداهما ... أو منهما بل ليس ينتفيان
لكنما الشرعي محبوب له ... أبدًا ولن يخلو من الأكوان
هو أمره الديني وجاءت رسله ... بقيامه في سائر الأزمان
لكنما الكوني فهو قضاؤه ... في خلقه بالعدل والإحسان
هو كله حق وعدل ذو رضا ... والشأن في المقضي كل الشان
فلذاك نرضى بالقضاء ونسخط الـ ... ـمقضيَّ حين يكون بالعصيان
فالله يرضى بالقضاء ويسقط الـ ... المقضي ما الأمران متحدان
فقضاؤه صفة به قامت وما الـ ... ـمقضي إلا صنعة الإنسان
والكون محبوب ومبغوض له ... وكلاهما بمشيئة الرحمن
من وافق الكوني وافق سخطه ... أو لم يوافق طاعة الديان
فلذاك لا يعدوه ذم أو فوا ... ت الحمد مع أجر ومع رضوان
وموافق الديني لا يعدوه أجـ ... ـر بل له عند الصواب اثنان

س ـ ما أقسام حكمته تعالى؟

ج ـ هي تنقسم إلى قسمين:

أحدهما: حكمة في خلقه وهي نوعان:

الأول: إحكام هذا الخلق وإيجاده في غاية الإحكام والإتقان.

والثاني: صدوره لأجل غايات محمودة مطلوبة له سبحانه وتعالى التي أمر لأجلها وخلق لأجلها.

الثانية: حكمة في شرعه وتنقسم إلى قسمين:

الأول: كونها في غاية الإتقان والإحسان.

الثاني: كونها صدرت لغاية محمودة وحكمة عظيمة وإليها أشار ابن القيم رحمه الله تعالى:

والحكمة العليا على نوعين أيـ ـضا حُصِلاَ بقواطع البرهان
إحداهما في خلقه سبحانه نوعان أيضًا ليس يفترقان
إحكام هذا الخلق إذ إيجاده في غاية الإحكام والإتقان
وصدوره من أجل غايات له وله عليها حمد كل لسان
والحكمة الأخرى فحكمة شرعه أيضًا وفيها ذانك الوصفان
غاياتها اللاتي حمدن وكونها في غاية الإتقان والإحسان

س ـ ما الذي تعرفه عن معنى اسمه تعالى اللطيف الخبير؟

ج ـ «اللطيف» الذي لطف علمه وخبره حتى أدرك السرائر والضمائر والخفايا والغيوب ودقائق الأمور والمصالح وغوامضها، فالخفي في علمه مكشوف كالجلي من غير فرق.

وأنواع لطفه تعالى لا يمكن حصرها فيلطف بعبده في أموره الداخلية المتعلقة بنفسه، ويلطف بعبده في أموره الخارجية فيسوقه ويسوق إليه ما به صلاحه من حيث لا يشعر.

النوع الثاني: لطفه بعبده ووليه الذي يريد أن يتم عليه إحسانه كما جرى ليوسف عليه السلام.

وأما معنى «الخبير»: فهو من الخبرة بمعنى كمال العلم ووثوقه والإحاطة بالأشياء على وجه الدقة والتفصيل وهو العلم بكل ما خفي ودق.

فالعلم عندما يضاف إلى الخفايا الباطنة يسمى خبرة ويسمى صاحبها خبيراً والله سبحانه لا يجري في الملك والملكوت شيء ولا يتحرك ذرة فما فوقها وما دونها، ولا يسكن ولا يضطرب نفس ولا يطمئن إلا عنده مِن ذلك خبرة.

وهو يقرب من معنىٰ اللطيف ولهذا تجد في القرآن في بعض الآيات يقرن الله بينهما كما في قوله تعالىٰ: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

قال ابن القيم رحمه الله:

وهو اللطيف بعبده ولعبده	واللطف في أوصافه نوعان
إدراك أسرار الأمور بخبرة	واللطف عند مواقع الإحسان
فيريك عزته ويبدي لطفه	والعبد في الغفلات عن ذا الشان

س ـ بيِّن ما تعرفه عن معنى قوله تعالىٰ: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤]؟

ج ـ في هذه الآية إثبات علم الله وصفة العلم من الصفات الذاتية التي لا ينفك الباري عنها فهو سبحانه يعلم ما يدخل في الأرض من المياه والكنوز والأموات والبذور والوحوش وغير ذلك.

ويعلم ما يخرج من الأرض من نبات ومعادن ومياه وأموات وأبخرة وغير ذلك، وما ينزل من السماء من ملائكة وأمطار ومصائب وحر وبرد وغير ذلك، وما يعرج فيها من الحفظة والأعمال.

وهو معكم، أي رقيب عليكم شهيد علىٰ أعمالكم حيث كنتم من بر أو بحر في ليل أو نهار في البيوت أو في القفار، الجميع في علمه علىٰ السواء وتحت بصره وسمعه فيسمع كلامكم، ويرىٰ مكانكم، ويعلم سركم ونجواكم، فهذه معية العلم والاطلاع والإحاطة.

قال ابن القيم:

وروى ابنُ نافع الصدوقُ سماعَهُ	منه على التحقق والإتقان
الله حقًّا في السماء وعلمه	سبحانه حقًّا بكل مكان

س ـ بيِّن ما يؤخذ من هذه الآية الكريمة؟

ج ـ أولاً: إثبات صفة العلم لله تعالىٰ.

ثانيًا: إثبات علو الله.

ثالثًا: المعية العامة.

رابعًا: إثبات البصر لله.

خامسًا: إثبات القدرة.

سادسًا: إثبات سعة علمه سبحانه.

سابعًا: الحث على المراقبة.

ثامنًا: إثبات صفة الكلام.

تاسعًا: في الآية ما يدع الإنسان في حذر دائم وخشية دائمة من الحياء والتحرج من كل دنس.

عاشرًا: إثبات الألوهية.

الحادي عشر: إثبات قدرة الله.

الثاني عشر: في الآية ما يبعث على الخوف من الله والحذر من المعاصي.

الثالث عشر: حلم الله على الكافر والعاصي حيث لم يعاجلهم بالعقوبة.

الرابع عشر: أن العباد لم يقدروا الله حق قدره وإلا لما عصوه وهو يعلم كل شيء ويقدر على كل شيء.

قال ابن القيم رحمه الله:

قالوا له ولد وليس يعيدنا   شتمًا وتكذيبًا من الإنسان

هذا وذاك بسمعه وبعلمه   لو شاء عاجلهم بكل هوان

س - بيِّن ما تعرفه عن معنى قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]؟

ج - هذه الآية العظيمة من أعظم الآيات تفصيلاً لنعم الله المحيط والمعنى أن عنده سبحانه خاصة مخازن الغيب أو المفاتيح التي يتوصل بها إليه فهو الذي يحيط بها

علمًا وسواه جاهل لا يعلم منها شيئًا إلا ما أعلمه الله فقوله: ﴿لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ﴾ جملة مؤكدة لمضمون الجملة الأولى.

قال المناوي: فمن ادَّعى علم شيء منها كفر، وخص علم ما في البر والبحر بالذكر لأنهما من أعظم مخلوقات الله ولكونهما أكثر ما يشاهده الناس ويتطلعون لعلم ما فيهما والخلاصة أنه سبحانه يعلم الغيب والشهادة والأحوال الظاهرة والباطنة والرطبة واليابسة وأنه لا يندُّ عن علمه شيء في الزمان ولا في المكان ولا في البر ولا في البحر ولا في الجو ولا في الأرض.

روى البخاري عن سالم بن عبد الله عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «**مفاتح الغيب خمس: إن الله عنده علم الساعة، وينزل الغيث، ويعلم ما في الأرحام، وما تدري نفس ماذا تكسب غدًا وما تدري نفس بأي أرض تموت، إن الله عليم خبير**».

وجاء في معنى الآية: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾[النمل: ٧٤] ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل: ٧٥] وجاء في معناها أيضًا ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾[يس: ١٢].

س ـ ما الذي يؤخذ من هذه الآية الكريمة؟

ج ـ فيها، أولاً: إثبات صفة العلم لله بالأشياء جملة وتفصيلاً وعنده علم ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة وما يكون قبل ذلك وبعده.

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ:

وهو العليم أحاط علمًا بالذي ... في الكون من سر ومن إعلان

وبكل شيء علمه سبحانه ... فهو المحيط وليس ذا نسيان

وكذاك يعلم ما يكون غدًا وما ... قد كان والموجود في ذا الآن

ثانيًا: فيها دليل على عظمة الله وسعته في أوصافه كلها.

ثالثًا: فيها رد على المعتزلة.

رابعًا: الرد على من زعم أن رسول الله ﷺ يعلم الغيب.

خامسًا: فيها رد على القدرية الذين يزعمون أن الله لا يعلم الأشياء إلا بعد وقوعها.

سادسًا: إثبات اللوح المحفوظ.

سابعًا: أن اللوح المحفوظ محيط بالأشياء كلها.

ثامنًا: دليل على علو الله على خلقه والمأخوذ من قوله ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ [الأنعام: ٥٩].

تاسعًا: إثبات صفة الكلام لله جل وعلا على ما يليق بجلاله وعظمته.

عاشرًا: فيها ما يدفع أباطيل الكهان والمنجمين والرمالين وغيرهم من المدعين ما ليس من شأنهم ولا يدخل تحت قدرتهم ولا يحيط به علمهم.

الحادي عشر: تنبيه المكلفين إلى عدم إهمال أحوالهم المشتملة على الثواب والعقاب.

الثاني عشر: أن الله يعلم المنظور والمحجوب والمعلوم والمجهول وجميع ما في الزمان والمكان على السواء ما يخفى عليه شيء جل وعلا وتقدس.

الثالث عشر: أن حركة الموت والفناء الساقطة من علو إلى أسفل ومن حياة إلى اندثار يعلمها الله.

الرابع عشر: التعميم الشامل الذي يشمل الموت والحياة والذبول والازدهار.

الخامس عشر: الحث على الخوف من الله ومراقبته.

السادس عشر: ذكر البر لأن الإنسان قد شاهد أحواله وكثرة ما فيه.

السابع عشر: ذكر البحر وكثرة ما فيه. لأن الحس يدل على أن عجائب البحار في الجملة أكثر وطولها وعرضها أعظم وما فيها من الحيوانات وأجناس المخلوقات أعجب.

الثامن عشر: أنه يفهم من الآن أن معلومات ما في البر وما في البحر حقير في جنب ما دخل في عموم ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾[الأنعام: ٥٩].

التاسع عشر: إثبات قدرة الله.

س ـ بين ما تعرفه عن معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلا تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ﴾ [فاطر: ١١] ؟

ج ـ المعنى لا يكون حَمْلٌ ولا وَضْع إلا والله عالم به، سبحانه يعلم في أي يوم تحمل وفي أي يوم تضع فلم يخرج عن علمه وتدبيره وهل هو ذكر أو أنثى. ففي هذه الآية إثبات صفة العلم وانفراده سبحانه بعلم ما في الأرحام وعلم مدته فيها والرد على من أنكر صفة العلم.

س ـ بيِّن ما تعرفه عن معنى قوله: ﴿ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ [الطلاق: ١٢] ؟

ج ـ اللام متعلقة بخلق أو بيتنزل أو بمقدر أي فعل ذلك لتعلموا أنه بالغ القدرة لا يُعجزه شيء فهذا عام يتناول أفعال العباد من الطاعات وكل شيء ومن قدرته تعالى أنه إذا شاء فعل من غير ممانع ولا معارض ومن أسمائه تعالى القدير قال ابن القيم رحمه الله:

وهو القدير فليس يعجزه إذا ... ما رام شيئًا قط ذو السلطان

فجميع الأشياء منقادة لقدرته تابعة لمشيئته، ولا يخرج عن علمه شيء منها كائنًا ما كان وانتصاب علمًا على المصدرية أو صفة لمصدر محذوف.

س ـ ما الذي يؤخذ من هذه الآية؟

ج ـ أولاً: إثبات صفة العلم لله.

ثانيًا: إثبات قدرة الله، والدليل العقلي على علمه سبحانه أنه يستحيل إيجاد الأشياء مع الجهل؛ لأن إيجاد الأشياء بإرادته والإرادة تستلزم تصور المراد ولهذا قال تعالى: ﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[الملك: ١٤].

ثالثًا: في المخلوقات من الإحكام والإتقان وعجيب الصنعة ودقيق الخلقة ما يشهد بعلم الله جل وعلا لامتناع صدور ذلك من غير علم.

رابعًا: في المخلوقات من هو عالم والعلم صفة كمال فلو لم يكن عالمًا لكان في المخلوقات من هو أكمل منه وكل علم في المخلوق استفاده من الخالق. وواهب

الكمال أحق به . وفاقد الشيء لا يعطيه .

قال ابن القيم رحمه الله:

وكمال من أعطى الكمال بنفسه	أولى وأجدر عند ذي العرفان
أيكون قد أعطى الكمال وماله	ذاك الكمال أذاك ذو إمكان؟
أيكون إنسان سميعًا مبصرًا	متكلمًا بمشيئة وبيان؟
وله الحياة وقدرة وإرادة	والعلم بالكلي والأعيان
والله قد أعطاه ذاك وليس هـ	ذا وصفه فاعجب من البهتان

رابعًا: مما يؤخذ في الآية الرد على القدرية الذين يقولون : إن أفعال العباد غير داخلة في قدرة الله .

خامسًا: الرد على المعتزلة الذين يقولون عليم بلا علم .

سادسًا: رد على الجهمية المنكرين لعلم الله المحيط بالماضي والحالي والمستقبل .

سابعًا: إثبات الألوهية .

ثامنًا: الحث على الخوف من الله .

تاسعًا: الحث على مراقبة الله .

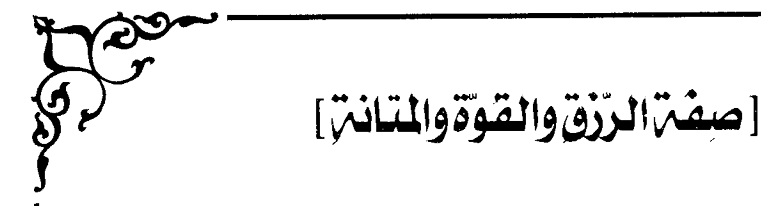
عاشرًا: إحاطة علم الله بكل شيء .

الحادي عشر: حلم الله على الكافر والعاصي .

الثاني عشر: أن العباد لا يَقْدِرُون الله حق قدره وإلا لما عصوه وهو يعلم كل شيء .

الثالث عشر: إثبات صفة الكلام لله .

* * *



[صفة الرزق والقوة والمتانة]

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨].

• الشرح •

• قال الشيخ محمد خليل هراس:

قوله: «﴿ إن الله... ﴾ إلخ»: تضمنت إثبات اسمه «الرزاق» وهو مبالغة من الرزق ومعناه الذي يرزق عباده رزقًا بعد رزق في إكثار وسعة؛ وكل ما وصل منه سبحانه من نفع إلى عباده فهو رزق مباحًا كان أو غير مباح على معنى أنه قد جعله لهم قوتًا ومعاشًا؛ قال تعالى: ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ (١٠) رِزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾ وقال: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ إلا أن الشيء إذا كان مأذونًا في تناوله فهو حلال حكمًا وإلا كان حرامًا، وجميع ذلك رزق، وتعريف الجملة الإسمية والإتيان فيها بضمير الفصل لإفادة اختصاصه سبحانه بإيصال الرزق إلى عباده.

وروي عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «أقرأني رسول الله ﷺ إني أنا الرزاق ذو القوة المتين».

وأما قوله: «﴿ ذو القوة﴾»: أي صاحب القوة فهو بمعنى اسمه القوي إلا أنه أبلغ في المعنى، فهو يدل على أن قوته سبحانه لا تتناقص فيهم أو تفتر.

وأما: «﴿ المتين﴾»: فهو اسم له من المتانة، وقد فسره ابن عباس «بالشديد».

• قال الشيخ ابن العثيمين:

«وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ﴾ [الذاريات: ٥٨]».

في هذه الآية إثبات صفة القوة لله عز وجل.

جاءت هذه الآية بعد قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦، ٥٧]؛ فالناس يحتاجون إلى رزق الله، أما الله تعالى؛ فإنه لا يريد منهم رزقًا، ولا أن يطعموه.

«﴿الرَّزَّاقُ﴾»: صيغة مبالغة من الرزق، وهو العطاء؛ قال تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُوْلُواْ الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾ [النساء: ٨]؛ أي: أعطوهم، والإنسان يسأل الله تعالى في صلاته، ويقول: اللهم ارزقني.

وينقسم الرزق إلى قسمين: عام وخاص.

فالعام: كل ما ينتفع به البدن؛ سواء كان حلالا أو حرامًا، وسواء كان المرزوق مسلمًا أو كافرًا، ولهذا قال السفاريني:

والرزق ما ينفع من حلال و ضده فحل عن المحال

لأنه رازق كل الخلق وليس مخلوق بغير رزق

لأنك لو قلت: إن الرزق هو العطاء الحلال. لكان كل الذين يأكلون الحرام؛ لم يرزقوا، مع أن الله أعطاهم ما تصلح به أبدانهم، لكن الرزق نوعان: طيب وخبيث، ولهذا قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢]، ولم يقل: والرزق، أما الخبائث من الرزق، فهي حرام.

أما الرزق الخاص: فهو ما يقوم به الدين من العلم النافع والعمل الصالح والرزق الحلال المعين على طاعة الله، ولهذا جاءت الآية الكريمة: ﴿الرَّزَّاقُ﴾، ولم يقل: الرازق؛ لكثرة رزقه وكثرة من يرزقه؛ فالذي يرزقه الله عز وجل لا يحصى باعتبار أجناسه، فضلا عن أنواعه، فضلا عن آحاده؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ [هود: ٦]، ويعطي الله الرزق بحسب الحال.

ولكن إذا قال قائل: إذا كان الله هو الرزاق؛ فهل أسعى لطلب الرزق، أو أبقى في بيتي ويأتيني الرزق؟

فالجواب: نقول: اسع لطلب الرزق؛ كما أن الله غفور؛ فليس معنى هذا أن لا تعمل وتتسبب للمغفرة.

أما قول الشاعر:

جنون منك أن تسعى لرزق ويرزق في غشاوته الجنين[1]

فهذا القول باطل. وأما استشهاده بالجنين؛ فالجواب: أن يقال الجنين لا يمكن أن يوجه إليه طلب الرزق؛ لأنه غير قادر؛ بخلاف القادر.

ولهذا قال الله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ**﴾ [الملك: ١٥]؛ فلابد من سعي، وأن يكون هذا السعي على وفق الشرع.

وقوله: «﴿ذُو الْقُوَّةِ﴾»:

القوة: صفة يتمكن الفاعل بها من الفعل بدون ضعف، والدليل قوله تعالى: ﴿**اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً**﴾ [الروم: ٥٤]، وليست القوة هي القدرة؛ لقوله تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا**﴾ [فاطر: ٤٤]؛ فالقدرة يقابلها العجز، والقوة يقابلها الضعف، والفرق بينهما: أن القدرة يوصف بها ذو الشعور، والقوة يوصف بها ذو الشعور وغيره. ثانيًا: أن القوة أخص؛ فكل قوي من ذي الشعور قادر، وليس كل قادر قويًا. مثال ذلك: تقول: الريح قوية، ولا تقول: قادرة، وتقول: الحديد قوي، ولا تقول: قادر، لكن ذو الشعور تقول: إنه قوي، وإنه قادر.

ولما قالت عاد: ﴿**مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً**﴾؛ قال الله تعالى: ﴿**أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً**﴾ [فصلت: ١٥].

وقوله: «﴿الْمَتِينُ﴾»: قال ابن عباس رضي الله عنهما: **الشديد**: أي: الشديد في قوته، الشديد في عزته، الشديد في جميع صفات الجبروت، وهو من حيث المعنى توكيد للقوي.

ويجوز أن نخبر عن الله بأنه شديد، ولا نسمي الله بالشديد، بل نسميه بالمتين، لأن الله سمى نفسه بذلك.

---

(١) انظر «قرى الضيف» (٥/ ١٦٣) و«نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب» (٢/ ٥٨٧).

في هذه الآية إثبات اسمين من أسماء الله؛ هما: الرزاق، والمتين.

وإثبات ثلاث صفات، وهي: الرزق، والقوة، وما تضمنه اسم المتين.

والفائدة المسلكية في الإيمان بصفة القوة والرزق: أن لا نطلب القوة والرزق إلا من الله تعالى، وأن نؤمن بأن كل قوة مهما عظمت؛ فلن تقابل قوة الله تعالى.

● قال الشيخ صالح الفوزان:

وقوله تعالى: «﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ﴾» أي: لا رازق غيره، الذي يرزق مخلوقاته ويقوم بما يصلحهم فهو كثير الرزق واسعه فلا تعبدوا غيره.

«﴿ذُو الْقُوَّةِ﴾» أي: صاحب القوة التامة الذي لا يعتريه ضعف.

«﴿الْمَتِينُ﴾» أي: البالغ في القوة والقدرة نهايتهما فلا يلحقه في أفعاله مشقة ولا كلفة ولا تعب. والمتانة معناها: الشدة والقوة.

الشاهد من الآية الكريمة: أن فيها إثبات اسمه الرزاق، ووصفه بالقوة التامة التي لا يعتريها ضعف ولا تعب سبحانه وتعالى، وفيها الاستدلال على وجوب عبادته وحده لا شريك له.

❊ ❊ ❊

[أسئلة وأجوبة نموذجية على صفة الرزق والقوة والمتانة]

● قال الشيخ عبد العزيز المحمد السلمان:

س - ما الذي تفهمه من قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾؟ [الذاريات: ٥٨].

ج - يخبرنا سبحانه وتعالى أنه المتفرد بالرزق لا رازق سواه ولا معط غيره فما من دابة في الأرض ولا في السماء إلا على الله رزقها، وقوله «ذو القوة»: أي: صاحب القوة الكاملة والقدرة التامة فلا يعجزه شيء ولا يخرجه عن سلطانه أحد.

ومن قوته أن أوصل رزقه إلى جميع العالم وأنه يبعث الأموات بعد ما تمزقوا، ومن قدرته إيجاد الأجرام العظيمة العلوية والسفلية ومن قدرته أن قلب عصا موسى حية تسعى ثم أعادها ومنها حضور عرش بلقيس في لحظة وأشياء كثيرة غير هذه لا يتسع لها هذا الموضع.

ومن أسمائه تعالى: «المتين»: والمتانة تدل على القوة فالله تعالى بالغ القوة والقدرة، قوي من حيث إنه شديد القوة لا ينسب إليه عجز في حال من الأحوال.

س - ما الذي يؤخذ من هذه الآية الكريمة؟

ج - أولاً صفة الرزق وسعته وهو قسمان:

الأول: الرزق المطلق وهو ما استمر نفعه في الدنيا والآخرة وهو رزق القلوب: العلم والإيمان والرزق الحلال.

والثاني: مطلق الرزق العام لسائر الخلق برهم وفاجرهم والبهائم وغيرها وهو إيصال القوت إلى كل مخلوق وهذا يكون من الحلال والحرام والله رازقه.

قال ابن القيم رحمه الله:

وكذلك الرزاق من أسمائه ... والرزق من أفعاله نوعان

رزق على يد عبده ورسوله   نوعان أيضًا ذان معروفان
رزق القلوب العلم والإيمان والـر   زق المعد لهذه الأبدان
هذا هو الرزق الحلال وربنا   رازقه والفضل للمنان
والثاني سوق القوت للأعضاء في   تلك المجاري سوقها بوزان
هذا يكون من الحلال كما يكو   ن من الحرام كلاهما رزقان
والله رَازِقُه بهذا الاعتبا   ر وليس بالإطلاق دون بيان

س ـ ما الذي يؤخذ من هذه الآية الكريمة؟

ج ـ أولاً: إثبات الألوهية.

ثانيًا: إثبات القوة قال الله تعالىٰ: ﴿أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ١٦٥].

ثالثًا: إثبات قدرة الله.

رابعًا: إثبات عظمة الله.

خامسًا: فيها دليل علىٰ كرم الله وكثرة رزقه للخلائق.

سادسًا: فيها رد علىٰ اليهود لقولهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨١] ـ تعالىٰ الله عن قولهم علوًا كبيراً.

سابعًا: فيها، دليل علىٰ غناه سبحانه، وفقر الخلائق إليه، قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالىٰ:

والفقر لي وصف ذات لازم أبدا   كما الغنى أبدًا وصف له ذاتي

ثامنًا: في الآية ما يوجب محبة العبد لله؛ لأن النفوس مجبولة علىٰ حب من أحسن إليها والله هو المحسن علىٰ جميع الخلائق.

تاسعًا: في الآية ما يبعث القلوب الطيبة الكريمة علىٰ شكر الله خالق الخلق ورازقهم جل وعلا.

عاشـراً: في الآية دليل على لطف الله حيث إيصاله رزق جميع الخلق الدقيق والجليل.

الحادي عشر: إثبات حكمة الله الذي قسم معيشة الخلق وأعطى كلا ما يناسب حاله.

الثاني عشر: الخوف من الله ذو القوة المتين.

الثالث عشر: أن الرزق لا يطلب إلا من الله جل وعلا.

الرابع عشر: إثبات علم الله وإحاطته بالخلائق.

الخامس عشر: إثبات المتانة لله.

السادس عشر: الحث على التوكل على الله.

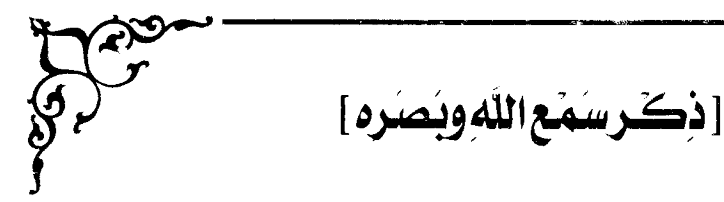
السابع عشر: فيها دليل على رحمة الله بخلقه ورأفته.

الثامن عشر: دليل على حلم الله حيث يرزق الكافر والعاصي.

التاسع عشر: إثبات صفة الكلام لله.

العشرون: إثبات وحدانية الله.

❊ ❊ ❊




[ذكر سمع الله وبصره]

وَقَوْلُهُ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

وقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨].

• الشَّرح •

● قال الشيخ محمد خليل هراس:

قوله: «﴿ليس كمثله شيء...﴾ إلخ»: دل إثبات صفتي السمع والبصر له سبحانه بعد نفي المثل عنه على أنه ليس المراد من نفي المثل نفي الصفات كما يدعي ذلك المعطلة ويحتجون به باطلاً، بل المراد إثبات الصفات مع نفي مماثلتها لصفات المخلوقين.

قال العلامة ابن القيم رحمه الله قوله: ﴿ليس كمثله شيء﴾: إنما قصد به نفي أن يكون معه شريك أو معبود يستحق العبادة والتعظيم كما يفعله المشبهون والمشركون، ولم يقصد به نفي صفات كماله وعلوه على خلقه وتكلمه بكتبه وتكليمه لرسله ورؤية المؤمنين له جهرة بأبصارهم كما ترى الشمس والقمر في الصحو. اهـ.

ومعنى «السميع»: المدرك لجميع الأصوات مهما خفتت، فهو يسمع السر والنجوى بسمع هو صفة لا يماثل أسماع خلقه.

ومعنى «البصير»: المدرك لجميع المرئيات من الأشخاص والألوان مهما لطفت أو بعدت فلا تؤثر على رؤيته الحواجز والأستار وهو من فعيل بمعنى مُفْعل، وهو دال على ثبوت صفة البصر له سبحانه على الوجه الذي يليق به.

روىٰ أبو داود في سننه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية ﴿إن الله كان سميعا بصيرا﴾ فوضع إبهامه علىٰ أذنه والتي تليها علىٰ عينه.

ومعنى الحديث: أنه سبحانه يسمع بسمع ويرىٰ بعين فهو حجة علىٰ بعض الأشاعرة الذين يجعلون سمعه علمه بالمسموعات وبصره علمه بالمبصرات، وهو تفسير خاطئ، فإن الأعمىٰ يعلم بوجود السماء ولا يراها، والأصم يعلم بوجود الأصوات ولا يسمعها.

● قال الشيخ ابن العثيمين:

«قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١].

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨]».

قوله تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١]: هذه الآية ساقها المؤلف ـ رحمه الله ـ لإثبات اسمين من أسماء الله وما تضمناه من صفة، وهما السميع والبصير؛ ففيها رد علىٰ المعطلة.

قوله: «﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾»: هذا نفي؛ فهو من الصفات السلبية، والمقصود به إثبات كماله؛ يعني: لكماله لا يماثله شيء من مخلوقاته، وفي هذه الجملة رد علىٰ أهل التمثيل.

قوله: «﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾»: ﴿السَّمِيعُ﴾ له معنيان: أحدهما: بمعنىٰ المجيب. والثاني: بمعنىٰ السامع للصوت.

أما السميع بمعنىٰ المجيب، فمثلوا له بقوله تعالىٰ عن إبراهيم: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩]؛ أي: لمجيب الدعاء.

وأما السميع بمعنىٰ إدراك الصوت، فإنهم قسموه إلىٰ عدة أقسام:

الأول: سمع يراد به بيان عموم إدراك سمع الله عز وجل، وأنه ما من صوت إلا ويسمعه الله.

الثاني: سمع يراد به النصر والتأييد.

والثالث: سمع يراد به الوعيد والتهديد.

مثال الأول: قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ [المجادلة: ١]؛ فهذا فيه بيان إحاطة سمع الله تعالى بكل مسموع، ولهذا قالت عائشة رضي الله عنها: «**الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، والله؛ إني لفي الحجرة، وإن حديثها ليخفى عليَّ بعضه**»(١) .

ومثال الثاني: كما في قوله تعالى لموسى وهارون: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٦].

ومثال الثالث: الذي يراد به التهديد والوعيد: قوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠]؛ فإن هذا يراد به تهديدهم ووعيدهم؛ حيث كانوا يسرون ما لا يرضى من القول.

والسمع بمعنى إدراك المسموع من الصفات الذاتية، وإن كان المسموع قد يكون حادثًا.

والسمع بمعنى النصر والتأييد من الصفات الفعلية؛ لأنه مقرون بسبب.

والسمع بمعنى الإجابة من الصفات الفعلية أيضًا.

وقوله: «﴿الْبَصِيرُ﴾»؛ يعني: المدرك لجميع المبصرات، ويطلق البصير بمعنى العليم؛ فالله سبحانه وتعالى بصير، يرى كل شيء وإن خفي، وهو سبحانه بصير بمعنى: عليم بأفعال عباده؛ قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحجرات: ١٨]، والذي نعمل بعضه مرئي وبعضه غير مرئي؛ فبصر الله إذًا ينقسم إلى قسمين، وكله داخل في قوله: ﴿الْبَصِيرُ﴾.

في هذه الآية إثبات اسمين من أسماء الله؛ هما: السميع، والبصير.

وثلاث صفات؛ هي: كمال صفاته من نفي المماثلة، والسمع والبصر.

وفيها من الفوائد المسلكية: الكف عن محاولة تمثيل الله بخلقه، واستشعار عظمته وكماله، والحذر من أن يراك على معصيته أو يسمع منك ما لا يرضاه.

واعلم أن النحاة خاضوا خوضًا كثيرًا في قوله: ﴿كَمِثْلِهِ﴾؛ حيث قالوا: الكاف

---

(١) سبق تخريجه.

داخلة على (المثل)، وظاهره أن لله مثلا ليس له مثل؛ لأنه لم يقل: ليس كهو؛ بل قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ﴾؛ فهذا ظاهر الآية من حيث اللفظ لا من حيث المعنى؛ لأننا لو قلنا: هذا ظاهرها من حيث المعنى؛ لكان ظاهر القرآن كفراً، وهذا مستحيل، ولهذا اختلفت عبارات النحويين في تخريج هذه الآية على أقوال:

القول الأول: الكاف زائدة، وأن تقدير الكلام: ليس مثله شيء، وهذا القول مريح، وزيادة الحروف في النفي كثيرة؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى﴾ [فاطر: ١١]؛ فيقولون: إن زيادة الحروف في اللغة العربية للتوكيد أمر مطرد.

والقول الثاني: قالوا العكس؛ قالوا: إن الزائد (مثل)، ويكون التقدير: ليس كهو شيء، لكن هذا ضعيف، يضعفه أن الزيادة في الأسماء في اللغة العربية قليلة جداً أو نادرة؛ بخلاف الحروف؛ فإذا كنا لابد أن نقول بالزيادة؛ فليكن الزائد الحرف وهو الكاف.

والقول الثالث: أن (مثل) بمعنى: صفة، والمعنى: «ليس كصفته شيء»، وقالوا: إن المثل والمثل والشبه والشبه في اللغة العربية بمعنى واحد؛ وقد قال الله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ [محمد: ١٥]؛ أي: صفة الجنة، وهذا ليس ببعيد من الصواب.

القول الرابع: أنه ليس في الآية زيادة، لكن إذا قلت: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾؛ لزم من ذلك نفي المثل، وإذا كان ليس للمثل مثل؛ صار الموجود واحداً وعلى هذا؛ فلا حاجة إلى أن نُقدر شيئًا. قالوا: وهذا قد وجد في اللغة العربية؛ مثل قوله: ليس كمثل الفتى زهير.

والحقيقة أن هذه البحوث لو لم تعرض لكم؛ لكان معنى الآية واضحًا، ومعناها أن الله ليس له مثيل، لكن هذا وجد في الكتب، والراجح: أن نقول؛ إن الكاف زائدة، لكن المعنى الأخير لمن تمكن من تصوره أجود.

وقوله: «﴿إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨]».

هذه الآية تكملة لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨]؛ فأمر عز وجل بأن نؤدي

الأمانات إلىٰ أهلها، ومنها الشهادة للإنسان له أو عليه، وأن نحكم إذا حكمنا بين الناس بالعدل، فبين الله سبحانه وتعالىٰ أنه يأمرنا بالقيام بالواجب في طريق الحكم وفي الحكم نفسه، وطريق الحكم الذي هو الشهادة تدخل في عموم قوله: ﴿ **أَن تُؤَدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا** ﴾، والحكم: ﴿ **وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ** ﴾، ثم قال سبحانه: ﴿ **إِنَّ اللّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ** ﴾؛ أصلها: نعم ما، ولكن أدغمت الميم بالميم من باب الإدغام الكبير؛ لأن الإدغام لا يكون بين جنسين إلا إذا كان الأول ساكنًا، وهنا صار الإدغام مع أن الأول مفتوح.

وقوله: «﴿ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ ﴾»: جعل الله سبحانه الأمر بهذين الشيئين ـ أداء الأمانة والحكم بالعدل ـ موعظة؛ لأنه تصلح به القلوب، وكل ما يصلح القلوب؛ فهو موعظة، والقيام بهذه الأوامر لا شك أنه يصلح القلب.

ثم قال «﴿إِنَّ اللّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾»، وقوله: ﴿ **كَانَ** ﴾: هذه فعل. لكنها مسلوبة الزمن؛ فالمراد بها الدلالة علىٰ الوصف فقط؛ أي: أن الله متصف بالسمع والبصر، وإنما قلنا: إنها مسلوبة الزمن؛ لأننا لو أبقيناها علىٰ دلالتها الزمانية؛ لكان هذا الوصف قد انتهىٰ؛ كان في الأول سميعًا بصيرًا، أما الآن؛ فليس كذلك! ومعلوم أن هذا المعنىٰ فاسد باطل، وإنما المراد أنه متصف بهذين الوصفين السمع والبصر علىٰ الدوام، و(كان) في مثل هذا السياق يراد بها التحقيق.

قوله: «﴿سَمِيعًا بَصِيرًا﴾»: نقول فيها كما قلنا في الآية التي قبلها: فيها إثبات السمع لله بقسميه، وإثبات البصر بقسميه.

قرأ أبو هريرة رضي الله عنه هذه الآية، وقال: إن الرسول ﷺ وضع إبهامه وسبابته علىٰ عينه وأذنه[١]. والمراد بهذا الوضع تحقيق السمع والبصر، لا إثبات العين والأذن؛ فإن ثبوت العين جاءت في أدلة أخرىٰ، والأذن عند أهل السنة والجماعة لا تثبت لله ولا تنفىٰ عنه لعدم ورود السمع بذلك.

فإن قلت: هل لي أن أفعل كما فعل الرسول ﷺ؟

فالجواب: من العلماء من قال: نعم؛ افعل كما فعل الرسول، لست أهدىٰ

---

(١) سبق تخريجه.

للخلق من رسول الله ﷺ، ولست أشد تحرزًا من أن يضاف إلىٰ الله ما لا يليق به من الرسول ﷺ.

ومنهم من قال: لا حاجة إلىٰ أن تفعل ما دمنا نعلم أن المقصود هو التحقيق فهذه الإشارة إذًا غير مقصودة بنفسها؛ إنما هي مقصودة لغيرها، وحينئذ؛ لا حاجة إلىٰ أن تشير، لا سيما إذا كان يُخشىٰ من هذه الإشارة توهم الإنسان التمثيل؛ كما لو كان أمامك عامة من الخلق لا يفهمون الشيء علىٰ ما ينبغي؛ فهذا ينبغي التحرز منه، ولكل مقام مقال.

وكذلك ما ورد في حديث ابن عمر رضي الله عنهما كيف يحكي رسول الله ﷺ؛ قال: «**يأخذ الله عز وجل سمواته وأرضيه بيديه، فيقول: أنا الله**»[١] ؛ ويقبض أصابعه ويبسطها. فيقال فيه ما قيل في حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

والفائدة المسلكية: من الإيمان بصفتي السمع والبصر: أن نحذر مخالفة الله في أقوالنا وأفعالنا.

وفي الآية من أسماء الله إثبات اسمين هما: السميع، والبصير.

ومن الصفات: إثبات السمع، والبصر، والأمر، والموعظة.

● قال الشيخ صالح بن عبد الله الفوزان:

«﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾» أول الآية قوله تعالىٰ: ﴿ **فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجًا** ﴾ .

قال الإمام ابن كثير في تفسيره: أي: ليس كخالق الأزواج كلها شيء؛ لأنه الفرد الصمد الذي لا نظير له[٢] . اهـ.

﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ ﴾ الذي يسمع جميع الأصوات.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٧٤١٣) ومسلم (٢٧٨٨) واللفظ له من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنه.

(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ١٠٩).

«﴿الْبَصِيرُ﴾» الذي يرىٰ كل شيء ولا يخفىٰ عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

قال الإمام الشوكاني في تفسيره: ومن فهم هذه الآية الكريمة حق فهمها وتدبرها حق تدبرها مشىٰ بها عند اختلاف المختلفين في الصفات علىٰ جادة بيضاء واضحة، ويزداد بصيرة إذا تأمل معنىٰ قوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾، فإن هذا الإثبات بعد ذلك النفي للمماثل قد اشتمل علىٰ برد اليقين وشفاء الصدور وانثلاج القلوب، فاقدر يا طالب الحق قدر هذه الحجة النيرة والبرهان القوي، فإنك تحطم بها كثيراً من البدع، وتهشم بها رءوسًا من الضلالة، وترغم بها أنوف طوائف من المتكلمين، ولا سيما إذا ضممت إليه قول الله تعالىٰ: ﴿وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾. اهـ.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا﴾ قبله قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ (نِعْمَ) من ألفاظ المدح، و (ما) قيل: نكرة موصوفة، كأنه قيل: نِعْمَ شيئًا يعظكم به، و قيل: إن (ما) موصولة، أي: نعم الشيء، الذي يعظكم به.

وقوله: ﴿يَعِظُكُم﴾ أي: يأمركم به من أداء الأمانات والحكم بين الناس بالعدل

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ أي: أنه سبحانه سميع لما تقولون، بصير بما تفعلون.

الشاهد من الآيتين الكريمتين: أن فيهما إثبات السمع والبصر لله، وفي الآية الأولىٰ نفي مماثلة المخلوقات، ففي ذلك الجمع فيما وصف وسمىٰ به نفسه بين النفي والإثبات.

❊ ❊ ❊

[أسئلة وأجوبة نموذجية على ذكر سمع الله وبصره]

● قال الشيخ عبد العزيز المحمد السلمان:

س ـ ما الذي تعرفه عن معنى قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] ، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨]؟

ج ـ قد تقدم الكلام على الأولى، وأما الآية الثانية، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء:٥٨].

الأمانة ما اؤتمن عليه الإنسان وأمر بالقيام به، وهو يعم جميع الأمانات الواجبة على الإنسان من حقوق الله على عباده، كالصلاة، والزكاة، والصيام، والكفارات، والنذور، وغير ذلك مما هو مؤتمن عليه لا يطلع عليه العباد.

ومن حقوق العباد بعضهم على بعض كالودائع وغير ذلك مما يأتمنون بعضهم على بعض من غير اطلاع بينة على ذلك.

«العدل»: التساوي في الشيء، والمراد: إيصال الحق إلى صاحبه من أقرب الطرق إليه.

«نِعْم»: من أفعال المدح و «ما»: قيل: نكرة موصوفة كأنه قيل: نِعْم شيئًا يعظكم به أو موصولة أي: نعم الشيء الذي يعظكم به وهذا أحد محامل «ما» العشر المذكورة بقوله:

محامل «ما» عشر إذا رمت عدها ... فحافظ على بيت سليم من الشعر

ستفهم شرط الوصل فاعجب لنكرها ... بكفٍ ونفي زيد تعظيم مصدر

و «الحكم» لغة: القضاء، فالحكم العدل هو فصل الخصومات على ما في كتاب الله وسنة رسوله، والحكم بالعدل محتاج إلى أمور، منها:

أولاً: فهم الدعوىٰ من المدَّعِي، والجواب من المدَّعَىٰ عليه ليعرف موضع التنازع والتخاصم بأدلته من الخصمين.

ثانيًا: خلو الحاكم من التحيز والميل إلىٰ أحد الخصمين.

ثالثًا: معرفة الحاكم الحكم الذي شرعه الله ليفصل بين الناس علىٰ ضوئه من الكتاب أو السنة أو الإجماع.

رابعًا: تولية القادرين علىٰ القيام بأعباء الأحكام، وقد أمر المسلمون بالعدل في الأحكام، والأقوال، والأفعال، والأخلاق، قال ﴿**وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا**﴾ [الأنعام: ١٥٢].

ثم بين حسن العدل وأداء الأمانة، فقال: ﴿**إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ**﴾ أي: أداء الأمانات والحكم بالعدل بين الناس، إذ لا يعظكم إلا بما فيه صلاحكم وفلاحكم وسعادتكم في الدارين.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ أي: عليكم أن تعملوا بأمر الله ووعظه فإنه السميع لجميع الأصوات.

البصير بجميع المبصرات، فإذا حكمتم بالعدل فهو سميع لذلك الحكم، وإن أديتم الأمانة فهو بصير بذلك. والله أعلم، وصلىٰ الله علىٰ محمد وآله وسلم.

س ـ ما الذي يؤخذ من هذه الآية الكريمة؟

ج ـ أولاً: الأمر بأداء الأمانات.

ثانيًا: الأمر بحفظ الأمانة؛ لأنه لا يمكن أداؤها إلا بحفظها.

ثالثًا: فيها وعد عظيم للمطيع.

رابعًا: وعيد شديد للعاصي.

خامسًا: الاهتمام بحكم القضاة والولاة؛ لأنه فوض إليهم النظر في مصالح العباد.

سادسًا: الأمر بالعدل وهذا يشمل الحكم بينهم في الدماء، والأموال، والأعراض القليل والكثير علىٰ القريب والبعيد، والبر والفاجر، والولي والعدو.

سابعًا: وجوب العدل علىٰ الحكام، والولاة حتىٰ تصل الحقوق لأربابها كاملة غير منقوصة.

ثامنًا: فيه مدح من الله لأوامره ونواهيه لاشتمالها على مصالح الدارين ودفع مضارهما.

تاسعًا: النهي عن الظلم.

عاشرًا: إثبات صفة السمع.

الحادي عشر: إثبات صفة البصر.

الثاني عشر: أن صفة السمع غير صفة البصر إذ العطف يقتضي المغايرة.

الثالث عشر: فيها دليل الجزاء على الأعمال.

الرابع عشر: الرد على المعطلة.

الخامس عشر: التنبيه على مقام الإحسان.

السادس عشر: أن أداء الأمانة يشمل أساس الاعتقاد.

السابع عشر: أنه يشمل أساس العبادة.

الثامن عشر: أنه يشمل أساس التعامل وأساس العلاقات كلها بين الناس وأول أمانة ترد إلى أهلها أمانة الإيمان.

التاسع عشر: لطف الله بخلقه ورحمته ورأفته بهم حيث أمرهم بما فيه صلاحهم.

العشرون: التحذير من كتمان الأمانة.

الحادي والعشرون: إثبات صفة الكلام لله.

الثاني والعشرون: وجوب أداء الأمانة إلى البر والفاجر.

الثالث والعشرون: إثبات الألوهية.

الرابع والعشرون: أن الله لم يهمل خلقه.

الخامس والعشرون: إثبات صفة الكلام.

السادس والعشرون: الحث على خوف الله والمأخذ من قوله سميعًا بصيرًا.

السابع والعشرون: الرد على القوانين الوضعية.

* * *

الإرادة والمشيئة

وَقَـوْلُهُ: ﴿وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُـوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ﴾ [الكهف: ٣٩].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

وَقَـوْلُهُ: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة: ١].

وَقَـوْلُهُ: ﴿ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

• الشَّرح •

• قال الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي:

• ومن الأُصول الثَّابتة في الكتاب والسُّنَّة المُتَّفق عليها بين السَّلَف: التَّفريق بين مشيئة الله وإرادته وبين محبته:

«فمشيئة الله وإرادته الكونية»: تتعلَّق بكلِّ موجود محبوب للَّه وغير محبوب، كما ذُكر في هذه الآيات أنَّ الله يَفعَل ما يُريد وما يشاء، وإذا أراد شيئًا قال له: كُن فيَكُون.

وأما «محبَّته» فإنها تتعلق بما يُحِبُّه خاصّة من الأشخاص والأعمال كما ذكر في هذه الآيات تقييدها بأنه يحب الصابرين والمتقين والمؤمنين والمحسنين والمقسطين ونحوها. فمشيئته عامة للكائنات، ومحبته خاصة ومُتعلِّقة بالمحبوبات.

ويتفـــرَّع عن هذا أصلٌ آخر وهو: التَّـفريق بين الإرادة الكونية؛ فإنـها تُطَابق المشيئة، وبين الإرادة الدِّينية، فإنها تُطابق المحبَّة.

فالأول: مثل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [الحج: ١٤]، ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦]، ونحوها.

والثاني: نحو: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٧].

ومع ذلك فجميع ذلك خاصُّه وعامُّه يثبته أهل السنة والجماعة على الوجه الذي قاله الله وقاله رسوله.

● قال الشيخ محمد خليل هراس:

قوله: «ولولا إذ دخلت...إلخ»: هذه الآيات دلت على إثبات صفتي الإرادة والمشيئة، والنصوص في ذلك لا تحصى كثرة.

والأشاعرة يثبتون إرادة واحدة قديمة تعلقت في الأزل بكل المرادات فيلزمهم تخلف المراد عن الإرادة، وأما المعتزلة فعلى مذهبهم في نفي الصفات لا يثبتون في صفة الإرادة، ويقولون: إنه يريد بإرادة حادثة لا في محل، فيلزمهم قيام الصفة بنفسها وهو من أبطل الباطل.

وأما أهل الحق فيقولون: إن الإرادة على نوعين:

(١) إرادة كونية ترادفها المشيئة، وهما تتعلقان بكل ما يشاء الله فعله وإحداثه، فهو سبحانه إذا أراد شيئًا وشاءه كان عقب إرادته له كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾.

وفي الحديث الصحيح: «ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن»[1].

(٢) وإرادة شرعية تتعلق بما يأمر الله به عباده مما يحبه ويرضاه وهي المذكورة في مثل قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ ولا تلازم بين الإرادتين بل قد تتعلق كل منهما بما لا تتعلق به الأخرى فبينهما عموم وخصوص من وجه.

---

(١) ضعيف: أخرجه أبو داود (٥٠٧٥)، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٤١٢١).

فالإرادة الكونية أعم من جهة أنها لا تتعلق بمثل إيمان الكافر وطاعة الفاسق.

والإرادة الشرعية أعم من جهة تعلقها بكل مأمور به واقعًا كان أو غير واقع، وأخص من جهة تعلقها بما لا يحبه الله ويرضاه من الكفر والمعاصي وأخص من جهة أن الواقع بالإرادة الكونية قد يكون غير مأمور به.

والحاصل: أن الإرادتين قد تجتمعان معًا في مثل إيمان المؤمن وطاعة المطيع، وتنفرد الكونية في مثل كفر الكافر، ومعصية العاصي، وتنفرد الشرعية في مثل إيمان الكافر وطاعة العاصي.

وقوله تعالى: ﴿ ولولا إذ دخلت جنتك ﴾ الآية: هذا من قول الله حكاية عن الرجل المؤمن لزميله الكافر صاحب الجنتين يعظه به أن يشكر نعمة الله عليه ويردها إلى مشيئة الله ويبرأ من حوله وقوته فإنه لا قوة إلا بالله.

وقوله: ﴿ ولو شاء الله ما اقتتلوا ﴾ الآية: إخبار عن ما وقع بين أتباع الرسل من بعدهم من التنازع والتعادي بغيًا بينهم وحسدًا، وأن ذلك إنما كان بمشيئة الله عز وجل، ولو شاء عدم حصوله ما حصل ولكنه شاء فوقع.

وقوله: ﴿ فمن يرد الله أن يهديه... ﴾: الآية تدل على أن كلا من الهداية والضلال بخلق الله عز وجل، فمن يرد هدايته، أي إلهامه وتوفيقه يشرح صدره للإسلام بأن يقذف في قلبه نورًا فيتسع له وينبسط كما ورد في الحديث - ومن يرد إضلاله وخذلانه يجعل صدره في غاية الضيق والحرج، فلا ينفذ إليه نور الإيمان. وشبه ذلك بمن يصعد في السماء.

تضمنت هذه الآيات إثبات أفعال له سبحانه وتعالى ناشئة عن صفة المحبة ومحبة الله عز وجل لبعض الأشخاص والأعمال والأخلاق صفة له قائمة به، وهي من صفات الفعل الاختيارية التي تتعلق بمشيئته فهو يحب بعض الأشياء دون بعض على ما تقتضيه الحكمة البالغة، وينفي الأشاعرة والمعتزلة صفة المحبة بدعوى أنها توهم نقصًا، إذ المحبة في المخلوق معناها ميله إلى ما يناسبه أو يستلذه، فأما الأشاعرة فيرجعونها إلى صفة الإرادة، فيقولون: إن محبة الله لعبده لا معنى لها إلا إرادته لإكرامه ومثوبته.

وكذلك يقولون في صفات الرضا والغضب والكراهية والسخط كلها عندهم

بمعنى إرادة الثواب والعقاب .

وأما المعتزلة فلأنهم لا يثبتون إرادة قائمة به ، فيفسرون المحبة بأنها نفس الثواب الواجب عندهم على الله لهؤلاء بناء على مذهبهم في وجوب إثابة المطيع وعقاب العاصي ، وأما أهل الحق فيثبتون المحبة صفة حقيقية لله عز وجل على ما يليق به فلا تقتضي عندهم نقصًا ولا تشبيهًا .

كما يثبتون لازم تلك المحبة وهي إرادته سبحانه إكرام من يحبه وإثابته ، وليت شعري بماذا يجيب النافون للمحبة عن مثل قوله عليه السلام في حديث أبي هريرة : «**إن الله عز وجل إذا أحب عبدًا قال لجبريل عليه السلام إني أحب فلانًا فأحبه، قال: فيقول جبريل عليه السلام لأهل السماء: إن ربكم عز وجل يحب فلانًا فأحبوه، قال: فيحبه أهل السماء ويوضع له القبول في الأرض، وإذا أبغضه فمثل ذلك**» رواه الشيخان .

● قال الشيخ عبد العزيز بن باز:

من أصول أهل السنة والجماعة أثبات مشيئة الرب العامة ، وأن ما شاء كان وما لم يشأ لا يكون ، كما أن من أصولهم الثابتة إثبات صفة الإرادة ، وهي قسمان :

إرادة كونية قدرية: كالمشيئة وهذه الإرداة لا يخرج عن مرادها شيء كالمشيئة ، فالكافر والمسلم تحت هذه الإرادة الكونية سواء ، فالطاعات والمعاصي والأرزاق والآجال كلها بمشيئة الرب وإرادته الكونية .

وقد ذكر سبحانه هذه الإرادة في قوله تعالى : ﴿ **فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا** ﴾ [الأنعام: ١٢٥] وقوله : ﴿ **إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كون فيكون** ﴾ [يس: ٨٢] ، وقوله : ﴿ **إن ربك فعال لما يريد** ﴾ [هود: ١٠٧] .

القسم الثاني من الإرادة: الإرادة الشرعية الدينية ، وتتضمن محبة الرب للمراد ورضاه به ، وهذه الإرادة لا يلزم وجود مرادها ، بل قد يوجد وقد لا يوجد ، فالله سبحانه قد أراد من عباده شرعًا أن يعبدوه ويطيعوه ، فمنهم من عبده وأطاعه ومنهم من لم يفعل ذلك .

وبهذا يعلم أن الإرادتين تجتمعان في حق المطيع ، وتنفرد الإرادة الكونية في حق العاصي لأن الله لم يرد منه المعصية شرعًا ؛ بل قد نهاه عنها ، وقد ذكر الله هذه

الإرادة بقوله: ﴿يريد الله أن يتوب عليكم﴾ [النساء:٢٧]. وقوله: ﴿يريد الله بكم اليسر﴾ [البقرة:١٨٥].

ومن عرف الفرق بين هاتين الإرادتين سلم من شبهات كثيرة زلت فيها أقدام وضلت فيها أفهام.

● قال الشيخ محمد بن صالح العثيمين:

«وقوله: ﴿وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلا بِاللَّهِ﴾» [الكهف: ٣٩].

وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُواْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

وقوله: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة: ١].

وقوله: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء﴾ [الأنعام: ١٢٥]».

هذه آيات في إثبات صفتي المشيئة والإرادة:

فالآية الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلا بِاللَّهِ﴾ [الكهف: ٣٩].

«﴿وَلَوْلا﴾»؛ بمعنى: هلا؛ فهي للتحضيض، والمراد بها هنا التوبيخ، بمعنى أنه يوبخه على ترك هذا القول.

«﴿إِذْ دَخَلْتَ﴾»: حين دخلت.

«﴿جَنَّتَكَ﴾»: الجنة؛ بفتح الجيم: هي البستان الكثير الأشجار، سميت بذلك لأن من فيها مستتر بأشجارها وغصونها؛ فهو مستجن فيها، وهذه المادة (الجيم والنون) تدل على الاستتار، ومنه: الجُنة - بضم الجيم - التي يتترس بها الإنسان عند القتال، ومنها: الجنة - بكسر الجيم - يعني: الجن؛ لأنهم مستترون.

وقوله: «﴿جَنَّتَكَ﴾»: هذه مفرد، والمعلوم من الآيات أن له جنتين، فما هو الجواب حيث كانت هنا مفردة مع أنهما جنتان؟.

فالجواب: أن يقال: إن المفرد إذا أضيف يعم فيشمل الجنتين. أو أن هذا القائل أراد أن يقلل من قيمة الجنتين؛ لأن المقام مقام وعظ وعدم إعجاب بما رزقه الله؛ كأنه يقول: هاتان الجنتان جنة واحدة؛ تقليلا لشأنهما، والوجه الأول أقرب إلى قواعد اللغة العربية ﴿قُلْتَ﴾: جواب ﴿وَلَوْلا﴾.

وقوله: «﴿مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إلا بِاللَّهِ﴾»: ﴿مَا﴾: يحتمل أن تكون موصولة، ويحتمل أن تكون شرطية: فإن جعلتها موصولة؛ فهي خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير: هذا ما شاء الله؛ أي: ليس هذا بإرادتي وحولي وقوتي، ولكنه بمشيئة الله؛ أي: هذا الذي شاء الله. وإن جعلتها شرطية؛ ففعل الشرط ﴿شَاءَ﴾، وجوابه محذوف، والتقدير: ما شاء الله كان؛ كما نقول: ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن. والمراد: كان ينبغي لك أن تقول حين دخلت جنتك: ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ﴾؛ لتتبرأ من حولك وقوتك ولا تعجب بجنتك.

وقوله: «﴿لا قُوَّةَ إلا بِاللَّهِ﴾»: ﴿لا﴾: نافية للجنس. و﴿قُوَّةَ﴾: نكرة في سياق النفي، فتعم، والقوة صفة يتمكن بها الفاعل من فعل ما يريد بدون ضعف.

فإن قيل: ما الجمع بين عموم نفي القوة إلا بالله، وبين قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ [الروم: ٥٤]، وقال عن عاد: ﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]، ولم يقل: لا قوة فيهم؛ فأثبت للإنسان قوة.

فالجواب: أن الجمع بأحد الوجهين:

الأول: أن القوة التي في المخلوق كانت من الله عز وجل؛ فلولا أن الله أعطاه القوة؛ لم يكن قويًا؛ فالقوة التي عند الإنسان مخلوقة لله؛ فلا قوة في الحقيقة إلا بالله.

الثاني: أن المراد بقوله: ﴿لا قُوَّةَ﴾؛ أي: لا قوة كاملة إلا بالله عز وجل.

وعلى كل حال؛ فهذا الرجل الصالح أرشد صاحبه أن يتبرأ من حوله وقوته، ويقول: هذا بمشيئة الله وبقوة الله.

في هذه الآية: إثبات اسم من أسماء الله، وهو: الله.

وإثبات ثلاث صفات: الألوهية، والقوة، والمشيئة.

ومشيئة الله: هي إرادته الكونية، وهي نافذة فيما يحبه وما لا يحبه، ونافذة على جميع العباد بدون تفصيل، ولا بد من وجود ما شاءه بكل حال؛ فكل ما شاء الله واقع ولابد، سواء كان فيما يُحبه ويرضاه أم لا.

الآية الثانية: قوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣]:

﴿لَوْ﴾: حرف امتناع لامتناع، وإذا كان جوابها منفيًا بـ(ما)؛ فإن الأفصح حذف اللام، وإذا كان مثبتًا؛ فالأكثر ثُبوت اللام؛ كما قال تعالى: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا﴾ [الواقعة: ٦٥]. فنقول: الأكثر، ولا نقول: الأفصح؛ لأنه ورد إثبات اللام وحذفها في القرآن الكريم: ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا﴾ [الواقعة: ٧٠]. وقولنا: إن الأفصح حذف اللام في المنفي؛ لأن اللام تفيد التوكيد، والنفي ينافي التوكيد، ولهذا كان قول الشاعر:

ولو نعطي الخيار لما افترقنا ... لكن لا خيار مع الليالي[1]

خلاف الأفصح، والأفصح: لو نعطي الخيار؛ ما افترقنا.

قوله: «﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا﴾»: الضمير يعود على المؤمنين والكافرين؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا﴾ [البقرة: ٢٥٣].

وفي هذا رد واضح على القدرية الذين ينكرون تعلق فعل العبد بمشيئة الله؛ لأن الله قال: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا﴾؛ يعني: ولكنه شاء أن يقتتلوا فاقتتلوا. ثم قال: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾؛ أي: يفعل الذي يريده، والإرادة هنا إرادة كونية.

وقوله: «﴿يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾»: الفعل باعتبار ما يفعله سبحانه وتعالى بنفسه فعل مباشر. وباعتبار ما يقدره على العباد فعل غير مباشر؛ لأنه من المعلوم أن الإنسان إذا صام وصلى وزكى وحج وجاهد؛ فالفاعل الإنسان بلا شك، ومعلوم أن فعله هذا بإرادة الله.

---

(١) انظر «المفصل لشواهد اللغة العربية» (٦/ ٤٤٩).

ولا يصح أن يُنسب فعل العبد إلى الله على سبيل المباشرة؛ لأن المباشر للفعل الإنسان، ولكن يصح أن يُنسب إلى الله على سبيل التقدير والخلق.

أما ما يفعله الله بنفسه؛ كاستوائه على عرشه، وكلامه، ونزوله إلى السماء الدنيا، وضحكه... وما أشبه ذلك؛ فهذا يُنسب إلى الله تعالى فعلا مباشرة.

في هذه الآية من الأسماء: الله.

ومن الصفات: المشيئة، والفعل، والإرادة.

الآية الثالثة: قوله: ﴿**أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ**﴾ [المائدة: ١].

«﴿**أُحِلَّتْ لَكُم**﴾»: المُحِلُّ هو الله عز وجل، وكذلك النبي عليه الصلاة والسلام يحل ويحرم، لكن بإذن من الله عز وجل؛ قال النبي ﷺ: «**أحلت لنا ميتتان ودمان**»[1]، وكان عليه الصلاة والسلام يقول: «**إن الله يحرم عليكم**»[2]؛ كذا يخبر أنه حُرِّم، وربما يحرم تحريمًا يُضيفه إلى نفسه، لكنه بإذن الله.

«﴿**بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ**﴾»: هي الإبل والبقر والغنم، والأنعام جمع نَعَم؛ كأسباب جمع سبب.

وقوله: «﴿**بَهِيمَةُ**﴾»: سميت بذلك لأنها لا تتكلم. «﴿**إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ**﴾»: إلا الذي يتلى عليكم في هذه السورة، وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿**حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ**﴾ [المائدة: ٣]؛ فالاستثناء هنا فيه منقطع وفيه متصل؛ فبالنسبة للميتة من بهيمة الأنعام متصل، وبالنسبة للحم الخنزير منقطع؛ لأنه ليس من بهيمة الأنعام.

---

(١) صحيح: أخرجه ابن ماجه (٣٣١٤) وأحمد في «مسنده» (٢/ ٩٧) والبيهقي في «الكبرى» (١١٢٨) من حديث عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ.
والحديث صححه الشيخ الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٢٦٠٧).

(٢) لما رواه الشيخان وغيرهما، رواه البخاري (٢٤٠٨) ومسلم (٥٩٣) من حديث المغيرة بن شعبة ـ وأحاديث التحريم كثيرة.

وقوله: «﴿غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾»: ﴿غَيْرَ﴾: حال من الكاف في ﴿لَكُم﴾؛ يعني: حالَ كونكم لا تحلون الصيد وأنتم حرم، وهذا الاستثناء منقطع أيضًا؛ لأن الصيد ليس من بهيمة الأنعام.

وقوله: ﴿غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ﴾؛ يعني: قاتليه في الإحرام؛ لأن الذي يفعل الشيء يصير كالمحل له، و﴿الصَّيْدِ﴾: هو الحيوان البري المتوحش المأكول، هذا هو الصيد الذي حرم في الإحرام.

وقوله: «﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾»: هذه الإرادة شرعية؛ لأن المقام مقام تشريع، ويجوز أن تكون إرادة شرعية كونية، ونحمل الحكم على الحكم الكوني والشرعي؛ فما أراده كونًا؛ حكم به وأوقعه، وما أراده شرعًا؛ حكم به وشرعه لعباده.

في هذه الآية من الأسماء: الله.

ومن الصفات: التحليل، والحكم، والإرادة.

الآية الرابعة: قوله: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

قوله: «﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾»: المراد بالإرادة هنا الإرادة الكونية، والمراد بالهداية هداية التوفيق؛ فتجده منشرح الصدر في شرائع الإسلام وشعائره، يفعلها بفرح وسرور وانطلاق.

فإذا عرفت من نفسك هذا؛ فاعلم أن الله أراد بك خيراً، وأراد لك هداية، أما من ضاق به ذرعًا والعياذ بالله فإن هذا علامة على أن الله لم يرد له هداية، وإلا؛ لا نشرح صدره.

ولهذا تجدون الصلاة التي هي أثقل ما يكون على المنافقين قُرة عيون المخلصين؛ قال النبي ﷺ: «حبب إلي من دنياكم النساء والطيب، وجعلت قرة عيني في الصلاة»[1]، ولا

---

(١) صحيح: أخرجه النسائي في «الكبرى» (٣٩٣٩) وأحمد في «مسنده» (٣/ ١٢٨) من حديث أنس ابن مالك - رضي الله عنه.

والحديث صححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٣١٢٤).

شك أن النبي ﷺ أكمل الناس إيمانًا؛ فانشرح صدره بالصلاة وصارت قرة عينه.

فإذا قيل للشخص: إنه يجب عليك أن تصلي مع الجماعة في المسجد؛ فانشرح صدره، وقال: الحمد لله الذي شرع لي ذلك، ولولا أن الله شرعه؛ لكان بدعة، وأقبل إليه، ورضي به؛ فهذا علامة على أن الله أراد أن يهديه وأراد به خيراً.

قال: «﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ﴾»: ﴿يَشْرَحْ﴾؛ بمعنى يوسع، ومنه قول موسى عليه الصلاة والسلام لما أرسله الله إلى فرعون: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ [طه: ٢٥]؛ يعني: وسع لي صدري في مناجاة هذا الرجل ودعوته؛ لأن فرعون كان جباراً عنيداً.

وقوله: ﴿لِلإِسْلَامِ﴾: هذا عام لأصل الإسلام وفروعه وواجباته، وكلما كان الإنسان بالإسلام وشرائعه أشرح صدراً؛ كان أدل على إرادة الله به الهداية.

وقوله: «﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾»: من يرد أن يضله، يجعل صدره ضيقًا حرجًا؛ أي: شديد الضيق، ثم مثل ذلك بقوله: ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾؛ يعني: كأنه حين يعرض عليه الإسلام يتكلف الصعود إلى السماء، ولهذا جاءت الآية ﴿يَصَّعَّدُ﴾؛ بالتشديد، ولم يقل: يصعد؛ كأنه يتكلف الصعود بمشقة شديدة، وهذا الذي يتكلف الصعود لا شك أنه يتعب ويسأم.

ولنفرض أن هذا رجل طُلب منه أن يصعد جبلا رفيعًا صعبًا؛ فإذا قام يُصعد هذا الجبل؛ سوف يتكلف، وسوف يضيق نفسه ويرتفع وينتهب، لأنه يجد من هذا ضيقًا.

وعلى ما وصل إليه المتأخرون الآن؛ يقولون: إن الذي يصعد في السماء كلما ارتفع وازداد ارتفاعه؛ كثُر عليه الضغط، وصار أشد حرجًا وضيقًا، وسواء كان المعنى الأول أو المعنى الثاني؛ فإن هذا الرجل الذي يعرض عليه الإسلام وقد أراد الله أن يضله يجد الحرج والضيق كأنما يصعد في السماء.

ونأخذ من هذه الآية الكريمة إثبات إرادة الله عز وجل.

والإرادة المذكورة هنا إرادة كونية لا غير؛ لأنه قال: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ﴾،

﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ﴾، وهذا التقسيم لا يكون إلا في الأمور الكونية.

أما الشرعية؛ فالله يريد من كل أحد أن يستسلم لشرع الله.

وفيها من السلوك والعبادة أنه يجب على الإنسان أن يتقبل الإسلام كله؛ أصله وفرعه، وما يتعلق بحق الله وما يتعلق بحق العباد، وأنه يجب عليه أن يشرح صدره لذلك، فإن لم يكن كذلك؛ فإنه من القسم الثاني الذي أراد الله إضلالهم.

قال النبي ﷺ: «من يرد الله به خيراً؛ يفقهه في الدين»(1)، والفقه في الدين يقتضي قبول الدين؛ لأن كل من فقه في دين الله وعرفه؛ قبله وأحبه.

قال تعالى: ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]؛ فهذا إقسام مؤكد بـ(لا)، وإقسام بأخص ربوبية من الله عز وجل لعباده - وهي ربوبية الله للرسول - على نفي الإيمان عمن لم يقم بهذه الأمور الثلاثة:

الأول: تحكيم الرسول ﷺ لقوله: ﴿حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ﴾؛ يعني: الرسول؛ فمن طلب التحاكم إلى غير الله ورسوله؛ فإنه ليس بمؤمن؛ فإما كافر كفراً مخرجاً عن الملة، وإما كافرٌ كفراً دون ذلك.

الثاني: انشراح الصدر بحكمه؛ بحيث لا يجدون في أنفسهم حرجاً مما قضى؛ بل يجدون القبول والانشراح لما قضاه النبي ﷺ.

الثالث: أن يسلموا تسليماً، وأكد التسليم بمصدر؛ يعني: تسليماً كاملا.

فاحذر أيها المسلم أن ينتفي عنك الإيمان.

ولنضرب لهذا مثلا: تجادل رجلان في حكم مسألة شرعية، فاستدل أحدهما بالسنة، فوجد الثاني في ذلك حرجاً وضيقاً؛ كيف يريد أن يخرج عن متبوعه إلى اتباع هذه السنة؟! فهذا الرجل ناقص بلا شك في إيمانه؛ لأن المؤمن حقاً هو الذي إذا ظفر بالنص من كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام؛ فكأنما ظفر بأكبر غنيمة يفرح بها، ويقول: الحمد لله الذي هداني لهذا. وفلان الذي يتعصب لرأيه ويحاول

---

(1) متفق عليه: أخرجه البخاري (٧١) ومسلم (١٠٣٧) من حديث معاوية ابن أبي سفيان - رضي الله عنه.

أن يلوي أعناق النصوص حتىٰ تتجه إلىٰ ما يريده هو لا ما يريده الله ورسوله؛ فإن هذا علىٰ خطر عظيم.

أقسام الإرادة:

الإرادة تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: إرادة كونية: وهذه الإرادة مرادفة تمامًا للمشيئة، فـ (أراد) فيها بمعنىٰ (شاء)، وهذه الإرادة:

أولا: تتعلق فيما يحبه الله وفيما لا يحبه.

وعلىٰ هذا؛ فإذا قال قائل: هل أراد الله الكفر؟ فقل: بالإرادة الكونية نعم أراده، ولو لم يرده الله عز وجل؛ ما وقع.

ثانيًا: يلزم فيها وقوع المراد؛ يعني: أن ما أراده الله فلابد أن يقع، ولا يمكن أن يتخلف.

القسم الثاني: إرادة شرعية: وهي مرادفة للمحبة؛ فـ (أراد) فيها بمعنىٰ (أحب)؛ فهي:

أولا: تختص بما يحبه الله؛ فلا يريد الله الكفر بالإرادة الشرعية ولا الفسق.

ثانيًا: أنه لا يلزم فيها وقوع المراد؛ بمعنىٰ: أن الله يريد شيئًا ولا يقع؛ فهو سبحانه يريد من الخلق أن يعبدوه، ولا يلزم وقوع هذا المراد؛ قد يعبدونه وقد لا يعبدونه؛ بخلاف الإرادة الكونية.

فصار الفرق بين الإرادتين من وجهين:

١ـ الإرادة الكونية يلزم فيها وقوع المراد، والشرعية لا يلزم.

٢ـ الإرادة الشرعية تختص فيما يحبه الله، والكونية عامة فيما يحبه وما لا يحبه.

فإذا قال قائل: كيف يريد الله تعالىٰ كونًا ما لا يحبه؛ بمعنىٰ: كيف يريد الكفر أو الفسق أو العصيان وهو لا يحبه ؟!.

فالجواب: أن هذا محبوب إلىٰ الله من وجه مكروه إليه من وجه آخر؛ فهو محبوب إليه لما يتضمنه من المصالح العظيمة، مكروه إليه لأنه معصية.

ولا مانع من أن يكون الشيء محبوبًا مكروهًا باعتبارين؛ فها هو الرجل يقدم طفله الذي هو فلذة كبده وثمرة فؤاده؛ يقدمه إلى الطبيب ليشق جلده ويخرج المادة المؤذية فيه، ولو أتى أحد من الناس يريد أن يشقه بظفره وليس بالمشرط لقاتله، لكن هو يذهب إلى الطبيب ليشقه، وهو ينظر إليه، وهو فرح مسرور، يذهب به إلى الطبيب ليحمي الحديد على النار حتى تلتهب حمراء، ثم يأخذها ويكوي بها ابنه، وهو راض بذلك، لماذا يرضى بذلك وهو ألم للابن؟! لأنه مراد لغيره للمصلحة العظيمة التي تترتب على ذلك.

ونستفيد بمعرفتنا للإرادة من الناحية المسلكية أمرين:

الأمر الأول: أن نعلق رجاءنا وخوفنا وجميع أحوالنا وأعمالنا بالله؛ لأن كل شيء بإرادته وهذا يحقق لنا التوكل.

الأمر الثاني: أن نفعل ما يريده الله شرعًا؛ فإذا علمنا أنه مرادٌ لله شرعًا ومحبوب إليه؛ فإن ذلك يقوي عزمنا على فعله.

هذا من فوائد معرفتنا بالإرادة من الناحية المسلكية؛ فالأول باعتبار الإرادة الكونية، والثاني باعتبار الإرادة الشرعية.

● قال الشيخ صالح بن عبد الله الفوزان:

قوله: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ﴾ أي: هلا إذ دخلت بستانك ﴿قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ أي: إن شاء أبقاها، وإن شاء أفناها؛ اعترافًا بالعجز، وأن القدرة لله سبحانه، قال بعض السلف: من أعجبه شيء فليقل ما شاء الله لا قوة إلا بالله.

وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ أي: لو شاء سبحانه عدم اقتتالهم لم يقتتلوا؛ لأنه لا يجري في ملكه إلا ما يريد، لا راد لحكمه، ولا مبدل لقضائه.

وقوله تعالى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم﴾ أي: أبيحت، والخطاب للمؤمنين، ﴿بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ﴾ أي: الإبل والبقر والغنم، ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ استثناء من ﴿بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ﴾، والمراد به المذكور في قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾ الآية[المائدة: ٣] التي بعدها بقليل.

وقوله: ﴿غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾ استثناء آخر من بهيمة الأنعام.

والمعنى: أحلت لكم بهيمة الأنعام كلها إلا ما كان منها وحشيًا فإنه صيد لا يحل لكم

في حال الإحرام، فقوله: ﴿وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ في محل نصب على الحال، والمراد بالحرم: من هو محرم بحج أو عمرة أو بهما، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ من التحليل والتحريم، لا اعتراض عليه.

الشاهد من الآيات: أن فيها إثبات المشيئة والقوة والحكم والإرادة، صفات لله تعالى على ما يليق بجلاله.

﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ﴾ أي: من شاء الله سبحانه أن يوفقه ويجعل قلبه قابلاً للخير و ﴿من﴾: اسم شرط جازم، و﴿يرد﴾: مجزوم على أنه فعل الشرط، ﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ﴾ مجزوم بجواب الشرط، والشرح الشق، وأصله التوسعة، وشرحت الأمر: بينته ووضحته. والمعنى: يوسع الله صدره للحق الذي هو الإسلام حتى يقبله بصدر منشرح، ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ﴾ أي: ومن شاء سبحانه أن يصرفه عن قبول الحق ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا﴾ أي: لا يتسع لقبول الحق، ﴿حَرَجًا﴾ أي: شديد الضيق فلا يبقى فيه منفذ للخير، وهو تأكيد لمعنى ﴿ضَيِّقًا﴾.

﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ أصله: يتصعد، أي: كأنما تكلف ما لا يطيق مرة بعد مرة، كما يتكلف من يريد الصعود إلى السماء، شبَّه الكافر في ثقل الإيمان عليه بمن يتكلف ما لا يطيقه كصعود السماء.

الشاهد من الآية الكريمة: أن فيها إثبات الإرادة لله سبحانه، وأنها شاملة للهداية والإضلال، أي: يريد الهداية ويريد الإضلال كونًا وقدرًا لحكمة بالغة. فالإرادة الربانية نوعان:

النوع الأول: إرادة كونية قدرية، وهذه مرادفة للمشيئة، ومن أمثلتها: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ [الإسراء: ١٦]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ﴾ [الرعد: ١١]، وقوله: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾.

النوع الثاني: إرادة دينية شرعية، ومن أمثلتها قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٧]، وقوله: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ [المائدة: ٦]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ [الأحزاب: ٣٣].

الفرق بين الإرادتين:

١ ـ الإرادة الكونية قد يحبها الله ويرضاها، وقد لا يحبها ولا يرضاها، والإرادة الشرعية لابد أنه يحبها ويرضاها. فالله أراد المعصية كونًا ولا يرضاها شرعًا.

٢ ـ والإرادة الكونية مقصودة لغيرها، كخلق إبليس وسائر الشرور؛ لتحصل بسبب ذلك المجاهدة والتوبة والاستغفار وغير ذلك من المحاب، والإرادة الشرعية مقصودة لذاتها، فالله أراد الطاعة كونًا وشرعًا وأحبها ورضيها.

٣ ـ الإرادة الكونية لابد من وقوعها، والإرادة الشرعية لا يلزم وقوعها فقد تقع وقد لا تقع.

تنبيه: تجتمع الإرادتان الكونية والشرعية في حق المخلص المطيع، وتنفرد الإرادة الكونية في حق العاصي.

تنبيه آخر: من لم يثبت الإرادتين ويفرق بينهما فقد ضل؛ كالجبرية والقدرية. فالجبرية: أثبتوا الإرادة الكونية فقط، والقدرية: أثبتوا الإرادة الشرعية فقط، وأهل السنة: أثبتوا الإرادتين وفرقوا بينهما.

* * *

[أسئلة وأجوبة نموذجية على الإرادة والمشيئة]

● قال الشيخ عبد العزيز المحمد السلمان:

س ـ ما هي أدلة إثبات صفتي الإرادة والمشيئة؟

ج ـ قوله تعالى: ﴿وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ﴾ [الكهف: ٣٩].

وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

وقوله: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

س ـ بين ما تعرفه عن معنى قوله تعالى في الآية الأولى: ﴿وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ﴾ الآية، وبين ما يؤخذ منها من أحكام؟

ج ـ أي: وَهَلاَّ إذ أعجبتك جنتك حين دخلتها ونظرت إليها حمدت الله على ما أنعم به عليك وأعطاك من المال والولد وقلت الأمر ما شاء الله والكائن ما قدره الله ليكون ذلك منك اعترافًا بالعجز، وبأنها وما فيها بمشيئة الله إن شاء أبقاها وإن شاء أفناها وأن ما تيسر له من عمارتها إنما هو بمعونة الله لا بقوته وقدرته ففي هذه الآية:

أولاً: إثبات المشيئة.

ثانيًا: أن الأمر ما شاء الله والكائن ما قدره الله.

ثالثًا: الحث على حمد الله والاعتراف بنعمه.

رابعًا: أنه لا تحول من حال إلى حال إلا بمعونة الله تعالى.

خامسًا: وصفه سبحانه بالقوة.

سادسًا: النصح والتوبيخ لمن قال مقالة تنافي الشرع.

سابعًا: إثبات الألوهية لله.

ثامنًا: إثبات قدرة الله وأن الأمر كله لله.

تاسعًا: على الإنسان أن يخضع لله ويعترف بالعجز.

عاشرًا: أنه ينبغي للإنسان إذا أعجبه شيء أن يقول ما شاء الله لا قوة إلا بالله.

الحادي عشر: أن قول ذلك سبب لثبوت النعمة وزيادتها لأن الاعتراف شكر وقد قال الله جل وعلا ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

س - بين ما تعرفه عن معنى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا﴾ ... إلخ

ج - في الآية أولاً: إخبار عما وقع بين أتباع الرسل من بعدهم من التنازع والتعادي وأن ذلك إنما كان بمشيئة الله عز وجل، ولو شاء الله عدم اقتتالهم لم يقتتلوا إذ لا يجري في ملكه إلا ما شاء سبحانه ففي هذه الآية:

أولاً: إثبات المشيئة لله سبحانه وأن ما شاءه لابد من وقوعه.

ثانيًا: فيها رد على المعتزلة لأنه سبحانه لو شاء أن لا يقتتلوا ما اقتتلوا، والمعتزلة يقولون: شاء أن لا يقتتلوا فاقتتلوا فهم يزعمون أن مشيئة الكافر تغلب مشيئة الله - تعالى الله عن قولهم علوًا كبيرًا.

ثالثًا: إثبات الفعل حقيقة لله على ما يليق بجلاله وعظمته.

رابعًا: إثبات صفة الحياة وهي من الصفات الذاتية.

خامسًا: إثبات صفة القدرة وهي من الصفات الذاتية.

سادسًا: فيها دليل على أن أفعاله قائمة به ولولا ذلك لم يكن فعالاً ولا موصوفًا بصفات الكمال.

سابعًا: أنه سبحانه لم يزل فعالاً لما يريد ولم يزل موصوفًا بصفات الكمال، والفعل من لوازم الحياة والرب لم يزل حيًا فلم يزل فعالاً لما يريد.

قال ابن القيم:

والله ربي لم يزل ذا قدرة ... ومشيئة ويليهما وصفان

العلم مع وصف الحياة وهذه ... أوصاف ذات الخالق المنان

وبها تمام الفعل ليس بدونها ... فعل يتم بواضح البرهان

س ـ ما الذي تعرفه عن معنى قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلام وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾؟

ج ـ يقول تعالىٰ: «فمن كان أهلاً بإرادة الله وتقديره لقبوله دعوة الإسلام الذي هو دين الفطرة والهادي إلىٰ طريق الحق والرشاد وجد لذلك في نفسه انشراحًا واتساعًا بما يشعر به قلبه من السرور.

فلا يجد مانعًا من النظر الصحيح فيما ألقي إليه، فيتأمله وتظهر له عجائبة وتتضح له دلائله فتتوجه إليه إرادته ويدعوا له قلبه بما يرىٰ من ساطع النور الذي يستضيء به له وباهر البرهان الذي يتملك نفسه.

ولما سئل ﷺ عن هذه الآية قالوا: كيف يشرح صدره يا رسول الله؟ قال: «**نور يقذف فيه فينشرح له وينفسح**». قالوا: فهل لذلك من أمارة يعرف بها؟ قال: «**الإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل نزول الموت**».

وقوله: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ﴾.. إلخ. أي من فسدت فطرته بالشرك وتدنست نفسه بالآثام والذنوب يجد في صدره ضيقًا أيما ضيق إذا طلب إليه التأمل فيما يدعىٰ له من دلائل التوحيد والنظر في الآفاق والأنفس لما استحوذ علىٰ قلبه من باطل التقاليد والاستكبار عن مخالفة ما ألفه وسار عليه الأكثر من الناس.

وتضعف إرادته عن ترك ما هو عليه فتكون إجابته للداعي إلىٰ دين الإسلام والتمسك به ثقيلة ويشعر بالعجز عن احتمالها ويكون مثل من صعد في الطبقات العليا في جو السماء إذ يشعر بضيق شديد في النفس وكلما صعد في الجو أكثر شعر بتخلخل الهواء ولم يستطع البقاء فإن هو قد بقي فيها مات.

وقيل كأنه من ضيقه وشدته يصعد في السماء أي يتكلف الصعود إلىٰ السماء الذي لا حيلة فيه. والخلاصة أن هذا مثل ضربه الله لقلب الكافر في شدة ضيقة عن وصول الإيمان إليه بقوله فمثله في امتناعه من قبول الإيمان وضيقه عن وصوله إليه مثل امتناعه عن الصعود إلىٰ السماء وعجزه عنه لأنه ليس في وسعه وطاقته الوصول إليه.

س ـ ما الذي يؤخذ من هذه الآية الكريمة؟

ج ـ فيها: أولاً: أن الهداية والإضلال بيد الله.

ثانيًا: أن العبد مفتقر إلىٰ ربه في كل شيء.

ثالثًا: أن العباد لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا.

رابعًا: أن من تفرد بالخلق والرزق هو المستحق أن يفرد بالألوهية والعبادة والسؤال وأنه ليس عند أحد من هداية القلوب وتفريج الكروب شيء، لا الأنبياء ولا الملائكة ولا غيرهم.

خامسًا: فيه رد علىٰ من زعم أن النبي ﷺ يملك شيئًا من ذلك فضلاً عن غيره.

سادسًا: فيها إثبات العلة والحكمة في أفعال الله إذ لا يعقل مريد إلا إذا كان المريد قد فعل لحكمة يقصدها بالفعل.

سابعًا: فيها رد علىٰ الجهمية الذين ينفون الحكمة عن الله في خلقه وأمره.

ثامنًا: إثبات صفة الإرادة الكونية القدرية المرادفة للمشيئة.

تاسعًا: إثبات الألوهية لله.

عاشرًا: أن من انشرح صدره للإسلام بأن اتسع وانفسح فاستنار بنور الإيمان حتىٰ يصفو اليقين فاطمأنت بذلك نفسه فإن هذا علامة علىٰ أن الله قد هداه ومنَّ عليه بالتوفيق.

الحادي عشر: أن علامة من يرد الله أن يضله يجعل صدره ضيقًا حرجًا.

الثاني عشر: أن من أراد الله إضلاله يكون فيه انكماش وتصلب وتحجر وضيق وشرود عن الصراط المستقيم.

الثالث عشر: أن الإيمان انشراح ويسر وطمأنينة.

الرابع عشر: إثبات قدرة الله.

الخامس عشر: أن قلوب العباد يصرفها الله كيف يشاء.

السادس عشر: أن من شرح الله صدره للإسلام يتلقاه ويسمعه ويمتزج به ويطمئن إليه.

السابع عشر: أن من أراد الله إضلاله تتعطل حواسه وجوارحه وبصيرته عن التطلع والاتصال والاستجابة للهداية.

الثامن عشر: إثبات صفة الكلام.

التاسع عشر: إثبات قدرة الله التي لا يعجزها شيء.

العشرون: الرد على من أنكر شيئًا من هذه الصفات.

الحادي والعشرون: إثبات صفة العلم وأنه أعلم بمن يستحق الهداية ومن يستحق الإضلال.

الثاني والعشرون: دليل على عظم فضل الله على عبده المؤمن الذي شرح صدره للإسلام.

* * *

[صفة المحبة]

وقوله: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥]. ﴿وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩]. ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٧]. ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]. ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١]. ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤]. ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤]

• الشَّرح •

● قال الشيخ محمد خليل هراس:

وقوله تعالى في الآية الأولى: ﴿وأحسنوا﴾: أمر بالإحسان العام في كل شيء لا سيما في النفقة المأمور بها قبل ذلك؛ والإحسان فيها يكون بالبذل وعدم الإمساك، أو بالتوسط بين التقتير والتبذير؛ وهو القوام الذي أمر الله به في سورة الفرقان.

روى مسلم في «صحيحه» عن شداد بن أوس أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله كتب الإحسان على كل شيء؛ فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة؛ وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته**»[1] .

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٩٥٥).

وأما قوله: «﴿ إن الله يحب المحسنين ﴾»: فهو تعليل للأمر بالإحسان فإنهم إذا علموا أن الإحسان موجب لمحبته سارعوا إلى امتثال الأمر به.

وأما قوله في الآية الثانية: «﴿ وَأَقْسِطُوا ﴾»: فهو أمر بالإقساط وهو العدل في الحكم بين الطائفتين المتنازعتين من المؤمنين؛ وهو من قسط إذا جار، فالهمزة فيه للسلب، ومن أسمائه تعالى المقسط، وفي الآية الحث على العدل وفضله، وأنه سبب لمحبة الله عز وجل.

وأما قوله تعالى: «﴿ فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم ﴾»: فمعناه إذا كان بينكم وبين أحد عهد كهؤلاء الذين عاهدتموهم عند المسجد الحرام فاستقيموا لهم على عهدهم مدة استقامتهم لكم، فما هنا مصدرية ظرفية ثم علل ذلك الأمر بقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾أي يحب الذين يتقون الله في كل شيء ومنه عدم نقض العهود.

وأما قوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ ﴾ إلخ: فهو إخبار من الله سبحانه وتعالى عن محبته لهذين الصنفين من عباده.

أما الأول: فهم «التوابون»، أي: الذين يكثرون التوبة والرجوع إلى الله عز وجل بالاستغفار مما ألموا به على ما تقتضيه صيغة المبالغة، فهم بكثرة التوبة قد تطهروا من الأقذار والنجاسات المعنوية التي هي الذنوب والمعاصي.

وأما الثاني: فهم «المتطهرون»: الذين يبالغون في التطهر، وهو التنظيف بالوضوء أو بالغسل من الأحداث والنجاسات الحسية.

وقيل: المراد بالمتطهرين هنا: الذين يتنزهون من إتيان النساء في زمن الحيض أو في أدبارهن، والحمل على العموم أولى.

وأما قوله تعالى: «﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ﴾»: فقد روي عن الحسن في سبب نزولها أن قومًا ادعوا أنهم يحبون الله فأنزل الله هذه الآية محنة لهم، وفي هذه الآية قد شرط الله لمحبته اتباع نبيه ﷺ. فلا ينال تلك المحبة إلا من أحسن الاتباع والاستمساك بهديه عليه السلام.

● قال الشيخ ابن العثيمين:

هذه آيات في إثبات صفة المحبة:

الآية الأولى: قوله تعالى: ﴿ وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٥].

﴿ وَأَحْسِنُوٓاْ ﴾ فعل أمر. والإحسان قد يكون واجبًا، وقد يكون مستحبًا مندوبًا إليه؛ فما كان يتوقف عليه أداء الواجب؛ فهو واجب، وما كان زائدًا على ذلك؛ فهو مستحب.

وبناء على ذلك؛ نقول: ﴿ وَأَحْسِنُوٓاْ ﴾: فعل أمر مستعمل في الواجب والمستحب.

والإحسان يكون في عبادة الله، ويكون في معاملة الخلق؛ فالإحسان في عبادة الله فسره النبي ﷺ حين سأله جبريل عليه السلام، فقال: ما الإحسان؟ قال: «**أن تعبد الله كأنك تراه**». وهذا أكمل من الذي بعده؛ لأن الذي يعبد الله كأنه يراه يعبده عبادة طلب ورغبة؛ «**فإن لم تكن تراه؛ فإنه يراك**»[1]؛ أي: فإن لم تصل إلى هذه الحال؛ فاعلم أنه يراك، والذي يعبد الله على هذه المرتبة يعبده عبادة خوف وهرب؛ لأنه يخاف ممن يراه.

وأما الإحسان بالنسبة لمعاملة الخلق؟ فقيل في تفسيره: بذل الندى، وكف الأذى، وطلاقة الوجه.

بذل الندى: أي: المعروف؛ سواء كان ماليًّا أم بدنيًّا أم جاهيًّا.

كف الأذى: أن لا تؤذي الناس بقولك ولا بفعلك.

وطلاقة الوجه: أن لا تكون عبوسًا عند الناس، لكن أحيانًا الإنسان يغضب ويعبس، فنقول: هذا لسبب، وقد يكون من الإحسان إذا كان سببًا لصلاح الحال. ولهذا؛ إذا رجمنا الزاني أو جلدناه؛ فهو إحسان إليه.

ويدخل في ذلك إحسان المعاملة في البيع، والشراء، والإجارة، والنكاح... وغير ذلك؛ لأنك إذا عاملتهم بالطيب في هذه الأمور؛ صبرت على العسر،

---

(١) سبق تخريجه.

وأوفيت الحق بسرعة؛ هذا يعد بذل الندىٰ، فإن اعتديت بالغش والكذب والتزوير؛ فأنت لم تكف الأذىٰ؛ لأن هذا أذية.

حسن في عبادة الله وإلىٰ عباد الله.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾: هذا تعليل للأمر؛ فهذا ثواب المحسن؛ أن الله يحبه، ومحبة الله مرتبة عالية عظيمة، و والله؛ إن محبة الله لتشترىٰ بالدنيا كلها، وهي أعلىٰ من أن تحب الله؛ فكون الله يحبك أعلىٰ من أن تحبه أنت، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، ولم يقل: فاتبعوني؛ تصدقوا في محبتكم لله. مع أن الحال تقتضي هكذا، ولكن قال: ﴿يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

ولهذا قال بعض العلماء: الشأن كل الشأن في أن الله يحبك لا أنك تحب الله.

كل يدعي أنه يحب الله، لكن الشأن في الذي في السماء عز وجل؛ هل يحبك أم لا؟ إذا أحبك الله عز وجل؛ أحبتك الملائكة في السماء، ثم يوضع لك القبول في الأرض، فيحبك أهل الأرض، ويقبلونك، ويقبلون ما جاء منك وهذه من عاجل بشرىٰ المؤمن[1].

وفي هذه الآية من الأسماء: الله.

ومن الصفات: الألوهية، والمحبة.

الآية الثانية: قوله: ﴿وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩].

فقوله: ﴿وَأَقْسِطُوا﴾: فعل أمر، والإقساط ليس هو القسط، بل هو من فعل رباعي؛ فالهمزة فيه همزة النفي، هذه الهمزة هي همزة النفي، إذا دخلت علىٰ الفعل؛ نفت معناه؛ فالفعل (قسط)؛ بمعنىٰ: جار؛ فإذا أدخلت عليه همزة (أقسط)؛ صار بمعنىٰ: عدل؛ أي: أزال القسط، وهو الجور، فيسمون مثل هذه الهمزة همزة السلب؛ مثل خطئ وأخطأ، خطئ؛ بمعنىٰ ارتكب الخطأ عن عمد، وأخطأ: ارتكبه عن غير عمد.

﴿وَأَقْسِطُوا﴾؛ أي: اعدلوا، وهذا واجب؛ فالعدل واجب في كل ما تجب فيه

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٢٠٩) ومسلم (٢٦٣٧) من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ.

التسوية:

يدخل في ذلك العدل في معاملة الله عز وجل؛ ينعم الله عليك بالنعم؛ فمن العدل أن تقوم بشكره، يبين الله لك الحق؛ فمن العدل أن تتبع هذا الحق.

ويدخل في ذلك العدل في معاملات الخلق: أن تُعامل الناس بما تحب أن يعاملوك به؛ ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام: **«من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة؛ فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس ما يحب أن يؤتي إليه»**(١).

عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به؛ مثلا: إذا أردت أن تعامل شخصًا معاملة؛ فاعرضها أولا على نفسك: هل إذا عاملك إنسان بها؛ هل ترضى أم لا؟ إن كنت ترضى؛ فعامله، وإلا؛ فلا تعامله.

ويدخل في ذلك العدل بين الأولاد في العطية؛ قال النبي ﷺ: **«اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم»**(٢).

ويدخل في ذلك العدل بين الورثة في الميراث؛ فيعطي كل واحد نصيبه، ولا يوصي لأحد منهم بشيء.

ويدخل في ذلك العدل بين الزوجات؛ بأن تقسم لكل واحدة مثل ما تقسم للأخرى.

ويدخل في ذلك العدل في نفسك، فلا تكلفها ما لا تطيق من الأعمال؛ إن لربك عليك حقًّا، ولنفسك عليك حقًّا. وعلى هذا؛ فقس.

وهنا يجب أن ننبه على أن من الناس من يستعمل بدل العدل: المساواة! وهذا خطأ، لا يقال: مساواة؛ لأن المساواة قد تقتضي التسوية بين شيئين الحكمة تقتضي التفريق بينهما.

ومن أجل هذه الدعوة الجائرة إلى التسوية صاروا يقولون: أي فرق بين الذكر

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٨٤٤) والنسائي في «الكبرى» (٤١٩١) وابن ماجه (٣٩٥٦) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنه -.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٥٨٧) ومسلم (١٦٢٣) من حديث النعمان بن بشير - رضي الله عنه -.

والأنثى؟! سووا بين الذكور والإناث! حتى إن الشيوعية قالت: أي فرق بين الحاكم والمحكوم، لا يمكن أن يكون لأحد سلطة على أحد، حتى بين الوالد والولد، ليس للوالد سلطة على الولد. . . وهلمَّ جرًّا.

لكن إذا قلنا بالعدل، وهو إعطاء كل أحد ما يستحقه؛ زال هذا المحذور، وصارت العبارة سليمة.

ولهذا؛ لم يأت في القرآن أبدًا: إن الله يأمر بالتسوية! لكن جاء: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ [النحل: ٩٠]، ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨].

وأخطأ على الإسلام من قال: إن دين الإسلام دين المساواة! بل دين الإسلام دين العدل، وهو الجمع بين المتساويين، والتفريق بين المفترقين؛ إلا أن يريد بالمساواة: العدل، فيكون أصاب في المعنى وأخطأ في اللفظ.

ولهذا كان أكثر ما جاء في القرآن نفي المساواة: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]، ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾ [الرعد: ١٦]، ﴿لا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا﴾ [الحديد: ١٠]، ﴿لاَّ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٩٥]. ولم يأت حرف واحد في القرآن يأمر بالمساواة أبدًا، إنما يأمر بالعدل.

وكلمة (العدل) أيضًا تجدونها مقبولة لدى النفوس.

وأحببت أن أنبه على هذا؛ لئلا نكون في كلامنا إمعة؛ لأن بعض الناس يأخذ الكلام على عواهنه؛ فلا يفكر في مدلوله وفيمن وضعه وفي مغزاه عند من وضعه.

وفي الآية من الأسماء والصفات ما سبق في التي قبلها.

الآية الثالثة: قوله: ﴿فَمَا اسْتَقَامُواْ لَكُمْ فَاسْتَقِيمُواْ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٧].

«﴿مَا﴾»: شرطية، وفعل الشرط: ﴿اسْتَقَامُواْ﴾، وجوابه: ﴿فَاسْتَقِيمُواْ﴾؛ أي: مهما استقام لكم المعاهدون الذين عاهدتم عند المسجد الحرام بالوفاء بالعهد؛ فاستقيموا لهم في ذلك.

وهذه الجملة الشرطية تقتضي بمنطوقها؛ أنهم إذا استقاموا لنا؛ وجب أن نستقيم لهم، وأن نوفي بعهدهم. وتدل بمفهومها على أنهم إذا لم يستقيموا؛ لا نستقيم لهم.

والمعاهدون ينقسمون إلى ثلاثة أقسام:

قسم استقاموا على عهدهم وأمناهم، فيجب علينا أن نستقيم لهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَا اسْتَقَامُواْ لَكُمْ فَاسْتَقِيمُواْ لَهُمْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾.

وقسم خانوا ونقضوا العهد؛ فهؤلاء لا عهد لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن نَّكَثُواْ أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُواْ أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ١٢].

وقسم ثالث يظهرون الاستقامة لنا، لكننا نخاف من خيانتهم؛ بمعنى أنه توجد قرائن تدل على أنهم يريدون الخيانة؛ فهؤلاء قال الله فيهم: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاء إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الخَائِنِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨]؛ أي: انبذ إليهم عهدهم؛ فقل: لا عهد بيننا وبينكم.

فإذا قال قائل: كيف ينبذ العهد إليهم وهم معاهدون؟!

قلنا: لخوف الخيانة؛ فهؤلاء لا نأمنهم؛ لأنه يمكن في يوم من الأيام أن يصبحونا؛ فهؤلاء ننبذ إليهم على سواء، ولا نخونهم ما دام العهد قائمًا؛ لأنه لو قال المسلمون: نحن نخاف منهم الخيانة؛ سنبادرهم بالقتال. قلنا: هذا حرام، لا تقاتلوهم حتى تنبذوا إليهم العهد.

وقوله: ﴿الْمُتَّقِينَ﴾: المتقون هم الذين اتخذوا وقاية من عذاب الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه، هذا من أحسن وأجمع ما يقال في تعريف التقوى.

وفي الآية من الأسماء والصفات كالتي قبلها.

الآية الرابعة: قوله: ﴿إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

التواب: صيغة مبالغة من التوبة، وهو كثير الرجوع إلى الله، والتوبة هي الرجوع إلى الله من معصيته إلى طاعته.

وشروطها خمسة:

الأول: الإخلاص لله تعالىٰ؛ بأن يكون الحامل له علىٰ التوبة مخافة الله ورجاء ثوابه.

الثاني: الندم علىٰ ما فعل من الذنب، وعلامة ذلك أن يتمنىٰ أنه لم يقع منه

الثالث: الإقلاع عن الذنب؛ بتركه إن كان محرمًا، أو تداركه إن كان واجبًا يمكن تداركه.

الرابع: العزم علىٰ أن لا يعود إليه.

الخامس: أن تكون في وقت تقبل فيه التوبة، وهو ما كان قبل حضور الموت وطلوع الشمس من مغربها، فإن كانت بعد حضور الموت أو بعد طلوع الشمس من مغربها؛ لم تقبل.

فالتواب: كثير التوبة

ومعلوم أن كثرة التوبة تستلزم كثرة الذنب؛ ومن هنا نفهم بأن الإنسان مهما كثر ذنبه، إذا أحدث لكل ذنب توبة، فإن الله تعالىٰ يحبه، والتائب مرة واحدة من ذنب واحد محبوب إلىٰ الله عز وجل من باب أولىٰ؛ لأن من كثرت ذنوبه وكثرت توبته يحبه الله، فمن قَلت ذنوبه؛ كانت محبة الله له بالتوبة من باب أولىٰ[1] .

وقوله: «﴿وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾»: الذين يتطهرون من الأحداث ومن الأنجاس في أبدانهم وما يجب تطهيره

وهنا جمع بين طهارة الظاهر وطهارة الباطن: طهارة الباطن بقوله: ﴿التَّوَّابِينَ﴾، والظاهر بقوله: ﴿الْمُتَطَهِّرِينَ﴾.

وفي الآية من الأسماء والصفات ما سبق في التي قبلها.

---

(١) وفي الحديث عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ فيما يحكي عن ربه عز وجل قال: أذنب عبد ذنبًا فقال: اللهم اغفر لي ذنبي. فقال: تبارك وتعالىٰ: أذنب عبد ذنبًا فعلم أن له ربًا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب ثم عاد فأذنب فقال: أي رب اغفر لي فقال تبارك وتعالىٰ: . . . . وفيه «اعمل ما شئت فقد غفرت لك» البخاري (٧٥٠٧) ومسلم (٢٧٥٨).

الآية الخامسة: قوله: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

يُسمي علماء السلف هذه الآية: آية المحنة؛ يعني الامتحان؛ لأن قومًا ادعوا أنهم يحبون الله فأمر الله نبيه(١) أن يقول لهم: ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي﴾، وهذا تحدٍّ لكل من ادعى محبة الله؛ أن يقال له: إن كنت صادقًا في محبة الله؛ فاتبع الرسول؛ فمن أحدث في دين رسول الله ﷺ ما ليس منه، وقال: إنني أحب الله ورسوله بما أحدثته؛ قلنا له: هذا كذب! لو كانت محبتك صادقة، لاتبعت الرسول عليه الصلاة والسلام، ولم تتقدم بين يديه بإدخال شيء في شريعته ليس من دينه؛ فكل من كان أتبع لرسول الله ﷺ؛ كان لله أحب.

وإذا أحب الله وقام بعبادته؛ فإن الله تعالى يحبه، بل إن الله عز وجل يعطيه أكثر مما عمل؛ يقول تعالى في الحديث القدسي: «من ذكرني في نفسه؛ ذكرته في نفسي»، ونفس الله أعظم من نفوسنا. «ومن ذكرني في ملأ؛ ذكرته في ملأ خير منهم». وفي الحديث أيضًا: «أن من تقرب إليه شبرًا؛ تقرب الله إليه ذراعًا؛ ومن تقرب إليه ذراعًا؛ تقرب إليه باعًا، ومن أتى إلى الله يمشي، أتاه الله هرولة»(٢).

إذا فعطاء الله عز وجل وثوابه أكثر من عملك.

وفي الآية من الأسماء والصفات ما سبق في التي قبلها.

الآية السادسة: قوله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤].

الفاء واقعة في جواب الشرط في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾؛ أي: إذا ارتددتم عن دين الله؛ فإن ذلك لا يضر الله شيئًا؛ ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾، وهذا كقوله: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨].

فكل من ارتد عن دين الله؛ فإن الله لا يعبأ به؛ لأنه تعالى غني عنه؛ بل يزيله ويأتي بخير منه؛ ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ﴾ بدل منهم ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾، وإذا

---

(١) جاء ذلك عن الحسن البصر وغيره من السلف عليهم رحمة الله تعالى.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٧٤٠٥) ومسلم (٢٦٧٥) من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ.

كانوا يحبون الله ويحبهم الله؛ فسوف يقومون بطاعته.

وتمام الآية: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]: أمام المؤمنين أذلة؛ يخفضون أجنحتهم للمؤمنين، ويلينون لهم، ويتطامنون، ومع الكفار أعزة أقوياء، لا يظهرون الذل أمام الكافر أبدًا.

وقد علمنا الرسول عليه الصلاة والسلام: «**وإذا لقيتموهم في طريق؛ فاضطروهم إلى أضيقه**»[1]؛ فإذا لاقاكم اليهود والنصارىٰ، ولو كانوا ألفًا وأنتم عشرة؛ نشق هذا الجمع، ولا نفسح لهم الطريق، بل نلجئهم إلىٰ أضيقه، فنريهم العز بديننا لا بأنفسنا، لأننا نحن بشر وهم بشر، حتىٰ يتبين لهم أن دين الإسلام هو الظاهر، وأن المتمسك به هو العزيز.

﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤]. يجاهدون في سبيل الله، كل من قام ضد دين الله من كافر وفاسق وملحد ومارق يجاهدونه، وكل إنسان يقابلونه من السلاح بما يليق به؛ فمن قاتلهم بالحديد والنار؛ قاتلوه بالحديد والنار، ومن قاتلهم بالجدال والخصام الكلامي؛ جادلوه بمثل ذلك؛ فهم يجاهدون في الله بكل نوع من أنواع الجهاد.

﴿وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ﴾: لا يخافون نقد الناس عليهم؛ يقولون الحق ولو كان علىٰ أنفسهم.

لكنهم يستعملون الحكمة في هذا الجهاد ويرومون الوصول إلىٰ الغاية؛ فإذا رأوا أن الدعوة تستوجب التأخر في بعض الأمور؛ تأخروا، وإذا رأوا أن الدعوة تقتضي اللين في بعض الأحوال؛ استعملوه؛ لأنهم يريدون الوصول إلىٰ غاية معينة، والوسيلة حسب ما تقتضيه الحال.

ثم قال الله تعالىٰ: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤].

وفي الآية من الأسماء والصفات ما سبق في التي قبلها، وزيادة أن الله تعالىٰ يكون محبوبًا.

---

(١) أخرجه مسلم (٢١٦٧) وأبو داود (٥٢٠٥) والترمذي (٢٧٠٠) من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه.

الآية السابعة: قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤].

هذه الآية في سورة الصف، وسورة الصف في الحقيقة هي سورة الجهاد؛ لأن الله تعالىٰ بدأها بالثناء علىٰ المقاتلين في سبيله، ثم دعا إلىٰ الجهاد في آخرها، ثم ذكر بين ذلك أن الله سيظهر دينه علىٰ كل الأديان ولو كره المشركون.

«﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا﴾»: لا يتقدم أحد علىٰ أحد ولا يتأخر؛ حتىٰ في الجهاد.

والصلاة جهاد مصغر، فيها قائد يجب اتباعه؛ فإن لم تتبعه؛ بطلت صلاتك؛ قال النبي ﷺ: «أما يخشى الذي يرفع رأسه قبل الإمام أن يحول الله رأسه رأس حمار، أو يجعل صورته صورة حمار»[1]، والصف في الصلاة نظير الصف في الجهاد، وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يصفهم في الجهاد كما يصفهم في الصلاة «كأنهم بنيان» والبنيان كما قال الرسول عليه الصلاة والسلام: «يشد بعضه بعضًا»[2]، يتماسك بعضه ببعض، ولهذا قال: ﴿كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾؛ فليس كالمفرق: فالمرصوص أشد تماسكًا

فهؤلاء الذين علق الله المحبة لهم بأعمالهم لهم عدة صفات:

أولًا: يقاتلون؛ فلا يركنون إلىٰ الخلود والخمول والكسل والجمود الذي يُضعف الدين والدنيا.

ثانيًا: الإخلاص؛ لقوله ﴿فِي سَبِيلِهِ﴾.

ثالثًا: يشد بعضهم بعضًا؛ لقوله: ﴿صَفًّا﴾.

رابعًا: أنهم كالبنيان، والبنيان حصن منيع

خامسًا: لا يتخللهم ما يمزقهم؛ لقوله: ﴿مَّرْصُوصٌ﴾.

هذه خمس صفات علق الله المحبة لهؤلاء عليها.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٩١) ومسلم (٤٢٧) من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٨١) ومسلم (٢٥٨٥) من حديث أبي موسىٰ ـ رضي الله عنه ـ.

● قال الشيخ صالح بن عبد الله الفوزان:

لما ذكر الشيخ رحمه الله الآيات التي تدل على إثبات المشيئة والإرادة ذكر الآيات التي تدل على إثبات المحبة لله سبحانه. وفي ذلك الرد على من سوّى بين المشيئة والمحبة، وقال: إنهما متلازمان، فكل ما شاء الله فقد أحبه. وقد قدمنا أن في ذلك تفصيلاً، فقد يشاء الله ما لا يحبه؛ ككفر الكافر وسائر المعاصي، وقد يشاء ما يحب؛ كالإيمان وسائر الطاعات.

وقوله تعالى: «﴿وأحسنوا﴾»: هذا أمر من الله تعالى بالإحسان، وهو: الإتيان بالعمل على أحسن أحواله وأكملها، والإحسان هو أعلى مقامات الطاعة.

﴿إنَّ الله يحبُّ المُحسنين﴾ هذا تعليل للأمر بالإحسان، فهو أمر به؛ لأنه يحبه ويحب أهله، فيكون ذلك حافزاً على امتثال الأمر به.

وقوله تعالى: ﴿وأقسطوا﴾ أمر بالإقساط، وهو: العدل في المعاملات والأحكام مع القريب والبعيد.

﴿إنَّ الله يحبُّ المقسطين﴾ تعليل للأمر بالإقساط، فهو أمر به؛ لأنه ﴿يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ أي: العادلين، ومحبته سبحانه لهم تستلزم أن يجزيهم أحسن الجزاء.

وقوله تعالى: ﴿فما استقاموا لكُمْ فاستقيموا لَهُمْ﴾ أي: ما استقام لكم المشركون على العهد فلم ينقضوه فاستقيموا على الوفاء لهم فلا تقاتلوهم.

﴿إنَّ الله يحبُّ المتقين﴾: تعليل للأمر بالاستقامة على العهد، فهوأمر بها؛ لأنها من أعمال المتقين الذين يحبهم الله، وفيه إشارة إلى أن الوفاء بالعهد والاستقامة عليه من أعمال المتقين، والتقوى: هي التحرز بطاعة الله عن معصيته رجاء ثوابه وخوفًا من عقابه.

وقوله تعالى: ﴿إنَّ اللَّهَ يُحبُّ التَّوَّابِينَ﴾ التوابين: جمع تواب صيغة مبالغة من التوبة، وهي لغة: الرجوع. وشرعًا: الرجوع عن الذنب، هذا تفسيرها في حق العبد، وأما في حق الله فالتواب من أسماء الله تعالى، قال ابن القيم: العبد تواب، والله تواب، فتوبة العبد رجوعه إلى سيده، وتوبة الله نوعان: إذن وتوفيق، وقبول واعتداد.

﴿ ويحب المتطهرين ﴾ : ﴿ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ : جمع متطهر، اسم فاعل من الطهارة، وهي النزاهة والنظافة عن الأقذار حسية كانت أو معنوية، وفي الآية الكريمة إخبار من الله سبحانه عن محبته لهذين الصنفين من عباده التوابين والمتطهرين.

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾.

سبب نزول هذه الآية الكريمة كما ذكره ابن كثير وغيره: أن قومًا زعموا أنهم يحبون الله فابتلاهم الله - أي: اختبرهم - بهذه الآية فهي حاكمة على كل من ادعى محبة الله وليس هو على الطريقة المحمدية بأنه كاذب في دعواه.

وقوله: ﴿ يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ أي: يحصل لكم فوق ما طلبتم من محبتكم إياه وهو محبته إياكم، وهو أعظم من الأول.

وقوله تعالى: ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ : هذا جواب الشرط في قوله: ﴿ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ ﴾، يقول تعالى مخبراً عن قدرته العظيمة أنه من تولى عن نصرة دينه وإقامة شريعته أنه يستبدل به من هو خير منه. وهم قوم متصفون بصفات عظيمة من أعظمها: أن الله يحبهم وهم يحبونه، والمراد بهم: أبو بكر الصديق وجيشه من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم الذين قاتلوا أهل الردة، ثم كل من جاء بعدهم من المقاتلين للمرتدين إلى يوم القيامة.

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ ﴾ : إخبار منه مؤكد أنه سبحانه يحب من اتصف بهذه الصفة ﴿ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ ﴾ أي: يجاهدون بأموالهم وأنفسهم لإعلاء كلمة الله.

﴿ صَفًّا ﴾ أي: يصفون أنفسهم عند القتال ولا يزولون عن أماكنهم.

﴿ كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ قد رص بعضه ببعض وألزق بعضه ببعض فليس فيه فرجة ولا خلل.

* * *

[أسئلة وأجوبة نموذجية على صفة المحبة]

● قال الشيخ عبد العزيز المحمد السلمان:

س - كيف يريد الله سبحانه أمرًا لا يرضاه ولا يحبه وكيف يشاؤه ويكونه وكيف تجتمع إرادته له وبغضه وكراهته؟

ج - هذا السؤال أصل الافتراق والإضلال الواقع بين طوائف المسلمين وفرق الموحدين إذا علم ذلك فاعلم أن المراد نوعان: مراد لنفسه ومراد لغيره، فالمراد لنفسه: مطلوب محبوب لذاته وما فيه من الخير فهو مراد إرادة الغايات والمقاصد.

والمراد لغيره: قد لا يكون في نفسه مقصوداً للمريد ولا فيه مصلحة له بالنظر إلىٰ ذاته وإن كان وسيلة إلىٰ مقصوده ومراده فهو مكروه له من حيث نفسه وذاته مراد له من حيث إفضائه وإيصاله إلىٰ مراده فيجتمع فيه الأمران بغضه وإرادته من غير تنافٍ لاختلاف متعلقهما.

وهذا كالدواء المتناهي في الكراهة إذا علم متناوله أن فيه شفاءه، وقطع العضو المتآكل إذا علم أن في قطعه بقاء جسده وقطع المسافة الشاقة إذا علم أنها توصل إلىٰ مراده ومحبوبه بل العاقل يكتفي في إيثار هذا المكروه وإرادته بالظن الغالب وإن خفيت عنه عاقبته وطويت عنه مغبته.

فكيف بمن لا تخفىٰ عليه العواقب فهو سبحانه يكره الشيء ويبغضه في ذاته ولا ينافي ذلك إرادته لغيره وكونه سببًا لأمر هو أحب إليه من فقده من ذلك؛ خلق إبليس الذي هو مادة لفساد الأديان والأعمال والاعتقادات والإرادات وهو سبب شقاء العبيد وعملهم بما يغضب الرب المريد وهو الساعي في وقوع مساخط الله ومناهيه بكل طريق وحيلة فهو مسخوط للباري مبغوض قد لعنه وأبعده وغضب عليه وطرده.

ومع هذا فهو وسيلة إلىٰ محابٍّ كثيرة للباري جل وعلا يترتب وجودها علىٰ خلقه

وإيجاده ووجودها أحب إلى الله من عدمها لحكمة جرت منه في عباده على وفق مراده .

منها: إظهار القدرة على خلق المتضادات المتقابلات كخلق هذه الذوات التي هي أخبث الذوات وأشرها وهي سبب كل شر في مقابلة ذات جبريل التي هي من أشرف الذوات وأطهرها وأزكاها وهي مادة كل خير فتبارك الله خالق الأضداد .

وكما ظهرت قدرته التامة في خلق الليل والنهار والداء والدواء والحياة والموت والحر والبرد والحسن والقبيح والأرض والسماء والماء والنار والخير والشر، كل ذلك ونظائره من دلائل قدرته وعزته .

فإنه خلق هذه المتضادات وقابل بعضها ببعض وسلط بعضها وجعلها مجال تصرفه وتدبيره وحكمته فخلو الوجود عن بعضها بالكلية تعطيل لكمال حكمته وكمال تصرفه وتدبير مملكته .

ومنها: ظهور أسمائه القهرية كالقهار والمنتقم والعدل والضار ونحوها وظهور أسمائه المتضمنة لحلمه وعفوه ومغفرته وستره وتجاوزه عن حقه وعتقه لمن شاء من عبيده فلولا خلق ما يكرهه من الأسباب المفضية إلي ظهور هذه الأسماء لتعطلت هذه الحكم والفوائد .

وفي الحديث «**لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم**» ومنها ظهور أسماء الحكمة والخبرة فإن الحكيم الخبير الذي يضع الأشياء مواضعها وينزل الأمور منازلها اللائقة بها ومنها حصول العبودية المتنوعة . اهـ.

س - إلى كم تنقسم الإرادة: وما الذي تفهمه من أدلتها وما يؤخذ من الآيات؟

ج - تنقسم إلى قسمين: كونية قدرية مرادفة للمشيئة وتقدم دليلها والقسم الثاني: إرادة دينية. قال شيخ الإسلام: الإرادة في كتاب الله نوعان: إرادة تتعلق بالأمر، وإرادة تتعلق بالخلق؛ فإرادته المتعلقة بالأمر: أن يريد من العبد فعل ما أمره وأما إرادة الخلق: فأن يريد ما يفعله هو فإرادة الأمر هي المتضمنة للمحبة والرضا وهي الإرادة الدينية والإرادة المتعلقة بالخلق هي المشيئة وهي الإرادة الكونية فالكفر والفسوق والعصيان ليس مراداً للرب بالاعتبار الأول والطاعة موافقة لتلك الإرادة

وموافقة للأمر المستلزم لتلك الإرادة فأما موافقة مجرد النوع الثاني فلا يكون به مطيعًا. اهـ. كلامه: وأما دليل الإرادة الدينية الشرعية فمن ذلك قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾، ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ الآية ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾.

فبعد ما ذكر الله سبحانه الأحكام السابقة المتعلقة بالبيوت والنكاح وما شرعه في آية سورة المائدة كأن سائلاً قال: ما هي الحكمة في ذلك، وهل الأنبياء والأمم السابقة كانت مكلفة بمثل هذا، وهل هذه الأحكام مقصود بها التخفيف علينا أو التشديد؟.

فأجاب بهذه الآيات مبينًا الحكم العالية في آياته وأحكامه وأنه ما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم يريد الله أن يبين لكم ما هو خفي عليكم، ويرشدكم إلى ما فيه مصلحتكم في الدنيا والآخرة. وأن يهديكم مناهج من كان قبلكم أي الذين أنعم الله عليهم من النبيين وأتباعهم لتقتفوا آثارهم في سيرهم الحميدة، وأفعالهم السديدة، وشمائلهم الكاملة، وتوفيقهم التام، ويتوب عليكم من الإثم والمحارم.

والله عليم حكيم، أي في شرعه وقدره وأفعاله وأقواله. يريد الله أن يخفف عنكم في شرائعه وأوامره ونواهيه وما يقدره لكم، وذلك لرحمته التامة، وإحسانه الشامل وحكمته وعلمه بضعف الإنسان من جميع الوجوه، ضعف البنية والإرادة والعزيمة والإيمان والصبر فناسب ذلك أن يخفف الله عنه ما يَضْعُفُ عنه وما لا يطيقه إيمانه وصبره وقوته.

وفيها أولاً: إثبات الإرادة الدينية الشرعية.

ثانيًا: إثبات الألوهية.

ثالثًا: إثبات صفة العلم.

رابعًا: إثبات صفة الحكمة، وإثبات العلل والأحكام.

خامسًا: أن الله بين لعباده جميع ما يحتاجون إلى بيانه، من الحق والباطل والحلال والحرام.

سادسًا: أن الله أراد من عباده أن يسلكوا مناهج من تقدمهم من الأنبياء والصالحين في دينهم ودنياهم، وأن دينهم الذي ارتضاه لهم سابقًا لا يبعد عما اختاره لكم.

سابعًا: لطف الله بعباده في أحوالهم وما شرعه لهم.

ثامنًا: أن مرتكب الإثم يهمه جدًا أن يشاركه غيره فيه، إرضاءً لنفسه، واطمئنانًا لها.

تاسعًا: أن الله أراد بهذه الأحكام التخفيف على عباده.

عاشرًا: أن الإنسان خلق ضعيفًا عن مقاومة الشهوات والوقوف أمام تيار النساء.

الحادي عشر: الحث على التوبة.

الثاني عشر: لطف الله بخلقه حيث بيَّن لهم.

الثالث عشر: في الآيات ما يدل على محاسن الإسلام.

الرابع عشر: إثبات رحمة الله ورأفته حيث سهل هذا الدين.

الخامس عشر: في الآيات ما يدل على ضعف الإنسان حيث خفف الله عنه.

السادس عشر: الحث على المراقبة والنظر إلى آلائه وشكره.

س ـ ما الذي تفهمه من الآية الخامسة ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ الآية؟

ج ـ «أُحِلَّت»: أُبيحَت «بهيمة الأنعام»: الإبل والبقر والغنم، «إلا ما يتلى عليكم»: أي ما سيتلى من تحريم بعضها في بعض الأحوال وقوله ﴿غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ قال بعضهم: هذا منصوب على الحال والمراد بالأنعام ما يعم الإنسي، من الإبل والبقر والغنم، وما يعم الوحشي، كالظباء والبقر والحمر الوحشية.

فاستثنى من الإنسي ما تقدم واستثنى من الوحشي الصيد في حال الإحرام، وقيل المراد أحللنا لكم الأنعام إلا ما استثني منها لمن التزم تحريم الصيد وهو حرام، لقوله ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ﴾ [البقرة: ١٧٣] الآية.

قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ أي: يحكم ما يريد من التحليل والتحريم لا

اعتراض عليه في الحكم فله الحكم سبحانه وهو الحكيم لا حاكم غيره، فكل حكم سوىٰ حكمه فهو باطل ومردود وكل حاكم بغير حكمه وحكم رسوله فهو طاغوت كافر بالله.

قال تعالىٰ ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤].

س ـ ما الذي يؤخذ من هذه الآية الكريمة؟

ج ـ فيها أولاً: إثبات صفة الحكم.

ثانيًا: حل أكل بهيمة الأنعام.

ثالثًا: رحمته بخلقه حيث أحل لهم بهيمة الأنعام.

رابعًا: تحريم صيد الوحشي من بهيمة الأنعام في حال الإحرام.

خامسًا: إثبات صفة الإرادة.

سادسًا: إثبات الألوهية لله.

سابعًا: الرد علىٰ من أنكر شيئًا من ذلك.

س ـ ما الفرق بين الإرادة الكونية القدرية والإرادة الدينية الشرعية؟

ج ـ الفرق بينهما:

أولاً: أن الكونية القدرية مستلزمة لوجود المراد، ومعنىٰ ذلك أنه لابد من وقوع مرادها.

ثانيًا: الكونية القدرية شاملة للحوادث كلها، وهي المتعلقة بالخلق بأن يريد ما يفعله هو، قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢] فالكافر والمسلم، والبر والفاجر، والطاعات والمعاصي، والأرزاق والآجال كلها تحتها.

ثالثًا: أن الإرادة الدينية لا تستلزم وقوع المراد إلا أن يتعلق به الأول، وهو الكوني القدري فيجتمعان في حق المطيع وتنفرد الكونية في حق العاصي.

رابعًا: هذه الإرادة الدينية الشرعية تتعلق بالأمر بأن يريد من العبد فعل ما أمره به، والله سبحانه يحبها وقعت أو لم تقع، وهي المتضمنة للمحبة والرضا المتناولة لجميع ما أمر به شرعًا ودينًا، وهي مختصة بالإيمان والعمل الصالح.

س ـ اذكر ما بين الإرادتين من عموم وخصوص؟

ج ـ الكونية القدرية أعم من جهة تعلقها بما لا يحبه الله ويرضاه من الكفر والمعاصي، وأخص من جهة أنها لا تتعلق بمثل إيمان الكافر وطاعة الفاسق، والإرادة الدينية الشرعية أعم من جهة أن الواقع بالإرادة الكونية القدرية قد يكون غير مأمور به، وليس بين الإرادتين تلازم، بل قد تتعلق كل منهما بما لا تتعلق به الأخرىٰ

س ـ ما الذي تعرفه عن معنى قوله تعالى: ﴿ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ وما الذي يؤخذ منها من الفوائد؟

ج ـ الإحسان: ضد الإساءة، وهو نوعان:

إحسان في عبادة الخالق. فسره ﷺ في الحديث بقوله: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

وأما الإحسان إلىٰ المخلوق، فهو إما أن يكون إيصال النفع الديني والدنيوي إليه.

ويدخل في ذلك إنفاق العلم، بأن يشتغل بتعليم الجاهلين وهداية الظالمين، ويدخل فيه إنفاق المال في وجوه الخيرات والعبادات. وإما أن يكون بدفع الضرر عنهم بحسب استطاعته أو بهما جميعًا.

وأما الذي يؤخذ من هذه الآية الكريمة:

ففيها أولاً: إثبات صفة المحبة لله علىٰ ما يليق بجلاله وعظمته.

ثانيًا: إثبات صفة الكلام.

ثالثًا: إثبات الألوهية.

رابعًا: أن محبة الله تتفاضل. فبعض العباد أعلا محبة من الآخر عند الله كما لو كان اثنان أحدهما مؤمن محسن، والآخر مؤمن محسن مجاهد متقي مقسط.

خامسًا: أن الجزاء من جنس العمل.

سادسًا: أن الإحسان سبب لمحبة الله.

سابعًا: الرد علىٰ الجبرية.

ثامنًا: إثبات فعل العبد وكسبه.

تاسعًا: أن العبد يثاب على عمله الحسن، ويعاقب على سيئه.

عاشرًا: إثبات الحكمة.

الحادي عشر: أن الله يحب مقتضى أسمائه.

الثاني عشر: لطف الله بخلقه حيث دلهم على ما هو سبب لمحبته لهم.

الثالث عشر: ذم الإساءة والظلم.

الرابع عشر: الأمر بمعالي الأخلاق.

س ـ ما الذي تعرفه عن معنى قوله تعالى: ﴿وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾؟

ج ـ «القسط»: العدل في المعاملات والأحكام مع كل أحد قريب أو بعيد عدو أو صديق، والعدل في حقوق الله: أن تصرف نعمه في طاعته، ولا يستعان بها، ولا بشيء منها على معصيته.

أي اعدلوا في كل ما تأتون وما تذرون إن الله يحب العادلين في جميع أعمالهم، في حكمهم بين الناس، وفي جميع الولايات التي تولوها، حتى إنه قد يدخل في ذلك عدل الرجل في أهله وعياله في أداء حقوقهم.

عن عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ﷺ قال: «**المقسطون عند الله تعالى يوم القيامة على منابر من نور، على يمين العرش، الذين يعدلون في حكمهم وأهاليهم وما وُلُوا**».

س ـ ما الذي يؤخذ من هذه الآية الكريمة؟

ج ـ فيها أولاً: الأمر بالعدل.

ثانيًا: فضل العدل.

ثالثًا: أن العدل سبب لمحبة الله.

رابعًا: إثبات صفة المحبة.

خامسًا: إثبات صفة الألوهية.

سادسًا: إثبات صفة الكلام.

سابعًا: إثبات الحكمة والعلة.

ثامنًا: الرد على من أنكر شيئًا من ذلك من جهمية ونحوهم.

تاسعًا: إثبات فعل العبد وكسبه وأنه يثاب على حَسَنِه، ويعاقب على سيئه.

عاشرًا: أن محبة الله تتفاضل.

الحادي عشر: أن الجزاء من جنس العمل.

الثاني عشر: لطف الله بخلقه حيث بين لهم ما هو سبب لمحبته لهم.

الثالث عشر: الأمر بمعالي الأخلاق والنهي عن سفسافها.

س ـ بين ما تعرفه عن معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾؟

ج ـ التواب: كثير التوبة، الذي كلما أذنب تاب ورجع عن المعصية. الطهارة: النظافة والنزاهة عن الأقذار، والطهارة تنقسم قسمين: حسية وتكون عن الأحداث والأنجاس.

ومعنوية وتكون عن الذنوب والآثام والمعاصي. والمعنى: أن الله يحب الذين يرجعون إليه تائبين غير مصرين على سيئ أفعالهم، ويحب كل من نزه نفسه عن الأقذار، وابتعد عن ارتكاب المنكرات.

س ـ ما الذي يؤخذ من هذه الآية الكريمة؟

ج ـ فيها أولاً: إثبات الألوهية.

ثانيًا: إثبات صفة المحبة على ما يليق بجلاله وعظمته لهذين الصنفين من عباده التوابين والمتطهرين.

ثالثًا: إثبات صفة الكلام.

رابعًا: أن التوبة سبب لمحبة الله.

خامسًا: أن التطهر سبب لمحبة الله.

سادسًا: الحث على التوبة.

سابعًا: الحث على الطهارة.

ثامنًا: الرد على الجهمية والمعتزلة ونحوهم.

تاسعًا: في الآية دليل على أن للقاتل توبة.

عاشرًا: الابتعاد عن النجاسات.

الحادي عشر: لطف الله بخلقه حيث بين لهم ما هو سبب لمحبته لهم.

الثاني عشر: ذم الإصرار على المعصية.

س ـ بين ما تعرفه عن معنى قوله تعالى: ﴿فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين﴾؟

ج ـ الاستقامة: ضد الاعوجاج، ومعناها لغة: الاستواء في جهة الانتصاب، وأما معناها اصطلاحًا: فهي اتباع الحق والقيام بالعدل ولزوم المنهج المستقيم، وقوله ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا﴾ . . . إلخ أي مهما تمسكوا بما عاقدتموهم عليه، وعاهدتموهم من ترك الحرب بينكم وبينهم عشر سنين فاستقيموا لهم إلخ.

وقد فعل ﷺ ذلك والمسلمون واستمر العقد والهدنة مع أهل مكة من ذي القعدة في سنة ست إلى أن نقضت قريش العهد ومالؤا حلفاءهم وهم بنو بكر على خزاعة أحلاف رسول الله ﷺ فقتلوهم معهم في الحرم أيضًا فعند ذلك غزاهم رسول الله ﷺ في رمضان سنة ثمان ففتح الله عليه البلد الحرام ومكنه من نواصيهم ولله الحمد والمنة.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ التقوى: التحرز بطاعة الله عن معصية الله فهي كلمة جامعة لفعل المأمورات وترك المنهيات يخبر سبحانه وتعالى أنه يحب الذين يتقون الغدر ونقض العهد.

س ـ ما الذي يؤخذ من الآية الكريمة؟

ج ـ أولاً: الحث على الاستقامة.

ثانيًا: إثبات صفة المحبة لله.

ثالثًا: إثبات الألوهية.

رابعًا: أن التقوىٰ سبب لمحبة الله.

خامسًا: الحث علىٰ الوفاء بالعهد.

سادسًا: بيان استباحة نبذ العهد عند عدم الاستقامة كما يفيده مفهوم الآية.

سابعًا: أن نقض العهد التواء وانحراف عن الطريق القويم.

ثامنًا: التعبير بالتقوىٰ لإبراز المعنىٰ الأخلاقي في الوفاء بالعهود فالوفاء استقامة في الشعور وحساسية في الضيمر وأدب مع الرب جل علا.

تاسعًا: لطف الله بخلقه حيث بين لهم ما هو سبب لمحبته لهم إذا فعلوه وهو الاستقامة لمن استقام.

عاشرًا: الرد علىٰ من أنكر صفة المحبة أو أولها بتأويل باطل.

س - ما الذي تعرفه عن معنى قوله تعالى ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾؟

ج - الحب والمحبة: ميل النفس إلىٰ الشيء لكمال أدركته فيه، يقال أحبه فهو محب - وحبه يحبه - بالكسر فهو محبوب.

قال الأزهري: محبة العبد لله ولرسوله طاعته لأمرهما واتباعه لهما، ومحبة الله للعبد تليق بجلاله، أثرها رحمته وإحسانه وإعطاؤه.

والمعنى: قل يا محمد إن كنتم تحبون الله حقيقة فاتبعوني فإن ما جئت به من عنده مبين لصفاته وأوامره ونهيه، والمحب الصادق حريص علىٰ معرفة المحبوب ومعرفة أمره ونهيه ليتقرب إليه بامتثال أمره واجتناب نهيه فإن اتبعتموني يحببكم الله . . . إلخ.

وهذا حجة علىٰ من يدعي محبة الله في كل زمان ومكان وأعماله تكذب ما يقول إذ كيف يجتمع حب مع الجهل بالمحبوب وعدم العناية بأوامره ونواهيه فهو كما قال الوراق:

تعصي الإله وأنت تظهر حبه	هذا لعمري في القياس بديع
لو كان حبك صادقًا لأطعته	إن المحب لمن يحب مطيع

قال الشيخ رحمه الله: العجب الذي لا ينقضي أن كل عاقل يعجب ممن عرف دين محمد ﷺ وقصده الحق ثم اتبع غيره ويعلم أنه لا يفعل ذلك إلا مفرط في الجهل والضلال أو مفرط في الظلم واتباع الهوىٰ فما من طائفة من طوائف أهل الأرض إلا وهم مقرّون أن محمداً ﷺ دعا سائر الطوائف غيرهم إلىٰ خير مما كانوا عليه.

وهذه الشهادة من جميع أهل الأرض بأنه دعا أهل الأرض إلىٰ خير مما كانوا عليه فإن شهادة جميع الطوائف مقبولة علىٰ غيرهم إذا كانوا غير متهمين عليهم فإنهم معادون محمداً وأمته ومعادون لسائر الطوائف.

وأما شهادتهم لأنفسهم فغير مقبولة، فإنهم خصومه وشهادة الخصم علىٰ خصمه غير مقبولة وقد اعترف الفلاسفة بأنه لم يقرع العالم ناموس أفضل من ناموسه واعترفوا بأنه أفضل وأكمل من نواميس الأنبياء الكبار.

س ـ ما لذي يؤخذ من الآية؟

ج ـ فيها، أولاً: إثبات الألوهية.

ثانيًا: إثبات صفة الكلام.

ثالثًا: إثبات صفة المحبة.

رابعًا: الرد علىٰ الجهمية والمعتزلة.

خامسًا: الحث علىٰ محبة الله بالسعي في أسبابها.

سادسًا: الرد علىٰ من قال: إن القرآن كلام جبريل أو كلام محمد ﷺ.

سابعًا: إثبات صفة المغفرة، ومن أسمائه تعالىٰ الغفور والغفار وهو الذي أظهر الجميل وستر القبيح، والذنوب من جملة القبائح التي سترها، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ وفي الحديث: **«إن الله يقول: يا بن آدم، إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا لأتيتك بقرابها مغفرة»**.

قال ابن القيم:

وهو الغفور فلو أتى بقرابها ... من غير شرك بل من العصيان

لاقاه بالغفران ملء قرابها سبحانه هو واسع الغفران

ثامنًا: الحث على اتباع الرسول ﷺ.

تاسعًا: أن هذه الآية هي الميزان التي يُعرف بها من أحب الله حقيقة ومن ادعى ذلك دعوى مجردة فعلامة محبة الله اتباع محمد ﷺ في كل شيء الدقيق والجليل.

عاشرًا: أن ما جاء به النبي ﷺ حق كله وصدق وأنه ما ينطق عن الهوى.

س ـ ما الذي تفهمه عن معنى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

ج ـ الارتداد: الخروج من الإسلام والدخول في الكفر «أذلة»: جمع ذليل، بمعنى عاطفين عليهم، «أعزة»: جمع عزيز بمعنى متعالين عليهم، أي يظهرون العطف والحنو والتواضع للمؤمنين، ويظهرون الشدة والغلظة والترفع على الكافرين، بمعنى قوله تعالى: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ «لومة لائم»: أي عذل عاذل في نصرهم.

يخبر تعالى أنه الغني عن العالمين. وأنه من يرتد عن دينه فلن يضر الله شيئًا وإنما يضر نفسه، وأن لله عبادًا مخلصين ورجالاً صادقين قد تكفل الرحمن الرحيم بهدايتهم، ووعد بالإتيان بهم، وأنهم من أكمل الخلق أوصافًا، وأقواهم نفوسًا وأحسنهم أخلاقًا.

أجل صفاتهم أن الله يحبهم فجمعوا بين المجاهدة في سبيل الله وعدم خوف الملامة في الدين متصلبون لا يبالون بما يفعله أعداء الدين الإسلامي، وما يفعله حزب الشيطان من ازدراء بأهل الدين، وقلب محاسنهم مساوئ، ومناقبهم مثالب حسدًا وبغضًا وكراهة للحق وأهله فلله در من لا تأخذه في الله لومة لائم، وقديمًا قيل:

وإذا الفتى عرف الرشاد لنفسه هانت عليه ملامة العذال

والإشارة في قوله ذلك إلى ما اختصهم الله به من الصفات الحميدة التي نالوا بها محبة الله التي هي الغاية المطلوبة:

هم الرجال وغبن أن يقال لمن   لم يتصف بمعالي وصفهم رجل

س ـ ما الذي يؤخذ من الآية الكريمة؟

ج - يؤخذ منها:

أولاً: إثبات صفة المحبة لله.

ثانيًا: الرد على من أنكرها من جهمية ونحوهم.

ثالثًا: التحذير من معصية الله.

رابعًا: أن الكافر والعاصي لا يضر إلا نفسه.

خامسًا: عظيم قدرة الله في أن من تولى عن دينه فإنه يستبدل به غيره. وقد وصف الله المؤمنين بست صفات:

(أولاً): أنه تعالى يحبهم.

(ثانيًا): أنهم يحبون الله.

(ثالثًا ورابعًا): أنهم أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين.

(خامسًا): الجهاد في سبيل الله، ومن أعظم الجهاد بذل النفس والمال في قتال الأعداء لله ولرسوله.

(سادسًا): كونهم لا تأخذهم في الله لومة لائم.

ومما يؤخذ منها:

١ ـ إثبات فعل العبد حقيقة.

٢ ـ وفيها أن الأعمال الصالحة سبب للسعادة.

٣ ـ وفيها إفراد الله بالمحبة.

٤ ـ وفيها: التعريض بالمنافقين الذين يخافون لومَ أوليائهم من اليهود لهم إذا هم قاتلوا مع المؤمنين.

٥ ـ وفيها إثبات صفة الكلام لله والرد على من أنكرها.

٦ ـ وفيها الخطاب على وجه التحذير والتخويف والوعيد.

٧ ـ وفيها إعلام بارتداد بعض المسلمين فهو إخبار بالغيب قبل وقوعه وقد وقع فارتد في حياة النبي ﷺ بنو حنيفة، قوم مسيلمة الكذاب، وبنو مُدْلِج، قوم الأسود العَنَسِي، وبنو أسد قوم طليحة بن خويلد الذي ادعى النبوة ثم أسلم وجاهد، ثم كثر المرتدون وفشا أمرهم بعد موت النبي ﷺ حتى كفى الله أمرهم على يد أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ.

٨ ـ وفيها الحث على التمسك بدين الإسلام ـ ثَبَّتنا الله عليه ـ وجميع المسلمين.

٩ ـ وفيها الحث على التواضع والعطف على المؤمنين.

١٠ ـ وفيها الحث على الشدة والغلظة على الكافرين.

١١ ـ وفيها الرد على الجهمية المنكرين لعلم الله.

١٢ ـ وفيها الرد على القدرية.

١٣ ـ وفيها غنى الله.

١٤ ـ أن الغلظة الشديدة على الكفار مما يقرب إلى الله ويوافق العبد ربه في سخطه عليهم.

س ـ ما معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾؟

ج ـ يخبر تعالى أنه يحب الذين يقاتلون في سبيله يصفون أنفسهم حين القتال بنظام ودقة وحكمة، ولا يكون بينهم فُرَج كأنهم البنيان المرصوص المتلاحم الأجزاء الذي كأنه قطعة واحدة، والسر في ذلك أنهم إذا كانوا كذلك نشَّط بعضهم بعضًا وزادت قوتهم المعنوية وتعاضدوا وتنافسوا في الطعان والنزال والكر وأدخلوا الروع والفزع والذعر في نفوس الأعداء.

س ـ ما الذي يؤخذ من هذه الآية الكريمة؟

ج ـ يؤخذ منها أولاً: إثبات الألوهية.

ثانيًا: إثبات صفة المحبة لله.

ثالثًا: الحث على الجهاد في سبيل الله.

رابعًا: تعليم المجاهدين ما يعود عليهم بالمصلحة.

خامسًا: إثبات صفة الكلام.

سادسًا: أن الجهاد في سبيل الله من أفضل الأعمال.

سابعًا: الحث على اجتماع الكلمة.

ثامنًا: الحث على إخلاص العمل لله وحده.

تاسعًا: الحث على الثبوت والجد في القتال.

عاشرًا: الحث على الأسباب التي تنشط المجاهدين وتقويهم.

الحادي عشر: الجد والاجتهاد فيما يكون وسيلة إلى إرهاب العدو.

الثاني عشر: لطف الله بخلقه حيث أرشدهم إلى ما يكون سببًا لنصرهم بإذن الله.

الثالث عشر: أن الاتصاف بهذه الصفة سبب لمحبة الله.

س ـ بين ما تعرفه عن معنى قوله: ﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴾؟

ج ـ قد تقدم الكلام قريبًا على قوله «الغفور»، وأما الودود: فمعناه، المحب المحبوب، فالمحب الكثير الحب لأهل طاعته من أنبيائه ورسله وملائكته وأوليائه وعباده المؤمنين وهو سبحانه محبوبهم ولا تعادل محبة الله عند أصفيائه محبة أخرى وهذا هو الواجب.

ويتعين أن تكون المحابُّ تبعًا لها لأن محبة الله هي روح الأعمال وجميع الأعمال وجميع العبودية الظاهرة والباطنة تبع لها ومحبة العبد لربه فضل من ربه وإحسان ليست بحول العبد وقوته فهو الذي أحب عبده فوفقه وجعل المحبة في قلبه ثم لما أحبه جازاه بحب آخر، ففي الآية:

١ ـ إثبات صفة المغفرة.

٢ ـ صفة المودة.

٣ ـ الرد على منكري الصفات.

٤ ـ إثبات صفة الكلام لله.

٥ ـ الحث على محبة الله وتقديمها على كل محبة ومحبة ما أحبه الله .

قال ابن القيم رحمه الله:

وهو الودود يحبهم ويحبه ... أحبابه والفضل للمنان

وهو الذي جعل المحبة في قلو ... بهم وجازاهم بحب ثان

هذا هو الإحسان حقًّا لا معا ... وضة ولا لتوقع الشكران

* * *

[صفة المودة والرحمة]

وقوله: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾ [البروج: ١٤].

وقوله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [النمل: ٣٠].

﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾[غافر: ٧].

﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ [الاحزاب: ٤٣].

﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الانعام: ٥٤].

﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]

﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [يونس: ١٠٧].

﴿ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤].

• الشَّرح •

• قال الشيخ محمد خليل هراس:

قوله: ﴿ وهو الغفور ﴾ إلخ: تضمنت الآية إثبات اسمين من الأسماء الحسنى وهما: «الغفور والودود».

أما الأول: فهو مبالغة الغفر ومعناه الذي يكثر منه الستر على المذنبين من عباده والتجاوز عن مؤاخذتهم.

وأصل الغفر الستر، ومنه يقال: الصبغ أغفر للوسخ، ومنه المغفر لسترة الرأس.

وأما الثاني: فهو من الود الذي هو خالص الحب وألطفه، و هو إما من فعول بمعنى فاعل، فيكون معناه الكثير الود لأهل طاعته والمتقرب إليهم بنصر له ومعونته.

وأما من فعول بمعنى مفعول فيكون معناه المودود لكثرة إحسانه المستحق لأن يوده خلقه فيعبدوه ويحمدوه.

وأما قوله: ﴿ **بسم الله الرحمن الرحيم** ﴾: وما بعدها من الآيات فقد تضمنت إثبات أسمائه الرحمن الرحيم وإثبات صفتي الرحمة والعلم.

وقد تقدم في تفسير (بسم الله الرحمن الرحيم) الكلام على هذين الاسمين وبيان الفرق بينهما.

وأن أولهما: دال على صفة الذات، والثاني: دال على صفة الفعل، وقد أنكر الأشاعرة والمعتزلة صفة الرحمة بدعوى أنها في المخلوق ضعف وخور وتألم للمرحوم، وهذا من أقبح الجهل فإن الرحمة إنما تكون من الأقوياء للضعفاء، فلا تستلزم ضعفًا ولا خوراً بل قد تكون مع غاية العزة والقدرة. فالإنسان القوي يرحم ولده الصغير وأبويه الكبيرين ومن هو أضعف منه، وأين الضعف والخور- وهما من أذم الصفات- من الرحمة التي وصف الله نفسه بها وأثنى على أوليائه المتصفين بها وأمرهم أن يتواصوا بها.

وقوله: ﴿ **ربنا وسعت...** ﴾: من كلام الله عز وجل حكاية عن حملة العرش والذين حوله، يتوسلون إلى الله عز وجل بربوبيته وسعة علمه ورحمته في دعائهم للمؤمنين، وهو من أحسن التوسلات التي يرجى معها الإجابة.

ونصب قوله: ﴿ **رحمة وعلما** ﴾: على التمييز المحول عن الفاعل، والتقدير وسعت رحمتك وعلمك كل شيء، فرحمته سبحانه وسعت في الدنيا المؤمن والكافر والبر والفاجر، ولكنها يوم القيامة تكون خاصة بالمتقين كما قال تعالى: ﴿ **فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ** ﴾ الآية.

وقوله تعالى: ﴿ **كتب ربكم على نفسه الرحمة** ﴾: أي أوجبها على نفسه تفضلاً وإحسانًا ولم يوجبها عليه أحد.

وفي حديث أبي هريرة في الصحيحين: «**أن الله لما خلق الخلق كتب كتابًا فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي سبقت غضبي أو تسبق غضبي**»(١).

وأما قوله: ﴿فالله خير حافظا﴾: فالحافظ والحفيظ مأخوذ من الحفظ وهو الصيانة. ومعناه الذي يحفظ عباده بالحفظ العام فييسر لهم أقواتهم ويقيهم أسباب الهلاك والعطب وكذلك يحفظ عليهم أعمالهم ويحصي أقوالهم ويحفظ أولياءه بالحفظ الخاص فيعصمهم عن مواقعة الذنوب ويحرسهم من مكايد الشيطان وعن كل ما يضرهم في دينهم ودنياهم، وانتصب (حافظًا) تمييزًا لخير الذي هو أفعل التفضيل.

● قال الشيخ محمد بن صالح العثيمين:

قوله: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾ [البروج: ١٤].

﴿الغفور﴾: الساتر لذنوب عباده المتجاوز عنها.

﴿الودود﴾: مأخوذ من الود، وهو خالص المحبة، وهي بمعنى: واد وبمعنى: مودود؛ لأنه عز وجل محب ومحبوب؛ كما قال تعالى: ﴿**فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ**﴾ [المائدة: ٥٤]؛ فالله عز وجل واد ومودود، وادٌّ لأوليائه، وأولياؤه يودونه؛ يحبون الوصول إليه وإلى جنته ورضوانه.

وفي الآية اسمان من أسماء الله: الغفور، والودود.

وصفتان: المغفرة، والود.

وأتمنى لو أن المؤلف - رحمه الله - أضاف آية تاسعة في المحبة، وهي الخُلة؛ لقوله تعالى: ﴿**وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً**﴾ [النساء: ١٢٥]، والخليل هو من كان في أعلى المحبة؛ فالخلة أعلى أنواع المحبة؛ لأن الخليل هو الذي وصل حبه إلى سويداء القلب وتخلل مجاري عروقه، وليس فوق الخلة شيء من أنواع المحبة أبدًا.

يقول الشاعر لمعشوقته:

قَدْ تَخَلَّلْتِ مَسْلَكَ الرُّوحِ مِنِّي ... وَبِذا سُمِّيَ الخَلِيلُ خَلِيلاً

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٠٢٢)، ومسلم (٢٧٥١).

فالنبي عليه الصلاة والسلام يحب أصحابه كلهم، لكن ما اتخذ واحداً منهم خليلا أبداً؛ قال النبي عليه الصلاة والسلام وهو يخطب الناس: «**لو كنت متخذاً من أمتي خليلا؛ لاتخذت أبا بكر**»[1] ؛ إذًا، أبو بكر هو أحب الناس إليه، لكن لم يصل إلى درجة الخلة؛ لأن الرسول ﷺ لم يتخذ أحداً خليلا، لكن إخوة الإسلام ومودته، وأما الخلة؛ فهي بينه وبين ربه؛ قال النبي ﷺ: «**إن الله اتخذني خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا**»[2] .

والخلة لا نعلم أنها ثبتت لأحد من البشر؛ إلا لاثنين، هما إبراهيم، ومحمد عليهما الصلاة والسلام؛ لقول النبي ﷺ: «**إن الله اتخذني خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا**».

وهذه الخلة صفة من صفات الله عز وجل؛ لأنها أعلى أنواع المحبة، وهي توقيفية؛ فلا يجوز أن نثبت لأحد من البشر أنه خليل إلا بدليل، حتى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ إلا هذين الرسولين الكريمين؛ فهما خليلان لله عز وجل.

وهذه الآية: ﴿**وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً**﴾ هي التي استشهد بها من قتل الجعد بن درهم رأس المعطلة الجهمية، أول ما أنكر قال: إن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا! ولم يكلم موسى تكليمًا!! فقتله خالد بن عبد الله القسري - رحمه الله - حيث خرج به موثقًا في يوم عيد الأضحى، وخطب الناس، وقال: أيها الناس! ضحوا! تقبل الله ضحاياكم؛ فإني مضح بالجعد بن درهم؛ لأنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خيلا، ولم يكلم موسى تكليما، ثم نزل فذبحه.

ويقول ابن القيم - رحمه الله - في ذلك:

وَلأَجْلِ ذا ضَحَّى بجَعْدٍ خَالِدُ ... لقَسْرِيُّ يَومَ ذَبائحِ القُربانِ

إذْ قَالَ إِبْراهيمُ لَيسَ خَليلَهُ ... كَلاَّ ولا مُوسَى الكَلِيمُ الدَّاني

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٣٦٥٦) من حديث ابن عباس - رضي الله عنه - وأخرجه مسلم (٢٣٨٢) من حديث أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه.

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٥٣٢) وابن حبان (٦٤٢٥) والنسائي في «الكبرى» (١١١٢٣) والطبراني في «الكبير» (١٦٨٦) من حديث جندب بن مالك - رضي الله عنه -.

شَكَرَ الضحيَّةَ كُلُّ صاحِبِ سُنَّة　　　لله درُكَ مِنْ أخي قُربانِ

فلدينا الآن محبة وود وخلة؛ فالمحبة والود مطلقة، والخلة خاصة بإبراهيم ومحمد.

ويجب أن يكون اعتمادنا في الأمور الغيبية على الأدلة السمعية، لكن لا مانع من أن نستدل بأدلة عقلية؛ لإلزام من أنكر أن تكون المحبة ثابتة بالأدلة العقلية؛ مثل الأشاعرة؛ يقولون: لا يمكن أن تثبت المحبة بين الله وبين العبد أبدًا؛ لأن العقل لا يدل عليها، وكل ما لا يدل عليه العقل؛ فإنه يجب أن ننزه الله عنه.

فنحن نقول: نثبت المحبة بالأدلة العقلية كما هي ثابتة عندنا بالأدلة السمعية، احتجاجًا على من أنكر ثبوتها بالعقل، فنقول وبالله التوفيق: إثابة الطائعين بالجنات والنصر والتأييد وغير ذلك؛ هذا يدل بلا شك على المحبة، ونحن نشاهد بأعيننا ونسمع بآذاننا عمن سبق وعمن لحق أن الله عز وجل أيد من أيد من عباده المؤمنين ونصرهم وأثابهم، وهل هذا إلا دليل على المحبة لمن أيدهم ونصرهم وأثابهم عز وجل؟!

وهنا سؤالان:

الأول: بماذا ينال الإنسان محبة الله عز وجل؟ وهذه هي التي يطلبها كل إنسان، والمحبة عبارة عن أمر فطري يكون في الإنسان ولا يملكه، ولهذا يُروى أن الرسول عليه الصلاة والسلام قال في العدل بين زوجاته: «**هذا قسمي فيما أملك؛ فلا تلمني فيما لا أملك؟**»[1].

فالجواب: أن المحبة لها أسباب كثيرة:

منها: أن ينظر الإنسان: من الذي خلقه؟ ومن الذي أمده بالنعم منذ كان في بطن أمه؟ ومن الذي أجرى إليك الدم في عروقك قبل أن تنزل إلى الأرض إلا الله عز وجل؟ من الذي دفع عنك النقم التي انعقدت أسبابها، وكثيراً ما تشاهد بعينك آفات ونقمًا تهلكك، فيرفعها الله عنك؟.

---

(١) ضعيف: أخرجه أبو داود (٢١٣٤) والترمذي (١١٤٠) والنسائي في «الكبرى» (٣٩٤٣) من حديث عائشة ـ رضي الله عنه ـ والحديث ضعفه الشيخ الألباني في «ضعيف الجامع» (٤٥٩٣).

وهذا لا شك أنه يجلب المحبة، ولهذا ورد في الأثر: **«أحبوا الله لما يغذوكم به من النعم»**[(١)] .

وأعتقد لو أن أحدًا أهدىٰ إليك قلمًا؛ لأحببته؛ فإذا كان كذلك؛ فأنت انظر نعمة الله عليك النعم العظيمة الكثيرة التي لا تحصيها؛ تحب الله.

ولهذا إذا جاءت النعمة وأنت في حاجة شديدة إليها؛ تجد قلبك ينشرح، وتحب الذي أسداها إليك؛ بخلاف النعم الدائمة؛ فأنت تذكر هذه النعم التي أعطاك الله، وتذكر أيضًا أن الله فضلك علىٰ كثير من عباده المؤمنين، إن كان الله من عليك بالعلم؛ فقد فضلك بالعلم، أو بالعبادة؛ فقد فضلك بالعبادة، أو بالمال؛ فقد فضلك بالمال، أو بالأهل؛ فقد فضلك بالأهل، أو بالقوت؛ فقد فضلك بالقوت، وما من نعمة إلا وتحتها ما هو دونها؛ فأنت إذا رأيت هذه النعمة العظيمة؛ شكرت الله وأحببته.

ومنها: محبة ما يحبه الله من الأعمال القولية والفعلية والقلبية؛ تحب الذي يحبه الله؛ فهذا يجعلك تحب الله؛ لأن الله يجازيك علىٰ هذا أن يضع محبته في قلبك، فتحب الله إذا قمت بما يحب، وكذلك تحب من يحب، والفرق بينهما ظاهر؛ الأخيرة من الأشخاص، والأولىٰ من الأعمال، لأننا أتينا بـ (ما) التي لغير العاقل من الأعمال والأماكن والأزمان، وهذه (من) للعاقل من الأشخاص؛ تحب النبي عليه الصلاة والسلام، تُحب إبراهيم، تحب موسىٰ وعيسىٰ وغيرهم من الأنبياء، تحب الصديقين؛ كأبي بكر، والشهداء، وغير ذلك ممن يحبهم الله؛ فهذا يجلب لك محبة الله، وهو أيضًا من آثار محبة الله؛ فهو سبب وأثر.

ومنها: كثرة ذكر الله؛ بحيث يكون دائمًا علىٰ بالك، حتىٰ تكون كلما شاهدت شيئًا؛ استدللت به عليه عز وجل، حتىٰ يكون قلبك دائمًا مشغولا بالله، معرضًا عما سواه؛ فهذا يجلب لك محبة الله عز وجل.

---

(١) ضعيف: أخرجه الترمذي (٣٧٨٩) والبيهقي في «الشعب» (٤٠٨) من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ قال الترمذي «هذا حديث حسن غريب وإنما نعرفه من هذا الوجه».
والحديث ضعفه الشيخ الألباني في «ضعيف الجامع» (١٧٦).

وهذه الأسباب الثلاثة هي عندي من أقوى أسباب محبة الله عز وجل.

السؤال الثاني: ما هي الآثار المسلكية التي يستلزمها ما ذكر.

والجواب:

أولا: قوله: ﴿وَأَحْسِنُوَاْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥]: يقتضي أن نحسن، وأن نحرص على الإحسان؛ لأن الله يحبه، وكل شيء يحبه الله؛ فإننا نحرص عليه.

ثانيًا: قوله: ﴿وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات ٩]: يقتضي أن نعدل ونحرص على العدل.

ثالثًا: قوله: ﴿إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٧]: يقتضي أن نتقي الله عز وجل، لا نتقي المخلوقين؛ بحيث إذا كان عندنا من نستحي منه من الناس؛ تركنا المعاصي وإذا لم يكن؛ عصينا؛ فالتقوى أن نتقي الله عز وجل، ولا يهمك الناس. أصلح ما بينك وبين الله؛ يصلح الله ما بينك وبين الناس.

انظر يا أخي إلى الشيء الذي بينك وبين ربك، ولا يهمك غير ذلك؛ ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحج: ٣٨]. افعل ما يقتضيه الشرع، وستكون لك العاقبة.

رابعًا: يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، وهذه تستوجب أن أُكثر التوبة إلى الله عز وجل، أكثر أن أرجع إلى الله بقلبي وقالبي، ومجرد قول الإنسان: أتوب إلى الله. هذا قد لا ينفع، لكن تستحضر وأنت تقول: أتوب إلى الله: أن بين يديك معاصي، ترجع إلى الله منها وتتوب، حتى تنال محبة الله.

﴿وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]: إذا غسلت ثوبك من النجاسة؛ تحس بأن الله أحبك؛ لأن الله يحب المتطهرين. إذا توضأت؛ تحس بأن الله أحبك؛ لأنك تطهرت. إذا اغتسلت؛ تُحس أن الله أحبك؛ لأن الله يحب المتطهرين...

و والله؛ إننا لغافلون عن هذه المعاني، أكثر ما نستعمل الطهارة من النجاسة أو من الأحداث؛ لأنها شرط لصحة الصلاة؛ خوفًا من أن تفسد صلاتنا، لكن يغيب عنا كثيراً أن نشعر بأن هذا قربة وسبب لمحبة الله لنا، لو كنا نستحضر عندما يغسل الإنسان نقطة بول أصابت ثوبه أن ذلك يجلب محبة الله له؛ لحصلنا خيراً كثيراً،

لكننا في غفلة.

خامسًا: قوله: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [آل عمران: ٣١]:

هذا أيضًا يستوجب أن نحرص غاية الحرص على اتباع النبي ﷺ؛ بحيث نترسم طريقه؛ لا نخرج منه، ولا نقصر عنه، ولا نزيد، ولا ننقص.

وشعورنا هذا يحمينا من البدع، ويحمينا من التقصير، ويحمينا من الزيادة والغلو، ولو أننا نشعر بهذه الأمور؛ فانظر كيف يكون سلوكنا وآدابنا وأخلاقنا وعبادتنا.

سادسًا: قوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ [المائدة: ٥٤]:

نحذر به من الردة عن الإسلام؛ التي منها ترك الصلاة مثلا؛ فإذا علمنا أن الله يهددنا بأننا إن ارتددنا عن ديننا؛ أهلكنا الله، وأتى بقوم يحبهم ويحبونه، ويقومون بواجبهم نحو ربهم؛ فإننا نلازم طاعة الله والابتعاد عن كل ما يقرب للردة.

سابعًا: قوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ [الصف: ٤].

إذا آمنا بهذه المحبة؛ فعلنا هذه الأسباب الخمسة التي تستلزمها وتوجبها: القتال، وعدم التواني، والإخلاص؛ بأن يكون في سبيل الله، أن يشد بعضنا بعضًا كأننا بنيان، أن نُحكم الرابطة بيننا إحكامًا قويًّا كالبنيان المرصوص، أن نصف، وهذا يقتضي التساوي حسًا، حتى لا تختلف القلوب، وهو مما يؤكد الألفة، والإنسان إذا رأى واحدًا عن يمينه وواحدًا عن يساره؛ يقوى على الإقدام، لكن لو يحيطون به من جميع الجوانب؛ فستشتد همته.

فصار في هذه الآيات ثلاثة مباحث:

١ـ إثبات المحبة بالأدلة السمعية.

٢ـ أسبابها.

٣ـ الآثار المسلكية في الإيمان بها.

أما أهل البدع الذين أنكروها؛ فليس عندهم إلا حجة واهية؛ يقولون:

أولا: إن العقل لا يدل عليها.

ثانيًا: إن المحبة إنما تكون بين اثنين متجانسين، لا تكون بين رب ومخلوق أبدًا، ولا بأس أن تكون بين المخلوقات. ونحن نرد عليهم فنقول:

نجيبكم عن الأول ـ وهو أن العقل لا يدل عليها ـ بجوابين:

أحدهما: بالتسليم.

والثاني: بالمنع.

التسليم: نقول: سلمنا أن العقل لا يدل على المحبة؛ فالسمع دل عليها، وهو دليل قائم بنفسه، والله عز وجل يقول في القرآن: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]؛ فإذا كان تبيانًا؛ فهو دليل قائم بنفسه، وانتفاء الدليل المعين؛ لا يلزم منه انتفاء المدلول؛ لأن المدلول قد يكون له أدلة متعددة؛ سواء الحسيات أو المعنويات:

فالحسيات: مثل بلد له عدة طرق توصل إليه؛ فإذا انسد طريق؛ ذهبنا مع الطريق الثاني.

أما المعنويات؛ فكم من حكم واحد له عدة أدلة! وجوب الطهارة للصلاة مثلا فيه أدلة متعددة.

فإذًا؛ إذا قلتم: إن العقل لا يدل على إثبات المحبة بين الخالق والمخلوق؛ فإن السمع دل عليه بأجلى دليل وأوضح بيان.

الجواب الثاني: المنع: أن نمنع دعوى أن العقل لا يدل عليها، ونقول: بل العقل دل على إثبات المحبة بين الخالق والمخلوق؛ كما سبق.

وأما قولكم: إن المحبة لا تكون إلا بين متجانسين؛ فيكفي أن نقول: لا قبول لدعواكم! لأن المنع كاف في رد الحجة؛ إذ إن الأصل عدم الثبوت؛ فنقول: دعواكم أنها لا تكون إلا بين متجانسين ممنوع، بل هي تكون بين غير المتجانسين؛ فالإنسان عنده ساعة قديمة ما أتعبته بالصيانة وما فسدت عليه قط فتجده يحبها، وعنده ساعة

تأخذ منه نصف وقته في التصليح فتجده يبغضها وأيضا نجد أن البهائم تُحِب وتُحَب.

فنحن ـ ولله الحمد ـ نثبت لله المحبة بينه وبين عباده.

هذه آيات في إثبات صفة الرحمة:

الآية الأولى: قوله: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ [النمل: ٣٠].

هذه آية أتى بها المؤلف ـ رحمه الله ـ ليثبت حكمًا، وليست مقدمة لما بعدها، وقد سبق لنا شرح البسملة؛ فلا حاجة إلى إعادته.

وفيها من أسماء الله ثلاثة: الله، الرحمن، الرحيم.

ومن صفاته: الألوهية، والرحمة.

الآية الثانية: قوله: ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ﴾ [غافر: ٧]. هذا يقوله الملائكة: ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾ [غافر: ٧].

ما أعظم الإيمان! وأعظم فائدته!.

الملائكة حول العرش يحملونه؛ يدعون الله للمؤمن.

وقوله: ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ﴾: يدل على أن كل شيء وصله علم الله، وهو واصل لكل شيء؛ فإن رحمته وصلت إليه؛ لأن الله قرن بينهما في الحكم ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ﴾.

وهذه هي الرحمة العامة التي تشمل جميع المخلوقات، حتى الكفار؛ لأن الله قرن الرحمة هذه مع العلم؛ فكل ما بلغه علم الله، وعلم الله بالغ لكل شيء؛ فقد بلغته رحمته؛ فكما يعلم الكافر؛ يرحم الكافر أيضًا.

لكن رحمته للكافر رحمة جسدية بدنية دنيوية قاصرة غاية القصور بالنسبة لرحمة المؤمن؛ فالذي يرزق الكافر هو الله الذي يرزقه بالطعام والشراب واللباس والمسكن والمنكح وغير ذلك.

أما المؤمنون؛ فرحمتهم رحمة أخص من هذه وأعظم؛ لأنها رحمة إيمانية دينية

دنيوية.

ولهذا تجد المؤمن أحسن حالا من الكافر، حتى في أمور الدنيا؛ لأن الله يقول: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]؛ الحياة الطيبة هذه مفقودة بالنسبة للكفار، حياتهم كحياة البهائم، إذا شبع، روث، وإذا لم يشبع؛ جلس يصرخ! هكذا هؤلاء الكفار؛ إن شبعوا؛ بطروا، وإلا جلسوا يصرخون! ولا يستفيدون من دنياهم، لكن المؤمن إن إصابته ضراء؛ صبر واحتسب الأجر على الله عز وجل، وإن أصابته سراء؛ شكر؛ فهو في خير في هذا وهذا، وقلبه منشرح مطمئن ماش مع القضاء والقدر؛ لا جزع عند البلاء، ولا بطر عند النعماء، بل هو متوازن مستقيم معتدل.

فهذا فرق ما بين الرحمة هذه وهذه.

لكن مع الأسف الشديد - أيها الأخوة - إن منا أناسًا آلافًا يريدون أن يلحقوا بركب الكفار في الدنيا، حتى جعلوا الدنيا هي همهم، إن أعطوا؛ رضوا، وإن لم يعطوا؛ إذا هم يسخطون، هؤلاء مهما بلغوا في الرفاهية الدنيوية؛ فهم في جحيم؛ لم يذوقوا لذة الدنيا أبدًا، إنما ذاقها من آمن بالله وعمل صالحًا.

ولهذا قال بعض السلف: والله؛ لو يعلم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه؛ لجالدونا عليه بالسيوف. لأنه حال بينهم وبين هذا النعيم ما هم عليه من الفسوق والعصيان والركون إلى الدنيا وأنها أكبر همهم ومبلغ علمهم.

قوله: ﴿رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾: ﴿رَّحْمَةً﴾: تمييز محول عن الفاعل، وكذلك ﴿وَعِلْمًا﴾؛ لأن الأصل: ربنا وسعت رحمتك وعلمك كل شيء.

وفي الآية من صفات الله: الربوبية وعموم الرحمة، والعلم.

الآية الثالثة: قوله: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

﴿بِالْمُؤْمِنِينَ﴾: متعلق بـ (رحيم)، وتقديم المعمول يدل على الحصر، فيكون معنى الآية: وكان بالمؤمنين لا غيرهم رحيمًا.

ولكن كيف نجمع بين هذه الآية والتي قبلها: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧]؟!

نقول: الرحمة التي هنا غير الرحمة التي هناك. هذه رحمة خاصة متصلة برحمة الآخرة لا ينالها الكفار؛ بخلاف الأولى. هذا هو الجمع بينهما، وإلا؛ فكل مرحوم، لكن فرق بين الرحمة الخاصة والرحمة العامة.

ومن الآية من الصفات: الرحمة.

ومن الناحية المسلكية: الترغيب في الإيمان.

الآية الرابعة: قوله: ﴿ورحمتي وسعت كل شيء﴾ [الأعراف: ١٥٦].

يقول جل جلاله متمدحًا مثنيًا على نفسه: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾؛ فأثنى على نفسه عز وجل بأن رحمته وسعت كل شيء من أهل السماء ومن أهل الأرض.

ونقول فيها ما قلنا في الآية الثانية؛ فليرجع إليه.

الآية الخامسة: قوله: ﴿كتب ربكم على نفسه الرحمة﴾ [الأنعام: ٥٤].

﴿كَتَبَ﴾: بمعنى: أوجب على نفسه الرحمة؛ فالله عز وجل لكرمه وفضله وجوده أوجب على نفسه الرحمة، وجعل رحمته سابقة لغضبه، ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥]، لكن حلمه ورحمته أوجبت أن يبقى الخلق إلى أجل مسمى.

ومن رحمته ما ذكره بقوله: ﴿أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ٥٤]: هذه من رحمته.

﴿سُوءًا﴾: نكرة في سياق الشرط؛ فتعم كل سوء، حتى الشرك.

﴿بِجَهَالَةٍ﴾: يعني: بسفه، وليس المراد بها عدم العلم، والسفه عدم الحكمة؛ لأن كل من عصى الله؛ فقد عصاه بجهالة وسفه وعدم حكمة.

﴿ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: فيغفر ذنبه ويرحمه.

ولم يختم الآية بهذا؛ إلا سينال التائب المغفرة والرحمة، هذا من رحمته التي كتبها على نفسه، وإلا؛ لكان مقتضي العدل أن يؤاخذه على ذنبه، ويجزيه على عمله الصالح.

فلو أن رجلا أذنب خمسين يومًا، ثم تاب وأصلح خمسين يومًا؛ فالعدل أن نعذبه

عن خمسين يومًا، ونجازيه بالثواب عن خمسين يومًا، لكن الله عز وجل كتب على نفسه الرحمة؛ فكل الخمسين يومًا التي ذهبت من السوء تمحى وتزول بساعة، وزد على ذلك: ﴿فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠]؛ السيئات الماضية تكون حسنات؛ لأن كل حسنة عنها توبة، وكل توبة فيها أجر.

فظهر بهذا أثر قوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤].

وفي الآية من صفات الله: الربوبية، والإيجاب، والرحمة.

الآية السادسة: قوله: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٧].

الله عز وجل هو الغفور الرحيم، جمع عز وجل بين هذين الاسمين؛ لأن بالمغفرة سقوط عقوبة الذنوب، وبالرحمة حصول المطلوب، والإنسان مفتقر إلى هذا وهذا؛ مفتقر إلى مغفرة ينجو بها من آثامه، ومفتقر إلى رحمة يسعد بها بحصول مطلوبه.

فـ ﴿الْغَفُورُ﴾: صيغة مبالغة مأخوذة من الغفر، وهو الستر مع الوقاية؛ لأنه مأخوذ من المغفر، والمغفر شيء يوضع على الرأس في القتال يقي من السهام، وهذا المغفر تحصل به فائدتان هما: ستر الرأس والوقاية. فـ ﴿الْغَفُورُ﴾: الذي يستر ذنوب عباده، ويقيهم آثامها؛ بالعفو عنها.

ويدل على هذا ما ثبت في الصحيح: «**أن الله عز وجل يخلو يوم القيامة بعبده، ويقرره بذنوبه، يقول: عملت كذا، وعملت كذا... حتى يقر، فيقول الله عز وجل له: قد سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم**»[1].

أما ﴿الرَّحِيمُ﴾: فهو ذو الرحمة الشاملة. وسبق الكلام في ذلك.

وفي الآية من الأسماء: الغفور، والرحيم.

ومن الصفات: المغفرة، والرحمة.

الآية السابعة: قوله: ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤].

قالها يعقوب حين أرسل مع أبنائه أخا يوسف الشقيق؛ لأن يوسف عليه الصلاة والسلام قال: لا كيل لكم إذا رجعتم؛ إلا إذا أتيتم بأخيكم. فبلغوا والدهم هذه

---

(١) متفق عليه أخرجه البخاري (٢٤٤١) ومسلم (٢٧٦٨) من حديث ابن عمر ـ رضي الله عنه ـ.

الرسالة، ومن أجل الحاجة أرسله معهم، وقال لهم عند وداعه: ﴿قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤]؛ يعني لن تحفظوه، ولكن الله هو الذي يحفظه.

﴿خَيْرٌ حَافِظًا﴾: ﴿حافظا﴾: قال العلماء: إنها تمييز؛ كقول العرب: لله دره فارسًا. وقيل إنها حال من فاعل ﴿خَيْرٌ﴾ في قوله: ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ﴾؛ أي: حال كونه حافظًا.

الشاهد من الآية هنا قوله: ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾: حيث أثبت الله عز وجل الرحمة، بل بين أنه أرحم الراحمين، لو جمعت رحمة الخلق كلهم، بل رحمات الخلق كلهم؛ لكانت رحمة الله أشد وأعظم.

أرحم ما يكون من الخلق بالخلق رحمة الأم ولدها؛ فإن رحمة الأم ولدها لا يساويها شيء من رحمة الناس أبدًا، حتى الأب لا يرحم أولاده مثل أمهم في الغالب.

جاءت امرأة في السبي تطلب ولدها وتبحث عنه، فلما رأته؛ أخذته بشفقة وضمته إلى صدرها أمام الناس وأمام الرسول عليه الصلاة والسلام، فقال النبي ﷺ: «**أترون أن هذه المرأة طارحة ولدها في النار؟**»، قالوا: لا والله يا رسول الله. قال: «**لله أرحم بعباده من هذه بولدها**»[(١)] .

جل جلاله، وعز ملكه وسلطانه.

كل الراحمين؛ إذا جمعت رحماتهم كلهم؛ فليست بشيء عند رحمة الله.

ويدلك على هذا أن الله عز وجل خلق مائة رحمة[(٢)] ، ووضع منها رحمة واحدة يتراحم بها الخلائق في الدنيا.

كل الخلائق تتراحم، البهائم والعقلاء، ولهذا تجد البعير الجموح الرموح ترفع رجلها عن ولدها مخافة أن تصيبه عندما يرضع حتى يرضع بسهولة ويسر، وكذلك تجد السباع الشرسة تجدها تحن على ولدها وإذا جاءها أحد في جحرها مع أولادها؛

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٩٩٩) ومسلم (٢٧٥٤) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٠٠٠) ومسلم (٢٧٥٢) من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

ترمي نفسها عليه، فتدافع عنهم، حتىٰ ترده عن أولادها.

وقد دل علىٰ ثبوت رحمة الله تعالىٰ: الكتاب، والسنة، والإجماع، والعقل:

فأما الكتاب؛ فجاء به إثبات الرحمة علىٰ وجوه متنوعة: تارة بالاسم؛ كقوله: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٧]، وتارة بالصفة؛ كقوله: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ [الكهف: ٥٨]، وتارة بالفعل؛ كقوله: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ﴾ [العنكبوت: ٢١]، وتارة باسم التفضيل؛ كقوله: ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢].

وبمثل هذه الوجوه... جاءت السنة.

وأما الأدلة العقلية على ثبوت الرحمة لله تعالى: فمنها ما نرىٰ من الخيرات الكثيرة التي تحصل بأمر الله عز وجل، ومنها ما نرىٰ من النقم الكثيرة التي تندفع بأمر الله؛ كله دال علىٰ إثبات الرحمة عقلا.

فالناس في جدب وفي قحط؛ الأرض مجدبة، والسماء قاحطة؛ لا مطر، ولا نبات، فينزل الله المطر، وتنبت الأرض، وتشبع الأنعام، ويسقي الناس... حتىٰ العامي الذي لم يدرس، لو سألته وقلت: هذا من أي شيء؟ فسيقول: هذا من رحمة الله ولا يشك أحد في هذا أبدًا.

فرحمة الله عز وجل ثابتة بالدليل السمعي والدليل العقلي.

وأنكر الأشاعرة وغيرهم من أهل التعطيل أن يكون الله تعالىٰ متصفًا بالرحمة؛ قالوا: لأن العقل لم يدل عليها.

وثانيًا: لأن الرحمة رقة وضعف وتطامن للمرحوم، وهذا لا يليق بالله عز وجل؛ لأن الله أعظم من أن يرحم بالمعنىٰ الذي هو الرحمة، ولا يمكن أن يكون لله رحمة!! وقالوا: المراد بالرحمة: إرادة الإحسان، أو: الإحسان نفسه؛ أي: إما النعم، أو إرادة النعم.

فتأمل الآن كيف سلبوا هذه الصفة العظيمة، التي كل مؤمن يرجوها ويؤملها، كل إنسان لو سألته: ماذا تريد؟ قال: أريد رحمة الله، ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]. أنكروا هذا؛ قالوا: لا يمكن أن يوصف الله بالرحمة!!.

ونحن نرد عليهم قولهم من وجهين: بالتسليم، والمنع:

التسليم أن نقول: هب أن العقل لا يدل عليها، ولكن السمع دل عليها؛ فثبتت بدليل آخر، والقاعدة العامة عند جميع العقلاء، أن انتفاء الدليل المعين لا يستلزم انتفاء المدلول؛ لأنه قد يثبت بدليل آخر. فهب أن الرحمة لم تثبت بالعقل، لكن ثبتت بالسمع، وكم من أشياء ثبتت بأدلة كثيرة.

أما المنع؛ فنقول: إن قولكم: إن العقل لا يدل على الرحمة: قول باطل، بل العقل يدل على الرحمة فهذه النعم المشهودة والمسموعة، وهذه النقم المدفوعة؛ ما سببها؟! إن سببها الرحمة بلا شك، ولو كان الله لا يرحم العباد؛ ما أعطاهم النعم، ولا دفع عنهم النقم!.

وهذا أمر مشهود؛ يشهد به الخاص والعام، والعامي في دكانه أو سوقه يعرف أن هذه النعم من آثار الرحمة.

والعجيب أن هؤلاء القوم أثبتوا صفة الإرادة عن طريق التخصيص؛ قالوا: الإرادة ثابتة لله تعالى بالسمع والعقل: بالسمع: واضح. وبالعقل: لأن التخصيص يدل على الإرادة.

ومعنى التخصيص؛ يعني: تخصيص المخلوقات بما هي عليه يدل على الإرادة، كون هذه السماء سماء، وهذه الأرض أرضًا، وهذه النجوم وهذه الشمس.. هذه مختلفة بسبب الإرادة؛ أراد الله أن تكون السماء سماء؛ فكانت، وأن تكون الأرض أرضًا؛ فكانت، والنجم نجمًا؛ فكان... وهكذا.

قالوا: فالتخصيص يدل على الإرادة؛ لأنه لولا الإرادة؛ لكان الكل شيئًا واحدًا!. نقول لهم: يا سبحان الله العظيم! هذا الدليل على الإرادة بالنسبة لدلالة النعم على الرحمة أضعف وأخفى من دلالة النعم على الرحمة؛ لأن دلالة النعم على الرحمة يستوي في علمها العام والخاص، ودلالة التخصيص على الإرادة لا يعرفها إلا الخاص من طلبة العلم؛ فكيف تنكرون ما هو أجلى وتثبتون ما هو أخفى؟! وهل هذا إلا تناقض منكم؟!

ما نستفيده من الناحية المسلكية في هذه الآيات:

الأمر المسلكي: هو أن الإنسان ما دام يعرف أن الله تعالى رحيم؛ فسوف يتعلق

برحمة الله، ويكون منتظرًا لها، فيحمله هذا الاعتقاد على فعل كل سبب يُوصل إلى الرحمة؛ مثل:

الإحسان؛ قال الله تعالى فيه: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

والتقوى؛ قال تعالى: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

والإيمان؛ فإنه من أسباب رحمة الله؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]، وكلما كان الإيمان أقوى؛ كانت الرحمة إلى صاحبه أقرب بإذن الله عز وجل.

● قال الشيخ صالح بن عبد الله الفوزان:

وقوله: ﴿وهو الغفور﴾ أي: كثير المغفرة، والغفر: الستر، فهو سبحانه يغفر لمن تاب إليه، أي: يستر ذنوبه ويتجاوز عن خطاياه.

﴿الودود﴾ من الود وهو خالص الحب، فهو سبحانه (ودود) بمعنى: أنه يحب أهل طاعته، وفي ذكر هذين الاسمين الكريمين مقترنين سر لطيف، وهو: أنه يحب عبده بعد المغفرة فيغفر له ويحبه بعد ذلك.

الشاهد من هذه الآيات الكريمة:

أن فيها إثبات المحبة والمودة لله سبحانه، وأنه يحب ويود بعض الأشخاص والأعمال والأخلاق فهو يحب بعض الأشياء دون بعض على ما تقتضيه حكمته البالغة، فهو يحب المحسنين، ويحب المقسطين، ويحب المتقين، ويحب المتبعين لرسوله ﷺ، ويحب المجاهدين في سبيله، ويحب التوابين والمتطهرين.

وفيها إثبات المحبة من الجانبين، جانب العبد وجانب الرب ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾، ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ ففي ذلك الرد على من نفى المحبة من الجانبين: كالجهمية والمعتزلة فقالوا: لا يُحَبُّ ولا يُحِبُّ وأوَّلوا محبة العباد له بمعنى محبتهم عبادته وطاعته. ومحبته للعباد بمعنى إحسانه إليهم وإثابتهم ونحو ذلك.

وهذا تأويل باطل؛ لأن مودته ومحبته سبحانه وتعالى لعباده على حقيقتهما، كما يليق بجلاله، كسائر صفاته ليستا كمودة ومحبة المخلوق.

وقوله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ تقدم تفسيرها في أول الكتاب، ومناسبة ذكرها هنا: أن فيها إثبات الرحمة لله تعالى صفة من صفاته، كما في الآيات المذكورة بعدها.

قال الإمام ابن القيم: ﴿الرَّحْمَنِ﴾ دال على الصفة القائمة به سبحانه، و ﴿الرَّحِيمِ﴾ دال على تعلقها بالمرحوم، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ ولم يجئ قط: رحمن بهم، وكان الأول للوصف، والثاني للفعل، فالأول دال على أن الرحمة وصفه. والثاني دال على أنه يرحم خلقه برحمته. اهـ.

قوله: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ هذا حكاية عن الملائكة الذين يحملون العرش ومن حوله أنهم يستغفرون للذين آمنوا، فيقولون: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ أي: وسعت رحمتك وعلمك كل شيء فـ ﴿رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ منصوبان على التمييز المحول عن الفاعل، وفي ذلك دليل على سعة رحمة الله وشمولها، فما من مسلم ولا كافر إلا وقد نالته رحمة الله في الدنيا، وأما في الآخرة فتختص بالمؤمنين.

وقوله: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ هذا إخبار من الله سبحانه أنه رحيم بالمؤمنين يرحمهم في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فإنه هداهم إلى الحق الذي جهله غيرهم، وبصرهم الطريق الذي ضل عنه غيرهم، وأما رحمته بهم في الآخرة فآمنهم من الفزع الأكبر ويدخلهم الجنة.

وقوله: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ أي: أوجبها على نفسه الكريمة تفضلاً منه وإحسانًا، وهذه الكتابة كونية قدرية لم يوجبها عليه أحد.

وقوله: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ يخبر سبحانه عن نفسه أنه متصف بالمغفرة والرحمة لمن تاب إليه وتوكل عليه، ولو من أي ذنب كان كالشرك فإنه يتوب عليه ويغفر له ويرحمه.

وقوله تعالى: ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا﴾ هذا مما حكاه الله تعالى عن نبيه يعقوب عليه السلام حينما طلب منه بنوه أن يرسل معهم أخاهم، وتعاهدوا بحفظه، فقال لهم:

إن حفظ الله سبحانه له خير من حفظكم. وهذا تفويض من يعقوب إلى الله في حفظ ابنه، ومن أسمائه تعالى الحفيظ: الذي يحفظ عباده بحفظه العام من الهلاك والعطب، ويحفظ عليهم أعمالهم، ويحفظ عباده المؤمنين بحفظه الخاص عما يفسد إيمانهم وعما يضرهم في دينهم ودنياهم.

الشاهد من الآيات الكريمة:

أن فيها وصف الله سبحانه وتعالى بالرحمة والمغفرة على ما يليق بجلاله كسائر صفاته، وفيها الرد على الجهمية والمعتزلة ونحوهم ممن ينفون عن الله اتصافه بالرحمة والمغفرة فراراً من التشبيه بزعمهم. قالوا: لأن المخلوق يوصف بالرحمة، وتأولوا هذه الآيات على المجاز، وهذا باطل؛ لأن الله سبحانه أثبت لنفسه هذه الصفة، ورحمته سبحانه ليست كرحمة المخلوق حتى يلزم التشبيه كما يزعمون، فإن الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾، والاتفاق في الاسم لا يقتضي الاتفاق في المسمى، فللخالق صفات تليق به وتختص به، وللمخلوق صفات تليق به وتختص به، والله أعلم.

* * *

[أسئلة وأجوبة نموذجية على صفة المودّة والرَّحمة]

● قال الشيخ عبد العزيز المحمد السلمان:

س ـ بين ما تعرفه عن معنى قوله: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾؟

ج ـ قد تقدم الكلام قريبًا على قوله «الغفور» في جواب سؤال ١٧٦ وأما الودود: فمعناه، المحب المحبوب، فالمحب الكثير الحب لأهل طاعته من أنبيائه ورسله وملائكته وأوليائه وعباده المؤمنين وهو سبحانه محبوبهم ولا تعادل محبة الله عند أصفيائه محبة أخرى وهذا هو الواجب.

ويتعين أن تكون المحابُّ تبعًا لها لأن محبة الله، هي روح الأعمال وجميع الأعمال وجميع العبودية الظاهرة والباطنة تبع لها ومحبة العبد لربه فضل من ربه وإحسان ليست بحول العبد وقوته فهو الذي أحب عبده فوفقه وجعل المحبة في قلبه ثم لما أحبه جازاه بحب آخر، ففي الآية:

١ ـ إثبات صفة المغفرة.

٢ ـ صفة المودة.

٣ ـ الرد على منكري الصفات.

٤ ـ إثبات صفة الكلام لله.

٥ ـ الحث على محبة الله وتقديمها على كل محبة ومحبة ما أحبه الله.

قال ابن القيم رحمه الله:

وهو الودود يحبهم ويحبه ... أحبابه والفضل للمنان

وهو الذي جعل المحبة في قلو ... بهم وجازاهم بحب ثان

هذا هو الإحسان حقًّا لا معًا ... وضة ولا لتوقع الشكران

س - ما الذي تفهمه عن معنى قوله تعالى: ﴿ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما﴾؟

ج - أي: وسعت رحمتك وعلمك كل شيء، فما من مسلم ولا كافر إلا وهو يتقلب في نعمته، فهذه الآية فيها:

أولاً: إثبات صفة الرحمة.

ثانياً: إثبات صفة العلم والرحمة وسعتهما وشمولهما.

ثالثاً: الرد على من أنكرهما أو أحدهما.

رابعاً: إثبات الربوبية.

خامساً: أن الإنسان ينتفع بسعي غيره.

سادساً: الحث على الثناء لله جل وعلا وتمجيده اقتداء بالملائكة الكرام.

سابعاً: تقديم الرحمة لأنها المقصودة بالذات.

س - ما الذي تعرفه عن معنى قوله تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾؟

ج - يخبرنا تعالى أنه بالمؤمنين رحيم. أما في الدنيا فإنه هداهم إلى الحق الذي جهله غيرهم، وبصرهم الطريق الذي ضل عنه وحاد عنه من سواهم من الدعاة إلى الكفر أو البدعة وأتباعهم من الطغاة، وأما رحمته في الآخرة، فأمنهم من الفزع الأكبر، وأمر ملائكته يتلقونهم بالبشارة بالفوز بالجنة والنجاة من النار، ففي هذه الآية:

أولاً: إثبات صفة الرحمة.

ثانياً: الرد على من أنكرها أو أوَّلها بتأويل باطل.

ثالثاً: أن الإيمان سبب للرحمة الخاصة.

س - بين ما تعرفه عن معنى قوله تعالى: ﴿ورحمتي وسعت كل شيء﴾.

ج - يخبرنا تعالى أن رحمته عمت وشملت كل شيء في العالم العلوي والسفلي، البر والفاجر، والمؤمن والكافر فما من مخلوق إلا وقد وصلت إليه

رحمته، وغمره فضله وإحسانه ولكن الرحمة الخاصة المقتضية لسعادة الدنيا والآخرة ليست لكل أحد؛ ولهذا قال عنها في آخر الآية: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ ـ الآيتين ـ ففي هذه الآية:

أولاً: إثبات صفة الرحمة وسعتها.

ثانيًا: الرد على من أنكرها، أو أولها بتأويل باطل.

ثالثًا: لطف الله بخلقه حيث أخبرهم بما هو سبب للإلتجاء إليه والطمع في رحمته والإبعاد عن القنوط.

س ـ ما الذي تعرفه عن معنى قوله تعالى: ﴿كتب ربكم على نفسه الرحمة﴾؟

ج - في الآية احتجاج، أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين مقررًا وملزمًا لهم بالتوحيد لمن ما في السموات والأرض فإن أجابوك، وإلا فقل: إن الله هو الخالق لهذا الكون، المالك المتصرف فيه، وقوله ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ﴾... إلخ هذا استعطاف منه تعالى للمتولين عن الإقبال عليه، وإخبار منه بأنه رحيم بالعباد، قادر على أن يعاجلهم بالعقاب، ولكنه كتب على نفسه الرحمة، ووعد بها فضلاً منه وإحسانًا ولم يوجبها عليه أحد. كما قيل:

ما للعباد عليه حق واجب ... كلا ولا سعي لديه ضائع

إن عذبوا فبعدله أو نعموا ... فبفضله وهو الكريم الواسع

ومما يؤخذ منها:

أولاً: إثبات صفة الرحمة.

ثانيًا: إثبات الربوبية، وتربية لخلقه نوعان: عامة وخاصة، فالعامة: هي خلقه للمخلوقين ورزقهم وهدايتهم لما فيه مصالحهم التي فيها بقاؤهم في الدنيا، والخاصة: تربيته لأوليائه فيربيهم بالإيمان، ويوفقهم له، ويكملهم ويدفع عنهم الصوارف والعوائق الحائلة بينهم وبينه، وحقيقتها تربية التوفيق لكل خير والعصمة من كل شر. ويؤخذ من الآية:

ثالثًا: إثبات النفس على الوجه اللائق بجلاله وعظمته.

رابعًا: إثبات صفة الكلام.

خامسًا: الرد على من قال: إن القرآن من كلام محمد أو جبريل أو غيرهما.

سادسًا: فيها الرد على من أنكر الرحمة أو النفس أو أولهما بتأويل باطل.

سابعًا: حلم الله على خلقه.

ثامنًا: لطف الله بخلقه حيث استعطف المتولين عنه بالإقبال عليه.

تاسعًا: الإخبار بأنه رحيم قادر على أن يعاجلهم بالعقوبة ولكنه كتب على نفسه الرحمة تفضلاً منه وإحسانًا.

س - ما الذي تفهم من معنى قوله تعالى: ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

ح - قال بعض المفسرين: لعل هنا إضماراً، والتقدير، فتوكل يعقوب على الله ودفعه إليهم، وقال: ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا﴾ والمعنى أن حفظ الله إياه خير من حفظهم، فأنا أتوكل على الله في حفظ بنيامين لا على حفظكم، ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ أي: هو أرحم الراحمين الذي يعلم حالي وكبري وضعفي ووجدي بولدي وأرجو منه أن يحفظه ويرده علي ويجمع شملي به وأن لا يجمع علي مصيبتين. قيل لما وكل يعقوب حفظه إلى الله سبحانه حفظه وأرجعه إليه ولما قال في يوسف: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ﴾ وقع له في الامتحان ما وقع ففي هذه الآية:

أولاً: إثبات صفة الرحمة.

ثانيًا: رد على الجهمية الذين نفوا الرحمة وزعموا أنها مجاز هذا إلحاد منهم في صفاته.

ثالثًا: إثبات الألوهية.

رابعًا: أنه لا أرحم من الله.

خامسًا: إثبات صفة الحفظ.

سادسًا: الحث على التوكل على الله وحده.

سابعًا: إحاطة علم الله بالعباد وأحوالهم.

ثامنًا: أن الله يسر للخلق ما يحتاجون إليه إذ به بقاؤهم فهو الذي أعطىٰ كل شيء خلقه ثم هدىٰ.

س ـ بين ما تعرفه عن اسمه تعالى: (الحفيظ)؟

ج ـ من أسمائه تعالىٰ: (الحفيظ) وهو مأخوذ من الحفظ وهو الصيانة وللحفيظ معنيان:

أحدهما: أنه قد حفظ علىٰ عباده ما عملوا من خير وشر وطاعة ومعصية فهذا المعنىٰ من حفظه يقتضي إحاطة علمه بأحوال العباد كلها.

والمعنى الثاني: أنه الحافظ لعباده من جميع ما يكرهون وحفظه لعباده نوعان: عام وخاص: فالعام حفظه لجميع المخلوقات بتيسيره لها ما يقيها ويحفظ بنيتها وتمشي إلىٰ هدايته العامة قال تعالىٰ: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ النوع الثاني: حفظ خاص لأوليائه عما يضر إيمانهم ويزلزل إيقانهم من الشبه والفتن والشهوات قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وهذا عام في جميع ما يضرهم في دينهم ودنياهم وفي الحديث: «**احفظ الله يحفظك**» قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ:

وهو الحفيظ عليهم وهو الكفيـ ... ـل بحفظهم من كل أمر عان

س ـ ما هي أقسام الرحمة، وما دليل كل قسم من أقسامها؟

ج ـ أقسام الرحمة اثنان:

أولاً: قسم مشترك عام بين المسلم والكافر، والبر والفاجر، والبهائم وسائر الخلق، ودليل هذا القسم قوله تعالىٰ: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾، ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾.

القسم الثاني: خاص بأنبيائه ورسله وأوليائه وعباده المؤمنين ودليله قوله تعالىٰ ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾، وقوله ﴿إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

س ـ ما هي أقسام الرحمة المضافة إلى الله؟

ج ـ أقسامها نوعان:

أحدهما: مضاف من إضافة المفعول إلىٰ فاعله ومنه ما في الحديث «أصبحت الجنة والنار فقال للجنة: إنما أنت رحمتي أرحم بك من أشاء».

فهذه رحمة مخلوقة مضافة إليه، إضافة المخلوق بالرحمة إلى خالقه، وسماها رحمة لأنها خلقت بالرحمة وللرحمة، وخص بها أهل الرحمة، لأن من يدخلها الرُّحَمَاء ومنه «خلق الله الرحمة يوم خلقها مائة رحمة كل رحمة طباق ما بين السماء والأرض» ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا﴾ وقوله ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً﴾، ومنه تسميته المطر: (رحمة) كقوله ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾.

والنوع الثاني: مضاف إليه إضافة صفة إلى موصوف وذلك مثل ما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ وكما في الحديث: «يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث»، ومن النوع الأول قوله ﷺ «أنزل رحمة من رحمتك».

❊ ❊ ❊



[صفة الرضا والغضب]

وقوله: ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [البينة: ٨].

﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ﴾ [النساء: ٩٣].

وقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾ [محمد: ٢٨].

﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥].

وقوله: ﴿وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٦].

وقوله: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٣].

• الشرح •

● قال الشيخ محمد خليل هراس:

قوله: ﴿ رضي الله عنهم . . . ﴾ : تضمنت هذه الآيات إثبات بعض صفات الفعل من الرضا لله والغضب، واللعن والكره، والسخط والمقت والأسف.

وهي عند أهل الحق صفات حقيقية لله عز وجل على ما يليق به ولا تشبه ما يتصف به المخلوق من ذلك، ولا يلزم منها ما يلزم في المخلوق، فلا حجة للأشاعرة والمعتزلة على نفيها ولكنهم ظنوا أن اتصاف الله عز وجل بها يلزمه أن تكون هذه الصفات فيه على نحو ما هي في المخلوق، وهذا الظن الذي ظنوه في ربهم أرداهم

فأوقعهم في حمأة النفي والتعطيل، والأشاعرة يرجعون هذه الصفات كلها إلىٰ الإرادة كما علمت سابقًا، فالرضا عندهم إرادة الثواب والغضب والسخط. . . إلخ إرادة العقاب.

وأما المعتزلة فيرجعونها إلىٰ نفس الثواب والعقاب.

وقوله سبحانه: ﴿ رضي الله عنهم ورضوا عنه ﴾: إخبار عما يكون بينه وبين أوليائه من تبادل الرضا والمحبة أما رضاه عنهم فهو أعظم وأجل من كل ما أعطوا من النعيم كما قال سبحانه: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ وأما رضاهم عنه فهو رضا كل منهم بمنزلته مهما كانت وسروره بها حتىٰ يظن أنه لم يؤت أحد خيرًا مما أوتي، وذلك في الجنة.

وأما قوله: ﴿ ومن يقتل مؤمنا متعمدا ﴾ الآية، فقد احترز بقوله: مؤمنًا عن قتل الكافر، وبقوله: متعمدًا - أي قاصدًا لذلك (بأن يقصد من يعلمه آدميًا معصومًا فيقتله بما يغلب علىٰ الظن موته به) - عن القتل الخطأ.

وقوله: ﴿ خالدا فيها ﴾: أي مقيمًا علىٰ جهة التأبيد، وقيل: الخلود المكث الطويل واللعن هو الطرد والإبعاد عن رحمة الله، واللعين والملعون من حقت عليه اللعنة أو دعي عليه بها.

وقد استشكل العلماء هذه الآيات من حيث إنها تدل علىٰ أن القاتل عمدًا لا توبة له وأنه مخلد في النار، وهذا معارض لقوله تعالى: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ وقد أجابوا عن ذلك بعدة أجوبة منها:

١ - أن هذا الجزاء لمن كان مستحلاً لقتل المؤمن عمدًا.

٢ - أن هذا هو جزاؤه الذي يستحقه لو جوزي مع إمكان أن لا يجازىٰ بأن يتوب أو يعمل صالحًا يرجح بعمله السيئ.

٣ - أن الآية واردة مورد التغليظ والزجر.

٤ - أن المراد بالخلود المكث الطويل كما قدمنا.

وقد ذهب ابن عباس وجماعة إلىٰ أن القاتل عمدًا لا توبة له حتىٰ قال ابن عباس: إن هذه الآية من آخر ما نزل ولم ينسخها شيء، والصحيح أن علىٰ القاتل حقوقًا

ثلاثة: حقًا لله، وحقًا للورثة، وحقًا للقتيل، فحق الله يسقط بالتوبة، وحق الورثة يسقط بالاستيفاء في الدنيا أو العفو، وأما حق القتيل فلا يسقط حتى يجتمع بقاتله يوم القيامة ويأتي رأسه في يده ويقول: يا رب سل هذا فيم قتلني؟.

وأما قوله: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا...﴾: فالأسف يستعمل بمعنى شدة الحزن وبمعنى شدة الغضب والسخط وهو المراد في الآية والانتقام المجازاة بالعقوبة مأخوذًا من النقمة وهي شدة الكراهة والسخط.

● قال الشيخ محمد بن صالح العثيمين:

وقوله: ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ [المائدة: ١١٩].

هذه من آيات الرضى؛ فالله سبحانه وتعالى موصوف بالرضى، وهو يرضى عن العمل، ويرضى عن العامل.

يعني: أن رضى الله متعلق بالعمل وبالعامل.

أما بالعمل؛ فمثل قوله تعالى: ﴿وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧]؛ أي: يرضى الشكر لكم.

وكما في قوله تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وكما في الحديث الصحيح: «**إن الله يرضى لكم ثلاثًا، ويكره لكم ثلاثًا...**»[١]. فهذا الرضى متعلق بالعمل.

ويتعلق الرضى أيضًا بالعامل؛ مثل هذه الآية التي ساقها المؤلف: ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ [المائدة: ١١٩].

فرضى الله صفة ثابتة لله عز وجل، وهي في نفسه، وليست شيئًا منفصلا عنه؛ كما يدعيه أهل التعطيل.

ولو قال لك قائل: فسر لي الرضا، لم تتمكن من تفسيره؛ لأن الرضى صفة في الإنسان غريزية، والغرائز لا يمكن لإنسان أن يفسرها بأجلى وأوضح من لفظها.

نقول: الرضا صفة من الله عز وجل، وهي صفة حقيقية، متعلقة بمشيئته؛ فهي

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٧١٥) ومالك في «الموطأ» (١٨٦٣) من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

من الصفات الفعلية، يرضىٰ عن المؤمنين وعن المتقين وعن المقسطين وعن الشاكرين، ولا يرضىٰ عن القوم الكافرين، ولا يرضىٰ عن القوم الفاسقين، ولا يرضىٰ عن المنافقين؛ فهو سبحانه وتعالىٰ يرضىٰ عن أناس ولا يرضىٰ عن أناس، ويرضىٰ أعمالا ويكره أعمالا.

ووصف الله تعالىٰ بالرضا ثابت بالدليل السمعي؛ كما سبق؛ وبالدليل العقلي؛ فإن كونه عز وجل يثيب الطائعين. ويجزيهم علىٰ أعمالهم وطاعاتهم يدل علىٰ الرضا.

فإن قلت: استدلالك بالمثوبة علىٰ رضا الله عز وجل قد ينازع فيه؛ لأن الله سبحانه قد يعطي الفاسق من النعم أكثر مما يعطي الشاكر. وهذا إيراد قوي.

ولكن الجواب عنه أن يقال: إعطاؤه الفاسق المقيم علىٰ معصيته استدراج، وليس عن رضا:

كما قال تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٢، ١٨٣].

وقال النبي ﷺ: «إن الله ليملي للظالم، حتى إذا أخذه، لم يفلته»، وتلا قوله تعالىٰ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢][١].

وقال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ * فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٤، ٤٥].

أما إذا جاءت المثوبة والإنسان مقيم علىٰ طاعة الله؛ فإننا نعرف أن ذلك صادر عن رضا الله عنه.

ذكر المؤلف ـ رحمه الله ـ في هذه الصفات خمس آيات:

الآية الأولىٰ: قوله: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ﴾ [النساء: ٩٣].

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٦٨٦) ومسلم (٢٥٨٣) من حديث أبي موسىٰ ـ رضي الله عنه.

﴿وَمَن﴾: شرطية. و(من) الشرطية تفيد العموم.

﴿مُؤْمِنًا﴾: هو من آمن بالله ورسوله؛ فخرج به الكافر والمنافق.

لكن من قتل كافراً له عهد أو ذمة أو أمان؛ فهو آثم، لكن لا يستحق الوعيد المذكور في الآية.

وأما المنافق؛ فهو معصوم الدم ظاهراً؛ ما لم يعلن بنفاقه.

وقوله: ﴿مُتَعَمِّدًا﴾: يدل على إخراج الصغير وغير العاقل؛ لأن هؤلاء ليس لهم قصد معتبر ولا عمد، وعلى إخراج المخطئ، وقد سبق بيانه في الآية التي قبلها.

فالذي يقتل مؤمنًا متعمداً جزاؤه هذا الجزاء العظيم.

﴿جَهَنَّمُ﴾: اسم من أسماء النار.

﴿خَالِدًا فِيهَا﴾: أي: ماكثًا فيها.

﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾: الغضب صفة ثابتة لله تعالى على الوجه اللائق به، وهي من صفاته الفعلية.

﴿وَلَعَنَهُ﴾: اللعن هو الطرد والإبعاد عن رحمة الله.

فهذه أربعة أنواع من العقوبة، والخامس: ﴿وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾.

خمس عقوبات، واحدة منها كافية في الردع والزجر لمن كان له قلب.

ولكن يشكل على منهج أهل السنة ذكر الخلود في النار؛ حيث رتب على القتل، والقتل ليس بكفر، ولا خلود في النار عند أهل السنة إلا بالكفر.

وأجيب عن ذلك بعدة أوجه:

الوجه الأول: أن هذه في الكافر إذا قتل المؤمن!.

لكن هذا القول ليس بشيء؛ لأن الكافر جزاؤه جهنم خالداً فيها وإن لم يقتل المؤمن: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا * خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٤، ٦٥].

الوجه الثاني: أن هذا فيمن استحل القتل؛ لأن الذي يستحل قتل المؤمن كافر!.

وعجب الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ من هذا الجواب؛ قال: كيف هذا؟! إذا استحل

قتله؛ فهو كافر وإن لم يقتله، وهو مخلد في النار وإن لم يقتله.

ولا يستقيم هذا الجواب أيضًا.

الوجه الثالث: أن هذه الجملة على تقدير شرط؛ أي: فجزاؤه جهنم خالدًا فيها إن جازاه.

وفي هذا نظر؛ فأي فائدة في قوله: ﴿فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ﴾ [النساء: ٩٣]؛ ما دام المعنى إن جازاه؟! فنحن الآن نسأل: إذا جازاه؛ فهل هذا جزاؤه؟ فإذا قيل: نعم؛ فمعناه أنه صار خالدًا في النار، فتعود المشكلة مرة أخرى، ولا نتخلص!!.

فهذه ثلاثة أجوبة لا تسلم من الاعتراض.

الوجه الرابع: أن هذا سبب، ولكن إذا وجد مانع؛ لم ينفذ السبب؛ كما نقول: القرابة سبب للإرث؛ فإذا كان القريب رقيقًا؛ لم يرث؛ لوجود المانع وهو الرق.

فنقول: هذا الفعل سبب للخلود، وإذا كان الفاعل مؤمنًا؛ فلا يخلد في النار.

ولكن يرد علينا الإشكال من وجه آخر، وهو ما الفائدة من هذا الوعيد؟.

فنقول: الفائدة أن الإنسان الذي يقتل مؤمنًا متعمدًا قد فعل السبب الذي يخلد به في النار، وحينئذ يكون وجود المانع محتملا؛ قد يوجد، وقد لا يوجد؛ فهو على خطر جدًا، ولهذا قال النبي ﷺ: «**لن يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يصب دمًا حرامًا**»(١). فإذا أصاب دمًا حرامًا والعياذ بالله؛ فإنه قد يضيق بدينه حتى يخرج منه.

وعلى هذا؛ فيكون الوعيد هنا باعتبار المآل؛ لأنه يخشى أن يكون هذا القتل سببًا لكفره، وحينئذ يموت على الكفر، فيخلد.

فيكون في هذه الآية على هذا التقدير ذكر سبب السبب؛ فالقتل عمدًا سبب لأن يموت الإنسان على الكفر، والكفر سبب للتخليد في النار.

وأظن هذا إذا تأمله الإنسان؛ يجد أنه ليس فيه إشكال.

الوجه الخامس: أن المراد بالخلود المكث الطويل، وليس المراد به المكث الدائم؛ لأن اللغة العربية يطلق فيها الخلود على المكث الطويل كما يقال: فلان خالد في

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٦٨٦٢) وأحمد في «مسنده» (٢/ ٩٤) من حديث عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما.

الحبس، والحبس ليس بدائم. ويقولون: فلان خالد خلود الجبال، ومعلوم أن الجبال ينسفها ربي نسفًا فيذرها قاعًا صفصفًا.

وهذا أيضًا جواب سهل لا يحتاج إلى تعب؛ فنقول: إن الله عز وجل لم يذكر التأبيد؛ لم يقل: خالدًا فيها أبدًا بل قال: باق، والمعنى: أنه ماكث مكثًا طويلا.

الوجه السادس: أن يقال إن هذا من باب الوعيد، والوعيد يجوز إخلافه؛ لأنه انتقال من العدل إلى الكرم، والانتقال من العدل إلى الكرم وكرم وثناء وأنشدوا عليه قوله الشاعر:

وإني وإن واعدته أو وعدته ... مخلف إيعادي ومنجز موعدي[1]

أوعدته بالعقوبة، ووعدته بالثواب؛ لمخلف إيعادي ومنجز موعدي.

وأنت إذا قلت لابنك: والله؛ إن ذهبت إلى السوق؛ لأضربنك بهذا العصا. ثم ذهب إلى السوق، فلما رجع؛ ضربته بيدك؛ فهذا العقاب أهون على ابنك؛ فإذا توعد الله عز وجل القاتل بهذا الوعيد، ثم عفا عنه؛ فهذا كرم.

ولكن هذا في الحقيقة فيه شيء من النظر؛ لأننا نقول: إن نفذ الوعيد؛ فالإشكال باق، وإن لم ينفذ؛ فلا فائدة منه.

هذه ستة أوجه في الجواب عن الآية، وأقربها الخامس؛ ثم الرابع.

مسألة:

إذا تاب القاتل؛ هل يستحق هذا الوعيد؟

الجواب: لا يستحق الوعيد بنص القرآن؛ لقوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلا بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا * إِلا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا**﴾ [الفرقان: ٦٨-٧٠]، وهذا واضح؛ أن من تاب - حتى من القتل - فإن الله تعالى يبدل سيئاته حسنات.

والحديث الصحيح في قصة الرجل من بني إسرائيل، الذي قتل تسعًا وتسعين

---

(١) انظر «المفصل لشواهد اللغة العربية» (٢/ ٤١٤).

نفسًا، فألقى الله في نفسه التوبة، فجاء إلى عابد، فقال له: إنه قتل تسعًا وتسعين نفسًا؛ فهل له من توبة؟! فالعابد استعظم الأمر، وقال: ليس لك توبة! فقتله، فأتم به المائة. فدُل على عالم، فقال: إنه قتل مائة نفس؛ فهل له من توبة؟ قال: نعم؛ ومن يحول بينك وبين التوبة؟! ولكن هذه القرية ظالم أهلها؛ فاذهب إلى القرية الفلانية، فيها أهل خير وصلاح. فسافر الرجل، وهاجر من بلده إلى بلد الخير والصلاح، فوافته المنية في أثناء الطريق، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، حتى أنزل الله بينهم حكمًا، وقال: قيسوا ما بين القريتين، فإلى أيتهما كان أقرب؛ فهو من أهلها؛ فكان أقرب إلى أهل القرية الصالحة، فقبضته ملائكة الرحمة[١].

فانظر كيف كان من بني إسرائيل فقبلت توبته، مع أن الله جعل عليهم آصارًا وأغلالا، وهذه الأمة رفع عنها الآصار والأغلال؛ فالتوبة في حقها أسهل؛ فإذا كان في بني إسرائيل؛ فكيف بهذه الأمة؟!.

فإن قلت: ماذا تقول فيما صح عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن القاتل ليس له توبة؟![٢]

فالجواب: من أحد الوجهين:

١ ـ إما أن ابن عباس رضي الله عنهما استبعد أن يكون للقاتل عمدًا توبة، ورأى أنه لا يوفق للتوبة، وإذا لم يوفق للتوبة؛ فإنه لا يسقط عنه الإثم، بل يؤاخذ به.

٢ ـ وإما أن يقال: إن مراد ابن عباس رضي الله عنهما: أنه لا توبة له فيما يتعلق بحق المقتول؛ لأن القاتل عمدًا يتعلق به ثلاثة حقوق: حق الله، وحق المقتول، والثالث لأولياء المقتول.

أ ـ أما حق الله؛ فلا شك أن التوبة ترفعه؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾، وهذه في التائبين.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٤٧٠) ومسلم (٢٧٦٦) من حديث أبي سعيد ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) انظر «تفسير ابن كثير» (١/ ٢٣١).

ب ـ وأما حق أولياء المقتول؛ فيسقط إذا سلم الإنسان نفسه لهم، أتى إليهم وقال: أنا قتلت صاحبكم، واصنعوا ما شئتم فهم إما أن يقتصوا، أو يأخذوا الدية، أو يعفوا، والحق لهم.

ج ـ وأما حق المقتول؛ فلا سبيل إلى التخلص منه في الدنيا.

وعلى هذا يحمل قول ابن عباس رضي الله عنهما أنه لا توبة له؛ أي: بالنسبة لحق المقتول.

على أن الذي يظهر لي أنه إذا تاب توبة نصوحًا؛ فإنه حتى حق المقتول يسقط، لا إهداراً لحقه، ولكن الله عز وجل بفضله يتحمل عن القاتل ويعطي المقتول رفعة درجات في الجنة أو عفواً عن السيئات؛ لأن التوبة الخالصة لا تبقي شيئًا، ويؤيد هذا عموم آية الفرقان: ﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلا بِالْحَقِّ﴾ إلى قوله: ﴿إِلا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ [الفرقان: ٦٨ـ ٧٠].

وفي هذه الآية من صفات الله: الغضب، واللعن وإعداد العذاب.

وفيها من الناحية المسلكية التحذير من قتل المؤمن عمداً.

الآية الثانية: قوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾ [محمد: ٢٨].

﴿ذَلِكَ﴾: المشار إليه ما سبق، والذي سبق هو قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾ [محمد: ٢٧، ٢٨]؛ يعني: فكيف تكون حالهم في تلك اللحظات إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم عند الموت؟!

﴿ذَلِكَ﴾؛ أي: ضرب الوجوه والأدبار.

﴿بِأَنَّهُمُ﴾؛ أي: بسبب؛ فالباء للسببية.

﴿اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ﴾؛ أي: الذي أسخط الله، فصاروا يفعلون كل ما به سخط الله عز وجل من عقيدة أو قول أو فعل.

أما ما فيه رضا الله؛ فحالهم فيه قوله: ﴿وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾؛ أي: كرهوا ما فيه

رضاه، فصارت عاقبتهم تلك العاقبة الوخيمة؛ أنهم عند الوفاة تضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم.

وفي هذه الآية من صفات الله: إثبات السخط والرضا.

وسبق الكلام على صفة الرضا، وأما السخط؛ فمعناه قريب من معنى الغضب.

الآية الثالثة: قوله: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥]

﴿آسَفُونَا﴾؛ يعني: أغضبونا وأسخطونا.

و﴿لَمَّا﴾: هنا شرطية؛ فعل الشرط فيها: ﴿آسَفُونَا﴾، وجوابه: ﴿انتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾.

ففيها رد على من فسروا السخط والغضب بالانتقام؛ لأن أهل التعطيل من الأشعرية وغيرهم يقولون: إن المراد بالسخط والغضب الانتقام، أو إرادة الانتقام، ولا يفسرون السخط والغضب بصفة من صفات الله يتصف بها هو نفسه، فيقولون: غضبه؛ أي: انتقامه، أو إرادة انتقامه؛ فهم إما أن يفسروا الغضب بالمفعول المنفصل عن الله وهو الانتقام أو بالإرادة لأنهم يقرون بها، ولا يفسرونه بأنه صفة ثابتة لله على وجه الحقيقة تليق به.

ونحن نقول لهم: بل السخط والغضب غير الانتقام، والانتقام نتيجة الغضب والسخط؛ كما نقول: إن الثواب نتيجة الرضا؛ فالله سبحانه وتعالى يسخط على هؤلاء القوم ويغضب عليهم ثم ينتقم منهم.

وإذا قالوا: إن العقل يمنع ثبوت السخط والغضب لله عز وجل.

فإننا نجيبهم بما سبق في صفة الرضا؛ لأن الباب واحد.

ونقول: بل العقل يدل على السخط والغضب؛ فإن الانتقام من المجرمين وتعذيب الكافرين دليل على السخط والغضب، وليس دليلا على الرضا، ولا على انتفاء الغضب والسخط.

ونقول: هذه الآية: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥]: ترد عليكم؛ لأنه جعل الانتقام غير الغضب؛ لأن الشرط غير المشروط.

مسألة:

بقي أن يقال: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا﴾: نحن نعرف أن الأسف هو الحزن والندم على شيء مضى على النادم لا يستطيع رفعه؛ فهل يوصف الله بالحزن والندم؟.

الجواب: لا، ونجيب عن الآية بأن الأسف في اللغة له معنيان:

المعنى الأول: الأسف بمعنى الحزن؛ مثل قول الله تعالى عن يعقوب: ﴿يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ﴾ [يوسف: ٨٤].

ويطلق الأسف على الغضب، فيقال: أسف عليه يأسف؛ بمعنى: غضب عليه.

والمعنى الأول: ممتنع بالنسبة لله عز وجل.

والثاني: مثبت لله؛ لأن الله تعالى وصف به نفسه، فقال: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾.

وفي الآية من صفات الله: الغضب، والانتقام.

ومن الناحية المسلكية: التحذير مما يغضب الله تعالى.

الآية الرابعة: قوله: ﴿وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٦].

يعني بذلك المنافقين الذين لم يخرجوا مع النبي ﷺ في الغزوات؛ لأن الله تعالى كره انبعاثهم؛ لأن عملهم غير خالص له، والله تعالى أغنى الشركاء عن الشرك، ولأنهم إذا خرجوا، كانوا كما قال الله تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً وَلأَوْضَعُواْ خِلاَلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ [التوبة: ٤٧]، وإذا كانوا غير مخلصين، وكانوا مفسدين؛ فإن الله سبحانه وتعالى يكره الفساد ويكره الشرك: فـ ﴿كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ﴾؛ يعني: جعل هممهم فاترة عن الخروج للجهاد.

﴿وَقِيلَ اقْعُدُواْ مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ [التوبة: ٤٦]: قيل: يحتمل أن الله قال ذلك كونًا. ويحتمل أن بعضهم يقول لبعض: اقعد مع القاعدين؛ ففلان لم يخرج، وفلان لم يخرج؛ ممن عذرهم الله عز وجل؛ كالمريض والأعمى والأعرج، ويقولون: إذا قدم النبي ﷺ اعتذرنا إليه واستغفر لنا وكفانا.

ويمكن أن نجمع بين القولين؛ لأنه إذا قيل لهم ذلك، وقعدوا؛ فهم ما قعدوا إلا بقول الله عز وجل.

وفي الآية هنا إثبات أن الله عز وجل يكره، وهذا أيضًا ثابت في الكتاب والسنة:
قال الله تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ إلى قوله: ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ [الإسراء: ٢٣ ـ ٣٨].

ـ وكما في هذه الآية التي ذكرها المؤلف ـ رحمه الله ـ: ﴿وَلَكِن كَرِهَ اللّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٦].

ـ وقال النبي ﷺ: «**إن الله كره لكم قيل وقال**»(١).

فالكراهة ثابتة بالكتاب والسنة؛ أن الله تعالى يكره.

وكراهة الله سبحانه وتعالى للشيء تكون للعمل؛ كما في الآية: ﴿وَلَكِن كَرِهَ اللّهُ انبِعَاثَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٦]، وكما في قوله: ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ [الإسراء: ٣٨]. وتكون أيضًا للعامل؛ كما جاء في الحديث: «**إن الله تعالى إذا أبغض عبدًا؛ نادى جبريل؛ إني أبغض فلانًا؛ فأبغضه**»(٢).

الآية الخامسة: قوله: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٣].

﴿كَبُرَ﴾: بمعنى: عظم.

﴿مَقْتًا﴾: تمييز محول عن الفاعل، والمقت أشد البغض، وفاعل ﴿كَبُرَ﴾ بعد أن حول الفاعل إلى تمييز: (أن) وما دخلت عليه في قوله: ﴿أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ﴾.

وهذه الآية تعليل للآية التي قبلها وبيان لعاقبتها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢، ٣]؛ فإن هذا من أكبر الأمور أن يقول الإنسان ما لا يفعل.

ووجه ذلك أن يقال: إذا كنت تقول الشيء ولا تفعله؛ فأنت بين أمرين: إما كاذب فيما تقول، ولكنك تخوف الناس، فتقول لهم الشيء وليس بحقيقة.

وإما أنك مستكبر عما تقول؛ تأمر الناس به ولا تفعله، وتنهى الناس عنه وتفعله.

وفي الآية من الصفات: المقت، وأنه يتفاوت.

ومن الناحية المسلكية: التحذير من أن يقول الإنسان ما لا يفعل.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٤٧٧) ومسلم (٥٩٣) من حديث المغيرة بن شعبة ـ رضي الله عنه.
(٢) سبق تخريجه.

● قال الشيخ صالح بن عبد الله الفوزان:

قوله: ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ أي: رضي عنهم بما عملوه من الطاعات الخالصة له ورضوا عنه بما جازاهم به من النعيم، والرضا منه سبحانه هو أرفع درجات النعيم، قال تعالىٰ: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢]، ورضاهم عنه هو رضا كل منهم بمنزلته حتىٰ يظن أنه لم يؤت أحد خيراً مما أوتي.

وقوله: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا﴾ احترز بقوله: ﴿مُؤْمِنًا﴾ عن قتل الكافر، وبقوله: ﴿مُّتَعَمِّدًا﴾ عن قتل الخطأ، والمتعمد: هو الذي يقصد من يعلمه آدميًّا معصومًا فيقتله بما يغلب علىٰ الظن موته به. وقوله: ﴿فَجَزَاؤُهُ﴾ أي: عقابه في الآخرة ﴿جَهَنَّمُ﴾ طبقة من طبقات النار ﴿خَالِدًا فِيهَا﴾ أي: مقيمًا في جهنم، والخلود: هو المكث الطويل ﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ معطوف علىٰ مقدر دل عليه السياق، أي: جعل جزاءه جهنم وغضب عليه ﴿وَلَعَنَهُ﴾ أي: طرده عن رحمته، واللعن: هو الطرد والإبعاد عن رحمة الله.

وقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ﴾ أي: ما ذكر في الآية قبلها من شدة توفي الملائكة للكفار من أجل أنهم ﴿اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ﴾ من الانهماك في المعاصي والشهوات المحرمة ﴿وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾ أي: كرهوا ما يرضيه من الإيمان والأعمال الصالحة.

وقوله: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا﴾ أي: أغضبونا ﴿انتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ أي: عاقبناهم، والانتقام هو أشد العقوبة.

وقوله: ﴿وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ﴾ أي: أبغض الله خروجهم معكم للغزو ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾ أي: حبسهم عن الخروج معك، وخذلهم قضاءً وقدراً، وإن كان قد أمرهم بالغزو شرعًا، وأقدرهم عليه حسًّا، لكنه لم يعنهم عليه؛ لحكمة يعلمها، وقد بينها في الآية التي بعدها في قوله: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً﴾ الآية.

وقوله: ﴿كَبُرَ مَقْتًا﴾ أي: عظم ذلك في المقت وهو البغض، ومقتًا منصوب علىٰ التمييز ﴿أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ﴾ أي: أن تعِدُوا من أنفسكم خيراً ثم لا تفوا بما وعدتم. وقد ورد في سبب نزولها أن ناسًا من المؤمنين قبل أن يفرض الجهاد يقولون: وددنا لو أن الله

أخبرنا بأحب الأعمال فنعمل به فأخبر الله نبيه ﷺ أن أحب الأعمال إيمان بالله لا شك فيه، وجهاد أهل معصيته الذين خالفوا الإيمان ولم يقروا به، فلما نزل الجهاد كره ذلك أناس من المؤمنين وشق عليهم أمره، فقال الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾[1] .

الشاهد من الآيات: أن فيها وصف الله بالغضب والرضا واللعن والانتقام والكراهية والأسف والمقت، وهذه كلها من صفات الأفعال التي يفعلها جل وعلا متى شاء، إذا شاء، كيف يشاء. وأهل السنة يثبتون ذلك لله كما أثبته لنفسه على ما يليق بجلاله.

* * *

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢٨/ ٨٣) من حديث ابن عباس -رضي الله عنه-.

[أسئلة وأجوبة نموذجية على صفتي الرضا والغضب]

● قال الشيخ عبد العزيز المحمد السلمان:

س ـ بين ما تعرفه عن معنى قوله تعالى: ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾؟

ج ـ لما ذكر سبحانه أعمالهم الصالحة، ذكر أنه أثابهم عليها رضاه الذي هو أعظم وأجل من كل نعيم، قال تعالى ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾. عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون لبيك ربنا وسعديك، والخير في يديك، فيقول: هل رضيتم فيقولون: وما لنا لا نرضى يا رب، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من خلقك، فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك، فيقولون: يا رب وأي شيء أفضل من ذلك، فيقول أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدًا».

أخرجاه من حديث مالك: قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ مشيراً إلى ذلك:

أو ما سمعت بأنه سبحانه فيقول جل ... حقًّا يكلم حزبه بجنان
جلاله هل أنتم ... راضون قالوا نحن ذو رضوان
أم كيف لا نرضى وقد أعطيتنا ... ما لم ينله قط من إنسان
هل ثم شيء غير ذا فيكون أفـ ... ـضل منه نسأله من المنان
فيقول أفضل منه رضوان فلا ... يغشاكم سخط من الرحمان

ففي هذه الآية:

أولاً: إثبات صفة الرضا لله على ما يليق بجلاله وعظمته.

ثانيًا: إثبات الأفعال الاختيارية.

ثالثًا: إثبات الرد على من أول الرضا بإرادة الإحسان أو أنكر الرضا كالجهمية والمعتزلة والأشاعرة.

رابعًا: إثبات فعل العبد وأن له فعلاً اختياراً.

خامساً: إثبات الألوهية لله.

سادساً: الحث على الصدق.

سابعًا: إثبات رحمته ولطفه بعباده حيث حث العباد على ما به يحصل الفوز.

ثامنًا: أن وعد الله حق وصدق.

تاسعًا: إثبات البعث والحساب والجزاء على الأعمال والجنة وما فيها من النعيم.

عاشراً: إثبات صفة الكلام لله خلافًا للجهمية والمعتزلة.

الحادي عشر: الرد على من قال إن كلام الله ما في نفسه وهذا تعبير عنه كما تقول الأشاعرة والكلابية.

س - ما الذي تعرفه عن معنى قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾؟

ج - في هذه الآية وعيد شديد على من يقتل مؤمنًا متعمداً بأن عقابه جهنم خالدًا فيها أي مقيمًا، والخلود: المكث الطويل ﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ﴾ أي: طرده من رحمته وهيأ له عذابًا عظيمًا لا يدرك كنهه إلا العزيز الجبار لعظيم ذنبه، وهذا وعيد ترجف له القلوب وتتصدع له الأفئدة وينزعج منه أولوا العقول.

وقد اختلف العلماء: هل للقاتل من توبة أم لا؟ فروى البخاري عن سعيد بن جبير قال: اختلف فيها علماء الكوفة فرحلت إلى ابن عباس - رضي الله عنهما - فسألته عنها فقال: نزلت هذه الآية: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا﴾ وهي آخر ما نزل وما نسخها شيء. وقد روى النسائي عنه نحو هذا. وروى النسائي عن زيد بن ثابت رضي الله عنه نحوه.

وممن ذهب إلى أنه لا توبة له من السلف أبو هريرة وعبد الله بن عمرو وأبو سلمة وعبيد بن عمير والحسن والضحاك بن مزاحم نقله ابن أبي حاتم عنهم.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «**من أعان على قتل مؤمن بشطر كلمة لقي الله عز وجل مكتوب بين عينيه آيس من رحمة الله**».

وعن معاوية رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا الرجل يموت كافراً أو الرجل يقتل مؤمنًا متعمداً**».

وروىٰ عن البراء بن عازب رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**لَزَوَال الدنيا وما فيها أهون عند الله من قتل مؤمن ولو أن أهل سمواته وأهل أرضه اشتركوا في دم مؤمن لأدخلهم الله تعالى النار**».

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أنه عليه الصلاة والسلام: قال: «**لو أن الثقلين اجتمعوا على قتل مؤمن لأكبهم الله تعالى على مناخرهم في النار، وإن الله تعالى حرم الجنة على القاتل والآمر به**».

وذهب الجمهور إلىٰ أن التوبة من القاتل مقبولة واستدلوا بمثل قوله تعالىٰ: ﴿**إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ**﴾ وقوله: ﴿**وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ**﴾ وقوله: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ**﴾ وقوله: ﴿**قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا**﴾ الآية.

قالوا أيضًا: والجمع ممكن بين آية النساء هذه وآية الفرقان فيكون معناها فجزاؤه جهنم إلا من تاب، لا سيما وقد اتحد السبب وهو القتل، والموجب وهو التوعد بالعقاب واستدلوا أيضًا بالحديث المذكور بالصحيحين عن عبادة بن الصامت، رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «**بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئًا ولا تزنوا ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق**» ثم قال: «**فمن أصاب من ذلك شيئًا فستره فهو إلى الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عذبه**».

وبحديث أبي هريرة رضي الله عنه الذي أخرجه مسلم في صحيحه وغيره في الذي قتل مائة نفس.

وذهب جماعة منهم أبو حنيفة والشافعي إلىٰ أن القاتل عمدًا داخل تحت المشيئة تاب أو لم يتب.

قال ابن القيم: والتحقيق في المسألة أن القتل تتعلق به ثلاثة حقوق: حق الله، وحق المقتول، وحق الولي، فإذا سلم القاتل نفسه طوعًا واختيارًا ندمًا على ما فعله وخوفًا من الله وتوبة نصوحًا، سقط حق الله بالتوبة وحق الأولياء بالاستيفاء أو الصلح أو العفو، وبقي حق المقتول يعوضه الله عنه يوم القيامة عن عبده التائب المحسن ويصلح بينه وبينه، فلا يضيع حق هذا ولا يبطل حق هذا، انتهىٰ.

وبتقدير دخوله فليس بمخلد في النار، خلافًا للخوارج والمعتزلة الذين يخلدونهم

في النار ولو كانوا موحدين، وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ أنه يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وفي قلبه مثقال برة أو خردلة أو ذرة من الإيمان.

ويغفر دون الشرك ربي لمن يشأ ولا مؤمن إلا له كافر فدا

ولم يبق في نار الجحيم موحد ولو قتل النفس الحرام تعمدا

س - ما الذي يؤخذ من هذه الآية الكريمة: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا.... ﴾ إلخ.

ج - في هذه الآية:

أولاً: الوعيد الشديد لمن تعاطى هذا الذنب العظيم.

ثانيًا: إثبات صفة الغضب وهي من الصفات الفعلية.

ثالثًا: اللعن وهي من الصفات الفعلية.

رابعًا: الألوهية ذاتية فعلية.

خامسًا: إثبات صفة الكلام ذاتية فعلية.

سادسًا: الرد على من أنكر هذه الصفات أو أوَّلها بتأويل باطل كالجهمية والمعتزلة والأشاعرة.

سابعًا: تحريم قتل المسلم عمدًا وعدوانًا. وأن القاتل عمدًا خالدًا في نار جهنم.

ثامنًا: أن جهنم حق أعدها الله للكافرين والعاصين ممن أراد تعذيبهم وعقوبتهم.

تاسعًا: فيها دليل على عدل الله بين عباده.

عاشرًا: فيها دليل على البعث والجزاء على الأعمال.

الحادي عشر: فيها دليل على أن العقوبات تتفاوت.

الثاني عشر: فيها دليل على تحريم الاستهانة بأمر الله وحكمه وتوهين أمر دينه بهدم أركان قوته.

الثالث عشر: التحذير من أذية المؤمن.

الرابع عشر: أن الله يعلم كل شيء.

الخامس عشر: لطف الله بخلقه حتىٰ بين لهم عظم ذنب القتل ليجتنبوه ويحذروا منه .

السادس عشر: الخوف من عذاب الله .

السابع عشر: إثبات الأفعال الاختيارية .

الثامن عشر: إثبات صفة الكلام لله .

التاسع عشر: الرد علىٰ من قال إن كلام الله ما في نفس الله وهذا حكاية أو عبارة عنه .

العشرون: عظم هذا الذنب حيث ترتب عليه هذا الوعيد الشديد الذي ترجف منه القلوب وتتصدع له الأفئدة وتنزعج منه أولوا العقول .

الحادي والعشرون: أن الله لا يظلم العباد وإنما العباد هم الذين يظلمون أنفسهم .

الثاني والعشرون: أن من قتل إنسانًا خطأً فليس عليه هذا الوعيد .

الثالث والعشرون: إثبات عدل الله وصفة العدل من الصفات الذاتية .

الرابع والعشرون: إثبات قدرة الله .

الخامس والعشرون: التنبيه علىٰ مراقبة الله في السر والعلانية .

س ـ بين ما تعرفه عن معنى قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ .

ج ـ الإشارة في قوله تعالى: «ذلك»: إلىٰ التوفي المذكور علىٰ هذه الصفة المذكورة من الهول الذي يرونه من أجل أنهم انهمكوا في المعاصي وزينت لهم الشهوات وكرهوا ما يرضيه من الإيمان والتوحيد والطاعة فأحبط ما عملوه من الخير قبل الردة أو الأعمال التي صورتها صورة طاعة من البر والخير كالصدقات والأخذ بيد الضعيف، ومساعدة البائس الفقير، وإغاثة الملهوف إلىٰ نحو ذلك من أنواع الإحسان وإلا فلا عمل لكافر .

س ـ ما الذي يؤخذ من هذه الآية الكريمة؟

ج ـ فيها أولاً: إثبات صفة السخط .

ثانيًا: إثبات صفة الرضا وهي من الصفات الفعلية .

ثالثًا: إثبات العلل والأسباب .

رابعًا: أن الأعمال الصالحة سبب للسعادة .

خامسًا: أن الأعمال السيئة سبب للشقاء .

سادسًا: الرد على من زعم أن لا ارتباط بين العمل والجزاء .

سابعًا: ذم من أحب ما كره الله ، أو كره ما أحبه الله .

ثامنًا: إثبات الألوهية .

تاسعًا: إثبات صفة الكلام .

عاشرًا: الرد على من أنكر شيئًا من هذه الصفات أو أوّلها بتأويل باطل .

الحادي عشر: التحذير مما هو سبب لسخط الله .

الثاني عشر: التحذير من كراهة رضوان الله .

الثالث عشر: الرد على من قال إن كلام الله ما في نفسه وهذا عبارة عنه .

الرابع عشر: أن ما ذكر سبب لإحباط العمل .

الخامس عشر: أن الله لا يظلم الناس ولكن الناس أنفسهم يظلمون .

س - بين ما تعرفه عن معنى قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ ؟

ج - «آسفونا» أي: أغضبونا وأسخطونا بأعمالهم السيئة التي لم يرتدعوا عنها رغم التنبيه وتوالي «انتقمنا منهم» أي: عاقبناهم ، والانتقام هو أن يبلغ في العقوبة حدها .

ومن أسمائه تعالى: «المنتقم كما جاء في حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - الذي رواه الترمذي في «جامعه» في عدد الأسماء الحسنى الثابتة عن النبي ﷺ وإنما جاء في القرآن مقيدًا كقوله تعالى: ﴿ إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾ قال ابن القيم - رحمه الله -:

وحديث إفراد اسم منتقم فمو ... قوف كما قال ذو العرفان

ما جاء في القرآن غير مقيد ... بالمجرمين وجا بدو نوعان

يؤخذ من هذه الآية:

أولاً: صفة الأسف.

ثانيًا: صفة الانتقام ممن عصاه وخالف أمره.

ثالثًا: وفيها التحذير من مخالفة أمر الله وما هو سبب لغضبه.

رابعًا: الرد على من أنكر هذه الصفة.

خامسًا: إثبات صفة الكلام لله.

سادسًا: الرد على من قال إن كلام الله الكلام النفسي وهذا عبارة عنه أو حكاية عنه.

سابعًا: إثبات قدرة الله.

س ـ ما الذي تعرفه عن معنى قوله تعالى: ﴿وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ ؟

ج ـ «الانبعاث»: توجيه الإنسان أو الحيوان إلى الشيء بقوة كبعث الرسل وبعث الموتى «والتثبيط»: التكسيل والتعويق عن الأمر «كره»: أي: أبغض خروجهم معكم إلى الغزو فثبطهم قضاء وقدراً، وإن كان قد أمرهم بالغزو وأقدرهم عليه، ولكن ما أراد إعانتهم بل خذلهم وثبطهم لما في خروجهم من المفاسد التي تترتب عليه، والتي شرع الله في بيانها في الآية التي بعدها بقوله ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم﴾ الآية، ففي الآية:

أولاً: إثبات الكره لله على ما يليق بجلاله وعظمته.

ثانيًا: إثبات الألوهية.

ثالثًا: إثبات الحكمة.

رابعًا: إثبات صفة العلم.

خامسًا: الرد على من أنكر شيئًا من هذه الصفات، أو أولها بتأويل باطل من جهمية أو معتزلة أو قدرية أو نحوهم.

س ـ بين ما تعرفه عن معنى قوله تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عندَ اللَّه أن تَقُولُوا ما لا تفعلون﴾؟

ج ـ «كبر» عظم «مقتًا» المقت: أشد البغض، أي عظم ذلك في المقت والبغض عند الله، أي أن الله يبغض بغضًا شديدًا، ﴿أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ﴾: أن تعدوا من أنفسكم شيئًا ثم لم تفوا به.

وذلك أن الوفاء بالوعد دليل على كريم الشيم وجميل الخصال، وبه تكون الثقة بين الجماعات فترتبط برباط المودة والمحبة حين يتعامل بعض أفرادها مع بعض ويكونون يدًا واحدة فيما انتووا من الأعمال.

والعكس بالعكس فإذا فشا في أمة خلف الوعدَ قلَّت الثقة بين أفرادها، وانحلت عرى الروابط بينهم، وأصبحوا عقدًا منتثرًا لا ينتفع به ولا يخشى منهم عدو إذا اشتدت الأزمات وعظمت الخطوب، لما يكون بينهم من التواكل وعدم ائتمان بعضهم بعضا.

والكتاب والسنة ورد فيهما الكثير في أن يكون المسلم صادق الوعد ظاهره كباطنه مطابق قوله فعله يزيد ذلك توكيدًا قوله تعالى منددًا باليهود: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ الآية ويقول منددًا بالمنافقين: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ﴾.

ويقول ﷺ: «**آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف**» الحديث وروى الإمام أحمد وأبو داود عن عبد الله بن عامر بن ربيعة قال: «أتانا رسول الله ﷺ وأنا صبي فذهبت لأخرج لألعب فقالت أمي يا عبد الله تعالى أعطك فقال لها رسول الله ﷺ «**ما أردت أن تعطيه فقالت تمرًا فقال أما إنك لو لم تفعلي كُتِبت عليك كذبة**».

وامتنع الإمام أحمد رضي الله عنه من الرواية من رجل سافر إليه من مسافة شاسعة ليأخذ عنه حديثًا حينما وجده يضم حجره ويدعو بغلته يوهمها بطعام وحجره فارغ فتحرج أن يروي عنه وقد كذب على بغلته ففي الآية:

أولاً: إثبات صفة المقت.

ثانيًا: أن مقته يتفاوت.

ثالثًا: إثبات الألوهية.

رابعًا: الحث على الوفاء بالعهد.

خامساً: النهي عن الخلف في الوعد.

سادسًا: أن الشخص قد يكون عدوًا لله ثم يصير وليًا، وقد يبغضه الله ثم يحبه.

سابعًا: إثبات الكلام.

ثامنًا: الحث على الصدق.

تاسعًا: الحث على الاستقامة وأن يكون باطن المؤمن كظاهره وأن يطابق فعله قوله.

عاشرًا: النهي عن الكذب.

الحادي عشر: الحث على معالي الأخلاق والنهي عن سفسافها.

الثاني عشر: الخوف مما هو سبب لمقت الله.

الثالث عشر: لطف الله بخلقه حيث بين لهم ما هو سبب لمقته ليحذروه.

الرابع عشر: التحذير عن الغش لأنه خلاف الصدق.

الخامس عشر: الرد على من قال إن كلام الله ما في نفسه لا ما تكلم به وأن ما تكلم به عباده حكاية عن كلامه.

* * *



صفة المجيء والإتيان

وقوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ﴾ [البقرة: ٢١٠].

وقوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨].

وقوله: ﴿كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (٢١) وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢١، ٢٢].

وقوله: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنزِيلاً﴾ [الفرقان: ٢٥].

• الشَّرح •

● قال الشيخ محمد خليل هراس:

قوله: «﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾»: في هذه الآيات إثبات صفتين من صفات الفعل له سبحانه وهما صفتا الإتيان والمجيء، والذي عليه أهل السنة والجماعة الإيمان بذلك على حقيقته والابتعاد عن التأويل الذي هو في الحقيقة إلحاد وتعطيل.

ولعل من المناسب أن ننقل إلى القارئ هنا ما كتبه حامل لواء التهجم والتعطيل في هذا العصر وهو المدعو بزاهد الكوثري.

قال في حاشيته على كتاب «الأسماء والصفات» للبيهقي ما نصه:

«قال الزمخشري ما معناه: إن الله يأتي بعذاب في الغمام الذي ينتظر منه الرحمة، فيكون مجيء العذاب من حيث تنتظر الرحمة أفظع وأهول»:

وقال إمام الحرمين في معنى الباء كما سبق: وقال الفخر الرازي: أن يأتيهم أمر الله. اهـ.

فأنت ترى من نقل هذا الرجل عن أسلافه في التعطيل مدى اضطرابهم في التخريج والتأويل.

على أن الآيات صريحة في بابها لا تقبل شيئًا من تلك التأويلات فالآية الأولى تتوعد هؤلاء المصرين على كفرهم وعنادهم واتباعهم للشيطان بأنهم ما ينتظرون إلا أن يأتيهم الله عز وجل في ظلل من الغمام لفصل القضاء بينهم، وذلك يوم القيامة، ولهذا قال بعد ذلك: ﴿وَقُضِيَ الأَمْرُ﴾ والآية الثانية أشد صراحة إذ لا يمكن تأويل الإتيان فيها بأنه إتيان الأمر أو العذاب؛ لأنه ردد فيها بين إتيان الملائكة وإتيان الرب وإتيان بعض آيات الرب سبحانه.

وقوله في الآية التي بعدها: «﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾» لا يمكن حملها على مجيء العذاب؛ لأن المراد مجيئه سبحانه يوم القيامة لفصل القضاء، والملائكة صفوف إجلالاً وتعظيمًا له، وعند مجيئه تنشق السماء بالغمام كما أفادته الآية الأخيرة. وهو سبحانه يجيء ويأتي وينزل ويدنو وهو فوق عرشه بائن من خلقه. فهذه كلها أفعال له سبحانه على الحقيقة، ودعوى المجاز تعطيل له عن فعله واعتقاد أن ذلك المجيء والإتيان من جنس مجيء المخلوقين وإتيانهم نزوع إلى التشبيه يفضي إلى الإنكار والتعطيل.

● قال الشيخ محمد بن صالح العثيمين:

ذكر المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ لإثبات صفة المجيء والإتيان آيات أربع.

الآية الأولى: قوله: ﴿**هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلآئِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ**﴾ [البقرة: ٢١٠].

قوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾: ﴿**هَلْ**﴾: استفهام بمعنى النفي؛ يعني: ما ينظرون، وكلما وجدت (إلا) بعد الاستفهام؛ فالاستفهام يكون للنفي. هذه قاعدة؛ قال النبي

عليه الصلاة والسلام: «هل أنت إلا أصبع دميت»(١)؛ أي: ما أنت.

ومعنى: ﴿يَنظُرُونَ﴾ هنا: ينظرون؛ لأنها لم تتعد بـ(إلى)؛ فلو تعدت بـ(إلى) لكان معناها النظر بالعين غالبًا، أما إذا تعدت بنفسها؛ فهي بمعنى: ينتظرون. أي: ما ينتظر هؤلاء المكذبون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام، وذلك يوم القيامة.

﴿يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ﴾: و﴿فِي﴾: هنا بمعنى (مع)؛ فهي للمصاحبة، وليست للظرفية قطعًا؛ لأنها لو كانت للظرفية؛ لكانت الظلل محيطة بالله، ومعلوم أن الله تعالى واسع عليم، ولا يحيط به شيء من مخلوقاته.

فـ ﴿فِي ظُلَلٍ﴾؛ أي: مع الظلل؛ فإن الله عند نزوله جل وعلا للفصل بين عباده ﴿تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ﴾ [الفرقان: ٢٥]: غمام أبيض؛ ظلل عظيمة؛ لمجيء الله تبارك وتعالى.

وقوله: ﴿فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ﴾: الغمام؛ قال العلماء: إنه السحاب الأبيض؛ كما قال تعالى ممتنًا على بني إسرائيل: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾ [البقرة: ٥٧]، والسحاب الأبيض يُبقي الجو مستنيراً؛ بخلاف الأسود والأحمر؛ فإنه تحصل به الظلمة، وهو أجمل منظراً.

وقوله: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾: الملائكة بالرفع معطوف على لفظ الجلالة الله؛ يعني: أو تأتيهم الملائكة، وسبق بيان اشتقاق هذه الكلمة، ومن هم الملائكة.

والملائكة تأتي يوم القيامة؛ لأنها تنزل في الأرض؛ ينزل أهل السماء الدنيا، ثم الثانية، ثم الثالثة، ثم الرابعة، وهكذا.. إلى السابعة؛ يحيطون بالناس.

وهذا تحذير من هذا اليوم الذي يأتي على هذا الوجه؛ فهو مشهد عظيم من مشاهد يوم القيامة، يحذر الله به هؤلاء المكذبين.

الآية الثانية: قوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨].

نقول في ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ ما قلناه في الآية السابقة؛ أي: ما ينتظر هؤلاء إلا

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٨٠٢) ومسلم (١٧٩٦) من حديث جندب بن عبد الله ـ رضي الله عنه.

واحدة من هذه الأحوال:

أولا: ﴿إِلاَّ أَن تَأْتِيهُمُ الْمَلآئِكَةُ﴾؛ أي: لقبض أرواحهم؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُواْ الْمَلآئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الأنفال: ٥٠].

ثانيًا: ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ يوم القيامة للقضاء بينهم.

ثالثًا: ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾: وهذه طلوع الشمس من مغربها، فسرها بذلك النبي ﷺ[1].

وإنما ذكر الله هذه الأحوال الثلاث:

لأن الملائكة إذا نزلت لقبض أرواحهم؛ لا تقبل منهم التوبة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ﴾ [النساء: ١٨].

وكذلك أيضًا إذا طلعت الشمس من مغربها؛ فإن التوبة لا تقبل، وحينئذ لا يستطيعون خلاصا مما هم عليه.

وذكر الحالة الثالثة بين الحالين؛ لأنه وقت الجزاء وثمرة العمل؛ فلا يستطيعون التخلص في تلك الحال مما عملوه.

والغرض من هذه الآية والتي قبلها تحذير هؤلاء المكذبين من أن يفوتهم الأوان ثم لا يستطيعون الخلاص من أعمالهم.

الآية الثالثة: قوله: ﴿كَلا إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا * وَجَاء رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢١، ٢٢].

﴿كَلا﴾: هنا للتنبيه؛ مثل (ألا).

وقوله: ﴿إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾: هذا يوم القيامة.

وأكد هذا الدك لعظمته؛ لأنها تدك الجبال والشعاب وكل شيء يدك، حتى تكون الأرض كالأديم، والأديم هو الجلد؛ قال الله تعالى: ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لا تَرَى

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٦٣٥) ومسلم (١٥٧) من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

فيها عوجًا ولا أمتًا ﴾ [طه: ١٠٦، ١٠٧]. ويحتمل أن يكون تكرار الدك تأسيسًا لا تأكيدًا، ويكون المعنى: دكًا بعد دك.

قال: ﴿وجاء ربك والملك صفًا صفًا﴾: ﴿وجاء ربك﴾؛ يعني: يوم القيامة، بعد أن تدك الأرض وتسوى ويحشر الناس يأتي الله للقضاء بين عباده.

وقوله: ﴿والملك﴾: (ال) هنا للعموم؛ يعني: وكل ملك؛ يعني: الملائكة ينزلون في الأرض.

﴿صفًا صفًا﴾: أي: صفًا من وراء صف؛ كما جاء في الأثر: **«تنزل ملائكة السماء الدنيا فيصفون، ومن ورائهم ملائكة السماء الثانية، ومن ورائهم ملائكة السماء الثالثة»** وهكذا.

الآية الرابعة: قوله: ﴿ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا﴾ [الفرقان: ٢٥].

يعني: اذكر يوم تشقق السماء بالغمام.

و﴿تشقق﴾: أبلغ من تنشق؛ لأن ظاهرها تشقق شيئًا فشيئًا، ويخرج هذا الغمام، يثور ثوران الدخان، ينبعث شيئًا فشيئًا.

تشقق السماء بالغمام؛ مثل ما يقال: تشقق الأرض بالنبات؛ يعني: يخرج الغمام من السماء ويثور متتابعًا وذلك لمجيء الله عز وجل للفصل بين عباده؛ فهو يوم رهيب عظيم.

قوله: ﴿ونزل الملائكة تنزيلا﴾: ينزلون من السماوات شيئًا فشيئًا، تنزل ملائكة السماء الدنيا، ثم الثانية، ثم الثالثة.... وهكذا.

وهذه الآية في سياقها ليس فيها ذكر مجيء الله، لكن فيها الإشارة إلى ذلك؛ لأن تشقق السماء بالغمام إنما يكون لمجيء الله تعالى؛ بدليل الآيات السابقة.

هذه أربع آيات ساقها المؤلف ـ رحمه الله ـ لإثبات صفة من صفات الله، وهي: المجيء والإتيان.

أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٦/ ٥٦٩ ـ ٥٧٠) والدارمي في «الرد على الجهمية». (١٤٣، ١٤٣).

وأهل السنة والجماعة يثبتون أن الله يأتي بنفسه هو؛ لأن الله تعالى ذكر ذلك عن نفسه، وهو سبحانه أعلم بنفسه وبغيره وأصدق قيلا من غيره وأحسن حديثًا؛ فكلامه مشتمل على أكمل العلم والصدق والبيان والإرادة؛ فالله عز وجل يريد أن يبين لنا الحق وهو أعلم وأصدق وأحسن حديثًا.

لكن يبقى السؤال: هل نعلم كيفية هذا المجيء؟.

الجواب: لا نعلمه؛ لأن الله سبحانه وتعالى أخبرنا أنه يجيء، ولم يخبرنا كيف يجيء؛ ولأن الكيفية لا تعلم إلا بالمشاهدة أو مشاهدة النظير أو الخبر الصادق عنها، وكل هذا لا يوجد في صفات الله تعالى، ولأنه إذا جهلت الذات؛ جهلت الصفات، أي: كيفيتها؛ فالذات موجودة وحقيقية ونعرفها ونعرف ما معنى الذات وما معنى النفس، وكذلك نعرف ما معنى المجيء، لكن كيفية الذات أو النفس وكيفية المجيء غير معلوم لنا.

فنؤمن بأن الله يأتي حقيقة وعلى كيفية تليق به مجهولة لنا.

مخالفوا أهل السنة والجماعة والرد عليهم:

وخالف أهل السنة والجماعة في هذه الصفة أهل التحريف والتعطيل؛ فقالوا: إن الله لا يأتي؛ لأنك إذا أثبت أن الله يأتي؛ ثبت أنه جسم، والأجسام متماثلة!.

فنقول: هذه دعوى وقياس باطل؛ لأنه في مقابلة النص، وكل شيء يعود إلى النص بالإبطال؛ فهو باطل؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤].

فإذا قلت: إن هذا الذي عاد إلى النص بالإبطال هو الحق؛ صار النص باطلا ولابد، وبطلان النص مستحيل. وإن قلت: إن النص هو الحق؛ صار هذا باطلا ولابد!

ثم نقول: ما المانع من أن يأتي الله تعالى بنفسه على الكيفية التي يريدها؟ يقولون: المانع أنك إذا أثبت ذلك؛ فأنت ممثل.

نقول: هذا خطأ؛ فإننا نعلم أن المجيء والإتيان يختلف حتى بالنسبة للمخلوق؛ فالإنسان النشيط الذي يأتي كأنما ينحدر من مرتفع من نشاطه، لكنه ليس يمشي

مرحًا، وإن شئت؛ فقل: إنه يمشي مرحًا: هل هذا كالإنسان الذي يمشي على عصا ولا ينقل رجلا من مكانها إلّا بعد تعب.

والإتيان يختلف من وجه آخر؛ فإتيان إنسان مثلا من كبراء البلد أو من ولاة الأمور ليس كإتيان شخص لا يحتفي به.

ماذا يقول المعطل في قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: ٢٢]. ونحوها؟

الجواب: يقول: المعنى جاء أمر ربك، وأتى أمر ربك؛ لأن الله تعالى قال: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١]؛ فيجب أن نفسر كل إتيان أضافه الله إلى نفسه بهذه الآية، ونقول: المراد: أتى أمر الله.

فيقال: إن هذا الدليل الذي استدللت به هو دليل عليك وليس لك! لو كان الله تعالى يريد إتيان أمره في الآيات الأخرى؛ فما الذي يمنعه أن يقول: أمره؟! فلما أراد الأمر، عبر بالأمر، ولما لم يرده؛ لم يعبر به.

وهذا في الواقع دليل عليك؛ لأن الآيات الأخرى ليس فيها إجمال حتى نقول: إنها بينت بهذه الآية. فالآيات الأخرى واضحة، وفي بعضها تقسيم يمنع إرادة مجيء الأمر: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيهُمُ الْمَلاَئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨]؛ هل يستقيم لشخص أن يقول: ﴿يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾؛ أي: أمره في مثل هذا التقسيم؟!

فإذا قال قائل: ما تقولون في قوله تعالى: ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ﴾ [المائدة: ٥٢].

فالجواب: أن المراد بذلك إتيان الفتح أو الأمر، لكن أضاف الله الإتيان به إلى نفسه؛ لأنه من عنده؛ وهذا أسلوب معروف في اللغة العربية؛ فالإتيان إذا قيد بحرف جر مثلا؛ فالمراد به ذلك المجرور، وإذا أطلق وأضيف إلى الله بدون قيد؛ فالمراد به إتيان الله حقيقة.

الآداب المسلكية المستفادة من الإيمان بصفة المجيء والإتيان لله تعالى:

الثمرة هي الخوف من هذا المقام وهذا المشهد العظيم الذي يأتي فيه الرب عز وجل للفصل بين عباده وتنزل الملائكة، ولا يبقى أمامك إلا الرب عز وجل والمخلوقات

كلها؛ فإن عملت خيراً؛ جوزيت به، وإن عملت سوىٰ ذلك؛ فإنك ستجزىٰ به؛ كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**إن الإنسان يخلو به الله عز وجل، فينظر أيمن منه؛ فلا يرى إلا ما قدم، وينظر أشأم منه؛ فلا يرى إلا ما قدم، وينظر تلقاء وجهه؛ فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه؛ فاتقوا النار، ولو بشق تمرة**»(١).

فالإيمان بمثل هذه الأشياء العظيمة لا شك أنه يولد للإنسان رهبة وخوفًا من الله سبحانه وتعالىٰ واستقامة علىٰ دينه.

● قال الشيخ صالح بن عبد الله الفوزان:

﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ هذا تهديد للكفار التاركين للدخول في السلم ـ أي: الإسلام ـ المتبعين لخطوات الشيطان، ومعنىٰ ﴿يَنظُرُونَ﴾: ينتظرون، يقال: نظرته وانتظرته بمعنىٰ واحد ﴿إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ﴾ ذاته سبحانه لفصل القضاء بينهم يوم القيامة، فيجازي كل عامل بعمله.

﴿فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ﴾ الظلل: جمع ظلة، وهي ما يظلك، والغمام: السحاب الرقيق الأبيض، سمي بذلك؛ لأنه يغم، أي: يستر ﴿وَالْمَلائِكَةُ﴾ أي: والملائكة يجيئون في ظلل من الغمام، ﴿وَقُضِيَ الأَمْرُ﴾ أي: فرغ من الأمر الذي هو إهلاكهم.

وقوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ﴾ أي: لقبض أرواحهم، ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ أي: بذاته سبحانه لفصل القضاء بين العباد، ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ وهو طلوع الشمس من مغربها، وذلك أحد أشراط الساعة الكبار إذا وقع أغلق باب التوبة فلا تقبل.

وقوله: ﴿كَلاَّ﴾ حرف ردع وزجر عما ذكر قبلها، أي: ما هكذا ينبغي أن يكون عملكم من عدم إكرام اليتيم وعدم الحض علىٰ طعام المسكين، وأكل التراث، وحب المال بكثرة شديدة ﴿إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ أي: زلزلت وحركت تحريكًا بعد تحريك، حتىٰ انهدم كل ما عليها من بناء، وعاد هباءً منبثًا، ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ بذاته سبحانه لفصل القضاء بين عباده، ﴿وَالْمَلَكُ﴾ أي: جنس الملائكة، ﴿صَفًّا صَفًّا﴾

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٧٥١٢) ومسلم (١٠١٦) من حديث عدي بن حاتم ـ رضي الله عنه.

منصوب على الحال، أي: مصطفين صفًا بعد صف، قد أحدقوا بالجن والإنس، كل أهل سماء يكونون صفًا واحدًا بالأرض ومن فيها فيكونون سبعة صفوف.

وقوله: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ﴾ أي: يوم القيامة، ﴿تَشَقَّقُ السَّمَاءُ﴾ أي: تنفطر وتنفرج، ﴿بِالْغَمَامِ﴾ الذي هو ظلل النور العظيم الذي يبهر الأبصار، ﴿وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنزِيلاً﴾ إلى الأرض فيحيطون بالخلائق في مقام المحشر ثم يجيء الرب لفصل القضاء بين عباده.

الشاهد من الآيات: أنها أفادت إثبات المجيء والإتيان لله يوم القيامة بذاته على ما يليق بجلاله لفصل القضاء بين عباده، ومجيئه وإتيانه سبحانه من صفاته الفعلية يجب إثباتهما على حقيقتهما، ولا يجوز تأويلهما بمجيء أو إتيان أمره كما يفعله نفاة الصفات، فيقولون: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ أي: جاء أمره، وهذا من تحريف آيات الله.

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: والإتيان والمجيء المضاف إليه سبحانه نوعان: مطلق ومقيد، فإذا كان المراد مجيء رحمته أو عذابه ونحو ذلك قيد بذلك، كما في الحديث «**حتى جاء الله بالرحمة والخير**»[1]، وقوله: ﴿**وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ**﴾.

النوع الثاني: الإتيان والمجيء المطلق فهذا لا يكون إلا مجيئه سبحانه، كقوله: ﴿**هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ**﴾، وقوله: ﴿**وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا**﴾ اهـ.

* * *

(١) لم أقف عليه.

[أسئلة وأجوبة نموذجية على صفة المجيء والإتيان]

● قال الشيخ عبد العزيز المحمد السلمان:

س ـ ما الذي تفهمه عن معنى قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ﴾؟

ج ـ «هل»: حرف استفهام، «ينظرون»: ينتظرون، «الظلل»: جمع ظلة وهي ما يظلك «الغمام»: السحاب الرقيق الأبيض، سمي بذلك لأنه يغم أي يستر، «قضي الأمر» أي: فرغ منه.

يقول تعالى: هل ينظر الكفار الساعون في الأرض بالفساد التاركون الدخول في السلم المتبعون لخطوات الشيطان النابذون لأمر الله إلا يوم الجزاء بالأعمال الذي قد مُلِئَ من الأهوال والشدائد والفظائع التي تقلقل قلوب الظالمين.

وذلك أن الله تعالى يطوي السموات وتنتثر الكواكب وتكور الشمس وتنزل الملائكة فتحيط بالخلائق وينزل الجبار في ظلل من الغمام للفصل بالقضاء بين العباد بالعدل.

قال القحطاني ـ رحمه الله ـ:

والله يومئذ يجيء لعرضنا ... مع أنه في كل وقت دان

والأشعري يقول يأتي أمره ... ويعيب وصف الله بالإتيان

س ـ ما الذي يؤخذ من هذه الآية الكريمة؟

ج ـ فيها أولاً: دليل لمذهب السلف المثبتين للصفات الاختيارية.

ثانيًا: الاتيان على ما يليق بجلاله وعظمته.

ثالثًا: فيها تخويف ووعيد وتهديد لمن كفر بالله وعصاه.

رابعًا: إثبات البعث والحساب والجزاء على الأعمال.

خامسًا: الرد على من أنكر هذه الصفة أو أولها بتأويل باطل كالجهمية والمعتزلة والأشاعرة.

سادسًا: إثبات الألوهية.

سابعًا: فيها دليل على علو الله تعالى على خلقه.

ثامنًا: إتيان الملائكة في ظلل من الغمام.

تاسعًا: فيها دليل على تحقيق ما أخبر الله به.

عاشرًا: إثبات قدرة الله.

الحادي عشر: إثبات صفة الكلام لله.

الثاني عشر: إثبات الربوبية.

الثالث عشر: الرد على من قال أن القرآن كلام محمد ﷺ.

الرابع عشر: الرد على من قال إن كلام الله هو المعنى النفسي.

س ـ بين ما تعرفه عن معنى قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾؟

ج ـ يقول تعالى: هل ينظر الذين استمروا في ظلمهم وعنادهم إلا أن تأتيهم الملائكة لقبض أرواحهم، وعند ذلك لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل، أو يأتي ربك لفصل القضاء بين العباد ولمجازات المحسنين والمسيئين أو يأتي بعض آيات ربك الدالة على قرب الساعة وهي طلوع الشمس من مغربها. وتتفق هذه الآية والتي قبلها في أكثر الفوائد.

ومما يستنبط هذه الآية الكريمة الدالة على الإتيان من الفوائد أنه سبحانه قسم ونوع ففرق بين إتيان الرب، وإتيان الملائكة، وإتيان بعض آيات الرب.

وفيها إثبات الربوبية الخاصة.

وفيها إثبات قدرة الله وهي من الصفات الذاتية.

وفيها دليل على أهوال يوم القيامة والحث على الاستعداد للموت.

وفيها دليل على عظمة الله وجلاله وكبريائه.

وفيها الرد على من قال إن كلام الله هو المعنى النفسي .

وفيها الرد على من قال إن القرآن كلام محمد ﷺ . وإذا أردت زيادة فانظر ما في الأولى لاتفاقهما في كثير من الفوائد .

س ـ ما هي أنواع الإتيان والمجيء المضافين إلى الله تعالى؟

ج -الإتيان والمجيء المضاف إلى الله نوعان : مطلق ومقيد ، فإذا كان مجيء رحمته وعذابه ونحو ذلك قيد بذلك كما في الحديث حتى «جاء الله بالرحمة والخير» وكقوله ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ .

والنوع الثاني:الإتيان والمجيء المطلق فهذا لا يكون إلا مجيئه سبحانه ، كقوله : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ ﴾ وقوله : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ .

س ـ بين ما تعرفه عن معنى قوله تعالى: ﴿ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (٢١) وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ واذكر ما يؤخذ منها؟

ج ـ الدكُّ: حط المرتفع بالبسط والتسوية ، ومنه اندك سنام البعير إذا انغرس في ظهره . «دكا دكا» أي : دكًا بعد دك . وجاء ربك لفصل القضاء ، و «الملك» أي : جنس الملائكة «صفًّا صفًّا» أي : يصفون صفًّا بعد صف .

يؤخذ من هذه الآية:

١ -إثبات صفة المجيء على ما يليق بجلاله وعظمته .

٢ -وفيها دليل على البعث وما يكون بعده .

٣ -والحساب والحشر والصراط والميزان والحوض .

٤ -والجزاء على الأعمال خيراً أوشراً .

٥ -وفيها دليل على علو الله على خلقه .

٦ -وفيها دليل على إتيان الملائكة .

٧ -حث على الزهد في الدنيا والإقبال على الآخرة .

٨ -إثبات الربوبية الخاصة .

٩ -إثبات قدرة الله .

١٠ ـ دليل على تغير الأرض.

١١ ـ رد على من قال إن القرآن كلام محمد ﷺ.

١٢ ـ إثبات صفة الكلام.

١٣ ـ الرد على من أنكر المجيء.

س ـ بين ما تعرفه عن معنى قوله تعالى: ﴿ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا﴾ واذكر ما يؤخذ منها؟

ج ـ يخبر تعالى عن عظمة يوم القيامة وما فيه من الشدة والكروب ومزعجات القلوب فقال: واذكر يوم تشقق السماء بالغمام وتنفتح عنه، وذلك الغمام ينزل الله فيه من فوق سمواته وتنزل الملائكة ويحيطون بالخلائق في مقام المحشر.

ففي هذه الآية إثبات المجيء لله، والنزول، ونفس الدليل من الآية على نزول الله لفصل القضاء بين عباده، هو أن تشقق السماء بالغمام إيذانًا بنزول الله لأن التشقق مقدمة لنزول الله، والنزول والمجيء بذاته سبحانه على ما يليق بجلاله وعظمته كما هو المتبادر في النصوص، وأفعاله سبحانه قائمة به، فيجب إثباتها على الوجه اللائق بجلاله وعظمته.

١ ـ وفيها إثبات البعث والحساب والحشر والجزاء على الأعمال.

٢ ـ وفيها الحث على الاستعداد لذلك اليوم.

٣ ـ وفيها دليل على نزول الملائكة.

٤ ـ ودليل على تشقق السماء واختلالها.

٥ ـ في الآية ما يدل على أهوال القيامة.

٦ ـ في الآية رد على من قال أن لا سماء إنما هو فضاء كما ترد عليه آية تبارك ﴿هل ترىٰ من فُطُورٍ﴾ وآية الذاريات ﴿والسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بأَيْدٍ﴾ وآية الانشقاق ﴿إذا السَّماءُ انشقَّتْ﴾ وآية الانفطار ﴿إذَا السَّماءُ انفطَرَتْ﴾ وآية الرحمن ﴿فَإذَا انشقَّت السَّماءُ فكَانَتْ ورْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ وآية التكوير ﴿وإذَا السَّماءُ كُشطَتْ﴾ وآية قل أوحي ﴿وأنَّا لَمسْنَا السَّماءَ﴾ الآية وحديث الإسراء والمعراج وفيه «قال جبريل لخازن السماء: افتح» الحديث رواه

البخاري.

س ـ بماذا يرد على من أوَّل النزول بنزول الأمر، والمجيء بمجيء الأمر؟

ج ـ ذكر الإمام المحقق ابن القيم ـ رحمه الله ـ على قوله تعالى «وجاء» وقوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ﴾ وقوله: ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ قيل: إنه من مجاز الحذف تقديره: وجاء أمر ربك، وهذا باطل من وجوه:

أحدها: أنه إضمار ما لا يدل عليه اللفظ بمطابقة ولا تضمن ولا التزام، وادعاء حذف «ما» لا دليل عليه يرفع الوثوق من الخطاب ويطرق كل مبطل على إدعاء إضمار «ما» يصحح باطله.

الثاني: أن صحة التركيب واستقامة اللفظ لا تتوقف على هذا المحذوف، بل الكلام مستقيم تام قائم المعنى بدون إضمار، فإضماره مجرد خلاف الأصل فلا يجوز.

ثالثًا: أنه إذا لم يكن في اللفظ دليل على تعيين قول على المتكلم بلا علم وإخبار عنه بإرادة «ما» لم يقم دليل على إرادته وذلك كذب عليه.

رابعًا: في السياق ما يبطل هذا التقدير وهو قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ﴾ فعطف مجيء الملك على مجيئه سبحانه يدل على تغاير المجيئين، وأن مجيئه حقيقة كما أن مجيء الملك حقيقة، بل مجيء الرب أولى أن يكون حقيقة من مجيء الملك.

وكذلك قوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ ففرق بين إتيان الرب وإتيان بعض آيات الرب فقسم ونوع، ومع هذا التقسيم يمتنع أن يكون القسمان واحداً فتأمله. وذكر وجوهًا يطول ذكرها.

قال: وأما من قال: يأتي أمره وينزل رحمته فإن أراد أنه سبحانه إذا نزل وأتى حلت رحمته وأمره، فهذا حق وإن أراد أن النزول والمجيء والإتيان للرحمة والأمر ليس إلا ذلك، فهو باطل من وجوه عديدة قد تقدمت.

ونزيدها وجوهًا أخر منها أن يقال: أتريدون رحمته وأمره، صفته القائمة بذاته، أم مخلوقًا منفصلاً سميتوه رحمة وأمرًا؟ فإن أردتم الأول فنزوله يستلزم نزول الذات

ومجيئها قطعًا. وإن أردتم الثاني، كان الذي ينزل ويأتي لفصل القضاء، مخلوقًا محدثًا لا رب العالمين، وهذا معلوم البطلان قطعًا، وهو تكذيب صريح، فإنه يصح معه أن يقال: لا ينزل إلى السماء الدنيا ويأتي لفصل القضاء، وإنما ينزل ويأتي غيره.

ومنها: كيف يصح أن يقول ذلك المخلوق لا أسأل عن عبادي غيري. ويقول من يستغفرني فأغفر له، ونزول رحمته وأمره مستلزم لنزوله سبحانه ومجيئه، وإثبات ذلك للمخلوق مستلزم للباطل الذي لا يجوز نسبته إليه سبحانه مع رد خبره صريحًا.

ومنها: أن نزول رحمته وأمره لا يختص بالثلث الأخير، ولا بوقت دون وقت ينزل أمره فلا تنقطع رحمته، ولا أمره عن العالم العلوي والسفلي طرفة عين. انتهى من مختصر الصواعق.

* * *



صفة الوجه واليدين والعينين

وقوله: ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧].

﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨].

وقوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥].

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [المائدة: ٦٤].

وقوله: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [الطور: ٤٨].

﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (١٣) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ [القمر: ١٣-١٤].

﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ [طه: ٣٩].

• الشَّرح •

• قال الشيخ محمد خليل هراس:

قوله: ﴿ ويبقى وجه ربك ﴾ إلخ: تضمنت هاتان الآيتان إثبات صفة الوجه لله عز وجل.

والنصوص في إثبات الوجه من الكتاب والسنة لا تحصىٰ كثرة وكلها تنفي تأويل المعطلة الذين يفسرون الوجه بالجهة أو الثواب أو الذات، والذي عليه أهل الحق أن الوجه صفة غير الذات ولا يقتضي إثباته كونه تعالىٰ مركبًا من أعضاء كما يقوله

المجسمة، بل هو صفة لله على ما يليق به، فلا يشبه وجهًا ولا يشبهه وجه.

واستدل المعطلة بهاتين الآيتين على أن المراد بالوجه الذات إذ لا خصوص للوجه في البقاء وعدم الهلاك.

ونحن نعارض هذا الاستدلال بأنه لو لم يكن لله عز وجل وجه على الحقيقة لما جاز استعمال هذا اللفظ في معنى الذات فإن اللفظ الموضوع لمعنى لا يمكن أن يستعمل في معنى آخر إلا إذا كان المعنى الأصلي ثابتًا للموصوف حتى يمكن للذهن أن ينتقل من الملزوم إلى لازمه، على أنه يمكن دفع مجازهم بطريق آخر فيقال: إنه أسند البقاء إلى الوجه، ويلزم منه بقاء الذات بدلاً من أن يقال: أطلق الوجه وأراد الذات. وقد ذكر البيهقي نقلاً عن الخطابي أنه تعالى لما أضاف الوجه إلى الذات وأضاف النعت إلى الوجه فقال: ﴿**ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام**﴾ دل على أن ذكر الوجه ليس بصلة وأن قوله: ذو الجلال والإكرام صفة للوجه والوجه صفة للذات.

وكيف يمكن تأويل الوجه بالذات أو بغيرها في مثل قوله عليه السلام في حديث الطائف: «**أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات**»[1] إلخ وقوله فيما رواه أبو موسى الأشعري: «**حجابه النور - أو النار - لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه**»[2].

قوله: ﴿ما منعك﴾ إلخ: تضمنت هاتان الآيتان إثبات اليدين صفة حقيقية له سبحانه على ما يليق به، فهو في الآية الأولى يوبخ إبليس على امتناعه عن السجود لآدم الذي خلقه بيديه، ولا يمكن حمل اليدين هنا على القدرة، فإن الأشياء جميعًا حتى إبليس خلقها الله بقدرته فلا يبقى لآدم خصوصية يتميز بها.

وفي حديث عبد الله بن عمرو: «**إن الله عز وجل خلق ثلاثة أشياء بيده: خلق آدم بيده وكتب التوراة بيده وغرس جنة عدن بيده**»[3] فتخصيص هذه الثلاثة بالذكر مع مشاركتها لبقية المخلوقات في وقوعها بالقدرة دال على اختصاصها بأمر زائد.

وأيضًا فلفظ اليدين بالتثنية لم يعرف استعماله إلا في اليد الحقيقية ولم يرد قط

---

(١) ضعيف: ضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (١١٨٢).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (١٧٩).

(٣) «تفسير ابن جرير» (١٨/ ١).

بمعنى القدرة أو النعمة فإنه لا يسوغ أن يقال خلقه الله بقدرتين أو بنعمتين، على أنه لا يجوز إطلاق اليدين بمعنى النعمة أو القدرة أو غيرهما إلا في حق من اتصف باليدين على الحقيقة، ولذلك لا يقال للريح يد ولا للماء يد.

وأما احتجاج المعطلة بأن اليد قد أفردت في بعض الآيات وجاءت بلفظ الجمع في بعضها فلا دليل فيه، فإن ما يصنع بالاثنين قد ينسب إلى الواحد، تقول: رأيت بعيني وسمعت بأذني والمراد عيناي وأذناي وكذلك الجمع يأتي بمعنى المثنى أحيانًا كقوله تعالى: ﴿**إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما**﴾ والمراد قلباكما.

وكيف يتأتى حمل اليد على القدرة أو النعمة مع ما ورد من إثبات الكف والأصابع واليمين والشمال والقبض والبسط وغير ذلك مما لا يكون إلا لليد الحقيقية.

وفي الآية الثانية يحكي الله سبحانه مقالة اليهود - قبحهم الله - في ربهم ووصفهم إياه حاشاه بأن يده مغلولة أي: ممسكة عن الإنفاق.

ثم أثبت لنفسه سبحانه عكس ما قالوا، وهو أن يديه مبسوطتان بالعطاء ينفق كيف يشاء، كما جاء في الحديث: «**إن يمين الله ملأى سحاء الليل والنهار لا تغيضها نفقة**»[1].

ترى لو لم يكن لله يدان على الحقيقة هل كان يحسن هذا التعبير ببسط اليدين.

ألا شاهت وجوه المتأولين.

قوله: ﴿فاصبر لحكم ربك...﴾ إلخ: في هذه الآيات الثلاث يثبت الله سبحانه لنفسه عينًا يرى بها جميع المرئيات، وهي صفة حقيقية لله عز وجل على ما يليق به فلا يقتضي إثباتها كونها جارحة مركبة من شحم وعصب وغيرهما.

وتفسير المعطلة لها بالرؤية أو بالحفظ والرعاية نفي وتعطيل وأما إفرادها في بعض النصوص وجمعها في البعض الآخر فلا حجة لهم فيه على نفيها، فإن لغة العرب تتسع لذلك، فقد يعبر فيها عن الاثنين بلفظ الجمع، ويقوم فيها الواحد مقام الاثنين كما قدمنا في اليدين.

على أنه لا يمكن استعمال لفظ العين في شيء من هذه المعاني التي ذكروها إلا بالنسبة لمن له عين حقيقية فهل يريد هؤلاء المعطلة أن يقولوا: إن الله يتمدح بما ليس فيه فيثبت لنفسه عينًا وهو عاطل عنها؟ وهل يريدون أن يقولوا: إن رؤيته للأشياء لا

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٩٧٦) ومسلم (٩٩٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

تقع بصفة خاصة بها بل هو يراها بذاته كلها، كما تقول المعتزلة إنه قادر بذاته مريد بذاته إلخ وفي الآية الأولى يأمر الله نبيه ﷺ بالصبر لحكمه والاحتمال لما يلقاه من أذى قومه، ويعلل ذلك الأمر بأنه بمرأى منه وفي كلاءته وحفظه.

وفي الآية الثانية: يخبر الله عز وجل عن نبيه نوح عليه السلام أنه لما كذبه قومه وحقت عليهم كلمة العذاب وأخذهم الله بالطوفان حمله هو ومن معه من المؤمنين على سفينة ذات ألواح عظيمة من الخشب ودسر، أي مسامير جمع دسار تشد بها الألواح، وأنها كانت تجري بعين الله وحراسته.

وفي الآية الثالثة: خطاب من الله لنبيه موسى عليه السلام بأنه ألقى عليه محبة منه، يعني أحبه هو سبحانه وحببه إلى خلقه، وأنه صنعه على عينه ورباه تربية استعد بها للقيام بما حمله من رسالة إلى فرعون وقومه.

● قال الشيخ ابن عثيمين:

ذكر المؤلف ـ رحمه الله ـ لإثبات صفة الوجه لله تعالى آيتين:

الآية الأولى: قوله: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧].

وهذه معطوفة على قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧]، ولهذا قال بعض السلف: ينبغي إذا قرأت: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾؛ أن تصلها بقوله: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ﴾؛ حتى يتبين نقص المخلوق وكمال الخالق، وذلك للتقابل، هذا فناء وهذا بقاء، ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ﴾؛ أي: لا يفنى.

والوجه: معناه معلوم، لكن كيفيته مجهولة، لا نعلم كيف وجه الله عز وجل؛ كسائر صفاته، لكننا نؤمن بأن له وجهًا موصوفًا بالجلال والإكرام، وموصوفًا بالبهاء والعظمة والنور العظيم، حتى قال النبي عليه الصلاة والسلام: «حجابه النور، لو كشفه؛ لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»[١].

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٧٩) وابن ماجه (١٩٦) وأحمد في «مسنده» (٤/ ٤٥٠) من حديث أبي موسى ـ رضي الله عنه.

(سبحات وجهه)؛ يعني: بهاءه وعظمته وجلاله ونوره.

(ما انتهى إليه بصره من خلقه): وبصره ينتهي إلى كل شيء، وعليه؛ فلو كشف هذا الحجاب - حجاب النور عن وجهه - لاحترق كل شيء.

لهذا نقول: هذا الوجه وجه عظيم، لا يمكن أبدًا أن يماثل أوجه المخلوقات.

وبناء على هذا نقول: من عقيدتنا أننا نثبت أن لله وجهًا حقيقة، ونأخذه من قوله تعالى: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾، ونقول بأن هذا الوجه لا يماثل أوجه المخلوقين؛ لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، ونجهل كيفية هذا الوجه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠].

فإذا حاول أحد أن يتصور هذه الكيفية بقلبه أو أن يتحدث عنها بلسانه؛ قلنا: إنك مبتدع ضال، قائل على الله ما لا تعلم، وقد حرم الله علينا أن نقول عليه ما لا نعلم؛ قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

وهنا قال: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ﴾؛ أضاف الربوبية إلى محمد ﷺ، وهذه الربوبية أخص ما يكون من أنواع الربوبية، لأن الربوبية عامة وخاصة، والخاصة خاصة أخص، وخاصة فوق ذلك؛ كربوبية الله تعالى لرسله؛ فالربوبية الأخص أفضل بلا شك.

وقوله: ﴿ذُو﴾: صفة للوجه، والدليل الرفع، ولو كانت صفة للرب؛ لقال ذي الجلال كما قال في نفس السورة: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٧٨]، فلما قال: ﴿ذُو الْجَلَالِ﴾؛ علمنا أنه وصف للوجه.

﴿الْجَلَالِ﴾: معناه العظمة والسلطان.

﴿وَالْإِكْرَامِ﴾: هي مصدر من أكرم، صالحة للمكرم والمكرم، فالله سبحانه وتعالى مكرم، وإكرامه تعالى القيام بطاعته، ومُكرِم لمن يستحق الإكرام من خلقه بما أعد لهم من الثواب.

فهو لجلاله وكمال سلطانه وعظمته أهل لأن يُكرَمَ ويثنى عليه سبحانه وتعالى

وإكرام كل أحد بحسبه؛ فإكرام الله عز وجل أن تقدره حق قدره، وأن تعظمه حق تعظيمه، لا لاحتياجه إلىٰ إكرامك، ولكن ليمنَّ عليك بالجزاء.

الآية الثانية: قوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨].

قوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ﴾؛ أي: فان؛ كقوله: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦].

وقوله: ﴿إِلَّا وَجْهَهُ﴾: توازي قوله: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾.

فالمعنىٰ: كل شيء فان وزائل؛ إلا وجه الله عز وجل؛ فإنه باق، ولهذا قال: ﴿وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨]؛ فهو الحكم الباقي الذي يرجع إليه الناس ليحكم بينهم.

وقيل في معنىٰ الآية: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾؛ أي: إلا ما أريد به وجهه. قالوا: لأن سياق الآية يدل علىٰ ذلك: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]؛ كأنه يقول: لا تدع مع الله إلهًا آخر فتشرك به؛ لأن عملك وإشراكك هالك؛ أي: ضائع سدىٰ؛ إلا ما أخلصته لوجه الله؛ فإنه يبقىٰ؛ لأن العمل الصالح له ثواب باق لا يفنىٰ في جنات النعيم.

ولكن المعنىٰ الأول أسد وأقوىٰ.

وعلىٰ طريقة من يقول بجواز استعمال المشترك في معنييه؛ نقول: يمكن أن نحمل الآية علىٰ المعنيين؛ إذ لا منافاة بينهما، فتحمل علىٰ هذا وهذا، فيقال: كل شيء يفنىٰ إلا وجه الله عز وجل، وكل شيء من الأعمال يذهب هباء؛ إلا ما أريد به وجه الله.

وعلىٰ أي التقديرين؛ ففي الآية دليل علىٰ ثبوت الوجه لله عز وجل.

وهو من الصفات الذاتية الخبرية التي مسماها بالنسبة إلينا أبعاض وأجزاء، ولا نقول: من الصفات الذاتية المعنوية، ولو قلنا بذلك؛ لكنا نوافق من تأوله تحريفًا، ولا نقول: إنها بعض من الله، أو: جزء من الله؛ لأن ذلك يوهم نقصًا لله سبحانه وتعالىٰ.

هذا وقد فسر أهل التحريف وجه الله بثوابه؛ فقالوا: المراد بالوجه في الآية

الثواب، كل شيء يفنىٰ؛ إلا ثواب الله!

ففسروا الوجه الذي هو صفة كمال؛ فسروه بشيء مخلوق بائن عن الله قابل للعدم والوجود؛ فالثواب حادث بعد أن لم يكن، وجائز أن يرتفع، لولا وعد الله ببقائه؛ لكان من حيث العقل جائزًا أن يرتفع؛ أعني: الثواب!

فهل تقولون الآن: إن وجه الله الذي وصف الله به نفسه من باب الممكن أو من باب الواجب؟.

إذا فسروه بالثواب؛ صار من باب الممكن الذي يجوز وجوده وعدمه.

وقولهم مردود بما يلي:

أولاً: أنه مخالف لظاهر اللفظ؛ فإن ظاهر اللفظ أن هذا وجه خاص، وليس هو الثواب.

ثانيًا: أنه مخالف لإجماع السلف؛ فما من السلف أحد قال: إن المراد بالوجه الثواب! وهذه كتبهم بين أيدينا مزبورة محفوظة، أخرجوا لنا نصًّا عن الصحابة أو عن أئمة التابعين ومن تبعهم بإحسان أنهم فسروا هذا التفسير! لن تجدوا إلىٰ ذلك سبيلاً أبدًا.

ثالثًا: هل يمكن أن يوصف الثواب بهذه الصفات العظيمة: ﴿ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧]؟! لا يمكن. لو قلنا مثلا: جزاء المتقين ذو جلال وإكرام! فهذا لا يجوز أبدًا، والله تعالىٰ وصف هذا الوجه بأنه ذو الجلال والإكرام.

رابعًا: نقول: ما تقولون في قول الرسول ﷺ: «**حجابه النور، لو كشفه؛ لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه**»[1]. فهل الثواب له هذا النور الذي يحرق ما انتهىٰ إليه بصر الله من الخلق؟! أبدًا، ولا يمكن.

وبهذا عرفنا بطلان قولهم، وأن الواجب علينا أن نفسر هذا الوجه بما أراده الله به، وهو وجه قائم به تبارك وتعالىٰ، موصوف بالجلال والإكرام.

فإن قلت: هل كل ما جاء من كلمة (الوجه) مضافًا إلىٰ الله يراد به وجه الله الذي

---

(١) سبق تخريجه.

هو صفته؟

فالجواب: هذا هو الأصل؛ كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الانعام: ٥٢]، ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ * إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ * وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ [الليل: ١٩-٢١]. . وما أشبهها من الآيات.

فالأصل أن المراد بالوجه المضاف إلىٰ الله وجه الله عز وجل الذي هو صفة من صفاته، لكن هناك كلمة اختلف المفسرون فيها، وهي قوله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥]:

﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا﴾؛ يعني: إلىٰ أي مكان تولوا وجوهكم عند الصلاة. ﴿فَثَمَّ﴾؛ أي: فهناك وجه الله.

فمنهم من قال: إن الوجه بمعنىٰ الجهة؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ [البقرة: ١٤٨]؛ فالمراد بالوجه الجهة؛ أي: فثم جهة الله؛ أي: فثم الجهة التي يقبل الله صلاتكم إليها.

قالوا: لأنها نزلت في حال السفر، إذا صلىٰ الإنسان النافلة؛ فإنه يصلي حيث كان وجهه، أو إذا اشتبهت القبلة؛ فإنه يتحرىٰ ويصلي حيث كان وجهه.

ولكن الصحيح أن المراد بالوجه هنا وجه الله الحقيقي؛ أي: إلىٰ أي جهة تتوجهون؛ فثم وجه الله سبحانه وتعالىٰ؛ لأن الله محيط بكل شيء، ولأنه ثبت عن النبي ﷺ أن المصلي إذا قام يصلي؛ فإن الله قبل وجهه، ولهذا نهىٰ أن يبصق أمام وجهه؛ لأن الله قبل وجهه[1] .

فإذا صليت في مكان لا تدري أين القبلة، واجتهدت وتحريت، وصليت، وصارت القبلة في الواقع خلفك؛ فالله يكون قبل وجهك، حتىٰ في هذه الحال.

وهذا معنىٰ صحيح موافق لظاهر الآية.

والمعنىٰ الأول لا يخالفه في الواقع.

إذا قلنا: فثم جهة الله، وكان هناك دليل، سواء كان هذا الدليل تفسير الآية الثانية في الوجه الثاني، أو كان الدليل ما جاءت به السنة؛ فإنك إذا توجهت إلىٰ الله في

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٠٦) ومسلم (٥٤٧) من حديث ابن عمر -رضي الله عنهما-.

صلاتك؛ فهي جهة الله التي يقبل الله صلاتك إليها؛ فثم أيضًا وجه الله حقًّا. وحينئذ يكون المعنيان لا يتنافيان.

واعلم أن هذا الوجه العظيم الموصوف بالجلال والإكرام وجه لا يمكن الإحاطة به وصفًا، ولا يمكن الإحاطة به تصوراً، بل كل شيء تقدره؛ فإن الله تعالىٰ فوق ذلك وأعظم؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠].

فإن قيل: ما المراد بالوجه في قوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]؟ إن قلت: المراد بالوجه الذات؛ فيخشىٰ أن تكون حرفت. وإن أردت بالوجه نفس الصفة أيضًا؛ وقعت في محظور ـ وهو ما ذهب إليه بعض من لا يقدرون الله حق قدره؛ حيث قالوا: إن الله يفنى إلا وجهه ـ فماذا تصنع؟!.

فالجواب: إن أردت بقولك: إلا ذاته؛ يعني: أن الله تعالىٰ يبقىٰ هو نفسه مع إثبات الوجه لله؛ فهذا صحيح، ويكون هنا عبر بالوجه عن الذات لمن له وجه.

وإن أردت بقولك: الذات: أن الوجه عبارة عن الذات بدون إثبات الوجه؛ فهذا تحريف وغير مقبول.

وعليه فنقول: ﴿إِلا وَجْهَهُ﴾؛ أي: إلا ذاته المتصفة بالوجه، وهذا ليس فيه شيء؛ لأن الفرق بين هذا وبين قول أهل التحريف أن هؤلاء يقولون: إن المراد بالوجه الذات، ولا وجه له، ونحن نقول: المراد بالوجه الذات، لأن له وجهًا، فعبر به عن الذات.

إثبات اليدين لله تعالىٰ:

ذكر المؤلف ـ رحمه الله ـ لإثبات اليدين لله تعالىٰ آيتين:

الآية الأولىٰ: قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥].

﴿مَا مَنَعَكَ﴾: الخطاب لإبليس.

و﴿مَا﴾: استفهام للتوبيخ؛ يعني: أي شيء منعك أن تسجد.

وقوله: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾: ولم يقل: لمن خلقت؛ لأن المراد هنا آدم؛ باعتبار وصفه الذي لم يشركه أحد فيه، وهو خلق الله إياه بيده، لا باعتبار شخصه.

ولهذا لما أراد إبليس النيل من آدم وحط قدره؛ قال: ﴿أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾

[الإسراء: ٦١].

ونحن قد قررنا أنه إذا عُبر بـ (ما) عما يعقل؛ فإنه يلاحظ فيه معنى الصفة لا معنى العين والشخص، ومنه قوله تعالى: ﴿فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء﴾ [النساء: ٣]، ولم يقل: (من)؛ لأنه ليس المراد عين هذه المرأة، ولكن المراد الصفة.

فهنا قال: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾؛ أي: هذا الموصوف العظيم الذي أكرمته بأنني خلقته بيدي، ولم يقصد: لمن خلقت؛ أي: لهذا الآدمي بعينه.

وقوله: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾: هي كقول القائل: بريت القلم، والقلم آلة البري، وتقول: صنعت هذا بيدي؛ فاليد هنا آلة الصنع.

﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾؛ يعني: أن الله عز وجل خلق آدم بيده، وهنا قال: ﴿بِيَدَيَّ﴾، وهي صيغة تثنية، وحذفت النون من التثنية من أجل الإضافة؛ كما يحذف التنوين، نحن عندما نعرب المثنى وجمع المذكر السالم؛ نقول: النون عوض عن التنوين في الاسم المفرد. والعوض له حكم المعوض؛ فكما أن التنوين يحذف عند الإضافة؛ فنون التثنية والجمع تحذف عند الإضافة.

في هذه الآية توبيخ إبليس في تركه السجود لما خلقه الله بيده، وهو آدم عليه الصلاة والسلام.

وفيها: إثبات صفة الخلق: ﴿لِمَا خَلَقْتُ﴾.

وفيها: إثبات اليدين لله سبحانه وتعالى: اليدين اللتين بهما يفعل؛ كالخلق هنا. اليدين اللتين بهما يقبض: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الزمر: ٦٧]؛ وبهما يأخذ، فإن الله تعالى يأخذ الصدقة فيربيها كما يربي الإنسان فلوه[1](*).

وقوله: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾: فيها أيضًا تشريف لآدم عليه الصلاة والسلام؛

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٤١٠) ومسلم (١٠١٤) من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

(*) فَلُوَّه: بفتح الفاء وضم اللام وتشديد الواو وهو المُهْرُ لأنَّهُ يُفْلَى أي: يُفْطم، وقيل: هو كل فطيم من ذات حافر، والجمع أفلاء كعدو وأعداء وضرب به المثل لأنه يزيد زيادة بينة، ولأن الصدقة نتاج العمل العناية به انتهى إلى حد الكمال وكذلك عمل ابن آدم لاسيما الصدقة. فتح الباري بتصرف.

حيث خلقه الله تعالى بيده.

قال أهل العلم: وكتب الله التوراة بيده، وغرس جنة عدن بيده.

فهذه ثلاثة أشياء؛ كلها كانت بيد الله تعالى.

ولعلنا بالمناسبة لا ننسى ما مر من قول النبي عليه الصلاة والسلام: «**إن الله خلق آدم على صورته**»(١).

وذكرنا أن أحد الوجهين الصحيحين في تأويلها أن الله خلق آدم على الصورة التي اختارها واعتنى بها، ولهذا أضافها الله إلى نفسه إضافة تشريف وتكريم؛ كإضافة الناقة والبيت إلى الله والمساجد إلى الله.

والقول الثاني: أنه على صورته حقيقة ولا يلزم من ذلك التماثل.

الآية الثانية: قوله: ﴿**وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ**﴾ [المائدة: ٦٤].

﴿**الْيَهُودُ**﴾: هم أتباع موسى عليه الصلاة والسلام.

سموا يهودًا؛ قيل: لأنهم قالوا: ﴿**إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ**﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وبناء على هذا يكون الاسم عربيًا؛ لأن هاد يهود - إذا رجع - عربي.

وقيل: إن أصله يهوذا، اسم أحد أولاد يعقوب عليه السلام، واليهود من نسبوا إليه، لكن عند التعريب صارت الذال دالا، فقيل: يهود.

وأيًّا كان؛ لا يهمنا أن أصله هذا أو هذا.

ولكننا نعلم أن اليهود هم طائفة من بني إسرائيل، اتبعوا موسى عليه الصلاة والسلام.

وهؤلاء اليهود من أشد الناس عتوًّا ونفورًا؛ لأن عتو فرعون وتسلطه عليهم جعل ذلك ينطبع في نفوسهم، وصار فيهم العتو على الناس، بل وعلى الخالق عز وجل؛ فهم يصفون الله تعالى بأوصاف العيوب - قبحهم الله، وهم أهلها.

يقولون: ﴿**يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ**﴾؛ أي: محبوسة عن الإنفاق؛ كما قال الله تعالى: ﴿**وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ**﴾ [الإسراء: ٢٩]؛ أي: محبوسة عن الإنفاق.

---

(١) سبق تخريجه.

وقالوا: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨١]!

أما قولهم: إن يد الله مغلولة؛ فقالوا: لولا أنها مغلولة؛ لكان الناس كلهم أغنياء؛ فكونه يجود على زيد ولا يجود على عمرو: هذا هو الغل وعدم الإنفاق!!

وقالوا: إن الله فقير؛ لأن الله قال: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ﴾ [البقرة: ٢٤٥]، فقالوا للرسول عليه الصلاة والسلام: يا محمد! إن ربك افتقر؛ صار يستقرض منا. قاتلهم الله!!.

وقالت اليهود أيضًا: إن الله عاجز؛ لأنه حين خلق السموات والأرض؛ استراح يوم السبت، وجعل العطلة محل عيد؛ فصار عيدهم يوم السبت. قاتلهم الله!!

هنا يقول الله عز وجل: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾: ﴿يَدُ﴾: أفردوها؛ لأن اليد الواحدة أقل عطاء من اليدين الثنتين، ولهذا جاء الجواب بالتثنية والبسط، فقال: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾.

ولما وصفوا الله بهذا العيب؛ عاقبهم الله بما قالوا، فقال: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾؛ أي: منعت عن الإنفاق، ولهذا كان اليهود أشد الناس جمعًا للمال ومنعًا للعطاء؛ فهم أبخل عباد الله، وأشدهم شحًا في طلب المال، ولا يمكن أن ينفقوا فلسًا؛ إلا وهم يظنون أنهم سيكسبون بدله درهمًا، ونرى نحن الآن لهم جمعيات كبيرة وعظيمة، لكن هم يريدون من وراء هذه الجمعيات التبرعات أكثر وأكثر، يريدون أن يسيطروا على العالم.

فإذًا؛ لا تقل أيها الإنسان: كيف نجمع بين قوله تعالى: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾، وبين الواقع اليوم بالنسبة لليهود؟! لأن هؤلاء القوم يبذلون ليربحوا أكثر.

﴿وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ﴾؛ أي: طردوا وأبعدوا عن رحمة الله عز وجل؛ لأن البلاء موكل بالمنطق؛ فهم لما وصفوا الله بالإمساك؛ طردوا وأبدعوا عن رحمته؛ قيل لهم: إذا كان الله عز وجل كما قلتم لا ينفق؛ فليمنعكم رحمته حتى لا يعطيكم من جوده؛ فعوقبوا بأمرين:

١- بتحويل الوصف الذي عابوا به الله سبحانه إليهم بقوله: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾.

٢- وبإلزامهم بمقتضى قولهم؛ بإبعادهم عن رحمة الله، حتى لا يجدوا جود الله

وكرمه وفضله.

﴿بِمَا قَالُواْ﴾: الباء هنا للسببية، وعلامة الباء التي للسببية: أن يصح أن يليها كلمة (سبب).

و(ما) هنا يصح أن تكون مصدرية، ويصح أن تكون موصولة؛ فإن كانت موصولة؛ فالعائد محذوف، وتقديره: بالذي قالوه. وإن كانت مصدرية؛ فالفعل يحول إلى مصدر؛ أي: بقولهم.

ثم أبطل الله سبحانه وتعالى دعواهم، فقال: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾.

﴿بَلْ﴾: هنا للإضراب الإبطالي.

وانظر كيف اختلف التعبير: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾؛ لأن المقام مقام تمدح بالكرم، والعطاء باليدين أكمل من العطاء باليد الواحدة.

و﴿مَبْسُوطَتَانِ﴾: ضد قولهم: ﴿مَغْلُولَةٌ﴾؛ فيدا الله تعالى مبسوطتان واسعتا العطاء.

كما قال النبي ﷺ: «**يد الله ملأى سخاء (كثيرة العطاء) الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق مذ خلق السموات والأرض؛ فإنه لم يغض ما فيه يمينه**»[1].

من يحصي ما أنفق الله منذ خلق السموات والأرض؟! لا يحصيه أحد! ومع ذلك لم يغض ما في يمينه.

وهذا كقوله تعالى في الحديث القدسي: «**يا عبادي! لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم؛ قاموا في صعيد واحد، فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته؛ ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا غمس في البحر**»[2].

ولننظر إلى المخيط غمس في البحر؛ فإذا نزعته؛ لا ينقص البحر شيئًا أبدًا، ومثل هذه الصيغة يؤتى بها للمبالغة في عدم النقص؛ لأن عدم نقص البحر في مثل هذه الصورة أمر معلوم، مستحيل أن البحر ينقص بهذا؛ فمستحيل أيضًا أن الله عز وجل

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٧٤١١) ومسلم (٩٩٣) من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٥٧٧) والترمذي (٢٤٩٥) وابن ماجه (٤٢٥٧) وأحمد في «مسنده» (٥/ ١٦٠) من حديث أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ.

ينقص ملكه إذا قام كل إنسان من الإنس والجن، فقاموا فسألوا الله تعالى، فأعطى كل إنسان مسألته، ما نقص ذلك من ملكه شيئًا.

لا تقل: «نعم؛ لا ينقص من ملكه شيئًا؛ لأنه انتقل من ملكه إلى ملكه»؛ لأنه لا يمكن أن يكون هذا هو المراد؛ لأنه لو كان هذا المراد؛ لكان الكلام عبثًا ولغوًا.

لكن المعنى: لو فُرض أن هذه العطايا العظيمة أعطيت على أنها خارجة عن ملك الله؛ لم ينقص ذلك من ملكه شيئًا.

ولو كان المعنى هو الأول؛ لم يكن فيه فائدة؛ فمعروف أنه لو كان عندك عشرة ريالات، أخرجها من الدرج الأيمن إلى الدرج الأيسر، وقال إنسان: إن مالك لم ينقص؛ لقيل: هذا لغو من القول!.

المهم أن المعنى: لو أن هذا الذي أعطاه السائلين خارج عن ملكه؛ فإنه لا ينقصه سبحانه وتعالى.

وليس إنفاق الله تعالى بما نحصل من الدراهم والمتاع، بل كل ما بنا من نعمة فهو من الله تعالى، سواء كانت من نعم الدين أم الدنيا؛ فذرات المطر من إنفاق الله علينا، وحبات النبات من إنفاق الله.

أفبعد هذا يقال كما قالت اليهود ـ عليهم لعائن الله ـ: ﴿ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾؟!

لا والله! بل يقال: إن يدي الله عز وجل مبسوطتان بالعطاء والنعم التي لا تعد ولا تحصى.

لكن إذا قالوا: لماذا أعطى زيدًا ولم يعط عمرًا؟

قلنا: لأن الله تعالى له السلطان المطلق والحكمة البالغة، ولهذا قال ردًّا على شبهتهم: ﴿ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾؛ فمن الناس من يُعطيه كثيرًا، ومنهم من يُعطيه قليلا، ومنهم من يعطيه وسطًا؛ تبعًا لما تقتضيه الحكمة، على أن هذا الذي أعطى قليلاً ليس محرومًا من فضل الله وعطائه من جهة أخرى؛ فالله أعطاه صحة وسمعًا وبصرًا وعقلاً وغير ذلك من النعم التي لا تحصى، ولكن لطغيان اليهود وعدوانهم وأنهم لم ينزهوا الله عن صفات العيب، قالوا: ﴿ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾.

فالآيتان السابقتان فيهما إثبات صفة اليدين لله عز وجل.

ولكن قد يقول قائل: إن لله أكثر من يدين؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا﴾ [يس: ٧١]؛ فأيدينا هنا جمع؛ فلنأخذ بهذا الجمع؛ لأننا إذا أخذنا بالجمع؛ أخذنا بالمثنى وزيادة؛ فما هو الجواب؟

فالجواب أن يقال: جاءت اليد مفردة ومثناة وجمعاً.

أما اليد التي جاءت بالإفراد فإن المفرد المضاف يفيد العموم، فيشمل كل ما ثبت لله من يد، ودليل عموم المفرد المضاف قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤]؛ فـ ﴿نِعْمَتَ﴾: مفرد مضاف؛ فهي تشمل كثيراً؛ لقوله: ﴿لَا تُحْصُوهَا﴾؛ إذاً: فما هي واحدة ولا ألف ولا مليون ولا ملايين.

﴿يَدُ اللَّهِ﴾: نقول هذا المفرد لا يمنع التعدد إذا ثبت؛ لأن المفرد المضاف يفيد العموم.

أما المثنى والجمع؛ فنقول: إن الله ليس له إلا يدان اثنتان؛ كما ثبت ذلك في الكتاب والسنة.

ففي الكتاب:

في سورة «ص» قال: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]، والمقام مقام تشريف، ولو كان الله خلقه بأكثر من يدين؛ لذكره؛ لأنه كلما ازدادت الصفة التي بها خلق الله هذا الشيء؛ ازداد تعظيم هذا الشيء.

وأيضًا: في سورة «المائدة» قال: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]؛ في الرد على من قالوا: ﴿يَدُ اللَّهِ﴾؛ بالإفراد، المقام مقام يقتضي كثرة النعم، وكلما كثرت وسيلة العطاء؛ كثر العطاء؛ فلو كان لله تعالى أكثر من اثنتين؛ لذكرهما الله، لأن العطاء باليد الواحدة عطاء، فباليدين أكثر وأكمل من الواحدة؛ وبالثلاث - لو قدر - كان أكثر؛ فلو كان لله تعالى أكثر من اثنتين لذكرهما.

أما السنة:

فإن الرسول عليه الصلاة والسلام قال: «يطوى الله تعالى السموات بيمينه والأرض بيده الأخرى»[1].

---

(١) سبق تخريجه.

قال ﷺ: «كلتا يديه يمين»[1] .

ولم يذكر أكثر من اثنتين.

وأجمع السلف على أن لله يدين اثنتين فقط بدون زيادة .

فعندنا النص من القرآن والسنة والإجماع على أن لله تعالى يدين اثنتين ؛ فكيف نجمع بين هذا وبين الجمع : ﴿ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا ﴾ [يس: ٧١]؟!

فنقول: الجمع على أحد الوجهين:

فإما أن نقول بما ذهب إليه بعض العلماء ؛ من أن أقل الجمع اثنان ، وعليه فـ﴿ أَيْدِينَا ﴾ لا تدل على أكثر من اثنتين ؛ يعني : لا يلزم أن تدل على أكثر من اثنين ، وحينئذ تطابق التثنية : ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ [المائدة: ٦٤]، ولا إشكال فيه .

فإذا قلت: ما حجة هؤلاء على أن الجمع أقله اثنان؟!

فالجواب: احتجوا بقوله تعالى : ﴿ إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ [التحريم: ٤]، وهما اثنتان ، والقلوب جمع ، والمراد به قلبان فقط ؛ لقوله تعالى : ﴿ مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ﴾ [الأحزاب: ٤]، ولا لامرأة كذلك .

واحتجوا أيضًا بقول الله تعالى : ﴿ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ ﴾ [النساء: ١١]؛ فـ﴿ إِخْوَةٌ ﴾ جمع ، والمراد به اثنان .

واحتجوا أيضًا بأن جماعة الصلاة تحصل باثنين .

ولكن جمهور أهل اللغة يقولون : إن أقل الجمع ثلاثة ، وإن خروج الجمع إلى الاثنين في هذه النصوص لسبب ، وإلا فإن أقل الجمع في الأصل ثلاثة .

وإما أن نقول: إن المراد بهذا الجمع التعظيم ؛ تعظيم هذه اليد وليس المراد أن لله تعالى أكثر من اثنتين .

ثم إن المراد باليد هنا نفس الذات التي لها يد ، وقد قال الله تعالى : ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ ﴾ [الروم: ٤١]؛ أي : بما كسبوا ؛ سواء كان من كسب اليد أو الرجل أو اللسان أو غيرها من أجزاء البدن ، لكن يعبر بمثل هذا التعبير

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٨٢٧) والنسائي في «الكبرى» (٥٣٧٩) من حديث عمر ـ رضي الله عنه .

عن الفاعل نفسه.

لهذا نقول: إن الأنعام التي هي الإبل لم يخلقها الله تعالى بيده، وفرق بين قوله: ﴿مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا﴾ [يس: ٧١]، وبين قوله: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]؛ فـ ﴿مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا﴾؛ كأنه قال: مما عملنا؛ لأن المراد باليد ذات الله التي لها يد، والمراد بـ ﴿بِيَدَيَّ﴾: اليدان دون الذات.

وبهذا يزول الإشكال في صفة اليد التي وردت بالإفراد والتثنية والجمع.

فعُلم الآن أن الجمع بين المفرد والتثنية سهل؛ وذلك لأن هذا مفرد مضاف فيعم كل ما ثبت لله من يد.

وأما بين التثنية والجمع؛ فمن وجهين:

أحدهما: أنه لا يراد بالجمع حقيقة معناه ـ وهو الثلاثة فأكثر ـ بل المراد به التعظيم؛ كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّا﴾، و ﴿نَحْنُ﴾، و ﴿قُلْنَا﴾... وما أشبه ذلك، وهو واحد، لكن يقول هذا للتعظيم.

أو يقال: إن أقل الجمع اثنان؛ فلا يحصل هنا تعارض.

وأما قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾ [الذاريات: ٤٧]؛ فالأيدي هنا بمعنى القوة؛ فهي مصدر آد يئيد؛ بمعنى: قوي، وليس المراد بالأيدي صفة الله، ولهذا ما أضافها الله إلى نفسه، ما قال بأيدينا! بل قال: ﴿بِأَيْدٍ﴾؛ أي: بقوة.

ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ [القلم: ٤٢]؛ فإن لعلماء السلف في قوله: ﴿عَن سَاقٍ﴾: قولين:

القول الأول: أن المراد به الشدة.

والقول الثاني: أن المراد به ساق الله عز وجل.

فمن نظر إلى سياق الآية مع حديث أبي سعيد رضي الله عنه[1]؛ قال: إن المراد بالساق هنا ساق الله. ومن نظر إلى الآية بمفردها؛ قال: المراد بالساق الشدة.

فإذا قال قائل: أنتم تثبتون أن لله تعالى يداً حقيقية، ونحن لا نعلم من الأيدي إلا

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٤٩١٩) من حديث أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه.

أيادي المخلوقين؛ فيلزم من كلامكم تشبيه الخالق بالمخلوق.

فالجواب أن نقول: لا يلزم من إثبات اليد لله أن نمثل الخالق بالمخلوقين؛ لأن إثبات اليد جاء في القرآن والسنة وإجماع السلف، ونفي مماثلة الخالق للمخلوقين يدل عليه الشرع والعقل والحس:

- أما الشرع؛ فقوله تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١].

- وأما العقل؛ فلا يمكن أن يماثل الخالق المخلوق في صفاته؛ لأن هذا يعد عيبًا في الخالق.

- وأما الحس؛ فكل إنسان يشاهد أيدي المخلوقات متفاوتة ومتباينة من كبير وصغير وضخم ودقيق.. إلخ؛ فيلزم من تباين أيدي المخلوقين وتفاوتهم مباينة يد الله تعالىٰ لأيدي المخلوقين وعدم مماثلته لهم سبحانه وتعالىٰ من باب أولىٰ.

هذا؛ وقد خالف أهل السنة والجماعة في إثبات اليد لله تعالىٰ أهل التعطيل من المعتزلة والجهمية والأشعرية ونحوهم، وقالوا: لا يمكن أن نثبت لله يدًا حقيقية، بل المراد باليد أمر معنوي، وهو القوة!! أو المراد باليد نعمة لأن اليد تطلق في اللغة العربية علىٰ القوة وعلىٰ النعمة.

ففي الحديث الصحيح حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه الطويل: «أن الله يوحي إلى عيسى أني أخرجت عبادًا لي لا يدان لأحد بقتالهم»[١]، المعنىٰ: لا قوة لأحد بقتالهم، وهم يأجوج ومأجوج.

وأما اليد بمعنىٰ النعمة؛ فكثير، ومنه قول رسول قريش لأبي بكر: «لولا يد لك عندي لم أجزك بها؛ لأجبتك»[٢]؛ يعني: نعمة.

وقول المتنبي:

وكم لظلام الليل عندك من يد ... حدث أن المانوية تكذب

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٩٣٧) والترمذي (٢٢٤٠) وابن ماجه (٤٠٧٥) من حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه.

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٢٧٣٤) وأحمد في «مسنده» (٤/ ٣٢٤).

والمانوية: فرقة من المجوس الذين يقولون: إن الظلمة تخلق الشر، والنور يخلق الخير. فالمتنبي يقول: إنك تعطي في الليل العطايا الكثيرة التي تدل على أن المانوية تكذب؛ لأن الليل يأتي بخير.

فالمراد بيد الله: النعمة، وليس المراد باليد اليد الحقيقية؛ لأنك لو أثبت لله يدًا حقيقية؛ لزم من ذلك التجسيم أن يكون الله تعالى جسمًا، والأجسام متماثلة، وحينئذ تقع فيما نهى الله عنه في قوله: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ [النحل: ٧٤].

ونحن أسعد بالدليل منك أيها المثبت للحقيقة!! نحن نقول: سبحان من تنزه عن الأعراض والأبعاض والأغراض!! لا تجد مثل هذه السجعة لا في الكتاب ولا في السنة.

وجوابنا على هذا من عدة وجوه:

أولا: أن تفسير اليد بالقوة أو النعمة مخالف لظاهر اللفظ، وما كان مخالفًا لظاهر اللفظ؛ فهو مردود؛ إلا بدليل.

ثانيًا: أنه مخالف لإجماع السلف؛ حيث إنهم كلهم مجمعون على أن المراد باليد اليد الحقيقية.

فإن قال لك قائل: أين إجماع السلف؟ هات لي كلمة واحدة عن أبي بكر أو عمر أو عثمان أو علي رضي الله عنهم؛ يقولون: إن المراد بيد الله اليد الحقيقية!.

أقـول له: ائت لي بكلمة واحدة عن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وغيرهم من الصحابة رضي الله عنهم والأئمة من بعدهم يقولون: إن المراد باليد القوة أو النعمة.

فلا يستطيع أن يأتي بذلك.

إذًا؛ فلو كان عندهم معنى مخالفًا لظاهر اللفظ؛ لكانوا يقولون به، ولنقل عنهم، فلما لم يقولوا به؛ عُلم أنهم أخذوا بظاهر اللفظ وأجمعوا عليه.

وهذه فائدة عظيمة، وهي أنه لم ينقل عن الصحابة رضي الله عنهم ما يخالف ظاهر الكتاب والسنة؛ فإنهم لا يقولون بسواه؛ لأنهم الذين نزل القرآن بلغتهم، وخاطبهم النبي ﷺ بلغتهم؛ فلابد أن يفهموا الكتاب والسنة على ظاهرهما؛ فإذا لم ينقل عنهم ما يخالفه؛ كان ذلك قولهم.

ثالثـًا: أنه يمتنع غاية الامتناع أن يراد باليد النعمة أو القوة في مثل قوله: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]؛ لأنه يستلزم أن تكون النعمة نعمتين فقط، ونعم الله لا تحصى!! ويستلزم أن القوة قوتان، والقوة بمعنى واحد لا يتعدد! فهذا التركيب يمنع غاية المنع أن يكون المراد باليد القوة أو النعمة.

ذهب أنه قد يمكن في قوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]: أن يراد بهما النعمة على تأويل، لكن لا يمكن أن يراد بقوله: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ النعمة أبدًا.

أما القوة؛ فيمتنع أن يكون المراد باليدين القوة في الآيتين جميعًا؛ في قوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ﴾ وفي قوله: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾؛ لأن القوة لا تتعدد.

رابعـًا: أنه لو كان المراد باليد القوة؛ ما كان لآدم فضل على إبليس، بل ولا على الحمير والكلاب؛ لأنهم كلهم خلقوا بقوة الله، ولو كان المراد باليد القوة؛ ما صح الاحتجاج على إبليس؛ إذ أن إبليس سيقول: وأنا يا رب خلقتني بقوتك؛ فما فضله علي؟!

خامسًا: أن يقال: إن هذه اليد التي أثبتها لله جاءت على وجوه متنوعة يمتنع أن يراد بها النعمة أو القوة؛ فجاء فيها ذكر الأصابع والقبض والبسط والكف واليمين، وكل هذا يمتنع أن يراد بها القوة؛ لأن القوة لا توصف بهذه الأوصاف.

فتبين بهذا أن قول هؤلاء المحرفين الذين قالوا: المراد باليد القوة باطل من عدة أوجه.

وقد سبق أن صفات الله عز وجل من الأمور الخبرية الغيبية التي ليس للعقل فيها مجال، وما كان هذا سبيله؛ فإن الواجب علينا إبقاؤه على ظاهره؛ من غير أن نتعرض له.

إثبات العينين لله تعالى:

ذكر المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ لإثبات العينين لله تعالى ثلاث آيات:

الآية الأولى: قوله: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨].

الخطاب هنا للنبي عليه الصلاة والسلام.

والصبر: بمعنى الحبس، ومنه قولهم: قُتِلَ صبرًا؛ أي: قتل وقد حبس للقتل.

فالصبر في اللغة: بمعنى الحبس.

وفي الشرع: قالوا: هو الصبر لأحكام الله، يعني: حبس النفس لأحكام الله.

وأحكام الله عز وجل شرعية وكونية:

والشرعية: أوامر ونواه؛ فالصبر على طاعة الله صبر على الأوامر، والصبر عن معصيته صبر عن النواهي.

والكونية: أقدار الله تعالى، فيصبر على أقداره وقضائه.

وهذا معنى قول بعضهم الصبر ثلاثة أقسام: صبر على طاعة الله، وصبر عن معصية الله، وصبر على أقدار الله المؤلمة.

فقوله تعالى: ﴿**وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ**﴾: يتناول الأقسام الثلاثة:

١ـ الصبر على طاعة الله.

٢ـ وعن معصية الله.

٣ـ وعلى أقدار الله. أي: اصبر لحكم ربك الكوني والشرعي.

وبهذا نعرف أن التقسيم الذي ذكره العلماء، وقالوا: إن الصبر ثلاثة أقسام: صبر على طاعة الله، وصبر عن معصية الله، وصبر على أقدار الله: داخل في هذه الكلمة: ﴿**وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ**﴾.

ووجه الدخول: أن الحكم إما كوني وإما شرعي، والشرعي أوامر ونواه. والنبي عليه الصلاة والسلام أمره الله عز وجل بأوامر، ونهاه عن نواهي، وقدر عليه مقدورات.

فالأوامر مثل: ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ**﴾ [المائدة: ٦٧]، ﴿**ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ**﴾ [النحل: ١٢٥]، وهذه أوامر عظيمة؛ يعني: لو قيل لإنسان: اعبد ربك؛ فإنه يتمكن من العبادة، لكن الدعوة والتبليغ أمر صعب؛ لأنه يتعب في معاناة الآخرين وجهادهم، فيكون صعبًا.

وأما النواهي: فقد نهاه عن الشرك؛ قال: ﴿**وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ [الأنعام: ١٤]، ﴿**لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ**﴾ [الزمر: ٦٥]. . . وما أشبه ذلك.

وأما الأحكام القدرية: فقد حصل عليه أذىٰ من قومه؛ أذىٰ قولي وأذىٰ فعلي، لا يصبر عليه إلا أمثال الرسول عليه الصلاة والسلام:

آذوه بالقول: بالسخرية، والاستهزاء، والتهجين، وتنفير الناس عنه.

وآذوه بالفعل: كان ساجداً تحت الكعبة في آمن بقعة من الأرض، ساجداً لربه، فذهبوا، وأتوا بسلىٰ الناقة، ووضعوه علىٰ ظهره وهو ساجد!![(1)].

ليس هناك أبلغ من هذه الأذية، مع العلم بأنه لو يدخل كافر مشرك إلىٰ الحرم؛ لكان عندهم آمنًا، لا يؤذونه فيه، بل يكرمونه ويطعمونه النبيذ ويسقونه ماء زمزم!! ومحمد عليه الصلاة والسلام ساجداً لله يؤذونه هذا الأذىٰ!!

كانوا يأتون بالعذرة والأنتان والأقذار يضعونه عند عتبة بابه!!

وخرج إلىٰ أهل الطائف، وماذا صار؟! صار الإيذاء العظيم؛ صف سفهاؤهم وغلمانهم علىٰ جانبي الطريق، وجعلوا يرمونه بالحجارة حتىٰ آدموا عقبه، فلم يفق إلا في قرن الثعالب[(2)].

فصبر علىٰ حكم الله، ولكنه صبر مؤمن يؤمن بأن العاقبة له؛ لأن الله قال له: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ . . . هذا الاعتناء والحفاوة. . . . أكرم شيء يكرم به الإنسان أن تقول له: أنت بعيني، أنت بقلبي. . وما أشبه ذلك.

أنت بعيني؛ معناه: أنا ألاحظك بعيني. وهذا تعبير معروف عند الناس، يكون تمام الحراسة والعناية والحفظ بمثل هذا التعبير: أنت بعيني.

إذاً؛ قوله: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾؛ يعني: فإنك محروس غاية الحراسة، محفوظ غاية الحفظ.

﴿بِأَعْيُنِنَا﴾: أعيننا معك؛ نحفظك، ونرعاك، ونعتني بك.

في الآية الكريمة إثبات العين لله عز وجل، لكنها جاءت بصيغة الجمع؛ لما سنذكر إن شاء الله تعالىٰ.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٤٠) ومسلم (١٧٩٤) من حديث عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٢٣١) ومسلم (١٧٩٥) من حديث عائشة ـ رضي الله عنها.

العين من الصفات الذاتية الخبرية:

الذاتية: لأنه لم يزل ولا يزال متصفًا بها. الخبرية: لأن مسماها بالنسبة إلينا أجزاء وأبعاض.

فالعين منا بعض من الوجه، والوجه بعض من الجسم، لكنها بالنسبة لله لا يجوز أن نقول: إنها بعض من الله؛ لأنه سبق أن هذا اللفظ لم يرد، وأنه يقتضي التجزئة في الخالق، وأن البعض أو الجزء هو الذي يجوز بقاء الكل بفقده، ويجوز أن يُفقد، وصفات الله لا يجوز أن تفقد أبدًا، بل هي باقية.

وقد دل الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ أن لله عينين اثنين فقط؛ حين وصف الدجال وقال: «**إنه أعور، وإن ربكم ليس بأعور**»[١]، وفي لفظ: «**أعور العين اليمنى**»[٢].

وقد قال بعض الناس معنى (أعور)؛ أي: معيب، وليس من عور العين!!.

وهذا لا شك أنه تحريف وتجاهل للفظ الصحيح الذي في البخاري وغيره: «أعور العين اليمنى، كأن عينه عنبة طافية»[٣] وهذا واضح.

ولا يقال أيضًا: (أعور) باللغة العربية؛ إلا لعور العين، أما إذا قيل: (عور) أو (عوار)؛ فربما يراد به مطلق العيب.

وهذا الحديث يدل على أن لله تعالى عينين اثنتين فقط.

ووجه الدلالة أنه لو كان لله أكثر من اثنتين؛ لكان البيان به أوضح من البيان بالعور؛ لأنه لو كان لله أكثر من عينين؛ لقال: إن ربكم له أعين؛ لأنه إذا كان له أعين أكثر من ثنتين؛ صار وضوح أن الدجال ليس برب أبين.

وأيضًا: لو كان لله عز وجل أكثر من عينين؛ لكان ذلك من كماله، وكان ترك ذكره تفويتًا للثناء على الله؛ لأن الكثرة تدل على القوة والكمال والتمام، فلو كان لله أكثر من عينين؛ لبينها الرسول عليه الصلاة والسلام؛ لئلا يفوتنا اعتقاد هذا الكمال، وهو الزائد على العينين الثنتين.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٧١٣١) ومسلم (٢٩٣٣) من حديث أنس ـ رضي الله عنه.

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٤٤٠٣) من حديث عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنه.

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٤٤٠) ومسلم (١٦٩) من حديث عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنه.

وذكر ابن القيم - رحمه الله - في كتابه «الصواعق المرسلة» حديثًا، لكنه ضعيف لانقطاعه، وهو: «**إن العبد إذا قام في الصلاة قام بين عيني الرحمن...**»[1] : «عيني»: هذه تثنية، لكن الحديث ضعيف، واعتمادنا في عقيدتنا هذه على الحديث الصحيح؛ حديث الدجال؛ لأنه واضح لمن تأمله.

ولقد ذكره عثمان بن سعيد الدارمي - رحمه الله - في «رده على بشر المريسي»، وكذلك أيضًا ذكره ابن خزيمة في «كتاب التوحيد»، وذكر أيضًا إجماع السلف على ذلك أبو الحسن الأشعري - رحمه الله - وأبو بكر الباقلاني، والأمر في هذا واضح.

فعقيدتنا التي ندين لله بها: أن لله تعالى عينين اثنتين، لا زيادة.

فإن قيل: إن من السلف من فسر قوله تعالى: ﴿**بِأَعْيُنِنَا**﴾؛ بقوله: بمرأى منا. فسره بذلك أئمة سلفيون معروفون، وأنتم تقولون: إن التحريف محرم وممتنع؛ فما الجواب؟

فالجواب: أنهم فسروها باللازم، مع إثبات الأصل، وهي العين، وأهل التحريف يقولون: بمرأى منا؛ بدون إثبات العين، وأهل السنة والجماعة يقولون: ﴿**بِأَعْيُنِنَا**﴾: بمرأى منا، مع إثبات العين.

لكن ذكر العين هنا أشد توكيدًا وعناية من ذكر مجرد الرؤية، ولهذا قال: ﴿**فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا**﴾.

قالت المعطلة: أجلبتم علينا بالخيل والرَّجل في إنكاركم علينا التأويل، وأنتم أولتم فأخرجتم الآية عن ظاهرها؛ فالله يقول: ﴿**فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا**﴾؛ فخذوا بالظاهر، وإذا أخذتم بالظاهر؛ كفرتم، وإذا لم تأخذوا بالظاهر؛ تناقضتم؛ فمرة تقولون: يجوز التأويل، ومرة تقولون: لا يجوز التأويل، وتسمونه تحريفًا، وهل هذا إلا تحكم بدين الله؟!

قلنا :نأخذ بالظاهر وعلى العين والرأس، وهو طريقتان ولا نخالفه.

---

(١) ضعيف جدًا: أخرجه العقيلي في «الضعفاء» (١/ ٧٠).

وفي إسناده إبراهيم بن يزيد الخوزي قال عنه ابن معين: ليس بشيء وقال في موضع آخر: ليس بثقة. والحديث قال عنه الشيخ الألباني في «الضعيفة» (١٠٢٤): «ضعيف جدًا».

قالوا: الظاهر من الآية أن محمداً ﷺ بعين الله، وسط العين؛ كما تقول: زيد بالبيت، زيد بالمسجد؛ فالباء للظرفية، فيكون زيد داخل البيت وداخل المسجد، فيكون قوله: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾؛ أي: داخل أعيننا! وإذا قلتم بهذا كفرتم؛ لأنكم جعلتم الله محلا للخلائق؛ فأنتم حلولية، وإن لم تقولوا به؛ تناقضتم؟!.

قلنا لهم: معاذ الله! ثم معاذ الله! ثم معاذ الله! أن يكون ما ذكرتموه ظاهر القرآن، وأنتم إن اعتقدتم أن هذا ظاهر القرآن؛ كفرتم؛ لأن من اعتقد أن ظاهر القرآن كفر وضلال؛ فهو كافر ضال.

فأنتم توبوا إلى الله من قولكم: إن هذا هو ظاهر اللفظ! واسألوا جميع أهل اللغة من الشعراء والخطباء: هل يقصدون بمثل هذه العبارة أن الإنسان المنظور إليه بالعين حال في جفن العين؟! اسألوا من شئتم من أهل اللغة أحياء وأمواتًا!!

فأنت إذا رأيت أساليب اللغة العربية؛ عرفت أن هذا المعنى الذي ذكروه وألزمونا به لا يرد في اللغة العربية؛ فضلا عن أن يكون مضافًا إلى الرب عز وجل؛ فإضافته إلى الرب كفر منكر، وهو منكر لغة وشرعًا وعقلاً.

فإن قيل: بماذا تفسرون الباء في قوله: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾؟

قلنا: نفسرها بالمصاحبة، إذا قلت: أنت بعيني؛ يعني: أن عيني تصحبك وتنظر إليك، ولا تنفك عنك، فالمعنى: أن الله عز وجل يقول لنبيه: اصبر لحكم الله؛ فإنك محوط بعنايتنا وبرؤيتنا لك بالعين حتى لا ينالك أحد بسوء.

ولا يمكن أن تكون الباء هنا للظرفية؛ لأنه يقتضي أن يكون رسول الله ﷺ في عين الله، وهذا محال.

وأيضًا؛ فإن رسول الله ﷺ خوطب بذلك وهو في الأرض؛ فإذا قلتم: إنه كان في عين الله! كانت دلالة القرآن كذبًا.

وهذا وجه آخر في بطلان دعوى أن ظاهر القرآن أن الرسول ﷺ في عين الله تعالى.

الآية الثانية: قوله تعالى: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ * تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ [القمر: ١٣، ١٤].

﴿وَحَمَلْنَاهُ﴾: الضمير يعود على نوح عليه الصلاة والسلام.

وقوله: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾؛ أي: على سفينة ذات ألواح ودسر، وهذه السفينة كان عليه الصلاة والسلام يصنعها، وكان يمر به قومه، فيسخرون منه، فيقول: ﴿إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ [هود: ٣٨].

صنعها بأمر الله ورعاية الله وعنايته، وقال الله له: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ [هود: ٣٧]؛ فالله تعالى ينظر إليه وهو يصنع الفلك، ويلهمه كيف يصنعها.

ووصفها الله هنا في قوله: ﴿ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾: ﴿ذَاتِ﴾: بمعنى: صاحبة. والألواح: الخشب. والدسر: ما يربط به الخشب كالمسامير والحبال وما أشبه ذلك، وأكثر المفسرين على أن المراد بها المسامير التي تربط بها الأخشاب.

﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾: هذا الشاهد: ﴿تَجْرِي﴾؛ أي: ذات الألواح والدسر بأعين الله عز وجل. والمراد بالأعين هنا عينان فقط؛ كما مرَّ. ومعنى تجري بها؛ أي: مصحوبة بنظرنا بأعيننا؛ فالباء هنا للمصاحبة، تجري على الماء الذي نزل من السماء ونبع من الأرض؛ لأن نوحًا عليه الصلاة والسلام دعا ربه ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠]؛ قال الله تعالى: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاء بِمَاء مُّنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾ [القمر: ١١، ١٢]؛ فكانت هذه السفينة تجري بعين الله عز وجل.

قد يقول قائل: لماذا لم يقل: وحملناه على السفينة، أو حملناه على فلك، بل قال: ﴿عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾؟

والجواب على هذا أن نقول: عدل عن التعبير بالفلك والسفينة إلى التعبير بذات ألواح ودسر؛ لوجوه ثلاثة:

الوجه الأول: مراعاة للآيات وفواصلها؛ فلو قال: حملناه على فلك؛ لم تتناسب هذه الآية مع ما بعدها ولا ما قبلها.

ولو قال: على سفينة؛ كذلك، لكن من أجل تناسب الآيات في فواصلها وفي كلماتها قال: ﴿عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾.

الوجه الثاني: من أجل أن يتعلم الناس كيف يصنعون السفن، وبيان أنها من

الألواح والمسامير، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٥]؛ فأبقى الله تعالى علمها آية للخلق يصنعون كما ألهم الله تعالى نوحًا.

الوجه الثالث: الإشارة إلى قوتها، حيث كانت من ألواح ودسر، والتنكير هنا للتعظيم.

وروعي التركيز على مادتها، ونظير ذلك في ذكر الوصف دون الموصوف قوله تعالى: ﴿أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ﴾ [سبأ: ١١]. ولم يقل: دروعًا، من أجل العناية بفائدة هذه الدروع، وهي أن تكون سابغة تامة؛ فهذه مثلها.

وقوله: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾؛ نقول فيها ما قلناه في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨].

الآية الثالثة: قوله: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ [طه: ٣٩].

الخطاب لموسى عليه الصلاة والسلام.

فقوله: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾: اختلف المفسرون في معناها: فمنهم من قال: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾؛ يعني: أني أحببتك.

ومنهم من قال: ألقيت عليك محبة من الناس، والإلقاء من الله؛ أي: أن من رآك أحبك، وشاهد هذا امرأة فرعون لما رأته أحبته وقالت: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ [القصص: ٩].

ولو قال قائل: أيمكنكم أن تحملوا الآية على المعنيين؟

لقلنا: نعم! بناء على القاعدة، وهو أن الآية إذا كانت تحتمل معنيين لا منافاة بينهما؛ فإنها تحمل عليهما جميعًا؛ فموسى عليه الصلاة والسلام محبوب من الله عز وجل، ومحبوب من الناس، إذا رآه الناس؛ أحبوه، والواقع أن المعنيين متلازمان؛ لأن الله تعالى إذا أحب عبدًا؛ ألقى في قلوب العباد محبته.

ويروى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: أحبه الله وحببه إلى خلقه.

ثم قال: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾:

الصنع: جعل الشيء على صفة معينة؛ كصنع صفائح الحديد قدورًا، وصنع الخشب أبوابًا، وصنع كل شيء بحسبه؛ فصناعة البيت: بناء البيت، وصناعة

الحديد: جعلها أواني مثلا أو محركات، وصنع الآدمي: معناه التربية البدنية والعقلية: تربيته بالغذاء، وتربيته العقلية بالآداب والأخلاق وما أشبه ذلك.

وموسى عليه الصلاة والسلام حصل له ذلك؛ فإنه رُبِّيَ على عين الله:

لما التقطه آل فرعون؛ حماه الله عز وجل من قتلهم، مع أنهم كانوا يقتلون أبناء بني إسرائيل، فقضى الله تعالى أن هذا الذي تقتل الناس من أجله سيتربى في أحضان آل فرعون؛ فالناس يقتلون من أجله، وهو يتربى آمنًا في أحضانهم. وانظر إلى هذه القدرة العظيمة!!

ومن تربية الله له عرض على المراضع - النساء اللاتي يرضعنه - ولكنه ما رضع من أي واحدة: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ [القصص: ١٢]. فما رضع من امرأة قط، وكانت أخته قد انتدبت من قبل أمه، فرأتهم، وقالت: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ [القصص: ١٢]؟

قالوا: نعم؛ نحن نود هذا. فقالت: اتبعوني. فتبعوها؛ قال تعالى: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ [القصص: ١٣]! . ولم يرضع من امرأة قط، مع أنه رضيع! لكن هذا من كمال قدرة الله وصدق وعده؛ لأن الله عز وجل قال لها: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧].

الأم شفقتها على ابنها لا أحد يتصورها؛ قيل لها: اجعلي ابنك في صندوق، وألقيه في البحر، وسيأتي إليك.

لولا الإيمان الذي مع هذه المرأة؛ ما فعلت هذا الشيء! تلقي ابنها في البحر! لو أن ابنها سقط في تابوته في البحر؛ لجرته فكيف وهي التي تلقيه؟! لكن لثقتها بالرب عز وجل ووعده ألقته في اليم.

وقوله: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾؛ بالإفراد؛ هل يُنافي ما سبق من ذكرها بالجمع؟!

الجواب: لا تنافي، وذلك لأن المفرد المضاف يعم فيشمل كل ما ثبت لله من عين، وحينئذ لا منافاة بين المفرد وبين الجمع أو التثنية.

إذًا؛ يبقى بين التثنية والجمع؛ كيف نجمع بينهما؟!

الجواب أن نقول: إن كان أقل الجمع اثنين؛ فلا منافاة؛ لأننا نقول: هذا الجمع دال على اثنتين؛ فلا ينافيه. وإن كان أقل الجمع ثلاثة؛ فإن هذا الجمع لا يُراد به الثلاثة، وإنما يراد به التعظيم والتناسب بين ضمير الجمع وبين المضاف إليه.

وقد فسر أهل التحريف والتعطيل العين بالرؤية بدون عين، وقالوا: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾: برؤية منا، ولكن لا عين، والعين لا يمكن أن تثبت لله عز وجل أبدًا؛ لأن العين جزء من الجسم؛ فإذا أثبتنا العين لله؛ أثبتنا تجزئة وجسمًا، وهذا شيء ممتنع؛ فلا يجوز، ولكنه ذكر العين من باب تأكيد الرؤية؛ يعني: كأنما نراك ولنا عين، والأمر ليس كذلك!!

فنقول لهم: هذا القول خطأ من عدة أوجه:

الوجه الأول: أنه مخالف لظاهر اللفظ.

الثاني: أنه مخالف لإجماع السلف.

الثالث: أنه لا دليل عليه؛ أي: أن المراد بالعين مجرد الرؤية.

الرابع: أننا إذا قلنا بأنها الرؤية، وأثبت الله لنفسه عينًا؛ فلازم ذلك أنه يرى بتلك العين، وحينئذ يكون في الآية دليل على أنها عين حقيقية.

● **الشيخ صالح الفوزان:**

وقوله: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ هذه الآية جاءت بعد قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ يخبر تعالى أن جميع أهل الأرض سيذهبون ويموتون ولا يبقى أحد سوى وجهه الكريم، فإن الرب سبحانه لا يموت، بل هو الحي الذي لا يموت أبدًا. ﴿ذُو الْجَلَالِ﴾ أي: العظمة والكبرياء، ﴿وَالْإِكْرَامِ﴾ أي: المكرم لأنبيائه وعباده الصالحين، وقيل: المستحق أن يكرم عن كل شيء لا يليق به.

﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ﴾ أي: كل من في السماء ومن في الأرض سيذهبون ويموتون ﴿إِلَّا وَجْهَهُ﴾ منصوب على الاستثناء، وهذا إخبار بأنه الدائم الباقي الذي تموت الخلائق ولا يموت.

الشاهد من الآيتين: أن فيهما إثبات الوجه لله سبحانه، وهو من صفاته الذاتية، فهو

وجه على حقيقته يليق بجلاله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، لا كما يزعم معطلة الصفات أن الوجه ليس على حقيقته، وإنما المراد به الذات أو الثواب أو الجهة أو غير ذلك، وهذه تأويلات باطلة من وجوه:

منها: أنه جاء عطف الوجه على الذات، كما في الحديث: «**أعوذ بالله العظيم وبوجهه الكريم**»[1] والعطف يقتضي المغايرة.

ومنها: أنه أضاف الوجه إلى الذات فقال: ﴿وَجْهُ رَبِّكَ﴾ ووصف الوجه بقوله: ﴿ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ فلو كان الوجه هو الذات لكان لفظ الوجه في الآية صلة، ولقال: (ذي الجلال والإكرام)، فلما قال: ﴿ذُو الْجَلَالِ﴾ تبين أنه وصف للوجه لا للذات، وأن الوجه صفة للذات.

ومنها: أنه لا يعرف في لغة أمة من الأمم أن وجه الشيء بمعنى ذاته أو الثواب، والوجه في اللغة: مستقبل كل شيء، لأنه أول ما يواجه منه؛ وهو في كل شيء بحسب ما يضاف إليه.

﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ﴾ الخطاب لإبليس لعنه الله لما امتنع من السجود لآدم عليه السلام، أي: أيُّ شيء صرفك وصدك عن السجود،

﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ أي: باشرت خلقه بيدي من غير واسطة، وفي هذا تشريف وتكريم لآدم.

قوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ﴾ اليهود في الأصل من قولهم: (هدنا إليك) وكان اسم مدح ثم صار بعد نسخ شريعتهم لازمًا لهم، وإن لم يكن فيه معنى المدح، وقيل: سموا بذلك نسبة إلى يهوذا بن يعقوب عليه السلام.

﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ يخبر تعالى عنهم بأنهم وصفوه بأنه بخيل، كما وصفوه بأنه فقير وهم أغنياء، لا أنهم يعنون أن يده موثقة، ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ هذا رد عليهم من الله تعالى بما قالوه، ومقابلة لهم بما افتروه واختلقوه. وهكذا وقع لهم، فإن فيهم من البخل والحسد الشيء الكثير فلا ترى يهوديًا إلا وهو من أبخل خلق الله، ﴿وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾ معطوف على ما قبله، والباء سببية، أي: أبعدوا من رحمة الله بسبب هذه المقالة.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٦) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص.
والحديث صححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٤٧١٥).

ثم رد عليهم سبحانه بقوله: ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ أي: بل هو في غاية ما يكون من الجود والعطاء، فيداه مبسوطتان بذلك، ﴿ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ جملة مستأنفة مؤكدة لكمال جوده. فإنفاقه على ما تقتضيه مشيئته، فإن شاء وسع، وإن شاء ضيق، فهو الباسط القابض على ما تقتضيه حكمته.

الشاهد من الآيتين الكريمتين: أن فيهما إثبات اليدين لله سبحانه وتعالى وأنهما يدان حقيقيتان لائقتان بجلاله وعظمته ليستا كيدي المخلوق، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ وفي ذلك الرد على من نفى اليدين الحقيقيتين عن الله، وزعم أن المراد باليد القدرة أو النعمة، وهذا تأويل باطل وتحريف للقرآن الكريم.

فالمراد: يد الذات لا يد القدرة والنعمة، إذ لو كان المراد باليد القدرة - كما يقولون - لبطل تخصيص آدم بخلقه بهما، فإن جميع المخلوقات حتى إبليس خلقت بقدرته، فأي مزية لآدم على إبليس في قوله: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾. فكان يمكن لإبليس أن يقول: وأنا خلقتني بيديك إذا كان المراد بها القدرة، وأيضًا لو كان المراد باليد القدرة لوجب أن يكون لله قدرتان، وقد أجمع المسلمون على بطلان ذلك، وأيضًا لو كان المراد باليد النعمة لكان المعنى أنه خلق آدم بنعمتين، وهذا باطل؛ لأن نعم الله كثيرة لا تحصى وليست نعمتين فقط.

﴿ وَاصْبِرْ ﴾ الصبر لغة: الحبس والمنع، فهو حبس النفس عن الجزع، وحبس اللسان عن التشكي والتسخط، وحبس الجوارح عن لطم الخدود وشق الجيوب.

﴿ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ أي: لقضائه الكوني والشرعي ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ أي: بمرأى منا وتحت حفظنا، فلا تبال بأذى الكفار، فإنهم لا يصلون إليك.

قوله: ﴿ وَحَمَلْنَاهُ ﴾ أي: نوحًا عليه السلام.

﴿ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴾ أي: على سفينة ذات أخشاب عريضة، ومسامير شدت بها تلك الألواح، مفردها: دسار.

﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ﴾ أي: بمنظر ومرأى منا وحفظ لها.

﴿ جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴾ أي: فعلنا بنوح عليه السلام وبقومه ما فعلنا من إنجائه وإغراقهم ثوابًا لمن كُفِر به وجُحد أمرهُ وهو نوح عليه السلام.

وقوله: ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي ﴾ الخطاب لموسىٰ عليه السلام، أي: وضعتها عليك فأحببتك وحببتك إلىٰ خلقي. ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴾ أي: ولتربىٰ وتغذىٰ بمرأىٰ مني. أراك وأحفظك.

الشاهد من الآيات: أن فيها إثبات العينين لله تعالىٰ حقيقة علىٰ ما يليق به سبحانه. فقد نطق القرآن بلفظ العين مضافة إليه مفردة ومجموعة، ونطقت السنة بإضافتها إليه مثناة، وقال النبي ﷺ: «**إن ربكم ليس بأعور**»[١]، وذلك صريح بأنه ليس المراد إثبات عين واحدة فإن ذلك عور ظاهر تعالىٰ الله عنه.

ولغة العرب جاءت بإفراد المضاف وتثنيته وجمعه بحسب أحوال المضاف إليه، فإن أضافوا الواحد المتصل إلىٰ مفرد أفردوه، وإن أضافوا إلىٰ جمع ظاهرًا أو مضمرًا فالأحسن جمعه مشاكلة للفظ، كقوله سبحانه: ﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ﴾، وكقوله: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا ﴾، وإن أضافوه إلىٰ اسم مثنىٰ فالأفصح في لغتهم جمعه، كقوله: ﴿ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾، وإنما هما قلبان، فلا يلتبس علىٰ السامع قول المتكلم نراك بأعيننا ونأخذك بأيدينا، ولا يفهم منه بشر علىٰ وجه الأرض عيونًا كثيرة علىٰ وجه واحد. والله أعلم.

* * *

(١) أخرجه البخاري (٧٤٠٨) ومسلم (٢٩٣٣) من حديث أنس - رضي الله عنه.

أسئلة وأجوبة نموذجية على صفة الوجه واليدين والعينين

● قال الشيخ عبد العزيز السلمان:

س - بين ما تعرفه عن معنى قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ﴾، وقوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾.

ج - يخبر تعالى أن كل من على الأرض يعدم ويموت، ويبقى وجهه سبحانه، والضمير في «عليها» يعود إلى الأرض، وإن لم يتقدم لها ذكر لكن يدل على ذلك السياق ويعني بمن عليها، من بني آدم، وغيرهم من الحيوان، ولكنه غلب للعقلاء وقوله: «ذو الجلال» أي: ذو العظمة والكبرياء، وقوله: «والإكرام» يحتمل أن يكون بمعنى أنه يكرم أنبياءه ورسله وأولياءه وعباده المؤمنين كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ وقيل المستحق لأن يجل ويكرم بتوحيده وتسبيحه وعبادته، «والإجلال» يتضمن التعظيم والتنزيه، «والإكرام» يتضمن الحمد، والمحبة.

وقد دل الكتاب والسنة على إثبات هذه الصفة، أما الكتاب فهذه الآية والتي بعدها فيها إثبات الوجه على الوجه اللائق بجلاله وعظمته.

وأما السنة، فقد صح عنه ﷺ أنه استعاذ بوجه الله وكان يقول في دعائه «أسألك لذة النظر إلى وجهك».

وفيها الرد على من أنكر صفة الوجه أو أوَّلها بتأويل باطل وفي الآية الثانية إثبات الوجه لله، وبأنه الدائم الباقي الحي القيوم الذي تموت الخلائق ولا يموت.

وفي الآية رد على من أنكر هذه الصفة أو أوَّلها بتأويل باطل.

وفيها إثبات صفة الكلام لله وفيها رد على من قال إن القرآن كلام محمد أو غيره وفيها إثبات عظمة الله وكبريائه.

س - بين نوعي المضاف إلى الله واذكر أمثلة توضح ذلك؟

ج - المضاف إلى الله نوعان: أعيان قائمة بنفسها، كبيت الله، وناقة الله،

وعبد الله، وروح الله، فهذه إضافتها إلى الله تقتضي الاختصاص والتشريف، وهي من جملة المخلوقات لله.

النوع الثاني: صفات لا تقوم بنفسها كعلم الله وحياته وقدرته وعزته وسمعه وبصره ويده وإرادته وكلامه ووجهه ونفسه، فهذه إذا وردت مضافة إليه فهي من باب إضافة الصفة إلى الموصوف.

وكذلك ما أخبر أنه منه، فإن كان أعيانًا كروح منه. قال تعالى: ﴿**وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ**﴾ فهذه منه خلقًا وتقديرًا.

وإن كان ذلك أوصافًا كقوله تعالى: ﴿**تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ**﴾ دل على أن ذلك من صفاته لامتناع قيام الصفة بنفسها.

ولهذا لما اهتدى السلف لهذا الفرق الذي يحصل به الفرقان بين الحق والباطل هدوا إلى صراط مستقيم.

قال ابن القيم ـ رحمه الله:

والله أخبر في الكتاب بأنه ... منه ومجرور بمن نوعان
عين ووصف قائم بالعين فال ... أعيان خلق الخالق الرحمن
والوصف بالمجرور قام لأنه ... أولى به في عرف كل لسان
ونظير ذا أيضًا سواء ما يضا ... ف إليه من صفة ومن أعيان
فإضافة الأوصاف ثابته لمن ... قامت به كإرادة الرحمن
وإضافة الأعيان ثابته له ... ملكًا وخلقًا ما هما سيان
فانظر إلى بيت الإله وعلمه ... لما أضيفا كيف يفترقان
وكلامه كحياته وكعلمه ... في ذي الإضافة إذ هما وصفان
لكن ناقته وبيت إلهنا ... فكعبده أيضًا هما ذاتان
فانظر إلى الجهمي لما فاته الـ ... حق المبين الواضح التبيان
كان الجميع لديه بابًا واحدًا ... والصبح لاح لمن له عينان

س ـ ما الذي تعرفه عن معنى قوله تعالى ﴿ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي﴾ واذكر ما يؤخذ منها؟

ج ـ قال تعالىٰ علىٰ سبيل الإنكار والتوبيخ: يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت... إلخ. أيْ أيُّ شيء منعك وصرفك وصدك عن السجود لما توليت خلقه بيدي من غير واسطة.

وأضاف خلقه إلىٰ نفسه تكريمًا وتشريفًا، مع أنه سبحانه خالق كل شيء، كما أضاف إلىٰ نفسه الروح والبيت والناقة والمسجد وفي تثنية اليد أعظم دلالة علىٰ أنها ليست بمعنىٰ القدرة أو القوة، بل للدلالة علىٰ أنهما صفتان من صفاته.

وفي هذه الآية:

١ ـ إثبات صفة اليدين وهما من الصفات الذاتية.

٢ ـ صفة الخلق وهي من الصفات الذاتية الفعلية.

٣ ـ إثبات صفة الكلام وهي من الصفات الذاتية الفعلية.

٤ ـ الرد علىٰ من أنكر الصفات أو شيئًا منها أو أولها بتأويل باطل كالجهمية والمعتزلة والأشعرية ومن سلك طريقهم.

٥ ـ إثبات قدرة الله التي لا يعجزها شيء وهي من الصفات الذاتية.

٦ ـ في الآية ما يدل علىٰ فضيلة آدم.

٧ ـ في الآية دليل علىٰ خبث طوية إبليس لعنه الله.

٨ ـ قدم عداوة إبليس لأبينا آدم وذريته.

٩ ـ التحذير عن الكبر لأنه هو الذي حمل إبليس علىٰ ترك السجود.

١٠ ـ أن سبب هلاكه ومنعه عن السجود هي نفسه الخبيثة الشريرة التي دعته إلىٰ التكبر واحتقار آدم.

١١ ـ لطف الله بخلقه حيث كشف لهم عن عداوة إبليس لعنه الله ليحذروه ويستعيذوا من شره ويعتصموا بالله.

١٢ ـ أن الله أراد من إبليس كونًا وقدرًا أن لا يسجد لآدم وأراد منه دينًا وشرعًا أن

يسجد فأبى إبليس قبحه الله .

س ـ ما الذي تعرفه عن معنى قوله تعالى: ﴿وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء﴾؟

ج ـ يخبر تعالى عن اليهود ـ عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة ـ بأنهم وصفوه تعالى بالبخل كما وصفوه بأنه فقير وعبروا عن البخل بأن قالوا: يد الله مغلولة ـ تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً ـ.

وقوله: غلت أيديهم هذا دعاء عليهم، ويحتمل أن يكون خبراً ويحتمل أن يكون في الدنيا، ويحتمل أن يكون في الآخرة، فإن كان في الدنيا فيحتمل أن يراد به البخل.

ويقوي هذا المحمل أن البخل قد لزم اليهود لزوم الظل للشمس، فلا ترى يهودياً وإن كان ماله في غاية الكثرة إلا وهو من أبخل خلق الله.

ويحتمل غل أيديهم في الأسر، وإن كان في الآخرة، فهو جعل الأغلال فيهم في جهنم. وقوله «ولعنوا» أي: أبعدوا من رحمته بسبب قولهم.

ففي هذه الآية:

أولاً: إثبات صفة اليدين لله سبحانه وأنهما حقيقتان خلافًا لمن أولهما بالقوة أو القدرة أو النعمة كالجهمية والمعتزلة والأشاعرة.

ثانيًا: إثبات الألوهية.

ثالثًا: الرد على من أنكر هذه الصفات أو أولها بتأويل باطل.

رابعًا: فيها دليل على كرم الله وجوده وغناه، وفقر الخلق إليه.

خامسًا: في الآية ذم اليهود على جراءتهم على ربهم ووصفهم إياه بما ليس من صفته.

سادسًا: في الاية دليل على خسة اليهود وقلة أدبهم ووقاحتهم حيث تجرؤا على وصف الله بما هو منزه عنه.

سابعًا: دليل على صفة الكلام لله.

ثامنًا: كذب اليهود على الله ـ تعالى عن قولهم علوًا كبيرًا ـ.

تاسعًا: أن اليهود ملعونون ومطرودون.

عاشرًا: مراعاة النظير في التعبير.

الحادي عشر: أن قول اليهود يدل على بخلهم لأن كل إناء ينضح بما فيه وأرادوا بذلك تغطية بخلهم وشحهم وإلا فالله أكرم الأكرمين ولولا جوده وكرمه لعاجلهم بالعقوبة.

الثاني عشر: في الآية ما يدعو كل مؤمن إلى بغض اليهود.

الثالث عشر: أنه لا أظلم من اليهود لأنهم يفترون على الله الكذب.

س ـ بماذا يرد على من أول اليدين بالنعمة أو القدرة؟

ج ـ بما ذكره الإمام المحقق ابن القيم ـ رحمه الله ـ في مختصر الصواعق من الوجوه التي تبطل تحريف الجهمية، ومن نحا نحوهم فنذكر بعضها:

أولاً: أن الأصل في الكلام الحقيقة، فدعوى المجاز مخالف للأصل.

ثانيًا: أن ذلك خلاف الظاهر فقد اتفق الأصل والظاهر على بطلان هذه الدعوى.

ثالثًا: أن اطراد لفظها في موارد الاستعمال وتنوع ذلك وتصريف استعماله يمنع المجاز، ألا ترى إلى قوله: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ وقوله: ﴿يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾.

وقوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ فلو كان مجازًا في القدرة والنعمة لم يستعمل منه لفظ يمين.

وقوله في الحديث الصحيح: «**المقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين**» فلا يقال هذا يد النعمة والقدرة وقوله: «**يقبض الله سمواته بيده والأرض باليد الأخرى ثم يهزهن ثم يقول: أنا الملك**» فهنا هز وقبض وذكر يدين ولما أخبر ﷺ جعل يقبض يديه ويبسطها تحقيقًا للصفة لا تشبيهًا لها.

رابعًا: أن مثل هذا المجاز لا يستعمل بلفظ التثنية، ولا يستعمل إلا مفردًا أو مجموعًا كقوله: له عندي يد يجزيه الله بها وله عندي أيادي، وما جاء بلفظ التثنية لم يعرف استعماله قط إلا في اليد الحقيقية.

خامسًا: أنه ليس في المعهود أن يطلق الله على نفسه معنى القدرة والنعمة بلفظ التثنية، بل بلفظ الإفراد الشامل لجميع الحقيقة كقوله تعالى: ﴿إن القوة لله جميعًا﴾ وكقوله: ﴿وإن تعدوا نعمت الله لا تحصوها﴾.

وقد يجمع الله النعم كقوله: ﴿وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة﴾ وأما أن يقول: خلقتك بقدرتين أو بنعمتين فهذا لم يقع في كلامه ولا كلام رسوله.

سادسًا: أنه لو ثبت استعمال ذلك بلفظ التثنية لم يجز أن يكون المراد به هنا القدرة، فإنه يبطل تخصيص آدم، فإنه وجميع المخلوقات حتى إبليس مخلوق بقدرة الله.

سابعًا: أن هذا التركيب المذكور في قوله: خلقت بيدي يأبى حمل الكلام على القدرة لأنه نسب الخلق إلى نفسه سبحانه، ثم عدَّى الفعل إلى اليد، ثم ثَنَّاها، ثم أدخل عليها الباء التي تدخل على قوله (كتبت بالقلم) ومثل هذا نص صريح لا يحتمل المجاز بوجه.

وقال بعد ما ذكر عشرين وجهًا: ورد لفظ اليد في القرآن والسنة وكلام الصحابة والتابعين في أكثر من مائة موضع ورودًا متنوعًا متصرفًا مقرونًا بما يدل على أنها يد حقيقة من الإمساك والطي والقبض والبسط والمصافحة والحَثَيَاتْ.

والنضح باليد، والخلق باليدين، والمباشرة بها، وكتب التوراة بيده وغرس جنة عدنٍ بيده وتخمير طينة آدم بيده.

ووقوف العبد بين يديه، وكون المقسطين عن يمينه، وقيام رسول الله ﷺ يوم القيامة عن يمينه، وتخيير آدم بين ما في يديه فقال: اخترت يمين ربي وأخذ الصدقة بيمينه يربيها لصاحبها وكتابته على نفسه أن رحمته تغلب غضبه وأنه مسح ظهر آدم بيده. . . إلخ.

س - بيِّن ما تعرفه عن معنى قوله تعالى: ﴿واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا﴾؟

ج - «الصبر» لغة: الحبس والمنع، واصطلاحًا: حبس النفس على ما تكره تقربًا إلى الله.

وقال ابن القيم: الصبر ثلاثة أقسام: صبر على طاعة الله، وصبر عن معصية

الله، وصبر على امتحان الله، فالأولان صبر على ما لا كسب للعبد فيه وصبر الاختيار أكمل من صبر الاضطرار.

وتمام الصبر أن يكون كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ وأقواه أن يكون بالله معتمداً فيه عليه لا على نفسه ولا على غيره من الخلق والصبر من المقامات العالية كما قيل:

الصبر مثل اسمه مر مذاقته لكن عواقبه أحلى من العسل

وقال الآخر:

إني رأيت وفي الأيام تجربة للصبر عاقبة محمودة الأثر

وقَلَّ من جدّ في أمر تطلبه واستصحب الصبر إلا فاز بالظفر

«الحكم» لغة: القضاء، وحكم الله ينقسم إلى قسمين: حكم كونيّ قدري، وحكم شرعي ديني، وتقدم الكلام عليهما موضحاً.

«الرب»: الملك المتصرف، وتربيته للناس نوعان:

تربية خلقية: تكون بتنمية أجسامهم حتى تبلغ الأشدّ، وتنمية قواهم عليها النفسية والعقلية.

وتربية دينية: تكون بما يوحيه إلى أفراد منهم ليبلغوا الناس ما به تكمل عقولهم، وتصفوا نفوسهم. وليس لغيره أن يشرع للناس عبادة، ولا أن يحلل شيئًا ويحرم آخر إلا بإذن منه. يأمر سبحانه وتعالى نبيه ﷺ أن اصبر على أذاهم ولا تبالي بهم، وامض لأمر الله ونهيه، وبلغ ما أرسلت به فإنك بمرأى منا، ومنظر، نراك ونرى أعمالك، ونحوطك ونحفظك فلا يصل إليك منهم أذى.

س ـ ما الذي يؤخذ من هذه الآية الكريمة؟

ج ـ يؤخذ منها:

١ ـ الحث على الصبر.

٢ ـ إثبات صفة الحكم لله.

٣ ـ إثبات صفة الربوبية الخاصة.

٤ ـ إثبات المعية الخاصة .

٥ ـ إثبات فعل العبد حقيقة ، وفيها الرد على من أنكر هذه الصفات أو شيئًا منها أو أولها بتأويل باطل .

٦ ـ أن القرآن كلام الله لا كلام محمد عليه الصلاة والسلام ولا جبريل عليه السلام .

٧ ـ الحث على مراقبة الله في السر والعلانية .

٨ ـ عناية الله برسوله ﷺ .

٩ ـ أن الأمور كلها بيد الله ـ ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها .

١٠ ـ تطمين الرسول ﷺ وتسليته وأنه محوط ومحفوظ .

١١ ـ إثبات العينين لله وهما من الصفات الذاتية .

س ـ بين ما تعرفه عن معنى قوله تعالى: ﴿ وحملناه على ذات ألواح ودسر (١٣) تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر ﴾ ؟

ج ـ «الألواح» : خشب السفينة «الدسر» : المسامير . يخبر الله تعالى عن نبيه ورسوله نوح عليه السلام أنه سبحانه حمله على سفينة ذات خشب ومسامير فأنجاه وأصحاب السفينة ، وأنها تجري بمنظر منه ومرأى ، وحِفْظٍ لها عن الغرق جزاء لهم على كفرهم ، وانتصاراً لنوح حيث كذبه قومه ، وكفروا فصبر على دعوتهم ، واستمر على أمر الله فلم يرده عنه راد ، ولا صده عنه صاد . ففي هذه الآية :

١ ـ إثبات العينين على ما يليق بجلاله وعظمته .

٢ ـ إثبات قدرة الله وهي من الصفات الذاتية .

٣ ـ التحذير من معصية الله .

٤ ـ عناية الله بعبده نوح حيث انتصر له على قومه .

٥ ـ في هذه الآية إيماء إلى أنه تعالى يوجد الأسباب لتحقيق ما يريد من المسببات بحسب السنن التي وضعها في الخليقة .

٦ ـ أنه يمهل الظالمين ولا يهملهم .

٧ ـ فيها دليل على أن العاقبة للمتقين.

٨ ـ ذكر بعض آلائه لعباده ليشكروه.

٩ ـ فيها دليل على أن من قام بأمر الله وصدع بدعوته وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر أن الله ينجيه عندما يأخذ الظالمين كما قال تعالى في آية الأعراف ﴿**فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ**﴾.

١٠ ـ إثبات قدرة الله حيث نجى رسوله نوحًا عليه السلام وأهلك الظلمة.

س ـ ما الذي تفهمه عن معنى قوله تعالى: ﴿وألقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني﴾؟

ج ـ لما ذكر سبحانه منَّته على عبده ورسوله موسى بن عمران في الدين والوحي والرسالة وإجابة سؤاله ذكر نعمته عليه وقت التربية قال: ﴿**وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي**﴾ أي: ولتربى على نظري، وفي حفظي وكلاءتي.

ففي هذه الآية: إثبات العينين لله وهما من الصفات الذاتية التي لا تنفك عن الله فيجب إثباتهما على الوجه اللائق بجلاله وعظمته لثبوتهما بالكتاب والسنة.

أما الكتاب: فتقدم.

وأما السنة :ففي «الصحيحين» عن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله ليس بأعور ألا إن المسيح الدجال أعور عينه اليمنى كأنها عنبة طافية**» وفي الحديث الآخر «**إذا قام العبد في الصلاة قام بين عيني الرحمن**» وفي الآية عناية الله بعبده ورسوله موسى عليه السلام.

س ـ هل للمبتدعة حجة على نفي العينين في إفرادها في بعض النصوص. وجمعها في البعض الآخر. وضح ما تعرفه من كلام المحققين؟

ج ـ لا حجة للمبتدعة في ذلك على نفيها، ولغة العرب متنوعة في إفراد المضاف وتثنيته وجمعه بحسب أحوال المضاف إليه فإن أضافوا الواحد المتصل إلى مفرده أفردوه.

وإن أضافوا اسم جمع ظاهر أو مضمر فالأحسن جمعه مشاكلة للفظ كقوله:

﴿تجري بأعيننا﴾ وإن أضيف إلى ضمير جمع جمعت كقوله تعالى: ﴿أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا﴾ وإن أضافوا اسم مثنى فالأصح في لغتهم جمعه كقوله تعالى: ﴿فقد صغت قلوبكما﴾.

س - ما الفرق بين أسماء الله التي بلفظ الاسم، والتي بلفظ الاسم المضاف، واذكر أمثلة توضح ذلك توضيحًا شافيًا؟

ج - ما جاء بلفظ الاسم على وجه التسمي به مثل: الرحمن الرحيم الحكيم السميع العليم ونحو ذلك، فهذه أسماء يدل كل منها على صفة من صفات الله، ويشتق منها الفعل وما جاء بلفظ الاسم المضاف كقوله: ﴿يخادعون الله وهو خادعهم﴾، ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد﴾.

وقوله: ﴿وهو شديد المحال﴾ فهذا الاسم يطلق على الله بلفظ الإضافة كما ورد، وبلفظ الفعل فيقال خادع المنافقين ويخادع من خادعه. إن أخذ الله شديد ويأخذ من عصاه ويأخذ الظالمين، ولا يشتق منها اسم فلا يقال من أسمائه تعالى: المخادع ولا الخادع ولا الشديد ولا الآخذ.

لأنه لم يرد ولأنه يفهم - منها أي التسمية بذلك - نوع نقص - تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا -.

❊ ❊ ❊



وقوله: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١].

وقـــوله: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾ [آل عمران: ١٨١].

وقوله: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠].

﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦].

﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق: ١٤].

﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (٢١٩) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الشعراء: ٢١٨-٢٢٠].

﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥].

• الشَّرح •

• الشيخ محمد خليل هراس:

قوله: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ﴾: إلخ هذه الآيات ساقها المؤلف لإثبات صفات السمع والبصر والرؤية.

أمـا السـمع: فقد عبرت عنه الآيات بكل صيغ الاشتقاق وهي سمع ويسمع

وسميع ونسمع وأسمع، فهو صفة حقيقية لله يدرك بها الأصوات كما قدمنا.

وأما البصر: فهو الصفة التي يدرك بها الأشخاص والألوان والرؤية لازمة له، وقد جاء في حديث أبي موسى: «**يا أيها الناس اربعوا على أنفسكم إنكم لا تدعون أصمًّا ولا غائبًا ولكن تدعون سميعًا بصيرًا إن الذي تدعون أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته**»(١).

وكل من السمع والبصر صفة كمال وقد عاب الله على المشركين عبادتهم ما لا يسمع ولا يبصر، وقد نزلت الآية الأولى في شأن خولة بنت ثعلبة حين ظاهر منها زوجها فجاءت تشكو إلى رسول الله ﷺ وتحاوره وهو يقول لها: «**ما أراك إلا قد حرمت عليه**»(٢).

أخرج البخاري في «صحيحه»(٣) عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت: «الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة تشكوا إلى رسول الله ﷺ وأنا في ناحية من البيت ما أسمع ما تقول فأنزل الله عز وجل: ﴿**قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا**﴾» الآيات.

وأما الآية الثانية: فقد نزلت في فنحاص اليهودي الخبيث حين قال لأبي بكر رضي الله عنه لما دعاه إلى الإسلام: (والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله حاجة من فقر وأنه إلينا لفقير ولو كان غنيًّا ما استقرضنا).

وأما الآية الثالثة: فأم: بمعنى بل والهمزة، فهي أم المنقطعة والاستفهام إنكاري يتضمن معنى التوبيخ، والمعنى بل أيظن هؤلاء في تخفيهم واستتارهم أنا لا نسمع سرهم ونجواهم، بلى نسمع ذلك وحفظتنا لديهم يكتبون ما يقولون وما يفعلون.

وأما الآية الرابعة: فهي خطاب من الله عز وجل لموسى وهارون عليهما الصلاة والسلام حين شكوا إلى الله خوفهما من بطش فرعون بهما، فقال لهما: ﴿**لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ**﴾.

وأما الآية الخامسة: فقد نزلت في شأن أبي جهل لعنه الله حين نهى النبي ﷺ عن

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٨٣٠)، ومسلم (٢٧٠٤).

(٢) أخرجه البيهقي (٧/ ٣٨٤).

(٣) أخرجه البخاري (٦/ ٢٦٨٩) تعليقًا مجزومًا به.

الصلاة عند البيت فنزل قوله تعالىٰ: ﴿أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ (١١) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ (١٢) أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (١٣) أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾ إلخ السورة.

● الشيخ ابن عثيمين:

ذكر المؤلف ـ رحمه الله ـ في إثبات صفتي السمع والبصر آيات سبعًا:

الآية الأولى: قوله تعالىٰ: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١].

﴿قَدْ﴾: للتحقيق.

والمجادلة: هي التي جاءت إلىٰ النبي ﷺ تشتكي زوجها حين ظاهر منها[١].

والظهار: أن يقول الرجل لزوجته: أنت عليَّ كظهر أمي. أو كلمة نحوها

وكان الظهار في الجاهلية طلاقًا بائنًا، فجاءت تشتكي إلىٰ رسول الله ﷺ، وتبين له كيف يطلقها هذا الرجل ذلك الطلاق البائن وهي أم أولاده، وكانت تحاور النبي ﷺ؛ أي: تراجعه الكلام، فأفتاها الله عز وجل بما أفتاها به في الآية المذكورة. والشاهد من هذه الآيات قوله: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ﴾؛ ففي هذا إثبات السمع لله سبحانه وتعالىٰ، وأنه يسمع الأصوات مهما بعدت ومهما خفيت.

قالت عائشة رضي الله عنها: «تبارك (أو قالت: الحمد لله) الذي وسع سمعه الأصوات، إني لفي ناحية البيت، وإني ليخفىٰ علي بعض حديثها»[٢]. وهذا معنىٰ حديثها.

والسمع المضاف إلىٰ الله عز وجل ينقسم إلىٰ قسمين:

١- سمع يتعلق بالمسموعات؛ فيكون معناه إدارك الصوت.

---

(١) والحديث في النسائي في «الكبرىٰ» (٣٤٦٠) وابن ماجه (٢٠٦٣) من حديث عائشة رضي الله عنه. وقد تقدم في أول الكتاب.

(٢) سبق تخريجه.

٢- وسمع بمعنى الاستجابة؛ فيكون معناه أن الله يجيب من دعاه؛ لأن الدعاء صوت ينطلق من الداعي، وسمع الله دعاءه؛ يعني: استجاب دعاءه، وليس المراد سمعه مجرد سماع فقط؛ لأن هذا لا فائدة منه، بل الفائدة أن يستجيب الله الدعاء.

فالسمع الذي بمعنى إدراك الصوت ثلاث أقسام:

أحدها: ما يقصد به التهديد.

والثاني: ما يقصد به التأييد.

والثالث: ما يقصد به بيان إحاطة الله سبحانه وتعالى.

١- أما ما يقصد به التهديد؛ فكقوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم﴾ [الزخرف: ٨٠]، وقوله: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاء﴾ [آل عمران: ١٨١].

٢- وأما ما يقصد به التأييد؛ فكقوله تعالى لموسى وهارون: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٦]؛ أراد الله عز وجل أن يؤيد موسى وهارون بذكر كونه معهما يسمع ويرى؛ أي: يسمع ما يقولان وما يقال لهما، ويراهما ومن أرسلا إليه، وما يفعلان، وما يفعل بهما.

٣- وأما ما يقصد به بيان الإحاطة؛ فمثل هذه الآية، وهي: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّه﴾ [المجادلة: ١].

الآية الثانية: قوله: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاء﴾ [آل عمران: ١٨١].

﴿لَّقَدْ﴾: جملة مؤكدة باللام، و(قد)، والقسم المقدر؛ تقديره: والله؛ فهي مؤكدة بثلاثة مؤكدات.

والذين قالوا: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاء﴾: هم اليهود قاتلهم الله؛ فهم وصفوا الله بالعيب؛ قالوا: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾.

وسبب قولهم هذا: أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا

حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ ﴾ [البقرة: ٢٤٥]، قالوا للرسول ﷺ: يا محمد! إن ربك افتقر، يسأل القرض منا(١).

الآية الثالثة: قوله: ﴿ **أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ** ﴾ [الزخرف: ٨٠].

﴿أَمْ﴾: في مثل هذا التركيب؛ يقولون: إنها متضمنة معنى (بل)، والهمزة؛ يعني: بل أيحسبون؛ ففيها إضراب وفيها استفهام؛ أي: بل أيحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم.

والسر: ما يسره الإنسان إلى صاحبه.

والنجوى: ما يناجي به صاحبه ويخاطبه؛ فهو أعلى من السر.

والنداء: ما يرفع به صوته لصاحبه.

فها هنا ثلاثة أشياء: سر ومناجاة ونداء.

فمثلا؛ إذا كان شخص إلى جانبك، وساررته؛ أي: كلمته بكلام لا يسمعه غيره؛ نسمي هذا مُسارة.

وإذا كان الحديث بين القوم يسمعونه كلهم ويتجاذبونه؛ سمي مناجاة. وأما المناداة؛ فتكون من بعيد لبعيد.

فهؤلاء يسرون ما يقولونه من المعاصي، ويتناجون بها؛ فيقول الله عز وجل مهدداً إياهم: ﴿ **أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَى** ﴾.

و ﴿بَلَى﴾: حرف إيجاب؛ يعني: بلى نسمع، وزيادة على ذلك: ﴿ **وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ** ﴾؛ أي: عندهم يكتبون ما يسرون وما به يتناجون، والمراد بالرسل هنا الملائكة الموكلون بكتابة أعمال بني آدم؛ ففي هذه الآية إثبات أن الله تعالى يسمع سرهم ونجواهم.

الآية الرابعة: قوله: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٦].

الخطاب لموسى وهارون عليهما الصلاة والسلام؛ يقول الله سبحانه وتعالى

---

(١٣٤) تفسير الطبري (٤/ ١٩٤).

لهما : ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ ؛ أي : أسمع ما تقولان، وأسمع ما يقال لكما ؛ وأراكما، وأرىٰ من أرسلتما إليه، وأرىٰ ما تفعلان، وأرىٰ ما يُفعل بكما .

لأنه إما أن يساء إليهما بالقول أو بالفعل ؛ فإن كان بالقول ؛ فهو مسموع عند الله، وإن كان بالفعل ؛ فهو مرئي عند الله .

الآية الخامسة: قوله: ﴿أَلَم يعلم بأنَّ الله يرى﴾ [العلق: ١٤].

الضمير في ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ﴾ يعود إلىٰ من يسيء إلىٰ النبي ﷺ، لقوله: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى * عَبْدًا إِذَا صَلَّى * أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَى * أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى * أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى * أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ [العلق: ٩-١٤]، وقد ذكر المفسرون أن المراد به أبو جهل .

وفي هذه الآية : إثبات صفة الرؤية لله عز وجل .

والرؤية المضافة إلى الله لها معنيان:

المعنى الأول: العلم .

والثاني: رؤية المبصرات ؛ يعني : إدراكها بالبصر .

فمن الأول: قوله تعالىٰ عن يوم القيامة : ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا * وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج: ٦، ٧] ؛ فالرؤية هنا رؤية العلم ؛ لأن اليوم ليس جسمًا يرىٰ، وأيضًا هو لم يكن بعد ؛ فمعنىٰ : ﴿وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾ ؛ أي : نعلمه قريبًا .

وأما قوله : ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ ؛ فهي صالحة لأن تكون بمعنىٰ العلم وبمعنىٰ الرؤية البصرية، وإذا كانت صالحة لهما، ولا منافاة بينهما وجب أن تُحمل عليهما جميعًا، فيقال: إن الله يرىٰ ؛ أي : يعلم ما يفعله هذا الرجل وما يقوله، ويراه أيضًا .

الآية السادسة: قوله: ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ * إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الشعراء: ٢١٨-٢٢٠].

قبل هذه الآية قوله : ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ [الشعراء: ٢١٧].

والرؤية هنا رؤية البصر ؛ لأن قوله : ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ﴾ . لا تصح أن تكون بمعنىٰ العلم ؛ لأن الله يعلم به حين يقوم وقبل أن يقوم، وأيضًا لقوله : ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي

السَّاجِدِينَ﴾، وهو يؤيد أن المراد بالرؤية هنا رؤية البصر.

ومعنى الآية: أن الله تعالى يراه حين يقوم للصلاة وحده، وحين يتقلب في الصلاة مع الساجدين في صلاة الجماعة.

﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾: ﴿إِنَّهُ﴾: أي: الله الذي يراك حين تقوم: ﴿هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

وفي الآية هنا ضمير الفصل (هو)؛ من فوائده الحصر؛ فهل الحصر هنا حقيقي؛ بمعنى: أنه حصر لا يوجد شيء من المحصور في غير المحصور فيه، أو هو إضافي؟

الجواب: هو إضافي من وجه حقيقي من وجه؛ لأن المراد بـ ﴿السَّمِيعُ﴾ هنا: ذو السمع الكامل المدرك لكل مسموع، وهذا هو الخاص بالله عز وجل، والحصر بهذا الاعتبار حقيقي، أما مطلق السمع؛ فقد يكون من الإنسان؛ كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢]؛ فجعل الله تعالى الإنسان سميعًا بصيراً. وكذلك ﴿الْعَلِيمُ﴾؛ فإن الإنسان عليم؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات: ٢٨]، لكن العلم المطلق؛ أي: الكامل، خاص بالله سبحانه وتعالى؛ فالحصر بهذا الاعتبار حقيقي.

وفي هذه الآية الجمع بين السمع والرؤية.

الآية السابعة: قوله: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥].

والذي قبل هذه الآية: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٣، ١٠٤].

في هذه الآية يقول: ﴿فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾.

قال ابن كثير وغيره: قال مجاهد: هذا وعيد[1] - يعني من الله تعالى - للمخالفين أوامره؛ بأن أعمالهم ستُعرضَ عليه وعلى الرسول والمؤمنين، وهذا كائن لا محالة

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» وابن المنذر وأبو الشيخ عن مجاهد كما في «الدر المنثور» (٤/ ٢٨٣).

يوم القيامة، وقد يظهر الله ذلك للناس في الدنيا.

والرؤية هنا شاملة للعلمية والبصرية.

ففي الآية: إثبات الرؤية بمعنييها: الرؤية العلمية، والرؤية البصرية.

وخلاصة ما سبق من صفتي السمع والرؤية:

أن السمع ينقسم إلى قسمين:

١- سمع بمعنى الاستجابة.

٢- وسمع بمعنى إدراك الصوت.

وأن إدراك الصوت ثلاثة أقسام.

وكذلك الرؤية تنقسم إلى قسمين:

١- رؤية بمعنى العلم.

٢- ورؤية بمعنى إدراك المبصرات.

وكل ذلك ثابت لله عز وجل.

والرؤية التي بمعنى إدراك المبصرات ثلاثة أقسام:

- قسم يقصد به النصر والتأييد؛ كقوله: ﴿**إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ**﴾ [طه: ٤٦].

- وقسم يقصد به الإحاطة والعلم؛ مثل قوله: ﴿**إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا**﴾ [النساء: ٥٨].

- وقسم يقصد به التهديد؛ مثل قوله: ﴿**قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ**﴾ [التوبة: ٩٤].

ما نستفيده من الناحية المسلكية في الإيمان بصفتي السمع والرؤية:

- أما الرؤية؛ فنستفيد من الإيمان بها الخوف والرجاء: الخوف عند المعصية؛ لأن الله يرانا. والرجاء عند الطاعة؛ لأن الله يرانا. ولاشك أنه سيثيبنا على هذا؛ فتتقوى عزائمنا بطاعة الله، وتضعف إرادتنا لمعصيته.

- وأما السمع: فالأمر فيه ظاهر؛ لأن الإنسان إذا آمن بسمع الله؛ استلزم إيمانه كمال مراقبة الله تعالى فيما يقول خوفًا ورجاء: خوفًا؛ فلا يقول ما يسمع الله تعالى

منه من السوء؛ ورجاء؛ فيقول الكلام الذي يرضى الله عز وجل.

● الشيخ صالح الفوزان:

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي﴾ وهي خولة بنت ثعلبة ﴿تُجَادِلُكَ﴾ أيها النبي، أي: تراجعك الكلام في شأن ﴿زَوْجِهَا﴾ وهو: أوس بن الصامت، وذلك حين ظاهر منها ﴿وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ معطوف على ﴿تُجَادِلُكَ﴾، وذلك أنه كلما قال لها رسول الله ﷺ: «قد حرمت عليه» قالت: والله ما ذكر طلاقًا، ثم تقول: أشكو إلى الله فاقتي ووحدتي، وأن لي صبية صغاراً إن ضممتهم إليه ضاعوا، وإن ضممتهم إليّ جاعوا، وجعلت ترفع رأسها إلى السماء وتقول: اللهم إني أشكو إليك[1].

﴿وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾ أي: تراجعكما في الكلام ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ يسمع كل الأصوات، ويبصر ويرى كل المخلوقات، ومن جملة ذلك ما جادلتك به هذه المرأة.

وقوله: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ هم قوم من اليهود قالوا هذه المقالة لما أنزل الله: ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥]، قالوا ذلك تمويهًا على ضعفائهم، لا أنهم يعتقدون ذلك؛ لأنهم أهل كتاب، وإنما قالوا ذلك ليشككوا في دين الإسلام.

وقوله: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ﴾ ما يسرون به في أنفسهم أو ما يتحادثون به سراً في مكان خال ﴿وَنَجْوَاهُم﴾ أي: ما يتناجون به فيما بينهم، والنجوى: ما يتحدث به الإنسان مع رفيقه ويخفيه عن غيره. ﴿بَلَىٰ﴾ نسمع ذلك ونعلم به ﴿وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ أي: الحفظة عندهم يكتبون جميع ما يصدر عنهم من قول أو فعل.

وقوله: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا﴾ يقول تعالى لموسى وأخيه هارون عليهما السلام لما أرسلهما إلى فرعون: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا﴾ أي: بحفظي وكلاءتي ونصري لكما ﴿أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ أي: أسمع كلامكما وكلام عدوكما، وأرى مكانكما، ومكانه، وما يجري منكما ومنه. وهذا تعليل لقوله ﴿لَا تَخَافَا﴾.

---

(١) ذكره بهذا اللفظ القرطبي في «تفسيره» (١٧/ ٢٧٠) وأصل الحديث أخرجه النسائي (٣٤٦٠) وابن ماجه (١٨٨) عن عائشة ـ رضي الله عنه ـ.

قوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَم﴾ أبو جهل حينما نهى رسول الله ﷺ عن الصلاة ﴿بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾ أي: أما علم أن الله يراه ويسمع كلامه، وسيجازيه على فعله أتم الجزاء، والاستفهام للتقريع والتوبيخ.

وقوله: ﴿الَّذِي يَرَاكَ﴾ أي: يبصرك ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ للصلاة وحدك ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ أي: ويراك إن صليت في الجماعة راكعًا وساجدًا وقائمًا ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لما تقوله ﴿الْعَلِيمُ﴾ به.

قوله: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا﴾ أي: قل يا محمد لهؤلاء المنافقين: اعملوا ما شئتم واستمروا على باطلكم، ولا تحسبوا أن ذلك سيخفى ﴿فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: ستظهر أعمالكم للناس وترى في الدنيا ﴿وَسَتُرَدُّونَ﴾ بعد الموت ﴿إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فيجازيكم على ذلك.

الشاهد من الآيات الكريمة: في هذه الآيات وصف الله سبحانه بالسمع والبصر، وأنه تعالى يسمع ويبصر حقيقة على ما يليق به، منزه عن صفات المخلوقين ومماثلتهم، فالآيات صريحة في إثبات السمع والبصر حيث جاء فيها إثبات السمع لله بلفظ الماضي والمضارع واسم الفاعل سمع ويسمع وسميع. ولا يصح في كلام العرب أن يقال لشيء: هو سميع بصير إلا وذلك الشيء يسمع ويبصر، هذا هو الأصل فلا يقال: جبل سميع بصير؛ لأن ذلك مستحيل إلا لمن يسمع ويبصر.

* * *

أسئلة وأجوبة نموذجية على صفة السمع والبصر

● قال عبد العزيز المحمد السلمان:

س - بين ما تعرفه عن معنى قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١].

ج - المعنى: قد سمع الله قول المرأة التي تجادلك في شأن زوجها وهي خولة بنت ثعلبة، والحال أنها تشتكي إلى الله ضعفها وقلة حيلتها، وذلك حين ظاهر منها زوجها بعد الصحبة الطويلة والأولاد، قالت عائشة - رضي الله عنها: تبارك الذي وسع سمعه الأصوات كلها، إن المرأة لتحاور رسول الله وأنا في ناحية البيت أسمع بعض كلامها ويخفى علي بعضه إذ أنزل الله ﴿قَدْ سَمِعَ﴾ الآيات.

س - ما الذي يؤخذ من هذه الآية الكريمة: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ﴾، ووضح معنى «السميع»؟

ج - أولاً: إثبات الألوهية.

ثانيًا: إثبات صفة السمع، ومن أسمائه تعالى: السميع ومعناه: الذي لا يعزب عن سمعه المسموع وإن خفي، فيسمع دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، فأحاط سمعه بجميع المسموعات سرها وعلنها، وقريبها وبعيدها فلا تختلط عليه الأصوات على اختلاف اللغات وعلى تفنن الحاجات وكأنها لديه صوت واحد.

وسمعه تعالى نوعان أحدهما: سمعه جميع الأصوات كما تقدم.

والثاني: سمع إجابة منه للسائلين، والداعين، والعابدين، ومنه قوله تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩].

قال ابن القيم رحمه الله:

وهو السميع يرى ويسمع ما ... في الكون من سر ومن إعلان

ولكل صوت منه سمع حاضر فالسر والإعلان مستويان
والسمع منه واسع الأصوات لا يخفي عليه بعيدها والدان

ومما يؤخذ من الآية:

ثالثًا: إثبات صفة البصر.

رابعًا: إثبات الأفعال الاختيارية.

خامسًا: أن الشكوىٰ إلىٰ الله لا تنافي الصبر.

س - بين ما تعرفه عن معنى قوله تعالى: ﴿لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء﴾ [الأعراف: ١٨١] وما سبب نزول الآية؟ ولماذا نسب القتل إلى اليهود الأحياء مع أنهم لم يباشروه؟

ج - سبب نزولها ما ورد عن سعيد بن جبير عن ابن عباس لما أنزل الله قوله تعالىٰ: ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥] قالت اليهود: يا محمد أفتقر ربك فسأل عباده القرض فأنزل الله ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ الآية.

يخبر تعالىٰ عن هؤلاء المتمردين الذين قالوا أقبح مقالة وأشنعها فأخبر أنه قد سمع ما قالوه وأنه سيكتبه ويحفظه مع أفعالهم الشنيعة وهي قتلهم الأنبياء بغير حق وأنه سيعاقبهم علىٰ ذلك أشد عقوبة.

ولا غرابة فهم اليهود الذين مردوا علىٰ النفاق ومردوا علىٰ السوآت فهم الذين قتلوا الأنبياء قديمًا بغير حق ولا ذنب إلا أنهم يقولون ربنا الله وأنهم يرشدونهم إلىٰ مصالح الدنيا والدين.

ونسبة القتل إلىٰ اليهود الأحياء مع أنهم لم يباشروا؛ لأنهم راضون عنهم وهم سلفهم ومن أمتهم والأمة تؤخذ بذنب أفرادها ولأنهم بين فاعل القبيح وتارك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيكون مشتركًا بالقوة لا بالفعل.

وهؤلاء اليهود حاولوا قتل النبي ﷺ وما حادثة أكلة خيبر ببعيدة وجزاء هؤلاء أن الله سينتقم منهم، ويقول لهم تعالىٰ إهانة وتنكيلاً بهم وتعذيبًا ﴿ذُوقُوا عَذَابَ

﴿الْحَرِيقِ﴾ [آل عمران: ١٨١] كما أذاقوا أولياء الله ما يكرهونه.

س ـ ما الذي يؤخذ من هذه الآية الكريمة؟

ج ـ فيها أولاً: إثبات صفة السمع لله على ما يليق بجلاله وعظمته.

ثانيًا: إثبات صفة الألوهية.

ثالثًا: يجب على أفراد الأمة الإنكار على من يفعل المنكر وتغييره، والنهي عنه لئلا يفشوا فيها فيصير خلقًا من أخلاقها وعادة مستحكمة فيها فتستحق العقوبة في الدنيا بالضيق والفقر والعقوبة في الآخرة.

رابعًا: أن المتأخر إذا لم ينظر إلى عمل المتقدم ويطبقه على أحكام الشريعة فيستحسن منه ما تستحسنه ويستهجن ما تستهجنه عُدَّ شريكًا له في إثمه ومستحقًا لمثل عقوبته.

خامسًا: أن الجزاء من جنس العمل، فكما أذاقوا أولياء الله ألوانًا من العذاب قيل لهم: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾.

سادسًا: إثبات القول لله.

سابعًا: أن هذا الأسلوب يتضمن التهديد والوعيد وليس المراد مجرد الإخبار بالسمع والكتب لكن المراد مع ذلك الإخبار بما يترتب على ذلك من المجازات بالعدل.

ثامنًا: وجود الحفظة.

تاسعًا: في الآية دليل على البعث والجزاء على الأعمال.

عاشرًا: الرد على المعطلة المنكرين لصفة السمع، والمعتزلة القائلين سميع بلا سمع والمنكرين لصفة الكلام.

الحادي عشر: إثبات قدرة الله.

الثاني عشر: إثبات حلم الله.

الثالث عشر: أن الله لا يخفى عليه شيء فلذلك أخبر عما سيكون يوم القيامة.

الرابع عشر: إثبات النار وأنها لمن عصى وتمرد.

الخامس عشر: أن الله يمهل وأن كل شيء محصى.

س ـ ما الذي تعرفه عن معنى قوله تعالى: ﴿أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون﴾ [الزخرف: ٨٠] وما الذي يؤخذ منها؟

ج ـ «السر»: حديث الإنسان بينه وبين نفسه أو غيره في خفية، و «النجوى»: هو ما يتحدث به الإنسان مع رفيقه ويخفيه عن غيره «بلى»: كلمة تذكر لإثبات نفي سابق أي: بل أيظنون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم، والحفظة الكرام يكتبون ما يصدر منهم من قول وفعل صغير أو كبير حتى يردوا يوم القيامة فيجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً. قال صاحب الزينبية:

واحذر مناقشة الحساب فإنه ... لابد يحصى ما جنيت ويكتب
لم ينسه الملكان حين نسيته ... بل أثبتاه وأنت لاهٍ تلعب

مما يؤخذ منها:

أولاً: إثبات صفة السمع وهو من الصفات الذاتية.

ثانيًا: أن السر والعلانية مستويان عند الله تعالى.

ثالثًا: فيها تحذير وتخويف فإن طريقة القرآن يذكر العلم والقدرة تهديداً وتخويفًا لترتيب الجزاء عليها كهذه الآية فالنبيه يأخذ حذره وغيره يهمل.

رابعًا: فيها دليل على وجود الحفظة وأنهم يكتبون ما يصدر من بني آدم.

خامسًا: فيها رد على من أنكر وجود الملائكة.

سادسًا: فيها رد على من أنكر صفة السمع أو أولها بتأويل باطل.

سابعًا: إثبات صفة العلم والحياة والحكمة.

ثامنًا: إثبات صفة الكلام والرد على من أنكرها.

تاسعًا: إثبات قدرة الله.

عاشراً: الحث على مقام الإحسان.

الحادي عشر: إثبات البعث والحشر والحساب والجزاء والجنة والنار.

الثاني عشر: لطف الله بخلقه حيث بين للخلق أنهم لم يهملوا ليجتهد المطيع

ويحذر العاصي.

س ـ ما الذي يراد بفعل السمع؟

ج ـ ذكر ابن القيم ـ رحمه الله ـ أنه يرا د به أربعة معان:

أحدها: سمع إدراك ومتعلقه الأصوات.

الثاني: سمع فهم وعقل ومتعلقه المعاني.

الثالث: سمع إجابة وإعطاء ما سأل.

الرابع: سمع قبول وانقياد.

فمن الأول قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ [المجادلة: ١]، ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران: ١٨١].

ومن الثاني قوله تعالى: ﴿لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا﴾ [البقرة: ١٠٤]، وليس المراد بالسمع سمع مجرد الكلام، بل الفهم والعقل، ومنه ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٥].

ومن الثالث: سمع الله لمن حمده وفي الدعاء المأثور: «اللهم اسمع» أي أجب وأعط ما سألتك.

ومن الرابع قوله تعالى: ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ أي: قابلون له منقادون غير منكرين له ومنه على أصح القولين: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ أي: قابلون ومنقادون وقيل: عيون وجواسيس وليس بشيء.

س ـ ما الذي تعرفه عن معنى اسمه تعالى «البصير»؟

ج ـ معناه الذي أحاط بصره بجميع المبصرات فهو سبحانه يشاهد ويرى كل شيء وإن خفي قريبًا أو بعيدًا فلا تؤثر على رؤيته الحواجز والأستار، فيرى دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء ومناط عروق البعوض والذر وجريان القوت في العروق مهما دقت ولطفت.

قال ابن القيم ـ رحمه الله تعالى:

وهو البصير يرى دبيب النملة السـ … ـوداء تحت الصخر والصوان

ويرى مجاري القوت في أعضائها ويرى نياط عروقها بعيان
ويرى خيانات العيون بلحظها ويرى كذاك تقلب الأجفان

س ـ ما الذي تعرفه عن معنى قوله تعالى: ﴿ألم يعلم بأن الله يرى﴾ مبينًا سبب نزولها؟

ج ـ قيل إن هذه الآية نزلت في أبي جهل حين نهى النبي ﷺ عن الصلاة عند البيت: والمعنى أما علم هذا الناهي عن الهدى بأن الله يراه ويسمع كلامه وسيجازيه على فعله أتم الجزاء.

ففي الآية:

أولاً: وعيد شديد.

ثانيًا: إثبات الرؤية.

ثالثًا: إثبات الألوهية.

رابعًا: إثبات صفة الكلام.

خامسًا: الخوف من الله جل وعلا.

سادسًا: الحث على المراقبة.

س ـ ما الذي تعرفه عن معنى قوله تعالى: ﴿الذي يراك حين تقوم (٢١٨) وتقلبك في الساجدين (٢١٩) إنه هو السميع العليم﴾؟

ج ـ المعنى يقول تعالى لنبيه ﷺ توكل على العزيز الرحيم... إلخ. أي: فوض جميع أمورك إليه فإنه مؤيدك وناصرك ومظفرك ومعلي كلمتك ومعتن بك يراك في هذه العبادة العظيمة التي هي الصلاة وقت قيامك فيها وتقلبك راكعًا وساجدًا.

وخصها بالذكر لفضلها وشرفها ولأن من استحضر قرب ربه فيها خشع وذل وكملها وبتكميلها يكمل سائر عمله ويستعين بها على جميع أموره إنه هو السميع لسائر الأصوات على اختلافها وتشتتها وتنوعها.

العليم الذي أحاط علمه بكل شيء بالماضي والحاضر والمستقبل والواجب والممكن والمستحيل والظاهر والباطن والشاهد والغائب في علمه على السواء لا إله

إلا هو رب العرش العظيم.

يستنبط من الآية:

١ ـ الحث على التوكل.

٢ ـ إثبات العزة لله تعالى «إن العزة لله جميعًا».

٣ ـ إثبات الرحمة.

٤ ـ إثبات صفة البصر.

٥ ـ إثبات صفة السمع.

٦ ـ إثبات صفة العلم.

٧ ـ إثبات قرب الله.

٨ ـ متمسك لمن فضل السمع على البصر.

٩ ـ إثبات الرؤية.

١٠ ـ عناية الله بنبيه ﷺ.

١١ ـ دليل على الصلاة وشرفها.

١٢ ـ الحث على مقام الإحسان.

١٣ ـ الرد على من أنكر شيئًا من الصفات.

١٤ ـ إثبات صفة الكلام لله.

١٥ ـ دليل على أن القرآن كلام الله لا كلام محمد ولا غيره.

١٦ ـ دليل على أن الله مؤيد نبيه وحافظه وناصره.

١٧ ـ الرد على من أنكر رسالة محمد ﷺ.

س١٥٦ ـ تكلم بوضوح عن ما تفهمه من معنى قوله تعالى ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾؟

ج ـ قل يا محمد لهؤلاء المنافقين اعملوا ما شئتم من الأعمال واستمروا على باطلكم فلا تحسبوا أن ذلك سيخفى فلابد أن يبين عملكم ويتضح.

وعن أبي سعيد عن رسول الله ﷺ قال: «**لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء ليس باب ولا كوة لأخرج الله تعالى عمله للناس كائنًا ما كان**» قال زهير ابن أبي سلمىٰ:

ومهما تكن عند امرء من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم

قال مجاهد علىٰ الآية ﴿**وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ**﴾ إلخ: هذا وعيد يعني من الله للمخالفين أوامره بأن أعمالهم ستعرض عليه تبارك وتعالىٰ وعلىٰ رسوله ﷺ وعلىٰ المؤمنين وهو كائن لا محالة يوم القيامة كما قال تعالىٰ ﴿**يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ**﴾ وقد يظهر الله تعالىٰ ذلك للناس في الدنيا كما تقدم في حديث أبي سعيد ما يدل علىٰ ذلك ففي الآية:

١ ـ إثبات الرؤية.

٢ ـ إثبات الألوهية.

٣ ـ رؤية الرسول ﷺ لأعمالهم.

٤ ـ رؤية المؤمنين لأعمال المذكورين.

٥ ـ إثبات البعث.

٦ ـ إثبات الحشر.

٧ ـ إثبات الجزاء علىٰ الأعمال.

٨ ـ إثبات صفة الكلام لله.

٩ ـ صفة العلم لله.

١٠ ـ أن الله لا يضل ولا ينسىٰ.

١١ ـ أن القرآن كلام الله لا كلام محمد.

١٢ ـ الرد علىٰ من أنكر شيئًا من هذه الصفات أو أولها بتأويل باطل.

١٣ ـ الحث علىٰ المراقبة وإخلاص العمل لله وحده.

* * *



صفة المكر والكيد

وقوله: ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ [الرعد: ١٣].

وقوله: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤].

وقوله: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ٥٠].

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (١٥) وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق: ١٥، ١٦].

• الشَّرح •

● قال الشيخ محمد خليل هراس:

وقوله: ﴿وهو شديد المحال﴾ إلخ: تضمنت هذه الآيات إثبات صفتي المكر والكيد وهما من صفات الفعل الاختيارية، ولكن لا ينبغي أن يشتق له من هاتين الصفتين اسم، فيقال: ماكر وكائد بل يوقف عند ما ورد به النص من أنه خير الماكرين، وأنه يكيد لأعدائه الكافرين.

أما قوله سبحانه: ﴿وهو شديد المحال﴾: فمعناه شديد الأخذ بالعقوبة كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ ﴿إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾.

وقال ابن عباس: معناه شديد الحول، وقال مجاهد: شديد القوة والأقوال متقاربة.

وأما قوله: ﴿والله خير الماكرين﴾: فمعناه أنفذهم وأسرعهم مكرًا.

وقد فسر بعض السلف مكر الله بعباده بأنه استدراجهم بالنعم من حيث لا يعلمون، فكلما أحدثوا ذنبًا أحدث لهم نعمة، وفي الحديث: «إذا رأيت الله يعطي

العبد من الدنيا ما يحب وهو مقيم على معصيته فاعلم أنما ذلك منه استدراج»[(١)] .

وقد نزلت هذه الآية في شأن عيسى عليه السلام حين أراد اليهود قتله فدخل بيتًا فيه كوة وقد أيده الله بجبريل عليه السلام فرفعه إلى السماء من الكوة، فدخل عليه يهوذا ليدلهم عليه فيقتلوه فألقى الله شبه عيسى على ذلك الخائن، فلما دخل البيت فلم يجد فيه عيسى خرج إليهم وهو يقول ما في البيت أحد، فقتلوه وهم يرون أنه عيسى فذلك قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ﴾

وأما قوله تعالى: ﴿ومكروا مكرًا﴾ إلخ: فهي في شأن الرهط التسعة من قوم صالح عليه السلام حين تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله، أي ليقتلنه بياتًا هو وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله، فكان عاقبة هذا المكر منهم أن مكر الله بهم فدمرهم وقومهم أجمعين.

● قال الشيخ ابن عثيمين:

ذكر المؤلف - رحمه الله - ثلاث صفات متقاربة في أربع آيات: المحال، والمكر، والكيد.

الآية الأولى: في المحال، وهي قوله: ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ [الرعد: ١٣].

أي: شديد الأخذ بالعقوبة. وقيل: إن المحال بمعنى المكر؛ أي: شديد المكر، وكأنه على هذا التفسير مأخوذ من الحيلة، وهي أن يتحيل بخصمه حتى يوقع به. وهذا المعنى ظاهر صنيع المؤلف - رحمه الله -؛ لأنه ذكرها في سياق آيات المكر والمكيد.

والمكر؛ قال العلماء في تفسيره: إنه التوصل بالأسباب الخفية إلى الإيقاع بالخصم؛ يعني: أن تفعل أسبابًا خفية فتوقع بخصمك وهو لا يحس ولا يدري، ولكنها بالنسبة لك معلومة مدبرة.

والمكر يكون في موضع مدحًا ويكون في موضع ذمًا: فإن كان في مقابلة من يمكر؛ فهو مدح؛ لأنه يقتضي أنك أنت أقوى منه. وإن كان في غير ذلك؛ فهو ذم ويسمى خيانة.

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد (٤/ ١٤٥)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٧/ ٣٣٠) وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٦١).

ولهذا لم يصف الله نفسه به إلا على سبيل المقابلة والتقييد؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ٥٠]، على الإطلاق؛ فلا يقال: إن الله ماكر! لا على سبيل الخبر، ولا على سبيل التسمية، ولا يقال: إنه كائد! لا على سبيل الخبر، ولا على سبيل التسمية؛ ذلك لأن هذا المعنى يكون مدحًا في حال ويكون ذمًا في حال؛ فلا يمكن أن نصف الله به على سبيل الإطلاق.

فأما قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤]؛ فهذا كمال، ولهذا لم يقل: أمكر الماكرين بل قال: ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾؛ فلا يكون مكره إلا خيرًا، ولهذا يصح أن نصفه بذلك؛ فنقول: هو خير الماكرين. أو نصفه بصفة المكر في سبيل المقابلة؛ أي: مقابلة من يمكر به، فنقول: إن الله تعالى ماكر بالماكرين؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾ [الأنفال: ٣٠].

الآية الثانية: في المكر، وهي قوله: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤].

هذه نزلت في عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام، مكر به اليهود ليقتلوه، ولكن كان الله تعالى أعظم منهم مكرًا، رفعه الله، وألقى شبهه على أحدهم، على الذي تولى كبره وأراد أن يقتله، فلما دخل عليه هذا الذي يريد القتل، وإذا عيسى قد رفع، فدخل الناس، فقالوا: أنت عيسى! قال: لست عيسى! فقالوا: أنت هو! لأن الله تعالى ألقى عليه شبهه، فقتل هذا الرجل الذي كان يريد أن يقتل عيسى ابن مريم، فكان مكره عائدًا عليه، ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾[1].

الآية الثالثة: في المكر أيضًا، وهي قوله: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ٥٠].

هذه في قوم صالح، كان في المدينة التي كان يدعو الناس فيها إلى الله تسعة رهط - أي: أنفار -: ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ [النمل: ٤٩]؛ يعني: لنقتلنه بالليل، ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [النمل: ٤٩]؛ يعني: أنهم قتلوه بالليل؛ فما يشاهدونه. لكن مكروا ومكر الله! قيل: إنهم لما خرجوا ليقتلوه،

---

(١) تفسير الطبري (٣/ ٢٨٩).

فلجئوا إلى غار ينتظرون الليل؛ انطبق عليهم الغار، فهلكوا، وصالح وأهله لم يمسهم سوء، فيقول الله: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾[1].

و ﴿مَكْرًا﴾: في الموضعين منكرة للتعظيم؛ أي: مكروا مكرًا عظيمًا، ومكرنا مكرًا أعظم.

الآية الرابعة: في الكيد، وهي قوله: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق: ١٥، ١٦].

﴿إِنَّهُمْ﴾: أي: كفار مكة، ﴿يَكِيدُونَ﴾ للرسول ﷺ ﴿كَيْدًا﴾ لا نظير له في التنفير منه ومن دعوته، ولكن الله تعالى يكيد كيدًا أعظم وأشد.

﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾: يعني: كيدًا أعظم من كيدهم.

ومن كيدهم ومكرهم ما ذكره الله في سورة الأنفال: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ [الأنفال: ٣٠]: ثلاثة آراء:

١ـ ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾: يعني: يحبسوك.

٢ـ ﴿يَقْتُلُوكَ﴾: يعني: يعدموك.

٣ـ ﴿يُخْرِجُوكَ﴾: يعني: يطردوك.

وكان رأي القتل أفضل الآراء عندهم بمشورة إبليس؛ لأن إبليس جاءهم بصورة شيخ نجدي، وقال لهم: انتخبوا عشرة شبان من عشر قبائل من قريش، وأعطوا كل واحد سيفًا، ثم يعمدون إلى محمد ﷺ، فيقتلونه قتلة رجل واحد، فيضيع دمه في القبائل، فلا تستطيع بنو هاشم أن تقتل واحدًا من هؤلاء الشبان، وحينئذ يلجئون إلى الدية، فتسلمون منه. فقالوا: هذا الرأي!! وأجمعوا على ذلك[2].

ولكنهم مكروا مكرًا والله تعالى يمكر خيرًا منه؛ قال تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة كما في «الدر المنثور» (٦/ ٣٦٩).

(٢) أخرج الطبري في «تفسيره» (٩/ ٢٢٦) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٥١) وعزاه لابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو نعيم والبيهقي في «الدلائل» عن ابن عباس ـ رضي الله عنه.

اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]؛ فما حصل لهم الذي يريدون! بل إن الرسول عليه الصلاة والسلام خرج من بيته، يذر التراب على رءوس العشرة هؤلاء، ويقرأ: ﴿وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ٩]؛ فكانوا ينتظرون الرسول عليه الصلاة والسلام يخرج، فخرج من بينهم، ولم يشعروا به.

إذًا؛ صار مكر الله عز وجل أعظم من مكرهم؛ لأنه أنجى رسوله منهم وهاجر.

قال هنا: ﴿يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق: ١٥، ١٦]، والتنكير فيها للتعظيم، وكان كيد الله عز وجل أعظم من كيدهم.

وهكذا يكيد الله عز وجل لكل من انتصر لدينه؛ فإنه يكيد له ويؤيده؛ قال الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ [يوسف: ٧٦]؛ يعني: علمنا عملا حصل به مقصوده دون أن يشعر به أحد.

وهذا من فضل الله عز وجل على المرء: أن يقيه شر خصمه على وجه الكيد والمكر على هذا الخصم الذي أراد الإيقاع به.

فإن قلت: ما هو تعريف المكر والكيد والمحَال؟

فالجواب: تعريفها عند أهل العلم: التوصل بالأسباب الخفية إلى الإيقاع بالخصم؛ يعني: أن توقع بخصمك بأسباب خفية لا يدري عنها.

وهي في محلها صفة كمال يحمد عليها، وفي غير محلها صفة نقص يذم عليها.

ويذكر أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه لما بارز عمرو بن ود - والفائدة من المبارزة أنه إذا غلب أحدهما انكسرت قلوب خصومه -، فلما خرج عمرواً؛ صرخ علي: ما خرجت لأبارز رجلين. فالتفت عمرو، فلما التفت؛ ضربه علي رضي الله عنه على رقبته حتى أطاح برأسه!

هذا خداع، لكنه جائز، ويحمد عليه؛ لأنه في موضعه؛ فإن هذا الرجل ما خرج ليكرم على ابن أبي طالب رضي الله عنه ويهنئه، ولكنه خرج ليقتله؛ فكاد له علي رضي الله عنه بذلك[1].

---

(١) وانظر «تاريخ الطبري» (٢/ ٩٤) و«السيرة النبوية» لابن هشام (٤/ ١٨١).

والمكر والكيد والمحال من صفات الله الفعلية التي لا يوصف بها على سبيل الإطلاق؛ لأنها تكون مدحًا في حال، وذمًا في حال؛ فيوصف بها حين تكون مدحًا، ولا يوصف بها إذا لم تكن مدحًا؛ فيقال: الله خير الماكرين، خير الكائدين، أو يقال: الله ماكر بالماكرين، خادع لمن يخادعه.

والاستهزاء من هذا الباب؛ فلا يصح أن نخبر عن الله بأنه مستهزئ على الإطلاق؛ لأن الاستهزاء نوع من اللعب؛ وهو منفي عن الله؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ﴾ [الدخان: ٣٨]، لكن في مقابلة من يستهزئ به يكون كمالًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُواْ إِنَّا مَعَكْمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُونَ﴾ [البقرة: ١٤]؛ قال الله: ﴿اللّهُ يَسْتَهْزِىءُ بِهِمْ﴾ [البقرة: ١٥].

فأهل السنة والجماعة يثبتون هذه المعاني لله عز وجل على سبيل الحقيقة.

لكن أهل التحريف يقولون: لا يمكن أن يوصف الله بها أبدًا، لكن ذكر مكر الله ومكرهم من باب المشاكلة اللفظية، والمعنى مختلف؛ مثل: ﴿رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ [المائدة: ١١٩].

ونحن نقول لهم: هذا خلاف ظاهر النص، وخلاف إجماع السلف.

وقد قلنا سابقًا: إذا قال قائل: ائت لنا بقول لأبي بكر أو عمر أو عثمان أو علي رضي الله عنهم يقولون فيه: إن المراد بالمكر والكيد والاستهزاء والخداع الحقيقة!

فنقول لهم: نعم؛ هم قرءوا القرآن وآمنوا به، وكونهم لم ينقلوا هذا المعنى المتبادر إلى معنى آخر؛ يدل على أنهم أقروا به، وأن هذا إجماع، ولهذا يكفينا أن نقول في الإجماع: لم ينقل عن واحد منهم خلاف ظاهر الكلام، وأنه فسر الرضا بالثواب، أو الكيد بالعقوبة . . . ونحو ذلك.

وهذه الشبهة ربما يوردها علينا أحد من الناس؛ يقولون: أنتم تقولون: هذا إجماع السلف؛ أين إجماعهم؟

نقول: عدم نقل ما يخالف ظاهرها عنهم دليل الإجماع.

ما نستفيده من الناحية المسلكية في إثبات صفة المكر والكيد والمحال:

المكر: يستفيد به الإنسان بالنسبة للأمر المسلكي مراقبة الله سبحانه وتعالىٰ، وعدم التحيل علىٰ محارمه، وما أكثر المتحيلين علىٰ المحارم! فهؤلاء المتحيلون علىٰ المحارم إذا علموا أن الله تعالىٰ خير منهم مكراً، وأسرع منهم مكراً؛ فإن ذلك يستلزم أن ينتهوا عن المكر.

ربما يفعل الإنسان شيئًا فيما يبدو للناس أنه جائز لا بأس به، لكنه عند الله ليس بجائز، فيخاف، ويحذر.

وهذا له أمثلة كثيرة جداً في البيوع والأنكحة وغيرهما:

مثال ذلك في البيوع: رجل جاء إلىٰ آخر؛ قال: أقرضني عشرة آلاف درهم. قال: لا أقرضك إلا باثني عشر ألفًا! وهذا ربًا وحرام سيتجنبه لأنه يعرف أنه ربا صريح! لكن باع عليه سلعة باثني عشر ألفًا مؤجلة إلىٰ سنة بيعًا تامًا، وكُتبت الوثيقة بينهما، ثم إن البائع أتىٰ إلىٰ المشتري، وقال: بعنيه بعشرة آلاف نقداً. فقال: بعتك إياه. وكتبوا بينهما وثيقة بالبيع!.

فظاهر هذا البيع الصحة، ولكن نقول: هذه حيلة؛ فإن هذا لما عرف أنه لا يجوز أن يعطيه عشرة آلاف باثنىٰ عشر ألفًا؛ قال: أبيع السلعة عليه باثني عشر، وأشتريها نقداً بعشرة.

ربما يستمر الإنسان في هذه المعاملة لأنها أمام الناس معاملة ليس فيها شيء، لكنها عند الله تحيل علىٰ محارمه، وقد يملي الله تعالىٰ لهذا الظالم، حتىٰ إذا أخذه لم يفلته[1]؛ يعني: يتركه ينمو ماله ويزداد وينمو بهذا الربا، لكن إذا أخذه لم يفلته، وتكون هذه الأشياء خسارة عليه فيما بعد، ومآله إلىٰ الإفلاس، ومن الكلمات المشهورة علىٰ ألسنة الناس: من عاش في الحيلة مات فقيراً.

مثال في الأنكحة: امرأة طلقها زوجها ثلاثًا؛ فلا تحل له إلا بعد زوج، فجاء صديق له، فتزوجها بشرط أنه متىٰ حللها - يعني: متىٰ جامعها - طلقها، ففعل؛ تزوج بعقد وشهود ومهر، ودخل عليها، وجامعها، ثم طلقها، ولما طلقها؛ أتت

---

(١) وفي الحديث «إن الله ليملي للظالم حتىٰ إذا أخذه لم يفلته: ثم قرأ - ﷺ - ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرىٰ وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد﴾ البخاري (٤٦٨٦) ومسلم (٢٥٨٣) من حديث أبي موسىٰ - رضي الله عنه.

بالعدة، وتزوجها الأول؛ إنها ظاهرًا تحل للزوج الأول، لكنها باطنًا لا تحل؛ لأن هذه حيلة.

فمتى علمنا أن الله أسرع مكرًا، وأن الله خير الماكرين؛ أوجب لنا ذلك أن نبتعد غاية البعد عن التحيل على محارم الله.

● قال الشيخ صالح الفوزان:

وقوله: ﴿وَهُوَ﴾ أي: الله سبحانه ﴿شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ المحل: في اللغة: الشدة، أي: شديد الكيد.

قال الزجاج: يقال: ما حلته محالاً إذا قاويته حتى يتبين أيكما أشد. وقال ابن الأعرابي: المحال: المكر. فهو سبحانه شديد المكر وشديد الكيد، والمكر من الله: إيصال المكروه إلى من يستحقه من حيث لا يشعر.

وقوله: ﴿وَمَكَرُوا﴾ أي: الذين أحس عيسى منهم الكفر، وهم كفار بني إسرائيل الذين أرادوا قتل عيسى وصلبه، والمكر: فعل شيء يراد به ضده. ﴿وَمَكَرَ اللَّهُ﴾ أي: استدرجهم وجازاهم على مكرهم فألقى شبه عيسى على غيره، ورفع عيسى إليه. ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾أي: أقواهم وأقدرهم على إيصال الضرر بمن يستحقه من حيث لا يشعر ولا يحتسب.

وقوله: ﴿وَمَكَرُوا﴾ أي: الكفار الذين تحالفوا على قتل نبي الله صالح عليه السلام وأهله خفية خوفًا من أوليائه ﴿وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾ جازيناهم بفعلهم هذا، فأهلكناهم ونجينا نبينا ﴿وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ بمكرنا.

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ﴾ أي: كفار قريش ﴿يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ أي: يمكرون لإبطال ما جاء به محمد ﷺ من الدين الحق ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ أي: أستدرجهم وأجازيهم على كيدهم فآخذهم على غرة وهم لا يشعرون.

الشاهد من الآيات: في هذه الآيات وصف الله بالمكر والكيد، ونسبة ذلك إليه سبحانه حقيقة على بابه، فإن المكر: إيصال الشيء إلى الغير بطريق خفي، وكذلك الكيد والمخادعة والمكر؛ والكيد نوعان: قبيح: وهو إيصال ذلك لمن لا يستحقه، وحسن: وهو

إيصاله إلىٰ من يستحقه عقوبة له، فالأول مذموم، والثاني ممدوح. والرب تعالىٰ إنما يفعل من ذلك ما يحمد عليه عدلاً منه وحكمة، وهو تعالىٰ يأخذ الظالم والفاجر من حيث لا يحتسب لا كما يفعل الظلمة بعباد الله. والله أعلم.

والله سبحانه لم يصف نفسه بالكيد والمكر والخداع إلا علىٰ وجه الجزاء لمن فعل ذلك بغير حق. وقد علم أن المجازاة حسنة من المخلوق فكيف بالخالق سبحانه وتعالىٰ؟!

تنبيه: نسبة الكيد والمكر ونحوهما إليه سبحانه من إطلاق الفعل عليه تعالىٰ، والفعل أوسع من الاسم؛ ولهذا أطلق الله علىٰ نفسه أفعالاً لم يَتَسَمَّ منها بأسماء الفاعل، كأراد وشاء ولم يسم بالمريد والشائي. وكذا مكر ويمكر، وأكيد كيداً، ولا يقال: الماكر والكائد؛ لأن مسمياتها تنقسم إلىٰ ممدوح ومذموم.



أسئلة وأجوبة نموذجية على صفة المكر والكيد

● قال الشيخ عبد العزيز المحمد السلمان:

س ـ بين حكم ما ورد بلفظ الفعل كقوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾، ﴿ومكروا مكرا ومكرنا مكرًا وهم لا يشعرون﴾، وقوله: ﴿إنهم يكيدون كيدا (١٥) وأكيد كيدا﴾؟

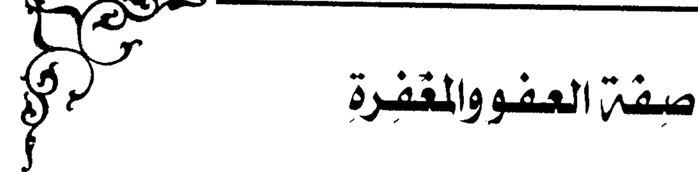
ج ـ هذا يطلق على الله كما ورد ولا يجوز أن يشتق لله منه اسم فلا يقال من أسمائه الماكر ولا الكائد، لأنه لم يرد.

وأما تسميته مكرًا وكيدًا فقيل من باب المقابلة نحو ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ ونحو ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾.

وقيل: إنه على بابه فإن المكر إظهار أمر وإخفاء خلافه، ليتوصل به إلى مراده وهو ينقسم إلى قسمين محمود ومذموم، فالقبيح إيصاله إلى من لا يستحقه وأما الحسن فإيصاله إلى من يستحقه عقوبة له.

فالأول: وهو المحمود منه نسبته إلى الله لا نقص فيها، وأما الثاني: وهو المذموم فلا ينسب إلى الله فمن المحمود مكره سبحانه بأهل المكر مقابلة لهم بفعلهم وجزاء لهم من جنس عملهم وكذا يقال في الكيد كما يقال في المكر، والله إنما يفعل من ذلك ما يحمد عليه عدلاً منه وحكمه.

* * *



صفة العفو والمغفرة

وقوله: ﴿إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٤٩].

وقوله: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢].

• الشَّرح •

● قال الشيخ محمد خليل هراس:

قوله: ﴿إن تبدوا خيراً﴾ إلخ: هذه الآيات تضمنت إثبات صفات العفو والقدرة والمغفرة والرحمة والعزة والتبارك والجلال والإكرام.

«فالعفو» الذي هو اسمه تعالى معناه المتجاوز عن عقوبة عباده إذا هم تابوا إليه وأنابوا كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾.

ولما كان أكمل العفو ما كان عن قدرة تامة على الانتقام والمؤاخذة جاء هذان الاسمان الكريمان العفو والقدير، مقترنين في هذه الآية وفي غيرهما.

وأما «القدرة» فهي الصفة التي تتعلق بالممكنات إيجاداً وإعداماً فكل ما كان ووقع من الكائنات واقع بمشيئته وقدرته كما في الحديث: «ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن»

وأما قوله تعالى: ﴿وليعفوا وليصفحوا﴾ الآية فقد نزلت في شأن أبي بكر رضي الله عنه حين حلف لا ينفق على مسطح بن أثاثة، وكان ممن خاضوا في الإفك، وكانت أم مسطح بنت خالة أبي بكر، فلما نزلت هذه الآية قال أبو بكر، والله إني

لأحب أن يغفر الله لي ووصل مسطحًا.

● قال الشيخ ابن عثيمين:

ذكر المؤلف ـ رحمه الله ـ أربع آيات في صفة العفو والقدرة والمغفرة والرحمة والعزة:

الآية الأولى: في العفو والقدرة: قوله: ﴿إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوَءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٤٩].

يعني: إن تفعلوا خيراً، فتبدوه؛ أي: تظهروه للناس، ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾؛ يعني: عن الناس؛ فإن الله تعالى يعلمه، ولا يخفى عليه شيء.

وفي الآية الثانية: ﴿إِن تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٤].

وهذا أعم؛ يشمل الخير والشر وما ليس بخير ولا شر.

ولكل آية مكانها ومناسبتها لمن تأمل.

وقوله: ﴿أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوَءٍ﴾:

العفو: هو التجاوز عن العقوبة؛ فإذا أساء إليك إنسان، فعفوت عنه؛ فإن الله سبحانه وتعالى يعلم ذلك.

ولكن العفو يشترط للثناء على فاعله أن يكون مقرونًا بالإصلاح؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]، وذلك أن العفو قد يكون سببًا للزيادة في الطغيان والعدوان، وقد يكون سببًا للانتهاء عن ذلك، وقد لا يزيد المعتدي ولا ينقصه.

١ ـ فإذا كان سببًا للزيادة في الطغيان؛ كان العفو هنا مذمومًا، وربما يكون ممنوعًا؛ مثل أن نعفوا عن هذا المجرم، ونعلم ـ أو يغلب على الظن ـ أنه يذهب فيجرم إجرامًا أكبر؛ فهنا لا يمدح العافي عنه، بل يذم.

٢ ـ وقد يكون العفو سببًا للانتهاء عن العدوان؛ بحيث يخجل ويقول: هذا الذي عفا عني لا يمكن أن أعتدي عليه مرة أخرى، ولا على أحد غيره. فيخجل أن يكون

هو من المعتدين، وهذا الرجل من العافين؛ فالعفو هنا محمود ومطلوب، وقد يكون واجبًا.

٣ـ وقد يكون العفو لا يؤثر لا ازديادًا ولا نقصًا، فهو أفضل؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَن تَعْفُواْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [البقرة: ٢٣٧].

وهنا يقول تعالى: ﴿أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوَءٍ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٤٩]؛ يعني: إذا عفوتم عن السوء؛ عفا الله عنكم، ويؤخذ هذا الحكم من الجواب: ﴿فَإِنَّ اللّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾؛ يعني: فيعفو عنكم مع قدرته على الانتقام منكم وجمع الله تعالى هنا بين العفو والقدير؛ لأن كمال العفو أن يكون عن قدرة. أما العفو الذي يكون عن عجز؛ فهذا لا يمدح فاعله؛ لأنه عاجز عن الأخذ بالثأر. وأما العفو الذي لا يكون مع قدرة؛ فقد يُمدح، لكنه ليس عفوًا كاملا، بل العفو الكامل ما كان عن قدرة.

ولهذا جمع الله تعالى بين هذين الاسمين (العفو) و(القدير).

فالعفو: هو المتجاوز عن سيئات عباده، والغالب أن العفو يكون عن ترك الواجبات، والمغفرة عن فعل المحرمات.

والقدير: ذو القدرة، وهي صفة يتمكن بها الفاعل من الفعل بدون عجز.

وهذان الاسمان يتضمنان صفتين، وهما: العفو، والقدرة.

الآية الثانية: في المغفرة والرحمة: قوله: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢].

هذه الآية نزلت في أبي بكر رضي الله عنه، وذلك أن مسطح بن أثاثة رضي الله عنه كان ابن خالة أبي بكر، وكان ممن تكلموا في الإفك.

وقصة الإفك(١) : أنْ قومًا من المنافقين تكلموا في عرض عائشة رضي الله عنها، وليس والله قصدهم عائشة، لكن قصدهم رسول الله ﷺ: أن يدنسوا فراشه، وأن يلحقوه العار والعياذ بالله! ولكن الله ـ ولله الحمد ـ فضحهم، وقال: ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١١].

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤١٤١) ومسلم (٢٧٧٠) من حديث أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها.

تكلموا فيها، وكان أكثر من تكلم فيها المنافقون، وتكلم فيها نفر من الصحابة رضي الله عنهم معروفون بالصلاح، ومنهم مسطح بن أثاثة، فلما تكلم فيها، وكان هذا من أكبر القطعية - قطعية الرحم - أن يتكلم إنسان في قريبه بما يخدش كرامته، لا سيما وأن ذلك في أم المؤمنين زوجة رسول الله ﷺ؛ أقسم أبو بكر ألا ينفق عليه، وكان أبو بكر رضي الله عنه هو الذي ينفق عليه، فقال الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [النور: ٢٢]- وكل هذه الأوصاف ثابتة في حق مسطح؛ فهو قريب ومسكين ومهاجر- ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢]؛ فقال أبو بكر رضي الله عنه: بلى والله؛ نحب أن يغفر الله لنا! فرد عليه النفقة[1].

هذا هو ما نزلت فيه الآية.

أما تفسيرها؛ فقوله: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾: اللام لام الأمر، وسكنت لأنها أتت بعد الواو، ولام الأمر تسكن إذا وقعت بعد الواو - كما هنا - أو بعد الفاء أو بعد (ثم): قال الله تعالى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾ [الطلاق: ٧]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ [الحج: ٢٩]؛ هذا إذا كانت لام أمر، أما إذا كانت لام تعليل؛ فإنها تبقى مكسورة، لا تسكن، وإن وليت هذه الحروف.

قوله: ﴿وَلْيَعْفُوا﴾؛ يعني: يتجاوزوا عن الأخذ بالذنب.

﴿وَلْيَصْفَحُوا﴾؛ يعني: يعرضوا عن هذا الأمر، ولا يتكلموا فيه؛ مأخوذ من صفحة العنق، وهي جانبه؛ لأن الإنسان إذا أعرض؛ فالذي يبدو منه صفحة العنق.

والفرق بين العفو والصفح: أن الإنسان قد يعفو ولا يصفح، بل يذكر هذا العدوان وهذه الإساءة، لكنه لا يأخذ بالذنب؛ فالصفح أبلغ من مجرد العفو.

وقوله: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾: ﴿أَلَا﴾: للعرض، والجواب: بلى نحب ذلك؛ فإذا كنا نحب أن يغفر الله لنا؛ فلنتعرض لأسباب المغفرة.

ثم قال: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: ﴿غَفُورٌ﴾ هذه إما أن تكون اسم فاعل للمبالغة،

---

(١) انظر تفسير الطبري (١٨/ ٨٤) والدر المنثور (٦/ ١٤٥).

وإما أن تكون صفة مشبهة؛ فإذا كانت صفة مشبهة؛ فهي دالة علىٰ الوصف اللازم الثابت، هذا هو مقتضىٰ الصفة المشبهة، وإن كانت اسم فاعل محولا إلىٰ صيغة التكثير؛ كانت دالة علىٰ وقوع المغفرة من الله بكثرة.

وبعد هذا نقول: إنها جامعة بين الأمرين، فهي صفة مشبهة؛ لأن المغفرة صفة دائمة لله عز وجل، وهي أيضًا فعل يقع بكثرة؛ فما أكثر مغفرة الله عز وجل! وما أعظمها!

وقوله: ﴿رَّحِيمٌ﴾: هذه أيضًا اسم فاعل محول إلىٰ صيغة المبالغة، وأصل اسم الفاعل من رحمَ: راحم، لكن حول إلىٰ رحيم لكثرة رحمة الله عز وجل وكثرة من يرحمهم الله عز وجل.

والله سبحانه وتعالىٰ يقرن بين هذين الإسمين؛ لأنهما دالان علىٰ معنىٰ متشابه؛ ففي المغفرة زوال المكروب وآثار الذنب، وفي الرحمة حصول المطلوب؛ كما قال الله تعالىٰ للجنة: «أنت رحمتي أرحم بك من أشاء»[1].

● الشيخ صالح الفوزان:

﴿إِن تُبْدُوا خَيْرًا﴾ أي: تظهروه ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ فتعملوه سرًّا. ﴿أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ﴾ أي: تتجاوزوا عمن أساء إليكم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا﴾ عن عباده يتجاوز عنهم ﴿قَدِيرًا﴾ علىٰ الانتقام منهم بما كسبت أيديهم، فاقتدوا به سبحانه فإنه يعفو مع القدرة.

قوله: ﴿وَلْيَعْفُوا﴾ أي: ليستر ويتجاوز أولو الفضل والسعة المذكورون في أول الآية ﴿وَلْيَصْفَحُوا﴾ بالإعراض عن الجاني والإغماض عن جنايته ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ بسبب عفوكم وصفحكم عن المسيئين إليكم ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ كثير المغفرة ﴿رَّحِيمٌ﴾ كثير الرحمة.

❊ ❊ ❊

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٨٥٠) ومسلم (٢٨٤٦) من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه.

أسئلة وأجوبة نموذجية على صفة العفو والمغفرة

● قال الشيخ عبد العزيز المحمد السلمان:

س ـ بين ما تعرفه عن معنى قوله تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾، وما الذي يؤخذ منها؟

ج ـ يخبر تعالى أن فاعلي الخير سراً وجهراً والعافين عمن يسيء إليهم يجزيهم ربهم من جنس ما عملوا فيعفوا عن سيئاتهم والله من شأنه العفو وهو القدير الذي يعطي الثواب الكثير على العمل القليل.

يؤخذ من هذا ـ :

أولاً: إثبات علم الله.

ثانيًا: إثبات الألوهية.

ثالثًا: إثبات قدرة الله.

رابعًا: إثبات صفة العفو.

خامسًا: فيها دليل على كرم الله.

سادسًا: فيها إرشاد إلى التفقد في أسماء الله وصفاته.

سابعًا: أن الخلق والأمر صادر عنها وهي مقتضية له. ولهذا يعلل الأحكام بالأسماء الحسنى كما في هذه الآية لَمَّا ذَكَرَ عمل الخير والعفو عن المسيء رتب ذلك بأن أحالنا على معرفة أسمائه، ومن أسمائه تعالى «العَفُوُّ» ومعناه: المتجاوز عن خطيئات عباده إذا تابوا وأنابوا، قال ابن القيم:

وهو العفو فعفوه وسع الورى　　　لولاه غاض الأرض بالسكان

وهو قريب من اسمه تعالى الغفور ولكنه أبلغ منه فإن الغفران ينبئ عن الستر، والعفو ينبئ عن المحو والمحو أبلغ من الستر، ولما كان أكمل العفو، ما كان من مقدرة تامة على الانتقام والمؤاخذة قرن الله بين اسمه تعالى العَفُوُّ واسْمُهُ القدير كما في هذه

الآية الكريمة فالقدير هو الذي لايعجزه شيء.

قال ابن القيم ـ رحمه الله:

وهو القدير وليس يعجزه إذا ما رام شيئًا قط ذو السلطان

ثامنًا: الحث على العفو ومكارم الأخلاق والإحسان.

تاسعًا: أن العفو والصفح عن الخلق سبب لعفو الله عن العافي.

عاشرًا: أن الجزاء من جنس العمل.

الحادي عشر: لطف الله بعباده مع ظلمهم لأنفسهم.

الثاني عشر: الرد على الجبرية الذين يزعمون أن العبد لا فعل له وإنما ينسب إليه على جهة المجاز وقولهم باطل.

الثالث عشر: أن السر والعلانية عند الله على السواء.

س ـ بين ما تعرفه عن معنى قوله تعالى: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؟

ج ـ العفو: الستر والتجاوز، والصفح والإعراض فأصبح معنى الآية: ليعفوا عن ذنبهم الذي أذنبوه عليهم وجناياتهم التي اقترفوها وليصفحوا بالإغضاء عن الجاني والإغماض عن جنايته.

ثم ذكر سبحانه ترغيبًا عظيمًا لمن عفا وصفح فقال: ﴿أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أي بسبب عفوكم وصفحكم عن الفاعلين للإساءة عليكم وبسبب إحسانكم إليهم والله غفور رحيم أي كثير المغفرة والرحمة لعباده مع كثرة ذنوبهم وتقدم الكلام على اسمه تعالى الغفور واسمه الرحيم.

س ـ ما الذي يؤخذ من هذه الآية الكريمة؟

ج ـ **أولاً:** الأمر بالعفو ومكارم الأخلاق.

ثانيًا: الأمر بالصفح عمن أساء.

ثالثًا: أن العفو سبب لمغفرة الله.

رابعًا: أن الصفح سبب لمغفرة الله.

خامسًا: إثبات صفة المغفرة وهي من الصفات الذاتية الفعلية.

سادسًا: إثبات صفة الرحمة وهي من الصفات الذاتية الفعلية.

سابعًا: في الآية دليل على أن الجزاء من جنس العمل.

ثامنًا: فيها دليل على حلم الله ولطفه بعباده مع ظلمهم لأنفسهم.

تاسعًا: إثبات فعل العبد وأنه فاعل حقيقة.

عاشرًا: الرد على الجبرية الذين يزعمون أن العبد مجبور على فعله وأن الفاعل عندهم هو الله تعالى، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

الحادي عشر: النفقة على القريب.

الثاني عشر: النهي عن الحلف على ترك العمل الصالح.

الثالث عشر: قال بعضهم إن هذه الآية أرجى آية في القرآن لأن الله أوصى بالإحسان إلى القاذف.

الرابع عشر: ختم الآية بهاتين الصفتين إشارة إلى أن كل اسم يناسب ما ذكر معه واقترن به من فعله وأمره.

الخامس عشر: فيها دليل على أن أسماء الرب مشتقة من أوصاف ومعان قامت به سبحانه فهي أسماء وأوصاف وبذلك كانت حسنى، قال ابن القيم رحمه الله:

أسماؤه دلت على أوصافه ... مشتقة منها اشتقاق معان

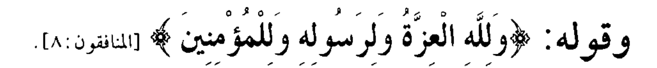
وصفاته دلت على أسمائه ... والفعل مرتبط به الأمران

والحكم نسبتها إلى متعلقا ... ت تقتضي آثارها ببيان

* * *



صفة العزة والقدرة



وقوله: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

وقوله [عن إبليس]: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢].

• الشَّرح •

● قال الشيخ محمد خليل هراس:

وأما قوله تعالى: ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾: فقد نزلت في شأن عبدالله بن أبي ابن سلول رئيس المنافقين، وكان في بعض الغزوات قد أقسم ليخرجن رسول الله ﷺ هو وأصحابه من المدينة فنزل قوله تعالى: ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ﴾ يقصد بالأعز قبحه الله نفسه وأصحابه. ويقصد بالأذل رسول الله ومن معه من المؤمنين، فرد الله عز وجل بقوله: ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾.

والعزة صفة أثبتها الله عز وجل لنفسه

قال تعالى: ﴿ وهو العزيز الحكيم﴾ وقال: ﴿ وكان الله قويا عزيزا﴾ وأقسم بها سبحانه كما في حديث الشفاعة: «وعزتي وكبريائي وعظمتي لأخرجن منها من قال لا إله إلا الله» وأخبر عن إبليس أنه قال: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾.

وفي صحيح البخاري وغيره عن أبي هريرة: «بينا أيوب عليه السلام يغتسل عريانًا خرّ عليه جراد من ذهب فجعل يحثي في ثوبه فناداه ربه: يا أيوب ألم أكن أغنيتك عما

ترى؟ قال: بلى وعزتك ولكن لا غني لي عن بركتك»[1] .

وقد جاء في حديث الدعاء الذي علمه النبي ﷺ لما كان به وجع: «أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر»[2] .

والعزة تأتي بمعنى الغلبة والقهر من عز يعز بضم العين في المضارع يقال: عزه إذا غلبه، وتأتي بمعنى القوة والصلابة من عز يعز بفتحها، ومنه أرض عزاز للصلبة الشديدة، وتأتي بمعنى علو القدر والامتناع عن الأعداء من عز يعز بكسرها، وهذه المعاني كلها ثابتة لله عز وجل.

● الشيخ محمد بن صالح العثيمين:

الآية الثالثة: في العزة: وهي قوله: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

هذه الآية نزلت في مقابلة قول المنافقين: ﴿لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨]؛ يريدون أنهم الأعز، وأن رسول الله والمؤمنين الأذلون، فبين الله تعالى أنه لا عزة لهم، فضلا عن أن يكونوا هم الأعزون، وأن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين.

ومقتضى قول المنافقين أن الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم والمؤمنين هم الذين يخرجون المنافقين؛ لأنهم أهل العزة، والمنافقين أهل الذلة، ولهذا كانوا يحسبون كل صيحة عليهم، وذلك لذلهم وهلعهم، وكانوا إذا لقوا الذين آمنوا؛ قالوا: آمنا؛ خوفًا وجبنًا، وإذا خلوا إلى شياطينهم؛ قالوا: إنا معكم، إنما نحن مستهزئون! وهذا غاية الذل.

أما المؤمنون؛ فكانوا أعزاء بدينهم؛ قال الله عنهم في مجادلة أهل الكتاب: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]، فيعلنونها صريحة، لا يخافون في الله لومة لائم.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٢٧٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٢٠٢) من حديث عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه.

وفي هذه الآية الكريمة إثبات العزة لله سبحانه وتعالىٰ:

وذكر أهل العلم أن العزة تنقسم إلىٰ ثلاثة أقسام: عزة القدر، وعزة القهر، وعزة الامتناع:

١ـ فعزة القدر: معناه أن الله تعالىٰ ذو قدر عزيز؛ يعني: لا نظير له.

٢ـ وعزة القهر: هي عزة الغلبة؛ يعني: أنه غالب كل شيء. قاهر كل شيء، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٣]؛ يعني: غلبني في الخطاب: فالله سبحانه عزيز لا غالب له بل هو غالب كل شيء.

٣ـ وعزة الامتناع: وهي أن الله تعالىٰ يمتنع أن يناله سوء أو نقص؛ فهو مأخوذ من القوة والصلابة، ومنه قولهم: أرض عزاز؛ يعني: قوية شديدة.

هذه معاني العزة التي أثبتها الله تعالىٰ لنفسه، وهي تدل علىٰ كمال قهره وسلطانه، وعلىٰ كمال صفاته، وعلىٰ تمام تنزهه عن النقص.

تدل علىٰ كمال قهره وسلطانه في عزة القهر.

وعلىٰ تمام صفاته وكمالها وأنه لا مثيل لها في عزة القدر.

وعلىٰ تمام تنزهه عن العيب والنقص في عزة الامتناع.

قوله: ﴿وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ يعني: أن الرسول ﷺ له عزة، وللمؤمنين أيضًا عزة وغلبة.

ولكن يجب أن نعلم أن العزة التي أثبتها الله لرسوله وللمؤمنين ليست كعزة الله؛ فإن عزة الرسول عليه الصلاة والسلام والمؤمنين قد يشوبها ذلة؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: ١٢٣]، وقد يغلبون أحيانًا لحكمة يريدها الله عز وجل؛ ففي أحد لم يحصل لهم تمام العزة؛ لأنهم غلبوا في النهاية لحكم عظيمة، وكذلك في حنين ولوا مدبرين، ولم يبق مع النبي ﷺ من اثني عشر ألفًا إلا نحو مائة رجل. هذا أيضًا فقد للعزة، لكنه مؤقت. أما عزة الله عز وجل؛ فلا يمكن أبدًا أن تفقد.

وبهذا عرفنا أن العزة التي أثبتها الله لرسوله وللمؤمنين ليست كالعزة التي أثبتها

لنفسه.

وهذا أيضًا يمكن أن يؤخذ من القاعدة العامة، وهي أنه: لا يلزم من اتفاق الإسمين أن يتماثل المسميان، ولا من اتفاق الصفتين أن يتماثل الموصوفان.

الآية الرابعة: في العزة أيضًا، وهي قوله عن إبليس: ﴿**فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ**﴾ [ص: ٨٢].

الباء هنا للقسم، لكنه اختار القسم بالعزة دون غيرها من الصفات؛ لأن المقام مقام مغالبة؛ فكأنه قال: بعزتك التي تغلب بها من سواك لأغوين هؤلاء وأسيطر عليهم؛ يعني: بني آدم - حتى يخرجوا من الرشد إلى الغي.

ويُستثنى من هذا عباد الله المخلصون؛ فإن إبليس لا يستطيع أن يغويهم؛ كما قال تعالى: ﴿**إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ**﴾ [الحجر: ٤٢].

ففي هاتين الآيتين إثبات العزة لله.

وفي الآية الثانية إثبات أن الشيطان يقر بصفات الله!.

فكيف نجد من بني آدم من ينكر صفات الله أو بعضها، أيكون الشيطان أعلم بالله وأعقل مسلكًا من هؤلاء النفاة؟!

ما نستفيده من الناحية المسلكية:

- **في العفو والصفح:** هو أننا إذا علمنا أن الله عفو، وأنه قدير؛ أوجب لنا ذلك أن نسأله العفو دائمًا، وأن نرجوا منه العفو عما حصل منا من التقصير في الواجب.

- **أما العزة أيضًا: نقول:** إذا علمنا أن الله عزيز؛ فإننا لا يمكن أن نفعل فعلا نحارب الله فيه.

مثلا: الإنسان المرابي معاملته مع الله المحاربة: ﴿**فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ**﴾ [البقرة: ٢٧٩]. إذا علمنا أن الله ذو عزة لا يغلب، فإنه لا يمكننا أن نقدم على محاربة الله عز وجل.

قطع الطريق محاربة: ﴿**إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ**﴾

[المائدة: ٣٣]؛ فإذا علمنا أن قطع الطريق محاربة الله، وأن العزة لله؛ امتنعنا عن هذا العمل؛ لأن الله هو الغالب.

ويمكن أن نقول فيها فائدة من الناحية المسلكية أيضًا، وهي أن الإنسان المؤمن ينبغي له أن يكون عزيزاً في دينه؛ بحيث لا يذل أمام أحد من الناس، كائنًا من كان؛ إلا على المؤمنين، فيكون عزيزاً على الكافرين، ذليلا على المؤمنين.

● قال الشيخ صالح الفوزان:

قوله: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ﴾ هذا رد على المنافقين الذين زعموا أن العزة لهم على المؤمنين، والعزة: هي القوة والغلبة، وهي لله وحده ولمن أفاضها عليه من رسله وصالحي عبيده لا لغيرهم.

وقوله عن إبليس: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ﴾ أقسم بعزة الله تعالى: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ لأضلن بني آدم بتزيين الشهوات لهم وإدخال الشبهات عليهم حتى يصيروا غاوين جميعاً. ثم لما علم أن كيده لا ينجح إلا في أتباعه من أهل الكفر والمعاصي استثنى فقال: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾.

الشاهد من الآيات: أن فيها وصف الله بالعفو والقدرة والمغفرة والرحمة والعزة، وهي صفات كمال تليق به.

* * *

أسئلة وأجوبة نموذجية على صفة العزة والقدرة

● قال الشيخ عبد العزيز المحمد السلمان:

س ـ ما الذي تعرفه عن معنى قوله تعالى: ﴿ولله العزة ولرسوله﴾ وأذكر ما يؤخذ منها من أحكام؟

ج ـ الجملة حالية أي قالوا ما ذكر والحال أن كل من له نوع بصيرة يعلم أن القوة والغلبة لله وحده ولمن أفاضها عليه من رسله وصالحي عباده، وعزة الله: قهره وغلبته لأعدائه، وعزة رسوله ﷺ: إظهار دينه على الأديان كلها، وعزة المؤمنين: نصر الله إياهم على أعدائهم.

فالمؤمن له من العزة بحسب ما معه من الإيمان وحقائقه فإذا فاته حظه من العلو والعزة ففي مقابلة ما فاته من حقائق الإيمان علماً وعملاً ظاهراً وباطناً فالمؤمن عزيز عال مؤيد منصور مكفىً مدفوع عنه بالذات أينما كان ولو اجتمع من بأقطارها إذا قام بحقائق الإيمان وواجباته فمن نقص إيمانه نقص نصيبه من النصر والتأييد بِحَسَبِ ما نقص من إيمانه.

ويؤخذ من هذه الآية إثبات صفة العزة وهي من الصفات الذاتية التي لا تنفك عن الله ومن الصفات الفعلية فهو سبحانه يعز من يشاء.

عزة القوة الدال عليها من أسمائه القوي المتين.

وعزة الامتناع، فإنه الغني فلا يحتاج إلى أحد ولن يبلغ العباد ضره فيضروه ولا نفعه فينفعوه.

وعزة القهر والغلبة لكل الكائنات وكل هذه المعاني ثابتة لله ـ أنه أقسم بعزة الله أن يغوي بني آدم. أي بتزيين الباطل.

قال ابن القيم رحمه الله:

وهو العزيز فلن يرام جنابه ... أنى يرام جَنَابُ ذو السلطان

وهو العزيز القاهر الغلاب لم ... يغلبه شيء هذه صفتان

وهو العزيز بقوة هي وصفه فالعز حينئذ ثلاث معان
وهي التي كملت له سبحانه من كل وجه عادم النقصان

س ـ ما الذي تعرفه عن معنى قوله تعالى: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾؟

ج ـ لأغوينهم: لأضلنهم، يُخبِر تعالى عن إبليس ـ لعنه الله ـ أنه أقسم بعزة الله أن يغوي بني آدم. أي بتزيين الشهوات والمعاصي لهم. ثم لما علم أن كيده لا ينجح إلا في أتباعه وأحزابه من أهل الكفر والمعاصي استثنى من لا يقدر على إضلاله ولا يجد السبيل إلى إغوائه فقال ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾.

ويؤخذ من هذه الآية:

أولاً: إثبات صفة العزة كسائر صفات الله.

ثانيًا: جواز الحَلْف بها وهي من الصفات الذاتية التي لا تنفك عن الله ومن الصفات الفعلية فيعز من يشاء.

ثالثًا: أن صفات الله غير مخلوقة إذ الحَلِف بالمخلوق شرك، والعزة المضافة إلى الله تنقسم إلى قسمين:

الأول: قسم يضاف إليه سبحانه من باب إضافة المخلوق إلى خالقه. وهي العزة المخلوقة التي يعز بها أنبياءه وعباده الصالحين.

الثاني: قسم يضاف إليه من باب إضافته الصفة إلى موصوف بها كما في هذه الآية وكما في الحديث: «**أعوذ بعزة الله وقدرته**».

رابعًا: الرد على من أنكر الجن وقال إنها أمراض عصبية.

خامسًا: إثبات الألوهية.

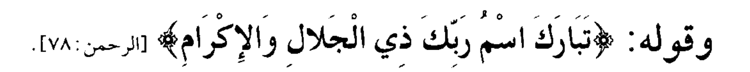
سادسًا: الرد على من أنكر شيئًا من ذلك.

سابعًا: أن بهذه الآية يتبين منهج إبليس وتحديد طريقه وأنه يقسم بعزة الله ليغوين جميع بني آدم إلا المخلصين لعجزه عن بلوغ غايته فيهم قال الله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾.

* * *

صفة الجلال والعظمة

وقوله: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٧٨].



• الشَّرح •

● قال الشيخ محمد خليل هراس:

قوله تعالى: ﴿تبارك اسم ربك﴾: فإنه من البركة بمعنى دوام الخير وكثرته.

وقوله: ﴿ذي الجلال﴾: أي صاحب الجلال والعظمة سبحانه الذي لا شيء أجل ولا أعظم منه ﴿والإكرام﴾ لله الذي يكرم عما لا يليق به وقيل: الذي يكرم عباده الصالحين بأنواع الكرامة في الدنيا والآخرة والله أعلم.

● قال الشيخ ابن عثيمين:

ذكر المؤلف ـ رحمه الله ـ آية في إثبات الاسم لله تعالى، وآيات أخرى كثيرة في تنزيه الله تعالى ونفي المثيل عنه.

آية إثبات الاسم: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٧٨].

﴿تَبَارَكَ﴾: قال العلماء: معناها: تعالى وتعاظم إن وصف بها الله؛ كقوله: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]، وإن وصف بها اسم الله؛ كان معناها: أن البركة تكون باسم الله؛ أي: أن اسم الله إذا صاحب شيئًا؛ صارت فيه البركة.

ولهذا جاء في الحديث: «كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بـ «بسم الله» فهو أبتر»[١]؛ أي: ناقص البركة.

---

(١) ضعيف: أخرجه أحمد في «مسنده» (٢/ ٣٥٩) من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه. والحديث له ألفاظ أخرى غير ذلك. وضعفه الشيخ الألباني في «ضعيف الجامع» (٤٢١٧).

بل إن التسمية تفيد حل الشيء الذي يحرم بدونها ؛ فإنه إذا سمى الله على الذبيحة صارت حلالا ، وإذا لم يسم صارت حراما وميتة ، وهناك فرق بين الحلال الطيب الطاهر ، والميتة النجسة الخبيثة .

وإذا سمى الإنسان على طهارة الحدث ؛ صحت ، وإذا لم يسم ؛ لم تصح على أحد القولين .

وإذا سمى الإنسان على طعامه ؛ لم يأكل معه الشيطان ، وإن لم يسم ؛ أكل معه .

وإذا سمى الإنسان على جماعه ، وقال : «اللهم! جنبنا الشيطان، وجنب الشيطان ما رزقتنا»[1] ، ثم قدر بينهما ولد ؛ لم يضره الشيطان أبدًا ، وإن لم يفعل ؛ فالولد عرضة لضرر الشيطان .

وعليه ؛ فنقول : إن ﴿فَتَبَارَكَ﴾ هنا ليست بمعنى : تعالى وتعاظم ، بل يتعين أن يكون معناها : حلت البركة باسم الله ؛ أي أن اسمه سبب للبركة إذا صحب شيئًا .

وقوله: ﴿ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن : ٧٨] : ﴿ذِي﴾ : بمعنى صاحب ، وهي صفة لـ (رب) ، لا لـ (اسم) ، لو كانت صفة لـ (اسم) ؛ لكانت : ذو .

و ﴿الْجَلَالِ﴾ ؛ بمعنى : العظمة .

﴿وَالْإِكْرَامِ﴾ ؛ بمعنى : التكريم ، وهو صالح لأن يكون الإكرام من الله لمن أطاعه ، وممن أطاعه له .

فـ ﴿الْجَلَالِ﴾ : عظمته في نفسه .

﴿وَالْإِكْرَامِ﴾ : عظمته في قلوب المؤمنين ، فيكرمونه ويكرمهم .

● **قال الشيخ صالح الفوزان:**

﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ﴾ البركة : لغة : النماء والزيادة ، والتبريك : الدعاء بالبركة ، ومعنى ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ﴾ : تعاظم أو علا وارتفع شأنه ، وهذا اللفظ لا يطلق إلا على الله ﴿ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ تقدم تفسيره في آيات إثبات الوجه .

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٤١) ومسلم (١٤٣٤) من حديث ابن عباس - رضي الله عنه .

أسئلة وأجوبة نموذجية على صفة الجلال والعظمة

● قال عبد العزيز المحمد السلمان:

س ـ ما الذي تعرفه عن معنى قوله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ ﴾؟

ج - المعنى تعالت أسماؤه وتعظمت صفاته وتقدست، والجلال والعظمة صفتان لله جل جلاله. وأما ذكره تباركه سبحانه ففي المواضع التي أثنى فيها على نفسه بالجلال والعظمة والأفعال الدالة على الربوبية وإلهيته وحكمته وسائر صفات الكمال من إنزال القرآن، وخلق العالمين وجعله في السماء بروجًا وانفراده بالملك وكمال القدرة وتباركه سبحانه من الصفات الذاتية، والدليل على ذلك أنه سبحانه يسند التبارك إلى اسمه.

س ـ كم أنواع البركة وما هي؟

ج - البركة نوعان: بركة هي فعله سبحانه، والفعل منها بارك، ويتعدى بنفسه تارة وبأداة (على) تارة، وبأداة (في) تارة، والمفعول منها مبارك. وهو ما جعل كذلك فكان مباركًا كما يجعله الله تعالى.

والنوع الثاني: بركة هي صفته تضاف إليه إضافة الرحمة والعزة والفعل منها تبارك، ولهذا لا يقال لغيره كذلك ولا يصلح إلا له عز وجل فهو سبحانه المبارك، وعبده ورسوله المبارك. كما قال المسيح: ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا ﴾ فمن بارك الله فيه وعليه، فهو المبارك. وأما صفته تعالى فمختصة به كما أطلقها على نفسه بقوله: ﴿ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾.

❊ ❊ ❊

أقسام الشرك
والمحرمات الخمس في جميع الشرائع

وقوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥].

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤].

وقوله: ﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]. ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وقوله: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء: ١١١].

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التغابن: ١].

وقوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (١) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ١، ٢].

وقوله: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (٩١) عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١، ٩٢]. ﴿فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٤]. ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

• الشرح •

● قال الشيخ محمد خليل هراس:

قوله: ﴿ فاعبده ﴾: إلخ تضمنت هذه الآيات الكريمة جملة من صفات السلوب وهي نفي السمي والكفؤ والنديد والولد والشريك والولي من ذل وحاجة. كما تضمنت بعض صفات الإثبات من الملك والحمد والقدرة والكبرياء والتبارك.

أما قوله تعالى: ﴿ هل تعلم له سميا ﴾ : فقد قال شيخ الإسلام رحمه الله: (قال أهل اللغة: هل تعلم له سميًّا، أي نظيراً استحق مثل اسمه ويقال: مساميًا يساميه، وهذا معنى ما يروى عن ابن عباس: «هل تعلم له سميًّا»، مثلاً أو شبيهًا.

والاستفهام في الآية إنكاري معناه النفي، أي لا تعلم له سميًّا.

وأما قوله: ﴿ ولم يكن له كفوا أحد ﴾ : فالمراد بالكفؤ المكافئ المساوي. فهذه الآية تنفي عنه سبحانه النظير والشبيه من كل وجه لأن أحداً وقع نكرة في سياق النفي فيعم، وقد تقدم الكلام على تفسير سورة الإخلاص كلها فليرجع إليها.

وأما قوله:«﴿ فلا تجعلوا لله أندادا ﴾» إلخ: فالأنداد جمع ند ومعناه كما قيل النظير المناوئ، ويقال ليس لله ند ولا ضد، والمراد نفي ما يكافئه ويناوئه، ونفي ما يضاده وينافيه.

وجملة: «﴿ وأنتم تعلمون ﴾»: وقعت حالاً من الواو في تجعلوا، المعنى إذا كنتم تعلمون أن الله هو وحده الذي خلقكم ورزقكم وأن هذه الآلهة التي جعلتموها له نظراء وأمثالاً وساويتموها به في استحقاق العبادة لا تخلق شيئًا بل هي مخلوقة ولا تملك لكم ضرًا ولا نفعًا فاتركوا عبادتها وأفردوه سبحانه بالعبادة والتعظيم.

وأما قوله: ﴿ ومن الناس من يتخذ ﴾ إلخ: فهو إخبار من الله عن المشركين بأنهم يحبون آلهتهم كحبهم لله عز وجل، يعني يجعلونها مساوية له في الحب ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ من حب المشركين لآلهتهم لأنهم أخلصوا له الحب وأفردوه به. أما

حب المشركين لآلهتهم فهو موزع بينها، ولا شك أن الحب إذا كان لجهة واحدة كان أمكن وأقوى. وقيل: المعنى أنهم يحبون آلهتهم كحب المؤمنين لله، والذين آمنوا أشد حبًّا لله من الكفار لأندادهم.

وأما قوله: «﴿ وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ﴾» الآية: فقد تقدم الكلام في معنى الحمد، وأنه الثناء باللسان على النعمة وغيرها، وقلنا: إن إثبات الحمد له سبحانه متضمن لإثبات جميع الكمالات التي لا يستحق الحمد المطلق إلا من بلغ غايتها.

ثم نفى سبحانه عن نفسه ما ينافي كمال الحمد من الولد والشريك والولي من الذل، أي من فقر وحاجة، فهو سبحانه لا يوالي أحدًا من خلقه من أجل ذلة وحاجة إليه، ثم أمر عبده ورسوله أن يكبره تكبيرًا، أي يعظمه تعظيمًا وينزهه عن كل صفة نقص وصفه بها أعداؤه من المشركين.

وأما قوله: « ﴿ يسبح لله ﴾» إلخ: فالتسبيح هو التنزيه والإبعاد عن السوء كما تقدم.

ولاشك أن جميع الأشياء في السموات وفي الأرض تسبح بحمد ربها وتشهد له بكمال العلم والقدرة والعزة والحكمة والتدبير والرحمة.

قال تعالى: ﴿ وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴾: وقد اختلف في تسبيح الجمادات التي لا تنطق هل هو بلسان الحال أو بلسان المقال وعندي أن الثاني أرجح بدليل قوله تعالى: ﴿ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ إذ لو كان المراد تسبيحها بلسان الحال لكان ذلك معلومًا فلا يصح الاستدراك، وقد قال تعالى خبرًا عن داود عليه السلام: ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ (١٨) وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ ﴾.

وأما قوله تعالى: «﴿ تبارك الذي ﴾» إلخ: فقد قلنا: إن معنى تبارك من البركة وهي دوام الخير وكثرته ولكن لا يلزم من تلك الزيادة سبق النقص، فإن المراد تجدد الكمالات الاختيارية التابعة لمشيئته وقدرته، فإنها تتجدد في ذاته على وفق حكمته، فالخلو عنها قبل اقتضاء الحكمة لها لا يعتبر نقصًا.

وقد فسر بعضهم التبارك بالثبات وعدم التغير، ومنه سميت البركة لثبوت مائها وهو بعيد، والمراد بالفرقان القرآن، سمي بذلك لقوة تفرقته بين الحق والباطل والهدىٰ والضلال، والتعبير «بنزل» بالتشديد لإفادة التدرج في النزول، وأنه لم ينزل جملة واحدة، والمراد بعبده محمد ﷺ والتعبير عنه بلقب العبودية للتشريف كما سبق، والعالمين جمع عالم، وهو جمع ما لم يعقل، واختلف في المراد به، فقيل: الإنس، وقيل الإنس والجن، وهو الصحيح، فقد ثبت أن النبي ﷺ مرسل إلىٰ الجن أيضًا، وأنه يجتمع بهم ويقرأ عليهم القرآن، وأن منهم نفرًا أسلم حين سمع القرآن وذهب ينذر قومه به، كما قال تعالىٰ: ﴿ **وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ** ﴾ والنذير والمنذر هو من يُعلم بالشيء مع التخويف وضده البشير أو المبشر وهو من يخبرك بما يسرك.

وقوله: «﴿ **ما اتخذ الله من ولد** ﴾» **إلخ**: تضمنت هذه الآية الكريمة أيضًا جملة من صفات التنزيه التي يراد نفي ما لا يليق بالله عز وجل عنه، فقد نزه سبحانه نفسه فيها عن اتخاذ الولد وعن وجود إله خالق معه وعما يصفه به المفترون الكذابون، كما نهىٰ عن ضرب الأمثال له والإشراك به بلا حجة ولا برهان، والقول عليه سبحانه بلا علم ولا دليل.

فهذه الآية تضمنت إثبات توحيد الإلهية وإثبات توحيد الربوبية، فإن الله بعدما أخبر عن نفسه بعدم وجود إله معه أوضح ذلك بالبرهان القاطع والحجة الباهرة فقال: «إذًا» أي إذ لو كان معه آلهة كما يقول هؤلاء المشركون ﴿ **لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ** ﴾.

وتوضيح هذا الدليل أن يقال: إذا تعددت الآلهة فلابد أن يكون لكل منهم خلق وفعل ولا سبيل إلىٰ التعاون فيما بينهم فإن الاختلاف بينهم ضروري، كما أن التعاون بينهم في الخلق يقتضي عجز كل منهم عند الانفراد، والعاجز لا يصلح إلهًا، فلابد أن يستقل كل منهم بخلقه وفعله، وحينئذ فإما أن يكونوا متكافئين في القدرة لا يستطيع كل منهم أن يقهر الآخرين ويغلبهم فيذهب كل منهم بما خلق ويختص بملكه كما يفعل ملوك الدنيا من انفراد كل بمملكته إذ لم يجد سبيلاً لقهر الآخرين، وإما أن

يكون أحدهم أقوىٰ من الآخرين فيغلبهم ويقهرهم وينفرد دونهم بالخلق والتدبير، فلابد إذًا مع تعدد الآلهة من أحد هذين الأمرين، إما ذهاب كل بما خلق أو علو بعضهم علىٰ بعض.

وذهاب كل بما خلق غير واقع لأنه يقتضي التنافر والانفصال بين أجزاء العالم مع أن المشاهدة تثبت أن العالم كله كجسم واحد مترابط الأجزاء متسق الأنحاء فلا يمكن أن يكون إلا أثرًا لإله واحد وعلو بعضهم علىٰ بعض يقتضي أن يكون الإله هو العالي وحده.

وأما قوله تعالى: ﴿فلا تضربوا لله الأمثال﴾: فهو نهي لهم أن يشبهوه بشيء من خلقه فإنه سبحانه له المثل الأعلىٰ الذي لا يشركه فيه مخلوق.

وقد قدمنا أنه لا يجوز أن يستعمل في حقه من الأقيسة ما يقتضي المماثلة أو المساواة بينه وبين غيره كقياس التمثيل وقياس الشمول. وإنما يستعمل في ذلك قياس الأولىٰ الذي مضمونه أن كل كمال وجودي غير مستلزم للعدم ولا للنقص بوجه من الوجوه اتصف به المخلوق، فالخالق أولىٰ أن يتصف به لأنه هو الذي وهب المخلوق ذلك الكمال، ولأنه لو لم يتصف بذلك مع إمكان أن يتصف به لكان في الممكنات من هو أكمل منه وهو محال وكذلك كل نقص يتنزه عنه المخلوق فالخالق أولىٰ بالتنزه عنه.

وأما قوله: «﴿قل إنما حرم﴾» إلخ: فإنما أداة قصر تفيد اختصاص الأشياء المذكورة بالحرمة فيفهم أن من عداها من الطيبات فهو مباح لا حرج فيه، كما أفادته الآية التي قبلها.

«والفواحش»: جمع فاحشة وهي الفعلة المتناهية في القبح وخصها بعضهم بما تضمن شهوة ولذة من المعاصي كالزنا واللواط ونحوهما من الفواحش الظاهرة، وكالكبر والعجب وحب الرياسة من الفواحش الباطنة.

وأما «الإثم»: فمنهم من فسره بمطلق المعصية فيكون المراد منه ما دون الفاحشة، ومنهم من خصه بالخمر فإنها جماع الإثم، وأما البغي بغير الحق فهو التسلط والاعتداء علىٰ الناس من غير أن يكون ذلك علىٰ جهة القصاص والمماثلة.

وقوله: «﴿ وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانًا ﴾»: وحرم أن تعبدوا مع الله غيره وتتقربوا إليه بأي نوع من أنواع العبادات والقربات كالدعاء والنذر والذبح والخوف والرجاء ونحو ذلك، مما يجب أن يخلص فيه العبد قلبه ويسلم وجهه لله وحرم أن يتخذوا من دونه سبحانه أولياء يشرعون لهم من الدين ما لم يأذن به الله في عباداتهم ومعاملاتهم كما فعل أهل الكتاب مع الأحبار والرهبان حيث اتخذوهم أربابًا من دون الله في التشريع فأحلوا ما حرم الله وحرموا ما أحل الله فاتبعوهم في ذلك.

وقوله: «﴿ ما لم ينزل به سلطانا ﴾»: قيد لبيان الواقع، فإن كل ما عبد أو اتبع أو أطيع من دون الله قد فعل به ذلك من غير سلطان.

وأما «القول على الله بلا علم»: فهو باب واسع جدًا يدخل فيه كل خبر عن الله بلا دليل ولا حجة، كنفي ما أثبته أو إثبات ما نفاه أو الإلحاد في آياته بالتحريف والتأويل.

قال العلامة ابن القيم في كتابه «إعلام الموقعين»: وقد حرم الله القول عليه بغير علم في الفتيا والقضاء وجعله من أعظم المحرمات بل جعله في المرتبة العليا منها قال تعالىٰ: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ الآية، فرتب المحرمات أربع مراتب وبدأ بأسهلها وهو الفواحش وثنىٰ بما هو أشد تحريمًا منهما وهو الإثم والظلم ثم ثلث بما هو أعظم تحريمًا منهما وهو الشرك به سبحانه ثم ربع بما هو أعظم تحريمًا من ذلك كله وهو القول عليه بلا علم وهذا يعم القول عليه سبحانه بلا علم في أسمائه وصفاته وأفعاله وفي دينه وشرعه. اهـ.

● **الشيخ عبد العزيز بن باز:**

وجهُ سياق هذه الآية ضمن آيات الصفات؛ للدلالة علىٰ أن القول علىٰ الله بلا علم من أعظم المحرمات، بل إنه يأتي في مرتبة أعلىٰ من مرتبة الشرك، حيث رتب المحرمات في هذه الآية من الأدنىٰ إلىٰ الأعلىٰ، والقولُ علىٰ الله بلا علم يشمل القول عليه في أحكامه وشرعه ودينه كما يشمل القول عليه في أسمائه وصفاته وهو أعظم من القول عليه في شرعه ودينه، فسياق الآية الكريمة هنا للتنبيه علىٰ هذا. والله أعلم.

● قال الشيخ ابن عثيمين:

الآية الأولى: قوله: «﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾» [مريم: ٦٥]

شرع المؤلف ـ رحمه الله ـ بالصفات السلبية؛ أي: صفات النفي.

وقد مر علينا فيما سبق أن صفات الله عز وجل ثبوتية وسلبية؛ أي: منفية؛ لأن الكمال لا يتحقق إلا بالإثبات والنفي؛ إثبات الكمالات، ونفي النقائص.

قوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾: الفاء مفرعة على ما سبق، وهو قوله: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [مريم: ٦٥]؛ فذكر سبحانه وتعالى الربوبية ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾، وفرع على ذلك وجوب عبادته؛ لأن كل من أقر بالربوبية؛ لزمه الإقرار بالعبودية والألوهية، وإلا؛ صار متناقضًا.

فقوله: «﴿فَاعْبُدْهُ﴾»: أي: تذلل له محبة وتعظيمًا، والعبادة؛ يراد بها المتعبد به، ويراد بها التعبد الذي هو فعل العبد؛ كما سبق في المقدمة.

وقوله: ﴿وَاصْطَبِرْ﴾: اصطبر: أصلها في اللغة: اصتبر، فأبدلت التاء طاء لعلة تصريفية. والصبر: حبس النفس. وكلمة (اصطبر) أبلغ من (اصبر)؛ لأنها تدل على معاناة؛ فالمعنى: اصبر، وإن شق عليك ذلك، واثبت ثبات القرين لقرينه في القتال.

وقوله: ﴿لِعِبَادَتِهِ﴾؛ قيل: إن اللام بمعنى (على)؛ أي: اصطبر عليها؛ كما قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢]. وقيل: بل اللام على أصلها؛ أي: اصطبر لها؛ أي: كن مقابلا لها بالصبر؛ كما يقابل القرين قرينه في ميدان القتال.

وقوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾: الاستفهام للنفي، وإذا كان الاستفهام بمعنى النفي؛ كان مشربًا معنى التحدي؛ يعني: إن كنت صادقًا؛ فأخبرنا: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾؟ و(السمي): الشبيه والنظير. يعني: هل تعلم له مساميًا أو نظيرًا يستحق مثل اسمه؟.

والجواب: لا.

فإذا كان كذلك؛ فالواجب أن تعبده وحده.

وفيها من الصفات: قوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾، وهي من الصفات السلبية.

فما الذي تتضمنه من صفات الكمال (لأننا ذكرنا فيما سبق أن الصفات السلبية لابد أن تتضمن ثبوتًا) فما هو الثبوت الذي تضمنه النفي هنا؟.

الجواب: الكمال المطلق، فيكون المعنى: هل تعلم له سميًا لثبوت كماله المطلق الذي لا يساميه أحد فيه؟.

الآية الثانية: قوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤].

تقدم الكلام عليها؛ أي: ليس يكافئه أحدٌ، وهو نكرة في سياق النفي فتعم.

و ﴿كُفُوًا﴾ فيها ثلاث قراءات: كُفْوًا، وكُفْئًا، وكُفُؤًا؛ فهي بالهمزة ساكنة الفاء ومضمومتها، وبالواو مضمومة الفاء لا غير، وبهذا نعرف خطأ الذين يقرؤون بتسكين الفاء مع الواو (كُفْوًا).

هذه الآية أيضًا فيها نفي الكفء لله عز وجل، وذلك لكمال صفاته؛ فلا أحد يكافئه؛ لا في علمه، ولا في سمعه، ولا بصره، ولا قدرته، ولا عزته، ولا حكمته، ولا غير ذلك من الصفات.

الآية الثالثة: قوله: ﴿فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢].

هذا مفرَّع على قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاء بِنَاء وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١، ٢٢]؛ وكل هذا من توحيد الربوبية، ثم قال: ﴿فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً﴾ [البقرة: ٢٢]؛ يعني: في الألوهية؛ لأن أولئك القوم المخاطبين لم يجعلوا لله أندادًا في الربوبية، إذًا؛ فلا تجعلوا لله أندادًا في الألوهية كما أنكم تقرون أنه ليس له أندادًا في الربوبية.

وقوله: ﴿أَندَاداً﴾: جمع ند، وند الشيء ما كان مناداً (أي: مكافئًا) له ومشابهًا، وما زال الناس يقولون: هذا ندٌّ لهذا؛ أي: مقابل له ومكافئ له.

وقوله: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: الجملة هنا حالية، وصاحب الحال هي الواو في قوله: ﴿لاَ تَجْعَلُواْ﴾، والمفعول محذوف؛ يعني: وأنتم تعلمون أنه لا ند له.

الجملة الحالية هنا صفة كاشفة، والصفة الكاشفة كالتعليل للحكم؛ فكأنه قال: لا تجعلوا لله أندادًا؛ لأنكم تعلمون أنه لا ند له، فإذا كنتم تعلمون ذلك؛ فكيف تجعلونه فتخالفون علمكم؟!

وهذه أيضًا سلبية، وذلك من قوله: ﴿فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً﴾؛ لأنه لا ند له، لكمال صفاته.

الآية الرابعة: قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

﴿وَمِنَ﴾: تبعيضية، والميزان لـ (من) التبعيضية أن يحل محلها: بعض؛ يعني: وبعض الناس.

﴿مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً﴾: يتخذهم أندادًا؛ يعني: في المحبة؛ كما فسره بقوله: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ﴾، ويجوز أن نقول: إن المراد بالأنداد ما هو أعم من المحبة؛ يعني: أندادًا يعبدونهم كما يعبدون الله، وينذرون لهم كما ينذرون لله؛ لأنهم يحبونهم كحب الله؛ يحبون هذه الأنداد كحب الله عز وجل.

وهذا إشراك في المحبة؛ بحيث تجعل غير الله مثل الله في محبته.

وينطبق ذلك على من أحب رسول الله كحب الله؛ لأنه يجب أن تحب رسول الله ﷺ محبة ليست كمحبة الله؛ لأنك إنما تحب رسول الله ﷺ تبعًا لمحبة الله عز وجل، لا على أنه مناد لله؛ فكيف بمن يحبون الرسول ﷺ أكثر مما يحبون الله؟!

وهنا يجب أن نعرف الفرق بين المحبة مع الله والمحبة لله:

المحبة مع الله: أن تجعل غير الله مثله في محبته أو أكثر. وهذا شرك.

والمحبة في الله أو لله: هي أن تحب الشيء تبعًا لمحبة الله عز وجل.

والذي نستفيده من الناحية المسلكية في هذه الآيات:

أولا: في قوله: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٧٨]: إذا علمنا أن الله تعالى موصوف بالجلال؛ فإن ذلك يستوجب أن نعظمه، وأن نجله.

وإذا علمنا أنه موصوف بالإكرام فإن ذلك يستوجب أن نرجو كرمه وفضله . وبذلك نعظمه بما يستحقه من التعظيم والتكريم .

ثانيًا: قوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾ [مريم: ٦٥]؛ فالفوائد المسلكية في ذلك هو أن يعبد العبد ربه، ويصطبر للعبادة؛ لا يمل، ولا يتعب، ولا يضجر، بل يصبر عليها صبر القرين لقرينه في المبارزة في الجهاد .

ثالثًا: قوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤]، ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة: ٢٢]؛ ففيها تنزيه لله عز وجل، وأن الإنسان يشعر في قلبه بأن الله تعالى منزه عن كل نقص، وأنه لا مثيل له، ولا ند له، وبهذا يعظمه حق تعظيمه بقدر استطاعته .

رابعًا: قوله: «﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا﴾» [البقرة: ١٦٥]: فمن فوائدها من الناحية المسلكية: أنه لا يجوز للإنسان أن يتخذ أحدًا من الناس محبوبًا كمحبة الله، وهذه تسمى المحبة مع الله .

الآية الخامسة: قوله: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء: ١١١].

﴿وَقُلِ﴾: الخطاب في مثل هذا: إما خاص بالرسول عليه الصلاة والسلام، أو عام لكل من يصح توجيه الخطاب إليه .

فإن كان خاصًا بالرسول ﷺ؛ فهو خاص به بالقصد الأول، وأمته تبع له .

وإن كان عامًا، فهو يشمل الرسول ﷺ وغيره بالقصد الأول .

«﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾»: سبق تفسير هذه الجملة، وأن الحمد هو وصف المحمود بالكمال مع المحبة والتعظيم .

وقوله: ﴿لِلَّهِ﴾: اللام هنا للاستحقاق والاختصاص :

للاستحقاق: لأن الله تعالى يُحمد وهو أهل للحمد .

والاختصاص: لأن الحمد الذي يُحمد الله به ليس كالحمد الذي يُحمد به غيره، بل هو أكمل وأعظم وأعم وأشمل .

وقوله: «﴿الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾» : هذا من الصفات السلبية : ﴿لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ لكمال صفاته وكمال غناه عن غيره؛ ولأنه لا مثيل له، فلو اتخذ ولداً؛ لكان الولد مثله، لو كان له ولد؛ لكان محتاجًا إلى الولد يساعده ويعينه، لو كان له ولد؛ لكان ناقصًا؛ لأنه إذا شابهه أحد من خلقه فهو نقص.

وقوله: «﴿وَلَدًا﴾»: يشمل الذكر والأنثى؛ ففيه رد على اليهود والنصارى والمشركين:

اليهود قالوا: لله ولد، وهو عزير!

والنصارى قالوا: لله ولد وهو المسيح!

والمشركون قالوا: لله ولد، وهم الملائكة!

وقوله: «﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾» : هذا معطوف على قوله: ﴿لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾؛ يعني: والذي لم يكن له شريك في الملك؛ لا في الخلق، ولا في الملك، ولا في التدبير.

كل ما سوى الله؛ فهو مخلوق لله، مملوك له، يدبره كما يشاء، ولم يشاركه أحد في ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ﴾ [سبأ: ٢٢]. على سبيل التعيين، ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾ [سبأ: ٢٢]. على سبيل الشيوع، ﴿وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ [سبأ: ٢٢]؛ لم يعاونه أحد في هذه السماوات والأرض، ﴿وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ: ٢٣]، وبهذا تقطعت جميع الأسباب التي يتعلق بها المشركون في آلهتهم.

فالآلهة هذه لا تملك من السموات والأرض شيئًا معينًا، وليست شريكة لله، ولا معينة ولا شافعة؛ إلا بإذنه، يقول: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ [الإسراء: ١١١].

وقوله: «﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ﴾»: لم يكن له ولي، لكنه قيد بقوله: ﴿مِّنَ الذُّلِّ﴾.

و﴿مِّنَ﴾: هنا للتعليل؛ لأن الله تعالى له أولياء: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣]، وقال تعالى في

الحديث القدسي: «من عادى لي وليًّا؛ فقد آذنته بالحرب...»، ولكن الولي المنفي هو الولي من الذل؛ لأن الله تعالىٰ له العزة جميعًا، فلا يلحقه الذل بوجه من الوجوه، لكمال عزته.

وقوله: ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾؛ يعني: كبر الله عز وجل تكبيرًا؛ بلسانك وجنانك: اعتقد في قلبك أن الله أكبر من كل شيء، وأن له الكبرياء في السموات والأرض، وكذلك بلسانك تكبره؛ تقول الله أكبر!.

وكان من هدي النبي ﷺ وأصحابه أنهم يكبرون كلما علوا نشزا(١٣١)؛ أي: مرتفعًا، وهذا في السفر؛ لأن الإنسان إذا علا في مكانه؛ قد يشعر في قلبه أنه مستعل علىٰ غيره، فيقول: الله أكبر. من أجل أن يخفف تلك العلياء التي شعر بها حين علا وارتفع.

وكانوا إذا هبطوا؛ قالوا: سبحان الله؛ لأن النزول سفول، فيقول: سبحان الله؛ أي: أنزهه عن السفول الذي أنا الآن فيه.

وقوله: ﴿تَكْبِيرًا﴾: هذا مصدر مؤكد، يراد به التعظيم؛ أي: كبره تكبيرًا عظيمًا.

والذي نستفيده من الناحية المسلكية في هذه الآية:

أن الإنسان يشعر بكمال غنىٰ الله عز وجل في كل أحد، وانفراده بالملك، وتمام عزته وسلطانه، وحينئذ يعظم الله سبحانه وتعالىٰ بما يستحق أن يعظم به بقدر استطاعته.

ونستفيد حمد الله تعالىٰ علىٰ تنزهه عن العيوب، كما يحمد علىٰ صفات الكمال.

الآية السادسة: قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التغابن: ١].

«﴿يُسَبِّحُ﴾»: بمعنىٰ: ينزه عن كل صفة نقص وعيب، و(سبح) تتعدىٰ بنفسها وتتعدىٰ باللام:

أما تعديها بنفسها: فمثل قوله تعالىٰ: ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفتح: ٩].

وأما تعديها باللام: فهي كثيرة؛ فكل السور المبدوءة بهذا متعدية باللام.

قال العلماء: وإذا أريد مجرد الفعل؛ تعدت بنفسها: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ فمعنى: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾: أي: تقولوا: سبحان الله!

وإذا أريد القصد والإخلاص؛ تعدت باللام، ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾؛ أي: سبحوا إخلاصًا لله واستحقاقًا. فاللام هنا تبين كمال الإرادة من الفاعل، وكمال الاستحقاق من المسبح، وهو الله.

وقوله: «﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾»: عام يشمل كل شيء.

لكن التسبيح نوعان: تسبيح بلسان المقال، وتسبيح بلسان الحال.

أما التسبيح بلسان الحال: فهو عام: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وأما التسبيح بلسان المقال؛ فهو عام كذلك، لكن يخرج منه الكافر؛ فإن الكافر لم يسبح الله بلسانه، ولهذا يقول تعالى: ﴿سبحان الله عما يشركون﴾، ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٥٩]؛ فهم لم يسبحوا الله تعالى؛ لأنهم أشركوا به ووصفوه بما لا يليق به.

فالتسبيح بلسان الحال يعني: أن حال كل شيء في السماوات والأرض تدل على تنزيه الله سبحانه وتعالى عن العبث وعن النقص، حتى الكافر إذا تأملت حاله؛ وجدتها تدل على تنزه الله تعالى عن النقص والعيب.

وأما التسبيح بلسان المقال: فيعني: أن يقول: سبحان الله.

وقوله: ﴿لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: هذه الصفات الأخيرة صفات ثبوتية، وسبق ذكر معناها، لكن ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾ صفة سلبية؛ لأن معناها؛ تنزيهه عما لا يليق به.

الآية السابعة والثامنة: وقوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا * الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ١، ٢]

«﴿تَبَارَكَ﴾»: بمعنى: تعالى وتعاظم.

و ﴿الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾: هو الله عز وجل.

وقوله: ﴿الْفُرْقَانَ﴾: يعني به: القرآن؛ لأنه يفرق بين الحق والباطل، وبين المسلم والكافر، وبين البر والفاجر، وبين الضار والنافع، وغير ذلك مما فيه الفرقان؛ فكله فرقان.

﴿عَلَى عَبْدِهِ﴾: محمد عليه الصلاة والسلام، فوصفه بالعبودية في مقام التحدث عن تنزيل القرآن عليه، وهذا المقام من أشرف مقامات النبي ﷺ.

ولهذا وصفه الله تعالى بالعبودية في مقام تنزيل القرآن عليه؛ كما هنا، وكما في قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ [الكهف: ١]، ووصفه بالعبودية في مقام الدفاع عنه والتحدي: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣]، ووصفه بالعبودية في مقام تكريمه بالمعراج، فقال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [الإسراء: ١]، وقال في سورة النجم: ﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ [النجم: ١٠]؛ مما يدل على أن وصف الإنسان بالعبودية لله يعد كمالا؛ لأن العبودية لله هي حقيقة الحرية، فمن لم يتعبد له؛ كان عابداً لغيره:

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ:

هربوا من الرق الذي خلقوا له ... بلوا برق النفس والشيطان

و«الرق الذي خلقوا له»: عبادة الله عز وجل.

و«بلوا برق النفس والشيطان»: حيث صاروا أرقاء لنفوسهم، وأرقاء للشيطان؛ فما من إنسان يفر من عبودية الله؛ إلا وقع في عبودية هواه وشيطانه؛ قال الله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ [الجاثية: ٢٣].

قوله: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً﴾: اللام هنا للتعليل، والضمير في ﴿لِيَكُونَ﴾ عائد على النبي عليه الصلاة والسلام؛ لأنه أقرب مذكور، ولأن الله تعالى قال: ﴿لِتُنذِرَ بِهِ﴾ [الأعراف: ٢]، وقال تعالى: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]؛ فالمنذر: الرسول عليه الصلاة والسلام.

وقوله: ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾: يشمل الجن والإنس.

وقوله: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾: تقدم معناها.

وقوله: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ سبق معناهما، وهما صفة سلبية.

﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾: الخلق: الإيجاد على وجه معين. والتقدير: بمعنى التسوية أو بمعنى القضاء في الأزل، والأول أصح، ويدل لذلك قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾ [الأعلى: ٢]، وبه تكون الآية على الترتيب الذكري والمعنوي، وعلى الثاني تكون الآية على الترتيب الذكري.

ونستفيد من هذه الآيات من الناحية المسلكية:

أنه يجب علينا أن نعرف عظمة الله عز وجل، وننزهه عن كل نقص، وإذا علمنا ذلك؛ ازددنا محبة له وتعظيمًا.

ومن آيتي الفرقان نستفيد بيان هذا القرآن العظيم، وأنه مرجع العباد، وأن الإنسان إذا أراد أن تتبين له الأمور، فليرجع إلى القرآن؛ لأن الله سماه فرقانًا: ﴿نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾ [الفرقان: ١].

ونستفيد أيضًا من الناحية المسلكية التربوية: أن تتأكد وتزداد محبتنا لرسول الله ﷺ، حيث كان عبدًا لله، قائمًا بإبلاغ الرسالة وإنذار الخلق.

ونستفيد أيضًا من أن النبي عليه الصلاة والسلام آخر الرسل؛ فلا نصدق بأي دعوى للنبوة من بعده؛ لقوله: ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾، ولو كان بعده رسول؛ لكان تنتهي رسالته بهذا الرسول، ولا كانت للعالمين كلهم.

الآية التاسعة والعاشرة: قوله: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١، ٩٢].

ينفي الله تعالى في هذه الآية أن يكون اتخذ ولدًا، أو أن يكون معه إله.

ويتأكد هذا النفي بدخول ﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن وَلَدٍ﴾، وقوله: ﴿مِنْ إِلَهٍ﴾؛ لأن زيادة حرف الجر في سياق النفي ونحوه تفيد التوكيد.

فقوله: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ من وَلَد﴾؛ يعني: ما اصطفىٰ أحدًا يكون ولدًا له؛ لا عزير، ولا المسيح، ولا الملائكة، ولا غيرهم؛ لأنه الغني عما سواه.

وإذا انتفىٰ اتخاذه الولد؛ فانتفاء أن يكون والدًا من باب أولىٰ.

وقوله: ﴿منْ إلَه﴾: ﴿إلَه﴾؛ بمعنىٰ: مألوه؛ مثل: بناء: بمعنىٰ: مبنىٰ، وفراش: يعني: مفروش؛ فالإله بمعنىٰ المألوه أي: المعبود المتذلَّل له.

يعني: ما كان معه من إله حق، أما الآلهات الباطلة؛ فهي موجودة، لكن لكونها باطلة؛ كانت كالعدم؛ فصح أن يقال: ما كان مع الله من إله.

﴿إذًا﴾؛ يعني: لو كان معه إله.

﴿لَّذَهَبَ كُلُّ إلَه بمَا خَلَقَ ولَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْض﴾: لو كان هناك إله آخر يساوي الله عز وجل؛ لكان له ملك خاص ولله ملك خاص؛ يعني: لانفراد كل واحد منهم بما خلق؛ قال: هذا خلقي لي، وكذلك الآخر.

وحينئذ؛ يريد كل منهما أن يسيطر علىٰ الآخر كما جرت به العادة؛ فملوك الدنيا كل واحد منهم يريد أن يسيطر علىٰ الآخر، وتكون المملكة كلها له، وحينئذ:

إما أن يتمانعا، فيعجز كل واحد منهما عن الآخر، وإذا عجز كل واحد منهما عن الآخر؛ ما صح أن يكون واحد منهما إلهًا؛ لأن الإله لا يكون عاجزًا.

وإما أن يعلو أحدهما علىٰ الآخر؛ فالعالي هو الإله.

فترجع المسألة إلىٰ أنه لابد أن يكون للعالم إله واحد، ولا يمكن أن يكون للعالم إلهان أبدًا لأن القضية لا تخرج من هذين الاحتمالين.

كما أننا أيضًا إذا شاهدنا الكون علويه وسفليه؛ وجدنا أنه كون يصدر عن مدبر واحد، وإلا؛ لكان فيه تناقض؛ فأحد الإلهين يقول مثلا: أنا أريد الشمس تخرج من المغرب! والثاني يقول: أريدها تطلع من المشرق! واتفاق الإرادتين بعيد جدًّا، ولاسيما أن المقام مقام سلطة؛ فكل واحد يريد أن يفرض رأيه!

ومعلوم أننا لا نشاهد الآن الشمس تطلع يومًا مع هذا ويومًا مع هذا، أو يومًا تتأخر لأن الثاني منعها ويومًا تتقدم لأن الأول أمر الثاني بإخراجها؛ فلا نجد هذا؛

نجد الكون كله واحدًا متناسبًا متناسقًا، مما يدل دلالة ظاهرة على أن المدبر له واحد، وهو الله عز وجل.

فبين الله سبحانه وتعالى بدليل عقلي أنه لا يمكن التعدد؛ إذ لو أمكن التعدد؛ لحصل هذا؛ لانفصل كل واحد عن الثاني، وذهب كل إله بما خلق، وحينئذ إما أن يعجز أحدهما عن الآخر وإما أن يعلو أحدهما الآخر؛ فإن كان الأول؛ لم يصلح أي واحد منهما للألوهية، وإن كان الثاني؛ فالعالي هو الإله، وحينئذ يكون الإله واحدًا.

فإن قيل: ألا يمكن أن يصطلحا وينفرد كل واحد بما خلق؟

فالجواب: أنه لو أمكن ووقع؛ لزم أن يختل نظام العالم.

ثم إن اصطلاحهما لا يكون إلا لخوف كل واحد منهما من الآخر، وحينئذ لا تصلح الربوبية لواحد منهما؛ لعجزه عن مقاومة الآخر.

ثم قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾: أي: تنزيهًا لله عز وجل عما يصفه به الملحدون المشركون الذين يقولون في الله سبحانه ما لا يليق به.

﴿عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾: الغيب: ما غاب عن الناس، والشهادة: ما شهده الناس.

﴿فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾: ﴿فَتَعَالَى﴾: يعني: ترفع وتقدس وتنزه.

﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾: عن الأصنام التي جعلوها آلهة مع الله تعالى.

وفي هاتين الآيتين من صفات النفي: تنزه الله تعالى عن اتخاذ الولد الذي وصفه به الكافرون، وعن الشريك له في الألوهية الذي أشرك به المشركون.

وهذا النفي لكمال غناه وكمال ربوبيته وإلهيته.

ونستفيد منهما من الناحية المسلكية: أن الإيمان بذلك يحمل الإنسان على الإخلاص لله عز وجل.

الآية الحادية عشرة: قوله: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٤]

يعني : لا تجعلوا لله مثلا ، فتقولون : مثل الله كمثل كذا وكذا! أو تجعلوا له شريكًا في العبادة .

﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ : يعني : أنه سبحانه وتعالىٰ يعلم بأنه ليس له مثل ، وقد أخبركم بأنه لا مثل له ؛ في قوله تعالىٰ : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورىٰ: ١١]، وقوله : ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤]، وقوله : ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]. . . وما أشبه ذلك ؛ فالله يعلم وأنتم لا تعلمون .

وقد يقال: إن هذه الجملة تتضمن الدليل الواضح علىٰ أن الله ليس له مثل ، وأنها كضرب المثل في امتناع المثل ؛ لأننا نحن لا نعلم والله يعلم ؛ فإذا انتفىٰ العلم عنا ، وثبت لله ؛ فأين المماثلة؟! هل يماثل الجاهل من كان عالمًا؟!

ويدلك علىٰ نقص علمنا : أن الإنسان لا يعلم ما يفعله في اليوم التالي : ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ [لقمان: ٣٤]، وأن الإنسان لا يعلم روحه التي بين جنبيه : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥].

وما زال الفلاسفة والمتفلسفة وغيرهم يبحثون عن حقيقة هذه الروح ، ولم يصلوا إلىٰ حقيقتها ، مع أنها هي مادة الحياة ، وهذا يدل علىٰ نقصان العلم في المخلوق ، لهذا قال تعالىٰ : ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الإسراء: ٨٥].

فإن قلت: كيف تجمع بين هذه الآية : ﴿فَلاَ تَضْرِبُواْ لِلّهِ الأَمْثَالَ إِنَّ اللّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٤]، وبين قوله تعالىٰ : ﴿فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]؟!

الجواب : أنه هناك يخاطب الذين يشركون به في الألوهية فيقول : ﴿فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً﴾ في العبادة والألوهية : ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنه لا ند له في الربوبية ؛ بدليل قوله : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاء بِنَاء وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١، ٢٢]. أما هنا ؛ ففي باب الصفات : ﴿فَلاَ تَضْرِبُواْ لِلّهِ الأَمْثَالَ﴾ [النحل: ٧٤]، فتقولوا مثلا : إن يد الله مثل يد كذا! وجه الله مثل وجه كذا! وذات الله مثل الذات الفلانية . . وما أشبه هذا ؛ لأن

الله تعالىٰ يعلم وأنتم لا تعلمون، وقد أخبركم بأنه لا مثيل له.

أو يقال: إن إثبات العلم لهم خاص في باب الربوبية، ونفيه عنهم خاص في باب الألوهية؛ حيث أشركوا بالله فيها، فنزلوا منزلة الجاهل.

وهذه الآية تتضمن من الكمال كمال صفات الله عز وجل؛ حيث إنه لا مثيل لهم.

أما الفائدة المسلكية التي تؤخذ من هذه الآية:

فهي كمال تعظيمنا للرب عز وجل؛ لأننا إذا علمنا أنه لا مثيل له؛ تعلقنا به رجاءً وخوفًا، وعظمناه، وعلمنا أنه لا يمكن أن يماثله سلطان ولا ملك ولا وزير ولا رئيس، مهما كانت عظمة ملكيتهم ورئاستهم ووزارتهم؛ لأن الله سبحانه ليس له مثل.

الآية الثانية عشرة: قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

﴿قُلْ﴾: الخطاب للنبي ﷺ؛ أي: قل معلنا للناس.

﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر، وذلك لمقابلة تحريم من حرم ما أحل الله.

﴿حَرَّمَ﴾: يعني: منع، وأصل هذه المادة (ح ر م) تدل علىٰ المنع، ومنه: حريم البئر: للأرض التي تحميه حوله؛ لأنه يمنع من التعدي عليه.

﴿الْفَوَاحِشَ﴾: جمع فاحشة، وهي الذنب الذي يستفحش؛ مثل: الزنا واللواط.

الزنا: قال الله فيه: ﴿وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً﴾ [الإسراء: ٣٢].

وفي اللواط: قال لوط لقومه: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ [الأعراف: ٨٠].

ومن الزنا أن يتزوج الإنسان امرأة لا تحل له لقرابة أو رضاع أو مصاهرة؛ قال الله تعالىٰ: ﴿وَلاَ تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاء إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاء سَبِيلاً﴾ [النساء: ٢٢]. بل إن هذا أشد من الزنا؛ لأنه وصفه بثلاثة أوصاف:

فاحشة، ومقت، وساء سبيلا.

وفي الزنا وصفه الله بوصفين: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً﴾ [الإسراء: ٣٢].

وقوله: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾: قيل: إن المعنى ما ظهر فحشه وما خفي، وقيل: المعنى ما ظهر للناس وما بطن عنهم؛ باعتبار فعل الفاعل، لا باعتبار العمل؛ أي: ما أظهره الإنسان للناس وما أبطنه.

قوله: ﴿وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾؛ يعني: حرم الإثم والبغي بغير الحق.

والإثم: المراد به ما يكون سببًا له من المعاصي.

والبغي: العدوان على الناس؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الشورى: ٤٢].

وفي قوله: ﴿وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾: إشارة إلى أن كل بغي فهو بغير حق، وليس المراد أن البغي ينقسم إلى قسمين: بغي بحق، وبغي بغير حق؛ لأن البغي كله بغير حق.

وعلى هذا؛ فيكون الوصف هنا من باب الوصف الكاشف، ويسميها العلماء صفة كاشفة؛ أي: مبينة، وهي التي تكون كالتعليل لموصوفها.

وقوله: ﴿وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾: هذه معطوفة على ما سبق؛ يعني: وحرم ربي أن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانًا؛ يعني: أن تجعلوا له شريكًا لم ينزل به سلطانًا؛ أي: حجة، وسميت الحجة سلطانًا؛ لأنها سلطة للمحتج بها.

وهذا القيد: ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾: نقول فيه كما قلنا في ﴿وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾: أي: أنه قيد كاشف؛ لأن كل من أشرك بالله؛ فليس له سلطان بشركه.

قوله: ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾؛ يعني: وحرم أن تقولوا على الله ما لا تعلمون؛ فحرام علينا أن نقول على الله ما لا نعلم، سواء كان في ذاته أو أسمائه أو صفاته أو أفعاله أو أحكامه.

فهذه خمسة أشياء حرمها الله علينا.

وفيها رد على المشركين الذين حرموا ما لم يحرمه الله .

إذا قال قائل: أين الصفة السلبية في هذه الآية؟

قلنا: هي : ﴿ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ ؛ فالثنتان جميعًا من باب الصفات السلبية : ﴿ **وَأَن تُشْرِكُواْ** ﴾ ؛ يعني : لا تجعلوا لله شريكًا لكماله . ﴿ **وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ** ﴾ كذلك ؛ لكماله ؛ فإنه من تمام سلطانه أن لا يقول عليه أحد ما لا يعلم .

الفائدة المسلكية من هذه الآية :

هي أن نتجنب هذه الأشياء الخمسة التي صرح الله تعالى بتحريمها .

وقد قال أهل العلم: إن هذه المحرمات الخمسة مما أجمعت الشرائع على تحريمها .

ويدخل في القول على الله بغير علم تحريف نصوص الكتاب والسنة في الصفات وغيرها ، فإن الإنسان إذا حرف نصوص الصفات ؛ مثل أن يقول : المراد باليدين النعمة فقد قال على الله ما لا يعلم من وجهين :

الوجه الأول: أنه نفى الظاهر بلا علم .

والثاني: أثبت لله خلافه بغير دليل .

فهو يقول: لم يرد الله كذا ، وأراد كذا ، فنقول : هات الدليل على أنه لم يرد كذا ، وعلى أنه أراد كذا! فإن لم تأت بالدليل ؛ فإنك قد قلت على الله ما لا تعلم .

● **قال الشيخ صالح الفوزان:**

قوله: ﴿ **فَاعْبُدْهُ** ﴾ أي : أفرده بالعبادة ، ولا تعبد معه غيره ، والعبادة : لغة : الذل والخضوع ، وشرعًا : اسم جامع لما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة ﴿ **وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ** ﴾ أي : اثبت على عبادته ولازمها واصبر على مشاقها ﴿ **هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا** ﴾ الاستفهام للإنكار ، والمعنى : أنه ليس له مثل ولا نظير حتى يشاركه في العبادة .

وقوله: ﴿ **وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ** ﴾ الكفء في لغة العرب : النظير ، أي : ليس له نظير ولا مثيل ولا شريك من خلقه .

وقوله: ﴿فلا تجعلوا لله أندادا﴾: الند: في اللغة: المثل والنظير والشبيه، أي: لا تتخذوا لله أمثالاً ونظراء تعبدونهم معه، وتساوونهم به في الحب والتعظيم ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنه ربكم وخالقكم وخالق كل شيء، وأنه لا ند له يشاركه في الخلق.

﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا﴾: لما فرغ سبحانه من ذكر الدليل على وحدانيته في الآية التي قبلها أخبر أنه مع هذا الدليل الظاهر المفيد لعظيم سلطانه وجليل قدرته وتفرده بالخلق أخبر أنه مع ذلك قد وجد في الناس من يتخذ معه سبحانه نداً يعبده من الأصنام العاجزة.

﴿يحبونهم كحب الله﴾: أي: أن هؤلاء الكفار لم يقتصروا على مجرد عبادة تلك الأنداد، بل أحبوها حبًا عظيمًا، وأفرطوا في حبها كما يحبون الله، فقد سووهم بالله في المحبة لا في الخلق والرزق والتدبير.

الشاهد من الآيات:

أن فيها إثبات اسم الله وتعظيمه وإجلاله، وفيها نفي السمي والكفء والند عن الله سبحانه، وهو نفي مجمل، وهذه هي الطريقة الواردة في الكتاب والسنة فيما ينفى عن الله تعالى، وهي أن ينفى عن الله عز وجل كل ما يضاد كماله الواجب من أنواع العيوب والنقائص.

﴿وقل الحمد لله﴾: الحمد: هو الثناء، و (أل) فيه للاستغراق، أي: الحمد كله لله.

﴿الذي لم يتخذ ولدا﴾: أي: ليس له ولد، كما تقوله اليهود والنصارى وبعض مشركي العرب.

﴿ولم يكن له شريك في الملك﴾: أي: ليس له مشارك في ملكه وربوبيته، كما تقول الثنوية ونحوهم ممن يقول بتعدد الآلهة ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ﴾ أي: ليس بذليل فيحتاج إلى أن يكون له ولي أو وزير أو مشير، فلا يُحالِف أحداً، ولا يستنصر بأحد.

﴿وكبره تكبيرا﴾ أي: عظمه وأجله عما يقوله الظالمون.

قوله: ﴿يسبح لله ما في السموات وما في الأرض﴾: أي: تنزهه جميع مخلوقاته التي في سماواته وأرضه عن كل نقص وعيب ﴿لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ﴾ يختصان به ليس لغيره منهما شيء، وما كان لعباده من الملكية فهو من عطائه ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يعجزه

شيء.

﴿تبارك﴾: فعل ماض مأخوذ من البركة، وهي: النماء والزيادة المستقرة الثابتة الدائمة، وهذه اللفظة لا تستعمل إلا لله سبحانه، ولا تستعمل إلا بلفظ الماضي ﴿الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ﴾ أي: القرآن، سمي فرقانًا؛ لأنه يفرق بين الحق والباطل ﴿عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ يعني: محمداً ﷺ، وهذه صفة مدح وثناء؛ لأنه أضافه إليه إضافة تشريف وتكريم في مقام إنزال القرآن عليه ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ﴾ الإنس والجن، وهذا من خصوصياته ﷺ ﴿نَذِيرًا﴾ أي: منذرًا، مأخوذ من الإنذار وهو الإعلام بأسباب المخافة.

وقوله: ﴿لِيَكُونَ﴾: تعليل لإنزال الفرقان عليه، أي: يخصه بالرسالة العامة.

ثم وصف نفسه سبحانه بأربع صفات:

الأولى: قوله: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ دون غيره، فهو المتصرف فيهما وحده.

الصفة الثانية: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾: كما تزعم النصارى واليهود؛ وذلك لكمال غناه وحاجة كل مخلوق إليه.

الصفة الثالثة: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾: فيه رد على طوائف المشركين من الوثنية والثنوية وغيرهم.

الصفة الرابعة: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾: من المخلوقات.

ويدخل في ذلك أفعال العباد فهي خلق الله وفعل العبد ﴿فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾.

أي: قدر كل شيء مما خلق من الآجال والأرزاق والسعادة والشقاوة، وهيأ كل شيء لما يصلح له.

قال ابن كثير: نزه نفسه عن الولد وعن الشريك، ثم أخبر أنه خلق كل شيء فقدره تقديرًا، أي: كل شيء مما سواه مخلوق مربوب، وهو خالق كل شيء وربه ومليكه وإلهه، وكل شيء تحت قهره وتدبيره وتسخيره وتقديره. انتهى.

قوله: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ﴾: في هذه الآية ينزه تعالى نفسه عن أن يكون له ولد أو شريك في الملك والتصرف والعبادة، ﴿مِنْ﴾ في الموضعين لتأكيد النفي،

﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ﴾ هذا استدلال لما سبق في أول الآية من نفي الولد والشريك في الألوهية، أي: لو قدر تعدد الآلهة لانفرد كل منهم عن الآخر بما خلق، وحينئذ لا ينتظم الكون لوجود الانقسام. والواقع المشاهد أن الكون منتظم أتم انتظام لم يحصل فيه تعدد ولا انقسام.

﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾: أي: ولو كان معه إله آخر لكان كل منهم يطلب قهر الآخر ومخالفته، فيعلو بعضهم على بعض كحال ملوك الدنيا، وحينئذ فذلك المغلوب الضعيف لا يستحق أن يكون إلهًا.

وإذا تقرر بطلان المشارك تعين أن يكون الإله واحدًا هو الله وحده؛ ولهذا قال: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ من الشريك والولد.

﴿عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أي: هو المختص بعلم ما غاب عن العباد وعلم ما يشاهدونه، وأما غيره فهو وإن علم شيئًا من المشاهد فإنه لا يعلم الغيب ﴿فَتَعَالَىٰ﴾ أي: تنزه الله وتقدس ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ به، فهو سبحانه متعال عن أن يكون له شريك في الملك.

قوله: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾: ينهى سبحانه عن ضرب الأمثال له. وضرب المثل هو تشبيه حال بحال، وكان المشركون يقولون: إن الله أجل من أن يعبده الواحد منا، فلابد من اتخاذ واسطة بيننا وبينه، فكانوا يتوسلون إليه بالأصنام وغيرها، تشبيهًا له بملوك الدنيا، فنهى سبحانه عن ذلك؛ لأنه سبحانه لا مثل له، فلا يمثل بخلقه ولا يشبه بهم ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ﴾ أنه لا مثل له ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ففعلكم هذا صدر عن توهم فاسد وخاطر باطل. ولا تعلمون أيضًا ما في عبادة الأصنام من سوء العاقبة.

وقوله: ﴿قُلْ﴾: الخطاب للنبي ﷺ، وفي ذلك دليل على أن القرآن كلام الله، وأن النبي ﷺ مبلغ عن الله. ﴿إِنَّمَا﴾ أداة حصر ﴿حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ﴾ أي: جعلها حرامًا، والفواحش: جمع فاحشة، وهي ما تناهى قبحه من المعاصي ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ أي: ما أعلن منها وما أسر ﴿وَالْإِثْمَ﴾ كل معصية يتسبب عنها الإثم.

وقيل: هو الخمر خاصة ﴿وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي: الظلم المجاوز للحد والتعدي على الناس ﴿وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ﴾ أي: تجعلوا له شريكًا في العبادة. ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ أي: حجة وبرهانًا.

وهذا موضع الشاهد من الآية ﴿ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ من الافتراء والكذب من دعوى أن له ولداً، ونحو ذلك مما لا علم لكم به، ومثل ما كانوا ينسبون إليه من التحليلات والتحريمات التي لم يأذن بها.

الشاهد من هذه الآيات الكريمة:

أن فيها نفي الشريك عن الله تعالى وإثبات تفرده بالكمال، ونفي الولد والمثل عنه سبحانه، وأن جميع مخلوقاته تنزهه عن ذلك وتقدسه، كما أن فيها إقامة الحجة على بطلان الشرك، وأنه مبني على جهل وخيال. وأنه سبحانه لا مثل له ولا شبيه له. والله أعلم.



أسئلة وأجوبة نموذجية على أقسام الشرك والمحرمات الخمس في جميع الشرائع

● قال الشيخ عبد العزيز المحمد السلمان:

س ـ ما معنى ما يلي: الأحد، الصمد، الكفو؟

ج ـ «الأحد»: أي: الواحد الذي لا نظير له ولا وزير ولا ند ولا شبيه ولا عديل ولا يطلق هذا اللفظ على أحد في الإثبات إلا على الله لأنه الكامل في جميع صفاته وأفعاله. وأما معنى «الصمد» فهو الذي تصمد إليه الخلائق في حوائجهم ومسائلهم.

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ:

وهو الإله السيد الصمد الذي	صمدت إليه الخلق بالإذعان
الكامل الأوصاف من كل الوجو	ه كماله ما فيه من نقصان

وأما معنى «الكفو» فمعناه المكافئ والمماثل والنظير.

س ـ ما الذي يؤخذ من سورة الإخلاص؟

ج ـ أولاً: إثبات وحدانية الله.

ثانيًا: إثبات صفة الكلام.

ثالثًا: الرد على النصارى القائلين أن عيسى ابن الله.

رابعًا: الرد على اليهود القائلين عزير ابن الله.

خامسًا: الرد على المشركين القائلين الملائكة بنات الله.

سادسًا: كمال غناه سبحانه وفقر الخلائق إليه.

سابعًا: شرف علم التوحيد.

ثامنًا: أن هذه السورة تضمنت أعرض الخطوط الرئيسية في حقيقة الإسلام الكبيرة.

تاسعًا: أن من اعتقد وحدانية الله وصمديته وأنه الفعال لما يريد خلص قلبه من كل غاشية ومن كل شائبة ومن كل تعلق بغير الله.

عاشرًا: الرد على من قال إن القرآن كلام محمد ﷺ.

الحادي عشر: الحث على التوكل على الله إذ هو الواحد المقصود في الحوائج.

الثاني عشر: الحث عل عبادة الله وحده.

الثالث عشر: الاتجاه إلى الله في الرغبة والرهبة والسراء والضراء والنعماء والبأساء.

الرابع عشر: تلقي العقيدة عن الكتاب والسنة.

الخامس عشر: إثبات الألوهية لله.

السادس عشر: إثبات أولية الله.

السابع عشر: نفي الزوجة عن الله.

الثامن عشر: إثبات صفة الصمدية لله المقصود في الحوائج.

التاسع عشر: الرد على من قال بالطبيعة وأنها التي توجد الأشياء.

العشرون: الرد على من قال لله كفو أو ند أو مثيل أو نحو ذلك.

الخلاصة: أن السورة تضمنت نفي الشريك بجميع أنواعه فقد نفى عن نفسه أنواع الكثرة بقوله: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ونفى عن نفسه أنواع الاحتياج بقوله: ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ ونفى عن نفسه المشابهة والمجانسة بقوله: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾، ونفى عن نفسه الحدوث بقوله: ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ ونفى عن نفسه الأنداد والأشباه بقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾.

س - بين ما تعرفه عن معنى قوله تعالى: ﴿فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون﴾؟

ج - الأنداد: الأمثال والنظراء. هذه الآية ضمنت الدعوة إلى عبادة الله وحده بطريقين:

أحدهما: إقامة البراهين بخلقهم وخلق السموات والأرض والمطر.

والثاني: ملاطفة جميلة بذكر ما لله عليهم من الحقوق ومن الإنعام.

فذكر سبحانه أولاً: ربوبيته لهم، ثم ذكر خلقه لهم وآبائهم، لأن الخالق يستحق أن يعبد، ثم ذكر ما أنعم به عليهم من جعل الأرض فراشًا والسماء بناء وإنزال المطر وإخراج الثمرات لأن المنعم يستحق أن يعبد ويشكر، وانظر قوله تعالى: ﴿جعل لكم رزقًا﴾ يدلك على ذلك لتخصيصه ذلك بهم في ملاطفة وخطاب بديع.

الثانية: المقصود الأعظم من هذه الآية وهو الأمر بالتوحيد لله جل وعلا. وترك ما عبد من دونه لقوله في آخرها ﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

وفي الآية: دليل على أن الخلق مفطورون على معرفة الله والإقرار به.

ثانيًا: الحث على التوحيد.

ثالثًا: فيها رد على المشَبِّهة الذين يشبهون خلقه به.

رابعًا: فيها رد على الذين يشبهونه بخلقه.

خامسًا: فيها رد على القدرية ونحوهم.

سادسًا: النهي عن الشرك.

سابعًا: إثبات الألوهية.

ثامنًا: إثبات صفة الخلق لله.

تاسعًا: لطف الله بخلقه.

عاشرًا: الرد على المعطلة.

س ـ ما الذي تعرفه عن معنى قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾؟

ج ـ في هذه الآية بعد أن ذكر سبحانه فيما تقدم من ظواهر الكون ما يدل على توحيده ورحمته وحكمته، أخبر أنه مع هذا الدليل الظاهر قد وجد في الناس من لا يعقل تلك الآيات التي أقامها برهانًا على وحدانيته. فاتخذ معه ندًا يعبده من الأصنام كعبادة الله ويساويه به في المحبة والتعظيم.

والمحبة المذكورة هي المحبة الشِّرْكية المستلزمة للخوف والتعظيم، والإجلال والإيثار على مراد النفس وهذه صَرْفُها لغير الله شِرْكٌ أكبر ينافي التوحيد بالكلية ففي

هذه الآية :

أولاً: إثبات الألوهية .

ثانيًا: أن من أشرك مع الله غيره في المحبة فقد جعله شريكًا لله واتخذه ندًا لله وأن ذلك شرك أكبر .

ثالثًا: أنه سبحانه يحتج على المشركين بإقرارهم بتوحيد الربوبية .

رابعًا: الاستدلال بهذه المخلوقات على وجوده سبحانه .

خامسًا: فيها دليل وآية على توحيد الله ، وإثبات أسمائه وصفاته وكماله وصدق رسله عليهم الصلاة والسلام .

س ـ ما هي أقسام المحبة وكم عددها؟

ج ـ هي خمسة أقسام:

الأول: محبة الله ، ولا تكفي وحدها للنجاة من النار والفوز بالجنة فإن المشركين يحبون الله .

القسم الثاني: محبة ما يحبه الله ، وهذه المحبة هي التي تدخل في الإسلام وتخرج من الكفر وأحب الناس إلى الله أقومهم بهذه المحبة .

القسم الثالث: محبة في الله ولله وهي فرض : كمحبة أولياء الله وبغض أعدائه ، وهو من مكملات محبة الله ومن لوازمها ، فالمحبة التامة مستلزمة لموافقة المحبوب في محبوبه ومكروهه وولايته وعداوته . و من المعلوم أن من أحب الله المحبة الواجبة . فلابد أن يبغض أعداءه فإن صافاهم فهو كاذب في دعواه كما قيل :

إذا صافى صديقك من تُعادِي ... فقد عاداك وانقطع الكلام

ومن المعلوم أيضًا أن من أحب الله المحبة الواجبة فلابد أن يحب أولياءه .

القسم الرابع: المحبة مع الله المحبة الشركية وهي المستلزمة للخوف والتعظيم والإجلال فهذه لا تصلح إلا لله ومتى أحب العبد بها غير الله فقد أشرك الشرك الأكبر .

القسم الخامس: المحبة الطبيعية وهي ميل الإنسان إلى ما يلائم طبعه كمحبة المال والولد ونحو ذلك فهذه لا تُذم إلا إذا شغلت وألْهت عن طاعة الله .

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ:

لو كان حبهم لأجل الله ما ... عادوا أحبته على الإيمان

ولما أحبوا سخطه وتجنبوا ... محبوبه ومواقع الرضوان

فإذا ادعيت له المحبة مع خلا ... فك ما يحب فأنت ذو بهتان

أتحب أعداء الحبيب وتدعي ... حبًّا له ما ذاك في إمكان

وكذا تعادي جاهدًا أحبابه ... أين المحبة يا أخا الشيطان

ليس العبادة غير توحيد المحـ ... ـبة مع خضوع القلب والأركان

والحب نفس وفاقه فيما يحـ ... ـب وبغض ما لا يَرْتَضِي بجنان

ووفاقه نفس اتباعك أمره ... والقصد وجه الله ذي الإحسان

هذا هو الإحسان شرط في قبو ... ل السعي فافهمه من القرآن

والاتباع بدون شرع رسوله ... عين المحال وأبطل البطلان

فإذا نبذت كتابه ورسوله ... وتبعت أمر النفس والشيطان

وتخذت أندادًا تحبهم كحـ ... ـب الله كنت مجانب الإيمان

س ـ ما هي أقسام الشرك وما معنى اتخاذ الند؟

ج ـ أقسامه اثنان أكبر وأصغر:

القسم الأول: اتخاذ الند بأن يدعوه أو يرجوه أو يخافه أو يحبه، كمحبة الله، أو يذبح له أو ينذر. وحد بعضهم الشرك بقوله دعوة الله ودعوة غيره معه وبعضهم قال: هو صرف نوع من أنواع العبادة لغير الله.

قال ابن القيم:

والشرك فاحذره فشرك ظاهر ... ذا القسم ليس بقابل الغفران

وهو اتخاذ الند للرحمن أيـ ... ـيًا كان من حجر ومن إنسان

يدعوه أو يرجوه ثم يخافه ... ويحبه كمحبة الديان

والله ما ساووهم بالله في ... خلق ولا رزق ولا إحسان

لكنهم ساووهم بالله في حب وتعظيم وفي إيمان

والقسم الثاني: شرك أصغر، وحده بعضهم بأنه كل ما ورد بالنص تسميته شركًا ولم يصل إلىٰ حد الأكبر، وقيل: إنه كل ما ورد بالنص تسميته شركًا ولم يصل إلىٰ حد الأكبر. وذلك كقول الرجل: ما شاء الله وشئت، ولولا الله وأنت، وكالحلف بغير الله.

قال ابن القيم:

وأما الشرك الأصغر فكثير، منه: الرياء، والتصنع للخلق والحلف بغير الله، وقول الرجل للرجل: ما شاء الله وشئت. وهذا من الله ومنك، وأنا بالله وبك، وما لي إلا الله وأنت. وأنا متوكل علىٰ الله وعليك، ولولا الله وأنت لم يكن كذا وكذا وقد يكون شركًا أكبر بحسب حال قائله ومقصده.

س ـ بين ما تعرفه عن معنى قوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾؟

ج ـ هذه الآية تسمىٰ آية العز، لما أثبت سبحانه وتعالىٰ لنفسه الكريمة الأسماء الحسنىٰ، نزه نفسه عن النقائص، فقال: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ كما يقول اليهود والنصارىٰ، ومن قال من المشركين إن الملائكة بنات الله ـ تعالىٰ الله عن قولهم علوًّا كبيرًا ـ.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾: أي: مشارك له في ملكه وألوهيته وربوبيته، كما تزعم الثانوية ونحوهم من الفرق القائلين بتعدد الألهة ـ تعالىٰ عن ذلك علوًّا كبيرًا ـ.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ﴾: أي: لم يحتج إلىٰ موالاة أحد لذل يلحقه، فهو مستغنٍ عن الولي والنصير.

وقوله: ﴿وَكَبِّرْهُ﴾ أي: عظمه وأجله عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا. وتكبيرة سبحانه:

أولاً: يكون بذاته باعتقاد أنه واجب الوجود لذاته، وأنه غني عن كل موجود.

ثانيًا: بتكبيره في صفاته بأن يعتقد أن كل صفة من صفاته سبحانه، فهي صفة

جلال وكمال وعظمة وعزة، وأنه منزه عن كل عيب ونقص.

ثالثـًا: بتكبيره في أفعاله، فتعتقد أنه لا يجري في ملكه شيء إلا وفق حكمته وإرادته.

رابعـًا: بتكبيره في أحكامه بأن يعتقد أنه ملك مطاع، له الأمر و النهي والخفض والرفع، وأنه لا اعتراض لأحد عليه في أحكامه، يعز من يشاء ويذل من يشاء قال تعالىٰ: ﴿**لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ**﴾.

خامسًا: بتكبيره في أسمائه الحسنىٰ ولا يوصف إلا بصفاته المقدسة.

س ـ ما الذي يؤخذ من هذه الآية الكريمة؟

ج ـ فيها أولاً: الحث علىٰ حمده سبحانه؛ لأنه المستحق لأن يُحمد، لما اتصف به من صفات الكمال.

ثانيـًا: تنزيهه عن الولد لكمال صمديته وغناه، وتعبد كل شيء له، فاتخاذ الولد ينافي ذلك.

ثالثـًا: تنزيهه عن الشريك في الملك، المتضمن تفرده بالألوهية والربوبية وسائر صفات الكمال.

رابعًا: نفي الولاية من الذل التي تحميه وتمنعه وتؤيده وتحفظه؛ لأنه قوي عزيز غني عمن سواه لا يحتاج إلىٰ معين.

أما الولاية التي علىٰ وجه المحبة والكرامة لمن شاء من عباده فلم ينفها وهي المذكورة في قوله تعالىٰ: ﴿**أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾ وقوله: ﴿**اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ**﴾ فهذه مولاة رحمةٍ وإحسان وأما المنفية فهي مولاة الحاجة والذل.

خامسًا: إثبات رسالة محمد ﷺ.

سادسًا: لطف الله ورحمته حيث بين لهم الحق من الباطل.

سابـعًا: أن الشرك والكفر لا يضر إلا نفس صاحبه وأما الله فلن يبلغ العباد ضره فيضروه.

ثامنًا: سخافة عقول الناسبين لله ولدًا أو شريكًا حيث قالوا ما ليس من الحقيقة في شيء. بل كذب وبهتان تعالىٰ الله عن قولهم علوًا كبيرًا.

تاسعًا: عدم احتياج الله إلىٰ المعين والنصير.

عاشرًا: الرد علىٰ من قال أن كلام الله هو الكلام النفسي.

الحادي عشر: الرد علىٰ المشركين.

الثاني عشر: صدق المرسلين وأن ما جاؤا به حق يجب اتباعه.

الثالث عشر: عظم شأن هذه الآية لأن الله ـ جل وعلا ـ نزه نفسه فيها.

الرابع عشر: الدليل علىٰ وحدانية الله وأنه الواحد الأحد.

الخامس عشر: الحث علىٰ تكبير الله.

السادس عشر: اعتناء الله برسوله ﷺ.

السابع عشر: الرد علىٰ من زعم أن القرآن كلام محمد ﷺ.

الثامن عشر: الرد علىٰ الثانوية ونحوهم ممن قال بتعدد الآلهة.

التاسع عشر: الرد علىٰ القدرية.

العشرون: إثبات الألوهية لله تعالىٰ.

الحادي والعشرون: إثبات الملك لله تعالىٰ

الثاني والعشرون: الإنكار علىٰ من ينسب لله ما ينزه عنه متصلاً كان أو منفصلاً.

الثالث والعشرون: أن الحمد يختص بالله.

س ـ بين ما تفهمه عن معنى قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

ج ـ يخبر تعالىٰ أنه يسبح له جميع المخلوقات التي في السموات، والتي في الأرض، أي تنزهه وتقدسه عما لا يليق بجلاله وعظمته.

وقد اختلف في كيفية هذا التسبيح فقيل هو علىٰ حقيقته بلسان المقال ويدل علىٰ ذلك قوله تعالىٰ في آية سورة الإسراء: ﴿وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ وقوله: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ﴾ فلو كان هذا التسبيح من الجبال تسبيح دلالة لم يكن

لتخصيص داود فائدة.

وثبت في الصحيح أنهم كانوا يسمعون تسبيح الطعام وهم يأكلون مع رسول الله ﷺ، وحديث حنين الجذع، وحديث أن حجراً بمكة كان يسلم على النبي ﷺ، وكلها في الصحيح.

ومن ذلك تسبيح الحصى في كفه ﷺ ومن ذلك ما في الحديث الذي رواه أبو هريرة بينما رجل يسوق بقرة أراد أن يركبها فقالت: إنا لم نخلق لهذا إنما خلقنا لحراثة الأرض فقال الناس سبحان الله بقرة تتلكم فقال رسول الله ﷺ **«فإني أومن به أنا وأبو بكر وعمر»**.

ومن ذلك ما ورد عن علي ابن أبي طالب قال: كنا مع رسول الله ﷺ بمكة فخرجنا في نواحيها خارجًا من مكة بين الجبال والشجر فلم يمر بشجرة ولا جبل إلا قال سلام عليك يا رسول الله.

وفي الحديث الآخر: بينما رجل في غنم له إذ عدا الذئب على شاة منها فأدركها صاحبها فاستنقذها فقال الذئب فمن لها يوم السبع يوم لا راعي لها غيري(الحديث) إلى غير ذلك من الأدلة.

وقيل إنه بلسان الحال أي بما تدل عليه صنعتها من قدرة وحكمة، فهي تدل بحدوثها دلالة واضحة على وجود الله وتفرده بالربوبية ووحدانيته وحكمته، قال بعض الشعراء:

تأمل في نبات الأرض وانظر ... إلى آثار ما صنع المليك

عيون من لجين شاخصات ... بأحداق هي الذهب السبيك

على قضب الزبرجد شاهدات ... بأن الله ليس له شريك

وقول لآخر:

وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه واحد

وقوله: ﴿**له الملك وله الحمد**﴾: أي يختصان به ليس لغيره منهما شيء، وما كان لعباده منهما فهو من فيضه وراجع إليه، فهو المالك وحده لجميع المخلوقات، النافذ

فيها أمره يتصرف فيها كيف يشاء، لا معقب لحكمه ولا راد لأمره، فلا يعجزه شيء.

س ـ ما الذي يؤخذ من هذه الآية الكريمة؟

ج ـ فيها ـ أولاً: تنزيه الله تعالىٰ عما لا يليق بجلاله وعظمته.

ثانيًا: إثبات الملك لله وحده.

ثالثًا: إثبات الألوهية لله تعالىٰ.

رابعًا: اختصاصه سبحانه بالملك والحمد، كما يفيده تقديم الظرف فهو سبحانه المختص به من حيث الحقيقة لأنه مبدئ كل شيء، ومبدعه فالملك له بالحقيقة دون غيره. ولأن أصول النعم وفروعها منه تعالىٰ فالحمد له بالحقيقة وحمد غيره إنما يقع من حيث ظاهر الحال وجريان النعم علىٰ يديه.

خامسًا: إثبات قدرة الله.

سادسًا: الرد علىٰ القدرية.

سابعًا: إثبات جميع صفات الكمال ونفي كل نقص وعيب لأن التسبيح يقتضي ذلك.

ثامنًا: الرد علىٰ المعطلة المنكرين لصفات الله كالجهمية.

س ـ بين ما تعرفه عن معنى قوله تعالىٰ: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (١) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴾.

ج ـ تكلم سبحانه في هذه السورة علىٰ التوحيد؛ لأنه أقدم وأهم، ثم في النبوة؛ لأنها الواسطة، ثم في المعاد لأنه الخاتمة.

فقال «تبارك»: مأخوذ من البركة وهي النماء والزيادة. وهو فعل مختص بالله لا يقال لغيره ذلك، ولا يصلح إلا له، أي: تعاظم وكملت أوصافه، وكثرت خيراته.

«الفرقان» أي: القرآن الفارق بين الحلال والحرام، والهدىٰ والضلال، وأهل السعادة من أهل الشقاوة، والتعبير بـ «نزَّل» بالتشديد لإفادة التدريج في النزول وأنه لم ينزل جملة واحدة.

وقوله «علىٰ عبده» المراد به محمد ﷺ وإيراده بهذا العنوان، ولم يقل بنبيه أو

رسوله أو بمحمد تشريفًا له وإيذانًا بكونه ﷺ في أقصى مراتب العبودية .

ولذلك وصفه بها في أشرف مقام الإرسال ، ومقام الإسراء قال أهل العلم : ولو كان غير هذا الاسم أشرف منه لسماه الله به في مقام الإسراء .

قال بعضهم وأظنه القاضي أبي يعلى :

ومما زادني شرفًا وتيهًا　　وكدت بأخمصي أطأ الثريا
دخولي تحت قولك يا عبادي　　وأن صيرت أحمد لي نبيا

وقال الآخر :

أصم إذا نوديت باسمي وإنني　　إذا قيل لي يا عبدها لسميع

والضمير في قوله «ليكون» : يعود على محمد ﷺ وقيل على القرآن والمراد بالعالمين : الثقلين الجن والإنس «والإنذار» : الإعلام بسبب المخاوف ، وهذا الإنذار عام كقوله تعالى : ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾ والإنذار الخاص كقوله تعالى : ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا﴾ .

وقوله : ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ : أي له التصرف فيهما وحده ، وجميع من فيها مماليك له ، وعبيد له مُذْعِنون لعظمته ، خاضعون لربوبيته ، فقراء إلى رحمته .

وقوله : ﴿الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ : لكمال غناه ، وقيامه بنفسه ، وحاجة كل شيء إليه ، وافتقار كل شيء إليه وقيام كل شيء به سبحانه .

وقوله : ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ : أي : لم يكن له مشارك في ملكه وألوهيته وربوبيته كما تزعمه الثانوية والقدرية ونحوهم .

وقوله : ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ : أي : أوجد وأنشأ كل شيء مخلوق ، فيدخل في ذلك كل ما في العالم العلوي والسفلي من حيوان ، وجماد ونبات ، ويدخل في ذلك أفعال العباد .

ولا يدخل في ذلك أسماء الله ، وصفاته ؛ لأن الأسماء والصفات تابعة للذات يُحْتذي بها حَذْوَهَا ، وعموم كُلٍّ في كل مقام يحسبه وقوله ﴿فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ أي : فسواه وهيأه لما يصلح له لا خلل فيه ، ولا تفاوت ، وقيل : قدر لكل شيء تقديرًا من

الأجل والرزق فَجَرت المقادير على ما خلق.

س ـ ما الذي يؤخذ من الآيتين الكريمتين؟

ج ـ فيهما: **أولاً**: رد على اليهود لقولهم عزير ابن الله.

ثانيًا: رد على النصارى لقولهم المسيح ابن الله.

ثالثًا: رد على المشركين القائلين إن الملائكة بنات الله.

رابعًا: الرد على الثانوية ونحوهم ممن يقول بتعدد الآلهة.

خامسًا: الرد على المشركين القائلين في تلبيتهم: لا شريك لك إلا شريكًا تملكه وما ملك.

سادسًا: أن الآية تتضمن تنزيه الله عن كل عيب ونقص.

سابعًا: فيها دليل على أن الله هو الموجد المبدع.

ثامنًا: خلق أفعال العباد فهي خلق لله، وفعل للعبد.

تاسعًا: إثبات القدر.

عاشرًا: فيها دلالة على التوكل؛ لأن من وقر في قلبه أن الملك لله، وأنه المتصرف النافع الضار، لم يبال بأحد من الخلق.

الحادي عشر: أن العباد لا يملكون الأعيان ملكًا مطلقًا، وإنما يملكون التصرف فيها على مقتضى الشرع.

الثاني عشر: تحريم الإفتاء بغير علم؛ لأن ربوبيته وملكه يمنع من الإفتاء والحكم بغير علم.

الثالث عشر: إثبات صفة العلم.

الرابع عشر: الرد على القدرية نفاة العلم.

الخامس عشر: الرد على القدرية القائلين: إن العبد لا فعل له.

السابع عشر: الرد على من قال: إن القرآن كلام محمد ﷺ أو جبريل أو غيرهما من الخلق.

الثامن عشر: إثبات علو الله على خلقه.

التاسع عشر: الرد على الدهرية القائلين: ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا.

العشرون: إثبات نبوة محمد ﷺ ورسالته.

الحادي والعشرون: الرد على من أنكر رسالته ﷺ.

الثاني والعشرون: التعليل لأفعال الله تعالى وأنه لا يفعل شيئًا إلا لعلةٍ وحكمة.

الثالث والعشرون: الدلالة على عموم رسالته ﷺ.

الرابع والعشرون: الدلالة على أن الجن مكلفون وتتضمن الدلالة على أنهم يثابون على الحسنات، ويجازون على السيئات.

الخامس والعشرون: أن من بلغه القرآن فقد قامت عليه الحجة لقوله: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾.

السادس والعشرون: إثبات ملك السموات والأرض لله تعالى.

السابع والعشرون: الرد على الذين رفعوه ﷺ فوق منزلته.

الثامن والعشرون: الرد على الذين نبذوا ما جاء به وراء ظهورهم كالجهمية والحلولية وأهل وحدة الوجود ونحوهم.

التاسع والعشرون: الرد على من زعم أن كلام الله وكلام رسوله لا يفيد اليقين، فلو كان الأمر كما زعم المبتدعة لم يقم بالقرآن حجة على المكلفين.

الثلاثون: الحكمة في إرسال الرسل وإنزال الكتب.

الحادي والثلاثون: كمال غناه وقيامه بنفسه وحاجة الخلائق إليه.

الثاني والثلاثون: أن القرآن منزل، غير مخلوق.

الثالث والثلاثون: لطف الله بخلقه حيث أرسل إليهم رسلاً مبشرين ومنذرين.

الرابع والثلاثون: فيها دليل على عظمة الله وكمال صفاته.

الخامس والثلاثون: فيها دليل على كثرة خيرات الله ونعمه، ومن أعظمها إنزال القرآن الكريم.

السادس والثلاثون: أن القرآن نزل منجمًا مفرقًا.

السابع والثلاثون: اعتناء الله بكتابه القرآن، ورسوله محمد ﷺ.

الثامن والثلاثون: تسمية القرآن «الفرقان» ؛ لأنه فرق بين الحلال والحرام، والهدىٰ والضلال.

التاسع والثلاثون: إثبات قدرة الله.

الأربعون: الرد علىٰ من أنكر الجن.

الحادي والأربعون: إثبات البعث.

الثاني والأربعون: إثبات الحساب والجزاء علىٰ الأعمال والجنة والنار.

س ـ ما الذي تعرفه عن معنى قوله تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (٩١) عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾؟

ج ـ في هذه الآية ينزه الله نفسه عن أن يكون له ولد أو شريك في الملك والتصرف والعبادة، ثم إنه سبحانه لما أخبر عن نفسه بعدم وجود إله ثان أوضح ذلك بالبرهان والحجة الباهرة فقال: ﴿إِذًا﴾ أي: لو كان معه آلهة كما يقول المشركون ﴿لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ﴾، أي تفرد بما خلق فلم يرض أن يضاف خلقه وإنعامه إلىٰ غيره ومنع الآخر من الاستيلاء علىٰ ما خلق وهذا ممتنع لأنه يقتضي التنافر والانفصال بين أجزاء العالم. والمشاهد أن الوجود منتظم متسق، كل من العالم العلوي والسفلي مرتبط بعضه ببعض في غاية الكمال ما ترىٰ في خلق الرحمن من تفاوت.

وقوله: ﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: ولغلب القوي الضعيف وقهره وأخذ ملكه كما هي عادة ملوك الدنيا. وإذا تقرر عدم إمكان المشارك له في ذلك، تعين أن يكون هذا الواحد هو الله سبحانه وتعالىٰ وتنزه وتقدس عما يقوله الظالمون علوًا كبيرًا.

والمتكلمون ذكروا هذا المعنىٰ وعبروا عنه بدليل التمانع، وهو أنه لو فرض صانعان فصاعدا فأراد واحد تحريك جسم والآخر أراد سكونه فإن لم يحصل مراد كل منهما كانا عاجزين والواجب لا يكون عاجزًا، ويمتنع اجتماع مراديهما للتضاد وما جاء هذا المحال إلا من فرض التعدد فيكون محالاً، فأما إن حصل مراد أحدهما دون الآخر كان الغالب هو الواجب، والآخر المغلوب ممكنًا؛ لأنه لا يليق بصفة الواجب أن يكون مقهورًا.

قال ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ مشيرًا إلى ذلك:

وشـواهد الأحـداث ظاهرة على ... ذا العـالـم المخلوق بالبـرهان
وأدلةالتـوحـيـد تشـهـد كـلهـا ... بحـدوث كل مـا سـوى الرحـمن
لو كـان غـيـر الله جل جـلاله ... مـعـه قـديمًا كـان ربًا ثان
إذ كـان عن رب العلى مـسـتـغنيًا ... فـيكـون حـينئـذ لنا ربان
والرب باسـتـقـلاله مـتـوحـد ... أفـمـمكن أن يسـتـقل اثـنان
لو كـان ذاك تنافـيًـا وتـسـاقـطًا ... فـإذا همـا عـدمـان ممتنعـان
والقـهـر والتـوحـيـد يـشـهـد منهـمـا ... كل لـصـاحـبـه همـا عـدلان
ولذاك مـا افـترقـا جـمـيـعًا في صـفـا ... ت الله فـانظـر ذاك في الـقـرآن
فالـواحد القـهار حـقًـا ليس في الـ ... إمـكـان أن تحـظـى بـه ذاتـان

وقـوله: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾: ختم سبحانه الآية بتنزيهه نفسه عن الولد والشريك، وعما يصفه به المخالفون للرسل وقوله: ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ في هذه الآية تنبيه على عظمة صفاته بأنموذج من صفات الكمال فأخبر أنه هو العالم بما غاب عن خلقه من الأشياء وما شاهدوه.

فعلمه سبحانه محيط بكل شيء؛ بالواجبات والممكنات والمستحيلات، وبالماضي والحال والمستقبل، والمراد به الذين قالوا بالولد والشريك مخطئون فيما قالوا فإنهم يقولون عن غير علم، وأن الله الذي يعلم الأشياء شاهدها وغائبها، ولا تخفى عليه خافية من أمرهما، وقد نفي ذلك فخبره هو الحق دون خبرهم.

وقـوله: ﴿فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾: أي: علا وتنزه وتقدس عما يقول الجاحدون الظالمون، فهو سبحانه أعظم وأجلُّ من أن يوصف بهذا الوصف.

س ـ ما الذي يؤخذ من قوله تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ﴾... إلخ؟

ج ـ فيها أولاً: تنزيه الله عن الولد.

ثانيًا: تنزيهه عن وجود إله ثان .

ثالثًا: إثبات الألوهية لله .

رابعًا: إثبات توحيد الربوبيه .

خامسًا: الرد على النصارى لقولهم : المسيح ابن الله .

سادسًا: الرد على اليهود لقولهم : عزير ابن الله .

سابعًا: الرد على المشركين القائلين الملائكة بنات الله .

ثامنًا: الرد على الثانوية ونحوهم ممن قال بتعدد الآلهة .

تاسعًا: إثبات وحدانيته .

عاشرًا: إثبات صفة العلم .

الحادي عشر: اختصاصه سبحانه بعلم الغيب .

الثاني عشر: الرد على القدرية النافين لعلم الله .

الثالث عشر: أن الله هو المتفرد بالخلق والرزق .

الرابع عشر: إثبات كماله وعظمته وغناه .

الخامس عشر: فيها دليل على قدرة الله .

السادس عشر: إثبات جميع صفات الكمال ونفى كل عيب لأن التسبيح يقتضي ذلك .

س ـ ما هي أقسام الغيب؟

ج ـ الغيب : ينقسم إلى قسمين : غيب لا يعلمه إلا الله وهو ما غاب عن جميع الخلق قال تعالى : ﴿قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ والقسم الثاني : غيب مقيد وهو ما علمه بعض المخلوقات من الجن والإنس فهو غيب عمن غاب عنه وليس هو غيبًا عمن شهده فهذا يكون غيبًا مقيدًا .

س ـ بين ما تعرفه عن معنى قوله تعالى: ﴿فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾؟

ج ـ في هذه الآية: ينهى سبحانه عباده عن أن يجعلوا له ندًا أو شبيهًا أو مثيلاً ،

فإنه واحد لا مثيل له في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أسمائه، ولا في أفعاله، وضرب المثل تشبيه حال بحال، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ تعليل النهي المذكور، ووعيد على المنهي عنه، أي إنه يعلم ويشهد أنه لا إله إلا هو وأنتم بجهلكم تشركون به غيره .

في هذه الآية أولاً: إثبات الألوهية .

ثانيًا: إثبات صفة العلم .

ثالثًا: النهي عن ضرب الأمثال لله .

رابعًا: في الآية رد على المشبهة .

خامسًا: الرد على المعطلة .

سادسًا: في الآية تهديد ووعيد لمن جعل لله مثلاً أو شبهه بخلقه .

سابعًا: الرد على من أنكر صفة العلم .

س ـ ما الذي تفهمه من قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ وما مناسبة ذكر المؤلف لهذه الآية؟

ج ـ الفواحش: جمع فاحشة وهي ما عظم جرمه وذنبه، كالكبائر التي بلغت الغاية في الفحش وذلك كالزنا واللواط والكبر والعجب والرياء والنفاق .

والإثم: أي ما يوجب الإثم والذم، فيتناول كل معصية يتسبب عنها الإثم .

﴿وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ التعدي على الناس في دمائهم وأموالهم وأعراضهم من غير أن يكون على جهة القصاص والمماثلة .

و «الشرك»: دعوة الله، ودعوة غيره معه و «السلطان»: الحجة والبرهان .

في هذه الآية بيان المحرمات الخمس التي اتفق على تحريمها جميع الرسل والشرائع والكتب وهي محرمات على كل أحد وفي كل حالٍ لا تباح قط . والمراد بالتحريم هنا التحريم الشرعي لا الكوني القدري .

وقوله: ﴿وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ أي: وحرم الشرك به بأن تجعلوا لله

شريكًا ما لم ينزل به سلطانًا، وحرم سبحانه القول عليه، بلا علم في أسمائه وصفاته وشرعه.

وأصل الشرك والكفر القول على الله بلا علم، فكل مشرك قائل على الله بلا علم دون العكس إذ القول على الله بلا علم، قد يتضمن التعطيل والابتداع في الدين فهو أعم من الشرك، والشرك فرد من أفراده.

ورتب هذه المحرمات أربع مراتب وبدأ بأسهلها وهو الفواحش، ثم ثنَّى بما هو أشد تحريمًا، وهو الإثم والظلم، ثم ثلَّث بما هو أعظم وهو الشرك به سبحانه، ثم ربَّع بما هو أشد تحريمًا من ذلك كله، وهو القول على الله بلا علم. وهذا وجه المناسبة لسياق هذه الآية.

قال بعض المفسرين:

الجنايات محصورة في خمسة أنواع:

أحدها: الجنايات على الأنساب وهي المرادة بالفواحش.

وثانيها: الجنايات على العقول وهي المشار إليها بالإثم.

وثالثها: الجنايات على النفوس والأموال والأعراض وإليها الإشارة بالبغي.

ورابعها: الجنايات على الأديان وهي من وجهين: إما طعن في توحيد الله، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ﴾ وأما القول في دين الله من غير معرفة وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾.

وهذه الخمسة، أصول الجنايات، وأما غيرها فهي كالفروع ومناسبة ذكرها هنا ما فيها من تحريم القول على الله بلا علم، ومنه القول على الله في أسمائه وصفاته بلا علم لأن القول على الله بلا علم أشد تحريمًا من الشرك؛ لأن الله رتبها في الآية من الأدنى إلى الأعلى.

يستنبط من الآية:

١ - أن القرآن كلام الله لا كلام محمد ولا غيره.

٢ - تحريم أكل الربا لأنه من الفواحش.

٣ ـ تحريم القذف لأنه من الفواحش.

٤ ـ تحريم اللواط لأنه فاحشة عظيمة.

٥ ـ والزنا لأنه فاحشة ومقتًا وساء سبيلاً.

٦ ـ تحريم السحر لأنه فاحشة عظيمة.

٧ ـ تحريم التولِّي يوم الزحف لأنه فاحشة عظيمة.

٨ ـ تحريم القتل لأنه فاحشة ونحوها مما يتعلق بحركات البدن.

٩ ـ الكبر وقد فسره ﷺ بأنه بطر الحق وغمط الناس؛ لأنه فاحشة.

١٠ ـ العجب لأنه فاحشة.

١١ ـ الرياء لأنه فاحشة.

١٢ ـ النفاق لأنه فاحشة ونحو ذلك مما يتعلق بحركات القلوب.

١٣ ـ إثبات الربوبية.

١٤ ـ إثبات رسالة محمد ﷺ.

١٥ ـ تحريم فعل ما يؤثم من الذنوب.

١٦ ـ تحريم البغي على الناس في دمائهم وأموالهم وأعراضهم.

١٧ ـ جواز ما كان على جهة القصاص والمماثلة.

١٨ ـ تحريم الشرك بالله.

١٩ ـ تحريم القول على الله بلا علم.

٢٠ ـ أن هذه المحرمات فيها مفاسد عامة وخاصة وضررها شديد وعظيمة الخطر على الأنفس وعلى الأمة جمعًا.

٢١ ـ أن هذه تحريمها دائمًا في كل حال وعلى كل أحد.

٢٢ ـ أن أصول الإيمان لا تُقْبل إلا بوحي من الله يؤيده البرهان.

٢٣ ـ الإشارة إلى عظم شأن الدليل والبرهان في الدين.

٢٤ ـ لا يحل لأحد أن يحرم شيئًا تحريمًا دينيًا على عباد الله أو يوجب عليهم شيئًا إلا بنص صريح عن الله ورسوله.

٢٥ ـ أن من تهجم على ذلك فقد تجرأ على الله وأساء إلى نفسه وإلى عباد الله.

٢٦ ـ أن من تبعه على ذلك فقد جعله ربًا له ومن ثم كان فقهاء الصحابة والتابعين ومن تبعهم من السلف يتحامون القول في الدين بالرأي.

٢٧ ـ الإنكار على من نسب إلى دين الله تحليل شيء أو تحريمه من عنده لا دليل عليه من كتاب ولا سنة قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾ الآية.

٢٨ ـ تحريم البدع والمحدثات في الدين لأنها من القول على الله بلا علم.

٢٩ ـ تحريم تشبيه الله بخلقه لأنه قول على الله بلا علم.

٣٠ ـ الأمر بالعدل والإنصاف واتباع الكتاب والسنة.

٣١ ـ لطف الله بخلقه حيث حرم عليهم ما فيه مضرة عليهم.

٣٢ ـ أن الشرك لا دليل عليه بل الدليل على تحريمه ووجوب التوحيد لله جل وعلا وتقدس.

س ـ ما هي أقسام الشرك الأكبر؟

ج ـ ينقسم إلى قسمين: شرك يتعلق بذات المعبود وأسمائه وصفاته، وقسم يتعلق بمعاملته، فالنوع الأول ينقسم إلى قمسين: شرك تعطيل وينقسم إلى ثلاثة أقسام: وتقدم الكلام عليه مستوفيًا

والثاني: شرك تمثيل وينقسم إلى قسمين: وتقدم الكلام عليه.

القسم الأول: وهو ما يتعلق بمعاملته وينقسم إلى أقسام:

الأول: شرك الدعوة المشار إليه بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ الآية.

الثاني: شرك في المحبة كما ذكر الله عن بعض الناس بقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾.

الثالث: شرك في الطاعة المذكورة في قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾.

الرابع: شرك الإرادة والقصد قال الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ﴾ الآية.

س - ما الفرق بين الشرك الأكبر والشرك الأصغر؟

ج - أولاً: الشرك الأكبر لا يغفر لصاحبه، وأما الأصغر فتحت المشيئة.

ثانياً: الأكبر محبط لجميع الأعمال، وأما الأصغر فلا يحبطه إلا العمل الذي قارنه.

ثالثًا: أن الأكبر مخرج عن الملة الإسلامية، وأما الأصغر فلا يخرج منها.

رابعًا: أن الشرك الأكبر صاحبه خالد مخلد في النار، وأما الأصغر فكغيره من الذنوب. وقيل إنه لا يغفر لصاحبه إلا بالتوبة كالأكبر.

* * *

[صِفَةُ الاستِواءِ والعُلوّ]

وقوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥].

في سَبْعِ مواضع: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وقال في سورة يونس عليه السلام: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [يونس: ٣].

وقال في سورة الرعد: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الرعد: ٢].

وقال في سورة طه: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥].

وقال في سورة الفرقان: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾[الفرقان: ٥٩].

وقال في سورة آلم السجدة: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾[السجدة: ٤].

وقال في سورة الحديد: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾[الحديد: ٤].

وقوله: ﴿يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: ٥٥].

﴿بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: ١٥٨].

﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠].

﴿يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾ [غافر: ٣٦، ٣٧].

وقوله: ﴿أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ (١٦) أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ [الملك: ١٦، ١٧].

• الشَّرح •

• قال العلامة ناصر السعدي:

• ومن أُصول أهل السُّنة والجماعة الثابتة: إثبَاتُ علو اللَّه عَلَى خَلقه واستوائه على عرشه.

وهي من أهم الأُصول التي بَايَن بها «أهل السُّنَّة»: «للجهمية» و«المعتزلة» و«الأشاعِرة».

فما في هذه الآيات من ذِكر عُلوه واسمه العلي الأعلىٰ، وصُعُود الأشياء إليه وعُرُوجها ونُزُولها منه يدُلُّ علىٰ العلو.

وما صرَّح به من استوائه علىٰ العرش بُرهَانٌ قاطع علىٰ ثبوت ذلك.

وقد قيل للإمام مالك: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ كيف استوىٰ؟ فقال: «الاستواء معلوم، والكيف مجهُول، والإيمان به واجب، والسُّؤال عنه - أي عن الكيفية - بدعة».

• الشيخ محمد خليل هراس:

وقوله: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ إلخ: هذه هي المواضع السبعة التي أخبر فيها سبحانه باستوائه علىٰ العرش وكلها قطعية الثبوت؛ لأنها من كتاب الله،

فلا يملك الجهمي المعطل لها ردًّا ولا إنكارًا، كما أنها صريحة في بابها لا تحتمل تأويلاً، فإن لفظ استوىٰ في اللغة إذا عُدِّيَ بعلىٰ لا يمكن أن يُفهَم منه إلا العلو والارتفاع، ولهذا لم تخرج تفسيرات السلف لهذا اللفظ عن أربع عبارات، ذكرها العلامة ابن القيم في النونية حيث قال:

فلهم عبارات عليها أربع ... قد حصلت للفارس الطعان
وهي استقر وقد علا وكذلك ... ارتفع الذي ما فيه من نكران
وكذاك قد صعد الذي هو رابع ... وأبو عبيدة صاحب الشيباني
يختار هذا القول في تفسيره ... أدرى من الجهمي بالقرآن

فأهل السنة والجماعة يؤمنون بما أخبر به سبحانه عن نفسه من أنه مستو علىٰ عرشه بائن من خلقه بالكيفية التي يعلمها هو جل شأنه كما قال مالك وغيره: «الاستواء معلوم والكيف مجهول» وأما ما يشغب به أهل التعطيل من إيراد اللوازم الفاسدة علىٰ تقرير الاستواء فهي لا تلزمنا لأننا لا نقول بأن فوقيته علىٰ العرش كفوقية المخلوق علىٰ المخلوق.

وأما ما يحاولون به صرف هذه الآيات الصريحة عن ظواهرها بالتأويلات الفاسدة التي تدل علىٰ حيرتهم واضطرابهم كتفسيرهم استوىٰ باستولىٰ أو حملهم (علىٰ) علىٰ معنىٰ (إلىٰ) واستوىٰ بمعنىٰ قصد إلىٰ آخر ما نقله عنهم حامل لواء التجهم والتعطيل زاهد الكوثري فكلها تشغيب بالباطل وتغيير في وجه الحق لا يغني عنهم في قليل ولا كثير وليت شعري ماذا يريد هؤلاء المعطلة أن يقولوا؟ أيريدون أن يقولوا ليس في السماء رب يقصد ولا فوق العرش إله يعبد؟ فأين يكون إذًا؟ ولعلهم يضحكون منا حين نسأل عنه بأين، ونسوا أن أكمل الخلق وأعلمهم بربهم صلوات الله عليه وسلامه قد سأل عنه بأين حين قال للجارية: «أين الله؟» ورضي جوابها حين قالت: في السماء، وقد أجاب كذلك من سأله بأين كان ربنا قبل أن يخلق السموات والأرض بأنه كان في عماء؛ الحديث، ولم يرو عنه أنه زجر السائل ولا قال له: إنك غلطت في السؤال.

إن قصارىٰ ما يقوله المتحذلق منهم في هذا الباب: إن الله تعالىٰ كان ولا مكان،

ثم خلق المكان وهو الآن على ما كان قبل خلق المكان.

فماذا يعني هذا المخرف بالمكان الذي كان الله ولم يكن؟ هل يعني به تلك الأمكنة الوجودية التي هي داخل محيط العالم؟ فهذه أمكنة حادثة ونحن لا نقول بوجود الله في شيء منها إذ لا يحصره ولا يحيط به شيء من مخلوقاته.

وأما إذا أراد بها المكان العدمي الذي هو خلاء محض لا وجود فيه، فهذا لا يقال إنه لم يكن ثم خلق، إذًا لا يتعلق به الخلق فإنه أمر عدمي - فإذا قيل إن الله في مكان بهذا المعنى كما دلت عليه الآيات والأحاديث فأي محذور في هذا؟

بل الحق أن يقال: كان الله ولم يكن شيء قبله ثم خلق السموات والأرض في ستة أيام، وكان عرشه على الماء ثم استوى على العرش، وثم هنا للترتيب الزماني لا لمجرد العطف.

* وقوله: ﴿يا عيسى﴾ إلخ: هذه الآيات جاءت مؤيدة لما دلت عليه الآيات السابقة من علوه تعالى وارتفاعه فوق العرش مباينا للخلق، وناعية على المعطلة جحودهم وإنكارهم لذلك، تعالى الله عما يقولون علوًا كبيراً ففي الآية الأولي ينادي الله رسوله وكلمته عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام بأنه متوفيه ورافعه إليه حين دبر اليهود قتله، والضمير في قوله: «إليَّ» هو ضمير الرب جل شأنه لا يحتمل غير ذلك، فتأويله بأن المراد إلى محل رحمتي أو مكان ملائكتي... إلخ لا معنى له، ومثل ذلك يقال أيضًا في قوله سبحانه ردًا على ما ادعاه اليهود من قتل عيسى وصلبه: ﴿بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾

وقد اختلف في المراد بالتوفي المذكور في الآية فحمله بعضهم على الموت، والأكثرون على أن المراد به النوم، ولفظ المتوفي يستعمل فيه قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾.

ومنهم من زعم أن في الكلام تقديمًا وتأخيراً وأن التقدير إني رافعك ومتوفيك، أي مميتك بعد ذلك، والحق أنه عليه السلام رفع حيًا وأنه سينزل قرب قيام الساعة لصحة الحديث بذلك.

وأما قوله سبحانه: ﴿إليه يصعدُ الكلمُ الطيِّبُ﴾: فهو صريح أيضًا في صعود أقوال

العباد وأعمالهم إلىٰ الله عز وجل، يصعد بها الكرام الكاتبون كل يوم عقب صلاة العصر وعقب صلاة الفجر كما جاء في الحديث: «**فيعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم ربهم وهو أعلم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: يا ربنا أتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون**».

وأما قوله سبحانه حكاية عن فرعون: ﴿يا هامانْ﴾ إلخ: فهو دليل علىٰ أن موسىٰ أخبر فرعون الطاغية بأن إلهه في السماء فأراد أن يتلمس الأسباب للوصول إليه تمويهًا علىٰ قومه، فأمر وزيره هامان أن يبني له الصرح، ثم عقب علىٰ ذلك بقوله: ﴿وَإِنِّي لأَظُنُّهُ﴾ أي: موسىٰ ﴿كَاذِبًا﴾ فيما أخبر به من كون إلهه في السماء. فمن إذًا أشبه بفرعون وأقرب إليه نسبًا؟ نحن أم هؤلاء المعطلة؟ إن فرعون كذب موسىٰ في كون إلهه في السماء، وهو نفس ما يقوله هؤلاء.

قوله: ﴿أأمنتم﴾ **إلخ**: هاتان الآيتان فيهما التصريح بأن الله عز وجل في السماء ولا يجوز حمل ذلك علىٰ أن المراد به العذاب أو الأمر أو الملك كما يفعل المعطلة لأنه قال: ﴿من﴾، وهي للعاقل، وحملها علىٰ الملك إخراج اللفظ عن ظاهره بلا قرينة توجب ذلك.

ولا يجوز أن يفهم من قوله: «في السماء» أن السماء ظرف له سبحانه بل إن أريد بالسماء هذه المعروفة، ففي: بمعنىٰ علىٰ كما في قوله تعالىٰ: ﴿لأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ وإن أريد به جهة العلو ففي: علىٰ حقيقتها فإنه سبحانه في أعلىٰ العلو.

● **قال الشيخ عبد العزيز بن باز:**

إثبات علو الله علىٰ خلقه واستوائه علىٰ عرشه وإقرار العقول بذلك أمر فطري فطر الله عليه العباد، وأما الاستواء فأثبته السمع من كتاب الله وسنة رسوله، ليس في العقول ما يخالف ذلك.

وحقيقته لغة: الارتفاع والعلو، وأما عن الكيفية فذلك مما اختص الله بعلمه، وأما تفسير الاستواء بالاستيلاء فهو باطل من وجوه كثيرة، منها: أنه يتضمن أن الله جل وعلا كان مغلوبًا علىٰ عرشه ثم غلب وهذا باطل، لأنه تعالىٰ لم يزل قاهرًا لجميع خلقه مستوليًا علىٰ العرش فما دونه، وأما بيت الأخطل الذي يستدلون به

علىٰ أنه معنىٰ (استوىٰ): استولىٰ، فلا حجة فيه والبيت هو:

قد استوى بِشْرٌ على العِرَاقِ مِن غَيرِ سيفٍ أو دَمٍ مُهراقِ

لأن استعمال (استوىٰ) بمعنىٰ: استولىٰ، غير معروف في لغة العرب، ولأن ذلك لو وجد في اللغة لم يجز استعماله في حق الله، وأما المخلوق فيكون غالبًا ومغلوبًا، كبشر هذا فإنه كان مغلوبًا علىٰ أمر العراق ثم غلب!

● قال الشيخ ابن عثيمين:

ذكر المؤلف ـ رحمه الله ـ ثبوت استواء الله علىٰ عرشه وأنه في سبعة مواضع من القرآن.

الموضع الأول: قوله في سورة الأعراف: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤].

﴿اللَّهُ﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾.

﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾: أوجدهما من العدم علىٰ وجه الإحكام والإتقان.

﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾: ومدة هذه الأيام كأيامنا التي نعرف؛ لأن الله سبحانه وتعالىٰ ذكرها منكَّرة، فتحمل علىٰ ما كان معروفًا.

وأول هذه الأيام يوم الأحد، وآخرها يوم الجمعة.

منها أربعة أيام للأرض، ويومان للسماء؛ كما فصل الله ذلك في سورة فصلت: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾ [فصلت: ٩، ١٠]؛ فصارت أربعة. ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ * فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ١١، ١٢].

وقوله: ﴿ثُمَّ استوى على الْعَرْشِ﴾: ﴿ثُمَّ﴾: للترتيب.

﴿اسْتَوَى﴾: بمعنىٰ: علا.

و ﴿الْعَرْشِ﴾: هو ذلك السقف المحيط بالمخلوقات، ولا نعلم مادة هذا العرش؛ لأنه لم يرد عن النبي ﷺ حديث صحيح يبين من أين خُلِقَ هذا العرش، لكننا نعلم أنه أكبر المخلوقات التي نعرفها.

وأصل العرش في اللغة: السرير الذي يختص به الملك، ومعلوم أن السرير الذي يختص به الملك سيكون سريراً عظيمًا فخمًا لا نظير له.

وفي هذه الآية من صفات الله تعالى عدة صفات، لكن المؤلف ساقها لإثبات صفة واحدة، وهي الاستواء على العرش وأهل السنة والجماعة يؤمنون بأن الله تعالى مستوٍ على عرشه استواءً يليق بجلاله ولا يماثل استواء المخلوقين.

فإن سألت: ما معنى الاستواء عندهم؟ فمعناه العلو والاستقرار.

وقد ورد عن السلف في تفسيره أربعة معاني: الأول: علا. والثاني: ارتفع. والثالث: صعد. والرابع: استقر.

لكن (علا) و (ارتفع) و (صعد) معناها واحد، وأما (استقر)؛ فهو يختلف عنها.

ودليلهم في ذلك: أنها في جميع مواردها في اللغة العربية لم تأت إلا لهذا المعنى إذا كانت متعدية بـ (على):

قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ﴾ [المؤمنون: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ * لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ [الزخرف: ١٢، ١٣].

وفسره أهل التعطيل بأن المراد به الاستيلاء، وقالوا: معنى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]؛ يعني: ثم استولى عليه.

واستدلوا لتحريفهم هذا بدليل موجب وبدليل سالب:

- أما الدليل الموجب؛ فقالوا: إننا نستدل بقول الشاعر:

قد استوى بشر على العراق ... من غير سيف أو دم مهراق

(بشر): ابن مروان، (استوى)؛ يعني: استولى على العراق.

قالوا: وهذا بيت من رجل عربي، ولا يمكن أن يكون المراد به استوى على العراق؛ يعني: علا على العراق! لاسيما أنه في ذلك الوقت لا طائرات يمكن أن

يعلو على العراق بها.

- أما الدليل السلبي؛ فقالوا: لو أثبتنا أن الله عز وجل مستو على عرشه بالمعنى الذي تقولون، وهو العلو والاستقرار؛ لزم من ذلك أن يكون محتاجًا إلى العرش، وهذا مستحيل، واستحالة اللازم تدل على استحالة الملزوم.

ولزم من ذلك أن يكون جسمًا؛ لأن استواء شيء على شيء بمعنى علوه عليه يعني أنه جسم.

ولزم أن يكون محدودًا؛ لأن المستوي على الشيء يكون محدودًا، إذا استويت على البعير؛ فأنت محدود في منطقة معينة محصور بها وعلى محدود أيضًا.

هذه الأشياء الثلاثة التي زعموا أنها تلزم من إثبات أن الاستواء بمعنى العلو والارتفاع.

والرد عليهم من وجوه:

أولا: تفسيركم هذا مخالف لتفسير السلف الذي أجمعوا عليه، والدليل على إجماعهم أنه لم ينقل عنهم أنهم قالوا به وخالفوا الظاهر، ولو كانوا يرون خلاف ظاهره؛ لنقل إلينا؛ فما منهم أحد قال: إن (استوى) بمعنى (استولى) أبدًا.

ثانيًا: أنه مخالف لظاهر اللفظ؛ لأن مادة الاستواء إذا تعدَّت بـ(على)؛ فهي بمعنى العلو والاستقرار، هذا ظاهر اللفظ، وهذه مواردها في القرآن وفي كلام العرب.

ثالثًا: أنه يلزم عليه لوازم باطلة:

١- يلزم أن يكون الله عز وجل حين خلق السموات والأرض ليس مستوليًا على عرشه؛ لأن الله يقول: ﴿**خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ**﴾ [الاعراف: ٥٤]، و﴿**ثُمَّ**﴾ تفيد الترتيب، فيلزم أن يكون العرش قبل تمام خلق السموات والأرض لغير الله.

٢- أن الغالب من كلمة (استولى) أنها لا تكون إلا بعد مغالبة! ولا أحد يغلب الله.

أين المفر والإله الطالب الأشرم المغلوب ليس الغالب

٣- من اللوازم الباطلة أنه يصح أن نقول: إن الله استوى على الأرض والشجر

والجبال؛ لأنه مستولٍ عليها.

وهذه لوازم باطلة، وبطلان اللازم يدل على بطلان الملزوم.

وأما استدلالهم بالبيت؛ فنقول:

١- أثبتوا لنا سند هذا البيت وثقة رجاله، ولن يجدوا إلى ذلك سبيلا.

٢- من هذا القائل؟ أفلا يمكن أن يكون قاله بعد تغير اللسان؟ لأن كل قول يستدل به على اللغة العربية بعد تغير اللغة العربية فإنه ليس بدليل؛ لأن العربية بدأت تتغير حين اتسعت الفتوح ودخل العجم مع العرب فاختلف اللسان، وهذا فيه احتمال أنه بعد تغير اللسان.

٣- أن تفسيركم «استوى بشر على العراق» بـ (استولى) تفسير تعضده القرينة، لأنه من المتعذر أن بشراً يصعد فوق العراق فيستوي عليه كما يستوي على السرير أو على ظهر الدابة فلهذا نلجأ إلى تفسيره بـ (استولى).

هذا نقوله من باب التنزل، وإلا؛ فعندنا في هذا جواب آخر: أن نقول: الاستواء في البيت بمعنى العلو؛ لأن العلو نوعان:

١- **علو حسي؛** كاستوائنا على السرير.

٢- **وعلو معنوي؛** بمعنى السيطرة والغلبة.

فيكون معنى «استوى بشر على العراق»؛ يعني: علا علوَّ غلبة وقهر.

وأما قولكم: إنه يلزم من تفسير الاستواء بالعلو أن يكون الله جسماً.

فجوابه: كل شيء يلزم من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ؛ فهو حق، ويجب علينا أن نلتزم به، ولكن الشأن كل الشأن أن يكون هذا من لازم كلام الله ورسوله؛ لأنه قد يمنع أن يكون لازماً؛ فإذا ثبت أنه لازم؛ فليكن، ولا حرج علينا إذا قلنا به.

ثم نقول: ماذا تعنون بالجسم الممتنع؟

إن أردتم به أنه ليس لله ذات تتصف بالصفات اللازمة لها اللائقة بها؛ فقولكم باطل؛ لأن لله ذاتاً حقيقية متصفة بالصفات، وأن له وجهاً ويداً وعيناً وقدماً، وقولوا ما شئتم من اللوازم التي هي لازم حق.

وإن أردتم بالجسم الذي قلتم يمتنع أن يكون الله جسمًا: الجسم المركب من العظام واللحم والدم وما أشبه ذلك؛ فهذا ممتنع على الله، وليس بلازم من القول بأن استواء الله على العرش علوه عليه.

وأما قولهم: إنه يلزم أن يكون محدودًا.

فجوابه أن نقول بالتفصيل: ماذا تعنون بالحد؟

إن أردتم أن يكون محدودًا؛ أي: يكون مباينًا للخلق منفصلا عنهم؛ كما تكون أرض لزيد وأرض لعمر؛ فهذه محدودة منفصلة عن هذه، وهذه منفصلة عن هذه؛ فهذا حق ليس فيه شيء من النقص.

وإن أردتم بكونه محدودًا: أن العرش محيط به؛ فهذا باطل، وليس بلازم؛ فإن الله تعالى مستو على العرش، وإن كان عز وجل أكبر من العرش ومن غير العرش، ولا يلزم أن يكون العرش محيطًا به، بل لا يمكن أن يكون محيطًا به؛ لأن الله سبحانه وتعالى أعظم من كل شيء وأكبر من كل شيء، والأرض جميعًا قبضته يوم القيامة، والسموات مطويات بيمينه.

وأما قولهم: يلزم أن يكون محتاجًا إلى العرش.

فنقول: لا يلزم؛ لأن معنى كونه مستويًا على العرش: أنه فوق العرش، لكنه علو خاص، وليس معناه أن العرش يقله أبدًا؛ فالعرش لا يقله، والسماء لا تقله، وهذا اللازم الذي ادعيتموه ممتنع؛ لأنه نقص بالنسبة إلى الله عز وجل، وليس بلازم من الاستواء الحقيقي؛ لأننا لسنا نقول: إن معنى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾؛ يعني: أن العرش يقله ويحمله؛ فالعرش محمول: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧]، وتحمله الملائكة الآن، لكنه ليس حاملا لله عز وجل؛ لأن الله سبحانه وتعالى ليس محتاجًا إليه، ولا مفتقرًا إليه، وبهذا تبطل حججهم السلبية.

وخلاصة ردنا لكلامهم من عدة أوجه:

الأول: أن قولهم هذا مخالف لظاهر النص.

ثانيًا: مخالف لإجماع الصحابة وإجماع السلف قاطبة.

ثالثًا: أنه لم يرد في اللغة العربية أن (استوىٰ) بمعنىٰ (استولىٰ)، والبيت الذي احتجوا به علىٰ ذلك لا يتم به الاستدلال.

رابعًا: أنه يلزم عليه لوازم باطلة:

- منها: أن يكون العرش قبل خلق السموات والأرض ملكًا لغير الله.

- أن كلمة (استولىٰ) تعطي في الغالب أن هناك مغالبة بين الله وبين غيره، فاستولىٰ عليه وغلبه.

- أنه يصح أن نقول - علىٰ زعمكم -: أن الله استوىٰ علىٰ الأرض والشجر والجبال والإنسان والبعير؛ لأنه (استولىٰ) علىٰ هذه الأشياء؛ فإذا صح أن نطلق كلمة (استولىٰ) علىٰ شيء؛ صح أن نطلق (استوىٰ) علىٰ ذلك الشيء؛ لأنهما مترادفان علىٰ زعمكم.

فبهذه الأوجه يتبين أن تفسيرهم باطل.

ولما كان أبو المعالي الجويني - عفا الله عنه - يقرر مذهب الأشاعرة، وينكر استواء الله علىٰ العرش، بل وينكر علو الله بذاته؛ قال: كان الله تعالىٰ ولم يكن شيء غيره، وهو الآن علىٰ ما كان عليه. وهو يريد أن ينكر استواء الله علىٰ العرش؛ يعني: كان ولا عرش، وهو الآن علىٰ ما كان عليه؛ إذًا: لم يستو علىٰ العرش. فقال له أبو العلاء الهمذاني: يا أستاذ! دعنا من ذكر العرش والاستواء علىٰ العرش؛ يعني: لأن دليله سمعي؛ ولولا أن الله أخبرنا به ما علمناه - أخبرنا عن هذه الضرورة التي نجد في نفوسنا: ما قال عارف قط: يا الله! إلا وجد في قلبه ضرورة بطلب العلو. فبهت أبو المعالي، وجعل يضرب علىٰ رأسه: حيرني الهمذاني، حيرني الهمذاني! وذلك لأن هذا دليل فطري، ما أحد ينكره.

الموضع الثاني: في سورة يونس؛ قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [يونس: ٣].

نقول فيها ما قلنا في الآية الأولىٰ.

الموضع الثالث: في سورة الرعد قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الرعد: ٢].

﴿رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾: ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾: هل يعني: ليس لها عمد مطلقًا؟ أو لها عمد لكنه غير مرئية لنا؟

فيه خلاف بين المفسرين؛ فمنهم من قال: إن جملة ﴿تَرَوْنَهَا﴾ صفة لـ ﴿عَمَدٍ﴾؛ أي بغير عمد مرئية لكم، ولها عمد غير مرئية. ومنهم من قال: إن جملة ﴿تَرَوْنَهَا﴾ جملة مستأنفة؛ معناها: ترونها كذلك بغير عمد. وهذا الأخير أقرب؛ فإن السموات ليس لها عمد مرئية ولا غير مرئية، ولو كان لها عمد؛ لكانت مرئية في الغالب، وإن كان الله تعالىٰ قد يحجب عنا بعض المخلوقات الجسمية لحكمة يريدها.

وقوله: ﴿ثُمَّ استوى على العرش﴾: هذا الشاهد، ويقال في معناها ما سبق.

الموضع الرابع: في سورة «طه» قال: ﴿الرَّحْمَنُ على الْعَرْشِ اسْتَوى﴾ [طه: ٥].

قدم ﴿عَلَى الْعَرْشِ﴾ وهو معمول لـ ﴿اسْتَوَى﴾ لإفادة الحصر والتخصيص وبيان أنه سبحانه وتعالىٰ لم يستو علىٰ شيء سوىٰ العرش.

وفي ذكر ﴿الرَّحْمَنُ﴾ إشارة إلىٰ أنه مع علوه وعظمته موصوف بالرحمة.

الموضع الخامس: في سورة الفرقان قوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ﴾ [الفرقان: ٥٩].

﴿الرَّحْمَنُ﴾: فاعل ﴿اسْتَوَى﴾.

الموضع السادس: في سورة الـم السجدة قال: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [السجدة: ٤].

نقول فيها مثل ما قلنا في آيتي الأعراف ويونس، لكن هنا فيه زيادة: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾؛ يعني: بين السماء والأرض، والذي بينهما مخلوقات عظيمة استحقت أن تكون معادلة للسموات والأرض، وهذه المخلوقات العظيمة منها ما هو معلوم لنا كالشمس والقمر والنجوم والسحاب، ومنها ما هو مجهول إلىٰ الآن.

الموضع السابع: في سورة الحديد قال: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الحديد: ٤].

فهذه سبعة مواضع؛ كلها يذكر الله تعالىٰ فيها الاستواء معدًّى بـ﴿عَلَى﴾.

وبعد؛ فقد قال العلماء: إن أصل هذه المادة (س و ي) تدل على الكمال ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾ [الأعلىٰ: ٢]؛ أي: أكمل ما خلقه؛ فأصل السين والواو والياء تدل على الكمال.

ثم هي على أربعة أوجه في اللغة العربية: معداة بـ(إلىٰ)، ومعداة بـ(علىٰ)، ومقرونة بالواو، ومجردة:

- فالمعداة بـ(علىٰ) مثل: ﴿اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الحديد: ٤]. ومعناها: علا واستقر.

- والمعداة بـ(إلىٰ): مثل قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٩].

فهل معناها كالأولى المُعدَّاة بـ(على)؟

فيها خلاف بين المفسرين:

منهم من قال: إن معناهما واحد، وهذا ظاهر تفسير ابن جرير -رحمه الله-: فمعنىٰ: ﴿اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾؛ أي: ارتفع إليها.

ومنهم من قال: بل الاستواء هنا بمعنى القصد الكامل؛ بمعنىٰ: استوىٰ إليها؛ أي: قصد إليها قصداً كاملا، وأيدوا تفسيرهم هذا بأنها عديت بما يدل على هذا المعنىٰ، وهو (إلىٰ).

وإلىٰ هذا ذهب ابن كثير -رحمه الله-؛ ففسر قوله: ﴿اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾؛ أي: قصد إلى السماء، والاستواء ها هنا مضمن معنى القصد والإقبال؛ لأنه عُدِّيَ بـ(إلىٰ). اهـ. كلامه.

- والمقرونة بالواو؛ كقولهم: استوىٰ الماء والخشبة؛ بمعنىٰ: تساوىٰ الماء والخشبة.

- والمجردة؛ كقوله تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى﴾ [القصص: ١٤]، ومعناها: كمل.

تنبيه:

إذا قلنا: استوى على العرش؛ بمعنى: علا؛ فها هنا سؤال، وهو: إن الله خلق السموات، ثم استوى على العرش؛ فهل يستلزم أنه قبل ذلك ليس عاليًا؟

فالجواب: لا يستلزم ذلك؛ لأن الاستواء على العرش أخص من مطلق العلو؛ لأن الاستواء على العرش علو خاص به، والعلو شامل على جميع المخلوقات؛ فعلوه عز وجل ثابت له أزلا وأبدًا، لم يزل عاليًا على كل شيء قبل أن يخلق العرش، ولا يلزم من عدم استوائه على العرش عدم علوه، بل هو عالٍ، ثم بعد خلق السموات والأرض علا علوًا خاصًا على العرش.

فإن قلت: نفهم من الآية الكريمة أنه حين خلق السموات والأرض ليس مستويًا على العرش، لكن قبل خلق السموات والأرض؛ هل هو مستوٍ على العرش أو لا؟

فالجواب: الله أعلم بذلك.

فإن قلت: هل استواء الله تعالى على عرشه من الصفات الفعلية أو الذاتية؟

فالجواب: أنه من الصفات الفعلية؛ لأنه يتعلق بمشيئته، وكل صفة تتعلق بمشيئته؛ فهي من الصفات الفعلية.

إثبات علو الله على مخلوقاته:

ذكر المؤلف ـ رحمه الله ـ في إثبات علو الله على خلقه ست آيات.

الآية الأولى: قوله: ﴿يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: ٥٥].

الخطاب لعيسى ابن مريم عليه السلام الذي خلقه الله من أم بلا أب، ولهذا ينسب إلى أمه، فيقال: عيسى ابن مريم.

يقول الله: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾: ذكر العلماء فيها ثلاثة أقوال:

القول الأول: ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾؛ يعني: قابضك، ومنه قولهم: توفى حقه؛ أي: قبضه.

القول الثاني: ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾: منيمك؛ لأن النوم وفاة؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ

الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ [الأنعام: ٦٠].

القول الثالث: أنه وفاة موت: ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾: مميتك، ومنه قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢].

والقول بأن: ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾ متوفيك بمعنى مميتك بعيد؛ لأن عيسى عليه السلام لم يمت، وسينزل في آخر الزمان؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ [النساء: ١٥٩]؛ أي: قبل موت عيسى عليه السلام على أحد القولين، وذلك إذا نزل في آخر الزمان.

وقيل: قبل موت الواحد؛ يعني: ما من أحد من أهل الكتاب إلا إذا حضرته الوفاة؛ آمن بعيسى عليه السلام، حتى وإن كان يهوديًّا. وهذا القول ضعيف.

بقي النظر بين وفاة القبض ووفاة النوم، فنقول: إنه يمكن أن يجمع بينهما، فيكون قابضًا له حال نومه؛ أي أن الله تعالى ألقى عليه النوم، ثم رفعه، ولا منافاة بين الأمرين.

قوله: ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾: الشاهد هنا؛ فإن ﴿إِلَيَّ﴾تفيد الغاية، وقوله: ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾: يدل على أن المرفوع إليه كان عاليًا، وهذا يدل على علو الله عز وجل.

فلو قال قائل: المراد: رافعك منزلة؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [آل عمران: ٤٥].

قلنا: هذا لا يستقيم؛ لأن الرفع هنا عُدِّيَ بحرف يختص بالرفع الذي هو الفوقية؛ رفع الجسد، وليس رفع المنزلة.

واعلم أن علو الله عز وجل ينقسم إلى قسمين: علو معنوي، وعلو ذاتي.

١ـ أما العلو المعنوي؛ فهو ثابت لله بإجماع أهل القبلة؛ أي: بالإجماع من أهل البدع وأهل السنة؛ كلهم يؤمنون بأن الله تعالى عالٍ علوًّا معنويًّا.

٢ـ وأما العلو الذاتي؛ فيثبته أهل السنة، ولا يثبته أهل البدعة؛ يقولون: إن الله

تعالىٰ ليس عاليًا علوًّا ذاتيًا.

فنبدأ أولا بأدلة أهل السنة علىٰ علو الله سبحانه وتعالىٰ الذاتي، فنقول:

إن أهل السنة استدلوا علىٰ علو الله تعالىٰ علوًّا ذاتيًّا بالكتاب والسنة والإجماع والعقل والفطرة:

أولا: فالكتاب تنوعت دلالته علىٰ علو الله؛ فتارة بذكر العلو، وتارة بذكر الفوقية، وتارة بذكر نزول الأشياء من عنده، وتارة بذكر صعودها إليه، وتارة بكونه في السماء.

١ - فالعلو مثل قوله: ﴿**وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ**﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ﴿**سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى**﴾ [الأعلىٰ: ١].

٢ - والفوقية: ﴿**وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ**﴾ [الأنعام: ١٨]، ﴿**يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ**﴾ [النحل: ٥٠].

٣ - ونزول الأشياء منه؛ مثل قوله: ﴿**يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ**﴾ [السجدة: ٥]، ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ**﴾ [الحجر: ٩].. وما أشبه ذلك.

٤ - وصعود الأشياء إليه؛ مثل قوله: ﴿**إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ**﴾ [فاطر: ١٠]، ومثل قوله: ﴿**تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ**﴾ [المعارج: ٤].

٥ - كونه في السماء؛ مثل قوله: ﴿**أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ**﴾ [الملك: ١٦].

ثانيًا: وأما السنة فقد تواترت عن النبي ﷺ من قوله وفعله وإقراره:

١ - فأما قول الرسول عليه الصلاة والسلام.

فجاء بذكر العلو والفوقية، ومنه قوله ﷺ: «**سبحان ربي الأعلى**»(١)، وقوله لما ذكر السموات؛ قال: «**والله فوق العرش**»(٢).

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٧٧٢) والترمذي (٢٦٢) من حديث حذيفة بن اليمان - رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو الشيخ في «العظمة» (١٤) واللالكائي في «اعتقاد أهل السنة» (٦٥٩) والبخاري في «خلق أفعال العباد» (١/ ٤٣).

وجاء بذكر أن الله في السماء؛ مثل قوله ﷺ: «**ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء**»(١).

٢ ـ **وأما الفعل**؛ فمثل رفع أصبعه إلى السماء، وهو يخطب الناس في أكبر جمع، وذلك في يوم عرفة عام حجة الوداع، فإن الصحابة لم يجتمعوا اجتماعًا أكبر من ذلك الجمع؛ إذ إن الذي حج معه بلغ نحو مائة ألف، والذي مات عنهم نحو مائة وأربعة وعشرين ألفًا. يعني: عامة المسلمين حضروا ذلك الجمع، فقال عليه الصلاة والسلام: «**ألا هل بلغت؟**». قالوا: نعم. «**ألا هل بلغت؟**». قالوا: نعم. «**ألا هل بلغت؟**» قالوا: نعم. وكان يقول: «**اللهم! اشهد**»؛ يشير إلى السماء بأصبعه، وينكتها إلى الناس(٢).

ومن ذلك رفع يديه إلى السماء في الدعاء.

وهذا إثبات للعلو بالفعل.

٣ ـ **وأما التقرير**؛ فإنه في حديث معاوية بن الحكم رضي الله عنه؛ أنه أتى بجارية يريد أن يعتقها، فقال لها النبي ﷺ: «**أين الله؟**». قالت: في السماء. فقال: «**من أنا؟**». قالت: رسول الله. قال: «**أعتقها؛ فإنها مؤمنة**»(٣).

فهذه جارية لم تتعلم، والغالب على الجواري الجهل، لا سيما وهي أمة غير حرة، لا تملك نفسها، تعلم أن ربها في السماء، وضلال بني آدم ينكرون أن الله في السماء، ويقولون: إما أنه لا فوق العالم ولا تحته ولا يمين ولا شمال! أو أنه في كل مكان!!.

فهذه من أدلة الكتاب والسنة.

ثالثًا: وأما دلالة الإجماع؛ فقد أجمع السلف رضي الله عنهم على أن الله تعالى بذاته في السماء، من عهد الرسول عليه الصلاة والسلام، إلى يومنا هذا.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٣٥١) ومسلم (١٠٦٤) من حديث أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه.
(٢، ٣) سبق تخريجه

إن قلت: كيف أجمعوا؟

نقول: إمرارهم هذه الآيات والأحاديث مع تكرار العلو فيها والفوقية ونزول الأشياء منه وصعودها إليه دون أن يأتوا بما يخالفها إجماع منهم على مدلولها.

ولهذا لما قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «إن السلف مجمعون على ذلك»؛ قال «ولم يقل أحد منهم: إن الله ليس في السماء، أو: إن الله في الأرض، أو: إن الله لا داخل العالم ولا خارجه، ولا متصل ولا منفصل، أو: إنه لا تجوز الإشارة الحسية إليه».

رابعًا: وأما دلالة العقل؛ فنقول: لاشك أن الله عز وجل إما أن يكون في العلو أو في السفل، وكونه في السفل مستحيل؛ لأنه نقص يستلزم أن يكون فوقه شيء من مخلوقاته فلا يكون له العلو التام والسيطرة التامة والسلطان التام؛ فإذا كان السفل مستحيلاً؛ كان العلو واجبًا.

وهناك تقرير عقلي آخر، وهو أن نقول: إن العلو صفة كمال باتفاق العقلاء، وإذا كان صفة كمال؛ وجب أن يكون ثابتًا لله؛ لأن كل صفة كمال مطلقة؛ فهي ثابتة لله.

وقولنا: «مطلقة»: احترازًا من الكمال النسبي، الذي يكون كمالا في حال دون حال؛ فالنوم مثلا نقص، ولكن لمن يحتاج إليه ويستعيد قوته به كمال.

خامسًا: وأما دلالة الفطرة: فأمر لا يمكن المنازعة فيها ولا المكابرة؛ فكل إنسان مفطور على أن الله في السماء، ولهذا عندما يفجؤك الشيء الذي لا تستطيع دفعه، وإنما تتوجه إلى الله تعالى بدفعه؛ فإن قلبك ينصرف إلى السماء حتى الذين ينكرون علو الذات لا يقدرون أن ينزلوا أيديهم إلى الأرض.

وهذه الفطرة لا يمكن إنكارها.

حتى إنهم يقولون: إن بعض المخلوقات العجماء تعرف أن الله في السماء؛ كما في الحديث الذي يروى أن سليمان بن داود عليه الصلاة والسلام وعلى أبيه خرج يستسقي ذات يوم بالناس، فلما خرج؛ رأى نملة مستلقيةً على ظهرها، رافعة قوائمها نحو السماء، تقول:

اللهم! إنا خلق من خلقك، ليس بنا غنىً عن سقياك. فقال: ارجعوا؛ فقد سقيتم بدعوة غيركم. وهذا إلهام فطري.

فالحاصل: أن كون الله في السماء أمر معلوم بالفطرة.

والله؛ لولا فساد فطرة هؤلاء المنكرين لذلك؛ لعلموا أن الله في السماء بدون أن يطالعوا أي كتاب؛ لأن الأمر الذي تدل عليه الفطرة لا يحتاج إلىٰ مراجعة الكتب.

والذين أنكروا علو الله عز وجل بذاته يقولون: لو كان في العلو بذاته؛ كان في جهة، وإذا كان في جهة؛ كان محدوداً وجسماً، وهذا ممتنع!

والجواب عن قولهم: «إنه يلزم أن يكون محدوداً وجسماً» نقول:

أولاً: لا يجوز إبطال دلالة النصوص بمثل هذه التعليلات، ولو جاز هذا؛ لأمكن كل شخص لا يريد ما يقتضيه النص أن يعلله بمثل هذه العلل العليلة.

فإذا كان الله أثبت لنفسه العلو، ورسوله ﷺ أثبت له العلو، والسلف الصالح أثبتوا له العلو؛ فلا يقبل أن يأتي شخص ويقول: لا يمكن أن يكون علو ذات؛ لأنه لو كان علو ذات؛ لكان كذا وكذا.

ثانيًا: نقول: إن كان ما ذكرتم لازمًا لإثبات العلو لزومًا صحيحًا؛ فلنقل به؛ لأن لازم كلام الله ورسوله حق؛ إذ أن الله تعالىٰ يعلم ما يلزم من كلامه. فلو كانت نصوص العلو تستلزم معنىً فاسداً؛ لبينه، ولكنها لا تستلزم معنىً فاسداً.

ثالثًا: ثم نقول: ما هو الحد والجسم الذي أجلبتم علينا بخيلكم ورجلكم فيها.

أتريدون بالحد أن شيئًا من المخلوقات يحيط بالله؟! فهذا باطل ومنتف عن الله، وليس بلازم من إثبات العلو لله أو تريدون بالحد أن الله بائن من خلقه غير حال فيهم؟ فهذا حق من حيث المعنىٰ، ولكن لا نطلق لفظه نفيًا ولا إثباتًا؛ لعدم ورود ذلك.

وأما الجسم؛ فنقول: ماذا تريدون بالجسم؟ أتريدون أنه جسم مركب من عظم ولحم وجلد ونحو ذلك؟ فهذا باطل ومنتف عن الله؛ لأن الله ليس كمثله شيء وهو السميع البصير. أم تريدون بالجسم ما هو قائم بنفسه متصف بما يليق به؟ فهذا حق

من حيث المعنى، لكن لا نطلق لفظه نفيًا ولا إثباتًا؛ لما سبق.

وكذلك نقول في الجهة؛ هل تريدون أن الله تعالى له جهة تحيط به؟ فهذا باطل، وليس بلازم من إثبات علوه. أم تريدون جهة علو لا تحيط بالله؟ فهذا حق لا يصح نفيه عن الله تعالى.

الآية الثانية: قوله: ﴿بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: ١٥٨].

﴿بل﴾: للإضراب الإبطالي؛ لإبطال قولهم: ﴿**إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا * بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا**﴾ [النساء: ١٥٧، ١٥٨]؛ فكذبهم الله بقوله: ﴿**وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا * بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ**﴾.

والشاهد قوله: ﴿بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾؛ فإنه صريح بأن الله تعالى عال بذاته؛ إذ الرفع إلى الشيء يستلزم علوه.

الآية الثالثة: قوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠].

﴿إِلَيْهِ﴾: إلى الله عز وجل.

﴿يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾: و﴿الْكَلِمُ﴾ هنا اسم جمع، مفرده كلمة، وجمع كلمة كلمات، والكلم الطيب يشمل كل كلمة يتقرب بها إلى الله؛ كقراءة القرآن والذكر والعلم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ فكل كلمة تقرب إلى الله عز وجل؛ فهي كلمة طيبة، تصعد إلى الله عز وجل، وتصل إليه، والعمل الصالح يرفعه الله إليه أيضًا.

فالكلمات تصعد إلى الله، والعمل الصالح يرفعه الله، وهذا يدل على أن الله عال بذاته؛ لأن الأشياء تصعد إليه وترفع.

الآية الرابعة: قوله: ﴿يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾ [غافر: ٣٦، ٣٧].

هامان وزير فرعون، والآمر بالبناء فرعون.

﴿صَرْحًا﴾؛ أي: بناء عاليًا.

﴿لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ﴾؛ يعني: لعلي أبلغ الطرق التي توصل إلى السماء.

﴿فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى﴾؛ يعني: أنظر إليه، وأصل إليه مباشرة؛ لأن موسى قال له: إن الله في السماء. فموه فرعون على قومه بطلب بناء هذا الصرح العالي ليرقى عليه ثم يقول: لم أجد أحدًا، ويحتمل أنه قاله على سبيل التهكم؛ يقول: إن موسى قال: إن إلهه في السماء، اجعلونا نرقى لنراه!! تهكمًا.

وأيًا كان؛ فقد قال: ﴿وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾؛ للتمويه على قومه، وإلا؛ فهو يعلم أنه صادق، وقد قال له موسى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاءِ إِلاَّ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢]؛ فلم يقل: ما علمتُ! بل أقره على هذا الخبر المؤكد باللام و (قد) والقسم. والله عز وجل يقول في آية أخرى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

الشاهد من هذا: أن أمر فرعون ببناء صرح يطلع به إلى إله موسى يدل على أن موسى ﷺ قال لفرعون وآله: إن الله في السماء. فيكون علو الله تعالى ذاتيًّا قد جاءت به الشرائع السابقة.

الآية الخامسة والسادسة: قوله: ﴿أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ * أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ [الملك: ١٦، ١٧].

والذي في السماء هو الله عز وجل، لكنه كنَّى عن نفسه بهذا؛ لأن المقام إظهار عظمته، وأنه فوقكم، قادر عليكم، مسيطر عليكم، مهيمن عليكم؛ لأن العالي له سلطة على من تحته.

﴿فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾؛ أي: تضطرب.

والجواب: لا نأمن والله! بل نخاف على أنفسنا إذا كثرت معاصينا أن تخسف بنا

الأرض .

والانهيارات التي يسمونها الآن : انهياراً أرضيًّا ، وانهياراً جبليًّا . . . وما أشبه ذلك هي نفس التي هدد الله بها هنا ، لكن يأتون بمثل هذه العبارات ليهونوا الأمر على البسطاء من الناس .

﴿ أم أمنتم ﴾ ؛ يعني : بل أأمنتم و (أم) هنا بمعنى (بل) والهمزة .

﴿ أن يُرسل عليكُمْ حاصبًا ﴾ : الحاصب عذاب من فوق يحصبون به ؛ كما فعل بالذين من قبلهم ؛ كقوم لوط وأصحاب الفيل ، والخسف من تحت .

فالله عز وجل هددنا من فوق ومن تحت ؛ قال الله تعالى : ﴿ فَكُلا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ﴾ [العنكبوت : ٤٠] ؛ أربعة أنواع من العذاب .

وهنا ذكر الله نوعين منها : الحاصب ، والخسف .

والشاهد من هذه الآية هو قوله : ﴿ مَّن فِي السَّمَاءِ ﴾ .

والذي في السماء هو الله عز وجل ، وهو دليل على علو الله بذاته .

لكن ها هنا إشكال ، وهو أن (في) للظرفية ؛ فإذا كان الله في السماء ، و (في) للظرفية ؛ فإن الظرف محيط بالمظروف ! أرأيت لو قلت : الماء في الكأس ؛ فالكأس محيط بالماء وأوسع من الماء ! فإذا كان الله يقول : ﴿ أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ ﴾ ؛ فهذا ظاهره أن السماء محيطة بالله ، وهذا الظاهر باطل ، وإذا كان الظاهر باطلا ؛ فإننا نعلم علم اليقين أنه غير مراد الله ؛ لأنه لا يمكن أن يكون ظاهر الكتاب والسنة باطلاً .

فما الجواب على هذا الإشكال؟

قال العلماء : الجواب أن نسلك أحد طريقين :

١ ـ فإما أن نجعل السماء بمعنى العلو ، والسماء بمعنى العلو وارد في اللغة ، بل في القرآن ؛ قال تعالى : ﴿ أنزلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا ﴾ [الرعد : ١٧] ، والمراد بالسماء العلو ؛ لأن الماء ينزل من السحاب لا من السماء التي هي السقف المحفوظ ، والسحاب في العلو بين السماء والأرض ، كما قال الله تعالى :

﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٦٤]

فيكون معنى: ﴿مَّن فِي السَّمَاءِ﴾؛ أي: من في العلو.

ولا يوجد إشكال بعد هذا؛ فهو في العلو، ليس يحاذيه شيء، ولا يكون فوقه شيء.

٢ـ أو نجعل (في) بمعنى (على)، ونجعل السماء هي السقف المحفوظ المرفوع؛ يعني: الأجرام السماوية، وتأتي (في) بمعنى (على) في اللغة العربية، بل في القرآن الكريم، قال فرعون لقومه السحرة الذين آمنوا: ﴿وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه: ٧١]؛ أي: على جذوع النخل.

فيكون معنى ﴿مَّن فِي السَّمَاءِ﴾؛ أي: من على السماء.

ولا إشكال بعد هذا.

فإن قلت: كيف تجمع بين هذه الآية وبين قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤]. وقوله: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ [الأنعام: ٣]؟!

فالجواب: أن نقول:

أما الآية الأولى؛ فإن الله يقول: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤]؛ فالظرف هنا لألوهيته؛ يعني: أن ألوهيته ثابتة في السماء وفي الأرض؛ كما تقول فلان أمير في المدينة ومكة؛ فهو نفسه في واحدة منهما، وفيهما جميعًا بإمارته وسلطته؛ فالله تعالى ألوهيته في السماء وفي الأرض، وأما هو عز وجل ففي السماء.

أما الآية الثانية: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٣]؛ فنقول فيها كما قلنا في التي قبلها: ﴿وَهُوَ اللَّهُ﴾؛ أي: وهو الإله الذي ألوهيته في السموات وفي الأرض، أما هو نفسه؛ ففي السماء. فيكون المعنى: هو المألوه في السموات المألوه في الأرض؛ فألوهيته في السموات وفي الأرض.

فتخريج هذه الآية كتخريج التي قبلها.

وقيل: المعنى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ﴾، ثم تقف، ثم تقرأ: ﴿وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ [الأنعام: ٣]؛ أي: أنه نفسه في السماوات، ويعلم سركم وجهركم في الأرض؛ فليس كونه في السماء مع علوه بمانع من علمه بسركم في الأرض.

وهذا المعنى فيه شيء من الضعف؛ لأنه يقتضي تفكيك الآية وعدم ارتباط بعضها ببعض، والصواب الأول: أن نقول: ﴿اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾؛ يعني: أن ألوهيته ثابتة في السموات وفي الأرض، فتطابق الآية الأخرى.

من الفوائد المسلكية في هذه الآيات:

أن الإنسان إذا علم بأن الله تعالى فوق كل شيء؛ فإنه يعرف مقدار سلطانه وسيطرته على خلقه، وحينئذ يخافه ويعظمه، وإذا خاف الإنسان ربه وعظمه؛ فإنه يتقيه ويقوم بالواجب ويدع المحرم.

● قال الشيخ صالح الفوزان:

أي: قد ورد إثبات استواء الله على عرشه في سبع آيات من كتاب الله كلها قد ورد فيها إثبات الاستواء بلفظ واحد هو: ﴿اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ فهو نص في معناه الحقيقي لا يحتمل التأويل بمعنى آخر، والاستواء: صفة فعلية ثابتة لله سبحانه على ما يليق بجلاله كسائر صفاته، وله في لغة العرب أربعة معان: هي: علا، وارتفع، وصعد، واستقر، وهذه المعاني الأربعة تدور عليها تفاسير السلف للاستواء الوارد في هذه الآيات الكريمة.

فقوله: في الأولى، والثانية: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ﴾ أي: هو خالقكم ومربيكم بنعمه، والذي يجب عليكم أن تعبدوه وحده ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أي: هو خالق العالم. سمواته وأرضه وما بين ذلك ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ هي: الأحد والإثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة، ففي يوم الجمعة اجتمع الخلق كله وفيه خلق آدم عليه السلام.

﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ أي: علا وارتفع على العرش كما يليق بجلاله، وهذا محل الشاهد من الآية، والعرش: في اللغة: هو سرير الملك، والمراد به هنا ـ كما يدل عليه مجموع النصوص ـ سرير ذو قوائم تحمله الملائكة وهو كالقبة على العالم وهو سقف

المخلوقات.

وقوله في الآية الثالثة: ﴿اللَّهُ الَّذي رَفَعَ السَّموَاتِ﴾ أي: رفعها عن الأرض رفعًا بعيدًا لا ينال ولا يدرك مداه ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾العمد: هي الأساطين جمع عماد، أي: قائمة بغير عمد تعتمد عليها، بل بقدرته سبحانه. وقوله: ﴿تَرَوْنَهَا﴾ تأكيد لنفي العمد، وقيل: لها عمد ولكن لا نراها، والأول أصح ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ هذا محل الشاهد من الآية الكريمة لإثبات الاستواء. والكلام على بقية الآيات كالكلام على هذه الآية.

ويستفاد منها جميعًا: إثبات استواء الله على عرشه على ما يليق بجلاله، وفيها الرد على من أول الاستواء بأنه: الاستيلاء والقهر، وفسر العرش بأنه: الملك، فقال: استوىٰ على العرش معناه: استولىٰ على الملك وقهر غيره، وهذا باطل من وجوه كثيرة منها:

أولاً: أن هذا تفسير محدث مخالف لتفسير السلف من الصحابة والتابعين وأتباعهم، وأول من قال به الجهمية والمعتزلة، فهو مردود.

ثانيًا: لو كان المراد بالاستواء على العرش الاستيلاء على الملك لم يكن هناك فرق بين العرش والأرض السابعة السفلى والدواب وجميع المخلوقات؛ لأنه مستولٍ على الجميع ومالك للجميع، فلا يكون لذكر العرش فائدة.

ثالثًا: أن هذا اللفظ ﴿اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ قد اطرد في الكتاب والسنة ولم يأت في لفظ واحد (استولىٰ على العرش) حتى تفسر به بقية النصوص.

رابعًا: أنه أتى بـ ﴿ثُمَّ﴾ التي تفيد الترتيب والمهلة، فلو كان معنى الاستواء الاستيلاء على العرش والقدرة عليه لم يتأخر ذلك إلى ما بعد خلق السموات والأرض فإن العرش كان موجودًا قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، كما ثبت في الصحيحين[1]، فكيف يجوز أن يكون غير قادر ولا مستولٍ عليه إلى أن خلق السموات والأرض؟! هذا من أبطل الباطل. والله أعلم.

﴿يَا عِيسَىٰ﴾ خطاب من الله تبارك وتعالى لعيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام ﴿إِنِّي

(١) الحديث أخرجه مسلم (٢٦٥٣) والترمذي (٢١٥٦) من حديث ابن عمر - رضي الله عنه ولم أقف عليه عند البخاري.

مُتَوَفِّيكَ﴾ الذي عليه الأكثر أن المراد بالوفاة هنا: النوم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ﴾ [الأنعام: ٦٠]، وقال تعالىٰ: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ [الزمر: ٤٢].

﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ أي: رفعه الله إليه في السماء وهو حي، وهذا محل الشاهد من الآية، وهو إثبات العلو لله؛ لأن الرفع يكون إلىٰ أعلىٰ.

وقوله: ﴿بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ هذا رد علىٰ اليهود الذين يدعون أنهم قتلوا المسيح عيسىٰ ابن مريم، فقال تعالىٰ: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ [النساء: ١٥٧]، ﴿بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ أي: رفع الله سبحانه وتعالىٰ المسيح عليه السلام إليه وهو حي لم يقتل، وهذا محل الشاهد؛ لأن فيه إثبات علو الله علىٰ خلقه؛ لأن الرفع يكون إلىٰ أعلىٰ.

وقوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ﴾ أي: إلىٰ الله سبحانه لا إلىٰ غيره يرتفع ﴿الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ أي: الذكر والتلاوة والدعاء ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾أي: العمل الصالح يرفع الكلم الطيب، فإن الكلم الطيب لا يقبل إلا مع العمل الصالح، فمن ذكر الله تعالىٰ ولم يؤد فرائضه رُدَّ كلامه، قال إياس بن معاوية: لولا العمل الصالح لم يرفع الكلام. وقال الحسن وقتادة: لا يقبل قول إلا بعمل.

والشاهد من الآية: أن فيها إثبات علو الله علىٰ خلقه؛ لأن الصعود والرفع يكونان إلىٰ أعلىٰ.

وقوله تعالىٰ: ﴿يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا﴾ هذا من مقولة فرعون لوزيره هامان يأمره أن يبني له قصراً منيفًا عاليًا ﴿لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ﴾ أي: طرق السموات أو أبوابها ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ﴾ بنصب ﴿فَأَطَّلِعَ﴾ بأن مضمرة بعد فاء السببية، ومعنىٰ مقالته هذه: تكذيب موسىٰ عليه السلام في أن الله أرسله أو أن له إلهًا في السماء؛ ولذلك قال: ﴿وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾ أي: فيما يدعيه من الرسالة أو فيما يدعيه بأن له إلهًا في السماء، والشاهد من الآية: أن فيها إثبات علو الله علىٰ خلقه. حيث أن موسىٰ عليه السلام أخبر بذلك وحاول فرعون في تكذيبه.

وقوله تعالى: ﴿أَأَمِنتُم﴾ الأمن: ضد الخوف ﴿مَّن فِي السَّمَاءِ﴾ أي: عقوبة من في السماء وهو الله سبحانه، ومعنى ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ أي: على السماء كقوله تعالى: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ وهذا إن أريد بالسماء السماء المبينة، وإن أريد بالسماء مطلق العلو فـ ﴿فِي﴾ للظرفية، أي: في العلو ﴿أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ﴾ أي: يقلعها بكم كما فعل بقارون ﴿فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ أي: تضطرب وتتحرك.

﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ أي: حجارة من السماء كما أرسلها على قوم لوط وأصحاب الفيل، وقيل: سحاب فيها حجارة، وقيل: ريح فيها حجارة ﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ أي: إنذاري إذا عاينتم العذاب ولا ينفعكم حينذاك هذا العلم.

والشاهد من الآيتين: أن فيهما إثبات علو الله على خلقه، حيث صرحتا أنه سبحانه في السماء فقد دلت هذه الآيات التي ذكرها المؤلف ـ رحمة الله عليه ـ على إثبات العلو، كما دلت هذه الآيات التي قبلها على إثبات استواء الله على العرش. والفرق بين الاستواء والعلو:

١ ـ أن العلو من صفات الذات، والاستواء من صفات الأفعال، فعلو الله على خلقه وصف لازم لذاته، والاستواء فعل من أفعاله سبحانه، يفعله سبحانه وتعالى بمشيئته وقدرته إذا شاء؛ ولذا قال فيه: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى﴾ وكان ذلك بعد خلق السموات والأرض.

٢ ـ أن العلو من الصفات الثابتة بالعقل والنقل. والاستواء ثابت بالنقل لا بالعقل.

* * *

[أسئلة وأجوبة نموذجية على صفة الاستواء والعلو]

● قال الشيخ عبد العزيز المحمد السلمان:

س ـ ما هو الإيمان بالاستواء، وما دليله من الكتاب؟

ج ـ هو الاعتقاد الجازم بأن الله فوق سمواته مستو على عرشه استواءً يليق بجلاله وعظمته عَليٌّ على خلقه بائنٌ منهم، وعلمه محيط بكل شيء.

ودليله من القرآن ما في الأعراف ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾.

وفي يونس ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾.

وفي سورة الرعد: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمٰوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾.

وفي سورة طه: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾.

وفي سورة الفرقان: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ﴾.

وفي سورة السجدة: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾.

وفي سورة الحديد: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾.

س ـ ما الذي يؤخذ من الآيات التي تدل على استواء الله على عرشه؟

ج ـ أولاً: إثبات صفة الربوبية لله وهي الربوبية العامة.

ثانيًا: الألوهية لله.

ثالثًا: إثبات صفة الخلق.

رابعًا: فيها دليل على استواء الله على عرشه.

خامسًا: إثبات علو الله على خلقه.

سادسًا: إثبات قدرة الله.

سابعًا: الرد على الفلاسفة القائلين بقدم هذه المخلوقات.

ثامنًا: إثبات أسماء الله وصفاته.

تاسعًا: إثبات العرش وأنه مخلوق.

عاشرًا: إثبات الأفعال الاختيارية المتعدية واللازمة.

الحادي عشر: أن الاستواء صفة فعل استوى عليه بعد ما خلقه.

الثاني عشر: أن الاستواء خاص بالعرش.

الثالث عشر: أن الاستواء على العرش بعد خلق السموات والأرض.

الرابع عشر: تحديد الأيام التي خُلِقَتْ فيها السموات والأرض والمتبادر أنها كهذه الأيام.

الخامس عشر: الإرشاد إلى التأني في الأمور والصبر فيها لأن الله قادر على خلقها في لحظة: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ ومن أسمائه تعالى الرفيق

قال ابن القيم:

وهو الرفيق يحب أهل الرفق بل يعطيهم بالرفق فوق أمان

السادس عشر: الرد على الجهمية القائلين أن الاستواء الاستيلاء

السابع عشر: أن هذه المخلوقات دليل على وجود خالقها ومدبرها.

الثامن عشر: الرد على من أنكر شيئًا من هذه الصفات أو أوَّلها بتأويل باطل كالأشعرية والمعتزلة والجهمية.

التاسع عشر: إثبات صفة الرحمة.

العشرون: دليل على عظمة الله.

س ـ ما هي العبارات التي تدور عليها تفاسير السلف للاستواء؟

ج ـ استقر وعلا وارتفع وصعد، ومعناها واحد أي متفق.

قال ابن القيم ـ رحمه الله:

وهي استقر وقد علا وكذلك ار | تفع الذي ما فيه من نكران
وكذاك قد صعد الذي هو رابع | وأبو عبيدة صاحب الشيباني
يختار هذا القول في تفسيره | أدرى من الجهمي في القرآن
والأشعري يقول تفسير استوى | بحقيقة استولى على الأكوان

س ـ ما هي أنواع الاستواء في لغة العرب الذين نزل القرآن بلغتهم؟

ج ـ نوعان: مطلق ومقيد، فالمطلق: ما لم يقيد بحرف كقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ﴾ ومعناه كمل وتم.

وأما المقيد فثلاثة أقسام: مقيد بإلى كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ ومعناه العلو والارتفاع بإجماع السلف.

والثاني مقيد بعلى، كقوله تعالى: ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ﴾ .

وقوله: ﴿وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ وقوله تعالى: ﴿فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ﴾ فهذا معناه العلو والارتفاع والاعتدال بإجماع أهل اللغة.

والثالث: المقرون بواو المعية كقولهم: استوى الماء والخشبة، ومعناه ساواها فهذه معاني الاستواء المعقوله.

س ـ ما الفرق بين الخلق والأمر المذكورين في آية سورة الأعراف: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ الآية؟

ج ـ الخلق تنشأ عنه المخلوقات، والأمر تنشأ عنه المأمورات والشرائع، والأصل أن المعطوف غير المعطوف عليه. قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ ويمتنع أنهما شيء واحد فإنه صرح فيها أن الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره وذلك بعدما أخبر أنه خلقها، فخلقها ثم سخرها بأمره.

قال ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ:

ولقد أتى الفرقان بين الخلق وال | أمر الصريح وذاك في الفرقان
وكلاهما عند المنازع واحد | والكل خلق ما هنا شيئان
والعطف عندهم كعطف الفرد في | نوع عليه وذاك في الفرقان

فيقال هذا ذو امتناع ظاهر ... في آية التفريق ذو تبيان
فالله بعد الخلق أخبر أنها ... قد سخرت بالأمر للجريان
وأبان عن تسخيرها سبحانه ... بالأمر بعد الخلق بالتبيان
والأمر إما مصدرًا أو كان مفـ ... ـعولاً هما في ذاك مستويان
مأموره هو قابل للأمر كالـ ... ـمصنوع قابل صنعة الإنسان
فإذا انتفى الأمر انتفى المأمور كالـ ... ـمخلوق يُنْفَى لا انتفى الحدثان
وانظر إلى نظم السياق تجد به ... سرا عجيبًا واضح البرهان
ذكر الخصوص وبعده متقدمًا ... والوصف والتعميم في ذا الثان
فأتى بنوعي خلقه وبأمره ... فعلاً ووصفًا موجزًا ببيان
فتدبر القرآن إن رمت الهدى ... فالعلم تحت تدبر القرآن

س ـ بماذا استدل بعض المبتدعة ممن فسر الاستواء على العرش بالاستيلاء، ومن أول من عرفت عنه هذه البدعة، وبماذا يرد عليه؟

ج ـ أول من عرفت عنه هذه البدعة: بعض الجهمية والمعتزلة، وأما دليهم فقول بعض الشعراء:

قد استوى بشر على العراق ... من غير سيف أو دمٍ مهراق

وأما الرد عليه فمن وجوه:

أولاً: أن الاستواء خاص بالعرش والاستيلاء عام على جميع المخلوقات.

ثانيًا: أنه أخبر بخلق السموات والأرض في ستة أيام، ثم استوى على العرش وأخبر أن عرشه على الماء قبل خلقهما والاستواء متأخر عن خلقهن، والله مستولٍ على العرش قبل خلق السموات وبعده. فعلم أن الاستواء على العرش الخاص به غير الاستيلاء العام عليه وعلى غيره.

ثالثًا: أن معنى الكلمة مشهور كما قال بعض السلف وأنه لو لم يكن معنى الاستواء في الآية معلومًا لم يحتج الإمام مالك ـ رحمه الله ـ أن يقول: والكيف مجهول، لأن نفي العلم بالكيف لا ينفي ما قد علم أصله.

رابعًا: يلزم من تفسير الاستواء بالاستيلاء أن الله مستوٍ على الأرض ونحوها.

خامسًا: أن إحداث القول في كتاب الله الذي كان السلف والأئمة على خلافه يستلزم أحد أمرين أن يكون خطأ في نفسه، أو تكون أقوال السلف المخالفة له خطأ ولا يشك عاقل أنه أولى بالغلط والخطأ من أقوال السلف.

سادسًا: أن هذا اللفظ قد اطرد في القرآن والسنة حيث ورد لفظ الاستواء دون الاستيلاء ولو كان معناه استولى لكان استعماله في أكثر موارده كذلك قال ابن القيم -رحمه الله-:

وكـــذلك اطـــردت بـــلا لام ولـو ... كـــانت بمعنى الـلام في الأذهـان

لأتت بهـا في مـوضع كي يحـمل الــ ... بـاقــي عليها بالبـيـان الـثـاني

فإذا جاء في موضع، أو موضعان بلفظ استوى حُمِلَ على معنى استولى لأنه المألوف المعهود، ولم يوجد ولا موضع واحدٌ بلفظ استولى وأما أن يأتي لفظ قد اطرد استعماله في جميع موارده على معنى واحدٍ فيدَّعي صرفه في الجميع إلى معنى لم يُعهد استعماله ففي غاية الفساد ولم يقصده ويفعله من فَقَدَ البيان، بل الذي يفعله من يقصد التدليس والابتداع كالجهمية والأشعرية.

س ـ ما الجواب الشافي الكافي لمن سأل عن كيفية صفة من صفات الله تعالى وما الذي قاله ابن القيم رحمه اله حول مسألة الاستواء والقرآن؟

ج ـ جواب الإمام مالك ـ رحمه الله ـ إن كان عن كيفية الاستواء وهو قوله: الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة.

وإن كان عن غير الاستواء فيحذى به حذو جوابه، فمثلاً عندما يسأل عن كيفية السمع فيقال السمع غير مجهول والكيف غير معقول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة.

وهكذا يقال في بقية الصفات من: بصرٍ، ورضىً، وعجبٍ، وسَخَطٍ، ووجْهٍ، ويَدٍ، ونفسٍ، وعلمٍ، وحياةٍ، وقوةٍ، وضحكٍ، ونزول، وفرحٍ، ورحمةٍ، ورجلٍ، وأصبعٍ، والحب، والمجيء، والكره، ونحوه.

وقيل لابن القيم ـ رحمه الله ـ ما تقول في القرآن ومسألة الاستواء؟ فقال: ـ نقول فيها ما قاله ربنا تبارك وتعالى وما قاله نبينا محمد ﷺ، نَصِفُ الله تعالى بما وصف به

نفسه وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تشبيه ولا تمثيل .

بل نثبت له سبحانه ما أثبته لنفسه من الأسماء والصفات وننفي عنه النقائص والعيوب ومشابهة المخلوقات إثباتًا بلا تمثيل وتنزيها بلا تعطيل فمن شبه الله بخلقه فقد كفر ومن جحد ما وصف به نفسه فقد كفر .

وليس ما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ تشبيهًا فالمشبه يعبد صنمًا والمعطل يعبد عدمًا ، والموحد يعبد إلهًا واحدًا صمدًا ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ .

والكلام في الصفات كالكلام في الذات ، فكما أنا نثبت ذاتًا لا تشبهها الذوات ، كذلك نقول في صفاته إنها لا تشبهها الصفات فليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في أسمائه ولا في صفاته ولا في أفعاله فلا نشبه صفاته بصفات المخلوقين ولا نزيل عنه صفة لأجل تشنيع المشنعين .

وأما القرآن فإني أقول إنه كلام الله منزل غير مخلوق ، منه بدا وإليه يعود ، تكلم الله به صدقًا وسمعه منه جبريل حقًّا وبلَّغه محمداً ﷺ حيًّا وأنه عَيْن كلام الله حقيقة وأن جميعه كلام الله وليس قول البشر ومن قال إنه قول البشر فقد كفر والله يصليه سقر .

ومن قال ليس لله بيننا كلام فقد جحد رسالة محمد ﷺ ونقول إن الله فوق سمواته مستوٍ على عرشه بائنٌ من خلقه ليس في مخلوقاته شيء من ذاته ولا في ذاته شيء من مخلوقاته وهو العلي الأعلى بكل اعتبار . اهـ.

س ـ تكلم بوضوح عن الجهة واذكر شيئًا من أدلة علو الله على خلقه من الكتاب والسنة؟

ج - أما الجواب عن الجهة فإن أريد بها جهة علوٍ تليق بجلاله وعظمته لا تحيط به فهي حق ثابتة لله تعالى

وإن أريد جهة علوٍ تحيط به فهي منتفية عنه فإن الله جل شأنه أعظم وأجل من أن يحيط به شيء من مخلوقاته قال تعالى ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ .

وإن أريد جهة سُفْلٍ فهي منتفية عنه أيضًا لأن الله قد ثبت له العلو المطلق بذاته

وصفاته قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ وقال تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ وقال: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ .

وأما الأدلة من الكتاب والسنة على علو الله على خلقه فإليك قال تعالىٰ: ﴿يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ ﴿بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ ﴿يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾ .

﴿أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ (١٦) أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ . وتقدمت أدلة الاستواء وكلها تدل على علو الله على خلقه، ومن السنة قوله ﷺ في رُقْيَةِ المريض: «ربنا الله الذي في السماء تقدس اسمك، أمرك في السماء والأرض كما رحمتك في السماء اجعل رحمتك في الأرض اغفر لنا حوبنا وخطايانا أنت رب الطيبين، أنزل رحمة من رحمتك وشفاءً من شفائك على هذا الوجع فيبرأ» .

وقوله: «ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء» وقوله: «والعرش فوق ذلك والله فوق عرشه وهو يعلم ما أنتم عليه» وقوله للجارية: «أين الله؟» قالت: في السماء قال: «من أنا» قالت: أنت رسول الله قال: «أعتقها فإنها مؤمنة» إلى غير ذلك من الأدلة .

س ـ ما الذي يؤخذ من الآية الأولى والثانية والثالثة الدالات على العلو؟

ج ـ في الآية الأولى والثانية:

أولاً: إثبات صفة الكلام .

ثانيًا: إثبات علو الله على خلقه .

ثالثًا: الرد على اليهود لأنهم تنقصوه وجعلوه ابن زنا أي عيسىٰ .

رابعًا: الرد على النصارىٰ لأنهم غلوا فيه ورفعوه فوق منزلته إلى مقام الربوبية .

خامسًا: الرد على من زعم أن كلام الله معناه المعنى النفسي .

سادسًا: أن الله رفع عيسىٰ إلى السماء وقبضه إليه .

سابعًا: أنه رفع عيسىٰ وهو حي. قال شيخ الإسلام: والصواب الذي عليه المحققون أن عيسىٰ عليه السلام لم يمت بحيث فارقت روحه بدنه، بل هو حي مع كونه توفيّ.

وفي الآية الثالثة:

أولاً: إثبات صفة علو الله علىٰ خلقه.

ثانيًا: صعود أقوال العباد وأعمالهم.

ثالثًا: الرد علىٰ الجهمية ونحوهم ممن ينكر علو الله علىٰ خلقه.

رابعًا: أن الله يقبل طيب الكلام كالتوحيد والذكر والدعاء والقراءة ويرفعه إليه.

خامسًا: أن الإخلاص شرط لقبول العمل وما لم يكن الإخلاص فيه فلا ثواب عليه بل عليه العقاب. عن ابن عباس أنه قال الكلم الطيب: ذكر الله، والعمل الصالح أداءٌ لفرائضه. وعن الحسن وقتادة: لا يقبل الله قولاً إلا بعمل.

س - بَيِّنْ ما تفهمه عن معنى الآية الرابعة الدالة على علو الله وهي قوله: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ﴾... إلخ؟

ج - «فرعون»: ملك القبط في الديار المصرية، وفرعون لقب لكل من ملك مصر. «هامان»: وزير فرعون، «الصرح»: القصر الشامخ المنيف «الأسباب»: واحدها سبب وهو ما يتوصل به إلىٰ غيره من حبل أو سلم أو طريق، والمراد هنا الأبواب.

والمعنىٰ: بعد أن ذكر سبحانه فيما سلف، تكبر فرعون وجبروته، أبان هنا أنه بلغ عتوه وتمرده وافتراؤه في تكذيب موسىٰ، أن أمر وزيره هامان أن يبني له قصراً شامخًا منيفًا من الآجُر ليصعد به إلىٰ السماء ليطَّلع إلىٰ إله موسىٰ.

ثم قال: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾. أي: فيما ادعاه من أن له إلهًا غيري وأنه أرسله وهكذا يموه فرعون الطاغية ويحاور ويداور كي لا يواجه الحق جهرة ولا يعترف بدعوة الوحدانية التي تهز عرشه وتهدد الأساطير التي قام عليها ملكه مريداً بذلك

التمويه والتلبيس على قومه للتوصل به إلى بقائهم على الكفر ورد الحق.

س ـ ما الذي يؤخذ من هذه الآية الكريمة؟

ج ـ في الآية:

أولاً: ما يدل على أن فرعون يتظاهر بالإنصاف والتثبت من جهة والاستهتار والسخرية من جهة أخرى.

ثانيًا: في الآية ما يدل على تبجح فرعون في جحوده وحدسه وفي الآية ما يدل على أن كلام الرجل المؤمن وحجته كانت من شدة الواقع بحيث لم يستطع فرعون ومن معه تجاهلها فاتخذ لنفسه مهربًا.

رابعًا: إثبات علو الله على خلقه ووجه الدلالة من الآية الكريمة على علو الله هو أن موسى كان يدعو فرعون إلى معرفة ربه بأنه فوق السماء فمن أجل ذلك أمر ببناء الصرح، ورام الاطلاع إليه.

خامسًا: فيها رد على الجهمية المنكرين لعلو الله مع أن علوه سبحانه مما تواطأ عليه العقل والنقل، وفطر الله عليه الخلق فله سبحانه:

أولاً: علو الذات.

ثانيا: علو القدر.

ثالثًا: علو القهر.

سادسًا: دليل على أن فرعون كان بمكان عظيم من الجهل وبمنزلة سافلةٍ من فهم الحقائق.

قال ابن القيم:

ولـه العلو من الوجوه جميعها ... ذاتًا وقدرًا مع علو الشان

كل إذا ما نابه شيء يرى ... متوجهًا بضرورة الإنسان

نحو العلو فليس يطلب خلفه ... وأمامه أو جانب الإنسان

وقال غيره:

وقد فطر الله العظيم عباده ... على أنه من فوقهم فلهم سلوا

لهذا تراهم رافعين أكفهم إذا اجتهدوا عند الدعاء إلى العلو
أقروا بهذا الاعتقاد جبلة ودانوا به ما لم يصدوا ويخذلوا

س ـ بيِّنْ ما تفهمه عن معنى قوله تعالى: ﴿أأمنتم مَّن في السَّماء أن يخسف بكُمُ الأَرْضَ فإذا هي تمُورُ (١٦) أمْ أمِنتُم مَّن في السَّمَاءِ أن يُرْسِل عليْكُمْ حاصبا فستعلمون كيف نذِيرِ﴾؟

ج ـ «يخسف بكم»: يُغْيبكُم فيها. «تمور»: تذهب وتجيء وتضطرب. «حاصبًا»؛ ريحًا شديدة فيها حصباء. «نذير»: أي إنذاري وتخويفي. والأمن: ضد الخوف أي أأمنتم عقاب من في السماء وهو الله إن عصيتموه.

وهذا عند أهل السنة على وجهين إما أن تكون (في) بمعنى (على) كما في قوله: ﴿وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ وإما أن يراد بالسماء العلو لا يختلفون في ذلك. ولا يجوز الحمل على غيره. والمعنى بعد أن ذكر ما أعد للكافرين من نار إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقًا وهي تفور... إلخ. وما أعد للذين يخشون ربهم بالغيب، من المغفرة والأجر الكبير.

ثم ذكرهم بنعمه كصلاحية الأرض للمعيشة، ثم حذرهم عاقبة التمادي في الباطل وأن من الحكمة أن لا يأمنوا زوال النعم، فإن الله قادر على سلبهم إياها فبعد أن تكون ذلولاً ترجف وتضطرب اضطراب خسف وهلاكٍ حتى تبتلعهم، كما خسفها بقارون.

ومما يؤخذ من الآيتين:

أولاً: إثبات علو الله على خلقه.

ثانيًا: التحذير من مكر الله.

ثالثًا: إثبات قدرة الله.

رابعًا: الرد على من أنكر شيئًا من ذلك أو أوله بتأويل باطل.

خامسًا: الحث على مراقبة الله.

سادسًا: إثبات حِلْم الله جل وعلا.

سابعًا: دليل على ركود الأرض وأنها مستقرة.

س ـ ما الذي تفهمه من قوله ﷺ في رقية المريض «ربنا الله الذي في السماء تقدس اسمك أمرك في السماء والأرض كما رحمتك في السماء اجعل رحمتك في الأرض، اغفر لنا حوبنا وخطايانا أنت رب الطيبين، أنزل رحمة من رحمتك وشفاء من شفائك على هذا الوجع فيبرأ»؟

ج ـ الرب: السيد المربي لجميع الخلق بأصناف النعم.

تقدس: تنزه.

الرقية: القراءة على المريض.

حوبنا، والحوب: الإثم.

الخطايا: هي الذنوب والآثام.

ففي هذا الحديث التوسل إلى الله بربوبيته وهي تنقسم إلى قسمين: عامة وخاصة فالعامة هي: خلقه للمخلوقين ورزقهم وهدايتهم، لما فيه مصالحهم التي فيها بقاؤهم في الدنيا.

وأما الخاصة فتربيته لأنبيائه ورسله وأوليائه فيربيهم بالإيمان ويوفقهم له، ويكملهم ويدفع عنهم الصوارف والعوائق الحائلة بينهم وبينه، وحقيقتها تربية التوفيق لكل خير والعصمة من كل شر.

ولعل هذا هو السر في كون أكثر أدعية الأنبياء بلفظ الرب فإن مطالبهم كلها داخلة تحت ربوبيته الخاصة.

س ـ ما الذي يؤخذ من هذا الحديث الدال على علو الله على خلقه؟

ج ـ فيه أولاً: إثبات الربوبية.

ثانيًا: إثبات الألوهية.

ثالثًا: إثبات علو الله على خلقه والمأخذ من قوله: في السماء. وفي تكون بمعنى على كقوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ﴾ أي عليها وكقوله: ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾ وقوله: ﴿فَسِيحُوا فِي الأَرْضِ﴾ أي عليها: الثاني: أن المراد بالسماء العلو وعلى الوجهين فهي نص في علو الله على خلقه.

رابعًا: إثبات أمر الله الكوني القدري.

خامسًا: تنزيه الله عما لا يليق بجلاله وعظمته.

سادسًا: التوسل إلىٰ الله برحمته.

سابعًا: التوسل إلىٰ الله بسؤال المغفرة للحوب والخطايا.

ثامنًا: التوسل إلىٰ الله بربوبيته الخاصة للطيبين من عباده.

تاسعًا: إثبات أمر الله الديني الشرعي ودليله قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ ودليل الكوني ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾.

عاشرًا: عموم أمر الله الكوني القدري والديني الشرعي.

الحادي عشر: الإتيان من صفات الله في كل مقام بما يناسبه.

الثاني عشر: إثبات الرقية وأنها مباحة، قال العلماء بجوازها عند اجتماع ثلاثة شروط:

أولاً: أن تكون بأسماء الله أو بكلامه، أو بصفاته.

ثانيًا: أن تكون باللسان العربي وما يعرف معناه.

ثالثًا: أن يعتقد أن الرقية لا تؤثر بذاتها بل بتقدير الله.

الثالث عشر: الرد علىٰ الجهمية وأتباعهم من المنكرين لعلو الله النافين لجهة العلو.

الرابع عشر: إثبات قدرة الله.

الخامس عشر: إثبات صفة الرحمة.

السادس عشر: فيه دليل علىٰ البعث والحساب، والجزاء علىٰ الأعمال.

السابع عشر: إثبات الأسماء لله.

الثامن عشر: لطف الله بخلقه حيث أمر نبيه ﷺ أن يرشد أمته إلىٰ هذه الرقية النافعة بإذن الله.

التاسع عشر: رأفة النبي ﷺ بأمته حيث علمهم هذا الدعاء.

العشرون: أن الدعاء سبب من الأسباب النافعة بإذن الله.

س - بيِّنْ ما يؤخذ من قوله ﷺ «ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء» وقوله «والعرش فوق ذلك والله فوق عرشه وهو يعلم ما أنتم عليه».

ج - في الحديث:

أولاً: إثبات العلو لله وأنه فوق خلقه.

ثانيًا: ما كان عليه النبي ﷺ من الصبر والتحمل على ما يأتيه من أذى المنافقين، و(في) التي في هذا الحديث يقال فيها كما قيل في التي في الحديث الذي قبل هذا.

ثالثًا: الرد على من أنكر علو الله أو أنكر جهة العلو كالجهمية.

رابعًا: الرض والتسليم لأمر الله ورسوله، وما صدر عنهما من الأحكام.

والحديث الثاني يؤخذ منه:

أولاً: إثبات علو الله على خلقه.

ثانيًا: إثبات العرش.

ثالثًا: تفسير الاستواء بالعلو كما هو مذهب السلف.

رابعًا: الرد على من أنكر صفة العلو أو أوَّلها بتأويل باطل كمن زعم أن الفوقية فوقية رتبة وشرفٍ، فإن حقيقة الفوقية علو ذات الشيء على غيره.

خامسًا: الرد على من نفى العرش أو زعم أن معنى عرشه ملكه وقدرته.

سادسًا: إثبات الألوهية.

سابعًا: أن العرش فوق المخلوقات والله فوقه.

ثامنًا: الجمع بين الإيمان بعلو الله واستوائه على عرشه.

تاسعًا: الرد على من أول الاستواء بالاستيلاء كالأشاعرة.

عاشرًا: إثبات صفة العلم وهي من الصفات الذاتية.

الحادي عشر: إحاطة علمه سبحانه بالموجودات كلها.

الثاني عشر: الرد على من أنكر صفة العلم أو قال: عليم بلا علم كالمعتزلة ومن سلك سبيلهم.

س ـ بين ما يؤخذ من قوله ﷺ للجارية «أين الله»؟ قالت: في السماء قال: «من أنا؟» قالت: أنت رسول الله فقال «أعتقها فإنها مؤمنة»؟

ج ـ فيه أولاً: جواز الاستفهام عن الله بأين قال ابن عدوان:

وقد جاء لفظ الأين من قول صادق رسول إله العالمين محمد
كما قد رواه مسلم في صحيحه كذاك أبو داود والنسئي قد

ثانيًا: إثبات الألوهية.

ثالثًا: علو الله على خلقه.

رابعًا: جواز الإشارة إلى العلو وإثبات جهة العلو.

خامسًا: أن من شهد هذه الشهادة أنه مؤمن.

سادسًا: الرد على من أنكر علو الله أو أوله بتأويل باطل.

سابعًا: أنه يشترط في صحة العتق الإيمان.

ثامنًا: شهادته ﷺ بالإيمان لهذه الجارية التي اعترفت بعلو الله على خلقه.

تاسعًا: أن من شهد هذه الشهادة يكتفى بإيمانه.

عاشراً: أن العباد مفطورون على أن الله عال عليهم ومن أدلة علو الله على خلقه ما في صحيح البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «كانت زينب تفتخر على نساء النبي ﷺ ـ وفي لفظ على أزواج النبي ﷺ ـ فتقول: زوجكن أهاليكن وزوجني الله من فوق سبع سموات».

وقال في حديث الأوعال «**والله فوق عرشه وهو يعلم ما أنتم عليه**» رواه الإمام أحمد في المسند ورواه ابن خزيمة في كتابه «كتاب التوحيد» وقول عبد الله بن رواحه الذي أنشده النبي ﷺ شعراً:

شهدت بأن وعد الله حق وأن النار مثوى الكافرينا
وأن العرش فوق الماء طاف وفوق العرش رب العالمينا
وتحمله ملائكة كرام ملائكة الإله مسومينا

* * *

[المَعِيَّة]

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤].

وقوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَىٰ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٧].

﴿لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

وقوله: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦].

﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾

[البقرة: ٢٤٩].

• الشَّرح •

• قال العلامة ناصر السعدي:

وفي هذه الآيات: ذكر مَعيّة الله العامة، كقوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَىٰ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ﴾ [المجادلة: ٧].

وهذه المعيّة تدلُّ على إحاطة علمه بالعباد، ومُجازاته لهم بأعمالهم.

وثانيها: ذكر المَعِيَّة الخاصَّة كقوله: ﴿أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤].

﴿مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣].

﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦].

﴿لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

وهذه الآيات تَدُلُّ - مع العلم المحيط - عَلَىٰ العِنَاية بمن تعلَّقت به تلك المعيَّة وأن الله معهم بعَونِه وحفظه وكلائته وتوفيقه.

وإذا أردت أن تعرف هل المراد المعيَّة العامَّة أو الخاصَّة؟ فانظر إلىٰ سِيَاق الآيات.

* فإن كان المقام مقام تَخويف ومُحاسبة للعباد علىٰ أعمالهم وحثٌّ علىٰ مُرَاقبة الله فإنَّ المعية عامة، مثل قوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلاثَةٍ﴾ الآية [المجادلة: ٧].

* وإن كان المقام مقام لُطْف وعناية من الله بأنبيائه وأصفيائه، وقد رُتِّبت المعية علىٰ الاتصاف بالأوصاف الحميدة، فإن المعيّة معيَّة خاصة وهو أغلَب إطلاقاتها في القرآن مثل: ﴿أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ ﴿مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ ﴿لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ ونحوها.

● ومن الأُصول العظيمة: إثبات تَفَرُّد الرَّب بكل صفة كمال وأنه ليس لله شريك ولا مثيل في شيء منها.

والنصوص المذكورة التي فيها نفي: «الند»، و«المثل» و«الكفو» و«السَّمِيِّ» عن اللَّه؛ تدلُّ علىٰ ذلك، وتدلُّ علىٰ أنه مُنَزَّه عن كُلِّ عَيبٍ ونَقصٍ وآفةٍ.

● قال الشيخ محمد خليل هراس:

قوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ﴾ إلخ: تضمنت هذه الآية الكريمة إثبات صفة المعية له عز وجل وهي علىٰ نوعين:

معية عامة: شاملة لجميع المخلوقات، فهو سبحانه مع كل شيء بعلمه وقدرته وقهره وإحاطته، لا يغيب عنه شيء ولا يعجزه، وهذه المعية المذكورة في الآية.

ففي هذه الآية يخبر عن نفسه سبحانه بأنه هو وحده الذي خلق السموات والأرض يعني أوجدهما علىٰ تقدير وترتيب سابق في مدة ستة أيام، ثم علا بعد ذلك وارتفع علىٰ عرشه لتدبير أمور خلقه، وهو مع كونه فوق عرشه لا يغيب عنه

شيء من العالمين العلوي والسفلي، فهو ﴿يعلم ما يلج﴾، أي يدخل ﴿في الأرض﴾، ﴿وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج﴾ أي: يصعد ﴿فيها﴾ ولا شك أن من كان علمه وقدرته محيطين بجميع الأشياء فهو مع كل شيء، ولذلك قال: ﴿وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير﴾.

قوله: ﴿ما يكون من نجوى﴾ إلخ: يثبت سبحانه شمول علمه وإحاطته بجميع الأشياء، وأنه لا يخفى عليه نجوى المتناجين، وأنه شهيد على الأشياء كلها مطلع عليها.

وإضافة (نجوى) إلى ثلاثة من إضافة الصفة إلى الموصوف والتقدير ما يكون من ثلاثة نجوى، أي متناجين.

وأما الآيات الباقية فهي في إثبات المعية الخاصة التي هي معيته لرسله تعالى وأوليائه بالنصر والتأييد والمحبة والتوفيق والإلهام.

فقوله تعالى: ﴿لا تحزن إن الله معنا﴾: حكاية عما قاله عليه الصلاة والسلام لأبي بكر الصديق وهما في الغار، فقد أحاط المشركون بفم الغار عندما خرجوا في طلبه عليه السلام، فلما رأى أبو بكر ذلك انزعج وقال: والله يا رسول الله لو نظر أحدهم تحت قدمه لأبصرنا، فقال له الرسول ﷺ ما حكاه الله عز وجل هنا: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾.

فالمراد بالمعية هنا معية النصر والعصمة من الأعداء.

وأما قوله: ﴿إنني معكما أسمع وأرى﴾: فقد تقدم الكلام عليه وأنها خطاب لموسى وهارون عليهما السلام أن لا يخافا بطش فرعون بهما؛ لأن الله عز وجل معهما بنصره وتأييده.

وكذلك بقية الآيات يخبر الله فيها عن معيته للمتقين الذين يراقبون الله عز وجل في أمره ونهيه ويحفظون حدوده وللمحسنين الذين يلتزمون الإحسان في كل شيء والإحسان يكون في كل شيء بحسبه فهو في العبادة مثلاً أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك كما جاء في حديث جبريل عليه السلام.

وكذلك يخبر عن معيته للصابرين الذين يحبسون أنفسهم على ما تكره ويتحملون المشاق والأذى في سبيل الله وابتغاء وجهه صبراً على طاعة الله وصبراً عن معصيته

وصبراً على قضائه.

● قال الشيخ عبد العزيز بن باز:

المعية: صفة من صفات الله وهي قسمان:

معية خاصة: لا يعلم كيفيتها إلا الله كسائر صفاته وتتضمن الإحاطة والنصرة والتوفيق والحماية من الهالك.

ومعية عامة: تتضمن علم الرب بأحوال عباده واطلاعه على جميع أحوالهم وتصرفاتهم الظاهرة والباطنة ولا يلزم منها الاختلاط والامتزاج؛ لأنه سبحانه لا يقاس بخلقه. فعلوه على خلقه لا ينافي معيته لعباده، بخلاف المخلوق فإن وجوده في مكان وجهة يلزم منه عدم اطلاعه على المكان الآخر والجهة الأخرى، والرب ليس كمثله شيء لكمال علمه وقدرته.

● قال الشيخ ابن عثيمين:

شرع المؤلف ـ رحمه الله ـ بسوق أدلة المعية؛ أي: أدلة معية الله تعالى لخلقه، وناسب أن يذكرها بعد العلو؛ لأنه قد يبدو للإنسان أن هناك تناقضاً بين كونه فوق كل شيء وكونه مع العباد، فكان من المناسب جداً أن يذكر الآيات التي تثبت معية الله للخلق بعد ذكر آيات العلو.

وفي معية الله تعالى لخلقه مباحث:

المبحث الأول في أقسامها:

معية الله عز وجل تنقسم إلى قسمين: عامة، وخاصة.

والخاصة تنقسم إلى قسمين: مقيدة بشخص، ومقيدة بوصف.

ـ أما العامة؛ فهي التي تشمل كل أحد من مؤمن وكافر وبر وفاجر. ودليلها قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤].

أ ـ أما الخاصة المقيدة بوصف؛ فمثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

ب ـ وأما الخاصة المقيدة بشخص معين؛ فمثل قوله تعالى عن نبيه: ﴿إِذْ يَقُولُ

لصاحبه لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة: ٤٠]. وقال لموسى وهارون: ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾ [طه: ٤٦].

وهذه أخص من المقيدة بوصف.

فالمعية درجات: عامة مطلقة، وخاصة مقيدة بوصف، وخاصة مقيدة بشخص.
فأخص أنواع المعية ما قيد بشخص، ثم ما قيد بوصف، ثم ما كان عامًا.

فالمعية العامة تستلزم الإحاطة بالخلق علمًا وقدرة وسمعًا وبصرًا وسلطانًا وغير ذلك من معاني ربوبيته، والمعية الخاصة بنوعيها تستلزم مع ذلك النصر والتأييد.

المبحث الثاني: هل المعية حقيقية أو هي كناية عن علم الله عز وجل وسمعه وبصره وقدرته وسلطانه وغير ذلك من معاني ربوبيته؟.

أكثر عبارات السلف ـ رحمهم الله ـ يقولون: إنها كناية عن العلم وعن السمع والبصر والقدرة وما أشبه ذلك، فيجعلون معنى قوله: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ ﴾ [الحديد: ٤]؛ أي: وهو عالم بكم سميع لأقوالكم بصير بأعمالكم قادر عليكم حاكم بينكم... وهكذا، فيفسرونها بلازمها.

واختار شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ في هذا الكتاب وغيره أنها على حقيقتها، وأن كونه معنا حق على حقيقته، لكن ليست معيته كمعية الإنسان للإنسان التي يمكن أن يكون الإنسان مع الإنسان في مكانه؛ لأن معية الله عز وجل ثابتة له وهو في علوه؛ فهو معنا وهو عال على عرشه فوق كل شيء، ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن يكون معنا في الأمكنة التي نحن فيها.

وعلى هذا؛ فإنه يحتاج إلى الجمع بينها وبين العلو.

والمؤلف ـ رحمه الله ـ عقد لها فصلا خاصًا سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى، وأنه لا منافاة بين العلو والمعية؛ لأن الله تعالى ليس كمثله شيء في جميع صفاته؛ فهو عليٌّ في دنوه، قريب في علوه.

وضرب شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ لذلك مثلا بالقمر؛ قال: إنه يقال: ما زلنا نسير والقمر معنا، وهو موضوع في السماء، وهو من أصغر المخلوقات؛ فكيف لا يكون الخالق عز وجل مع الخلق، الذي الخلق بالنسبة إليه ليسوا بشيء، وهو فوق سمواته؟!

وما قاله ـ رحمه الله ـ فيه دفع حجة بعض أهل التعطيل حيث احتجوا على أهل السنة، فقالوا: أنتم تمنعون التأويل، وأنتم تؤولون في المعية؛ تقولون: المعية بمعنى: العلم، والسمع، والبصر، والقدرة، والسلطان، وما أشبه ذلك.

فنقول: إن المعية حق على حقيقتها، لكنها ليست على المفهوم الذي فهمه الجهمية ونحوهم؛ بأنه مع الناس في كل مكان وتفسير بعض السلف لها بالعلم ونحوه تفسيره باللازم.

المبحث الثالث: هل المعية من الصفات الذاتية أو من الصفات الفعلية؟

فيه تفصيل:

ـ أما المعية العامة؛ فهي ذاتية؛ لأن الله لم يزل ولا يزال محيطًا بالخلق علمًا وقدرةً وسلطانًا وغير ذلك من معاني ربوبيته.

ـ وأما المعية الخاصة؛ فهي صفة فعلية؛ لأنها تابعة لمشيئة الله، وكل صفة مقرونة بسبب هي من الصفات الفعلية؛ فقد سبق لنا أن الرضا من الصفات الفعلية؛ لأنه مقرون بسبب، إذا وجد السبب الذي به يرضى الله؛ وجد الرضا، وكذلك المعية الخاصة؛ إذا وجدت التقوى أو غيرها من أسبابها في شخص؛ كان الله معه.

المبحث الرابع في المعية: هل هي حقيقية أو لا؟

ذكرنا ذلك، وأن من السلف من فسرها باللازم، وهو الذي لا يكاد يرى الإنسان سواه. ومنهم من قال: هي على حقيقتها، لكنها معية تليق بالله، خاصة به.

وهذا صريح كلام المؤلف ـ رحمه الله ـ هنا في هذا الكتاب وغيره، لكن تصان عن الظنون الكاذبة؛ مثل أن يظن أن الله معنا في الأرض ونحو ذلك؛ فإن هذا باطل مستحيل!

المبحث الخامس في المعية: هل بينها وبين العلو تناقض؟

الجواب: لا تناقض بينهما؛ لوجوه ثلاثة:

الوجه الأول: أن الله جمع بينهما فيما وصف به نفسه، ولو كانا يتناقضان ما صح أن يصف الله بهما نفسه.

الوجه الثاني: أن نقول: ليس بين العلو والمعية تعارض؛ أصلا، إذ من الممكن أن

يكون الشيء عاليًا وهو معك، ومنه ما يقوله العرب: القمر معنا ونحن نسير، والشمس معنا ونحن نسير، والقطب معنا ونحن نسير، مع أن القمر والشمس والقطب كلها في السماء؛ فإذا أمكن اجتماع العلو والمعية في المخلوق؛ فاجتماعهما في الخالق من باب أولىٰ.

أرأيت لو أن إنسانًا علىٰ جبل عال، وقال للجنود: اذهبوا إلىٰ مكان بعيد في المعركة، وأنا معكم، وهو واضع المنظار علىٰ عينيه، ينظر إليهم من بعيد، فصار معهم؛ لأنه الآن يبصرهم كأنهم بين يديه، وهو بعيد عنهم؛ فالأمر ممكن في حق المخلوق؛ فكيف لا يمكن في حق الخالق؟!.

الوجه الثالث: أنه لو تعذر اجتماعهما في حق المخلوق؛ لم يكن متعذرًا في حق الخالق؛ لأن الله أعظم وأجل، ولا يمكن أن تقاس صفات الخالق بصفات المخلوقين؛ لظهور التباين بين الخالق والمخلوق.

والرسول ﷺ يقول في سفره: **«اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل»**[1]؛ فجمع بين كونه صاحبًا له وخليفة له في أهله، مع أنه بالنسبة للمخلوق غير ممكن، لا يمكن أن يكون شخص ما صاحبًا لك في السفر وخليفة لك في أهلك.

وثبت في الحديث الصحيح: أن الله عز وجل يقول إذا قال المصلي: ﴿**الْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ [الفاتحة: ٢]: **«حمدني عبدي»**[2].

كم من مصل يقول: ﴿الْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾!

لا يحصون.

وكم من مصلين؛ أحدهما يقول: ﴿**الْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾، والثاني يقول: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾، وكل واحد منهما له رد؛ الذي يقول: ﴿**الْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾، يقول الله له: **«حمدني عبدي»**، والذي يقول: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾: يقول الله له: **«هذا بيني وبين عبدي نصفين»**.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٣٤٢) وأبو داود والترمذي (٣٤٤٧) من حديث عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما.

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٣٩٥) والنسائي في «الكبرىٰ» (٩٠٩) والترمذي (٢٩٥٣) وأبو داود (٨١٩) من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه.

إذًا؛ يمكن أن يكون الله معنا حقًّا وهو على عرشه في السماء حقًا ولا يفهم أحد أنهما يتعارضان؛ إلا من أراد أن يمثل الله بخلقه، ويجعل معية الخالق كمعية المخلوق.

ونحن بينا إمكان الجمع بين نصوص العلو ونصوص المعية، فإن تبين ذلك، وإلا؛ فالواجب أن يقول العبد: آمنت بالله ورسوله، وصدقت بما قال الله عن نفسه ورسوله، ولا يقول: كيف يمكن؟! منكرًا ذلك!.

إذا قال: كيف يمكن؟! قلنا: سؤالك هذا بدعة، لم يسأل عنه الصحابة، وهم خير منك، ومسئولهم أعلم من مسئولك وأصدق وأفصح وأنصح، عليك أن تصدق، لا تقل: كيف؟ ولا لم؟ ولكن سلم تسليمًا.

تنبيه:

تأمل في الآية؛ تجد كل الضمائر تعود على الله سبحانه وتعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى﴾ [الأعراف: ٥٤]، ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الحديد: ٤]، فكذلك ضمير: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ [الحديد: ٤]؛ فيجب علينا أن نؤمن بظاهر الآية الكريمة، ونعلم علم اليقين أن هذه المعية لا تقتضي أن يكون الله معنا في الأرض، بل هو معنا مع استوائه على العرش.

هذه المعية؛ إذا آمنا بها، تُوجب لنا خشية الله عز وجل وتقواه. ولهذا جاء في الحديث: «**أفضل الإيمان أن تعلم أن الله معك حيثما كنت**»[1].

أما أهل الحلول؛ فقالوا: إن الله معنا بذاته في أمكنتنا، إن كنت في المسجد؛ فالله معك في المسجد! والذين في السوق الله معهم في السوق!! والذين في الحمامات الله معهم في الحمامات!!

ما نزهوه عن الأقذار والأنتان وأماكن اللهو والرفث!!

---

(١) ضعيف: أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٨٧٩٦) وذكره الهيثمي في «المجمع» (١/ ٦٠) وعزاه للطبراني في «الكبير» والأوسط» من حديث عبادة بن الصامت ـ رضي الله عنه. والحديث ضعفه الشيخ الألباني في «ضعيف الجامع» (١٠٠٢).

المبحث السادس: في شبهة القائلين بأن الله معنا في أمكنتنا والرد عليهم:

شبهتهم: يقولون: هذا ظاهر اللفظ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾؛ لأن كل الضمائر تعود على الله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ﴾، ﴿ثُمَّ اسْتَوَى﴾، ﴿يَعْلَمُ﴾ [الحديد: ٤]، ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾، وإذا كان معنا؛ فنحن لا نفهم من المعية إلا المخالطة أو المصاحبة في المكان!!

والرد عليهم من وجوه:

أولا: أن ظاهرها ليس كما ذكرتم؛ إذ لو كان الظاهر كما ذكرتم؛ لكان في الآية تناقض: أن يكون مستويًا على العرش، وهو مع كل إنسان في أي مكان! والتناقض في كلام الله تعالى مستحيل.

ثانيًا: قولكم: «إن المعية لا تعقل إلا مع المخالطة أو المصاحبة في المكان»! هذا ممنوع؛ فالمعية في اللغة العربية اسم لمطلق المصاحبة، وهي أوسع مدلولا مما زعمتم؛ فقد تقتضي الاختلاط، وقد تقتضي المصاحبة في المكان، وقد تقتضي مطلق المصاحبة وإن اختلف المكان؛ هذه ثلاثة أشياء:

١ـ مثال المعية التي تقتضي المخالطة: أن يقال: اسقوني لبنًا مع ماء؛ أي: مخلوطًا بماء.

٢ـ ومثال المعية التي تقتضي المصاحبة في المكان: قولك: وجدت فلانًا مع فلان يمشيان جميعًا وينزلان جميعًا.

٣ـ ومثال المعية التي لا تقتضي الاختلاط ولا المشاركة في المكان: أن يقال: فلان مع جنوده. وإن كان هو في غرفة القيادة، لكن يوجههم. فهذا ليس فيه اختلاط ولا مشاركة في مكان.

ويقال: زوجة فلان معه. وإن كانت هي في المشرق وهو في المغرب.

فالمعية إذًا كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ وكما هو ظاهر من شواهد اللغة: مدلولها مطلق المصاحبة، ثم هي بحسب ما تضاف إليه.

فإذا قيل: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ [النحل: ١٢٨]؛ فلا يقتضي ذلك لا اختلاطًا ولا مشاركة في المكان، بل هي معية لائقة بالله، ومقتضاها النصر والتأييد.

ثالثًا: نقول: وصفكم الله بهذا! من أبطل الباطل وأشد التنقص لله عز وجل،

والله عز وجل ذكرها هنا عن نفسه متمدحًا؛ أنه مع علوه على عرشه؛ فهو مع الخلق، وإن كانوا أسفل منه، فإذا جعلتم الله في الأرض، فهذا نقص.

إذا جعلتم الله نفسه معكم في كل مكان، وأنتم تدخلون الكنف؛ هذا أعظم النقص، ولا تستطيع أن تقوله ولا لملك من ملوك الدنيا: إنك أنت في الكنيف! لكن كيف تقوله لله عز وجل؟! وهل هذا إلا أعظم النقص والعياذ بالله؟!.

رابعًا: يلزم على قولكم هذا أحد أمرين لا ثالث لهما، وكلاهما ممتنع: إما أن يكون الله متجزئًا، كل جزء منه في مكان.

وإما أن يكون متعدداً؛ يعني: كل إله في جهة ضرورة تعدد الأمكنة.

خامسًا: أن نقول: قولكم هذا أيضًا يستلزم أن يكون الله حالا في الخلق؛ فكل مكان في الخلق؛ فالله تعالى فيه، وصار هذا سلمًا لقول أهل وحدة الوجود.

فأنت ترى أن هذا القول باطل، ومقتضى هذا القول الكفر.

ولهذا نرى أن من قال: إن الله معنا في الأرض؛ فهو كافر؛ يستتاب، ويبين له الحق، فإن رجع، وإلا؛ وجب قتله.

وهذه آيات المعية:

الآية الأولى: قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤].

والشاهد فيها قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾، وهذه من المعية العامة؛ لأنها تقتضي الإحاطة بالخلق علمًا وقدرة وسلطانًا وسمعًا وبصراً وغير ذلك من معاني الربوبية.

الآية الثانية: قوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلاثَةٍ إِلا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٧].

قوله: ﴿مَا يَكُونُ﴾: ﴿يَكُونُ﴾: تامة يعني: ما يوجد.

وقوله: ﴿مِن نَّجْوَى ثَلاثَةٍ﴾: قيل: إنها من باب إضافة الصفة إلى الموصوف،

وأصلها: من ثلاثة نجوى، ومعنى: ﴿نَّجْوَى﴾؛ أي: متناجين.

وقوله ﴿إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾: ولم يقل: إلا هو ثالثهم؛ لأنه من غير الجنس، وإذا كان من غير الجنس؛ فإنه يؤتى بالعدد التالي، أما إذا كان من الجنس؛ فإنه يؤتى بنفس العدد، انظر إلى قوله تعالى عن النصارى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣]، ولم يقولوا: ثالث اثنين؛ لأنه من الجنس على زعمهم! فعندهم كل الثلاثة آلهة، فلما كان من الجنس على زعمهم؛ قالوا فيه: ثالث ثلاثة.

قوله: ﴿وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾: ذكر العدد الفردي ثلاثة وخمسة، وسكت عن العدد الزوجي، لكنه داخل في قوله: ﴿وَلَا أَدْنَى مِن ذَلِكَ﴾: الأدنى من ثلاثة اثنان، ﴿وَلَا أَكْثَرَ﴾ من خمسة، ستة فما فوق.

ما من اثنين فأكثر يتناجيان بأي مكان من الأرض؛ إلا والله عز وجل معهم.

وهذه المعية عامة؛ لأنها تشمل كل أحد: المؤمن، والكافر، والبر، والفاجر، ومقتضاها الإحاطة بهم علماً وقدرةً وسمعاً وبصراً وسلطاناً وتدبيراً وغير ذلك.

وقوله: ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾: يعني: أن هذه المعية تقتضي إحصاء ما عملوه؛ فإذا كان يوم القيامة؛ نبأهم بما عملوا؛ يعني: أخبرهم به وحاسبهم عليه؛ لأن المراد بالإنباء لازمه، وهو المحاسبة، لكن إن كانوا مؤمنين؛ فإن الله تعالى يحصي أعمالهم، ثم يقول: «سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم»[1].

وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾: كل شيء موجود أو معدوم، جائز أو واجب أو ممتنع، كل شيء؛ فالله عليم به.

وقد سبق لنا الكلام على صفة العلم، وأن علم الله يتعلق بكل شيء، حتى بالواجب والمستحيل، والصغير والكبير، والظاهر والخفي.

الآية الثالثة: قوله: ﴿لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

الخطاب لأبي بكر رضي الله عنه من النبي ﷺ؛ قال الله تعالى: ﴿إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

---

(١) سبق تخريجه.

أولا: نصره حين الإخراج و ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ﴾.

ثانيًا: وعند المكث في الغار ﴿إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾.

ثالثًا: عند الشدة حينما وقف المشركون على فم الغار: ﴿إِذ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ﴾.

فهذه ثلاثة مواقع بين الله تعالى فيها نصره لنبيه ﷺ.

وهذا الثالث حيث وقف المشركون عليهم؛ يقول أبو بكر رضي الله عنه: «يا رسول الله! لو نظر أحدهم إلى قدمه؛ لأبصرنا»(١)؛ يعني: إننا على خطر؛ كقول أصحاب موسى لما وصلوا إلى البحر: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء: ٦١]. فقال: ﴿كَلا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦١]، وهنا قال النبي ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه: ﴿لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا﴾. فطمأنه، وأدخل الأمن في نفسه، وعلل ذلك بقوله: ﴿إِنَّ اللّهَ مَعَنَا﴾.

وقوله هنا: ﴿لاَ تَحْزَنْ﴾: نهي يشمل الهم مما وقع وما سيقع؛ فهو صالح للماضي والمستقبل.

والحزن: تألم النفس وشدة همها.

﴿إِنَّ اللّهَ مَعَنَا﴾: وهذه المعية خاصة، مقيدة بالنبي ﷺ وأبي بكر، وتقتضي مع الإحاطة التي هي المعية العامة النصر والتأييد.

ولهذا وقفت قريش على الغار، ولم يبصروهما! أعمى الله أبصارهم.

وأما قول من قال: فجاءت العنكبوت فنسجت على باب الغار، والحمامة وقعت على باب الغار، فلما جاء المشركون، وإذا على الغار حمامة وعش عنكبوت، فقالوا: ليس فيه أحد؛ فانصرفوا(٢). فهذا باطل!!

الحماية الإلهية والآية البالغة أن يكون الغار مفتوحًا صافيًا، ليس فيه مانع حسي، ومع ذلك لا يرون من فيه، هذه هي الآية!! أما أن تأتي حمامة وعنكبوت تعشش؛

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٦٥٣) ومسلم (٢٣٨١) من حديث من أبي بكر - رضي الله عنه -.

(٢) ذكره الهيثمي في «المجمع» (٦/ ٥٣) وعزاه للبزار والطبراني وقال: وفيه جماعة لم أعرفهم. وذكره في (٣/ ٣٢١) وعزاه للطبراني في «الكبير».

فهذا بعيد، وخلاف قوله: «لو نظر أحدهم إلى قدمه؛ لأبصرنا».

المهم أن بعض المؤرخين ـ عفا الله عنهم ـ يأتون بأشياء غريبة شاذة منكرة لا يقبلها العقل ولا يصح بها النقل.

الآية الرابعة: قوله: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٦].

هذا الخطاب لموسى وهارون، لما أمرهما الله عز وجل أن يذهبا إلى فرعون؛ قال: ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى * قَالا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَى * قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٣-٤٦].

فقوله: ﴿أَسْمَعُ وَأَرَى﴾: جملة استئنافية لبيان مقتضى هذه المعية الخاصة، وهو السمع والرؤية وهذا سمع ورؤية خاصان تقتضيان النصر والتأييد والحماية من فرعون الذي قالا عنه: ﴿إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَى﴾.

الآية الخامسة: قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

هذه جاءت بعد قوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ * وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٦، ١٢٧].

عقوبة الجاني بمثل ما عوقب به من باب التقوى، وبأكثر ظلم وعدوان، والعفو إحسان، ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾.

والمعية هنا خاصة مقيدة بصفة: كل من كان من المتقين المحسنين؛ فالله معه.

وهذا يثمر لنا بالنسبة للحالة المسلكية: الحرص على الإحسان والتقوى؛ فإن كل إنسان يحب أن يكون الله معه.

الآية السادسة: قوله: ﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

سبق لنا أن الصبر حبس النفس على طاعة الله، وحبسها عن معصية الله، وحبسها عن التسخط على أقدار الله؛ سواء باللسان أو بالقلب أو بالجوارح.

وأفضل أنواع الصبر: الصبر على طاعة الله، ثم عن معصية الله لأن فيهما

اختياراً: إن شاء الإنسان فعل المأمور، وإن شاء لم يفعل، وإن شاء ترك المحرم وإن شاء ما تركه، ثم على أقدار الله؛ لأن أقدار الله واقعة شئت أم أبيت؛ فإما أن تصبر صبر الكرام وإما أن تسلو سلو البهائم.

والصبر درجة عالية لا تنال إلا بشيء يصبر عليه، أما من فرشت له الأرض ورداً، وصار الناس ينظرون إلى ما يريد؛ فإنه لا بد أن يناله شيء من التعب النفسي أو البدني الداخلي أو الخارجي.

ولهذا جمع الله لنبيه عليه الصلاة والسلام بين الشكر والصبر.

فالشكر: كان يقوم حتى تتورم قدماه، فيقول: «**أفلا أكون عبداً شكوراً**»(١).

والصبر: صبر على ما أُوذي؛ فقد أُوذي من قومه ومن غيرهم من اليهود والمنافقين، ومع ذلك؛ فهو صابر.

الآية السابعة: قوله: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

﴿كَم﴾: خبرية، تفيد التكثير؛ يعني: فئة قليلة غلبت فئة كثيرة عدة مرات، أو فئات قليلة متعددة غلبت فئات كثيرة متعددة، لكن لا بحولهم ولا بقوتهم، بل بإذن الله؛ أي: بإرادته وقدرته.

ومن ذلك: أصحاب طالوت غلبوا عدوهم وكانوا كثيرين.

ومن ذلك: أصحاب بدر غلبوا قريشاً وهم كثيرون.

أصحاب بدر خرجوا لغير قتال، بل لأخذ عير أبي سفيان، وأبو سفيان لما علم بهم؛ أرسل صارخاً إلى أهل مكة يقول: أنقذوا عيركم، محمد وأصحابه خرجوا إلينا يريدون أخذ العير. والعير فيها أرزاق كثيرة لقريش، فخرجت قريش بأشرافها وأعيانها وخيلائها وبطرها، يظهرون القوة والفخر والعزة، حتى قال أبو جهل: والله؛ لا نرجع حتى نقدم بدراً، فنقيم فيها ثلاثاً؛ ننحر الجزور، ونسقى الخمور، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب؛ فلا يزالون يهابوننا أبداً.

فالحمد لله؛ غَنَّوا على قتله هو ومن معه!

---

(١) سبق تخريجه.

كان هؤلاء القوم ما بين تسعمائة وألف، كل يوم ينحرون من الإبل تسعًا إلىٰ عشر، والنبي عليه الصلاة والسلام هو وأصحابه ثلاثمائة وأربعة عشر رجلا، معهم سبعون بعيراً وفرسان فقط يتعاقبونها، ومع ذلك قتلوا الصناديد العظماء لقريش حتىٰ جيفوا وانتفخوا من الشمس وسحبوا إلىٰ قليب من قلب بدر خبيثة.

فـ ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾: لأن الفئة القليلة صبرت، ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾؛ صبرت كل أنواع الصبر؛ علىٰ طاعة الله، وعن معصية الله، وعلىٰ ما أصابها من الجهد والتعب والمشقة في تحمل أعباء الجهاد، ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

انتهت آيات المعية، وسيأتي للمؤلف - رحمه الله - فصل كامل في تقريرها.

فما هي الثمرات التي نستفيدها بأن الله معنا؟

أولا: الإيمان بإحاطة الله عز وجل بكل شيء، وأنه مع علوه فهو مع خلقه، لا يغيب عنه شيء من أحوالهم أبداً.

ثانيًا: أننا إذا علمنا ذلك وآمنا به؛ فإن ذلك يوجب لنا كمال مراقبته بالقيام بطاعته وترك معصيته؛ بحيث لا يفقدنا حيث أمرنا، ولا يجدنا حيث نهانا، وهذه ثمرة عظيمة لمن آمن بهذه المعية.

● قال الشيخ صالح الفوزان:

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ تقدم تفسيره.

وقوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ أي: هو معكم بعلمه، رقيب عليكم شهيد علىٰ أعمالكم حيث كنتم، وأين كنتم في بر أو بحر، في ليل أو نهار، في البيوت أو القفار، الجميع في علمه علىٰ السواء، وتحت سمعه وبصره، يسمع كلامكم ويرىٰ مكانكم، وهذا محل الشاهد من الآية الكريمة، ففيه إثبات المعية العامة، ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ لا يخفىٰ عليه شيء من أعمالكم.

وقوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ﴾: النجوىٰ: السر، والمعنىٰ: ما يوجد من تناجي ثلاثة ﴿إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ أي: جاعلهم أربعة، وجاعلهم ستة

من حيث إنه سبحانه يشاركهم في الاطلاع على تلك النجوى، وتخصيص هذين العددين بالذكر؛ لأن أغلب عادات المتناجين أن يكونوا ثلاثة أو خمسة، أو أن سبب النزول تناجي ثلاثة في واقعة وخمسة في واقعة أخرى وإلا فهو سبحانه مع كل عدد قل أو كثر؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ﴾ أي: ولا أقل من العدد المذكور كالواحد والاثنين، ولا أكثر منه، كالستة والسبعة ﴿إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ﴾ بعلمه يعلم ما يتناجون به ولا يخفى عليه شيء منه.

قال المفسرون: إن المنافقين واليهود كانوا يتناجون فيما بينهم ويوهمون المؤمنين أنهم يتناجون فيما يسوؤهم فيحزنون لذلك، فلما طال ذلك وكثر شكوا إلى رسول الله ﷺ، فأمرهم أن لا يتناجوا دون المسلمين، فلم ينتهوا عن ذلك وعادوا إلى مناجاتهم؛ فأنزل الله هذه الآيات(١).

وقوله تعالى: ﴿أَيْنَ مَا كَانُوا﴾: معناه: إحاطة علمه سبحانه بكل تناج يقع منهم في أي مكان ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم﴾ أي: يخبرهم سبحانه ﴿بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ ويجازيهم على ذلك، وفي هذا تهديد لهم وتوبيخ ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لا يخفي عليه شيء.

والشاهد من الآية: أن فيها إثبات معية الله لخلقه، وهي معية عامة مقتضاها الإحاطة والعلم بجميع أعمالهم؛ ولهذا يقول الإمام أحمد رحمه الله: افتتح الآية بالعلم واختتمها بالعلم.

وقوله تعالى: ﴿لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ هذا خطاب من النبي ﷺ لصاحبه أبي بكر رضي الله عنه حينما كانا في الغار وقت الهجرة وقد لحق بهما المشركون، فحزن أبو بكر رضي الله عنه خوفًا على النبي ﷺ من أذى الكفار، فقال له النبي ﷺ: ﴿لا تَحْزَنْ﴾ أي: دع الحزن ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ بنصره وعونه وتأييده، ومن كان الله معه فلن يغلب، ومن لا يغلب لا يحق له أن يحزن(٢).

---

(١) انظر تفسير الطبري (٢٨/ ١٦).

(٢) وانظر الخبر في البخاري (٣٦١٥) ومسلم (٢٠٠٩) من حديث البراء بن عازب ـ رضي الله عنه.
وفيه «... فارتحلنا حتى مالت الشمس واتبعنا سراقة بن مالك فقلت أتينا يا رسول الله فقال ﴿لا تحزن إن الله معنا﴾... الحديث.

والشاهد من الآية: أن فيها إثبات المعية الخاصة بالمؤمنين التي مقتضاها النصر والتأييد.

وقوله تعالى لموسى وهارون عليهما السلام: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ أي: لا تخافا من فرعون ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا﴾ تعليل للنهي، أي: معكما بالنصر لكما والمعونة على فرعون ﴿أَسْمَعُ﴾ كلامكما وكلامه ﴿وَأَرَىٰ﴾ مكانكما ومكانه لا يخفى علي من أمركم شيء.

والشاهد من الآية: أن فيها إثبات المعية الخاصة في حق الله تعالى لأوليائه بالنصر والتأييد، كما أن فيها إثبات السمع والبصر له سبحانه وتعالى.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا﴾: أي: تركوا المحرمات والمعاصي على اختلاف أنواعها ﴿وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ بتأدية الطاعات والقيام بما أمروا به، فهو سبحانه مع هؤلاء بتأييده ونصره ومعونته، وهذه معية خاصة، وهي محل الشاهد من الآية الكريمة.

وقوله: ﴿وَاصْبِرُوا﴾: هذا أمر بالصبر، وهو حبس النفس، والمراد به هنا: الصبر على شدائد الحرب التي بين المسلمين وبين الكفار ثم علل هذا الأمر بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ فهو سبحانه مع الصابرين في كل أمر ينبغي الصبر فيه.

والشاهد من الآية الكريمة: أن فيها إثبات معية الله للصابرين على طاعته والمجاهدين في سبيله.

قال الإمام الشوكاني: ويا حبذا هذا المعية التي لا يغلب من رُزقها غالب، ولا يؤتى صاحبها من جهة من الجهات وإن كانت كثيرة. اهـ.

وقوله تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً﴾. الفئة: الجماعة والقطعة منهم ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: بإرادته وقضائه ومشيئته ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ هذا محل الشاهد من الآية الكريمة، وهو إثبات معية الله سبحانه للصابرين على الجهاد في سبيله، وهي معية خاصة مقتضاها النصر والتأييد.

ما يستفاد من مجموع الآيات السابقة: أفادت إثبات المعية، وأنها نوعان:

النوع الأول: معية عامة، كما في الآيتين الأوليين، ومقتضى هذه المعية إحاطته سبحانه بخلقه وعلمه بأعمالهم خيرها وشرها ومجازاتهم عليها.

النوع الثاني: معية خاصة بعباده المؤمنين، ومقتضاها النصر والتأييد والحفظ، وهذا النوع تدل عليه الآيات الخمس الباقية التي أوردها المؤلف رحمه الله. ومعيته سبحانه لا تنافي علوه على خلقه واستواءه على عرشه، فإن قربه سبحانه ومعيته ليست كقرب المخلوق ومعية المخلوق للمخلوق، فإنه سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، ولأن المعية مطلق المقارنة لا تقتضي مماسة ولا محاذاة، تقول العرب: ما زلنا نمشي والقمر معنا مع أنه فوقهم والمسافة بينهم وبينه بعيدة، فعلو الله جل جلاله ومعيته لخلقه لا تنافي بينهما. وسيأتي لهذا مزيد بيان إن شاء الله.



أسئلة وأجوبة نموذجية على المعية

● قال الشيخ عبد العزيز المحمد السلمان:

س - إلى كم تنقسم المعية، وما دليل كل قسم من أقسامها؟

ج - المعية تنقسم قسمين: عامة وخاصة، وهما كسائر الصفات لا يعلم كيفيتهما إلا الله عز وجل.

أما دليل العامة من القرآن فقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

وأما دليل الخاصة فقوله تعالى: ﴿لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾.

﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾.

﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

س - بين ما تعرفه عن معنى دليل المعية العامة؟

ج - أما الآية الأولى: فقد تقدم شرحها وما يؤخذ منها.

أما الآية الثانية فإليك: «النجوى»: التناجي والمسارة «أدنى»: أقل «فينبئهم»: يخبرهم.

يقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ فلا يتناجى ثلاثة إلا

والله معهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ويعلم ما يقولون وما يدبرون، ولا نجوىٰ أكثر من هذه الأعداد ولا أقل منها إلا وهو عليم بنجواهم، وعليم بزمانها ومكانها، لا يخفىٰ عليه شيء من أمرها ثم ينبئهم أي يخبرهم أي المتناجين بما عملوا من خير وشر.

قال ابن القيم رحمه الله: وتأمل كيف جعل نفسه رابع ثلاثة، وسادس الخمسة إذ هو غيرهم سبحانه بالحقيقة لا يجتمعون معه في جنس ولا فصل وقال ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ فإنهم ساووا بينه وبين الاثنين في الألوهية والعرب تقول رابع أربعة وخامس خمسة، وثالث ثلاثة لما يكون فيه المضاف من جنس المضاف كما قال تعالىٰ: ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ رسول الله ﷺ وصديقه فإن كان من غير جنسه قالوا رابع ثلاثة وخامس أربعة وسادس خمسة.

س ـ ما الذي يؤخذ من هذه الآية الكريمة الدالة على المعية العامة؟

ج ـ فيها: أولاً: أنها دليل علىٰ المعية العامة.

ثانيًا: إثبات صفة العلم.

ثالثًا: إثبات الحساب والجزاء علىٰ الأعمال، والبعث.

رابعًا: الحث علىٰ مراقبة الله.

خامسًا: الرد علىٰ من قال إن القرآن من كلام محمد ﷺ.

سادسًا: إثبات صفة الكلام وهي من الصفات الذاتية الفعلية.

سابعًا: الرد علىٰ من أنكر شيئًا من هذه الصفات، أو أولها بتأويل باطل كالأشعرية والمعتزلة والجهمية.

ثامنًا: الترغيب في الطاعات والتحذير من المعاصي.

تاسعًا: إثبات الألوهية.

عاشرًا: شمول علمه وإحاطته بكل شيء.

س ـ ما الذي تعرفه عن معنى الآية الأولى من أدلة المعية الخاصة؟

ج ـ فيها حكاية عما قاله عليه الصلاة والسلام لأبي بكر وهما في الغار وقد أحاط

المشركون بفم الغار عندما خرجوا في طلبه عليه السلام فلما رأىٰ أبو بكر ذلك انزعج وقال يا رسول الله، لو نظر أحدهم تحت قدمه لأبصرنا فقال له رسول الله ﷺ ﴿لا تحزن إن الله معنا﴾ ففي هذه الآية:

أولاً: دليل علىٰ المعية الخاصة وهي من الصفات الفعلية.

ثانيًا: الحث علىٰ التوكل علىٰ الله.

ثالثًا: ما كان عليه النبي ﷺ من ثقته بربه.

رابعًا: إثبات الألوهية لله وفيها مَزِيَّة لأبي بكر - رضي الله عنه - ولذلك قال العلماء: من أنكر صحبة أبي بكر - رضي الله عنه - فهو كافر، لإنكاره كلام الله.

خامسًا: إثبات قدرة الله وهي من الصفات الفعلية.

سادسًا: أن نواصي العباد بيد الله جل وعلا.

سابعًا: الحث علىٰ حسن الظن بالله.

س - بين ماتعرفه عن معنى الآية الثانية والثالثة والرابعة والخامسة من أدلة المعية الخاصة واذكر ما يؤخذ من كل واحدة من الفوائد؟

ج - في الآية الثانية: خطاب لموسىٰ وهارون أن لا يخافا بطش فرعون بهما، ومعاجلته لهما بالعقوبة قبل إتمام الدعوة وإظهار المعجزة وقوله: ﴿إنني معكما﴾ تعليل لموجب النهي، ومزيد تسلية لهما.

وقوله: ﴿أسمع وأرىٰ﴾ أي: أسمع كلامكما وكلامه، وأرىٰ مكانكما ومكانه، لا يخفىٰ عليّ من أمركم شيء، واعلما أن ناصيته بيدي فلا يتكلم ولا يتنفس ولا يبطش إلا بإذني، وبعد أمري وأنا معكما بحفظي ونصري وتأييدي، فلا تهتما.

ففي هذه الآية:

أولاً: إثبات المعية الخاصة لموسىٰ وهارون.

ثانيًا: الحث علىٰ الاعتماد علىٰ الله.

ثالثًا: إثبات السمع وهو من الصفات الذاتية.

رابعًا: إثبات البصر وهو من الصفات الذاتية.

خامسًا: إثبات قدرة الله وهي من الصفات الذاتية .

سادسًا: أن الخوفَ يَعْرض للرسل .

سابعًا: عناية الله بموسىٰ وهارون .

ثامنًا: في الآية ما يدل علىٰ شدة ظلم فرعون وعنفه وتمرده .

تاسعًا: في الآية تسلية لموسىٰ وهارون .

عاشرًا: أن نواصي العباد بيد الله جل وعلا وتقدس .

والآية الثانية: فقد تقدم تعريف التقوىٰ والإحسان . ومما يؤخذ من هذه الآية :

أولاً: إثبات الألوهية .

ثانيًا: معيته الخاصة للمتقين والمحسنين .

ثالثًا: أن التقوىٰ والإحسان سبب لحفظ الله ونصره وتأييده للعبد القائم بهما .

رابعًا: الحث علىٰ التقوىٰ والإحسان .

خامسًا: لطف الله بخلقه حيث دلهم علىٰ ما هو سبب لمعيته الخاصة .

الآية الرابعة: «الصبر»: حبس النفس علىٰ ما تكره تقربًا إلىٰ الله تعالىٰ: وهو ثلاثة أقسام: صبر علىٰ طاعة الله، وصبر عن معاصي الله، وصبر علىٰ أقدار الله المؤلمة، ففي هذه الآية :

أولاً: إثبات المعية الخاصة .

ثانيًا: الحث علىٰ الصبر .

ثالثًا: إثبات الألوهية .

رابعًا: أن الصبر سبب لحفظ الله ونصره، وتأييده لمن صبر، ووثق بالله وتوكل عليه .

خامسًا: لطف الله بخلقه حيث دلهم علىٰ ما هو سبب لمعيته الخاصة .

الآية الخامسة: «الفئة»: الجماعة «بإذن الله»: أي بقضائه وقدره وإرادته ومشيئته . وفي هذه الآية :

أولاً: المعية الخاصة.

ثانياً: الحث على الصبر المؤدي إلى التوكل والثقة بالله عند الشدائد ومدلهمات الحوادث والرجوع إليه إذا فدح الخطب، وعظم الأمر، فهو القادر على النصر والتأييد لمن أخلص له.

ثالثًا: إثبات قضاء الله وقدره وإرادته.

رابعًا: أن النصر من عند الله لا عن كثرة عدد ولا عُدَدٍ: وإنما تلك أسباب.

خامسًا: أن الصبر من أعظم الأسباب في تحصيل المقصود.

سادسًا: إثبات الألوهية.

سابعًا: إثبات قدرة الله.

ثامنًا: لطف الله بخلقه.

س ـ ما الذي تعرفه من الفروق بين المعية العامة والخاصة؟

ج ـ العامة: من مقتضاها:

أولاً: العلم والإحاطة والاطلاع على جميع الخلق.

ثانيًا: المعية العامة من الصفات الذاتية، وأما الخاصة فمن الصفات الفعلية.

ثالثًا: العامة تكون في سياق تخويف ومحاسبة على الأعمال وحث على المراقبة.

رابعًا: الخاصة: من مقتضاها الحفظ والعناية والنصرة والتوفيق والتسديد، والحماية من المهالك، واللطف بأنبيائه ورسله وأوليائه.

خامسًا: الخاصة مرتبة على الاتصاف بالأوصاف الجميلة والأخلاق الحميدة.

س ـ أذكر ما تستحضره من الأحاديث الدالة على المعية والقُرب؟

ج ـ قوله ﷺ: **«أفضل الإيمان أن تعلم أن الله معك أينما كنت»**، وقوله: **«إذا قام أحدكم إلى الصلاة فلا يبصق قبل وجهه فإن الله قبل وجهه، ولا عن يمينه ولكن عن يساره أو تحت قدمه»**.

وقوله: **«اللهم رب السموات السبع، ورب العرش العظيم، ربنا ورب كل شيء فالق**

الحب والنوى منزل التوراة والإنجيل والقرآن، أعوذ بك من شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها، أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقضِ عني الدين وأغنني من الفقر».

وقوله: لما رفع أصحابه أصواتهم بالذكر: «أيها الناس اربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصمَّ، ولا غائبًا، إنما تدعون سميعًا قريبًا، إن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته».

س ـ بين ما تعرفه عن معنى قوله ﷺ «أفضل الإيمان أن تعلم أن الله معك أينما كنت» وبين ما يؤخذ من الأحكام؟

ج ـ في هذا الحديث يبين لنا ﷺ فضل الإيمان وأنه يتفاضل، وأن بعض خصاله أفضل من بعض، ويحثنا على استحضار قرب الله واطلاعه ومعيته سبحانه وتعالى. وفي الحديث:

أولاً: دليل على المعية العامة وهي معية العلم والاطلاع والإحاطة.

ثانيًا: أن الإيمان يتفاضل.

ثالثًا: فضل عمل القلب.

رابعًا: أن أعمال القلوب داخلة في مسمى الإيمان.

خامسًا: أن بعض خصال الإيمان أفضل من بعض.

سادسًا: الرد على من زعم أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص.

سابعًا: أن الإحسان أكمل مراتب الدين، وهو أن تعبد الله كأنك تراه.

ثامنًا: الحث على ما يوجب خشية الله وتعظيمه وإخلاص العبادة له سبحانه وبذل الجهد في تحسينها وإتمامها فيجمع بين الإيمان بعلو الله واستحضار قربه.

تاسعًا: حرصه ﷺ على أمته وإرشادهم إلى ما ينفعهم.

س ـ كيف تجمع بين علو الله على خلقه ومعيته وقربه منهم؟

ج ـ أنه عال بذاته، معهم بعلمه وإحاطته واطلاعه.

س ـ بين ما تعرفه عن معنى قوله ﷺ «إذا قام أحدكم إلى الصلاة فلا يبصق قبل وجهه، فإن الله قبل وجهه، ولا عن يمينه، ولكن عن يساره أو تحت قدمه» واذكر ما فيه من أحكام؟

ج ـ في هذا الحديث يحث ﷺ على لزوم الأدب مع الله خصوصًا إذا دخل الإنسان في الصلاة التي هي أعظم صلة ومناجاة بين العبد وربه، فيخضع ويخشع ويعلم أنه واقف بين يدي الله فيقلل من الحركات ولا يسيء الأدب معه بالبصق أمامه أو عن يمينه، ولكن عن يساره أو تحت قدمه.

ففي هذا الحديث:

أولاً: الحث على استحضار قرب الله ومعيته.

ثانيًا: دليل على قرب الله من المصلِّي.

ثالثًا: فيه دليل على القيام في الصلاة.

رابعًا: فيه دليل على جواز العمل اليسير في الصلاة، وأنه لا يبطلها، وأن البصاق يجوز والإنسان يصلي.

خامسًا: إستحباب إزالة ما يستقذر وما يتنزه عنه في المسجد.

سادسًا: النهي عن البصاق قبل وجهه، وعن يمينه تشريفًا لها.

سابعًا: جواز البصاق تحت قدمه أو عن يساره، والمراد إذا كان خارجًا عن المسجد لأنه يلوث المسجد والمصلين إذا بزق فيه.

ثامنًا: لزوم الأدب مع الله خصوصًا في حال العبادة.

تاسعًا: إثبات الألوهية.

عاشرًا: إثبات الحفظة.

الحادي عشر: دليل على علو الله على خلقه.

الثاني عشر: رأفته ﷺ وحرصه على ما ينفع الأمة.

س ـ ما الذي تفهمه من معنى حديث «اللهم رب السموات السبع...» المتقدم قريبًا؟

ج ـ اشتمل هذا الحديث الجليل على التعليم الكامل لكيفية الثناء على الله عز وجل قبل سؤاله والاستعاذة به إذ هو صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث يثني على الله عز وجل بربوبيته التي عمَّت كل شيء.

ثم يعوذ ويعتصم به من شر نفسه ومن شر كل دابة هو أخذ بناصيتها.

ثم يتوسل إليه بأسمائه أن يقضي عنه دَيْنه ويغنيه من الفقر.

س ـ ما الذي يؤخذ من هذا الحديث؟

ج ـ فيه:

١ ـ إثبات ربوبيته تعالى.

٢ ـ إثبات ملكه تعالى.

٣ ـ الرد على القدرية الذين يزعمون إن العبد يخلق فعل نفسه، فإن ربوبيته العامة تشمل أفعال خلقه.

٤ـ إثبات أسماء الله: الأول والآخر والظاهر والباطن. إلخ وتقدم الكلام عليها موضحًا.

٥ ـ أن الله هو المنعم الحقيقي على كل الخلق بأصناف النعم.

٦ ـ تعليم النبي ﷺ أمته كيف تثني على الله قبل أن تسأل.

٧ ـ تقديم الثناء على الله.

٨ ـ فيه دليل على عظمة العرش.

٩ ـ أن العرش مخلوق لله.

١٠ ـ فيه دليل على عظمة الله.

١١ ـ إثبات قدرة الله.

١٢ ـ إثبات علو الله على خلقه.

١٣ ـ أن هذه الكتب منزلة من عند الله.

١٤ ـ الرد على من قال إنها مخلوقة .

١٥ ـ الالتجاء والاعتصام بالله .

١٦ ـ إثبات صفة الخلق لله .

١٧ ـ إثبات أولية الله سبحانه وسبقه لكل شيء .

١٨ ـ إثبات دوامه وبقائه .

١٩ ـ إثبات قربه ودنوه .

٢٠ ـ إثبات إحاطته .

٢١ ـ أن نواصي الدواب بيد الله آخذ بها .

٢٢ ـ عظم شأن الدَّين والفقر .

٢٣ ـ أن الله هو الذي وتطلب منه الأشياء .

٢٤ ـ أن النفس لها شر ولهذا أمر أن يستعيذ من شرها .

٢٥ ـ أن من أطاع نفسه أوقعته في المعصية .

٢٦ ـ أن الدواب فيها شر فلذا أمر أن يستعيذ من شرها .

٢٧ ـ أن الله آخذ بنواصي الدواب .

٢٨ ـ إنفراد الله بعلم المغيبات والأسرار .

٢٩ ـ طلب الغنى من الله .

٣٠ ـ أن الذي يقدر على قضاء الدَّين هو الله جل وعلا .

٣١ ـ سعة فضل الله وكرمه وجوده والحث على التأدب في السؤال .

٣٢ ـ بيان عدد السموات وأنها سبع .

٣٣ ـ الربوبية الخاصة وهي من الصفات الفعلية .

٣٤ ـ منع الوسائط الشركية بين العباد وبين الله .

٣٥ ـ إثبات الأفعال الاختيارية لله .

٣٦ ـ إثبات رحمة الله ورأفته بخلقه حيث بعث إليهم الرسل يدلونهم على ما فيه صلاحهم في أمر الدين والدنيا .

٣٧ ـ أن العرش أعظم وأكبر من السموات .

٣٨ ـ أن النبي ﷺ أعرف الخلق بربه وأحبهم له .

٣٩ ـ الحث على المراقبة .

٤٠ ـ في الحديث ما يدعو إلى محبة الرب جلّ وعلا وتعظيمه واستحقار الأعمال أمام جوده وكرمه وفضله المدرار .

س ـ ما الذي تعرفه عن معنى قوله ﷺ «أيها الناس أربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا إن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته» واذكر ما يؤخذ من الحديث من أحكام؟

ج ـ «أربعوا على أنفسكم» أي : ارفقوا بأنفسكم ، واخفضوا أصواتكم ، فإن رفع الصوت إنما يفعله الإنسان لبعد من يخاطبه ليسمعه وأنتم تدعون الله تعالى ، وليس هو بأصم ولا غائبًا بل سميع قريب ، وهو معكم بالعلم والإحاطة والاطلاع . ففي الحديث :

١ ـ الندب إلى خفض الصوت بالذكر إذا لم تدع الحاجة إلى رفعه .

٢ ـ الحكمة في ذلك أنه إذا خفضه كان قد أبلغ في التوقير والتعظيم كما جاءت به أحاديث .

٣ ـ دليل على قرب الله .

٤ ـ إثبات صفة السمع .

٥ ـ إثبات صفة البصر .

٦ ـ إثبات قرب الله ممن يتقرب منه بالدعاء ، وقربه سبحانه وتعالى نوعان : قرب إحاطة وعلم واطلاع ، وقرب من عابده وداعيه بالإثابة والإجابة ، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ :

وهو القريب وقربه المختص بالـ ... دَاعي وعابده على الإيمان

وهو المجيب يقول من يدعو أجبـ ... ـه أنا المجيب لكل من ناداني

وهو المجيب لدعوة المضطر إذ ... يدعوه في سر وفي إعلان

س ـ هل في لغة العرب ما يوجب أن «مع» تفيد اختلاطًا أو امتزاجًا أو مجاورة؟

ج ـ لغة العرب لا توجب أن «مع» تفيد اختلاطًا أو امتزاجًا أو مجاورة قال شيخ الإسلام: ليس معنىٰ قوله تعالىٰ ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ أنه مختلط بالخلق فإن هذا لا توجبه اللغة، وهو خلاف ما أجمع عليه السلف من الأمة وخلاف ما فطر الله عليه الخلق، بل القمر آية من آيات الله من أصغر مخلوقاته وهو موضوع في السماء وهو مع المسافر وفوق المسافر أينما كان.

وهو سبحانه فوق العرش رقيب علىٰ خلقه مهيمن عليهم مطلع إليهم إلىٰ غير ذلك من معاني ربوبيته. وكل هذا الكلام الذي ذكره الله أنه فوق العرش وأنه معنا حق علىٰ حقيقته لا يحتاج إلىٰ تحريف، قال ابن القيم ـ رحمه الله:

وكذاك قال الترمذي بجامعٍ	**عن بعض أهل العلم والإيمان**
الله فوق العرش لكن علمه	**مع خلقه تفسير ذي إيمان**

ولكن يصان عن الظنون الكاذبة مثل أن يظن أن ظاهر قوله: «في السماء» أن السماء تقله أو تظله.

وهذا باطل بإجماع أهل العلم والإيمان، فإن الله قد وسع كرسيه السموات والأرض، وهو الذي يمسك السموات والأرض أن تزولا، ويمسك السماء أن تقع علىٰ الأرض إلا بإذنه، ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره. اهـ.

فيجب علىٰ المسلم قبول هذه النصوص المتقدمة، وتنزيهها عن الدلالة علىٰ تشبيه أو أن يفهم منها مالا يليق به.

س ـ ما الكلام الذي قاله ابن القيم حول هذا المبحث الذي يتعلق بـ «مع»؟

ج ـ قال رحمه الله: ليس ظاهر اللفظ ولا حقيقته أنه مختلط بالمخلوقات ممتزج بها، ولا تدل لفظة «مع» علىٰ هذا بوجه من الوجوه فضلاً عن أن يكون هو حقيقة اللفظ وموضوعه، فإن «مع» في كلامهم للصحبة اللائقة.

وهي تختلف باختلاف متعلقاتها ومصحوبها، فكون نفس الإنسان معه لون وكون علمه وقدرته وقوته معه لون، وكون زوجته معه لون، وكون أميره ورئيسه معه لون، وكون ماله معه لون.

فالمعية ثابتة في هذا كله مع تنوعها واختلافها. فيصح أن يقال: زوجته معه وبينهما شقة بعيدة، وكذا يقال: فلان معه دار كذا وضيعة كذا.

فتأمل نصوص المعية كقوله تعالىٰ: ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾ ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ ﴿لَن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا﴾ ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ ﴿وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾.

وأضعاف ذلك هل يقتضي موضع واحد منها مخالطة ما في الذوات التصاقًا وامتزاجًا، فكيف تكون حقيقة المعية في حق الرب تعالىٰ عن ذلك، حتىٰ يدعي أنها مجاز لا حقيقة؟ فليس في ذلك ما يدل علىٰ أن ذاته تعالىٰ فيهم، ولا ملاصقة لهم ولا مخالطة ولا مجاورة بوجه من الوجوه.

وغاية ما تدل عليه «مع» المصاحبة والموافقة والمقارنة في أمر من الأمور وذلك اقتران في كل مقام بحسبه، يلزمه لوازم بحسب متعلقه، فإذا قيل الله بطريق العموم كان من لوازم ذلك علمه بهم وتدبيره لهم وقدرته عليهم.

وإذا كان ذلك خاصًا كقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾: كان من لوازم ذلك معيته لهم بالنصرة والتأييد والمعونة، فعلوه سبحانه لا يناقض معيته، ومعيته لا تبطل علوه بل كلاهما حق، انتهىٰ.

* * *

[صفة الكلام]

وقوله: ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧].

﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً﴾ [النساء: ١٢٢].

وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١١٦].

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً﴾ [الأنعام: ١١٥].

وقوله: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤].

﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

﴿وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ [مريم: ٥٢].

وقوله: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠].

﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ﴾ [الأعراف: ٢٢].

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص: ٦٢].

وقوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥].

• الشَّرح •

● قال الشيخ محمد خليل هراس:

تضمنت هذه الآيات إثبات صفة الكلام لله عز وجل.

وقد تنازع الناس حول هذه المسألة نزاعًا كبيرًا. فمنهم من جعل كلامه سبحانه مخلوقًا منفصلاً منه. وقال: إن معنىٰ متكلم: خالق للكلام وهم المعتزلة. ومنهم من جعله لازمًا لذاته أزلاً وأبدًا لا يتعلق بمشيئته وقدرته ونفىٰ عنه الحرف والصوت وقال: إنه معنىٰ واحد في الأزل، وهم الكلابية والأشعرية.

ومنهم من زعم أنه حروف وأصوات قديمة لازمة لذاته، وقال: إنها مقترنة في الأزل، فهو سبحانه لا يتكلم بها شيئًا بعد شيء وهم بعض الغلاة.

ومنهم من جعله حادثًا قائمًا بذاته تعالىٰ ومتعلقًا بمشيئته وقدرته ولكن زعم أن له ابتداء في ذاته وأن الله لم يكن متكلمًا في الأزل، وهم الكرامية. ويطول بنا القول لو اشتغلنا بمناقشة هذه الأقوال وإفسادها علىٰ أن فسادها بين لكل ذي فهم سليم ونظر مستقيم.

وخلاصة مذهب أهل السنة والجماعة في هذه المسألة أن الله تعالىٰ لم يزل متكلمًا إذا شاء، وأن الكلام صفة له قائمة بذاته يتكلم بها بمشيئته وقدرته، فهو لم يزل ولا يزال متكلمًا إذا شاء وما تكلم الله به فهو قائم به ليس مخلوقًا منفصلاً عنه كما تقول المعتزلة ولا لازمًا لذاته لزوم الحياة لها كما تقول الأشاعرة بل هو تابع لمشيئته وقدرته.

والله سبحانه نادىٰ موسىٰ بصوت ونادىٰ آدم وحواء بصوت، وينادي عباده يوم القيامة بصوت ويتكلم بالوحي بصوت، ولكن الحروف والأصوات التي تكلم الله بها صفة له غير مخلوقة ولا تشبه أصوات المخلوقين وحروفهم، كما أن علم الله القائم بذاته ليس مثل علم عباده، فإن الله لا يماثل المخلوقين في شيء من صفاته.

والآيتان الأوليان هنا وهما من سورة النساء تنفيان أن يكون أحد أصدق حديثًا وقولاً من الله عز وجل بل هو سبحانه أصدق من كل أحد في كل ما يخبر به، وذلك لأن علمه بالحقائق المخبر عنها أشمل وأضبط، فهو يعلمها علىٰ ما هي به من كل وجه، وعلم غيره ليس كذلك.

وأما قوله: ﴿وإذ قال الله يا عيسى﴾ إلخ: فهو حكاية لما سيكون يوم القيامة من سؤال الله لرسوله وكلمته عيسىٰ عما نسبه إليه الذين ألهوه وأمه من النصارىٰ من أنه

هو الذي أمرهم بأن يتخذوه وأمه إلهين من دون الله. وهذا السؤال لإظهار براءة عيسىٰ عليه السلام وتسجيل الكذب والبهتان علىٰ هؤلاء الضالين الأغبياء.

وأما قوله: ﴿وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا﴾: فالمراد صدقًا في أخباره وعدلاً في أحكامه؛ لأن كلامه تعالىٰ إما إخبار وهي كلها في غاية الصدق، وإما أمر ونهي وكلها في غاية العدل الذي لا جور فيه لابتنائها علىٰ الحكمة والرحمة، والمراد بالكلمة هنا الكلمات لأنها أضيفت إلىٰ معرفة فتفيد معنىٰ الجمع كما في قولنا: رحمة الله ونعمة الله.

وأما قوله: ﴿وكلم الله موسى تكليما﴾: وما بعدها من الآيات التي تدل علىٰ أن الله قد نادىٰ موسىٰ وكلمه تكليمًا، وناجاه حقيقة من وراء حجاب وبلا واسطة ملك، فهي ترد علىٰ الأشاعرة الذين يجعلون الكلام معنىٰ قائمًا بالنفس بلا حرف ولا صوت، فيقال لهم: كيف سمع موسىٰ هذا الكلام النفسي؟ فإن قالوا ألقىٰ الله في قلبه علمًا ضروريًا بالمعاني التي يريد أن يكلمه بها لم يكن هناك خصوصية لموسىٰ في ذلك، وإن قالوا: إن الله خلق كلامًا في الشجرة أو في الهواء ونحو ذلك لزم أن تكون الشجرة هي التي قالت لموسىٰ: ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾

وكذلك ترد عليهم هذه الآيات في جعلهم الكلام معنىٰ واحدًا في الأزل لا يحدث منه في ذاته شيء، فإن الله يقول: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ فهي تفيد حدوث الكلام عند مجيء موسىٰ للميقات، ويقول: ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ فهذا يدل علىٰ حدوث النداء عند جانب الطور الأيمن، والنداء لا يكون إلا صوتًا مسموعًا. وكذلك قوله تعالىٰ في شأن آدم وحواء: ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا﴾، الآية، فإن هذا النداء لم يكن إلا بعد الوقوع في الخطيئة فهو حادث قطعًا. وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ إلخ: فإن هذا النداء والقول سيكون يوم القيامة، وفي الحديث: «ما من عبد إلا سيكلمه الله يوم القيامة ليس بينه وبينه ترجمان»[1].

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٣٤٧)، ومسلم (١٠١٦) من حديث عديٍّ بن حاتم رضي الله عنه.

● قال الشيخ ابن العثيمين:

ذكر المؤلف ـ رحمه الله ـ الآيات الدالة على كلام الله تعالى وأن القرآن من كلامه تعالى.

الآية الأولى، والثانية: قوله: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧]، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢].

﴿وَمَنْ﴾: اسم استفهام بمعنى النفي، وإتيان النفي بصيغة الاستفهام أبلغ من إتيان النفي مجردًا؛ لأنه يكون بالاستفهام مشربًا معنى التحدي؛ كأنه يقول: لا أحد أصدق من الله حديثًا، وإذا كنت تزعم خلاف ذلك؛ فمن أصدق من الله؟

وقوله: ﴿حَدِيثًا﴾ و ﴿قِيلًا﴾: تمييز لـ ﴿أَصْدَقُ﴾.

وإثبات الكلام في هاتين الآيتين يؤخذ من: قوله: ﴿أَصْدَقُ﴾؛ لأن الصدق يوصف به الكلام، وقوله: ﴿حَدِيثًا﴾؛ لأن الحديث هو الكلام، ومن قوله في الآية الثانية: ﴿قِيلًا﴾؛ يعني: قولًا، والقول لا يكون إلا باللفظ.

ففيهما إثبات الكلام لله عز وجل، وأن كلامه حق وصدق، ليس فيه كذب بوجه من الوجوه.

الآية الثالثة: قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١١٦].

قوله: ﴿يَا عِيسَى﴾: مقول القول، وهي جملة من حروف: ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾.

ففي هذا إثبات أن الله يقول، وأن قوله مسموع، فيكون بصوت، وأن قوله كلمات وجمل، فيكون بحرف.

ولهذا كانت عقيدة أهل السنة والجماعة: أن الله يتكلم بكلام حقيقي متى شاء، كيف شاء، بما شاء، بحرف وصوت، لا يماثل أصوات المخلوقين.

«متى شاء»: باعتبار الزمن.

«بما شاء»: باعتبار الكلام؛ يعني: موضوع الكلام من أمر أو نهي أو غير ذلك.

«كيف شاء»: يعني على الكيفية والصفة التي يريدها سبحانه وتعالى.

قلنا: إنه بحرف وصوت لا يشبه أصوات المخلوقين

الدليل على هذا من الآية الكريمة ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ هذا حروف. وبصوت؛ لأن عيسى يسمع ما قال.

لا يماثل أصوات المخلوقين؛ لأن الله قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

الآية الرابعة: قوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً﴾ [الأنعام: ١١٥].

﴿كَلِمَتُ﴾: بالإفراد، وفي قراءة (كلمات)؛ بالجمع، ومعناها واحد؛ لأن ﴿كَلِمَتَ﴾ مفرد مضاف فيعم.

تمت كلمات الله عز وجل على هذين الوصفين: الصدق والعدل، والذي يوصف بالصدق الخبر، والذي يوصف بالعدل الحكم، ولهذا قال المفسرون: صدقًا في الأخبار، وعدلا في الأحكام.

فكلمات الله عز وجل في الأخبار صدق لا يعتريها الكذب بوجه من الوجوه، وفي الأحكام عدل لا جور فيها بوجه من الوجوه.

هنا وصفت الكلمات بالصدق والعدل. إذًا؛ فهي أقوال؛ لأن القول هو الذي يقال فيه: كاذب أو صادق.

الآية الخامسة: قوله: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤].

﴿اللَّهُ﴾: فاعل؛ فالكلام واقع منه.

﴿تَكْلِيمًا﴾: مصدر مؤكد، والمصدر المؤكد ـ بكسر الكاف ـ؛ قال العلماء: إنه ينفي احتمال المجاز. فدل على أنه كلام حقيقي؛ لأن المصدر المؤكد ينفي احتمال المجاز.

أرأيت لو قلت: جاء زيد. فيفهم أنه جاء هو نفسه، ويحتمل أن يكون المعنى: جاء خبر زيد، وإن كان خلاف الظاهر، لكن إذا أكدت فقلت: جاء زيد نفسه. أو: جاء زيدٌ زيدٌ. انتفى احتمال المجاز.

فكلام الله عز وجل لموسى كلام حقيقي بحرف وصوت سمعه، ولهذا جرت بينهما محاورة؛ كما في سورة طه وغيرها.

الآية السادسة: قوله: ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

﴿مِّنْهُم﴾: أي: من الرسل.

﴿مَّن كَلَّمَ اللَّهُ﴾: الاسم الكريم ﴿اللَّهُ﴾ فاعل كلم، ومفعولها محذوف يعود على ﴿مَّن﴾، والتقدير: كلمه الله.

الآية السابعة: قوله: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

أفادت هذه الآية أن الكلام يتعلق بمشيئته؛ وذلك لأن الكلام صار حين المجيء، لا سابقًا عليه، فدل هذا على أن كلامه يتعلق بمشيئته.

فيبطل به قول من قال: إن كلامه هو المعنى القائم بالنفس، وإنه لا يتعلق بمشيئته؛ كما تقوله الأشاعرة.

وفي هذه الآية إبطال من زعم أن موسى فقط هو الذي كلم الله، وحرف قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]. إلى نصب الاسم الكريم؛ لأنه في هذه الآية لا يمكنه زعم ذلك ولا تحريفها.

الآية الثامنة: قوله: ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ [مريم: ٥٢].

﴿وَنَادَيْنَاهُ﴾: ضمير الفاعل يعود إلى الله، وضمير المفعول يعود إلى موسى؛ أي: نادى الله موسى.

و ﴿نَجِيًّا﴾: حال، وهو فعيل بمعنى مفعول؛ أي: مناجى.

والفرق بين المناداة والمناجاة أن المناداة تكون للبعيد والمناجاة تكون للقريب وكلاهما كلام.

وكون الله عز وجل يتكلم مناداة ومناجاة داخل في قول السلف: «كيف شاء».

فهذه الآية مما يدل على أن الله يتكلم كيف شاء مناداة كان الكلام أو مناجاة.

الآية التاسعة: قوله: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠].

﴿وَإِذْ نَادَىٰ﴾: يعني: واذكر إذ نادى.

والشاهد قوله: ﴿رَبُّكَ مُوسَىٰ﴾: فسر النداء بقوله: ﴿أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.
فالنداء يدل على أنه بصوت، و ﴿أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾: يدل على أنه بحرف.
الآية العاشرة: قوله: ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ﴾ [الأعراف: ٢٢].

﴿وَنَادَاهُمَا﴾: ضمير المفعول به يعود على آدم وحواء.

﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ﴾: يقرر أنه نهاهما عن تلكما الشجرة، وهذا يدل على أن الله كلمهما من قبل، وأن كلام الله بصوت وحرف، ويدل على أنه يتعلق بمشيئته؛ لقوله: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا﴾؛ فإن هذا القول بعد النهي، فيكون متعلقًا بالمشيئة.

الآية الحادية عشرة: قوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥].

يعني: واذكر يوم يناديهم، وذلك يوم القيامة، والمنادي هو الله عز وجل: ﴿فَيَقُولُ﴾.

وفي هذه الآية إثبات الكلام من وجهين: النداء والقول.

وهذه الآيات تدل بمجموعها على أن الله يتكلم بكلام حقيقي، متى شاء، بما شاء، كيف شاء، بحرف وصوت مسموع، لا يماثل أصوات المخلوقين.

وهذه هي العقيدة السلفية عقيدة أهل السنة والجماعة.

● قال الشيخ صالح الفوزان:

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ﴾: أي: لا أحد أصدق منه سبحانه، فهو استفهام إنكاري ﴿حَدِيثًا﴾ أي: في حديثه وخبره وأمره ووعده ووعيده، وقوله: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ القيل: مصدر قال كالقول، أي: لا أحد أصدق قولاً من الله عز وجل.

والشاهد من الآيتين الكريمتين: أن فيهما إثبات الحديث والقيل لله سبحانه،

ففيهما إثبات الكلام له سبحانه.

وقوله تعالى: ﴿وإذْ قَالَ اللَّهُ يا عيسى ابْنَ مَرْيَم﴾: أي: اذكر ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ﴾ وجمهور المفسرين ذهب إلى أن هذا القول منه سبحانه يكون يوم القيامة، وهو توبيخ للذين عبدوا المسيح وأمه من النصارى، وهي كالآيتين السابقتين، فيها إثبات القول لله تعالى وأنه يقول إذا شاء.

وقوله: ﴿وتمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وعَدْلاً﴾ المراد بالكلمة كلامه سبحانه.

وقوله: ﴿صِدْقًا﴾: أي: في أخباره سبحانه ﴿وَعَدْلاً﴾ أي: في أحكامه، ﴿صِدْقًا وَعَدْلاً﴾ منصوبًا على التمييز، وفي الآية إثبات الكلام لله تعالى. وقوله: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ هذا تشريف لموسى عليه السلام بأن الله كلمه، أي: أسمعه كلامه؛ ولهذا يقال له: الكليم، و ﴿تَكْلِيمًا﴾ مصدر مؤكد لدفع كون التكليم مجازًا. ففي الآية إثبات الكلام لله، وأنه كلم موسى عليه السلام.

وقوله تعالى: ﴿مِنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ﴾: أي: من الرسل عليهم الصلاة والسلام ﴿مَّن كَلَّمَ اللَّهُ﴾ أي: أسمعه كلامه بلا واسطة، يعني: موسى ومحمدًا عليهما الصلاة والسلام، وكذا آدم، كما ورد به الحديث في [صحيح ابن حبان]، ففي الآية: إثبات الكلام لله تعالى، وأنه كلم بعض الرسل[1].

وقوله تعالى: ﴿ولَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا﴾: أي: حصل مجيئه في الوقت الذي واعده الله فيه ﴿وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ أي: أسمعه كلامه من غير واسطة، فالآيات فيها إثبات الكلام لله، وأنه يتكلم متى شاء سبحانه، وأنه كلم موسى عليه السلام بلا واسطة.

وقوله تعالى: ﴿وَنَادَيْنَاهُ﴾: أي: نادى الله تعالى موسى عليه السلام، والنداء: هو الصوت المرتفع ﴿مِن جَانِبِ الطُّورِ﴾ الطور: جبل بين مصر ومدين ﴿الأَيْمَنِ﴾ أي: الجانب الأيمن من موسى حين ذهب يبتغي من النار التي رآها جذوة، وليس المراد أيمن الجبل نفسه، فإن الجبال لا يمين لها ولا شمال. ﴿وَقَرَّبْنَاهُ﴾ أي: أدنيناه حتى كلمناه، ﴿نَجِيًّا﴾ أي: مناجيًا، والمناجاة ضد المناداة.

---

(١) أخرجه ابن حبان كما في «تفسير ابن كثير» (١/ ٣٠٥) من حديث أبي ذر ـ رضي الله عنه.

وفي الآية الكريمة: إثبات الكلام لله تعالىٰ، وأنه ينادي ويناجي، وهما نوعان من الكلام، فالمناداة: بصوت مرتفع، والمناجاة: بصوت غير مرتفع.

وقوله: ﴿وإذ نادى ربك موسى﴾: أي: واتل، أو: اذكر ذلك ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ﴾ النداء: هو الدعاء ﴿أَنِ ائْتِ﴾: ﴿أَنِ﴾ يجوز أن تكون مفسرة، وأن تكون مصدرية، أي: اذهب إلىٰ ﴿الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ وصفهم بالظلم؛ لأنهم جمعوا بين الكفر الذي ظلموا به أنفسهم وبين المعاصي التي ظلموا بها غيرهم كاستعبادهم بني إسرائيل وذبح أبناءهم. وفي الآية الكريمة: إثبات الكلام لله تعالىٰ، وأنه ينادي من شاء من عباده ويسمعه كلامه.

﴿وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة﴾: أي: نادىٰ الله تعالىٰ آدم وحواء عليهما السلام قائلاً لهما: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ﴾ أي: عن الأكل منها، وهذا عتاب من الله لهما وتوبيخ حيث لم يحذرا ما حذرهما منه. وفي الآية الكريمة: إثبات الكلام لله تعالىٰ والنداء منه لآدم وزوجه.

وقوله تعالى: ﴿ويوم يناديهم﴾: أي: ينادي الله سبحانه هؤلاء المشركين يوم القيامة ﴿فَيَقُولُ﴾ لهم ﴿مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ أي: ما كان جوابكم لمن أرسل إليكم من النبيين لما بلغوكم رسالاتي.

والشاهد من الآية: إثبات الكلام لله، وأنه ينادي يوم القيامة.

* * *

[أسئلة وأجوبة نموذجية على صفة الكلام]

● قال الشيخ عبد العزيز المحمد السلمان:

س ـ ما هو الإيمان بصفة الكلام لله عز وجل؟

ج ـ هو الاعتقاد الجازم بأن الله متكلم بكلام قديم النوع، حادث الآحاد، وأنه لم يزل يتكلم، ولا يزال يتكلم إذا شاء كيف شاء، وأنه يتكلم بحرف وصوت بكلام يسمعه من شاء من خلقه، سمعه موسىٰ عليه السلام من الله من غير واسطة، ومن أذن له من ملائكته ورسله ويكلم المؤمنين ويكلمونه في الآخرة.

س ـ ما هي الأدلة الدالة على أن الله متكلم من الكتاب والسنة؟

ج ـ قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً﴾ ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً﴾ ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ﴾.

﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا﴾ ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾. إلىٰ غير ذلك من الأدلة.

وأما من السُّنة فقوله ﷺ: «يقول الله: يا آدم، فيقول: لبيك وسعديك، فينادي بصوت: إنَّ الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثًا إلى النار» وقوله: «ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان» وفي الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إذا قضى الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانًا لقوله كأنه سلسلة على صفوان ينفذهم ذلك».

س ـ ما الذي تعرفه مما تضمنته الآيات والأحاديث؟

ج ـ فيها أولاً: إثبات صفة الكلام.

ثانيًا: أنها صفة له قائمة بذاته يتكلم بها بمشيئته وقدرته.

ثالثًا: الرد على من زعم أن كلام الله هو المعنى النفسي لأن الكلام النفسي لا يُسْمع.

رابعًا: فيها إثبات القول.

خامسًا: إثبات النداء.

سادسًا: إثبات المناجاة.

سابعًا: إثبات الألوهية.

ثامنًا: إثبات الربوبية الخاصة.

تاسعًا: إثبات قرب موسى عند مناجاة الله.

عاشرًا: أنه لا أحد أصدق من الله قولاً ولا خبرًا.

الحادي عشر: تخصيص موسى بهذه الصفة تشريفًا له.

الثاني عشر: أنه ليس لكلمات الله مبدل فلا معقب لحكمه لا في الدنيا، ولا في الآخرة.

الثالث عشر: أنه سبحانه تكلم حقيقة لأنه أكَّده بالمصدر.

الرابع عشر: فضيلة آدم وحواء.

الخامس عشر: إثبات الرسالة.

السادس عشر: أن الله يتكلم بحرف وصوت.

السابع عشر: أن النداء والقول يكون يوم القيامة، وهو دليل على ثبوت الأفعال

الاختيارية.

الثامن عشر: تخصيص آدم بذلك لكونه والد الجميع، ولكونه كان قد عَرَّفه الله أهل السعادة من أهل الشقاوة فقد رآه النبي ﷺ ليلة الإسراء وعن يمينه أسودة وعن يساره أسودة. . . . ـ الحديث ـ قال ابن القيم:

والله ربي لم يزل متكلمًا ... وكلامه المسموع بالآذان

صدقًا وعدلاً أحكمت كلماته ... طلبًا وإخبارًا بلا نقصان

س ـ وضح نوعي كلام الله: الذي بواسطة، والذي بغير واسطة. والكوني القدري، والديني الشرعي، مع ذكر الآيات الدالة عليه؟

ج ـ **النوع الأول**: ما كان بلا واسطةٍ، فككلامه لموسىٰ ولآدم وحواء وجبريل.

والنوع الثاني: ما كان بواسطة إما بالوحي للأنبياء، وأما بإرساله إليهم رسولاً يكلمهم من أمره بما شاء.

قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾.

وأما الكوني القدري: فهوالذي توجد به الأشياء فكقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾.

وكقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾.

وأما الديني الشرعي فكقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ وكقوله: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ والشرعي هو الذي منه الكتب المنزلة علىٰ رسل الله عليهم الصلاة والسلام.

* * *

[القرآن كلام الله تعالى]

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ﴾

[التوبة: ٦].

﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥].

﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لا يَفْقَهُونَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الفتح: ١٥].

﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ [الكهف: ٢٧].

وقوله: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النمل: ٧٦].

﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ [الأنعام: ١٥٥].

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾

[الحشر: ٢١].

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (١٠١) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ (١٠٢) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾

[النحل: ١٠١-١٠٣].

• الشَّرح •

● قال الشيخ محمد خليل هراس:

قوله: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ إلخ: هذه الآيات الكريمة تفيد أن القرآن المتلو المسموع المكتوب بين دفتي المصحف هو كلام الله على الحقيقة وليس فقط عبارة أو حكاية عن كلام الله كما يقوله الأشعرية، وإضافته إلى الله عز وجل تدل على أنه صفة له قائمة به وليست كإضافة البيت أو الناقة فإنها إضافة معنى إلى الذات تدل على ثبوت المعنى لتلك الذات، بخلاف إضافة البيت أو الناقة فإنها إضافة أعيان وهذا يرد على المعتزلة في قولهم: إنه مخلوق منفصل عن الله، ودلت هذه الآيات أيضًا على أن القرآن منزل من عند الله بمعنى أن الله تكلم به بصوت سمعه جبريل عليه السلام، فنزل به وأداه إلى رسول الله ﷺ كما سمعه من الرب جل شأنه.

وخلاصة القول في ذلك: أن القرآن العربي كلام الله منزل غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود. والله تكلم به على الحقيقة، فهو كلامه حقيقة لا كلام غيره، وإذا قرأ الناس القرآن أو كتبوه في المصاحف لم يخرجه ذلك عن أن يكون كلام الله، فإن الكلام إنما يضاف حقيقة إلى من قاله مبتدئًا لا إلى من بلغه مؤديًا والله تكلم بحروفه ومعانيه بلفظ نفسه ليس شيء منه كلامًا لغيره لا لجبريل ولا لمحمد ولا لغيرهما والله تكلم به أيضًا بصوت نفسه، فإذا قرأه العباد قرأوه بصوت أنفسهم، فإذا قال القارئ مثلاً: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ كان هذا الكلام المسموع منه كلام الله لا كلام نفسه وكان هو قرأه بصوت نفسه لا بصوت الله.

وكما أن القرآن كلام الله فكذلك هو كتابه لأنه كتبه في اللوح المحفوظ ولأنه مكتوب في المصاحف قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ﴾ وقال: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ (٢١) فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ وقال: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ (١٣) مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾.

والقرآن في الأصل مصدر كالقراءة، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ

مَشْهُودًا﴾.

ويراد به هنا :أن يكون علمًا على هذا المنزل من عند الله المكتوب بين دفتي المصحف المتعبد بتلاوته المتحدىٰ بأقصر سورة منه.

وقوله: ﴿قل نزله روح القدس من ربك بالحق﴾: يدل علىٰ أن ابتداء نزوله من عند الله عز وجل، وأن روح القدس جبريل عليه السلام تلقاه عن الله سبحانه بالكيفية التي يعلمها.

● قال الشيخ ابن عثيمين:

ثم ذكر المؤلف ـ رحمه الله ـ الآيات الدالة علىٰ أن القرآن كلام الله.

وهذه المسألة وقع فيها النزاع الكثير بين المعتزلة وأهل السنة، وحصل بها شر كثير علىٰ أهل السنة، وممن أوذي في الله في ذلك الإمام أحمد بن حنبل ـ رحمه الله ـ إمام أهل السنة، الذي قال فيه بعض العلماء: «إن الله سبحانه وتعالىٰ حفظ الإسلام ـ أو قال: نصره ـ بأبي بكر يوم الردة، وبالإمام أحمد يوم المحنة».

والمحنة: هو أن المأمون عفا الله عنا وعنه أجبر الناس علىٰ أن يقولوا بخلق القرآن، حتىٰ إنه صار يمتحن العلماء ويقتلهم إذا لم يجيبوا، وأكثرا العلماء رأوا أنهم في فسحة من الأمر، وصاروا يتأولون:

إما بأن الحال حال إكراه، والمكره إذا قال الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان، فإنه معفو عنه.

وإما بتنزيل اللفظ علىٰ غير ظاهره، يتأولون، فيقولون مثلا: القرآن والتوراة والإنجيل والزبور، هذه مخلوقة. وهو يتأول أصابعه.

أما الإمام أحمد ومحمد بن نوح ـ رحمهما الله ـ فأبيا ذلك، وقالا: القرآن كلام الله منزل غير مخلوق. ورأيا أن الإكراه في هذا المقام لا يسوغ لهما أن يقولا خلاف الحق؛ لأن المقام مقام جهاد، والإكراه يقتضي العفو إذا كانت المسألة شخصية؛ بمعنىٰ: أن تكون علىٰ الشخص نفسه. أما إذا كانت المسألة لحفظ شريعة الله؛ فالواجب أن يتبرع الإنسان برقبته لحفظ شريعة الله عز وجل.

لو قال الإمام أحمد في ذلك الوقت: القرآن مخلوق، ولو بتأويل أو لدفع الإكراه؛ لقال الناس كلهم: القرآن مخلوق! وحينئذ يتغير المجتمع الإسلامي من أجل دفع الإكراه، لكنه صمم، فصارت العاقبة له، ولله الحمد.

المهم أن القول في القرآن جزء من القول في كلام الله على العموم، لكن لما وقعت فيه المحنة، وصار محل النزاع بين المعتزلة وأهل السنة؛ صار الناس يفردون القول في القرآن بكلام خاص.

والمؤلف - رحمه الله - من الآن ساق الآيات الدالة على أن القرآن كلام الله في آيات متعددة.

قوله: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦].

﴿أَحَدٌ﴾: هذه اسم، و (إن): أداة الشرط، والاسم إذا ولي أداة الشرط؛ فقد ولي أداة لا يليها إلا الفعل، فاختلف النحويون في هذا:

فقال بعضهم: إنه فاعل لفعل محذوف يفسره ما بعده، وعليه يكون ﴿أَحَدٌ﴾ فاعل لفعل محذوف، والتقدير: وإن استجارك أحد من المشركين؛ فأجره، ومثلها: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١]؛ فـ ﴿السَّمَاءُ﴾: فاعل لفعل محذوف، والتقدير: إذا انشقت السماء.

القول الثاني: وهو قول الكوفيين وهم في الغالب أسهل من البصريين: أن: ﴿أَحَدٌ﴾ فاعل مقدم، والفعل ﴿اسْتَجَارَ﴾ مؤخر، ولا حاجة للتقدير.

والقول الثالث: أن ورود الأسماء بعد أدوات الشرط في القرآن كثيرًا يدل على عدم امتناعه، وعلى هذا القول يكون الاسم الواقع بعد أداة الشرط مبتدأ إذا كان مرفوعًا، فيكون ﴿أَحَدٌ﴾: مبتدأ، و ﴿اسْتَجَارَكَ﴾: خبر المبتدأ.

والقاعدة عندي أن ما كان أسهل من أقوال النحويين؛ فهو المتبع، حيث لا مانع شرعًا من ذلك.

قوله: ﴿اسْتَجَارَكَ﴾: أي: طلب جوارك، والجوار: بمعنى العصمة والحماية.

﴿حتى يسمع﴾: ﴿حتى﴾ للغاية؛ والمعنى: إن أحد استجارك ليسمع كلام الله؛ فأجره حتى يسمع كلام الله؛ أي: القرآن، وهذا بالاتفاق.

وإنما قال: ﴿فأجره حتى يسمع كلام الله﴾؛ لأن سماع كلام الله عز وجل مؤثر ولا بد كما قال تعالى: ﴿**إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد**﴾ [ق: ٣٧]. وكم من إنسان سمع كلام الله فآمن، لكن بشرط أن يكون يفهمه تمامًا.

قوله: ﴿كَلَامَ اللَّهِ﴾: أضاف الكلام إلى نفسه، فقال: ﴿**كَلَامَ اللَّهِ**﴾، فدل هذا على أن القرآن كلام الله، وهو كذلك.

وعقيدة أهل السنة والجماعة في القرآن؛ يقولون: إن القرآن كلام الله، منزل، غير مخلوق، منه بدأ، وإليه يعود.

قولهم: «كلام الله»: دليله: قوله تعالى هنا: ﴿**فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ**﴾، وبما يأتي من الآيات: .

وقولهم: «مُنزَّل» دليله: قوله تعالى: ﴿**شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ**﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقوله: ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ**﴾ [القدر: ١]، وقوله: ﴿**وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا**﴾ [الإسراء: ١٠٦].

وقولهم: «غير مخلوق»: دليله: قوله تعالى: ﴿**أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ**﴾ [الأعراف: ٥٤]؛ فجعل الخلق شيئًا، والأمر شيئًا آخر؛ لأن العطف يقتضي المغايرة، والقرآن من الأمر؛ بدليل قوله تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ [الشورى: ٥٢]؛ فإذا كان القرآن أمرًا، وهو قسيم للخلق؛ صار غير مخلوق؛ لأنه لو كان مخلوقًا؛ ما صح التقسيم. وهذا دليل سمعي.

أما الدليل العقلي فنقول: القرآن كلام الله، والكلام ليس عينًا قائمة بنفسها حتى يكون بائنًا من الله، ولو كان عينًا قائمة بنفسها بائنة من الله؛ لقلنا: إنه مخلوق، لكن الكلام صفة للمتكلم به، فإذا كان صفة للمتكلم به، وكان من الله؛ كان غير مخلوق؛ لأن صفات الله عز وجل كلها غير مخلوقة.

وأيضًا؛ لو كان مخلوقًا؛ لبطل مدلول الأمر والنهي والخبر والاستخبار؛ لأن هذه الصيغ لو كانت مخلوقة؛ لكانت مجرد أشكال خلقت على هذه الصورة لا دلالة لها على معناها؛ كما يكون شكل النجوم والشمس والقمر ونحوهما.

وقولهم: «منه بدأ»: أي: هو الذي ابتدأ به، وتكلم به أولا.

والقرآن أُضيف إلى الله، وإلى جبريل، وإلى محمد ﷺ:

مثال الأول: قوله الله عز وجل: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، فيكون منه بدأ؛ أي: من الله جل جلاله، ومنه: حرف جر وضمير قدم على عامله لفائدة الحصر والاختصاص.

ومثال الثاني ـ إضافته إلى جبريل ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير: ١٩، ٢٠].

ومثال الثالث ـ إضافته إلى محمد عليه الصلاة والسلام ـ: قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾ [الحاقة: ٤٠، ٤١]، لكن أُضيف إليهما لأنهما يبلغانه، لا لأنهما ابتدأاه.

ـ وقولهم: «وإليه يعود»: في معناه وجهان:

الأول: أنه كما جاء في بعض الآثار: يسري عليه في ليلة، فيصبح الناس ليس بين أيديهم قرآن؛ لا في صدورهم، ولا في مصاحفهم، يرفعه الله عز وجل[1].

وهذا ـ والله أعلم ـ حينما يعرض عنه الناس إعراضًا كليًّا؛ لا يتلونه لفظًا ولا عقيدة ولا عملا، فإنه يرفع؛ لأن القرآن أشرف من أن يبقى بين يدي أناس هجروه وأعرضوا عنه فلا يقدرونه قدره، وهذا ـ والله أعلم ـ نظير هدم الكعبة في آخر الزمان[2]؛ حيث يأتي رجل من الحبشة قصير أفحج أسود، يأتي بجنوده من البحر

---

(١) صحيح: أخرجه ابن ماجه (٤٠٤٩) وابن حبان في «صحيحه» (٦٨٥٣) من حديث حذيفه بن اليمان ـ رضي الله عنه ـ.

والحديث صححه الشيخ الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٣٧٢٣).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٥٩١) ومسلم (٢٩٠٩) ومن حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ.

إلىٰ المسجد الحرام، وينقض الكعبة حجراً حجراً، كلما نقض حجراً؛ مده للذي يليه. . . وهكذا يتمادون الأحجار إلىٰ أن يرموها في البحر، والله عز وجل يمكنهم من ذلك، مع أن أبرهة جاء بخيله ورجله وفيله فقصمه الله قبل أن يصل إلىٰ المسجد؛ لأن الله علم أنه سيبعث هذا النبي، وتعاد إلىٰ المسجد هيبته وعظمته، ولكن في آخر الزمان لن يبعث نبي بعد محمد عليه الصلاة والسلام، وإذا أعرض الناس عن تعظيم هذا البيت نهائيًا؛ فإنه يسلط عليه هذا الرجل من الحبشة؛ فهذا نظير رفع القرآن. والله أعلم.

الوجه الثاني: في معنىٰ قولهم: «وإليه يعود»: أنه يعود إلىٰ الله وصفًا؛ أي أنه لا يوصف به أحد سوىٰ الله فيكون المتكلم بالقرآن هو الله عز وجل، وهو الموصوف به.

ولا مانع من أن نقول: إن المعنيين كلاهما صحيح.

هذا كلام أهل السنة والجماعة في القرآن الكريم.

ويرىٰ المعتزلة أن القرآن مخلوق، وليس كلام الله!

ويستدلون لذلك بقول الله تعالىٰ: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: ٦٢]، والقرآن شيء، فيدخل في عموم قوله: ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾، ولأنه ما ثَمَّ إلا خالق ومخلوق، والله خالق، وما سواه مخلوق.

والجواب من وجهين:

الأول: أن القرآن كلام الله تعالىٰ، وهو صفة من صفات الله، وصفات الخالق غير مخلوقة.

الثاني: أن مثل هذا التعبير ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ عام قد يراد به الخاص؛ مثل قوله تعالىٰ عن ملكة سبأ: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٢٣]، وقد خرج شيء كثير لم يدخل في ملكها منه شيء؛ مثل ملك سليمان.

فإن قال قائل: هل هناك فرق كبير بين قولنا: إنه منزل، وقولنا: إنه مخلوق؟

فالجواب: نعم؛ بينهما فرق كبير، جرت بسببه المحنة الكبرىٰ في عصر الإمام

أحمد.

فإذا قلنا: إنه مُنَزَّل. فهذا ما جاء به القرآن؛ قال الله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾ [الفرقان: ١].

وإذا قلنا: إنه مخلوق. لزم من تلك:

أولا: تكذيب للقرآن؛ لأن الله يقول: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]، فجعله الله تعالى موحى إلى الرسول عليه الصلاة والسلام، ولو كان مخلوقًا؛ ما صح أن يكون موحى؛ فإذا كان وحيًا؛ لزم ألا يكون مخلوقًا؛ لأن الله هو الذي تكلم به.

ثانيًا: إذا قلنا: إنه مخلوق؛ فإنه يلزم على ذلك إبطال مدلول الأمر والنهي والخبر والاستخبار؛ لأن هذه الصيغ لو كانت مخلوقة؛ لكانت مجرد شكل خلق على هذه الصورة؛ كما خلقت الشمس على صورتها، والقمر على صورته، والنجم على صورته.. وهكذا، ولم تكن أمراً ولا نهيًا ولا خبراً ولا استخباراً؛ فمثلا: كلمة (قل) (لا تقل) (قال فلان) (هل قال فلان) كلها نقوش على هذه الصورة، فتبطل دلالتها على الأمر والنهي والخبر والاستخبار، وتبقى كأنها صور ونقوش لا تفيد شيئًا.

ولهذا قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ في «النونية»: «إن هذا القول يبطل به الأمر والنهي؛ لأن الأمر كأنه شيء خلق على هذه الصورة دون أن يعتبر مدلوله، والنهي خلق على هذه الصورة دون أن يقصد مدلوله، وكذلك الخبر والاستخبار».

ثالثًا: إذا قلنا: إن القرآن مخلوق، وقد أضافه إلى نفسه إضافة خلق؛ صح أن نطلق على كل كلام من البشر وغيرهم أنه كلام الله؛ لأن كل كلام الخلق مخلوق، وبهذا التزم أهل الحلول والاتحاد؛ حيث يقول قائلهم:

وكل كلام في الوجود كلامه ... سواء علينا نثره ونظامه

وهذا اللازم باطل، وإذا بطل اللازم بطل الملزوم.

فهذه ثلاثة أوجه تبطل القول بأنه مخلوق.

والوجه الرابع: أن نقول: إذا جوَّزتم أن يكون الكلام - وهو معنىٰ لا يقوم إلا بمتكلم - مخلوقًا؛ لزمكم أن تجوزوا أن تكون جميع صفات الله مخلوقة؛ إذ لا فرق؛ فقولوا إذًا: سمعه مخلوق. وبصره مخلوق. . . . وهكذا.

فإن أبيتم إلا أن تقولوا: إن السمع معنىٰ قائم بالسامع لا يسمع منه ولا يرىٰ، بخلاف الكلام فإنه جائز أن الله يخلق أصواتًا في الهواء فتسمع!!

قلنا لكم: لو خلق أصواتًا في الهواء، فسمعت؛ لكان المسموع وصفًا للهواء، وهذا أنتم بأنفسكم لا تقولونه؛ فكيف تعيدون الصفة إلىٰ غير موصوفها؟!

هذه وجوه أربعة كلها تدل علىٰ أن القول بخلق القرآن باطل، ولو لم يكن منه إلا إبطال الأمر والنهي والخبر والاستخبار؛ لكان ذلك كافيًا.

الآية الثانية: قوله: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥].

هذا في سياق قوله تعالىٰ: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾؛ يعني: لا تطمعوا أن يؤمنوا لكم؛ أي: اليهود.

﴿فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾: طائفة منهم، وهم علماؤهم.

﴿يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ﴾: يحتمل أن يراد به القرآن، وهو ظاهر صنيع المؤلف - رحمه الله -، فيكون دليلًا علىٰ أن القرآن كلام الله.

ويحتمل أن يراد به كلام الله تعالىٰ لموسىٰ عليه السلام حين اختار موسىٰ سبعين رجلًا لميقات الله تعالىٰ، فكلمه الله وهم يسمعون، فحرفوا كلام الله تعالىٰ من بعد ما عقلوه وهم يعلمون. ولم أر الاحتمال الأول لأحد من المفسرين.

وأيا كان؛ ففيه إثبات أن كلام الله بصوت مسموع، والكلام صفة المتكلم، وليس شيئًا بائنًا منه؛ فوجب أن يكون القرآن كلام الله لا كلام غيره:

﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾: ﴿يُحَرِّفُونَهُ﴾: أي: يغيرون معناه.

وقوله: ﴿مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾: هذا أشد في قبح عملهم وجرأتهم

على الله سبحانه وتعالى: أن يحرفوا الشيء من بعد ما عقلوه ووصل إلى عقولهم وهم يعلمون أنهم محرفون له؛ لأن الذي يحرف المعنى عن جهل أهون من الذي يحرفه بعد العقل والعلم.

الآية الثالثة: قوله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ [الفتح: ١٥].

في هذه الآية إثبات أن القرآن كلام الله؛ لقوله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ﴾:

والضمير يعود على الأعراب الذين قال الله لهم: ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾ [الفتح: ١٥]؛ فهؤلاء أرادوا أن يبدلوا كلام الله؛ فيخرجوا مع الرسول عليه الصلاة والسلام، ولكن الله تعالى إنما كتب المغانم لقوم معينين، للذين غزو في الحديبية، وأما من تبعوه لأخذ الغنائم فقط؛ فلا حق لهم فيها.

وفي الآية أيضًا: إثبات القول لله تعالى؛ لقوله: ﴿كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ﴾.

الآية الرابعة: قوله: ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ [الكهف: ٢٧].

قوله: ﴿مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾: يعني: القرآن، والوحي لا يكون إلا قولا؛ فهو إذًا غير مخلوق.

وقوله: ﴿مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾: أضافه إليه سبحانه وتعالى؛ لأنه هو الذي تكلم به، أنزله على محمد ﷺ بواسطة جبريل الأمين عليه السلام.

﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾: يعني: لا أحد يبدل كلمات الله، أما الله عز وجل؛ فيبدل آية مكان آية؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ١٠١].

وقوله: ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾: يشمل الكلمات الكونية والشرعية:

أما الكونية: فلا يستثنى منها شيء، لا يمكن لأحد أن يبدل كلمات الله الكونية:

إذا قضى الله على شخص بالموت؛ ما استطاع أحد أن يبدل ذلك.

إذا قضى الله تعالى بالفقر؛ ما استطاع أحد أن يبدل ذلك.

إذا قضى الله تعالى بالجرب؛ ما استطاع أحد أن يبدل ذلك.

وكل هذه الأمور التي تحدث في الكون؛ فإنها بقوله؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

أما الكلمات الشرعية؛ فإنها قد تبدل من قبل أهل الكفر والنفاق، فيبدلون الكلمات: إما بالمعنى، وإما باللفظ إن استطاعوا، أو بهما.

وفي قوله: ﴿لِكَلِمَاتِهِ﴾: دليل على أن القرآن كلام الله تعالى.

الآية الخامسة: قوله: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النمل: ٧٦].

الشاهد قوله: ﴿يَقُصُّ﴾: والقصص لا يكون إلا قولا؛ فإذا كان القرآن هو الذي يقص؛ فهو كلام الله؛ لأن الله تعالى هو الذي قص هذه القصص؛ قال الله سبحانه وتعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ [يوسف: ٣]، وحينئذ يكون القرآن كلام الله عز وجل.

إثبات أن القرآن منزل من الله تعالى:

ذكر المؤلف ـ رحمه الله ـ الآيات التي فيها أن القرآن منزل من الله تعالى:

الآية الأولى: قوله: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ [الأنعام: ١٥٥].

﴿وَهَذَا﴾: المشار إليه القرآن.

﴿كِتَابٌ﴾: أي: مكتوب؛ لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ، ومكتوب في الصحف التي بأيدي السفرة، ومكتوب في المصاحف التي بأيدينا.

وقوله: ﴿مُبَارَكٌ﴾: أي: ذو بركة.

فهو مبارك؛ لأنه شفاء لما في الصدور، إذا قرأه الإنسان بتدبر وتفكر؛ فإنه يشفي القلب من المرض، وقد قال الله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ

لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢].

مبارك في اتباعه؛ إذ به صلاح الأعمال الظاهرة والباطنة.

مبارك في آثاره العظيمة؛ فقد جاهد المسلمون به بلاد الكفر؛ لأن الله يقول: ﴿وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢]، والمسلمون فتحوا مشارق الأرض ومغاربها بهذا القرآن حتى ملكوها، ولو رجعنا إليه؛ لملكنا مشارق الأرض ومغاربها؛ كما ملكها أسلافنا، ونسأل الله ذلك.

مبارك في أن من قرأه؛ فله بكل حرف عشر حسنات(١)؛ فكلمة (قال) مثلا فيها ثلاثون حسنة، وهذا من بركة القرآن؛ فنحن نحصل خيرات كثيرة لا تحصى بقراءة آيات وجيزة من كلام الله عز وجل.

والحاصل: أن القرآن كتاب مبارك؛ فكل أنواع البركة حاصلة بهذا القرآن العظيم.

والشاهد في قوله: ﴿أَنزَلْنَاهُ﴾.

وثبوت نزوله من الله دليل على أنه كلامه.

الآية الثانية: قوله: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١].

الجبل من أقسى ما يكون، والحجارة التي منها تتكون الجبال هي مضرب المثل في القساوة؛ قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤]، ولو نُزّلَ هذا القرآن على جبل؛ لرأيت هذا الجبل خاشعًا متصدعًا من خشية الله.

﴿خَاشِعًا﴾: أي: ذليلا.

ومن شدة خشيته لله يكون ﴿مُّتَصَدِّعًا﴾ يتفلق ويتفتق.

وهو ينزل على قلوبنا، وقلوبنا ـ إلا أن يشاء الله ـ تضمر وتقسو لا تتفتح ولا

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٩١٠) والدارمي في «سننه» (٣٣٠٨) من حديث عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ.

تتقبل .

فالذين آمنوا إذا نزلت عليهم الآيات ؛ زادتهم إيمانًا ، والذين في قلوبهم مرض ؛ تزيدهم رجسًا إلىٰ رجسهم ؛ والعياذ بالله !

ومعنىٰ ذلك : أن قلوبهم تتصلب وتقسو أكثر وتزداد رجسًا إلىٰ رجسها ، نعوذ بالله من ذلك !

وهذا القرآن لو أنزل علىٰ جبل ؛ لتصدع الجبل وخشع ؛ لعظمة ما أُنزل عليه من كلام الله .

وفي هذا دليل علىٰ أن للجبل إحساسًا ؛ لأنه يخشع ويتصدع ، والأمر كذلك ، قال النبي ﷺ في أحد : «**هذا أحد جبل يحبنا ونحبه**»(١) .

وبهذا الحديث نعرف الرد علىٰ المثبتين للمجاز في القرآن ، والذي يرفعون دائمًا عَلَمَهُم مستدلين بهذه الآية : ﴿ **فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ** ﴾ [الكهف : ٧٧] ؛ يقول : كيف يريد الجدار ؟ !

فنقول : يا سبحان الله ! العليم الخبير يقول : ﴿ **يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ** ﴾ ، وأنت تقول : لا يريد ! أهذا معقول ؟

فليس من حقك بعد هذا أن تقول : كيف يريد ؟ !

وهذا يجعلنا نسأل أنفسنا : هل نحن أوتينا علم كل شيء ؟

فنجيب بالقول بأننا ما أوتينا من العلم إلا قليلا .

فقول من يعلم الغيب والشهادة : ﴿ **يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ** ﴾ : لا يسوغ لنا أن نعترض عليه ، فنقول : لا إرادة للجدار ! ولا يريد أن ينقض !

وهذا من مفاسد المجاز ؛ لأنه يلزم منه نفي ما أثبته القرآن .

أليس الله تعالىٰ يقول : ﴿ **تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ** ﴾ [الإسراء : ٤٤] ؛ هل تسبح بلا

---

(١) متفق عليه : أخرجه البخاري (١٤٨٢) ومسلم (١٣٩٢) من حديث أبي حميد الساعدي ـ رضي الله عنه ـ .

إرادة؟!

يقول: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ﴾: اللام للتخصيص؛ إذًا؛ هي مخلصة، وهل يتصور إخلاص بلا إرادة؟! إذًا؛ هي تريد، وكل شيء يريد، لأن الله يقول: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ﴾، وأظنه لا يخفى علينا جميعًا أن هذا من صيغ العموم؛ فـ (إن): نافية بمعنى (ما)، و ﴿مِّن شَيْءٍ﴾: نكرة في سياق النفي، ﴿إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾، فيعم كل شيء.

فيا أخي المسلم! إذا رأيت قلبك لا يتأثر بالقرآن؛ فاتهم نفسك؛ لأن الله أخبر أن هذا القرآن لو نزل على جبل لتصدع، وقلبك يتلى عليه القرآن، ولا يتأثر.

أسأل الله أن يعينني وإياكم.

الآية الثالثة والرابعة والخامسة: قوله: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ * قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ * وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠١ - ١٠٣].

قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ﴾: قوله: ﴿بَدَّلْنَا﴾؛ أي: جعلنا آية مكان آية.

وهذا إشارة إلى النسخ المذكور في قوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ [البقرة: ١٠٦].

فالله سبحانه إذا نسخ آية؛ جعل بدلها آية، سواء نسخها لفظًا، أو نسخها حكمًا.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾: هذه جملة اعتراضية، وهي من أحسن ما يكون في هذا الموضع، والمعنى أن تبديلنا للآية بدل الآية ليس سفهًا وعبثًا، بل هو صادر عن علم بما يصلح الخلق، فنبدل آية مكان آية؛ لعلمنا أن ذلك أصلح للخلق وأنفع لهم. وفيها أيضًا فائدة أخرى، وهي أن هذا التبديل ليس من عمل الرسول عليه الصلاة والسلام، بل هو من الله، أنزله بعلمه، وأبدل آية مكان آية بعلمه، وليس منك أيها الرسول.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾ [يونس: ١٥]؛ فماذا كان الجواب؟ كان الجواب: بأن أجاب عن شيء من كلامهم وترك شيئًا، فقال تعالى: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاء نَفْسِي﴾ [يونس: ١٥]، ولم يقل: ولا آتي بقرآن غيره. لماذا؟ لأنه قد يأتي بتبديل من عنده، وإذا كان لا يمكنه تبديله، فالإتيان بغيره أولى بالامتناع.

فالمهم: أن الذي يبدل آية مكان آية، سواء لفظها أو حكمها، هو الله سبحانه.

قوله: ﴿قَالُواْ إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ﴾: الجملة جواب ﴿وَإِذَا﴾.

قوله: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ﴾: الخطاب هنا لمحمد ﷺ.

قوله: ﴿مُفْتَرٍ﴾؛ أي: كذاب، بالأمس تقول لنا كذا، واليوم تقول لنا كذا، هذا كذب، إنما أنت مفترٍ!!

لكن هذا القول الذي يقولونه إزاء إتيانه بآية مكان آية هو قول سفه، ولو أنهم أمعنوا النظر؛ لعلموا علم اليقين أن الذي يأتي بآية مكان آية هو الله سبحانه، وذلك يدل على صدقه ﷺ؛ لأن الكذاب يحذر غاية الحذر أن يأتي بكلام غير كلامه الأول؛ لأنه يخشى أن يطلع على كذبه، فلو كان كاذبًا كما يدَّعون أن ذلك من علامة الكذب؛ ما أتى بشيء يخالف الأول؛ لأنه إذا أتى بشيء يخالف الأول على زعمهم تبين كذبه بل إتيانه بما يخالف الأول دليل على صدقه بلا شك.

ولهذا قال هنا: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾، وهذا إضراب إبطالي؛ معناه: بل لست مفتريًا، ولكن أكثرهم لا يعلمون، ولو أنهم كانوا من ذوي العلم لعلموا أنه إذا بُدلت آية مكان آية فإنما ذلك دليل على صدق الرسول عليه الصلاة والسلام.

قوله تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾: ﴿رُوحُ الْقُدُسِ﴾: هو جبريل، ووصفه بذلك لطهارته من الخيانة عليه الصلاة والسلام، ولهذا قال في آية أخرى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ١٩-٢١].

قوله: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾: قال: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾، ولم يقل: من رب العالمين؛ إشارة إلى

الربوبية الخاصة؛ ربوبية الله للنبي عليه الصلاة والسلام، وهي ربوبية أخص الخاصة.

وقوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾: إما أن يكون وصفًا للنازل أو للمنزول به.

فإن كان وصفًا للنازل؛ فمعناه: أن نزوله حق، وليس بكذب.

وإن كان وصفًا للمنزول به؛ فمعناه: أن ما جاء به فهو حق.

وكلاهما مراد؛ فهو حق من عند الله، ونازل بالحق.

قال الله تعالى: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء: ١٠٥]؛ فالقرآن حق، وما نزل به فهو حق.

قوله: ﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾: هذا تعليل وثمرة عظيمة، يثبت الذين آمنوا به، ويمكنهم من الحق، ويقويهم عليه.

قوله: ﴿وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾؛ أي: هدىً يهتدون به، ومنارًا يستنيرون به، وبشارة لهم يستبشرون به.

بشارة؛ لأن من عمل به، واستسلم له كان ذلك دليلا على أنه من أهل السعادة.

قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ [الليل: ٥-٧].

ولهذا ينبغي للإنسان أن يفرح إذا رأى من نفسه الخير والثبات عليه والإقبال عليه.

يفرح؛ لأن هذه بشارة له؛ فإن الرسول ﷺ لما حدَّث أصحابه رضي الله عنهم؛ قال: «ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من الجنة ومقعده من النار». قالوا: أفلا ندع العمل ونتكل؟ قال: «لا؛ اعملوا؛ فكل ميسر لما خلق له، ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ [الليل: ٥-١٠]»[١].

فإذا رأيت من نفسك أن الله عز وجل قد منَّ عليك بالهداية، والتوفيق والعمل

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٩٤٥) ومسلم (٢٦٤٧) من حديث علي ابن أبي طالب - رضي الله عنه.

الصالح ومحبة الخير وأهل الخير؛ فأبشر؛ فإن في هذا دليلا على أنك من أهل اليسرىٰ، الذين كتبت لهم السعادة.

ولهذا قال هنا: ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾.

قوله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾، قال: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ﴾، ولم يقل: لقد علمنا؛ لأن قولهم هذا يتجدد، فكان التعبير بالمضارع أولىٰ من التعبير بالماضي؛ لأنه لو قال: لقد علمنا؛ لتبادر إلىٰ ذهن بعض الناس أن المعنىٰ: علمنا أنهم قالوا ذلك سابقًا، لا أنهم يستمرون عليه.

وسبب نزول هذه الآية أن قريشًا قالت: إن هذا القرآن الذي يأتي به محمد ليس من عند ربه، وإنما هو من شخص يُعلمه ويقص عليه من قصص الأولين، ويأتي ليقول لنا: هذا من عند الله! أعوذ بالله!!

ادَّعوا أنه كلام البشر! والعجيب أنهم يدَّعون أنه كلام البشر، ويقال لهم: ائتوا بمثله! ولا يستطيعون!!

وقد أبطل الله افتراءهم هذا بقوله تعالىٰ: ﴿لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ﴾، ومعنىٰ ﴿يُلْحِدُونَ﴾؛ أي: يميلون؛ لأن قولهم هذا ميل عن الصواب بعيد عن الحق.

والأعجمي: هو الذي لا يفصح بالكلام، وإن كان عربيًا، والعجمي بدون همزة هو: المنسوب إلىٰ العجم، وإن كان يتكلم بالعربية.

فلسان هذا الذي يلحدون إليه أعجمي لا يفصح بالكلام العربي.

وأما القرآن؛ فإن الله قال فيه: ﴿وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾. بيِّنٌ في نفسه، مُبِينٌ لغيره.

فالقرآن كلام عربي، وهو أفصح الكلام، كيف يأتي من هذا الرجل الأعجمي، الذي لسانه لا يفصح بالكلام؟!

والشاهد هو قوله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾، وقوله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ﴾، وقوله: ﴿وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾.

وكل هذه تدل علىٰ أن القرآن كلام الله تعالىٰ منزل من عنده.

والمؤلف ـ رحمه الله ـ ترك الآية التي بعدها؛ لأنه ليس فيها شاهد، ولكنها مفيدة؛ فنذكرها: قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لاَ يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾

[النحل: ١٠٤، ١٠٥].

ومعنى هذه الآية: أن الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله ولا ينتفعون بآياته، والعياذ بالله؛ فالهداية مسدودة عليهم.

وهذه الحقيقة فيها فائدة كبيرة، وهي: أن من لم يؤمن بآيات الله لا يهديه الله.

ومفهوم المخالفة فيها: أن من آمن بآيات الله؛ هداه الله.

مثال ذلك: أننا نجد من لم يؤمن بالآيات؛ لم يهتد لبيان وجهها؛ مثل قول بعضهم: كيف ينزل الله إلىٰ السماء الدنيا وهو في العلو؟!

فنقول: آمن تهتد! فإذا آمنت بأنه ينزل حقيقة علمت أن هذا ليس بمستحيل: لأنه في جانب الله عز وجل، ولا يماثله شيء.

ونجد من يقول في قوله تعالىٰ: ﴿جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ﴾ [الكهف: ٧٧]: كيف يريد الجدار؟.

فنقول: آمن بأن الجدار يريد يتبين لك أن هذا ليس بغريب.

وهذه قاعدة ينبغي أن تكون أساسية عندك؛ وهي: آمن تهتد!

والذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله، ويبقىٰ القرآن عليهم عمىً ـ والعياذ بالله ـ ولا يستطيعون الاهتداء به، نسأل الله لنا ولكم الهداية.

ما نستفيده من الناحية المسلكية من هذه الآيات:

نستفيد أننا إذا علمنا أن هذا القرآن تكلم به رب العالمين؛ أوجب لنا ذلك تعظيم هذا القرآن، واحترامه، وامتثال ما جاء فيه من الأوامر، وترك ما فيه من المنهيات والمحذورات، وتصديق ما جاء فيه من الأخبار عن الله تعالىٰ وعن مخلوقاته السابقة واللاحقة.

● قال الشيخ صالح الفوزان:

وقوله تعالى: ﴿وإن أحدٌ من المشركين﴾ الذين أمرت بقتالهم ﴿استجارك﴾ يا محمد، أي: طلب جوارك وحمايتك وأمانك ﴿فأجره﴾ أي: كن له جاراً ومؤمِّناً ﴿حتى يسمع كلام الله﴾ منك ويتدبره ويقف على حقيقة ما تدعو إليه.

والشاهد من الآية: أن فيها إثبات الكلام لله تعالى، وأن الذي يتلى هو كلام الله:

وقوله: ﴿وقد كان فريقٌ منهم﴾ أي: اليهود، والفريق: اسم جمع لا واحد له من لفظه ﴿يسمعون كلام الله﴾ أي: التوراة ﴿ثم يحرفونه﴾ أي: يتأولونه على غير تأويله ﴿من بعد ما عقلوه﴾ أي: فهموه، ومع هذا يخالفونه على بصيرة ﴿وهم يعلمون﴾ أنهم مخطئون فيما ذهبوا إليه من تحريفه وتأويله.

والشاهد من الآية الكريمة: أن فيها إثبات الكلام لله تعالى، وأن التوراة من كلامه تعالى. وأن اليهود حرفوها، وغيروا فيها وبدلوا.

وقوله تعالى: ﴿يريدون أن يبدلوا كلام الله قل لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل﴾:

﴿يريدون﴾ أي: المخلفون من الأعراب الذين اختاروا المقام في أهليهم وشغلهم وتركوا المسير مع رسول الله ﷺ حين خرج عام الحديبية ﴿أن يبدلوا كلام الله﴾ أي: يغيروا كلام الله الذي وعد الله به أهل الحديبية خاصة بغنيمة خيبر ﴿قل لن تتبعونا﴾ هذا نفي في معنى النهي، أي: لا تتبعونا ﴿كذلكم قال الله من قبل﴾ أي: وعد الله أهل الحديبية أن غنيمة خيبر لهم خاصة.

والشاهد من الآية الكريمة: أن فيها إثبات الكلام لله وإثبات القول له، وأن الله سبحانه يتكلم ويقول متى شاء إذا شاء وأنه لا يجوز تبديل كلامه سبحانه، بل يجب العمل به واتباعه.

وقوله: ﴿واتل ما أوحي إليك﴾ أمر الله نبيه أن يواظب على تلاوة الكتاب الموحى إليه، والوحي: هو الإعلام بسرعة وخفاء، وله كيفيات مذكورة في كتب أصول التفسير ﴿من كتاب ربك﴾ بيان للذي أوحي إليه ﴿لا مبدل لكلماته﴾أي: لا مغير لها ولا محرف ولا

مزيل.

والشاهد من الآية: إثبات الكلمات لله تعالىٰ.

قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ وهم حملة التوراة والإنجيل ﴿أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ كاختلافهم في عيسىٰ، فاليهود افتروا في حقه، والنصارىٰ غلوا فيه. فجاء القرآن بالقول الوسط الحق: أنه عبد الله ورسوله وكلمته، ألقاها إلىٰ مريم وروح منه.

والشاهد من الآية الكريمة: أن فيها إثبات أن القرآن كلام الله تعالىٰ لما تضمنه من الإحاطة بالكتب السابقة، والحكم في الخلاف بين طوائف أهل الكتاب بالقسط، وهذا لا يكون إلا من عند الله.

ويستفاد من مجموع الآيات التي ساقها المؤلف: إثبات الكلام لله.

ومذهب أهل السنة والجماعة: إثبات ما دل عليه الكتاب والسنة من أن الله موصوف بالكلام، وكلامه سبحانه من صفاته الذاتية لقيامه به واتصافه به. ومن صفاته الفعلية الواقعة بمشيئته وقدرته، فيتكلم إذا شاء كيف شاء، بما يشاء، ولم يزل متكلمًا، ولا يزال متكلمًا؛ لأنه لم يزل ولا يزال كاملاً والكلام من صفات الكمال، ولأن الله وصف به نفسه ووصفه به رسوله.

وسيأتي ذكر مذهب المخالفين في هذه المسألة مع الرد عليه إن شاء الله.

لما أورد المؤلف رحمه الله الآيات الدالة علىٰ إثبات الكلام لله تعالىٰ، وأن القرآن العظيم من كلامه سبحانه شرع في سياق الآيات الدالة علىٰ أن القرآن منزل من عند الله.

فقوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا﴾ الإشارة إلىٰ القرآن الكريم، واسم الإشارة مبتدأ خبره ﴿كِتَابٌ﴾

و ﴿أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ صفتان لكتاب، وقدم صفة الإنزال؛ لأن الكفار ينكرونها. والمبارك كثير البركة لما هو مشتمل عليه من المنافع الدينية والدنيوية.

وقوله تعالى: ﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله﴾ هذا إخبار عن عظمة القرآن وأنه حقيق بأن تخشع له القلوب - فإنه لو أنزل على جبل مع كونه في غاية القسوة وشدة الصلابة لو فهم هذا القرآن لخشع وتصدع من خوف الله؛ حذراً من عقابه، فكيف يليق بكم أيها البشر أن لا تلين قلوبكم وتخشع. وقد فهمتهم عن الله أمره وتدبرتم كتابه؟!

وقوله تعالى: ﴿وإذا بدلنا آية مكان آية﴾ هذا شروع منه سبحانه في ذكر شبهة كفرية حول القرآن الكريم مع الرد عليها.

وقوله: ﴿بدلنا﴾ معنى التبديل: رفع الشيء مع وضع غيره مكانه، وتبديل الآية: رفعها بأخرى غيرها. وهو نسخها بآية سواها ﴿قَالُوا﴾ أي: كفار قريش الجاهلون للحكمة في النسخ ﴿إِنَّمَا أَنتَ﴾ يا محمد ﴿مُفْتَرٍ﴾ أي: كاذب مختلق متقول على الله حيث تزعم أنه أمرك بشيء، ثم تزعم أنه أمرك بخلافه، فرد الله عليهم بما يفيد جهلهم، فقال: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ شيئًا من العلم أصلاً، أو لا يعلمون الحكمة في النسخ، فإنه مبني على المصالح التي يعلمها الله سبحانه، فقد يكون في شرع هذا الشيء مصلحة مؤقتة بوقت ثم تكون المصلحة بعد ذلك الوقت في شرع غيره. ولو انكشف الغطاء لهؤلاء الكفرة لعلموا أن ذلك وجه الصواب ومنهج العدل والرفق واللطف.

ثم رد عليهم في زعمهم أن هذا التبديل من عند محمد، وأنه بذلك مفتر على الله، فقال سبحانه: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ﴾ أي: القرآن ﴿رُوحُ الْقُدُسِ﴾ أي: جبريل، والقدس: الطهر، والمعنى نزله الروح المطهر، فهو من إضافة الموصوف إلى صفته ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ أي: ابتداء تنزيله من عند الله سبحانه ﴿بِالْحَقِّ﴾ في محل نصب على الحال، أي: متصفًا بكونه حقًّا ﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ على الإيمان فيقولون: كل من الناسخ والمنسوخ من عند ربنا، ولأنهم إذا عرفوا ما في النسخ من المصالح ثبتوا على الإيمان ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ معطوفان على محل ليثبت، أي: تثبيتًا لهم وهداية وبشرى.

ثم ذكر سبحانه شبهة أخرى من شبههم فقال: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾

أي: ولقد نعلم أن هؤلاء الكفار يقولون: إنما يعلم محمداً القرآن بشر من بني آدم وليس ملكًا من الملائكة، وهذا البشر الذي يعلمه كان قد درس التوراة والإنجيل والكتب الأعجمية؛ لأن محمداً رجل أمي لا يمكن أن يأتي بما ذكر في القرآن من أخبار القرون الأولى.

فرد الله عليهم بقوله: ﴿لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ﴾ أي: لسان الذي يميلون إليه، ويزعمون أنه يعلمك يا محمد أعجمي، أي: غير عربي، فهو لا يتكلم العربية ﴿وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ أي: وهذا القرآن ذو بلاغة عربية وبيان واضح، فكيف تزعمون أن بشراً يعلمه النبي ﷺ من العجم وقد عجزتم أنتم عن معارضته أو معارضة سورة أو سور منه وأنتم أهل اللسان العربي ورجال الفصاحة وقادة البلاغة؟!

ما يستفاد من الآيات: يستفاد من هذه الآيات الكريمة: إثبات أن القرآن منزل من عند الله تعالى، وأنه كلامه جل وعلا، لا كلام غيره من الملائكة أو البشر، والرد على من زعم أنه كلام مخلوق، وفي الآيات أيضًا إثبات العلو لله سبحانه؛ لأن الإنزال لا يكون إلا من أعلى. والله أعلم.

* * *

[أسئلة وأجوبة نموذجية على القرآن كلام الله تعالى]

● قال الشيخ عبد العزيز المحمد السلمان:

س - ما هو الإيمان بالقرآن الكريم؟

ج - هو الاعتقاد الجازم بأن من كلام الله سبحانه وتعالى القرآن العظيم، وهو كتاب الله المبين، وحبله المتين وصراطه المستقيم وهو سور محكمات وآيات بينات محكمات وحروف وكلمات منزل غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود، وأن الله سبحانه وتعالى تكلم به حقيقة ولا يجوز إطلاق القول بأنه عبارة عن كلام الله كما هو قول الأشاعرة.

ولا يجوز إطلاق القول بأنه حكاية كما هو قول الكلابية بل إذا قرأه الناس أو كتبوه في المصاحف لم يخرج بذلك عن أن يكون كلام الله تعالى حقيقة، فإن الكلام إنما يضاف إلى من قاله مبتدئًا لا من قاله مبلغًا مؤديًا، وهو كلام الله، حروفه ومعانيه.

س - ما هو الدليل على أن من كلام الله تعالى القرآن العظيم؟

ج - قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾، ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ﴾، ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾، ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾، ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾، ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾، ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ (١٠٢) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾.

س ـ ما الذي تفهمه من قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ وما الذي يؤخذ منها من الأحكام؟

ج ـ استجارك: أي طلب جوارك أي حمايتك له وأمانه. فأجره: أي أمنه. مأمنه: أي مسكنه الذي يأمن فيه وهو دار قومه. المعنىٰ: وإن استجارك أحد من المشركين، فأجره أي كن جاراً له مؤمناً محامياً، حتىٰ يسمع كلام الله ويتدبره حق تدبره ويقف علىٰ حقيقة ما تدعوا إليه. ففي هذه الآية:

أولاً: دليل علىٰ أنه إذا استأمن مشرك ليسمع القرآن. وجب تأمينه ليعلم دين الله وتنتشر الدعوة.

ثانيًا: إثبات الألوهية.

ثالثًا: أن الكلام إنما ينسب إلىٰ من قاله مبتدئًا لا من قاله مبلغًا مؤديًا.

رابعـًا: أن في الآية حجة صريحة لمذهب أهل السنة والجماعة القائلين بأن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق لأنه تعالىٰ هو المتكلم به وإنما أضافه إلىٰ نفسه إضافة الصفة إلىٰ موصوفها.

خامسًا: فيها دليل علىٰ بطلان مذهب المعتزلة ومن أخذ بقولهم إن القرآن مخلوق.

سادسًا: فيها رد علىٰ من قال إن القرآن كلام بَشَر أو مَلَك أو غير ذلك من الأقوال الباطلة.

س ـ ما الذي تفهمه من الآية الثانية الدالة على صفة الكلام وما الذي يؤخذ منها؟

ج ـ «الفريق»: الجماعة ولا واحد له من لفظه «يحرفونه»: يغيرونه من بعد ما عقلوه أي: عرفوه وفهموه وضبطوه أعني كلام الله التوراة.

المعنىٰ: أنسيتم أفعالهم وأعمالهم فتطمعون أن يُؤمِنَ لكم هؤلاء اليهود! وقد كان جماعة منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه أي يتأولونه علىٰ غير تأويله من بعد ما

عقلوه أي فهموه على الجلية، ومع هذا فهم يخالفونه على بصيرة: وهم يعلمون أنهم مخطئون فيما ذهبوا إليه من تحريفه. ففي هذه الآية:

أولاً: إثبات صفة الكلام لله.

ثانيًا: إثبات الألوهية.

ثالثًا: الذم لمن يحرف كلام الله.

رابعًا: التحريف من صفات اليهود.

خامسًا: قطع لأطماع المؤمنين من إيمان هؤلاء.

سادسًا: فيه دليل على تعمدهم وسوء قصدهم.

سابعًا: إبطال لما عساه أن يعتذر لهم به من سوء الفهم.

ثامنًا: في الآية دليل على تعمق الفسق والعصيان في اليهود.

تاسعًا: الرد على من زعم أن الله لا يتكلم.

عاشرًا: الرد على من قال إن القرآن مخلوق.

الحادي عشر: أن الكلام إنما ينسب إلى من قاله مبتدئًا.

س ـ ما الذي تعرفه عن معنى الآية الثالثة الدالة على أن الله تعالى متكلم، وأن القرآن من كلامه تعالى، واذكر ما فيها من أحكام؟

ج ـ المعنى: يريدون أن يبدلوا وعد الله لأهل الحديبية وذلك أن الله وعدهم أن يعوضهم من غنيمة مكة غنيمة خيبر وفتحها وأن يكون ذلك مختصًا بهم دون غيرهم، وأراد المُخَلَّفُون أن يشاركوهم في ذلك، ثم قال: قل يا محمد لهم: لن تتبعونا أي في خيبر، وهذا خبر بمعنى النهي، وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ﴾، أي من قبل عودنا إليكم أن غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية ليس لغيرهم فيها نصيب. في هذه الآية:

أولاً: إثبات صفة الكلام لله.

ثانيًا: إثبات القول لله سبحانه.

ثالثًا: إثبات الألوهية لله سبحانه وحده.

رابعًا: أن الكلام إنما ينسب إلىٰ من قاله مبتدئًا.

خامسًا: الرد علىٰ من قال إن الله لا يتكلم.

سادسًا: الرد علىٰ من قال إن القرآن كلام محمد ﷺ أو كلام ملك، أو بشر.

سابعًا: فيها دليل علىٰ بطلان قول المعتزلة ومن أخذ بقولهم إن القرآن مخلوق أو أنه عبارة عن كلام الله كما هو قول الأشاعرة أو حكاية كقول الكلابية.

س - بَيِّنْ ما تفهمه من معنى قوله تعالى في الآية الرابعة ﴿ واتل ما أوحي إليك من كتاب ربك لا مبدل لكلماته ولن تجد من دونه ملتحدا ﴾ واذكر ما فيها من الأحكام؟

ج - ﴿وَاتْلُ﴾: اتبع ﴿مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾ الوحي: لغة الإعلام في خفاء، وفي الاصطلاح: إعلام الله أنبياءه بالشيء إما بكتاب أو رسالة ملك أو منام أو إلهام ﴿مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾: أي القرآن ﴿لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾: أي لا مغير ولا محرف ولا مزيل لها ﴿مُلْتَحَدًا﴾: ملتجأ تلجأ إليه.

المعنى: يقول تعالىٰ لرسوله ﷺ: واتل الكتاب الذي أوحي إليك والزم العمل به، واتبع ما فيه من أمر ونهي فإنه الكتاب الجليل المخصوص بمزية الحفظ من التغيير والتبديل فإن أنت لم تتبع القرآن وتتله وتعمل بأحكامه لن تجد مَعْدِلاً تعدل إليه ومكانًا تميل إليه.

ففي هذه الآية:

أولاً: تعظيم القرآن وتوقيره وإجلاله وتقديره والدعوة إليه.

ثانيًا: الحث علىٰ الإقبال علىٰ القرآن وتدبره والعمل به.

ثالثًا: إثبات الربوبية لله، وتقدم أنها تنقسم إلىٰ قسمين: عامة وخاصة كالرحمة والعبودية والمعية.

رابعًا: أن القرآن لا يستطيع أحد أن يغير ما فيه.

خامسًا: أن الكتاب هو القرآن خلافًا للكلابية فإنه سبحانه سمىٰ نفس مجموع اللفظ والمعنىٰ قرآنًا وكتابًا وكلامًا.

سادسًا: الرد علىٰ من قال إن القرآن كلام محمد ﷺ أو كلام ملك، أو بشر أو غير

ذلك .

سابعًا : الحث على الالتجاء إلى الله في كل الأمور لأنه الملجأ وحده .

ثامنًا : إثبات قدرة الله وأنها محيطة بجميع خلقه فلا يقدر أحد على الهرب من أمر أراده به .

س ـ ما الذي تفهمه عن معنى قوله تعالى في الآية الخامسة: ﴿إنَّ هذا القرآن يقصُّ على بني إسرائيل أكثر الذي هُم فيه يختلفون﴾ واذكر ما فيها من أحكام؟

ج - يقول تعالى ـ مخبراً عن كتابه العزيز وما اشتمل عليه من الهدى والبيان والفرقان ـ : أنه يقص على بني إسرائيل وهم حملة التوراة والإنجيل أكثر الذي هم فيه يختلفون، كاختلافهم في عيسى وتباينهم فيه، فاليهود افتروا، والنصارى غلوا، فجاء القرآن بالقول الوسط الحق العدل، أنه عبد من عباد الله، ونبي من أنبيائه ورسله الكرام عليه السلام .

وفي هذه الآية:

أولاً: دليل على عظمة هذا الكتاب وهيمنته على الكتب السابقة وتوضيحه لما وقع فيها من اشتباه واختلاف .

ثانيًا: أنه جاء حكمًا على بني إسرائيل فيما اختلفوا فيه فأبان لهم الحق .

ثالثًا: الرد على من قال إن كلام الله هو المعنى النفسي .

رابعًا: وجوب الرجوع إلى القرآن واتباعه .

س ـ ما الذي تعرفه عن معنى قوله تعالى: ﴿وهذا كتابٌ أنزلناهُ مباركٌ فاتَّبعوهُ واتَّقوا لعلَّكم ترحمون﴾ وقوله ﴿لو أنزلْنا هذا القُرآن على جبلٍ لَرأيتهُ خاشعًا متصدِّعًا من خشية الله وتلك الأمثال نضربُها للنَّاس لعلَّهُم يتفكَّرون﴾ .

ج - يقول تعالى : ﴿وَهَذَا كِتَابٌ﴾ : أي القرآن ﴿أَنزَلْنَاهُ﴾ : يعني على محمد ﷺ ﴿مُبَارَكٌ﴾ أي كثير الخير والمنافع دائم البركة يبشر بالثواب والمغفرة، ويزجر عن القبيح والمعصية .

وفي هذا دليل:

أولاً: على أن القرآن منزل غير مخلوق .

ثانيًا: فيه دليل على علو الله.

ثالثًا: فيه رد على من قال: إن القرآن كلام محمد ﷺ أو جبريل عليه السلام أو بشر أو غير ذلك.

رابعًا: رد على من قال: إن القرآن مخلوق كالمعتزلة ومن أخذ بقولهم.

خامسًا: أن القرآن كثير الخير دائم المنفعة والبركة.

سادسًا: فيه رد على من قال: إن كلام الله المعنى النفسي.

وأما الآية الثانية: فيقول تعالى معظمًا لأمر القرآن ومبينًا علو قدره، وأنه حقيق بأن تخشع له القلوب وتنصدع عند سماعه لما فيه من الوعد والوعيد الأكيد ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾.

أي: من شأنه وعظمته وجودة ألفاظه وقوة مبانيه وبلاغته واشتماله على المواعظ التي تلين لها القلوب، أنه لو أنزل على جبل من الجبال لرأيته مع كونه في غاية الصلابة وضخامة الجرم وشدة القسوة خاشعًا متصدعًا، أي منقادًا متذللاً متشققًا من خوف الله.

وفي هذه الآية:

أولاً: علو شأن القرآن وقوة تأثير ما فيه من المواعظ والزواجر.

ثانيًا: توبيخ الإنسان على قسوة قلبه وقلة تخشعه حين قراءة القرآن وتدبر ما فيه من القوارع التي تذل لها الجبال الراسيات.

ثالثًا: فيه دليل لمذهب السلف من أن القرآن منزل غير مخلوق خلافًا للجهمية والمعتزلة ومن تبعهم من الأشاعرة وغيرهم.

رابعًا: فيه دليل على علو الله على خلقه وإثبات جهة العلو.

خامسًا: الرد على من قال: إن القرآن مخلوق كالمعتزلة ونحوهم.

سادسًا: أنه سبحانه خلق في الجمادات إدراكًا بحيث تخشع، وهذا حقيقة كما دلت على ذلك الأدلة ولا يعلم كيفية ذلك إلا الله.

سابعًا: الحث على الخوف من الله والخشوع عند سماع كلامه.

ثامنًا: في الآية رد على من قال: إن كلام الله هو المعنى النفسي.

تاسعًا: الرد على من قال إنه كلام جبريل أو بشر أو غير ذلك.

عاشرًا: إثبات الألوهية لله.

س ٢٨٧ ـ ما الذي تعرفه عن معنى الآيات الأخيرات الدالة على أن القرآن من كلام الله وهي قوله تعالى: ﴿وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون (١٠١) قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين (١٠٢) ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين﴾؟

ج ـ «التبديل»: رفع شيء ووضع غيره مكانه، وتبديل الآية: نسخها بأخرى ﴿رُوحُ الْقُدُسِ﴾. جبريل عليه السلام سمي بذلك لأنه ينزل بالقدس أي بما يطهر القلوب ﴿بِالْحَقِّ﴾: بالصدق والعدل.

﴿لِيُثَبِّتَ﴾ ليزيدهم يقينًا وإيمانًا. (البشرى والبشارة): هو أول خبر سار «بشر»: إنسان سمي بذلك لبدو بشرته، والمراد (جبر الرومي غلام ابن الحضرمي كان قد قرأ التوراة والإنجيل. وكان النبي ﷺ يجلس إليه إذا أذاه أهل مكة).

و «الإلحاد»: الميل يميلون ويشيرون «لسان»: أي لغته وكلامه «أعجمي»: العجمة في لسان العرب الإخفاء وضد البيان فالأعجمي المراد به الذي لا يفصح وإن كان ينزل بالبادية.

المعنى: هذا شروع منه سبحانه في حكاية شُبَهٍ كفرية ودفعها، أي وإذا نسخنا حكم آية فأبدلنا مكانه حكم آية أخرى، والله أعلم بالذي هو أصلح فيما يُنَزِّل، قال المشركون لرسوله: إنما أنت متقول على الله تأمر بشيء ثم تنهى عنه وأكثرهم لا يعلمون ما في التبديل من حكم بالغة.

ثم قال تعالى مبينًا لهؤلاء المعترضين الزاعمين أن ذلك لم يكن من عند الله وأن الرسول افتراه فقال: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ﴾ الآية، أي قل لهم يا محمد قد جاء جبريل بما أتلوه عليكم من عند ربي على مقتضى حكمته البالغة من تثبيت المؤمنين وتقوية إيمانهم بما فيه من أدلةٍ قاطعة وبراهين ساطعة على وحدانية خالق الكون وباهر قدرته

وواسع علمه وجعله هاديًا وبشارة للمسلمين الذين آمنوا بالله ورسله.

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ اللام هي الموطئة أي: ولقد نعلم أن هؤلاء المشركين يقولون إنما يعلم محمدًا القرآن بشر من بني آدم غير ملك.

ثم أجاب سبحانه عن قولهم هذا فرد عليهم وكذبهم في قيلهم فقال: ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ أي إن لسان الذي تميلون وتشيرون إليه بأنه يعلم محمدًا أعجمي أي لا يتكلم بالعربية والقرآن كلام عربي تفهمونه بأدنىٰ تأمل فكيف يكون الذي يقوله أعجميًا، فهذا القول لا يقوله من له أدنىٰ مُسْكَةٍ من عقلٍ، وفي التشبث بمثل هذه المطاعن الركيكة والخرافات الساذجة أبلغ دليل علىٰ أنهم بلغوا غاية العجز:

فدعهم يزعمون الصبح ليلاً أيعمى العالمون عن الضياء

س ـ ما الذي يؤخذ من هذه الآيات الكريمات: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً....﴾ إلخ؟

ج ـ أولاً: إثبات النسخ، وأنه يقع في القرآن.

ثانيًا: أنه لحكمة ومصلحة.

ثالثًا: إثبات صفة العلم لله تعالىٰ.

رابعًا: إثبات الألوهية.

خامسًا: إثبات علو الله علىٰ خلقه.

سادسًا: دليل لمذهب أهل السنة والجماعة أن القرآن منزل غير مخلوق.

سابعًا: الرد علىٰ من قال إنه مخلوق كالجهمية والمعتزلة.

ثامنًا: الرد علىٰ من قال إنه كلام ملك أو بشر أو غير ذلك.

تاسعًا: الرد علىٰ من قال إنه خلقه في جسم من الأجسام المخلوقة كما هو قول الجهمية.

عاشرًا: الرد علىٰ من قال إنه فاض علىٰ النبي ﷺ كما يقوله طوائف من الفلاسفة والصابئة.

الحادي عشر: أن السفير بين الله ورسوله محمد ﷺ هو جبريل عليه السلام.

الثاني عشر: الرد على من قال إن كلام الله هو المعنى النفسي فإن جبريل سمعه من الله والمعنى المجرد لا يسمع.

الثالث عشر: الدليل على أن القرآن نزل باللغة العربية وتكلم الله بالقرآن بها، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله: اعتياد اللغة يؤثر في العقل والخلق والدين تأثيرًا قويًا بينًا بحسب تلك اللغة.

وقال ـ رحمه الله ـ في اقتضاء الصراط المستقيم عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ من يحسن أن يتكلم بالعربية فلا يتكلم بالعجمية فإنه يورث النفاق.

وقال عمر بن الخطاب: لا تَعَلَّمَوا رَطَانَةِ الأعاجم ولا تدخلوا على المشركين في كنائسهم يوم عيدهم فإن السخطة تنزل عليهم، وقال عمر: ما تعلم الرجل الفارسية إلا خب ولا خب رجل إلا نقصت مروءته. انتهى.

الرابع عشر: التوبيخ للمعترضين والمعاندين والإيماء إلى أن التبديل لم يكن للهوى بل لحكمة اقتضت ذلك.

الخامس عشر: إبطال شبه المعترضين.

السادس عشر: إثبات صفة الربوبية.

السابع عشر: أن القرآن نزل بالصدق والعدل.

الثامن عشر: أن القرآن نافع للخلق كل النفع في دينهم ودنياهم فيه تثبت العقائد وتطئمن القلوب وتنشرح الصدور.

التاسع عشر: أن فيه الهداية من الزيغ والضلالات ففيه ما يهذب النفوس ويكبح جماح الطغيان ويرد الظالم عن ظلمه ويدفع عدوان الناس بعضهم عن بعض إلى غير ذلك من المنافع.

العشرون: أن فيه بشرى للمسلمين بما سيلقونه من الجنات التي تجري من تحتها الأنهار.

الحادي والعشرون: أن قدح الجاهل لا عبرة به لأن القدح في الشيء فرع عن العلم به.

الثاني والعشرون: أنه نزل بالتدريج كما تشعر به صيغة التفعيل في الموضعين.

الثالث والعشرون: التنويه بروح القدس وهو جبريل عليه السلام المنزه عن كل عيب ونقص وخيانة.

الرابع والعشرون: الرد على من أنكر صفة العلم أو أولها بتأويل باطل كالأشاعرة والجهمية والمعتزلة.

الخامس والعشرون: الرد على من قال إن محمداً عليه السلام سمعه من الله ولم يسمعه من جبريل عليه السلام.

السادس والعشرون: أن المشركين لا يدركون ما في التبديل من الحكم التي منها أن الآية الأخرى أصلح للحال الجديدة التي صارت إليها الأمة وأصلح للبقاء بعد ذلك الدهر الطويل الذي لا يعلمه إلا الله.

س ـ بيِّنْ أقوال من يلي من الفرق في مسألة الكلام: الجهمية، المعتزلة، الكلابية، الأشعرية، الكرامية، الماتريدية، الاتحادية، السالمية، الصابئة، المتفلسفة؟

ج ـ مذهب الجهمية والمعتزلة: أن القرآن مخلوق.

وقول الكلابية وأتباعهم من الأشاعرة: أن القرآن نوعان: ألفاظ ومعان فالألفاظ مخلوقة وهي هذه الألفاظ الموجودة، والمعاني قديمة قائمة بالنفس وهي معنى واحد لا تبعض فيه ولا تعدد، إن عُبِّر عنه بالعربية كان قرآنًا، وإن عبر عنه بالعبرانية كان توراةً، وإن عبر عنه بالسريانية كان إنجيلاً، وأنه لا يتعلق بمشيئته وقدرته.

وقول الكَرَّامية: إنه متعلق بالمشيئة والقدرة قائم بذات الرب، وهو حروف وأصوات مسموعة، وهو حادث بعد أن لم يكن، وأخطئوا في قولهم: إن له ابتداء في ذاته.

ومذهب الماتريدية: أن كلامه يتضمن معنى قائمًا بذات الله هو ما خلقه في غيره، وهذا قول أبي منصور.

ومذهب الاتحادية: أن كل كلام في الوجود كلام الله، نظمه ونثره، حقه وباطله، وسحره وكفره، والسب والشتم والهجر والفحش، وأضداده، كله عين

كلام الله تعالىٰ القائم به.

ومذهب السالمية: أنه صفة قائمة بذات الله لازمة لها كلزوم الحياة، ولا يتعلق بالمشيئة والقدرة. ومع ذلك هو حروف وأصوات وسور وآيات لا يسبق بعضها بعضًا.

مقترنة الباء مع السين مع الميم في آن واحد. لم تكن معدومة في وقت من الأوقات ولا تعدم بل هي لم تزل قائمة بذات الله.

ومذهب الصابئة والمتفلسفة: أن كلام الله هو ما يفيض علىٰ النفوس من المعاني إما من العقل الفعال عند بعضهم كابن سينا أو من غيره.

س ـ ما هو القول الحق في القرآن فيما إذا كتب في الورق أو قرأه القارئ، وضح ذلك بما يزيل الإشكال؟

ج ـ القرآن كلام الله حيث تصرف سواء كان محفوظًا في الصدور، أو متلوًا بالألسنة، أو مكتوبًا في المصاحف، فلا يخرج بذلك عن أن يكون كلامه، وهو منزل غير مخلوق.

وأما كتابة العباد وأصواتهم والورق الذي كتب عليه القرآن، والمداد الذي كتب به، فهذه كلها مخلوقة فإن جميع ما يرجع إلىٰ ذوات العباد وأوصافهم مخلوق.

وأما الذي يرجع إلىٰ الله تعالىٰ ويضاف إليه فإن كلامه غير مخلوق، وهذا الفرق واضح شرعًا وعقلاً.

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ موضحًا ذلك:

وتلاوة القرآن أفعال لنا	وكذا الكتابة فهي خط بنان
لكنما المتلو والمكتوب والـ	ـمحفوظ قول الواحد الرحمن
العبد يقرؤه بصوت طيب	وبضده فهما له صوتان
وكذاك يكتبه بخط جيد	وبضده فهما له خطان
أصواتنا ومدادنا وأداتنا	والرق ثم كتابة القرآن
ولقد أتى في نظمه من قال قو	ل الحق غير جبان

إن الذي هو في المصاحف مثبت   بأنامل الأشياخ والشبان
هو قول ربي آيه وحروفه   ومدادنا والرق مخلوقان
فشفى وفرق بين متلوٍ ومصـ   ـنوع وذاك حقيقة العرفان
الكل مخلوق وليس كلامه الـ   ـمتلو مخلوقًا هنا شيئان
فعليك بالتفصيل والتمييز فالـ   ـإطلاق والإجمال دون بيان
قد أفسدا هذا الوجود وخطا الـ   ـأذهان والآراء كل زمان
وتلاوة القرآن في تعريفها   باللام قد يعنى به شيئان
يعنى به المتلو فهو كلامه   هو غير مخلوق كذي الأكوان
ويراد أفعال العباد كصوتهم   وأدائهم وكلاهما خلقان
هذا الذي نصت عليه أئمة الـ   ـإسلام أهل العلم والعرفان
وهو الذي قصد البخاري الرضى   لكن تقاصر قاصر الأذهان
عن فهمه كتقاصر الأفهام عن   قول الإمام الأعظم الشيباني
في اللفظ لما أن نفى الضدين عنـ   ـه واهتدى للنفي ذو العرفان
فاللفظ يصلح مصدرًا هو فعلنا   كتلفظ بتلاوة القرآن
وكذاك يصلح نفس ملفوظ به   وهو القرآن فذان محتملان
فلذاك أنكر أحمد الإطلاق في   نفي وإثبات بلا برهان

* * *

[رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة]

وقوله: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣].

﴿عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴾ [المطففين: ٢٤].

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس: ٢٦].

وقوله: ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥].

• الشَّرح •

● قال العلامة ناصر السعدي:

● ومن أصول أهل السُّنَّة والجماعة الثَّابتة: إثباتُ رُؤية المؤمنين لربهم في دار القرار والتَّنعُّم برؤيته وقربه ورضاه.

ويدلُّ على ذلك من الآيات التي ذكرها المُصنِّف:

قوله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴾: أي: جميلة نَاعِمة حسنة.

﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾: وهذا صَريحٌ في نَظَرِهم إلى ربِّهم.

وكذلك قوله: ﴿ على الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴾ [المطففين: ٢٣]. أي: إلى مَا أعطَاهم من النَّعيم الذي أجلّه وأعظمُهُ النَّظر إلى ربهم.

وكذلك قوله: ﴿ لِلَّذِين أَحْسَنُوا ﴾: أي: وَفُّوا مقام الإحسان لهم ﴿الْحُسْنَىٰ﴾ التي هي الجنة ﴿وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس: ٢٦]. وهي النَّظر إلى وجه الله الكريم.

وكذلك قوله: ﴿ لَهُم مَّا يشاءُون فيها وَلَدَيْنَا مزيدٌ ﴾ [ق: ٣٥].

● قال الشيخ محمد خليل هراس:

قوله: ﴿وجوه يومئذ ناضرة﴾ إلخ: هذه الآيات تثبت رؤية المؤمنين لله عز وجل يوم القيامة في الجنة.

وقد نفاها المعتزلة بناء على نفيهم الجهة عن الله لأن المرئي يجب أن يكون في جهة من الرائي، وما دامت الجهة مستحيلة وهي شرط في الرؤية فالرؤية كذلك مستحيلة، واحتجوا من النقل بقوله تعالى: ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾ وقوله لموسى عليه السلام حين سأله الرؤية: ﴿لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾.

وأما الأشاعرة فهم مع نفيهم الجهة كالمعتزلة يثبتون الرؤية، ولذلك حاروا في تفسير تلك الرؤية، فمنهم من قال يرونه من جميع الجهات ومنهم من جعلها رؤية بالبصيرة لا بالبصر، وقال: المقصود زيادة الانكشاف والتجلي حتى كأنها رؤية عين.

وهذه الآيات التي أوردها المؤلف حجة على المعتزلة في نفيهم الرؤية. فإن الآية الأولى عدي النظر فيها بإلى فيكون بمعنى الإبصار يقال نظرت إليه وأبصرته بمعنى ومتعلق النظر هو الرب جل شأنه.

وأما ما يتكلفه المعتزلة من جعلهم: ﴿نَاظِرَةٌ﴾ بمعنى منتظرة و«إلى» بمعنى النعمة والتقدير ثواب ربها منتظرة فهو تأويل مضحك.

وأما الآية الثانية: فتفيد أن أهل الجنة وهم على أرائكهم، يعني أسرتهم، جمع أريكة ينظرون إلى ربهم.

وأما الآيتان الأخيرتان فقد صح عن النبي ﷺ تفسير الزيادة بالنظر إلى وجه الله عز وجل ويشهد لذلك أيضًا قوله تعالى في حق الكفار: ﴿كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ فدل حجب هؤلاء على أن أولياءه يرونه، وأحاديث الرؤية متواترة في المعنى عند أهل العلم بالحديث لا ينكرها إلا ملحد زنديق.

وأما ما احتج به المعتزلة من قوله تعالى: ﴿لا تدركه الأبصار﴾ فلا حجة لهم فيه؛ لأن نفي الإدراك لا يستلزم نفي الرؤية، فالمراد أن الأبصار تراه ولكن لا تحيط به رؤية

كما أن العقول تعلمه ولكن لا تحيط به علمًا؛ لأن الإدراك هو الرؤية على جهة الإحاطة، فهو رؤية خاصة ونفي الخاص لا يستلزم نفي مطلق الرؤية، وكذلك استدلالهم على نفي الرؤية بقوله تعالى لموسى عليه السلام: ﴿لن تراني﴾ لا يصلح دليلاً بل الآية تدل على الرؤية من وجوه كثيرة منها:

١ - وقوع السؤال من موسى وهو رسول الله وكليمه، وهو أعلم بما يستحيل في حق الله من هؤلاء المعتزلة، فلو كانت الرؤية ممتنعة لما طلبها.

٢ - أن الله عز وجل علق الرؤية على استقرار الجبل حال التجلي وهو ممكن والمعلق على الممكن ممكن.

٣ - أن الله تجلى للجبل بالفعل وهو جماد، فلا يمتنع إذًا أن يتجلى لأهل محبته وأصفيائه.

وأما قولهم: إن «لن» لتأبيد النفي وأنها تدل على عدم وقوع الرؤية أصلاً فهو كذب على اللغة، فقد قال تعالى حكاية عن الكفار: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ ثم قال: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ فأخبر عن عدم تمنيهم للموت بلن ثم أخبر عن تمنيهم له وهم في النار.

وإذًا فمعنى قوله: ﴿لَن تَرَانِي﴾ لن تستطيع رؤيتي في الدنيا لضعف قوى البشر فيها عن رؤيته سبحانه، ولو كانت الرؤية ممتنعة لذاتها لقال إني لا أُرى، أو لا يجوز رؤيتي أو لست بمرئي ونحو ذلك والله أعلم.

● قال الشيخ ابن العثيمين:

ذكر المؤلف - رحمه الله - آيات إثبات رؤية الله تعالى:

الآية الأولى: قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣].

قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾: يعني بذلك: اليوم الآخر:

قوله: ﴿نَّاضِرَةٌ﴾: أي: حسنة، من النضارة؛ بالضاد، وهي: الحسن، يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ [الإنسان: ١١]؛ أي: حسنًا في وجوههم، وسرورًا في قلوبهم.

قوله: ﴿إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾: ﴿نَاظِرَةٌ﴾؛ بالظاء، من النظر، وهنا عُدِّي بـ (إلىٰ) الدالة علىٰ الغاية، وهو نظر صادر من الوجوه، والنظر الصادر من الوجوه يكون بالعين، بخلاف النظر الصادر من القلوب؛ فإنه يكون بالبصيرة والتدبر والتفكر؛ فهنا صدر النظر من الوجوه إلىٰ الرب عز وجل؛ لقوله: ﴿إِلَى رَبِّهَا﴾.

فتفيد الآية الكريمة: أن هذه الوجوه الناضرة الحسنة تنظر إلىٰ ربها عز وجل، فتزداد حسنًا إلىٰ حسنها.

وانظر كيف جعل هذه الوجوه مستعدة متهيئة للنظر إلىٰ وجه الله عز وجل؛ لكونها نضرة حسنة متهيئة للنظر إلىٰ وجه الله.

ففي هذه الآية دليل علىٰ أن الله عز وجل يُرىٰ بالأبصار.

وهذا هو قول أهل السنة والجماعة.

واستدلوا لذلك بالآيات التي ساقها المؤلف ـ رحمه الله ـ، واستدلوا أيضًا بالأحاديث المتواترة عن النبي ﷺ والتي نقلها عنه صحابة كثيرون[1]، ونقلها عن هؤلاء الصحابة تابعون كثيرون، ونقلها عن التابعين من تابعي التابعين كثيرون.. وهكذا.

والنصوص فيها قطعية الثبوت والدلالة؛ لأنها في كتاب الله تعالىٰ وفي سنة رسوله ﷺ المتواترة:

وأنشدوا في هذا المعنىٰ:

مما تواتر حديث من كذب	ومن بنى لله بيتا واحتسب
ورؤية شفاعة والحوض	ومسح خفين وهذي بعض

فالمراد بقوله: «ورؤية»: رؤية المؤمنين لربهم.

وأهل السنة والجماعة يقولون: إن النظر هنا بالبصر حقيقة.

ولا يلزم منه الإدراك؛ لأن الله تعالىٰ يقول: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ [الأنعام: ١٠٣]؛ كما أن العلم بالقلب أيضًا لا يلزم منه الإدراك؛ قال الله

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٥٤) ومسلم (٦٣٣) من حديث جرير بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ.

تعالىٰ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠].

ونحن نعلم ربنا بقلوبنا، لكن لا ندرك كيفيته وحقيقته، وفي يوم القيامة نرىٰ ربنا بأبصارنا، ولكن لا تدركه أبصارنا.

الآية الثانية: قوله: ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطففين: ٢٤].

﴿الأَرَائِكِ﴾: جمع أريكة، وهي السرير الجميل المغطىٰ بما يشبه الناموسية.

﴿يَنظُرُونَ﴾: لم يذكر المنظور إليه، فيكون عامًا لكل ما يتنعمون بالنظر إليه.

وأعظمه وأنعمه النظر إلىٰ الله تعالىٰ؛ لقوله تعالىٰ: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ [المطففين: ٢٤]؛ فسياق الآية يشبه قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]؛ فهم ينظرون إلىٰ كل ما يتنعمون بالنظر إليه.

ومنه النظر إلىٰ قرناء السوء يعذبون في الجحيم؛ كما قال تعالىٰ: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ * يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ * أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ * قَالَ﴾ [الصافات: ٥١ - ٥٤]؛ أي: لأصحابه: ﴿هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾ [الصافات: ٥٤]: ﴿هَلْ﴾: للتشويق... يطلعون علىٰ ماذا؟! علىٰ هذا القرين، ﴿فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٥٥]!! أعوذ بالله! رآه في سوائها؛ أي: في أصلها، وقعرها... سبحان الله! هذا في أعلىٰ عليين، وهذا في أسفل سافلين، وينظر إليه مع بعد المسافة العظيمة!.

لكن نظر أهل الجنة ليس كنظر أهل الدنيا، هناك ينظر الإنسان في ملكه في الجنة مسيرة ألفي عام، ينظر أقصاه كما ينظر أدناه، من كمال النعيم؛ لأن الإنسان لو كان نظره كنظره في الدنيا؛ ما استمتع بنعيم الجنة؛ لأنه ينظر إلىٰ مدىٰ قريب، فيخفىٰ عليه شيء كثير منه.

اطلع من أعلىٰ عليين إلىٰ أسفل سافليين، فرآه في سواء الجحيم.

قال يخاطبه: ﴿تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾ [الصافات: ٥٦]، وهذا يدل أنه كان دائمًا يحاول أن يضله، ولهذا قال: ﴿إِنْ كِدتَّ﴾؛ يعني: إنك قاربت، و﴿إِنْ﴾ هذه المخففة لا الثقيلة، ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ * أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ﴾ [الصافات: ٥٧، ٥٨] إلىٰ آخر الآيات.

أقول: إن الناس سابقًا يمارون في مثل هذا؛ كيف يكون في أعلىٰ مكان ويخاطب من ينظر إليه ويكلمه في أسفل مكان؟!.

ولكن ظهرت الآن أشياء من صنع البشر؛ كالأقمار الصناعية، والتليفونات التليفزيونية... وغير ذلك؛ يرىٰ الإنسان من خلالها من يكلمه وينظر إليه وهو بعيد.

مع أنه لا يمكن أن نقيس ما في الآخرة علىٰ ما في الدنيا.

إذًا؛ ﴿يَنظُرُونَ﴾: عامة: ينظرون إلىٰ الله، وينظرون ما لهم من النعيم، وينظرون ما يحصل لأهل النار من العذاب...

إذا قال قائل: هذا فيه إشكال!! كيف ينظرون إلىٰ أهل النار ينكتون عليهم ويوبخونهم؟!

فنقول: والله؛ ما أكثر ما أذاق أهل النار أهل الجنة في الدنيا من العذاب والبلاء والمضايقة!!

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُواْ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ يضحكون؛ سواء في مجالسهم، أو معهم، ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ * وَإِذَا انقَلَبُواْ إِلَى أَهْلِهِمُ انقَلَبُواْ فَكِهِينَ﴾؛ أي: انقلبوا متنعمين بأقوالهم، ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ﴾!! قال الله تعالىٰ: ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ * عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطففين: ٢٩-٣٥]؛ ينظرون إليهم وهم -والعياذ بالله- في سواء الجحيم.

إذًا؛ يكون هذا من تمام عدل الله عز وجل؛ بأن جعل هؤلاء الذي كانوا يضايقون في دار الدنيا، جعلهم الآن يفرحون بنعمة الله عليهم، ويوبخون هؤلاء الذين في سواء الجحيم.

الآية الثالثة: قوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

قوله: ﴿لِّلَّذِينَ﴾: خبر مقدم.

و ﴿الْحُسْنَى﴾: مبتدأ مؤخر، وهي الجنة.

﴿وَزِيَادَةٌ﴾: هي: النظر إلىٰ وجه الله.

هكذا فسره النبي ﷺ؛ كما ثبت ذلك في «صحيح مسلم» وغيره(١).

ففي هذه الآية دليل علىٰ ثبوت رؤية الله من تفسير الرسول عليه الصلاة والسلام، وهو أعلم الناس بمعاني القرآن بلا شك، وقد فسرها بالنظر إلىٰ وجه الله، وهي زيادة علىٰ نعيم الجنة.

إذًا؛ فهي نعيم ليس من جنس النعيم في الجنة؛ لأن جنس النعيم في الجنة نعيم بدن؛ أنهار، وثمار، وفواكه، وأزواج مطهرة. . . وسرور القلب فيها تبع، لكن النظر إلىٰ وجه الله نعيم قلب، لا يرىٰ أهل الجنة نعيمًا أفضل منه، نسأل الله أن يجعلنا ممن يراه.

وهذا نعيم ما له من نظير أبدًا؛ لا فواكه، ولا أنهار، ولا غيرها أبدًا، ولهذا قال: ﴿وَزِيَادَةٌ﴾؛ أي: زيادة علىٰ الحسنىٰ.

الآية الرابعة: قوله: ﴿لَهُم مَّا يَشَاؤُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥].

قوله: ﴿لَهُم مَّا يَشَاؤُونَ فِيهَا﴾: أي: في الجنة كل ما يشاءون.

وقد ورد في الحديث الصحيح أن رجلا قال للنبي ﷺ: يا رسول الله! أفي الجنة خيل؟ فإني أحب الخيل. فقال: «**إن يدخلك الله الجنة فلا تشاء أن تركب فرسًا، من ياقوتة حمراء، تطير بك في أي الجنة شئت إلا فعلت**». وقال الأعرابي: يا رسول الله! أفي الجنة إبل؟ فإني أحب الإبل: قال: «**يا أعرابي! إن يدخلك الله الجنة؛ أصبت ما اشتهت نفسك ولذت عينك**»(٢).

فإذا اشتهىٰ أي شيء؛ فإنه يكون ويتحقق، حتىٰ إن بعض العلماء يقول: لو اشتهىٰ الولد لكان له ولد؛ فكل شيء يشتهونه فهو لهم.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٨١) من حديث صهيب ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) صحيح: أخرجه الترمذي (٢٥٤٣) وأحمد في «مسنده» (٥/ ٣٥٢) وعبد الرزاق في «مصنفه» (٦٧٠٠) من حديث بريدة بن الحصيب ـ رضي الله عنه ـ والحديث صححه الشيخ الألباني في «صحيح الترمذي» (٢٥٥٦).

قال تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧١].

وقوله: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾: أي: مزيد على ما يشاءون.

يعني: أن الإنسان إذا شاء شيئًا؛ يعطى إياه، ويعطى زيادة؛ كما جاء في الحديث الصحيح في آخر أهل الجنة دخولا، يعطيه الله عز وجل نعيمًا، ونعيمًا. . . ويقول: رضيت. يقول له: «**لك مثله وعشرة أمثاله**»[1]. فهو أكثر مما يشاء.

وفسر المزيد كثير من العلماء بما فسر به النبي ﷺ الزيادة، وهي: النظر إلى وجه الله الكريم.

فتكون الآيات التي ساقها المؤلف ـ رحمه الله ـ لإثبات رؤية الله تعالى أربعًا.

وهناك آية خامسة استدل بها الشافعي ـ رحمه الله ـ، وهي قوله تعالى في الفجار: ﴿**كَلا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ**﴾ [المطففين: ١٥].

ووجه الدلالة أنه ما حجب هؤلاء في الغضب؛ إلا رآه أولئك في الرضا؛ فإذا كان أهل الغضب محجوبين عن الله؛ فأهل الرضى يرون الله عز وجل.

وهذا استدلال قوي جدًا؛ لأنه لو كان الكل محجوبين؛ لم يكن مزية لذكر هؤلاء.

وعلى هذا؛ فنقول: الآيات خمس، ويمكن أن نلحق بها قول الله تعالى: ﴿**لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ**﴾ [الأنعام: ١٠٣]؛ على ما سنقرره في الرد على النفاة إن شاء الله.

فهذا قول أهل السنة في رؤية الله تعالى وأدلتهم، وهي ظاهرة جلية، لا ينكرها إلا جاهل أو مكابر.

وخالفهم في ذلك طوائف من أهل التعطيل من الجهمية والمعتزلة والأشاعرة وغيرهم، واستدلوا بأدلة سمعية متشابهة وأدلة عقلية متداعية:

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٨٨) من حديث أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ.

أما الأدلة السمعية:

فالأول: قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾ [الأعراف: ١٤٣].

ووجه الدلالة أن (لن) للنفي المؤبد، والنفي خبر، وخبر الله تعالى صدق، لا يدخله النسخ.

والرد عليهم من وجوه:

- الأول: منع كون (لن) للنفي المؤبد؛ لأنه مجرد دعوى:

قال ابن مالك في «الكافية»:

ومن رأى النفي بلن مؤبداً فقوله اردد وسواه فاعضدا

الثاني: أن موسى عليه السلام لم يطلب من الله الرؤية في الآخرة؛ وإنما طلب رؤية حاضرة؛ لقوله: ﴿أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾؛ أي: الآن. فقال الله تعالى له: ﴿لَن تَرَانِي﴾؛ يعني: لن تستطيع أن تراني الآن، ثم ضرب الله له مثلا بالجبل حيث تجلى الله تعالى له فجعله دكًا، فقال: ﴿وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾، فلما رأى موسى ما حصل للجبل؛ علم أنه هو لا طاقة له برؤية الله، وخر صعقًا لهول ما رأى.

ونحن نقول: إن رؤية الله تعالى في الدنيا مستحيلة؛ لأن الحال البشرية لا تستطيع تحمل رؤية الله عز وجل؛ كيف وقد قال النبي ﷺ عن ربه عز وجل: **«حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»**[1].

أما رؤية الله تعالى في الآخرة فممكنة؛ لأن الناس في ذلك اليوم يكونون في عالم آخر تختلف فيه أحوالهم عن حالهم في الدنيا؛ كما يعلم ذلك من نصوص الكتاب والسنة فيما يجري للناس في عرصات القيامة وفي مقرهم في دار النعيم أو الجحيم.

---

(١) سبق تخريجه.

الوجه الثالث: أن يقال: استحالة رؤية الله في الآخرة عند المنكرين لها مبنية على أن إثباتها يتضمن نقصًا في حق الله تعالى! كما يعللون نفيهم بذلك، وحينئذ يكون سؤال موسى عليه السلام لربه الرؤية دائرًا بين الجهل بما يجب لله ويستحيل في حقه أو الاعتداء في دعائه حين طلب من الله ما لا يليق به إن كان عالمًا بأن ذلك مستحيل في حق الله، وحينئذ يكون هؤلاء النافون أعلم من موسى فيما يجب لله تعالى ويستحيل في حقه! وهذا غاية الضلال!.

وبهذا الوجه يتبين أن في الآية دليلا عليهم لا دليلا لهم.

وهكذا؛ كل دليل من الكتاب والسنة الصحيحة يستدل به على باطل أو نفي حق فسيكون دليلا على من أورده، لا دليلا له.

الدليل الثاني لنفاة رؤية الله تعالى: قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

والرد عليهم: أن الآية فيها نفي الإدراك، والرؤية لا تستلزم الإدراك؛ ألا ترى أن الرجل يرى الشمس ولا يحيط بها إدراكًا؟!

فإذا أثبتنا أن الله تعالى يُرى؛ لم يلزم أن يكون يدرك بهذه الرؤية؛ لأن الإدراك أخص من مطلق الرؤية.

ولهذا نقول: إن نفي الإدراك يدل على وجود أصل الرؤية؛ لأن نفي الأخص يدل على وجود الأعم، ولو كان الأعم منتفيًا؛ لوجب نفيه، وقيل: لا تراه الأبصار؛ لأن نفيه يقتضي نفي الأخص، ولا عكس، ولأنه لو كان الأعم منتفيًا؛ لكان نفي الأخص إيهامًا وتلبيسًا ينزه عنه كلام الله عز وجل.

وعلى هذا؛ يكون في الآية دليل عليهم لا دليل لهم.

وأما أدلة نفاة الرؤية العقلية:

فقالوا: لو كان الله يُرى؛ لزم أن يكون جسمًا، والجسم ممتنع على الله تعالى؛ لأنه يستلزم التشبيه والتمثيل.

والرد عليهم: أنه إن كان يلزم من رؤية الله تعالى أن يكون جسمًا؛ فليكن ذلك،

لكننا نعلم علم اليقين أنه لا يماثل أجسام المخلوقين؛ لأن الله تعالىٰ يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١].

علىٰ أن القول بالجسم نفيًا أو إثباتًا مما أحدثه المتكلمون، وليس في الكتاب والسنة إثباته ونفيه.

وقد أجاب النفاة عن أدلة أهل الإثبات بأجوبة باردة، فحرفوها تحريفًا لا يخفىٰ علىٰ أحد، وليس هذا موضوع ذكرها، وهي مذكورة في الكتب المطولة.

ما نستفيده من الناحية المسلكية من هذه الآيات:

أما في مسألة الرؤية؛ فما أعظم أثرها علىٰ الاتجاه المسلكي؛ لأن الإنسان إذا وجد أن غاية ما يصل إليه من الثواب هو النظر إلىٰ وجه الله كانت الدنيا كلها رخيصة عنده؛ وكل شيء يرخص عنده في جانب الوصول إلىٰ رؤية الله عز وجل؛ لأنها غاية كل طالب، ومنتهىٰ المطالب.

فإذا علمت أنك سوف ترىٰ ربك عيانًا بالبصر؛ فوالله لا تساوي الدنيا عندك شيئًا.

فكل الدنيا ليست بشيء؛ لأن النظر إلىٰ وجه الله هو الثمرة التي يتسابق فيها المتسابقون، ويسعىٰ إليها الساعون، وهي غاية المرام من كل شيء.

فإذا علمت هذا؛ فهل تسعىٰ إلىٰ الوصول إلىٰ ذلك أم لا؟!

والجواب: نعم؛ أسعىٰ إلىٰ الوصول إلىٰ ذلك بدون تردد.

وإنكار الرؤية في الحقيقة حرمان عظيم، لكن الإيمان بها يسوق الإنسان سوقًا عظيمًا إلىٰ الوصول إلىٰ هذه الغاية؛ فهو يسير ولله الحمد؛ فالدين كله يسر، حتىٰ إذا وجد الحرج تيسَّر الدين؛ فأصله ميسر، وإذا وجد الحرج تيسر ثانيةً، وإذا لم يمكن القيام به أبدًا سقط؛ فلا واجب مع العجز، ولا حرام مع الضرورة.

● قال الشيخ صالح الفوزان:

قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ﴾: أي: وجوه المؤمنين ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم القيامة ﴿نَّاضِرَةٌ﴾ بالضاد: من النضارة، وهي البهاء والحسن، أي: ناعمة غضة حسنة مضيئة مشرقة ﴿إِلَىٰ

رَبِّهَا ﴾ أي: خالقها ﴿ نَاظِرَةٌ ﴾ أي: تنظر إليه بأبصارها، كما تواترت به الأحاديث الصحيحة، وأجمع عليه الصحابة والتابعون وسلف الأمة واتفق عليه أئمة الإسلام. فالشاهد من الآية الكريمة: إثبات رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة، وقوله: ﴿ عَلَى الأَرَائِكِ ﴾ جمع أريكة، وهي السرر ﴿ يَنظُرُونَ ﴾ إلى الله عز وجل، وأما الكفار فقد تقدم في الآيات التي قبل هذه الآية أنهم ﴿ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾،

والشاهد من الآية: إثبات رؤية المؤمنين لربهم عز وجل.

وقوله تعالى: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا ﴾: بالقيام بما أوجبه الله عليهم من الأعمال والكف عما نهاهم عنه من المعاصي ﴿ الْحُسْنَىٰ ﴾ أي: المثوبة الحسنى، وقيل: الجنة. ﴿ وَزِيَادَةٌ ﴾ هي النظر إلى وجه الله الكريم، كما ثبت تفسيرها بذلك عن رسول الله ﷺ في [صحيح مسلم] وغيره[1]، وكما فسرها بذلك سلف هذه الأمة، وعلى ذلك يكون الشاهد من الآية الكريمة: إثبات رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة.

وقوله تعالى: ﴿ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا ﴾: أي: للمؤمنين في الجنة ما تشتهي أنفسهم وتلذ أعينهم من فنون النعيم وأنواع الخير ﴿ وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ أي: زيادة على ذلك وهو النظر إلى وجه الله الكريم، وهذا هو الشاهد من الآية الكريمة، وهو إثبات النظر إلى وجه الله الكريم في الجنة.

ما يستفاد من الآيات الكريمة: يستفاد منها إثبات رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة، وأنها أعظم النعيم الذي ينالونه. وهذا هو قول الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين، خلافًا للرافضة والجهمية والمعتزلة الذين ينفون الرؤية ويخالفون بذلك الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة وأئمتها، ويعتمدون على شبه واهية وتعليلات باطلة منها:

١ ـ قولهم: إن إثبات الرؤية يلزم منه إثبات أن الله في جهة ولو كان في جهة لكان جسمًا والله منزه عن ذلك.

والجواب عن هذه الشبهة: أن نقول: لفظ الجهة فيه إجمال. فإن أريد بالجهة أنه حال في شيء من مخلوقاته فهذا باطل والأدلة ترده وهذا لا يلزم من إثبات الرؤية، وإن أريد

(١) أخرجه مسلم (١٨١) والترمذي (٢٥٥٢) من حديث صهيب بن سنان ـ رضي الله عنه ـ.

بإجماع أنه سبحانه فوق مخلوقاته فهذا ثابت لله سبحانه ونفيه باطل، وهو لا يتنافى مع رؤيته سبحانه.

٢ ـ استدلوا بقوله تعالى لموسى: ﴿ترَاني﴾.

والجواب عن هذا الاستدلال: أن الآية الكريمة واردة في نفي الرؤية في الدنيا ولا تنفي ثبوتها في الآخرة كما ثبت في الأدلة الأخرى. وحالة الناس في الآخرة تختلف عن حالتهم في الدنيا.

٣ ـ استدلوا بقوله تعالى: ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾

والجواب عن هذا الاستدلال: أن الآية إنما فيها نفي الإدراك، وليس فيها نفي الرؤية. والإدراك معناه: الإحاطة، فالله سبحانه وتعالى يراه المؤمنون ولا يحيطون به، بل نفي الإدراك يلزم منه وجود الرؤية، فالآية من أدلة إثبات الرؤية. والله تعالى أعلم.

* * *

[أسئلة وأجوبة نموذجية على رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة]

● قال الشيخ عبد العزيز المحمد السلمان:

س ـ ما هو الإيمان برؤية الله في الآخرة، وما هو الدليل على ذلك؟

ج ـ هو الاعتقاد الجازم بأن المؤمنين يرون ربهم عيانًا بأبصارهم في عرصة القيامة وفي الجنة ويزورونه ويكلمهم ويكلمونه.

قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾، ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ﴾، ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ وقال ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾.

ومن السُّنة قوله ﷺ: «إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر لا تضامون في رؤيته....» ـ الحديث ـ قال بعضهم:

وقل يتجلى الله للخلق جهرة ... كما البدر لا يخفى وربك أوضح

وقد ينكر الجهمي هذا وعندنا ... بمصداق ما قلنا حديث مصرح

رواه جرير عن مقال محمد ... فقل مثل ما قد قال في ذاك تنجح

س ـ ما الذي تفهمه من معاني هذه الآيات الدالات على رؤية الله؟

ج ـ يخبر تعالى عن وجوه المؤمنين المخلصين يوم القيامة أنها حسنة بهيَّة مشرقة مسرورة مما هم فيه من نعيم القلوب، وبهجة النفوس، ولذة الأرواح، إلى ربها ناظرة أي: تنظر إلى ربها عيانًا بلا حجاب.

قال جمهور أهل العلم: المراد بذلك ما تواترت به الأحاديث الصحيحة من أن العباد ينظرون إلى ربهم يوم القيامة كما ينظرون إلى القمر ليلة البدر. في هذه الآية:

أولاً: إثبات الرؤية.

ثانيًا: إثبات الربوبية الخاصة.

ثالثًا: أن الرؤية خاصة بالمؤمنين.

رابعًا: أنها في الآخرة دون الدنيا.

خامسًا: فيها رد على الجهمية والمعتزلة ونحوهم من المنكرين للرؤية .

وفي الآية الثانية: يخبر تعالى عن حال الأبرار الذين آمنوا به وصدقوا رسله وعملوا الخير في الحياة الدنيا أنهم في الجنة على الأسرة في حجالها ينظرون إلى وجهه الكريم، وإلى ما أُعِدَّ لأعدائه الكفار المذنبين، ففي هذه الآية كالآية التي قبلها:

أولاً: إثبات الرؤية .

ثانيًا: فيه ترغيب في الطاعة، وحفز لعزائم المحسنين ليزداودا إحسانًا وشوقًا وفرحًا وسرورًا .

ثالثًا: فيها دليل على جود الله وكرمه .

رابعًا: فيها دليل على علو الله تعالى .

خامسًا: أن الرؤية في الآخرة دون الدنيا .

سادسًا: الرد على الجهمية والمعتزلة المنكرين لرؤية الله .

سابعًا: أنها خاصة بالأبرار .

ثامنًا: أن الجنة حق .

تاسعًا: فيها دليل على البعث، والحساب والجزاء على الأعمال .

وفي الآية الثالثة: يخبر تعالى عن الأعمال الموصلة إلى دار السلام بقوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ أي للذين أحسنوا في عبادة الخالق فقاموا بما أوجبه الله عليهم من الأعمال والكف عما نهاهم عنه من المعاصي .

وأحسنوا إلى عباد الله بما يقدرون عليه من الإحسان القولي والفعلي فأحسنوا الاعتقاد، وأحسنوا العمل .

وأحسنوا معرفة الصراط المستقيم فلهم الحسنى وهي الجنة وزيادة، وهي النظر إلى وجه الله الكريم كما فسرها رسول الله ﷺ، ولما عطف الزيادة على الحسنى دل على أنها جزاء آخر وراء الجنة وقَدْرٌ زائدٌ عليها .

ففي الآية:

أولاً: الحث على الإحسان .

ثانيًا: دليل على كرم الله .

ثالثًا: دليل على البعث والحساب والجزاء على الأعمال.

رابعًا: أن الله يجازي المحسن على إحسانه ومن أسمائه: الشكور.

قال ابن القيم:

وهو الشكور فلن يضيع سعيهم ... لكن يضاعفه بلا حسبان

ما للعباد عليه حق واجب ... هو أوجب الأجر العظيم الشان

الآية الرابعة: نحو هذه.

وأما الحديث ففيه:

إثبات الربوبية الخاصة بالمؤمنين.

وإثبات الرؤية وأنها في الآخرة.

وإثبات علو الله على خلقه.

وفيه الرد على من زعم أن الرؤية العلم.

وفيه دليل على البعث والجزاء والحساب.

وفيه الحث على الطاعة والازدياد من الأعمال الصالحة.

وفيه الرد على من أنكر الرؤية أو أنكر علو الله على خلقه.

وفيه تشبيه للرؤية بالرؤية لا المرئي بالمرئي فإن الله تعالى لا شبيه له ولا نظير.

س ـ بماذا يرد على الجهمية والمعتزلة ونحوهم ممن ينكر الرؤية؟

ج ـ بالآيات المتقدمة والحديث وبقوله تعالى: ﴿كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ فلما حجب أولئك في حال السخط دل على أن المؤمنين يرونه في حال الرضا، وإلا لم يكن فرق بينهما.

وقال تعالى حكاية عن موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾ ووجه الاستدلال به من وجوه:

الأول: أن سؤال موسى الرؤية يدل على إمكانها، لأن العاقل ـ فضلاً عن النبي ـ لا يطلب المحال فكيف يظن بكليم الله ورسوله الكريم وأعلم الناس بربه في وقته، أن يسأل ما لا يجوز عليه بل هو عندهم من أعظم المحال.

الثاني: أنه لم ينكر عليه سؤاله، ولما سأل نوح ربه نجاة ابنه أنكر سؤاله وقال: ﴿إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾.

الثالث: أنه قال لن تراني، ولم يقل إني لا أرى أو لا تجوز رؤيتي أو لست بمرئي.

الرابع: قوله: ﴿وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾ فعلق الرؤية على استقرار الجبل وهو أمر ممكن في نفسه، والمعلق على الممكن ممكن، لأن معنى التعليق الإخبار بوقوع المعلق عند وقوع المعلق به، والمحال لا يثبت على شيء من التقادير الممكنه.

الخامس: قوله: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ فإذا جاز أن يتجلى للجبل الذي هو جماد فكيف يمتنع أن يتجلى لرسله وأوليائه في دار كرامته؟

السادس: أن الله كلم موسى وناداه وناجاه، ومن جاز عليه التكلم والتكليم، وأن يسمع مخاطبه كلامه بغير واسطةٍ فرؤيته أولى بالجواز.

ويرد عليهم أيضًا بما استدلوا به على نفيها وهو قوله تعالى: ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾ وذلك من وجه حسن لطيف وهو أن الله تعالى إنما ذكرها في سياق التمدح، ومعلوم أن المدح إنما يكون بالصفات الثبوتية.

وأما العدم المحض فليس بكمال فلا يمدح به، وإنما يمدح تعالى بالنفي إذا تضمن أمرًا وجوديًّا، كمدحه بنفي النسيان وعزوب شيء عن علمه المتضمن كمال علمه وإحاطته.

ونفي المثل المتضمن لكمال ذاته وصفاته فقوله: ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾ لعظمته وجلاله وكماله أي لا تحيط به الأبصار وإن كانت تراه في الآخرة وتفرح بالنظرلوجهه الكريم.

فنفي الإدراك لا ينفي الرؤية بل يثبتها بالمفهوم فإنه إذا نفى الإدراك الذي هو أخص أوصاف الرؤية دل على أن الرؤية ثابتة، فإنه لو أراد نفي الرؤية لقال لا تراه الأبصار ونحو ذلك، فعلم أنه ليس للمعطلة في الآية حجة.

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ:

ويرونه سبحانه من فوقهم	نظر العيان كما يرى القمران
هذا تواتر عن رسول الله لم	ينكره إلا فاسد الإيمان
وأتى به القرآن تصريحًا وتعـ	ريضًا هما بسياقه نوعان
وهي الزيادة فسرت في يونس	تفسير من قد جاء بالقرآن



[وضوح الهدى والحق لمن تدبر القرآن]

وهذَا البَابُ فِي كِتَابِ اللَّهِ كَثِيرٌ، مَنْ تَدَبَّرَ القُرآنَ طَالبًا للهُدَى منه؛ تَبيَّن لَهُ طَرِيقُ الحَقِّ.

• الشَّرح •

● قال العلامة ناصر السعدي:

● اعلم أن أهل السُّنَّة والجماعة وهم الصَّحابة والتابعون لهم بإحسان وأهل القرون المفضلة متفقون على:

* إثبات جميع ما ورد في الكتاب والسُّنَّة من صفات اللَّه لا فرق بين الذاتية منها كـ: «العلم» و«القدرة» و«الإرادة» و«الحياة» و«السمع» و«البصر» ونحوها، ولا بين الفعلية كـ: «الرضا» و«الغضب» و«المحبة» و«الكراهية».

* وكذلك: لا فرق بين إثبات «الوجه» و«اليدين» ونحوها، وبين «الاستواء على العرش» و«النزول إلى السماء الدنيا كل ليلة» وغيرها. فكُلها يُثبِتُونها من غير نفي لشيء منها ولا تأويل ولا تحريف ولاتمثيل، وهذا هو الحق وهو الصراط المستقي وهو الطريق المُنجي من عذاب الله ـ والهدىٰ والنور.

وخَالَفَهُم في هذا الأصل طائفتان من أهل البِدَع:

إحداهما: «الجهمية» و«المعتزلة»: علىٰ اختلاف طَوَائِفهم، فإنهم نفوا جميع الصفات ولم يُثبِتُوا إلا الأسماء والأحكام.

والآيات السابقة كلها تنقض قولهم وتُبطِلُه، وكذلك كلامهم هذا يَنقُض بعضه بعضًا، فإن إثبات الأسماء والأحكام بلا أوصاف تقوم بالله محالٌ فعلاً، كما أنه باطل سمعاً.

الطائفة الثانية «الأشعرية» ومن تبعهم، وهم أخف حالاً وأهون من المعتزلة.

لأنهم وافقوا «أهل السُّنَّة» في شيء، ووافقوا «المعتزلة» في شيء.

وافقوا «أهل السُّنَّة» في إثبات الصِّفات السَّبع، وهي: «الحياة» و«الكلام»، و«العلم» و«السمع» و«البصر» و«الإرادة» و«القدرة».

ووافقوا «المعتزلة» في بقية الصِّفات.

والجميع مَحجُوجون بالكتاب والسُّنَّة وإجماع الصحابة والقُرُون المُفضَّلة على الإثبات العام.

وأما النَّفي للصِّفات كلها أو التَّناقض فإنه مُخالف للكتاب والسُّنَّة ومُنافٍ للعقل الصَّحيح.

فلا يَثبُت للعبد إيمان إلا بالإيمان المحض والتسليم لما جاء به الرَّسول بِلا شَرط ولا قَيد، والدَّوَرانِ مع النُّصوص الشَّرعية إثباتًا ونَفيًا.

● قال الشيخ محمد خليل هراس:

(مباحث عامة حول آيات الصفات)

إن الناظر في آيات الصفات التي ساقها المؤلف ـ رحمه الله ـ يستطيع أن يستنبط منها قواعد وأصولاً هامة يجب الرجوع إليها في هذا الباب.

الأصل الأول: اتفق السلف على أنه يجب الإيمان بجميع الأسماء الحسنى وما دلت عليه من الصفات وما ينشأ عنها من الأفعال، مثال ذلك: القدرة مثلاً يجب الإيمان بأنه سبحانه على كل شيء قدير.

والإيمان بكمال قدرته، والإيمان بأن قدرته نشأت عنها جميع الكائنات، وهكذا بقية الأسماء الحسنى على هذا النمط. وعلى هذا فما ورد في هذه الآيات التي ساقها المصنف من الأسماء الحسنى فإنها داخلة في الإيمان بالاسم، وما فيها من ذكر الصفات مثل عزة الله وقدرته وعلمه وحكمته وإرادته ومشيئته فإنها داخلة في الإيمان بالصفات وما فيها من ذكر الأفعال المطلقة والمقيدة، مثل يعلم كذا ويحكم ما يريد، ويرى ويسمع، وينادي ويناجي، وكلم ويكلم، فإنها داخلة في الإيمان بالأفعال.

الأصل الثاني: دلت هذه النصوص القرآنية على أن صفات الباري قسمان:

١ ـ صفات ذاتية لا تنفك عنها الذات، بل هي لازمة لها أزلاً وأبدًا ولا تتعلق بها

مشيئته تعالىٰ وقدرته، وذلك كصفات الحياة والعلم والقدرة والقوة والعزة والملك والعظمة والكبرياء والمجد والجلال إلخ.

٢ ـ صفات فعلية تتعلق بها مشيئته وقدرته كل وقت وآن وتحدث بمشيئته وقدرته آحاد تلك الصفات من الأفعال، وإن كان هو لم يزل موصوفًا بها بمعنىٰ أن نوعها قديم وأفرادها حادثة، فهو سبحانه لم يزل فعالاً لما يريد، ولم يزل ولا يزال يقول ويتكلم ويخلق ويدبر الأمور وأفعاله تقع شيئًا فشيئًا تبعًا لحكمته وإرادته، فعلىٰ المؤمن الإيمان بكل ما نسبه الله لنفسه من الأفعال المتعلقة بذاته كالاستواء علىٰ العرش والمجيء والإتيان والنزول إلىٰ السماء الدنيا، والضحك والرضا والغضب والكراهية والمحبة المتعلقة بخلقه كالخلق والرزق والإحياء والإماتة وأنواع التدبير المختلفة.

الأصل الثالث: إثبات تفرد الرب جل شأنه بكل صفة كمال وأنه ليس له شريك أو مثيل في شيء منها.

وما ورد في الآيات السابقة من إثبات المثل الأعلىٰ له وحده ونفي الند والمثل والكفؤ والسمي والشريك عنه يدل علىٰ ذلك كما يدل علىٰ أنه منزه عن كل نقص وعيب وآفة.

الأصل الرابع: إثبات جميع ما ورد به الكتاب والسنة من الصفات، لا فرق بين الذاتية منها كالعلم والقدرة والإرادة والحياة والسمع والبصر ونحوها، والفعلية كالرضا والمحبة والغضب والكراهة، وكذلك لا فرق بين إثبات الوجه واليدين ونحوهما، وبين الاستواء علىٰ العرش والنزول، فكلها مما اتفق السلف علىٰ إثباته بلا تأويل ولا تعطيل، وبلا تشبيه وتمثيل.

والمخالف في هذا الأصل فريقان:

١ ـ الجهمية: ينفون الأسماء والصفات جميعًا.

٢ ـ المعتزلة: فإنهم ينفون جميع الصفات ويثبتون الأسماء والأحكام، فيقولون عليم بلا علم وقدير بلا قدرة وحي بلا حياة إلخ.

وهذا القول في غاية الفساد، فإن إثبات موصوف بلا صفة وإثبات ما للصفة

للذات المجردة محال في العقل كما هو باطل في الشرع.

أما الأشعرية ومن تبعهم فإنهم يوافقون أهل السنة في إثبات سبع صفات يسمونها صفات المعاني ويدعون ثبوتها بالعقل، وهي: الحياة والعلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام، ولكنهم وافقوا المعتزلة في نفي ما عدا هذه السبع من الصفات الخبرية التي صح بها الخبر.

● قال الشيخ عبد العزيز بن باز:

فائدة أخرى ذكرها شيخ الإسلام وغيره: وهي أن صفات الرب القولية والفعلية قديمة النوع حادثة الآحاد، كالكلام والخلق والرزق والنزول وأشباه ذلك، ونحو ذلك فجنس الكلام والخلق والرزق والنزول قديم، وأنواعه تحدث شيئًا فشيئًا على حسب حكمة الرب سبحانه كما في قوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ [الأنبياء: ٢]، وكخلق آدم بعد أن لم يكن مخلوقًا، وغير ذلك، وهكذا الرزق والكلام.

وأما صفات الذات كاليد والقدم والسمع والبصر فهي صفات قديمة كالذات.

● قال الشيخ ابن عثيمين:

قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: «وهذا الباب في كتاب الله كثير، ومن تدبر القرآن طالبًا للهدى؛ تبين له طريق الحق».

قوله: «وهذا الباب»: الإشارة هنا إلى باب الأسماء والصفات.

قوله: «في كتاب الله كثير»: ولذلك؛ ما من آية من كتاب الله؛ إلا وتجد فيها غالبًا اسمًا من أسماء الله، أو فعلا من أفعاله، أو حكمًا من أحكامه، بل لو شئت لقلت: كل آية في كتاب الله فهي صفة من صفات الله؛ لأن القرآن الكريم كلام الله عز وجل؛ فكل آية منه؛ فهي صفة من صفات الله عز وجل.

وقوله: «ومن تدبر القرآن»: تدبر الشيء؛ معناه: التفكر فيه، كأن الإنسان يستدبره مرة ويستقبله أخرى؛ فهو يكرر اللفظ ليفهم المعنى.

فالذي يتدبر القرآن بهذا الفعل، وأما النية؛ فهي أن يكون «طالبًا للهدى» منه؛

فليس قصده بتدبر القرآن أن ينتصر لقوله، أو أن يتخذ منه مجادلة بالباطل، ولكن قصده طلب الحق؛ فإنه سوف تكون النتيجة قول المؤلف ـ رحمه الله ـ «تبين له طريق الحق».

وما أعظمها من نتيجة!!

لكنها مسبوقة بأمرين: التدبر، وحسن النية؛ بأن يكون الإنسان طالبًا للهدىٰ من القرآن؛ فحينئذ يتبين له طريق الحق.

والدليل على ذلك عدة آيات؛ منها:

قول الله تبارك وتعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤].

وقال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٦٨].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ٣٢].

والآيات في هذا كثيرة، تدل علىٰ أن من تدبر القرآن ـ لكن بهذه النية، وهي طلب الهدىٰ منه ـ، لا بد أن يصل إلىٰ النتيجة، وهي تبين طريق الحق.

أما من تدبر القرآن ليضرب بعضه ببعض، وليجادل بالباطل، ولينصر قوله؛ كما يوجد عند أهل البدع وأهل الزيغ فإنه يعمىٰ عن الحق والعياذ بالله.

لأن الله تعالى يقول: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ٧]؛ علىٰ تقدير (أما)؛ أي: وأما الراسخون في العلم؛ فـ ﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾

[آل عمران: ٧]، وإذا قالوا هذا القول؛ فسيهتدون إلى بيان هذا المتشابه، ثم قال: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ٧].

وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاء وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤].

● قال الشيخ صالح الفوزان:

وقول المؤلف رحمه الله: (وهذا الباب في كتاب الله كثير) أي: باب إثبات أسماء الله وصفاته في القرآن كثير، وإنما ذكر المؤلف بعضه، فقد ورد في آيات كثيرة من كتاب الله إثبات أسماء الله وصفاته على ما يليق به، (ومن تدبر القرآن) أي: تفكر فيه وتأمل ما يدل عليه من الهدى، (تبين له طريق الحق) أي: اتضح له سبيل الصواب، وتدبر القرآن هو المطلوب من تلاوته، قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨].

* * *

[الإيمانُ بما وَصفَ به الرسولُ ﷺ ربَّه عز وجل]

فصلٌ

في سنة رســـول الله ﷺ: فالسُّنَّةُ تُفَسِّرُ القُرآنَ، وتُبيِّنُه، وتَدُلُّ عَلَيْه، وتُعبِّرُ عَنْهُ.

• الشَّرح •

● قال العلامة ناصر السعدي:

أي إيمانًا خاليًا من التعطيل والتَّحريف، ومن التَّكييف والتَّمثيل، بل إثباتنا لها على الوجه اللائق بِعَظَمَةِ الرَّب.

وحُكمُ السُّنة حُكمُ القرآن، في ثُبوت العلم واليقين والاعتقاد والعمل؛ فإنَّ السُّنة توضيح للقرآن، أو بيان لمجمله، أو تقييد لمُطلقه.

قال الله تعالى: ﴿ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ [النساء: ١١٣] أي السنة.

وقال تعالى: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾ [الحشر: ٧].

● قال الشيخ محمد خليل هراس:

والكل محجوجون بالكتاب والسنة وإجماع الصحابة والقرون المفضلة على الإثبات العام.

قوله: «ثم في سنة رسول الله»: عطف على قوله فيما تقدم؛ وقد دخل في هذه الجملة ما وصف الله به نفسه في سورة الإخلاص إلخ، يعني ودخل فيها ما وصف به الرسول ﷺ ربه فيما وردت به السنة الصحيحة.

والسنَّة هي الأصل الثاني الذي يجب الرجوع إليه، والتعويل عليه بعد كتاب الله عز وجل، قال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ والمراد بالحكمة السنة، وقال: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ وقال آمرًا لنساء نبيه: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ وقال سبحانه: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ وقال صلوات الله وسلامه عليه وآله: «ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه»(١) وحكم السنة حكم القرآن في ثبوت العلم واليقين والاعتقاد والعمل، فإن السنة توضيح للقرآن وبيان للمراد منه تفصل مجمله وتقيد مطلقه وتخصص عمومه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾.

وأهل البدع والأهواء بإزاء السنة الصحيحة فريقان:

١ ـ فريق لا يتورع عن ردها وإنكارها إذا وردت بما يخالف مذهبه بدعوىٰ أنها أحاديث آحاد لا تفيد إلا الظن، والواجب في باب الاعتقاد هو اليقين، وهؤلاء هم المعتزلة والفلاسفة.

٢ ـ وفريق يثبتها ويعتقد بصحة النقل ولكنه يشتغل بتأويلها كما يشتغل بتأويل آيات الكتاب حتىٰ يخرجها عن معانيها الظاهرة إلىٰ ما يريده من معان بالإلحاد والتحريف، وهؤلاء هم متأخرو الأشعرية وأكثرهم توسعًا في هذا الباب الغزالي والرازي.

● قال الشيخ عبد العزيز بن باز:

السُّنَّة: هي الوحي الثاني، والأصل الثاني من أصول الإسلام، وهي توافق وتفسر ما جاء في القرآن من أسماء الله و صفاته، وتثبتها علىٰ حقيقتها وعلىٰ ما يليق بجلال الله وعظمته، فقد جاء فيها من الصفات كثير كالنزول، والضحك، والقدم، والفرح، وغير ذلك مما جاءت به مما يجب أن يقر ويثبت ويعتقد حقيقة معناه علىٰ الوجه اللائق بالله تعالىٰ شأن جميع الصفات.

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد (٤/ ١٣٠)، وأبو داود (٤٦٠٤)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٦٤٣).

● قال الشيخ ابن عثيمين:

السنة في اللغة: الطريقة، ومنه قال ﷺ: «**لتركبن سنن من كان قبلكم**»[١]؛ يعني: طريقتهم.

وفي الاصطلاح: هي قول النبي ﷺ وفعله وإقراره.

فتشمل الواجب والمستحب. والسنة هي المصدر الثاني في التشريع.

ومعنى قولنا: «المصدر الثاني»: يعني في العدد، وليس في الترتيب؛ فإن منزلتها إذا صحت عن النبي ﷺ كمنزلة القرآن.

لكن الناظر في القرآن يحتاج إلى شيء واحد، وهو صحة الدلالة على الحكم، والناظر في السنة يحتاج إلى شيئين: الأول: صحة نسبتها إلى الرسول ﷺ، والثاني: صحة دلالتها على الحكم؛ فكان المستدل بالسنة يعاني من الجهد أكثر مما يعانيه المستدل بالقرآن؛ لأن القرآن قد كفينا سنده؛ فسنده متواتر، ليس فيه ما يوجب الشك؛ بخلاف ما ينسب إلى الرسول ﷺ.

فإذا صحت السنة عن رسول الله ﷺ؛ كانت بمنزلة القرآن تمامًا في تصديق الخبر والعمل بالحكم:

كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [النساء: ١١٣].

وقال النبي ﷺ: «**لا ألفين أحدكم متكئًا على أريكته؛ يأتيه الأمر من أمري؛ يقول: لا ندري! ما وجدنا في كتاب الله؛ اتبعناه، ألا وإني أوتيت الكتاب ومثله معه**»[٢].

ولهذا كان القول الصحيح أن القرآن يُنسخ بالسنة إذا صحت عن النبي ﷺ، وأن ذلك جائز عقلا وشرعًا، ولكن ليس له مثال مستقيم.

قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: «فالسنة تفسر القرآن وتبينه وتدل عليه وتعبر عنه».

قوله: «تفسر القرآن»: يعني: توضح المعنى المراد منه:

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٤٥٦) ومسلم (٢٦٦٩) من حديث أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه.

(٢) صحيح: أخرجه أبو داود (٤٦٠٥) والترمذي (٢٦٦٣) وابن ماجه (١٣) من حديث أبي رافع رضي الله عنه. والحديث صححه الشيخ الألباني في «صحيح ابن ماجه» (١٢).

كما في تفسير قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]؛ حيث فسرها النبي ﷺ بأنها النظر إلى وجه الله عز وجل[١].

وكما فسر النبي ﷺ قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]، فقال: «ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي»[٢]. و «تبينه»؛ يعني: تبين المجمل منه؛ حيث إن في القرآن آيات مجملة، لكن السنة بينتها ووضحتها؛ مثل:

قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ﴾ [البقرة: ٤٣]: أمر الله بإقامتها، وبيَّنت السنة كيفيتها.

وقوله سبحانه: ﴿أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ [الإسراء: ٧٨].

﴿لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾؛ يعني: من دلوك الشمس إلى غسق الليل؛ أي: غاية ظلمته، وهو نصفه؛ لأن أشد ما يكون في ظلمة الليل نصفه.

فظاهر الآية أن هذا وقت واحد، ولكن السنة فصلت هذا المجمل:

فللظهر: من دلوك الشمس إلى أن يصير ظل كل شيء مثله.

وللعصر: من ذلك إلى اصفرار الشمس في الاختيار، ثم إلى غروبها في الضرورة.

وللمغرب: من غروب الشمس إلى مغيب الشفق الأحمر.

وللعشاء: من مغيب الشفق الأحمر إلى نصف الليل، وليس هناك وقت ضرورة للعشاء، ولهذا لو طهرت الحائض في منتصف الليل الأخير؛ لم يجب عليها صلاة العشاء ولا صلاة المغرب؛ لأن صلاة العشاء تنتهي بانتصاف الليل، ولم يأت في السنة دليل على أن وقت صلاة العشاء يمتد إلى طلوع الفجر.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (١٩١٧) وأبو داود (٢٥١٤) والترمذي (٣٠٨٣) من حديث عقبة بن عامر.

وللفجر: من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس.

ولهذا قال في نفس الآية: ﴿لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾، ثم فصل وقت الفجر: فقال: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ [الإسراء: ٨٧]؛ لأن وقت الفجر بينه وبين الأوقات الأخرى فاصل من قبله ومن بعده؛ فنصف الليل الثاني قبله، ونصف النهار الأول بعده.

هذا من بيان السنة حيث بينت الأوقات.

كذلك: ﴿وَآتُواْ الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ٤٣]؛ بينت السنة الأنصبة والأموال الزكوية.

و«تدل عليه»: هذه كلمة تعم التفسير والتبيين والتعبير، فالسنة تفسر القرآن وتبين القرآن.

و «تعبر عنه»؛ يعني: تأتي بمعانٍ جديدة أو بأحكام جديدة ليست في القرآن.

وهذا كثير؛ فإن كثيراً من الأحكام الشرعية استقلت بها السنة، ولم يأت بها القرآن.

لكن دل على أن لها حكم ما جاء في القرآن مثل قوله تعالى: ﴿مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]. وقوله: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]. وقوله: ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

أما الحكم المعين؛ فالسنة استقلت بأحكام كثيرة عن القرآن، ومن ذلك ما سيأتينا في أول حديث ذكره المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ في هذا الفصل: **«ينزل ربنا إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر...»**[1]؛ فإن هذا ليس في القرآن. إذاً؛ السنة مقامها مع القرآن على هذه الأنواع الأربعة: تفسير مشكل، وتبيين مجمل، ودلالة عليه، وتعبير عنه.

---

(١) سبق تخريجه.

● قال الشيخ صالح الفوزان:

● قوله: (ثم في سنة رسول الله ﷺ) : هذا عطف على قوله فيما سبق: (وقد دخل في هذه الجملة ما وصف الله به نفسه في سورة الإخلاص..) إلخ، أي: ودخل فيها ما وصف به الرسول ﷺ ربه فيما وردت به السنة الصحيحة؛ لأن السنة هي الأصل الثاني الذي يجب الرجوع إليه بعد كتاب الله عز وجل، قال الله تعالىٰ: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]، والرد إلىٰ الله: هو الرجوع إلىٰ كتابه، والرد إلىٰ رسول الله ﷺ بعد وفاته: هو الرجوع إلىٰ سنته، والسنة: لغة: الطريقة، واصطلاحًا: هي ما ورد عن رسول الله ﷺ من قول أو فعل أو تقرير.

● مكانة السنة:

قال: (فالسنة تفسر القرآن): أي: تبين معانيه ومقاصده، فإن النبي ﷺ يبين للناس ما أنزل إليه، قال الله تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤].

والسنة أيضًا (تبين القرآن) أي: توضح مجمله؛ كالصلاة والصوم والحج والزكاة وغالب الأحكام التي تأتي مجملة في القرآن وتبينها السنة النبوية.

والسنة أيضًا (تدل على القرآن وتعبر عنه): أي: تدل علىٰ ما دل عليه القرآن وتعبر عما عبر عنه القرآن، فتكون موافقة للقرآن فيكون الحكم مما دل عليه الكتاب والسنة، كأسماء الله وصفاته.

* * *

[أسئلة وأجوبة نموذجية على الإيمان بما وصف به الرسول ﷺ ربّه عز وجل]

● الشيخ عبد العزيز المحمد السلمان:

س ـ اذكر شيئًا من فوائد سنة النبي ﷺ، وما موقف أهل السُّنة منها وهل وجوب تصديق كل مسلم بما أخبر به الله ورسوله من صفات الله موقوف على أن يقوم دليل عقلي على تلك الصفة بعينها؟

ج ـ السنة: تفسر القرآن وتبينه وتوضحه وتكشفه وتدل عليه وتعبر عنه، وتفصل مجمله، وتقيد مطلقه، وتخصص عمومه.

قال ابن عدوان:

وسنة خير المرسلين محمد	تفسر آيات الكتاب الممجد
تبينه للطالبي سنن الهدى	تدل عليه بالدليل المؤكد

ويرون أنها الأصل الثاني الذي يجب الرجوع إليه والتعويل عليه، فحكمها حكم القرآن في ثبوت العلم واليقين، والاعتقاد والعمل، قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ أي السنة.

وقال تعالى: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ وقال: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ﴾ ـ الآية ـ ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾.

وقال ﷺ: «ألا وإني أوتيت الكتاب ومثله معه، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه، وإنما حرم رسول الله ﷺ كما حرم الله» الحديث.

ومما يجب الإيمان به ما وصف الرسول ﷺ به ربه من الأحاديث الصحاح التي نقلها وتلقاها أهل المعرفة بالقبول، كما يجب الإيمان بما أخبر الله به في كتابه من غير

تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل.

قال ابن عدوان:

وسلم لأخبار الصحيحين يا فتى ولكن عن التمثيل - وفقت - أبعد

ودع عنك تزويقات قوم فإنها بحلتها التعطيل يا صاح مرتد

قال الشيخ - رحمه الله -: وجوب تصديق كل مسلم بما أخبر الله به ورسوله من صفاته ليس موقوفًا على أن يقوم دليل عقلي على تلك الصفة بعينها فإنه مما يعلم بالاضطرار من دين الإسلام أن رسول الله إذا أخبرنا بشيء من صفات الله وجب علينا التصديق به وإن لم نعلم ثبوته بعقولنا ومن لم يقر بما جاء به الرسول حتى يعلمه فقد أشبه الذين قال الله عنهم ﴿لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾ .

ومن سلك هذا السبيل فهو في الحقيقة ليس مؤمنًا بالرسول ولا متلقيًا عنه الأخبار بشأن الربوبية ولا فرق عنده بين أن يخبر الرسول بشيء من ذلك أو لم يخبر به فإن ما أخبر به إذا لم يعلمه بعقله لا يصدق به بل يتأوله أو يفوضه وما لم يخبر به إن علمه بعقله آمن به.

وإلا فلا فرق عند من سلك هذا السبيل بين وجود الرسول وإخباره وبين عدم الرسول وعدم إخباره وكان ما يذكره من القرآن والحديث والإجماع في هذا الباب عديم الأثر عنده وقد صرح به أئمة هذا الطريق. اهـ.

* * *

وَمَا وَصَفَ الرَّسُولُ بِهِ رَبَّهُ عز وجل، مِن الأَحَادِيثِ الصِّحاحِ الَّتي تَلَقَّاها أَهْلُ المَعْرِفَةِ بالقبول؛ وَجَبَ الإيمان بِهَا كَذَلكَ.

• الشَّرح •

● قال الشيخ محمد خليل هراس:

قوله: «وما وصف الرسول به إلخ»: يعني أنه كما وجب الإيمان بكل ما وصف الله به نفسه في كتابه من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل، كذلك يجب الإيمان بكل ما وصفه به أعلم الخلق بربه وبما يجب له وهو رسوله الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه وآله.

قوله: «كذلك»: أي: إيمانًا مثل ذلك الإيمان خاليًا من التحريف والتعطيل ومن التكييف والتمثيل بل إثبات لها على الوجه اللائق بعظمة الرب جل شأنه.

● قال الشيخ ابن العثيمين:

ثم قال ـ رحمه الله ـ قاعدة مهمة: «وما وصف الرسول به ربه عز وجل من الأحاديث الصحاح التي تلقاها أهل المعرفة بالقبول؛ وجب الإيمان بها كذلك».

قوله: «وما»: هذه شرطية. وفعل الشرط: «وصف». «وجب الإيمان بها»: هذا جواب الشرط.

فما وصف الرسول به ربه، وكذلك ما سمى به ربه؛ لأن هناك أسماء مما سمى به الرسول ربه لم تكن موجودة في القرآن؛ مثل: (الشافي) قال النبي ﷺ: «واشف أنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك»[1].

«الرب»: لم يأت في القرآن بدون إضافة لكن في السنة قال الرسول ﷺ: «أما الركوع فعظموا فيه الرب»(١) .

وقال في السواك: «مطهرة للفم مرضاة للرب»(٢) .

وظاهر كلام المؤلف ـ رحمه الله ـ أنه يشترط لقبولها شرطان:

الأول: أن تكون الأحاديث صحيحة.

الثاني: أن يكون أهل المعرفة يعني بالأحاديث تلقوها بالقبول، ولكن ليس هذا هو المراد، بل مراد الشيخ ـ رحمه الله ـ أن الأحاديث الصحاح تلقاها أهل المعرفة بالقبول فتكون الصفة هذه صفة كاشفة لا صفة مقيدة.

فقوله: «التي تلقاها»: هذا بيان لحال الأحاديث الصحيحة أي أن أهل المعرفة تلقوها بالقبول لأنه من المستحيل أن تكون الأحاديث صحيحة، ثم يرفضها أهل المعرفة، بل سيقبلونها.

صحيح أن هناك أحاديث ظاهرها الصحة، ولكن قد تكون معلولة بعلة؛ كانقلاب على الراوي ونحوه، وهذه لا تعد من الأحاديث الصحيحة.

قال: «وجب الإيمان بها»: لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ آمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [النساء: ١٣٦]، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ﴾ [النساء: ٥٩]، وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ * فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنبَاء يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءلُونَ﴾ [القصص: ٦٥، ٦٦]. والنصوص في هذا كثيرة معلومة.

واعلم أن موقف أهل الأهواء والبدع تجاه الأحاديث المخالفة لأهوائهم يدور على أمرين: إما التكذيب، وإما التحريف.

فإن كان يمكنهم تكذيبه؛ كذبوه؛ كقولهم في القاعدة الباطلة: أخبار الآحاد لا

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٤٧٩) من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) ضعيف: أخرجه ابن ماجه (٢٨٩) من حديث أبي أمامة ـ رضي الله عنه والحديث ضعفه الشيخ الألباني في «ضعيف ابن ماجه» (٥٨) ويروى من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ أيضًا.

تقبل في العقيدة!!

وقد رد ابن القيم ـ رحمه الله ـ هذه القاعدة وأبطلها بأدلة كثيرة في آخر «مختصر الصواعق».

وإن كان لا يمكنهم تكذيبه؛ حرفوه؛ كما حرفوا نصوص القرآن.

أما أهل السنة؛ فقبلوا كل ما صح عن النبي ﷺ في الأمور العلمية والأمور العملية؛ لقيام الدليل على وجوب قبول ذلك.

وقوله: «**كذلك**»: يعني: كما يجب الإيمان بما في القرآن؛ من غير تحريف، ولا تعطيل، ولا تكييف، ولا تمثيل.

وقد ذكر المؤلف ـ رحمه الله ـ منها أحاديث عديدة؛ منها.

● قال الشيخ صالح الفوزان:

قوله: (وما وصف...) إلخ: مبتدأ خبره قوله: (**وجب الإيمان بها كذلك**) أي: كما يجب الإيمان بما وصف الله به نفسه في القرآن الكريم؛ لأن النبي ﷺ كما وصفه ربه عز وجل بقوله: ﴿**وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ**﴾ [النجم: ٣ـ٤].

فالسنة التي نطق بها الرسول ﷺ وحي من الله، كما قال تعالى: ﴿**وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ**﴾ [النساء: ١١٣].

فالكتاب: هو القرآن.

والحكمة: هي السنة. فيجب الإيمان بما ورد في السنة، لاسيما في باب الاعتقاد، قال تعالى: ﴿**وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا**﴾ [الحشر: ٧].

لكن لابد في قبول الحديث والإيمان به من ثبوته عن النبي ﷺ.

ولهذا قال الشيخ رحمه الله: (**من الأحاديث الصحاح**) والصحاح: جمع صحيح، والحديث الصحيح: هو ما نقله راو عدل تام الضبط عن مثله من غير شذوذ ولا علة، فهو ما اجتمع فيه خمسة شروط:

١ ـ عدالة الرواة.

٢ ـ ضبطهم.

٣ـ اتصال السند .

٤ ـ سلامته من العلة .

٥ ـ سلامته من الشذوذ .

وقوله: (تلقاها أهل المعرفة) أي: قبلها وأخذ بها أهل العلم بالحديث ، فلا عبرة بغيرهم .

ثم ذكر الشيخ أمثلة مما ورد في السنة من صفات الله عز وجل .

* * *

[أسئلة وأجوبة نموذجية على الإيمان بالله بما وصف به الرسول ﷺ ربه عز وجل]

● قال الشيخ عبد العزيز المحمد السلمان:

س ـ ما المقبول في باب العمليات من أنواع السنة المطهرة؟

ج ـ المقبول منها أربعة أنواع:

الأول: ما تواتر لفظًا ومعنىً.

الثاني: ما تواتر معنىً.

الثالث: أخبار مستفيضة متلقاة بالقبول.

الرابع: أخبار آحاد تثبت بنقل العدل الضابط عن مثله فهذا هو المقبول في باب العمليات، فإن هذا الباب لا يبنى إلا على ما يثبت بطريق لا كلام فيه، فهذه الأنواع الأربعة مفيدة للعلم واليقين موجبة للعلم والعمل جميعًا.

* * *

[نزول الرب عزَّ وجلَّ]

فَمنْ ذَلكَ مثل قوله ـ ﷺ ـ: «يَنْزلُ ربُّنا إلى السَماء الدُّنْيا كُلَّ لَيْلَة، حينَ يَبْقى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخر، فَيَقولُ: مَنْ يَدْعوني فَأَسْتَجيبَ لَه، مَنْ يَسْأَلُني فَأُعْطِيَهُ؟، مَنْ يَسْتَغْفِرُني فَأَغْفِرَ لَهُ؟». متفقٌ عليه.

• الشَّرح •

● قال العلامة ناصر السعدي:

وذلك مثل قوله ﷺ: «يَنزلُ ربُّنا إلى سَماء الدُّنيا كلَّ ليلة...» إلخ.

فهذا الحديث قد استفاض في الصِّحاح والسُّنن والمسانيد، واتَّفق على تلقِّيه بالقَبُول والتَّصديق أهل السُّنَّة والجماعة بل جميع المسلمين الذين لم تُغَيِّرهم البدع، وعَرَفُوا به عظيم رحمة ربهم وسعة جوده واعتنائه بعباده وتعرضه لحوائجهم الدِّينية والدنيوية، وأن نزوله حقيقة كيف يشاء، فَيثبِتُون النزول كما يُثبتون جميع الصِّفات التي ثبتت في الكتاب والسنة، ويقفون عند ذلك، فلا يُكيِّفون، ولا يُمثِّلون، و لا يَنفُون ويُعطِّلون.

ويقولون: إنَّ الرسول أخبرنا: أنه ينزل ولم يخبرنا كيف ينزل، وقد علمنا أنه فعَّال لما يُريد، وعلى كل شيء قدير.

ولهذا كان خواص المؤمنين يتعرَّضون في هذا الوقت الجليل لألطاف ربِّهم ومَوَاهبه، فيقومون بعبوديته خاضعين خاشعين داعين مُتضرعين، يرجون منه حُصُول مطالبهم التي وعَدَهم إيَّاهَا على لسان رسوله ﷺ.

ويعلمون أنَّ وَعْده حقٌّ، ويخشون أن تُرَدَّ أدعيتهم بذنوبهم ومعاصيهم فيجمعون

بين الخوف والرجاء، ويعترفون بكمال نعمة اللَّه عليهم فتملئ قُلُوبهم من التعظيم والإيمان من التصديق والإذعان.

● قال الشيخ محمد خليل هراس:

قوله: «فمن ذلك قوله ﷺ... »إلخ: الكلام على هذا الحديث من جهتين:

الأولى: صحته من جهة النقل وقد ذكر المؤلف رحمه الله أنه متفق عليه.

ويقول الذهبي في كتابه «العلو للعلي الغفار»: إن أحاديث النزول متواترة تفيد القطع وعلى هذا فلا مجال لإنكار أو جحود.

الثانية: ما يفيده هذا الحديث وهو إخباره ﷺ بنزول الرب تبارك وتعالى كل ليلة إلخ. ومعنى هذا أن النزول صفة لله عز وجل على ما يليق بجلاله وعظمته، فهو لا يماثل نزول الخلق كما أن استواءه لا يماثل استواء الخلق.

يقول شيخ الإسلام رحمه الله في تفسير «سورة الإخلاص»:

«فالرب سبحانه إذا وصفه رسوله بأنه ينزل إلى سماء الدنيا كل ليلة وأنه يدنو عشية عرفة إلى الحجاج وأنه كلم موسى في الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة وأنه استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعًا أو كرهًا لم يلزم من ذلكم أن تكون هذه الأفعال من جنس ما نشاهده من نزول هذه الأعيان المشهودة حتى يقال ذلك يستلزم تفريغ مكان وشغل آخر.

فأهل السنة والجماعة يؤمنون بالنزول صفة حقيقية لله عز وجل على الكيفية التي يشاء، فيثبتون النزول كما يثبتون جميع الصفات التي ثبتت في الكتاب والسنة، ويقفون عند ذلك فلا يكيفون ولا يمثلون ولا ينفون ولا يعطلون، ويقولون: إن الرسول أخبرنا أنه ينزل ولكنه لم يخبرنا كيف ينزل، وقد علمنا أنه فعال لما يريد، وأنه على كل شيء قدير.

ولهذا ترى خواص المؤمنين يتعرضون في هذا الوقت الجليل لألطاف ربهم ومواهبه، فيقومون لعبوديته خاضعين خاشعين داعين متضرعين يرجون منه حصول مطالبهم التي وعدهم بها على لسان رسوله ﷺ.

● قال الشيخ ابن عثيمين:

الحديث الأول في إثبات نزول الله إلى السماء الدنيا:

وهو قـوله ﷺ: «ينزل ربنا إلى السماء الدنيا كل ليلة، حين يبقى ثلث الليل الآخر، فيقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له»(١). متفق عليه.

هذا الحديث قال بعض أهل العلم: إنه من الأحاديث المتواترة، واتفقوا على أنه من الأحاديث المشهورة المستفيضة عند أهل العلم بالسنة.

قوله: «ينزل ربنا إلى السماء الدنيا»: نزوله تعالى حقيقي؛ لأنه كما مرَّ علينا من قبل: أن كل شيء كان الضمّير يعود فيه إلى الله؛ فهو ينسب إليه حقيقة.

فعلينا أن نؤمن به ونصدق ونقول: ينزل ربُّنا إلى السماء الدنيا، وهي أقرب السماوات إلى الأرض، والسماوات سبع، وإنما ينزل عز وجل في هذا الوقت من الليل للقرب من عباده جل وعلا؛ كما يقرب منهم عشية عرفة؛ حيث يباهي بالواقفين الملائكة(٢).

وقوله: «كل ليلة»: يشمل جميع ليالي العام.

«حين يبقى ثلث الليل الآخر»: والليل يبتدئ من غروب الشمس اتفاقًا لكن حصل الخلاف في انتهائه هل يكون بطلوع الفجر أو بطلوع الشمس والظاهر أن الليل الشرعي ينتهي بطلوع الفجر والليل الفلكي ينتهي بطلوع الشمس.

وقوله: «فيقول: من يدعوني»: «من»: استفهام للتشويق؛ كقوله تعالى: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الصف: ١٠].

و«يدعوني»: يعني: يقول: يا رب!

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (١٣٤٨) والنسائي في «الكبرى» (٣٠٠٣) وابن ماجه (٣٠١٤) من حديث عائشة رضي الله عنها.

وقوله: «فأستجيب له»: بالنصب؛ لأنها جواب الطلب.

«من يسألني»: يقول: أسألك الجنة، أو نحو ذلك.

«من يستغفرني»: فيقول: اللهم اغفر لي، أو: أستغفرك اللهم!.

«فأغفر له»: والمغفرة ستر الذنب والتجاوز عنه.

بهذا يتبين لكل إنسان قرأ هذا الحديث أن المراد بالنزول هنا نزول الله نفسه، ولا نحتاج أن نقول: بذاته؛ ما دام الفعل أضيف إليه فهو له؛ لكن بعض العلماء قالوا: ينزل بذاته؛ لأنهم لجئوا إلى ذلك، واضطروا إليه؛ لأن هناك من حرَّفوا الحديث وقالوا: الذي ينزل أمر الله! وقال آخرون: بل الذي ينزل رحمة الله! وقال آخرون: بل الذي ينزل مَلَكٌ من ملائكة الله!.

وهذا باطل؛ فإن نزول أمر الله دائمًا وأبدًا، ولا يختص نزوله في الثلث الأخير من الليل؛ قال الله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ [السجدة: ٥]. وقال ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ﴾ [هود: ١٢٣].

وأما قولهم: تنزل رحمة الله إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر! فسبحان الله! الرحمة لا تنزل إلا في هذا الوقت! قال الله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]؛ كل النعم من الله، وهي من آثار رحمته، وهي تترى كل وقت!!

ثم نقول: أي فائدة لنا بنزول الرحمة إلى السماء الدنيا؟!

ثم نقول لمن قال: إنه ملَك من ملائكته: هل من المعقول أنَّ الملَك من ملائكة الله يقول: مَن يدعوني فأستجيب له... إلخ؟!.

فتبين بهذا أن هذه الأقوال تحريف باطل يبطله الحديث.

ووالله؛ ليسوا أعلم بالله من رسول الله، وليسوا أنصح لعباد الله من رسول الله، وليسوا أفصح في قولهم من رسول الله ﷺ!!

يقولون: كيف تقولون: إن الله ينزل؟! إذا نزل؛ أين العلو؟! وإذا نزل؛ أين الاستواء على العرش؟! إذا نزل؛ فالنزول حركة وانتقال!! إذا نزل؛ فالنزول

حادث، والحوادث لا تقوم إلا بحادث!!.

فنقول: هذا جدال بالباطل، وليس بمانع من القول بحقيقة النزول!!

هل أنتم أعلم بما يستحقُّه الله عز وجل من أصحاب الرسول ﷺ؟!

فأصحاب الرسول ﷺ ما قالوا هذه الاحتمالات أبدًا؛ قالوا: سمعنا وآمنا وقبلنا وصدَّقنا.

وأنتم أيها الخالفون المخالفون تأتون الآن وتجادلون بالباطل وتقولون: كيف؟! وكيف؟!

نحن نقول: ينزل، ولا نتكلَّم عن استوائه على العرش؛ هل يخلو منه العرش أو لا يخلوا؟!

أما العلو؛ فنقول: ينزل، لكنه عال عز وجل على خلقه؛ لأنه ليس معنى النزول أن السماء تُقلُّه، وأن السماوات الأخرى تظلُّه؛ إذ إنه لا يحيط به شيء من مخلوقاته.

فنقول: هو ينزل حقيقة مع علوه حقيقة، وليس كمثله شيء.

أما الاستواء على العرش فهو فعل، ليس من صفات الذات، وليس لنا حق - فيما أرى - أن نتكلم هل يخلو منه العرش أو لا يخلو، بل نسكت كما سكت عن ذلك الصحابة رضي الله عنهم.

وإذا كان علماء أهل السنة لهم في هذا ثلاثة أقوال: قول بأنه يخلو، وقول بأنه لا يخلو، وقول بالتوقُّف.

وشيخ الإسلام - رحمه الله - في «الرسالة العرشية» يقول: إنه لا يخلو منه العرش؛ لأن أدلة استوائه على العرش محكمة، والحديث هذا محكم، والله عز وجل لا تُقاس صفاته بصفات الخلق؛ فيجب علينا أن نبقي نصوص الاستواء على إحكامها، ونصَّ النزول على إحكامه، ونقول: هو مستو على عرشه، نازل إلى السماء الدنيا، والله أعلم بكيفية ذلك، وعقولنا أقصر وأدنى وأحقر من أن تحيط بالله عز وجل.

القول الثاني: التوقُّف؛ يقولون: لا نقول: يخلو، ولا: لا يخلو.

والثالث: أنه يخلو منه العرش.

وأورد المتأخرون الذين عرفوا أن الأرض كروية وأن الشمس تدور على الأرض إشكالا، قالوا: كيف ينزل في ثلث الليل؟! وثلث الليل إذا انتقل عن المملكة العربية السعودية؛ ذهب إلى أوروبا وما قاربها؟! أفيكون نازلا دائمًا؟!

فنقول: آمن أولا بأن الله ينزل في هذا الوقت المعيَّن، وإذا آمنت؛ ليس عليك شيء وراء ذلك، لا تقل: كيف؟! وكيف؟! بل قل: إذا كان ثلث الليل؛ في السعودية فالله نازل وإذا كان في أمريكا ثلث الليل يكون نزول الله أيضًا، وإذا طلع الفجر؛ انتهى وقت النزول في كل مكان بحسبه.

إذًا؛ موقفنا أن نقول: إنا نؤمن بما وصل إلينا عن طريق محمد رسول الله؛ بأن الله ينزل إلى السماء الدنيا حين يبقى الثلث الآخر من الليل، ويقول: من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له؟!

من فوائد هذا الحديث:

أولاً: إثبات العلو لله من قوله: «ينزل».

ثانيًا: إثبات الأفعال الاختيارية التي هي الصفات الفعلية من قوله: «ينزل حين يبقى ثلث الليل الآخر».

ثالثًا: إثبات القول لله من قوله: «يقول».

رابعًا: إثبات الكَرَم لله عز وجل من قوله: «من يدعوني... من يسألني... من يستغفرني...».

وفيه من الناحية المسلكية:

أنه ينبغي للإنسان أن يغتنم هذا الجزء من الليل، فيسأل الله عز وجل ويدعوه ويستغفره.

ما دام الرب سبحانه يقول: «من يدعوني... من يستغفرني...» وَ (مَن): للتشويق؛ فينبغي لنا أن نستغل هذه الفرصة؛ لأنه ليس لك من العمر إلا ما أمضيته

في طاعة الله، وستمر بك الأيام، فإذا نزل بك الموت؛ فكأنك وُلِدت تلك الساعة، وكل ما مضىٰ ليس بشيء.

● قال الشيخ صالح الفوزان:

قوله: (ينزل ربنا)[1]: أي: نزولاً يليق بجلاله نؤمن به ولا نشبهه بنزول المخلوق؛ لأنه سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ «**إلى سماء الدنيا**» أي: السماء الدنيا من إضافة الموصوف إلىٰ صفته «**حين يبقى ثلث الليل الآخر**» برفع الآخر صفة لثلث، وفي هذا تعيين لوقت النزول الإلهي. قوله: «**فأستجيب له**» بالنصب علىٰ جواب الاستفهام، وكذا قوله: «**فأعطيه**»و «**أغفر له**»، وقوله: «**فأستجيب له**» أي: أجيب دعوته.

والشاهد من الحديث: أن فيه ثبوت النزول الإلهي، وهو من صفات الأفعال، وفي الحديث أيضًا إثبات العلو لله تعالىٰ، فإن النزول يكون من العلو، وفيه الرد علىٰ من أوّل الحديث بأن معناه: نزول رحمته أو أمره؛ لأن الأصل الحقيقة وعدم الحذف، ولأنه قال: «**من يدعوني فأستجيب له**» فهل يعقل أن تقول رحمته أو أمره هذا المقال؟!

وفي الحديث إثبات الكلام لله تعالىٰ حيث جاء فيه: «**فيقول...**» إلخ، وفيه إثبات الإعطاء والإجابة والمغفرة لله سبحانه، وهي صفات أفعال. وقوله: «**متفق عليه**» أي: بين البخاري ومسلم.

* * *

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (١١٤٥) ومسلم (٧٥٨) من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

أسئلة وأجوبة نموذجية على نزول الرب عز وجل

● قال الشيخ عبد العزيز المحمد السلمان:

س ـ ما مثال أحاديث الصفات؟

ج ـ مثل قوله ﷺ: «ينزل ربنا إلى السماء الدنيا كل ليلة حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول: «من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له»».

وقوله ﷺ: «لله أشد فرحًا بتوبة عبده من أحدكم براحلته» الحديث.

وقوله: «يضحك الله إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر، كلاهما يدخلان الجنة».

وقوله: «عجب ربنا من قنوط عباده وقرب خيره، ينظر إليكم أزلين قنطين فيظل يضحك، يعلم أن فرجكم قريب...».

وقوله ﷺ: «لا تزال جهنم يلقى فيها وهي تقول: هل من مزيد حتى يضع رب العزة فيها رجله» وفي رواية: «عليها قدمه فينزوي بعضها إلى بعض فتقول: قط قط».

س ـ ما الذي تفهمه عن معنى حديث «ينزل ربنا إلى السماء الدنيا... إلخ»؟

ج ـ يخبرنا ﷺ بنزول ربنا ـ جل وعلا ـ كل ليلة إلى السماء الدنيا، وأنه من لطفه بعباده وإحسانه إليهم يحثهم ويرغبهم في دعائه وسؤاله واستغفاره، ويتكفل لهم ـ جل وعلا ـ بالإجابة، وفي الحديث من الفوائد:

أولاً: صفة النزول.

ثانيًا: إثبات الربوبية.

ثالثًا: إثبات القول لله.

رابعًا: إثبات علو الله وإثبات الجهة وأنه فوق الخلق.

خامسًا: إثبات صفة الكلام لله وهي من الصفات الذاتية الفعلية.

سادسًا: إثبات الأفعال الاختيارية.

سابعًا: أن ثلث الليل الآخر من أوقات الإجابة.

ثامنًا: فيه رد على الجهمية والمعتزلة ونحوهم من المنكرين لعلو الله.

تاسعًا: فيه رد على من أنكر صفة النزول، أو أولها بتأويل باطل.

عاشرًا: الرد على الحلولية الذين يزعمون أن الله حالٌّ في كل مكان - تعالى الله عن قولهم علوًا كبيرًا -.

الحادي عشر: في الحديث الحث على الدعاء في ثلث الليل الآخر.

الثاني عشر: أن الدعاء ينفع.

الثالث عشر: الحث على الاستغفار والسؤال في كل وقت وفي هذا الوقت خاصة.

الرابع عشر: الرد على من قال: ينزل ملك من الملائكة.

الخامس عشر: الرد على الجبرية.

السادس عشر: إثبات صفة المغفرة.

السابع عشر: الدليل على عظمة الله وقهره للخلق.

الثامن عشر: مزية شرف السماء الدنيا على سائر السموات حيث ينزل الله إليها كل ليلة.

التاسع عشر: في الحديث ما يضطر العباد إلى محبة الله الرءوف الرحيم المتعرض لعباده في إجابة دعائهم... إلخ.

العشرون: أن الله لا يتبرم بإلحاح الملحين.

الواحد والعشرون: دليل على فضل الدعاء.

الثاني والعشرون: أن الدعاء والاستغفار وغيرهما من العبادات يختلف فضلها بحسب الزمان والمكان.

الثالث والعشرون: لطف الله بخلقه إذ حثهم على ما فيه نفعهم وصلاحهم.

الرابع والعشرون: أن الله يجيب دعوة من دعاه ما لم يكن مانع.

الخامس والعشرون: دليل على كرم الله وإحسانه.

السادس والعشرون: دليل على أن الله في السماء على العرش فوق الخلق بائن منهم.

السابع والعشرون: دليل على قدرة الله فإن العاجز لا يُدعى.

الثامن والعشرون: دليل على رحمة الله فإن القاسي لا يطلب.

التاسع والعشرون: دليل على غنى الله.

الثلاثون: دليل على سمع الله فإن الأصم لا يدعى.

الحادي والثلاثون: فيه تحريض على عمل الطاعة وإشارة على جزيل الثواب عليها.

الثاني والثلاثون: دليل على تفضيل صلاة آخر الليل على أوله وأن آخر الليل أفضل للدعاء والاستغفار يشهد له قوله تعالى «والمستغفرين بالأسحار».

الثالث والثلاثون: أن الدعاء في ذلك الوقت مجاب ولا يعترض على ذلك بتخلفه عن بعض الداعين لأن سبب التخلف وقوع الخلل في شرط من شروط الدعاء كعدم الاحتراز في المطعم وفي المشرب أو لاستعجال الداعي أو بأن يكون بإثم أو قطيعة رحم أو لا تحصل الإجابة ويتأخر حصول المطلوب لمصلحة العبد أو لأمر يريده الله.

الرابع والثلاثون: الرد على من أنكر نفع الدعاء.

الخامس والثلاثون: أن كلام الله بحرف وصوت إذ لا يعقل الكلام والقول إلا كذلك.

السادس والثلاثون: دليل على قرب الله من خلقه.

السابع والثلاثون: أن الإنسان يسأل الله ولا يستعظم أي شيء طلبه فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه يشهد له الحديث القدسي قوله **«يا عبادي لو أن أولكم وآخركم»** الحديث.

الثامن والثلاثون: أن الله يحب من عباده أن يدعوه ويسألوه.

التاسع والثلاثون: إثبات البعث والحساب والجزاء على الأعمال.

الأربعون: الرد على من أنكر السماء وقال ما فيه إلا فضاء.

الحادي والأربعون: نصح الرسول ﷺ لأمته.

الثاني والأربعون: دليل على إثبات صفة الحياة لله.

الثالث والأربعون: أن من ترك الاستغفار والدعاء فقد ظلم نفسه، والضرر جاءه من قبل نفسه، وما ربك بظلام للعبيد.

* * *



صفة الفرح

وقوله ﷺ: «لَلهُ أشَدُّ فَرحًا بتوبَةِ عَبْدِهِ المُؤمِن، مِنْ أَحَدكُمْ بِراحِلَتِه...» الحديثَ متفق عليه.

• الشَّرح •

• قال العلامة ناصر السعدي:

وهذا فَرَحُ جُودٍ وإحسان؛ لأنه جلَّ جلاله يُنَوِّع جُوده وكَرَمه علىٰ عباده في جميع الوجوه، ويحب من عباده أن يَسلُكوا كل طريق يوصلهم إلىٰ رحمته وإحسانه، ويكره لهم ضد ذلك، فإنه تعالىٰ جعل لرحمته وكرمه أسبابًا؛ وبيَّنَها لعباده، وحثَّهم علىٰ سُلُوكها وأعانهم عليها، ونَهاهُم عن ما يُنَافيها ويمنعها.

فإن عَصَوه وبارَزُوه بالذُّنوب فقد تَعرَّضُوا لعقوباته التي لا يحب منهم أن يتعرَّضوا لها، فإذا راجعوا التوبة والإنابة فرح بذلك أعظم فرح يُقَدَّر، فإنه ليس في الدنيا نظير فرح هذا الذي في أرض فلاة مُهلِكة، وقد انفلتت منه راحلته التي عليها مادّة حياته من طعام وشراب وركوب، فَأَيَس منها وجلس ينتظر الموت، فإذا هو بها واقفة علىٰ رأسه فأخذ بخطامها وكاد الفرح أن يقضي عليه وقال من الدَّهش وشدة الفرح: «اللَّهُمَّ أنت عبدي وأنا ربُّكَ».

فهل يوجد فرح أعظم من فرح الآيس من حياته إذا حصلت له علىٰ أكمل الوجوه. فتبارك الرب الكريم الجوَّاد الذي لا يُحصي العباد ثناءً عليه، كما هو أثنىٰ علىٰ نفسه وفوق ما يُثني عليه عباده، وهذا الفرح تَبَعٌ لغيره من الصِّفات كما تقدَّم: أن الكلام علىٰ الصفات يتبع الكلام علىٰ الذَّات.

فهذا فَرَحٌ لا يُشبه فرح أحَد من خلقه، لا في ذاته ولا في أسبابه ولا في غاياته،

فسببه الرَّحمة والإحسان، وغايته إتمام نعمته على التَّائبين المُنيبين.

● قال الشيخ محمد خليل هراس:

قوله: «لله أشد فرحًا إلخ»: تتمة هذا الحديث كما في البخاري وغيره: «**لله أشد فرحًا بتوبة عبده المؤمن من رجل بأرض فلاة دوية مهلكة ومعه راحلته عليها طعامه وشرابه فنزل عنها فنام وراحلته عند رأسه فاستيقظ وقد ذهبت، فذهب في طلبها فلم يقدر عليها حتى أدركه الموت من العطش فقال: والله لأرجعن فلأموتن حيث كان رحلي فرجع فنام فاستيقظ فإذا راحلته عند رأسه فقال: «اللهم أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح**»[1].

في هذا الحديث إثبات صفة الفرح لله عز وجل والكلام فيه كالكلام في غيره من الصفات أنه صفة حقيقية لله عز وجل على ما يليق به، وهو من صفات الفعل التابعة لمشيئته تعالى وقدرته، فيحدث له هذا المعنى المعبر عنه بالفرح عندما يحدث لعبده التوبة والإنابة إليه، وهو مستلزم لرضاه عن عبده التائب وقبوله توبته. وإذا كان الفرح في المخلوق على أنواع فقد يكون فرح خفة وسرور وطرب وقد يكون فرح أشر وبطر، فالله عز وجل منزه عن ذلك كله، ففرحه لا يشبه فرح أحد من خلقه لا في ذاته ولا في أسبابه ولا في غاياته، فسببه كمال رحمته وإحسانه التي يحب من عباده أن يتعرضوا لها، وغايته إتمام نعمته على التائبين المنيبين.

وأما تفسير الفرح بلازمه وهو الرضا وتفسير الرضا بإرادة الثواب، فكل ذلك نفي وتعطيل لفرحه ورضاه سبحانه، أوجبه سوء ظن هؤلاء المعطلة بربهم حيث توهموا أن هذه المعاني تكون فيه كما هي في المخلوق ـ تعالى الله عن تشبيههم وتعطيلهم.

● قال الشيخ ابن عثيمين:

الحديث الثاني في إثبات الفرح، وهو قوله ﷺ: «**لله أشد فرحًا بتوبة عبده من أحدكم براحلته...**»[2] الحديث، متفق عليه.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٣٠٨، ٦٣٠٩) ومسلم (٢٧٤٤) من حديث عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه.

(٢) انظر التخريج السابق.

«لله»: اللام هذه لام الابتداء. «الله»: مبتدأ.

«أشد»: خبر المبتدأ.

«فرحًا»: تمييز.

قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: «الحديث»: أي أكمل الحديث.

والحديث أن هذا الرجل كان معه راحلته، عليها طعامه وشرابه، فضلَّت عنه، فذهب يطلبها، فلم يجدها، فأيس من الحياة، ثم اضطجع تحت شجرة ينتظر الموت؛ فإذا بخطام ناقته متعلقًا بالشجرة... ولا أحد يستطيع أن يقدر هذا الفرح؛ إلا من وقع فيه... فأمسك بخطام الناقة، وقال: اللهم أنت عبدي، وأنا ربك؛ أخطأ من شدة الفرح؛ لم يملك كيف يتصرَّف في الكلام؟!

فالله عز وجل أفرح بتوبة عبده إذا تاب إليه من هذا الرجل براحلته، وليس الله عز وجل بمحتاج إلىٰ توبتنا، بل نحن مفتقرون إليه في كل أحوالنا، لكن لكرمه جل وعلا ومحبته للإحسان والفضل والجود يفرح هذا الفرح الذي لا نظير له بتوبة الإنسان إذا تاب إليه.

في هذا الحديث: إثبات الفرح لله عز وجل؛ فنقول في هذا الفرح: إنه فرح حقيقي؛ وأشد فرح، ولكنه ليس كفرح المخلوقين.

الفرح بالنسبة للإنسان هو نشوة وخفة يجدها الإنسان من نفسه عند حصول ما يسرُّه، ولهذا تشعر بأنك إذا فرحت بالشيء كأنك تمشي في الهواء، لكن بالنسبة لله عز وجل لا نفسِّر الفرح بمثل ما نعرفه من أنفسنا؛ نقول: هو فرح يليق به عز وجل؛ مثل بقية الصفات؛ كما أننا نقول: لله ذات، ولكن لا تماثل ذواتنا؛ فله صفات لا تماثل صفاتنا؛ لأن الكلام عن الصفات فرع عن الكلام في الذات.

فنؤمن بأن الله تعالىٰ له فرح كما أثبت ذلك أعلم الخلق به، محمد ﷺ، وأنصح الخلق للخلق، وأفصح الخلق فيما ينطق به عليه الصلاة والسلام.

ونحن على خطر إذا قلنا: المراد بالفرح الثواب؛ لأن أهل التحريف يقولون: إن الله لا يفرح، والمراد بفرحه: إثابته التائب، أو: إرادة الثواب؛ لأنهم هم يثبتون

أن لله تعالىٰ مخلوقًا بائنًا منه هو الثواب، ويثبتون الإرادة؛ فيقولون في الفرح: إنه الثواب المخلوق، أو إرادة الثواب.

ونحن نقول: إن المراد بالفرح: الفرح حقيقة؛ مثلما أن المراد بالله عز وجل: نفسه حقيقة، ولكننا لا نمثل صفاتنا بصفات الله أبدًا.

ويستفاد من هذا الحديث مع إثبات الفرح لله عز وجل: كمال رحمته جل وعلا ورأفته بعباده؛ حيث يحب رجوع العاصي إليه هذه المحبة العظيمة.. هارب من الله، ثم وقف ورجع إلىٰ الله... يفرح الله به هذا الفرح العظيم.

ومن الناحية المسلكية:

يفيدنا أن نحرص على التوبة غاية الحرص، كلما فعلنا ذنبًا، تبنا إلىٰ الله.

قال الله تعالىٰ في وصف المتقين: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً﴾ [آل عمران: ١٣٥]؛ أي: فاحشة مثل: الزنىٰ، واللواط، ونكاح ذوات المحارم... قال الله تعالىٰ: ﴿وَلاَ تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاء إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاء سَبِيلاً﴾ [النساء: ٢٢]، ﴿وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً﴾ [الإسراء: ٣٢]، وقال لوط لقومه: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ [الأعراف: ٨٠].

إذًا: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللّهَ﴾ [آل عمران: ١٣٥]؛ ذكروا الله تعالىٰ في نفوسهم؛ ذكروا عظمته، وذكروا عقابه، وذكروا ثوابه للتائبين؛ ﴿فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٣٥]؛ فعلوا ما فعلوا؛ لكنهم ذكروا الله تعالىٰ في نفوسهم، واستغفروا لذنوبهم؛ فيغفر الله لهم، والدليل: ﴿وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

فأنت إذا علمت أن الله يفرح بتوبتك هذا الفرح الذي لا نظير له؛ لا شك أنك سوف تحرص غاية الحرص على التوبة.

وللتوبة شروط خمسة:

الأول: الإخلاص لله عز وجل، بأن لا يحملك على التوبة مراءاة الناس، أو نيل الجاه عندهم، أو ما أشبه ذلك من مقاصد الدنيا.

الثاني: الندم على المعصية.

الثالث: الإقلاع عنها، ومن الإقلاع إذا كانت التوبة في حقٍّ من حقوق الآدميين: أن ترد إلى صاحبه.

الرابع: العزم على أن لا تعود في المستقبل.

الخامس: أن تكون التوبة في وقت القبول، وينقطع قَبول التوبة بالنسبة لعموم الناس بطلوع الشمس من مغربها، وبالنسبة لكل واحد بحضور أجله.

قال الله تعالى: ﴿ **وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ** ﴾ [النساء: ١٨].

وصحَّ عن النبي ﷺ أن زمن التوبة ينقطع إذا طلعت الشمس من مغربها[١]، والناس يؤمنون حينئذ، ولكن؛ ﴿ **لاَ يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا** ﴾ [الأنعام: ١٥٨].

هذه خمسة شروط؛ إذا تمت؛ صحت التوبة.

ولكن؛ هل يشترط لصحة التوبة أن يتوب من جميع الذنوب؟!.

فيه خلاف، ولكن الصحيح أنه ليس بشرط، وأنها تصح التوبة من الذنب مع الإصرار على غيره، لكن هذا التائب لا يصدق عليه وصف التائبين المطلق؛ فيقال: تاب توبة مقيدة، لا مطلقة.

فلو كان أحد يشرب الخمر ويأكل الربا، فتاب من شرب الخمر؛ صحت توبته من الخمر، وبقي إثمه في أكل الربا، ولا ينال منزلة التائبين على الإطلاق؛ لأنه مصرٌّ على بعض المعاصي.

رجل تمت الشروط في حقه، وعاد إلى الذنب مرة أخرى؛ فلا تنتقض توبته الأولى؛ لأنه عزم على أن لا يعود، ولكن سوَّلت له نفسه، فعاد؛ إنما يجب عليه أن يتوب مرة ثانية... وهكذا؛ كلما أذنب؛ يتوب... وفضل الله واسع.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٦٣٥) ومسلم (١٥٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

● قال الشيخ صالح الفوزان:

«لله»[١] اللام لام الابتداء «**أشد فرحًا**» منصوب على التمييز، والفرح في اللغة: السرور ولذة القلب «**بتوبة عبده**» التوبة: هي الإقلاع عن الذنب والرجوع إلى الطاعة، «**براحلته**» الراحلة: الناقة التي تصلح أن ترحل (**الحديث**) منصوب بفعل مقدر، أي: أكمل الحديث؛ لأن المصنف اقتصر على الشاهد منه، وهو إثبات الفرح لله سبحانه على ما يليق بجلاله وهو صفة كمال لا يشبهه فرح أحد من خلقه، بل هو كسائر صفاته، وهو فرح إحسان وبر ولطف لا فرح محتاج إلى توبة عبده ينتفع بها، فإنه سبحانه لا تنفعه طاعة المطيع ولا تضره معصية العاصي.

* * *

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٦٣٠٨) ومسلم (٢٧٤٤) من حديث ابن مسعود ـ رضي الله عنه.

[أسئلة وأجوبة نموذجية على صفة الفرح]

● قال الشيخ عبد العزيز المحمد السلمان:

س ـ ما الذي تفهمه عن معنى حديث «لله أشد فرحًا بتوبة عبده من أحدكم براحلته...» الحديث، واذكر ما فيه من فوائد ومفردات؟

ج ـ «الفرح» لغة: السرور.

«التوبة»: الرجوع عن المعصية.

«الراحلة» من الإبل: ما كان صالحًا لأن يرحل. اللام لام الابتداء. وهذا حديث جليل فيه بشارة عظيمة ترتاح لها قلوب التائبين، المحسنين ظنهم بربهم، الصادقين في توبتهم، الخالعين ثياب الإصرار على المعاصي البعيدين عن سوء الظن بمن لا يتعاظمه ذنب ولا يبخل بمغفرته ورحمته على عباده، الطالبين عفوه، الملتجئين إليه في مغفرة ذنوبهم.

وفي هذا الحديث:

أولاً: إثبات الألوهية.

ثانيًا: إثبات صفة الفرح وهي من الصفات الفعلية.

ثالثًا: دليل على لطف الله بخلقه.

رابعًا: الحث على التوبة وفضلها.

خامسًا: أن الله سبحانه يقبل توبة عبده، ويفرح بها إذا وقعت على الوجه المعتبر شرعًا.

سادسًا: فيه متمسك لمن قال: إن للقاتل توبة.

ثامنًا: فيه دليل على أن الإنسان إذا جرى على لسانه كلمة كفر من شدة دهش ونحوه أنه لا يكفر بذلك ولا يؤاخذ به، ولهذا لم يكفر بقوله: (أنت عبدي وأنا ربك).

تاسعًا: وجوب حسن الظن بالله.

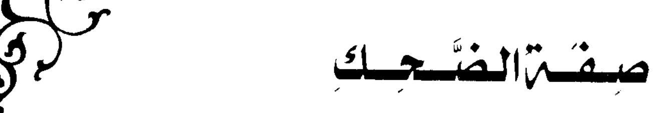
عاشرًا: الحث على محبة الله الرءوف الرحيم بالعباد.

الحادي عشر: في الحديث بشارة عظيمة للتائب.

الثاني عشر: أن الله لا يتعاظمه ذنب ولا يبخل بمغفرته ورحمته على عباده الطالبين عفوه.

الثالث عشر: إثبات البعث والحساب والجزاء على الأعمال والجنة والنار.

* * *



صفة الضحك

وقـوله ﷺ : «يَضْحَكُ اللَّهُ إلى رَجُـلَيْنِ؛ يَقْتُلُ أحَدُهُمـا الآخَرَ؛ كِلاهُما يَدْخُلُ الجَنَّةَ» متفق عليه.

• الشَّرح •

● قال العلامة ناصر السعدي:

وهذا أيضًا من كماله وكمال إحسانه، وسعة رحمته.

فإن المسلم يُقاتل في سَبِيل الله، ويَقتُله الكافر، فيكرم الله المسلم بالشَّهادة ثم يَمُنُّ اللَّهُ على ذلك الكافر القاتل فَيَهدِيه للإسلام، فيدخلان الجنة جميعًا وهذا من تفريع جُوده المُتَتَابع على عباده من كل وجه.

والضَّحك يكون من الأُمور العجيب التي تخرج عن نظائرها.

وهذه الحالة المذكورة كذلك.

فإن تسليط الكافر على قتل المسلم في بادئ الأمر أمرٌ غير محبُوب، ثم هذا المتجرِّئُ على القتل يتبادر لأذهان كثير من الناس أنه يبقى على ضلاله ويُعاقب في الدنيا والآخرة، ولكن رحمة الله وإحسانه فوق ذلك كله، وفوق ما يظن الظَّانون ويتوهَّم المُتوهِّمون.

وكذلك لما دعا النبي ﷺ على أُناسٍ من رُؤَساء المُشركين لعنَادهم وأذيَّتهم بالطَّرد عن رحمة الله أنزل الله قوله: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ الآية [آل عمران: ١٢٨].

فَتَابَ عليهم بعد ذلك، وحَسُنَ إسلام كثير منهم.

● قال الشيخ محمد خليل هراس:

قوله: «يضحك الله إلى رجلين...» إلخ: يثبت أهل السنة والجماعة الضحك لله عز وجل كما أفاده هذا الحديث وغيره على المعنى الذي يليق به سبحانه والذي لا يشبهه ضحك المخلوقين عندما يستخفهم الفرح أو يستفزهم الطرب، بل هو معنى يحدث في ذاته عند وجود مقتضيه، وإنما يحدث بمشيئته وحكمته، فإن الضحك إنما ينشأ في المخلوق عند إدراكه لأمر عجيب يخرج عن نظائره.

وهذه الحالة المذكورة في هذا الحديث، كذلك فإن تسليط الكافر على قتل المسلم مدعاة في بادئ الرأي لسخط الله على هذا الكافر وخذلانه ومعاقبته في الدنيا والآخرة، فإذا منَّ الله على هذا الكافر بعد ذلك بالتوبة وهداه للدخول في الإسلام وقاتل في سبيل الله حتى يستشهد فيدخل الجنة كان ذلك من الأمور العجيبة حقًا.

وهذا من كمال رحمته وإحسانه وسعة فضله على عباده سبحانه، فإن المسلم يقاتل في سبيل الله ويقتله الكافر، فيكرم الله المسلم بالشهادة، ثم يمن على ذلك القاتل فيهديه للإسلام والاستشهاد في سبيله فيدخلان الجنة جميعًا.

وأما تأويل ضحكه سبحانه بالرضا أو القبول أو أن الشيء حل عنده بمحل ما يضحك منه، وليس هناك في الحقيقة ضحك فهو نفي لما أثبته رسول الله ﷺ لربه فلا يلتفت إليه.

● قال الشيخ ابن عثيمين:

الحديث الثالث في إثبات الضحك، وهو قوله ﷺ: «يضحك الله إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر؛ كلاهما يدخل الجنة»[1]

وفي بعض النسخ: «يدخلان»، وهي صحيحة؛ لأن (كلا) يجوز في خبرها سواء كان فعلا أو اسمًا - مراعاة اللفظ ومراعاة المعنى، وقد اجتمعا في قول الشاعر يصف فرسين:

كلاهما حين جد الجري بينهما ... قد أقلعا وكلا أنفيهما رابي

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٧٢٦) ومسلم (١٨٩٠) من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه.

الحديث يخبر فيه النبي عليه الصلاة والسلام أن الله يضحك إلى رجلين؛ عند ملاقاتهما يقتل أحدهما الآخر؛ كلاهما يدخلان الجنة، وأحدهما لم يقتل الآخر إلا لشدة العداوة بينهما، ثم يدخلان الجنة بعد ذلك، فتزول تلك العداوة؛ لأن أحدهما كان مسلمًا، والآخر كان كافرًا؛ فقتله الكافر، فيكون هذا المسلم شهيدًا فيدخل الجنة، ثم مَنَّ الله على الكافر، فأسلم، ثم قُتل شهيدًا، أو مات بدون قتل؛ فإنه يدخل الجنة، فيكون هذا القاتل والمقتول كلاهما يدخل الجنة، فيضحك الله إليهما.

ففي هذا إثبات الضحك لله عز وجل، وهو ضحك حقيقي، لكنه لا يماثل ضحك المخلوقين؛ ضحك يليق بجلاله وعظمته، ولا يمكن أن نمثّله؛ لأننا لا يجوز أن نقول: إن لله فمًا أو أسنانًا أو ما أشبه ذلك، لكن نثبت الضحك لله على وجه يليق به سبحانه وتعالى.

فإذا قال قائل: يلزم من إثبات الضحك أن يكون الله مماثلا للمخلوق!!

فالجواب: لا يلزم أن يكون مماثلا للمخلوق؛ لأن الذي قال: «يضحك» هو الذي أنزل عليه قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

ومن جهة أخرى؛ فالنبي عليه الصلاة والسلام لا يتكلم في مثل هذا إلا عن وحي؛ لأنه من أمور الغيب، ليس من الأمور الاجتهادية التي قد يجتهد فيها الرسول عليه الصلاة والسلام، ثم يقره الله على ذلك أو لا يقره، ولكنه من الأمور الغيبية التي يتلقاها الرسول عليه الصلاة والسلام عن طريق الوحي.

لو قال قائل: المراد بالضحك الرضا؛ لأن الإنسان إذا رضي عن الشيء؛ سر به وضحك، والمراد بالرضا الثواب أو إرادة الثواب؛ كما قال ذلك أهل التعطيل.

فالجواب أن نقول: هذا تحريف للكلم عن مواضعه؛ فما الذي أدراكم أن المراد بالرضا الثواب؟!

فأنتم الآن قلتم على الله ما لا تعلمون من وجهين:

الوجه الأول: صرفتم النص عن ظاهره بلا علم.

الثاني: أثبتم له معنى خلاف الظاهر بلا علم.

ثم نقول لهم: الإرادة؛ إذا قلتم: إنها ثابتة لله عز وجل؛ فإنه تنتقض قاعدتكم؛

لأن للإنسان إرادة؛ كما قال تعالىٰ: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢]؛ فللإنسان إرادة، بل للجدار إرادة؛ كما قال تعالىٰ: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ﴾ [الكهف: ٧٧]؛ فأنتم إما أن تنفوا الإرادة عن الله عز وجل كما نفيتم ما نفيتم من الصفات، وإما أن تثبتوا لله عز وجل ما أثبته لنفسه، وإن كان للمخلوق نظيره في الاسم لا في الحقيقة.

والفائدة المسلكية من هذا الحديث: هو أننا إذا علمنا أن الله عز وجل يضحك؛ فإننا نرجو منه كل خير.

ولهذا قال رجل للنبي ﷺ: يا رسول الله! أو يَضحك ربنا؟ قال: «**نعم**»(١) قال: لن نعدم من رب يضحك خيراً.

إذا علمنا ذلك؛ انفتح لنا الأمل في كل خير؛ لأن هناك فرقًا بين إنسان عبوس لا يكاد يُرىٰ ضاحكًا، وبين إنسان يضحك.

وقد كان النبي ﷺ دائم البشر كثير التبسم عليه الصلاة والسلام.

● قال الشيخ صالح الفوزان:

قوله ﷺ: «**يضحك الله إلى رجلين...**»(٢) إلخ، قد بين النبي ﷺ في آخر الحديث سبب ذلك في قوله: «**يقاتل هذا في سبيل الله عز وجل فيستشهد ثم يتوب الله على القاتل فيسلم فيقاتل في سبيل الله عز وجل فيستشهد**»، وهذا من كمال إحسان الله سبحانه وسعة رحمته، فإن المسلم يقاتل في سبيل الله فيقتله الكافر، فيكرم الله المسلم بالشهادة، ثم يمن الله علىٰ ذلك الكافر القاتل فيهديه للإسلام فيدخلان الجنة جميعًا، فهذا أمر عجيب، والضحك يكون من الأمور المعجبة التي تخرج عن نظائرها.

والشاهد من الحديث: إثبات الضحك لله سبحانه، وهو صفة من صفاته الفعلية التي نثبتها له علىٰ ما يليق بجلاله وعظمته ليس كضحك المخلوق.

---

(١) ضعيف: أخرجه ابن ماجه (١٨١) وأحمد في «مسنده» (٤/ ١١) من حديث أبي رزين العقيلي -رضي الله عنه. والحديث ضعفه الشيخ الألباني في «ضعيف ابن ماجه» (٣١).

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٢٨٢٦) ومسلم (١٨٩٠) من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه.

أسئلة وأجوبة نموذجية على صفة الضحك

● قال الشيخ عبد العزيز المحمد السلمان:

س ـ ما الذي تفهمه عن معنى حديث «يضحك الله إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر كلاهما يدخلان الجنة» واذكر ما فيه من أحكام؟

ج - في هذا الحديث الجليل يخبرنا ﷺ عن كرم الله وجوده وأنه متنوع، فهذان الرجلان اللذان قتل أحدهما الآخر جعل الله لكل منهما سببًا أوصله إلى الجنة.

فالأول: قاتل في سبيل الله فأكرمه الله على يد الرجل الآخر الذي لم يسلم بعد بالشهادة التي هي أعلى المراتب بعد مرتبة الصديقين وأما الآخر فإن الله جعل باب التوبة مفتوحًا لكل من أراد التوبة بالإسلام فما دونه فلما تاب محا الله عنه الكفر وآثاره، ثم منَّ عليه بالشهادة فدخل الجنة كأخيه الذي قتله، ففي هذا الحديث:

أولاً: إثبات صفة الضحك لله، وهي من الصفات الفعلية.

ثانيًا: إثبات الألوهية.

ثالثًا: الترغيب في الدخول في الإسلام.

رابعًا: فيه دليل على تنوع كرم الله وجوده.

خامسًا: أن القتل في سبيل الله يكفر الذنوب.

سادسًا: أن التوبة تأتي على جميع الذنوب حتى القتل.

سابعًا: الحث على الجهاد في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا.

ثامنًا: فضل الجهاد في سبيل الله، وأن القتل فيه سبب لدخول الجنة.

تاسعًا: إثبات الأسباب.

عاشرًا: الرد على من أنكر صفة الضحك أو أولها بتأويل باطل كالجهمية والأشاعرة والمعتزلة.

الحادي عشر: أن التوبة من أجلّ الطاعات.

الثاني عشر: إثبات البعث بعد الموت.

الثالث عشر: إثبات الحشر والحساب والجنة والنار.

الرابع عشر: الدليل على محاسن الإسلام وسماحته والحث على الدخول فيه.

الخامس عشر: إثبات الأفعال الاختيارية.

السادس عشر: دليل على أن الإسلام يجبُّ ما قبله.

السابع عشر: عدم اليأس من رحمة الله.

الثامن عشر: شفقة الرسول على الأمة حيث بين كل شيء لهم فيه صلاح.

التاسع عشر: أن باب التوبة مفتوح.

العشرون: إثبات علم الله.

الحادي والعشرون: أن الجهاد في سبيل الله سبب لدخول الجنة.

الثاني والعشرون: دليل على محاسن الدين الإسلامي.

* * *



صفة العجب

وقـــوله ﷺ : «عَجِبَ رَبُّنا مِنْ قُنوطِ عِبادِه وقُرْبِ خَيَرِه؛ يَنْظُرُ إِلَيْكُمْ أَزِلِينَ قَنِطِينَ، فَيَظَلُّ يَضْحَكُ؛ يَعْلَمُ أَنَّ فَرَجَكُمْ قَرِيبٌ». حَدِيثٌ حَسَنٌ.

• الشَّرح •

● قال العلامة ناصر السعدي:

وهذا العَـجَبُ الذي وصف الرسول به ربَّه من آثار رَحـمـة الله، وهو من كـمـاله تعالىٰ والله تعالىٰ ليس كمثله شيء في جميع نُعُوته، فإذا تأخَّر الغيثُ عن العباد مع فقرهم وشِدَّة حَاجَتِهم استولىٰ عليهم اليأس والقُنوط وصار نظرهم قاصراً علىٰ الأسباب الظاهرة وحَسبوا أن لا يكون وراءها فَرَجٌ من القريب المُجيب، فيعجب الله منهم. وهذا مَحَلّ عجب!

كيف يقنطون ورحمته وَسِعَت كلَّ شيء؟ والأسباب لحصولها قد توَفَّرت فإن حاجة العباد وضرورتهم من أسباب رحمته، والدُّعاء لحصول الغيث والرَّجاء لله من الأسباب، ووُقُوع الغيث بعد امتناعه مُدة طويلة وحُصُول الضَّرورة يُوجِبُ أن يكون لفضل اللَّه وإحسانه موقع كبير وأثر عجيب؛ كما قال تعالىٰ: ﴿فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ﴾ الآيـات [الروم: ٤٨، ٤٩].

واللَّه تعالىٰ قدَّر من ألطَافه وعوائده الجميلة: أن الفرج مع الكرب، وأن اليُسر مع العُسر، وأن الضَّرورة لا تدُوم، فإن حصَّل مع ذلك قوة التجاء وشدّة طمع بِفَضل

الله ورجاء وتضرع كثير ودُعاء؛ فتح اللّه عليهم من خزائن جُودِهِ ما لا يخطر بالبَال.

وفي لفظ: «وقُرْب غِيَره» أي: تغييره الشِّدة بالرخاء.

● قال الشيخ محمد خليل هراس:

قوله: «عجب ربنا...»إلخ: هذا الحديث يثبت لله عز وجل صفة العجب وفي معناه قوله عليه الصلاة والسلام: «**عجب ربك من شاب ليس له صبوة**»(١) وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه: ﴿بَلْ عَجِبْتُ وَيَسْخَرُونَ﴾ بضم التاء على أنها ضمير الرب جل شأنه.

وليس عجبه سبحانه ناشئًا عن خفاء في الأسباب أو جهل بحقائق الأمور كما هو الحال في عجب المخلوقين بل هو معنى يحدث له سبحانه على مقتضى مشيئته وحكمته وعند وجود مقتضيه. وهو الشيء الذي يستحق أن يتعجب منه.

وهذا العجب الذي وصف به الرسول ربه هنا من آثار رحمته وهو من كماله تعالى، فإذا تأخر الغيث عن العباد مع فقرهم وشدة حاجتهم واستولى عليهم اليأس والقنوط وصار نظرهم قاصرًا على الأسباب الظاهرة، وحسبوا أن لا يكون وراءها فرج من القريب المجيب فيعجب الله منهم.

وهذا محل عجيب حقًا إذ كيف يقنطون ورحمته وسعت كل شيء والأسباب لحصولها قد توفرت، فإن حاجة العباد وضرورتهم من أسباب رحمته، وكذا الدعاء بحصول الغيث والرجاء في الله من أسبابها وقد جرت عادته سبحانه في خلقه أن الفرج مع الكرب وأن اليسر مع العسر وأن الشدة لا تدوم، فإذا انضم إلى ذلك قوة التجاء وطمع في فضل الله، وتضرع إليه ودعاء، فتح الله عليه من خزائن رحمته ما لا يخطر على البال.

«والقنوط»: مصدر قنط وهو اليأس من رحمة الله، قال تعالى: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ﴾.

قوله: ﴿وقرب خيره﴾: أي: فضله ورحمته وقد روي (غيره) والغير اسم من

---

(١) ضعيف: أخرجه أحمد (٤/ ١٥١)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٧/ ٣٠٩)، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (١٦٥٨).

قولك: غير الشيء فتغير، وفي حديث الاستسقاء: «من يكفر بالله يلق الغير» أي: تغير الحال وانتقالها من الصلاح إلى الفساد.

قوله: ﴿أزلين قنطين﴾: حالان من الضمير المجرور في إليكم، وأزلين: جمع أزل اسم فاعل من الأزل بمعنى الشدة والضيق، يقال: أزل الرجل يأزل أزلاً من باب فرح أي صار في ضيق وجدب.

● **قال الشيخ ابن عثيمين:**

الحديث الرابع: في إثبات العجب وصفات أخرى، وهو قوله: «عجب ربنا من قنوط عباده وقرب غيره، ينظر إليكم أزلين قنطين، فيظل يضحك؛ يعلم أن فرجكم قريب»[1] حديث حسن.

العجب: هو استغراب الشيء، ويكون ذلك لسببين:

السبب الأول: خفاء الأسباب على هذا المستغرب للشيء المتعجب منه بحيث يأتيه بغتة بدون توقع، وهذا مستحيل على الله تعالى؛ لأن الله بكل شيء عليم، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

والثاني: أن يكون السبب فيه خروج هذا الشيء عن نظائره وعما ينبغي أن يكون عليه؛ بدون قصور من المتعجب؛ بحيث يعمل عملا مستغربًا لا ينبغي أن يقع من مثله.

وهذا ثابت لله تعالى؛ لأنه ليس عن نقص من المتعجب، ولكنه عجب بالنظر إلى حال المتعجب منه.

قوله: «عجب ربنا من قنوط عباده»:

القنوط: أشد اليأس. يعجب الرب عز وجل من دخول اليأس الشديد على قلوب العباد.

«وقرب غيره»: الواو بمعنى (مع)؛ يعني: مع قرب غيره.

---

(١) ضعيف جداً: أخرجه أحمد (٤/ ١١، ١٢)، وابن ماجه (١٨١)، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٣٥٨٥).

و(الغير): اسم جمع غَيَرَة؛ كطَير: اسم جمع طِيَرةَ، وهي اسم بمعنى التغيير، وعلى هذا؛ فيكون المعنى: وقَرب تغييره.

فيعجب الرب عز وجل؛ كيف نقنط وهو سبحانه وتعالى قريب التغيير، يغير الحال إلى حال أخرى بكلمة واحدة، وهي: كُنْ. فيكون.

وقوله: «ينظر إليكم أزلين»؛ أي: ينظر الله إلينا بعينه.

«أزلين قنطين»:

الأزل: الواقع في الشدة. و«قنطين»: جمع قانط، والقانط: اليائس من الفرج وزوال الشدة.

فذكر النبي ﷺ حال الإنسان وحال قلبه؛ حاله أنه واقع في شدة، وقلبه قانط يائس مستبعد للفرج.

«فيظل يضحك»: يظل يضحك من هذه الحال العجيبة الغريبة؛ كيف تقنط من رحمة أرحم الراحمين الذي يقول للشيء: كن. فيكون؟!

«يعلم أن فرجكم قريب»؛ أي: زوال شدتكم قريب.

في هذا الحديث عدة صفات:

- أولا: العجب؛ لقوله: «عجب ربنا من قنوط عباده».

وقد دلَّ على هذه الصفة القرآن الكريم؛ قال الله تعالى: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ [الصافات: ١٢]؛ على قراءة ضم التاء.

- وفيه أيضًا بيان قدرة الله عز وجل؛ لقوله: «وقرب غيره»، وأنه عز وجل تام القدرة، إذا أراد؛ غيَّر الحال من حال إلى ضدها في وقت قريب.

- وفيه أيضًا من إثبات النظر؛ لقوله: «ينظر إليكم».

- وفيه إثبات الضحك؛ لقوله: «فيظل يضحك».

- وكذلك العلم؛ «يعلم أن فرجكم قريب».

- والرحمة؛ لأن الفرج من الله دليل على رحمة الله بعباده.

وكل هذه الصفات التي دلَّ عليها الحديث يجب علينا أن نثبتها لله عز وجل حقًّا على حقيقتها، ولا نتأول فيها.

والفائدة المسلكية في هذا: أن الإنسان إذا علم ذلك من الله سبحانه وتعالى؛ حذر من هذا الأمر، وهو القنوط من رحمة الله، ولهذا؛ كان القنوط من رحمة الله من الكبائر:

قال الله تعالى: ﴿ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّآلُّونَ ﴾ [الحجر: ٥٦].

وقال تعالى: ﴿ وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [يوسف: ٨٧].

فالقنوط من رحمة الله، واستبعاد الرحمة: من كبائر الذنوب، والواجب على الإنسان أن يحسن الظن بربه؛ إن دعاه؛ أحسن الظن به بأنه سيجيبه، وإن تعبَّد له بمقتضى شرعه؛ فليحسن الظن بأن الله سوف يقبل منه، وإن وقعت به شدة؛ فليحسن الظن بأن الله سوف يزيلها لقول النبي ﷺ: «**واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرًا**»(١).

بل قد قال الله تعالى: ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ [الشرح: ٥، ٦] ولن يغلب عسر يسرين؛ كما يروى عن ابن عباس رضي الله عنه.

● قال الشيخ صالح الفوزان:

«**عجب ربنا**»(٢) قال في «المصباح»: التعجب يستعمل على وجهين:

أحدهما: ما يحمده الفاعل، ومعناه: الاستحسان والإخبار عن رضاه به.

والثاني: ما يكرهه، ومعناه: الإنكار والذم له «**من قنوط عباده**» القنوط: شدة اليأس من الشيء، والمراد هنا: اليأس من نزول المطر وزوال القحط «**وقرب غِيَره**» غيره بكسر

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (١/ ٣٠٧) من حديث ابن عباس - رضي الله عنه - والحديث صححه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (٢٣٨٢).

(٢) إسناده ضعيف: أخرجه أحمد في «مسنده» (٤/ ١٢) وعبد الله بن أحمد في «السنة» (٢/ ٤٨٦). وابن عاصم في «السنة» (٥٢٤) وقال الألباني في «ظلال الجنة» (٥٢٤): «إسناده ضعيف».

الغين وفتح الياء أي: تغييره الحال من شدة إلىٰ رخاء «**ينظر إليكم أزلين**» الأزْل بسكون الزاي: الضيق. وقد أزل الرجل يأزل أزلاً صار في ضيق وجدب.

«**فيظل يضحك**» هذا من صفاته الفعلية التي لا يشبهه فيها شيء من مخلوقاته.

ففي الحديث إثبات صفتين من صفات الله الفعلية هما: العجب، والضحك، وهما صفتان تليقان بجلاله ليستا كعجب المخلوق وضحك المخلوق، وفي الحديث أيضًا إثبات النظر لله سبحانه، وهو من صفاته الفعلية أيضًا، فإنه ينظر إلىٰ عباده، ولا يخفىٰ عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

* * *

أسئلة وأجوبة نموذجية على صفة العجب

● قال الشيخ عبد العزيز المحمد السلمان:

س ـ بين ما تعرفه عن معنى حديث: «عجب ربنا من قنوط عباده وقرب خيره، ينظر إليكم أزلين قنطين فيظل يضحك، يعلم أن فرجكم قريب» حديث حسن.

ج ـ «العجب» لغة: استحسان الشيء، «القنوط»: شدة اليأس «وقرب خيره»: أي تغييره الحال من شدة إلى رخاء، «أزلين» الأزل: بمعنى الشدة والضيق.

المعنى يخبرنا ﷺ أن الله ـ جل وعلا ـ يعجب من قنوط عباده عند احتباس المطر ويأسهم من نزوله وقد اقترب وقت الفرج ورحمته لعباده بإنزال الغيث عليهم وتغييره لحالهم، وهم لا يشعرون. ففي هذا الحديث:

أولاً: إثبات صفة العجب وهي من الصفات الفعلية.

ثانيًا: إثبات الربوبية.

ثالثًا: إثبات نظره إلى عباده سبحانه وتعالى.

رابعًا: فيه دليل على أن الفرج مع الكرب.

خامسًا: لطف الله بخلقه.

سادسًا: الرد على الجهمية والمعتزلة ونحوهم ممن ينفون صفة الضحك والعجب.

سابعًا: إثبات صفة الضحك وهي من الصفات الفعلية.

ثامنًا: إثبات صفة العلم وهي من الصفات الذاتية.

تاسعًا: الرد على من أنكر صفة العلم أو أولها بتأويل باطل كالجهمية والمعتزلة.

عاشرًا: أن حاجة العباد وضرورتهم من أسباب رحمته.

الحادي عشر: أن نزول الغيث مما انفرد الله بعلمه.

الثاني عشر: دليل على جود الله وكرمه.

الثالث عشر: أن خير الله لا يستبعد إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون.

الرابع عشر: أنه لا يعلم الغيب إلا الله جل وعلا.

الخامس عشر: إثبات قدرة الله.

السادس عشر: إثبات رحمة الله ورأفته بعباده.

السابع عشر: أن الله لا يهمل العباد بل هو رقيب شهيد على خلقه.

الثامن عشر: الحث على حسن الظن بالله.

التاسع عشر: الحث على مراقبة الله.

العشرون: دليل على غنى الله.

الحادي والعشرون: أن في الحديث ما يدعو إلى محبة الله.

الثاني والعشرون: إثبات حكمة الله.

الثالث والعشرون: إثبات حياة الله.

الرابع والعشرون: الحث على التوجه إلى الله.

الخامس والعشرون: أن تأخر المطر لحكم.

السادس والعشرون: الرد على من ادعى علم الغيب.

السابع والعشرون: أن جميع العباد فقراء إلى الله.

الثامن والعشرون: حسن محادثة الرسول مع أصحابه.

قال ابن عدوان:

ويعجب ربي من قنوط عباده ... فألق لما بينت سمعك واهتدي

وفي رقية المرضى مقال نبينا ... ألا أرق به مرضاك يا ذا التسدد

رواه أبو داود يا ذا وغيره ... ألا أحفظ ـ هداك الله ـ سنة أحمد

* * *



[إثبات صفة القدم والرجل للرحمن]

وقوله ﷺ: «لا تزالُ جهَنَّمُ يُلقى فيها، وهي تَقولُ: هَل منْ مزَيد؟؛ حتّى يضع ربُّ العزَّة فيها رِجْلَهُ» ـ وفي رواية: عليها ـ قَدَمَهُ فيَنْزَوي بَعضُها إلى بَعْضٍ، فتَقولُ: قَط قَط». متفق عليه.

• الشَّرح •

● قال العلامة ناصر السعدي:

وهذه الصِّفة تجري مجرىٰ بقية الصِّفات، تُثبَتُ للَّه حقًا علىٰ الوجه اللائق بعظمة اللَّه، وذلك أن اللَّه وعد النار ملأها، كما قال: ﴿لأَمْلأَنَّ جهنَّم منَ الْجنَّة والنَّاسِ أجْمعينَ﴾ [السجدة: ١٣]. فلما كان من مُقتضىٰ رحمته أن لا يُعذِّب أحدًا بغير جُرمٍ، وكانت النَّار في غاية القَعر والسِّعة حقَّق وعده تعالىٰ ووضع عليها قدمه، فيتلاقىٰ طرفاها، ولا يبقىٰ فيها فضل عن أهلها. وأما الجنة فإنه يبقىٰ فيها فضلٌ عن أهلها مع كثرة ما أعطاهم وسعَته فينشئ لهم خلقًا أُخرىٰ كما ثبت بذلك الحديث.

● قال الشيخ محمد خليل هراس:

قوله: «لا تزال جهنم...» : في هذا الحديث إثبات الرجل والقدم لله عز وجل، وهذه الصفة تجري مجرىٰ بقية الصفات فتثبت لله علىٰ الوجه اللائق بعظمته سبحانه. والحكمة في وضع رجله سبحانه في النار أنه قد وعد أن يملأها كما في قوله تعالىٰ: ﴿لأَمْلأَنَّ جهنَّم منَ الْجِنَّة والنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.

ولما كان مقتضىٰ رحمته وعدله أن لا يعذب أحدًا بغير ذنب، وكانت النار في غاية العمق والسعة، حقق وعده تعالىٰ فوضع فيها قدمه، فحينئذٍ يتلاقىٰ طرفاها ولا يبقىٰ فيها فضل عن أهلها.

وأما الجنة فإنه يبقى فيها فضل عن أهلها مع كثرة ما أعطاهم وأوسع لهم فينشئ الله لها خلقًا آخرين كما ثبت بذلك الحديث.

● قال الشيخ ابن عثيمين:

الحديث الخامس في إثبات الرجل أو القدم:

وهو قوله ﷺ: «**لا تزال جهنم يلقى فيها، وهي تقول: هل من مزيد؛ حتى يضع رب العزة فيها رجله** (وفي رواية: عليها قدمه)، **فينزوي بعضها إلى بعض، فتقول: قط قط**»(١) متفق عليه.

قوله: «**لا تزال جهنم يُلقى فيها**»: هذا يوم القيامة؛ يعني: يُلقى فيها الناس والحجارة؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿**فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ**﴾ [البقرة: ٢٤]، وقد يقال: يُلقى فيها الناس فقط، وأن الحجارة لم تزل موجودة فيها، والعلم عند الله.

«**يُلقى فيها**»: في هذا دليل على أن أهلها - والعياذ بالله - يُلقَوْن فيها إلقاء لا يدخلون مكرَّمين، بل يدعُّون إلى نار جهنم دعّا؛ ﴿**كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ**﴾ [الملك: ٨].

قوله: «**وهي تقول: هل من مزيد؟**»: (هل): للطلب؛ يعني: زيدوا. وأبعد النجعة من قال: إن الاستفهام هنا للنفي، والمعنى على زعمه: لا مزيد على ما فيَّ، والدليل على بطلان هذا التأويل:

قوله: «**حتى يضع رب العزة فيها رجله (وفي رواية: عليها قدمه)**»: لأن هذا يدل على أنها تطلب زيادة، وإلا؛ لما وضع الله عليها رجله حتى ينزوي بعضها إلى بعض؛ فكأنها تطلب بشوق إلى أن يلقى فيها زيادة على ما فيها.

قوله: «**حتى يضع رب العزة**»: عَبَّر برب العزة؛ لأن المقام مقام عزَّة وغلبة وقهر. وهنا (رب)؛ يعني: صاحب، وليست بمعنى خالق؛ لأن العزة صفة من

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٧٣٨٤) ومسلم (٢٨٤٨) من حديث أنس - رضي الله عنه.

صفات الله، وصفات الله تعالىٰ غير مخلوقة.

وقوله: «**فيها رجله**»، وفي رواية: «**عليها قدمه**»: (في) و (علىٰ): معناهما واحد هنا، والظاهر أن (في) بمعنىٰ: (علىٰ)؛ كقوله: ﴿**وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ**﴾ [طه: ٧١]؛ أي: عليها.

أما الرجل والقدم؛ فمعناهما واحد، وسميت رجل الإنسان قدمًا؛ لأنها تتقدم في المشي؛ فإن الإنسان لا يستطيع أن يمشي برجله إلا إذا قدمها.

قوله: «**فينزوي بعضها إلى بعض**»؛ يعني: ينضم بعضها إلىٰ بعض من عظمة قدم الباري عز وجل.

قوله: «**وتقول: قط قط**»؛ بمعني: حسبي حسبي؛ يعني: لا أريد أحدًا.

في هذا الحديث من الصفات:

أولا: إثبات القول من الجماد؛ لقوله: «وهي تقول» وكذلك: «فتقول: قط قط»، وهو دليل علىٰ قدرة الله الذي أنطق كل شيء.

ثانيًا: التحذير من النار، لقوله: «**لا تزال جهنم يُلقَى فيها، وهي تقول: هل من مزيد؟**».

ثالثًا: إثبات فضل الله عز وجل؛ فإن الله تعالىٰ تكفَّل للنار بأن يملأها كما قال: ﴿**لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**﴾ [هود: ١١٩]؛ فإذا دخلها أهلها، وبقي فيها فضل، وقالت: هل من مزيد؟ وضع الله عليها رجله، فانزوىٰ بعضها إلىٰ بعض، وامتلأت بهذا الانزواء

وهذا من فضل الله عز وجل؛ وإلا؛ فإن الله قادر علىٰ أن يخلق أقوامًا ويكمل ملأها بهم، ولكنه عز وجل لا يعذب أحدًا بغير ذنب؛ بخلاف الجنة، فيبقىٰ فيها فضل عمن دخلها من أهل الدنيا، فيخلق الله أقوامًا يوم القيامة ويدخلهم الجنة بفضله ورحمته.

رابعًا: أن لله تعالىٰ رجلا وقدمًا حقيقية، لا تماثل أرجل المخلوقين، ويسمىٰ أهل السنة مثل هذه الصفة: الصفة الذاتية الخبرية؛ لأنها لم تعلم إلا بالخبر، ولأن مسماها

أبعاض لنا وأجزاء، لكن لا نقول بالنسبة لله: إنها أبعاض وأجزاء؛ لأن هذا ممتنع على الله عز وجل.

وخالف الأشاعرة وأهل التحريف في ذلك، فقالوا: «يضع عليها رجله»؛ يعني: طائفة من عباده مستحقين للدخول، والرجل تأتي بمعنى الطائفة؛ كما في حديث أيوب عليه الصلاة والسلام؛ أرسل الله إليه رجل جراد من ذهب[1]؛ يعني: طائفة من جراد.

وهذا تحريف باطل؛ لأن قوله: «عليها»: يمنع ذلك.

وأيضًا؛ لا يمكن أن يضيف الله عز وجل أهل النار إلى نفسه؛ لأن إضافة الشيء إلى الله تكريم وتشريف.

وقالوا في القدم: قدم؛ بمعنى: مقدم؛ أي: يضع الله تعالى عليها مقدمه؛ أي: من يقدمهم إلى نار.

وهذا باطل أيضًا؛ فإن أهل النار لا يقدمهم الباري عز وجل، ولكنهم ﴿يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور: ١٣]، ويلقون فيها إلقاء؛ فهؤلاء المحرفون فروا من شيء ووقعوا في شرٍّ منه؛ فروا من تنزيه الله عن القدم والرجل، لكنهم وقعوا في السفه ومجانبة الحكمة في أفعال الله عز وجل.

والحاصل أنه يجب علينا أن نؤمن بأن لله تعالى قدمًا، وإن شئنا؛ قلنا: رجلا؛ على سبيل الحقيقة؛ مع عدم المماثلة، ولا نكيف الرجل؛ لأن النبي ﷺ أخبرنا بأن لله تعالى رجلا أو قدمًا، ولم يخبرنا كيف هذه الرجل أو القدم، وقد قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٣٣٩١) والنسائي في «الصغرى» (٤٠٩) وابن حبان في «صحيحه» (٦٢٢٩) من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

والفائدة المسلكية من هذا الحديث:

هو الحذر الشديد من عمل أهل النار؛ خشية أن يلقى الإنسان فيها كما يلقى غيره.

● قال الشيخ صالح الفوزان:

قوله: «**لا تزال جهنم**» جهنم اسم من أسماء النار، قيل: سميت بذلك؛ لبعد قعرها، وقيل: لظلمتها، من الجهومة، وهي: الظلمة «**يلقى فيها**» أي: يطرح فيها أهلها «**وهي تقول: هل من مزيد**» أي: تطلب الزيادة لسعتها، وقد وعدها الله أن يملأها «**حتى يضع رب العزة فيها رجله**» لما كانت النار في غاية الكبر والسعة، وقد وعدها الله ملئها، وكان مقتضى رحمته سبحانه، أن لا يعذب أحداً بغير جرم - حقق وعده ووضع عليها رجله «**فينزوي بعضها إلى بعض**» أي: ينضم بعضها إلى بعض ويتلاقى طرفاها ولا يبقى فيها فضل عن أهلها «**فتقول: قط قط**»[(١)] أي: حسبي ويكفيني.

والشاهد من الحديث: أن فيه إثبات الرِّجْل والقَدَم لله تعالى على الوجه اللائق به سبحانه، وهو من صفات الذات كالوجه واليد. والله تعالى أعلم.

وقد غلط في تفسير هذا الحديث المعطِّلة حيث قالوا: «قدمه» نوع من الخلق، وقالوا: «**رجله**» جماعة من الناس، كما يقال: رجل جراد، والرد على هذا: أن يقال: إن النبي ﷺ قال: حتى: «**يضع**» ولم يقل: حتى يلقي، كما قال في أول الحديث: «**يلقى فيها**»، وأيضاً القدم لا يصح تفسيره بالقوم لا حقيقة ولا مجازاً.

* * *

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٦٦٦١) ومسلم (٢٨٤٨) من حديث أنس - رضي الله عنه -.

أسئلة وأجوبة نموذجية على إثبات صفة القدم والرجل للرحمن

● قال الشيخ عبد العزيز المحمد السلمان:

س٣٠٢ - بين ما تعرفه عن معنى حديث: «لا تزال جهنم يلقى فيها وهي تقول: هل من مزيد حتى يضع رب العزة فيها رجله» وفي رواية: «عليها قدمه فينزوي بعضها إلى بعض فتقول: قط قط» متفق عليه.

ج - «جهنم»: عَلَم على طبقة من طبقات النار.

«قط»: أي: حسبي ويكفيني.

«يلقىٰ»: يطرح.

«ينزوي»: ينضم بعضها إلىٰ بعض.

«الرب»: المالك المتصرف.

«هل من مزيد» من زيادة: تطلب الزيادة لسعتها وقعرها.

«العزة»: القوة والغلبة والامتناع.

هذا الحديث يتضمن الإنذار والتخويف مما أمامنا وذلك أن المصطفىٰ ﷺ أخبر: أن جهنم لا تزال يطرح فيها من أهلها المستحقين لها وهي تطلب الزيادة إلىٰ أن يضع الرب - جل وعلا - رجله فيها، فعند ذلك ينضم بعضها إلىٰ بعض، وتقول: حسبي ويكفيني. وفي هذا الحديث:

أولاً: إثبات صفة الرجل.

ثانيًا: إثبات القدم.

ثالثًا: إثبات الربوبية.

رابعًا: إثبات العزة.

خامسًا: إثبات البعث والجزاء والحساب.

سادسًا: الحث على العمل الصالح.

سابعًا: الخوف من النار.

ثامنًا: إثبات النار وأنها مخلوقة.

تاسعًا: أن جهنم تتكلم.

عاشرًا: إثبات قدرة الله.

الحادي عشر: أن جهنم تطلب الزيادة إلى أن يضع رب العزة عليها رجله.

الثاني عشر: أن أهل النار يلقون فيها إلقاء كما تلقى القمامة.

الثالث عشر: أن جهنم تتكلم باللغة العربية.

الرابع عشر: إثبات علم الله.

الخامس عشر: دليل على سعة جهنم.

السادس عشر: إثبات الأفعال الاختيارية.

السابع عشر: دليل على أن الجمادات تعظم الله.

الثامن عشر: أن جهنم تتحرك ويدنو بعضها إلى بعض.

التاسع عشر: نصح الرسول وشفقته على أمته حيث بين ووضح لهم ليحذروا.

العشرون: إثبات صفة الوضع.

الحادي والعشرون: الرد على منكري صفات الله.

* * *

صفة الكلام «من السنة»

وقوله ﷺ: «يَقُولُ تعالى: يا آدَمُ! فَيَقولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ. فَيُنادِي بِصَوْتٍ: إنَّ اللَّه يَأمُركَ أنْ تُخرِجَ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ بَعْثًا إلى النَّارِ». متفق عليه.

وقوله ﷺ: «مَا مِنكُم مِن أَحَدٍ إلاَّ سَيُكَلِّمُهُ رَبُّه؛ولَيْس بَيْنَهُ وبَيْنَه تُرْجُمَانٌ».

• الشَّرح •

● قال العلامة ناصر السعدي:

ففي هذا الحديث: إثبات «القول» من الله، و«النِّداء» لآدم وأنه نداءٌ حقيقة بصوت، وهذا من فضل اللَّه لا يُشكِل على المؤمنين؛ فإنّ «النِّداء» و«القول» من أنواع كلامه، وكلام الله صِفة من صفاته، والصِّفةُ تتبع الموصوف. وفيه: أن «القول» و«النِّداء» يكون في يوم القيامة. وهذا من أدِلَّة الأفعال الاختيارية.

وكم لهذه المسألة من بَراهين من الكِتَاب والسُّنَّة.

وهذا أيضًا: فيه إثباتٌ لتكليمه لجميع العباد بلا واسطة.

وتكليمه لعباده نوعان:

● نوع بلا واسطة: كما في هذا الحديث. وتكليمه لأهل الجنة تكليم محبة ورضوان وإحسان وأما ما في هذا الحديث فإنه تكليم مُحاسبة يكون مع البَرِّ والفاجر. وأما قوله تعالى: ﴿لا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧٧] فالمنفيُّ كلامٌ خاص، وهو الكلام الذي يُسُرُّ المُتَكَلَّم.

● ونوع بواسطة: وهو كلامه تعالىٰ لِرُسُله من الملائكة بأمره ونواهيه وأخباره لأنبيائه ورُسله من البَشَر.

● قال الشيخ محمد خليل هراس:

قوله: «يقول تعالى يا آدم»: إلخ: في هذين الحديثين إثبات القول والنداء والتكليم لله عز وجل، وقد سبق أن بينا مذهب أهل السنة والجماعة في ذلك وأنهم يؤمنون بأن هذه صفات أفعال له سبحانه تابعة لمشيئته وحكمته، فهو: قال ويقول، ونادىٰ وينادي: وكلم ويكلم، وأن قوله ونداءه وتكليمه إنما يكون بحروف وأصوات يسمعها من يناديه ويكلمه، وفي هذا رد علىٰ الأشاعرة في قولهم: إن كلامه قديم وأنه بلا حرف ولا صوت.

وقد دل الحديث الثاني :علىٰ أنه سبحانه سيكلم جميع عباده بلا واسطة، وهذا تكليم عام؛ لأنه تكليم محاسبة فهو يشمل المؤمن والكافر والبر والفاجر، ولا ينافيه قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ﴾ لأن المنفي هنا هو التكليم بما يسمع المكلم، وهو تكليم خاص ويقابله تكليمه سبحانه لأهل الجنة تكليم محبة ورضوان وإحسان.

● قال الشيخ ابن عثيمين:

الحديث السادس في إثبات الكلام والصوت:

وهو قوله ﷺ: «يقول الله تعالى: يا آدم! فيقول: لبيك وسعديك. فينادى بصوت: إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثًا إلى النَّار..»[1] متفق عليه.

يخبر النبي عليه الصلاة والسلام عن ربه أنه يقول: «يا آدم» وهذا يوم القيامة، فيجيب آدم: «لبيك وسعديك».

«لبيك»؛ بمعنىٰ: إجابة مع إجابة، وهو مثنىٰ لفظًا، ومعناه: الجمع، ولهذا يعرب علىٰ أنه ملحق بالمثنىٰ.

و«سعديك»؛ يعني: إسعادًا بعد إسعاد؛ فأنا ألبي قولك وأسألك أن تسعدني وتعينني.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٧٤٨٣) ومسلم (٢٢٢) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

قال: «فينادي»: أي: الله؛ فالفاعل هو الله عز وجل.

وقوله: «بصوت»: هذا من باب التأكيد؛ لأن النداء لا يكون إلا بصوت مرتفع؛ فهو كقوله تعالى: ﴿وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: ٣٨]؛ فالطائر الذي يطير؛ إنما يطير بجناحيه، وهذا من باب التأكيد.

وقوله: «إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثًا إلى النار»: ولم يقل: إني آمرك! وهذا من باب الكبرياء والعظمة؛ حيث كنى عن نفسه تعالى بكنية الغائب، فقال: «إن الله يأمرك»؛ كما يقول الملك لجنوده: إنَّ الملك يأمركم بكذا وكذا؛ تفاخرًا وتعاظمًا، والله سبحانه هو المتكبر وهو العظيم.

وجاء في القرآن مثل هذا: ﴿إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨] ولم يقل: إني آمركم.

وقوله: «أن تخرج من ذريتك بعثًا إلى النار»: أي: مبعوثًا.

والحديث الآخر؛ قال: «يا رب! وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسع مائة وتسعة وتسعون»(١).

الحديث السابع في إثبات الكلام أيضًا: وهو قوله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه، وليس بينه وبينه ترجمان»(٢).

«ما»: نافية.

«من أحد»: مبتدأ؛ دخلت عليه (من) الزائدة للتوكيد؛ يعني: ما منكم من أحد.

«إلا سيكلمه ربه»: يعني: هذه حاله؛ سيكلمه الله عز وجل؛ «ليس بينه وبينه ترجمان»، وذلك يوم القيامة.

والترجمان: هو الذي يكون واسطة بين متكلمين مختلفين في اللغة، ينقل إلى أحدهما كلام الآخر باللغة التي يفهمها.

ويشترط في المترجم أربعة شروط: الأمانة، وأن يكون عالمًا باللغة التي يترجم

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٧٥١٢) ومسلم (١٠١٦) من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه.

منها، وباللغة التي يترجم إليها، وبالموضوع الذي يترجمه.

وفي هذا الحديث من صفات الله: الكلام، وأنه بصوت مسموع مفهوم.

الفوائد المسلكية في الحديث الأول: «يقول الله: يا آدم!»: فيه بينا أن الإنسان إذا علم بذلك؛ فإنه يحذر ويخاف أن يكون من التسع مائة والتسعة والتسعين. وفي الحديث الثاني: يخاف الإنسان من ذلك الكلام الذي يجري بينه وبين ربه عز وجل أن يفتضح بين يدي الله إذا كلمه تعالىٰ بذنوبه، فيقلع عن الذنوب، ويخاف من الله عز وجل.

● **قال الشيخ صالح الفوزان:**

قوله: «**لبيك وسعديك**»[1]: لبيك، أي: أنا مقيم علىٰ طاعتك، من ألب بالمكان إذا أقام، وهو منصوب علىٰ المصدر، وثني للتأكيد، وسعديك: من المساعدة وهي المطاوعة، أي: مساعدة في طاعتك بعد مساعدة. قوله: «**فينادي**» بكسر الدال، والمنادي هو الله تعالىٰ «**بصوت**» تأكيد لقوله: «**ينادي**»؛ لأن النداء لا يكون إلا بصوت، وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿**وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا**﴾. قوله: «**بعثًا من النار**» البعث هنا بمعنىٰ: المبعوث الموجه إليها، ومعنىٰ ذلك: ميِّز أهل النار من غيرهم.

والشاهد من الحديث: أن فيه إثبات القول من الله والنداء بصوت يسمع، وأن ذلك سيحصل يوم القيامة، ففيه أن الله يقول وينادي متىٰ شاء وكما يشاء.

وقوله: «**ما منكم من أحد**»[2]: الخطاب للصحابة، وهو عام لجميع المؤمنين «**إلا سيكلمه ربه**»: بلا واسطة «**ليس بينه وبينه ترجمان**» الترجمان: من يعبر بلغة عن لغة أي: ينقل الكلام من لغة إلىٰ لغة أخرىٰ.

والشاهد من الحديث: أن فيه إثبات تكليم الله سبحانه لعباده، وأنه سبحانه يتكلم إذا شاء، فكلامه من صفاته الفعلية، وأنه يكلم كل مؤمن يوم القيامة.

❊ ❊ ❊

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٤٧٤١) ومسلم (٢٢٢) من حديث أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه.

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٧٤٤٣) ومسلم (١٠١٦) من حديث عدي بن حاتم ـ رضي الله عنه ـ.



صِفَةُ العلو والاستواء «من السُّنَّة»

وقوله ﷺ: في رُقْيَةِ المريض: «ربّنا اللَّه الذي في السَّماءِ تَقَدَّسَ اسْمُكَ، أمْرُكَ في السَّماء والأرض؛ كَما رَحْمَتُكَ في السَّماء؛ اجْعَلْ رَحْمَتَكَ في الأرضِ اغْفِرْ لَنا حُوبَنا وخَطايانا، أنتَ رَبُّ الطَّيِّبين، أَنْزِلْ رَحْمَةً مِنْ رَحْمَتِكَ وَشِفاءً مِنْ شِفائِكَ على هذا الوَجعِ فيبرأ» حديثٌ حسنٌ رواه أبو داود وغيره.

وقوله ﷺ: «أَلا تأمَنوني وأنا أَمينُ مَنْ في السَّماءِ» حَديثٌ صحيحٌ.

وقوله ﷺ: «وَالعَرْشُ فَوقَ المَاءِ، وَاللَّهُ فَوْقَ العَرْشِ، وَهُوَ يَعْلَمُ ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ» حديثٌ حسنٌ رواهُ أبو داود وغيره.

وقوله: للجَارِيةِ: «أَيْنَ اللَّهُ؟». قَالت: في السَّمَاءِ. قَالَ: «مَنْ أَنَا؟» قَالَت: أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ. قَالَ: «أَعْتِقْها؛ فإنَّها مُؤْمِنَة» رواه مسلم.

• الشَّرح •

● قال العلامة ناصر السعدي:

فهذه النُّصوص وغيرها المُصَرِّحة بأنه تعالى في السماء إما أن «في» بمعنى (على) كما قالهُ كثير من أهل العلم واللُّغة.

و«في» تكون بمعنى (على) في مواضع كثيرة مثل قوله: ﴿وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ

النَّخْلِ﴾ [طه: ٧١] أي: عليها.

وقال طائفة من أهل العلم: إنَّ معنى «في السماء» أي: في جهة العُلُوّ.

وعلى الوجهين: فهي نصٌّ في عُلُوِّ اللَّه على خلقه.

وفي «حديث الرُّقية» المذكور تَوَسُّلٌ إلى اللَّه بِالثَّناء عليه بربوبيته وأُلوهيته وتقديسه وعُلُوِّه وعموم أمره الشَّرعي وأمره القدري.

فإن الله له الأمر القدري الذي ينشأ عنه جميع الموجودات والحوادث والتَّدابير القدرية. وذلك مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠] وله الأمر الشرعي المُتَضَمِّن للشَّرائع التي شرعها لعباده على ألسنة رُسُله فتوسل إلى اللَّه بذلك.

ثم تَوَسَّل إليه برحمته التي شملت أهل السَّموات كلهم أن يجعل لأهل الأرض نصيبًا وافرًا منها.

ثم توسل إليه بسؤال مغفرة الحوب؛ وهو الذنب العظيم والخطايا وما دونها.

ثم بربوبيته الخاصة للطيبين - وهم الأنبياء وأتباعهم التي من آثار ربوبيته إياه أن غَمَرَهُ بِنِعم الدِّين والدنيا الظاهرة والباطنة.

فهذه الوسائل المتنوعة لا يكاد يُرَدُّ دُعاءُ من تَوَسَّل بها، فلهذا دعا اللَّه بعدها بالشِّفاء الذي هو شفاء الله الذي لا يَدَع مَرَضًا إلا أزَالَه ولا فيه تعلق بغير اللَّه. فأفضل المِنَن مِنَنُ المولى التي لا سَعيَ لمخلوق فيها.

وفي شهادة الرسول بالإيمان للجارية التي اعترفت بِعُلُوِّ اللَّه ورسالة رسوله: أن من أعظم أوصاف الباري الاعتراف بِعُلُوِّه على خلقه ومُبَاينته لهم.

وأنه على العرش استوى، وأن هذا أصل الإيمان.

وأن من أنكر عُلُو الله المُطلق من كل وجه فقد حُرِمَ هذا الإيمان.

قوله: «والعرش فوق ذلك، والله فوق العرش وهو يعلم ما أنتم عليه».

فيه الجمع بين الإيمان بعلوه على عرشه وفوق مخلوقاته وبإحاطة علمه بالموجودات كلها، وقد جمع بين الأمرين في عدة مواضع من كتابه.

● قال الشيخ محمد خليل هراس:

قوله: «ربنا الله الذي في السماء» إلخ: الحديث الأول صريح في علوه تعالىٰ وفوقيته فهو كقوله تعالىٰ: ﴿ أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ﴾ وقد سبق أن قلنا: إن هذه النصوص ليس المراد منها أن السماء ظرف حاوٍ له سبحانه، بل «في» إما أن تكون بمعنىٰ علىٰ كما قاله كثير من أهل العلم واللغة.

و«في»: تكون بمعنىٰ علىٰ في مواضع كثيرة مثل قوله تعالىٰ: ﴿وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾، وإما أن يكون المراد من السماء جهة العلو، وعلىٰ الوجهين فهي نص في علوه تعالىٰ علىٰ خلقه.

وفي حديث الرقية المذكور توسل إلىٰ الله عز وجل بالثناء عليه بربوبيته وإلاهيته وتقديس اسمه وعلوه علىٰ خلقه وعموم أمره الشرعي وأمره القدري، ثم توسل إليه برحمته التي شملت أهل سمواته جميعًا أن يجعل لأهل الأرض نصيبًا منها، ثم توسل إليه بسؤال مغفرة الحوب وهو الذنب العظيم، ثم الخطايا التي هي دونه، ثم توسل إليه بربوبيته الخاصة للطيبين من عباده وهم الأنبياء وأتباعهم التي كان من آثارها أن غمرهم بنعم الدين والدنيا الظاهرة والباطنة.

فهذه الوسائل المتنوعة إلىٰ الله لا يكاد يرد دعاء من توسل بها، ولهذا دعا الله بعدها بالشفاء الذي هو شفاء الله الذي لا يدع مرضًا إلا أزاله ولا تعلق فيه لغير الله، فهل يفقه هذا عباد القبور من المتوسلين بالذوات والأشخاص والحق والجاه والحرمة ونحو ذلك.

وأما الحديث الثاني فقد تضمن شهادة الرسول ﷺ بالإيمان للجارية التي اعترفت بعلوه تعالىٰ علىٰ خلقه، فدل ذلك علىٰ أن وصف العلو من أعظم أوصاف الباري جل شأنه حيث خصه بالسؤال عنه دون بقية الأوصاف، ودل أيضًا علىٰ أن الإيمان بعلوه المطلق من كل وجه هو من أعظم أصول الإيمان، فمن أنكره فقد حرم الإيمان الصحيح.

والعجب من هؤلاء الحمقىٰ من المعطلة النفاة زعمهم أنهم أعلم بالله من رسوله، فينفون عنه الأين بعدما وقع هذا اللفظ بعينه من الرسول مرة سائلاً غيره، كما في هذا الحديث: ومرة مجيبًا لمن سأله بقوله أين كان ربنا.

وأما قوله: «والعرش فوق الماء» إلخ: ففي الجمع بين الإيمان بعلوه تعالىٰ علىٰ عرشه وبإحاطته علمه بالموجودات كلها، فسبحان من هو عليٌّ في دنوه، قريب في علوه.

● قال الشيخ ابن عثيمين:

الحديث الثامن في إثبات العلو لله وصفات أخرى:

وهو قوله في رُقْيَة المريض: «ربنا الله الذي في السماء! تقدَّس اسمك، أمرك في السماء والأرض؛ كما رحمتك في السماء؛ اجعل رحمتك في الأرض اغفر لنا حوبنا وخطايانا، أنت رب الطيبين أنزل رحمة من رحمتك وشفاء من شفائك على هذا الوجع؛ فيبرأ»(١). حديث حسن، رواه أبو داود وغيره.

قوله: «في رقية المريض»: من باب إضافة المصدر إلىٰ المفعول؛ يعني: في الرقية إذا قرأ علىٰ المريض.

قوله: «ربنا الله الذي في السماء»: تقدم الكلام علىٰ قوله: «في السماء» في الآيات.

وقوله: «تقدس اسمك»؛ أي: طهر، والاسم هنا مفرد، لكنه مضاف، فيشمل كل الأسماء؛ أي: تقدست أسماؤك من كل نقص

«أمرك في السماء والأرض»: أمر الله نافذ في السماء والأرض؛ كما قال تعالىٰ: ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ﴾ [السجدة: ٥]، وقال: ﴿أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]

وقوله: «كما رحمتك في السماء؛ اجعل رحمتك في الأرض»: الكاف هنا للتعليل، والمراد بها التوسُّل؛ توسل إلىٰ الله تعالىٰ بجعل رحمته في السماء أن يجعلها في الأرض.

فإن قلت: أليس رحمة الله في الأرض أيضًا؟!

قلنا: هو يقرأ علىٰ المريض، والمريض يحتاج إلىٰ رحمة خاصة يزول بها مرضه.

---

(١) سبق تخريجه.

وقوله: «اغفر لنا حُوبنا وخطايانا»: الغفر: ستر الذنب والتجاوز عنه. والحوب: كبائر الإثم. والخطايا: صغائره. هذا إذا جمع بينهما، أما إذا افترقا؛ فهما بمعنى واحد؛ يعني: اغفر لنا كبائر الإثم وصغائره؛ لأن في المغفرة زوال المكروب وحصول المطلوب، ولأن الذنوب قد تحول بين الإنسان وبين توفيقه؛ فلا يوفَّق ولا يُجاب دعاؤه.

قوله: «أنت رب الطيِّبين»: هذه ربوبية خاصة، وأما الربوبية العامة؛ فهو رب كل شيء، والربوبية قد تكون خاصة وعامة.

واستمع إلى قول السحرة الذين آمنوا: ﴿قَالُواْ آمَنَّا بِرِبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ [الأعراف: ١٢١، ١٢٢]؛ حيث عموا ثم خصوا.

واستمع إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٩١]؛ فـ﴿رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ﴾: خاص، ﴿وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾: عام.

والطيبون: هم المؤمنون؛ فكل مؤمن؛ فهو طيب، وهذا من باب التوسل بهذه الربوبية الخاصة، إلى أن يستجيب الله الدعاء ويشفي المريض.

قوله: «أنزل رحمة من رحمتك وشفاء من شفائك على هذا الوجع»: هذا الدعاء وما سبقه من باب التوسل.

«أنزل رحمة من رحمتك»: الرحمة نوعان:

رحمة هي صفة الله: فهذه غير مخلوقة وغير بائنة من الله عز وجل؛ مثل قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ [الكهف: ٥٨]، ولا يطلب نزولها.

ورحمة مخلوقة: لكنها أثر من آثار رحمة الله؛ فأطلق عليها الرحمة؛ مثل قوله تعالى في الحديث القدسي عن الجنة: «أنت رحمتي أرحم بك من أشاء»[1].

كذلك الشفاء؛ فالله شاف، ومنه الشفاء؛ فوصفه الشفاء، وهو فعل من أفعاله، وهو بهذا المعنى صفة من صفاته، وأما باعتبار تعديه إلى المريض؛ فهو مخلوق من مخلوقاته؛ فإن الشفاء زوال المرض.

---

(١) سبق تخريجه.

قوله: «فيبرأ»: بفتح الهمزة منصوبًا؛ لأنه جواب الدعاء: أنزل رحمة؛ فيبرأ. أما إذا قرأ بالضم مرفوعًا؛ فإنه مستأنف، ولا يتبع الحديث، بل يوقف عند قوله: «**الوجع**»: وتكون «**فيبرأ**»: جملة خبرية تفيد أن الإنسان إذا قرأ بهذه الرقية، فإن المريض يبرأ، ولكن الوجه الأول أحسن بالنصب.

الحديث التاسع: في إثبات العلو أيضًا: وهو قوله: «**ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء**»(١).

«ألا تأمنوني»: فيها إشكال لغوي، وهو حذف نون الفعل بدون ناصب ولا جازم!!

والجواب عن هذا: أنه إذا اتصلت نون الوقاية بفعل من الأفعال الخمسة؛ جاز حذف نون الرفع.

«ألا تأمنوني»: أي: ألا تعتبروني أمينًا.

«وأنا أمين من في السماء»: والذي في السماء هو الله عز وجل، وهو أمينه عليه الصلاة والسلام على وحيه، وهو سيد الأمناء عليه الصلاة والسلام والرسول والذي ينزل عليه جبريل هو أيضًا أمين: ﴿**إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ**﴾ [التكوير: ١٩ ـ ٢١]. وهذا الحديث له سبب، وهو أن النبي ﷺ قسم ذهيبة بعث بها علي من اليمن بين أربعة نفر، فقال له رجل: نحن أحق بهذا من هؤلاء. فقال النبي ﷺ: «**ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء**».

«ألا»: للعرض؛ كأنه يقول: ائمنوني؛ فإني أمين من في السماء!.

ويحتمل أن تكون الهمزة لاستفهام الإنكار، و (لا): نافية.

والشاهد قوله: «من في السماء»: ونقول فيها ما قلناه فيما سبق في الآيات.

الحديث العاشر: في إثبات العلو أيضًا: وهو قوله ﷺ: «والعرش فوق الماء، والله فوق العرش وهو يعلم ما أنتم عليه»(٢). حديث حسن، رواه أبو داود، وغيره.

(١، ٢) سبق تخريجه.

لما ذكر النبي عليه الصلاة والسلام المسافات التي بين السماوات؛ قال: «والعرش فوق الماء».

ويشهد لهذا قوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ [هود: ٧].

قال: «والله فوق العرش، وهو يعلم ما أنتم عليه»: هو فوق العرش، ومع ذلك لا يخفى عليه شيء من أحوالنا وأعمالنا، بل قد قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ [ق: ١٦]؛ يعني: الشيء الذي في ضميرك يعلمه الله؛ مع أنه ما بان لأحد.

وقوله: «وهو يعلم ما أنتم عليه»: يفيد إحاطة علم الله بكل ما نحن عليه.

الفائدة المسلكية من هذا الحديث:

وإذا آمنا بهذا الحديث؛ فإننا نستفيد منه فائدة مسلكية، وهي تعظيم الله عز وجل، وأنه في العلو، وأنه يعلم ما نحن عليه، فنقوم بطاعته؛ بحيث لا يفقدنا حيث أمرنا، ولا يجدنا حيث نهانا.

الحديث الحادي عشر: في إثبات العلو أيضًا: وهو قوله للجارية: «أين الله؟». قالت: في السماء. قال: «من أنا؟». قالت: أنت رسول الله. قال: «أعتقها؛ فإنها مؤمنة»[1]. رواه مسلم.

قوله: «أين الله؟»: «أين»: يستفهم بها عن المكان.

«قالت: في السماء»: يعني: على السماء، أو: في العلو؛ على حسب الاحتمالين السابقين.

«قال: من أنا؟ قالت: أنت رسول الله. قال أعتقها فإنها مؤمنة».

وعند أهل التعطيل هي بقولها: «في السماء»: إذا أرادت أنه في العلو؛ هي كافرة!! لأنهم يرون أن من أثبت أن الله في جهة؛ فهو كافر؛ إذ يقولون: إن الجهات خالية منه.

---

(١) سبق تخريجه.

واستفهام النبي ﷺ بـ «أين» يدل على أن لله مكانًا.

ولكن يجب أن نعلم أن الله تعالى لا تحيط به الأمكنة؛ لأنه أكبر من كل شيء، وأن ما فوق الكون عدم، ما ثَمَّ إلا الله؛ فهو فوق كل شيء.

وفي قوله: «أعتقها؛ فإنها مؤمنة»: دليل على أن عتق الكافر ليس بمشروع، ولهذا لا يجزئ عتقه في الكفارات؛ لأن بقاء الكافر عندك رقيقًا؛ فيه نوع حماية له وسلطة وإمرة وتقريب من الإسلام؛ فإذا أعتقته؛ تحرر، وإذا تحرر؛ فيخشى منه أن يرجع إلى بلاد الكفر؛ لأن أصل الرق هو الكفر، ويبقى معينًا للكافرين على المؤمنين.

● **قال الشيخ صالح الفوزان:**

(في رقية المريض)(١): أي: القراءة على المريض طلبًا لشفائه، وهي مشروعة إذا كانت بالقرآن والأدعية المباحة، وممنوعة إذا كانت بألفاظ شركية أو أعمال شركية «**ربنا الله الذي في السماء**» أي: على السماء، فـ «في» هنا بمعنى: على، كقوله تعالى: ﴿**فَسِيحُوا فِي الأَرْضِ**﴾ [التوبة: ٢]: أي: على الأرض، ويجوز أن تكون في للظرفية على بابها، ويكون المراد بالسماء: مطلق العلو.

«**تقدس اسمك**»: أي: تقدست أسماؤك عن كل نقص، فهو مفرد مضاف، فيعم جميع أسماء الله.

«**أمرك في السماء والأرض**»: أي: أمرك الكوني القدري الذي ينشأ عنه جميع المخلوقات والحوادث، ومنه قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ**﴾ [يس: ٨٢]. وأمرك الشرعي المتضمن للشرائع التي شرعها لعباده.

«**كما رحمتك في السماء اجعل رحمتك في الأرض**»: هذا توسل إليه برحمته التي شملت أهل السموات كلهم أن يجعل لأهل الأرض منها نصيبًا «**اغفر لنا حوبنا وخطايانا**» هذا طلب للمغفرة وهي الستر ووقاية الإثم، ومنه المغفر الذي يلبس على الرأس لستره ووقايته من الضرب، والحوب: الإثم، والخطايا: هي الذنوب.

---

(١) ضعيف: أخرجه أبو داود (٣٨٩٢) من حديث أبي الدرداء - رضي الله عنه.
وضعفه الشيخ الألباني في «ضعيف الجامع» (٥٤٢٢).

«أنت رب الطيبين»: هذا توسل آخر، «والطيبين»: جمع طيب، وهم النبيون وأتباعهم، وإضافة ربوبيته لهؤلاء إضافة تشريف وتكريم وإلا فهو سبحانه رب كل شيء ومليكه «أنزل رحمة من رحمتك»: أي: الرحمة المخلوقة، فإن رحمة الله نوعان:

النوع الأول: رحمته التي هي صفة من صفاته، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

النوع الثاني: رحمة تضاف إليه سبحانه من إضافة المخلوق إلىٰ خالقه كالمذكورة في هذا الحديث، وكما في حديث: «خلق الله مائة رحمة» الحديث[1]، فطلب ﷺ من ربه إنزال هذه الرحمة علىٰ المريض لحاجته إليها؛ ليشفيه بها.

والشاهد من الحديث: أن فيه إثبات العلو لله تعالىٰ، وأنه في السماء، والعلو صفة ذاتية كما سبق، كما أن في الحديث التوسل إلىٰ الله تعالىٰ بالثناء عليه بربوبيته وإلهيته وقدسيته وعلوه وعموم أمره وبرحمته، ثم في الحديث طلب المغفرة من الله وشفاء المرض.

وقوله ﷺ: «ألا تأمنوني»[2]: هذا خطاب منه ﷺ لمن اعترض عليه في بعض قسمته المال، و«ألا»: أداة استفتاح وتنبيه: و «تأمنوني»: من الأمانة، وهي عدم المحاباة والخيانة، أي: ألا تأمنوني في قسمة المال، «وأنا أمين من في السماء» وهو الله سبحانه قد ائتمنني علىٰ وحيه ورسالته وتبليغ شرعه، وكفىٰ بذلك شهادة علىٰ أمانته وصدقه ﷺ.

والشاهد من الحديث: أن فيه إثبات العلو لله سبحانه، حيث قال: «من في السماء» وسبق شرح الجملة قريبًا.

وقوله: «والعرش فوق ذلك»: تقدم تفسير العرش، وقوله: «فوق ذلك»: أي: فوق المخلوقات التي بينَّها الرسول ﷺ لأصحابه في الحديث الذي ذكر فيه بُعد ما بين السماء والأرض، وما بين كل سماء وسماء، وكثف كل سماء والبحر الذي فوق السماء السابعة وما بين أسفله وأعلاه وما فوق ذلك البحر من الأوعال الثمانية

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٥٢) والترمذي (٣٥٤١).

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٤٣٥١) ومسلم (١٠٦٤) من حديث أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه.

العظيمة، ثم فوق ذلك العرش «**والله فوق العرش**»: أي: مستو عليه استواء يليق بجلاله «**وهو يعلم ما أنتم عليه**» بعلمه المحيط الذي لا يخفىٰ عليه شيء.

والشاهد من الحديث: إثبات علو الله علىٰ عرشه، وأن عرشه فوق المخلوقات كلها، وأن علم الله سبحانه محيط بأعمال العباد، لا يخفىٰ عليه منها شيء.

(وقوله للجارية)[1]: أي: أمة معاوية بن الحكم حينما غضب عليها سيدها معاوية فلطمها، ثم ندم وأخبر رسول الله ﷺ، وقال: أفلا أعتقها؟ فقال النبي ﷺ: «بلىٰ جئني بها»، فأتىٰ بها رسول الله ﷺ فقال لها: «**أين الله؟**» فيه دليل علىٰ جواز السؤال عن الله بأين «قالت: في السماء» أي: الله سبحانه في السماء. وتقدم تفسير هذه الكلمة - «**قال**» لها النبي ﷺ أيضًا: «**من أنا؟**» سألها عن اعتقادها فيه «قالت: أنت رسوله الله» فأقرت له بالرسالة «**قال**» ﷺ لسيدها: «**أعتقها، فإنها مؤمنة**» فيه دليل علىٰ أن من شهد هذه الشهادة أنه مؤمن، وأن العتق يشترط له الإيمان.

والشاهد من الحديث: أن فيه دليلاً علىٰ علو الله علىٰ خلقه فوق سماواته، وأنه يشار إليه في جهة العلو إشارة حسية.

* * *

---

(١) أخرجه مسلم (٥٣٧) والنسائي (١٢١٨) من حديث معاوية بن الحكم السلمي - رضي الله عنه.

صفة المعيّة «من السُّنّة»

وقوله: «أفْضَلُ الإيمان أن تَعْلَمَ أنَّ اللَّهَ معَكَ حيْثُما كُنْتَ» حَدِيثٌ حَسَنٌ.

وقوله: «إذَا قَامَ أَحدُكُمْ إلَى الصَّلاة؛ فَلا يَبْصُقنَّ قِبلَ وَجْهِه، وَلا عَن يمَينِه، فإنّ اللَّهَ قِبلَ وَجهِهِ ولكِنْ عَنْ يَسارِهِ، أو تَحْتَ قَدَمِه» متفق عليه .

وقوله ﷺ: «اللَّهُمَّ! رَبَّ السَّماواتِ السَّبْعِ والأرض، وَرَبَّ العَرْشِ العَظيم! ربّنا وَرَبّ كُلِّ شَيء! فالق الحَبِّ والنَّوَى! مُنَزِّلَ التَّوْراة وَالإنْجيلِ وَالقُرآن، أعوذُ بكَ مِنْ شَرِّ نفسي ومن شرِّ كُلِّ دابَّة أنْتَ آخذٌ بناصيتها أنْتَ الأوَّلُ؛ فَلَيْس قَبْلَكَ شَيءٌ، وأنتَ الآخرُ؛ فَلَيس بَعْدَكَ شَيءٌ، وأنتَ الظَّاهِرُ؛ فَلَيْس فَوْقَكَ شَيءٌ، وأنْتَ الباطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيءٌ؛ اقْضِ عَنِّي الدَّيْنَ، وأغْنني مِنَ الفقْرِ» رواية مسلم.

قَولُهُ: «اللَّهُمَّ ربّ السماوات... إلخ» تَضَمَّنَ الحديثُ إثبَات أسمائه.

وقوله ﷺ: لَمّا رفع الصَّحابَةُ أصواتهم بالذِّكر: «أَيُّها النَّاسُ أربَعُوا عَلى أنْفُسِكُمْ؛ فَإنّكُمْ لا تَدْعُون أصمًّا وَلا غائبًا؛ إنَّما تَدْعونَ سَميعًا بصيرًا قريبًا؛ إنَّ الذي تَدْعونَهُ أقْرَبُ إلى أحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ راحِلَتِه» متفق عليه .

• الشَّرح •

● قال العلامة ناصر السعدي:

هذان الحديثان دَلاّ على:

أن أفضل الإيمان مقام الإحسان والمُرَاقبة، وهو أن تعبد اللَّه كأنّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، وتعلم أن اللّه معك لا تتكلم ولا تفعل ولا تَتصرف إلا والله يَرَاك ويُشَاهِدك ويعلم سرَّك وجهرك، وأن تَلزم الأدب مع الله خُصُوصًا إذا دَخَلت في الصلاة التي هي أعظم صِلَة ومُناجاة بين العبد وَبين ربِّه فتخضع وتَخشَع وتستحضر، وتَعلم أنك واقف بين يدي اللَّه؛ فَتُقِل من الحركات ولا تُسيءَ الأدب معه بالبصاق أمامك أو عن يمينك.

فهذه المعيَّة متى حَصَل للعبد استحضارها في كل أحواله لا سيما في عباداته فإنَّها أعظم عَون على المُراقبة التي هي أعلى مَرَاتب الإيمان، فيجمع العبد بين الإيمان بعُلُو الله واستحضار قُربه، ولا منافاة بين الأمرين كما سيأتي بيان ذلك إن شاء الله.

● قال الشيخ محمد خليل هراس:

قوله: «أفضل الإيمان أن تعلم» : إلخ: فيه دلالة على أن أفضل الإيمان هو مقام الإحسان والمراقبة، وهو أن يعبد العبد ربه كأنه يراه ويشاهده، ويعلم أن الله معه حيث كان، فلا يتكلم ولا يفعل ولا يخوض في أمر ما إلا والله رقيب مطلع عليه، قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾

ولاشك أن هذه المعية إذا استحضرها العبد في كل أحواله فإنه يستحي من الله عز وجل أن يراه حيث نهاه، أو أن يفتقده حيث أمره فتكون عونًا له على اجتناب ما حرم الله والمسارعة إلى فعل ما أمر به من الطاعات على وجه الكمال ظاهراً وباطنًا، ولاسيما إذا دخل في الصلاة التي هي أعظم صلة ومناجاة بين العبد وربه، فيخشع قلبه ويستحضر عظمة الله وجلاله، فتقل حركاته ولا يسيء الأدب مع ربه بالبصق أمامه أو عن يمينه.

قوله: «إذا قام أحدكم إلى الصلاة »إلخ: دل على أن الله عز وجل يكون قبل وجه المصلي:

قال شيخ الإسلام في العقيدة الحموية: إن الحديث حق على ظاهره وهو سبحانه فوق العرش، وهو قبل وجه المصلي، بل هذا الوصف يثبت للمخلوق، فإن الإنسان لو أنه يناجي السماء أو يناجي الشمس والقمر لكانت السماء والشمس والقمر فوقه، وكانت أيضاً قبل وجهه.

قوله: «اللهم رب السموات» إلخ: تضمن الحديث إثبات أسمائه تعالى الأول والآخر والظاهر والباطن، وهي من الأسماء الحسنى، وقد فسرها النبي ﷺ بما لا يدع مجالاً لقائل، فهو أعلم الخلق جميعاً بأسماء ربه وبالمعاني التي تدل عليها، فلا يصح أن يلتفت إلى قول غيره أيًّا كان.

وفي الحديث أيضاً يعلمنا نبينا صلوات الله وسلامه عليه وآله كيف تثني على ربنا عز وجل قبل السؤال، فهو يثني عليه بربوبيته العامة التي انتظمت كل شيء، ثم بربوبيته الخاصة الممثلة في إنزاله هذه الكتب الثلاثة تحمل الهدى والنور إلى عباده، ثم يعوذ ويعتصم به سبحانه من شر نفسه ومن شر كل ذي شر من خلقه، ثم يسأله في آخر الحديث أن يقضي عنه دينه وأن يغنيه من فقر.

قوله: «أيها الناس أربعوا على أنفسكم»: إلخ: أفاد هذا الحديث قربه سبحانه من عباده، وأنه ليس بحاجة إلى أن يرفعوا إليه أصواتهم فإنه يعلم السر والنجوى، وهذا القرب المذكور في الحديث قرب إحاطة وعلم وسمع ورؤية فلا ينافي علوه على خلقه.

● قال الشيخ ابن عثيمين:

الحديث الثاني عشر: في إثبات المعية:

وهو قوله: «أفضل الإيمان أن تعلم ان الله معك حيثما كنت»[1]. حديث حسن، أخرجه الطبراني من حديث عبادة بن الصامت.

---

(١) سبق تخريجه.

أفاد الحديث معيَّة الله عز وجل، وقد سبق في الآيات أن معية الله لا تستلزم أن يكون في الأرض، بل يمتنع غاية الامتناع أن يكون في الأرض؛ لأن العلو من صفاته الذاتية التي لا ينفك عنها أبدًا، بل هي لازمة له سبحانه وتعالىٰ.

وسبق أيضًا أنها قسمان:

وقول الرسول ﷺ: «أفضل الإيمان أن تعلم»: يدل علىٰ أن الإيمان يتفاضل؛ لأنك إذا علمت أن الله معك حيثما كنت؛ خفت منه عز وجل وعظَّمته.

ولو كنت في حجرة مظلمة ليس فيها أحد؛ فاعلم أن الله معك، لا في الحجرة؛ لكنه سبحانه وتعالىٰ معك؛ لإحاطته بك علمًا وقدرة وسلطانًا وغير ذلك من معاني ربوبيته.

الحديث الثالث عشر: في إثبات كون الله قبل وجه المصلي وهو قوله ﷺ: «إذا قام أحدكم إلى الصلاة؛ فلا يبصقن قبل وجهه، ولا عن يمينه فإن الله قبل وجهه، ولكن عن يساره، أو تحت قدمه»[1] متفق عليه.

«قبل وجهه»: يعني: أمامه.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥].

«يمينه»: ورد فيه حديث: «**فإن عن يمينه ملكًا**»[2]، ولأن اليمين أفضل من الشمال، فيكون اليسار أولىٰ بالبصاق ونحوه، ولهذا قال: «**ولكن عن يساره أو تحت قدمه**».

فإن كان في المسجد؛ قال العلماء: فإنه يجعل البصاق في خرقة أو منديل أو ثوبه، ويحك بعضه ببعض، حتىٰ تزول صورة البصاق، وإذا كان الإنسان في المسجد عند الجدار، والجدار قصير عن يساره؛ فإنه يمكن أن يبصق عن يساره إذا لم يؤذ أحدًا من المارة.

يستفاد من هذا الحديث: أن الله تبارك وتعالىٰ أمام وجه المصلي، ولكن يجب أن

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٤١٦) وابن حبان في «صحيحه» (١٧٨٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

نعلم أن الذي قال: إنه أمام وجه المصلي؛ هو الذي قال: إنه في السماء، ولا تناقض في كلامه هذا وهذا؛ إذ يمكن الجمع من ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: أن الشرع جمع بينهما، ولا يجمع بين متناقضين.

الوجه الثاني: أنه يمكن أن يكون الشيء عاليًا، وهو قِبَل وجهك؛ فها هو الرجل يستقبل الشمس أول النهار، فتكون أمامه، وهي في السماء، ويستقبلها في آخر النهار، تكون أمامه، وهي في السماء؛ فإذا كان هذا ممكنًا في المخلوق؛ ففي الخالق من باب أولىٰ بلا شك

الوجه الثالث: هب أن هذا ممتنع في المخلوق؛ فإنه لا يمتنع في الخالق؛ لأن الله تعالىٰ ليس كمثله شيء في جميع صفاته.

يستفاد من هذا الحديث من الناحية المسلكية: وجوب الأدب مع الله عز وجل ويستفاد أنه متىٰ آمن المصلي بذلك فإنه يحدث له خشوعًا وهيبة من الله عز وجل.

الحديث الرابع عشر: في إثبات العلو وصفات أخرى:

وهو قوله ﷺ: «اللهمَّ! رب السماوات السبع والأرض ورب العرش العظيم! ربنا ورب كل شيء! فالق الحب والنوى! منزل التوراة والإنجيل والقرآن! أعوذ بك من شر نفسي، ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها. أنت الأول؛ فليس قبلك شيء، وأنت الآخر؛ فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر، فليس فوقك شيء؛ وأنت الباطن؛ فليس دونك شيء؛ اقض عني الدين، وأغنني من الفقر»[1] . رواه مسلم.

هذا الحديث عظيم، توسل النبي ﷺ إلىٰ الله تعالىٰ بربوبيته في قوله: «**اللهم! رب السماوات السبع والأرض! ورب العرش العظيم! ربنا ورب كل شيء!**»، وهذا من باب التعميم بعد التخصيص في قوله: «**ورب كل شيء**»، وهذا التعميم بعد التخصيص؛ لئلا يتوهم واهم اختصاص الحكم بما خصص به

وانظر إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٩١]؛ حيث قال: ﴿وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾؛ حتىٰ لا يظن ظان أنه ليس ربًّا إلا

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٧١٣) وابن ماجه (٣٨٧٣) من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

لهذه البلدة.

«**فالق الحب والنوى**»: حب الزروع. و «النوى»: نوى الغرس؛ فالأشجار التي تخرج: إما زروع أصلها الحب، وإما أشجار أصلها النوى؛ فما للأشجار يسمى نوى، وما للزروع يسمى حبًّا ﴿**فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى**﴾ [الأنعام: ٩٥].

هذا الحب والنوى اليابس الذي لا ينمو ولا يزيد، يفلقه الرب عز وجل؛ أي: يفتحه حتى تخرج منه الأشجار والزروع، ولا يستطيع أحد أن يفعل ذلك؛ مهما بلغ الناس في القدرة؛ ما استطاعوا أن يفلقوا حبة واحدة أبدًا؛ والنوى كذلك الذي كالحجر؛ لا ينمو، ولا يزيد؛ يفلقه الله عز وجل، وينفرج، ثم تكون منه الغريسة التي تنمو، ولا أحد يستطيع ذلك؛ إلا الذي فلقها سبحانه وتعالى.

ولما ذكر الآية الكونية العظيمة؛ ذكر الآيات الشرعية، وهي:

قوله: «منزل التوراة والإنجيل والقرآن»: وهذه أعظم كتب أنزلها الله عز وجل، وبدأها على الترتيب الزمني: التوراة على موسى، والإنجيل على عيسى، والفرقان على محمد ﷺ.

وفي هذا نص صريح على أن التوراة منزلة كما جاء في القرآن: ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ**﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال في أول سورة آل عمران: ﴿**نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ * مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ**﴾ [آل عمران: ٣، ٤].

قوله: «أعوذ بك من شر نفسي»: أعتصم بالله من شر نفسي.

إذًا؛ في نفسك شر؛ ﴿**وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ**﴾ [يوسف: ٥٣].

لكن النفس نفسان:

- نفس مطمئنة طيبة تأمر بالخير.
- ونفس شريرة أمارة بالسوء.

والنفس اللوامة هل هي ثالثة، أو وصف للثنتين السابقتين؟!

فيه خلاف: بعضهم يقول: إنها نفس ثالثة. وبعضهم يقول: هي وصف للثنتين

السابقتين؛ فالمطمئنة تلومك، والأمارة بالسوء تلومك؛ فيكون قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ٢]؛ يشمل النفسين جميعًا.

فالمطمئنة تلومك على التقصير في الواجب؛ إذا أهملت واجبًا؛ لامتك، وإذا فعلت محرمًا؛ لامتك.

والأمارة بالعكس؛ إذا فعلت الخير؛ لامتك، وتلومك إذا فوَّتَّ ما تأمرك به من السوء.

إذًا؛ صارت اللوامة على القول الراجح وصفًا للنفسين معًا.

وقوله هنا: «أعوذ بك من شر نفسي»: المراد بها النفس الأمارة بالسوء.

قوله: «ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها»:

الدابة: كل ما يدب على الأرض، حتى الذي يمشي على بطنه داخل في هذا الحديث؛ كقوله تعالىٰ: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ﴾ [النور: ٤٥]، وقوله: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦].

وإن كانت الدابة تطلق في العرف على ذوات الأربع، وفي عرف أخص تطلق على الحمار فقط، لكنها في مثل هذا الحديث يراد بها كل ما يدب على الأرض، وما يدب على الأرض فيه شرور، أما بعضه؛ فشر محض بالنسبة لذاته، وأما بعضه؛ ففيه خير وفيه شر، وحتى الذي فيه خير؛ لا يسلم من الشر.

قوله: «أنت آخذ بناصيتها»:

الناصية: مقدم الرأس، وإنما نص على الناصية؛ لأنه هو المقدم، وهو الذي يمسك به لقيادة البعيرة وشبهه. وقيل: خُصَّ ذلك لأن المخ الذي فيه التصور والتلقي يكون في مقدمة الرأس، والعلم عند الله.

قوله: «أنت الأول؛ فليس قبلك شيء»: هذا تفسير من النبي ﷺ لقوله: «الأول»: والأول من أسماء الله.

وقد ذكرنا عند تفسير الآية أن أهل الفلسفة يسمون الله: القديم: وذكرنا أن القديم ليس من أسماء الله الحسنىٰ، وأنه لا يجوز أن يسمّىٰ به، لكن يجوز أن يخبر به عنه،

وباب الخبر أوسع من باب التسمية؛ لأن القديم ليس من الأسماء الحسنىٰ، والقديم فيه نقص؛ لأن القدم قد يكون قدمًا نسبيًا؛ ألم تر إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ [يس: ٣٩]، والعرجون القديم حادث، لكنه قديم بالنسبة لما بعده.

قوله: «وأنت الظاهر؛ فليس فوقك شيء»: الظاهر من الظهور، وهو العلو؛ كما قال تعالىٰ: ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ [الكهف: ٩٧]؛ ﴿يَظْهَرُوهُ﴾؛ أي: يعلو عليه.

وأما من قال: الظاهر بآياته؛ فهذا خطأ؛ لأنه لا أحد أعلم بتفسير كلام الله من رسول الله ﷺ، وقد قال: «**الظاهر؛ فليس فوقك شيء**»؛ بل هو فوق كل شيء سبحانه.

قوله: «وأنت الباطن؛ فليس دونك شيء»: المعنىٰ: ليس دون الله شيء، لا أحد يدبر دون الله، ولا أحد ينفرد بشيء دون الله، ولا أحد يخفىٰ علىٰ الله؛ كل شيء؛ فالله محيط به، ولهذا قال: «ليس دونك شيء»؛ يعني: لا يحول دونك شيء، ولا يمنع دونك شيء، ولا ينفع ذا الجد منك الجد... وهكذا.

قوله: «اقضي عني الدَّين»:

الدَّين: ما يستحق علىٰ الإنسان من مال أو حق؛ اشتريت منك حاجة، ولم أنقدك الثمن؛ فهذا يسمىٰ دينًا، وإن كان غير مؤجل.

قوله: «وأغنني من الفقر»:

الفقر: خلو ذات اليد، ولا شك أن الفقر فيه إيلام للنفس، والدَّين فيه ذل؛ المدين ذليل للدائن، والفقير معوز ربما يجره الفقر إلىٰ أمر محرم.

ألم يأتكم نبأ الثلاثة الذين انطبق عليهم الغار، فتوسل كل واحد منهم بصالح عمله، وكان لأحدهم ابنة عم أعجبته، وكان يراودها عن نفسها، ولكنها كانت تأبىٰ ذلك، فألمت بها سنة من السنين، واحتاجت، وجاءت إليه تطلب منه أن يعينها، فأبىٰ عليها؛ إلا أن تمكِّنه من نفسها، ومن أجل ضرورتها؛ وافقت علىٰ هذا، فلما جلس منها مجلس الرجل من امرأته؛ قالت له: يا هذا! اتق الله! ولا تفض الخاتم إلا

بحقه![1] وأثرت هذه الكلمة في الرجل عندما كانت نابعة من القلب، فقام عنها. قال: فقمت عنها وهي أحب الناس إليَّ. لكن ذكرته هذه الموعظة الكريمة؛ فأقلع.

فانظر إلى الفقر؛ فإن هذه المرأة أرادت أن تبيع عرضها بسبب الفقر.

إذًا؛ قول الرسول ﷺ: «**أغنني من الفقر**»: سأل النبي ﷺ ربه أن يغنيه من الفقر؛ لأن الفقر له آفات عظيمة.

وفي هذا الحديث أسماء وصفات:

- فمن الأسماء: الأول، والآخر، والظاهر، والباطن.

- ومن الصفات: الأولية والآخرية، وفيهما الإحاطة الزمانية. والظاهرية والباطنية، وفيهما الإحاطة المكانية. ومنها: العلو، وعموم ربوبيته، وتمام قدرته. ومنها: كمال رحمته وحكمته بإنزال الكتب؛ لتحكم بين الناس وتهديهم صراط الله.

ومن غير الأسماء والصفات: التوسل إلى الله بصفات الله، والتحذير من شر النفوس، وسؤال النبي ﷺ أن يقضي الله دينه ويغنيه من الفقر، وبيان ضعف الحديث الذي فيه سؤال النبي ﷺ أن يحييه ربه مسكينًا[2].

وفيه من الفوائد المسلكية: التحذير من شر النفس، وتعظيم شأن الدين، وأن يحرص على تلافي الدَّين بقدر الإمكان، ويقتصد في ماله طلبًا وتصرفًا؛ لأنه إذا اقتصد في ذلك؛ سلم غالبًا من الفقر والدين.

الحديث الخامس عشر: في إثبات قرب الله تعالى: وهو قوله ﷺ لما رفع الصحابة أصواتهم بالذكر: «أيها الناس! أربعوا على أنفسكم؛ فإنكم لا تدعون أصمًا ولا غائبًا؛ إنما تدعون سميعًا بصيرًا؛ إن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته»[3] متفق عليه.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٤٦٥) ومسلم (٢٧٤٣) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) صحيح: أخرجه الترمذي (٢٣٥٢) والبيهقي (١٢٩٣٠) من حديث أنس ـ رضي الله عنه ـ والحديث صححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (١٢٦١).

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٩٩٢) ومسلم (٢٧٠٤) من حديث أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه.

كان الصحابة رضي الله عنهم مع النبي ﷺ؛ إذا علوا نشزاً؛ كبروا، وإذا نزلوا وادياً سبحوا[١]؛ لأن الإنسان إذا ارتفع؛ قد يتعاظم في نفسه، ويرىٰ أنه مرتفع عظيم؛ فناسب أن يقول: الله أكبر! تذكيراً لنفسه بكبرياء الله عز وجل، وأما إذا نزل؛ فهذا سفول ونزول، فيقول: سبحان الله! تذكيراً لنفسه بتنزه الله عن السفل.

فكان الصحابة رضي الله عنهم يرفعون أصواتهم بالذكر جداً، فقال النبي عليه الصلاة والسلام:

«أيها الناس! أربعوا على أنفسكم»: يعني: هونوا عليها.

«فإنكم لا تدعون أصماً ولا غائباً»: لا تدعون أصم لا يسمع، ولا غائباً لا يرىٰ.

«إنما تدعون سميعاً»؛ يسمع ذكركم، «بصيراً»؛ يرىٰ أفعالكم.

«إن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته»: عنق الراحلة للراكب قريب جداً؛ فالله تعالىٰ أقرب من هذا إلىٰ الإنسان، ومع هذا؛ فهو فوق سماواته علىٰ عرشه.

ولا منافاة بين القرب والعلو؛ لأن الشيء قد يكون بعيداً قريباً؛ هذا بالنسبة للمخلوق؛ فكيف بالخالق؟! فالرب عز وجل قريب مع علوه، أقرب إلىٰ أحدنا من عنق راحلته

هذا الحديث فيه فوائد:

- فيه شيء من الصفات السلبية: نفيٰ كونه أصماً أو غائباً؛ لكمال سمعه ولكمال بصره وعلمه وقربه.

- وفيه أيضاً أنه ينبغي للإنسان ألا يشقَّ علىٰ نفسه في العبادة؛ لأن الإنسان إذا شق علىٰ نفسه؛ تعبت النفس وملت، وربما يتأثر البدن، ولهذا قال النبي ﷺ: «اكلفوا من العمل ما تطيقون؛ فإن الله لا يمل حتى تملوا»[٢].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (١١٥١) ومسلم (٧٨٢) من حديث عائشة ـ رضي الله عنها.

فلا ينبغي للإنسان أن يشق على نفسه، بل ينبغي أن يسوس نفسه: إذا وجد منها نشاطًا في العبادة؛ عمل واستغلَّ النشاط، وإذا رأى فتورًا في غير الواجبات، أو أنها تميل إلى شيء آخر من العبادات؛ وجهها إليه.

حتى إن الرسول ﷺ أمر من نعس في صلاته أن ينام ويدع الصلاة؛ قال: **«فإن أحدكم إذا صلى وهو ناعس لا يدري لعله يستغفر فيسب نفسه»**[(١)].

ولهذا كان النبي ﷺ يصوم حتى يقول القائل: لا يفطر، ويفطر حتى يقول القائل: لا يصوم[(٢)]، وكذلك في القيام والنوم.

- وفيه أيضًا: أن الله قريب، وقد دل عليه قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ**﴾ [البقرة: ١٨٦].

ونستفيد من هذا الحديث من الناحية المسلكية:

- أنه لا ينبغي لنا أن نشق على أنفسنا بالعبادات، وأن يكون سيرنا إلى الله وسطًا؛ لا تفريط ولا إفراط.

- وفيه أيضًا: الحذر من الله؛ لأنه سميع وقريب وبصير، فنبتعد عن مخالفته.

- وفيه أيضًا من الناحية الحكمية: جواز تشبيه الغائب بالحاضر للإيضاح؛ حيث قال: **«إن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته»**.

- وفيه أيضًا: أنه ينبغي أن يراعي الإنسان في المعاني ما كان أقرب إلى الفهم؛ لأن هؤلاء مسافرون، وكل منهم على راحلته، وإذا ضرب المثل بما هو قريب؛ فلا أحسن من هذا المثل الذي ذكره النبي عليه الصلاة والسلام.

● **قال الشيخ صالح الفوزان:**

قوله: **«أفضل الإيمان»**[(٣)]: أي: من أفضل خصاله، وفي هذا دليل على أن الإيمان

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢١٢) ومسلم (٧٨٦) من حديث عائشة - رضي الله عنها.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٩٧١) ومسلم (١١٥٧) من حديث عائشة - رضي الله عنها.

(٣) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٨٧٩٦) وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ١٢٤).
وضعفه الشيخ الألباني في «ضعيف الجامع» (١٠٠٢).

يتفاضل «**أن تعلم أن الله معك**»: أي: بعلمه واطلاعه «**حيثما كنت**»: أي: في أي مكان وجدت، فمن علم ذلك استوت علانيته وسريرته فهابه في كل مكان «**أخرجه الطبراني**»: أبو القاسم سليمان اللخمي، أحد الحفاظ المكثرين، وقد روىٰ هذا الحديث في «المعجم الكبير».

وفي الحديث دليل علىٰ إثبات معية الله لخلقه بعلمه وإحاطته بأعمالهم، وأنه يجب علىٰ العبد أن يتذكر ذلك دائمًا فيحسن عمله.

وقوله: «**إذا قام أحدكم إلى الصلاة**»[1]: أي: إذا شرع فيها، «**فلا يبصق**»: أي: لا يتفل، «**قبل وجهه**»: أي: أمامه، «**قبل**». بكسر القاف وفتح الباء «**فإن الله قبل وجهه**» هذا تعليل للنهي عن البصاق في قبلة المصلي بأن الله سبحانه «**قبل وجهه**»: أي: مواجهه، وهذه المواجهة كما يليق بالله سبحانه لا يلزم منها أنه سبحانه مختلط بخلقه، بل هو فوق سمواته مستو علىٰ عرشه وهو قريب من خلقه محيط بهم. «**ولا عن يمينه**»: أي: ولا يبصق المصلي عن يمينه؛ تشريفًا لليمين، ولأن الملكين عن يمينه، كما في رواية للبخاري «**ولكن عن يساره أو تحت قدمه**»: أي: ولكن ليبصق المصلي في جهة يساره أو يبصق تحت قدمه.

والشاهد من الحديث: أن فيه إثبات قرب الله سبحانه من عبده المصلي وإقباله عليه وهو سبحانه فوقه.

وقوله ﷺ: «**اللهم رب السموات السبع**»: اللهم أصله: يا الله، فالميم عوض عن ياء النداء، «**رب السموات السبع**»[2]: أي: خالقها ومالكها، «**ورب العرش العظيم**»: أي: الكبير الذي لا يقدر قدره إلا الله، فهو أعظم المخلوقات، وتقدم تفسير العرش «**ربنا ورب كل شيء**»: أي: خالقنا ورازقنا وخالق كل شيء ومالكه، ففيه إثبات ربوبيته لكل شيء «**فالق الحب والنوى**»: أي: شاق حب الطعام ونوىٰ التمر للإنبات «**منزل التوراة**» علىٰ موسىٰ «**والإنجيل**» علىٰ عيسىٰ «**والقرآن**» علىٰ محمد

---

(١) أخرجه البخاري (٤٠٦) ومسلم (٥٤٧) من حديث ابن عمر - رضي الله عنه.
(٢) أخرجه مسلم (٢٧١٣) والترمذي (٣٤٠٠).

عليهم أفضل الصلاة والسلام، وفي ذلك دليل على فضل هذه الكتب، وأنها منزلة من الله تعالى.

«أعوذ»: أي: ألتجئ وأعتصم «بك» يا الله، «من شر كل دابة»: أي: كل ما دب على وجه الأرض «أنت آخذ بناصيتها»: الناصية: مقدم الرأس، أي: هي تحت قهرك وسلطانك تصرفها كيف تشاء، لتصرف شرها عني.

«أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء»: هذه الأسماء الأربعة: اسمان لأزليته وأبديته، وهما: (الأول والآخر)، واسمان لعلوه وقربه، وهما: (الظاهر والباطن) وهما محل الشاهد من الحديث؛ لأن فيهما إثبات علو الله وقربه، وأنهما لا يتنافيان، ولا يتناقضان، فهو قريب في علوه، علي في دنوه.

«اقض عني الدين»: أي: أدِّ عَنِّي حقوق الله وحقوق الخلق، وفي هذا التبرئ من الحول والقوة «وأغنني من الفقر»: الفقر: الحاجة، والفقير: هو من لا يجد شيئًا أو يجد بعض الكفاية، وفي الحديث أيضًا مشروعية التوسل إلى الله سبحانه وتعالى بأسمائه وصفاته في قضاء الحاجة وإجابة الدعاء.

(وقوله ﷺ لما رفع الصحابة أصواتهم بالذكر)[1]: وذلك في غزوة خيبر، كما جاء في بعض طرق الحديث، وأن الذكر الذي رفعوا به أصواتهم هو التكبير: الله أكبر لا إله إلا الله.

وقوله: «اربعوا»: أي: ارفقوا: «فإنكم»: تعليل للأمر بالرفق «لا تدعون أصمًّا ولا غائبًا» لا يسمع دعاءكم ولا يراكم، فنفي الآفة المانعة من السمع والآفة المانعة من النظر، وأثبت ضدهما فقال: «إنما تدعون سميعًا بصيرًا قريبًا»: فلا داعي لرفع الصوت «إن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته»: فهو قريب ممن دعاه وذكره. فلا حاجة لرفع الأصوات وهو قريب يسمعها إذا خفضت كما يسمعها إذا رفعت.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٩٩٢) ومسلم (٢٧٠٤) من حديث أبي موسى - رضي الله عنه.

والشاهد من الحديث: أن فيه إثبات قرب الله سبحانه من داعيه يسمع الأصوات الخفية كما يسمع الأصوات الجهرية. فأفادت هذه الأحاديث جميعًا إثبات معية الله لخلقه وقربه منهم وسماعه لأصواتهم ورؤيته لحركاتهم، وذلك لا ينافي علوه واستواءه على عرشه، وقد تقدم الكلام على المعية وأنواعها وشواهدها من القرآن الكريم مع تفسير تلك الشواهد. والله أعلم.



رؤية المؤمنين لربهم في الجنة «من السُّنَّة»

وقوله ﷺ: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ؛ كَما تَرَوْنَ القَمَرَ لَيْلَةَ البَدْرِ لا تُضامُّونَ في رُؤْيَته؛ فَإِن اسْتَطَعْتُمْ أن لا تُغْلَبُوا على صَلاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ، وَصَلاةٍ قَبْلَ غُروبِها؛ فَافْعلوا» مُتَّفَقٌ عليه.

• الشَّرح •

• قال العلامة ناصر السعدي:

وقد تَوَاتَرت النُّصوص في رؤية الله لأهل الجنة، وأنهم يَرَون ربهم ويتمتعون بمشاهدته.

وهي تدلُّ على أمرين:

١ ـ على عُلُوِّه على خلقه؛ لأنها صريحة بأنهم يرونه من فوقهم.

٢ ـ وعلى أن أعظم النَّعيم نعيم النَّظر إلى وجهه الكريم.

وحثُّه ﷺ في هذا الحديث على صلاة العصر وصلاة الفجر خصوصًا؛ فيه إشارة على أن من حافظ عليهما نال هذا النَّعيم الكامل الذي يَضمَحِلّ عنده كل نعيم. وهذا يدل على تأكُّدهما.

كما دلَّ على ذلك الحديث الآخر: «يَتَعَاقَبُونَ فيكم مَلائِكَةٌ باللَّيل ومَلائِكَة بالنَّهار، ويَجتَمِعُونَ في صلاة الصُّبح وصلاة العَصر...». الحديثَ متفقَ عليه.

• قال محمد خليل هراس:

هذا الحديث الصحيح المتواتر يشهد لما دلت عليه الآيات السابقة من رؤية المؤمنين لله عز وجل في الجنة وتمتعهم بالنظر إلى وجهه الكريم، وهذه النصوص من الآيات

والأحاديث تدل على أمرين:

أولهما: علوه تعالى عن خلقه لأنها صريحة في أنهم يرونه من فوقهم.

ثانيهما: أن أعظم أنواع النعيم هو النظر إلى وجه الله الكريم.

وقوله: «كما ترون القمر ليلة البدر»: المراد تشبيه الرؤية بالرؤية لا تشبيه المرئي بالمرئي؛ يعني أن رؤيتهم لربهم تكون من الظهور والوضوح كرؤية القمر في أكمل حالاته، وهي كونه بدراً ولا يحجبه سحاب، ولهذا قال بعد ذلك: «**لا تضامون في رؤيته**» روي بتشديد الميم من التضام بمعنى التزاحم والتلاصق، والتاء يجوز فيها الضم والفتح، على أن الأصل تتضامون فحذفت إحدى التاءين تخفيفًا، وروي بتخفيف الميم من الضيم بمعنى الظلم، يعني لا يلحقكم في رؤيته ضيم ولا غبن.

وفي حثه ﷺ في هذا الحديث على صلاة العصر وصلاة الفجر خاصة إشارة إلى أن من حافظ عليهما في جماعة نال هذا النعيم الكامل الذي يضمحل بإزائه كل نعيم، وهو يدل على تأكيد هاتين الصلاتين كما دل على ذلك الحديث الآخر: «**يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر**»[1] متفق عليه.

● قال الشيخ ابن عثيمين:

الحديث السادس عشر: إثبات رؤية المؤمنين لربهم: وهو: «إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر، لا تضامون في رؤيته؛ فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها؛ فافعلوا»[2]. متفق عليه.

قوله: «إنكم سترون ربكم»: السين للتحقيق، وتخلص الفعل المضارع إلى الاستقبال بعد أن كان صالحًا للحال والاستقبال؛ كما أن (لم) تخلصه للماضي؛ والخطاب للمؤمنين.

قوله: «كما ترون القمر»: هذه رؤية بصرية؛ لأن رؤيتنا للقمر بصرية، وهنا شبه الرؤية بالرؤية؛ فتكون بصرية.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٣٠)، ومسلم (٦٣٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) سبق تخريجه.

وقوله: «كما ترون»: (ما) هذه مصدرية، فيحوَّل الفعل بعدها إلىٰ مصدر، ويكون التقدير: كرؤيتكم القمر؛ فالتشبيه حينئذ للرؤية بالرؤية، وليس للمرئي بالمرئي، لأن الله ليس كمثله شيء.

والنبي عليه الصلاة والسلام يقرب المعاني أحيانًا بذكر الأمثلة الحسية الواقعية؛ كما سأله أبو رزين العقيلي لقيط بن عامر؛ قال: يا رسول الله! أكلنا يرىٰ ربه يوم القيامة، وما آية ذلك في خلقه؟ فقال النبي ﷺ: **«كلكم ينظر إلى القمر مخليًا به»**[1]. قال: بلىٰ: قال النبي ﷺ: **«فالله أعظم»**.

وقوله: «مخليًا به»: يعني: خاليًا به.

وكما ثبت به الحديث في «صحيح مسلم» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: **«إن الله يقول: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين؛ فإذا قال: الحمد لله رب العالمين. قال: حمدني عبدي»**[2].

وهذا يشمل كل مصلٍّ، ومن المعلوم أنه قد يتفق المصلون في هذه الآية جميعًا، فيقول الله لكل واحد: **«حمدني عبدي»**؛ في آن واحد.

قال: «كما ترون القمر ليلة البدر»: أي: ليلة إبداره، وهي الليلة الرابعة عشرة والخامسة عشرة والثالثة عشرة أحيانًا، والوسط الرابعة عشرة؛ كما قال ابن القيم: كالبدر ليل الست بعد ثمان.

قوله: «لا تُضَامون في رؤيته»: وفي لفظ: **«لا تضامون»**، وفي لفظ: **«لا تضارون»**:

«لا تضامون»: بضم التاء وتخفيف الميم؛ أي: لا يلحقكم ضيم، والضيم الظلم، والمعنىٰ: لا يحجب بعضكم بعضًا عن الرؤية فيظلمه بمنعه إياه. لأن كل

---

(١) حسن: أخرجه أبو داود (٤٧٣١) وابن ماجه (١٨٠) وأحمد في «مسنده» (٤/ ١١) من حديث أبي رزين العقيلي - رضي الله عنه.
والحديث حسنه الشيخ الألباني في «صحيح ابن ماجه» (١٥٠).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٣٩٥) وأبو داود (٨٢١) والترمذي (٢٩٥٣) من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه.

واحد يراه.

«لا تضامَّون»: بتشديد الميم وفتح التاء وضمها: يعني: لا ينضم بعضكم إلى بعض في رؤيته؛ لأن الشيء إذا كان خفيًّا؛ ينضم الواحد إلى صاحبه ليريه إياه.

ـ أما «لا تضامون» أو «لا تضارون» فالمعنى: لا يلحقكم ضرر؛ لأن كل إنسان يراه سبحانه وتعالى وهو في غاية ما يكون من الطمأنينة والراحة.

قوله: «فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها؛ فافعلوا»: الصلاة قبل طلوع الشمس هي الفجر، وقبل غروبها هي العصر.

والعصر أفضل من الفجر؛ لأنها الصلاة الوسطى التي خصها الله بالأمر بالمحافظة عليها بعد التعميم، والفجر أفضل من العصر من وجه؛ لأنها الصلاة المشهودة؛ كما قال تعالى: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨]، وجاء في الحديث الصحيح: «من صلى البردين؛ دخل الجنة»(١)، وهما: الفجر والعصر.

في هذا الحديث من صفات الله: إثبات أن الله يرى، وقد سبق شرح هذه الصفة عند ذكر الآيات الدالة عليها، وهي أربع آيات، والأحاديث في هذا متواترة عن النبي ﷺ؛ فثبوتها قطعي، ودلالتها قطعية.

ولهذا ذهب بعض العلماء إلى أن من أنكر رؤية الله تعالى؛ فهو كافر مرتد، وأن الواجب على كل مؤمن أن يقر بذلك. قال: وإنما كفرناه؛ لأن الأدلة قطعية الثبوت وقطعية الدلالة، ولا يمكن لأحد أن يقول: إن قول الرسول عليه الصلاة والسلام: «إنكم سترون ربكم»؛ إنه ليس قطعي الدلالة؛ إذ ليس هناك شيء أشد قطعًا من مثل هذا التركيب.

لو كان الحديث: «إنكم ترون ربكم»: لربما تحتمل التأويل، وأنه عبر عن العلم اليقيني بالرؤية البصرية، ولكنه صرح بأنا نراه كما نرى القمر، وهو حسي.

وسبق لنا أن أهل التعطيل يئوِّلون هذه الأحاديث ويفسرون الرؤية برؤية العلم،

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٧٤) ومسلم (٦٣٥) من حديث أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه.

وسبق بطلان قولهم.

● قال الشيخ صالح الفوزان:

قوله: «إنكم سترون ربكم»[1]: الخطاب للمؤمنين، والسين للتنفيس، ويراد بها التأكيد، وقوله: «ترون ربكم»: أي: تعاينونه بأبصاركم، والأحاديث الواردة بإثبات رؤية المؤمنين لربهم متواترة.

قوله: «كما ترون القمر ليلة البدر»: أي: ليلة كماله وهي الليلة الرابعة عشرة من الشهر، فإنه في تلك الليلة يكون قد امتلأ نوراً، والمراد من هذا التشبيه تحقيق الرؤية وتأكيدها، ونفي المجاز عنها، وهو تشبيه للرؤية بالرؤية لا تشبيه للمرئي بالمرئي؛ لأنه سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾.

وقوله: «لا تضامون في رؤيته»: بضم التاء وتخفيف الميم، أي: لا يلحقكم ضيم، أي: ظلم بحيث يراه بعضكم دون بعض، وروي بفتح التاء وتشديد الميم، من التضام، أي: لا ينضم بعضكم إلى بعض لأجل رؤيته، والمعنى على هذه الرواية: لا تجتمعون في مكان واحد لرؤيته فيحصل بينكم الزحام، والمعنى على الروايتين: أنكم ترونه رؤية محققة كل منكم يراه وهو في مكانه. وقوله: «فإن استطعتم أن لا تغلبوا» أي: لا تصيروا مغلوبين «على صلاة قبل طلوع الشمس»، وهي صلاة الفجر «وصلاة قبل غروبها»: وهي صلاة العصر، «فافعلوا» أي: حافظوا على هاتين الصلاتين في الجماعة في أوقاتهما، وخص هاتين الصلاتين لاجتماع الملائكة فيهما، فهما أفضل الصلوات، فناسب أن يجازي من حافظ عليهما بأفضل العطايا وهو النظر إلى وجه الله تعالى.

والشاهد من الحديث: أن فيه إثبات رؤية المؤمنين لربهم عياناً يوم القيامة، وقد تقدم ذكر من خالف في ذلك مع الرد عليه عند الكلام على تفسير الآيات التي فيها إثبات الرؤية. والله أعلم.

* * *

(١) أخرجه البخاري (٤٨٥١) ومسلم (٦٣٣) من حديث جرير بن عبد الله - رضي الله عنه -.

أهل السنة والجماعة وسط بين الفرق في باب أفعال الله وباب الوعيد وباب أسماء الإيمان وفي أصحاب رسول الله ﷺ

إلى أمثال هذه الأحاديث التي يُخْبِر فيها رسول الله ـ ﷺ ـ عن ربه؛ بما يُخْبر به.

فَإنَّ الفِرْقَةَ النَّاجية أَهْل السُّنَّة وَالجَمَاعَة يُؤْمِنُون بذَلك. كَمَا يُؤمِنُونَ بِمَا أَخْبَرَ اللَّهُ به في كتَابه، من غَيْر تَحْرِيف ولاَ تَعْطِيل، وَمن غَيْرِ تَكْيِيف ولاَ تَمْثِيلٍ. بَلْ هُمُ الوَسَطُ في فِرَقِ الأُمَّة؛ كَمَا أَنَّ الأُمَّةَ هِيَ الوَسَطُ في الأُمَمِ.

فَهُمْ وَسَطٌ في باب صِفات اللَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالى بَيْنَ أَهْلِ التَّعْطِيلِ «الجَهْمِيَّة»، و أَهْلِ التَّمْثِيلِ «المُشَبِّهَة».

وَهُمْ وَسَطٌ في: بابِ أفْعالِ اللّهِ بَيْنَ الجَبْرِيَّةِ و القَدَرِيَّةِ وَغيرِهِمْ.

وَفي بابِ وَعِيدِ اللَّهِ بَيْنَ «المُرجِئَةِ»، و«الوَعِيدِيَّةِ مِنَ القَدَرِيَّة» وَغَيْرِهِمْ.

وَفي: بابِ أسماءِ الإيمانِ و الدِّينِ بَيْن «الحَرُورِيَّة» وَ «المُعْتَزِلَةِ»، وبَيْنَ «المُرْجِئَة» و«الجَهْمِيَّةِ».

وَفي: أَصْحابِ رَسُولِ اللَّهِ ـ ﷺ ـ بَيْنَ «الرافضة»، و«الخَوارِجِ».

• الشَّرح •

● قال العلامة ناصر السعدي:

والمراد بـ «الوَسَط» العَدْل الخيار الذين جمعوا كل حق في أقوال الخَلْقِ وردُّوا ما فيها من الباطل.

قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣] فهذه الأمة وَسَطٌ بين الأُمَمَ التي تميل إلىٰ الغُلُوّ الضار، والأمم التي تميل إلىٰ التَّفريط المهلك.

فمن الأُمم: من غلا في المخلوقين وجعل لهم من صِفات الخلق ومن حقوقه ما جعل.

ومنهم: من جَفا الأنبياء وأتباعهم حتي قَتَلهم وَرَدَّ دعوتهم.

وهذه الأمَّة: آمنت بكل رَسُول أرسله اللَّه واعتقدت رسالتهم ومقاماتِهم الرفيعة التي فضَّلهم الله بها ولم يغلو في أحَدٍ من المخلوقين.

ومن الأُمم: من أَحلَّت كل طَيِّب وخَبيث.

ومنهم: من حَرَّم الطَّيِّبات غُلُوًا ومُجاوزة.

وهذه الأُمَّة: أَحَلَّ اللَّه لهم الطَّيبات، وحرَّم عليهم الخبائث ونحو ذلك من الأُمور التي منَّ اللَّه علىٰ هذه الأمة الكاملة بالتوسط فيها.

وكذلك «أهل السنة والجماعة» متوسطون بين فِرق الأُمة المبتدعة التي انحرفت عن الصِّراط المستقيم.

كما تقدم بيان ذلك وأن «أهل السنة» يُثبتون جميع ما ثبت في النُّصوص من صِفات اللَّه عَلَىٰ حَقيقتها اللائقة بعظمة البَاري.

فإن «الجبرية»: يزعمون أن العبد مَجْبورٌ علىٰ أفعاله لا قُدرة له عليها وأن أفعاله بمنزلة حركات الأشجار، كل هذا غُلُوٌّ منهم في إثبات القَدَر.

و«القدرية»: قابَلُوهم؛ فَنَفُوا تَعلُّق قُدرةِ الله بأفعال العباد تنزيهًا للَّه بزعمهم،

فأفعال العباد عندهم لا تدخل تحت مشيئة الله وإرادته.

وكلٌّ من هاتين الطائفتين ردَّت طائفة كبيرة من نصوص الكتاب والسنة.

وهدىٰ اللَّه «أهل السُّنة والجماعة»: للتَّوسط بين الطَّائفتين المُنْحرفَتَين فآمنوا بقضاء اللَّه وقدره وشُمُوله للأعيان والأوْصاف والأفْعَال التي من جُمْلَتِها أفْعَال المُكَلَّفين وغيرهم.

وآمنوا بأنه مَا شَاء اللَّه كان وَمَا لم يَشأ لم يَكُن.

وآمنوا: مع ذلك بأن اللَّه تعالىٰ جعل للعباد قُدْرة وإرادة تَقَع بها أقوالهم وأفعالهم علىٰ حسب اختيارهم وإرادتهم. فآمنوا: بكل نَصٍّ فيه تعميم قُدْرته ومَشِيئته لكل شيء، وبكل نصٍّ فيه إثبات أن العباد يعملون ويفعلون كل الأفعال الكبيرة والصغيرة بإرادتهم وقدرتهم، وعلموا أن الأمرين لا يتنافيان بل يتساعدان كما سيأتي توضيح ذلك إن شاء الله.

وذلك أن «المرجئة»: جعلت الإيمان فقط تَصْديق القَلْب وأخرجت عنه جميع الأعمال الباطنة والظاهرة، وجوَّزوا علىٰ اللَّه أن يُعَذِّب المُطِيعين وأن يُنَعِّم العَاصِين.

وأما «الوعيدية من القدرية» فخَلَّدوا في النَّار كل من مات مُصرًّا علىٰ الكبائر التي دون الشِّرك، فانحرفت كل واحِدة ورَدَّت ـ لأجل ذلك ـ من النُّصوص ما رَدَّت.

وهدى اللَّه «أهل السُّنة والجماعة»: فتوسَّطوا وقالوا: إن الإيمان اسم لجميع العقائد الدينية والأعمال القلبية والبدنية، وأنه قد يبقىٰ ناقصًا إذا تجرّأ المؤمن علىٰ المعاصي بدون توبة وأن اللَّه لا يظلم من عباده أحدًا، ولا يعذب الطائعين بغير جرم ولا ذنب وأنه لا يخلد في النار من في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان ولو فعل الكبائر كما تواترت بذلك النصوص في الكتاب والسنة.

وقد تقدم ذلك، لكن الفرق بين «الحرورية» و«المعتزلة» أن: «الحرورية» وهم «الخوارج» يُطْلِقُون الكُفْر علىٰ العُصَاة من المؤمنين ويُخَلِّدونهم في النَار.

وأما «المعتزلة»: فلا يطلقون عليهم الكفر، بل يقولون: لا مسلمون ولا كُفار، ولكنهم يُخَلِّدونهم في النار كـ «الخوارج».

والنُّصوص تردُّ قولهم جميعًا.

فإن «الرافضة»: تسبهم وتلعنهم وربما كفرَّتهم أو كفرت بعضهم.

وأمّا «الرافضة الغالية»: ـ فإنهم مع سبِّهم لطائفة من الصحابة وللخلفاء الثلاثة ـ فإنهم يَغْلُون في عليٍّ ويَدَّعون فيه الألوهية.

وهم الذين حرَّقهم عليُّ بن أبي طالب بالنار.

وقابلهم «الخوارج»: فَقَاتَلُوه، وقاتلوا الصَّحابة، وكفّروهم، واستحلوا دماء الصحابة والمسلمين.

وهدى اللَّه «أهل السُّنَّة والجَمَاعة»: فاعترفوا بفضل أصحاب نبيهم وأنهم أَعْلَىٰ الأُمة في كل خصْلة كمال، ومع ذلك فلم يغْلوا فيهم، ولم يعتقدوا عِصْمتهم بل قاموا بحقوقهم وأحبُّوهم لما لهم من الحقِّ الأكبر علىٰ جميع الأُمة كما سيأتي ذلك إن شاء الله.

● قال الشيخ محمد خليل هراس:

قوله: «إلى أمثال هذه الأحاديث...»إلخ: لما كان ما ذكره المؤلف من الأحاديث ليس هو كل ما ورد في باب الصفات من الأخبار، نبه علىٰ أن أمثال هذه الأحاديث التي ذكرها مما يخبر فيه الرسول ﷺ عن ربه بما يخبر به، فإن حكمه كذلك وهو وجوب الإيمان بما يتضمنه من أسماء الله وصفاته، ثم عاد فأكد معتقد أهل السنة والجماعة، وهو أنهم يؤمنون بما وردت به السنة الصحيحة من صفات كإيمانهم بما أخبر الله في كتابه من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل.

ثم أخبر عن أهل السنة والجماعة بأنهم وسط بين فرق الضلال والزيغ من هذه الأمة، كما أن هذه الأمة وسط بين الأمم السابقة قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ ومعنىٰ وسطًا عدولاً خيارًا كما ورد الحديث بذلك.

فهذه الأمة وسط بين الأمم التي تجنح إلىٰ الغلو الضار والأمم التي تميل إلىٰ التفريط المهلك، فإن من الأمم من غلا في المخلوقين وجعل لهم من صفات الخالق وحقوقه ما جعل، كالنصارىٰ الذين غلوا في المسيح والرهبان. ومنهم من جفا الأنبياء وأتباعهم حتىٰ قتلهم ورد دعوتهم كاليهود الذين قتلوا زكريا ويحيىٰ وحاولوا قتل المسيح

ورموه بالبهتان، وأما هذه الأمة فقد آمنت بكل رسول أرسله الله واعتقدت رسالتهم وعرفت لهم مقاماتهم الرفيعة التي فضلهم الله بها.

ومن الأمم أيضًا من استحلت كل خبيث وطيب، ومنها من حرم الطيبات غلوًا ومجاوزة. وأما هذه الأمة فقد أحل الله لها الطيبات وحرم عليها الخبائث، إلى غير ذلك من الأمور التي منّ الله على هذه الأمة الكاملة بالتوسط فيها. فكذلك أهل السنة والجماعة متوسطون بين فرق الأمة المبتدعة التي انحرفت عن الصراط المستقيم.

قوله: «فهم وسط في باب صفات الله...» إلخ: يعني أهل السنة والجماعة وسط في باب الصفات بين من ينفيها ويعطل الذات العلية عنها ويحرف ما ورد فيها من الآيات والأحاديث عن معانيها الصحيحة إلى ما يعتقده هو من معان بلا دليل صحيح ولا عقل صريح كقوله: رحمة الله: إرادته الإحسان، ويده: قدرته، وعينه: حفظه ورعايته، واستواؤه على العرش: استيلاؤه، إلى أمثال ذلك من أنواع النفي والتعطيل التي أوقعهم فيها سوء ظنهم بربهم وتوهمهم أن قيام هذه الصفات به لا يعقل إلا على النحو الموجود في قيامها بالمخلوق.

ولقد أحسن القائل حيث يقول:

وقصارى أمر من أول أن ظنوا الظنونا
فيقولون على الرحمن ما لا يعلمونا

وإنما سمي أهل التعطيل جهمية نسبة إلى الجهم بن صفوان الترمذي رأس الفتنة والضلال وقد توسع في هذا اللفظ حتى أصبح يطلق على كل من نفى شيئًا من الأسماء والصفات، فهو شامل لجميع فرق النفاة من فلاسفة ومعتزلة وأشعرية وقرامطة باطنية.

فأهل السنة والجماعة وسط بين هؤلاء الجهمية النفاة وبين أهل التمثيل المشبهة الذين شبهوا الله بخلقه ومثلوه بعباده، وقد رد الله على الطائفتين بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ فهذا يرد على المشبهة، وقوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ يرد على المعطلة.

وأما أهل الحق فهم الذين يثبتون الصفات لله تعالى إثباتًا بلا تمثيل، وينزهونه عن مشابهة المخلوقات تنزيهًا بلا تعطيل، فجمعوا أحسن ما عند الفريقين، أعني التنزيه والإثبات، وتركوا ما أخطأوا وأساءوا فيه من التعطيل والتشبيه.

قوله: «وهم وسط... »إلخ: قال الشيخ العلامة محمد بن عبد العزيز بن مانع في تعليقه على هذه العبارة ما نصه:

اعلم أن الناس اختلفوا في أفعال العباد هل هي مقدورة للرب أم لا؟ فقال جهم وأتباعه وهم الجبرية: إن ذلك الفعل مقدور للرب لا للعبد وكذلك قال الأشعري وأتباعه: إن المؤثر في المقدور قدرة الرب دون قدرة العبد، وقال جمهور المعتزلة وهم القدرية، أي نفاة القدر: إن الرب لا يقدر على عين مقدور العبد واختلفوا هل يقدر على مثل مقدوره، فأثبته البصريون كأبي علي وأبي هاشم، ونفاه الكعبي وأتباعه البغداديون.

وقال أهل الحق: أفعال العباد بها صاروا مطيعين وعصاة وهي مخلوقة لله تعالى، والحق سبحانه منفرد بخلق المخلوقات لا خالق لها سواه، فالجبرية غلوا في إثبات القدر فنفوا فعل العبد أصلاً. والمعتزلة نفاة القدر جعلوا العباد خالقين مع الله ولهذا كانوا مجوس هذه الأمة. وهدى الله المؤمنين أهل السنة لما اختلفوا فيه الحق بإذنه. والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، فقالوا: العباد فاعلون والله خالقهم وخالق أفعالهم كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ وإنما نقلنا هذه العبارة بنصها لأنها تلخيص جيد لمذاهب المتكلمين في القدر وأفعال العباد.

قوله: «وفي باب وعيد الله» إلخ: يعني أن أهل السنة والجماعة وسط في باب الوعيد بين المفرطين من المرجئة الذين قالوا: لا يضر مع الإيمان ذنب كما لا تنفع مع الكفر طاعة. وزعموا أن الإيمان مجرد التصديق بالقلب وإن لم ينطق به. وسموا بذلك نسبة إلى الإرجاء، أي التأخير لأنهم أخروا الأعمال عن الإيمان.

ولاشك أن الإرجاء بهذا المعنى كفر يخرج صاحبه عن الملة، فإنه لابد في الإيمان من قول باللسان، واعتقاد بالجنان، وعمل بالأركان، فإذا اختل واحد منها لم يكن الرجل مؤمنًا.

وأما الإرجاء الذي نسب إلى بعض الأئمة من أهل الكوفة كأبي حنيفة وغيره، وهو قولهم: إن الأعمال ليست من الإيمان، ولكنهم مع ذلك يوافقون أهل السنة على أن الله يعذب من يعذب من أهل الكبائر بالنار، ثم يخرجهم منها بالشفاعة وغيرها، وعلى أنه لابد في الإيمان من نطق باللسان، وعلى أن الأعمال المفروضة

واجبة يستحق تركها الذم والعقاب، فهذا النوع من الإرجاء ليس كفرًا وإن كان قولاً باطلاً مبتدعًا لإخراجهم الأعمال عن الإيمان.

وأما الوعيدية فهم القائلون: بأن الله يجب عليه عقلاً أن يعذب العاصي كما يجب عليه أن يثيب المطيع، فمن مات على كبيرة ولم يتب منها لا يجوز عندهم أن يغفر الله له، ومذهبهم باطل مخالف للكتاب والسنة، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾، وقد استفاضت الأحاديث في خروج عصاة الموحدين من النار ودخولهم الجنة.

فمذهب أهل السنة والجماعة: وسط بين نفاة الوعيد من المرجئة وبين موجبيه من القدرية، فمن مات على كبيرة عندهم فأمره مفوض إلى الله إن شاء عاقبه وإن شاء عفا عنه، كما دلت عليه الآية السابقة، وإذا عاقبه بها فإنه لا يخلد خلود الكفار بل يخرج من النار ويدخل الجنة.

قوله: «وفي باب أسماء الإيمان...» إلخ: كانت مسألة الأسماء والأحكام من أول ما وقع فيه النزاع في الإسلام بين الطوائف المختلفة، وكان للأحداث السياسية والحروب التي جرت بين علي ومعاوية رضي الله عنهما في ذلك الحين وما ترتب عليها من ظهور الخوارج والرافضة والقدرية أثر كبير في ذلك النزاع، والمراد بالأسماء هنا أسماء الدين مثل مؤمن ومسلم وكافر وفاسق... إلخ، والمراد بالأحكام أحكام أصحابها في الدنيا والآخرة.

فالخوارج الحرورية والمعتزلة ذهبوا إلى أنه لا يستحق اسم الإيمان إلا من صدق بجنانه وأقر بلسانه وقام بجميع الواجبات واجتنب جميع الكبائر، فمرتكب الكبيرة عندهم لا يسمى مؤمنًا باتفاق بين الفريقين، ولكنهم اختلفوا هل يسمى كافرًا أو لا. فالخوارج يسمونه كافراً ويستحلون دمه وماله، ولهذا كفروا عليًّا ومعاوية وأصحابهما واستحلوا منهم ما يستحلون من الكفار.

وأما المعتزلة فقالوا: إن مرتكب الكبيرة خرج من الإيمان ولم يدخل في الكفر فهو بمنزلة بين المنزلتين، وهذا أحد الأصول التي قام عليها مذهب الاعتزال.

واتفق الفريقان أيضًا على أن من مات على كبيرة ولم يتب منها فهو مخلد في النار، فوقع الاتفاق بينهما في أمرين:

١ - نفي الإيمان عن مرتكب الكبيرة.

٢ - خلوده في النار مع الكفار. ووقع الخلاف أيضًا في موضعين أحدهما: تسميته كافرًا. والثاني: استحلال دمه وماله وهو الحكم الدنيوي، وأما المرجئة فقد سبق بيان مذهبهم، وهو أنه لا يضر مع الإيمان معصية فمرتكب الكبيرة عندهم مؤمن كامل الإيمان ولا يستحق دخول النار.

فمذهب أهل السنة والجماعة وسط بين هذين المذهبين فمرتكب الكبيرة عندهم مؤمن ناقص الإيمان، قد نقص من إيمانه بقدر ما ارتكب من معصية فلا ينفون عنه الإيمان أصلاً كالخوارج والمعتزلة، ولا يقولون: بأنه كامل الإيمان كالمرجئة الجهمية، وحكمه في الآخرة عندهم أنه قد يعفو الله عز وجل عنه فيدخل الجنة ابتداء أو يعذبه بقدر معصيته ثم يخرجه ويدخله الجنة كما سبق، وهذا الحكم أيضًا وسط بين من يقول بخلوده في النار وبين من يقول: إنه لا يستحق على المعصية عقابًا.

قوله: «**وفي أصحاب رسول الله...**»**إلخ**: المعروف أن الرافضة قبحهم الله يسبون الصحابة رضي الله عنهم ويلعنونهم وربما كفروهم أو كفروا بعضهم، والغالبية منهم مع سبهم لكثير من الصحابة والخلفاء يغلون في علي وأولاده ويعتقدون فيهم الإلهية، وقد ظهر هؤلاء في حياة عليٍّ رضي الله عنه بزعامة عبد الله بن سبأ الذي كان يهوديًّا وأسلم وأراد أن يكيد للإسلام وأهله كما كاد اليهود من قبل للنصرانية وأفسدوها على أهلها، وقد حرقهم عليٌّ بالنار لإطفاء فتنتهم.

وروي عنه في ذلك قوله:

لما رأيت الأمر أمرًا منكرًا ... أججت ناري ودعوت قنبرا

وأما الخوارج فقد قابلوا هؤلاء الروافض فكفروا عليًّا ومعاوية ومن معهما من الصحابة وقاتلوهم واستحلوا دماءهم وأموالهم.

وأما أهل السنة والجماعة فكانوا وسطًا بين غلو هؤلاء وتقصير أولئك وهداهم الله إلى الاعتراف بفضل أصحاب نبيهم وأنهم أكمل هذه الأمة إيمانًا وإسلامًا وعلمًا وحكمة، ولكنهم لم يغلوا فيهم ولم يعتقدوا عصمتهم، بل قاموا بحقوقهم وأحبوهم لعظيم سابقتهم وحسن بلائهم في نصرة الإسلام وجهادهم مع رسول الله ﷺ.

● قال الشيخ عبد العزيز بن باز:

يمتاز أهل السنة والجماعة على غيرهم من فرق أهل الضلالة والبدع بأنهم وسط وموافقون للحق في جميع أبواب العلم والدين، فلم يغلو ولم يفرطوا كفعل أهل البدع، فهم وسط في باب صفات الله بين الجهمية والمعطلة والمشبهة، فالجهمية نفوا صفات الباري، والمشبهة أثبتوها، غلوا في إثباتها حتى شبهوا الله بخلقه.

وأما أهل السنة فأثبتوها على الوجه اللائق بجلاله من غير تشبيه ولا تمثيل، وهم وسط في باب أفعال الله بين الجبرية والقدرية؛ لأن الجبرية غلوا في إثبات القدر وزعموا أن العبد لا فعل له، بل هو بمثابة الشجرة التي تحركها الريح يمنة و يسرة.

والقدرية فرطوا بجانب الله وقالوا: إن العبد يخلق فعله بدون مشيئة الله وإرادته.

وأهل السنة توسطوا وقالوا: للعبد اختيار مشيئة وليس يخلق فعله بل الله خالقه وخالق أفعاله، وقالوا: إن مشيئته وإرادته بعد مشيئة الله وإرادته كما قال سبحانه: ﴿ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٨] وهم وسط في باب وعيد الله بين المرجئة والوعيدية من القدرية وغيرهم: لأن المرجئة قالوا: لا يضر مع الإيمان معصية، وزعموا أن العاصي لا يدخل النار، والوعيدية من القدرية وأشباههم أنفذوا الوعيد الوارد في حق العصاة وقالوا: إن السارق والزاني ونحوهم من العصاة إذا لم يتوبوا مخلدين في النار.

وأهل السنة توسطوا في ذلك فقالوا: إن المعاصي تنقص الإيمان، وصاحبها تحت المشيئة، وقد يدخل النار ولكن لا يخلد فيها كما جاءت به النصوص عن النبي ﷺ. وهم وسط في باب أسماء الإيمان والدين بين الحرورية والمعتزلة، وبين المرجئة والجهمية؛ لأن الحرورية والمعتزلة يقولون إن الدين والإيمان قول وعمل واعتقاد، ولكن لا يزيد ولا ينقص، فمن أتى بكبيرة كالزنا ونحوه كفر عند الحرورية، وصار فاسقًا عند المعتزلة خالدًا في النار، ويقولون (هو في) الدنيا (ليس) مؤمنًا ولا كافرًا ولكن يجعلونه في منزلة بين المنزلتين وهي الفسق.

وأما المرجئة: وهم الذين يقولون: إن الإيمان قول فقط أو قول وتصديق بالقلب فهم يرون أن المعاصي لا تنقص الإيمان ولا يستحق صاحبها النار إذا لم يستحلها، والجهمية مثل المرجئة لأنهم يقولون: إن الإيمان مجرد المعرفة: فأهل السنة توسطوا بين هذه الطوائف الأربع فقالوا: إن الإيمان قول وعمل واعتقاد ويزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، وقالوا: إن العاصي لا يكون كافراً لمجرد المعصية، ولا مخلداً في النار خلافًا لقول الخوارج والمعتزلة، وقالوا أيضًا: إن المعاصي تنقص الإيمان ويستحق صاحبها النار إلا أن يعفو الله عنه خلافًا للجهمية والمرجئة.

وهم وسط في أصحاب رسول الله ﷺ بين الرافضة والخوارج لأن الرافضة غلوا في عليٍّ وأهل البيت، والخوارج كفروا بعض الصحابة وفسقوا بعضها، وأهل السنة خالفوا الجميع فوالوا جميع الصحابة ولم يغلوا في أحد منهم.

● قال الشيخ ابن عثيمين:

قوله: «إلى أمثال هذه الأحاديث...» إلخ: يعني: انظر إلى أمثال هذه الأحاديث التي يخبر بها النبي ﷺ عن ربه؛ فما كان مثلها ثبوتًا ودلالة؛ فحكمه حكمها

قوله: «الفرقة الناجية»: «الفرقة»: أي: الطائفة.

«الناجية»: التي نجت في الدنيا من البدع، وفي الآخرة من النار.

«أهل السنة والجماعة»: أي: الذين أخذوا بالسنة واجتمعوا عليها.

«يؤمنون بذلك»؛ أي: بما أخبر به الرسول ﷺ.

«كما يؤمنون بما أخبر الله به في كتابه»: لأن ما أخبر به الرسول عليه الصلاة والسلام يجب علينا أن نؤمن به كما يجب علينا أن نؤمن بما أخبر الله به في كتابه؛ إلا أنه يختلف عن القرآن في الثبوت؛ فإن لنا نظرين بالنسبة لما جاءت به السنة:

النظر الأول: في ثبوته.

والنظر الثاني: في دلالته.

أما ما في القرآن؛ فلنا نظر واحد، وهو النظر في الدلالة.

وقد سبق لنا بيان الأدلة الدالة على وجوب قبول ما أخبر به النبي ﷺ.

قال: «من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل»: سبق شرح هذا.

قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: «بل هم الوسط في فرق الأمة؛ كما أن الأمة هي الوسط في الأمم»(١).

قوله: «الأمة هي الوسط بين الأمم»؛ يعني: الأمم السابقة وذلك من عدة أوجه:

ـ ففي حق الله تعالى: كانت اليهود تصف الله تعالى بالنقائص، فتلحقه بالمخلوق. وكانت النصارى تلحق المخلوق الناقص بالرب الكامل. أما هذه الأمة؛ فلم تصف الرب بالنقائص، ولم تلحق المخلوق به.

ـ وفي حق الأنبياء؛ كذبت اليهود عيسى ابن مريم، وكفرت به. وغلت النصارى فيه، حتى جعلته إلهًا. أما هذه الأمة؛ فآمنت به بدون غلو، وقالت: هو عبد الله ورسوله.

ـ وفي العبادات؛ النصارى يدينون لله عز وجل بعدم الطهارة؛ بمعنى أنهم لا يتطهرون من الخبث؛ يبول الواحد منهم، ويصيب البول ثيابه، ويقوم، ويصلي في الكنيسة!! واليهود بالعكس؛ إذا أصابتهم النجاسة؛ فإنهم يقرضونها من الثوب؛

---

(١) وليس أول على ذلك من قوله تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطًا لتكون شهداء على الناس...﴾ الآية [البقرة: ١٤٣] وقوله تعالى: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله...﴾ الآية [آل عمران: ١١٠] والوسط العدل كما جاء في الحديث أنه ﷺ قرأ ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا﴾ قال: عدلاً.

قال الطبري: الوسط في كلام العرب الخيار، يقولون فلان وسط في قومه وواسط إذا أرادوا الرفع في حبه.

قال: والذي أرى معنى الوسط في الآية الجزء بين الطرفين، والمعنى أنهم وسط لتوسطهم في الدين فلم يغلوا كغلو النصارى ولم يقصروا كتقصير اليهود، ولكنهم أهل وسط واعتدال. اهـ. «فتح الباري» (٨/ ٢١٤).

فلا يطهرها الماء عندهم؛ حتىٰ إنهم يبتعدون عن الحائض لا يؤاكلونها ولا يجتمعون بها[1].

أما هذه الأمة؛ فهم وسط؛ فيقولون: لا هذا ولا هذا؛ لا يشق الثوب، ولا يُصلي بالنجاسة، بل يغسل غسلا حتىٰ تزول النجاسة منه، ويصلي به، ولا يبتعدون عن الحائض؛ بل يؤاكلونها ويباشرها زوجها في غير الجماع.

ـ وكذلك أيضًا في باب المحرَّمات من المآكل والمشارب؛ النصارىٰ استحلوا الخبائث وجميع المحرمات، واليهود حرِّم عليهم كل ذي ظفر؛ كما قال تعالىٰ: ﴿ **وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وِإِنَّا لَصَادِقُونَ** ﴾ [الأنعام: ١٤٦]، أما هذه الأمة؛ فهم وسط؛ أحلت لهم الطيبات، وحرمت عليهم الخبائث.

ـ وفي القصاص: القصاص فرض علىٰ اليهود، والتسامح عن القصاص فرض علىٰ النصارىٰ، أما هذه الأمة؛ فهي مخيرة بين القصاص والدية والعفو مجانًا.

فكانت الأمة الإسلامية وسطًا بين الأمم بين الغلو والتقصير.

فأهل السنة والجماعة بين فرق الأمة كالأمة بين الديانات الأخرىٰ؛ يعني: أنهم وسط.

ثم ذكر المؤلف ـ رحمه الله ـ أصولا خمسة كان أهل السنة والجماعة فيها وسطًا بين فرق الأمة.

الأصل الأول: باب الأسماء والصفات:

---

(١) في الحديث عن أنس ـ رضي الله عنه ـ أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم لم يؤاكلوها ولم يجامعوهن في البيوت فسأل أصحاب النبي ﷺ النبي ﷺ فأنزل الله تعالىٰ ﴿ويسألونك عن المحيض قل هو أذىٰ فاعتزلوا النساء في المحيض﴾ الحديث.
مسلم (٣٠٢) والترمذي (٢٩٧٧).

قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: «فهم وسط في باب صفات الله سبحانه وتعالى بين أهل التعطيل الجهمية وأهل التمثيل المشبهة».

هذان طرفان متطرفان: أهل التعطيل الجهمية، وأهل التمثيل المشبهة.

ـ فالجهمية: ينكرون صفات الله عز وجل، بل غلاتهم ينكرون الأسماء ويقولون: لا يجوز أن نثبت لله اسمًا ولا صفة؛ لأنك إذا أثبت له اسمًا؛ شبهته بالمسميات، أو صفة؛ شبهته بالموصوفات!! إذاً؛ لا نثبت اسمًا ولا صفة!! وما أضاف الله إلى نفسه من الأسماء؛ فهو من باب المجاز، وليس من باب التسمي بهذه الأسماء!!

ـ والمعتزلة ينكرون الصفات ويثبتون الأسماء.

ـ والأشعرية يثبتون الأسماء وسبعًا من الصفات.

كل هؤلاء يشملهم اسم التعطيل، لكن بعضهم معطل تعطيلا كاملا؛ كالجهمية، وبعضهم تعطيلا نسبيًا مثل المعتزلة والأشاعرة.

وأهل التمثيل المشبهة؛ فيثبتون لله الصفات، ويقولون: يجب أن نثبت لله الصفات؛ لأنه أثبتها لنفسه، لكن يقولون: إنها مثل صفات المخلوقين.

فهؤلاء غلوا في الإثبات، وأهل التعطيل غلوا في التنزيه.

فهؤلاء قالوا: يجب عليك أن تثبت لله وجهًا، وهذا الوجه مثل وجه أحسن واحد من بني آدم. قالوا: لأن الله خاطبنا بما نعقل ونفهم؛ قال: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧]، ولا نعقل ونفهم من الوجه إلا ما نشاهد، وأحسن ما نشاهد الإنسان.

فهو على زعمهم ـ والعياذ بالله ـ على مثل أحسن واحد من الشباب الإنساني!!

ويدَّعون أن هذا هو المعقول معقول!!

وأما أهل السنة والجماعة؛ فقالوا: نحن نأخذ بالحق الذي مع الجانبين، فنأخذ بالحق في باب التنزيه؛ فلا نمثل، ونأخذ بالحق في جانب الإثبات؛ فلا نعطل، بل إثبات بلا تمثيل، وتنزيه بلا تعطيل؛ نحن نثبت ولكن بدون تمثيل، فنأخذ بالأدلة من

هنا ومن هنا.

والخلاصة: هم وسط في باب الصفات بين طائفتين متطرفتين: طائفة غلت في التنزيه والنفي، وهم أهل التعطيل من الجهمية وغيرهم، وطائفة غلت في الإثبات، وهم الممثلة.

وأهل السنة والجماعة يقولون: لا تغلوا في الإثبات ولا في النفي، ونثبت بدون تمثيل؛ لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

الأصل الثاني: أفعال الله:

قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: «وهم وسط في باب أفعال الله بين الجبرية والقدرية».

في باب القدر انقسم الناس إلى ثلاثة أقسام:

ـ قسم آمنوا بقدر الله عز وجل وغلوا في إثباته، حتى سلبوا الإنسان قدرته واختياره، وقالوا: إن الله فاعل كل شيء، وليس للعبد اختيار ولا قدرة، وإنما يفعل الفعل مجبراً عليه، بل إن بعضهم ادعى أن فعل العبد هو فعل الله، ولهذا دخل من بابهم أهل الاتحاد والحلول، وهؤلاء هم الجبرية.

ـ والقسم الثاني قالوا: إن العبد مستقل بفعله، وليس لله فيه مشيئة ولا تقدير، حتى غلا بعضهم، فقال: إن الله لا يعلم فعل العبد إلا إذا فعله، أما قبل؛ فلا يعلم عنه شيئًا، وهؤلاء هم القدرية، مجوس هذه الأمة[١].

فالأولون غلوا في إثبات أفعال الله وقدره، وقالوا: إن الله عز وجل يجبر الإنسان على فعله، وليس للإنسان اختيار.

والآخرون غلوا في إثبات قدرة العبد، وقالوا: إن القدرة الإلهية والمشيئة الإلهية لا علاقة لها في فعل العبد؛ فهو الفاعل المطلق الاختيار.

ـ والقسم الثالث: أهل السنة والجماعة؛ قالوا: نحن نأخذ بالحق الذي مع

---

(١) سبق تخريجه.

الجانبين؛ فنقول: إن فعل العبد واقع بمشيئة الله وخلق الله، ولا يمكن أن يكون في ملك الله ما لا يشاؤه أبداً، والإنسان له اختيار وإرادة، ويفرق بين الفعل الذي يضطر إليه والفعل الذي يختاره؛ فأفعال العباد باختيارهم وإرادتهم، ومع ذلك؛ فهي واقعة بمشيئة الله وخلقه.

لكن سيبقى عندنا إشكال: كيف تكون خلقاً لله وهي فعل الإنسان؟!

والجواب أن أفعال العبد صدرت بإرادة وقدرة، والذي خلق فيه الإرادة والقدرة هو الله عز وجل.

لو شاء الله تعالى؛ لسلبك القدرة؛ فلم تستطع.

ولو أن أحداً قادراً لم يرد فعلا؛ لم يقع الفعل منه.

كل إنسان قادر يفعل الفعل؛ فإنه بإرادته، اللهمَّ إلا من أكره.

فنحن نفعل باختيارنا وقدرتنا، والذي خلق فينا الاختيار والقدرة هو الله.

الأصل الثالث: الوعيد:

قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: «وفي باب وعيد الله بين المرجئة وبين الوعيدية من القدرية وغيرهم».

المرجئة: اسم فاعل من أرجأ؛ بمعنى: أخر، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالُواْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ [الأعراف: ١١١]، وفي قراءة: (أرجئه)؛ أي: أخره وأخر أمره، وسمُّوا مرجئة: إما من الرجاء؛ لتغليبهم أدلة الرجاء على أدلة الوعيد، وإما من الإرجاء؛ بمعنى: التأخير؛ لتأخيرهم الأعمال عن مسمَّى الإيمان.

فهم يقولون: الأعمال ليست من الإيمان، والإيمان هو الاعتراف بالقلب فقط.

ولهذا يقولون: الأعمال ليست من الإيمان، والإيمان هو الاعتراف بالقلب فقط.

ولهذا يقولون: إن فاعل الكبيرة كالزاني والسارق وشارب الخمر وقاطع الطريق لا يستحق دخول النار لا دخولا مؤبداً ولا مؤقتاً؛ فلا يضر مع الإيمان معصية؛ مهما كانت صغيرة أم كبيرة؛ إذا لم تصل إلى حد الكفر.

وأما الوعيدية؛ فقابلوهم، وغلَّبوا جانب الوعيد، وقالوا: أي كبيرة يفعلها الإنسان ولم يتب منها؛ فإنه مخلَّد في النار بها: إن سرق؛ فهو من أهل النار خالدًا مخلدًا، وإن شرب الخمر؛ فهو في النار خالدًا مخلدًا. . . وهكذا.

والوعيدية يشمل طائفتين: المعتزلة، والخوارج. ولهذا قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: «من القدرية وغيرهم»؛ فيشمل المعتزلة ـ والمعتزلة قدرية؛ يرون أن الإنسان مستقل بعلمه، وهم وعيدية ـ ويشمل الخوارج.

فاتفقت الطائفتان على أن فاعل الكبيرة مخلد في النار، لا يخرج منها أبدًا، وأن من شرب الخمر مرة؛ كمن عبد الصنم ألف سنة؛ كلهم مخلَّدون في النار؛ لكن يختلفون في الاسم؛ كما سيأتي إن شاء الله في الباب الثاني

وأما أهل السنة والجماعة؛ فيقولون: لا نغلب جانب الوعيد كما فعل المعتزلة والخوارج، ولا جانب الوعد كما فعل المرجئة.

ونقول: فاعل الكبيرة مستحق للعذاب، وإن عذب؛ لا يخلد في النار.

وسبب الخلاف بين الوعيدية وبين المرجئة: أن كل واحد منهما نظر إلى النصوص بعين عوراء؛ ينظر من جانب واحد.

ـ هؤلاء نظروا نصوص الوعد، فأدخلوا الإنسان في الرجاء، وقالوا: نأخذ بها، وندع ما سواها، وحملوا نصوص الوعيد على الكفار.

ـ والوعيدية بالعكس؛ نظروا إلى نصوص الوعيد، فأخذوا بها، وغفلوا عن نصوص الوعد.

فلهذا اختل توازنهم لما نظروا من جانب واحد.

وأهل السنة والجماعة أخذوا بهذا وهذا، وقالوا: نصوص الوعيد محكمة؛ فنأخذ بها، ونصوص الوعد محكمة؛ فنأخذ بها. فأخذوا من نصوص الوعد ما ردوا به على الوعيدية، ومن نصوص الوعيد ما ردوا به على المرجئة، وقالوا: فاعل الكبيرة مستحق لدخول النار؛ لئلا نهدر نصوص الوعيد؛ غير مخلَّد فيها؛ لئلا نهدر نصوص الوعد.

فأخذوا بالدليلين ونظروا بالعينين.

الأصل الرابع: أسماء الإيمان والدين:

قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: «وفي باب أسماء الإيمان والدين بين الحرورية والمعتزلة، وبين المرجئة الجهمية».

هذا في باب الأسماء والدين، وهو غير باب الأحكام الذي هو الوعد والوعيد؛ ففاعل الكبيرة ماذا نسميه؟! أمؤمن أم كافر؟!.

وأهل السنة وسط فيه بين طائفتين: الحرورية والمعتزلة من وجه، والمرجئة الجهمية من وجه:

ـ فالحرورية والمعتزلة أخرجوه من الإيمان، لكن الحرورية قالوا: إنه كافر يحل دمه وماله، ولهذا خرجوا على الأئمة، وكفَّروا الناس.

ـ وأما المرجئة الجهمية؛ فخالفوا هؤلاء، وقالوا: هو مؤمن كامل الإيمان!! يسرق ويزني ويشرب الخمر ويقتل النفس ويقطع الطريق؛ ونقول له: أنت مؤمن كامل الإيمان!! كرجل فعل الواجبات والمستحبات وتجنَّب المحرمات!! أنت وهو في الإيمان واحد!!.

فهؤلاء وأولئك على الضد في الاسم وفي الحكم.

وأما المعتزلة؛ فقالوا: فاعل الكبيرة خرج من الإيمان، ولم يدخل في الكفر؛ فهو في منزلة بين منزلتين؛ لا نتجاسر أن نقول: إنه كافر! وليس لنا أن نقول: إنه مؤمن؛ وهو يفعل الكبيرة؛ يزني ويسرق ويشرب الخمر! وقالوا: نحن أسعد الناس بالحق!.

حقيقة أنهم إذا قالوا: إن هذا لا يتساوى مع مؤمن عابد؛ فقد صدقوا.

لكن كونهم يخرجونه من الإيمان، ثم يحدثون منزلة بين منزلتين: بدعة ما جاءت لا في كتاب الله ولا في سنة رسوله!!

كل النصوص تدل على أنه لا يوجد منزلة بين منزلتين:

كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤].

وقوله: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ﴾ [يونس: ٣٢].

وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢].

وفي الحديث: «القرآن حجة لك أو عليك»[١].

فأين المنزلة بين المنزلتين؟!

هم يقولون: في منزلة بين منزلتين!! وفي باب الوعيد ينفذون عليه الوعيد، فيوافقون الخوارج في أن فاعل الكبيرة مخلَّد في النار، أما في الدنيا؛ فقالوا: تجري عليه أحكام الإسلام؛ لأنه هو الأصل؛ فهو عندهم في الدنيا بمنزلة الفاسق العاصي. فيا سبحان الله! كيف نصلي عليه؛ ونقول: اللهمَّ! اغفر له. وهو مخلَّد في النار؟!

فيجب عليهم أن يقولوا في أحكام الدنيا: إنه يُتَوقَّف فيه! لا نقول: مسلم، ولا: كافر، ولا نعطيه أحكام الإسلام، ولا أحكام الكفر!! إذا مات؛ لا نصلي عليه، ولا نكفنه، ولا نغسله، ولا يدفن مع المسلمين، ولا ندفنه مع الكفار، إذاً؛ نبحث له عن مقبرة بين مقبرتين!!

- وأما أهل السنة والجماعة؛ فكانوا وسطًا بين هذه الطوائف؛ فقالوا: نسمي المؤمن الذي يفعل الكبيرة مؤمنًا ناقص الإيمان، أو نقول: مؤمن بإيمانه، فاسق بكبيرته، وهذا هو العدل؛ فلا يعطى الاسم المطلق، ولا يسلب مطلق الاسم.

ويترتَّب على هذا: أن الفاسق لا يجوز لنا أن نكرهه كرهًا مطلقًا، ولا أن نحبه حبًّا مطلقًا، بل نحبه على ما معه من الإيمان، ونكرهه على ما معه من المعصية.

الأصل الخامس: في الصحابة:

قال المؤلف - رحمه الله -: «وفي أصحاب رسول الله ﷺ بين الرافضة والخوارج».

«أصحاب»: جمع صاحب، والصاحب اسم جمع صاحب، والصاحب: الملازم للشيء.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٣)، والترمذي (٣٥١٧) وابن ماجه (٢٨٠) من حديث أبي مالك الأشعري - رضي الله عنه.

والصحابي: هو الذي اجتمع بالنبي ﷺ مؤمنًا به ومات على ذلك.

وهذا خاص في الصحابة، وهو من خصائص النبي ﷺ؛ أن الإنسان يكون من أصحابه، وإن لم يجتمع به إلا لحظة واحدة؛ لكن بشرط أن يكون مؤمنًا به.

وأهل السنة والجماعة وسط فيهم بين الرافضة والخوارج.

- فالرافضة: هم الذين يسمَّون اليوم: شيعة، وسموا رافضة؛ لأنهم رفضوا زيد ابن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، الذي ينتسب إليه الآن الزيدية؛ رفضوه لأنهم سألوه: ما تقول في أبي بكر وعمر؟ يريدون منه أن يسبهما ويطعن فيهما! ولكنه رضي الله عنه قال لهم: نعم الوزيران وزيرا جدي. يريد بذلك رسول الله ﷺ؛ فأثنى عليهما، فرفضوه، وغضبوا عليه، وتركوه! فسموا رافضة!!

هؤلاء الروافض - والعياذ بالله - لهم أصول معروفة عندهم، ومن أقبح أصولهم: الإمامة التي تتضمن عصمة الإمام، وأنه لا يقول خطأ، وأن مقام الإمام أرفع من مقام النبوة؛ لأن الإمام يتلقى عن الله مباشرة، والنبي بواسطة الرسول، وهو جبريل، ولا يخطئ الإمام عندهم أبدًا، بل غلاتهم يدعون أن الإمام يخلق؛ يقول للشيء: كن فيكون!!.

وهم يقولون: إن الصحابة كفار، وكلهم ارتدوا بعد النبي ﷺ؛ حتى أبو بكر وعمر عند بعضهم كانا كافرين وماتا على النفاق - والعياذ بالله - ولا يستثنون من الصحابة إلا آل البيت، ونفرًا قليلا ممن قالوا: إنهم من أولياء آل البيت.

وقد قال صاحب كتاب «الفصل»: «إن غلاتهم كفروا علي بن أبي طالب رضي الله عنه؛ قالوا: لأن عليًّا أقر الظلم والباطل حين بايع أبا بكر وعمر، وكان الواجب عليه أن ينكر بيعتهما، فلما لم يأخذ بالحق والعدل، ووافق على الظلم؛ صار ظالمًا كافرًا».

- أما الخوارج: فهم على العكس من الرافضة؛ حيث إنهم كفروا عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وكفروا معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، وكفروا كل من لم يكن على طريقتهم، واستحلوا دماء المسلمين، فكانوا كما وصفهم النبي عليه

الصلاة والسلام: «يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية»(١)، وإيمانهم لا يتجاوز حناجرهم.

فالشيعة غلوا في آل البيت وأشياعهم، وبالغوا في ذلك، حتى إن منهم من ادعى ألوهية عليٍّ، ومنهم من ادعى أنه أحق بالنبوة من محمد رسول الله ﷺ، والخوارج بالعكس.

ـ أما أهل السنة والجماعة؛ فكانوا وسطًا بين الطائفتين؛ قالوا: نحن ننزل آل البيت منزلتهم، ونرى أن لهم حقين علينا: حق الإسلام والإيمان، وحق القرابة من رسول الله ﷺ. وقالوا: قرابة رسول الله ﷺ لها الحق علينا، لكن من حقها علينا أن ننزلها منزلتها، وأن لا نغلو فيها. ويقولون في بقية أصحاب الرسول ﷺ: لهم الحق علينا بالتوقير والإجلال والترضي، وأن نكون كما قال الله تعالى: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠]، ولا نعادي أحدًا منهم أبدًا؛ لا آل البيت، ولا غيرهم؛ فكل منهم نعطيه حقه؛ فصاروا وسطًا بين جفاة وغلاة.

● قال الشيخ صالح الفوزان:

هذا بيان لموقف أهل السنة والجماعة من أحاديث الصفات الواردة عن الرسول ﷺ، أنه كموقفهم من آيات الصفات الواردة في القرآن سواء، وهو الإيمان بها واعتقاد ما دلت عليه على حقيقته، لا يصرفونها عن ظاهرها بأنواع التأويل الباطل، ولا ينفون ما دلت عليه فيعطلونها، ولا يشبهون الصفات المذكورة فيها بصفات المخلوقين؛ لأن الله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾.

وهم بذلك يخالفون طريقة المبتدعة من الجهمية والمعتزلة والأشاعرة الذين كان موقفهم من هذه النصوص موقف المنكر لها أو المئول لما دلت عليه، وبخلاف المشبهة الذين غلوا في الإثبات حتى شبهوا الله بخلقه، تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا.

لما بين الشيخ رحمه الله موقف أهل السنة والجماعة من النصوص الواردة في

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٦١١) ومسلم (١٠٦٦) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

الكتاب والسنة في صفات الله تعالى أراد أن يبين مكانتهم بين فرق الأمة حتى يعرف قدرهم وفضلهم بمقارنتهم بغيرهم. فإن الضد يظهر حسنه الضد. وبضدها تتبين الأشياء. قال رحمه الله: **(بل هم الوسط في فرق الأمة)** قال في «المصباح المنير»: الوسط بالتحريك: المعتدل، والمراد بالوسط هنا: العدل الخيار، قال تعالى في الآية (١٤٣) من سورة البقرة: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾.

فأهل السنة وسط: بمعنى: أنهم عدول خيار، وبمعنى: أنهم متوسطون بين فريقي الإفراط والتفريط، فهم وسط بين الفرق المنتسبة للإسلام، كما أن الأمة الإسلامية وسط بين الأمم. فهذه الأمة وسط بين الأمم التي تميل إلى الغلو والإفراط والأمم التي تميل إلى التفريط والتساهل؛ وأهل السنة والجماعة من هذه الأمة وسط بين فرق الأمة المبتدعة التي انحرفت عن الصراط المستقيم فغلا بعضها وتطرف، وتساهل بعضها وانْحرف.

ثم بين الشيخ رحمه الله تفصيل ذلك، فقال: (فهم) أي: أهل السنة والجماعة.

أولاً: (وسط في باب صفات الله سبحانه وتعالى بين أهل التعطيل الجهمية وأهل التمثيل المشبهة) فالجهمية ـ نسبة إلى الجهم بن صفوان الترمذي ـ هؤلاء غلوا وأفرطوا في التنزيه حتى نفوا أسماء الله وصفاته؛ حذراً من التشبيه بزعمهم، وبذلك سموا معطلة؛ لأنهم عطلوا الله من أسمائه وصفاته.

(وأهل التمثيل المشبهة) سموا بذلك؛ لأنهم غلوا وأفرطوا في إثبات الصفات حتى شبهوا الله بخلقه ومثلوا صفاته بصفاتهم، تعالى الله عما يقولون.

وأهل السنة توسطوا بين الطرفين، فأثبتوا صفات الله على الوجه اللائق بجلاله من غير تشبيه ولا تمثيل، فلم يغلوا في التنزيه، ولم يغلوا في الإثبات، بل نزهوا الله بلا تعطيل، وأثبتوا له الأسماء والصفات بلا تمثيل.

ثانيًا: وأهل السنة والجماعة (وسط في باب أفعال الله بين الجبرية القدرية).

فـ (الجبرية) نسبة إلى الجبر؛ لأنهم يقولون: إن العبد مجبور على فعله، فهم غلوا في إثبات أفعال الله حتى نفوا أفعال العباد، وزعموا أنهم لا يفعلون شيئًا، وإنما

الله هو الفاعل، والعبد مجبور على فعله، فحركاته وأفعاله كلها اضطرارية، كحركات المرتعش، وإضافة الفعل إلى العبد مجاز.

(والقدرية) نسبة إلى القدر، غلوا في إثبات أفعال العباد، فقالوا: إن العبد يخلق فعل نفسه بدون مشيئة الله وإرادته، فأفعال العباد لا تدخل تحت مشيئة الله وإرادته فالله لم يُقدِّرْها ولم يردها، وإنما فعلوها هم استقلالاً.

وأهل السنة توسطوا، وقالوا: للعبد اختيار ومشيئة وفعل يصدر منه، ولكنه لا يفعل شيئًا بدون إرادة الله ومشيئته وتقديره، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦] فأثبت للعباد عملاً هو من خلق الله تعالى وتقديره.

وقال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩]، فأثبت للعباد مشيئة تأتي بعد مشيئة الله تعالى. وسيأتي لهذا مزيد إيضاح إن شاء الله تعالى في مبحث القدر.

ثالثًا: وأهل السنة والجماعة «وسط» في باب وعيد الله الوعيد: التخويف والتهديد، والمراد هنا: النصوص التي فيها توعدٌ للعصاة بالعذاب والنكال، وقوله: (بين المرجئة والوعيدية من القدرية وغيرهم)، (المرجئة): نسبة إلى الإرجاء وهو التأخير، سموا بذلك؛ لأنهم أخروا الأعمال عن مسمى الإيمان، حيث زعموا أن مرتكب الكبيرة غير فاسق، وقالوا: لا يضر مع الإيمان ذنب، كما لا ينفع مع الكفر طاعة، فعندهم أن مرتكب الكبيرة كامل الإيمان غير معرض للوعيد، فهم تساهلوا في الحكم على العاصي وأفرطوا في التساهل، حتى زعموا أن المعاصي لا تنقص الإيمان، ولا يحكم على مرتكب الكبيرة بالفسق.

وأما (الوعيدية): فهم الذين قالوا بإنفاذ الوعيد على العاصي، وشددوا في ذلك، حتى قالوا: إن مرتكب الكبيرة إذا مات ولم يتب فهو مخلد في النار، وحكموا بخروجه من الإيمان في الدنيا.

وأهل السنة والجماعة توسطوا بين الطرفين، فقالوا: إن مرتكب الكبيرة آثم ومعرض للوعيد وناقص الإيمان ويحكم عليه بالفسق- لا كما تقول المرجئة: إنه كامل الإيمان وغير معرض للوعيد- ولكنه لا يخرج من الإيمان ولا يخلد في النار إن

دخلها، فهو تحت مشيئة الله، إن شاء عفا عنه، وإن شاء عذبه بقدر معصيته ثم يخرج من النار ويدخل الجنة ـ لا كما تقوله الوعيدية بخروجه من الإيمان وتخليده في النار ـ فالمرجئة أخذوا بنصوص الوعد، والوعيدية أخذوا بنصوص الوعيد، وأهل السنة والجماعة جمعوا بينهما.

رابعًا: وأهل السنة والجماعة «وسط في باب أسماء الإيمان والدين» أي: الحكم على الإنسان بالكفر، أو الإسلام، أو الفسق، وفي جزاء العصاة في الدنيا والآخرة.

(بين الحرورية والمعتزلة وبين المرجئة والجهمية)، (الحرورية): هم الخوارج، سموا بذلك نسبة إلى حروري قرية بالعراق اجتمعوا فيها حين خرجوا على عليٍّ رضي الله عنه.

و(المعتزلة): هم أتباع واصل بن عطاء الذي اعتزل مجلس الحسن البصري، وانحاز إليه أتباعه بسبب خلاف وقع بينهما في حكم مرتكب الكبيرة من المسلمين، فقال الحسن ـ رحمه الله ـ عن واصل هذا: إنه قد اعتزلنا، فسموا معتزلة.

فمذهب الخوارج والمعتزلة في حكم مرتكب الكبيرة من المسلمين: مذهب متشدد، حيث حكموا عليه بالخروج من الإسلام، ثم قال المعتزلة: إنه ليس بمسلم ولا كافر، بل هو بالمنزلة بين المنزلتين، وقال الخوارج: إنه كافر، واتفقوا على أنه إذا مات على تلك الحال أنه خالد مخلد في النار. وقابلتهم المرجئة والجهمية فتساهلوا في حكم مرتكب الكبيرة وأفرطوا في التساهل معه، فقالوا: لا يضر مع الإيمان معصية؛ لأن الإيمان عندهم هو تصديق القلب فقط أو مع نطق اللسان على خلاف بينهم ولا تدخل فيه الأعمال فلا يزيد بالطاعة ولا ينقص بالمعصية، فالمعاصي لا تنقص الإيمان ولا يستحق صاحبها النار إذا لم يستحلها.

وأهل السنة والجماعة توسطوا بين الفرقتين، قالوا: إن العاصي لا يخرج من الإيمان لمجرد المعصية، وهو تحت المشيئة إن شاء الله عفا عنه وإن شاء عذبه في النار، لكنه لا يخلد فيها كما تقول الخوارج والمعتزلة، والمعاصي تنقص الإيمان ويستحق صاحبها دخول النار إلا أن يعفو الله عنه، ومرتكب الكبيرة يكون فاسقًا ناقص الإيمان، لا كما تقول المرجئة: إنه كامل الإيمان، والله تعالى أعلم.

خامسًا: وأهل السنة والجماعة وسط في حق (أصحاب رسول الله ﷺ بين الرافضة والخوارج) : الصحابي: هو من لقي النبي ﷺ مؤمنًا به ومات على ذلك.

و (الرافضة): اسم مأخوذ من الرفض، وهو الترك، سموا بذلك؛ لأنهم قالوا لزيد بن علي بن الحسين: تبرأ من الشيخين أبي بكر و عمر، فأبى، وقال: معاذ الله، فرفضوه، فسموا رافضة.

ومذهبهم في صحابة رسول الله ﷺ: أنهم غلوا في عليٍّ رضي الله عنه وأهل البيت، وفضلوهم على غيرهم، ونصبوا العداوة لبقية الصحابة، خصوصًا الخلفاء الثلاثة: أبا بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم، وسبوهم ولعنوهم، وربما كفروهم أو كفَّروا بعضهم، وقابلهم الخوارج فكفروا عليًّا رضي الله عنه وكفَّروا معه كثيراً من الصحابة وقاتلوهم واستحلوا دماءهم وأموالهم.

وأهل السنة والجماعة خالفوا الجميع، فوالوا جميع الصحابة، ولم يغلوا في أحد منهم، واعترفوا بفضل جميع الصحابة، وأنهم أفضل هذه الأمة بعد نبيها. ويأتي لهذا مزيد بيان.

* * *

[أسئلة وأجوبة نموذجية على أهل السنة والجماعة وسط بين الفرق في باب أفعال الله وباب الوعيد وباب أسماء الإيمان وفي أصحاب رسول الله ﷺ]

● قال الشيخ عبد العزيز المحمد السلمان:

س ـ ما هي أصول فرق المبتدعة، وما معنى كون أهل السنة وسطًا في فرق الأمة، وضح ذلك؟

ج ـ الشيعة والجهمية والخوارج والقدرية والمرجئة والجبرية والمعتزلة.

ومعنى أن أهل السنة وسط بين الطرفين المنحرفين بين الأمم التي تجنح إلى الغلو الضار كالنصارى الذين غلوا في عيسى عليه السلام وقالوا: إن الله هو المسيح ابن مريم، وقالوا: المسيح ابن الله، وقالوا: ثالث ثلاثة، وغلوا في الرهبان كما أخبر الله عنهم بقوله: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾.

والقسم الثاني: جفوا الأنبياء وأتباعهم وقتلوهم وردوا دعواتهم، كاليهود الذين قتلوا زكريا ويحيى، وحاولوا قتل المسيح ورموه وأمه بالعظائم فجعلوها زانية وقد حملت بولد من ذلك قال الله تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ وقال: ﴿وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾.

وأما هذه الأمة فوحدت الله ووصفته بصفات الكمال، ونزهته عن جميع صفات النقص، ونزهته عن أن يماثله شيء من المخلوقات، وآمنت بكل رسول أرسله الله، واعتقدت رسالتهم، وعرفت لهم مقاماتهم الرفيعة التي فضلهم الله بها، فهذه الأمة أفضل الأمم على الإطلاق، كما قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾.

س ـ كيف كان أهل السنة وسطًا بين أهل التعطيل الجهمية وأهل التمثيل المشبهة، في باب صفات الله سبحانه وتعالى، وضح ذلك؟

ج ـ وجه ذلك أن المعطل من ينفي صفات الله أو بعضها، وينكر قيامها بذات الله المقدسة، فهو بالحقيقة مقصر عن أهل السنة، ويقال له: جافي.

وأما المشبه فهو من يشبهها بصفات المخلوقين، أو يشبه بعض الصفات بصفات المخلوق فهو غال متجاوز للحد.

وأما أهل السنة فيما بين ذلك على صراط مستقيم يثبتون لله ما أثبته لنفسه، أو أثبته له رسول الله ﷺ إثباتًا بلا تمثيل، وينزهونه عن مشابهة المخلوقين تنزيهًا بلا تعطيل.

فهم جمعوا بين التنزيه والإثبات على حد قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ وتقدم الكلام على هذه الآية.

س ـ كيف كان أهل السنة وسطًا في باب أفعال الله بين الجبرية والقدرية، ومن الذي تتبعه الجبرية، والذي تتبعه القدرية؟ واذكر أمثلة توضح ذلك؟

ج - وجه ذلك أن الجبرية الذين هم أتباع الجهم بن صفوان الترمذي زعيم المعطلة، مذهبهم أن العبد مجبور على فعله، وحركاته وأفعاله اضطرارية كحركة المرتعش والعروق النابضة كحركات الأشجار في مهب الريح، وإضافتها إلى الخلق عندهم مجاز، وإنما الله هو فاعل تلك الأفعال فهي فعله حقيقة لا أفعالهم، والعبد ليس له قدرة ولا إرادة ولا فعل له البتة، وإلى مذهبهم أشار ابن القيم ـ رحمه الله:

والعبد عندهم فليس بفاعل ... بل فعله كتحرك الرجفان

وهبوب ريح أو تحرك نائم ... وتحرك الأشجار للميلان

والله يصليه على ما ليس من ... أفعاله حر الحميم الآن

إلى أن قال:

لكنهم حملوا ذنوبهم على ... رب العباد بعزة وأمان

وتبرءوا منها وقالوا إنها ... أفعاله ما حيلة الإنسان

ما كلف الجبار نفسًا وسعها ... أنى وقد جبرت على العصيان

وكذلك الطاعات أيضًا قد غدت ... مجبورة فلها إذًا جبران

والعبد في التحقيق شبه نعامة ... قد كلفت بالحمل والطيران

إذ كان صورتها تدل عليهما ... هذا وليس لها بذاك يدان

فلذاك قال بأن طاعات الورى ... وجميع ما فعلوه من عصيان

هي عين فعل الرب لا أفعالهم ... فيصح عنهم عند ذا نفيان

نفي لقدرتهم عليها أولاً ... وصدورها عنهم بنفي ثان

فيقال ما صلوا ولا صاموا ولا ... زكوا ولا ذبحوا من القربان

وكذاك ما شربوا وما قتلوا وما ... سرقوا ولا فيهم غوي زان

وكذاك لم يأتوا اختيارًا منهم ... بالكفر والإسلام والإيمان

إلا على وجه المجاز لأنها ... قامت بهم كالطعم والألوان

جبروا على ما شاءه خلاّقهم ... ما ثم ذو عونٍ وغير معان

الكل مجبور وغير ميسر ... كالميّت أدرج داخل الأكفان

ولا شك في فساد هذا المذهب، وأدلة الكتاب والسنة بل والعقل متواطئة على رده وإبطاله وكل من له أدنى عقل يعرف فساد مذهبهم.

والجبرية سموا جبرية لأنهم يقولون إنا مجبورون على أفعالنا فغلوا في إثبات القدر.

وأما القدرية فهم أتباع معبد الجهني، لأنه أول من تكلم بالقدر، وحقيقة مذهبهم أنهم يقولون: إن أفعال العباد وطاعاتهم ومعاصيهم لم تدخل تحت قضاء الله وقدره فأثبتوا قدرة الله على أعيان المخلوقين وأوصافهم، ونفوا قدرة الله على أفعال المكلفين.

وقالوا: لم يردها ولم يشأها منهم وهم الذين أرادوها وشاءوها وفعلوها استقلالاً وأنكروا أن يضل من يشاء، ويهدي من يشاء، فأثبتوا خالقًا مع الله، ولهذا سموا

مجوس هذه الأمة. وهم الذين ورد فيهم الحديث: أنهم مجوس هذه الأمة ويقال لهم: القدرية النفاة، ومذهبهم باطل لأنه إشراك في الربوبية.

وأما أهل السنة والجماعة فأثبتوا أن العباد فاعلون حقيقة وأن أفعالهم تنسب إليهم على جهة الحقيقة لا على جهة المجاز وأن الله خالقهم وخالق أفعالهم.

قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ وقال: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً﴾ وأهل السنة أثبتوا للعبد مشيئة واختياراً تابعين لمشيئة الله، قال تعالى: ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

قال السفاريني:

أفعالنا مخلوقة لله ... لكنها كسب لنا يا لاهي
وكل ما يفعله العباد ... من طاعة أو ضدها مراد
لربنا من غير ما اضطرار ... منه لنا فافهم ولا تماري

س ـ كيف كان أهل السنة وسطًا في باب وعيد الله، بين المرجئة والوعيدية من القدرية؟ وضح ذلك.

ج ـ المرجئة: نسبة إلى الإرجاء لأنهم أخروا الأعمال عن الإيمان حيث زعموا أن مرتكب الكبيرة غير فاسق، وقالوا: لا يضر مع الإيمان ذنب، كما لا ينفع مع الكفر طاعة.

وعندهم أن الأعمال ليست داخلة في مسمى الإيمان، وأن الإيمان لا يتبعض، وأن مرتكب الكبيرة كامل الإيمان غير معرض للوعيد، ومذهبهم باطل ترده أدلة الكتاب والسنة.

وأما الوعيدية فهم القائلون: بإنفاذ الوعيد، وأن مرتكب الكبيرة إذا مات ولم يتب منها فهو خالد مخلد في النار، وهو أصل من أصول المعتزلة، وبه تقول الخوارج قالوا: لأن الله لا يخلف الميعاد، وقد توعد سبحانه العاصين بالعقوبة. فلو قيل إن المتوعد بالنار لا يدخلها لكان تكذيبًا لخبر الله.

وأهل السنة توسطوا في ذلك فقالوا: إن مرتكب الكبيرة ناقص الإيمان آثم وهو

معرض نفسه للعقوبة وهو تحت مشيئة الله إذا مات من غير توبة إن شاء الله عفا عنه، وإن شاء عذبه بقدر ذنوبه في النار.

ولكنه لا يخلد في النار بل يخرج بعد التطهير والتمحيص من الذنوب والمعاصي إما بشفاعة وإما بفضل الله ورحمته، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾.

س ـ ما المراد بأسماء الدِّين والأحكام ومن رئيس الجهمية والمرجئة؟

ج ـ المراد مثل: مؤمن، مسلم، كافر، فاسق، والمراد بالأحكام: أحكام هؤلاء في الدنيا والآخرة، ورئيس الجهمية والمرجئة والجبرية: الجهم بن صفوان الترمذي الذي ابتدع التعطيل والجبر والإرجاء، وتقدم لهذا البحث طرف في جواب سؤال .

س ـ من هم الحرورية ولماذا سموا بذلك، ومن هم المعتزلة؟ ولماذا سموا بذلك، ومن زعيمهم الذي تتبعه المعتزلة؟

ج ـ الحرورية هم الخوارج، سموا بذلك نسبة إلىٰ قرية قرب الكوفة يقال لها حروراء ـ بالمد والقصر ـ اجتمع فيها الخوارج حين خرجوا علىٰ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

وأما المعتزلة فهم أتباع عمرو بن عبيد وواصل بن عطاء وأصحابهما، سموا بذلك لما اعتزلوا الجماعة بعد موت الحسن البصري رحمه الله وذلك في أوائل المائة الثانية، وكانوا يجلسون معتزلين فيقول قتادة وغيره: أولئك المعتزلة.

ويقال: إن واصل بن عطاء هو الذي وضع أصول المعتزلة وتابعه عمرو بن عبيد تلميذ الحسن البصري، فلما كان زمن هارون الرشيد صنف لهم أبو الهذيل كتابين وبنىٰ مذهبهم علىٰ الأصول الخمسة التي سموها: العدل، والتوحيد، وانفاذ الوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولبسوا فيها الحق بالباطل.

س ـ كيف كان أهل السنة وسطًا في باب أسماء الدين والإيمان بين الحرورية والمعتزلة وبين المرجئة والجهمية؟

ج ـ وجه ذلك أن كلا من الخوارج والمعتزلة يرىٰ أن الدين والإيمان قول وعمل

واعتقاد ولكن لا يزيد ولا ينقص ومن أتى كبيرة كفر عند الحرورية وصار فاسقًا وعند المعتزلة في منزلة بين منزلتين لا مؤمن ولا كافر.

واتفق الفريقان على حكمهم في الآخرة، فعندهم أن من أتى كبيرة فهو خالد مخلد في النار، لا يخرج منها لا بشفاعة ولا بغير شفاعة.

وعند الخوارج: أن من أتى كبيرة أنه مباح الدم والمال في الدنيا، فوقع الاتفاق بينهما في أمرين ووقع الخلاف بينهما في موضعين.

وأما المرجئة فيقولون: الإيمان مجرد التصديق بالقلب والقول، أو أنه قول فقط، قال ابن لقيم رحمه الله:

وكذلك الإرجاء حين تقر بالمـ ... ـعبود تصبح كامل الإيمان

وعند الجهمية أن الإيمان مجرد المعرفة، والأعمال ليست من الإيمان فإيمان أفسق الناس كإيمان أكمل الناس، ويقولون: لا يضر مع الإيمان معصية، قال ابن القيم رحمه الله حاكيًا مذهبهم في الإيمان:

قالوا وإقرار العباد بأنه ... خلاقهم هو منتهى الإيمان

والناس في الإيمان شيء واحد ... كالمشط عند تماثل الأسنان

وأما أهل السنة فقالوا: الإيمان قول باللسان واعتقاد بالجنان وعمل بالأركان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية.

وعندهم أن من أتى كبيرة يسمى مؤمنًا ناقص الإيمان وبعبارة أخرى مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته، وفي الآخرة تحت مشيئة الله إن شاء غفر له، وأدخله الجنة لأول مرة وإن شاء عذبه بقدر ذنوبه وبعد التطهير من الذنوب مآله إلى الجنة.

س ـ كيف كان أهل السنة وسطًا في أصحاب رسول الله ﷺ بين الرافضة والخوارج، ومن الرافضة، ولماذا سموا بذلك وما الواجب فعله مع أهل البدع وكتبهم، ومن هو المبتدع وما الذي يعتمد عليه أهل البدع؟

ج ـ الرافضة هم الذين غلوا في أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ وغلوا في أهل البيت ونصبوا العداوة لجمهور الصحابة كالثلاثة وكفروهم ومن

والاهم، وقالوا: لا ولاء إلا ببراء أي لا يتولى أحد عليًّا حتى يتبرأ من أبي بكر وعمر.

وكفَّروا من قاتل عليًّا وقالوا: إن عليًّا إمام معصوم، وسبب تسمية الشيعة بالرافضة أنهم رفضوا زيد بن علي بن الحسين وارفضوا عنه حينما قالوا له: تبرأ من الشيخين أبي بكر وعمر - رضي الله عنهما - فقال: معاذ الله وزيرا جدي، فتركوه فسمّوا الرافضة.

وأما الزيدية فقالوا: نتولاهما ونبرأ ممن تبرأ منهما فخرجوا مع زيد فسموا الزيدية. وأما الخوارج فهم الذين خرجوا على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وفارقوه بسبب التحكيم وكانوا اثني عشر ألفًا فأرسل إليهم عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - فجادلهم ووعظهم فرجع بعضهم وأصر بعضهم على المخالفة له.

ثم إنهم أعلنوا الفرقة وأخذوا في نهب من لم ير رأيهم وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «تمرق مارقه على حين فرقة من المسلمين تقتلها أولى الطائفتين بالحق» فقتلهم عليّ وطائفته فهم والرافضة في طرفي نقيض لأن الرافضة غلوا في عليّ وأهل البيت وأما الخوارج فكفروا عليًا وعثمان ومن والاهما، قال القحطاني رحمه الله:

واحفظ لأهل البيت واجب حقهم ... واعرف عليًا أيما عرفان

لا تنقصْه ولا تزد في قدره ... فعليه تصلى النار طائفتان

إحداهما لا ترتضيه خليفة ... وتنصه الأخرى إلهًا ثان

وأما أهل السنة والجماعة فكانوا وسطًا بين غلو الرافضة وجفاء الخوارج وتقصيرهم فهداهم الله لموالاة الجميع ومحبتهم وعرفوا لكلٍّ حقه وفضله، ورأوا: أنهم أكمل هذه الأمة إسلامًا وإيمانًا وعلمًا وحكمة، وأنزلوهم منازلهم وبهذا يتبين توسطهم بين هاتين الفرقتين الظالمتين.

«فصل»

ويجب هجران أهل البدع ومباينتهم، وترك الجدال والخصومات في الدين وترك النظر في كتب المبتدعة، والإصغاء إلى كلامهم، وكل محدثة في الدين بدعة، وكل متسمٍّ بغير الإسلام والسنة مبتدع.

قال الشيخ رحمه الله: وأهل البدع لا يعتمدون على الكتاب والسنة وآثار السلف من الصحابة والتابعين وإنما يعتمدون على العقل واللغة وتجدهم لا يعتمدون على كتب التفسير المأثورة وإنما يعتمدون على كتب الأدب وكتب الكلام التي وضعتها رؤساؤهم.

وهذه طريقة الملاحدة أيضًا إنما يأخذون ما في كتب الفلسفة وكتب الأدب واللغة وأما كتب القرآن والحديث والآثار فلا يلتفتون إليها. هؤلاء يعرضون عن نصوص الأنبياء إذ هي عندهم لا تفيد العلم وأولئك يتأولون القرآن برأيهم وفهمهم بلا آثار عن النبي ﷺ وأصحابه: قال أحمد: أكثر ما يخطئ الناس من جهة التأويل والقياس، وإذا تدبرت حجج أهل الباطل رأيتها دعاوي لا يقوم عليها دليل.

* * *

فَصْلٌ

وَقَدْ دَخَلَ فيما ذَكَرْناهُ منَ الإيمان باللَّه:

الإيمانُ بما أخْبَرَ اللَّهُ بِهِ في كِتابِهِ، وتَواتَرَ عَنْ رَسولِهِ وأَجْمَعَ عَلَيْهِ سَلَفُ الأمَّة:

منْ أَنَّه سُبْحانَهُ فَوْقَ سَماوَاته عَلَى عرشه، بائنٌ عَلَى خَلْقه. وَهُوَ سُبْحَانَهُ مَعَهُمْ أَيْنَما كانُوا؛ يَعْلَمُ ما هُمْ عاملونَ. كَمَا جَمَعَ بَيْنَ ذَلكَ في قَوْله: ﴿هُوَ الَّذي خَلَقَ السَّموَات وَالأَرْضَ في ستَّة أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ في الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ منْهَا وَمَا ينزلُ من السَّماءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤].

وَلَيْس مَعْنى قَوْله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ أَنَّهُ مُخْتَلطٌ بالخَلْق؛ فإنَّ هذا لا تُوجِّهُهُ اللُّغَةُ، بَلِ القَمَرُ آيَةٌ منْ آيات اللَّه، منْ أَصْغَرِ مَخْلوقاته، وهُوَ مَوْضوعٌ في السَّماء، وَهُوَ مَعَ الْمُسَافرِ وغَيرِ الْمُسَافر أَيْنَمَا كَانَ.

وَهُوَ سُبْحَانَهُ فَوْق عرشه، رَقيبٌ عَلَى خَلْقه، مُهَيْمنٌ عَلَيْهم مُطَّلِعٌ عَلَيهم؛ إلى غَيْرِ ذَلكَ من مَعَاني رُبُوبيَّته.

وَكُلُّ هَذَا الكَلامِ الَّذي ذَكَرَهُ اللَّهُ؛ ـ منْ أَنَّه فَوْقَ العَرْش، وأَنَّهُ مَعَنا ـ؛ حَقٌّ على حَقيقَته، لا يَحْتاجُ إلى تَحْريف، ولَكن يُصَانُ عَن الظُّنُونِ الكَاذبَة. مثل أن يُظَنَّ ظَاهِرَ قولِه (في السَّمَاء) أن السَّماءَ تُظلُّهُ

أو تُقلَّهُ، وهذا باطلٌ بإجماع أهل العلمِ والإيمان، فإن الله قد وَسِع كُرسيُّهُ السماوات والأرض وهو يُمسكُ السماواتِ والأرضَ أن نزولا، ويُمسكُ السماءَ أن تَقعَ على الأرضِ إلا بإذنه ومن آياتهِ أن تقُومَ السَّماءُ والأرضُ بأمرِهِ.

• الشَّرح •

• قال العلامة ناصر السعدي:

صرَّح المُصنِّف رحمه اللَّه في هذا الفَصْل بمَسْألة العُلو للَّه واستِوائه على عَرْشِه، وأن ذلك دَاخِلٌ في الإيمان باللَّه، وذلك لما حصل في هذه المسألة من القلقل والمُخاصمات الطَّويلة بين «أهل السُّنة والجَماعة» وبين طوائف «الجهمية» و«المعتزلة»، ومن تَبِعَهم في هذه المسألة من «الأشعرية» ونحوهم.

فإن مسألة العُلُوِّ صُنِّفت فيها المُصنفات المستقلة. وأورد فيها «أهل السُّنة» من نصُوص الكتاب والسُّنة ما لا يمكن دفعه أو دفع بعضه، وحقّقوا ذلك أيضًا بالعقل الصَّحيح وأن الفِطَرَ والعُقول مُعْترفة بل ومضطرة إلى الإيمان بعلوا اللَّه، إلاَّ من غَيَّرت فطرته العقائد الباطلة.

وقد بيَّن المُصنِّف في هذا الموضوع الجمع بين الإيمان بِعُلو اللَّه وإثبات مَعيَّته وعِلْمه المحيط، وحَقَّقه بكلام واضح مبين بالأمثلة المُقَرِّبة للمعاني بما لا مزيد عليه.

• قال الشيخ محمد خليل هراس:

قوله: «وقد دخل فيما ذكرناه من الإيمان إلخ»: صرح المؤلف هنا بمسألة علو الله تعالى واستوائه على عرشه بائنًا من خلقه كما أخبر الله عن ذلك في كتابه وكما تواتر الخبر بذلك عن رسوله وكما أجمع عليه سلف الأمة الذين هم أكملها علمًا وإيمانًا، مؤكدًا بذلك ما سبق أن ذكره في هذا الصدد ومشددًا النكير على من أنكر ذلك من

الجهمية والمعتزلة ومن تبعهم من الأشاعرة.

ثم بين أن استواءه على عرشه لا ينافي معيته وقربه من خلقه، فإن المعية ليس معناها الاختلاط والمجاورة الحسية، وضرب لذلك مثلاً بالقمر الذي هو موضوع في السماء وهو مع المسافر وغيره أينما كان بظهوره واتصال نوره، فإذا جاز هذا بالنسبة للقمر وهو من أصغر مخلوقات الله أفلا يجوز بالنسبة إلى اللطيف الخبير الذي أحاط بعباده علمًا وقدرة والذي هو شهيد مطلع عليهم يسمعهم ويراهم ويعلم سرهم ونجواهم، بل العالم كله سمواته وأرضه من العرش إلى الفرش كله بين يديه سبحانه كأنه بندقة في يد أحدنا، أفلا يجوز لمن هذا شأنه أن يقال إنه مع خلقه مع كونه عاليًا عليهم بائنًا منهم فوق عرشه؟ بلى يجب الإيمان بكل من علوه تعالى ومعيته، واعتقاده أن ذلك كله حق على حقيقته من غير أن يساء فهم ذلك أو يحمل على معان فاسدة كأن يفهم من قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ معية الاختلاط والامتزاج كما يزعمه الحلولية، أو يفهم من قوله: ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ أن السماء ظرف حاو له محيط به.

كيف وقد وسع كرسيه السموات والأرض جميعًا؟ وهو الذي يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه، فسبحان من لا يبلغه وهم الواهمين، ولا يدركه أفهام العالمين.

● قال الشيخ ابن عثيمين:

سبق أن مما يدخل في الإيمان بالله: الإيمان بأسمائه وصفاته، ومن ذلك الإيمان بعلو الله واستوائه على عرشه، والإيمان بمعيته، وفي هذا الفصل بين المؤلف - رحمه الله - الجمع بين العلو والمعية؛ فقال:

«وقد دخل فيما ذكرناه من الإيمان بالله: الإيمان بما أخبر الله به في كتابه، وتواتر عن رسوله ﷺ، وأجمع عليه سلف الأمة من أنه سبحانه فوق سماواته على عرشه عليٌّ على خلقه».

هذه ثلاثة أدلة على علو الله تعالى: الكتاب، والسنة، والإجماع.

ومر علينا دليل رابع وخامس، وهما العقل والفطرة.

«من أنه سبحانه فوق سماواته على عرشه بائن من خلقه»: تقدم لنا أن علو الله عز وجل نوعان علو صفة، وعلو ذات، وأن علو الذات دل عليه الكتاب والسنة

والإجماع والعقل والفطرة، وكذلك علو الصفة.

فالكتاب مملوء من ذلك: تارة بالتصريح بالفوقية، وتارة بالتصريح بالعلو، وتارة بالتصريح بأنه في السماء، وتارة بنزول الأشياء من عنده، وتارة بصعودها إليه، ونحو ذلك.

والسنة جاءت بالقول والفعل والإقرار، وسبق ذكر ذلك.

أما الإجماع؛ فقد أجمع السلف على ذلك، وطريق العلم بإجماعهم عدم نقل ضد ما جاء في الكتاب والسنة؛ فإنهم كانوا يقرؤون القرآن وينقلون الأخبار ويعلمون معانيها، ولما لم ينقل عنهم ما يخالف ظاهرها؛ علم أنهم لا يعتقدون سواه، وأنهم مجمعون على ذلك. وهذا طريق حسن لإثبات إجماعهم، فاستمسك به ينفعك في مواطن كثيرة.

وأما العقل؛ فمن وجهين:

الوجه الأول: أن العلو صفة كمال، والله تعالى قد ثبت له كل صفات الكمال، فوجب إثبات العلو له سبحانه.

الوجه الثاني: إذا لم يكن عاليًا؛ فإما أن يكون تحت أو مساويًا، وهذا صفة نقص؛ لأنه يستلزم أن تكون الأشياء فوقه أو مثله؛ فلزم ثبوت العلو له.

أما الفطرة: فلا أحد ينكرها؛ إلا من انحرفت فطرته؛ فكل إنسان يقول: يا الله! يتجه قلبه إلى السماء، لا ينصرف عنه يمنة ولا يسرة، لأن الله تعالى في السماء.

قوله: «وهو سبحانه معهم أينما كانوا؛ يعلم ما هم عاملون».

وهذا من الإيمان بالله، وهو الإيمان بمعيته لخلقه.

وقد سبق أن معية الله تنقسم إلى عامة وخاصة وخاصة الخاصة.

فالعامة: التي تشمل كل أحد من مؤمن وكافر وبر وفاجر، ومثالها قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤].

- والخاصة: مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

ـ والتي أخص: مثل قوله تعالى لموسى وهارون: ﴿قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٦]، وقوله عن رسوله محمد ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

وسبق أن هذه المعية حقيقية، وأن من مقتضى المعية العامة العلم والسمع والبصر والقدرة والسلطان وغير ذلك، ومن مقتضى الخاصة النصر والتأييد.

قوله: «كما جمع بين ذلك في قوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤]».

قوله: «بين ذلك»: أي: بين العلو والمعية.

ففي قوله: «﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾»: إثبات العلو.

وفي قوله: «﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾»: إثبات المعية، فجمع بينهما في آية واحدة، ولا منافاة بينهما كما سبق ويأتي.

ووجه الجمع من وجوه ثلاثة:

الأول: أنه ذكر استواءه على العرش، ثم قال: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾، وإذا جمع الله لنفسه بين وصفين؛ فإننا نعلم علم اليقين أنهما لا يتناقضان؛ لأنهما لو تناقضا؛ لاستحال اجتماعهما؛ إذ المتناقضين لا يجتمعان ولا يرتفعان؛ فلا بد من وجود أحدهما وانتفاء الثاني، ولو كان هناك تناقض؛ لزم أن يكون أول الآية مكذبًا لآخرها أو بالعكس.

الثاني: أنه قد يجتمع العلو والمعية في المخلوقات؛ كما سيذكره المؤلف ـ رحمه الله في قول الناس: ما زلنا نسير والقمر معنا.

الثالث: لو فرض تعارضهما بالنسبة للمخلوق؛ لم يلزم ذلك بالنسبة للخالق؛ لأن الله ليس كمثله شيء.

قوله: «وليس معنى قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾: أنه مختلط بالخلق».

لأن هذا المعنى نقص، وقد سبق أنه لو كان هذا هو المعنى؛ لزم أحد أمرين: إما تعدد الخالق، أو تجزؤه؛ مع ما في ذلك أيضًا من كون الأشياء تحيط به، وهو سبحانه

محيط بالأشياء.

قوله: «فإن هذا لا توجبه اللغة».

يعني: وإذا كانت اللغة لا توجبه؛ لم يتعين، وهذا أحد الوجوه الدالة على بطلان مذهب الحلولية من الجهمية وغيرهم؛ القائلين بأن الله مع خلقه مختلطًا بهم.

ولم يقل: لا تقتضيه اللغة؛ لأن اللغة قد تقتضيه، وفرق بين كون اللغة تقتضي ذلك وبين كونها توجب ذلك.

فالمعية في اللغة قد تقتضي الاختلاط؛ مثل الماء واللبن؛ تقول: ماء مع لبن مخلوطًا.

قوله: «وهو خلاف ما أجمع عليه سلف الأمة، وخلاف ما فطر الله عليه الخلق».

وذلك لأن الإنسان مفطور على أن الخالق بائن من المخلوق، ليس أحد إذا قال: يا الله! إلا ويعتقد أن الله تعالى بائن من خلقه، لا يعتقد أنه حالٌ في خلقه؛ فدعوى أنه مختلط بالخلق مخالف للشرع ومخالف للعقل ومخالف للفطرة.

قوله: «بل القمر آية من آيات الله من أصغر مخلوقاته، وهو موضوع في السماء، وهو مع المسافر وغير المسافر أينما كان».

«بل»: للإضراب الانتقالي.

وهذا مثل ضربه المؤلف - رحمه الله - تقريبًا للمعنى وتحقيقًا لصحة كون الشيء مع الإنسان حقيقة مع تباعد ما بينهما، وذلك أن القمر من أصغر المخلوقات، وهو في السماء، ومع المسافر وغيره أينما كان.

فإذا كان هذا المخلوق، وهو من أصغر المخلوقات؛ نقول: إنه معنا، وهو في السماء. ولا يعد ذلك تناقضًا، ولا يقتضي اختلاطًا؛ فلماذا لا يصح أن نجري آيات المعية على ظاهرها، ونقول: هو معنا حقيقة، وإن كان هو في السماء فوق كل شيء؟!

وكما قلنا سابقًا: لو فرض أن هذا ممتنع في الخلق؛ لكان في الخالق غير ممتنع؛

فالرب عز وجل هو في السماء حقيقة، وهو معنا حقيقة، ولا تناقض في ذلك، حتىٰ وإن كان بعيداً عز وجل في علوه، فإنه قريب في علوه.

وهذا الذي حققه شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ في كتبه، وقال: إنه لا حاجة إلىٰ أن نئوِّل الآية، بل الآية علىٰ ظاهرها، لكن مع اعتقادنا بأن الله تعالىٰ في السماء علىٰ عرشه؛ فهو معنا حقًا، وهو علىٰ عرشه حقًّا؛ كما نقول: إنه ينزل إلىٰ السماء الدنيا حقًّا، وهو في العلو، ولا أحد من أهل السنة ينكر هذا أبداً؛ كل أهل السنة يقولون: هو ينزل حقًّا، متفقون علىٰ أنه في العلو؛ لأن صفات الخالق ليست مثل صفات المخلوق.

وقد عثرت علىٰ تقرير للشيخ محمد بن إبراهيم ـ رحمه الله ـ يبين هذا المعنىٰ تماماً؛ أي أن المعية حق علىٰ حقيقتها، ولا تستلزم أن يكون مختلطًا بالخلق، أو أنه في الأرض؛ قال جوابًا علىٰ قول بعض السلف: «معهم بعلمه»:

«إذا جاءت هذه الكلمة؛ فهي تفسير للمعية بالمقتضىٰ، ليس تفسيراً لحقيقة الكلمة، والذي يحمل ويحدو علىٰ التفسير بهذا أن المنازع في هذا المبتدعة الذين يقولون: إنه مختلط بهم، فيأتي البعض من السلف بالمراد بالسياق، وهو أنه بكمال علمه، ولكن لا يريدون أن كلمة (مع) مدلولها بكل شيء عليم، بل اجتمعت معها في العلم، وزادت المعية في المعنىٰ، وهو كونه معهم؛ فتفسيرها بالمقتضىٰ لا يدل علىٰ أن معناها باطل؛ فالكل حق...».

إلى أن قال: «ولهذا؛ شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ في عقيدته الأخرىٰ المباركة المختصرة؛ بين أن قوله معهم حق علىٰ حقيقته؛ فمن فسرها من السلف بالمقتضىٰ؛ فلحاجة دعت إلىٰ ذلك وهو الرد علىٰ أهل الحلول الجهمية الذين ينكرون العلو كما تقدم، والقرآن يفسر بالمطابقة وبالمفهوم وبالاستلزام والمقتضىٰ وغير ذلك من الدلالات، وهؤلاء العلماء الذين روىٰ عنهم التفسير بالمقتضىٰ لا ينكرون المعية، بل هي عندهم كالشمس». اهـ. من «الفتاوىٰ»؛ تقريراً علىٰ الحموية.

سؤال: هل يصح أن نقول: هو معنا بذاته؟

الجواب: هذا اللفظ يجب أن يبعد عنه؛ لأنه يوهم معنىً فاسداً يحتج به من يقول

بالحلول، ولا حاجة إليه؛ لأن الأصل أن كل شيء أضافه الله إلى نفسه؛ فهو له نفسه؛ ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: ٢٢]؛ هل يحتاج أن نقول: جاء بذاته؟! وإلى قوله ﷺ: «**ينزل ربنا إلى السماء الدنيا**»[١]؛ هل يحتاج أن نقول: ينزل بذاته؟! إننا لا نحتاج إلى ذلك؛ اللهم إلا في مجادلة من يدعي أنه جاء أمره أو ينزل أمره؛ لرد تحريفه.

قوله: «**وهو سبحانه فوق عرشه، رقيب على خلقه، مهيمن عليهم، مطلع عليهم**».

يقول ـ رحمه الله ـ: «**وهو سبحانه فوق عرشه**»: مع أنه مع الخلق، لكنه فوق عرشه.

«**رقيب على خلقه**»: يعني: مراقبًا حافظًا لأقوالهم وأفعالهم وحركاتهم وسكناتهم.

«**مهيمن عليهم**»: أي: حاكم مسيطر على عباده؛ فله الحكم، وإليه يرجع الأمر كله، وأمره إذا أراد شيئًا أن يقول له: كن! فيكون.

قوله: «**إلى غير ذلك من معاني ربوبيته**»؛ يعني بذلك ما تضمنه معنى الربوبية من ملك وسلطان وتدبير وغير ذلك؛ فإن معاني الربوبية كثيرة؛ لأن الرب هو الخالق المالك المدبر، وهذه تحمل معاني كثيرة جدًا.

قوله: «**وكل هذا الكلام الذي ذكره الله من أنه فوق العرش وأنه معنا: حق على حقيقته، لا يحتاج إلى تحريف**».

هذه الجملة تأكيد لما سبق، وإنما كرر معنى ما سبق لأهمية الموضوع؛ فبين رحمه الله أن ما ذكره الله من كونه فوق العرش حق على حقيقته، وكذلك ما ذكره من كونه معنا حق على حقيقته، لا يحتاج إلى تحريف.

يعني: لا يحتاج أن نصرف معنى الفوقية إلى فوقية القدر كما ادعاه أهل التحريف والتعطيل، بل هي فوقية ذات وقدر؛ كما لا يحتاج أن نصرف معنى المعية عن

---

(١) سبق تخريجه.

ظاهرها، بل نقول: هي حق على ظاهرها، ومن فسرها بغير حقيقتها؛ فهو محرف؛ لكن ما ورد من تفسيرها بلازمها ومقتضاها، وارد عن السلف لحاجة دعت إلى ذلك؛ وهو لا ينافي الحقيقة؛ لأن اللازم الحق حق.

ثم استدرك المؤلف ـ رحمه الله ـ فقال: ولكن يصان عن الظنون الكاذبة ـ «مثل أن يظن أن ظاهر قوله: ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ [الملك: ١٧]: أن السماء تُقله أو تظله، وهذا باطل بإجماع أهل العلم والإيمان».

الظنون الكاذبة هي الأوهام التي ليس لها أساس من الصحة؛ فيجب أن يصان عنها كلام الله تعالى ورسوله ﷺ.

مثل ذلك أن يُظن أن ظاهر قوله: ﴿فِي السَّمَاءِ﴾؛ أن السماء تُقله؛ أي: تحمله كما يحمل سقف البيت من كان على ظهره.

«أو تُظِلُّه»: يعني: تكون فَوقه؛ كالسقف على الإنسان

إذا ظن الإنسان هذا؛ فهو ظن كاذب، يجب صون الأدلة الدالة على أن الله في السماء عن ذلك.

قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: «وهذا باطل بإجماع أهل العلم والإيمان».

تنبيه:

قد يقول قائل: كان على المؤلف ـ رحمه الله ـ أن يقول: ومثل أن يظن أن ظاهر قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ [الحديد: ٤]؛ أنه مختلط بالخلق؛ لأن هذا الظن كاذب أيضًا.

وجوابه أن نقول: إن المؤلف ـ رحمه الله ـ ذكر ذلك سابقًا في قوله: «وليس معنى قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ [الحديد: ٤]؛ أنه مختلط بالخلق».

قوله: «فإن الله قد ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]».

«الكرسي»: كما يروى عن ابن عباس: موضع القدمين[1].

﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ﴾: يعني: أحاط بالسماوات والأرض؛

(١) سبق تخريجه.

السماوات السبع والأرضين السبع.

فكيف يظن ظان أن السماء تظل الله أو تقله؟!

فإذا كان قد وسع كرسيه السماوات والأرض؛ فلا يظن أحد أبداً هذا الظن الكاذب، وهو أن السماء تقله أو تظله.

قوله: «وهو الذي ﴿يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا﴾ [فاطر: ٤١]».

يمسكهما أن تزولا عن أماكنهما، ولولا إمساك الله لهما؛ لاضطربتا ومادتا وزالتا، ولكن الله عز وجل بقدرته وقوته يمسك السماوات والأرض أن تزولا، بل قال تعالى: ﴿وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ﴾ [فاطر: ٤١]؛ ما أمسكهما أحد بعد الله أبداً.

لو تزول نجمة من النجوم؛ لا يستطيع أحد أن يمسكها؛ فكيف لو زالت السماوات والأرض؟! ما يمسكهما إلا الله الذي خلقهما، الذي يقول للشيء: كن فيكون. سبحانه وتعالى، بيده ملكوت السماوات والأرض.

قوله: «﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلا بِإِذْنِهِ﴾ [الحج: ٦٥]».

السماء فوق الأرض، ووالله؛ لولا إمساك الله لها؛ لوقعت على الأرض؛ لأنها أجرام عظيمة؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢]، وقال ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧] فلولا أن الله يمسكها؛ لوقعت على الأرض، وإذا وقعت على الأرض؛ أتلفتها.

فالذي يمسك السماوات والأرض أن تزولا، ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه؛ هل يتصور متصور أن السماء تقله أو تظله؟!.

لا أحد يتصور ذلك.

قوله: «﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ [الروم: ٢٥]».

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾؛ يعني: من العلامات الدالة على كماله عز وجل من كل وجه: ﴿أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾: الكوني والشرعي؛ لأن أمره مبني على الحكمة والرحمة والعدل والإحسان؛ ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ

وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١]، والأهواء فساد للسماوات والأرض، وهي مخالفة للأمر الشرعي.

إذاً؛ فالسماوات والأرض تقوم بأمر الله الكوني والشرعي، ولو أن الحق اتبع أهواء الخلق؛ لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن، ولهذا قال العلماء في قوله تعالى: ﴿وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦]؛ أي: «لا تفسدوا فيها بالمعاصي».

● قال الشيخ صالح الفوزان:

خصَّ المصنف رحمه الله هاتين المسألتين (**الاستواء على العرش ومعيته للخلق**) بالتنبيه؛ ليزيل الإشكال فقد يتوهم وجود التنافي بينهما، فقد يظن الظان أن ذلك مثل صفات المخلوقين، وأنه مختلط بهم، فكيف يكون فوق خلقه مستويًا على عرشه ويكون مع خلقه قريبًا منهم بدون مخالطة؟!

والجواب عن هذه الشبهة ـ كما وضحه الشيخ رحمه الله ـ من وجوه:

الوجه الأول: أن هذا لا توجبه لغة العرب التي نزل بها القرآن الكريم، فإن كلمة (مع) في اللغة لمطلق المصاحبة لا تفيد اختلاطًا وامتزاجًا ولا مجاورة ولا مماسة. فإنك تقول: زوجتي معي وأنت في مكان وهي في مكان آخر، وتقول: ما زلنا نسير والقمر معنا، وهو في السماء ويكون مع المسافر وغير المسافر أينما كان، وإذا صح أن يقال هذا في حق القمر وهو مخلوق صغير، فكيف لا يقال في حق الخالق الذي هو أعظم من كل شيء؟!

الوجه الثاني: أن هذا القول خلاف ما أجمع عليه سلف الأمة من الصحابة والتابعين وتابعيهم (وهم القرون المفضلة) الذين هم القدوة فقد أجمعوا على أن الله مستوٍ على عرشه عالٍ على خلقه بائن منهم، وأجمعوا على أنه مع خلقه بعلمه سبحانه وتعالى، كما فسروا قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ بذلك.

الوجه الثالث: أن هذا خلاف ما فطر الله عليه الخلق، أي: ركزه في فطرهم، فإن الخلق فطروا على الإقرار بعلو الله سبحانه على خلقه، فإن الخلق يتجهون إلى الله عند الشدائد والنوازل نحو العلو لا تلتفت يمنة ولا يسرة من غير أن يرشدهم إلى ذلك

أحد، وإنما ذلك بموجب الفطرة التي فطر الله الناس عليها.

الوجه الرابع: أن هذا خلاف ما أخبر الله به في كتابه وتواتر عن رسوله من أنه سبحانه وتعالىٰ علىٰ عرشه، عليٌّ علىٰ خلقه، وهو معهم أينما كانوا. والمتواتر من النصوص: هو ما رواه جماعة تحيل العادة تواطؤهم علىٰ الكذب عن مثلهم من الابتداء إلىٰ الانتهاء. والآيات والأحاديث في هذا كثيرة منها الآية التي ذكرها المصنف رحمه الله. والله أعلم.

وقول المصنف رحمه الله (وهو سبحانه فوق عرشه رقيب على خلقه مهيمن عليهم مطلع عليهم) **تقرير وتأكيد لما سبق من ذكر علوه على عرشه وكونه مع خلقه بذكر اسمين من أسمائه سبحانه وهما: (الرقيب والمهيمن)**، قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، والرقيب: هو المراقب لأحوال عباده. وفي ذلك دلالة علىٰ قربه منهم، وقال تعالىٰ: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ﴾ [الحشر: ٢٣]، والمهيمن: هو الشاهد علىٰ خلقه المطلع علىٰ أعمالهم الرقيب عليهم.

(إلى غير ذلك من معاني ربوبيته) أي: أن مقتضىٰ ربوبيته سبحانه أن يكون فوق خلقه بذاته، ويطلع علىٰ أعمالهم، ويكون قريبًا منهم بعلمه وإحاطته، يصرف شئونهم، ويحصي أعمالهم، ويجازيهم عليها.

يبين الشيخ رحمه الله ما يجب اعتقاده بالنسبة لما أخبر الله به عن نفسه من كونه فوق العرش، وهو معنا: أنه يجب الإيمان به كما أخبر الله، ولا يجوز تأويله وصرفه عن ظاهره، كما يفعله المعطلة من الجهمية والمعتزلة وأشباههم فيزعمون أن ذلك ليس حقيقة وإنما هو مجاز، فيؤولون الاستواء علىٰ العرش بالاستيلاء علىٰ الملك، وعلو الله علىٰ خلقه بعلو قدره وقهره، ونحو ذلك من التأويلات الباطلة التي هي تحريف لكلام الله عن مواضعه. ومنهم من يقول: إن معنىٰ كونه معنا: أنه حال في كل مكان، كما تقوله حلولية الجهمية وغيرهم. تعالىٰ الله عما يقولون علواً كبيراً.

وقوله: (ولكن يصان عن الظنون الكاذبة مثل: أن يظن أن ظاهر قوله: ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ أن السماء تقله أو تظله) تقله: أي: تحمله. وتظله: أي: تستره، والظلة: الشيء الذي يظلك من فوقك، وليس هذان المعنيان مرادين في كونه سبحانه

في السماء. ومن ظن ذلك فقد أخطأ غاية الخطأ وذلك لأمرين:

الأمر الأول: أن هذا خلاف ما أجمع عليه أهل العلم والإيمان، فقد أجمعوا على أنه سبحانه فوق عرشه بائن من خلقه ليس في ذاته شيء من مخلوقاته ولا في مخلوقاته شيء من ذاته، وقد تقدم الكلام في تفسير قوله تعالى: ﴿أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ﴾، وأنه إن أريد بالسماء السماء المبنية فـ﴿فِي﴾ بمعنى: (على) أي: على السماء، كقوله: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ أي: على جذوع النخل، وإن أريد بالسماء العلو كان المعنى: (في السماء) أي: في العلو. والله أعلم.

الأمر الثاني: أن هذا الظن مخالف ومصادم لأدلة القرآن الدالة على عظمة الله وغناه عن خلقه وحاجة خلقه إليه، كما في قوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ والكرسي مخلوق عظيم بين يدي العرش، وهو أعظم من السموات والأرض، والعرش أعظم منه، فإذا كانت السموات والأرض أصغر من الكرسي والكرسي أصغر من العرش، والله أعظم من كل شيء، فكيف تحويه السماء أو تقله أو تظله؟!

وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾، ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾، ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ فهذه الآيات تدل على أن السموات والأرض بحاجة إليه، فهو الذي يمسكها أن تزول أو تقع ويكون قيامها بأمره وحده، فلا يعقل مع هذا أن يكون سبحانه بحاجة إليها؛ لتقله أو تظله. تعالى الله عن هذا الظن الباطل علوًّا كبيراً.

* * *

[القربُ والمعيَّة لا ينافيان العُلوَّ والفوقيَّة]

فَصْـلٌ

وقــد دخل في ذلك: الإيمانُ بأَنَّهُ قَرِيبٌ مُـجيبٌ كمـا جَمَعَ بين ذلك في قوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ الآية [البقرة:١٨٦].

وقــــولُهُ ﷺ: «إِنَّ الَّذِي تَدْعُـونَهُ، أَقْـرَبُ إِلَى أَحَـدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِه».

وَمَا ذُكِرَ في الكتابِ وَالسُّنَّة، مِنْ قُرْبِهِ ومَـعِيَّتِه، لا يُنافِي ما ذُكِرَ مِنْ عُلُوِّهِ وَفَوْقِيَّتِـه، فَإِنَّه سُبْحانَهُ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيءٌ في جَمِيعِ نُعوتِهِ، وَهُوَ عالٍ في دُنُوِّه، قَرِيبٌ في عُلُوِّه.

• الشَّرح •

● قال العلامة ناصر السعدي:

خَصَّ المُصنِّف هذين الأمرين، وذلك لشدّة الحاجة إلى الإيمان بقربه وإجابته ليكون العبد مُراقبًا للَّه إذا آمن بقربه إيمانًا تامًا، كثيرًا للهج بذكره ودعائه مُنيبًا إليه على الدَّوام إذا آمن بإجابته للسَّائلين وإثابته للمطيعين.

ثم ذكر رحمه اللَّه الجَمْع بين الإيمان بعُلو اللَّه وقُربه ومَعِيّته لئلا يظن الظَّان أن ذلك مثل صِفَات المخلوقين.

وأنه إذا قيل: إنه العَلِيُّ فوق خلقه كيف يكون معهم وقريبًا منهم؟

فأجاب بما تضمَّنه هذا الأصل الثابت في الكتاب والسنة وإجماع الأمة وهو: أن اللَّه تعالىٰ ليس كمثله شيء في جميع نُعُوته.

ومن نعوته اللازمة: العُلُوُّ المطلق، والقُرْب العام والخاصّ، وأن القُربْ والعُلُو في حقِّه يجتمعان لعظمته وكبريائه وإحاطته من كل وجه، فهو العليُّ في دُنُوِّه، القَرِيبُ في عُلُوِّه.

وهذا الأصل ينفعك في كل ما وَرَدَ عليك من صفات اللَّه الثابتة. فأثبتها ولا تتوقف، فإن الذي أثبتها اللَّه الذي هو أعلم بنفسه ورَسُوله الَّذي هو أعلم الخلق وأورعهم وأنصحهم للخلق.

فإن خطرَ بِبَالك تمثيلاً أو استبعاداً فَتَفَطَّن لقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ وتذكر أيضًا: أنَّ الكلام علىٰ الصِّفَات مثل الكلام علىٰ الذَّات. فكما أنه لا نَظِيرَ لَهُ ولا مَثِيل له في ذلك، فكذلك في صِفاته.

● **قال الشيخ محمد خليل هراس:**

قوله: «وقد دخل في ذلك الإيمان» إلخ: يجب الإيمان بما وصف الله به نفسه من أنه قريب مجيب، فهو سبحانه قريب ممن يدعوه ويناجيه، يسمع دعاءه ونجواه ويجيب دعاءه متىٰ شاء وكيف شاء فهو تعالىٰ قريب قرب العلم والإحاطة كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾.

وبهذا يتبين أنه لا منافاة أصلاً بين ما ذكر في الكتاب والسنة من قربه تعالىٰ ومعيته وبين ما فيهما من علوه تعالىٰ وفوقيته، فهذه كلها نعوت له علىٰ ما يليق به سبحانه ليس كمثله في شيء منها.

● **قال الشيخ ابن عثيمين:**

قوله: «وقد دخل في ذلك»: يعني: فيما وصف به نفسه:

«الإيمان بأنه قريب من خلقه مجيب»: الإيمان بأنه قريب في نفسه، ومجيب؛ يعني: لعباده

ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ

الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]

في هذه الآية ستة ضمائر تعود على الله، وعلى هذا؛ فيكون القرب قربه عز وجل، ولكن نقول في ﴿قَرِيبٌ﴾ كما قلنا في المعية؛ أنه لا يستلزم أن يكون في المكان الذي فيه الإنسان.

وإذا كان الرسول عليه الصلاة والسلام يقول: «**إنه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته**»(١) ، ولا يلزم أن يكون الله عز وجل نفسه في الأرض بينه وبين عنق راحلته.

وإذا كان قول الرسول عليه الصلاة والسلام: «**فإن الله قبل وجه المصلي**»(٢) : لا يستلزم أن يكون الله بينه وبين الجدار، إن كان يصلي إلى الجدار، ولا بينه وبين الأرض إن كان ينظر إلى الأرض.

فكذلك لا يلزم من قربه أن يكون في الأرض؛ لأن الله ليس كمثله شيء في جميع صفاته، وهو محيط بكل شيء.

واعلم أن من العلماء من قسم قرب الله تعالى إلى قسمين؛ كالمعية، وقال: القرب الذي مقتضاه الإحاطة قرب عام، والقرب الذي مقتضاه الإجابة والإثابة قرب خاص.

ومنهم من يقول: إن القرب خاص فقط؛ مقتض لإجابة الداعي وإثابة العابد، ولا ينقسم.

ويستدل هؤلاء بقوله تعالى: ﴿**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ**﴾ [البقرة: ١٨٦]، وبقول النبي ﷺ: «**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد**»(٣) .

وأنه لا يمكن أن يكون الله تعالى قريبًا من الفجرة الكفرة. وهذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم - رحمهما الله تعالى -.

(١، ٢) سبق تخريجهما.

(٣) أخرجه مسلم (٤٨٢) وأبو داود (٨٧٥) والنسائي في «الكبرى» (٧٢٣) من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه.

ـ ولكن أورد على هذا القول قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]؛ فالمراد بـ ﴿الإِنسَانَ﴾: كل إنسان.

ولهذا قال في آخر الآية: ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ إلى أن قال: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [ق: ٢٢، ٢٣]؛ فهو شامل.

ـ وأورد عليه أيضًا قوله تعالى: ﴿فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ * وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ * وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة ٨٣ـ٨٥]، ثم قسم هؤلاء الذين بلغت أرواحهم الحلقوم إلى ثلاثة أقسام، ومنهم الكافر.

ـ وأجيب عن ذلك بأن قوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]؛ يعني: بملائكتنا، واستدل لذلك بقوله: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ﴾ [ق: ١٧]؛ فإن ﴿إِذْ﴾ ظرف متعلق بـ ﴿أَقْرَبُ﴾؛ يعني: ونحن أقرب إليه حين يتلقى المتلقيان، وهذا يدل على أن المراد بقربه تعالى قرب ملائكته.

وكذلك قوله في المحتضر: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾ [الواقعة: ٨٥]: المراد: قرب الملائكة، ولهذا قال: ﴿وَلَكِن لا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٥]، وهذا يدل على أن هذا القريب موجود عندنا، لكن لا نبصره، وهذا يمتنع غاية الامتناع أن يكون المراد به الله عز وجل؛ لأن الله في السماء.

وما ذهب إليه شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ؛ فهو عندي أقرب، ولكنه ليس في القرب بذاك.

قوله: «كما جمع بين ذلك في قوله: ﴿إِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وقوله ﷺ: «إن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته»[1].

قوله: «كما جمع بين ذلك»: المشار إليه القرب الإجابة.

---

(١) سبق تخريجه.

قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: «وما ذكر في الكتاب والسنة من قربه ومعيته لا ينافي ما ذكر من علوه وفوقيته؛ فإنه سبحانه ليس كمثله شيء في جميع نعوته، وهو عليٌّ في دنوه، قريب في عُلُوه».

«نعوته»؛ يعني: صفاته. هو عليٌّ مع أنه داني، قريب مع أنه عال، ولا تناقض في ذلك، وقد سبق بيان ذلك قريبًا في الكلام على المعية.

● قال الشيخ صالح الفوزان:

لما قرر المصنف وجوب الإيمان بعلو الله سبحانه على خلقه واستوائه على عرشه نبه في هذا الفصل إلى أنه يجب مع ذلك الإيمان بأنه قريب من خلقه. وقوله: (وقد دخل في ذلك) أي: في الإيمان بالله (الإيمان بأنه قريب) أي: من خلقه (مجيب لدعائهم (كما جمع بين ذلك) أي: بين القرب والإجابة في قوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾.

ورد في سبب نزول هذه الآية: أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أقريب ربنا فنناجيه، أم بعيد فنناديه؟! فسكت النبي ﷺ فنزلت هذه الآية[1].

﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ من الداعي ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾.

وهذا يدل على الإرشاد إلى المناجاة في الدعاء بدون رفع صوت، كما في قوله ﷺ: «إن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته»[2] سبق شرحه.

وفي هذه الآية وهذا الحديث دلالة على قرب الله تعالى من الداعي بإجابته، وهذا القرب لا يناقض علوه؛ ولهذا قال المصنف: (وما ذكر في الكتاب والسنة من قربه ومعيته لا ينافي ما ذكر من علوه وفوقيته)؛ لأن الكل حق، والحق لا يتناقض، ولأن الله تعالى: (ليس كمثله شيء في جميع نعوته) أي: صفاته، فلا يقال: إذا كان فوق خلقه فكيف يكن معهم؛ لأن هذا السؤال ناشئ عن تصور خاطئ هو قياسه سبحانه بخلقه وهذا قياس باطل؛ لأن الله سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾.

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في «تفسيره» (٢/ ١٨٥).

(٢) تقدم تخريجه.

فالقرب والعلو يجتمعان في حقه؛ لعظمته وكبريائه وإحاطته، وأن السموات السبع في يده كخردلة في يد العبد، فكيف يستحيل في حق من هذا بعض عظمته أن يكون فوق عرشه ويقرب من خلقه كيف يشاء وهو على العرش؟! (وهو عليٌّ في دنوه قريب في علوه) سبحانه وتعالى، كما دلت على ذلك نصوص الكتاب والسنة وأجمع عليه علماء الملة وهو من خصائصه سبحانه (علي في دنوه) أي: في حال قربه من خلقه (قريب في علوه) أي: قريب سن خلقه في حال علوه على عرشه.

* * *

[القرآنُ كلامُ اللهِ غير مخلوق]

وَمنَ الإيمانِ باللهِ وكُتُبِهِ: الإيمانُ بأنَّ القُرآنَ كَلامُ اللهِ، مُنَزَّلٌ، غَيْرُ مَخْلوق.

منْهُ بَدَأ، وإلَيْهِ يَعُودُ، وأنَّ اللَّهَ تَكَلَّمَ بِهِ حَقيقَةً.

وَأنّ هذا القُرآنَ الذي أَنْزَلَه عَلَى مُحَمَّد - ﷺ - هُوَ كَلامُ اللهِ حَقيقَةً، لا كَلامُ غَيْرِه. وَلا يَجوزُ إطْلاقُ القَوْلِ بأنَّهُ حكايَةٌ عَنْ كَلامِ اللَّه أو عِبارَةٌ بَلْ إذا قَرَأَهُ النّاسُ أَوْ كَتَبوهُ في المَصاحِفِ؛ لَمْ يَخْرُجْ بذَلكَ عَنْ أن يَكُونَ كَلامَ اللَّه تعالى حَقيقَةً؛ فإنَّ الكَلامَ إنَّما يُضافُ حَقيقةً إلى مَنْ قَالهُ مُبْتدِئًا، لا إلى مَنْ قالَهُ مُبلِّغًا مُؤدِّيًا. وَهُوَ كَلامُ اللَّه حُرُوفُهُ وَمَعَانيهِ؛ لَيْسَ كَلامُ اللهِ الحُرُوف دُونَ المَعَاني، ولاَ المَعَاني دُونَ الحُرُوف.

• الشَّرح •

• قال العلامة ناصر السعدي:

ووجه ذلك: أنه داخل في الإيمان باللَّه وبكتبه الإيمان بكلام اللَّه عَلَىٰ هذا الوَصف الذي ذكره المُصَنف: أنه من الإيمان باللَّه؛ لأَنَّه وَصْفه والكلام صفَة للمتكلِّم، فاللَّه تعالىٰ مَوْصُوف بأنه مُتكلِّم إذا شَاء بما شَاء، وأنه لم يزَل ولا يَزَال يتكلَّم وكلامه تعالىٰ لا ينفد ولا يَبيد، ونوع الكلام أزلي أبدي، ومفرداته لا تزال تقع شيئًا فشيئًا بحسب حكمة اللَّه تعالىٰ.

والله تعالىٰ أضافه إلىٰ نفسه في قوله: ﴿كلام الله﴾: إضافة الصِّفة لموصوفها، فدلَّ علىٰ أنه كلامه لفظه ومعناه ووصْفُه.

وإذا كان كذلك كان غير مخلوق، ومن زعم أنه مخلوق من «المعتزلة» فقد أَعْظَم الفِرْية علىٰ اللَّه، ونفىٰ كلام اللَّه عن اللَّه وصفًا، وجعله وَصْفًا للمخلوق ومن زعم أن القرآن الموجود بيننا عبارة عن كلام اللَّه أو حكايةعنه كما قاله «الكُلاَّبية» و«الأشعرية» فقد قال بِنصْف قول «المعتزلة».

فالقرآن كلام اللَّه حيث تَصَرَّف سواء كان محفوظًا في الصُّدور أو مَتْلوًا بالألسنة أو مكتوبًا في المَصَاحف فلا يخرج بذلك عن أن يكون كلام اللَّه كما قال المُصنِّف (فإن الكلام إنما يُضَاف إلى من قاله مُبتدئًا لا إلى من قاله مبلغًا مؤديًا).

وقول السلف: «كَلاَمُ اللَّه منْهُ بَدَأ» أي: هو الذي تكلَّم به وظهر منه لم يبد من غيره، وقولهم: «إليه يَعُود» أيَ: يرجعُ، أي يوصف اللَّه به.

وقيل: إن المراد بذلك ما ورد من أن من أشراط الساعة أن يُرْفَع القرآن من الصُّدور والمصاحف، ولكن الأوّل أوْلَىٰ.

وهذه المسألة ـ مسألة الكلام عظيمة ـ تكلَّم فيها الناس علىٰ اختلاف طرائقهم ولكن المُصنِّف رحمه اللَّه ذكر في هذا الفصل كلامًا في «الكلام» جامعًا نافعًا مأخوذًا من الأدلة الشرعية عقلية ونقلية.

وأما كَوْن هذا داخلا في الإيمان بكُتبه:

فإن الإيمان بالكتب وخُصوصًا القرآن يقتضي أن يؤمن العبد بكل ألفاظها ومعانيها، وما دلت عليه من العقائد والمعاني الجليلة، فمن لم يؤمن بجميع ذلك فلم يتم إيمانه.

واعلم أن المؤمنين بالقرآن على قسْمين: كاملين، وناقصين.

أما الكاملون: فإنهم أقبلوا علىٰ القرآن فَتَفَهَّموا مَعَانيه ثم آمنوا بها واعتقدوها كلها وتخلَّقوا بأخلاقها، وعملوا بما دلَّ عليه امتثالاً لأوَامِره واجتنابًا لِنَوَاهيه ولم يُفَرِّقوا بين نُصُوصه، كحال أهلِ البِدعِ الذين آمنوا ببعض دون بعض.

وأما الناقصون: فهم قسمان: قِسم مبتدعون، وقسم فاسقون ظالمون.

أما المبتدعون: فكل من ابتدع بِدْعة تَرَكَ لها شيئًا من كتاب اللَّه وسُنَّة رسول اللَّه، وهؤلاء على مَرَاتبهم في البدعة بحسب ما خَالَفُوا فيه.

وأما الفَاسقون: فهم الذين عرفوا أنه يجب عليهم الإيمان بالكتاب والعمل به فاعترفوا بذلك، ولكن أعمالهم نَاقَضَت أقوالهم فَتَجَرَّؤوا على مُخَالفة الكتاب بِتَرْكِ كثير من واجباته والاقتحام على كثير مما نهى عنه من غير أن يجحدوه، ولكن نفوسهم الأمارة بالسُّوء غلبتهم واستولت عليهم.

فنسأل اللَّه تعالى أن يجعلنا ممن آمن بكتابه إيمانًا صحيحًا حتى نكون لجميع نُصُوصه معتقدين، ولأوامره ونواهيه خاضعين، إِنَّه جواد كريم.

● قال الشيخ محمد خليل هراس:

قوله: «ومن الإيمان بالله وكتبه» إلخ: جعل المصنف الإيمان بأن القرآن كلام الله داخلاً في الإيمان بالله لأنه صفة من صفاته فلا يتم الإيمان به سبحانه إلا بها، إذ الكلام لا يكون إلا صفة للمتكلم والله سبحانه موصوف بأنه متكلم بما شاء متى شاء، وأنه لم يزل ولا يزال يتكلم بمعنى أن نوع كلامه قديم وإن كانت آحاده لا تزال تقع شيئًا بعد شيء بحسب حكمته.

وقد قلنا فيما سبق: إن الإضافة في قولنا: «القرآن كلام الله» هي من إضافة الصفة للموصوف فتفيد أن القرآن صفة الرب سبحانه وأنه تكلم به حقيقة بألفاظه ومعانيه بصوت نفسه فمن زعم أن القرآن مخلوق من المعتزلة فقد أعظم الفرية على الله ونفى كلام الله عن الله وصفًا وجعله وصفًا لمخلوق وكان أيضًا متجنيًا على اللغة فليس فيها متكلم بمعنى خالق للكلام. ومن زعم أن القرآن الموجود بيننا حكاية عن كلام الله كما تقوله الكلابية أو أنه عبارة عنه كما تقوله الأشعرية، فقد قال بنصف قول المعتزلة حيث فرق بين الألفاظ والمعاني، فجعل الألفاظ مخلوقة والمعاني عبارة عن الصفة القديمة، كما أنه ضاهى النصارى في قولهم بحلول اللاهوت وهو الكلمة في الناسوت وهو جسد عيسى عليه السلام، إذا قال بحلول المعاني التي هي الصفة القديمة في هذه الألفاظ المخلوقة، فجعل الألفاظ ناسوتًا لها.

والقرآن كلام الله حيث تصرف، فمهما كتبناه في المصاحف أو تلوناه بالألسنة لم يخرج بذلك عن أن يكون كلام الله، لأن الكلام كما قال المصنف إنما يضاف إلىٰ من قاله مبتدئًا لا إلىٰ من قاله مبلغًا مؤديًا.

وأما معنى قول السلف: «منه بدا وإليه يعود» فهو من البدء يعني أن الله هو الذي تكلم به ابتداءً لم يبتدأ من غيره، ويحتمل أن يكون من البدو بمعنىٰ الظهور، يعني أنه هو الذي تكلم به وظهر منه لم يظهر من غيره، ومعنىٰ إليه يعود أي يرجع إليه وصفًا، لأنه وصفه القائم به، وقيل: معناه يعود في آخر الزمان حين يرفع من المصاحف والصدور، كما ورد في أشراط الساعة.

وأما كون الإيمان بأن القرآن كلام الله داخلاً في الإيمان بالكتب فإن الإيمان بها إيمانًا صحيحًا يقتضي إيمان العبد بأن الله تكلم بها بألفاظها ومعانيها، وأنها جميعًا كلامه هو لا كلام غيره، فهو الذي تكلم بالتوراة بالعبرانية، وبالإنجيل بالسريانية، وبالقرآن بلسان عربي مبين.

● قال الشيخ ابن عثيمين:

قوله: «فصل: ومن الإيمان بالله وكتبه: الإيمان بأن القرآن كلام الله، منزل، غير مخلوق، منه بدأ، وإليه يعود».

قوله: «الإيمان بأن القرآن كلام الله»: وجه كون الإيمان بالقرآن علىٰ هذا الوجه من الإيمان بالله: أن القرآن من كلام الله، وكلام الله صفة من صفاته، وأيضًا؛ فإن الله وصف القرآن بأنه كلامه، وأنه منزل؛ فتصديق ذلك من الإيمان بالله.

قوله: «كلام الله»: والدليل علىٰ ذلك قوله سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦].

قول المؤلف ـ رحمه الله ـ: «منزل»؛ أي: من عند الله تعالىٰ.

لقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

وقوله: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: ١].

قوله: «غير مخلوق»: أي: ليس من مخلوقات الله التي خلقها.

والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]. والقرآن من الأمر؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]، ولأن الكلام صفة المتكلم، والمخلوق مفعول للخالق، بائن منه؛ كالمصنوع؛ بائن من الصانع.

قوله: «منه بدأ»: يعني: أن ابتداء تنزيله من الله، لا من جبريل ولا غيره؛ فجبريل عليه السلام نازل به من عند الله تعالى؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٢، ١٩٣]، وقال: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ﴾ [النحل: ١٠٢]، وقال تعالى: ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [الزمر: ١].

وقوله: «وإليه يعود»: سبق الكلام عن معناها والدليل عليها في شرح الآيات عند البحث عن كلام الله.

قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: «وأن الله تكلم به حقيقة».

بناء على الأصل؛ أن جميع الصفات حقيقية؛ وإذا كان كلام الله حقيقة؛ فلا يمكن أن يكون مخلوقًا؛ لأن صفته، وصفة الخالق غير مخلوقة؛ كما أن صفة المخلوق مخلوقة.

وقد قال الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ: «من قال: لفظي بالقرآن مخلوق؛ فهو جهمي، ومن قال: غير مخلوق؛ فهو مبتدع».

فنقول: اللفظ يطلق على معنيين: على المصدر الذي هو فعل الفاعل، وعلى الملفوظ به:

ـ أما على المعنى الأول الذي هو المصدر؛ فلا شك أن ألفاظنا بالقرآن وغير القرآن مخلوقة.

لأننا إذا قلنا: إن اللفظ هو التلفظ؛ فهذا الصوت الخارج من حركة الفم واللسان والشفتين مخلوق.

فإذا أريد باللفظ التلفظ؛ فهو مخلوق، سواء كان الملفوظ به قرآنًا أو حديثًا أو

كلامًا أحدثته من عندك .

ـ أما إذا قصد باللفظ الملفوظ به؛ فهذا منه مخلوق، ومنه غير مخلوق .

وعليه؛ إذا قصد باللفظ الملفوظ به؛ فهذا منه مخلوق ومنه غير مخلوق، وعليه؛ إذا كان الملفوظ به هو القرآن؛ فليس بمخلوق .

هذا تفصيل القول في هذه المسألة .

لكن الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ قال : «من قال : لفظي بالقرآن مخلوق؛ فهو جهمي»! قال ذلك لأحد احتمالين :

ـ إما أن هذا القول من شعار الجهمية؛ كأن الإمام أحمد يقول : إذا سمعت الرجل يقول : لفظي بالقرآن مخلوق؛ فاعلم أنه جهمي .

ـ وإما أن يكون ذلك حين يريد القائل باللفظ الملفوظ به، وهذا أقرب؛ لأن الإمام أحمد نفسه فسره؛ قال : «من قال : لفظي بالقرآن مخلوق؛ يريد القرآن؛ فهو جهمي» .

وحينئذ يتضح معنى قوله : «من قال لفظي بالقرآن مخلوق؛ فهو جهمي»؛ لأنه أراد الملفوظ به، ولا شك أن الذي يريد باللفظ هنا الملفوظ به جهمي .

ولا شك أن الذي يريد باللفظ هنا الملفوظَ به جهمي، أما من قال : غير مخلوق؛ فالإمام أحمد ـ رحمه الله ـ يقول : مبتدع؛ لأن هذا ما عهد عن السلف، وما كانوا يقولون مثل هذا القول؛ يقولون : القرآن كلام الله؛ فقط .

قوله: «وأن هذا القرآن الذي أنزل على محمد ﷺ هو كلام الله حقيقة، لا كلام غيره».

كرر المؤلف ـ رحمه الله ـ هذا؛ لأن المقام مقام عظيم؛ فإن هذه المسألة حصل فيها على علماء المسلمين من المحن ما هو معلوم، وهلك فيها أمم كثيرة، ولكن حمى الله الحق بالإمام أحمد ـ رحمه الله ـ وأشباهه، الذين أبوا أن يقولوا إلا أن القرآن كلام الله غير مخلوق .

وقوله: «لا كلام غيره»: خلافًا لمن قال : إن القرآن من كلام جبريل؛ ألهمه الله

إياه، أو من محمد. . . أو ما أشبه ذلك.

فإن قلت: قول المؤلف ـ رحمه الله ـ هنا: «لا كلام غيره»: معارض بقول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ﴾ [الحاقة: ٤٠، ٤١]. وقوله: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير: ١٩، ٢٠]، والأول محمد ﷺ، والثاني جبريل؟!

فالجواب عن ذلك أن نقول: لا يمكن أن نحمل الآيتين علىٰ أن الرسولين تكلما به حقيقة، وأنه صدر منهما؛ لأن كلامًا واحدًا لا يمكن أن يصدر من متكلمين!!.

قوله: «ولا يجوز إطلاق القول بأنه حكاية عن كلام الله أو عبارة»:

قال: «لا يجوز إطلاق القول»: ولم يقل: لا يجوز القول! يعني: لا يجوز أن نقول: هذا القرآن عبارة عن كلام الله؛ إطلاقًا، ولا يجوز أن نقول: إنه حكاية عن كلام الله؛ علىٰ سبيل الإطلاق.

والذين قالوا: إنه حكاية: هم الكلابية، والذين قالوا إنه عبارة: هم الأشعرية. والكل اتفقوا علىٰ أن هذا القرآن الذي في المصحف ليس كلام الله، بل هو إما حكاية أو عبارة، والفرق بينهما:

أن الحكاية المماثلة؛ يعني: كأن هذا المعنىٰ الذي هو الكلام عندهم حُكي بمرآة؛ كما يحكي الصدىٰ كلام المتكلم

أما العبارة؛ فيعني بها أن المتكلم عبر عن كلامه النفسي بحروف وأصوات خلقت

فلا يجوز أن نطلق أنه حكاية أو عبارة، لكن عند التفصيل؛ قد يجوز أن نقول: إن القارئ الآن يعبر عن كلام الله أو يحكي كلام الله؛ لأن لفظه بالقرآن ليس هو كلام الله.

وهذا القول علىٰ هذا التقييد لا بأس به، لكن إطلاق أن القرآن عبارة أو حكاية عن كلام الله لا يجوز.

وكان المؤلف ـ رحمه الله ـ دقيقًا في العبارة حيث قال: «لا يجوز إطلاق القول»، بل لابد من التقييد والتعيين.

قوله: «بل إذا قرأه الناس أو كتبوه في المصاحف؛ لم يخرج بذلك عن أن يكون كلام الله تعالى حقيقة؛ فإن الكلام إنما يُضاف حقيقة إلى من قاله مبتدئاً لا إلى من قاله مبلغًا مؤديًا».

مهما كتبه الناس في المصاحف أو حفظوه في صدورهم أو قرؤوه بألسنتهم؛ فإنه لا يخرج عن كونه كلام الله.

ثم علل ذلك، فقال: «فإن الكلام إنما يضاف حقيقة إلى من قاله مبتدئا».

وهذا تعليل واضح؛ فالكلام يضاف حقيقة إلى من قاله مبتدئا، أما إضافته إلى من قاله مبلغًا مؤديًا؛ فعلى سبيل التوسع؛ فلو قرأنا الآن مثلا:

حكم المحبة ثابت الأركان ... ما للصدود بفسخ ذاك يدان

فإن هذا البيت ينسب حقيقة إلى ابن القيم

ولو قلت:

كلامنا لفظ مفيد كاستقم ... اسمٌ وفعلٌ ثم حرفٌ الكلم

فهذا ينسب حقيقة إلى ابن مالك.

إذاً؛ الكلام يضاف حقيقة إلى القائل الأول.

فالقرآن كلام من تكلم به أولا، وهو الله تعالى، لا كلام من بلغه إلى غيره.

قوله: «وهو كلام الله؛ حروفه ومعانيه».

هذا مذهب أهل السنة والجماعة؛ قالوا: إن الله تعالى تكلم بالقرآن بحروفه ومعانية.

قوله: «وليس كلام الله الحروف دون المعاني».

وهذا مذهب المعتزلة والجهمية؛ لأنهم يقولون: إن الكلام ليس معنى يقوم بذات الله، بل هو شيء من مخلوقاته؛ كالسماء والأرض والناقة والبيت وما أشبه ذلك! فليس معنى قائمًا في نفسه؛ فكلام الله حروف خلقها الله عز وجل، وسماها كلامًا له؛ كما خلق الناقة وسماها ناقة الله، وكما خلق البيت وسماه بيت الله.

ولهذا كان الكلام عند الجهمية والمعتزلة هو الحروف؛ لأن كلام الله عندهم عبارة

عن حروف وأصوات خلقها الله عز وجل ونسبها إليه تشريفًا وتعظيمًا.

قوله: «ولا المعاني دون الحروف».

وهذا مذهب الكلابية والأشعرية؛ فكلام الله عندهم معنى في نفسه، ثم خلق أصواتًا وحروفًا تدل على هذا المعنى، إما عبارة أو حكاية.

واعلم أن ابن القيم - رحمه الله - ذكر أننا إذا أنكرنا أن الله يتكلم؛ فقد أبطلنا الشرع والقدر:

- أما الشرع؛ فلأن الرسالات إنما جاءت بالوحي، والوحي كلام مبلغ إلى المرسل إليه؛ فإذا نفينا الكلام؛ انتفى الوحي، وإذا انتفى الوحي؛ انتفى الشرع.

- أما القدر؛ فلأن الخلق يقع بأمره؛ بقوله: كن! فيكون؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

● قال الشيخ صالح الفوزان:

من أصول الإيمان: الإيمان بالله والإيمان بكتبه - كما سبق - ويدخل في هذين الأصلين الإيمان بأن القرآن كلام الله. فالإيمان بالله عز وجل يتضمن الإيمان بصفاته. وكلامه من صفاته، فإن الله تعالى موصوف بأنه يتكلم بما شاء، إذا شاء، لم يزل، ولا يزال يتكلم، وكلامه لا ينفد، ونوع الكلام في حقه أزلي أبدي، ومفرداته لا تزال تقع شيئًا فشيئًا حسب حكمته تعالى.

ومن كلامه القرآن العظيم الذي هو أعظم كتبه - فهو داخل في الإيمان بكتبه دخولاً أوليًّا - وهو منزل منه سبحانه فهو تكلم به وأنزله على رسوله ﷺ فهو (منزل غير مخلوق)؛ لأنه صفة من صفاته، أضافه إلى نفسه إضافة الصفة إلى موصوفها، وصفاته غير مخلوقة، فكلامه غير مخلوق، وقد خالف في هذا طوائف، ذكر الشيخ رحمه الله هنا مقالة بعضهم فذكر:

١ - مقالة الجهمية حيث يقولون: إن الله لا يتكلم، وإنما خلق كلامًا في غيره وجعله يعبر عنه فإضافة الكلام عندهم إلى الله مجاز لا حقيقة؛ لأنه خلق الكلام فهو متكلم، بمعنى خالق الكلام في غيره، وهذا القول باطل مخالف للأدلة السمعية

والعقلية، ومخالف لقول السلف وأئمة المسلمين، فإنه لا يعقل أن يسمى متكلمًا إلا من قام به الكلام حقيقة فكيف يقال: قال الله، والقائل غيره، وكيف يقال: كلام الله وهو كلام غيره؟!

وقول المصنف: (منه بدأ وإليه يعود، وأن الله تكلم به حقيقة، وأن هذا القرآن الذي أنزله على محمد ﷺ هو كلام الله حقيقة لا كلام غيره) قصده بهذا الرد على الجهمية الذين يقولون: إن القرآن بدأ من غيره، وأن الله لم يتكلم به حقيقة، بل مجازاً وهو كلام غيره أضيف إليه؛ لأنه خالقه.

ومعنى قوله: (منه بدأ): أن القرآن بدأ وخرج من الله تعالى وتكلم به (ومن) لابتداء الغاية، وقوله: **(وإليه يعود)**: أي: أن القرآن يرجع إلى الله تعالى؛ لأنه يرفع في آخر الزمان فلا يبقى منه شيء في الصدور ولا في المصاحف، وذلك من علامات الساعة، أو معنى ذلك: أنه ينسب إليه.

٢ ـ ثم ذكر الشيخ رحمه الله هنا مقالة الكلابية ـ أتباع عبد الله بن سعيد بن كلاب ـ في القرآن أنه حكاية عن كلام الله؛ لأن كلام الله عندهم: هو المعنى القائم في نفسه لازم لذاته كلزوم الحياة والعلم لا يتعلق بمشيئته وإرادته، وهذا المعنى القائم في نفسه غير مخلوق، وهذه الألفاظ المكونة من حروف وأصوات مخلوقة، وهي حكاية لكلام الله وليست هي كلامه.

٣ ـ وذكر مقالة الأشاعرة ـ أتباع أبي الحسن الأشعري ـ أن القرآن عبارة عن كلام الله؛ لأن كلام الله عندهم معنى قائم في نفسه، وهذا المعنى غير مخلوق، أما هذه الألفاظ المقروءة فهي عبارة عن ذلك المعنى القائم بالنفس وهي مخلوقة، ولا يقال إنها حكاية عنه.

وبعض العلماء يقول: إن الخلاف بين الكلابية والأشاعرة خلاف لفظي لا طائل تحته، فالأشاعرة والكلابية يقولون: القرآن نوعان: ألفاظ، ومعان، فالألفاظ مخلوقة وهي هذه الألفاظ الموجودة، والمعاني قديمة قائمة بالنفس وهي معنى واحد لا تبعض فيه ولا تعدد، وعلى كل حال فالقولان إن لم يكونا متفقين فهما متقاربان.

وقد أشار الشيخ رحمه الله إلى بطلان هذين القولين بقوله: (ولا يجوز إطلاق القول بأنه حكاية عن كلام الله) أي: كما تقول الكلابية (أو عبارة عنه) كما تقول الأشاعرة، (بل إذا قرأه الناس أو كتبوه في المصاحف لم يخرج بذلك عن أن يكون كلام الله حقيقة) أي: أن القرآن العظيم كلام الله ألفاظه ومعانيه أين وجد، سواء حفظ في الصدور، أو تلي بالألسنة، أو كتب في المصاحف ـ لا يخرج بذلك عن أن يكون كلام الله تعالىٰ حقيقة.

ثم ذكر الشيخ رحمه الله دليل ذلك فقال: (فإن الكلام إنما يضاف حقيقة إلى من قاله مبتدئًا، لا إلى من قاله مبلغًا مؤديًا)، فإن المبلغ المؤدي إنما يسمىٰ: واسطة فقط، قال تعالىٰ: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، والسماع المذكور في هذه الآية إنما يكون بواسطة المبلغ، وسمي المسموع كلام الله، فدل علىٰ أن الكلام إنما يُضاف إلىٰ من قاله مبتدئًا.

٤ ـ ثم ذكر الشيخ رحمه الله مقالة المعتزلة، حيث يقولون: إن كلام الله الحروف دون المعاني فيقولون: إن مسمىٰ القول والكلام عند الإطلاق اسم للفظ فقط، والمعنىٰ ليس جزء مسماه، بل هو مدلول مسماه.

ثم ذكر رحمه الله المذهب المقابل لذلك، فقال: (ولا المعاني دون الحروف) كما هو مذهب الكلابية والأشاعرة، وكما سبق شرحه.

والمذهب الحق: أن القرآن كلام الله حروفه ومعانيه، كما هو قول أهل السنة والجماعة وهو الذي قامت عليه الأدلة من الكتاب والسنة. والحمد لله رب العالمين.

* * *

[رؤية المؤمنين لربهم عز وجل يوم القيامة]

وَقَدْ دَخَلَ أيضًا فيما ذَكَرْناهُ مِنَ الإيمانِ بِهِ وَبِكُتُبِهِ وبِمَلائكَتِهِ وَبِرُسُلِه:

الإيمانُ بأنّ المؤمنينَ يرونهُ يومَ القِيامةِ عِيانًا بأبصارهم. كَمَا يَرَوْنَ الشَّمْسَ صَحْوًا لَيْسَ بِهَا سَحَابٌ.

وَكَمَا يَرَوْنَ القَمَرَ لَيْلَةَ البَدْرِ، وَلاَ يُضامُّون فِي رُؤْيَتِهِ.

يَرَوْنَهُ سُبْحانَهُ وَهُم فِي عَرَصاتِ القيامَة.

ثُمَّ يَرَوْنَهُ بَعْدَ دُخولِ الجَنَّة كَما يَشاءُ اللَّهُ تَعالى.

• الشَّرح •

● قال الشيخ محمد خليل هراس:

قوله: «وقد دخل أيضًا فيما ذكرناه» إلخ: تقدم الكلام على رؤية المؤمنين لربهم عز وجل في الجنة كما دلت على ذلك الآيات والأحاديث الصريحة، فلا حاجة بنا إلى إعادة الكلام فيها.

غير أن قوله: «يرونه سبحانه وهم في عرصات القيامة»: قد يوهم أن هذه الرؤية أيضًا خاصة بالمؤمنين ولكن الحق أنها عامة لجميع أهل الموقف حين يجيء الرب لفصل القضاء بينهم كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ﴾ الآية.

«والعرصات»: جمع عرصة وهي كل موضع واسع لا بناء فيه.

- قال الشيخ ابن عثيمين:

قول المؤلف: «فصل: وقد دخل أيضًا فيما ذكرناه من الإيمان به وبكتبه وبملائكته وبرسله: **الإيمان بأن المؤمنين يرونه يوم القيامة**».

قوله: «**الإيمان بأن المؤمنين يرونه يوم القيامة**».

- وجه كون الإيمان بأن المؤمنين يرونه يوم القيامة من الإيمان بالله ظاهر؛ لأن هذا مما أخبر الله به؛ فإذا آمنا به؛ فهو من الإيمان بالله.

- ووجه كونه من الإيمان بالكتب؛ لأن الكتب أخبرت بأن الله يُرى؛ فالتصديق بذلك تصديق بالكتب.

- ووجه كونه من الإيمان بالملائكة؛ لأن نقل الوحي بواسطة الملائكة؛ فإن جبريل ينزل بالوحي من الله تعالى؛ فكأن الإيمان بأن الله يُرى من الإيمان بالملائكة.

- وكذلك نقول: من الإيمان بالرسل؛ لأن الرسل هم الذين بلغوا ذلك للخلق؛ فكأن الإيمان بذلك من الإيمان بالرسل.

قوله: «**عيانًا بأبصارهم**»:

(عيانًا)؛ بمعنى: معاينة؛ والمعاينة هي الرؤية بالعين.

قوله: «**كما يرون الشمس صحوا ليس دونها سحاب**»:

ودليل ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: «**ترونه كما ترون الشمس صحواً ليس دونها سحاب**»[1].

والمراد بالرؤية: بالعين؛ كما يدل عليه تشبيه الرؤية برؤية الشمس صحواً ليس دونها سحاب.

قوله - رحمه الله -: «**وكما يرون القمر ليلة البدر، لا يُضامون في رؤيته**»:

سبق الكلام في ذلك.

قوله: «**يرونه سبحانه وهم في عرصات القيامة**».

«عرصات»: جمع عَرْصة، وهي المكان الواسع الفسيح، الذي ليس فيه بناء؛ لأن

---

(١) سبق تخريجه.

الأرض تُمَد مَدَّ الأديم؛ كما قال الرسول عليه الصلاة والسلام[1]؛ يعني: مَدَّ الجلد.

فالمؤمنون يرون الله في عرصات يوم القيامة قبل أن يدخلوا الجنة، كما قال الله تعالىٰ عن المكذبين بيوم الدين: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]؛ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾؛ يعني: يوم الدين؛ ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ٦]، ويرونه كذلك بعد دخول الجنة.

أما في عرصات القيامة؛ فالناس في العرصات ثلاثة أجناس:

١ـ مؤمنون خُلَّص ظاهراً وباطنًا.

٢ـ وكافرون خُلَّص ظاهراً وباطنًا.

٣ـ ومؤمنون ظاهراً كافرون باطنًا، وهم المنافقون.

ـ فأما المؤمنون؛ فيرون الله تعالىٰ في عرصات القيامة وبعد دخول الجنة.

ـ وأما الكافرون؛ فلا يرون ربهم مطلقًا، وقيل: يرونه؛ لكن رؤية غضب وعقوبة، ولكن ظاهر الأدلة يدل علىٰ أنهم لا يرون الله؛ كما قال تعالىٰ: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥].

ـ وأما المنافقون؛ فإنهم يرون الله عز وجل في عرصات القيامة، ثم يحتجب عنهم، ولا يرونه بعد ذلك.

قوله: «ثم يرونه بعد دخول الجنة كما يشاء الله تعالى».

قوله: «كما يشاء»: يعني: يرون الله كما يشاء سبحانه وتعالىٰ في كيفية رؤيتهم إياه، وكما يشاء في زمن رؤيتهم إياه، وفي جميع الأحوال؛ يعني: علىٰ الوجه الذي يشاؤه الله عز وجل في هذه الرؤية.

وحينئذ: فإن هذه الرؤية لا نعلم كيفيتها؛ بمعنىٰ أن الإنسان لا يعلم كيف يرىٰ ربه، ولكن معنىٰ الرؤية معلوم؛ أنهم يرون الله كما يرون القمر؛ لكن علىٰ أي كيفية؟ هذه لا نعلمها، بل كما يشاء الله.

وقد سبق التفصيل في الرؤية.

---

(١) لما رواه ابن ماجه (٤٠٠١) وأحمد في «مسنده» (١/ ٣٧٥) من حديث عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه.

- قال الشيخ صالح الفوزان:

وجه دخول الإيمان بالرؤية في الإيمان بالله وبكتبه وبرسله أن الله سبحانه أخبر بها في كتابه وأخبر بها رسوله ﷺ، فمن لم يؤمن بها كان مكذبًا لله ولكتبه ولرسله فإن الذي يؤمن بالله وكتبه ورسله يؤمن بكل ما أخبروا به. وقوله: **(عيانًا)** بكسر العين أي: رؤية محققة لا خفاء فيها فليست مجازًا، كما تقوله المعطلة، **(كما يرون الشمس صحوًا ليس دونها سحاب، وكما يرون القمر ليلة البدر لا يضامون في رؤيته)** أي: رؤية حقيقية لا مشقة فيها، كما دلت على ذلك الآيات والأحاديث التي سبق شرحها.

وقوله: **(يرونه سبحانه وهم في عرصات القيامة، ثم يرونه بعد دخول الجنة)** هذا بيان للمواضع التي تحصل فيها الرؤية، وذلك في موضعين:

الموضع الأول: في عرصات القيامة، والعرصات: جمع عرصة، وهي الموضع الواسع الذي لا بناء فيه، و **(عرصات القيامة)**: مواقف الحساب، وهل يختص المؤمنون برؤيته في هذا الموضع؟

في المسألة ثلاثة أقوال:

قيل: يراه في عرصات القيامة المؤمنون والمنافقون والكفار.

وقيل: يراه المؤمنون والمنافقون فقط دون الكفار.

وقيل: يراه المؤمنون فقط. والله أعلم.

الموضع الثاني: يراه المؤمنون بعد دخولهم الجنة، كما ثبت ذلك في الأدلة من الكتاب والسنة، وسبق ذكر بعض تلك الأدلة مشروحة، وسبق ذكر شبه من نفى الرؤية مع الرد عليها، و الجنة في اللغة: البستان، والمراد بها هنا: الدار التي أعدها الله لأوليائه، وهي دار النعيم المطلق الكامل.

وقول الشيخ: **(كما يشاء الله)** أي: من غير إحاطة ولا تكييف لرؤيته.

* * *



[الإيمان بفتنة القبر وعذابه ونعيمه]

فَصْلٌ

ومن الإيمَان باليومِ الآخِرِ

الإيمانُ بِكُلِّ ما أخبرَ به النبيُّ - ﷺ - ممَّا يكون بَعْدَ المَوتِ

فيؤمنون بفتنة القبر، و بعذاب القبر ونعيمه.

فأمَّا الفتْنَة: فإنَّ النَّاس يُمتَحَنُونَ في قُبُورهم.

فيقال للرَّجُلِ: مَنْ ربُّكَ؟ وَمَا دينُكَ؟ وَمَنْ نَبيُّكَ؟

فـ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِت فِي الْحَيَاة الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَة﴾. فيقول المؤمن: ربِّي اللَّهُ، والإسلامُ ديني، ومُحَمَّدٌ ﷺ نَبيِّي.

وأمَّا المُرْتَاب فَيَقُول: هاه هاه! لا أدْري؛ سَمعْتُ النَّاس يقولون شَيْئًا فَقُلْتُه. فَيُضْرَبُ بمرزبَة من حَديد، فَيَصيح صَيْحةً يَسْمَعُهَا كُلُّ شَيء إلاَّ الإنسان، ولَو سَمعَهَا الإنسانُ لَصُعقَ.

ثُمَّ بعد هَذه الفتْنة: إمَّا نَعيمٌ وَإمَّا عَذَابٌ.

• الشَّرح •

• قال العلامة ناصر السعدي:

وهذا ضابطٌ جامعٌ يدخلُ فيه الإيمان بالنصوص الواردة في حالة المحتضر وفي

القبر والقيامة والجنة والنار، وجميع ما احتوت عليه هذه الأمور من التفاصيل التي صُنِّفت فيها المُصنفات المُطولة والمُختصرة، وكلها داخلة في الإيمان باليوم الآخر.

ثم أشار المُصنِّف إلى شيء منها فقال: فيؤمنون بفتنة القبر...

وهذا الابتلاء والامتحان قد سبقت لكل عَبْدٍ مقدماته في الدنيا، فأمَّا من كان مؤمنًا إيمانًا صَحيحًا ثبته الله ولَقَّنه الجواب الصَّحيح للملكين.

كما قال تعالىٰ: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

فذكر: أن تَثْبيته لهم جزاء لهم علىٰ إيمانهم في الدُّنيا.

فالمؤمن: يُجيب الجواب الصَّحيح، وإن كان عاميًا أو أعجميًا.

وأما الكافر والمنافق ممن كان في الدنيا غير مؤمن بما جاء به الرسول فإنه يَسْتَعجم عليه الجواب ولو كان من أعلم الناس وأفصحهم.

كما قال تعالىٰ: ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾ [إبراهيم: ٢٧] ومن حكمة الله: أن نعيم البَرزخ وعَذَابه لا يحسّ به الإنس والجن بمشاعرهم؛ لأنَّ اللَّه تعالىٰ جعله من الغيب ولو أظْهَرَهُ لفاتت الحكمة المطلوبة.

● قال الشيخ محمد خليل هراس:

قوله: «ومن الإيمان باليوم الآخر» إلخ: إذا كان الإيمان باليوم الآخر أحد الأركان الستة التي يقوم عليها الإيمان فإن الإيمان به إيمانًا تامًا كاملاً لا يتحقق إلا إذا آمن العبد بكل ما أخبر به النبي ﷺ من أمور الغيب التي تكون بعد الموت، والضابط في ذلك أنها أمور ممكنة أخبر بها الصادق صلوات الله عليه وسلامه وآله، وكل ممكن أخبر به الصادق يجب الإيمان بوقوعه كما أخبر، فإن هذه الأمور لا تستفاد إلا من خبر الرسول، فأهل السنة والجماعة يؤمنون بذلك كله.

وأما أهل المروق والإلحاد من الفلاسفة والمعتزلة فينكرون هذه الأمور من سؤال القبر ومن نعيم القبر وعذابه والصراط والميزان وغير ذلك بدعوىٰ أنها لم تثبت بالعقل، والعقل عندهم هو الحاكم الأول الذي لا يجوز الإيمان بشيء إلا عن طريقه،

وهم يردون الأحاديث الواردة في هذه الأمور بدعوىٰ أنها أحاديث آحاد لا تقبل في باب الاعتقاد، وأما الآيات فيؤولونها بما يصرفها عن معانيها.

والإضافة في قوله: «بفتنة القبر» علىٰ معنىٰ في أي بالفتنة التي تكون في القبر، وأصل الفتنة وضع الذهب ونحوه علىٰ النار لتخليصه من الأوضار والعناصر الغريبة، ثم استعملت في الاختبار والامتحان، وأما عذاب القبر ونعيمه فيدل عليه قوله تعالىٰ في حق آل فرعون: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ . وقوله سبحانه وتعالىٰ عن قوم نوح: ﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا﴾

وقوله عليه الصلاة والسلام: «**القبر إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار**».

«والمرزبة»: بالتخفيف: المطرقة الكبيرة، ويقال لها أيضًا إرزبة بالهمزة والتشديد.

● قال الشيخ ابن عثيمين:

شرع المؤلف ـ رحمه الله تعالىٰ ـ في الكلام عن اليوم الآخر وعقيدة أهل السنة والجماعة فيه، فقال:

«فصل: ومن الإيمان باليوم الآخر: الإيمان بكل ما أخبر به النبي (مما يكون بعد الموت».

حكم الإيمان باليوم الآخر فريضة واجب، ومرتبته في الدين أنه أحد أركان الإيمان الستة.

وكثيرًا ما يقرن الله تعالىٰ بين الإيمان به تعالىٰ والإيمان باليوم الآخر؛ الإيمان بالمبدأ والإيمان بالمعاد؛ لأن من لم يؤمن باليوم الآخر؛ لا يمكن أن يؤمن بالله؛ إذ أن الذي لا يؤمن باليوم الآخر؛ لن يعمل؛ لأنه لا يعمل إلا لما يرجوه من الكرامة في اليوم الآخر، وما يخافه من العذاب والعقوبة؛ فإذا كان لا يؤمن به؛ صار كمن حكىٰ الله عنهم: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤].

وسمىٰ اليوم الآخر باليوم الآخر؛ لأنه يوم لا يوم بعده؛ فهو آخر المراحل.

والإنسان لـه خـمس مراحل: مرحلة العدم، ثم الحمل، ثم الدنيا، ثم البرزخ، ثم الآخرة.

ـ فأما مـرحلة العدم؛ فقد دل عليها قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥].

ـ وأما مرحلة الحمل؛ فقال الله عنها: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ﴾ [الزمر: ٦].

ـ وأما مرحلة الدنيا؛ فقال الله عنها: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

وهذه المراحل هي التي عليها مدار السعادة والشقاء، وهي دار الامتحان والابتلاء؛ كما قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [الملك: ٢].

ـ وأما مـرحلة البرزخ؛ فقال الله عنها: ﴿وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٠].

ـ وأما مرحلة الآخرة؛ فهي غاية المراحل، ونهاية الراحل؛ قال الله تعالى بعد ذكر المراحل: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٥، ١٦].

وقوله ـ رحمه الله ـ: «الإيمان بكل ما أخبر به النبي ، مما يكون بعد الموت»: كل هذا داخل في الإيمان باليوم الآخر.

وذلك لأن الإنسان إذا مات؛ دخل في اليوم الآخر، ولهذا يقال: من مات؛

قامت قيامته[١]؛ فكل ما يكون بعد الموت؛ فإنه من اليوم الآخر.

إذاً؛ ما أقرب اليوم الآخر لنا؛ ليس بيننا وبينه إلا أن يموت الإنسان، ثم يدخل في اليوم الآخر الذي ليس فيه إلا الجزاء على العمل.

ولهذا يجب علينا أن ننتبه لهذه النقطة.

فكر أيها الإنسان؛ تجد أنك على خطر؛ لأن الموت ليس له أجل معلوم عندنا؛ قد يخرج الإنسان من بيته ولا يرجع إليه، وقد يكون الإنسان على كرسي مكتبه ولا يقوم منه، وقد ينام الإنسان على فراشه ولكنه يحمل من فراشه إلى سرير غسله، وهذا أمر يستوجب منا أن ننتهز فرصة العمر بالتوبة إلى الله عز وجل، وأن يكون الإنسان دائمًا يستشعر بأنه تائب إلى الله وراجع ومنيب حتى يأتيه الأجل وهو على خير ما يرام.

قوله: «فيؤمنون بفتنة القبر وبعذاب القبر ونعيمه»:

الفتنة هنا الاختبار، والمراد بفتنة القبر: سؤال الميت إذا دفن عن ربه ودينه ونبيه.

والضمير في «يؤمنون»: يعود على أهل السنة؛ أي: أن أهل السنة والجماعة يؤمنون بفتنة القبر، وذلك لدلالة الكتاب والسنة عليها.

- أما الكتاب؛ ففي قوله تعالى: ﴿**يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ**﴾ [إبراهيم: ٢٧]؛ فإن هذا في فتنة القبر؛ كما ثبت في «الصحيحين» وغيرهما من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم[٢].

- وأما السنة فقد تضافرت بأن الإنسان يفتن في قبره، وهي فتنة قال فيها النبي: «**إنه قد أوحي إليَّ أنكم تفتنون في قبوركم مثل (أو: قريبًا من) فتنة الدجال**»[٣].

وفتنة الدجال أعظم فتنة منذ خلق الله آدم إلى أن تقوم الساعة؛ كما في «صحيح

---

(١) سبق تخريجه أول الكتاب.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٣٦٩) ومسلم (٢٨٧١) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (٨٦) ومسلم (٩٠٥) من حديث أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها.

مسلم» عن عمران بن حصين رضي الله عنه؛ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما بين خلق آدم إلى قيام الساعة أمر أكبر من الدجال**»[١].

ولكن النبي ﷺ قال لأصحابه، بل قال لأمته: «**إن يخرج وأنا فيكم؛ فأنا حجيجه دونكم، وإن يخرج ولست فيكم؛ فامرؤ حجيج نفسه، والله خليفتي على كل مسلم**»[٢].

ومع ذلك؛ فإن نبينا محمداً ﷺ أعلمنا كيف نحاجه، وأعلمنا بأوصافه وميزاته، حتى كأنا نشاهده رأي عين، وبهذه الأوصاف والميزات نستطيع أن نحاجه.

ولهذا نقول: إن فتنة الدجال أعظم فتنة، والرسول عليه الصلاة والسلام قال: «**إنكم تفتنون في قبوركم مثل - أو قريبًا من - فتنة الدجال**»[٣].

وما أعظمها من فتنة! لأن الإنسان يتلقى فيها السؤال الذي لا يمكن الجواب عليه، إلا على أساس متين من العقيدة والعمل الصالح.

قوله: «**فأما الفتنة فإن الناس يفتنون في قبورهم**».

هذا شروع في بيان كيفية فتنة الميت في قبره.

وكلمة: «الناس» عامة، وظاهر كلام المؤلف - رحمه الله - أن كل أحد؛ حتى الأنبياء والصديقون والشهداء والمرابطون وغير المكلفين من الصغار والمجانين، وفي هذا تفصيل؛ فنقول:

أولاً: أما الأنبياء؛ فلا تشملهم الفتنة، ولا يسألون، وذلك لوجهين:

الأول: أن الأنبياء أفضل من الشهداء، وقد أخبر النبي ﷺ أن الشهيد يوقى فتنة القبر، وقال: «**كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنة**»[٤]؛ أخرجه النسائي.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٤٦) وأحمد في «مسنده» (٤/ ٢٠) وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٧٤٧١) من حديث عمران بن حصين - رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٣٧) وأبو داود (٤٣٢١) والترمذي (٢٢٤٠) من حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) أخرجه النسائي في «الكبرى» (٢١٨٠) وفي «الصغرى» (٢٠٥٣) والحديث صححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع».

الثاني: أن الأنبياء يسأل عنهم؛ فيقال للميت: من نبيك؟ فهم مسئول عنهم، وليسوا مسئولين، ولهذا قال النبي ﷺ: «إنه أوحي إليَّ أنكم تفتنون في قبوركم»[١]، والخطاب للأمة المرسل إليهم؛ فلا يكون الرسول داخلاً فيهم.

ثانيًا: وأما الصديقون؛ فلا يسألون؛ لأن مرتبة الصديقين أعلى من مرتبة الشهداء؛ فإذا كان الشهداء لا يسألون؛ فالصديقون من باب أولى، ولأن الصديق على وصفه مصدَّق وصادق، فهو قد علم صدقه؛ فلا حاجة إلى اختباره؛ لأن الاختبار لمن يُشَك فيه؛ هل هو صادق أو كاذب، أما إذا كان صادقًا؛ فلا حاجة تدعو لسؤاله، وذهب بعض العلماء إلى أنهم يسألون؛ لعموم الأدلة، والله أعلم.

ثالثًا: وأما الشهداء الذين قتلوا في سبيل الله؛ فإنهم لا يسألون؛ لظهور صدق إيمانهم بجهادهم.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ الآية [التوبة: ١١١].

وقال: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

وقال النبي: «كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنة»[٢].

وإذا كان المرابط؛ إذا مات؛ أمن الفتان؛ لظهور صدقه؛ فهذا الذي قتل في المعركة مثله أو أولى منه؛ لأنه بذل وعرض رقبته لعدو الله؛ إعلاء لكلمة الله، وانتصاراً لدينه، وهذا من أكبر الأدلة على صدق إيمانه.

رابعًا: وأما المرابطون؛ فإنهم لا يفتنون؛ ففي «صحيح مسلم»؛ أن رسول الله ﷺ قال: «رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات؛ جرى عليه عمله الذي كان يعمله، وأجرى عليه رزقه، وأمن الفتان»[٣].

(١، ٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه مسلم (١٩١٣) والنسائي في «الصغرى» (٣١٦٧) وأحمد في «مسنده» (٥/ ٤٤٠) من حديث سلمان الفارسي رضي الله عنه.

خامساً: الصغار والمجانين، هل يفتنون أو لا يفتنون؟.

قال بعض العلماء: إنهم يفتنون؛ لدخولهم في العموم، ولأنهم إذا سقط التكليف عنهم في حال الحياة؛ فإن حال الممات تخالف حال الحياة.

وقال بعض العلماء: إن المجانين والصغار لا يسألون، لأنهم غير مكلفين؛ وإذا كانوا غير مكلفين؛ فإنه لا حساب عليهم؛ إذ لا حساب إلا على من كان مكلفًا يعاقب على المعاصي، وهؤلاء لا يعاقبون، وليس لهم إلا الثواب؛ إن عملوا عملا صالحًا يثابون عليه.

إذاً؛ خرج من قول المؤلف ـ رحمه الله ـ: «فإن الناس»: خمسة أصناف: الأنبياء، والصديقون، والشهداء، والمرابطون، ومن لا عقل له، كالمجانين والصبيان.

تنبيه: الناس ثلاثة أقسام: مؤمنون خلص ومنافقون، وهذان القسمان يفتنون، والثالث كفار خلص؛ ففي فتنتهم خلاف.

وقد رجح ابن القيم ـ رحمه الله ـ في كتاب «الروح» أنهم يفتنون.

وهل تسأل الأمم السابقة؟

ذهب بعض العلماء ـ وهو الصحيح ـ إلى أنه يسألون؛ لأنه إذا كانت هذه الأمة ـ وهي أشرف الأمم ـ تسأل؛ فمن دونها من باب أولى.

قوله: «في قبورهم»: جمع قبر، وهي مدفن الأموات، والمراد ما هو أعم؛ فيشمل البرزخ، وهو ما بين موت الإنسان وقيام الساعة، سواء دفن الميت أو أكلته السباع في البر أو الحيتان في البحر أو أتلفته الرياح.

والظاهر أن الفتنة لا تكون إلا إذا انتهت الأحوال الدنيوية، وسلم إلى عالم الآخرة؛ فإذا تأخر دفنه يومًا أو أكثر؛ لم يكن السؤال حتى يدفن.

قوله: «فيقال للرجل»: القائل ملكان يأتيان إلى الإنسان في قبره، ويجلسانه، ويسألانه، حتى إنه ليسمع قرع نعال المنصرفين عنه، وهما يسألانه، ولهذا كان من هدي النبي ﷺ، أنه إذا دفن الميت؛ وقف عليه، وقال: **«استغفروا لأخيكم، واسألوا له**

التثبيت؛ فإنه الآن يسأل»[١] .

وورد في بعض الآثار أن اسمهما : منكر، ونكير[٢] .

وأنكر بعض العلماء هذين الاسمين؛ قال: كيف يسمى الملائكة وهم الذين وصفهم الله تعالى بأوصاف الثناء بهذين الاسمين المنكرين، وضعف الحديث الوارد في ذلك.

وذهب آخرون إلى أن الحديث حجة، وأن هذه التسمية ليس لأنهما منكران من حيث ذواتهما، ولكنهما منكران من حيث إن الميت لا يعرفهما، وليس له بهما علم سابق، وقد قال إبراهيم عليه السلام لأضيافه الملائكة: ﴿**قَوْمٌ مُّنكَرُونَ**﴾ [الذاريات: ٢٥]؛ أنه لا يعرفهم؛ فهذان منكر ونكير؛ لأنهما غير معروفين للميت.

ثم هذان الملكان هل هما ملكان جديدان، موكلان بأصحاب القبور أو هما الملكان الكاتبان اللذان عن اليمين وعن الشمال قعيد؟.

- منهم من قال: إنهما الملكان اللذان يصحبان المرء؛ فإن لكل إنسان ملكين في الدنيا يكتبان أعماله، وفي القبر يسألانه هذه الأسئلة الثلاثة.

- ومنهم من قال: بل هما ملكان آخران، والله عز وجل يقول: ﴿**وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ**﴾ [المدثر: ٣١]، والملائكة خلق كثير؛ قال النبي : «**أطت السماء وحق لها أن تئط (والأطيط: صرير الرحل)؛ ما من موضع شبر (أو قال: أربع أصابع) إلا وفيه ملك قائم لله أو راكع أو ساجد**»[٣] ، والسماء واسعة الأرجاء، كما قال الله تعالى: ﴿**وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ**﴾ [الذاريات: ٤٧].

فالمهم أنه لا غرابة أن ينشئ الله عز وجل لكل مدفون ملكين يرسلهما إليه، والله

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٣٢٢١) والبيهقي في «السنن» (٦٨٥٦ب) من حديث عثمان رضي الله عنه والحديث صححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٩٤٥).

(٢) حسن: أخرجه الترمذي (١٠٧١) وابن حبان في «صحيحه» (٣١١٧) من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه.

والحديث حسنه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٧٢٤).

(٣) سبق تخريجه.

على كل شيء قدير .

قوله: «من ربك؟»: يعني: من ربك الذي خلقك وتعبده وتخصه بالعبادة؟ لأجل أن تنتظم هذه الكلمة توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية .

وقوله: «ما دينك؟»: يعني: يعني ما عملك الذي تدين به لله عز وجل وتتقرب به إليه؟ .

والثالث: «من نبيك؟»: يعني: من النبي الذي تؤمن به وتتبعه؟

قوله: «فـ ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧]؛ أي: يجعلهم ثابتين لا يترددون ولا يتلعثمون في الجواب .

والقول الثابت: هو التوحيد؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ [إبراهيم: ٢٧] .

وقوله: «﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾»: يحتمل أنها متعلقة بـ ﴿يُثَبِّتُ﴾؛ يعني: أن الله يثبت المؤمنين في الدنيا وفي الآخرة. ويحتمل أنها متعلقة بالثابت؛ فتكون وصفًا للقول؛ يعني: أن هذا القول ثابت في الدنيا وفي الآخرة. ولكن المعنى الأول أحسن وأقرب؛ لأن الله يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ﴾ [الأنفال: ٤٥]. وقال الله عز وجل: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ﴾ [الأنفال: ١٢]؛ فهم يثبتون في الحياة الدنيا وفي الآخرة بالقول الثابت .

قوله: «فيقول المؤمن: ربي الله، والإسلام ديني، ومحمد نبيي»:

فيقول المؤمن: ربي الله. عندما يقال له: من ربك؟ ويقول إذا قيل له: ما دينك؟ فيقول: الإسلام ديني. ويقول كذلك: محمد ﷺ نبيِّ. إذا قيل له: من نبيك؟ .

وحينئذ ، يكون الجواب صوابًا، فينادي مناد من السماء: أن صدق عبدي؛ فأفرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له بابًا إلى الجنة[١] .

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود والنسائي(٢٠٠١) وابن ماجه (١٥٤٩) من حديث البراء بن عازب - رضي الله عنه.

والحديث صححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (١٦٧٦).

قوله: «وأما المرتاب؛ فيقول: هاه هاه! لا أدري؛ سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته».

المرتاب: الشاك؛ والمنافق وشبههما.

«فيقول: هاه! هاه! لا أدري؛ سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته»: يعني: لم يلج الإيمان قلبه، وإنما كان يقول كما يقول الناس من غير أن يصل الإيمان إلى قلبه.

وتأمل قوله: «هاه! هاه!»: كأن شيئًا غاب عنه؛ يريد أن يتذكره، وهذا أشد في التحسر؛ أن يتخيل أنه يعرف هذا الجواب، ولكن يحال بينه وبينه، ويقول: هاه! هاه! ثم يقول: سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته. ولا يقول: ربي الله! ولا: ديني الإسلام! ولا نبيِّ محمد! لأنه في الدنيا مرتاب شاك!

هذا إذا سئل في قبره وصار أحوج ما يكون إلى الجواب الصواب؛ يعجز ويقول: لا أدري؛ سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته.

إذاً؛ إيمانه قول فقط!!

قوله: «فيضرب بمرزبة من حديد، فيصيح صيحة يسمعها كل شيء إلا الإنسان»:

«يضرب»: يعني: الذي لم يجب؛ سواء كان الكافر أو المنافق والضارب له الملكان اللذان يسألانه.

والمرزبة: هي مطرقة من حديد، وقد ورد في بعض الروايات أنه لو اجتمع عليها أهل منى؛ ما أقلوها.

فإذا ضرب؛ يصيح صيحة يسمعها كل شيء إلا الإنسان.

قوله: «يضرب فيصيح»: أي: صياحًا مسموعًا؛ يسمعه كل شيء، يكون حوله مما يسمع صوته، وليس كل شيء في أقطار الدنيا يسمعه، وأحيانًا يتأثر به ما يسمعه؛ كما مر النبي ﷺ بأقبر للمشركين على بغلته؛ فحادت به، حتى كادت تلقيه؛ لأنها سمعت أصواتهم يعذَّبون[1].

---

(١) أخرجه مسلم (٣٨٦٨) وأحمد في «مسنده» (٥/ ١٩٠) من حديث زيد بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ.

قوله: «إلا الإنسان»: يعني: أنه لا يسمع هذا الصياح، وذلك لحكمة عظيمة؛ منها:

أولاً: ما أشار إليه النبي بقوله: **«لولا أن لا تدافنوا؛ لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر»**[1].

ثانيًا: أن في إخفاء ذلك سترًا للميت.

ثالثًا: أن فيه عدم إزعاج لأهله؛ لأن أهله إذا سمعوا ميتهم يعذب ويصيح؛ لم يستقر لهم قرار.

رابعًا: عدم تخجيل أهله؛ لأن الناس يقولون: هذا ولدكم! هذا أبوكم! هذا أخوكم! وما أشبه ذلك.

خامسًا: أننا قد نهلك؛ لأنها صيحة ليست هينة، بل صيحة توجب أن تسقط القلوب من معاليقها، فيموت الإنسان أو يغشى عليه.

سادسًا: لو سمع الناس صراخ هؤلاء المعذبين؛ لكان الإيمان بعذاب القبر من باب الإيمان بالشهادة، لا من باب الإيمان بالغيب، وحينئذ تفوت مصلحة الامتحان؛ لأن الناس سوف يؤمنون بما شاهدوه قطعًا؛ لكن إذا كان غائبًا عنهم، ولم يعلموا به إلا عن طريق الخبر، صار من باب الإيمان بالغيب.

تنبيه:

قول المؤلف ـ رحمه الله ـ: «فيصيح صيحة يسمعها كل شيء إلا الإنسان، ولو سمعها الإنسان؛ لصعق»، إنما ورد قوله: «يسمعها كل شيء إلا الإنسان...» إلخ في قول الجنازة إذا احتملها الرجال على أعناقهم؛ كما قال النبي ﷺ: **«فإن كانت صالحة؛ قالت: قدموني! وإن كانت غير صالحة؛ قالت: يا ويلها!! أين يذهبون بها؟! يسمع صوتها كل شيء إلا الإنسان، ولو سمعه؛ لصعق»**[2]. أما الصيحة في القبر؛ فقال النبي ﷺ: **«فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين»**[3]. أخرجه البخاري بهذا اللفظ.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري (١٣١٦) والنسائي (١٩٠٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٣٧٤) ومسلم (٢٨٧٠) من حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه.

والمراد بالثقلين: الإنس والجن.

قوله: «ثم بعد هذه الفتنة إما نعيم وإما عذاب»:

«**ثم**»: هذه لمطلق الترتيب، وليست للتراخي؛ لأن الإنسان يعذب أو ينعم فوراً؛ كما سبق أنه إذا قال: لا أدري! يضرب بمرزبة، وأن ذاك الذي أجاب بالصواب؛ يفتح له باب إلى الجنة، ويوسع له في قبره.

وهذا النعيم أو العذاب؛ هل هو على البدن أو على الروح أو يكون على البدن والروح جميعًا؟

نقول: المعروف عند أهل السنة والجماعة أنه في الأصل على الروح، والبدن تابع لها؛ كما أن العذاب في الدنيا على البدن، والروح تابعة له، وكما أن الأحكام الشرعية في الدنيا على الظاهر، وفي الآخرة بالعكس؛ ففي القبر يكون العذاب أو النعيم على الروح، لكن الجسم يتأثر بهذا تبعًا، وليس على سبيل الاستقلال، وربما يكون العذاب على البدن والروح تتبعه، لكن هذا لا يقع إلا نادراً؛ إنما الأصل أن العذاب على الروح والبدن تبع، والنعيم للروح والبدن تبع.

وقوله: «**إما نعيم وإما عذاب**»: فيه إثبات النعيم والعذاب في القبر، وقد دل على ذلك كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، بل لنا أن نقول: وإجماع المسلمين.

- أما من كتاب الله؛ فالثلاثة أصناف التي في آخر الواقعة ظاهرة في ثبوت عذاب القبر ونعيمه.

قال الله تعالى: ﴿**فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ * وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ * وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لا تُبْصِرُونَ * فَلَوْلا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ * وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * فَسَلامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ * فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ**﴾ [الواقعة: ٨٣-٩٤].

وهذا أمر مشاهد؛ يسمع المحتضر يرحب بالقادمين عليه من الملائكة(١)، ويقول:

---

(١) سبق تخريجه.

مرحبًا! وأحيانًا يقول: مرحبًا؛ اجلس هنا! كما ذكره ابن القيم - رحمه الله - في كتاب «الروح»، وأحيانًا يحس بأن هذا الرجل أصيب بشيء مخيف، فيتغير وجهه عند الموت إذا نزلت عليه ملائكة العذاب والعياذ بالله.

ومن أدلة القرآن قوله تعالى في آل فرعون: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾، وهذا قبل قيام الساعة؛ بدليل قوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦].

ومن أدلة القرآن أيضًا قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلآئِكَةُ بَاسِطُواْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُواْ أَنفُسَكُمُ﴾ [الأنعام: ٩٣]، وهم شاحون بأنفسهم، لا يريدونها أن تخرج؛ لأنهم قد بشروا بالعذاب والعقوبة؛ فتجد الروح تأبى الخروج؛ ولهذا قال: ﴿أَخْرِجُواْ أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ [الأنعام: ٩٣] ﴿الْيَوْمَ﴾: (الـ): للعهد الحضوري؛ كقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]؛ يعني: اليوم الحاضر.

وكذلك: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ﴾: (الـ) للعهد الحضوري، والمراد به: يوم حضور الملائكة لقبض أرواحهم، وهذا يقتضي أنهم يعذبون من حين أن تخرج أرواحهم، وهذا هو عذاب القبر.

ومن أدلة القرآن أيضًا قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ﴾ [النحل: ٣٢]، وذلك في الحال الوفاة.

ولهذا جاء في الحديث الصحيح: «**يقال لنفس المؤمن: اخرجي أيتها النفس الطيبة إلى مغفرة من الله ورضوان**»[١]؛ فتفرح بهذه البشرى، وتخرج منقادة سهلة، وإن كان البدن قد يتألم، لكن الروح منقادة مستبشرة.

- وأما السنة في عذاب القبر ونعيمه؛ فمتواترة، ومنها ما ثبت في «الصحيحين» من حديث ابن عباس رضي الله عنهما؛ أن النبي ﷺ مر بقبرين؛ فقال: «**إنهما ليعذبان، وما يعذبان في كبير...**»[٢]. الحديث.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٣٧٨) ومسلم (٢٩٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنه.

ـ وأما الإجماع: فكل المسلمين يقولون في صلاتهم: أعوذ بالله من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر . . . ولو أن عذاب القبر غير ثابت؛ ما صح أن يتعوذوا بالله منه؛ إذ لا تعوذ من أمر ليس موجوداً، وهذا يدل على أنهم يؤمنون به.

فإن قال قائل: هل العذاب أو النعيم في القبر دائم أو ينقطع؟

فالجواب: أن يقال:

ـ أما العذاب للكفار: فإنه دائم، ولا يمكن أن يزول العذاب عنهم؛ لأنهم مستحقون لذلك، ولأنه لو زال العذاب عنهم؛ لكان هذا راحة لهم، وهم ليسوا أهلا لذلك؛ فهم باستمرار في عذاب إلى يوم القيامة، ولو طالت المدة؛ فقوم نوح الذين أُغرقوا ما زالوا يعذبون في هذه النار التي أدخلوا فيها، ويستمر عذابهم إلى يوم القيامة، وكذلك آل فرعون يعرضون على النار غدواً وعشيًا.

وذكر بعض العلماء أنه يخفف عن الكفار ما بين النفختين، واستدلوا بقوله تعالى: ﴿**قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا**﴾ [يس: ٥٢]، ولكن هذا ليس بلازم؛ لأن قبورهم مرقد لهم، وإن عذبوا فيها.

ـ أما عصاة المؤمنين الذين يقضي الله تعالى عليهم بالعذاب؛ فهؤلاء قد يدوم عذابهم وقد لا يدوم، وقد يطول، وقد لا يطول؛ حسب الذنوب، وحسب عفو الله عز وجل.

والعذاب في القبر أهون من عذاب يوم القيامة؛ لأن العذاب في القبر ليس فيه خزي وعار، لكن في الآخرة فيه الخزي والعار؛ لأن الأشهاد موجودة: ﴿**إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ**﴾ [غافر: ٥١].

فإن قال قائل: لو أن هذا الرجل تمزق أوصالا، وأكلته السباع، وذرته الرياح؛ فكيف يكون عذابه، وكيف يكون سؤاله؟!.

فالجواب: أن الله عز وجل على كل شيء قدير، وهذا أمر غيبي؛ فالله عز وجل قادر على أن يجمع هذه الأشياء في عالم الغيب، وإن كنا نشاهدها في الدنيا متمزقة متباعدة، لكن في عالم الغيب ربما يجمعهما الله:

فانظر إلى الملائكة تنزل لقبض روح الإنسان في المكان نفسه؛ كما قال تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٥]، ومع ذلك؛ لا نبصرهم. وملك الموت يكلم الروح، ونحن لا نسمع.

وجبريل يتمثل أحيانًا للرسول عليه الصلاة والسلام، ويكلمه بالوحي في نفس المكان، والناس لا ينظرون ولا يسمعون.

فعالم الغيب لا يمكن أبدًا أن يقاس بعالم الشهادة، وهذه من حكمة الله عز وجل؛ فنفسك التي في جوفك ما تدري كيف تتعلق ببدنك؟! كيف هي موزعة على البدن؟! وكيف تخرج منك عند النوم؟! هل تحس بها عند استيقاظك بأنها ترجع؟! ومن أين تدخل لجسمك؟!.

فعالم الغيب ليس فيه إلا التسليم، ولا يمكن فيه القياس إطلاقًا؛ فالله عز وجل قادر على أن يجمع هذه المتفرقات من البدن المتمزق الذي ذرته الرياح، ثم يحصل عليه المساءلة والعذاب أو النعيم؛ لأن الله سبحانه على كل شيء قدير.

فإن قال قائل: الميت يدفن في قبر ضيق؛ فكيف يوسع له مدَّ البصر؟!.

فالجواب: أن عالم الغيب لا يقاس بعالم الشهادة، بل إننا لو فرض أن أحدًا حفر حفرة مدَّ البصر، ودفن فيها الميت، وأطبق عليه التراب؛ فالذي لا يعلم بهذه الحفرة؛ هل يراها أو لا يراها؟! لا شك أنه يراها؛ مع أن هذا في عالم الحس، ومع ذلك لا يرى هذه السعة، ولا يعلم بها؛ إلا من شاهدها.

فإذا قال قائل: نحن نرى الميت الكافر إذا حفرنا قبره بعد يوم أو يومين؛ نرى أن أضلاعه لم تختلف وتتداخل من الضيق؟!

فالجواب: كما سبق أن هذا من عالم الغيب، ومن الجائز أن تكون مختلفة؛ فإذا كشف عنها؛ أعادها الله، وردَّ كل شيء إلى مكانه؛ امتحانًا للعباد؛ لأنها لو بقيت مختلفة ونحن قد دفنَّاه وأضلاعه مستقيمة؛ صار الإيمان بذلك إيمان شهادة.

فإن قال قائل كما قال الفلاسفة: نحن نضع الزئبق على الميت، وهو أسرع الأشياء تحركًا ومروقًا، وإذا جئنا من الغد؛ وجدنا الزئبق على ما هو عليه، وأنتم

تقولون: إن الملائكة يأتون ويجلسون هذا الرجل، والذي يجلس؛ كيف يبقى عليه الزئبق؟!

فنقول: أيضًا كما قلنا سابقًا: هذه من عالم الغيب، وعلينا الإيمان والتصديق، ومن الجائز أيضًا أن الله عز وجل يرد هذا الزئبق إلى مكانه بعد أن تحول بالجلوس.

ونقول أيضًا: انظروا إلى الرجل في المنام؛ يرى أشياء لو كان على حسب رؤيته إياها؛ ما بقي في فراشه على السرير، وأحيانًا تكون رؤيا حق من الله عز وجل، فتقع كما كان يراها في منامه، ومع ذلك؛ نحن نؤمن بهذا الشيء.

والإنسان إذا رأى في منامه ما يكره؛ أصبح وهو متكدر، وإذا رأى ما يسره؛ أصبح وهو مستبشر؛ كل هذا يدل على أن أمور الروح ليست من الأمور المشاهدة، ولا تقاس أمور الغيب بالمشاهد، ولا ترد النصوص الصحيحة؛ لاستبعادنا ما تدل عليه حسب المشاهد.

● قال الشيخ صالح الفوزان:

اليوم الآخر: هو يوم القيامة، والإيمان به أحد أركان الإيمان، وقد دل عليه العقل والفطرة، وصرحت به جميع الكتب السماوية، ونادى به جميع الأنبياء والمرسلين، وسمي باليوم الآخر؛ لتأخره عن الدنيا، وقد ذكر الشيخ رحمه الله هنا ضابطًا شاملاً لمعنى الإيمان باليوم الآخر بأنه الإيمان بكل ما أخبر به النبي ﷺ مما يكون بعد الموت، فيدخل فيه الإيمان بكل ما دلت عليه النصوص من حالة الاحتضار وحالة الميت في القبر والبعث من القبور وما يحصل بعده، ثم أشار الشيخ رحمه الله إلى أشياء من ذلك.

منها: ما يكون في القبر، فقال: **(فيؤمنون بفتنة القبر، وبعذاب القبر ونعيمه)**[1] فذكر أمرين:

الأمر الأول: فتنة القبر، والفتنة: لغة: الامتحان والاختبار، والمراد بها هنا:

---

(١) أخرجه النسائي (٢٠٠١) وأبو داود (٤٧٥٣) وابن ماجه (١٥٤٩) من حديث البراء بن عازب - رضي الله عنه -.

وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٣٦٧٦).

سؤال الملكين للميت؛ ولهذا قال: (**فأما الفتنة فإن الناس يفتنون في قبورهم فيقال للرجل**) أي: الميت، سواء كان رجلاً أو امرأة، ولعل ذكر الرجل من باب التغليب، ثم ذكر الأسئلة التي توجه إلى الميت وما يجيب به المؤمن وما يجيب به غير المؤمن وما يكون بعد هذه الإجابة من نعيم أو عذاب.

والإيمان بسؤال الملكين واجب؛ لثبوته عن النبي ﷺ في أحاديث يبلغ مجموعها حد التواتر. ويدل على ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿**يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ**﴾ [إبراهيم: ٢٧]، فقد أخرج الشيخان من حديث البراء بن عازب رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال في قوله تعالى: ﴿**يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ**﴾: «**نزلت في عذاب القبر**»[١]، زاد مسلم: «**فيقال له: من ربك؟ فيقول: ربي الله، ونبيي محمد ﷺ، فذلك قوله عز وجل:** ﴿**يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ**﴾»[١]، والقول الثابت هو: كلمة التوحيد التي ثبتت في قلب المؤمن بالحجة والبرهان، وتثبيت المؤمنين بها في الدنيا: أنهم يتمسكون بها ولو نالهم في سبيلها ما نالهم من الأذى والتعذيب، وتثبيتهم بها في الآخرة: توفيقهم للجواب عند سؤال الملكين.

وقوله: (**وأما المرتاب**) أي: الشاك (**فيقول**) إذا سئل (**هاه هاه**) كلمة تردد وتوجع (**لا أدري، سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته**)؛ لأنه غير مؤمن بما جاء به الرسول ﷺ فيستعجم عليه الجواب، ولو كان من أعلم الناس وأفصحهم، كما قال تعالى: ﴿**وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ**﴾ (**فيضرب بمرزبة من حديد**) وهي المطرقة الكبيرة (**فيصيح صيحة يسمعها كل شيء إلا الإنسان**) ثم بين الحكمة من عدم سماع الإنسان لها بقوله: (**ولو سمعها الإنسان لصعق**) أي: خر ميتًا أو غشي عليه، ومن حكمة الله أيضًا أن ما يجري على الميت في قبره لا يحس به الأحياء؛ لأن الله تعالى جعله من الغيب ولو أظهره لفاتت الحكمة المطلوبة وهي الإيمان بالغيب.

الأمر الثاني: مما يجري على الميت في قبره ما أشار إليه الشيخ بقوله: (**ثم بعد هذه الفتنة إما نعيم وإما عذاب إلى أن تقوم القيامة الكبرى**) هذا فيه إثبات عذاب القبر أو نعيمه، ومذهب أهل السنة والجماعة: أن الميت إذا مات يكون في نعيم أو عذاب،

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٧١) والنسائي (٢٠٥٦) وابن ماجه (٤٢٦٩).

وأن ذلك يحصل لروحه وبدنه، كما تواترت به الأحاديث عن رسول الله ﷺ، فيجب الإيمان به ولا يتكلم في كيفيته وصفته؛ لأن ذلك لا تدركه العقول؛ لأنه من أمور الآخرة، وأمور الآخرة لا يعلمها إلا الله ومن أطلعهم الله على شيء منه، وهم الرسل صلوات الله وسلامه عليهم.

وأنكر عذاب القبر المعتزلة، وشبهتهم في ذلك: أنهم لا يدركونه ولا يرون الميت يعذب ولا يسأل.

والجواب عن ذلك: أن عدم إدراكنا ورؤيتنا للشيء لا يدل على عدم وجوده ووقوعه، فكم من أشياء لا نراها وهي موجودة ومن ذلك عذاب القبر أو نعيمه. وأن الله تعالى جعل أمر الآخرة وما كان متصلاً بها غيبًا وحجبها عن إدراك العقول في هذه الدار؛ ليتميّز الذين يؤمنون بالغيب من غيرهم. وأمور الآخرة لا تقاس بأمور الدنيا. والله أعلم.

وعذاب القبر على نوعين:

النوع الأول: عذاب دائم وهو عذاب الكافر، كما قال تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر: ٤٦].

النوع الثاني: يكون إلى مدة ثم ينقطع، وهو عذاب بعض العصاة من المؤمنين، فيعذب بحسب جرمه ثم يخفف عنه. وقد ينقطع عنه العذاب بسبب دعاء أو صدقة أو استغفار.

* * *

[أسئلة وأجوبة نموذجية على الإيمان بفتنة القبر وعذابه ونعيمه]

● قال الشيخ عبد العزيز المحمد السلمان:

س - ما المراد بالإيمان بفتنة القبر وما الدليل على ذلك؟

ج - المراد التصديق الجازم بما ورد من أن الناس يمتحنون في قبورهم. ففي الصحيحين من حديث البراء بن عازب - رضي الله عنهما - عن النبي ﷺ قال في قول تعالى: ﴿يثبّتُ اللَّهُ الَّذين آمنُوا بالقَوْلِ الثَّابتِ فِي الْحيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخرَةِ﴾ «نزلت في عذاب القبر». وزاد مسلم: فيقال له: «من ربك؟ فيقول ربي الله ونبي محمد فذلك قوله سبحانه ﴿يثبّتُ اللَّهُ الَّذين آمنُوا بالقَوْلِ الثَّابتِ﴾».

وعن أبي داود: «فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله ﷺ، فيقولان له: وما يدريك؟ فيقول قرأت كتاب الله تعالى فآمنت به وصدقت.

فينادي مناد: أن صدق عبدي فأفرشوه من الجنة، وافتحوا له بابًا إلى الجنة، وألبسوه من الجنة، ويفسح له مدّ بصره.

وقال في الكافر: فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه هاه، لا أدري إلى أن قال: فينادي مناد من السماء: أن كذب عبدي فأفرشوه من النار وافتحوا له بابًا إلى النار، فيأتيه من حرها وسَمُومها ويضيق عليه القبر حتى تختلف فيه أضلاعه».

س - ما الدليل على عذاب القبر ونعيمه من الكتاب والسنة؟

ج - قوله تعالى في حق آل فرعون: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ . . . إلخ وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ وقوله تعالى: ﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا﴾.

وفي الصحيحين ـ عن عائشة رضي الله عنها ـ أنها سألت رسول الله ﷺ عن عذاب القبر، قال: «**نعم عذابٌ حق**» وقال: «**استعيذوا بالله من عذاب القبر**» وقال: «**إذا تَشَهَّد أحدكم فليستعذ بالله من أربع**» وذكر منها عذاب القبر.

والحديث المتقدم قريبًا قبل هذا السؤال، وفي الصحيحين عن أبي أيوب ـ رضي الله عنه ـ قال: خرج علينا رسول الله ﷺ وقد وجبت الشمس فسمع صوتًا فقال: «**يهود تعذب في قبورها**» وفيهما عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: مر النبي ﷺ بقبرين فقال: «**إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير**»، ثم قال: «**بلى إنه كبير، أمَّا أحدهما فكان لا يستبرئ من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة**».

وفي حديث أنس ـ رضي الله عنه ـ «**تنزهوا من البول فإن عامة عذاب القبر من البول**».

وورد أن رجلاً غل شملة من المغنم فجاء سهم غائر فقتله، فقال الناس: هنيئًا له الجنة، فقال رسول الله ﷺ: «**كلا والذي نفسي بيده إن الشملة التي أخذها يوم خيبر من المغانم التي لم تصبها المقاسم تشتعل عليه نارًا**».

* * *



[القيامة الكبرى وأهوالها]

إلى أن تَقُومَ القيامَةَ الكُبْرى. فَتُعادُ الأرْواحُ إلى الأجْساد.

وَتَقومُ القِـيامَةُ التي أخْبَـرَ اللَّهُ بِها في كِتابِهِ، وعَلى لِسـانِ رَسوله، وَأجْمَعَ عَلَيْها المُسْلمُونَ.

فَـيقومُ النَّاسُ منْ قُـبورهِمْ لِرَبِّ العالَمينْ، حُفـاةً عُراةً غُرْلاً. وتَدْنُو منْهُمُ الشَّمْسُ. ويُلْجِمهُمُ العرَقُ. فَتُنْصَبُ المَوازين، فَتُوزَنُ بها أعْمالُ العباد.

﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٢]. وتُنْشَـرُ الدَّواوينُ، وهي صَحَائفُ الأعْمَـال. فآخذٌ كتابَهُ بِيَمـينه، وآخذٌ كتابه بشماله، أوْ من وَرَاء ظَهْره.

كمـا قَالَ سُـبْحَانَـهُ وتَعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا (١٣) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٣-١٤]. ويُحاسِبُ اللَّهُ الخَلائقَ.

• الشرح •

● قال الشيخ محمد خليل هراس:

قـوله: «وتقوم القـيامة» إلخ: يعني: القيامة الكبرىٰ وهذا الوصف للتخصيص

احترز به عن القيامة الصغرىٰ التي تكون عند الموت كما في الخبر: «**من مات فقد قامت قيامته**» وذلك أن الله عز وجل إذا أذن بانقضاء هذه الدنيا أمر إسرافيل عليه السلام أن ينفخ في الصور النفخة الأولىٰ فيصعق كل من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله، وتصبح الأرض صعيداً جرزًا، والجبال كثيبًا مهيلاً، ويحدث كل ما أخبر الله به في كتابه لا سيما في سورتي التكوير والانفطار، وهذا هو آخر أيام الدنيا، ثم يأمر الله السماء فتمطر مطرًا كمني الرجال أربعين يومًا فينبت منه الناس في قبورهم من عجب أذنابهم وكل ابن آدم يبلىٰ إلا عجب الذنب حتىٰ إذا تم خلقهم وتركيبهم أمر الله إسرافيل بأن ينفخ في الصور النفخة الثانية فيقوم الناس من الأجداث أحياء فيقول الكفار والمنافقون حينئذ: ﴿**يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا**﴾ ويقول المؤمنون: ﴿**هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ**﴾ ثم تحشرهم الملائكة إلىٰ الموقف حفاة غير منتعلين عراة غير مكتسين غرلاً غير مختتنين جمع أغرل وهو الأقلف والغرلة القلفة، وأول من يكتسي يوم القيامة إبراهيم كما في الحديث وهناك في الموقف تدنو الشمس من رءوس الخلائق ويلجمهم العرق، فمنهم من يبلغ كعبيه، ومنهم من يبلغ ركبتيه، ومنهم من يبلغ ثدييه، ومنهم من يبلغ ترقوته كل علىٰ قدر عمله، ويكون أناس في ظل الله عز وجل، فإذا اشتد بهم الأمر وعظم الكرب استشفعوا إلىٰ الله عز وجل بالرسل والأنبياء أن ينقذوهم مما هم فيه، وكل رسول يحيلهم علىٰ من بعده حتىٰ يأتوا نبينا ﷺ فيقول: «**أنا لها**»[(١)] ويشفع فيهم فينصرفون إلىٰ فصل القضاء وهناك تنصب الموازين فتوزن بها أعمال العباد وهي موازين حقيقية كل ميزان منها له لسان وكفتان ويقلب الله أعمال العباد «وهي أعراض» أجسامًا لها ثقل فتوضع الحسنات في كفة والسيئات في كفة كما قال تعالىٰ: ﴿**وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ**﴾.

ثم تنشر الدواوين وهي صحائف الأعمال فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابًا يسيرًا وينقلب إلىٰ أهله مسرورًا، وأما من أوتي كتابه بشماله أو من وراء ظهره فسوف يدعو ثبورًا ويصلىٰ سعيرًا ويقول: يا ليتني لم أوت كتابيه ولم أدر ما حسابيه.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري كتاب بدء الوحي، باب كلام الرب عز وجل يوم القيامة، ومسلم (١/ ١٨٣).

قال تعالى: ﴿ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا﴾.

وأما قوله تعالى: ﴿وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه﴾ فقد قال الراغب: أي عمله الذي طار عنه من خير وشر ولكن الظاهر أن المراد بالطائر هنا نصيبه في هذه الدنيا وما كتب له فيها من رزق وعمل كما في قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ﴾ يعني ما كتب عليهم فيه.

قوله: «ويحاسب الله الخلائق»: المراد بتلك المحاسبة تذكيرهم وإنباؤهم بما قدموه من خير وشر أحصاه الله ونسوه قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وفي الحديث الصحيح: «من نوقش الحساب عذب» (١) فقالت عائشة رضي الله عنها: يا رسول الله أو ليس الله يقول: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾؟ فقال: «إنما ذلك العرض، ولكن من نوقش الحساب يهلك» (٢).

● قال الشيخ عبد العزيز بن باز:

الجمع بين النصوص الواردة في وزن الأعمال، والعاملين والصحائف، أنه لا منافاة بينهما، فالجميع يوزن ولكن الاعتبار في الثقل والخفة يكون بالعمل نفسه لا بذات العامل ولا بالصحيفة.

● قال الشيخ ابن عثيمين:

قوله: «إلى أن تقوم القيامة الكبرى».

القيامة الكبرىٰ هي التي يقوم فيها الناس من قبورهم لرب العالمين.

وأفادنا المؤلف ـ رحمه الله ـ بقوله: «القيامة الكبرىٰ»: ذلك أن هناك قيامة صغرىٰ، وهي قيامة كل إنسان بعينه؛ فإن كل إنسان له قيامة؛ فمن مات؛ قامت

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١/ ١٢٥)، (٤/ ١٨٨٥)، ومسلم (٤/ ٢٢٠٥) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (١/ ٥١).

قيامته .

وسكت المؤلف ـ رحمه الله ـ عن أشراط الساعة ؛ فلم يذكرها ؛ لأن المؤلف إنما يريد أن يتكلم عن اليوم الآخر ، وما أشراط الساعة إلا مجرد علامات وإنذارات لقرب قيام الساعة ؛ ليستعد لها من يستعد .

وبعض أهل العلم الذين صنفوا في العقائد ذكروا أشراط الساعة هنا ، والحقيقة أنه لا تعلق لها في الإيمان باليوم الآخر ، وإن كانت هي من الأمور الغيبية التي أشار الله إليها في القرآن وفصلها النبي ﷺ في السنة .

الأمر الأول مما يكون في القيامة:

ما أشار إليه المؤلف ـ رحمه الله ـ بقوله: «فتعاد الأرواح إلى الأجساد».

هذا أول الأمور:

ويكون بعد النفخة الثانية في الصور ، وذلك بعد أن فارقتها بالموت ، وهذه غير الإعادة التي تكون في البرزخ حين سؤال الميت عن ربه ودينه ونبيه ، وذلك أن الله يأمر إسرافيل فينفخ في الصور ، فيصعق من في السماوات ومن في الأرض ؛ إلا من شاء الله ، ثم ينفخ فيه مرة أخرى فتتطاير الأرواح من الصور إلى أجسادها ، وتحل فيها .

وفي قول المؤلف ـ رحمه الله ـ: «**إلى الأجساد**»:إشارة إلى أن الأرواح لا تخرج من الصور ؛ إلا بعد أن تتكامل الأجساد مخلوقة ؛ فإذا كملت خلقتها ؛ نفخ في الصور ، فأعيدت الأرواح إلى أجسادها .

وفي قوله: «**تعاد الأرواح إلى الأجساد**»:دليل على أن البعث إعادة ، وليس تجديداً بل هو إعادة لما زال وتحول ؛ فإن الجسد يتحول إلى تراب ، والعظام تكون رميمًا ؛ يجمع الله تعالى هذا المتفرق ، حتى يتكون الجسد ، فتعاد الأرواح إلى أجسادها ، وأما من زعم بأن الأجساد تخلق من جديد ؛ فإن هذا زعم باطل يرده الكتاب والسنة والعقل .

ـ **أما الكتاب**؛فإن الله عز وجل يقول : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ

أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]؛ أي: يعيد ذلك الخلق الذي ابتدأه.

وفي الحديث القدسي: «يقول الله تعالى: ليس أول الخلق بأهون عليَّ من إعادته»(١)؛ فالكل على الله هين.

وقال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]. وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٥، ١٦].

وقال تعالى: ﴿مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٨، ٧٩].

ـ وأما السنة؛ فهي كثيرة جداً في هذا؛ حيث بين النبي ﷺ: أن الناس يحشرون فيها حفاة عراة غرلاً(٢)؛ فالناس هم الذين يحشرون، وليس سواهم.

فالمهم؛ أن البعث إعادة للأجساد السابقة

فإذا قلت: ربما يؤكل الإنسان من قبل السباع، ويتحول جسمه الذي أكله السبع إلى تغذية لهذا الآكل تختلط بدمه ولحمه وعظمه وتخرج في روثه وبوله؛ فما الجواب على ذلك؟

فالجواب: أن الأمر هين على الله؛ يقول: كنْ فيكون، ويتخلص هذا الجسم الذي سيبعث من كل هذه الأشياء التي اختلط بها، وقدرة الله عز وجل فوق ما نتصوره؛ فالله على كل شيء قدير.

قوله: «وتقوم القيامة التي أخبر الله بها في كتابه وعلى لسان رسوله وأجمع عليها المسلمون».

هذه ثلاثة أنواع من الأدلة: كتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ، وإجماع المسلمين. فأما كتاب الله تعالى؛ فقد أكد تعالى في كتابه هذه القيامة؛ وذكرها الله عز وجل بأوصاف عظيمة، توجب الخوف والاستعداد لها.

فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٧٤) والنسائي في «الكبرى» (٧٦٦٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٥٢٦) ومسلم (٢٨٦٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنه.

تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ١، ٢].

وقال تعالى: ﴿الْحَاقَّةُ * مَا الْحَاقَّةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾ [الحاقة: ١-٣].

وقال تعالى: ﴿الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ * يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ * وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ١-٥].

والأوصاف لها في القرآن كثيرة؛ كلها مروعة مخوفة؛ لأنها عظيمة، وإذا لم نؤمن بها؛ فلن نعمل لها؛ إذ لا يمكن للإنسان أن يعمل لهذا اليوم حتى يؤمن به وحتى يذكر له أوصافه التي توجب العمل لهذا اليوم.

ـ وأما السنة؛ فالأحاديث في ذكر القيامة كثيرة، بين الرسول عليه الصلاة والسلام بها ما يكون فيها؛ كما سيأتي إن شاء الله في ذكر الحوض والصراط والكتاب وغير ذلك مما بينه الرسول ﷺ.

وأما الإجماع ـ وهو النوع الثالث ـ؛ فقد أجمع المسلمون إجماعًا قطعيًا على الإيمان بيوم القيامة، ولهذا كان من أنكره؛ فهو كافر؛ إلا إذا كان غريبًا عن الإسلام وجاهلاً، فإنه يعرَّف؛ فإن أصر على الإنكار بعد ذلك؛ فهو كافر.

وهناك نوع رابع من الأدلة، وهو الكتب السماوية؛ حيث اتفقت على إثبات اليوم الآخر، ولهذا كان اليهود والنصارى يؤمنون بذلك، وحتى الآن يؤمنون به، ولهذا تسمعونهم يقولون: فلان المرحوم، أو رحمه الله، أو ما أشبه ذلك؛ مما يدل على أنهم يؤمنون باليوم الآخر إلى يومنا هذا.

وثَمَّ نوع خامس، وهو العقل، ووجه ذلك أنه لو لم يكن هذا اليوم؛ لكان إيجاد الخلائق عبثًا، والله عز وجل منزه عن العبث؛ فما الحكمة من قوم يُخلقون ويُؤمرون ويُنهون ويُلزَمون بما يُلزَمون به ويُندَبون إلى ما يُندَبون إليه، ثم يموتون، ولا حساب، ولا عقاب؟!

ولهذا قال الله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ * فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُل رَّبِّي ﴾ [القصص: ٨٥].

كيف يُفرض القرآن ويُفرض العمل به؛ ثم لا يكون هناك معاد؛ نحاسب على ما نفذنا من هذا القرآن الذي فرض علينا؟!

فصارت أنواع الأدلة على ثبوت اليوم الآخر خمسة.

الأمر الثاني مما يكون في القيامة:

ما أشار إليه بقوله: «**فيقوم الناس من قبورهم لرب العالمين حفاة عراة غرلا**».

قوله: «من قبورهم»: هذا بناء على الأغلب، وإلا؛ فقد يكون الإنسان غير مدفون.

قوله: «لرب العالمين»: يعني: لأن الله عز وجل يناديهم.

قال الله تعالى: ﴿ **وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ * يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ** ﴾ [ق: ٤١، ٤٢]؛ فيقومون لهذا النداء العظيم من قبورهم لربهم عز وجل.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ **أَلا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ [المطففين: ٤٦].

قوله: «حفاة عراة غرلا»: «حفاة»: ليس عليهم نعال ولا خفاف؛ يعني: أنه ليس عليهم لباس للرجل.

«عراة»: ليس عليهم لباس للجسد.

«غرلا»: لم ينقص من خلقهم شيء، والغرل: جمع أغرل، وهو الذي لم يختن؛ أي أن القلفة التي قطعت منه في الدنيا تعود يوم القيامة؛ لأن الله يقول: ﴿ **كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ** ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]؛ فيعاد كاملا، لم ينقص منه شيء؛ يعودون على هذا الوصف مختلطين رجالا ونساء.

ولما حدث النبي عليه الصلاة والسلام بذلك؛ قالت عائشة رضي الله عنها: يا رسول الله! الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى البعض؟! فقال: «**الأمر أشد من أن**

يُهمهم ذلك». وفي رواية: «**من أن ينظر بعضهم إلى بعض**»(١) .

فكل إنسان له شأن يغنيه: ﴿**يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ**﴾ [عبس: ٣٤-٣٧]. لا رجل ينظر إلى امرأة، ولا امرأة تنظر إلى رجل، حتى إن ابنه أو أباه يفر منه؛ خوفًا من أن يطالبه بحقوق له، وإذا كان هذا هو الواقع؛ فإنه لا يمكن أن تنظر المرأة إلى الرجل، ولا الرجل إلى المرأة الأمر أشد وأعظم.

ولكن؛ مع ذلك؛ يكسون بعد هذا، وأول من يكسى إبراهيم عليه الصلاة والسلام؛ كما ثبت ذلك عن النبي ﷺ(٢) .

الأمر الثالث مما يكون يوم القيامة:

ما أشار إليه بقوله: «وتدنو منهم الشمس».

«**تدنو**»: أي: تقرب منهم الشمس، وتقرب منهم مقدار ميل.

وهذا الميل سواء كان المسافة أو ميل المكحلة؛ فإنها قريبة، وإذا كانت هذه حرارتها في الدنيا، وبيننا وبينها من البعد شيء عظيم؛ فكيف إذا كانت عن الرؤوس بمقدار ميل!!(٣) .

قد يقول قائل: المعروف الآن أن الشمس لو تدنو بمقدار شعرة عن مستوى خطها؛ لأحرقت الأرض؛ فكيف يمكن أن تكون في ذلك اليوم بهذا المقدار من البعد، ثم لا تحرق الخلق؟

فالجواب على ذلك: أن الناس يحشرون يوم القيامة؛ ليسوا على القوة التي هم عليها الآن، بل هم أقوى وأعظم وأشد تحملا.

لو أن الناس الآن وقفوا خمسين يومًا في شمس لا ظل ولا أكل ولا شرب، فلا يمكنهم ذلك، بل يموتون! لكن يوم القيامة يبقون خمسين ألف سنة؛ لا أكل ولا

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٥٢٧) ومسلم (٢٨٥٩) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه مسلم (٢٨٦٤) والترمذي (٢٤٢١) من حديث المقداد بن الأسود رضي الله عنه.

سرب ولا ظل؛ إلا من أظله الله عز وجل، ومع ذلك؛ يشاهدون أهوالا عظيمة؛ فيتحملون.

واعتبر بأهل النار؛ كيف يتحملون هذا التحمل العظيم؛ ﴿**كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا**﴾ [النساء: ٥٦].

وبأهل الجنة؛ ينظر الإنسان إلى ملكه مسيرة ألف عام إلى أقصاه؛ كما ينظر إلى أدناه؛ كما روي ذلك عن النبي ﷺ[١].

فإن قيل: هل أحد يسلم من الشمس؟

فالجواب: نعم! هناك أناس يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله؛ كما أخبر بذلك النبي ﷺ: «**إمام عادل، وشاب نشأ في طاعة الله؛ ورجل قلبه معلق بالمساجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليًا؛ ففاضت عيناه**»[٢].

وهناك أيضًا أصناف أخرى يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله.

وقوله: «لا ظل إلا ظله»؛ يعني: إلا الظل الذي يخلقه، وليس كما توهم بعض الناس أنه ظل ذات الرب عز وجل؛ فإن هذا باطل؛ لأنه يستلزم أن تكون الشمس حينئذ فوق الله عز وجل. ففي الدنيا؛ نحن نبني الظل لنا، لكن يوم القيامة؛ لا ظل إلا الظل الذي يخلقه سبحانه وتعالى ليستظل به من شاء من عباده.

الأمر الرابع مما يكون يوم القيامة:

ما ذكره المؤلف ـ رحمه الله ـ بقوله: «ويلجمهم العرق».

«يلجمهم»؛ أي: يصل منهم إلى موضع اللجام من الفرس، وهو الفم.

---

(١) ضعيف: أخرجه الترمذي (٢٥٥٣) وأحمد في «مسنده» (٢/ ٦٤) من حديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما.

والحديث ضعفه الشيخ الألباني في «ضعيف الجامع» (١٣٨٢).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٦٠) ومسلم (١٠٣١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ولكن هذا غاية ما يصل إليه العرق، وإلا؛ فبعضهم يصل العرق إلىٰ كعبيه، وإلىٰ ركبتيه، وإلىٰ حقويه، ومنهم من يلجمه، فهم يختلفون في هذا العرق، ويعرقون من شدة الحر؛ لأن المقام مقام زحام وشدة ودنو شمس؛ فيغرق الإنسان مما يحصل في ذلك اليوم؛ لكنهم علىٰ حسب أعمالهم.

فإن قلت: كيف يكون ذلك وهم في مكان واحد؟

فالجواب: أننا أصلنا قاعدة يجب الرجوع إليها، وهي: أن الأمور الغيبية يجب علينا أن نؤمن بها ونصدق دون أن نقول: كيف؟! ولمَ؟! لأنها شيء وراء عقولنا، ولا يمكن أن ندركها أو نحيط بها.

أرأيت لو أن رجلين دُفنا في قبر واحد: أحدهما مؤمن، والثاني: كافر؛ فإنه ينال المؤمن من النعيم ما يستحق، وينال الكافر من العذاب ما يستحق، وهما في قبر واحد، وهكذا نقول في العرق يوم القيامة.

فإن قلت: هل تقول: إن الله سبحانه وتعالى يجمع من يلجمهم العرق في مكان، ومن يصل إلى كعبيه في مكان، وإلى ركبتيه في مكان، وإلى حقويه في مكان؟

فالجواب: لا نجزم بهذا، والله أعلم، بل نقول: من الجائز أن يكون الذي يصل العرق إلىٰ كعبه إلىٰ جانب الذي يلجمه العرق، والله علىٰ كل شيء قدير، وهذا نظير النور الذي يكون للمؤمنين؛ يسعىٰ بين أيديهم وبأيمانهم، والكفار في ظلمة؛ فيوم القيامة يجب علينا أن نؤمن به وبما يكون فيه، أما كيف؟! ولمَ؟! فهذا ليس إلينا.

الأمر الخامس مما يكون يوم القيامة:

ما ذكره بقوله: «فتنصب الموازين فتوزن بها أعمال العباد».

الذي ينصب الموازين هو الله عز وجل؛ لتوزن بها أعمال العباد.

والمؤلف ـ رحمه الله ـ يقول: «الموازين»: بالجمع، وقد وردت النصوص بالجمع والإفراد:

ـ فمثال الجمع: قوله تعالىٰ: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقال تعالىٰ: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم﴾ [الأعراف: ٨، ٩].

ـ وأما الإفراد؛ فقال النبي ﷺ: «**كلمتان حبيبتان إلى الرحمن خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم**»(١).

فقال: «في الميزان»؛ فأفرد.

فكيف نجمع بين الآيات القرآنية وبين هذا الحديث؟!

فالجواب أن نقول:

إنها جمعت باعتبار الموزون؛ حيث إنه متعدد، وأفردت باعتبار أن الميزان واحد، أو ميزان كل أمة.

أو أن المراد بالميزان في قوله عليه الصلاة والسلام: «**ثقيلتان في الميزان**»؛ أي: في الوزن.

ولكن الذي يظهر ـ والله أعلم ـ أن الميزان واحد، وأنه جمع باعتبار الموزون؛ بدليل قوله: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ [الأعراف: ٨].

لكن يتوقف الإنسان: هل يكون ميزانًا واحدًا لجميع الأمم أو لكل أمة ميزان؛ لأن الأمم كما دلت عليه النصوص تختلف باعتبار أجرها؟!

وقوله: «تنصب الموازين»: ظاهره أنها موازين حسية، وأن الوزن يكون علىٰ حسب المعهود بالراجح والمرجوح، وذلك لأن الأصل في الكلمات الواردة في الكتاب والسنة حملها علىٰ المعهود المعروف؛ إلا إذا قام دليل علىٰ أنها خلاف ذلك، والمعهود المعروف عند المخاطبين منذ نزول القرآن الكريم إلىٰ اليوم أن الميزان حسي، وأن هناك راجح ومرجوح.

وخالف في ذلك جماعة:

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٤٠٦) ومسلم (٢٦٩٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ـ فالمعتزلة قالوا: إنه ليس هناك ميزان حسي، ولا حاجة له؛ لأن الله تعالىٰ قد علم أعمال العباد وأحصاها، ولكن المراد بالميزان: الميزان المعنوي الذي هو العدل.

ولا شك أن قول المعتزلة باطل؛ لأنه مخالف لظاهر اللفظ وإجماع السلف، ولأننا إذا قلنا: إن المراد بالميزان: العدل؛ فلا حاجة إلىٰ أن نعبر بالميزان، بل نعبر بالعدل؛ لأنه أحب إلىٰ النفس من كلمة (ميزان)، ولهذا قال الله تعالىٰ: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ**﴾ [النحل: ٩٠].

ـ **وقال بعض العلماء**: إن الرجحان للعالي؛ لأنه يحصل فيه العلو، لكن الصواب أن نجري الوزن علىٰ ظاهره، ونقول: إن الراجح هو الذي ينزل، ويدل لذلك حديث صاحب البطاقة؛ فإن فيه أن السجلات تطيش وتثقل البطاقة، وهذا واضح؛ بأن الرجحان يكون بالنزول.

وقوله: «**فتوزن بها أعمال العباد**»: كلام المؤلف ـ رحمه الله ـ صريح بأن الذي يوزن: العمل.

وهنا مبحثان:

المبحث الأول: كيف يوزن العمل؛ والعمل وصف قائم بالعمل، وليس جسمًا فيوزن؟!

والجواب على ذلك: أن يقال: إن الله سبحانه وتعالىٰ يجعل هذه الأعمال أجسامًا، وليس هذا بغريب علىٰ قدرة الله عز وجل، وله نظير، وهو الموت؛ فإنه يجعل علىٰ صورة كبش، ويذبح بين الجنة والنار[1]، مع أن الموت معنىٰ، وليس بجسم، وليس الذي يذبح ملك الموت، ولكنه نفس الموت؛ حيث يجعله الله تعالىٰ جسمًا يشاهد ويرىٰ، كذلك الأعمال يجعلها الله عز وجل أجسامًا توزن بهذا الميزان الحسي.

المبحث الثاني: صريح كلام المؤلف ـ رحمه الله ـ أن الذي يوزن العمل؛ سواء كان خيرًا أم شرًّا:

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٧٣٠) ومسلم (٢٨٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

وهذا هو ظاهر القرآن؛ كما قال الله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ * فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٦-٨]؛ فهذا واضح أن الذي يوزن العمل؛ سواء كان خيراً أم شرًّا.

وقال النبي عليه الصلاة والسلام: «كلمتان حبيبتان إلى الرحمن، خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان»(١)، وهذا ظاهر أيضًا، بل صريح، في أن الذي يوزن العمل، والنصوص في هذا كثيرة.

ولكن هناك نصوص قد يخالف ظاهرها هذا الحديث:

- منها حديث صاحب البطاقة؛ رجل يؤتى به على رؤوس الخلائق، وتعرض عليه أعماله في سجلات تبلغ تسعة وتسعين سجلا؛ كل سجل منها يبلغ مد البصر، فيقر بها، فيقال له: ألك عذر أو حسنة؟ فيقول: لا؛ يا رب! فيقول: الله عز وجل: بلى؛ إن لك عندنا حسنة. فيؤتى ببطاقة صغيرة، فيها: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله. فيقول: يا رب! ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟! فيقال: إنك لا تظلم. قال: فتوضع السجلات في كفة، والبطاقة في كفة، فطاشت السجلات، وثقلت البطاقة(٢)... الحديث.

وظاهر هذا أن الذي يوزن صحائف الأعمال.

- وهناك نصوص أخرى تدل على أن الذي يوزن العامل؛ مثل:

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥]؛ مع أنه قد ينازع في الاستدلال بهذه الآية؛ فيقال: إن معنى قوله: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾؛ يعني: قدراً.

ومثل ما ثبت من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، أنه كان يجتني سواكًا من الأراك، وكان رضي الله عنه دقيق الساقين، جعلت الريح تحركه، فضحك الصحابة

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) صحيح: أخرجه الترمذي (٢٦٣٩) وابن ماجه (٤٣٠٠) من حديث ابن عمر - رضي الله عنهما - والحديث صححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٨٠٩٥).

رضي الله عنهم، فقال النبي ﷺ: «مم تضحكون؟». قالوا: من دقة ساقيه. قال: «**والذي نفسي بيده؛ لهما في الميزان أثقل من أحد**»(١).

فصار هاهنا ثلاثة أشياء: العمل، والعامل، والصحائف.

ـ فقال بعض العلماء: إن الجمع بينهما أن يقال: إن من الناس من يوزن عمله، ومن الناس من يوزن صحائف عمله، ومن الناس من يوزن هو بنفسه.

ـ وقال بعض العلماء: الجمع بينهما أن يقال: إن المراد بوزن العمل أن العمل يوزن وهو في الصحائف، ويبقى وزن صاحب العمل، فيكون لبعض الناس.

ـ ولكن عند التأمل نجد أكثر النصوص تدل على أن الذي يوزن هو العمل، ويخص بعض الناس، فتوزن صحائف أعماله، أو يوزن هو نفسه.

وأما ما ورد في حديث ابن مسعود رضي الله عنه وحديث البطاقة؛ فقد يكون هذا أمرًا يخص الله به من يشاء من عباده.

قوله: «﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٢]».

«﴿فَمَن﴾»: شرطية.

وجواب الشرط جملة: ﴿فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

وأتت الجملة الجزائية جملة اسمية بصفة الحصر ﴿فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، والجملة الإسمية تفيد الثبوت والاستمرار.

وجاءت باسم الإشارة الدال على البعد ﴿فَأُوْلَئِكَ﴾، ولم يقل: فهم المفلحون. إشارة إلى علو مرتبتهم.

وجاءت بصفة الحصر في قوله: ﴿هُمُ﴾، وهو ضمير فصل يفيد الحصر والتوكيد، والفصل بين الخبر والصفة.

والمفلح: هو الذي فاز بمطلوبه ونجا من مرهوبه؛ فحصل له السلامة مما يكره،

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢/ ٤٢١) وأبو يعلى في «مسنده» (٥٣١٠) من حديث ابن مسعود ـ رضي الله عنه.

وحصل له ما يحب.

والمراد بثقل الموازين رجحان الحسنات على السيئات.

وقوله: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾: فيه إشكال من جهة العربية؛ فإن ﴿مَوَازِينُهُ﴾ الضمير فيه مفرد، و ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الضمير فيه جمع!!

وجوابه أن (من) الشرطية صالحة للإفراد والجمع؛ فباعتبار اللفظ يعود الضمير إليها مفردًا، وباعتبار المعنى يعود الضمير إليها جمعًا.

وكلما جاءت (من)؛ فإنه يجوز أن تعيد الضمير إليها بالإفراد أو بالجمع، وهذا كثير في القرآن؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا﴾ [الطلاق: ١١]؛ فتجد الآية الكريمة فيها مراعاة اللفظ ثم المعنى ثم اللفظ.

قوله: «﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٣]».

والإشارة هنا للبعد؛ لانحطاط مرتبتهم، لا لعلو مرتبتهم.

وقوله: «﴿خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾»: الكافر قد خسر نفسه وأهله وماله: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥]، بينما المؤمن العامل للصالحات قد ربح نفسه وأهله وماله وانتفع به.

فهؤلاء الكفار خسروا أنفسهم؛ لأنهم لم يستفيدوا من وجودهم في الدنيا شيئًا، بل ما استفادوا إلا الضرر، وخسروا أموالهم؛ لأنهم لم ينتفعوا لها، حتى ما أعطوه للخلق لينتفع به؛ فإنه لا ينفعهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللّهِ وَبِرَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٥٤]، وخسروا أهليهم؛ لأنهم في النار؛ فصاحب النار لا يأنس بأهله، بل إنه مغلق عليه في تابوت، ولا يرى أن أحدًا أشد منه عذابًا.

والمراد بخفة الموازين: رجحان السيئات على الحسنات، أو فقدان الحسنات

بالكلية، إن قلنا بأن الكفار توزن أعمالهم؛ كما هو ظاهر هذه الآية الكريمة وأمثالها، وهو أحد القولين لأهل العلم.

والقول الثاني: أن الكفار لا توزن أعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٥]. والله أعلم

الأمر السادس مما يكون يوم القيامة:

وهو ما ذكره المؤلف ـ رحمه الله ـ بقوله: «**وتنشر الدواوين**»[1].

«تنشر»: أي: تفرق وتفتح لقارئها.

«والدواوين»: جمع ديوان، وهو السجل الذي تكتب فيه الأعمال، ومنه دواوين بيت المال، وما أشبه ذلك.

قال: «وهي صحائف الأعمال».

يعني: التي كتبتها الملائكة الموكلون بأعمال بني آدم، قال الله تعالى: ﴿كَلا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ * وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ٩-١٢].

فيكتب هذا العمل، ويكون لازمًا للإنسان في عنقه؛ فإذا كان يوم القيامة؛ أخرج الله هذا الكتاب.

قال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤].

---

(١) وفي الحديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ «الدواوين ثلاثة: فديوان لا يغفر الله منه شيئا وديوان لا يعبأ الله به شيئًا وديوان لا يترك الله منه شيئًا . . . . الحديث. قال المناوي: هو الدفتر قال في المغرب الديوان الجريدة من دون الكتب إذا جمعها لأنها قطعة من القراطيس مجموعة.

وقال الطيبي: والمراد هنا صحائف الأعمال: وانظر «فيض القدير» للمناوي.

قال بعض السلف: لقد أنصفك من جعلك حسيبًا على نفسك[١] .

والكتابة في صحائف الأعمال: إما للحسنات، وإما للسيئات، والذي يكتب من الحسنات ما عمله الإنسان، وما نواه، وما هم به؛ فهذه ثلاثة أشياء:

- فأما ما عمله؛ فظاهر أنه يكتب.

- وأما ما نواه؛ فإنه يكتب له، لكن يكتب له أجر النية فقط كاملا؛ كما في الحديث الصحيح في قصة الرجل الذي كان له مال ينفقه في سبل الخير، فقال الرجل الفقير: لو أن عندي مالا؛ لعملت فيه بعمل فلان؛ قال النبي ﷺ: **«فهو بنيته؛ فأجرهما سواء»**[٢] .

ويدل على أنهما ليسا سواء في الأجر من حيث العمل: أن فقراء المهاجرين لما أتوا إلى النبي ﷺ وقالوا: يا رسول الله! إن أهل الدثور[٣] سبقونا. فقال لهم ﷺ: **«تسبحون وتحمدون وتكبرون دبر كل صلاة ثلاثًا وثلاثين...»**. فلما سمع الأغنياء بذلك؛ فعلوا مثله، فرجع الفقراء يشكون إلى النبي عليه الصلاة والسلام، فقال لهم: **«ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء»**[٤] ، ولم يقل: إنكم بنيتكم أدركتم عملهم.

ولأن هذا هو العدل؛ فرجل لم يعمل لا يكون كالذي عمل، لكن يكون مثله في أجر النية فقط.

- وأما الهم؛ فينقسم إلى قسمين:

الأول: أن يهم بالشيء ويفعل ما يقدر عليه منه، ثم يحال بينه وبين إكماله.

فهذا يكتب له الأجر كاملا لقوله تعالى: ﴿**وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلى اللّهِ**﴾ [النساء: ١٠٠].

وهذه بشرى لطلبة العلم: إذا نوى الإنسان أنه يطلب العلم وهو يريد أن ينفع

---

(١) «تفسير القرطبي» (١٥/ ٥٣) وابن كثير (٤/ ٢٢٥) عن الحسن البصري.

(٢) صحيح: أخرجه الترمذي (٢٣٢٥) وابن ماجه (٤٢٢٨) من حديث أبي كبشة الأنماري-رضي الله عنه.

(٣) الدثور: بضم الدال والثاء جمع دثر بفتح ثم سكون هو المال الكثير.

(٤) متفق عليه: أخرجه البخاري (٨٤٣) ومسلم (٥٩٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الناس بعلمه ويذب عن سنة الرسول ﷺ وينشر دين الله في الأرض، ثم لم يقدر له ذلك؛ بأن مات مثلا وهو في طلبه؛ فإنه يكتب له أجر ما نواه وسعىٰ إليه.

بل إن الإنسان إذا كان من عادته العمل، وحيل بينه وبينه لسبب؛ فإنه يكتب له أجره.

قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**إذا مرض العبد أو سافر؛ كتب له مثل ما كان يعمل مقيمًا صحيحًا**»[(١)] .

القسم الثاني: أن يهم بالشيء ويتركه مع القدرة عليه؛ فيكتب له به حسنة كاملة؛ لنيته.

وأما السيئات؛ فإنه يكتب علىٰ الإنسان ما عمله، ويكتب عليه ما أراد وسعىٰ فيه ولكن عجز عنه، ويكتب عليه ما نواه وتمناه.

فالأول: واضح.

والثاني: يكتب عليه كاملا؛ لقول النبي عليه الصلاة والسلام: «**إذا التقى المسلمان بسيفيهما؛ فالقاتل والمقتول في النار**». قالوا: يا رسول الله! هذا القاتل؛ فما بال المقتول؟! قال: «**لأنه كان حريصًا على قتل صاحبه**»[(٢)] ، ومثله من هم أن يشرب الخمر، ولكن حصل له مانع؛ فهذا يكتب عليه الوزر كاملا؛ لأنه سعىٰ فيه.

والثالث: الذي نواه وتمناه يكتب عليه، لكن بالنية، ومنه الحديث الذي أخبر النبي عليه الصلاة والسلام عن رجل أعطاه الله مالا؛ فكان يتخبط فيه، فقال رجل فقير: لو أن لي مالا؛ لعملت فيه بعمل فلان. قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**فهو بنيته؛ فوزرهما سواء**»[(٣)] .

ولو هم بالسيئة، ولكن تركها؛ فهذا علىٰ ثلاثة أقسام:

١- إن تركها عجزاً؛ فهو كالعامل إذا سعىٰ فيها.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٩٩٦) وأبو داود (٣٠٩١) من حديث أبي موسىٰ الأشعري رضي الله عنه.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣١) ومسلم (٢٨٨٨) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

(٣) سبق تخريجه.

٢ـ وإن تركها لله ؛ كان مأجوراً .

٣ـ وإن تركها لأن نفسه عزفت عنها ، أو لم تطرأ على باله ؛ فهذا لا إثم عليه ولا أجر .

والله عز وجل يجزي بالحسنات أكثر من العمل ، ولا يجزي بالسيئات إلا مثل العمل ؛ قال تعالى : ﴿ **مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ** ﴾ [الأنعام: ١٦٠] ، وهذا من كرمه عز وجل ومن كون رحمته سبقت غضبه .

قوله: «فآخذٌ كتابه بيمينه».

«آخذ»: مبتدأ ، وخبره محذوف ، والتقدير : فمنهم آخذ .

وجاز الابتداء به وهو نكرة ؛ لأنه في مقام التفصيل ؛ أي أن الناس ينقسمون ؛ فمنهم من يأخذ كتابه بيمينه ، وهم المؤمنون ، وهذا إشارة إلى أن لليمنى الإكرام ، ولذلك يأخذ المؤمن كتابه بها ، والكافر يأخذ كتابه بشماله أو من وراء ظهره ؛ كما قال المؤلف ـ رحمه الله ـ : «وآخذ كتابه بشماله» .

وقوله: «أو من وراء ظهره».

«أو». للتنويع ، وليست للشك .

فظاهر كلام المؤلف ـ رحمه الله ـ أن الناس يأخذون كتبهم على ثلاثة أوجه : باليمين ، وبالشمال ، ومن وراء الظهر .

ولكن الظاهر أن هذا الاختلاف اختلاف صفات ؛ فالذي يأخذ كتابه من وراء ظهره هو الذي يأخذ كتابه بشماله ؛ فيأخذ بالشمال ، وتجعل يده من الخلف ؛ فكونه يأخذه بالشمال ؛ لأنه من أهل الشمال ، وكونه من وراء ظهره ؛ لأنه لما استدبر كتاب الله ، وولّى ظهره إياه في الدنيا ؛ صار من العدل أن يجعل كتاب أعماله يوم القيامة خلف ظهره ؛ فعلى هذا ؛ تخلع اليد الشمال حتى تكون من الخلف . والله أعلم .

قوله: «كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤]».

﴿طَائِرَهُ﴾: أي: عمله؛ لأن الإنسان يتشاءم به أو يتفاءل به، ولأن الإنسان يطير به فيعلو أو يطير به فينزل.

﴿فِي عُنُقِهِ﴾: أي: رقبته، وهذا أقوى ما يكون تعلقًا بالإنسان؛ حيث يربط في العنق؛ لأنه لا يمكن أن ينفصل إلا إذا هلك الإنسان؛ فهذا يلزم عمله.

وإذا كان يوم القيامة؛ كان الأمر كما قال الله تعالى: ﴿ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴾: أي: مفتوحًا؛ لا يحتاج إلى تعب ولا إلى مشقة في فتحه.

ويقال له: ﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ ﴾ وانظر ما كتب عليك فيه.

﴿ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾: وهذا من تمام العدل والإنصاف: أن يوكل الحساب إلى الإنسان نفسه.

والإنسان العاقل لابد أن ينظر ماذا كتب في هذا الكتاب الذي سوف يجده يوم القيامة مكتوبًا.

ولكن؛ نحن أمامنا باب يمكن أن يقضي على السيئات، وهو التوبة، وإذا تاب العبد إلى الله؛ مهما عظم ذنبه؛ فإن الله يتوب عليه، وحتى لو تكرر الذنب منه، وهو يتوب؛ فإن الله يتوب عليه؛ فما دام الأمر بأيدينا الآن؛ فعلينا أن نحرص على أن لا يكتب في هذا الكتاب إلا العمل الصالح.

الأمر السابع مما يكون يوم القيامة:

وهو ما ذكره المؤلف ـ رحمه الله ـ بقوله: «ويحاسب الله الخلائق»:

المحاسبة: إطلاع العباد على أعمالهم يوم القيامة.

وقد دل عليه الكتاب والسنة والإجماع والعقل:

ـ أما الكتاب؛ فقال تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ [الانشقاق: ٧، ٨]، ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ * فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا *

وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾ [الانشقاق: ١٠-١٢].

- وأما السنة؛ فقد ثبت عن النبي عليه الصلاة والسلام بعدة أحاديث أن الله تعالىٰ يحاسب الخلائق.

- وأما الإجماع؛ فإنه متفق عليه بين الأمة: أن الله تعالىٰ يحاسب الخلائق[1].

- وأما العقل؛ فواضح؛ لأننا كلفنا بعمل فعلا وتركًا وتصديقًا، والعقل والحكمة تقتضيان أن من كلف بعمل؛ فإنه يحاسب عليه ويناقش فيه.

وقول المؤلف ـ رحمه الله ـ: «الخلائق»: جمع خليقة؛ شمل كل مخلوق.

إلا أنه يستثنىٰ من ذلك من يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب؛ كما ثبت ذلك في «الصحيحين»: أن النبي ﷺ رأىٰ أمته ومعهم سبعون ألفًا يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب، وهم الذين لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون وعلىٰ ربهم يتوكلون[2].

وقد روىٰ الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ بسند جيد: أن مع كل واحد سبعين ألفًا[3].

فتضرب سبعين ألفًا بسبعين ألفًا، ويزاد سبعون ألفًا. هؤلاء كلهم يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب.

---

(١) فمنها: ١ ـ حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ عن النبي ﷺ: قال: «من نوقش الحساب عذب» قالت: قلت: أليس يقول الله تعالىٰ: ﴿فسوف يحاسب حسابًا يسيرًا﴾ قال ذلك العرض.
والحديث أخرجه البخاري (٦٥٣٦) ومسلم (٢٨٧٦).
٢ ـ ومنها حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «يقول الله تعالىٰ لأهون أهل النار عذابًا يوم القيامة لو أن لك ما في الأرض من شيء تفتدي به فيقول نعم فيقول أردت منك أهون من هذا وأنت في طلب من شيء تفتدي به فيقول نعم فيقول أردت منك أهون من هذا وأنت في صلب آدم أن لا تشرك بي شيئًا فأبيت إلا أن تشرك بي».
والحديث أخرجه البخاري (٦٥٥٧) ومسلم (٢٨٠٥).
٣ ـ ومنها حديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «يدنو أحدكم من ربه حتىٰ يضع كنفه عليه فيقول عملت كذا وكذا فيقول: نعم ويقول: عملت كذا وكذا فيقول: نعم فيقرره ثم يقول إني سترت عليك في الدنيا فأنا أغفرها لك اليوم».

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٧٠٥) ومسلم (٢٢٠) من حديث عمران بن حصين.

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (١/ ١٩٧).

وقوله: «الخلائق»: يشمل أيضًا الجن؛ لأنهم مكلفون، ولهذا يدخل كافرهم النار بالنص والإجماع؛ كما قال تعالىٰ: ﴿قَالَ ادْخُلُواْ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ﴾ [الأعراف: ٣٨]. ويدخل مؤمنهم الجنة علىٰ قول جمهور أهل العلم، وهو الصحيح؛ كما يدل عليه قوله تعالىٰ: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ إلىٰ قوله: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ﴾ [الرحمن: ٤٦-٥٦].

وهل تشمل المحاسبة البهائم؟!

أما القصاص؛ فيشمل البهائم؛ لأنه ثبت عن النبي عليه الصلاة والسلام: «**أنه يقتص للشاة الجلحاء**[1] **من الشاة القرناء**»[2]. وهذا قصاص، لكنها لا تحاسب حساب تكليف وإلزام؛ لأن البهائم ليس لها ثواب ولا عقاب.

● **قال الشيخ صالح الفوزان:**

أشار الشيخ رحمه الله في هذا وما بعده إلىٰ ما يكون في الدار الآخرة، وهي التي تبدأ بالقيامة الكبرىٰ، فإن الدور ثلاث: دار الدنيا، ودار البرزخ، والدار الآخرة، وكل دارٍ من هذه الدور الثلاث لها أحكام تخصها. وحوادث تجري فيها، وقد تكلم الشيخ علىٰ ما يكون في دار البرزخ.

وهنا أخذ يتكلم علىٰ ما يكون في الدار الآخرة، فيقول: (**إلى أن تقوم القيامة الكبرى**) القيامة قيامتان:

قيامة صغرى: وهي الموت، وهذه القيامة تقوم علىٰ كل إنسان في خاصته من خروج روحه وانقطاع سعيه.

وقيامة كبرى: وهذه تقوم علىٰ الناس جميعًا وتأخذهم أخذة واحدة، وسميت قيامة؛ لقيام الناس من قبورهم لرب العالمين؛ ولهذا قال: (**فتعاد الأرواح إلى الأجساد**) وذلك عندما ينفخ إسرافيل في الصور، قال تعالىٰ: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ [يس: ٥١، ٥٢]، وقال

---

(١) الشاة «الجلحاء» هي: التي لا قرن لها. و«القرناء» ضدها وهي التي لها قرن.

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٨٢) والترمذي (٢٤٢٠) من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه.

تعالىٰ: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]، والأرواح: جمع روح، وهي ما يحيا به الإنسان وغيره من ذوات الأرواح، ولا يعلم حقيقتها إلا الله. قال تعالىٰ: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥].

وقوله: (وتقوم القيامة التي أخبر الله بها في كتابه وعلى لسان رسوله وأجمع عليها المسلمون) إشارة إلىٰ أدلة البعث، وأنه ثابت بالكتاب والسنة وإجماع المسلمين والعقل والفطر السليمة. فقد أخبر الله عنه في كتابه وأقام الدليل عليه ورد علىٰ المنكرين للبعث في غالب سور القرآن. ولما كان نبينا محمد ﷺ خاتم النبيين بين تفاصيل الآخرة بيانًا لا يوجد في كثير من كتب الأنبياء.

والجزاء علىٰ الأعمال ثابت بالعقل وواقع في الشرع، فإن الله نبه العقول إلىٰ ذلك في مواضع كثيرة من القرآن حيث ذكَّرها: أنه لا يليق بحكمته وحمده أن يترك الناس سدىٰ، أو يخلقهم عبثًا لا يؤمرون ولا ينهون، ولا يثابون ولا يعاقبون. وأن يكون المحسن كالمسيء أو يجعل المسلمين كالمجرمين. فإن بعض المحسنين يموت قبل أن يجزىٰ علىٰ إحسانه. وبعض المجرمين يموت قبل أن يجازىٰ علىٰ إجرامه. فلابد أن هناك دارًا يجازىٰ فيها كل منهما. ومنكر البعث كافر، كما قال تعالىٰ: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا﴾ [التغابن: ٧].

وقوله: (فيقوم الناس من قبورهم حفاةً): جمع حافٍ، وهو الذي ليس على رجله نعل ولا خف (عراةً): جمع عار، وهو الذي ليس عليه لباس (غرلاً): جمع أغرل، وهو الأقلف الذي لم يختن، وهذه الصفات الثلاث يكونون عليها حين قيامهم من قبورهم، وهذا ثابت في الصحيح عن النبي ﷺ، ففي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ قال: «**إنكم تحشرون إلى الله يوم القيامة حفاةً عراةً غرلاً**» الحديث[1].

ذكر الشيخ رحمه الله في هذا الكلام بعض ما يجري في يوم القيامة مما ذكر في الكتاب والسنة، فإن تفاصيل ما يجري في هذا اليوم مما لا يدرك بالعقل، وإنما يدرك

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٢٧) ومسلم (٢٨٥٩).

بالنقول الصحيحة عن النبي ﷺ الذي لا ينطق عن الهوىٰ ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾، ومن الحكمة في محاسبة الخلائق علىٰ أعمالهم ووزنها وظهورها مكتوبة في الصحف، مع إحاطة علم الله بذلك؛ ليرىٰ عباده كمال حمده وكمال عدله وسعة رحمته وعظمة ملكه، وذكر الشيخ مما يجري في هذا اليوم العظيم علىٰ العباد:

١ ـ (أنها تدنو منهم الشمس) أي: تقرب من رءوسهم، كما روىٰ مسلم عن المقداد رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إذا كان يوم القيامة أدنيت الشمس من العباد حتى تكون قدر ميل أو ميلين**»[١]، قوله: (ويلجمهم العرق) أي: يصل إلىٰ أفواههم، فيصير بمنزلة اللجام يمنعهم من الكلام، وذلك نتيجة لدنو الشمس منهم وذلك بالنسبة لأكثر الخلق، ويستثنىٰ من ذلك الأنبياء ومن شاء الله.

٢ ـ ومما ذكر في هذا اليوم قوله: (وتنصب الموازين، وتوزن بها الأعمال): (الموازين): جمع ميزان، وهو الذي توزن به الحسنات والسيئات، وهو ميزان حقيقي له لسان وكفتان، وهو من أمور الآخرة نؤمن به، كما جاء ولا نبحث عن كيفيته إلا علىٰ ضوء ما ورد من النصوص، والحكمة في وزن الأعمال إظهار مقاديرها؛ ليكون الجزاء بحسبها ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ أي: رجحت حسناته علىٰ سيئاته ﴿فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي: الفائزون والناجون من النار المستحقون لدخول الجنة. ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ أي: ثقلت سيئاته علىٰ حسناته ﴿فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم﴾ أي: خابوا وصاروا إلىٰ النار ﴿فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ أي: ماكثون في النار.

والشاهد من الآية الكريمة: أن فيها إثبات الموازين والوزن يوم القيامة، وقد ورد ذكر الوزن والموازين في آيات كثيرة من القرآن، وقد أفاد مجموع النصوص أنه يوزن العامل والعمل والصحف، ولا منافاة بينها، فالجميع يوزن، ولكن الاعتبار في الثقل والخفة يكون بالعمل نفسه لا بذات العامل ولا بالصحيفة. والله أعلم.

وقد تأول المعتزلة النصوص في ذلك علىٰ أن المراد بالوزن والميزان العدل، وهذا تأويل فاسد مخالف للنصوص وإجماع سلف الأمة وأئمتها.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٦٤) والترمذي (٢٤٢١) من حديث المقداد بن عمرو ـ رضي الله عنه ـ.

قال الشوكاني: وغاية ما تشبثوا به مجرد الاستبعادات العقلية، وليس في ذلك حجة علىٰ أحد. فهذا إذا لم تقبله عقولهم فقد قبلته عقول قوم هي أقوىٰ من عقولهم من الصحابة والتابعين وتابعيهم حتىٰ جاءت البدع كالليل المظلم وقال كلٌّ ما شاء وتركوا الشرع خلف ظهورهم. اهـ. وأمور الآخرة ليست مما تدركها العقول. والله أعلم.

٣ ـ ومما ذكره الشيخ من حوادث هذا اليوم العظيم قوله: (وتنشر الدواوين، وهي صحائف الأعمال) أي: الصحائف التي كتبت فيها أعمال العباد التي عملوها في الدنيا وكتبتها عليهم الحفظة؛ لأنها تطوىٰ عند الموت وتنشر ـ أي: تفتح ـ عند الحساب؛ ليقف كل إنسان علىٰ صحيفته فيعلم ما فيها **(فآخذ كتابه بيمينه وآخذ كتابه بشماله أو من وراء ظهره)** هذا فيه بيان كيفية أخذ الناس لصحفهم، كما جاء ذلك في القرآن الكريم، وهو علىٰ نوعين: آخذ كتابه بيمينه، وهو المؤمن. وآخذ كتابه بشماله أو من وراء ظهره وهو الكافر ـ بأن تلوىٰ يده اليسرىٰ من وراء ظهره ويعطىٰ كتابه بها ـ كما جاءت الآيات بهذا وهذا، ولا منافاه بينهما؛ لأن الكافر تغل يمناه إلىٰ عنقه وتجعل يسراه وراء ظهره فيأخذ بها كتابه.

ثم استدل الشيخ بقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ الآية، ﴿طَائِرَهُ﴾: ما طار عنه من عمله من خير وشر ﴿فِي عُنُقِهِ﴾ أي: يلزم به ويجازىٰ به لا محيد له عنه، فهو لازم له لزوم القلادة في العنق.

﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ أي: نجمع له عمله كله في كتاب يعطاه يوم القيامة؛ إما بيمينه إن كان سعيدًا أو بشماله إن كان شقيًا ﴿مَنشُورًا﴾ أي: مفتوحًا يقرؤه هو وغيره. وإنما قال سبحانه ﴿يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ تعجيلاً للبشرىٰ بالحسنة والتوبيخ علىٰ السيئة ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ﴾ أي: نقول له ذلك، قبل أن يقرأ ذلك الكتاب من كان قارئًا ومن لم يكن قارئًا ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ أي: حاسبًا، وهو منصوب علىٰ التمييز، وهذا أعظم العدل حيث جعله حسيب نفسه؛ ليرىٰ جميع عمله لا ينكر منه شيئًا.

والشاهد من الآية الكريمة: أن فيها إثبات إعطاء كل إنسان صحيفة عمله يوم

القيامة يقرؤها بنفسه ويطلع عليها هو لا بواسطة غيره.

٤ ـ ثم ذكر الشيخ رحمه الله الحساب فقال: (ويحاسب الله الخلائق) الحساب: هو تعريف الله عز وجل للخلائق بمقادير الجزاء على أعمالهم، وتذكيره إياهم ما قد نسوه من ذلك، أو بعبارة أخرى: هو توقيف الله عباده، قبل الانصراف من المحشر على أعمالهم خيراً كانت أو شراً.

❊ ❊ ❊

[أسئلة وأجوبة نموذجية على القيامة الكبرى وأهوالها]

● قال الشيخ عبد العزيز المحمد السلمان:

س ـ هل عذاب القبر ونعيمه يحصل للروح والبدن جميعًا، وضح ذلك، وهل هو مستمر أم ينقطع أم فيه تفصيل؟

ج ـ يحصل لهما جميعًا والروح تبقى بعد مفارقة البدن منعمة أو معذبة وتتصل بالبدن أحيانًا، والعذاب في القبر نوعان:

دائم كما في قوله تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ الآية.

النوع الثاني: إلى أمدٍ، ثم ينقطع وهو عذاب بعض العصاة الذين خفت جرائمهم. ثم يخفف عنهم العذاب كما يعذبون في النار مدة ثم يزول عنهم العذاب.

س ـ هل الروح ملازمة للبدن في البرزخ، وضح ذلك؟

ج ـ لها بالبدن خمسة أنواع من التعلق متغايرة الأحكام.

أحدهما: تعلقها به في بطن الأم جنينًا.

الثاني: تعلقها به بعد خروجه إلى وجه الأرض.

الثالث: تعلقها به في حال النوم فلها به تعلق من وجه، ومفارقة من وجه.

الرابع: تعلقها به في البرزخ فإنها وإن فارقته وتجردت عنه فإنها لم تفارقه فراقًا كليا بحيث لا يبقى لها إليه التفات ألبتة، فقد ورد ردها إليه وقت سلام المسلم، وورد: أنه يسمع خفق نعالهم حين يولون عنه، وهذا الرد خاصة لا يوجب إعادة حياة البدن قبل يوم القيامة.

الخامس: تعلقها به يوم بعث الأجساد وهو أكمل أنواع تعلقها بالبدن ولا نسبة لما قبله من أنواع التعلق إليه إذ هو تعلق لا يقبل البدن معه موتًا ولا نومًا ولا فسادًا.

س ـ ماذا يكون بعد فتنة القبر ونعيمه أو عذابه؟ ودلل على ما تقول.

ج ـ تقوم القيامة الكبرىٰ فتعاد الأرواح إلىٰ الأجساد التي كانت تعمرها في الدنيا. وهذه القيامة التي أخبر الله بها في كتابه وعلىٰ لسان رسوله محمد ﷺ، وأجمع عليها المسلمون، فيقوم الناس من قبورهم لرب العالمين حفاة عراة غرلاً.

قال تعالىٰ: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ وقال: ﴿خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ﴾، ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ إلىٰ غير ذلك من الأدلة.

وفي «الصحيحين» عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أن النبي ﷺ قال: «**يقوم الناس لرب العالمين حتى يغيب أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه**».

س ـ ما هو الميزان، وهل هو ميزان حقيقي وما دليله؟

ج ـ الميزان حقيقي له لسان وكفتان توزن به أعمال العباد قال تعالىٰ: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٨ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ الآية، وقال: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ الآية.

وأما من السنة ففي حديث البطاقة «**فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة**» قال: «**فطاشت السجلات وثقلت البطاقة ولا يثقل شيء بسم الله الرحمن الرحيم**».

س ـ هل الذي يوزن العمل أو صاحبه؟ وضح ذلك مع ذكر الدليل؟

ج ـ اختلف العلماء فقيل: الأعمال وإن كانت أعراضًا إلا إن الله يقلبها يوم القيامة أجسامًا. قال البغوي: يروىٰ هذا عن ابن عباس كما جاء في الصحيح من أن سورتي «البقرة» و «آل عمران» تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان أو فرقان من طير صواف.

ومن ذلك ما في الصحيح قصة القرآن وأنه يأتي صاحبه في صورة شاب شاحب اللون فيقول: «**من أنت؟ فيقول: أنا القرآن الذي أسهرت ليلك وأظمأت نهارك**» وفي حديث البراء في قصة سؤال القبر: «**فيأتي المؤمن شاب حسن اللون طيب الريح فيقول: من أنت؟ فيقول: أنا عملك الصالح**» وذكر عكسه في شأن الكافر والمنافق.

وقيل: يوزن كتاب الأعمال كما جاء في حديث البطاقة مما يدل على ذلك.

وقيل: يوزن صاحب العمل مع عمله ويشهد له ما روى البخاري عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «**إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة**»، قال: «**اقرأوا إن شئتم: ﴿فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾**».

وروى الإمام أحمد - رحمه الله - عن ابن مسعود - رضي الله عنه - أنه كان يجني سواكًا وكان دقيق الساقين فجعلت الريح تكفيه، فضحك القوم منه فقال رسول الله ﷺ: «**مم تضحكون؟**» قالوا: يا نبي الله، من دقة ساقيه، فقال: «**والذي نفسي بيده لهما أثقل في الميزان من أحد**» وقد يمكن الجمع بين هذه الآثار بأن يكون ذلك كله صحيحًا، فتارة.. توزن الأعمال، وتارة توزن محالها، وتارة يوزن فاعلها.

س - هل الميزان واحد أو متعدد؟ وضح ذلك مع ذكر الجواب عما يحتاج إلى جواب.

ج - قيل: إنه واحد لجميع الأمم ولجميع الأعمال، وأتى بلفظ الجمع باعتبار تعدد الأعمال والأشخاص أو للتفخيم كما في قوله تعالى: ﴿**كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ**﴾ مع أنه لم يرسل إليهم إلا واحداً وكقوله ﴿**يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ**﴾ وقيل: لكل عبد ميزان، وقيل: الأصل ميزان واحد عظيم ولكل عبد فيه ميزان معلق به، وقيل: جمعه لأن الميزان يحتوي على الكفتين والشاهدين واللسان، ولا يتم الوزن إلا باجتماعها.

س - ما هي الدواوين؟ وما معنى نشرها؟ واذكر ما يدل على ذلك.

ج - هي صحائف الأعمال، ونشرها: بسطها وفتحها، فآخذ كتابه بيمينه، وآخذ كتابه بشماله، أو من وراء ظهره قال تعالى: ﴿**فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ**﴾ وقال: ﴿**وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا (١٣) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا**﴾ وقال: ﴿**وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ**﴾.

* * *



[محاسبة الله للخلق]

وَيَخْلو بِعَبْـدِهِ المُؤْمِنِ، فَيْقَرِّرُهُ بِذُنوبِهِ كمـا وُصِفَ ذلك في الكتاب والسُّنَّة.

وَأَمَّا الكفـارُ؛ فَلاَ يُحَاسَبُون مُحَاسَبَة مَنْ تُـوزَنُ حَسَنَاته وَسَيِّئاتُه فَإنَّهم لاَ حَسَنَات لَهم، وَلَكن تُعدُّ أَعْمَالهم، فتـحْصى فَيُوقفون عَلَيْها وَيُقَرَّرُونَ بِها، ويخزونَ بِهَا.

• الشَّرح •

● قال الشيخ محمد خليل هراس:

وأما قوله: «ويخلو بعبده المؤمن»: فقد ورد عن ابن عمر رضي الله عنهما أن الله عز وجل يدني منه عبده المؤمن فيضع عليه كنفه ويحاسبه فيما بينه وبينه ويقرره بذنوبه، فيقول: ألم تفعل كذا يوم كذا، ألم تفعل كذا يوم كذا حتى إذا قرره بذنوبه وأيقن أنه قد هلك قال له، سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم.

وأما قوله: «فإنه لا حسنات لهم»: يعني: الكفار لقوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ وقوله: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ﴾.

والصحيح أن أعمال الخير التي يعملها الكافر يجازىٰ بها في الدنيا فقط حتىٰ إذا جاء يوم القيامة وجد صحيفة حسناته بيضاء، وقيل يخفف بها عنه من عذاب غير الكفر.

● قال الشيخ ابن عثيمين:

قوله: «ويخلو بعبده المؤمن فيقرره بذنوبه».

هذا صفة حساب المؤمن:

يخلو به الله عز وجل دون أن يطلع عليه أحد، ويقرره بذنوبه؛ أي: يقول له: عملت كذا، وعملت كذا... حتى يقر ويعترف، ثم يقول: **«سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم»**(١).

ومع ذلك؛ فإنه سبحانه وتعالى يضع عليه ستره؛ بحيث لا يراه أحد، ولا يسمعه أحد، وهذا من فضل الله عز وجل على المؤمن؛ فإن الإنسان إذا قررك بجناياتك أمام الناس وإن سمح عنك؛ ففيه شيء من الفضيحة، لكن إذا كان ذلك وحدك؛ فإن ذلك ستر منه عليك.

قوله: «كما وصف ذلك في الكتاب والسنة»:

«ذلك»: المشار إليه الحساب؛ يعني: كما وصف الحساب في الكتاب والسنة، لأن هذا من الأمور الغيبية المتوقفة على الخبر المحض، فوجب الرجوع فيه إلى ما وصف في الكتاب والسنة.

قوله: «وأما الكفار؛ فلا يحاسبون محاسبة من توزن حسناته وسيئاته؛ فإنهم لا حسنات لهم، ولكن تعد أعمالهم فتحصى فيوقفون عليها ويقررون بها ويخزون بها».

هكذا جاء معناه في حديث ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ حينما ذكر حساب الله تعالى لعبده المؤمن، وأنه يخلو به، ويقرره بذنوبه. قال: **«وأما الكفار والمنافقون؛ فينادي بهم على رؤوس الخلائق: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين»**(٢). متفق عليه.

وفي «صحيح مسلم»، عن أبي هريرة رضي الله عنه في حديث طويل عن النبي ﷺ قال: **«فيلقى العبد؛ أي: يلقى الله العبد؛ يعني: المنافق، فيقول: يا فل؛ أي: يا فلان، ألم**

(١، ٢) سبق تخريجه.

أكرمك وأسودك وأزوجك وأسخر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وتربع؟! فيقول: بلى، قال: فيقول: أظننت أنك ملاقي؟ فيقول: فإني أنساك كما نسيتني، ثم يلقى الثاني فيسأله فيجيب كما أجاب الأول، فيقول الله فإني أنساك كما نسيتني، ثم يلقى الثالث فيقول له مثل ذلك، فيقول: يا رب آمنت بك وبكتابك وبرسلك وصليت وصمت وتصدقت، ويثني بخير ما استطاع، فيقول: ههنا إذن، قال: ثم يقال له: الآن نبعث شاهدنا عليك، ويفكر في نفسه من ذا الذي يشهد علي؟ فيختم على فيه، ويقال لفخذه ولحمه وعظامه: انطقي، فتنطق بعمله، وذلك ليعذر من نفسه، وذلك المنافق وذلك الذي يسخط الله عليه»[1].

(تنبيه): في قول المؤلف ـ رحمه الله ـ محاسبة من توزن حسناته وسيئاته... إلخ، إشارة إلى أن المراد بالمحاسبة المنفية عنهم هي محاسبة الموازنة بين الحسنات والسيئات، وأما محاسبة التقرير والتقريع فثابتة كما يدل على ذلك حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فائدة:

أول ما يحاسب عليه العبد من الأعمال الصلاة، وأول ما يقضي فيه بين الناس الدماء؛ لأن الصلاة أفضل العبادات البدنية، والدماء أعظم ما يتعدى به في حقوق الآدميين.

● قال الشيخ صالح الفوزان:

ثم ذكر الشيخ رحمه الله أن الحساب على نوعين:

النوع الأول: حساب المؤمن قال فيه: (ويخلو بعبده المؤمن فيقرره بذنوبه، كما وصف ذلك بالكتاب والسنة) كما قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ [الانشقاق: ٧-٩]، وفي «الصحيحين»، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله يدني المؤمن فيضع عليه كنفه، ويستره من الناس، ويقرره بذنوبه ويقول له: أتعرف ذنب كذا،

---

(١) سبق تخريجه.

أتعرف ذنب كذا، أتعرف ذنب كذا، حتى إذا قرره بذنوبه ورأى في نفسه أن قد هلك قال: فإني قد سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم، ثم يعطى كتاب حسناته»[١] ومعنى «يقرره بذنوبه»: يجعله يقر، أي: يعترف بها، كما في هذا الحديث. «أتعرف ذنب كذا، أتعرف ذنب كذا». ومن المؤمنين من يدخل الجنة بغير حساب، كما صح في حديث السبعين الألف الذين يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب[٢].

والحساب يختلف؛ فمنه اليسير وهو العرض، ومنه المناقشة، وفي «الصحيحين»، عن عائشة رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ قال: «ليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك» فقلت: يا رسول الله، أليس قد قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۝ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾، فقال رسول الله ﷺ: «إنما ذلك العرض، وليس أحد يناقش الحساب يوم القيامة إلا عذب»[٣].

النوع الثاني: حساب الكفار، وقد بينه بقوله: (وأما الكفار فلا يحاسبون محاسبة من توزن حسناته وسيئاته فإنه لا حسنات لهم) أي: ليس لهم حسنات توزن مع سيئاتهم؛ لأن أعمالهم قد حبطت بالكفر فلم يبق لهم في الآخرة إلا سيئات، فحسابهم معناه: أنهم (تعد أعمالهم فتحصى، فيوقفون عليها، ويقررون بها، ويجزون بها) أي: يخبرون بأعمالهم الكفرية ويعترفون بها ثم يجازون عليها، كما قال تعالى: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [فصلت: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٣٧]، وقال: ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١١].

* * *

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٦٠٧٠) ومسلم (٢٨٦٨) من حديث ابن عمر - رضي الله عنه -.

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٥٧٠٥) ومسلم (٢٢٠) من حديث عمران بن حصين - رضي الله عنه -.

(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٦٥٣٧) ومسلم (٢٨٧٦) من حديث عائشة - رضي الله عنها -.

[أسئلة وأجوبة نموذجية على محاسبة الله للخلق]

● قال الشيخ عبد العزيز المحمد السلمان:

س ـ ما هو الحساب، وما الدليل عليه من الكتاب والسنة؟

ج ـ هو توقيف الله عباده قبل الانصراف من المحشر على أعمالهم خيراً كانت أو شراً.

والدليل قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾، وقال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ الآيتان.

وفي «الصحيحين» عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**ليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك**» فقلت: يا رسول الله، أليس قد قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ فقال رسول الله ﷺ: «**ذلك العرض وليس أحد يناقش الحساب يوم القيامة إلا عذب**».

ولهما عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله يدني المؤمن فيضع عليه كنفه ويستره من الناس ويقرره بذنوبه ويقول له: أتعرف ذنب كذا أتعرف ذنب كذا حتى إذا قرره بذنوبه، ورأى في نفسه أنه قد هلك. قال فإني قد سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم ثم يعطى كتاب حسناته**».

س ـ هل هناك فرق بين محاسبة المؤمن ومحاسبة الكافر؟

ج ـ نعم، المؤمن توزن حسناته وسيئاته، فمن رجحت حسناته على سيئاته دخل الجنة، ومن خفت موازينه بأن رجحت سيئاته بحسناته دخل النار، وأما من تساوت حسناته وسيئاته فقيل: إن أولئك أصحاب الأعراف وأما الكفار فلا يحاسبون محاسبة من توزن حسناته وسيئاته، فإنه لا حسنات لهم ولكن تعد أعمالهم فتحصى

فيوقفون عليها ويقررون بها .

قال تعالى : ﴿ أُوْلَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ ﴾ .

وقال : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴾ .

وقال : ﴿ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴾ .

وقال : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً ﴾ . . . إلخ .

* * *

[الحوض المورود للنبي ﷺ وصفته]

وَفي عَرصَات القيـامَة: «الحَوْضُ المَوْرودُ للنَّبيِّ ﷺ». مَاؤُهُ أشَـدُّ بياضًا من اللَّبنِ وَأَحْلَى من العَسَلِ.

آنِيَتُهُ عَدَدُ نُجُومِ السَّماء.

طُولُهُ شَهْرٌ، وَعَرْضُه شَهْرٌ.

مَنْ يَشْرَبُ منْهُ شَرْبَةً؛ لا يَظْمَأ بَعدَهَا أَبدًا.

• الشَّرح •

● قال الشيخ محمد خليل هراس:

وأما قوله: «في عرصات القيامة»: فإن الأحاديث الواردة في ذكر الحوض تبلغ حد التواتر رواها من الصحابة بضع وثلاثون صحابيًا فمن أنكره فأخلق به أن يحال بينه وبين وروده يوم العطش الأكبر وقد ورد في أحاديث، إن لكل نبي حوضًا ولكن حوض نبينا ﷺ أعظمها وأحلاها وأكثرها واردًا جعلنا الله منهم بفضله وكرمه.

● قال الشيخ ابن عثيمين:

الأمر الثامن مما يكون يوم القيامة:

وهو ما ذكره المؤلف ـ رحمه الله ـ: «وفي عرصات القيامة الحوض المورود للنبي ﷺ».

«العرصات»: جمع عرصة، وهي المكان المتسع بين البنيان، والمراد به هنا مواقف القيامة.

«والحوض» في **الأصل**: مجمع الماء، والمراد به هنا: حوض النبي ﷺ.

والكلام على الحوض من عدة وجوه:

أولا: هذا الحوض موجود الآن؛ لأنه ثبت عن النبي ﷺ أنه خطب ذات يوم في أصحابه رضي الله عنهم، وقال: «**وإني والله لأنظر إلى حوضي الآن**»(١).

وأيضًا؛ ثبت عن النبي عليه الصلاة والسلام؛ أنه قال: «**ومنبري على حوضي**»(٢).

وهذا يحتمل أنه في هذا المكان، لكن لا نشاهده؛ لأنه غيبي، ويحتمل أن المنبر يوضع يوم القيامة على الحوض.

ثانيًا: هذا الحوض يصب فيه ميزابان من الكوثر، وهو النهر العظيم، الذي أعطيه النبي ﷺ في الجنة؛ ينزلان إلى هذا الحوض(٣).

ثالثًا: زمن الحوض قبل العبور على الصراط؛ لأن المقام يقتضي ذلك؛ حيث إن الناس في حاجة إلى الشرب في عرصات القيامة قبل عبور الصراط(٤).

رابعًا: يرد هذا الحوض المؤمنون بالله ورسوله ﷺ، المتبعون لشريعته، وأما من استنكف واستكبر عن اتباع الشريعة؛ فإنه يطرد منه.

خامسًا: في كيفية مائه: فيقول المؤلف ـ رحمه الله ـ: «**ماؤه أشد بياضًا من اللبن**» هذا في اللون، أما في الطعم؛ فقال: «**وأحلى من العسل**»، وفي الرائحة أطيب من ريح المسك؛ كما ثبت به الحديث عن النبي ﷺ(٥).

سادسًا: في آنيته: يقول المؤلف ـ رحمه الله ـ «**آنيته عدد نجوم السماء**». هذا كما ورد في بعض ألفاظ الحديث، وفي بعضها: «**آنيته كنجوم السماء**»، وهذا اللفظ أشمل؛ لأنه يكون كالنجوم في العدد وفي الوصف بالنور واللمعان؛ فآنيته كنجوم السماء

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٥٩٠) ومسلم (٢٢٩٦) من حديث عقبة بن عامر ـ رضي الله عنه.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٥٨٨) ومسلم (١٣٩١) من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم (٢٣٠١) وأحمد في «مسنده» (٥/ ٢٨١) من حديث ثوبان ـ رضي الله عنه.

(٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (٤/ ١٣).

(٥) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٥٧٩) ومسلم (٢٩٢٢) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

كثرة وإضاءة.

سابعًا: آثار هذا الحوض: قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: «**من يشرب شربة؛ لا يظمأ بعدها أبدًا**»: حتى على الصراط وبعده. وهذه من حكمة الله عز وجل؛ لأن الذي يشرب من الشريعة في الدنيا لا يخسر أبدًا كذلك.

ثامنًا: مساحة هذا الحوض: يقول المؤلف ـ رحمه الله ـ: «طوله شهر وعرضه شهر»: هذا إذاً يقتضي أن يكون مدوراً؛ لأنه لا يكون بهذه المساحة من كل جانب؛ إلا إذا كان مدوراً، وهذه المسافة باعتبار ما هو معلوم في عهد النبي ﷺ من سير الإبل المعتاد.

تاسعًا: يصب في الحوض ميزابان من الكوثر الذي أعطاه الله تعالى محمداً ﷺ.

عاشرًا: هل للأنبياء الآخرين أحواض؟

فالجواب: نعم؛ فإنه جاء في حديث رواه الترمذي ـ وإن كان فيه مقال ـ: «**إن لكل نبي حوضًا**»[1].

لكن هذا يؤيده المعنى، وهو أن الله عز وجل بحكمته وعدله كما جعل للنبي محمد ﷺ حوضًا يرده المؤمنون من أمته؛ كذلك يجعل لكل نبي حوضًا، حتى ينتفع المؤمنون بالأنبياء السابقين، لكن الحوض الأعظم هو حوض النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

● **قال الشيخ صالح الفوزان**:

مما يوجد في القيامة حوض النبي ﷺ، وقد ذكره الشيخ هنا وبين أوصافه فقال: (**وفي عرصات القيامة الحوض المورود للنبي ﷺ**) كما ثبت ذلك عن النبي ﷺ.

قال الإمام ابن القيم: وقد روى أحاديث الحوض أربعون صحابيًا وكثير منها أو أكثرها في الصحيح. انتهى. وتقدم بيان معنى العرصات.

---

(١) حسن: أخرجه الترمذي (٢٤٤٣) والطبراني في «الكبير» (٦٨٨١) من حديث سمرة بن جندب ـ رضي الله عنه.

والحديث حسنه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (١٥٨٦).

و (الحـــوض): لغة: مجمع الماء، وقد أجمع أهل السنة والجماعة على إثبات الحوض، وخالفت في ذلك المعتزلة فلم تقل بإثباته، وأولوا النصوص الواردة فيه وأحالوها عن ظاهرها.

ثم ذكـر الشيخ رحـمه الله أوصـاف الحـوض، فقـال: (ماؤه أشـد بياضًـا من الـلبن..) إلـخ، وهذه الأوصاف ثابتة في الأحاديث، كحديث عبد الله بن عمرو المتفق عليه قال: قال رسول الله ﷺ: «**حوضي مسيـرة شهر، مـاؤه أبيض من اللبن، وريحه أطيب من المسك، وكيزانه كنجوم السماء، من شرب منه لا يظمأ أبدًا**»[1].

❊ ❊ ❊

(١) أخرجه البخاري (٦٥٧٩) من حديث عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنه ـ.

[أسئلة وأجوبة نموذجية على الحوض المورود للنبي ﷺ وصفته]

● قال الشيخ عبد العزيز المحمد السلمان:

س ـ ما هو الحوض، وأين موضعه وما معنى الإيمان به، وما حكم الإيمان به، ومن يرده، وما مسافته، وكم عدد كيزانه، وما هو الدليل على ذلك؟

ج ـ الحوض: المراد حوض النبي محمد ﷺ، و معنى الإيمان به التصديق الجازم بما أجمع عليه أهل الحق من أن للنبي ﷺ حوضًا في عرصات القيامة: ترد عليه أمته ﷺ.

أخرج الشيخان وغيرهما من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**حوضي مسيرة شهر ماؤه أبيض من اللبن، وريحه أطيب من ريح المسك، كيزانه كنجوم السماء، من شرب منه لا يظمأ أبدًا**».

وفي صحيح مسلم: «**ليردن عليّ الحوض أقوام فيختلجون دوني. فأقول: أصحابي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك**».

س ـ ما الذي يتلخص من الأحاديث الواردة في صفة الحوض ومن أين يمد؟

ج ـ قال في شرح الطحاوية: والذي يتلخص من الأحاديث الواردة في صفة الحوض أنه حوض عظيم، ومورد كريم يمد من شراب الجنة من نهر الكوثر الذي هو أشد بياضًا من اللبن وأبرد من الثلج وأحلى من العسل وأطيب ريحًا من المسك، وهو في غاية الاتساع عرضه وطوله سواء كل زاوية من زواياه مسيرة شهر.

س ـ هل الحوض مختص بنبينا محمد ﷺ، وهل هو قبل الميزان؟

ج ـ الحوض الأعظم مختص بنبينا محمد ﷺ لا يشركه فيه نبي غيره. وأما سائر الأنبياء فقد روى الترمذي في جامعه عن سمرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن لكل نبي حوضًا وإنهم يتباهون أيهم أكثر وردًا وإني لأرجو أن أكون أكثرهم وردًا**».

والذي يترجح أن الحوض قبل الميزان والصراط كما ذكره بعض المحققين والذي عليه أهل الحق أن الكوثر غير الحوض وأنه قبل الصراط .

قال بعضهم:

وحـــوض رســـول الـلـه حـــقًّـــا أعـده ... لـه الـــلـــه دون الـرسـل مـاء مـبـردا

ويشرب مـنـه المـؤمـنـون وكـل مـــن ... سـقـــي مـنه كـأسًـا لم يجد بعده صدا

أبـاريـقـه عـــد الـنـجـــوم وعرضـــه ... كـبـــصـرى وصـنعا في المسـافة حـددا

* * *



[المرور على الصراط]

وَ«الصِّـرَاطُ» مَنْصوبٌ عَلى مَـتْنِ جَهَنَّمَ. وَهُوَ الجِسْرُ الذي بين الجنَّة والنَّار.يَمُـرُّ النَّاس عَلَى قَـدْر أَعْمـالهم فَـمنْهُم مَن يَمُـرُّ كلَمْحِ البَصَـرِ، وَمِنْهُم مَن يَمُرُّ كـالبرق، وَمنْهُم مَن يَمُرُّ كـالرِّيحِ، وَمنْهُم مَن يَمُرُّ كالفَرَس الجَوَاد، وَمِنْهُم مَن يَـمُرُّ كَرِكَاب الإبل، وَمِنْهُم من يَعْدو عَدْوًا، وَمِنْهُم من يَمْشِي مَشْيًا، وَمِنْهُم من يَزْحَف زَحْفًا.

وَمِنْهُم من يُخْطَـفُ خَطْفًا ويُـلقى في جَـهَنَّم؛ فـإنَّ الجِسْـر عليـه كَلاَليبُ تَخْطفُ النَّاس بأعْمالِهم.

فَمَنْ مَرَّ عَلى الصِّرَاط؛ دَخَلَ الجَنَّة.

فـإذا عَبَـروا عليـه؛ وُقفـوا عَلَى قَنْطَـرة بَيْن الجَنَّة والنَّار؛ فَـيُقْـتَص لِبَعضهم مِن بعضٍ، فإذا هُذِّبوا ونُقُّوا؛ أُذِن لهم في دُخُول الجَنَّة.

• الشَّرح •

• قال الشيخ محمد خليل هراس:

قـوله: «والصراط منصـوب...»إلخ: أصل الصـراط الطريق الواسع قيـل سمي بذلك لأنه يسترط السابلة، أي يبتلعهم إذا سلكوه، وقد يستعمل في الطريق المعنوي كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فاتبعوه﴾.

والصراط الأخروي الذي هو الجسر الممدود على ظهر جهنم بين الجنة والنار حق

لا ريب فيه لورود خبر الصادق به، ومن استقام على صراط الله الذي هو دينه الحق في الدنيا استقام على هذا الصراط في الآخرة وقد ورد في وصفه أنه أرق من الشعرة وأحد من السيف.

● **قال الشيخ ابن عثيمين:**

الأمر التاسع مما يكون يوم القيامة: الصراط:

وقد ذكر المؤلف ـ رحمه الله ـ بقوله: «والصراط منصوب على متن جهنم، وهو الجسر الذي بين الجنة والنار».

وقد اختلف العلماء في كيفيته:

ـ **فمنهم من قال:** طريق واسع يمر الناس على قدر أعمالهم؛ لأن كلمة الصراط مدلولها اللغوي هو هذا؛ ولأن رسول الله ﷺ أخبر بأنه دَحض ومزلة[1]، والدحض والمزلة لا يكونان إلا في طريق واسع، وأما الضيق؛ فلا يكون دحضًا ومزلة.

ـ **ومن العلماء من قال:** بل هو صراط دقيق جدًّا؛ كما جاء في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه الذي رواه مسلم بلاغًا[2]؛ أنه أدق من الشعر، وأحد من السيف.

على هذا يرد سؤال: وهو: كيف يمكن العبور على طريق كهذا؟

والجواب: أن أمور الآخرة لا تقاس بأمور الدنيا؛ فالله تعالى على كل شيء قدير، ولا ندري؛ كيف يعبرون؟! هل يجتمعون جميعًا في هذا الطريق أو واحدًا بعد واحد؟

وهذه المسألة لا يكاد الإنسان يجزم بأحد القولين؛ لأن كليهما له وجهة قوية.

وقوله: «منصوب على متن جهنم»؛ يعني: على نفس النار.

قوله: «يمر عليه الناس على قدر أعمالهم: فمنهم من يمر كلمح البصر، ومنهم

---

(١) أخرجه مسلم (١٨٣) من حديث أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه.

(٢) سبق تخريجه.

من يمر كالبرق، ومنهم من يمر كالريح، ومنهم من يمر كالفرس الجواد، ومنهم من يمر كركاب الإبل، ومنهم من يعدوا عدواً، ومنهم من يمشي مشياً، ومنهم من يزحف زحفًا، ومنهم من يخطف خطفًا ويلقى في جهنم؛ فإن الجسر عليه كلاليب تخطف الناس بأعمالهم»[1] .

قوله: «**يمر الناس**»: المراد بـ«**الناس**» هنا: المؤمنون؛ لأن الكفار قد ذهب بهم إلىٰ النار.

فيمر الناس عليه علىٰ قدر أعمالهم؛ منهم من يمر كلمح البصر، ومنهم من يمر كالبرق، ولمح البصر أسرع من البرق، ومنهم من يمر كالريح؛ أي: الهواء، ولا شك أن الهواء سريع، لا سيما قبل أن يعرف الناس الطائرات، والهواء المعروف يصل أحيانًا إلىٰ مائة وأربعين ميلاً في الساعة، ومنهم من يمر كالفرس الجواد، ومنهم من يمر كركاب الإبل، وهي دون الفرس الجواد بكثير، ومنهم من يعدو عدواً؛ أي: يسرع، ومنهم من يمشي مشيًا، ومنهم من يزحف زحفًا؛ أي: يمشي علىٰ مقعدته، وكل منهم يريد العبور.

وهذا بغير اختيار الإنسان، ولو كان باختياره؛ لكان يحب أن يكون بسرعة، ولكن السير علىٰ حسب سرعته في قبول الشريعة في هذه الدنيا؛ فمن كان سريعًا في قبول ما جاءت به الرسل؛ كان سريعًا في عبور الصراط، ومن كان بطيئًا في ذلك؛ كان بطيئًا في عبور الصراط؛ جزاء وفاقًا، والجزاء من جنس العمل.

وقوله: «**ومنهم من يخطف**»: أي: يؤخذ بسرعة، وذلك بالكلاليب التي علىٰ الجسر؛ تخطف الناس بأعمالهم.

«**ويلقى في جهنم**»: يفهم منه أن النار التي يلقىٰ فيها العصاة هي النار التي يلقىٰ فيها الكفار، ولكنها لا تكون بالعذاب كعذاب الكفار، بل قال بعض العلماء: إنها تكون بردًا وسلامًا عليهم كما كانت النار بردًا وسلامًا علىٰ إبراهيم عليه السلام، ولكن الظاهر خلاف ذلك، وأنها تكون حارة مؤلمة، لكنها ليست كحرارتها بالنسبة

---

(١) سبق تخريجه.

للكافرين.

ثم إن أعضاء السجود لا تمسها النار؛ كما ثبت ذلك عن النبي عليه الصلاة والسلام في «الصحيحين»(١)، وهي الجبهة والأنف والكفان والركبتان وأطراف القدمين.

قوله: «**فمن مر على الصراط؛ دخل الجنة**»: أي: لأنه نجا.

قوله: «**فإذا عبروا عليه؛ وقفوا على قنطرة بين الجنة والنار**»:

«القنطرة»: هي الجسر، لكنها جسر صغير، والجسر في الأصل مر على الماء من نهر ونحوه.

واختلف العلماء في هذه القنطرة؛ هل هي طرف الجسر الذي على متن جهنم أو هي جسر مستقل؟!.

والصواب في هذا أن نقول: الله أعلم، وليس يعنينا شأنها، لكن الذي يعنينا أن الناس يوقفون عليها.

قوله: «**فيقتص لبعضهم من بعض**»: وهذا القصاص غير القصاص الأول الذي في عرصات القيامة؛ لأن هذا قصاص أخص؛ لأجل أن يذهب الغل والحقد والبغضاء التي في قلوب الناس، فيكون هذا بمنزلة التنقية والتطهير، وذلك لأن ما في القلوب لا يزول بمجرد القصاص.

فهذه القنطرة التي بين الجنة والنار؛ لأجل تنقية ما في القلوب، حتى يدخلوا الجنة وليس في قلوبهم غل؛ كما قال الله تعالى: ﴿**وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ**﴾ [الحجر: ٤٧].

قوله: «**فإذا هذِّبوا ونقُّوا؛ أُذن لهم في دخول الجنة**».

هكذا رواه البخاري من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه(٢).

إذا هذِّبوا مما في قلوبهم من العداوة والبغضاء ونقُّوا منها؛ فإنه يؤذن لهم في

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٧٤٣٨)، ومسلم (١٨٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) سبق تخريجه.

دخول الجنة؛ فإذا أذن لهم في الدخول؛ فلا يجدون الباب مفتوحًا ولكن النبي ﷺ يشفع إلى الله في أن يفتح لهم باب الجنة؛ كما سيأتي في أقسام الشفاعة إن شاء الله.

● **قال الشيخ صالح الفوزان:**

ذكر الشيخ رحمه الله في هذا أن مما يحصل يوم القيامة المرور على الصراط.

و**(الصراط)**: في اللغة: هو الطريق الواضح.

وأما في الشرع: فهو ما بيَّنه الشيخ بقوله: (وهو الجسر الذي بين الجنة والنار) وبيّن مكانه بقوله: (على متن جهنم) أي: على ظهر النار.

ثم بين صفة مرور الناس عليه بقوله: (يمر الناس عليه على قدر أعمالهم)[1]: ووقت المرور عليه بعد مفارقة الناس للموقف والحشر والحساب فإن الصراط ينجو عليه المؤمنون من النار إلى الجنة ويسقط منه أهل النار فيها، كما ثبت في الأحاديث.

ثم فصل الشيخ رحمه الله أحوال الناس في المرور على الصراط، فقال: (فمنهم من يمر كلمح البصر) إلخ، أي: أنهم يكونون في سرعة المرور وبطئه على حسب إيمانهم وأعمالهم الصالحة التي قدموها في الدنيا فبحسب استقامة الإنسان على دين الإسلام وثباته عليه يكون ثباته ومروره على الصراط، فمن ثبت على الصراط المعنوي، وهو الإسلام ثبت على الصراط الحسي المنصوب على متن جهنم. ومن زل عن الصراط المعنوي زل عن الصراط الحسي.

وقوله: (يعدو عدوًا) أي: يركض ركضًا.

وقوله: (يزحف زحفًا) أي: يمشي على مقعدته بدل رجليه.

وقوله: (عليه كلاليب): جمع كلوب، بفتح الكاف واللام المشددة المضمومة، وهي حديدة معطوفة الرأس.

وقوله: (تخطف) بفتح الطاء ويجوز كسرها من الخطف، وهو: أخذ الشيء بسرعة.

---

(١) أخرجه بنحوه البخاري (٧٤٤٠) ومسلم (١٨٢) من حديث أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه -.

وقوله: (بأعمالهم) أي: بسبب أعمالهم السيئة فيكون اختطاف الكلاليب لهم علىٰ صراط جهنم بحسب اختطاف الشبهات والشهوات لهم عن الصراط المستقيم.

وأهل السنة والجماعة يؤمنون بالصراط المنصوب علىٰ متن جهنم ومرور الناس عليه علىٰ ما جاءت به الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ، وخالف في ذلك القاضي عبد الجبار المعتزلي وكثير من أتباعه، وقالوا: المراد بالصراط المذكور: طريق الجنة، المشار إليه بقوله تعالىٰ: ﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ [محمد: ٥]، وطريق النار، المشار إليه بقوله تعالىٰ: ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٢٣].

وهذا قول باطل ورد للنصوص الصحيحة بغير برهان. والواجب حمل النصوص علىٰ ظاهرها.

ذكر الشيخ رحمه الله مما يكون يوم القيامة الوقوف علىٰ القنطرة فقال: (فمن مر على الصراط) أي: تجاوزه وسلم من السقوط في جهنم (دخل الجنة)؛ لأن من نجا من النار دخل الجنة، قال تعالىٰ: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وقال تعالىٰ: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورىٰ: ٧].

لكن قبل دخول الجنة لابد من إجراء القصاص بين المؤمنين حتىٰ يدخلوا الجنة وهم علىٰ أكمل حالة، قد خلصوا من المظالم، وهذا ما أشار إليه الشيخ بقوله: (فإذا عبروا) أي: تجاوزوا الصراط ونجوا من السقوط في النار (وقفوا علىٰ قنطرة): هي الجسر وما ارتفع من البنيان، وهذه القنطرة قيل: هي طرف الصراط مما يلي الجنة، وقيل: هي صراط آخر خاص بالمؤمنين.

(فيقتص لبعضهم من بعض) أي: يجري بينهم القصاص في المظالم فيؤخذ للمظلوم حقه ممن ظلمه (فإذا هذبوا ونقوا) أي: خلصوا من التبعات والحقوق (أذن لهم في دخول الجنة) وقد ذهب ما في قلوب بعضهم لبعض من الغل، كما قال تعالىٰ: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧].

❊ ❊ ❊

[أسئلة وأجوبة نموذجية على المرور على الصراط]

● قال الشيخ عبد العزيز المحمد السلمان:

س - ما هو الصراط، وأين موضعه، وما صفة مرور الناس عليه، وما حكم الإيمان به؟ واذكر الدليل على ذلك.

ج - «الصراط» لغة: الطريق الواضح.

وفي الشرع: الجسر المنصوب على متن جهنم بين الجنة والنار يرده الأولون والآخرون على قدر أعمالهم، والإيمان به واجب.

لما في الصحيح أن النبي ﷺ قال: «**يضرب الصراط بين ظهري جهنم ويمر المؤمنون عليه فرقًا فمنهم من يمر كالبرق، ثم كمر الريح ثم كمر الطير وأشد الرجال، حتى يجيء الرجل ولا يستطيع السير إلا زحفًا. وفي حافتيه كلاليب معلقة مأمورة بأخذ من أمرت بأخذه فمخدوش ناج ومكردس في النار**».

وعن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «**يخلص المؤمنون من النار فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة، فوالذي نفسي بيده لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله كان في الدنيا**».

ومما ينسب إلى الشيخ رحمه الله:

وأقر بالميزان والحوض الذي ... أرجو بأني منه ريًّا أنهل
وكذا الصراط يمد فوق جهنم ... فمسلم ناجٍ وآخر مهمل

س - ما هو الإيمان بالجنة والنار؟ واذكر الدليل على ذلك؟

ج - هو الاعتقاد الجازم بأن الجنة والنار مخلوقتان لا تفنيان، فالجنة دار أوليائه أعدها الله وما فيها من النعيم المقيم لهم.

قال تعالىٰ: ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾.

وقال: ﴿ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا ﴾ الآيتان.

وقال: ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ الآية.

والنار دار لأعدائه أعدها الله وما فيها من أنواع العذاب لهم، قال تعالىٰ: ﴿ لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾.

وقال: ﴿ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ (١٢) ثُمَّ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَىٰ ﴾.

وقال ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴾ الآية إلىٰ غير ذلك من الأدلة الكثيرة في القرآن.

وفي الصحيحين: «يُجاء بالموت في صورة كبش أملح، فيوقف بين الجنة والنار، ويذبح ويقال: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت».

قال ابن القيم رحمه الله:

أو ما سمعت بذبحه للموت بيـ	ـن المنزلين كذبح كبش الضان
حاشا لذا الملك الكريم وإنما	هو موتنا المحتوم للإنسان
والله ينشئ منه كبشًا أملحًا	يوم المعاد يرى لنا بعيان

* * *



أول من يستفتح باب الجنة محمد ﷺ

وَأوَّلُ من يَسْتَفْتِح بَاب الجَنَّة محمدٌ ـ ﷺ ـ . وأول من يدخل الجَنَّة محمَّدٌ ـ ﷺ ـ، وَأَوَّل مَن يَدْخُل الجَنَّة من الأُممِ أُمَّتُه.

• الشَّرح •

● قال الشيخ محمد خليل هراس:

قوله: «**وأول من يستفتح باب الجنة محمد ﷺ**»: يعني: أول من يحرك حلقها طالبًا أن يفتح له بابها كما قال عليه السلام: «**أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر، وأنا أول من يحرك حلق الجنة فأدخلها ويدخلها معي فقراء أمتي**»(١) يعني: بعد دخول الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام يكون فقراء هذه الأمة أول الناس دخولاً الجنة

● قال الشيخ ابن عثيمين:

الأمر العاشر مما يكون يوم القيامة: دخول الجنة:

وأشار إليه المؤلف ـ رحمه الله ـ بقوله: «**وأول من يستفتح باب الجنة محمد ﷺ**».

ودليله ما ثبت في «صحيح مسلم» أن النبي ﷺ قال: «**أنا أول شفيع في الجنة**»(٢)، وفي لفظ: «**أنا أول من يقرع باب الجنة**»(٣)، وفي لفظ «**أتي باب الجنة يوم القيامة،**

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٦١٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه مسلم (١٩٦) وأحمد في «مسنده» (٣/ ١٤٠) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم (١٩٦) وأبو عوانة (١/ ١٠٩) من حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه.

فاستفتح، فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول: محمد. فيقول: بك أمرت لا أفتح لأحد من قبلك»[(١)] .

وقوله ﷺ: «فأستفتح»: أي: أطلب فتح الباب.

وهذا من نعمة الله على محمد ﷺ؛ فإن الشفاعة الأولى التي يشفعها في عرصات القيامة لإزالة الكروب والهموم والغموم، والشفاعة الثانية لنيل الأفراح والسرور، فيكون شافعًا للخلق عليه الصلاة والسلام في دفع ما يضرهم وجلب ما ينفعهم.

ولا دخول إلى الجنة إلا بعد شفاعة الرسول عليه الصلاة والسلام؛ لأن ذلك ثبت في السنة كما سبق، وأشار إليه عز وجل بقوله: ﴿**حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا**﴾ [الزمر: ٧٣]؛ فإنه لم يقل: حتى إذا جاءوها؛ فتحت! وفيه إشارة إلى أن هناك شيئًا قبل الفتح، وهو الشفاعة. أما أهل النار؛ فقال فيهم: ﴿**حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا**﴾ [الزمر: ٧١]؛ لأنهم يأتونها مهيأة فتبغتهم؛ نعوذ بالله منها.

قوله: «وأول من يدخل الجنة من الأمم أمته»:

هذا حق ثابت؛ دليله ما ثبت في «صحيح مسلم» عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «**نحن الآخرون الأولون يوم القيامة، ونحن أول من يدخل الجنة**»[(٢)]، وقال ﷺ: «**نحن الآخرون السابقون يوم القيامة**»[(٣)]. وهذا يشمل كل مواقف القيامة، وانظر: «حادي الأرواح» لابن القيم - رحمه الله.

تتمـــــة:

أبواب الجنة لم يذكرها المؤلف - رحمه الله - لكنها معروفة أنها ثمانية؛ قال الله تعالى: ﴿**حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا**﴾ [الزمر: ٧٣]؛ وقال النبي ﷺ فيمن توضأ

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٧) وأحمد في «مسنده» (٣/ ١٣٦) من حديث أنس بن مالك - رضي الله عنه.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٤٨٦) ومسلم (٨٥٥) من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه.

(٣) تقدم في الذي قبله في بعض طرقه.

(٤) أخرجه مسلم (٢٣٤) والترمذي (٥٥) من حديث عقبة بن عامر - رضي الله عنه.

وأسبغ الوضوء وتشهد: «**إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية؛ يدخل من أيها شاء**»(٤)

وهذه الأبواب كانت ثمانية بحسب الأعمال؛ لأن كل باب له عمال؛ فأهل الصلاة ينادون من باب الصلاة، وأهل الصدقة من باب الصدقة، وأهل الجهاد من باب الجهاد، وأهل الصيام من باب الريان.

وقد يوفق الله عز وجل بعض الناس لأعمال صالحة شاملة؛ فيدعى من جميع الأبواب؛ كما في «الصحيحين» عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ أن النبي ﷺ قال: «**من أنفق زوجين في سبيل الله؛ نودي من أبواب الجنة: يا عبد الله! هذا خير...**»(١) وذكر الحديث، وفيه: فقال أبو بكر رضي الله عنه: بأبي أنت وأمي يا رسول الله! ما على من دعي من تلك الأبواب من ضرورة؛ فهل يدعى أحد من تلك الأبواب كلها؟ قال: «**نعم، وأرجو أن تكون منهم**».

فإن قلت: إذا كانت الأبواب بحسب الأعمال لزم أن يدعى كل أحد من كل تلك الأبواب إذا عمل بأعمالها؛ فما هو الجواب؟.

فالجواب: أن يقال: يُدعى من الباب المعين مَن كان يكثر من العمل المخصص له؛ مثلا: إذا كان هذا الرجل كثير الصلاة؛ فيدعى من باب الصلاة، كثير الصيام من باب الريان، وليس كل إنسان تحصل له الكثرة في كل عمل صالح؛ لأنك تجد في نفسك بعض الأعمال أكثر وأنشط من بعض، لكن قد يمن الله على بعض الناس، فيكون نشيطًا قويًا في جميع الأعمال؛ كما سبق في قصة أبي بكر رضي الله عنه.

● **قال الشيخ صالح الفوزان:**

يبين الشيخ رحمه الله ما ينتهي إليه أمر المؤمنين يوم القيامة بعد اجتيازهم لتلك الأحوال التي مر ذكر أهمها فيقول: (فإذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة) فهم لا يدخلون الجنة إلا بعد إذن من الله تعالى وطلب لفتح أبوابها (وأول من يستفتح باب الجنة محمد ﷺ) كما في [الصحيح] عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٦٦٦) ومسلم (١٠٢٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ﷺ: «آتي باب الجنة يوم القيامة فأستفتح، فيقـول الخازن: من أنت؟ فأقول: محمد، فيقول: بك أمرت أن لا أفتح لأحد قبلك»(١)، والاستفتاح: طلب الفتح، وفي هذا تشريف له ﷺ وإظهار لفضله.

(وأول من يدخلها من الأمم أمته)؛ وذلك لفضلها على سائر الأمم.

ودليل ذلك: ما في حديث أبي هريرة الذي رواه مسلم من قوله ﷺ: «ونحن أول من يدخل الجنة».

* * *

(١) أخرجه مسلم (١٩٧).

[أسئلة وأجوبة نموذجية على أول من يستفتح باب الجنة محمد ﷺ]

● قال الشيخ عبد العزيز المحمد السلمان:

س ـ من أول من يستفتح باب الجنة؟ واذكر الدليل على ما تقول.

ج ـ محمد ﷺ كما ثبت في الصحيح عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «**آتي باب الجنة يوم القيامة فأستفتح فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول: محمد، فيقول: بك أمرت أن لا أفتح لأحد قبلك**».

قال الناظم:

وأول مفتوح له باب جنة ... وأول محبوء بغير تردد

س ـ من أول من يدخل الجنة من الأمم؟ وما الدليل على ذلك؟

ج ـ أمة النبي محمد ﷺ كما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**نحن السابقون الأولون يوم القيامة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم**».

وروىٰ مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**نحن الآخرون الأولون يوم القيامة، ونحن أول من يدخل الجنة**».

قال ابن القيم رحمه الله:

هذا وأولهم دخولاً خير خلـ ... ـق الله من قد خُص بالقرآن

والأنبياء على مراتبهم من التْـ ... ـتَفضيل تلك مواهب المنان

هذا وأمة أحمد سُبَّاق با ... ق الخلق عند دخولهم لجنان

وأحقهم بالسبق أسبقهم إلى الـ ... إسلام والتصديق بالقرآن

وكذا أبو بكر هو الصديق أسـ ... بقهم دخولاً قول ذي برهان

الشفاعة

وَلَهُ - ﷺ - في القيامَة ثلاثُ شفَاعات:

أَمَّا الشَّفَاعَةُ الأُولى: فَيَشْفَعُ في أهلَ المَوْقف، حَتَّى يُقْضى بيْنَهُم بَعْد أن يتَرَاجَع الأَنْبِيَاءُ - آدم ونُوحٌ وإبْرَاهيمُ وموسى وعيسى ابن مريم عَنِ الشَّفاعة حتى تنتهي إليه.

وَأَمَّا الشَّفَاعَةُ الثَّانيَةُ: فَيَشْفَعُ فِي أَهْلِ الْجَنَّة أَنْ يَدْخُلُوا الْجنَّةَ.

وَهَاتَان الشَّفَاعَتَان خَاصَّتَان لَهُ.

وأَمَّا الشّفَاعَةُ الثَّالثة: فَيَشْفَعُ فيمَن اسْتَحَقَّ النّار.

وهذه الشّفاعةُ لَهُ ولسَائر النّبِيِّن والصِّديقين وَغَيرهم. فيَشْفعُ فيمن اسْتَحَقَّ النّار أن لاَ يَدْخُلها.

- وَيشْفَعُ فيمن دَخلَها أن يَخرُج منها.

ويُخْرِجُ اللّه من النار أقْوامًا بغير شَفَاعة بل بِفَضْلِه ورَحْمَته.

وَيَبْقى في الجنَّة فَضلٌ عَمَّنْ دَخلَها مِنْ أهْلِ الدُّنْيا.

فَيُنْشئ اللَّه لَهَا أَقْوامًا، فَيُدْخلهم الجنَّة.

وأَصْنَافُ مَا تَضَمَّنَتْهُ الدَّارُ الآخرةُ مِن الحِسَاب، وَالثّوابِ وَالعقَاب، وَالجنَّة وَالنَّار.

وَتَفاصيلُ ذَلكَ مَذْكُورة في الكُتُب المنزلة من السَّمَاء، والآثار من العلْمِ؛ المأْثور عَن الأنبياء. وفي العلْم المَوْرُوث عن مُحَمَّدٍ - ﷺ - منْ ذلكَ؛ ما يَشْفِي ويَكْفي، فَمَن ابْتغاهُ وَجدَهُ.

• الشَّرح •

• قال العلامة ناصر السعدي:

ذكر المصنف رحمه الله هذا الكلام النفيس المتعلق باليوم الآخر المأخوذ من نصوص الكتاب والسنة وهو كلام واضح جامع وأحال على الكتاب والسنة في بقية تفاصيل اليوم الآخر قد كتب أهل الإسلام من النصوص الكثيرة من الكتاب والسنة فيما يتعلق باليوم الآخر وبالجنة والنار وتفاصيل ذلك شيئًا كثيرًا وتصانيف طوالاً مبسوطة مستقلة وكل ذلك داخل في الإيمان باليوم الآخر.

وأعلم أن أصل الجزاء على الأعمال خيرها وشرها ثابت بالعقل كما هو ثابت بالسمع فإن الله نبه العقول إلى ذلك في مواضع كثيرة من الكتاب وذكرهم ما هو مستقر في العقول الصحيحة من أنه لا يليق بحكمة الله وصده أن يترك الناس سدى وأن يكونوا خلقوا عبثًا ولا يؤمرون ولا ينهون، لا يثابون ولا يعاقبون وأن العقول الصحيحة تنكر ذلك أشد الإنكار وكذلك نبههم على ذلك بما أوقعه من أيامه في الدنيا من إثابة الطائعين وتعجيل بعض ثوابهم وعقوبةالطاغين وإذاقتهم بعض ما وعدوا به. وهذا شيء مشاهد محسوس متناقل بين الناس بالتواتر.

الذي لا يقبل الشك ولا يزال الله يري عباده آياته في الآفاق وفي أنفسهم ما يتبين به الحق لأولي العقول والألباب..

وأما تفاصيل الجزاء ومقاديرها فلا يدرك إلا بالسمع والنقول الصحيحة عن النبي ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى.

ومن الحكمة في محاسبة الخلق على أعمالهم ووزنها وظهورها مكتوبة في الصحف مع إحاطة علم الله بذلك لِيُري عباده كمال حمده وكمال عدله وسعة رحمته وعظمة ملكه ولهذا قيد ملكه ليوم الدين في عدة مواضع من كتابه مع أن ملكه عام مطلق لهذه المعاني وغيرها.

● قال محمد خليل هراس:

وأما قوله: «وله ﷺ في القيامة ثلاث شفاعات»: فأصل الشفاعة من قولنا: شفع كذا بكذا إذا ضمه إليه، وسمي الشافع شافعًا لأنه يضم طلبه ورجاءه إلىٰ طلب المشفوع له.

والشفاعة من الأمور التي ثبتت بالكتاب والسنة، وأحاديثها متواترة، قال تعالىٰ: ﴿**مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ**﴾ فنفي الشفاعة بلا إذن إثبات للشفاعة من بعد الإذن، قال تعالىٰ عن الملائكة: ﴿**وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ**﴾ فبين الله الشفاعة الصحيحة وهي التي تكون بإذنه ولمن يرتضي قوله وعمله.

وأما ما يتمسك به الخوارج والمعتزلة في نفي الشفاعة من مثل قوله تعالىٰ: ﴿**فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ**﴾، ﴿**وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ**﴾ ﴿**فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ**﴾ إلخ. فإن الشفاعة المنفية هنا هي الشفاعة في أهل الشرك. وكذلك الشفاعة الشركية التي يثبتها المشركون لأصنامهم ويثبتها النصارىٰ للمسيح والرهبان، وهي التي تكون بغير إذن الله ورضاه.

وأما قوله: «أما الشفاعة الأولى فيشفع في أهل الموقف حتى يقضي بينهم» فهذه هي الشفاعة العظمىٰ وهي المقام المحمود الذي يغبطه به النبيون والذي وعده الله أن يبعثه إياه بقوله: ﴿**عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا**﴾ يعني يحمده عليه أهل الموقف جميعًا وقد أمرنا نبينا ﷺ إذا سمعنا النداء أن نقول بعد الصلاة عليه: «**اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدًا الوسيلة والفضيلة وابعثه مقامًا محمودًا الذي وعدته**»[1].

وأما قوله: «وأما الشفاعة الثانية فيشفع في أهل الجنة أن يدخلوا الجنة»: يعني: أنهم وقد استحقوا دخول الجنة لا يؤذن لهم بدخولها إلا بعد شفاعته.

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٥٨٩) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

وأما قوله: «**وهاتان الشفاعتان خاصتان له**»: يعني: الشفاعة في أهل الموقف والشفاعة في أهل الجنة أن يدخلوها، وتنضم إليهما ثالثة وهي شفاعته في تخفيف العذاب عن بعض المشركين كما في شفاعته لعمه أبي طالب فيكون في ضحضاح من نار. كما ورد بذلك الحديث.

وأما قوله: «**وأما الشفاعة الثالثة فيشفع في من استحق النار**»: وهذه هي الشفاعة التي ينكرها الخوارج والمعتزلة، فإن مذهبهم أن من استحق النار لابد أن يدخلها، ومن دخلها لا يخرج منها لا بشفاعة ولا بغيرها والأحاديث المستفيضة المتواترة ترد على زعمهم وتبطله.

وأما قوله: «**وأصناف ما تضمنته الدار الآخرة من الحساب**»إلخ: فاعلم أن أصل الجزاء على الأعمال خيرها وشرها ثابت بالعقل كما هو ثابت بالسمع، وقد نبه الله العقول إلى ذلك في مواضع كثيرة من كتابه مثل قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ﴾ ﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ فإنه لا يليق في حكمة الحكيم أن يترك الناس سدى مهملين، لا يؤمرون ولا ينهون، ولا يثابون ولا يعاقبون، كما لا يليق بعدله وحكمته أن يسوي بين المؤمن والكافر والبر والفاجر كما قال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ فإن العقول الصحيحة تأبى ذلك وتنكره أشد الإنكار.

وكذلك نبههم الله على ذلك بما وقعه من أيامه في الدنيا من إكرام الطائعين، وخذلان الطاغين، وأما تفاصيل الأجزية ومقاديرها فلا يدرك إلا بالسمع، والنقول الصحيحة عن المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله.

● **قال الشيخ ابن عثيمين:**

الأمر الحادي عشر مما يكون يوم القيامة: الشفاعة:

وقد ذكرها المؤلف ـ رحمه الله ـ بقوله: «**وله ﷺ في القيامة ثلاث شفاعات**».

«**له**»: الضمير يعود للنبي ﷺ.

والشفاعات: جمع شفاعة، والشفاعة في اللغة: جعل الشيء شفعًا. وفي الاصطلاح: التوسط للغير بجلب منفعة أو دفع مضرة، ومناسبتها للاشتقاق ظاهرة؛ لأنك إذا توسطت له؛ صرت معه شفعًا تشفعه.

والشفاعة تنقسم إلى قسمين: شفاعة باطلة، وشفاعة صحيحة.

- **فالشفاعة الباطلة**: ما يتعلق به المشركون في أصنامهم؛ حيث يعبدونهم ويزعمون أنهم شفعاء لهم عند الله؛ كما قال تعالى: ﴿**وَيَعْبُدُونَ من دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ**﴾ [يونس: ١٨]، ويقولون: ﴿**مَا نَعْبُدُهُمْ إِلا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى**﴾ [الزمر: ٣].

لكن هذه الشفاعة باطلة لا تنفع؛ كما قال تعالى: ﴿**فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ**﴾ [المدثر: ٤٨].

- **والشفاعة الصحيحة ما جمعت شروطًا ثلاثة:**

الأول: رضا الله عن الشافع.

الثاني: رضاه عن المشفوع له، لكن الشفاعة العظمى في الموقف عامة لجميع الناس من رضي الله عنهم ومن لم يرض عنهم.

الثالث: إذنه في الشفاعة.

والإذن لا تكون إلا بعد الرضا عن الشافع والمشفوع له.

ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿**وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى**﴾ [النجم: ٢٦]، ولم يقل: عن الشافع، ولا: المشفوع له؛ ليكون أشمل.

وقال تعالى: ﴿**يَوْمَئِذٍ لا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا**﴾ [طه: ١٠٩].

وقال سبحانه: ﴿**وَلا يَشْفَعُونَ إِلا لِمَنِ ارْتَضَى**﴾ [الأنبياء: ٢٨].

الآية الأولى تضمنت الشروط الثلاثة، والثانية تضمنت شرطين، والثالثة تضمنت شرطًا واحدًا.

فللنبي ﷺ ثلاث شفاعات:

١ـ الشفاعة العظمىٰ.

٢ـ والشفاعة لأهل الجنة ليدخلوا الجنة.

٣ـ والشفاعة فيمن استحق النار ألا يدخلها، وفيمن دخلها أن يخرج منها.

قال المؤلف ـ رحمه الله ـ مبينًا هذه الثلاث: «أما الشفاعة الأولىٰ؛ فيشفع في أهل الموقف، حتىٰ يقضي بينهم بعد أن يتراجع الأنبياء: آدم ونوح وإبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ ابن مريم عن الشفاعة حتىٰ تنتهي إليه».

قوله: **«حتى يقضي بينهم»**: (حتىٰ) هذه تعليلية، وليست غائية؛ لأن شفاعة الرسول ﷺ تنتهي قبل أن يقضي بين الناس؛ فإنه إذا شفع؛ نزل الله عز وجل للقضاء بين عباده وقضىٰ بينهم.

ونظيرها قوله تعالىٰ: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنفِقُوا عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنفَضُّوا﴾ [المنافقون: ٧]؛ فإن قوله: ﴿حَتَّى يَنفَضُّوا﴾: للتعليل؛ أي: من أجل أن ينفضوا، وليست للغاية؛ لأن المعنىٰ يفسد بذلك.

قوله: **«بعد أن يتراجع الأنبياء؛ آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم عن الشفاعة»**: أي: يردها كل واحد منهم إلىٰ الآخر.

شرح هذه الجملة ما رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وسلم قال: **«أنا سيد الناس يوم القيامة، وهل تدرون فيم ذلك؟ يجمع الله الناس الأولين والآخرين في صعيد واحد؛ يسمعهم الداعي، وينفذهم البصر، وتدنو منهم الشمس، فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون.**

فيقول الناس: ألا ترون ما قد بلغكم؟ ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم؟ فيقول بعضهم لبعض: عليكم بآدم فيأتونه، فيقولون له: أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك؛ ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول: إن ربي غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله، وإنه نهاني عن الشجرة، فعصيته، نفسي نفسي اذهبوا إلى نوح.

فيأتون نوحًا، فيـقولون: يا نوح! إنك أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وقد سماك الله عبـدًا شكورًا؛ اشفع لنا إلى ربك؛ ألا ترى إلا ما نحن فـيه؟ فيـقول كما قـال آدم في غضب الله، وإنه قد كانت لي دعوة دعوتها على قومي؛ اذهبوا إلى إبراهيم!

فيـأتون إبراهيم؛ فيـقولون: يا إبراهيم! أنت نبي الله وخليله من أهـل الأرض؛ اشفع لنا إلى ربك؛ ألا ترى إلى مـا نحن فيه؟ فـيقول كـما قـال آدم في غضب الله، وإني قـد كذبت ثلاث كذبات؛ اذهبوا إلى موسى!

فيأتون موسى، فـيقولون: يا موسى! أنت رسـول الله، فضلك الله برسـالته وبكلامه على الناس؛ اشفع لنا إلـى ربك؛ ألا ترى إلى ما نحن فيـه؟ فيقـول كما قـال آدم في غضب الله، وإني قد قتلت نفسًا لم أومر بقتلها؛ اذهبوا إلى عيسى!

فيأتون عيسى، فيقولون: يا عيسى! أنت رسول الله وكلمته إلى مريم وروح منه وكلمت الناس في المهد صبيًّا؛ اشفع لنا إلى ربك؛ ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول كما قال آدم في غضـب الله، ولم يذكر ذنبًـا، وكلهم يقول كـما قـال آدم: نفسي نفـسي نفسي! اذهبـوا إلى محمد!

فيأتون مـحمدًا ﷺ، فيقولون: يا محمد! أنت رسـول الله، وخاتم الأنبياء، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؛ اشفع لنا إلـى ربك؛ ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فأنطلق، فأتي تحت العرش، فأقع ساجدًا لربي عز وجل، ثم يفـتح الله عليَّ من محامده وحسن الثناء عليه شـيـئًا لم يفـتـحـه على أحـد قبلي، ثـم يقال: يا مـحـمـد ارفع رأسك؛ سل تعطه، واشـفع تشفع...»[1] . وذكر تمام الحديث.

والكذبات الثلاث التي ذكرها إبراهيم عليه السلام فُسِّرت بما رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: لم يكذب إبراهيم عليه السلام إلا ثلاث كذبات؛ اثنتين منهن في ذات الله: قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾، وذكر قوله عن امرأته سارة: إنها أختي[2] .

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٣٥٨) ومسلم (٢٣٧١) من حديث أبي هريرة.

وفي «صحيح مسلم» في حديث الشفاعة السابق أن الثالثة قوله في الكوكب ﴿هَذَا رَبِّي﴾، ولم يذكر قصة سارة[١] .

لكن قال ابن حجر ـ رحمه الله ـ في «الفتح»[٢] : «**الذي يظهر أنها وهم من بعض الرواة**»، وعلل لذلك.

وإنما سمي إبراهيم عليه السلام هذه كذبات؛ تواضعًا منه؛ لأنها بحسب مراده صدق مطابق للواقع؛ فهي من باب التورية، والله أعلم.

قوله: «حتى تنتهي إليه»: أي: إلىٰ الرسول ﷺ، وسبق في الحديث ما يكون بعد ذلك.

وهذه الشفاعة العظمىٰ لا تكون لأحد أبدًا إلا للرسول عليه الصلاة والسلام، وهي أعظم الشفاعات؛ لأن فيها إراحة الناس من هذا الموقف العظيم والكرب والغم.

وهؤلاء الرسل الذين ذكروا في حديث الشفاعة كلهم من أولي العزم، وقد ذكرهم الله تعالىٰ في موضعين من القرآن: في سورة الأحزاب، وفي سورة الشورىٰ.

أما في «سورة الأحزاب»؛ ففي قوله تعالىٰ: ﴿**وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ**﴾ [الأحزاب: ٧].

وأما في «سورة الشورىٰ»؛ فقوله تعالىٰ: ﴿**شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى**﴾ [الشورىٰ: ١٣].

تنبيـــــه:

قوله: «الأنبياء؛ آدم ونوح...» إلى آخره: جزم المؤلف ـ رحمه الله ـ بأن آدم نبي، وهو كذلك؛ لأن الله تعالىٰ أوحىٰ إليه بشرع أمره ونهاه.

وروىٰ ابن حبان في «صحيحه» أن أبا ذر رضي الله عنه سأل صلىٰ الله عليه وعلىٰ

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم (١٩٤) من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.
(٢) «فتح الباري» (٦/ ٣٩١).

آله وسلم: هل كان آدم نبيًّا؟ قال: «نعم»[١].

فيكون آدم أول الأنبياء الموحىٰ إليهم، وأما أول الرسل؛ فنوح؛ كما هو صريح في حديث الشفاعة وظاهر القرآن في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ﴾ [النساء: ١٦٣]، ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [الحديد: ٢٦].

قوله: «**وأما الشفاعة الثانية؛ فيشفع في أهل الجنة أن يدخلوا الجنة**».

وذلك أن أهل الجنة إذا عبروا الصراط؛ وقفوا علىٰ قنطرة؛ فيقتص لبعضهم من بعض، وهذا القصاص غير القصاص الذي كان في عرصات القيامة، بل هو قصاص أخص، يطهر الله فيه القلوب، ويزيل ما فيها من أحقاد وضغائن؛ فإذا هُذبوا ونُقوا؛ أذن لهم في دخول الجنة.

ولكنهم إذا أتوا إلىٰ الجنة؛ لا يجدونها مفتوحة كما يجد ذلك أهل النار؛ فلا تفتح الأبواب، حتىٰ يشفع النبي ﷺ لأهل الجنة أن يدخلوها، فيدخل كل إنسان من باب العمل الذي يكون أكثر اجتهاداً فيه من غيره، وإلا؛ فإن المسلم قد يدعىٰ من كل الأبواب.

وهذه الشفاعة يشير إليها القرآن؛ لأن الله قال في أهل الجنة: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ [الزمر: ٧٣]، وهذا يدل علىٰ أن هناك شيئًا بين وصولهم إليها وبين فتح الأبواب.

وهو صريح فيما رواه مسلم عن حذيفة، وأبي هريرة رضي الله عنهما؛ قالا: قال رسول الله ﷺ: «**يجمع الله تبارك وتعالى الناس، فيقوم المؤمنون حتى تزلف لهم الجنة، فيأتون آدم، فيقولون: يا أبانا! استفتح لنا الجنة...**» وذكر الحديث، وفيه: «**فيأتون محمداً، فيقوم، فيؤذن له...**»[٢] الحديث.

قوله: «**وهاتان الشفاعتان خاصتان له**»: يعني: الشفاعة في أهل الموقف أن

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٥/ ٩٧٨).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (١٩٥) من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه.

يقضى بينهم، والشفاعة في دخول الجنة.

«**خاصتان له**»: أي: للنبي محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ولذلك يعتذر عنها آدم وأولو العزم من الرسل.

وهناك أيضًا شفاعة ثالثة خاصة بالنبي ﷺ، لا تكون لغيره، وهي الشفاعة في عمه أبي طالب.

وأبو طالب ـ كما في «الصحيحين» وغيرهما[1] ـ مات على الكفر.

فأعمام الرسول عليه الصلاة والسلام عشرة، أدرك الإسلام منهم أربعة؛ فبقى اثنان على الكفر وأسلم اثنان:

ـ فالكافران هما:

أبو لهب: وقد أساء إلى النبي ﷺ إساءة عظيمة، وأنزل الله تعالى فيه وفي امرأته حمالة الحطب سورة كاملة في ذمهما ووعيدهما.

والثاني: أبو طالب، وقد أحسن إلى الرسول عليه الصلاة والسلام إحسانًا كبيراً مشهوراً، وكان من حكمة الله عز وجل أن بقي على كفره؛ لأنه لولا كفره؛ ما حصل هذا الدفاع عن الرسول عليه الصلاة والسلام، بل كان يؤذى كما يؤذى الرسول عليه الصلاة والسلام، لكن بجاهه العظيم عند قريش وبقائه على دينهم صاروا يعظمونه وصار للنبي عليه الصلاة والسلام جانب من الحماية بذلك.

ـ واللذان أسلما هما العباس وحمزة ـ وهو أفضل من العباس ـ حتى لقبه الرسول عليه الصلاة والسلام أسد الله، وقتل شهيداً في أحد رضي الله عنه وأرضاه، وسماه النبي ﷺ سيد الشهداء[2].

فأبو طالب أذن الله لرسوله ﷺ أن يشفع فيه، مع أنه كافر، فيكون هذا مخصوصًا من قوله تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨]، ولكنها شفاعة لم تخرجه من النار، بل كان في ضحضاح من نار يبلغ كعبيه يغلي منه دماغه؛ قال الرسول عليه

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٧٧٢) ومسلم (٢٤) من حديث المسيب بن حزن رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٣/ ١٩٥).

الصلاة والسلام: «ولولا أنا؛ لكان في الدرك الأسفل من النار»(١)، وليس هذا أجل شخصية أبي طالب، لكن من أجل ما حصل من دفاعه عن النبي ﷺ وعن أصحابه.

قوله: «**وأما الشفاعة الثالثة؛ فيشفع فيمن استحق النار، وهذه الشفاعة له ولسائر النبيين والصديقين وغيرهم، فيشفع فيمن استحق النار أن لا يدخلها، ويشفع فيمن دخلها أن يخرج منها**».

قوله: «**وأما الشفاعة الثالثة؛ فيشفع فيمن استحق النار**»: أي: من عصاة المؤمنين.

وهذه لها صورتان: يشفع فيمن استحق النار أن لا يدخلها، وفيمن دخلها أن يخرج منها.

- أما فيمن دخلها أن يخرج منها؛ فالأحاديث في هذا كثيرة جدًّا، بل متواترة.

- وأما فيمن استحقها أن لا يدخلها؛ فهذه قد تستفاد من دعاء الرسول ﷺ للمؤمنين بالمغفرة والرحمة على جنائزهم؛ فإنه من لازم ذلك أن لا يدخل النار؛ كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**اللهم اغفر لأبي سلمة، وارفع درجته في المهديين...**»(٢) الحديث.

لكن هذه شفاعة في الدنيا؛ كما في قوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «**ما من رجل مسلم يموت، فيقوم على جنازته أربعون رجلا لا يشركون بالله شيئًا، إلا شفعهم الله فيه**»(٣).

وهذه الشفاعة ينكرها من أهل البدع طائفتان؛ المعتزلة والخوارج؛ لأن المعتزلة والخوارج مذهبهما في فاعل الكبيرة أنه مخلد في نار جهنم، فيرون من زنى كمن أشرك بالله؛ لا تنفعه الشفاعة، ولن يأذن الله لأحد بالشفاعة له.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٢٠٨) ومسلم (٢٠٩) من حديث عباس بن عبد المطلب - رضي الله عنها -.

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٩٢٠) وأبو داود (٣١١٨) من حديث أم سلمة - رضي الله عنها -.

(٣) صحيح: أخرجه مسلم (٩٤٨) وأبو داود (٣١٧٠) منحديث عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما -.

وقولهم مردود بما تواترت به الأحاديث في ذلك.

قوله: «وهذه الشفاعة له ولسائر النبيين والصديقين وغيرهم»: فيشفع فيمن استحق النار أن لا يدخلها، ويشفع فيمن دخلها أن يخرج منها، يعني: أنها ليست خاصة بالنبي ﷺ، بل تكون للنبيين؛ حيث يشفعون في عصاة قومهم، وللصديقين يشفعون في عصاة أقاربهم وغيرهم من المؤمنين، وكذلك تكون لغيرهم من الصالحين، حتى يشفع الرجل في أهله وفي جيرانه وفيما أشبه ذلك.

قوله: «ويخرج الله من النار أقوامًا بغير شفاعة، بل بفضله ورحمته».

يعني: أن الله تعالى يخرج من عصاة المؤمنين من شاء بغير شفاعة، وهذا من نعمته؛ فإن رحمته سبقت غضبه، فيشفع الأنبياء والصالحون والملائكة وغيرهم، حتى لا يبقى إلا رحمة أرحم الراحمين، فيخرج من النار من يخرج بدون شفاعة، حتى لا يبقى في النار إلا أهلها الذي هم أصحاب النار.

فقد روى الشيخان البخاري ومسلم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ: **«أن الله تعالى يقول: شفعت الملائكة، وشفع النبيون، وشفع المؤمنون، ولم يبق إلا أرحم الراحمين، فيقبض قبضة من النار، فيخرج منها قومًا لم يعلموا خيرًا قط؛ قد عادوا حممًا...»**[(1)] الحديث.

الأمر الثاني عشر مما يكون يوم القيامة:

وهو ما ذكره المؤلف ـ رحمه الله ـ بقوله: «ويبقى في الجنة فضل عمن دخلها من أهل الدنيا».

الجنة عرضها السماوات والأرض، وهذه الجنة التي عرضها السماوات والأرض يدخلها أهلها، ولكن لا تمتلئ.

وقد تكفل الله عز وجل للجنة والنار لكل واحدة ملؤها:

- **«فالنار لا تزال يلقى فيها وهي تقول: هل من مزيد؟ فلا تمتلئ، فيضع الله عز وجل عليها قدمه، فينزوي بعضها إلى بعض، وتقول: قط قط»**[(2)].

(١، ٢) سبق تخريجه.

ـ وأما الجنة؛ فينشئ لها أقوامًا، فيدخلون الجنة بفضل الله ورحمته[1] :

ـ ثبت ذلك في «الصحيحين»[2] من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وهذا مقتضى قوله تعالى: ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ [الانعام: ٥٤]، وقول النبي عليه الصلاة والسلام فيما يرويه عن ربه سبحانه وتعالى: «إن رحمتي سبقت غضبي»[3] .

ولهذا قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: «فينشئ الله لها أقوامًا، فيدخلهم الجنة».

قوله: «وأصناف ما تضمنته الدار الآخرة من الحساب والثواب والعقاب».

الأصناف: الأنواع.

وسبق معنى الحساب.

«والثواب»: جزاء الحسنات؛ الحسنة بعشر أمثالها إلى سبع مائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

«والعقاب»: جزاء السيئات، ومن جاء بالسيئة؛ فلا يجزى إلا مثلها، وهم لا يظلمون.

قوله: «والجنة والنار»: «الجنة»: هي الدار التي أعدها الله تعالى لأوليائه، وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، وفيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر؛ ﴿ فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة: ١٧]؛ أي: لا تعلم حقيقته وكنهه.

والجنة موجودة الآن؛ لقوله تعالى: ﴿ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾، والأحاديث في هذا المعنى متواترة.

ولا تزال باقية أبد الآبدين؛ لقوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ [هود: ١٠٨]،

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٨٥٠) ومسلم (٢٨٤٦) من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٨٥٠) ومسلم (٢٨٤٨) من حديث أنس ـ رضي الله عنه ـ.

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (٧٥٥٤) ومسلم (٢٧٥١) من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ.

﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ [النساء: ٥٧]؛ في آيات متعددة.

وأما «النار»: فهي الدار التي أعدها الله تعالىٰ لأعدائه، وفيها من أنواع العذاب والعقاب ما لا يطاق.

وهي موجودة الآن؛ لقوله تعالىٰ: ﴿ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣١]، والأحاديث في هذا المعنىٰ مستفيضة مشهورة.

وأهلها خالدون فيها أبدًا؛ لقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا * خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ [الأحزاب: ٦٤، ٦٥].

وقد ذكر الله خلودهم أبدًا في ثلاث آيات من القرآن؛ هذه أحدها، والثانية في آخر سورة النساء، والثالثة في سورة الجن، وهي ظاهرة في أن النار لا تزال باقية أبد الآبدين.

قوله: «وتفاصيل ذلك مذكورة في الكتب المنزلة من السماء»: يعني: مثل التوراة والإنجيل وصحف إبراهيم وموسىٰ وغيرها من الكتب المنزلة؛ فقد ذكر فيها ذلك مفصلا لحاجة الناس، بل ضرورتهم إلىٰ بيانه وتفصيله؛ إذ لا يمكنهم الاستقامة إلا بالإيمان باليوم الآخر الذي يجازىٰ فيه كل عامل بما عمل من خير وشر.

قوله: «والآثار من العلم المأثور عن الأنبياء».

اعلم أن العلم المأثور عن الأنبياء قسمان:

١- قسم ثبت بالوحي، وهو ما ذكر في القرآن والسنة الصحيحة، وهذا لا شك في قبوله واعتقاد مدلوله.

٢- وقسم آخر أتىٰ عن طريق النقل غير الوحي، وهذا هو الذي دخل فيه الكذب والتحريف والتبديل والتغيير.

ولهذا لا بد من أن يكون الإنسان حذرًا مما ينقل بهذا الطريق عن الأنبياء السابقين، حتىٰ قال الرسول عليه الصلاة والسلام: **«إذا حدثكم أهل الكتاب؛ فلا تصدِّقوهم ولا تكذبوهم، وقولوا: آمنا بما أنزل إلينا وما أنزل إليكم»**[1]؛ لأنك إن صدقت؛ قد تصدق

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٤٤٨٥)، وأحمد في «مسنده» (٤/ ١٣٥) من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه -.

بباطل، وإن كذبته؛ قد تكذب بحق؛ فلا تصدق ولا تكذب؛ قل: إن كان هذا من عند الله؛ فقد آمنت به.

وقد قسم العلماء ما أثر عمن سبق ثلاثة أقسام:

الأول: ما شهد شرعنا بصدقه.

والثاني: ما شهد شرعنا بكذبه. والحكم في هذين واضح.

والثالث: ما لم يحكم بصدقه ولا كذبه. فهذا مما يجب فيه التوقف؛ لا يصدق ولا يكذب.

قوله: «وفي العلم الموروث عن محمد ﷺ من ذلك ما يشفي ويكفي»:
العلم الموروث عن محمد صلوات الله وسلامه عليه سواء في كتاب الله أو في سنة رسول الله ﷺ فيه من ذلك ما يشفي ويكفي.

فلا حاجة إلى أن نبحث عن مواعظ ترقق القلوب من غير الكتاب والسنة، بل نحن في غنى عن هذا كله؛ ففي العلم الموروث عن محمد رسول الله ﷺ ما يشفي ويكفي في كل أبواب العلم والإيمان.

ثم المنسوب إلى رسول الله ﷺ في باب الوعظ والفضائل ترغيبًا أو ترهيبًا ينقسم إلا ثلاثة أقسام: صحيح مقبول، وضعيف، وموضوع، فليس كله صحيحًا مقبولا، ونحن في غنى عن الضعيف والموضوع.

- فالموضوع اتفق العلماء - رحمهم الله - على أنه لا يجوز ذكره ونشره بين الناس؛ لا في باب الفضائل والترغيب والترهيب، ولا في غيره؛ إلا من ذكره ليبين حاله.

- والضعيف اختلف فيه العلماء - رحمهم الله -، والذين قالوا بجواز نشره ونقله اشترطوا فيه ثلاثة شروط:

الشرط الأول: أن لا يكون الضعف شديداً.

الشرط الثاني: أن يكون أصل العلم الذي رتب عليه الثواب أو العقاب ثابتًا بدليل صحيح.

الشرط الثالث: أن لا يعتقد أن النبي ﷺ قاله، بل يكون متردداً غير جازم، لكنه

راج في باب الترغيب، خائف في باب الترهيب.

أما صيغة عرضه فلا يقول: قال رسول الله ﷺ بل يقول روي عن رسول الله أو ذكر عنه... وما أشبه ذلك.

فإن كنت في عوام لا يفرقون بين ذكر وقيل وقال؛ فلا تأت به أبدًا؛ لأن العامي يعتقد أن الرسول عليه الصلاة والسلام قاله؛ فما قيل في المحراب؛ فهو عنده الصواب!

تنبيــــه:

هذا الباب - أي: باب اليوم الآخر وأشراط الساعة - ذكرت فيه أحاديث كثيرة فيها ضعيف وفيها وضع، وأكثر ما تكون هذه في كتب الرقائق والمواعظ؛ فلذلك يجب التحرز منها، وأن نحذر العامة الذين يقع في أيديهم مثل هذه الكتب.

قوله: «فمن ابتغاه»: أي: طلبه: «وجده».

وهذا صحيح؛ فالقرآن بين أيدينا، وكتب الأحاديث بين أيدينا، لكنها تحتاج إلىٰ تنقيح وبيان الصحيح منها والضعيف، حتىٰ يبني الناس ما يعتقدونه في هذا الباب علىٰ أساس سليم.

● قال الشيخ صالح الفوزان:

(وله ﷺ في القيامة ثلاث شفاعات): الشفاعات: جمع شفاعة، والشفاعة: لغة: الوسيلة. وعرفًا: سؤال الخير للغير. مشتقة من الشفع الذي هو ضد الوتر. فكأن الشافع ضم سؤاله إلىٰ سؤال المشفوع له بعد أن كان منفردًا.

وقول الشيخ رحمه الله: (وله ﷺ في القيامة ثلاث شفاعات): بيان للشفاعات التي يقوم بها النبي ﷺ في يوم القيامة بإذن الله تعالىٰ.

هكذا ذكر الشيخ رحمه الله أنواع الشفاعة هنا مختصرة، وهي علىٰ سبيل الاستقصاء ثمانية أنواع منها: ما هو خاص بالنبي ﷺ، ومنها ما هو مشترك بينه وبين غيره.

الشفاعة الأولى: الشفاعة العظمىٰ - وهي: المقام المحمود - وهي أن يشفع النبي

ﷺ أن يقضي الله سبحانه بين عباده بعد طول الموقف عليهم وبعد مراجعتهم الأنبياء للقيام بها فيقوم بها نبينا ﷺ بعد إذن ربه .

الشفاعة الثانية: شفاعته في دخول أهل الجنة الجنة بعد الفراغ من الحساب .

الشفاعة الثالثة: شفاعته ﷺ في عمه أبي طالب أن يخفف عنه العذاب، وهذه خاصة به؛ لأن الله أخبر أن الكافرين لا تنفعهم شفاعة الشافعين، ونبينا أخبر أن شفاعته لأهل التوحيد خاصة، فشفاعته لعمه أبي طالب خاصة به وخاصة لأبي طالب، هذه الأنواع الثلاثة من الشفاعة خاصة بنبينا محمد ﷺ .

الشفاعة الرابعة: شفاعته فيمن استحق النار من عصاة الموحدين أن لا يدخلها .

الشفاعة الخامسة: شفاعته ﷺ فيمن دخل النار من عصاة الموحدين أن يخرج منها .

الشفاعة السادسة: شفاعته في رفع درجات بعض أهل الجنة .

الشفاعة السابعة: شفاعته ﷺ فيمن استوت حسناتهم وسيئاتهم أن يدخلوا الجنة، وهم أهل الأعراف على قول .

الشفاعة الثامنة: شفاعته ﷺ في دخول بعض المؤمنين الجنة بلا حساب ولا عذاب، كشفاعته ﷺ في عكاشة بن محصن رضي الله عنه، حيث دعا له النبي ﷺ أن يكون من السبعين الألف الذين يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب .

وهذه الأنواع الخمسة الباقية يشاركه فيها غيره من الأنبياء والملائكة والصديقين والشهداء .

وأهل السنة والجماعة يؤمنون بهذه الشفاعات كلها؛ لثبوت أدلتها، وأنها لا تتحقق إلا بشرطين:

الشرط الأول: إذن الله للشافع أن يشفع، كما قال تعالىٰ: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ [يونس: ٣] .

الشرط الثاني: رضا الله عن المشفوع له، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، ويجمع الشرطين قوله تعالىٰ: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا

تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ ﴾ [النجم: ٢٦].

وقد خالفت المعتزلة في الشفاعة لأهل الكبائر من المؤمنين فيمن استحق النار منهم أن لا يدخلها وفيمن دخلها أن يخرج منها، أي: في النوع الخامس والسادس من أنواع الشفاعة، ويحتجون بقوله تعالىٰ: ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾ [المدثر: ٤٨].

والجواب عنها: أنها واردة في حق الكفار فهم الذين لا تنفعهم شفاعة الشافعين. أما المؤمنون فتنفعهم الشفاعة بشروطها.

هذا وقد انقسم الناس في أمر الشفاعة إلىٰ ثلاثة أصناف:

الصنف الأول: غلوا في إثباتها، وهم النصارىٰ والمشركون وغلاة الصوفية. والقبوريون حيث جعلوا شفاعة من يعظمونه عند الله كالشفاعة المعروفة في الدنيا عند الملوك فطلبوها من دون الله، كما ذكر الله ذلك عن المشركين.

الصنف الثاني: وهم المعتزلة والخوارج غلوا في نفي الشفاعة فأنكروا شفاعة النبي ﷺ وشفاعة غيره في أهل الكبائر.

الصنف الثالث: وهم أهل السنة والجماعة أثبتوا الشفاعة علىٰ وفق ما جاءت به النصوص القرآنية والأحاديث النبوية، فأثبتوا الشفاعة بشروطها.

لما ذكر الشيخ رحمه الله أن من أنواع الشفاعات التي تقع بإذن الله الشفاعة بإخراج بعض من دخلوا النار منها ذكر هنا: أن الخروج من النار له سبب آخر غير الشفاعة وهو: رحمة الله سبحانه وفضله وإحسانه فيخرج من النار من عصاة الموحدين من في قلبه أدنىٰ مثقال حبة من إيمان.

قال الله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾ [النساء: ٤٨].

وفي الحديث المتفق عليه: **«يقول اللهم شفعت الملائكة وشفع النبيون، وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قومًا لم يعملوا خيرًا قط»** الحديث(١).

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٨٣) من حديث أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه -.

وقوله: (ويبقى في الجنة فضل): أي: متسع (**عمن دخلها من أهل الدنيا**)؛ لأن الله وصفها بالسعة فقال: ﴿عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ﴾ [آل عمران: ١٣٣] (**فينشئ الله**) أي: يخلق ويوجد (**أقوامًا**) أي: جماعات (**فيدخلهم الجنة**) بفضله ورحمته؛ لأن الجنة رحمته يرحم بها من يشاء، وأما النار فلا يعذب فيها إلا من قامت عليه حجته وكذب رسله.

وقوله: (وأصناف ما تضمنته الدار الآخرة..) إلخ لما ذكر رحمه الله ما ذكر من أحوال اليوم الآخر وما يجري فيه ـ أحال على الكتاب والسنة في معرفة تفاصيل البقية مما لم يذكره؛ لأن ذلك من علم الغيب الذي لا يعرف إلا من طريق الوحي.

❊ ❊ ❊

[أسئلة وأجوبة نموذجية على الشفاعة]

● قال الشيخ عبد العزيز المحمد السلمان:

س ـ ما هي الشفاعة؟ وما المثبتة منها؟ وما شروطها؟ وما المنفية؟

ج ـ هي لغة: الوسيلة والطلب، وعرفها بعضهم بأنها سؤال الخير للغير، وقيل: هي السؤال في التجاوز عن الذنوب والجرائم، والشفاعة المثبتة: هي التي أثبتها الله تعالىٰ لأهل الإخلاص.

ولها شرطان مذكوران في قوله تعالىٰ: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّموات لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ﴾، وقال: ﴿يَوْمَئِذٍ لاَّ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً﴾.

وأما المنفية فهي التي تطلب من غير الله أو بغير إذنه أو لأهل الشرك قال تعالىٰ: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ﴾ الآية.

س ـ ما أقسام الشفاعة المثبتة الخاصة بالرسول ﷺ والعامة له ولغيره من الملائكة والنبيين والمرسلين والمؤمنين؟

ج ـ أما الأقسام التي ذكرها شيخ الإسلام في الواسطية فثلاثة: اثنتان خاصتان به ﷺ.

الأولى: الشفاعة العظمىٰ وهي شفاعته ﷺ لأهل الموقف حتىٰ يقضىٰ بينهم بعد أن يتدافع الأنبياء أصحاب الشرائع من آدم إلىٰ نوح وإبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ عليهم السلام.

وهي المقام المحمود قال تعالىٰ: ﴿عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ قيل: إنه المقام الذي يقومه ﷺ للشفاعة يوم القيامة للناس ليريحهم ربهم مما هم فيه، وهذا القول هو الذي دلت عليه الأدلة الصحيحة في تفسير الآية.

(القول الثاني): إنه إعطاؤه ﷺ لواء الحمد يوم القيامة، ولا منافاة بين كونه قائماً مقام الشفاعة وبيده لواء الحمد. قال الناظم:

كفاه سمواً بالوسيلة رتبةً ورفع لواءٍ تحته كل أمجد

وحوض بماء الكوثر امتد ماؤه كثلج وشهد ناقعٍ غلة الصدي

الثانية: شفاعته في أهل الجنة أن يدخلوها، وأما العامة، وهي التي له ولسائر النبيين والصديقين وغيرهم، فيشفع فيمن استحق النار أن لا يدخلها وفيمن دخلها أن يخرج منها - أنهاها في شرح الطحاوية إلى ثمانية أقسام.

س - إلى كم انقسم الناس في إثبات الشفاعة وعدمها؟

ج - إلى ثلاثة أقسام: طرفان ووسط، فقسم نفوا الشفاعة كما مر، وهم الخوارج والمعتزلة فنفوا شفاعته ﷺ في أهل الكبائر.

وقسم أثبتوها للأصنام وهم المشركون كما ذكر الله عنهم في كتابه بقوله: ﴿ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ ﴾ [يونس: ١٨].

وقسم توسطوا: وهم أهل السنة فأثبتوا الشفاعة بشروطها المتقدمة.

س - هل يدخل أحد الجنة بغير شفاعة؟

ج - نعم: يخرج الله أقواماً من النار بغير شفاعة بل بفضله ورحمته ويبقى في الجنة فضل عمن دخلها من أهل الدنيا فينشئ الله لها أقواماً يدخلهم الجنة.

وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - في حديثه الطويل قال: فيقول الله: «**شفعت الملائكة وشفع النبيون ولم يبق إلا أرحم الراحمين فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قوماً لم يعملوا خيراً قط**».

وقل يخرج الله العظيم بفضله من النار أقواماً من الفحم تطرح

على النهر في الفردوس تحيا بمائه كحب حميل السيل إذ جاء يطفح

* * *

[من أصول أهل السنة الإيمان بالقضاء والقدر]

وتُؤْمِنُ الفِـرْقَةُ النَّاجِـيَةُ من أهْـلِ السُّنَّةِ والجَمـاعَةِ بـالقَـدَرِ خَيْرِه وَشَرِّه.

وَالإيمانُ بِالقَدَرِ عَلَى دَرَجَتَيْنِ، كُلُّ دَرَجَةٍ تَتَضَمَّنُ شَيْئَيْنِ.

فالدَّرَجَة الأُولى: الإيمان بـ:

أَنَّ اللَّه تَعَـالى عَـلِمَ مَـا الخَلْق عَـامِلُون بِعِلْـمِـه القَـدِيمِ الَّذِي هُو مَـوْصُــوفٌ به أزلاً وأبدًا. وعَلِمَ جَـمِــيعِ أحـوالِهم، من الـطَّاعـات وَالمعَاصـي وَالأَرْزاقِ وَالآجالِ. ثُمَّ كَتَبَ اللَّهُ في اللَّوْحِ المَحْـفُوظِ مَقاديرَ الخَلق.

فَأَوَّل مَـا خَلَق اللَّهُ القَلَمَ؛ قال له: اكْـتُبْ!؟ قال: ما أَكْـتُبُ؟ قَال: اكْتُبْ مَا هُو كَائِنٌ إلى يوم القيامة.

فَما أصابَ الإنْسان لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ، وَما أخْطَأَهُ لَمْ يَكُن لِيُـصيبَهُ، جَفَّت الأقْلامُ وَطُويَت الصُّحُفُ. كـما قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠].

وقال: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢].

وَهَذا التَّـقْديـرُ التَّابعُ لِعِلـمِه سُـبْـحانَهُ يَكونُ في مَـواضِعَ جـمْلَةً

وتفصيلاً. فَقَدْ كَتَبَ في اللّوْحِ المَحْفُوظ ما شاءَ.

وإذا خلَقَ جسَدَ الجنين قبْلَ نَفْخِ الرُّوح فيـه؛ بَعَثَ إليه ملَكًا فيُؤْمَرُ بأرْبَعِ كَلِمات، فيُقالُ له اكْتُبْ رِزْقَهُ وأجلَهُ وعَملَهُ وشَقِـيٌ أم سَعيدٌ، ونَحْوَ ذَلكَ.

فهـذا التقـدير قَد كَـانَ يُنْكِره غُلاَةُ القَـدَرِيَّة قديمًا، ومُنْكِـروه اليوم قَليل.

وَأمّا الدَّرجَةُ الثَّانيَةُ فَهِيَ:

مَشيئَة اللَّه النَّافذَةُ، وَقُدْرَتُهُ الشّاملَةُ.

وَهُوَ الإيمانُ بِأنَّ ما شاءَ اللَّهُ كان، ومَا لَمْ يَشأ لَمْ يكُنْ.

وَأنَّهُ ما في السَّموات وما في الأرض، من حَـركَةٍ ولا سُكونٍ إلا بِمَشيئَة اللَّه سُبْحانَهُ، لا يَكونُ في مُلكه إلاَّ ما يُريد.

وأنَّهُ سُبْحانَهُ على كُلِّ شيءٍ قَديرٌ من المَوْجودات والمَعْدومات.

فَمـا منْ مَخْلوق في الأرْضِ ولا في السَّماءِ إلاَّ اللَّه خـالقُهُ سُبْحانَهُ لا خالقَ غيْرُهُ، ولا ربَّ سواهُ.

ومن ذلك فَـقَـد أمَرَ العبـاد بِطاعَـتِهِ وَطَاعَـة رُسُله، ونَهـاهم عن معصيته.

وَهُو سُبْحانَهُ يُحبُّ المُتّقينَ وَالمُحْسنينَ وَالمُقْسطينَ.

ويَرْضى عن الَّذينَ آمَنوا وعَملوا الصَّالحات، ولا يُحبُّ الكافرينَ، ولا يَرْضى عَن القَومِ الفَاسقين، ولاَ يأمُرُ بالفَحْشَاءِ.

وَلاَ يَرْضى لِعبَاده الكُفر، ولا يُحبُّ الفَسَادَ.

وَ العبادُ فاعلونَ حَقيقَةً، وَاللَّهُ خالق أفْعالهِم.

وَالعَبْدُ هُوَ المُؤْمنُ وَالكافرُ، وَالبَرُّ وَالفاجرُ، وَالمُصلِّي وَالصَّائمُ.

وَللعبادِ قُـدْرَةٌ عَلى أعْمالِهِم ولهم إرادَةٌ، وَاللَّهُ خالـقُهم وقُدْرَتهِم وَإرادتهِم

كَمَا قَالَ تَعَالى: ﴿ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٨-٢٩].

وَهذه الدَّرَجَةُ مِنَ القَدَر، يُكذِّب بها عـامة القَدَرِيَّة ، الذين سمَّاهم النَّبيُّ ﷺ: «مَجُوس هذه الأمة» .

وَيَغْلو فـيـهـا قَوْمٌ مِـنْ أهْلِ الإثْبـات، حتَّى سَـلَبُوا العَـبْـدَ قُـدْرَتَهُ وَاخْتِيارَهُ وَيُخْرِجونَ عَن أفْعالِ اللَّه وَأحْكامه؛ حِكَمها وَمَصالِحها.

• الشَّرح •

● قال العلامة ناصر السعدي:

اعلم أن الإيمان بالقَدَر أَمْرُه عَظيم وشأنه مُهِمٌّ جدًّا وهو أَحَد أركان الإيمان السِّتة، وقد انحرف فيه طوائف من أهل البدع والضَّلال فضلاً عن المنكرين من المُلْحدين وغيرهم.

وقد فصَّله الشيخ في هذا الفصل بهذا الكلام الجامع النَّفيس الذي لا يُوجد له نَظير في تحقيقه وتَفْصيله وجَمْعه وتوضيحه، وهو مجموع من نُصوص الكتاب والسُّنة ومن العقيدة السَّلفية الخالصة.

فذكر: أَنَّه لا يتم الإيمان بالقَدَر إلاَّ بتحقيق هذه الأمور الأربعة التي يفتقر كل منها إلىٰ البقية، وقد ارتبط بعضها ببعض ارتباطًا وثيقًا لا ينفصم إلا بالانحراف إلىٰ الأقوال المُنْحرفة.

وذلك: أنه ثبتت نصوص الكتاب والسُّنة بإحاطة علم اللَّه بجميع الموجودات السَّابقة، والحاضرة، والمستقبلة من أعيان، وأوْصَاف، وأفْعَال للمكلفين وغيرهم.

وثبتت النصوص أيضًا: أن اللَّه أثبت علمه بالكائنات والموجودات دقيقها وجليلها باللَّوح المحفوظ في نُصُوص لا يمكن إحصاؤها.

وثبتت النصوص أيضًا: أن مشيئة اللَّه عامة وإرادته القَدَرية شاملة لا يخرج عنها حادث صغير ولا كَبير ولا عَين ولا فِعْل ولا وَصْف، وأنه ما شاء اللَّه كان وما لم يشأ لم يكن.

والنصوص علىٰ شُمُول قُدْرة اللَّه ومشيئته لكل حَادِث لا تُحْصَىٰ.

وثبتت النصوص أيضًا: أن العباد مختارون غير مجبورين علىٰ أفعالهم وأن أعمالهم خيرها وشرها واقعة بمشيئتهم وقدرتهم التي خلقها اللَّه لهم.

وخالق السبب التام خالق للمُسَبَّب.

وبهذا يَنْحَل عن العبد الإشكال وَيَتَّسع قَلْبُه للجمع بين إثبات عموم مشيئة الله وقُدْرته وشُمُولها لأفعال العِباد مع وقُوعها شَرْعًا وحِسًّا وعَقلاً باختيارهم.

فمتىٰ جمع العبد هذه المراتب الأرْبع، وآمن بها إيمانًا صَحِيحًا كان هو المؤمن بالقَـدَر حقًّا، الذي يعلم أن اللَّه بكل شيء عليم، وعلمه بالحوادث قد أودعه في اللَّوح المحفوظ، والحوادث كلها تجري علىٰ ما علمه اللَّه وكتبه وتقع بأَسْباب رَبَطَها العزيز الحكيم بمسبباتها.

والأسباب والمُسَبِّبات من قضاء اللَّه وقدره، ولهذا لما قال النبي ﷺ لأصحابه: «**مَا مِنْكم من أحَدٍ إلاَّ وقَد كُتِبَ مَقْعَدُه من الجنة أو النار**».

فقالوا: يَا رسولَ الله أفَلا نَتَّكل عَلَىٰ كِتَابنا ونَدَع العَمَل؟ فقال: «**اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّر لِما خُلِقَ لَهُ، أَمَّا أهلُ السعادَة فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَل أهْل السَّعَادَة، وَأَمَّا أهْل الشَّقَاوة فَيُيَسَّرُون**

لعَمَل أهْلِ الشّقاوة». ثم قرأ ﷺ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ (٧) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٤-١٠]. متفق عليه.

وتوضيح ذلك: أن العَبْد إذا صَلَّىٰ وَصَام وَعمِلَ الخير أوْ عَمِل شيئًا من المعاصي كان هو الفَاعل لذلك العمل الصَّالح وذلك العمل السَّيئ، وفعله المذكور بلا رَيْب وقد وقع باختياره وهو يحس ضَرورة أَنَّه غير مجبور علىٰ الفعل أو الترك وأنه لو شاء لم يفعل. وكما أن هذا هو الواقع فهو الذي نصَّ اللَّه عليه في كتابه، ونَصَّ عليه رسوله، حيث أضاف الأعمال صالحها وسيِّئها إلىٰ العباد، وأخبر أنَّهم الفاعلون لها، وأنهم مَمدوحون عليها ـ إن كانت صَالحة ـ ومُثَابون عليها ومَذْمُومون ـ إن كانت سَيِّئة ـ ومُعَاقبون عليها.

فقد تبين بلا ريب واتَّضح أنَّها واقعة منهم وباختيارهم، وأنهم إن شاءوا فعلوا وإن شَاءوا تركوا، وأن هذا الأمر ثابت عقلاً وحسًّا وشرعًا ومشاهدة.

ومع ذلك فإذا أردت أن تعرف أنها وإن كانت كذلك واقعة منهم كيف تكون داخلة في القدر وكيف تشملها المشيئة؟

فيقال: بأي شيء وقعت هذه الأعمال الصادرة من العباد خيرها وشرها؟

فيقال: فهي بِقْدرَتِهم وإرادتهم. وهذا يَعْترف به كل أحد.

ويقال أيضًا: ومن خلَق قُدْرَتهم وَمشيئتهم وإرادتهم؟

فالجواب الذي يعترف به كل أحد: أن الله هو الذي خلَقَ قُدْرتهم وإرادتهم، وهو الذي خلق ما به تقع الأفعال، هو الخالق للأفعال.

فهذا هو الذي يحل الإشكال، ويتمكن العبد أن يعقل بقلبه اجتماع القدر والقضاء والاختيار. ومع ذلك فهو تعالىٰ أَمَدَّ المؤمنين بأسباب وأَلْطَاف وإعانَات متنوعة، وصرف عنهم الموانع كما قال ﷺ: «وأمّا مَن كَانَ مِن أهل السَّعادة فيُيَسَّر لِعَمَل أهْلِ السَّعَادَة».

وكذلك خَذل الفَاسِقين وَوَكَلهم إلىٰ أنفسهم، ولمْ يُعِنْهُم؛ لأنهم لم يؤمنوا به ويَتَوكَّلوا عليه؛ فَوَلاَّهم ما تَولوه لأنفسهم. ولما ضاق تحقيق هذا المقام علىٰ قُلُوب

كثير من الخلق، انحرفت هنا طائفتان من الناس:

١ ـ طائفةٌ يُقَال لهم: «الجبرية»، غَلَوا في إثبات القَدَر، وتَوَهَّموا أن العبد ليس له فعل حقيقة، وأنه لا يمكن أن يُثْبِتَ للعبد عُمُوم المشيئة، ويُثْبِتَ للعبد اختياراً.

٢ ـ والطَّائفة الأخرى: «القدرية»، قَابَلتهم فشهدت وقوع أفعالهم بقدرتهم واختيارهم وتوهموا أنه لا يمكن مع ذلك أن تَدْخُل في قضاء اللَّه وقدره فلم تتسع قلوب «الجبرية» و«القدرية» للجمع بين الأمرين فرد كل منهما قسمًا كبيراً من نصوص الكتاب والسنة المؤيدة بالعقل الصحيح.

وهدى اللَّه: «أهل السُّنة والجماعة» فآمنوا بجميع الكتاب والسُّنة وآمنوا بِقَضَائِه وقَدَرِه وشمُولهما لكل موجود وبِشَرْعه وأمره وأن العباد فاعلون حقيقة مختارون، فإيمانهم بِعُموم القَدَرِ يُوجِب لهم الاستعانة التَّامة بربهم؛ لعلمهم أنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأن له في عباده المؤمنين ألطافًا وتيسيراً لا يُنَالُ إلا بقوة الإيمان والتوكل، وَأَوْجَب لهم إيمانهم ـ بالشرع والأمر والنهي والأسباب وأنها مرتبطة بمسبباتها شرعًا وقدراً ـ الجد والاجتهاد في فعل الأسباب النافعة ـ الدينية والدنيوية ـ وبذلك تعرف أن الإيمان الصَّحيح سَبَبٌ لِكُلِّ خير.

ومن فوائد الإيمان بالقَضَاء والقَدَر: أنه يُوجب للعبد سُكُون القلب وطمأنينته وَقُوَّته وشجاعته، لعلمه أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وأنه يُسَلِّي العبد عن المَصَائب، ويُوجب له الصَّبر والتَّسليم والقناعة بما رَزَق اللَّه.

قال تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّه يَهْدِ قَلْبَه﴾ [التغابن: ١١] قال بعض السلف: «هو الرَّجُل تُصِيبه المُصيبة فَيَعلم أنَّها من عند اللَّه فَيَرْضَى ويُسلِّم».

ومن فوائده: أنه يُوجب للعبد شهود مِنَّة اللَّه عليه فيما يَمُنُّ به عليه مِن فعل الخيرات وأنواع الطاعات، لا يُعْجبُ بنفسه ولاَ يُدلُّ بِعَمَلِه؛ لعلمه أن الله تعالىٰ هو الذي تَفَضَّل عليه بالتَّوفيق والإعانة وصَرْف الموانع والعوائق، وأنه لو وَكَّله إلىٰ نفسه لَضَعُفَ وعَجَزَ عن العمل وعن الثبات عليه. كما أنه سببٌ لِشُكر نعم اللَّه فما يُنْعِمُ عليه من نعم الدين والدنيا، فإنه يعلم أنه ما بالعبد من نعمة إلا من اللَّه، وأن اللَّه هو الدَّافع لكل مَكْروه ونِقْمة.

● قال الشيخ محمد خليل هراس:

والإيمان بالقدر خيره وشره من الله تبارك وتعالىٰ أحد الأركان الستة التي يدور عليها فلك الإيمان كما دل عليه حديث جبريل وغيره وكما دلت عليه الآيات الصريحة: كتاب الله عزوجل.

وقد ذكر المؤلف هنا أن الإيمان بالقدر علىٰ درجتين وأن كلا منهما تتضمن شيئين؛ فالدرجة الأولىٰ تتضمن:

أولاً: الإيمان بعلمه القديم المحيط بجميع الأشياء وأنه تعالىٰ علم بهذا العلم القديم الموصوف به أزلاً وأبدًا كل ما سيعمله الخلق فيما لا يزال وعلم به جميع أحوالهم من الطاعات والمعاصي والأرزاق والآجال.

فكل ما يوجد من أعيان وأوصاف ويقع من أفعال وأحداث فهو مطابق لما علمه الله عز وجل أزلاً.

ثانيًا: أن الله كتب ذلك كله وسجله في اللوح المحفوظ، فما علم الله كونه ووقوعه من مقادير الخلائق وأصناف الموجودات وما يتبع ذلك من الأحوال والأوصاف والأفعال ودقيق الأمور وجليلها قد أمر القلم بكتابته كما قال ﷺ: «**قدر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء**»، وكما قال في الحديث الذي ذكره المؤلف: «**أن أول ما خلق الله القلم قال له: اكتب، قال: وما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة**».

«وأول» هنا: بالنصب علىٰ الظرفية، والعامل فيه قال، أي له ذلك أول ما خلقه وقد روي بالرفع علىٰ أنه مبتدأ خبره القلم، ولهذا اختلف العلماء في العرش والقلم أيهما خلق أولاً.

وحكىٰ العلامة ابن القيم في ذلك قولين واختار أن العرش مخلوق قبل القلم.

قال في النونية:

والناس مختلفون في القلم الذي	كتب القضاء به من الديان
هل كان قبل العرش أو هو بعده	قولان عند أبي العلا الهمداني
والحق أن العرش قبل لأنه	وقت الكتابة كان ذا أركان
وكتابة القلم الشريف تعقبت	إيجاده من غير فصل زمان

وإذا كان القلم قد جرىٰ بكل ما هو كائن إلىٰ يوم القيامة بكل ما يقع من كائنات وأحداث فهو مطابق لما كتب فيه، فما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، كما جاء في حديث ابن عباس رضي الله عنهما وغيره.

وهذا التقدير التابع للعلم القديم تارة يكون جملة كما في اللوح المحفوظ فإن فيه مقادير كل شيء، ويكون في مواضع تفصيلاً يخص كل فرد كما في الكلمات الأربع التي يؤمر الملك بكتابتها عند نفخ الروح في الجنين يكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أم سعيد، فهذا تقدير خاص وهذا التقدير السابق علىٰ وجود الأشياء قد كان ينكره غلاة القدرية قديمًا مثل معبد الجهني وغيلان الدمشقي، وكانوا يقولون: إن الأمر أنف. ومنكر هذه الدرجة من القدر كافر لأنه أنكر معلومًا من الدين بالضرورة وقد ثبت بالكتاب والسنة والإجماع.

قوله: «وأما الدرجة الثانية من القدر» إلخ: فهي تتضمن شيئين أيضًا:

أولهما: الإيمان بعموم مشيئته تعالىٰ وأن ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن وأنه لا يقع في ملكه ما لا يريد وأن أفعال العباد من الطاعات والمعاصي واقعة بتلك المشيئة العامة التي لا يخرج عنها كائن سواء كان مما يحبه الله ويرضاه أم لا.

وثانيهما: الإيمان بأن جميع الأشياء واقعة بقدرة الله تعالىٰ وأنها مخلوقة له لا خالق لها سواه، لا فرق في ذلك بين أفعال العباد وغيرها كما قال تعالىٰ: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾.

ويجب الإيمان بالأمر الشرعي، وأن الله تعالىٰ كلف العباد فأمرهم بطاعته وطاعة رسله ونهاهم عن معصيته ولا منافاة أصلاً بين ما ثبت من عموم مشيئته سبحانه لجميع الأشياء وبين تكليفه العباد بما شاء من أمر ونهي، فإن تلك المشيئة لا تنافي

حرية العبد واختياره للفعل ولهذا جمع الله بين المشيئتين بقوله: ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

كما أنه لا تلازم بين تلك المشيئة وبين الأمر الشرعي المتعلق بما يحبه الله ويرضاه، فقد يشاء الله ما لا يحبه ويحب ما لا يشاء كونه؛ «فالأول»: كمشيئته وجود إبليس وجنوده، «الثاني»: كمحبة إيمان الكفار وطاعات الفجار وعدل الظالمين وتوبة الفاسقين ولو شاء ذلك لوجد كله، فإنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

وكذلك لا منافاة بين عموم خلقه تعالى لجميع الأشياء وبين كون العبد فاعلاً لفعله، فالعبد هو الذي يوصف بفعله فهو المؤمن والكافر والبر والفاجر والمصلي والصائم، والله خالقه وخالق فعله لأنه هو الذي خلق فيه القدرة والإرادة اللتين بهما يفعل.

يقول العلامة الشيخ عبد الرحمن بن ناصر آل سعدي غفر الله له وأجزل مثوبته:

إن العبد إذا صلى وصام وفعل الخير أو عمل شيئًا من المعاصي كان هو الفاعل لذلك العمل الصالح، وذلك العمل السيئ. وفعله المذكور بلا ريب قد وقع باختياره وهو يحس ضرورة أنه غير مجبور على الفعل أو الترك وأنه لو شاء لم يفعل وكان هذا هو الواقع الذي نص الله عليه في كتابه ونص عليه رسوله حيث أضاف الأعمال صالحها وسيئها إلى العباد وأخبر أنهم الفاعلون لها وأنهم ممدوحون عليها ـ إن كانت صالحة ـ ومثابون، وملومون عليها ـ إن كانت سيئة ـ ومعاقبون عليها.

فقد تبين واتضح بلا ريب أنها واقعة منهم باختيارهم وأنهم إذا شاءوا فعلوا وإذا شاءوا تركوا، وأن هذا الأمر ثابت عقلاً وحسًا وشرعًا ومشاهدة.

ومع ذلك إذا أردت أن تعرف أنها وإن كانت كذلك واقعة منهم كيف تكون داخلة في القدر وكيف تشملها المشيئة؟ فيقال: بأي شيء وقعت هذه الأعمال الصادرة من العباد خيرها وشرها؟ فيقال: بقدرتهم وإرادتهم، هذا يعترف به كل أحد، فيقال: ومن خلق قدرتهم وإرادتهم ومشيئتهم؟ فالجواب الذي يعترف به كل أحد: أن الله هو الذي خلق قدرتهم وإرادتهم، والذي خلق ما تقع به الأفعال هو الخالق للأفعال. فهذا هو الذي يحل الإشكال ويتمكن العبد أن يعقل بقلبه اجتماع القدر والقضاء والاختيار، ومع ذلك فهو تعالى أمد المؤمنين بأسباب وألطاف وإعانات متنوعة

وصرف عنهم الموانع كما قال ﷺ: «أما من كان من أهل السعادة فسييسر لعمل أهل السعادة» وكذلك خذل الفاسقين ووكلهم إلى أنفهسم لأنهم لم يؤمنوا به ولم يتوكلوا عليه فولاهم ما تولوا لأنفسهم. اهـ.

وخلاصة مذهب أهل السنة والجماعة في القدر وأفعال العباد ما دلت عليه نصوص الكتاب والسنة من أن الله سبحانه هو الخالق لكل شيء من الأعيان والأوصاف والأفعال وغيرها وأن مشيئته تعالى عامة شاملة لجميع الكائنات فلا يقع منها شيء إلا بتلك المشيئة وأن خلقه سبحانه الأشياء بمشيئته إنما يكون وفقًا لما علمه منها بعلمه القديم، ولما كتبه وقدره في اللوح المحفوظ وأن للعباد قدرة وإرادة تقع بها أفعالهم وأنهم الفاعلون حقيقة لهذه الأفعال بمحض اختيارهم وأنهم لهذا يستحقون عليها الجزاء إما بالمدح والمثوبة وإما بالذم والعقوبة وأن نسبة هذه الأفعال إلى العباد فعلاً لا ينافي نسبتها إلى الله أيجاداً وخلقًا؛ لأنه هو الخالق لجميع الأسباب التي وقعت بها.

وضل في القدر طائفتان كما تقدم:

«الطائفة الأولى»: القدرية نفاة القدر الذين هم مجوس هذه الأمة كما ورد ذلك في بعض الأحاديث مرفوعًا وموقوفًا وهؤلاء ضلوا بالتفريط وإنكار القدر وزعموا أنه لا يمكن الجمع بين ما هو ثابت بالضرورة من اختيار العبد في فعله ومسئوليته عنه، وبين ما دلت عليه النصوص من عموم خلقه تعالى ومشيئته لأن ذلك العموم في زعمهم إبطال لمسئولية العبد عن فعله وهدم للتكاليف فرجحوا جانب الأمر والنهي وخصصوا النصوص الدالة على عموم الخلق والمشيئة بما عدا أفعال العباد وأثبتوا أن العبد خالق لفعله بقدرته وإرادته، فأثبتوا خالقين غير الله ولهذا سموا مجوس هذه الأمة؛ لأن المجوس يزعمون أن الشيطان يخلق الشر والأشياء المؤذية، فجعلوه خالقًا مع الله، فكذلك هؤلاء جعلوا العباد خالقين مع الله.

«والطائفة الثانية»: يقال لها الجبرية وهؤلاء غلوا في إثبات القدر حتى أنكروا أن يكون للعبد فعل حقيقة بل هو في زعمهم لا حرية له ولا اختيار ولا فعل كالريشة في مهب الرياح، وإنما تسند الأفعال إليه مجازاً فيقال: صلى وصام وقتل وسرق كما يقال: طلعت الشمس وجرت الريح ونزل المطر. فاتهموا ربهم بالظلم وتكليف

العباد بما لا قدرة لهم عليه، ومجازاتهم على ما ليس من فعلهم، واتهموه بالعبث في تكليف العباد وأبطلوا الحكمة من الأمر والنهي ألا ساء ما يحكمون.

● قال الشيخ عبد العزيز بن باز:

● أقسام القدر أربعة:

الأول: التقدير العام: وهو تقدير الرب لجميع الأشياء بمعنى علمه بها وكتابته لها ومشيئته وخلقه لما كان منها، ويدل على هذا النوع دلائل كثيرة منها قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ﴾ [الحج: ٧٠]. وقوله: ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]. وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا﴾ [البقرة: ٢٥٣]. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [الحج: ١٨]. وقوله: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢].

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص، أن النبي ﷺ قال: «**إن الله قدَّر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماء والأرض بألف سنة، وكان عرشه على الماء**».

القسم الثاني: تقدير عمري: وهو تقدير كل ما يجري على العبد في حياته إلى نهاية أجله وكتابة شقاوته وسعادته، وقد دل عليه حديث ابن مسعود المخرج في «الصحيحين» مرفوعًا: «**إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا، ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل الله الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات: بكتابة رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد...**».

الثالث: التقدير السنوي: وذلك يكون في ليلة القدر، ويدل عليه قوله سبحانه وتعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٤]. وقوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ [القدر: ٤، ٥]. قيل: يكتب في هذه الليلة ما يحدث في السنة من موت وعز وذل وغير ذلك، روي هذا عن ابن عمر ومجاهد وأبي مالك والضحاك وغير واحد من السلف.

الرابع: التقدير اليومي: ويدل عليه قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]. ولأثر عن ابن عباس: «إن لله لوحًا محفوظًا من درة بيضاء، دفتاه ياقوتة حمراء، قلمه نور وكتابه نور، وعرضه ما بين السماء والأرض، ينظر فيه كل يوم كذا وكذا نظرة

يخلق في كل نظرة، ويحيي ويميت، ويعز ويذل من يشاء» أخرجه ابن جرير، وفي إسناده أبو حمزة الشمالي وهو ضعيف، ورُمي بالرفض فلا يعتمد عليه.

وأخرج ابن جرير عن منيب بن عبد الله الأزدي عن أبيه، وابن أبي حاتم عن أبي الدرداء، عن النبي ﷺ في تفسير: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ قال: «من شأنه يأن يغفر ذنبًا، ويفرج كربًا، ويرفع قومًا ويضع آخرين». علقه البخاري عن أبي الدرداء موقوفًا.

● قال الشيخ ابن عثيمين:

قوله: «وتؤمن الفرقة الناجية ـ أهل السنة والجماعة ـ بالقدر؛ خيره وشره».

قوله: «الفرقة الناجية أهل السنة والجماعة»: سبق تعريفها والكلام عنها في أول الكتاب.

وقوله: «بالقدر خيره وشره»: القدر في اللغة؛ بمعنى: التقدير؛ قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾ [المرسلات: ٢٣].

وأما القضاء: فهو في اللغة: الحكم.

ولهذا نقول: أن القضاء والقدر متباينان إن اجتمعا، ومترادفان إن تفرقا؛ على حد قول العلماء: هما كلمتان: إن اجتمعتا افترقتا، وإن افترقتا اجتمعتا.

فإذا قيل: هذا قدر الله؛ فهو شامل للقضاء، أما إذا ذكرا جميعًا؛ فلكل واحد منهما معنى.

فالتقدير: هو ما قدره الله تعالى في الأزل أن يكون في خلقه.

وأما القضاء: فهو ما قضى به الله سبحانه وتعالى في خلقه من إيجاد أو إعدام، أو تغيير، وعلى هذا يكون التقدير سابقًا.

فإن قال قائل: متى قلنا: إن القضاء هو ما يقضيه الله سبحانه وتعالى في خلقه من إيجاد أو إعدام أو تغيير، وإن القدر سابق عليه إذا اجتمعا؛ فإن هذا يعارض قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]؛ فإن هذه الآية ظاهرها أن التقدير بعد الخلق؟.

فالجواب على ذلك من أحد وجهين:

ـ **إما أن نقول:** إن هذا من باب الترتيب الذكري لا المعنوي؛ وإنما قدم الخلق على التقدير لتتناسب رءوس الآيات.

ألم تر أن موسى أفضل من هارون، لكن قدم هارون عليه في سورة طه في قوله تعالى عن السحرة: ﴿ **فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى** ﴾ [طه: ٧٠]؛ لتتناسب رءوس الآيات.

وهذا لا يدل على أن المتأخر في اللفظ متأخر في الرتبة.

ـ **أو نقول:** إن التقدير هنا بمعنى التسوية؛ أي: خلقه على قدر معين؛ كقوله تعالى: ﴿ **الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى** ﴾ [الأعلى: ٢]؛ فيكون التقدير بمعنى التسوية.

وهذا المعنى أقرب من الأول؛ لأنه يطابق تمامًا لقوله تعالى: ﴿ **الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى** ﴾؛ فلا إشكال.

والإيمان بالقدر واجب، ومرتبته في الدين أنه أحد أركان الإيمان الستة؛ كما قال النبي عليه الصلاة والسلام لجبريل حين قال: ما الإيمان؟ قال: «**أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره**»[١].

وللإيمان بالقدر فوائد؛ منها:

أولا: أنه من تمام الإيمان، ولا يتم الإيمان إلا بذلك.

ثانيًا: أنه من تمام الإيمان بالربوبية؛ لأن قدر الله من أفعاله.

ثالثًا: رد الإنسان أموره إلى ربه؛ لأنه إذا علم أن كل شيء بقضائه وقدره؛ فإنه سيرجع إلى الله في دفع الضراء ورفعها، ويضيف السراء إلى الله، ويعرف أنها من فضل الله عليه.

رابعًا: أن الإنسان يعرف قدر نفسه، ولا يفخر إذا فعل الخير.

خامسًا: هون المصائب على العبد؛ لأن الإنسان إذا علم أنها من عند الله؛ هانت

---

(١) سبق تخريجه.

عليه المصيبة ؛ كما قال تعالى : ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن : ١١] ؛ قال علقمة رحمه الله : «هو الرجل تصيبه المصيبة ، فيعلم أنها من عند الله ، فيرضى ويسلم»(١) .

سادسًا : إضافة النعم إلى مُسديها ؛ لأنك إذا لم تؤمن بالقدر ؛ أضفت النعم إلى من باشر الإنعام ، وهذا يوجد كثيرًا في الذين ينزلفون إلى الملوك والأمراء والوزراء ؛ فإذا أصابوا منهم ما يريدون ؛ جعلوا الفضل إليهم ، ونسوا فضل الخالق سبحانه .

صحيح أنه يجب على الإنسان أن يشكر الناس ؛ لقول النبي عليه الصلاة والسلام : «من صنع إليكم معروفًا؛ فكافئوه»(٢) ، ولكن يعلم أن الأصل كل الأصل هو فضل الله عز وجل جعله على يد هذا الرجل .

سابعًا : أن الإنسان يعرف به حكمة الله عز وجل ؛ لأنه إذا نظر في هذا الكون وما يحدث فيه من تغييرات باهرة ؛ عرف بهذا حكمة الله عز وجل ؛ بخلاف من نسي القضاء والقدر ؛ فإنه لا يستفيد هذه الفائدة .

قوله : «خيره وشره» : الشر في القدر : ما لا يلائم طبيعة الإنسان ؛ بحيث يحصل له به أذية أو ضرر .

والخير : ما يلائم طبيعته ؛ بحيث يحصل له به خير أو ارتياح وسرور ، وكل ذلك من الله عز وجل .

ولكن ؛ إن قيل : كيف يقال : إن في قدر الله شرًا ؛ وقد قال النبي ﷺ : «الشر ليس إليه»(٣) .

فالجواب على ذلك أن يقال : الشر في القدر ليس باعتبار تقدير الله له ، لكنه باعتبار المقدور له ؛ لأن لدينا قدرًا هو التقدير ومقدورًا ؛ كما أن هناك خلقًا و مخلوقًا

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢٨/ ١٢٣) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٨/ ١٨٤) وعزاه لعبد ابن حميد وابن المنذر والبيهقي في «شعب الإيمان» .

(٢) صحيح : أخرجه أبو داود (١٦٧٢) والنسائي في «الكبرى» (٢٥٦٧) من حديث عبد الله بن عمر - رضي الله عنه - .
والحديث صححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٦٠٢١) .

(٣) سبق تخريجه .

وإرادة ومراداً؛ فباعتبار تقدير الله له ليس بشر، بل هو خير، حتى وإن كان لا يلائم الإنسان ويؤذيه ويضره، لكن باعتبار المقدور؛ فنقول: المقدور إما خير وإما شر؛ فالقدر خيره وشره يراد به المقدور خيره وشره.

ونضرب لهذا مثلا في قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ [الروم: ٤١].

ففي هذه الآية بين الله عز وجل ما حدث من الفساد وسببه والغاية منه؛ فالفساد شر، وسببه عمل الإنسان السيئ، والغاية منه: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

فكون الفساد يظهر في البر والبحر فيه حكمة؛ فهو نفسه شر، لكن لحكمة عظيمة، بها يكون تقديره خيراً.

كذلك المعاصي والكفر شر، وهو من تقدير الله، لكن لحكمة عظيمة، لولا ذلك لبطلت الشرائع، ولولا ذلك لكان خلق الناس عبثًا.

والإيمان بالقدر خيره وشره لا يتضمن الإيمان بكل مقدور، بل المقدور ينقسم إلى كوني وإلى شرعي:

- فالمقدور الكوني: إذا قدر عليك مكروهًا؛ فلابد أن يقع؛ رضيت أم أبيت.

- والمقدور الشرعي: قد يفعله الإنسان وقد لا يفعله، ولكن باعتبار الرضا به فيه تفصيل: إن كان طاعة لله؛ وجب الرضا به، وأن كان معصية؛ وجب سخطه وكراهته والقضاء عليه؛ كما قال الله عز وجل: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

وعلى هذا؛ يجب علينا الإيمان بالمقضي كله؛ من حيث كونه قضاء لله عز وجل، أما من حيث كونه مقضيًّا؛ فقد نرضى به وقد لا نرضى؛ فلو وقع الكفر من شخص؛ فلا نرضى بالكفر منه، لكن نرضى بكون الله أوقعه.

قوله: «والإيمان بالقدر على درجتين كل درجة تتضمن شيئين»: إنما قسم المؤلف ـ رحمه الله ـ هذا التقسيم من أجل الخلاف؛ لأن الخلاف في القدر ليس شاملا

لكل مراتبه، وباب القدر من أشكل أبواب العلم والدين على الإنسان، وقد كان النزاع فيه من عهد الصحابة رضي الله عنهم، لكنه ليس مشكلا لمن أراد الحق.

الدرجة الأولى من درجات الإيمان بالقدر:

قوله: «فالدرجة الأولى: الإيمان بأن الله تعالى علم ما الخلق عاملون بعلمه القديم الذي هو موصوف به أزلا».

قوله: «فالدرجة الأولى: الإيمان بأن الله علم ما الخلق عاملون»:

ولم يذكر المؤلف - رحمه الله - أن الله علم ما يفعله هو؛ لأن هذه المسألة ليس فيها خلاف، إنما ذكر ما فيه الخلاف، وهو: هل الله يعلم ما الخلق عاملون أو لا يعلمه إلا بعد وقوعه منهم؟

ومذهب السلف والأئمة أن الله تعالى عالم بذلك.

قوله: «بعلمه القديم»: القديم في اصطلاحهم: هو الذي لا أول لابتدائه؛ أي أنه لم يزل فيما مضى من الأزمنة التي لا نهاية لها عالمًا بما يعمله الخلق؛ بخلاف القديم في اللغة؛ فقد يراد به ما كان قديمًا نسبيًّا؛ كما في قوله تعالى: ﴿حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ [يس: ٣٩]، ومعلوم أن عرجون النخلة ليس بقديم أزلي، بل قديم بالنسبة لما بعده.

فالله تعالى موصوف بأنه عالم بما الخلق عاملون بعلمه القديم الأزلي، الذي لا نهاية لأوله، عالم جل وعلا بأن هذا الإنسان سيعمل كذا في يوم كذا في مكان كذا بعلمه القديم الأولي؛ فيجب أن نؤمن بذلك:

ودليل ذلك من الكتاب والسنة والعقل:

- أما الكتاب: فما أكثر الآيات التي فيها العموم في علم الله؛ مثل: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨١]، ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٣٢]، ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧]. ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]... إلى غير ذلك من الآيات التي لا تحصى كثرة.

ـ أما في السنة: فإن الرسول عليه الصلاة والسلام أخبر بأن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وبأن ما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وأن الأقلام قد جفت وطويت الصحف. . . والأحاديث كثيرة.

ـ وأما العقل: فإن من المعلوم بالعقل أن الله تعالىٰ هو الخالق، وأن ما سواه مخلوق، ولابد عقلا أن يكون الخالق عالمًا بمخلوقه، وقد أشار الله تعالىٰ إلىٰ ذلك بقوله: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

فالكتاب والسنة والعقل كلها تدل علىٰ أن الله تعالىٰ عالم بما الخلق عاملون بعلمه الأزلي.

قوله: «الذي هو موصوف به أزلا وأبدًا»: ففي كونه موصوفًا به أزلا نفي للجهل، وفي كونه موصوفًا به أبدًا نفي النسيان.

ولهذا كان علم الله عز وجل غير مسبوق بجهل ولا ملحوق بنسيان؛ كما قال موسىٰ عليه الصلاة والسلام لفرعون: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢]؛ بخلاف علم المخلوق المسبوق بالجهل والملحوق بالنسيان. إذاً يجب علينا أن نؤمن بأن الله عالم بما الخلق عاملون بعلم سابق موصوف به أزلا وأبداً.

قوله: «علم جميع أحوالهم من الطاعات والمعاصي والأرزاق والآجال».

ودليل ذلك ما ثبت في «الصحيحين» عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه؛ قال: حدثنا رسول الله ـ وهو الصادق المصدوق ـ: «**إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه...**». وذكر أطوار الجنين، وفيه: «**ثم يبعث الله ملكًا، فيؤمر بأربع كلمات، ويقال له: اكتب عمله، ورزقه وأجله وشقي أو سعيد...**»[1]. وذكر تمام الحديث.

فالله عالم بذلك قبل أن يخلق الإنسان.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٥٩٤) ومسلم (٢٦٤٣) من حديث عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه.

فطاعاتنا معلومة لله، ومعاصينا معلومة لله، وأرزاقنا معلومة له، وآجالنا معلومة له، إذا مات الإنسان بسبب معلوم أو بغير سبب معلوم؛ فإنه لله معلوم، ولا يخفى عليه؛ بخلاف علم الإنسان بأجله؛ فإنه لا يعرف أجله؛ فلا يعرف أين يموت، ولا متى يموت، ولا يعرف بأي سبب يموت، ولا يعرف على أي حال يموت؛ نسأل الله تعالى حسن الخاتمة.

وهذا هو الشيء الأول من الدرجة الأولى.

قوله: «ثم كتب الله في اللوح المحفوظ مقادير الخلق»: هذا الشيء الثاني من الدرجة الأولى، وهو أن الله كتب في اللوح المحفوظ مقادير الخلق.

اللوح المحفوظ: لا نعرف ماهيته؛ من أي شيء؛ أمن خشب، أم من حديد، أم من ذهب، أم من فضة، أم من زمرد؟ فالله أعلم بذلك؛ إنما نؤمن بأن هناك لوحًا كتب الله فيه مقادير كل شيء، وليس لنا الحق في أن نبحث وراء ذلك، لكن لو جاء في الكتاب والسنة ما يدلنا على شيء؛ فالواجب أن نعتقده.

ووصف بكونه محفوظًا؛ لأنه محفوظ من أيدي الخلق؛ فلا يمكن أن يلحق أحد به شيئًا، أو يغير به شيئًا أبدًا.

ثانيًا: محفوظ من التغيير؛ فالله عز وجل لا يغير فيه شيئًا؛ لأنه كتبه عن علم منه؛ كما سيذكره المؤلف ـ رحمه الله ـ ولهذا قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «إن المكتوب في اللوح المحفوظ لا يتغير أبدًا»، وإنما يحصل التغيير في الكتب التي بأيدي الملائكة.

قوله: «مقادير الخلق»: أي: مقادير المخلوقات كلها، وظاهر النصوص أنه شمل ما يفعله الإنسان، وما يفعله البهائم، وأنه عام وشامل.

ولكن؛ هل هذه الكتابة إجمالية أو تفصيلية؟

قد نقول: إننا لا نجزم بأنها تفصيلية أو إجمالية.

فمثلا: القرآن الكريم: هل هو مكتوب في اللوح المحفوظ بهذه الآيات والحروف

أو أن المكتوب في اللوح ذكره وأنه سينزل على محمد ﷺ وأنه سيكون نورًا وهدى للناس وما أشبه ذلك؟

ففيه احتمال إن نظرنا إلى ظاهر النصوص؛ قلنا: إن ظاهرها أن القرآن كله مكتوب جملة وتفصيلا، وإن نظرنا إلى أن الله سبحانه وتعالى يتكلم بالقرآن حين نزوله؛ قلنا: إن الذي كتب في اللوح المحفوظ ذكر القرآن، ولا يلزم من كون ذكره في اللوح المحفوظ أن يكون قد كتب فيه؛ كما قال الله تعالى عن القرآن: ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٦]؛ يعني: كتب الأولين، ومعلوم أن القرآن لم يوجد نصه في الكتب السابقة، وإنما وجد ذكره، ويمكن أن نقول مثلها في قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢١، ٢٢]؛ أي: ذكره في هذا اللوح.

فالمهم أن نؤمن بأن مقادير الخلق مكتوبة في اللوح المحفوظ، وأن هذا اللوح لا يتغير ما كتب فيه؛ لأن الله أمره أن يكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة[1].

قوله: «فأول ما خلق الله القلم؛ قال له: اكتب! قال: ما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة».

قوله: «فأول ما خلق الله القلم؛ قال له: اكتب»: فأمره أن يكتب؛ مع أن القلم جماد!!

فكيف يوجه الخطاب إلى الجماد؟!

والجواب عن ذلك: أن الجماد بالنسبة إلى الله عاقل يصح أن يوجه إليه الخطاب:

قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]؛ فوجه الخطاب إليهما، وذكر جوابهما، وكان الجواب بجمع العقلاء طائعين دون طائعات.

وقال تعالى: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩]؛ فكانت كذلك.

وقال تعالى: ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾ [سبأ: ١٠]؛ فكانت الجبال تئوب معه.

---

(١) سبق تخريجه.

والحاصل أن الله أمر القلم أن يكتب، وقد امتثل القلم، لكنه أشكل عليه ماذا يكتب؛ لأن الأمر مجمل، فقال: «ما أكتب؟»؛ أي: أي شيء أكتب؟

«اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة»: فكتب القلم بأمر الله ما هو كائن إلى يوم القيامة. فانظر كيف علم القلم ماذا يكون إلى يوم القيامة، فكتبه؛ لأن أمر الله عز وجل لا يرد.

وقوله: «ما هو كائن إلى يوم القيامة»: يشمل ما كان من فعل الله تعالى وما كان من أفعال الخلق.

قوله: «فما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه».

إذا آمنت بهذه الجملة؛ اطمأننت: ما أصاب الإنسان؛ لم يكن ليخطئه أبدًا.

ومعنى: «ما أصاب»: يحتمل أن المعنى: ما قدر أن يصيبه؛ فإنه لن يخطئه، ويحتمل أن ما أصابه بالفعل لا يمكن أن يخطئه، حتى لو تمنى الإنسان، وهما معنيان صحيحان لا يتنافيان.

وما أخطأه لم يكن ليصيبه (أي: ما قَدر) أن يخطئه فإنه لم يكن ليصيبه، أو المعنى: ما أخطأه بالفعل، لأنه معروف أنه غير صائب، ولو تمنى الإنسان، وهما معنيان صحيحان لا يتنافيان.

قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: «جفت الأقلام وطويت الصحف».

«الأقلام»: هي أقلام القدر التي كتب الله بها المقادير؛ جفت وانتهت.

و«الصحف»: طويت، وهذا كناية عن أن الأمر انتهى.

وفي «صحيح مسلم» عن جابر رضي الله عنه؛ قال: جاء سراقة بن مالك بن جعشم؛ قال: يا رسول الله! بين لنا ديننا كأنا خلقنا الآن: فيم العمل اليوم؛ أفيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير؟ أم فيما نستقبل؟ قال: «لا؛ بل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير». قال: ففيم العمل؟ قال: «اعملوا؛ فكل ميسر»[1].

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٦٤٨) وأحمد في «مسنده» (٣/ ٢٩٢). من حديث جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ.

قوله: «كما قال الله تعالى»: الكاف في مثل هذا التعبير للتعليل.

«﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ [الحج: ٧٠]»: أيها المخاطب.

«﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ [الحج: ٧٠]»: وهذا عام؛ علم لما فيهما من أعيان وأوصاف وأعمال وأحوال.

«﴿إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ﴾ [الحج: ٧٠]»: وهو اللوح المحفوظ.

«﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠]»: أي: الكتابة على الله أمر يسير.

قوله: «وقال: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢]».

«﴿فِي الأَرْضِ﴾»: كالجدب والزلازل والفيضانات وغيرها.

«﴿وَلا فِي أَنفُسِكُمْ﴾»: كالمرض والأوبئة المهلكة وغير ذلك

«﴿إِلا فِي كِتَابٍ﴾»: هو اللوح المحفوظ.

«﴿نَّبْرَأَهَا﴾»: أي: من قبل أن نخلقها، والضمير في ﴿نَّبْرَأَهَا﴾: يحتمل أن يعود على المصيبة، ويحتمل أن يعود على الأرض، والكل صحيح؛ فالمصيبة قد كتبت قبل أن يخلقها الله عز وجل، وقبل أن يخلق النفس المصابة، وقبل أن يخلق الأرض.

وفي «صحيح مسلم» عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما؛ قال: قال رسول الله ﷺ: **«كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة. قال: وكان عرشه على الماء»**[1].

قوله: «وهذا التقدير التابع لعلمه سبحانه يكون في مواضع جملة وتفصيلا».

قوله: «في مواضع»: يعني: مواضع غير اللوح المحفوظ.

ثم بين هذه المواضع بقوله: «فقد كتب في اللوح المحفوظ ما شاء».

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٦٥٣) والترمذي (٢١٥٦) من حديث عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنه.

«وإذا خلق جسد الجنين قبل نفخ الروح فيه، بعث إليه ملكًا، فيؤمر بأربع كلمات، فيقال له: اكتب رزقه وأجله وعمله وشقى أم سعيد ونحو ذلك».

فهذان موضعان:

الأول: اللوح المحفوظ، وسبق دليل ذلك وتفصيل القول فيه.

والثاني: الكتابة العمرية التي تكون للجنين في بطن أمه[1]، وسبق دليلها في حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

والموضع الثالث: ما أشار إليه بقوله: «ونحو ذلك»؛ وهو التقدير الحولي الذي يكون في ليلة القدر؛ فإن ليلة القدر يكتب فيها ما يكون في تلك السنة؛ كما قال تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ * أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ [الدخان: ٤، ٥].

قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: «فهذا التقدير قد كان ينكره غلاة القدرية قديمًا، ومنكروه اليوم قليل».

«هذا التقدير»: يعني: العلم والكتابة، وينكره غلاة القدرية قديمًا، ويقولون: إن الله لا يعلم أفعال العبد إلا بعد وجودها، وأنها لم تكتب، ويقولون: إن الأمر أنف؛ أي: مستأنف، لكن متأخروهم أقروا بالعلم والكتابة، وأنكروا المشيئة والخلق، وهذا بالنسبة لأفعال المخلوقين.

أما بالنسبة لأفعال الله؛ فلا أحد ينكر أن الله عالم بها قبل وقوعها.

وهؤلاء الذين ينكرون علم الله بأفعال العبد حكمهم في الشرع أنهم كفار؛ لأنهم كذبوا قول الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢] وغيرها من الآيات، وخالفوا المعلوم بالضرورة من الدين.

الدرجة الثانية من درجات الإيمان بالقدر:

قوله: «وأما الدرجة الثانية»: يعني: من درجات الإيمان بالقدر.

---

(١) سبق تخريجه.

قوله: «فهي مشيئة الله النافذة، وقدرته الشاملة، وهو الإيمان بأن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه ما في السماوات وما في الأرض من حركة ولا سكون إلا بمشيئة الله سبحانه»: يعني: أن نؤمن بأن مشيئة الله نافذة في كل شيء، سواء كان مما يتعلق بفعله أو يتعلق بأفعال المخلوقين، وأن قدرته شاملة، ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤].

وهذه الدرجة تتضمن شيئين؛ المشيئة والخلق.

- أما المشيئة: فيجب أن نؤمن بأن مشيئة الله تعالى نافذة في كل شيء، وأن قدرته شاملة لكل شيء من أفعاله وأفعال المخلوقين.

- وأما كونها شاملة لأفعاله: فالأمر فيها ظاهر.

- وأما كونها شاملة لأفعال المخلوقين: فأن الخلق كلهم ملك لله تعالى، ولا يكون في ملكه إلا ما شاء.

والدليل على هذا:

قوله تعالى: ﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩].

وقوله سبحانه: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [هود: ١١٨].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُواْ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُواْ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

فهذه الآيات تدل على أن أفعال العباد متعلقة بمشيئة الله.

وقال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاؤُونَ إِلا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠].

وهذه تدل على أن مشيئة العبد داخلة تحت مشيئة الله وتابعة لها.

قوله: «لا يكون في ملكه ما لا يريد»: هذه العبارة تحتاج إلى تفصيل: لا يكون في ملكه ما لا يريد بالإرادة الكونية، أما بالإرادة الشرعية؛ فيكون في ملكه ما لا يريد.

وحينئذ؛ نحتاج إلىٰ أن نقسم الإرادة إلىٰ قسمين: إرادة كونية، وإرادة شرعية:

- فالإرادة الكونية بمعنىٰ المشيئة، ومثالها قول نوح عليه السلام لقومه: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود: ٣٤].

- والإرادة الشرعية بمعنىٰ المحبة، ومثلها قوله تعالىٰ: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٧].

وتختلف الإرادتان في موجبهما وفي متعلقهما:

- ففي المتعلق: الإرادة الكونية تتعلق فيما وقع، سواء أحبه أم كرهه، والإرادة الشرعية تتعلق فيما أحبه، سواء وقع أم لم يقع.

- وفي موجبهما: الإرادة الكونية يتعين فيها وقوع المراد، والإرادة الشرعية لا يتعين فيها وقوع المراد.

وعلىٰ هذا يكون قول المؤلف ـ رحمه الله ـ: «ولا يكون في ملكه ما لا يريد»؛ يعني به: الإرادة الكونية.

فإن قال قائل: هل المعاصي مرادة الله؟

فالجواب: أما بالإرادة الشرعية؛ فليست مرادة له؛ لأنه لا يحبها، وأما بالإرادة الكونية؛ فهي مرادة له سبحانه؛ لأنها واقعة بمشيئته.

قوله: «وأنه سبحانه علىٰ كل شيء قدير من الموجودات والمعدومات»:

«كل شيء»: فالله قادر عليه من الموجودات؛ فيعدمها أو يغيرها، ومن المعدومات؛ فيوجدها.

فالقدرة تتعلق في الموجود بإيجاده أو إعدامه أو تغييره، وفي المعدوم بإعدامه أو إيجاده.

فمثلاً: كل موجود فالله قادر أن يعدمه، وقادر أن يغيره؛ أي: ينقله من حال إلىٰ حال، وكل معدوم؛ فالله قادر علىٰ أن يوجده؛ مهما كان؛ كما قال الله تعالىٰ: ﴿أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠].

ذكر بعض العلماء استثناء من ذلك، وقال: إلا ذاته؛ فليس عليها بقادر! وزعم

أن العقل يدل على ذلك!!.

فنقول: ماذا تريد بأنه غير قادر على ذاته؟.

ـ إن أردت أنه غير قادر على أن يعدم نفسه أو يلحقها نقصًا؛ فنحن نوافقك على أن الله لا يلحقه النقص أو العدم، لكننا لا نوافقك على أن هذا مما تتعلق به القدرة؛ لأن القدرة إنما تتعلق بالشيء الممكن، أما الشيء الواجب أو المستحيل؛ فهذا لا تتعلق به القدرة أصلا؛ لأن الواجب مستحيل العدم، والمستحيل مستحيل الوجود.

ـ وإن أردت بقولك: إنه غير قادر على ذاته: أنه غير قادر على أنه يفعل ما يشاء؛ فلا يقدر أن يجيء أو نحوه! فهذا خطأ، بل هو قادر على ذلك، وفاعل له، ولو قلنا: إنه ليس بقادر على مثل هذه الأفعال؛ لكان ذلك من أكبر النقص الممتنع على الله سبحانه.

وبهذا علم أن هذا الاستدراك من عموم القدرة في غير محله على كل تقدير.

وإنما نص المؤلف ـ رحمه الله ـ على هذا ردًا على القدرية الذين قالوا: إن الله ليس بقادر على فعل العبد!! وإن العبد مستقل بعمله!.

ولكن ما في الكتاب والسنة من شمول قدرة الله يرد عليهم.

قوله: «فما من مخلوق في الأرض ولا في السماء إلا الله خالقه سبحانه لا خالق غيره ولا رب سواه».

وهذا صحيح بلا شك.

ولهذا دليل أثري ودليل نظري:

ـ أما الدليل الأثري: فقد قال الله تعالى: ﴿**اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ**﴾ [الزمر: ٦٢].

وقال تعالى: ﴿**أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ**﴾ [الطور: ٣٥، ٣٦].

فلا يمكن أن يوجد شيء في السماء والأرض إلا الله خالقه وحده.

ولقد تحدى الله العابدين للأصنام تحديًا أمرنا أن نستمع له، فقال: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ**﴾

[الحج: ٧٣]؛ ومعلوم أن الذين يدعون من دون الله في القمة عندهم؛ لأنهم اتخذوهم أربابًا؛ فإذا عجز هؤلاء القمة عن أن يخلقوا ذبابًا، وهو أخس الأشياء وأهونها؛ فما فوقه من باب أولى، بل قال: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ [الحج: ٧٣]؛ فيعجزون حتى عن مدافعة الذباب وأخذ حقهم منه.

فإن قيل: كيف يسلب الذباب هذه الأصنام شيئًا؟!.

فالجواب: قال بعض العلماء: إن هذا على سبيل الفرض؛ يعني: على فرض أن يسلبهم الذباب شيئًا؛ لا يستنقذوه منه. وقال بعضهم: بل على سبيل الواقع؛ فيقع الذباب على هذه الأصنام، ويمتص ما فيها من أطياب؛ فلا تستطيع الأصنام أن تخرج ما امتصه الذباب.

وإذا كانت عاجزة عن الدفع عن نفسها، واستنقاذ حقها؛ فهي عن الدفع عن غيرها واستنقاذ حقه أعجز.

والمهم أن الله تعالى خالق كل شيء، وأن لا خالق إلا الله؛ فيجب الإيمان بعموم خلق الله عز وجل، وأنه خالق كل شيء، حتى أعمال العباد؛ لقوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد: ١٦]، وعمل الإنسان من الشيء، وقال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً﴾ [الفرقان: ٢]. . . . والآيات في هذا كثيرة. وفيه آية خاصة في الموضوع، وهو خلق أفعال العباد:

فقال إبراهيم عليه السلام لقومه: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦].

فـ(ما) مصدرية، وتقدير الكلام: خلقكم وعملكم، وهذا نص في أن عمل الإنسان مخلوق لله تعالى.

فإن قيل: ألا يحتمل أن تكون (ما) اسمًا موصولا، ويكون المعنى: خلقكم وخلق الذي تعملونه؟

فكيف يمكن أن نقول إن في الآية دليلا على خلق أفعال العباد على هذا التقدير أن (ما) موصولة؟.

فالجواب: أنه إذا كان المعمول مخلوقًا لله؛ لزم أن يكون عمل الإنسان مخلوقًا؛

لأن المعمول كان بعمل الإنسان؛ فالإنسان هو الذي باشر العمل في المعمول؛ فإذا كان المعمول مخلوقًا لله، وهو فعل العبد؛ لزم أن يكون فعل العبد مخلوق، فيكون في الآية دليل على خلق أفعال العباد على كلا الاحتمالين.

- وأما **الدليل النظري على أن أفعال العبد مخلوقة لله**؛ فتقريره أن نقول: إن فعل العبد ناشئ عن أمرين: عزيمة صادقة وقدرة تامة.

مثال ذلك: أردت أن أعمل عملا من الأعمال؛ فلا يوجد هذا العمل حتى يكون مسبوقًا بأمرين هما:

أحدهما: العزيمة الصادقة على فعله؛ لأنك لو لم تعزم ما فعلته.

الثاني: القدرة التامة؛ لأنك لو لم تقدر؛ ما فعلته؛ فالذي خلق فيك هذه القدرة هو الله عز وجل، وهو الذي أودع فيك العزيمة، وخالق السبب التام خالق للمسبب.

- **ووجه ثان نظري**: أن نقول: الفعل وصف الفاعل، والوصف تابع للموصوف، فكما أن الإنسان بذاته مخلوق لله؛ فأفعاله مخلوقة؛ لأن الصفة تابعة للموصوف.

فتبين بالدليل أن عمل الإنسان مخلوق لله، وداخل في عموم الخلق أثريًا ونظريًا، والدليل الأثري قسمان عام وخاص، والدليل النظري له وجهان:

وقوله: «**لا خالق غيره**»:

إن قلت: هذا الحصر يرد عليه أن هناك خالقًا غير الله؛ فالمصور يعد نفسه خالقًا، بل جاء في الحديث أنه خالق: «**فإن المصورين يعذبون؛ يقال لهم: أحيوا ما خلقتم**»[1]، وقال عز وجل: ﴿**فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ**﴾ [المؤمنون: ١٤]؛ فهناك خالق، لكن الله تعالى هو أحسن الخالقين؛ فما الجواب عن قول المؤلف؟.

الجواب: أن الخلق الذي ننسبه إلى الله عز وجل هو الإيجاد وتبديل الأعيان من

---

(١) سبق تخريجه.

عين لأخرى؛ فلا أحد يوجد إلا الله عز وجل، ولا أحد يبدل عينًا إلى عين؛ إلا الله عز وجل، وما قيل: إنه خلق؛ بالنسبة للمخلوق؛ فهو عبارة عن تحويل شيء من صفة إلى صفة؛ فالخشبة مثلا بدلا من أن كانت في الشجرة تحول بالنجارة إلى باب؛ فتحويلها إلى باب يسمى خلقًا لكنه ليس الخلق الذي يختص به الخالق، وهو الإيجاد من العدم، أو تبديل العين من عين إلى أخرى.

وقوله: «لا رب سواه»: أي: أن الله وحده هو الرب المدبر لجميع الأمور، وهذا حصر حقيقي.

ولكن ربما يرد عليه أنه جاء في الأحاديث إثبات الربوبية لغير الله:

ففي لقطة الإبل قال النبي ﷺ: **«دعها؛ معها سقاؤها وحذاؤها، ترد الماء، وتأكل الشجر، حتى يجدها ربها»**(١)، وربها: صاحبها.

وجاء في بعض ألفاظ حديث جبريل: **«حتى تلد الأمة ربها»**(٢).

فما هو الجمع بين هذا وبين قول المؤلف ـ رحمه الله ـ: «لا رب سواه»؟

نقول: إن ربوبية الله عامة كاملة؛ كل شيء؛ فالله ربه، لا يسأل عما يفعل في خلقه؛ لأن فعله كله رحمة وحكمة، ولهذا يقدر الله عز وجل الجدب والمرض والموت والجروح في الإنسان وفي الحيوان، ونقول: هذا غاية الكمال والحكمة. أما ربوبية المخلوق للمخلوق؛ فربوبية ناقصة قاصرة؛ لا تتجاوز محلها، ولا يتصرف فيها الإنسان تصرفًا تامًا، بل تصرفه مقيد: إما بالشرع، وإما بالعرف.

قوله: **«ومع ذلك؛ فقد أمر العباد بطاعته وطاعة رسله، ونهاهم عن معصيته»**.

يعني: ومع عموم خلقه وربوبيته لم يترك العباد هملا، ولم يرفع عنهم الاختيار، بل أمرهم بطاعته وطاعة رسله، ونهاهم عن معصيته.

وأمره بذلك أمر يمكن؛ فالمأمور مخلوق لله عز وجل، وفعله مخلوق لله، ومع ذلك؛ يؤمر وينهى.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٤٢٩) ومسلم (١٧٢٢) من حديث زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه.
(٢) سبق تخريجه.

ولو كان الإنسان مجبرًا على عمله؛ لكان أمره أمرًا بغير ممكن؛ والله عز وجل يقول: ﴿ لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ويقول تعالى: ﴿ لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، وهذا يدل على أنهم قادرون على فعل الطاعة، وعلى تجنب المعصية، وأنهم غير مكرهين على ذلك.

ـ قوله: «وهو سبحانه يحب المتقين والمحسنين والمقسطين».

يعني أن الله عز وجل يحب المحسنين؛ لقوله تعالى: ﴿ وَأَحْسِنُوَاْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٥]، والمتقين؛ لقوله تعالى: ﴿ فَمَا اسْتَقَامُواْ لَكُمْ فَاسْتَقِيمُواْ لَهُمْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة: ٧]؛ والمقسطين؛ لقوله: ﴿ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [الحجرات: ٩].

فهو عز وجل يحب هؤلاء، ومع ذلك هو الذي قدر لهم هذا العمل الذي يحبه، فكان فعلهم محبوبًا إلى الله مرادًا له كونًا وشرعًا؛ فالمحسن قام بالواجب والمندوب، والمتقي قام بالواجب، والمقسط اتقى الجور في المعاملة.

قوله: «ويرضى عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا يحب الكافرين».

«يرضى عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات»: والدليل قوله تعالى: ﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾ [التوبة: ١٠٠]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ * جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ [البينة: ٧، ٨].

قوله: «ولا يحب»: الله عز وجل «الكافرين».

والدليل قوله تعالى: ﴿ فإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٣٢].

مع أن الكفر واقع بمشيئته، لكن لا يلزم من وقوعه بمشيئته، أن يكون محبوبًا له سبحانه وتعالى.

قوله: «ولا يرضى عن القوم الفاسقين»: والدليل قوله تعالى: ﴿ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٩٦].

والفاسق ـ وهو الخارج عن طاعة الله ـ قد يراد به الكافر، وقد يراد به العاصي.

ـ ففي قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لا يَسْتَوُونَ * أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة: ١٨-٢٠]؛ فالمراد بالفاسق الكافر.

وأما قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات: ٦]؛ فالمراد بالفاسق العاصي.

فالله عز وجل لا يرضى عن القوم الفاسقين، لا هؤلاء ولا هؤلاء، لكن الفاسقين بمعنى الكافرين لا يرضى عنهم مطلقًا، وأما الفاسقون بمعنى العصاة؛ فلا يرضى عنهم فيما فسقوا فيه، ويرضى عنهم فيما أطاعوا فيه.

قوله: «ولا يأمر بالفحشاء»: والدليل قوله تعالى: ﴿إن الله لا يأمر بالفحشاء﴾ [الأعراف: ٢٨]؛ لأنهم إذا فعلوا فاحشة: ﴿قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا وَاللّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨]؛ فاحتجوا بأمرين، فقال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء﴾ [الأعراف: ٢٨]، وسكت عن قولهم: ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا﴾ [الأعراف: ٢٨]؛ لأنه حق لا ينكر، لكن ﴿وَاللّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨]. كذب، ولهذا كذبهم وأمر نبيه أن يقول: ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء﴾ [الأعراف: ٢٨]، ولم يقل: ولم يجدوا عليها آباءهم؛ لأنهم قد وجدوا عليها آباءهم.

قوله: «ولا يرضى لعباده الكفر»: لقوله تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧]، لكن يقدر أن يكفروا، ولا يلزم من تقديره الكفر أن يكون راضيًا به سبحانه وتعالى، بل يقدره وهو يكرهه ويسخطه.

قوله: «ولا يحب الفساد»: دليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥].

كرر المؤلف ـ رحمه الله ـ مثل هذه العبارات ليبين أنه لا يلزم من إرادته الشيء أن يكون محبوبًا له، ولا يلزم من كراهته للشيء أن يكون مرادًا له بالإرادة الكونية، بل

هو عز وجل يكره الشيء ويريده بالإرادة الكونية، ويوقع الشيء ولا يرضى عنه، ولا يريده بالإرادة الشرعية.

فإن قلت: كيف يوقع ما لا يرضاه وما لا يحبه؟! وهل أحد يكرهه على أن يوقع ما لا يحبه ولا يرضاه؟!.

فالجواب: لا أحد يكرهه على أن يوقع ما لا يحبه ولا يرضاه، وهذا الذي يقع من فعله عز وجل وهو مكروه له، هو مكروه له من وجه محبوب له من وجه آخر؛ لما يترتب عليه من المصالح العظيمة.

فمثلا؛ الإيمان محبوب لله، والكفر مكروه له، فأوقع الكفر وهو مكروه له؛ لمصالح عظيمة؛ لأنه لولا وجود الكفر؛ ما عرف الإيمان، ولولا وجود الكفر؛ ما عرف الإنسان قدر نعمة الله عليه بالإيمان، ولولا وجود الكفر؛ ما قام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأن الناس كلهم يكونون على المعروف، ولولا وجود الكفر؛ ما قام الجهاد، ولولا وجود الكفر؛ لكان خلق النار عبثًا؛ لأن النار مثوى الكافرين، ولولا وجود الكفر؛ لكان الناس أمة واحدة، ولم يعرفوا معروفًا ولم ينكروا منكرًا، وهذا لا شك أنه مخل بالمجتمع الإنساني، ولولا وجود الكفر؛ ما عرفت ولاية الله؛ لأن من ولاية الله أن تبغض أعداء الله وأن تحب أولياء الله.

وكذلك يقال في الصحة والمرض؛ فالصحة محبوبة للإنسان وملائمة له، ورحمة الله تعالى فيها ظاهرة، لكن المرض مكروه للإنسان، وقد يكون عقوبة من الله له، ومع ذلك يوقعه؛ لما في ذلك من المصالح العظيمة.

كم من إنسان إذا أسبغ الله عليه النعمة بالبدن والمال والولد والبيت والمركوب؛ ترفع ورأى أنه مستغن بما أنعم الله به عليه عن طاعة الله عز وجل؛ كما قال تعالى: ﴿ **كَلا إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى** ﴾ [العلق: ٦، ٧]، وهذه مفسدة عظيمة؛ فإذا أراد الله أن يرد هذا الإنسان إلى مكانه؛ ابتلاه حتى يرجع إلى الله، وشاهد هذا قوله تعالى: ﴿ **ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** ﴾ [الروم: ٤١].

وأنت أيها الإنسان إذا فكرت هذا التفكير الصحيح في تقديرات الله عز وجل؛

عرفت ما له سبحانه وتعالىٰ من الحكمة فيما يقدره من خير أو شر، وأن الله سبحانه وتعالىٰ يخلق ما يكرهه ويقدر ما يكرهه لمصالح عظيمة؛ قد تحيط بها وقد لا تحيط بها ويحيط بها غيرك، وقد لا يحيط بها لا أنت ولا غيرك.

فإن قيل: كيف يكون الشيء مكروهًا لله ومرادًا له؟.

فالجواب: أنه لا غرابة في ذلك؛ فها هو الدواء المر طعمًا الخبيث رائحة يتناوله المريض وهو مرتاح؛ لما يترتب عليه من مصلحة الشفاء، وها هو الأب يمسك بابنه المريض ليكويه الطبيب، وربما كواه هو بنفسه، مع أنه يكره أشد الكره أن يحرق ابنه بالنار.

قوله: «والعباد فاعلون حقيقة، والله خالق أفعالهم».

قال: «والعباد فاعلون حقيقة، والله خالق أفعالهم»: هذا صحيح؛ فالعبد هو المباشر لفعله حقيقة، والله خالق فعله حقيقة، وهذه عقيدة أهل السنة، وقد سبق تقريرها بالأدلة.

وخالفهم في هذا الأصل طائفتان:

الطائفة الأولى: القدرية من المعتزلة وغيرهم؛ قالوا: إن العباد فاعلون حقيقة، والله لم يخلق أفعالهم.

الطائفة الثانية: الجبرية من الجهمية وغيرهم؛ قالوا: إن الله خالق أفعالهم، وليسوا فاعلين حقيقة، لكن أضيف الفعل إليهم من باب التجوز، وإلا؛ فالفاعل حقيقة هو الله.

وهذا القول يؤدي إلىٰ القول بوحدة الوجود، وأن الخلق هو الله، ثم يؤدي إلىٰ قول من أبطل الباطل؛ لأن العباد منهم الزاني ومنهم السارق ومنهم شارب الخمر ومنهم المعتدي بالظلم؛ فحاشا أن تكون هذه الأفعال منسوبة إلىٰ الله!! وله لوازم باطلة أخرىٰ.

وبهذا تبين أن في قول المؤلف ـ رحمه الله ـ: «والعباد فاعلون حقيقة، والله خالق أفعالهم»: ردًّا علىٰ الجبرية والقدرية.

قوله: «والعبد هو المؤمن والكافر، والبر والفاجر والمصلي والصائم».

يعني: أن الوصف بالإيمان والكفر والبر والفجور والصلاة والصيام وصف للعبد، لا لغيره؛ فهو المؤمن، وهو الكافر، وهو البار، وهو الفاجر، وهو المصلي، وهو الصائم. . . وكذلك هو المزكي، وهو الحاج، وهو المعتمر. . . وهكذا، ولا يمكن أن يوصف بما ليس من فعله حقيقة.

وهذه الجملة تتضمن الرد على الجبرية.

والمراد بالعبودية هنا العبودية العامة؛ لأن العبودية نوعان: عامة وخاصة:

- فالعامة: هي الخضوع لأمر الله الكوني؛ كقوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣].

- والعبودية الخاصة: هي الخضوع لأمر الله الشرعي، وهي خاصة بالمؤمنين؛ كقوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، وقوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾ [الفرقان: ١]، وهذه أخص من الأولى.

قوله: «وللعباد قدرة على أعمالهم، ولهم إرادة، والله خالقهم وخالق قدرتهم وإرادتهم».

« وللعباد قدرة على أعمالهم، ولهم إرادة»: خلافًا للجبرية القائلين بأنهم لا قدرة لهم ولا إرادة، بل هم مجبرون عليها.

«والله خالقهم وخالق إرادتهم وقدرتهم»: خلافًا للقدرية القائلين بأن الله ليس خالقًا لفعل العبد ولا لإرادته وقدرته.

وكأن المؤلف - رحمه الله - يشير بهذه العبارة إلى وجه كون فعل العبد مخلوقًا لله تعالى؛ بأن فعله صادر عن قدرة وإرادة، وخالق القدرة والإرادة هو الله، وما صدر عن مخلوق؛ فهو مخلوق.

ويشير بها أيضًا إلى كون فعل العبد اختياريًّا لا إجباريًّا؛ لأنه صادر عن قدرة وإرادة؛ فلولا القدرة والإرادة؛ لم يصدر منه الفعل، ولولا الإرادة؛ لم يصدر منه الفعل، ولو كان الفعل إجباريًّا؛ ما كان من شرطه القدرة والإرادة.

ثم استدل المؤلف ـ رحمه الله ـ لذلك، فقال: «كما قال تعالى: ﴿لمن شاء منكم أن يستقيم * وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين﴾ [التكوير: ٢٨، ٢٩]».

فقوله: «﴿لمن شاء منكم أن يستقيم﴾»: فيها رد على الجبرية.

وفي قوله: «﴿وما تشاؤون إلا أن يشاء الله﴾»: رد على القدرية.

قوله: «وهذه الدرجة من القدر»: أي: درجة المشيئة والخلق.

قوله: «يكذب بها عامة القدرية، الذين سماهم النبي ﷺ مجوس هذه الأمة»[1].

«عامة القدرية»: أي: أكثرهم يكذبون بهذه الدرجة، ويقولون: إن الإنسان مستقل بعمله، وليس لله فيه مشيئة ولا خلق.

و«سماهم النبي ﷺ مجوس هذه الأمة»: لأن المجوس يقولون: إن للحوادث خالقين: خالقًا للخير، وخالقًا للشر! فخالق الخير هو النور، وخالق الشر هو الظلمة؛ فالقدرية يشبهون هؤلاء المجوس من وجه؛ لأنهم يقولون: إن الحوادث نوعان: حوادث من فعل الله؛ فهذه خلق لله، وحوادث من فعل العباد؛ فهذه للعباد استقلالا، وليس لله تعالى فيها خلق.

قوله: «ويغلو فيها قوم من أهل الإثبات، حتى سلبوا العبد قدرته واختياره ويخرجون عن أفعال الله وأحكامه حكمها ومصالحها».

«يغلو فيها»: أي: في هذه الدرجة.

«قوم من أهل الإثبات»: أي: إثبات القدر.

وهؤلاء القوم هم الجبرية؛ حيث إنهم سلبوا العبد قدرته واختياره، وقالوا: إنه مجبر على عمله؛ لأنه مكتوب عليه.

قوله: «ويخرجون عن أفعال الله وأحكامه حكمها ومصالحها»: «يخرجون»: معطوفة على قوله: «يغلو».

---

(١) سبق تخريجه.

ووجه كونهم يخرجون الحكم والمصالح عن أفعال الله وأحكامه: أنهم لا يثبتون لله حكمة أو مصلحة؛ فهو يفعل ويحكم لمجرد مشيئة، ولهذا يثيب المطيع، وإن كان مجبراً على الفعل، ويعاقب العاصي، وإن كان مجبراً على الفعل.

ومن المعلوم أن المجبر لا يستحق الحمد على محمود، ولا الذم على مذموم؛ لأنه بغير اختياره.

وهنا مسألة يحتج بها كثير من العصاة: إذا أنكرت عليه المنكر؛ قال: هذا هو ما قدره الله عليه؛ أتعترض على الله؟! فيحتج بالقدر على معاصي الله، ويقول: أنا عبد مسير! ثم يحتج أيضًا بحديث: «**تحاج آدم وموسى، فقال له موسى: أنت أبونا، خيبتنا وأخرجتنا من الجنة؟ فقال له آدم: أنت موسى! اصطفاك الله بكلامه، وكتب لك التوراة بيده! أتلومني على أمر قدره الله عليَّ قبل أن يخلقني بأربعين سنة؟!**». قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**فحج آدم موسى**»؛ قالها ثلاثًا[١].

وعند أحمد ـ رحمه الله ـ: «**فحجه آدم**»[٢]. وهي صريحة في أن آدم غلب موسى بالحجة.

قال: فهذا آدم لما اعترض عليه موسى؛ احتج عليه بالقدر، وآدم نبي، وموسى رسول، فسكت موسى؛ فلماذا تحتج عليَّ؟

والجواب علي حديث آدم:

ـ أما على رأي القدرية: فإن طريقتهم أن أخبار الآحاد لا توجب اليقين؛ قالوا: وإذا عارضت العقل؛ وجب أن ترد. وبناء على ذلك قالوا: هذا لا يصح ولا نقبله ولا نسلم به.

ـ أما الجبرية: فقالوا: إن هذا هو الدليل، ودلالته حق، ولا يلازم العبد على ما قدر عليه.

ـ أما أهل السنة والجماعة: فقالوا: إن آدم عليه الصلاة والسلام فعل الذنب،

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٤٠٩) ومسلم (٢٦٥٢) من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) سبق تخريجه.

وصار ذنبه سبباً لخروجه من الجنة، لكنه تاب من الذنب، وبعد توبته اجتباه الله وتاب عليه وهداه، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له، ومن المحال أن موسى عليه الصلاة والسلام - وهو أحد أولي العزم من الرسل - يلوم أباه على شيء تاب منه ثم اجتباه الله بعده وتاب عليه وهداه، وإنما اللوم على المصيبة التي حصلت بفعله، وهي إخراج الناس ونفسه من الجنة، فإن سبب هذا الإخراج هو معصية آدم؛ على أن آدم عليه الصلاة والسلام لا شك أنه لم يفعل هذا ليخرج من الجنة حتى يلام؛ فكيف يلومه موسى؟!

وهذا وجه ظاهر في أن موسى عليه السلام لم يرد لوم آدم على فعل المعصية، إنما على المصيبة التي هي من قدر الله، وحينئذ يتبين أنه لا حجة بهذا الحديث للجبرية.

فنحن نقبله ولا ننكره كما فعل القدري، ولكننا لا نحتج به على المعصية؛ كما فعل الجبري.

وهناك جواب آخر أشار إليه ابن القيم - رحمه الله - وقال: الإنسان إذا فعل المعصية واحتج الإنسان بالقدر عليها بعد التوبة منها؛ فلا بأس به.

ومعناه: أنه لو لامك أحد على فعل المعصية بعد أن تبت منها، وقلت: هذا بقضاء الله وقدره، وأستغفر الله وأتوب إليه... وما أشبه ذلك؛ فإنه لا حرج عليك في هذا.

فآدم احتج بالقدر بعد أن تاب منه، وهذا لا شك أنه وجه حسن، لكن يبعده أن موسى لا يمكن أن يلوم آدم على معصية تاب منها.

ورجح ابن القيم - رحمه الله - قوله هذا بما جرى للنبي عليه الصلاة والسلام حين طرق علياً وفاطمة رضي الله عنهما ليلة، فقال: «**ألا تصليان؟**». فقال عليٌّ رضي الله عنه: يا رسول الله! أنفسنا بيد الله؛ فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا؛ فانصرف النبي ﷺ يضرب فخذه وهو يقول[1]: ﴿**وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا**﴾ [الكهف: ٥٤].

وعندي أن في الاستدلال بهذا الحديث نظراً؛ لأن علياً رضي الله عنه احتج بالقدر

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١١٢٧) ومسلم (٧٧٥) من حديث علي ابن أبي طالب رضي الله عنه.

بنومه، والإنسان النائم له أن يحتج بالقدر؛ لأن فعله لا ينسب إليه، ولهذا قال الله تعالىٰ في أصحاب الكهف: ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾ [الكهف: ١٨]؛ فنسب التقليب إليه، مع أنهم هم الذين يتقلبون، لكن لما كان بغير إرادة منهم؛ لم يضفه إليهم.

والوجه الأول في الجواب عن حديث آدم وموسىٰ ـ وهو ما ذهب إليه شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ وهو الصواب.

فإذاً؛ لا حجة للجبري بهذا الحديث، ولا للعصاة الذي يحتجون بهذا الحديث لاحتجاجهم بالقدر.

فنقول له: إن احتجاجك بالقدر علىٰ المعاصي يبطله السمع والعقل والواقع:

فأما السمع: فقد قال الله تعالىٰ: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم حَتَّى ذَاقُواْ بَأْسَنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨]؛ قالوا ذلك احتجاجًا بالقدر علىٰ المعصية، فقال تعالىٰ: ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم﴾؛ يعني: كذبوا الرسل واحتجوا بالقدر ﴿حَتَّى ذَاقُواْ بَأْسَنَا﴾، وهذا يدل علىٰ أن حجتهم باطلة؛ إذ لو كانت حجة مقبولة؛ ما ذاقوا بأس الله.

ـ ودليل سمعي آخر: قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ﴾ [النساء: ١٦٣]. إلىٰ قوله: ﴿رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، ووجه الدلالة من هذه الآية أنه لو كان القدر حجة؛ ما بطلت بإرسال الرسل؛ وذلك لأن القدر لا يبطل بإرسال الرسل، بل هو باق.

فإذا قال قائل: يرد عليك في الدليل الأول قول الله تبارك وتعالىٰ في سورة الأنعام: ﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ * وَلَوْ شَاء اللَّهُ مَا أَشْرَكُواْ وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ [الأنعام: ١٠٦، ١٠٧]؛ فهنا قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ شَاء اللَّهُ مَا أَشْرَكُواْ﴾؛ قول صحيح وجائز، لكن قول المشرك: ﴿وَلَوْ شَاء اللَّهُ مَا أَشْرَكُواْ﴾ [الأنعام: ١٤٨]؛ يريد أن يحتج بالقدر علىٰ

المعصية قول باطل، والله عز وجل إنما قال لرسوله هكذا تسلية له وبيانًا أن ما وقع فهو بمشيئة الله.

- وأما الدليل العقلي على بطلان احتجاج العاصي بالقدر على معصية الله أن نقول له: ما الذي أعلمك بأن الله قدر لك أن تعصيه قبل أن تعصيه؟ فنحن جميعًا لا نعلم ما قدر الله إلا بعد أن يقع، أما قبل أن يقع؛ فلا ندري ماذا يراد بنا؛ فنقول للعاصي: هل عندك علم قبل أن تمارس المعصية أن الله قدر لك المعصية؟ سيقول: لا. فنقول: إذاً؛ لماذا لم تقدر أن الله قدر لك الطاعة وتطع الله؛ فالباب أمامك مفتوح؛ فلماذا لم تدخل من الباب الذي تراه مصلحة لك؛ لأنك لا تعلم ما قدر لك. واحتجاج الإنسان بحجة على أمر فعله قبل أن تتقدم حجته على فعله احتجاج باطل؛ لأن الحجة لا بد أن تكون طريقًا يمشي به الإنسان؛ إذ أن الدليل يتقدم المدلول.

ونقول له أيضًا: ألست لو ذكر لك أن لمكة طريقين أحدهما طريق معبد آمن، والثاني طريق صعب مخوف؛ ألست تسلك الآمن؟ سيقول: بلى. فنقول: إذاً لماذا تسلك في عباداتك الطريق المخوف المحفوف بالأخطار، وتدع الطريق الآمن الذي تكفل الله تعالى لمن سلكه؛ فقال: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ**﴾ [الانعام: ٨٢]، وهذه حجة واضحة.

ونقول له: لو أعلنت الحكومة عن وظيفتين: إحداهما بالمرتبة العالية، والثانية بالمرتبة السفلى؛ فأيهما تريد؟ بلا شك سيريد المرتبة العالية، وهذا يدل على أنك تأخذ بالأكمل في أمور دنياك؛ فلماذا لم تأخذ بالأكمل في أمور دينك؟ وهل هذا إلا تناقض منك؟! وبهذا يتبين أنه لا وجه أبدًا لاحتجاج العاصي بالقدر على معصية الله عز وجل.

● قال الشيخ صالح الفوزان:

(القدر): مصدر قَدَرْتُ الشيء إذا أحطت بمقداره، والمراد به هنا: تعلق علم الله بالكائنات وإرادته لها أزلاً قبل وجودها. فلا حادث إلا وقد قدره الله، أي: سبق علمه به وتعلقت به إرادته.

و(الإيمان بالقدر): هو أحد أركان الإيمان الستة، وهو الإيمان بالقدر خيره وشره.

وفي قول الشيخ رحمه الله: (وتؤمن الفرقة الناجية ـ أهل السنة والجماعة ـ بالقدر خيره وشره) إشارة إلىٰ أن من لم يؤمن بالقدر فليس من أهل السنة والجماعة، وهذا هو مقتضىٰ النصوص، كما في حديث جبريل حين سأل النبي ﷺ عن الإيمان: فقال: «**الإيمان: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره**»[١]، فجعل ﷺ الإيمان بالقدر سادس أركان الإيمان، فمن أنكره فليس بمؤمن، كما لو لم يؤمن بغيره من أركان الإيمان.

وقوله: (والإيمان بالقدر على درجتين..) إلخ: وذكر الشيخ رحمه الله هنا: أن الإيمان بالقدر يشتمل علىٰ أربع مراتب هي إجمالاً كما يلي:

الأولىٰ: علم الله الأزلي بكل شيء، ومن ذلك علمه بأعمال العباد قبل أن يعملوها.

الثانية: كتابة ذلك في اللوح المحفوظ.

الثالثة: مشيئته الشاملة وقدرته التامة لكل حادث.

الرابعة: إيجاد الله لكل المخلوقات، وأنه الخالق وما سواه مخلوق، هذا مجمل مراتب القدر، وإليك بيانها بالتفصيل:

الشرح:

قوله: (أزلاً): الأزل: القدم الذي لا بداية له. وقوله (أبدًا) الأبد هو: الدوام في المستقبل الذي لا نهاية له.

و (الطاعات): جمع طاعة، وهي موافقة الأمر.

و (المعاصي): جمع معصية وهي مخالفة الأمر.

و (الأرزاق): جمع رزق، وهو ما ينفع.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ وأخرجه البخاري نحوه (٥٠) من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ.

و(الآجـال): جمع أجل وهو مدة الشيء، وأجل الإنسان نهاية وقته في الدنيا بالموت.

و (اللوح المحفوظ): وهو أم الكتاب، (محفوظ) من الزيادة والنقصان فيه. ذكر الشيخ هنا ما تتضمنه الدرجة الأولىٰ من درجتي الإيمان بالقدر وأنها تتضمن شيئين، أي: مرتبتين.

المرتبـة الأولى: الإيمان بعلم الله المحيط بكل شيء من الموجودات والمعدومات، هذا العلم الذي هو صفة من صفاته تعالىٰ الذاتيـة التي لا يزال متصفًا بها أزلاً وأبدًا. ومن ذلك علمه بأعمال الخلق من الطاعات والمعاصي وعلمه بأحوالهم من الأرزاق والآجال وغيرها.

المرتبة الثانية: مرتبة الكتابة، وهي أن الله كتب في اللوح المحفوظ مقادير الخلق، فما يحدث شيء في الكون إلا وقد علمه الله وكتبه قبل حدوثه.

ثم استدل الشيخ رحمه الله علىٰ ذلك بأدلة من الكتاب والسنة، فمن أدلة السنة علىٰ ذلك الحديث الذي ذكر الشيخ معناه، ولفظه كما رواه أبو داود في «سننه» عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«أول ما خلق الله القلم فقال له: اكتب، قال: وما أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة»**[1] فهذا الحديث يدل علىٰ مرتبة الكتابة، وأن المقادير كلها مكتوبة.

وقوله: **«أول ما خلق الله القلم، قال له: اكتب»** روي بنصب (أول) و (القلم) علىٰ أن الكلام جملة واحدة، ومعناه: أنه عند أول خلقه القلم قال له: اكتب. وروي برفع (أول) و (القلم) علىٰ أن الكلام جملتان: الأولىٰ: **(أولُ ما خلق الله القلمُ)** و **(قال له: اكتب)** جملة ثانية، فيكون المعنىٰ: أن أول المخلوقات من هذا العالم القلم.

وقوله: **(فما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه...)** إلخ من كلام عبادة بن

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٠٠) والترمذي (٢١٥٥) من حديث عبادة بن الصامت ـ رضي الله عنه ـ وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٢٠١٨).

الصامت راوي الحديث، أي: ما يصيب الإنسان مما ينفعه أو يضره فهو مقدر عليه لابد أن يقع به ولا يقع به خلافه.

وقوله: «جفت الأقلام وطويت الصحف»: كناية عن سبق كتابة المقادير والفراغ منها، وهو معنى ما جاء في الحديث ابن عباس: «**رفعت الأقلام وجفت الصحف**»[١] رواه الترمذي.

ثم ذكر الشيخ من أدلة القرآن، قوله تعالى: ﴿ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير﴾: **﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾** الاستفهام للتقرير، أي: قد علمت يا محمد وتيقنت **﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾** فيه إحاطة علمه بالعالم العلوي والعالم السفلي وهذه مرتبة العلم **﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾** أي: الذي في السماء والأرض من معلوماته **﴿فِي كِتَابٍ﴾** أي: مكتوب عنده في أم الكتاب، وهذه مرتبة الكتابة **﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾** أي: أن إحاطة علمه بما في السماء والأرض وكتابته يسير عليه.

والشاهد من الآية الكريمة: أن فيها إثبات علم الله بالأشياء وكتابتها في اللوح المحفوظ وهذا هو ما تتضمنه الدرجة الأولى.

واستدل الشيخ أيضًا بقوله تعالى: ﴿ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير﴾، **﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ﴾** من قحط مطر وضعف نبات ونقص ثمار **﴿وَلا فِي أَنفُسِكُمْ﴾** بالآلام والأسقام وضيق العيش **﴿إِلاَّ فِي كِتَابٍ﴾** أي: إلا وهي مكتوبة في اللوح المحفوظ **﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا﴾** أي: قبل أن نخلقها ونوجدها **﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾** أي: أن إثباتها في الكتاب على كثرتها يسير على الله سبحانه.

والشاهد من الآية الكريمة: أن فيها دليلاً على كتابة الحوادث في اللوح المحفوظ قبل وقوعها. ويتضمن ذلك علمه بها قبل الكتابة فهي دليل على مرتبتي العلم والكتابة.

---

[١] أخرجه الترمذي (٢٥١٦)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٧٩٥٧).

ثم بعد ذلك أشار الشيخ رحمه الله إلى أن التقدير نوعان:

تقدير عام شامل لكل كائن وهو الذي تقدم الكلام عليه بأدلته وهو المكتوب في اللوح المحفوظ.

وتقدير خاص: وهو تفصيل للقدر العام، وهو ثلاثة أنواع: تقدير عُمُري، وتقدير حولي، وتقدير يومي، هذا معنى قول الشيخ: (وهذا التقدير التابع لعلمه سبحانه يكون في مواضع جملة) أي: تقديراً عامًا، وهو المكتوب في اللوح المحفوظ يعم جميع المخلوقات (وتفصيلاً) أي: تقديراً خاصًا مفصلاً للتقدير العام وهو:

١ - التقدير العمري: كما في حديث ابن مسعود في شأن ما يكتب على الجنين في بطن أمه من أربع الكلمات: رزقه وأجله وعمله وشقاوته أو سعادته.

٢ - تقدير حولي: وهو ما يقدر في ليلة القدر من وقائع العام، كما في قوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٤].

٣ - تقدير يومي: وهو ما يقدر من حوادث اليوم من حياة وموت وعز وذل إلى غير ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: «إن الله خلق لوحًا محفوظًا من درة بيضاء دفتاه من ياقوتة حمراء، قلمه نور، وكتابته نور، عرضه ما بين السماء والأرض، ينظر فيه كل يوم ثلاثمائة وستين نظرة يحيي ويميت ويعز ويذل ويفعل ما يشاء فذلك قوله سبحانه: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾» رواه عبد الرزاق وابن المنذر والطبراني والحاكم[١].

وقوله: «فهذا القدر»: أي: الذي سبق بيانه بنوعيه العام والخاص.

«قد كان ينكره غلاة القدرية»: أي: المبالغون في نفي القدر، فينكرون علم الله بالأشياء قبل وجودها وكتابته لها في اللوح المحفوظ وغيره، ويقولون: إن الله أمر ونهى وهو لا يعلم من يطيعه ممن يعصيه. فالأمر أنف، أي: مستأنف لم يسبق في علم الله وتقديره، وهؤلاء كفرهم الأئمة لكنهم انقرضوا، ولهذا قال الشيخ:

---

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٥١٦).

«ومنكروه اليوم قليل» وبقيت الفرقة التي تقر بالعلم ولكن تنفي دخول أفعال العباد في القدر وتزعم أنها مخلوقة لهم استقلالاً لم يخلقها الله ولم يردها، كما يأتي بيانه.

هذا بيان للمرتبة الثالثة والمرتبة الرابعة من مراتب القدر.

أشار إلى الثالثة بقوله:

«فهي مشيئة الله النافذة وقدرته الشاملة»: و **«النافذة»**: هي الماضية التي لا راد لها،

و **«الشاملة»**: هي العامة لكل شيء من الموجودات والمعدومات.

وقوله: **«وهو الإيمان»**: أي: ومعنى الإيمان بهذه المرتبة: اعتقاد **(أن ما شاء الله كان)** أي: وجد.

«وما لم يشأ لم يكن»: أي: لم يوجد.

«وأنه ما في السموات من حركة ولا سكون إلا بمشيئة الله»: أي: لا يحصل شيء من ذلك إلا وقد شاءه الله سبحانه.

«لا يكون في ملكه ما لا يريد»: وقوعه كونًا وقدرًا

«وأنه سبحانه على كل شيء قدير من الموجودات والمعدومات»: لدخولها تحت عموم **«كل شيء»** فالله قد أخبر في آيات كثيرة: أنه على كل شيء قدير.

وقوله: **«فما من مخلوق في الأرض ولا في السماء إلا الله خالقه سبحانه»**: هذا فيه إشارة إلى المرتبة الرابعة، وهي مرتبة الخلق والإيجاد، فكل ما سوى الله فهو مخلوق وكل الأفعال خيرها وشرها صادرة عن خلقه وإحداثه لها «لا خالق غيره ولا رب سواه».

ولما فرغ الشيخ من ذكر مراتب القدر نبه على مسائل تتعلق بهذا الموضوع:

المسألة الأولى: أنه لا تعارض بين القدر والشرع.

المسألة الثانية: لا تعارض بين تقدير الله ووقوع المعاصي وبغضه لها.

المســألة الثـالـثـة: لا تعارض بين تقدير الله لأفعال العباد وكونهم يفعلونها باختيارهم.

لما قرر الشيخ رحمه الله القدر بمراتبه الأربع: العلم، والكتابة، والمشيئة والإرادة، والخلق والإيجاد، وأنه ما من شيء يحدث إلا وقد علمه الله وكتبه وشاءه وأراده وأوجده ـ بيَّن هنا أنه لا تعارض بين ذلك وبين كونه أمر العباد بطاعته ونهاهم عن معصيته ولا بين تقديره وقوع المعصية وبغضه لها.

فقوله: «ومع ذلك»: أي: مع كونه سبحانه هو الذي علم الأشياء وقدرها وكتبها وأرادها وأوجدها

(فقد أمر العباد بطاعته وطاعة رسوله ونهاهم عن معصيته) كما دلت على ذلك أدلة كثيرة من الكتاب والسنة أمر فيها بالطاعة ونهى عن المعصية، ولا تعارض في ذلك بين شرعه وقدره. كما يظنه بعض الضلال الذين يعارضون بين الشرع والقدر.

يقول الشيخ رحمه الله في هذا الموضوع في رسالته «التَّدمرية»: وأهل الضلال الخائضون في القدر انقسموا إلى ثلاث فرق: مجوسية، ومشركية، وإبليسية.

الفرقة الأولى: المجوسية: الذين كذبوا بقدر الله وإن آمنوا بأمره ونهيه، فغلاتهم أنكروا العلم والكتاب، ومقتصدوهم أنكروا عموم مشيئته وخلقه وقدرته. وهؤلاء هم المعتزلة ومن وافقهم.

والفرقة الثانية: المشركية: الذين أقروا بالقضاء والقدر، وأنكروا الأمر والنهي، قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، فمن احتج على تعطيل الأمر والنهي فهو من هؤلاء. وهذا قد كثر فيمن يدعي الحقيقة من المتصوفة.

والفرقة الثالثة: وهم الإبليسية: الذين أقروا بالأمرين، لكن جعلوا هذا تناقضاً من الرب سبحانه وتعالى، وطعنوا في حكمته وعدله، كما يذكر ذلك عن إبليس مقدمهم، كما نقله أهل المقالات، ونقل عن أهل الكتاب.

والمقصود: أن هذا مما تَقَوَّلَهُ أهل الضلال، وأما أهل الهدى والفلاح فيؤمنون بهذا

وهذا، ويؤمنون بأن الله خالق كل شيء وربه ومليكه، وما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وهو على كل شيء قدير، وأحاط بكل شيء علماً، وكل شيء أحصاه في إمام مبين. اهـ.

وقوله: «وهو سبحانه يحب المتقين والمحسنين والمقسطين»: أي: يحب من اتصف بالصفات الحميدة، كالتقوى والإحسان والقسط.

«ويرضى عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات»: كما أخبر بذلك في آيات كثيرة؛ لما اتصفوا به من الإيمان والعمل الصالح.

«ولا يحب الكافرين، ولا يرضى عن القوم الفاسقين»: أي: لا يرضى عمن اتصف بالصفات التي يبغضها؛ كالكفر والفسوق وسائر الصفات الذميمة.

«ولا يأمر بالفحشاء» وهي: ما تناهى قبحه من الأقوال والأفعال.

«ولا يرضى لعباده الكفر ولا يحب الفساد»: لقبحهما، ولما فيهما من المضرة على العباد والبلاد.

ويريد الشيخ رحمه الله بهذا الكلام: الرد على من زعم: أن الإرادة والمحبة بينهما تلازم، فإذا أراد الله شيئًا فقد أحبه، وإذا شاء شيئًا فقد أحبه.

وهذا قول باطل، والقول الحق: أنه لا تلازم بين الإرادة والمحبة، أو بين المشيئة والمحبة. أعني: الإرادة والمشيئة الكونية فقد يشاء الله ما لا يحبه، وقد يحب ما لا يشاء وجوده.

مثال الأول: مشيئة وجود إبليس وجنوده ومشيئته العامة؛ لما في الكون مع بغضه لبعضه.

ومثال الثاني: محبته لإيمان الكفار، وطاعات الكفار، ولم يشأ وجود ذلك منهم، ولو شاءه لوجد.

أراد الشيخ رحمه الله بهذا الكلام: أن يبين أنه لا تنافي بين إثبات القدر بجميع مراتبه السابقة وبين كون العباد يفعلون باختيارهم ويعملون بإرادتهم، وقصده بهذا: الرد على من زعم: أن إثبات ذلك يلزم منه التناقض، ومن ثم ذهبت طائفة منهم إلى

الغلو في إثبات القدر حتى سلبوا العبد قدرته واختياره . وذهبت الطائفة الثانية إلى الغلو في إثبات أفعال العباد واختيارهم حتى جعلوهم هم الخالقين لها ، ولا تعلق لها بمشيئة الله ولا تدخل تحت قدرته .

ويقال للطائفة الأولى : الجبرية ؛ لأنهم يقولون : إن العبد مجبر على ما يصدر منه لا اختيار له فيه ، ويقال للطائفة الثانية : القدرية النفاة ؛ لأنهم ينفون القدر .

فقول الشيخ رحمه الله: «**والعباد فاعلون حقيقة**»: رد على الطائفة الأولى وهم الجبرية ؛ لأنهم يقولون : إن العباد ليسوا فاعلين حقيقة وإسناد الأفعال إليهم من باب المجاز .

وقوله: «**والله خالقهم وخالق أفعالهم**»: رد على الطائفة الثانية القدرية النفاة ؛ لأنهم يقولون : إن الله لم يخلق أفعال العباد وإنما هم خلقوها استقلالاً دون مشيئة الله وتقديره لها .

وقوله: «**والعبد هو المؤمن والكافر والبر والفاجر والمصلي والصائم وللعباد قدرة على أعمالهم ولهم إرادة**»: رد على الجبرية ، أي : ليس العباد بمجبرين على تلك الأعمال ؛ لأنه لو كان كذلك لما صح وصفهم بها ؛ لأن فعل المجبر لا ينسب إليه ، ولا يوصف به ، ولا يستحق عليه الثواب أو العقاب .

وقوله: «**والله خالقهم وخالق قدرتهم**»: رد على القدرية النفاة حيث زعموا : أن العباد يخلقون أفعالهم بدون إرادة الله ومشيئته ، كما سبق . ثم استدل الشيخ في الرد على الطائفتين بقوله تعالى : ﴿**لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ**﴾ ، فقوله تعالى : ﴿**لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ**﴾ فيه الرد على الجبرية ؛ لأنه أثبت للعباد مشيئة وهم يقولون : لا مشيئة لهم ، وقوله : ﴿**وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ**﴾ فيه الرد على القدرية القائلين بأن مشيئة العبد مستقلة بإيجاد الفعل من غير توقف على مشيئة الله وهذا باطل ؛ لأن الله علق مشيئة العباد على مشيئته سبحانه ، وربطها بها .

قوله: «**وهذه الدرجة من القدر**»: وهي عموم مشيئته وإرادته لكل شيء وعموم

خلقه لكل شيء وأن العباد فاعلون حقيقة، والله خالقهم وخالق أفعالهم.

«يكذب بها عامة القدرية»: النفاة، حيث يزعمون: أن العبد يخلق فعل نفسه بدون مشيئة الله وإرادته

«الذين سماهم النبي ﷺ مجوس هذه الأمة»(١): لمشابهتهم المجوس الذين يثبتون خالقين: هما: النور، والظلمة، فيقولون: إن الخير من فِعْل النور، والشر من فِعْل الظلمة فصاروا ثنوية. وكذلك هؤلاء القدرية جعلوا خالقًا مع الله حيث زعموا: أن العباد يخلقون أفعالهم بدون إرادة الله ومشيئته، بل يستقلون بخلقها، ولم يثبت أن النبي ﷺ سماهم مجوس هذه الأمة؛ لتأخر ظهورهم عن وقت النبي ﷺ فأكثر ما يجيء من ذمهم إنما هو موقوف على الصحابة.

وقوله: «ويغلو فيها»: أي: هذه الدرجة من القدر. والغلو: هو الزيادة في الشيء عن الحد المطلوب (قوم من أهل الإثبات) فاعل يغلو، والمراد بهم: الجبرية الذين قالوا: إن العبد مجبر على فعله (**حتى سلبوا العبد قدرته واختياره**).

فالأولون غلوا في إثبات أفعال العباد حتى أخرجوها عن مشيئة الله، وهؤلاء غلوا في نفي أفعال العباد حتى سلبوهم القدرة والاختيار.

وقوله: «ويخرجون عن أفعال الله وأحكامه حكمها ومصالحها»: جمع حكمة ومصلحة، أي: أن الجبرية في مذهبهم هذا حينما نفوا أفعال العباد وسلبوهم القدرة والاختيار نفوا حكمة الله في أمره ونهيه وثوابه وعقابه، فقالوا: إنه يثيب أو يعاقب العباد على ما ليس من فعلهم ويأمرهم بما لا يقدرون عليه، فاتهموا الله بالظلم والعبث، تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا.

* * *

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٩١) من حديث ابن عمر ـ رضي الله عنه ـ، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٤٤٤٢).

[أسئلة وأجوبة نموذجية على من أصول أهل السنة الإيمان بالقضاء والقدر]

● قال الشيخ عبد العزيز المحمد السلمان:

س ـ ما هو الإيمان بالقدر؟

ج ـ هو التصديق الجازم بأن كل خير وشر فهو بقضاء الله وقدره، وأنه الفعال لما يريد، لا يكون شيء إلا بإرادته، ولا يخرج شيء عن مشيئته، وليس في العالم شيء يخرج عن تقديره، ولا يصدر إلا عن تدبيره، ولا محيد لأحد عن القدر المقدور، ولا يتجاوز ما خط في اللوح المحفوظ.

وأنه خالق أفعال العباد والطاعات والمعاصي.

ومع ذلك فقد أمر العباد ونهاهم وجعلهم مختارين لأفعالهم غير مجبورين عليها بل هي واقعة بحسب قدرتهم وإرادتهم.

والله خالقهم وخالق قدرتهم يهدي من يشاء برحمته ويضل من يشاء بحكمته، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

س ـ ما هي مراتب القدر ما دليلها؟

ج ـ مراتبه أربع:

الأولى: إثبات علم الله بكل شيء، وتقدم أدلة إثبات صفة العلم ونذكر زيادةً على ما تقدَّم، قال تعالى: ﴿لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾، وقال: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾.

المرتبة الثانية: مرتبة الكتابة، وهي كتابة الله لجميع الأشياء باللوح المحفوظ الدقيقة والجليلة، ما كان وما سيكون.

ودليل هذه المرتبة قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

وفي حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه: «أن أول ما خلق الله القلم فقال: أكتب، فقال: يا رب وماذا أكتب؟ قال: أكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة». . . الحديث.

والمرتبة الثالثة: مرتبة المشيئة الشاملة النافذة التي لا يردها شيء، وقدرته التي لا يعجزها شيء، فجميع الحوادث واقعة بمشيئة الله وقدرته قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ وتقدم أدلة إثبات صفتي الإرادة والمشيئة في جواب سؤال.

المرتبة الرابعة: الإيمان بأن الله خالق الأشياء كلها وموجدها. قال تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾، وقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وقال: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ وقال: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾.

وهذه المرتبة من مراتب القدر وهي مرتبة خلق الله سبحانه لأعمال العباد وتكوينها وإيجاده لها أمر متفق عليه بين الرسل ﷺ، وعليه اتفقت الكتب الإلهية والفطر والعقول.

وخالف في ذلك مجوس هذه الأمة، فأخرجت طاعات ملائكته وأنبيائه ورسله وعباده المؤمنين، وهي أشرف ما في العالم عن ربوبيته وتكوينه ومشيئته، بل جعلوهم هم الخالقين لها ولا تعلق لها بمشيئته ولا تدخل تحت قدرته.

وكذلك قالوا في جميع أفعال الحيوانات الاختيارية فعندهم أنه سبحانه لا يقدر أن يهدي ضالاً ولا يضل مهتديًا، ولا يقدر أن يجعل المسلم مسلمًا والكافر كافرًا والمصلي مصليًا، وإنما ذلك بجعلهم أنفسهم، كذلك لا بجعله تعالى.

وقابلهم الجبرية فقالوا: العبد مجبور على أفعاله مقهور عليها لا تأثير له في وجودها ألبته، ولا هي واقعة بإرادته واختياره، وغلا غلاتهم فقالوا: بل هي عين فعل الرب ولا ينسب إلى العبد إلا على المجاز.

والله سبحانه يلوم العبد ويعاقبه ويخلده في النار على ما لم يكن للعبد فيه صنع ولا فَعَلَه بل هو محض فعل الله ـ تعالى عن قولهم علوًّا كبيرًا ـ.

والحق ما عليه أهل السنة وهو أن العباد فاعلون حقيقة والله خالقهم وخالق قدرتهم وإرادتهم: قال ابن القيم رحمه الله تعالى:

وعموم قدرته تدل بأنه ... هو خالق الأفعال للحيوان
هي خلقه حقًّا وأفعال لهم ... حقًّا ولا يتناقض الأمران
لكن أهل الجبر والتكذيب بالـ ... أقدار ما انفتحت لهم عينان
نظروا بعيني أعور إذ فاتهم ... نظر البصير وغارت العينان
فحقيقة القدر الذي حار الورى ... في شأنه هو قدرة الرحمن
واستحسن ابن عقيل ذا من أحمد ... لما حكاه عن الرضا الرباني
قال الإمام شفى القلوب بلفظة ... ذات اختصار وهي ذات معان

س ـ ما أقسام التقدير؟ وما دليلٌ ما لم يتقدم له دليل؟ من ما يتعلق بباب القدر؟

ج ـ الأول: التقدير العام لجميع الأشياء بمعنى أن الله علمها وكتبها وشاءها وخلقها.

الثاني: التقدير العمري وهو تقدير كل ما يجري على العبد في حياته إلى نهاية أجله، وذلك شامل للرزق والأجل والعمل والسعادة أو الشقاوة.

ودل عليه حديث ابن مسعود المخرج في «الصحيحين» مرفوعًا: «**إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد**»... الحديث.

الثالث: التقدير السنوي، وذلك يكون في ليلة القدر، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾.

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: يكتب من أم الكتاب في ليلة القدر ما هو كائن في السنة من الخير والشر والأرزاق والآجال حتى الحجاج يقال: يحج فلان ويحج فلان.

وقال الحسن ومجاهد: «يبرم في ليلة القدر في شهر رمضان كل أجل وعمل وخلق ورزق وما يكون في تلك السنة».

الرابع: التقدير اليومي ويدل عليه قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ وأخرج ابن

جرير عن عبد الله بن حُنَيْف الأزدي وابن أبي حاتم عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ في تفسير قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ قال: «من شأنه أن يغفر ذنبًا ويُفَرِّج كربًا ويرفع قومًا ويضع آخرين».

س ـ هل العرش مخلوق قبل القلم، أم القلم قبل، وضح ذلك. وما الدليل على ذلك وما الجواب عن حديث عُبَادَ؟

ج ـ العرش خلقه متقدم على خلق القلم، في الصحيح من حديث عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**قدر الله مقادير الخلق قبل أن يَخْلُق السموات بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء**».

وأما حديث عبادة بن الصامت فقال العلماء: إما أن يكون معناه عند أول خلقه قال له: «اكتب».

وإما على أنه أول مخلوقات هذا العالم ليتفق الحديثان إذ حديث عبد الله بن عمرو صريح في أن العرش سابق على التقدير، والتقدير مقارن لخلق القلم.

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ:

والناس مختلفون في القلم الذي	كتب القضاء به من الديان
هل كان قبل العرش أو هو بعده	قولان عند أبي العلا الهمدان
والحق أن العرش قبل لأنه	قبل الكتابة كان ذا أركان
وكتابة القلم الشريف تعقبت	إيجاده من غير فصل زمان
لما براه الله قال اكتب كذا	فغدا بأمر الله ذا جريان

س ـ ما حكم الاحتجاج بالقدر على ترك أمر، أو فعل نهي؟ وما الواجب علينا نحو ذلك وما الدليل على ذلك؟

ج ـ لا يجوز لنا أن نجعل قضاء الله وقدره حجة لنا في ترك أمر، أو فعل نهي، بل يجب علينا أن نؤمن ونعلم أن لله الحجة علينا بإنزال الكتب، وبعثة الرسل. قال الله تعالى: ﴿رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾.

قال شيخ الإسلام: والاحتجاج بالقدر حجة داحضة باطلة باتفاق كل ذي عقل

ودين من جميع العالمين والمحتج به لا يقبل من غيره هذه الحجة إذا احتج به في ظلم ظلمه إياه وترك ما يجب عليه من حقوقه بل يطلب منه ما له عليه ويعاقبه على عدوانه عليه وإنما هو من جنس شبه السوفسطائية التي تعرض في العلوم.

ولا يحتج به أحد إلا مع عدم علمه بالحجة بما فعله فإذا كان معه علم بأن ما فعله هو المصلحة وهو المأمور وهو الذي ينبغي فعله لم يحتج بالقدر وكذلك إذا كان معه علم بأن الذي لم يفعله ليس عليه أن يفعله أو ليس بمصلحة أو ليس هو مأموراً به لم يحتج بالقدر بل إذا كان متبعًا لهواه بغير علم احتج بالقدر.

س ـ من الموجه إليه الأمر والنهي؟

ج ـ المستطيع للفعل والترك قال الله تعالى: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ وقال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ وقال ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾ وقال النبي ﷺ: «إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم».

س ـ ما معنى الرضا بالقضاء، وما حكم الرضا به، وما الدليل على ذلك؟

ج ـ الرضا: هو التسليم وسكون القلب وطمأنينته والقضاء الذي هو وصفه سبحانه وفعله القائم بذاته كله خير وعدل وحكمه يجب الرضا به كله، وأما القضاء الذي هو المقضي فهو نوعان:

النوع الأول: ديني شرعي يجب الرضا به كقوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ وكقوله: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ وهو أساس الإسلام.

والنوع الثاني: الكوني القدري، منه ما يجب الرضا به كالنعم التي يجب شكرها، ومن تمام شكرها الرضا بها.

ومنه ما لا يجوز الرضا به كالمعائب والذنوب التي يسخطها الله، وإن كانت بقضاء الله وقدره.

ومنه ما يستحب الرضا به كالمصائب، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ والمعترضون على الله ثلاثة أقسام: معترضون على أسمائه وصفاته، ومعترضون على شرعه

ودينه، ومعترضون على قضائه وقدره، ولا يتم للعبد دين وإيمان إلا بترك هذا الاعتراض والتسليم للحكم الديني والقدري.

س - إذا كان قد سبق القضاء والقدر بالشقاوة والسعادة فما حكم ترك الأخذ بالأسباب والاعتماد على ما سبق وضح ذلك توضيحًا شافيًا؟ وبين انقسام الناس في الشرع والقدر.

ج - لايجوز؛ لأن القدر السابق لا يمنع العمل ولا يوجب الاتكال بل يوجب الجد والاجتهاد والحرص على الأعمال الصالحة، ولهذا لما أخبر النبي ﷺ أصحابه بسبق المقادير وجريانها وجفوف القلم بها فقيل له: أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل.

قال: «**لا، ولكن اعملوا فكل ميسر لما خلق له**». أما أهل السعادة فسييسرون لعمل أهل السعادة وأما أهل الشقاوة فسييسرون لعمل أهل الشقاوة ثم تلا: ﴿**فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ (٧) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ**﴾.

وقال رسول الله ﷺ: «**احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز**» الحديث.

والناس في الشرع والقدر على أربعة أنواع فشر الخلق من يحتج بالقدر لنفسه ولا يراه حجة لغيره يستند إليه في الذنوب والمعائب ولا يطمئن إليه في المصائب.

وبإزاء هؤلاء خير الخلق الذين يستغفرون من المعائب ويصبرون على المصائب.

والثالث: من لا ينظر إلى القدر لا في المعائب ولا في المصائب التي هي أفعال العباد بل يضيفون ذلك إلى العبد وإذا أساءوا استغفروا وهذا حسن لكن إذا أصابتهم مصيبة بفعل العبد لم ينظر إلى القدر الذي مضى بها عليهم ولا يقولون لمن قصر في حقهم دعوه لو قضي شيء لكان، لا سيما وقد تكون المصيبة بسبب ذنوبهم فلا ينظرون إليها قال تعالى: ﴿**أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا**﴾ الآية.

ورابعهم: من يحتج بالقدر لكل أحد وهذا مذهب غلاة الجبرية وقد بين فساده شرعًا وعقلاً. اهـ. التقسيم من كلام الشيخ رحمه الله.

[من أصول أهل السنة
أن الدين والإيمان قولٌ وعملٌ]

فصلٌ

ومنْ أُصول أهل السنة والجَماعة:

أن الدِّينَ وَالإيمان: قَوْلٌ، وعَمَلٌ.

قَوْلُ: القَلْب، وَاللِّسان.

وعَمَلُ: القَلْب، وَاللِّسَان، وَالجوارِح.

وَأنَّ الإيمانَ: يَزيدُ بالطَّاعة، ويَنْقُصُ بالمَعْصيَة.

وَهُمْ مَعَ ذَلك، لا يُكَفِّرُونَ أهْلَ القبْلَة بـمُطْلَق المَعاصي وَالكَبائر كما يـفعلُه الخَوارجُ، بل الأخوَّةُ الإيمانيـةُ ثابتةٌ معَ المَعَاصي. كَمَا قَالَ سُبْحانَهُ: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ١٧٨].

وقـال: ﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۝ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ [الحجرات: ٩-١٠].

وَلاَ يَسْلبُون الفَـاسقَ المِلِّيَّ الإسلامَ بالكُلِّيَّـة، وَلاَ يُخَلِّدونَهُ في النَّارِ كَمَا تَقُولُ المُعْتَزِلَةُ، بلِ الفَاسقُ يَدْخلُ في اسْمِ الإيمانِ المُطْلَق.

في مِثْلِ قَوْله تَعَالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء: ٩٢].

وقد لا يدخلُ في اسْمِ الإيمانِ المُطْلَقِ.

كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾ [الأنفال: ٢].

وقوله ﷺ: «لا يَزْني الزَّاني حين يَزْني، وهو مُؤْمن ولاَ يَسْرِقُ السَّارِقُ حينَ يَسْرِقُ وهُوَ مُؤْمنٌ ولا يَشْرب الخمر حين يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلاَ يَنْتَهِب نهبةً ذَاتَ شَرَفٍ يرفعَ النَّاسُ إِلَيْه فِيهَا أبصارَهم حينَ ينتهبُها وهو مُؤْمن» .

ونقولُ: هو مؤمنٌ ناقصُ الإيمانِ، أو مُؤْمنٌ بإيمانه، فَاسِقٌ بِكَبيرَتِهِ؛ فلا يُعْطى الاسمَ المُطْلقَ، ولا يُسْلَب مطلقَ الاسمِ.

• الشَّرح •

● قال العلامة ناصر السعدي:

قد دلَّ الكتاب والسُّنة على ما قاله الشَّيخ ، وأجمعَ على ذلك سلف الأمة ، فكم من آية قرآنية وأحاديث نبوية أطْلَقَت على كثير من الأقوال والأعمال [اسم] الإيمان .

فالإيمان المُطلق يدخل فيه: جميع الدِّين ، ظاهره وباطنه ، أُصُوله وفرُوعه .

يدخل فيه: العقائد التي يجب اعتقادها من كل ما احتوت عليه من هذا الكتاب .

ويدخل فيه: أَعْمال القلوب كالحب للَّه ورسوله وإرادة اللَّه والإنابة إليه .

والفرق بين أقوال القلب وبين أعماله: أن أقواله هي العقائد التي يَعْترف بها القلب ويعتقدها ، وأما أعمال القلب فهي حركته التي يحبها اللَّه ورسوله .

وضابطها: محبَّة الخير وإرادته الجازمة وكراهية الشَّر ، والعَزْم على تَركه للَّه وهذه

الأعمال القلبية تنشأ عنها أعمال الجوارح.

فالصلاة، والزكاة، والصَّوم، والحج، والجهاد من الإيمان.

وبرّ الوالدين، وصلة الأرحام، والقيام بحقوق الله، وحقوق خلقه المتنوعة كلها من الإيمان.

وكذلك الأقوال: فَقِراءة القرآن، وذكر اللَّه والثناء عليه، والدَّعوة إلى اللَّه، والنصيحة لعباد اللَّه، وتعلم العلوم النافعة كلها داخلة في الإيمان.

ولهذا لما كان الإيمان اسمًا لهذه الأمور ترتب عليه أن يزيد وينقص كما هو صَرِيح الأدلة من الكتاب والسنَّة، وكما هو ظاهر مُشَاهَد؛ تفاوت المؤمنين في عقائدهم وأعمال قلوبهم وجوارحهم.

ومن زيادته ونقْصه: أن اللَّه قسَّم المؤمنين ثلاث طبقات:

سابقون بالخيرات: وهم الذين أَدُّوا الواجبات والمستحبات، وتركوا المحرمات والمكروهات، فهؤلاء المقربون.

ومقتصدون: وهم الذين أَدُّوا الواجبات وتركوا المحرمات.

وظالمون لأنفُسهم: هم الذين تجرءوا على بعض المحرمات وقَصَّروا ببعض الواجبات مع بقاء أَصْل الإيمان معهم.

فهذا من أكبر البراهين على زيادة الإيمان ونَقْصِه.

فما أعظم التفاوت بين هؤلاء الطَّبقات.

ومن وُجوه زيادته ونقصه: أن المؤمنين مُتفاوتون في علوم الإيمان:

فمنهم: من وصل إليه - من تفاصيله وعقائده - خَيْرٌ كثير، فازداد به إيمانه وتمَّ به يَقِينُه.

ومنهم: ما هو دون ذلك ودون ذلك، حتى تصل الحال إلى أن من المؤمنين من معه إيمان إجمالي لم يتيسر له من التفاصيل شيء وهو مع ذلك مؤمن، ومعلوم الفرق بين هذه المراتب.

ومن وجوه زيادة الإيمان ونقصه: أن المؤمنين مُتفَاوتون تَفَاوتًا كثيرًا في أعمال القلب والجوارح وكثرة الطاعات وقِلَّتها، وهذا شيء مَحْسُوس.

ومن وجُوه زيادته ونَقصه: أن من المؤمنين من لم تجرح المعاصي إيمانه وإن وقع منه شيء من ذلك بادر إلىٰ التَّوبة والإنابة، ومنهم من هو متجرئ علىٰ كثير من المعاصي ومعلوم الفرق بينهما.

ومن وجوه زيادته ونَقْصه: أن من المؤمنين من هو وَاجِدٌ لحلاوة الإيمان وقد ذَاقَ طعمه واستحلىٰ الطَّاعات واستنار قلبه بالإيمان، ومنهم من لم يَصِل إلىٰ ذلك.

ولهذا قال المُصَنِّف رحمه اللَّه: (وَلاَ يَسْلبُون الفَاسق المِلِّيَّ اسْمَ الإيمان بالكُلِّيَّة، وَلاَ يُخَلِّدونَهُ في النَّار.. إلخ).

وهذا تحقيق مذهب السلف الذي باينوا فيه «الخوارج» المارقين الذين يَسْلبون العُصَاة اسم الإيمان ويخلدونهم.

وَباينوا فيه «المعتزلة» الذين وافقوا «الخوارج» في المعنىٰ وخالفوهم في اللفظ.

وأما الكتاب والسُّنة؛ فإنهما دَلا من وجوه كثيرة علىٰ:

أن العبد يكون فيه خير وشر وإيمان وخِصَال كفر، أو نفاق لا تخرجه عن الإيمان بالكلية. وأن الإيمان المطلق إنما يتناول الإيمان الممدوح الكامل في مثل قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الأنفال: ٢، ٣] ونحو ذلك من النصوص.

وأما مُطْلق الإيمان الذي يدخل فيه الإيمان الكامل والإيمان الناقص فإنه ثبت النصوص من الكتاب والسُّنَّة علىٰ إطلاقه علىٰ العُصاة من المؤمنين.

وأجمع علىٰ ذلك سلف الأمة وأئمتها.

قال تعالىٰ: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء: ٩٢].

ومن المعلوم دُخول أي مؤمن كان.

وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠]، فسمَّاهم إخوة بعد

وُجُود الاقتتال.

ويقال أيضًا في توضيح ذلك: أن الإيمان الممدوح الذي يُؤتىٰ به في سياق الثناء علىٰ أهله إنما يتناول الإيمان الكامل، والإيمان الذي يقال لصاحبه: إنه من المؤمنين يدخل فيه هذا وهذا.

ويقال أيضًا: الإيمان الذي يمنع صاحبه من التَّجري علىٰ الزنا وشرب الخمر والسَّرقة ونحوها من الفواحش هو الإيمان الكامل، والإيمان الذي لا يمنع من ذلك هو النَّاقص. وهذا وجه الحديث الذي ذكره المُصنِّف «**لا يَزْني الزَّاني**...» إلىٰ آخره.

ويقال أيضًا: الإيمان الذي يمنع دخول النار هو الإيمان الكامل، والإيمان الذي يمنع من الخلود فيها يكون ناقصًا.

ويقال أيضًا: الأحكام الأصولية والفروعية تَدُور مع عِلَلِها وأسبابها، وإذا وجد في العبد أسباب مُتَعارضة، و أُعْمِلَ كل سبب في مُسَبِّبه، فالطَّاعات سَبَبٌ لدخول الجنة والثواب، والمعاصي سَبَبٌ لدخول النار والعقاب، فَأَعْمِلْ كُلَّ واحد في مقتضاه، ولكن لما كانت رحمة الله قد سَبَقت غضَبه وفَضْله علىٰ العباد قد غَمَرَهُم وتنوع عليهم من كل وجه كان أقل القليل من الإيمان له الأثر المُسْتَقِرُّ الذي يَضْمَحِل ضِدُّه من كل وجه، وإن كان معه شيء من الإيمان فإن مآلهُ إلىٰ الخلود في دار النَّعيم.

- **قال الشيخ محمد خليل هراس**:

سبق أن ذكرنا في مسألة الأسماء والأحكام أن أهل السنة والجماعة يعتقدون أن الإيمان قول باللسان واعتقاد بالجنان وعمل بالأركان وأن هذه الثلاثة داخلة في مسمىٰ الإيمان المطلق. فالإيمان المطلق يدخل فيه جميع الدين ظاهره وباطنه أصوله وفروعه، فلا يستحق اسم الإيمان المطلق إلا مع جمع ذلك كله ولم ينقص منه شيئًا.

ولما كانت الأعمال والأقوال داخلة في مسمىٰ الإيمان كان الإيمان قابلاً للزيادة والنقص، فهو يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية كما هو صريح الأدلة من الكتاب والسنة وكما هو ظاهر مشاهد من تفاوت المؤمنين في عقائدهم وأعمال قلوبهم وأعمال جوارحهم.

ومن الأدلة على زيادة الإيمان ونقصه أن الله قسم المؤمنين ثلاث طبقات فقال سبحانه : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ فالسابقون بالخيرات هم الذين أدوا الواجبات والمستحبات وتركوا المحرمات والمكروهات وهؤلاء هم المقربون .

والمقتصدون هم الذين اقتصروا على أداء الواجبات وترك المحرمات .

والظالمون لأنفسهم هم الذين اجترأوا على بعض المحرمات وقصروا ببعض الواجبات مع بقاء أصل الإيمان معهم .

ومن وجوه زيادته ونقصه كذلك أن المؤمنين متفاوتون في علوم الإيمان فمنهم من وصل إليه من تفاصيله وعقائده خير كثير فازداد به إيمانه وتم يقينه ، ومنهم من هو دون ذلك حتى يبلغ الحال ببعضهم أن لا يكون معه إلا إيمان إجمالي لم يتيسر له من التفاصيل شيء ، وهو مع ذلك مؤمن . وكذلك هم متفاوتون في كثير من أعمال القلوب والجوارح وكثرة الطاعات وقلتها .

وأما من ذهب إلى أن الإيمان مجرد التصديق بالقلب وأنه غير قابل للزيادة أو النقص كما يروى عن أبي حنيفة وغيره فهو محجوج بما ذكرنا من الأدلة قال عليه السلام : «**الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق**» ومع أن الإيمان المطلق مركب من الأقوال والأعمال والاعتقادات فهي ليست كلها بدرجة واحدة ، بل العقائد أصل في الإيمان فمن أنكر شيئًا مما يجب اعتقاده في الله أو ملائكته أو كتبه أو رسله أو اليوم الآخر أو مما هو معلوم من الدين بالضرورة كوجوب الصلاة والزكاة وحرمة الزنا والقتل إلخ فهو كافر قد خرج من الإيمان بهذا الإنكار .

وأما الفاسق الملي الذي يرتكب بعض الكبائر مع اعتقاده حرمتها فأهل السنة والجماعة لا يسلبون عنه اسم الإيمان بالكلية ولا يخلدونه في النار كما تقول المعتزلة والخوارج بل هو عندهم مؤمن ناقص الإيمان قد نقص من إيمانه بقدر معصيته أو هو مؤمن فاسق فلا يعطونه اسم الإيمان المطلق ولا يسلبونه مطلق الإيمان .

وأدلة الكتاب والسنة دالة على ما ذكره المؤلف رحمه الله من ثبوت مطلق الإيمان

مع المعصية قال تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ فناداهم باسم الإيمان مع وجود المعصية وهي موالاة الكفار منهم إلخ.

«فائدة» الإيمان والإسلام الشرعيان متلازمان في الوجود فلا يوجد أحدهما بدون الآخر بل كلما وجد إيمان صحيح معتد به وجد معه إسلام وكذلك العكس ولهذا قد يستغنىٰ بذكر أحدهما عن الآخر لأن أحدهما إذا أفرد بالذكر دخل فيه الآخر وأما إذا ذكرا معًا مقترنين أريد بالإيمان التصديق والاعتقاد وأريد بالإسلام الانقياد الظاهري من الإقرار باللسان وعمل الجوارح. ولكن هذا بالنسبة إلىٰ مطلق الإيمان، أما الإيمان المطلق فهو أخص مطلقًا من الإسلام. وقد يوجد الإسلام بدونه كما في قوله تعالىٰ: ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ فأخبر بإسلامهم مع نفي الإيمان عنهم. وفي حديث جبريل ذكر المراتب الثلاث الإسلام والإيمان والإحسان فدل علىٰ أن كلاً منها أخص مما قبله.

● قال الشيخ ابن عثيمين:

قوله: «فصل: ومن أصول أهل السنة والجماعة أن الدين والإيمان قول وعمل».

«الدين»: هو ما يدان به الإنسان، أو يدين به؛ فيطلق علىٰ العمل ويطلق علىٰ الجزاء:

ففي قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ * يَوْمَ لاَ تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لله﴾ [الانفطار: ١٨، ١٩]؛ فالمراد بالدين في هذه الآية: الجزاء.

وفي قوله تعالىٰ: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]؛ أي: عملا تتقربون به إلىٰ الله.

ويقال: كما تَدينُ تُدان؛ أي: كما تعمل تجازىٰ.

والمراد بالدين في كلام المؤلف ـ رحمه الله ـ: العمل.

وأما: «الإيمان»؛ فأكثر أهل العلم يقولون: إن الإيمان في اللغة التصديق.

ولكن في هذا نظر؛ لأن الكلمة إذا كانت بمعنىٰ الكلمة؛ فإنها تتعدىٰ بتعديتها،

ومعلوم أن التصديق يتعدىٰ بنفسه، والإيمان لا يتعدىٰ بنفسه؛ فنقول مثلا: صدقته، ولا تقول: آمنته! بل تقول: آمنت به. أو: آمنت له. فلا يمكن أن نفسر فعلا لازمًا لا يتعدىٰ إلا بحرف الجر بفعل متعد ينصب المفعول به بنفسه، ثم إن كلمة (صدقت) لا تعطي معنىٰ كلمة (آمنت)؛ فإن (آمنت) تدل علىٰ طمأنينة بخبره أكثر من (صدقت).

ولهذا؛ لو فسر الإيمان بالإقرار؛ لكان أجود؛ فنقول: الإيمان: الإقرار، ولا إقرار إلا بتصديق؛ فنقول: أقرَّ به؛ كما تقول: آمن به، وأقرَّ له؛ كما تقول: آمن له. هذا في اللغة.

وأما في الشرع؛ فقال المؤلف ـ رحمه الله ـ: «قول وعمل».

وهذا تعريف مجمل فصله المؤلف ـ رحمه الله ـ بقوله: «قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح».

فجعل المؤلف ـ رحمه الله ـ للقلب قولا وعملا، وجعل للسان قولا وعملا.

ـ **أما قول اللسان**؛ فالأمر فيه واضح، وهو النطق، وأما عمله؛ فحركاته، وليست هي النطق، بل النطق ناشئ عنها إن سلمت من الخرس.

ـ **وأما قول القلب**؛ فهو اعترافه وتصديقه. وأما عمله فهو عبارة عن تحركه وإرادته؛ مثل الإخلاص في العمل؛ فهذا عمل قلب، وكذلك التوكل والرجاء والخوف؛ فالعمل ليس مجرد الطمأنينة في القلب، بل هناك حركة في القلب.

ـ **وأما عمل الجوارح**؛ فواضح؛ ركوع، وسجود، وقيام، وقعود، فيكون عمل الجوارح إيمانًا شرعًا؛ لأن الحامل لهذا العمل هو الإيمان.

فإذا قال قائل: أين الدليل على أن الإيمان يشمل هذه الأشياء؟.

قلنا: قال النبي ﷺ: «**الإيمان: أن تؤمن بالله وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره**»[١]؛ فهذا قول القلب: أما عمل القلب واللسان والجوارح؛ فدليله قول النبي ﷺ: «**الإيمان بضع وسبعون شعبة: أعلاها: قول: لا إله إلا الله، وأدناها: إماطة**

---

(١) سبق تخريجه.

الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»[1] ؛ فهذا قول اللسان وعمله وعمل الجوارح، والحياء عمل قلبي، وهو انكسار يصيب الإنسان ويعتريه عند وجود ما يستلزم الحياء.

فتبين بهذا أن الإيمان يشمل هذه الأشياء كلها شرعًا.

ويدل لذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ**﴾ [البقرة: ١٤٣]؛ قال المفسرون: أي: صلاتكم إلى بيت المقدس؛ فسمى الله تعالى الصلاة إيمانًا؛ مع أنها عمل جوارح وعمل قلب وقول لسان.

هذا هو مذهب أهل السنة والجماعة.

وشموله لهذه الأشياء الأربعة لا يعني أنه لا يتم إلا بها، بل قد يكون الإنسان مؤمنًا مع تخلف بعض الأعمال، لكنه ينقص إيمانه بقدر ما نقص من عمله.

وخالف أهل السنة في هذا طائفتان بدعيتان متطرفتان:

الطائفة الأولى: المرجئة: يقولون: إن الإيمان هو الإقرار بالقلب، وما عدا ذلك؛ فليس من الإيمان!!

ولهذا كان الإيمان لا يزيد ولا ينقص عندهم؛ لأنه إقرار القلب، والناس فيه سواء؛ فالإنسان الذي يعبد الله آناء الليل والنهار كالذي يعصي الله آناء الليل والنهار عندهم، ما دامت معصيته لا تخرجه من الدين!!.

فلو وجدنا رجلا يزني ويسرق ويشرب الخمر ويعتدي على الناس، ورجلا آخر متقيًا لله بعيدًا عن هذه الأشياء كلها؛ لكانا عند المرجئة في الإيمان والرجاء سواء؛ كل منهما لا يعذب لأن الأعمال غير داخلة في مسمى الإيمان.

الطائفة الثانية: الخوارج والمعتزلة؛ قالوا: إن الأعمال داخلة في مسمى الإيمان، وأنها شرط في بقائه، فمن فعل معصيته من كبائر خرج من الإيمان. لكن الخوارج يقولون: إنه كافر، والمعتزلة يقولون: هو في منزلة بين منزلتين؛ فلا نقول: مؤمن، ولا نقول: كافر، بل نقول: خرج من الإيمان ولم يدخل في الكفر، وصار في منزلة

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٩) ومسلم (٣٥) من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ.

بين منزلتين.

هذه أقوال الناس في الإيمان.

قوله: «وأن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية».

هذا معطوف على قوله: «أن الدين...» إلخ؛ أي: أن من أصول أهل السنة والجماعة أن الإيمان يزيد وينقص.

ويستدلون لذلك بأدلة من الكتاب والسنة:

- فمن الكتاب: قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤]، وقوله تعالى: ﴿لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾ [المدثر: ٣١]، وهذا صريح في ثبوت الزيادة.

- وأما النقص؛ فقد ثبت في «الصحيحين» أن النبي ﷺ وعظ النساء وقال لهن: «ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن»[1]؛ فأثبت نقص الدين.

ثم لو فرض أنه لم يوجد نص في ثبوت النقص؛ فإن إثبات الزيادة مستلزمة للنقص؛ فنقول: كل نص يدل على زيادة الإيمان؛ فإنه متضمن للدلالة على نقصه.

وأسباب زيادة الإيمان أربعة:

الأول: معرفة الله تعالى بأسمائه وصفاته؛ فإنه كلما ازداد الإنسان معرفة بالله وأسمائه وصفاته؛ ازداد إيمانه.

الثاني: النظر في آيات الله الكونية والشرعية:

قال الله تعالى: ﴿أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاء كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: ١٧-٢٠].

وقال تعالى: ﴿قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٠٤) ومسلم (٨٠) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

وكلما ازداد الإنسان علمًا بما أودع الله تعالىٰ في الكون من عجائب المخلوقات ومن الحكم البالغات؛ ازداد إيمانًا بالله عز وجل، وكذلك النظر في آيات الله الشرعية، يزيد الإنسان إيمانًا بالله عز وجل لأنك إذا نظرت إلىٰ الآيات الشرعية، وهي الأحكام التي جاءت بها الرسل؛ وجدت فيها ما يبهر العقول من الحكم البالغة والأسرار العظيمة التي تعرف بها أن هذه الشريعة نزلت من عند الله، وأنها مبنية علىٰ العدل والرحمة، فتزداد بذلك إيمانًا.

الثالث: كثرة الطاعات وإحسانها؛ لأن الأعمال داخلة في الإيمان، وإذا كانت داخلة فيه؛ لزم من ذلك أن يزيد بكثرتها.

السبب الرابع: ترك المعصية تقربًا إلىٰ الله عز وجل؛ فإن الإنسان يزداد بذلك إيمانًا بالله عز وجل.

أسباب نقص الإيمان أربعة:

الأول: الإعراض عن معرفة الله تعالىٰ وأسمائه وصفاته.

الثاني: الإعراض عن النظر في الآيات الكونية والشرعية؛ فإن هذا يوجب الغفلة وقسوة القلب.

الثالث: قلة العمل الصالح، ويدل لذلك قول النبي ﷺ في النساء: «ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن». قالوا: يا رسول الله كيف نقصان دينها قال: «أليس إذا حاضت لم تصل ولم تصم؟»[١].

الرابع: فعل المعاصي؛ لقوله تعالىٰ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤].

وخالف أهل السنة والجماعة في القول بالزيادة والنقصان طائفتان:

الطائفة الأولى: المرجئة.

والطائفة الثانية: الخوارج، والمعتزلة.

---

(٣٢٤) سبق تخريجه.

الطائفة الأولى: المرجئة: قالوا: إن الإيمان لا يزيد ولا ينقص؛ لأن الأعمال ليست من الإيمان، حتى يزيد بزيادتها وينقص بنقصانها؛ فالإيمان هو إقرار القلب، والإقرار لا يزيد ولا ينقص.

ونحن نرد عليهم فنقول:

أولا: إخراجكم الأعمال من الإيمان ليس بصحيح؛ فإن الأعمال داخلة في الإيمان، وقد سبق ذكر الدليل.

ثانيًا: قولكم: إن الإقرار بالقلب لا يختلف زيادة ونقصًا: ليس بصحيح، بل الإقرار بالقلب يتفاضل؛ فلا يمكن لأحد أن يقول: إن إيماني كإيمان أبي بكر!! بل يتعدى ويقول: إن إيماني كإيمان الرسول عليه الصلاة والسلام!!.

ثم نقول: إن الإقرار بالقلب يقبل التفاضل؛ فإقرار القلب بخبر الواحد ليس كإقراره بخبر اثنين، وإقراره بما سمع ليس كإقراره بما شاهد؛ ألم تسمعوا قول إبراهيم: ﴿**رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي**﴾ [البقرة: ٢٦٠]؛ فهذا دليل على أن الإيمان الكائن في القلب يقبل الزيادة والنقص.

ولهذا قسم العلماء درجات اليقين ثلاثة أقسام: علم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين؛ قال الله تعالى: ﴿**كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ**﴾ [التكاثر: ٥-٧]، وقال تعالى: ﴿**وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ**﴾ [الحاقة: ٥١].

الطائفة الثانية المخالفة لأهل السنة طائفة الوعيدية، وهذه الخوارج والمعتزلة، وسموا وعيدية؛ لأنهم يقولون بأحكام الوعيد دون أحكام الوعد؛ أي: يغلبون نصوص الوعيد على نصوص الوعد، فيخرجون فاعل الكبيرة من الإيمان، لكن الخوارج يقولون: إنه خارج من الإيمان داخل في الكفر، والمعتزلة يقولون: خارج من الإيمان غير داخل في الكفر، بل هو في منزلة بين منزلتين.

ومناقشة هاتين الطائفتين المرجئة والوعيدية في الكتب المطولات.

قوله: «وهم مع ذلك».

أي: مع قولهم: إن الإيمان قول وعمل.

«**لا يكفرون أهل القبلة بمطلق المعاصي والكبائر**».

أهل القبلة هم المسلمون، وإن كانوا عصاة؛ لأنهم يستقبلون قبلة واحدة، وهي الكعبة.

فالمسلم عند أهل السنة والجماعة لا يكفر بمطلق المعاصي والكبائر.

وتأمل قول المؤلف ـ رحمه الله ـ: «بمطلق المعاصي»، ولم يقل: بالمعاصي والكبائر؛ لأن المعاصي منها ما يكون كفراً، وأما مطلق المعصية؛ فلا يكون كفراً.

والفرق بين الشيء المطلق ومطلق الشيء: أن الشيء المطلق يعني الكمال، ومطلق الشيء؛ يعني: أصل الشيء.

فالمؤمن الفاعل للكبيرة عنده مطلق الإيمان؛ فأصل الإيمان موجود عنده، لكن كماله مفقود.

فكلام المؤلف ـ رحمه الله ـ دقيق جداً.

قوله: «**كما يفعله الخوارج**»؛ يعني: الذين يقولون: إن فاعل الكبيرة كافر، ولهذا خرجوا على المسلمين، واستباحوا دماءهم وأموالهم.

قوله: «**بل الأخوة الإيمانية ثابتة مع المعاصي**»؛ يعني: أن الأخوة بين المؤمنين ثابتة! ولو مع المعصية؛ فالزاني أخ للعفيف، والسارق أخ للمسروق منه، والقاتل أخ للمتقول.

ثم استدل المؤلف ـ رحمه الله ـ لذلك فقال: «كما قال سبحانه في آية القصاص: ﴿**فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ**﴾ [البقرة: ١٧٨]».

آية القصاص هي قوله: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى**﴾ إلى قوله: ﴿**فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ**﴾ الآية، والمراد بـ ﴿**مِنْ أَخِيهِ**﴾ هو المقتول.

ووجه الدلالة من هذه الآية على أن فاعل الكبيرة لا يكفر أن الله سمى المقتول أخاً للقاتل، مع أن قتل المؤمن كبيرة من كبائر الذنوب.

«وقال: ﴿**وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا**

بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ٩، ١٠]».

وهذا دليل آخر لقول أهل السنة: إن فاعل الكبيرة لا يخرج من الإيمان.

﴿اقْتَتَلُوا﴾ جمع، و ﴿بَيْنَهُمَا﴾ مثنى، ﴿طَائِفَتَانِ﴾ مثنى؛ فكيف يكون مثنى وجمع ومثنى آخر والمرجع واحد؟!.

نقول: لأن قوله: ﴿طَائِفَتَانِ﴾: الطائفة عدد كبير من الناس، فيصح أن أقول: اقتتلوا، وشاهد هذا قوله تعالى: ﴿وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ﴾ [النساء: ١٠٢]؛ ولم يقل: لم تصل. فالطائفة أمة وجماعة، ولهذا عاد الضمير إليها جميعًا؛ فيكون الضمير في قوله: ﴿اقْتَتَلُوا﴾ عائد إلى المعنى، وفي قوله: ﴿بَيْنَهُمَا﴾ عائدًا إلى اللفظ.

فهاتان الطائفتان من المؤمنين اقتتلوا، وحمل السلاح بعضهم على بعض، وقتال المؤمن للمؤمن كفر، ومع هذا قال الله تعالى بعد أن أمر بالصلح بينهما للطائفة الثالثة التي لم تدخل القتال: ﴿فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ٩، ١٠]؛ فجعل الله تعالى الطائفة المصلحة إخوة للطائفتين المقتتلتين.

وعلى هذا؛ ففي الآية دليل على أن الكبائر لا تخرج من الإيمان.

وعلى هذا؛ لو مررت بصاحب كبيرة؛ فإني أسلم عليه؛ لأن النبي ﷺ ذكر من حقوق المسلم على المسلم: «إذا لقيته؛ فسلم عليه»[١]، وهذا الرجل ما زال مسلمًا، فأسلم عليه؛ إلا إذا كان في هجره مصلحة؛ فحينئذ أهجره للمصلحة؛ كما جرى لكعب بن مالك وصاحبيه الذين تخلفوا عن غزوة تبوك، فهجرهم المسلمون خمسين ليلة حتى تاب الله عليهم[٢].

وهل نحبه على سبيل الإطلاق أو نكرهه على سبيل الإطلاق؟.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٢٤٠) ومسلم (٢١٦٢) من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه واللفظ لمسلم.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٤١٨) ومسلم (٢٧٦٩) من حديث كعب بن مالك - رضي الله عنه.

نقول: لا هذا ولا هذا؛ نحبه بما معه من الإيمان، ونكرهه بما معه من المعاصي، وهذا هو العدل.

قوله: «ولا يسلبون الفاسق الملي الإسلام بالكلية».

«الفاسق»: هو الخارج عن الطاعة.

والفسق - كما أشرنا إليه سابقًا - ينقسم إلى فسق أكبر مخرج عن الإسلام، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ [السجدة: ٢٠]. وفسق أصغر ليس مخرجًا عن الإسلام؛ كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ﴾ [الحجرات: ٦].

والفاسق الذي لا يخرج من الإسلام هو الفاسق الملي، وهو من فعل كبيرة، أو أصر على صغيرة.

ولهذا قال المؤلف - رحمه الله -: «الملي»؛ يعني: المنتسب إلى الملة الذي لم يخرج منها.

فأهل السنة والجماعة لا يسلبون الفاسق الملي الإسلام بالكلية؛ فلا يمكن أن يقولون: إن هذا ليس بمسلم، لكن يمكن أن يقولوا: إن هذا ناقص الإسلام أو ناقص الإيمان.

قوله: «ولا يخلدونه في النار»: معطوف على قوله: «ولا يسلبون» وعلى هذا يكون قوله: «كما تقول المعتزلة»: عائدًا للأمرين؛ لأن المعتزلة يسلبونه الإسلام ويخلدونه في النار، وإن كانوا لا يطلقون عليه الكفر.

قوله: «بل الفاسق يدخل في اسم الإيمان المطلق»: مراد المؤلف بـ«المطلق» هنا؛ يعني: إذا أطلق الإيمان؛ فالوصف يعود إلى الاسم لا إلى الإيمان؛ كما سيتبين من كلام المؤلف - رحمه الله -؛ فيكون المراد به مطلق الإيمان الشامل للفاسق والعدل.

قوله: «كما في قوله: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء: ٩٢]»؛ فإن المؤمنة هنا يدخل فيه الفاسق.

فلو أن إنسانًا اشترى رقيقًا فاسقًا وأعتقه في كفارة؛ أجزأه؛ مع أن الله قال:

﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾؛ فكلمة ﴿مُّؤْمِنَةٍ﴾ تشمل الفاسق وغيره.

قوله: «وقد لا يدخل في اسم الإيمان المطلق»؛أي: في مطلق اسم الإيمان.

«كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: ٢]».

فـ ﴿إِنَّمَا﴾ أداة حصر؛ يعني: ما المؤمنون إلا هؤلاء، والمراد بالمؤمنين؛ يعني: ذوي الإيمان المطلق الكامل.

فلا يدخل في المؤمنين هنا الفساق؛ لأن الفاسق لو تلوت عليه آيات الله؛ ما زادته إيمانًا، ولو ذكرت الله له؛ لم يَوْجَل قلبه.

فبين المؤلف ـ رحمه الله ـ أن الإيمان قد يراد به مطلق الإيمان، وقد يراد به الإيمان المطلق.

فإذا رأينا رجلا: إذا ذكر الله؛ لم يوجل قلبه، وإذا تليت عليه آياته؛ لم يزدد إيمانًا؛ فيصح أن نقول: إنه مؤمن، ويصح أن نقول: ليس بمؤمن؛ فنقول: مؤمن؛ أي: معه مطلق الإيمان؛ يعني: أصله، وليس بمؤمن؛ أي: ليس معه الإيمان الكامل.

قوله: «وقوله ﷺ لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا ينتهب نهبة ذات شرف يرفع الناس إليه فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن»[١].

هذا مثال ثان للإيمان الذي يراد به الإيمان المطلق؛ أي: الكامل.

قوله ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن»: هنا نفى عنه الإيمان الكامل حين زناه، أما بعد أن يفرغ من الزنى؛ فقد يؤمن؛ فقد يلحقه الخوف من الله بعد أن يتم الزنى فيتوب، لكن حين إقدامه على الزنى لو كان عنده إيمان كامل؛ ما أقدم عليه، بل إيمانه ضعيف جدًا حين أقدم عليه.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٥٨٧) ومسلم (٥٧) من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

وتأمل قـوله: «حين يزني»: احترازًا من أنه قبل الزنى وبعده تختلف حاله؛ لأن الإنسان ما دام لم يفعل الفاحشة، ولو هم بها، فهو على أمل ألا يقدم عليها.

وقوله: «ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن»؛ أي: كامل الإيمان؛ لأن الإيمان يردعه عن سرقته.

وقوله: «ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن»؛ أي: كامل الإيمان.

«ولا ينتهب نهبة ذات شرف يرفع الناس إليه فيها أبصارهم»: «ذات شرف»؛ ذات قيمة عند الناس، ولهذا يرفعون إليه أبصارهم؛ فلا ينتهبها حين ينتهبها وهو مؤمن؛ أي: كامل الإيمان.

هذه أربعة أشياء: الزنى (وهو الجماع في فرج حرام)، والسرقة (وهي أخذ المال المحترم على وجه الخفية من حرز مثله)، وشرب الخمر (والمراد تناوله بأكل أو شرب، والخمر كل ما أسكر على وجه اللذة والطرب)، والنهبة التي لها شرف وقيمة عند الناس (قيل: الانتهاب: أخذ المال على وجه الغنيمة)؛ لا يفعل هذه الأشياء الأربعة أحد وهو مؤمن بالله حين فعله لها.

فالمراد بنفي الإيمان هنا: نفي تمام الإيمان.

قول المؤلف ـ رحمه الله ـ: «ونقول: هو مؤمن ناقص الإيمان أو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته؛ فلا يعطى الاسم المطلق، ولا يسلب مطلق الاسم»
هذا بيان للوصف الذي يستحقه الفاسق الملي عند أهل السنة والجماعة.

والفرق بين مطلق الشيء والشيء المطلق: أن الشيء المطلق هو الشيء الكامل، ومطلق الشيء؛ يعني: أصل الشيء، وإن كان ناقصًا.

فالفاسق الملِّي لا يعطى الاسم المطلق في الإيمان، وهو الاسم الكامل، ولا يسلب مطلق الاسم؛ فلا نقول: ليس بمؤمن، بل نقول: مؤمن ناقص الإيمان، أو: مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته.

هذا هو مذهب أهل السنة والجماعة، وهو المذهب العدل الوسط.

وخالفهم في ذلك طوائف:

ـ المرجئة؛ يقولون: مؤمن كامل الإيمان.

ـ والخوارج؛ يقولون: كافر.

ـ والمعتزلة؛ يقولون: في منزلة بين منزلتين.

● قال الشيخ صالح الفوزان:

قوله: «ومن أصول أهل السنة والجماعة»: أي: القواعد التي بنيت عليها عقيدتهم (أن الدين) هو لغة: الذل والانقياد. وشرعًا: هو ما أمر الله به (والإيمان) لغة: التصديق، وشرعًا: هو ما ذكره الشيخ بقوله: «قول وعمل: قول القلب: اللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح»: هذا هو تعريف الإيمان عند أهل السنة والجماعة: أنه قول وعمل، فالقول قسمان: قول القلب: وهو الاعتقاد، وقول اللسان: وهو التكلم بكلمة الإسلام. والعمل قسمان: عمل القلب: وهو نية وإخلاص، وعمل الجوارح، أي: الأعضاء؛ كالصلاة والحج والجهاد.

والفرق بين أقوال القلب وأعماله:

أن أقواله هي العقائد التي يعترف بها ويعتقدها. وأما أعمال القلب فهي حركته التي يحبها الله ورسوله، وهي محبة الخير وإرادته الجازمة، وكراهية الشر والعزم على تركه. وأعمال القلب تنشأ عنها أعمال الجوارح وأقوال اللسان. ومن ثم صارت أقوال اللسان وأعمال الجوارح من الإيمان.

أقوال الناس في تعريف الإيمان:

١ ـ عند أهل السنة والجماعة: أنه اعتقاد بالقلب والنطق باللسان وعمل بالأركان.

٢ ـ عند المرجئة: أنه اعتقاد بالقلب ونطق باللسان فقط.

٣ ـ عند الكرامية: أنه نطق باللسان فقط.

٤ ـ عند الجبرية: أنه الاعتراف بالقلب أو مجرد المعرفة في القلب.

٥ ـ عند المعتزلة: أنه اعتقاد القلب ونطق اللسان وعمل الجوارح.

والفرق بينهم، أي: المعتزلة وبين أهل السنة: أن مرتكب الكبيرة يسلب اسم الإيمان بالكلية ويخلد في النار عندهم، وعند أهل السنة لا يسلب الإيمان بالكلية، بل هو مؤمن ناقص الإيمان ولا يخلد في النار إذا دخلها.

وكل هذه أقوال باطلة والحق ما قاله أهل السنة والجماعة؛ لأدلة كثيرة.

وقوله: «وأن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية»: أي: ومن أصول أهل السنة والجماعة أن الإيمان يتفاضل بالزيادة والنقصان فتزيده الطاعة وينقص بالمعصية ويدل على ذلك أدلة كثيرة منها: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: ٢]، وقوله تعالى: ﴿لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ﴾ [الفتح: ٤]، وغير ذلك من الأدلة.

وقوله: «وهم مع ذلك لا يكفرون أهل القبلة بمطلق المعاصي والكبائر كما يفعله الخوارج»: أي: وأهل السنة والجماعة مع أنهم يرون أن الأعمال داخلة في مسمى الإيمان وأنه يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية هم مع ذلك لا يحكمون بالكفر على من يدعي الإسلام ويستقبل الكعبة بمطلق ارتكابه المعاصي التي هي دون الشرك والكفر (كما يفعله الخوارج) حيث قالوا: من فعل كبيرة فهو في الدنيا كافر، وفي الآخرة مخلد في النار لا يخرج منها.

فأهل السنة يرون (أن الأخوة الإيمانية ثابتة مع المعاصي)، فالعاصي أخ لنا في الإيمان، واستدل الشيخ على ذلك بقوله تعالى في آية القصاص: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ﴾ المعنى: أن الجاني إذا عفا عنه المجني عليه أو وليه عن القصاص ورضي بأخذ المال في الدية ـ فعلى مستحق المال أن يطلبه بالمعروف من غير عنف، وعلى من عليه المال أن يؤديه إليه من غير مماطلة.

ووجه الاستدلال من الآية: أنه سمى القاتل أخًا للمقتول مع أن القتل كبيرة من كبائر الذنوب ومع هذا لم تزل معه الأخوة الإيمانية.

واستدل الشيخ أيضًا بقوله تعالى: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا...﴾ الآيتين، ووجه الاستدلال من الآيتين الكريمتين أنه سماهم مؤمنين مع وجود الاقتتال والبغي بينهم، وسماهم إخوة للمؤمنين بقوله: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَ

أَخَوَيْكُمْ﴾ .

ومعنى الآية إجمالاً: أنه إذا تقاتل فريقان من المسلمين فعلى المسلمين أن يسعوا في الصلح بينهم ويدعوهم إلى حكم الله ، فإن حصل بعد ذلك التعدي من إحدى الطائفتين على الأخرى ولم تقبل الصلح كان على المسلمين أن يقاتلوا هذه الطائفة الباغية حتى ترجع إلى أمر الله وحكمه ، فإن رجعت تلك الطائفة عن بغيها وأجابت الدعوة إلى كتاب الله وحكمه ، فعلى المسلمين أن يعدلوا بين الطائفتين في الحكم ويتحروا الصواب المطابق لحكم الله ويأخذوا على يد الطائفة الظالمة حتى تخرج من الظلم وتؤدي ما يجب عليها للأخرى .

ثم أمر الله سبحانه المسلمين أن يعدلوا في كل أمورهم بعد أمرهم بهذا العدل الخاص بالطائفتين المقتتلتين ، فقال : ﴿ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ أي : اعدلوا إن الله يحب العادلين ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ جملة مستأنفة مقررة لما قبلها من الأمر بالإصلاح .

والمعنى : أنهم يرجعون إلى أمر واحد هو الإيمان فهم إخوة في الدين ، ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ يعني : كل مسلمين تخاصما وتقاتلا ، وتخصيص الاثنين بالذكر لإثبات وجوب الإصلاح فيما فوقهما بطريق الأولى ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في كل أموركم ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ بسبب التقوى .

وقوله: (ولا يسلبون الفاسق المِلِّيَّ الإسلام بالكلية ولا يخلدونه في النار كما تقوله المعتزلة) أي : ومن أصول أهل السنة والجماعة أنهم (لا يسلبون) أي : لا ينفون عن (الفاسق) الفسق : هو الخروج عن طاعة الله ، والمراد بالفاسق هنا : الذي يرتكب بعض الكبائر ؛ كشرب الخمر والزنا والسرقة مع اعتقاد حرمة ذلك (المِلِّيَّ) أي : الذي على ملة الإسلام ولم يرتكب من الذنوب ما يوجب كفره ، فأهل السنة والجماعة لا يسلبونه الإسلام بالكلية فيحكمون عليه بالكفر ، كما تقوله الخوارج في الدنيا

(ولا يخلدونه في النار) أي : يحكمون عليه بالخلود في النار في الآخرة وعدم خروجه منها إذا دخلها **(كما تقوله المعتزلة)** والخوارج ، فالمعتزلة يرون أن الفاسق لا يسمى مسلمًا ولا كافرًا ، بل هو عندهم بالمنزلة بين المنزلتين ، هذا حكمه عندهم في

الدنيا، وأما حكمه عندهم في الآخرة فهو مخلد في النار، والأدلة على بطلان هذا المذهب كثيرة، وقد مر بعضها، وسيأتي ذكر بقيتها.

ثم بين الشيخ رحمه الله الحكم الصحيح الذي ينطبق على الفاسق المِلِّيّ مؤيدًا بأدلته من الكتاب والسنة فقال:

«**بل الفاسق يدخل في اسم الإيمان المطلق**»: أي: مطلق الإيمان الذي يدخل فيه الإيمان الكامل والإيمان الناقص كما في قوله: ﴿**فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ**﴾ فإن من أعتق رقبة مؤمنة وإن كان المعتَق فاسقًا فيما يشترط فيه إيمان الرقبة المعتقة ـ ككفارة الظهار والقتل ـ أجزأه ذلك العتق باتفاق العلماء؛ لأن ذلك يدخل في عموم الآية وإن لم يكن المعتَق من أهل الإيمان الكامل.

وقوله: «**وقد لا يدخل**»: أي: الفاسق المِلِّيّ (**في اسم الإيمان المطلق**) أي: إذا أريد الإيمان الكامل كما في قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ**﴾ الآية؛ لأن المراد بالإيمان المذكور في الآية الكريمة الإيمان الكامل فلا يدخل فيه الفاسق؛ لأن إيمانه ناقص. ولنرجع إلى تفسير الآية الكريمة: ﴿**إِنَّمَا**﴾ أداة حصر تثبت الحكم للمذكور وتنفيه عما سواه ﴿**الْمُؤْمِنُونَ**﴾ أي: الإيمان الكامل ﴿**إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ**﴾ أي: ذكرت عظمته وقدرته وما خوف به من عصاه ﴿**وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ**﴾ أي: خافت ﴿**وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ**﴾ أي: قُرئت آياته المنزلة أو ذكرت آياته الكونية ﴿**زَادَتْهُمْ إِيمَانًا**﴾ أي: زاد إيمانهم بسبب ذلك ﴿**وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**﴾ أي: يفوضون جميع أمورهم إليه لا إلى غيره.

ثم ذكر الشيخ دليلاً من السنة على أن الفاسق المِلِّيّ لا يدخل في اسم الإيمان الكامل، وهو قوله ﷺ: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن...**»[1] إلخ أي: كامل الإيمان فالمنافي هنا عن الزاني والسارق والشارب هو كمال الإيمان لا جميع الإيمان، بدليل الإجماع على توريث الزاني والسارق وشارب الخمر. فقد دل الحديث على أن هؤلاء حين فعلهم المعصية قد انتفى الإيمان الكامل عنهم، وقد دلت النصوص

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٢٤٧٥) ومسلم (٥٧).

الكثيرة من الكتاب والسنة على أنهم غير مرتدين بذلك، فعلم أن الإيمان المنفي في هذا الحديث إنما هو كمال الإيمان الواجب.

وقوله: «ولا ينتهب نُهبة ذات شرف...» إلخ: النهبة: بضم النون هي الشيء المنهوب، والنهب: أخذ المال بالغلبة والقهر «ذات شرف» أي: قدر، وقيل: ذات استشراف يستشرف الناس إليها ناظرين إليها رافعين أبصارهم.

ثم إن الشيخ رحمه الله ذكر النتيجة للبحث السابق واستخلص الحكم بقوله في حق الفاسق الملي:

«ونقول: هو مؤمن ناقص الإيمان، أو مؤمن بإيمانه، فاسق بكبيرته»: وهذا هو الحكم العادل؛ جمعًا بين النصوص التي نفت الإيمان عنه كحديث: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن» والنصوص التي أثبتت الإيمان له، وآية القصاص وآية حكم البغاة السابقتين، وبناء على ذلك «فلا يعطى الاسم المطلق» أي: اسم الإيمان الكامل «ولا يسلب مطلق الاسم» أي: الإيمان الناقص. فيحكم عليه بالخروج من الإيمان، كما تقوله المعتزلة والخوارج. والله أعلم، فالإيمان المطلق: هو الإيمان الكامل، ومطلق الإيمان: هو الإيمان الناقص.



[أسئلة وأجوبة نموذجية على من أصول أهل السنة أن الدين والإيمان قولٌ وعملٌ]

● قال الشيخ عبد العزيز المحمد السلمان:

س - عرف الإيمان والدين عند أهل السنة والجماعة؟

ج - قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح، وأنه يزيد وينقص، تزيده الطاعة وتنقصه المعصية قال بعضهم:

وقل إنما الإيمان قول ونية ... وفعل على قول النبي مصرح

وينقص طوراً بالمعاصي وتارة ... بطاعته ينمى وفي الوزن يرجح

س - ما هو قول القلب وما دليله؟

ج - قول القلب يكون بتصديقه وإيقانه، قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾، ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ وقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ وقال: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ الآية.

س - ما هو قول اللسان وما دليله؟

ج - هو النطق بالشهادتين: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، والإقرار بلوازمها، قال تعالى: ﴿إِلاَّ مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾.

وقال ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله»، وقال لسفيان بن عبد الله: «قل آمنت بالله ثم استقم».

س - ما هو عمل القلب وما دليله؟

ج - النية والإخلاص والمحبة والانقياد والإقبال على الله والتوكل عليه والإنابة ولوازم ذلك وتوابعه، قال تعالى: ﴿وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ

وَجْهَهُ﴾، وقال ﴿وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾، ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ﴾، وقال ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى».

س ـ ما هو عمل اللسان وما دليله؟

ج ـ عمل اللسان ما لا يؤدىٰ إلا به، كتلاوة القرآن وسائر الأذكار من التسبيح والتكبير والتهليل والدعاء والاستغفار وغير ذلك، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ﴾، وقال: ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾.

﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾، ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾ وهي: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وقال ﷺ: «لا صلاة لمن لم يقرأ بأم القرآن».

س ـ ما المراد بعمل الجوارح وما دليله؟

ج ـ ما لا يؤدىٰ إلا بها كالقيام والركوع والسجود والمشي في مرضاة الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والحج والجهاد في سبيل الله، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾، ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الآية.

وقال ﷺ: «من رأى منكراً فليغيره بيده» الحديث. وقال: «الإيمان بضع وسبعون شعبة فأعلاها شهادة أن لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق».

س ـ ما الدليل على أن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية؟

ج ـ قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾، ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾، ﴿لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ﴾، وحديث: «الإيمان بضع وسبعون شعبة» فأعلاها

قول: لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذىٰ عن الطريق، وحديث: «يخرج من النار من قال: **لا إله إلا الله وفي قلبه مثقال برة أو خردلة أو ذرة من إيمان**».

وقال مالك بن دينار: الإيمان يبدو في القلب ضعيفًا ضئيلاً كالبقلة فإن صاحبه تعاهده فسقاه بالعلوم النافعة والأعمال الصالحة وأماط عنه الدَّغَل وما يضعفه ويوهنه أوشك أن ينمو ويزداد ويصير له أصل وفرع وثمرة وظل إلىٰ ما لا يتناهىٰ حتىٰ يصير أمثال الجبال.

وإن أهمله صاحبه ولم يتعاهده جاءه عنز فنتفتها أو صبي فذهب بها أو كثر عليها الدغل فأضعفها أو أهلكها أو أيبسها كذلك الإيمان.

وقال خيثمة بن عبد الرحمن: الإيمان يسمن في الخصب ويهزل في الجدب فخصبه العمل الصالح وجدبه الذنوب والمعاصي.

وقيل لبعض السلف يزداد الإيمان وينقص قال: نعم يزداد حتىٰ يصير أمثال الجبال وينقص حتىٰ يصير أمثال الهباء وصح عن عمار بن ياسر أنه قال: ثلاث من كن فيه فقد استكمل الإيمان: الإنصاف من نفسه والإنفاق من الاقتار وبذل السلام للعالم. ذكره البخاري تعليقًا.

قال ابن القيم: الإيمان له ظاهر وباطن؛ فظاهره قول اللسان وعمل الجوارح، وباطنه تصديق القلب وانقياده ومحبته فلا ينفع ظاهر لا باطن له، ولا يجزئ باطن لا ظاهر له إلا إذا تعذر بعجز أو إكراه أو خوف أو هلاك فتخلف العمل ظاهراً مع عدم المانع دليل علىٰ فساد الباطن وخلوه من الإيمان، ونقصه دليل نقصه، وقوته دليل قوته.

فالإيمان قلب الإسلام ولبه، واليقين قلب الإيمان ولبه، وكل علم وعمل لا يزيد الإيمان واليقين فمدخول وكل إيمان لا يبعث علىٰ العمل فمدخول. اهـ.

س ـ كم مراتب المؤمنين، واذكر الدليل على ما تقول؟

ج ـ ثلاث مراتب:

القسم الأول: ظالمون لأنفسهم وهم الذين خلطوا عملاً صالحًا وآخر سيئًا.

القسم الثاني: المقتصدون وهم الذين اقتصروا على الواجبات واجتناب المحرمات فلم يزيدوا على ذلك ولم ينقصوا منه.

والقسم الثالث: السابقون بالخيرات وهم الذين تقربوا إلى الله بالواجبات والمستحبات وتركوا المحرمات والمكروهات.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾.

س ـ من هم أهل القبلة؟

ج ـ كل من يدعي الإسلام ويستقبل القبلة لقوله ﷺ: «من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا فهو المسلم له ما لنا وعليه ما علينا».

س ـ من هو العاصي وهل يخرج من الإيمان بعصيانه أم لا؟

ج ـ كل من ارتكب كبيرة أو أصر على صغيرة يسمى فاسقًا وعاصيًا وهو كسائر المؤمنين لا يخرج من الإيمان بمعصية وحكمه في الدنيا أنه لا يسلب عنه إيمان بالكلية بل يقال: مؤمن ناقص الإيمان، أو يقال: مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته، أو يقال: مؤمن عاص ونحو ذلك.

قال السفاريني ـ رحمه الله ـ:

ويفسق المذنب بالكبيرة ... كذا إذا أصر بالصغيرة

لا يخرج المرء من الإيمان ... بموبقات الذنب والعصيان

س ـ ما هي الكبيرة؟

ج ـ هي كل ما فيه حد في الدنيا أو وعيد في الآخرة أو ترتب عليه لعنة أو غضب أو نفي إيمان.

قال ناظم الكبائر:

فما فيه حد في الدنا أو توعد ... بأخرى فسم كبرى على نص أحمد

وزاد حفيد المجد أوجا وعيده ... بنفي لإيمان وطرد لمبعد

س ـ بماذا استدل أهل السنة والجماعة على ما تقدم من أن العاصي لا يخرج من الإيمان بمعصيته؟ ووضح معنى قوله تعالى: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾ الآيتين، وبيِّن ما يؤخذ منها.

ج ـ بقوله تعالى: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ﴾ وقوله: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ الآيتان.

الآية الثانية: وهي قوله: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾ الآية. الطائفة: الجماعة أقل من الفرقة بدليل قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ وقوله: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ أي: فكفُّوهما عن القتال بالدعاء إلىٰ كتاب الله والرضا به وبما فيه.

وقوله: ﴿فَإِن بَغَتْ﴾ أي: فإن اعتدت وجارت. تفيء: ترجع إلىٰ أمر الله وتسمع للحق وتطيعه ﴿فَإِن فَاءَتْ﴾ أي: رجعت إلىٰ الحق ﴿وأقسطوا..﴾ إلخ: أي: اعدلوا في كل ما تأتون وما تذرون إن الله يحب العادلين في جميع أعمالهم وفي أهليهم وهؤلاء يجازيهم أحسن الجزاء.

المعنى: يقول تعالىٰ آمرًا عباده بالإصلاح وأنه إذا اقتتلت طائفتان من المؤمنين فإن علىٰ غيرهم من المؤمنين أن يتلافوا هذا الشر الكبير بالإصلاح بينهم، والتوسط ووجه الدلالة من الآية أن الله جل وعلا سماهم مؤمنين مع وجود الاقتتال وبهذا استدل البخاري وغيره علىٰ أنه لا يخرج من الإيمان بالمعصية.

ففي الآية:

١ ـ الحث علىٰ الإصلاح بين الناس.

٢ ـ النهي عن الاقتتال.

٣ ـ إثبات الألوهية.

٤ ـ التثبت في خبر الواحد.

٥ ـ الحث علىٰ العدل.

٦ ـ إثبات صفة المحبة.

٧ـ النهي عن الظلم والحيف في الصلح وغيره .

٨ـ علىٰ الإنسان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه .

٩ـ الرجوع إلىٰ كتاب الله .

١٠ ـ النهي عن البغي والتطاول والفساد .

١١ ـ وجوب قتال الفئة الباغية .

١٢ ـ الرد علىٰ من منع من قتال البغاة من المؤمنين محتجًّا بقوله ﷺ «قتال المؤمن كفر»، ولو كان قتال الباغي كفرًا لكان الله قد أمر بالكفر تعالىٰ الله عن ذلك علوًّا كبيرًا .

١٣ ـ أن الأخوة الدينية أثبت من أخوة النسب لانقطاع أخوة النسب بمخالفة الدين .

١٤ ـ الحث علىٰ ما به يحصل التآلف والتوادد والتواصل .

١٥ ـ النهي عن التفرق والاختلاف .

١٦ ـ الحث علىٰ التقوىٰ .

١٧ ـ أن عدم القيام بحقوق المؤمنين من حواجب الرحمة .

١٨ ـ أن ذلك سبب للرحمة وهو فعل ما أمر الله به مما تقدم .

١٩ ـ أن المعاصي دون الكفر والشرك لا يخرج بها الإنسان من الإيمان .

٢٠ ـ إثبات البعث وإثبات الحشر والحساب والجنة والنار .

٢١ ـ دليل علىٰ محاسن الإسلام وسماحة الدين الداعي إلىٰ التآلف والتصالح .

٢٢ ـ إثبات صفة الكلام لله .

٢٣ ـ الرد علىٰ من أنكر صفة الحكمة كالجهميَّة .

٢٤ ـ الرد علىٰ من قال : إن كلام الله هو الكلام النفسي كالكلابية .

٢٥ ـ عناية الله بخلقه ولطفه بهم حيث حثَّهم إلىٰ ما فيه إصلاحهم وصلاحهم وفلاحهم .

٢٦ ـ إثبات علم الله بكل شيء .

٢٧ ـ الرد على من أنكر صفة العلم كالجهمية والقدرية .

٢٨ ـ أن في الآية الكريمة قاعدة تشريعية عملية لصيانة المجتمع المؤمن من التفكك والتفرق .

٢٩ ـ إقرار الحق والعدل والصلاح .

٣٠ ـ أن التكليف الموجه بالإصلاح لغير الطائفتين المتقاتلتين أن يقوموا بالإصلاح بين المتقاتلين .

٣١ ـ أن الطائفتين إذا رفضتا الصلح يقاتلان ؛ لأنه يصدق على كلٍّ أنه باغي .

٣٢ ـ أنه إذا رفضا حكم الله في المسائل المتنازع فيها فعلى المؤمنين أن يقاتلوا .

٣٣ ـ أن القتال يستمر حتى يرجعوا إلى أمر الله .

٣٤ ـ أن أمر الله هو وضع الخصومة بين المؤمنين وقبول حكم الله فيما اختلفوا فيه وأدى إلى الخصام والقتال .

٣٥ ـ أنه إذا تم قبول البغاة لحكم الله قام المؤمنون بالإصلاح القائم على العدل الدقيق طاعة لله وطلبًا لرضاه .

٣٦ ـ في الآية إخبار عن ما لم يقع قبل وقوعه وقد وقع وهو التقاتل بين الطوائف المؤمنة .

٣٧ ـ أن الله لا يأمر إلا بما فيه الصلاح .

٣٨ ـ الرد على الذين إذا فعلوا فاحشةً قالوا : إن الله أمرنا بها .

٣٩ ـ أنه يجب على المصلح أن لا يراعي أحدهما لقرابة أو وطن أو غير ذلك من المقاصد والأغراض التي توجب العدول عن العدل .

٤٠ ـ أن الصلح قد يوجد ولكن لا يكون بالعدل ولهذا قال : فأصلحوا بينهما بالعدل .

وأما قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ . الآية .

كان سبب نزول هذه السورة الكريمة قصة حاطب ابن أبي بلتعة . وقال ﷺ : «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر» ، وقال : «لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب

بعض» ولأنه صلى الله عليه وسلم عامل العصاة معاملة المسلمين ولم يأمر بقتلهم ولا أوجب ذلك إلا على الثيِّب الزاني والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة كما في الحديث: «**لا يحل دم امرئٍ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله**» إلا بإحدى ثلاث وعدَّ منها: «**الثيب الزاني**» وكذا من بدل دينه يقتل، لحديث: «**من بدل دينه فاقتلوه**».

س ـ ما الفرق بين الإيمان المطلق ومطلق الإيمان؟

ج ـ الإيمان المطلق: هو الذي لا يتقيد بمعصية ولا فسوق ولا نقصان ونحو ذلك، ويقال: الإيمان الكامل وهو الإتيان بالواجبات وترك المحرمات.

وأما مطلق الإيمان: فهو ما كان معه ترك واجب أو فعل محرم، فمن حصل منه فعل معصية: قتل أو زنا أو لواط أو شرب خمر وهو موحد فلا يسمى باسم الإيمان المطلق ولا يستحق أن يوصف به على الإطلاق.

لما في قوله ﷺ: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا ينتهب نهبة ذات شرف يرفع الناس إليه فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن**».

فدل الحديث على أن الزاني والسارق وشارب الخمر حين فعلهم المعصية قد انتفى الإيمان عنهم، وقد دلت النصوص الكثيرة من الكتاب على أنهم غير مرتدين بذلك فعلم أن الإيمان المنفي في هذا الحديث وغيره إنما هو كمال الإيمان الواجب.

ففي هذا الحديث: رد على المرجئة والجهمية ومن تبعهم من الكرامية والأشعرية الذين يقولون: إن مرتكب الكبيرة مؤمن كامل الإيمان، ويزعمون أن الإيمان لا يتفاضل وهو إما أن يزول بالكلية أو يبقى كاملاً، وقولهم ظاهر البطلان.

وفي الحديث أولاً: النهي عن الزنا.

ثانيًا: النهي عن السرقة.

ثالثًا: النهي عن نهب أموال الناس.

رابعًا: الحث على التخلق بالأخلاق الجميلة.

خامسًا: النهي عن شرب الخمر.

سادسًا: فيه دليل على أن المعاصي بعضها أعظم من بعض.

سابعًا: عظم فاحشة الزنا لأنه ﷺ بدأ به.

س ـ من المؤمن المطلق الممدوح وما الذي يتناوله الإيمان إذا أطلق؟

ج ـ هو الذي إيمانه يمنعه من دخول النار وهو الذي أدى الواجبات وترك المحرمات وأما من أطلق عليه اسم الإيمان ودخل في الأمر والنهي وفي ذم الشارع له على بعض الأفعال أو التروك فهذا الذي معه أصل الإيمان ولكنه يتجرأ على بعض المحرمات ويترك بعض الواجبات فهذا إيمانه يمنعه من الخلود في النار.

وقال: والإيمان إذا أطلق في كلام الله ورسوله يتناول فعل الواجبات وترك المحرمات ومن نفى الله ورسوله عنه الإيمان فلابد أن يكون ترك واجبًا أو فعل محرمًا فلا يدخل في الاسم الذي يستحق أهله الوعد دون الوعيد بل يكون من أهل الوعيد. اهـ. من كلام الشيخ رحمه الله.

❊ ❊ ❊

[من أصول أهل السنة
سلامة قلوبهم وألسنتهم لأصحاب رسول الله ﷺ]

وَمنْ أُصُول أهلِ السُّنة والجماعة:

سَلاَمَةُ قُلُوبِهم وَأَلسِنَتِهم لأَصْحَابِ رسول الله ﷺ.

كما وصفهمُ اللَّهُ به في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

وَطَاعةُ النَّبي ﷺ في قوله: «لا تَسبُّوا أَصْحَابي؛ فَوَالَّذي نَفْسي بِيَدِه؛ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُم أَنْفَقَ مِثْل أُحُد ذَهبًا؛ مَا بَلَغ مُدَّ أَحَدِهم وَلاَ نَصيفَهُ».

ويقبلونَ مَا جَاء به الكتابُ أو السُّنةُ أو الإجْمَاع، من فَضَائِلهم ومرَاتبهم.

وَيُفَضِّلُونَ مَنْ أَنْفَقَ من قَبْلِ الفَتْحِ ـ وهو صُلْحُ الحُدَيْبِية ـ وَقَاتَلَ عَلَى مَنْ أَنْفَقَ من بَعْدُ وَقَاتَلَ.

وَيُقَدِّمُونَ المُهَاجِرِينَ عَلَى الأَنْصَار.

ويُؤْمِنُون بأَنَّ اللَّهَ قَالَ لأَهلِ بَدْر ـ وكانوا ثَلاثمائة وبضعة عشر: «اعْمَلوا مَا شئْتُم؛ فَقَد غَفَرْتُ لكُم». وبأَنَّه لا يَدْخُلُ النَّار أَحَدٌ بَايَعَ تَحْت الشَّجرة؛ كما أَخْبَرَ به النَّبيُّ ﷺ، بَل لَقَد رَضِي الله عنهم وَرَضُوا عَنه وكَانوا أكثرَ منْ أَلفٍ وَأَرْبعمائة.

• الشَّرح •

● قال العلامة ناصر السعدي:

وهذا الدُّعاء الصَّادر ممن اتبع المهاجرين والأنصار بإحسان يَدُلُّ علىٰ كمال مَحَبَّتهم لأَصحَاب رَسُول اللَّه وثنائهم عليهم، لأنَّ من دعا في أمرٍ من الأمور فهو سَاعٍ في تحقيقه، مجْتهد في تكميله، مُتَضَرِّع لِربِّه أن يتم ذلك له وأولىٰ من دخل في هذا الدُّعاء الصَّحابة الذين سبقوا إلىٰ الإيمان وحَقَّقُوه وحَصل لهم من براهينه وطُرُقه ما لم يَحْصُل لغيرهم.

ونفي الغلّ من جميع الوُجوه يقتضي تمام المحبة لهم فهم يُحِبُّون الصحابة؛ لِفَضْلهم وَسبْقهم واخْتصَاصهم بالرَّسول، ولإحسانهم إلىٰ جميع الأمة؛ لأنهم هم المُبَلِّغون لهم جميع ما جاء به نبيهم، فما وَصَلَ لأحد علم ولا خير إلا علىٰ أيديهم وبواسطتهم.

فعلىٰ الأمة أن يُطيعوا النَّبي ﷺ في كل أمْرٍ وخُصُوصًا في هذا الأمر الخاص وأن يُوَقِّروا أصْحَابه ويحترموهم، ويعتقدوا أن العمل القليل منهم يفضل العمل الكثير من غيرهم كما في هذا الحديث. وهذا من أعظم براهين فَضْلهم علىٰ غيرهم.

فقد ذكر اللَّه ورسوله للصَّحابة فضائل كثيرة علىٰ الأمة، علىٰ الأمَّة الإيمان بها وأن يدينوا الله بها ويحبوا الصَّحابة لأجلها وقيل لِصُلح الحديبية: فَتْحٌ، لما ترتب عليه من المَصَالح والخير الكثير ودخول الكثير في الإسلام، ولهذا كان من أسلم قبل ذلك وأنفق وقاتل أفضل ممن فَعَلَ ذلك بعده لما حَصَلَ لهم من السَّبْق في الإسلام وقت ضعف المسلمين وكثرة الأعداء ووجُود الموانع الكثيرة والمصاعب الكثيرة في طريق الإسلام.

قال المُصَنِّف: «**ويقدمون المهاجرين على الأنصار**» وهذا لأَنَّ المهاجرين جَمعوا الوَصْفَين: النُّصرة والهجرة، ولهذا كان الخلفاء الراشدون وبقية العشرة من المهاجرين، وقد قدم اللَّه المهاجرين علىٰ الأنصار في سورة «التوبة» و«الحشر».

وهذا التَّفضيل للجملة علىٰ الجملة لا لكل فرد من هؤلاء علىٰ كل فرد من الأخرىٰ.

«ويؤمنون بأنَّ الله قال لأهلِ بدرٍ وكانوا ثلاثمائة وبضعة عشر: «اعملوا ما شئتم فقد غفرتَ لكم»... إلخ:

أي: في قوله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ وكان عددهم يَتَرَاوح ما بين ألف أو أربعمائة أو خمسمائة فأهل بدر وأهل بيعة الرضوان يَشْهد لهم بالجنة والنَّجاة من النار علىٰ وجه أخص من الشَّهادة بذلك لجميع الصحابة في قوله: ﴿وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ كما أنه أخص من هؤلاء الأشخاص الذين شهد لهم ﷺ بالجنة.

● قال الشيخ محمد خليل هراس:

يقول المؤلف: إن من أصول أهل السنة والجماعة التي فارقوا بها من عداهم من أهل الزيغ والضلال أنهم لا يزرون بأحد من أصحاب رسول الله ولا يطعنون عليه ولا يحملون له حقداً ولا بغضًا لا احتقاراً، فقلوبهم وألسنتهم من ذلك كله براء ولا يقولون فيهم إلا ما حكاه الله عنهم بقوله: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ الآية.

فهذا الدعاء الصادر ممن جاء بعدهم ممن اتبعوهم بإحسان يدل علىٰ كمال محبتهم لأصحاب رسول الله وثنائهم عليهم وهم أهل لذلك الحب والتكريم لفضلهم وسبقهم وعظيم سابقتهم واختصاصهم بالرسول ﷺ ولإحسانهم إلىٰ جميع الأمة لأنهم هم المبلغون لهم جميع ما جاء به نبيهم فما وصل لأحد علم ولا خبر إلا بواسطتهم وهم يوقرونهم أيضًا طاعة للنبي ﷺ حيث نهىٰ عن سبهم والغض منهم، وبين أن العمل القليل من أحد من أصحابه يفضل العمل الكثير من غيرهم وذلك لكمال إخلاصهم وصادق إيمانهم.

وأما قوله: «ويفضلون من أنفق من قبل ـ وهو صلح الحديبية ـ وقاتل على من أنفق من بعد وقاتل» فلورود النص القرآني بذلك، قال تعالىٰ في سورة الحديد: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ وأما تفسير الفتح بصلح الحديبية فذلك هو المشهور، وقد صح أن سورة الفتح نزلت عقيبه. وسمي هذا الصلح فتحًا لما ترتب عليه من نتائج بعيدة

المدىٰ في عزة الإسلام وقوته وانتشاره ودخول الناس فيه.

وأما قوله: «**ويقدمون المهاجرين على الأنصار**»: فلأن المهاجرين جمعوا الوصفين النصرة والهجرة، ولهذا كان الخلفاء الراشدون وبقية العشرة من المهاجرين، وقد جاء القرآن بتقديم المهاجرين علىٰ الأنصار في سورة التوبة والحشر، وهذا التفضيل إنما هو للجملة علىٰ الجملة فلا ينافي أن في الأنصار من هو أفضل من بعض المهاجرين.

وقد روي عن أبي بكر أنه قال في خطبته يوم السقيفة: (نحن المهاجرون وأول الناس إسلامًا أسلمنا قبلكم وقدمنا في القرآن عليكم فنحن الأمراء وأنتم الوزراء).

وأما قوله: «**ويؤمنون بأن الله قال لأهل بدر إلخ**»: فقد ورد أن عمر رضي الله عنه لما أراد قتل حاطب ابن أبي بلتعة وكان قد شهد بدرًا لكتابته كتابًا إلىٰ قريش يخبرهم فيه بمسير الرسول ﷺ فقال له الرسول: «**وما يدريك يا عمر لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**».

وأما قوله: «**وبأنه لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة إلخ**»: فلإخباره ﷺ بذلك، ولقوله تعالىٰ: ﴿**لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ**﴾ الآية. فهذا الرضا مانع من إرادة تعذيبهم ومستلزم لإكرامهم ومثوبتهم.

● قال الشيخ عبد العزيز باز:

خلاصة مذهب أهل السنة والجماعة في أصحاب رسول الله ﷺ وعما شجر بينهم: هو سلامة قلوبهم وألسنتهم، ومحبتهم إياهم، والترضي عنهم جميعًا، وإظهار محاسنهم وإخفاء مساوئهم، أي إخفاء من نسب إليه شيء من ذلك، والإمساك عما شجر بينهم واعتقاد أنهم في ذلك بين أمرين: إما مجتهدون مصيبون، وإما مجتهدون مخطئون فالمصيب له أجران والمخطئ له أجر الاجتهاد وخطؤه مغفور.

وإذا قدر أن لبعضهم سيئات وقعت عن غير اجتهاد؛ فلهم من الحسنات ما يغمرها

ويمحوها، وليس في بيان خطأ من أخطأ منهم في حكم من الأحكام شيء من إظهار المساوئ بل ذلك يفرضه الواجب ويوجبه النصح للأمة .

● **قال الشيخ ابن عثيمين:**

قوله: «ومن أصول أهل السنة والجماعة»؛ أي: من أسس عقيدتهم .

قوله: «سلامة قلوبهم وألسنتهم لأصحاب رسول الله ﷺ»: ولم يقل: وأفعالهم؛ لأن الأفعال متعذرة بعد موت الصحابة، حتى لو فرض أن أحدًا نبش قبورهم وأخرج جثثهم؛ فإن ذلك لا يؤذيهم ولا يضرهم، لكن الذي يمكن أن يكون بعد موت الصحابة نحوهم هو ما يكون في القلب وما ينطق به اللسان .

فمن أصول أهل السنة والجماعة سلامة قلوبهم وألسنتهم لأصحاب رسول الله ﷺ؛ سلامة القلب من البغض والغل والحقد والكراهة، وسلامة ألسنتهم من كل قول لا يليق بهم .

فقلوبهم سالمة من ذلك، مملوءة بالحب والتقدير والتعظيم لأصحاب رسول الله ﷺ على ما يليق بهم .

فهم يحبون أصحاب النبي ﷺ، ويفضلونهم على جميع الخلق؛ لأن محبتهم من محبة رسول الله ﷺ، ومحبة رسول الله ﷺ من محبة الله، وألسنتهم أيضًا سالمة من السب والشتم واللعن والتفسيق والتكفير وما أشبه ذلك مما يأتي به أهل البدع؛ فإذا سلمت من هذا؛ ملئت من الثناء عليهم والترضي عنهم والترحم والاستغفار وغير ذلك، وذلك للأمور التالية :

أولا: أنهم خير القرون في جميع الأمم؛ كما صرح بذلك رسول الله ﷺ حين قال: «**خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**»[١] .

ثانيًا: أنهم هم الواسطة بين رسول الله ﷺ وبين أمته؛ فمنهم تلقت الأمة عنه الشريعة .

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٦٥٠)، ومسلم (٢٥٣٥) من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه .

ثالثًا: ما كان على أيديهم من الفتوحات الواسعة العظيمة.

رابعًا: أنهم نشروا الفضائل بين هذه الأمة من الصدق والنصح والأخلاق والآداب التي لا توجد عند غيرهم، ولا يعرف هذا من كان يقرأ عنهم من وراء جدر، بل لا يعرف هذا إلا من عاش في حياتهم وعرف مناقبهم وفضائلهم وإيثارهم واستجابتهم لله ولرسوله.

فنحن نُشهد الله عز وجل على محبة هؤلاء الصحابة، ونثني عليهم بألسنتنا بما يستحقون، ونبرأ من طريقين ضالين: طريق الروافض الذين يسبون الصحابة ويغلون في آل البيت، ومن طريق النواصب الذين يبغضون آل البيت.

ونرى أن لآل البيت إذا كانوا صحابة ثلاثة حقوق: حق الصحبة، وحق الإيمان، وحق القرابة من رسول الله ﷺ.

وقوله: «**لأصحاب رسول الله ﷺ**»: سبق أن أصحاب رسول الله ﷺ كل من اجتمع به مؤمنًا به ومات على ذلك، وسمي صاحبًا؛ لأنه إذا اجتمع بالرسول ﷺ مؤمنًا به؛ فقد التزم اتباعه، وهذا من خصائص صحبة الرسول ﷺ، أما غير الرسول؛ فلا يكون الشخص صاحبًا له حتى يلازمه ملازمة طويلة يستحق أن يكون بها صاحبًا.

ثم استدل المؤلف ـ رحمه الله ـ لموقف أهل السنة بقوله: «**كما وصفهم الله به في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾** [الحشر: ١٠]».

هذه الآية بعد آيتين سابقتين هما قوله تعالى: ﴿**لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ**﴾ [الحشر: ٨]، وعلى رأس هؤلاء المهاجرين أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ابن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين.

ففي قوله: «﴿يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾»: إخلاص النية، وفي قوله: ﴿**وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ**﴾: تحقيق العمل، وقوله: ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾؛ أي:

لم يفعلوا ذلك رياء ولا سمعة، ولكن عن صدق نية.

ثم قال في الأنصار: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩]؛ فوصفهم الله بأوصاف ثلاثة: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾، ﴿وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا﴾، ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾.

ثم قال تعالى بعد ذلك: ﴿وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ﴾ الآية [الحشر: ١٠]، وهم التابعون لهم بإحسان وتابعوهم إلى يوم القيامة؛ فقد أثنوا عليهم بالأخوة، وبأنهم سبقوهم بالإيمان، وسألوا الله أن لا يجعل في قلوبهم غلا لهم؛ فكل من خالف في ذلك وقدح فيهم ولم يعرف لهم حقهم؛ فليس من هؤلاء الذين قال الله عنهم: ﴿وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا﴾.

ولما سئلت عائشة رضي الله عنها عن قوم يسبون الصحابة؛ قالت: لا تعجبون! هؤلاء قوم انقطعت أعمالهم بموتهم، فأحب الله أن يجري أجرهم بعد موتهم!!

وقوله: ﴿وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا﴾، ولم يقل: للذين سبقونا بالإيمان، ليشمل هؤلاء السابقين وغيرهم إلى يوم القيامة.

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾: ولرأفتك ورحمتك نسألك المغفرة لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان.

قوله: وطاعة النبي ﷺ في قوله: «لا تسبوا أصحابي؛ فوالذي نفسي بيده؛ لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبًا؛ ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه»[١].

«طاعة»: معطوف على قوله: «سلامة»؛ أي: من أصول أهل السنة والجماعة: طاعة النبي ﷺ... إلخ.

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٦٧٣) ومسلم (٢٥٤١) من حديث أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه.

السب: هو القدح والعيب؛ فإن كان في غيبة الإنسان؛ فهو غيبة.

وقوله: «أصحابي»؛ أي: الذين صحبوه، وصحبة النبي ﷺ لا شك أنها تختلف: صحبة قديمة قبل الفتح، وصحبة متأخرة بعد الفتح.

والرسول عليه الصلاة والسلام كان يخاطب خالد بن الوليد حين حصل بينه وبين عبد الرحمن بن عوف ما حصل من المشاجرة في بني جذيمة، فقال النبي ﷺ لخالد: «لا تسبوا أصحابي»، والعبرة بعموم اللفظ.

ولا شك أن عبد الرحمن بن عوف وأمثاله أفضل من خالد بن الوليد رضي الله عنه من حيث سبقهم إلى الإسلام؛ لهذا قال: «لا تسبوا أصحابي»؛ يخاطب خالد ابن الوليد وأمثاله.

وإذا كان هذا بالنسبة لخالد بن الوليد وأمثاله؛ فما بالك بالنسبة لمن بعدهم.

وقوله: «فوالذي نفسي بيده؛ لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبًا...» إلخ.

أقسم النبي عليه الصلاة والسلام، وهو الصادق البار بدون قسم: «لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبًا، وما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه».

«أحد»: جبل عظيم كبير معروف في المدينة.

والمد: ربع الصاع.

«ولا نصيفه»؛ أي: نصفه. قال بعضهم: من الطعام؛ لأن الذي يقدر بالمد والنصيف هو الطعام، أما الذهب فيوزن، وقال بعضهم: من الذهب بقرينة السياق؛ لأنه قال: «لو أنفق مثل أحد ذهبًا، ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه»؛ يعني: من الذهب.

وعلى كل حال؛ فإن قلنا: من الطعام؛ فمن الطعام، وإن قلنا: من الذهب؛ فليكن من الذهب، ونسبة المد أو نصف المد من الذهب إلى جبل أحد من الذهب لا شيء.

فالصحابة رضي الله عنهم إذا أنفق الإنسان منا مثل أحد ذهبًا، ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه، والإنفاق واحد، والمنفَق واحد، والمنفَق عليه واحد، وكلهم بشر، لكن لا يستوي البشر بعضهم مع بعض؛ فهؤلاء الصحابة رضي الله عنهم لهم من

الفضائل والمناقب والإخلاص والإتباع ما ليس لغيرهم؛ فلإخلاصهم العظيم، واتباعهم الشديد؛ كانوا أفضل من غيرهم فيما ينفقون.

وهذا النهي يقتضي التحريم؛ فلا يحل لأحد أن يسب الصحابة على العموم، ولا أن يسب واحداً منهم على الخصوص؛ فإن سبهم على العموم، كان كافراً، بل لا شك في كفر من شك في كفره، أما إن سبهم على سبيل الخصوص؛ فينظر في الباعث لذلك؛ فقد يسبهم من أجل أشياء خَلقية أو خُلقية أو دينية، ولكل واحد من ذلك حكمه.

قوله: «ويقبلون»؛ أي: أهل السنة.

قوله: «ما جاء به الكتاب والسنة والإجماع من فضائلهم ومراتبهم»:

الفضائل: جمع فضيلة، وهو ما يفضل به المرء غيره ويعد منقبة له.

والمراتب: الدرجات؛ لأن الصحابة درجات ومراتب؛ كما سيذكرهم المؤلف ـ رحمه الله ـ.

فما جاء من فضائل الصحابة ومراتبهم؛ فإن أهل السنة والجماعة يقبلون ذلك:

ـ فمثلاً يقبلون ما جاء عنهم من كثرة صلاة أو صدقة أو صيام أو حج أو جهاد أو غير ذلك من الفضائل.

ـ ويقبلون مثلا ما جاء في أبي بكر رضي الله عنه أن النبي ﷺ حث على الصدقة، فجاء أبو بكر بجميع ماله(١) ، وهذه فضيلة.

ـ ويقبلون ما جاء به الكتاب والسنة من أن أبا بكر رضي الله عنه كان وحده صاحب رسول الله ﷺ في هجرته في الغار.

ـ ويقبلون ما جاء به النص من قول الرسول عليه الصلاة والسلام في أبي بكر: «إن من أمن الناس علي في ماله وصحبته أبو بكر»(٢) .

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (١٦٧٨) والترمذي (٣٦٧٥) من حديث عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه والحديث صححه الشيخ الألباني في «صحيح الترمذي» (٢٩٠٢).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٩٠٤) ومسلم (٢٣٨٢) من حديث أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه.

ـ وكذلك ما جاء في عمر وفي عثمان وفي علي رضي الله عنهم، وما جاء في غيرهم من الصحابة من الفضائل؛ يقبلون هذا كله.

ـ وكذلك المراتب، فيقبلون ما جاء في مراتبهم؛ فالخلفاء الراشدون هم القمة في هذه الأمة في المرتبة، وأعلاهم مرتبة أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي، كما سيذكره المؤلف ـ رحمه الله ـ.

قوله: «ويفضلون من أنفق من قبل الفتح ـ وهو صلح الحديبية ـ وقاتل على من أنفق من بعد وقاتل».

ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾.

فالذين أنفقوا وقاتلوا قبل صلح الحديبية أفضل من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا، وكان صلح الحديبية في السنة السادسة من الهجرة في ذي القعدة؛ فالذين أسلموا قبل ذلك وأنفقوا وقاتلوا أفضل من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا.

فإذا قال قائل: كيف نعرف ذلك؟

فالجواب: أن ذلك يعرف بتاريخ إسلامهم؛ كأن نرجع إلى «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر أو «الإستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر أو غير ذلك من الكتب المؤلفة في الصحابة رضي الله عنهم، ويعرف أن هذا أسلم من قبل أو أسلم من بعد.

وقول المؤلف ـ رحمه الله ـ: «وهو صلح الحديبية»:

ـ هذا أحد القولين في الآية، وهو الصحيح، ودليله قصة خالد مع عبد الرحمن بن عوف، وقول البراء بن عازب: تعدون أنتم الفتح فتح مكة، وقد كان فتح مكة فتحًا، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية[1]. رواه البخاري.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٤١٥٠) وابن حبان في «صحيحه» (٤٨٠١) من حديث البراء بن عازب ـ رضي الله عنه.

ـ وقيل: المراد فتح مكة، وهو قول كثير من المفسرين أو أكثرهم.

قوله: «ويقدمون المهاجرين على الأنصار»:

ـ المهاجرون: هم الذين هاجروا إلىٰ المدينة في عهد النبي ﷺ قبل فتح مكة.

ـ والأنصار هم الذين هاجر إليهم النبي ﷺ في المدينة.

وأهل السنة يقدمون المهاجرين علىٰ الأنصار لأن المهاجرين جمعوا بين الهجرة والنصرة، والأنصار أتوا بالنصرة فقط.

ـ فالمهاجرون تركوا أهلهم وأموالهم، وتركوا أوطانهم، وخرجوا إلىٰ أرض هم فيها غرباء؛ كل ذلك هجرة إلىٰ الله ورسوله ونصرة لله ورسوله.

ـ والأنصار أتاهم النبي ﷺ في بلادهم، ونصروا النبي ﷺ، ولا شك أنهم منعوه مما يمنعون منه أبناءهم ونساءهم.

ودليل تقديم المهاجرين: قوله تعالىٰ: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠]؛ فقدم المهاجرين علىٰ الأنصار، وقوله: ﴿لَقَد تَّابَ الله عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ﴾ [التوبة: ١١٧]؛ فقدم المهاجرين، وقوله في الفيء: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ﴾ [الحشر: ٨]، ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الحشر: ٩].

قوله: «ويؤمنون بأن الله قال لأهل بدر ـ وكانوا ثلاث مئة وبضعة عشر ـ: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم».

أهل بدر مرتبتهم من أعلىٰ مراتب الصحابة.

وبدر مكان معروف، كانت فيه الغزوة المشهورة، وكانت في السنة الثانية من الهجرة في رمضان، وسمىٰ الله تعالىٰ يومها يوم الفرقان.

وسببها أن النبي ﷺ سمع أن أبا سفيان قدم بعير من الشام إلىٰ مكة، فندب أصحابه من أجل هذه العير فقط، فانتدب منهم ثلاث مائة وبضعة عشر رجلا؛ معهم سبعون بعيراً وفرسان، وخرجوا من المدينة لا يريدون قتالا، لكن الله عز وجل

بحدث جمع بينهم وبين عدوهم.

فلما سمع أبو سفيان بذلك، وأن الرسول عليه الصلاة والسلام خرج إليه لتلقي العير؛ أخذ بساحل البحر، وأرسل صارخًا إلى أهل مكة يستنجدهم، فانتدب أهل مكة لذلك، وخرجوا بأشرافهم وكبرائهم وزعمائهم، خرجوا على الوصف الذي ذكر الله عز وجل: ﴿**بَطَرًا وَرِئَاء النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ**﴾ [الأنفال: ٤٧].

وفي أثناء ذلك جاءهم الخبر أن أبا سفيان نجا بالعير، فتآمروا بينهم في الرجوع، لكن أبا جهل قال: والله؛ لا نرجع حتى نقدم بدرًا، فنقيم فيها ننحر الجزور ونسقي الخمور وتضرب علينا القيان وتسمع بنا العرب؛ فلا يزالون يهابوننا أبدًا!!.

وهذا الكلام يدل على الفخر والخيلاء والاعتزاز بالنفس، ولكن - ولله الحمد - كان الأمر على عكس ما يقول؛ سمعت العرب بهزيمتهم النكراء، فهانوا في نفوس العرب!!

قدموا بدرًا، والتقت الطائفتان، وأوحى الله تعالى إلى الملائكة: ﴿**أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرَّعْبَ فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ اللّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ * ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ**﴾ [الأنفال: ١٢-١٤]. حصل اللقاء بين الطائفتين، وكانت الهزيمة - ولله الحمد - على المشركين، والنصر المبين للمؤمنين، انتصروا، وأسروا منهم سبعين رجلا، وقتلوا سبعين رجلا، منهم أربعة وعشرون رجلا من كبرائهم وصناديدهم؛ سُحبوا، فألقوا في قليب من قلب بدر خبيثة قبيحة.

ثم إن النبي ﷺ بعد انتهاء الحرب بثلاث أيام ركب ناقته، ووقف عليهم يدعوهم بأسمائهم وأسماء آبائهم: «**يا فلان ابن فلان! أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله؟ فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقًا؛ فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقًا**». فقالوا: يا رسول الله! ما تُكلم من أجساد لا أرواح لها؟ فقال: «**والذي نفسي بيده؛ ما أنتم بأسمع لما أقول منهم**»[1].

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٩٧٦) ومسلم (٢٨٧٤) من حديث أبي طلحة الأنصاري رضي الله عنه.

والنبي عليه الصلاة والسلام وقف عليهم توبيخًا وتقريعًا وتنديمًا، وهم قد وجدوا ما وعد الله حقًا؛ قال الله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾ [الأنفال: ١٤]؛ فوجدوا النار من حين ماتوا وعرفوا أن الرسول حق، ولكن أنى لهم التناوش من مكان بعيد.

فأهل بدر الذين جعل الله على أيديهم هذا النصر المبين والفرقان الذي هاب العرب به رسول الله ﷺ وأصحابه، وكان لهم منزلة عظيمة بعد هذا النصر؛ اطلع الله عليهم، وقال: «**اعملوا ما شئتم؛ فقد غفرت لكم**»[1]؛ فكل ما يقع منهم من ذنوب؛ فإنه مغفور لهم، بسبب هذه الحسنة العظيمة الكبيرة التي جعلها الله تعالى على أيديهم.

وفي هذا الحديث دليل على أن ما يقع منهم من الكبائر مهما عظم؛ فهو مغفور لهم.

وفيه بشارة بأنهم لن يموتوا على الكفر؛ لأنهم مغفور لهم، وهذا يقتضي أحد أمرين:

- أما أنهم لا يمكن أن يكفروا بعد ذلك.
- وإما أنهم إن قدر أن أحدهم كفر؛ فسيوفق للتوبة والرجوع إلى الإسلام.

وأيًا كان؛ ففيه بشارة عظيمة لهم، ولم نعلم أن أحدًا منهم كفر بعد ذلك.

قوله: «وبأنه لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة[2]؛ كما أخبر به النبي ﷺ، بل لقد رضي الله عنهم ورضوا عنه، وكانوا أكثر من ألف وأربع مائة»[3].

أصحاب الشجرة هم أصحاب بيعة الرضوان.

وسبب هذه البيعة أن النبي ﷺ خرج من المدينة إلى مكة يريد العمرة، ومعه

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٠٨١) ومسلم (٢٤٩٤) من حديث عبد الله بن حبيب رضي الله عنه.

(٢) صحيح: أخرجه أبو داود (٤٦٥٣) والترمذي (٣٨٦٠) من حديث جابر بن عبد الله - رضي الله عنه والحديث صححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٧٦٨٠).

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤١٥٤) ومسلم (١٨٥٦) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

أصحابه والهدي، وكانوا نحو ألف وأربع مائة رجل، لا يريدون إلا العمرة، فلما بلغوا الحديبية، وهي مكان قرب مكة، في طريق جدة الآن، بعضها من الحل وبعضها من الحرم، وعلم بذلك المشركون؛ منعوا رسول الله ﷺ وأصحابه؛ لأنهم يزعمون أنهم أهل البيت وحماة البيت: ﴿وَمَا كَانُواْ أَوْلِيَاءهُ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤]، وجرت بينهم وبينهم مفاوضات.

وأرى الله تعالى من آياته في هذه الغزوة ما يدل على أن الأولى تنازل الرسول ﷺ وأصحابه لما يترتب على ذلك من الخير والمصلحة؛ فإن ناقة الرسول عليه الصلاة والسلام بركت وأبت أن تسير، حتى قالوا: «خلأت القصواء»؛ يعني: حرنت وأبت المسير. فقال النبي ﷺ مدافعًا عنها: «**والله ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخُلُق، ولكن حبسها حابس الفيل**». ثم قال: «**والذي نفسي بيده؛ لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله؛ إلا أعطيتهم إياها**»(١).

جرى التفاوض، وأرسل النبي ﷺ عثمان بن عفان؛ لأن له رهطًا بمكة يحمونه؛ أرسله إلى أهل مكة؛ يدعوهم إلى الإسلام، ويخبرهم أن النبي ﷺ إنما جاء معتمراً معظمًا للبيت، فشاع الخبر بأن عثمان قد قتل، وكبر ذلك على المسلمين، فدعا النبي ﷺ إلى البيعة؛ يبايع أصحابه على أن يقاتلوا أهل مكة الذين قتلوا رسول رسول الله ﷺ، وكانت الرسل لا تقتل، فبايع الصحابة رضي الله عنهم النبي ﷺ على أن يقاتلوا ولا يفروا إلى الموت.

وكان النبي ﷺ تحت شجرة يبايع الناس؛ يمدُّ يده فيبايعونه على هذه البيعة المباركة التي قال الله عنها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠]، وكان عثمان رضي الله عنه غائبًا، فبايع النبي ﷺ بيده عن يد عثمان، وقال بيده اليمنى: «**هذه يد عثمان**»(٢).

ثم تبين أن عثمان لم يقتل، وصارت الرسل تأتي وتروح بين رسول الله ﷺ وقريش، حتى انتهى الأمر على الصلح الذي صار فتحًا مبينًا للرسول عليه الصلاة

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٣٦٩٨) والترمذي (٣٧٠٦) من حديث عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنه.

والسلام.

هؤلاء الذين بايعوا قال الله عنهم: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا * وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ١٨، ١٩].

وكان من جملة المبايعين أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم.

فوصفهم الله تعالىٰ بالإيمان، وهذه شهادة من الله عز وجل بأن كل من بايع تحت الشجرة؛ فهو مؤمن مرضي عنه، والنبي عليه الصلاة والسلام قال: «**لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة**»(١)؛ فالرضىٰ ثابت بالقرآن، وانتفاء دخول النار ثبت بالسنة.

وقول النبي ﷺ: «لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة»؛ قد يقول قائل: كيف نجمع بينه وبين قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٧١]؟.

فالجمع من أحد وجهين:

الأول: أن يقال: إن المفسرين اختلفوا في المراد بالورود، قال بعضهم: هو المرور علىٰ الصراط؛ لأن هذا نوع ورود بلا شك؛ كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾ [القصص: ٢٣]، ومعلوم أنه لم ينزل وسط الماء، بل كان حوله وقريبًا منه، وبناء علىٰ هذا؛ لا إشكال ولا تعارض أصلا.

والوجه الثاني: أن من المفسرين من يقول: المراد بالورود الدخول، وأنه ما من إنسان إلا ويدخل النار، وبناء علىٰ هذا القول؛ فيحمل قوله: «**لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة**»: لا يدخلها دخول عذاب وإهانة، وإنما يدخلها تنفيذاً للقسم: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾، أو يقال: إن هذا من باب العام المخصوص بأهل بيعة الرضوان.

وقوله: «الشجرة»: الشجرة هذه شجرة سدر، وقيل: شجرة سمر، ولا طائل تحت هذا الخلاف، كانت ذات ظل، فجلس النبي ﷺ تحتها يبايع الناس، وكانت موجودة في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام وعهد أبي بكر رضي الله عنه وأول

---

(١) سبق تخريجه.

خلافة عمر رضي الله عنه، فلما قيل له: إن الناس يختلفون إليها - أي: يأتونها يصلون عندها؛ أمر رضي الله عنه بقطعها، فقطعت.

قال في «الفتح»(١): «وجدته عند ابن سعد بإسناد صحيح، لكن في «صحيح البخاري»(٢) عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: رجعنا من العام المقبل - يعني: بعد صلح الحديبية - فما اجتمع منا اثنان على الشجرة التي بايعنا تحتها، كانت رحمة من الله. وهكذا قال المسيب والد سعيد: فلما خرجنا من العام المقبل؛ نسيناها فلم نقدر عليها».

وهذا لا ينافي ما ذكره ابن حجر عن ابن سعد؛ لأن نسيانها لا يستلزم عدمها ولا عدم تذكرها بعد. والله أعلم.

وهذه من حسنات عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ لأننا نظن أن هذه الشجرة لو كانت باقية إلى الآن؛ لعبدت من دون الله.

● قال الشيخ صالح الفوزان:

من أصول عقيدة أهل السنة والجماعة (سلامة قلوبهم) من الغل والحقد والبغض، وسلامة (ألسنتهم) من الطعن واللعن والسب (لأصحاب رسول الله ﷺ) لفضلهم وسبقهم واختصاصهم بصحبة النبي ﷺ ولما لهم من الفضل على جميع الأمة؛ لأنهم الذين تحملوا الشريعة عنه ﷺ وبلغوها لمن بعدهم، ولجهادهم مع الرسول ﷺ ومناصرتهم له.

وغرض الشيخ من عقد هذا الفصل الرد على الرافضة والخوارج الذين يسبون الصحابة ويبغضونهم ويجحدون فضائلهم، وبيان براءة أهل السنة والجماعة من هذا المذهب الخبيث، وأنهم مع صحابة نبيهم، كما وصفهم الله في قوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي: بعد المهاجرين والأنصار، وهم التابعون لهم بإحسان إلى يوم القيامة من عموم المسلمين ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ المراد بالأخوة

---

(١) «فتح الباري» (٧/ ٤٤٨).

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٢٩٥٨) من حديث ابن عمر - رضي الله عنه.

هنا أخوة الدين، فهم يستغفرون لأنفسهم ولمن تقدمهم من المهاجرين والأنصار ﴿وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاً﴾ أي: غشًا وبغضًا وحسداً ﴿لِّلَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: لأهل الإيمان ويدخل في ذلك الصحابة دخولاً أوليًّا؛ لكونهم أشرف المؤمنين ولكون السياق فيهم.

قال الإمام الشوكاني: فمن لم يستغفر للصحابة على العموم ويطلب رضوان الله لهم فقد خالف ما أمر الله به في هذه الآية، فإن وجد في قلبه غلاً لهم فقد أصابه نزغ من الشيطان وحل به نصيب وافر من عصيان الله بعداوة أوليائه وخير أمة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم، وانفتح له باب من الخذلان يفد به على نار جهنم إن لم يتدارك نفسه باللجوء إلى الله سبحانه والاستغاثة به بأن ينزع عن قلبه ما طرقه من الغل لخير القرون وأشرف هذه الأمة، فإن جاوز ما يجده من الغل إلى شتم أحد منهم فقد انقاد للشيطان بزمام، ووقع في غضب الله وسخطه، وهذا الداء العضال إنما يصاب به من ابتلي بمعلم من الرافضة، أو صاحب من أعداء خير الأمة الذين تلاعب بهم الشيطان وزين لهم الأكاذيب المختلفة، والأقاصيص المفتراة، والخرافات الموضوعة وصرفهم عن كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. اهـ.

والشاهد من الآية الكريمة: أن فيها فضل الصحابة؛ لسبقهم بالإيمان، وفضل أهل السنة الذين يتولونهم وذم الذين يعادونهم، وفيها مشروعية الاستغفار للصحابة والترضي عنهم، وفيها سلامة قلوب أهل السنة وألسنتهم لأصحاب رسول الله ﷺ، ففي قولهم: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا﴾ إلخ سلامة الألسنة. وفي قولهم: ﴿وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا﴾ سلامة القلوب.

وفي الآية تحريم سبهم وبغضهم وأنه ليس من فعل المسلمين، وأن من فعل ذلك لا يستحق من الفيء شيئًا.

وقوله: (وطاعة النبي ﷺ في قوله)[1] أي: أن أهل السنة يطيعون النبي ﷺ في سلامة قلوبهم وألسنتهم لأصحابه والكف عن سبهم وتنقصهم حيث نهاهم النبي

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٧٣) ومسلم (٢٥٤١) من حديث أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه -.

ﷺ عن ذلك بقوله: «**لا تسبوا أصحابي**» أي: لا تتنقصوا ولا تشتموا (**أصحابي**): جمع صاحب، ويقال لمن صاحب النبي ﷺ: صحابي، وهو من لقي النبي ﷺ مؤمنًا به ومات على ذلك.

«**فوالذي نفسي بيده**» هذا قسم من النبي ﷺ يريد به تأكيد ما بعده «**لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبًا**» جواب الشرط، و «**أحد**»: جبل معروف في المدينة، سمي بذلك؛ لتوحده عن الجبال، و (**ذهبًا**): منصوب على التمييز «**ما بلغ مد أحدهم**» المد: مكيال وهو ربع الصاع النبوي «**ولا نصيفه**»، لغة النصف، كما يقال: ثمين بمعنى الثمن.

والمعنى: أن الإنفاق الكثير في سبيل الله من غير الصحابة رضي الله عنهم لا يعادل الإنفاق القليل من الصحابة وذلك أن الإيمان الذي كان في قلوبهم حين الإنفاق في أول الإسلام وقلة أهله وكثرة الصوارف عنه وضعف الدواعي إليه لا يمكن أن يحصل لأحد مثله ممن بعدهم.

والشاهد من الحديث: أن فيه تحريم سب الصحابة، وبيان فضلهم على غيرهم، وأن العمل يتفاضل بحسب نية صاحبه وبحسب الوقت الذي أدي فيه. والله أعلم.

وفي الحديث: (أن من أحب الصحابة وأثنى عليهم فقد أطاع الرسول ﷺ، ومن سبهم وأبغضهم فقد عصى الرسول ﷺ).

بين الشيخ رحمه الله في هذا المقطع من كلامه تفاضل الصحابة بعد أن بين فيما سبق فضلهم عمومًا وموقف أهل السنة والجماعة من ذلك.

فقوله: (ويقبلون) أي: أهل السنة والجماعة

(ما جاء في الكتاب والسنة والإجماع) أي: إجماع المسلمين (**من فضائلهم ومراتبهم**) وكفى بهذه المصادر الثلاثة شاهدًا على فضلهم.

ثم إنهم ليسوا على درجة واحدة في الفضل، بل بحسب سبقهم إلى الإسلام والجهاد والهجرة وبحسب ما قاموا به من أعمال تجاه نبيهم ودينهم رضي الله عنهم؛ ولذلك قال الشيخ رحمه الله: (**ويفضلون من أنفق من قبل الفتح وهو صلح الحديبية**)؛ لأن الله سماه فتحًا بقوله تعالى: ﴿**إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا**﴾ [الفتح: ١]، وذلك هو المشهور أن المراد بالفتح صلح الحديبية؛ لأن سورة الفتح نزلت عقيبه.

و(الحديبية): بئر قرب مكة وقعت عنده البيعة تحت شجرة كانت هناك حينما صد المشركون رسول الله ﷺ وأصحابه عن دخول مكة فبايعوه على الموت؛ وسميت هذه البيعة فتحًا؛ لما حصل بسببها من الخير والنصر للمسلمين. والدليل على تفضيل هؤلاء: قوله تعالى: ﴿لا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا﴾ [الحديد: ١٠]، وهؤلاء هم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، قال الله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

قال: (ويقدمون المهاجرين على الأنصار) (المهاجرون): جمع مهاجر، والمراد بهم: الذين هاجروا من مكة إلى المدينة، والهجرة: لغة: الترك، وشرعًا: الانتقال من بلد الشرك إلى بلد الإسلام. والأنصار، أي: الذين ناصروا الرسول ﷺ، وهم الأوس والخزرج سماهم النبي ﷺ بهذا الاسم.

والدليل على تفضيل المهاجرين على الأنصار: أن الله قدمهم في الذكر، كما قال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ﴾، وقال تعالى: ﴿لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ [التوبة: ١١٧]، وقال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ۝٨ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ [الحشر: ٨، ٩]، فدلت هذه الآيات الكريمة على فضل المهاجرين والأنصار وعلى تقديم المهاجرين على الأنصار في الفضل؛ لتقديمهم في الذكر، ولما قاموا به من ترك بلادهم وأموالهم وأولادهم؛ طلبًا للأجر، ونصرة لله ولرسوله، وصدقهم في ذلك رضي الله عنهم.

قال: (ويؤمنون بأن الله قال لأهل بدر وكانوا ثلاثمائة وبضعة عشر: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم) كما جاء في الصحيحين في قصة حاطب ابن أبي بلتعة.

وبدر: قرية مشهورة على نحو أربع مراحل من المدينة حصلت عندها الوقعة التي أعز الله بها الإسلام، وسمي يوم بدر يوم الفرقان.

وقوله: (وكانوا ثلاثمائة وبضعة عشر) هكذا ورد عددهم في «صحيح البخاري».

وقوله: (اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم)[١] قال ابن القيم في «الفوائد»: أشكل على كثير من الناس معناه ثم ذكر الأقوال في ذلك، ثم قال: فالذي نظن في ذلك والله أعلم أن هذا خطاب لقوم قد علم الله سبحانه أنهم لا يفارقون دينهم، بل يموتون على الإسلام وأنهم قد يقارفون ما يقارفه غيرهم من الذنوب ولكن لا يتركهم سبحانه مصرين عليها، بل يوفقهم لتوبة نصوح واستغفار وحسنات تمحو أثر ذلك، ويكون تخصيصهم بهذا دون غيرهم؛ لأنه قد تحقق ذلك فيهم، وأنهم مغفور لهم، ولا يمنع ذلك كون المغفرة حصلت بأسباب تقوم بهم كما لا يقتضي أن يعطلوا الفرائض وثوقًا بالمغفرة، فلو كانت قد حصلت بدون الاستمرار على القيام بالأوامر لما احتاجوا بعد ذلك إلى صلاة ولا حج ولا زكاة ولا جهاد وهذا محال. انتهى.

قال: **(وبأنه لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة، كما أخبر به النبي ﷺ، بل لقد رضي الله عنهم ورضوا عنه وكانوا أكثر من ألف وأربعمائة)** هذا الكلام في شأن أهل بيعة الرضوان وهي البيعة التي حصلت في الحديبية حين صد المشركون رسول الله ﷺ عن دخول مكة ـ كما سبق بيانه قريبًا ـ وقد ذكر لهم الشيخ مزيتين:

الأولى: أنه لا يدخل النار أحد منهم، ودليل ذلك ما في «صحيح مسلم» من حديث جابر رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «**لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة**»[٢].

الثانية: أن الله قد رضي عنهم، وهذا صريح القرآن، كما في قوله تعالى: ﴿**لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ**﴾ [الفتح: ١٨]، وقوله: **(وكانوا أكثر من ألف وأربعمائة)** هذا بناء على الصحيح في عددهم. والله أعلم.

❊ ❊ ❊

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٣٠٠٧) ومسلم (٢٤٩٤) من حديث علي ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٤٩٦) وأبو داود (٥٢٧٤) من حديث جابر ـ رضي الله عنه ـ.

[أسئلة وأجوبة نموذجية على من أصول أهل السنة سلامة قلوبهم وألسنتهم لأصحاب رسول الله ﷺ]

● قال الشيخ عبد العزيز المحمد السلمان:

س ـ ما الواجب نحو أصحاب النبي ﷺ ؟ وما معنى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ الآية واذكر ما فيها من أحكام؟

ج ـ من أصول أهل السنة والجماعة سلامة قلوبهم لأصحاب رسول الله ﷺ من الحقد والبغض والاحتقار والعداوة وسلامة ألسنتهم من الطعن والسب واللعن والوقيعة فيهم، ويعتقدون فضلهم ويعرفون سابقتهم ومحاسنهم ويترحَّمون عليهم ويستغفرون لهم ولا يقولون إلا ما حكاه الله عنهم. قال الله جل وعلا وتقدس: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ﴾ الآية. ويوقِّرونهم أيضًا طاعة للنبي ﷺ في قوله: «لا تسبُّوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أُحُد ذهبًا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه».

والمعنى الإجمالي للآية: بعد أن أثنىٰ الله جل وعلا علىٰ المهاجرين والأنصار وذكر ما يقوله من جاء بعدهم من المتبعين لهم في آثارهم الحسنة وأوصافهم الجميلة بأنهم يسألون ربهم المغفرة لهم ولإخوانهم الذين سبقوهم ويدعونه أن لا يجعل في قلوبهم حقدًا وحسدًا للمؤمنين والحقد والحسد هما رأس كل خطيئة وينبوع كل معصية فهما يوجبان سفك الدماء والبغي والظلم والسرقة.

ونحو هذه الآية ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ وقوله: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ ختموا هذه الآية بعد دعائهم باسمين كريمين دالين علىٰ كمال رحمته وشدة رأفته تعالىٰ وإحسانه بهم الذي من جملته بل من أجلِّه توفيقهم للقيام بحقوقه وحقوق عباده.

يفهم من هذه الآية:

١ ـ إثبات الربوبية.

٢ ـ الحث على الدعاء للصحابة رضي الله عنهم.

٣ ـ الحث على الدعاء لسائر المسلمين.

٤ ـ أن على المؤمن أن يحب لإخوانه المؤمنين ما يحب لنفسه.

٥ ـ من فضائل الإيمان أن المؤمنين ينتفع بعضهم ببعض ويدعو بعضهم لبعض بسبب المشاركة في الإيمان المقتضي لعقد الأخوة بين المؤمنين.

٦ ـ المحبة بين المؤمنين والموالاة والنصح ونحو ذلك.

٧ ـ أن من صفاتهم الإقرار بالذنوب والاستغفار منها.

٨ ـ الحث على الاجتهاد في إزالة الحقد والغل لإخوانه المسلمين.

٩ ـ دليل على وجوب محبة الصحابة رضي الله عنهم.

١٠ ـ إثبات صفة الرحمة.

١١ ـ إثبات صفة الرأفة.

١٢ ـ الحث على الاجتماع والنهي عن التفرق.

١٣ ـ الرد على الرافضة والخوارج.

١٤ ـ البداءة بالنفس في الدعاء، يريد: ربنا اغفر لي ولوالدي.

١٥ ـ التحذير من بغض المؤمن، يريد: من عادى لي وليًّا... إلخ.

١٦ ـ إثبات صفة الكلام لله.

١٧ ـ إثبات علم الله بما لم يكن إذا كان كيف يكون.

١٨ ـ إثبات البعث والحساب والجزاء على الأعمال والجنة والنار.

١٩ ـ أن في الآية تتجلّى الآصرة القوية الوثيقة التي تربط أول هذه الأمة بآخرها وآخرها بأولها في تضامن وتكافلٍ وتوادد وتعاطف.

٢٠ ـ في الآية متمسَّك لمن قال إن الإنسان ينتفع بسعي غيره.

٢١ ـ تحريك المشاعر خلال القرون الطويلة فيذكر المؤمن أخاه المؤمن بعد القرون المتطاولة كما يذكر أخاه الحي أو أشد في إعزاز وكرامة وحب.

س ـ ما طريقة أهل السنة والجماعة حول ما ورد في فضائل الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين؟

ج - هو أنهم يقبلون ما جاء به الكتاب والسنة والإجماع من فضائلهم ومراتبهم، ويفضلون من أنفق من قبل الفتح وهو صلح الحديبية وقاتل، على من أنفق من بعد وقاتل.

ويقدمون المهاجرين على الأنصار لقوله تعالى: ﴿لا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

س ـ لماذا كان المهاجرون أفضل من الأنصار؟ وضح ذلك. ودلل على ما تقول.

ج - لأنهم جمعوا بين الهجرة والنصرة، وقد جاء تقديم المهاجرين على الأنصار في القرآن بقوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ﴾ الآيتين، وقال: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ﴾، وكل العشرة المشهود لهم بالجنة من المهاجرين.

س ـ ما مناسبة قول النبي ﷺ: (لا تسبُّوا أصحابي) الحديث ـ وتقدم قريبًا؟

ج - ما ورد عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال: كان بين خالد بن الوليد وعبد الرحمن بن عوف شيء فسبَّه خالد فقال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا أصحابي» الحديث ـ وتقدم قريبًا.

س ـ لماذا نهى النبي ﷺ خالدًا عن سب أصحابه، وخالد أيضًا من أصحابه، وقال: (لو أن أحدكم أنفق مثل أحدٍ ذهبًا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه».

ج ـ أولاً: لأن عبد الرحمن بن عوف ونظراءه من السابقين الأولين الذين صحبوه في وقت كان خالدٌ وأمثاله يعادونه.

ثانيًا: أنهم أنفقوا أموالهم قبل الفتح وقاتلوا، وكلا وعد الله الحسنى فقد انفردوا

من الصحبة بما لم يشركهم فيه خالد ونظراؤه ممن أسلم بعد الحديبية وقاتل .

فنهى أن يسب أولئك الذين صحبوه قبله ، ومن لم يصحبه صحبه كنسبة خالد إلى السابقين وأبعد وهو خطاب لكل أحد بصحبته .

س ـ ما طريقة أهل السنة والجماعة نحو أهل بدر، وأهل بيع عدد كل من أهل بدر وأهل بيعة الرضوان؟ ومتى كانت بيعة ال

ج ـ هو أنهم يؤمنون بأن الله اطلع على أهل بدر وكانوا ثلاثم فقال : **«اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»** .

قال الشاعر :

فليعمل القوم ما شاءوا لأنفسهم هم أهل بدر فلا يَخْشَ

ويؤمنون بأنه لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة . قال الله تعالى **اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾** الآية ، ولإخباره ﷺ ، ففي رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال : **«لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة و ألف وأربعمائة»** وكانت بيعة الرضوان عام الحديبية سنة ستٍ من الهجرة .

س ـ أين موقع بدر، ومتى كانت، وكم عدد القتلى من المشركين الشهداء من المسلمين، وكم عدد الأسرى من الكفار؟

ج ـ هي قرية مشهورة تقع على نحو أربع مراحل من المدينة وسمي المشهورة باسم موضعها الذي وقعت فيه ، وهي من أشهر المواقع التي أعز الإسلام وقمع بها المشركين .

وكانت الواقعة نهاراً في يوم الجمعة لسبع عشْرةَ خلت من رمضان من الـ من الهجرة قُتل من الكفار سبعون ، وأسر سبعون ، واستشهد فيها من المسلـ عشر ، ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار .

س ـ ما طريقة أهلـرة، ولماذا سميت المبايعة التي تحتها بيعة الرضوان، ومن
الله عليهم أجمعين؟ ماذا قطعها، وما هو السبب في ذلك؟

ج - هو أنهم يقبلق ـ قرية متوسطة ليست بالكبيرة ـ وسميت ببئر هناك عند مسجد
ويفضلون من أنفق مرول الله تحتها، وبين الحديبية ومكة مرحلة، وبينها وبين المدينة
وقاتل. ن الحديبية في الحل وبعضها في الحرم وهو أبعد الحِلِّ من البيت.

ويقدمون المهاـي الخلافة أمر بقطع الشجرة وإخفاء مكانها خشية الافتتان بها لما
﴿الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَ إليها فيصلون تحتها ويتبركون بها وقال: «كان رحمة من الله»
تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾. سميت البيعة التي تحتها بيعة الرضوان أخذًا من الآية الكريمة المتقدمة
س ـ لماذا كـار الْمُؤْمِنِينَ﴾.
تقول.

* * *

ج - لأنهم جـ
في القرآن بق
وقال: ﴿وَالسَّا
من المهاجرين
س ـ ما ه

ج - ما و
وعبد الرحـ
الحديث ـ و
س ـ لـ
وقال: (ا

ج ـ أو
في وقت
ثانيًا

[من أصول أهل السنة أنهم لا يشهدون لأحد بالجنة إلا من شهد له رسول الله ﷺ]

وَيَشْهَدُون بالجَنَّة لِمَن شَهِدَ لَهُ رسول الله ﷺ: كالعَشَرة، وكثَابِت بن قَيْسِ بن شَمَّاس» ، وغيرهم منَ الصَّحابة.

• الشَّرح •

● قال العلامة ناصر السعدي:

ولهذه قال المُصنِّف (وَيَشْهَدُون بالجَنَّة لِمَن شَهِدَ لَهُ النبيُّ ﷺ كالعَشَرة...) إلخ وهذا من أعظم الفَضَائل، تَخْصيص النَّبي ﷺ لهم بالشهادة والجنة، وهو من جملة بَرَاهين رسالته ﷺ.

فإن جميع من عيَّنَهُ النبي ﷺ بالشَّهادة له بالجنة ولَوَازمها لم يزالوا مُسْتقيمين على الإيمان حتى وَصَلوا إلى ما وعدوا به رضي اللَّه عنهم.

● قال الشيخ محمد خليل هراس:

وأما قوله: «ويشهدون بالجنة لمن شهد له الرسول ﷺ كالعشرة وثابت بن قيس ابن شماس وغيرهم من الصاحبة»:

أما العشرة فهم: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد وعبد الرحمن بن عوف وأبو عبيدة بن الجراح، وأما غيرهم فكثابت بن قيس وعكاشة بن محصن وعبد الله بن سلام وكل من ورد الخبر الصحيح بأنه من أهل الجنة.

● قال الشيخ ابن عثيمين:

قوله: «ويشهدون بالجنة لمن شهد له رسول الله ﷺ؛ كالعشرة، وثابت بن قيس ابن شماس، وغيرهم من الصحابة».

«يشهدون»؛ أي: أهل السنة والجماعة.

والشهادة بالجنة نوعان: شهادة معلقة بوصف، وشهادة معلقة بالشخص.

ـ أما المعلقة بالوصف؛ فأن نشهد لكل مؤمن أنه في الجنة، وكل متق أنه في الجنة؛ بدون تعيين شخص أو أشخاص.

وهذه شهادة عامة، يجب علينا أن نشهد بها؛ لأن الله تعالى أخبر به، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ * خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [لقمان: ٨، ٩]، وقال: ﴿وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

ـ وأما الشهادة المعلقة بشخص معين؛ فأن نشهد لفلان أو لعدد معين أنهم في الجنة.

وهذه شهادة خاصة؛ فنشهد لمن شهد له الرسول ﷺ؛ سواء شهد لشخص معين واحد أو لأشخاص معينين.

مثال ذلك ما ذكره المؤلف ـ رحمه الله ـ بقوله: «كالعشرة»؛ يعني بهم: العشرة المبشرين بالجنة؛ لقبوا بهذا الاسم لأن النبي ﷺ جمعهم في حديث واحد، وهم: الخلفاء الأربعة: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وسعيد بن زيد، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، وأبو عبيدة عامر بن الجراح، وانظر تراجمهم في المطولات.

وقد جمع الستة الزائدون عن الخلفاء الأربعة في بيت واحد؛ فاحفظه:

سعيدٌ وسَعدٌ وابنُ عَوفٍ وطلحةٌ وعامرُ فهرٍ والزُبَيرُ المُمَدَّحُ

هؤلاء بشرهم النبي ﷺ في نسق واحد، فقال: «أبو بكر في الجنة، وعمر في

الجنة...»[1] ، ولهذا لقبوا بهذا اللقب؛ فيجب أن نشهد أنهم في الجنة لشهادة النبي ﷺ بذلك.

قوله: «وثابت بن قيس بن شماس»: ثابت بن قيس رضي الله عنه أحد خطباء النبي ﷺ، كان جهوري الصوت، فلما نزل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢]؛ خاف أن يكون حبط عمله وهو لا يشعر، فاختفى في بيته، ففقده النبي عليه الصلاة والسلام، فبعث إليه رجلا يسأله عن اختفائه فقال: إن الله أنزل قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾، وأنا الذي أرفع صوتي فوق صوت النبي ﷺ حبط عملي، أنا من أهل النار!! فأتى الرجل إلى النبي ﷺ، فأخبره بما قال ثابت: فقال النبي ﷺ: «اذهب إليه؛ فقل له إنك لست من أهل النار، ولكنك من أهل الجنة»[2] ؛ فبشره النبي ﷺ بالجنة.

قوله: «وغيرهم من الصحابة»: مثل أمهات المؤمنين[3] ؛ لأنهن في درجة الرسول ﷺ ومنهم: بلال[4] ، وعبد الله بن سلام[5] ، وعكاشة بن محصن[6] ، وسعد بن معاذ[7] رضي الله عنهم.

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٤٦٤٩) والترمذي (٣٧٥٧) من حديث سعيد بن زيد رضي الله عنه والحديث صححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٤٠١٠).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٦١٣) ومسلم (١١٩) من حديث أنس ـ رضي الله عنه.

(٣) وفي الحديث عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال أتى جبريل النبي ﷺ فقال يا رسول الله هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني وبشرها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب».
والحديث في البخاري (٣٨٢١) ومسلم (٢٤٣٢).

(٤) أخرجه مسلم (٢٤٥٧) من حديث جابر ـ رضي الله عنه ـ.

(٥) صحيح: رواه البخاري (١٩٨٢)، ومسلم (٢٤٨١).

(٦) سبق تخريجه.

(٧) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٨٠٢) ومسلم (٢٤٦٨) من حديث البراء بن عازب ـ رضي الله عنه.

● قال الشيخ صالح الفوزان:

وقوله: (ويشهدون بالجنة لمن شهد له رسول الله ﷺ كالعشرة وثابت بن قيس ابن شماس وغيرهم من الصحابة) أي: يشهد أهل السنة والجماعة بالجنة لمن شهد له الرسول بذلك، أما من لم يشهد له الرسول ﷺ بالجنة فلا يشهدون له؛ لأن في هذا تقولاً على الله، لكن يرجون للمحسنين ويخافون على المسيئين. وهذا أصل من أصول العقيدة.

وقوله: (كالعشرة) هم: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وعبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد وأبو عبيدة بن الجراح وطلحة ابن عبيد الله رضي الله عنهم، وقد صحت الأحاديث بالشهادة لهؤلاء بالجنة.

وقوله: (وثابت بن قيس ابن شماس): هو خطيب رسول الله ﷺ، وبشارته بالجنة ثابتة في «صحيح البخاري» عن النبي ﷺ.

وقوله: (وغيرهم من الصحابة) أي: غير من ذكر ممن أخبر النبي ﷺ أنهم في الجنة، كعكاشة بن محصن، وعبد الله بن سلام وغيرهما.

❊ ❊ ❊

[أسئلة وأجوبة نموجية على: من أصول أهل السنة أنهم لا يشهدون لأحد بالجنة إلا من شهد له رسول الله ﷺ]

● قال الشيخ عبد العزيز المحمد السلمان:

س - من هم العشرة المشهود لهم بالجنة؟

ج - هم المذكورون فيما روى الترمذي في جامعه عن عبد الرحمن بن عوف عن النبي ﷺ قال: «أبو بكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعثمان في الجنة، وعليٌّ في الجنة، وعبد الرحمن بن عوف في الجنة، والزبير في الجنة، وسعد ابن أبي وقاص في الجنة، وسعيد ابن زيد في الجنة وأبو عبيدة في الجنة، وطلحة بن عبيد الله في الجنة».

وقل إن خير الناس بعد محمد ... وزيراه قدمًا ثم عثمان الأرجح
ورابعهم خير البرية بعدهم ... علي حليف الخير بالخير يمنح
وأنهم والرهط لا ريب فيهم ... على نَجْب الفردوس بالنور تسرح
سعيد وسعد وابن عوفٍ وطلحةٌ ... وعامر فهرٍ والزبير الممدَّحُ
وقل خير قول في الصحابة كلهم ... ولاتك طعانًا تعيب وتجرح
فقد نطق الوحي المبين بفضلهم ... وفي الفتح آي للصحابة تمدح

س - هل يشهد لأحدٍ بالجنة غير العشرة؟ وضح ذلك مع ذكر ما تستحضره من الأدلة.

ج - نعم كل من شهد له النبي ﷺ شهدنا له كالحسن والحسين لما في حديث أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال: «الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة»، وهما الحادي عشر والثاني عشر فوق العشرة ممن شهد لهم النبي ﷺ بالجنة.

والثالث عشر ثابت بن قيس لقوله ﷺ: «إنه من أهل الجنة».

وعبد الله بن سلام لما روى البخاري في صحيحه عن سعد ابن أبي وقاص

رضي الله عنه ـ قال: «ما سمعت النبي ﷺ يقول لأحد يمشي على وجه الأرض أنه من أهل الجنة إلا لعبد الله بن سلام».

الرابع عشر: عُكَّاشة بن محصن. لما ذكر السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، فقال ادع الله أن يجعلني منهم فقال: «أنت منهم» الحديث.

الخامس عشر: والمرأة التي قالت إني أصرع وإني أتكشف فادع الله تعالى لي فقال: **«إن شئت صبرت ولك الجنة وإن شئت دعوت الله تعالى أن يعافيك»**، فقالت: «أصبر»، ثم قالت: «إني أنكشف، فادع الله أن لا أتكشف» فدعا لها.

السادس عشر: والرجل الذي قال للنبي ﷺ يوم أحد: أرأيت إن قتلت فأين أنا؟ قال: **«في الجنة»**، فألقى تمراتٍ كن في يده ثم قاتل حتى قتل ـ والحديث في الصحيحين.

السابع عشر: وبلال، لما في حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال لبلال: **«يا بلال حدثني بأرجى عمل عملته في الإسلام فإني سمعت دف نعليك بين يدي في الجنة»** الحديث.

الثامن عشر: والأعرابي الذي أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله: دلني على عمل إذا عملته دخلت الجنة فقال: **«تعبد الله ولا تشرك به شيئًا، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت.»** قال: والذي نفسي بيده لا أزيد على هذا. فلما ولى قال النبي ﷺ **«من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا»**.

التاسع عشر: وحارثة، لما في حديث أنس ـ رضي الله عنه ـ أن أم الرُّبَيِّع بنت البراء وهي أم حارثة بن حارثة بن سراقة أتت النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، ألا تحدثني عن حارثة ـ وكان قد قتل يوم بدر ـ فإن كان في الجنة صبرت، وإن كان غير ذلك اجتهدت عليه في البكاء فقال **«يا أم حارثة إنها جِنَانٌ وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى»**.

العشرون: وجعفر، لما روى الترمذي عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«رأيت جعفر يطير في الجنة مع الملائكة»**.

الحادي والعشرون: وابن النبي ﷺ إبراهيم، لما روى البخاري عن البراءِ قال: لما توفي إبراهيم قال رسول الله ﷺ: **«إن له مرضعًا في الجنة»**.

الثاني والعشرون: وفاطمة ابنة الرسول ﷺ - رضي الله عنها - لما في الصحيحين من أنه ﷺ قال لها: «**يا فاطمة، ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء أهل الجنة؟**» وفي حديث حذيفة في آخره «**إن هذا مَلَكٌ لم ينزل الأرض قط قبل هذه الليلة استأذن ربه أن يسلم عليَّ ويبشرني بأن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة وأن الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة**».

والثالث والعشرون والرابع والعشرون والخامس والعشرون: عمار بن ياسر وأمه وأبيه، وكان رسول الله ﷺ مر بهم وهم يعذبون بالأبطح في رمضاء في مكة فيقول: «**صبراً آل ياسر موعدكم الجنة**».

السادس والعشرون: خديجة بنت خويلد زوج النبي ﷺ وبقية زوجاته اللآتي خيرهن الله بين الحياة الدنيا وزينتها وبين الله ورسوله والدار الآخرة فاخترن الله ورسوله والدار الآخرة وإليك عدد أسمائهن قال بعضهم:

توفي رسول الله عن تسع نسوة ... إليهن تُعزى المكرمات وتنسب

فعائشة ميمونة فصفية ... وحفصة تتلوهن هند وزينب

جويرية مع رملة ثم سودة ... ثلاث وست نظمهن مهذب

فيكون الجميع خمس وثلاثون المشهود لهم بالجنة هذا ما نستحضره الآن والله أعلم. وصلى الله عليه وآله وسلم.

* * *

[من أصول أهل السنة

أن خير هذه الأمة بعد نبيها هم أبو بكر، ثم عمر ثم يثلثون بعثمان، ثم يربعون بعلي رضي الله عنهم]

ويُقِرُّون بما تواترَ به النَّقلُ عن أميرِ المؤمنين عليٍّ ابن أبي طالب رضيَ اللَّهُ عنهُ وغيره؛ من أن خيرَ هَذه الأُمة بعد نبيِّها أبو بكر ثُمَّ عُمرُ، ويُثَلِّثُونَ بعُثْمَانَ، ويُرَبِّعُون بعَلِيٍّ - رضيَ اللَّه عنهم -؛ كما دَلَّتْ عليه الآثارُ.

وكما أجمع الصَّحابةُ على تقديم عثمانَ في البيعةِ، مَعَ أَنَّ بَعْض أَهْلِ السَّنَّة كانوا قد اخْتَلَفُوا في عثمانَ وَعليٍّ رضي الله عنهما بعد اتِّفَاقِهم عَلَى تَقْدِيمِ أبي بكر وعُمرَ؛ أيهما أَفْضلُ؟

فَقَدَّم قومٌ عثمانَ، وَسَكَتُوا، وْ رَبَّعُوا بعليٍّ، وقدَّم قَومٌ عليًّا، وقومٌ تَوَقَّفُوا. لكن استقرَّ أَمْرُ أهلِ السَّنة على: تقديم عثمانَ، ثُمَّ عَلِيّ.

وإن كانتْ هذه المسألةُ - مَسْأَلة عُثمانَ وعَلَيٍّ - ليستْ منَ الأُصُول التي يُضَلَّلُ المُخَالفُ فِيها عِنْدَ جُمْهُورِ أَهْلِ السُّنَّة. لكنَّ الَّتي يُضَلَّلُ فيها: مَسْأَلةُ الخلاَفَة.

وَذلك أنَّهم يُؤمنون أنَّ الخليفةَ بعدَ رَسُولِ اللَّه ﷺ: أَبُو بَكْرٍ ثم عُمَرُ، ثُمَّ عُثْمانُ، ثُمَّ عَلِيٌّ.

وَمن طَعَنَ فِي خِلاَفة أَحدٍ مِن هؤلاءِ فَهُو أَضَلُّ مِن حِمَارِ أَهْلِه.

لمين .
بعد نبيها

• الشَّرح •

• قال العلامة ناصر السعدي:

(ويقرون بما تواترَ به النَّقـل عن أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب ﷺ، وغـيره ... إلخ) .

أي: والخلافة، وخِلافة أحد الاثنين لم يكن إلا بعد مُشَاورة جميع المسلمين على اختلاف طبقاتهم، والقِصَّة مشهورة.

يُريد المؤلف رحمه اللَّه أن الخلاف الكائن بين الأمة على وجهين:

أحدهـما: الخلاف في الفروع والمَسَائل الاجتهادية التي إذا اجتهد فيها الحاكم من قاضٍ ومُـفْتٍ ومُصَنِّفٍ ومُـعَلِّمٍ فأصـاب فله أجران، وإذا اجتـهد وأخطأ فله أجر واحد.

الوجـه الثـاني: الخلاف في المسائل الأُصولية كمسائل صِفات الباري والقَدَرِ والإيمان ونحوها، وهذا يُضَلَّلُ فيها المخالف لما دل عليه الكتاب والسنة ولما كان عليه «السَّلف الصالح» من الصحابة والتابعين لهم بإحسان.

فمسألة الخلافة وتقديم «عَلِيّ» فيها عَلَى عثمان فيها يُعَدُّ من البدع التي من اعتقدها فهو في الغالب مَتَشَيِّع، وقد أزْرَى بالمهاجرين والأنصار كما قال ذلك غير واحد من السلف، وأما التَّفضيل بينهما فإنها مسألة خفيفة من جنس مسائل الخلاف في المسائل الاجتهادية.

• قال الشيخ محمد خليل هراس:

وأما قوله: «ويؤمنون بما تواتر به النقل عن أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب أو غيره من أن خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر وعمر»:

فقد ورد أن عليًّا رضي الله عنه قال ذلك على منبر الكوفة وسمعه منه الجم الغفير

. (ما مات رسول الله ﷺ حتى علمنا أن أفضلنا بعده أبو بكر، وما مات حتى علمنا أن أفضلنا بعده عمر).

وأما قوله: «ويثلثون بعثمان ويربعون بعلي إلخ»: فمذهب جمهور أهل السنة أن ترتيب الخلفاء الراشدين في الفضل على حسب ترتيبهم في الخلافة وهم لهذا يفضلون عثمان على عليّ محتجين بتقديم الصحابة عثمان في البيعة على عليّ، وبعض أهل السنة يفضل عليًّا لأنه يرى أن ما ورد من الآثار في مزايا عليّ ومناقبه أكثر. وبعضهم يتوقف في ذلك، وعلى كل حال فمسألة التفضيل ليست كما قال المؤلف من مسائل الأصول التي يضلل فيها المخالف وإنما هي مسألة فرعية يتسع لها الخلاف، وأما مسألة الخلافة فيجب الاعتقاد بأن خلافة عثمان كانت صحيحة لأنها كانت بمشورة من الستة الذين عينهم عمر رضي الله عنه ليختاروا الخليفة من بعده، فمن زعم أن خلافة عثمان كانت باطلة وأن عليًّا كان أحق بالخلافة منه فهو مبتدع ضال يغلب عليه التشيع مع ما في قوله من إزراء بالمهاجرين والأنصار.

● **قال الشيخ ابن عثيمين:**

قوله: «ويقرون بما تواتر به النقل عن أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب رضي الله عنه وغيره، من أن خير هذه الأمة بعد نبيها: أبو بكر، ثم عمر».

التواتر: خبر يفيد العلم اليقيني، وهو الذي نقله طائفة لا يمكن تواطؤهم على الكذب.

ففي «صحيح البخاري»[1] وغيره عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما؛ قال: كنا نخير بين الناس في زمن النبي ﷺ؛ فنخير أبا بكر، ثم عمر بن الخطاب، ثم عثمان بن عفان رضي الله عنهم.

وفي «صحيح البخاري»[2] أيضًا أن محمد ابن الحنفية قال: قلت لأبي: أي الناس خير بعد رسول الله ﷺ؟ قال: أبو بكر. قلت: ثم من؟ قال: ثم عمر.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٥٥) وأو داود (٤٦٢٩) من حديث ابن عمر - رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٧١) وأبو داود (٤٦٢٩) من حديث علي رضي الله عنه.

وخشيت أن يقول: عثمان؛ قلت: ثم أنت؟ قال: ما أنا إلا رجل من المسلمين.

فإذا كان علي رضي الله عنه يقول وهو في زمن خلافته إن خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر؛ فقد اندحضت حجة الرافضة الذين فضلوه عليهما.

قوله: «وغيره»؛ يعني: غير علي من الصحابة والتابعين.

وهذا متفق عليه بين الأئمة.

ـ قال الإمام مالك ـ رحمه الله ـ: لم يختلف الصحابة والتابعون في تقديم أبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

ومن خرج عن هذا الإجماع؛ فقد اتبع غير سبيل المؤمنين.

وقوله: **«ويثلثون بعثمان، ويربعون بعلي؛ رضي الله عنهم؛ كما دلت عليه الآثار»**.

«يثلثون»؛ يعني: أهل السنة؛ أي: يجعلون عثمان رضي الله عنه هو الثالث.

«ويربعون بعلي»؛ أي: يجعلون عليًّا هو الرابع.

وعلى هذا؛ فأفضل هذه الأمة هؤلاء الأربعة: أبو بكر، ثم عمر، وهذا بالإجماع، ثم عثمان، ثم علي.

ثم استدل المؤلف لهذا الترتيب بدليلين:

الأول: قوله: «كما دلت عليه الآثار»؛ وقد سبق ذكر شيء منها.

والثاني: قوله: «وكما أجمع الصحابة على تقديم عثمان في البيعة».

فصار في تقديم عثمان على علي رضي الله عنهما آثار نقلية، وفيه أيضًا عقلي، وهو إجماع الصحابة على تقديم عثمان في البيعة؛ فإن إجماعهم على ذلك يستلزم أن عثمان أفضل من علي وهو كذلك؛ لأن حكمة الله عز وجل تأبى أن يولى على خير القرون رجلا وفيه من هو أفضل منه؛ كما جاء في الأثر: «كما تكونون يولّى عليكم»؛ فخير القرون لا يولّي الله عليهم إلا من خيرهم.

قوله: «مع أن بعض أهل السنة كانوا قد اختلفوا في عثمان وعلي رضي الله عنهما بعد اتفاقهما على تقديم أبي بكر وعمر؛ أيهما أفضل؟ فقدم قوم عثمان، وسكتوا، أو ربعوا بعلي»:

فيقولون: أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، يسكتون، أو يقولون: ثم علي.

قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: «وقدم قوم عليًّا»؛ فقالوا: أبو بكر، ثم عمر. وتوقفوا أيهما أفضل: عثمان أو علي؟ وهذا غير الرأي الأول.

فالآراء أربعة:

ـ الرأي المشهور: أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي.

ـ الرأي الثاني: أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم السكوت.

ـ الرأي الثالث: أبو بكر، ثم عمر، ثم علي، ثم عثمان.

ـ الرأي الرابع: أبو بكر، ثم عمر، ثم نتوقف أيهما أفضل: عثمان أو علي؛ فهم يقولون: لا نقول: عثمان أفضل، ولا علي أفضل، لكن لا نرى أحدًا يتقدم على عثمان وعلي في الفضيلة بعد أبي بكر وعمر.

قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: «لكن استقر أمر أهل السنة على تقديم عثمان ثم علي»:

هذا الذي استقر عليه أمر أهل السنة؛ فقالوا: أفضل هذه الأمة بعد نبيها: أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي، على ترتيبهم في الخلافة. وهو الصواب؛ كما سبق دليله.

قوله: «وإن كانت هذه المسألة ـ مسألة عثمان وعلي ـ ليست من الأصول التي يُضلل المخالف فيها عند جمهور أهل السنة».

يعني: المفاضلة بين عثمان وعلي رضي الله عنهما ليست من أصول أهل السنة التي يضلل فيها المخالف؛ فمن قال: إن عليًا أفضل من عثمان؛ فلا نقول: إنه ضال، بل نقول: هذا رأي من آراء أهل السنة، ولا نقول فيه شيئًا.

قوله: «لكن التي يُضَلَّل فيها مسألة الخلافة»: فيجب أن نقول: الخليفة بعد نبينا

في أمته أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي. ومن قال: إن الخلافة لعلي دون هؤلاء الثلاثة؛ فهو ضال، ومن قال: إنها لعلي بعد أبي بكر وعمر؛ فهو ضال؛ لأنه مخالف لإجماع الصحابة رضي الله عنهم.

ولهذا قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: «**وذلك أنهم يؤمنون أن الخليفة بعد رسول الله ﷺ: أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي**».

وهذا ما أجمع عليه أهل السنة في مسألة الخلافة.

قوله: «**ومن طعن في خلافة أحد من هؤلاء؛ فهو أضل من حمار أهله**».

الذي يطعن في خلافة أحد من هؤلاء، ويقول: إنه لا يستحق الخلافة! أو: إنه أحق ممن سبقه! فهو أضل من حمار أهله.

وعبر المؤلف ـ رحمه الله ـ بهذا التعبير؛ لأنه تعبير الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ ولا شك أنه أضل من حمار أهله، وإنما ذكر الحمار؛ لأنه أبلد الحيوانات على الإطلاق؛ فهو أقل الحيوانات فهمًا؛ فالطعن في خلافة أحد من هؤلاء أو في ترتيبه طعنٌ في الصحابة جميعًا.

فيجب علينا أن نعتقد بأن الخليفة بعد رسول الله ﷺ أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي، وأنهم في أحقية الخلافة على هذا الترتيب، حتى لا نقول: إن هناك ظلمًا في الخلافة؛ كما ادعته الرافضة حين زعموا أن أبا بكر وعمر وعثمان والصحابة كلهم ظلمة؛ لأنهم ظلموا علي بن أبي طالب؛ حيث اغتصبوا الخلافة منه.

أما من بعدهم؛ فإننا لا نستطيع أن نقول: أن كل خليفة استخلفه الله على الناس؛ فهو أحق بالخلافة من غيره؛ لأن من بعدهم ليسوا في خير القرون، بل حصل فيهم من الظلم والانحراف والفسوق ما استحقوا به أن يولي عليهم من ليس أحق بالخلافة منهم؛ كما قال الله تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾ [الأنعام: ١٢٩].

واعلم أن الترتيب في الأفضلية على ما سبق لا يعني أن من فضل غيره؛ فإنه

يفضله في كل شيء، بل قد يكون للمفضول فضيلة لم يشاركه فيها أحد، وتميز أحد هؤلاء الأربعة أو غيرهم بميزة يفضل بها غيره لا يدل على الأفضلية المطلقة؛ فيجب التفريق بين الإطلاق والتقييد.

● قال الشيخ صالح الفوزان:

قوله: **(ويقرون بما تواتر به النقل عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وغيره)** أي: يعترف أهل السنة والجماعة ويعتقدون **(ما تواتر به النقل)** أي: ما ثبت بطريق التواتر ـ والتواتر: هو أقوى الأسانيد ـ **(عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وغيره)** من الصحابة **(أن خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر ويثلثون بعثمان)** أي: يجعلونه الثالث في الترتيب **(ويربعون بعلي)** أي: يجعلونه الرابع **(رضي الله عنهم)**، وفي هذه الرواية المتواترة عن علي رد على الرافضة الذين يفضلون عليًّا على أبي بكر وعمر ويقدمونه عليهما في الخلافة فيطعنون في خلافة الشيخين. وهذا البحث يتضمن مسألتين.

الأولى: مسألة الخلافة.

الثانية: مسألة التفضيل. فأما مسألة الخلافة فقد أجمع أهل السنة والجماعة بما فيهم الصحابة رضي الله عنهم على أن الخليفة بعد رسول الله ﷺ أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي.

وأما مسألة التفضيل فقد أجمعوا على أن أفضل هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر، كما تواتر به النقل عن علي.

واختلفوا في عثمان وعلي رضي الله عنهما أيهما أفضل وقد ذكر الشيخ هنا في المسألة ثلاثة أقوال حيث يقول: **(فقدم قوم عثمان وسكتوا وربعوا بعلي، وقدم قوم عليًا، وقوم توقفوا)** هذا حاصل الخلاف في المسألة: تقديم عثمان، تقديم علي، التوقف عن تقديم أحدهما على الآخر.

وأشار الشيخ إلى ترجيح الرأي الأول وهو تقديم عثمان لأمور: الأمر الأول: أن هذا هو الذي دلت عليه الآثار الواردة في مناقب عثمان رضي الله عنه.

الثاني: إجماع الصحابة على تقديم عثمان في البيعة وما ذاك إلا أنه أفضل فترتيبهم في الفضل كترتيبهم في الخلافة.

الثالث: أنه استقر أمر أهل السنة على تقديم عثمان ثم علي، كما سبق أنهم قدموه في البيعة، قال عبد الرحمن بن عوف لعلي رضي الله عنه: إني نظرت أمر الناس فلم أرهم يعدلون بعثمان. قال أبو أيوب: من لم يقدم عثمان على علي فقد أزرى بالمهاجرين والأنصار، فهذا دليل على أن عثمان أفضل؛ لأنهم قدموه باختيارهم بعد تشاورهم، وكان علي رضي الله عنه من جملة من بايعه، وكان يقيم الحدود بين يديه.

أبدى الشيخ رحمه الله موازنة بين المسألتين: مسألة تقديم علي على عثمان في الفضل؛ ومسألة تقديم علي على غيره في الخلافة من حيث ما يترتب على ذلك التقديم من خطورة.

فبين أن مسألة تفضيل علي على عثمان لا يضلل - أي: لا يحكم بضلال - من قال بها؛ نظراً لوجود الخلاف فيها بين أهل السنة، وإن كان الراجح تفضيل عثمان رضي الله عنه.

(**لكن التي يضلل فيها مسألة الخلافة**) أي: يحكم بضلال من خالف فيها فرأى تقديم علي في الخلافة على عثمان أو غيره من الخلفاء الذين سبقوه، أو قدم علياً على أبي بكر وعمر في الفضيلة.

فأهل السنة والجماعة يؤمنون بأن الخليفة بعد رسول الله ﷺ أبو بكر الصديق رضي الله عنه؛ لفضله وسابقته وتقديم النبي ﷺ له على جميع الصحابة وإجماع الصحابة على بيعته. ثم الخليفة من بعد أبي بكر عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ لفضله، وسابقته، وعهد أبي بكر إليه، واتفاق الأمة عليه بعد أبي بكر، ثم الخليفة بعد عمر عثمان بن عفان رضي الله عنه؛ لتقديم أهل الشورى له واتفاق الأمة عليه، ثم بعد عثمان الخليفة علي رضي الله عنه؛ لفضله، وإجماع أهل عصره عليه، فهؤلاء هم الخلفاء الأربعة المشار إليهم في حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه

بقوله ﷺ: «**عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي**»[١].

ولهذا قال الشيخ: «ومن طعن في خلافة أحد من هؤلاء» يعني: الأربعة المذكورين «**فهو أضل من حمار أهله**»؛ لمخالفته النص والإجماع من غير حجة ولا برهان، وذلك كالرافضة الذين يزعمون: أن الخلافة بعد النبي ﷺ لعلي ابن أبي طالب.

والحاصل في مسألة تقديم علي رضي الله عنه على غيره من الخلفاء الثلاثة:

١ ـ من قدمه في الخلافة فهو ضال بالاتفاق.

٢ ـ من قدمه في الفضيلة على أبي بكر وعمر فهو ضال أيضًا، ومن قدمه على عثمان في الفضيلة فلا يضلل، وإن كان هذا خلاف الراجح.

* * *

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٧٦) وابن ماجه (٤٢). وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٢٥٤٩).

[أسئلة وأجوبة نموذجية على من أصول أهل السنة أن خير هذه الأمة بعد نبيها هم أبو بكر، ثم عمر ثم يثلثون بعثمان، ثم يُربعون بعلي رضي الله عنهم]

● قال الشيخ عبد العزيز المحمد السلمان:

س ـ من هم الخلفاء الراشدون ومن الذين يلونهم في الأفضلية؟

ج ـ هم: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، ويليهم في الأفضلية باقي العشرة المتقدم ذكرهم، فأهل بدر، ثم أهل الشجرة.

وقيل: أهل أحد المقدمة في الزمن والأفضلية والقول الأولى أولى لورود النصوص من الكتاب والسنة وتقدمت الآية والحديث بعدها.

وروى البخاري ومسلم وغيرهما من حديث جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ قال: كنا في الحديبية ألفًا وأربعمائة فقال لنا رسول الله ﷺ: **«أنتم خير أهل الأرض»**.

وروي عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال لأهل الحديبية: **«لا يدرك قوم بعدكم صاعكم ولا مُدَّكم»**.

وعن جابر ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«ليدخلن الجنة من بايع تحت الشجرة إلا صاحب الجمل الأحمر»**..

س ـ من أحق الصحابة بالخلافة ومن الذي يلي الأحق بالخلافة؟

ج ـ الأحق بها أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ لفضله وسابقته وتقديم النبي ﷺ له على جميع الصحابة وإجماع الصحابة على ذلك.

قال ابن القيم رحمه الله:

ويقول في مرض الوفاة يؤمكم عني أبو بكر بلا روغان

ويظل يمنع من إمامة غيره حتى يرى في صورة ميلان

ويقول لو كنت الخليل لواحد في الناس كان هو الخليل الداني

لكنه الأخ والرفيق وصاحبي وله علينا منة الإحسان

ويقول للصديق يوم الغار لا تحزن فنحن ثلاثة لا اثنان

الله ثالثنا وتلك فضيلة ما حازها إلا فتًى عثمان

ثم من بعده عمر - رضي الله عنه - لفضله وعهد أبي بكر إليه، ثم عثمان - رضي الله عنه - لفضله وتقديم أهل الشورىٰ له، ثم علي - رضي الله عنه - لفضله وإجماع أهل عصره عليه قال ﷺ: «**الخلافة بعدي ثلاثون سنة**» فكان آخرها خلافة علي فذهب أهل السنة إلىٰ أن ترتيب الخلفاء في الفضل علىٰ حسب ترتيبهم في الخلافة، ومن اعتقد أن خلافة عثمان - رضي الله عنه - غير صحيحةٍ فهو ضال.

س - اذكر شيئًا من فضائل الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين

ج - من مزاياهم أولاً: الإيمان بالله وبرسوله.

ثانيًا: الجهاد في سبيل الله والهجرة والنصرة والعلم النافع والعمل الصالح ومن نظر في سيرة القوم في علم وبصيرة وما منَّ الله عليهم به من الفضائل علم يقينا أنهم خير الخلق بعد الأنبياء، لا كان ولا يكون مثلهم، وأنهم الصفوة من قرون هذه الأمة التي هي خير الأمم وأكرمها علىٰ الله.

قال السفاريني:

وليس في الأمة كالصحابة في الفضل والمعروف والإصابة

فإنهم قد شاهدوا المختارا وعاينوا الأسرار والأنوارا

و. باهدوا في الله حتى بانا ... دين الهدى وقد سما الأديانا

وقد أتى في محكم التنزيل ... من فضلهم ما يشفي من غليلي

وفي الأحاديث وفي الآثار ... وفي كلام القوم والأشعار

ما قد ربا من أن يحيط نظمي ... ببعضه فاقنع وخذ من علم

س ـ ما رأي أهل السنة والجماعة حول جواز الذنوب على الصحابة؟

ج ـ هو أنهم لا يعتقدون أن كل واحد من الصحابة معصوم عن كبائر الإثم وصغائره بل يجوز عليهم الذنوب في الجملة، ولهم من السوابق والفضائل ما يوجب مغفرة ما صدر منهم إن صدر حتى إنه يغفر لهم من السيئات ما لا يغفر لمن بعدهم.

وقد ثبت بقول رسول الله ﷺ أنهم خير القرون وأن المد من أحدهم إذا تصدق به كان أفضل من جبل أحد ذهبًا ممن بعدهم ثم إذا كان قد صدر من أحدهم ذنب فيكون قد تاب منه، أو أتى بحسنات تمحوه، أو غفر له بسبب سابقته أو بشفاعة النبي ﷺ الذي أحق الناس بشفاعته أصحابه أو ابتلي ببلاء في الدنيا كفر به عنه.

فإذا كان هذا في الذنوب المحققة فكيف بالأمور التي كانوا فيها مجتهدين إن أصابوا فلهم أجران، وإن أخطئوا فلهم أجر واحد، والخطأ مغفور وقد قال ﷺ: «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان».

وفي حديث أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ «يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعًا فاستغفروني أغفر لكم...» إلخ.

س ـ ما موقف أهل السنة والجماعة حول الآثار المروية في مساوئهم؟

ج ـ يرون أن هذه الآثار منها ما هو كذب محض ومنها ما هو محرف ومغير عن وجهه إما بزيادة أو نقص يخرجه إلى الذم والطعن والصحيح منه هم فيه معذرون إما

مجتهدون مخطئون، والخطأ مغفور، وإما مجتهدون مصيبون.

وفي «الصحيحين» عن أبي هريرة وعمرو بن العاص - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران وإن اجتهد فأخطأ فله أجر واحد**».

* * *

[من أصول أهل السنة حبُّ أهل البيت وولايتهم وحفظ وصية رسول الله ﷺ فيهم]

وَيُحِبُّونَ أَهْلَ بَيْتِ رَسولِ اللَّه ﷺ، وَيَتَولَّوْنَهُم.

وَيَحْفَظُونَ فِيهِم وَصِيَّةَ رَسُولِ اللَّه ﷺ؛ حَيْثُ قال يَوْم غدير خُمٍّ: «أُذَكِّرُكُم اللَّهَ فِي أَهْلِ بَيتِي».

وقال أيضًا للعَبّاس عَمِّه؛ وقد اشتكى إليه أنَّ بعضَ قُرَيش يَجْفُو بَني هاشمٍ؛ فقال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِه؛ لا يُؤْمِنُون حتى يُحِبُّوكم للَّه وَلِقَرَابَتي».

وقال: «إنَّ اللَّهَ اصْطَفَى بني إسْمَاعِيل، واصْطَفَى من بَنِي إسْمَاعِيلَ كِنَانَةَ، واصْطَفَى من كِنَانَةَ قُرَيشًا، واصْطَفَى من قريش بَنِي هَاشِمٍ، واصْطَفَاني مِن بَني هَاشِمٍ».

• الشَّرح •

● قال العلامة ناصر السعدي:

فمحبة أهل بيت النَّبي ﷺ واجبة من وجوه:

منها: لإسْلامهم وفَضْلهم وسوابقهم.

ومنها: لما تميَّزوا به من قُرْب النَّبي ﷺ واتِّصال نسبه.

ومنها: لما حَثَّ عليه وَرَغَّب فيه.

ومنها: ولما في ذلك من علامة محبة الرسول ﷺ.

فهو ﷺ خيار من خيار من خيار، وقد جمع الله له أنواع الشرف من كل وجه.

فإن جميع أولاده الذُّكور والإناث منها إلاَّ إبراهيم فإنه من سَرِيَّتِهِ «مارية القبطية».

● **قال الشيخ محمد خليل هراس:**

«**أهل بيته ﷺ**»: هم: من تحرم عليهم الصدقة وهم آل علي وآل جعفر وآل عقيل وآل العباس، وكلهم من بني هاشم ويلحق بهم بنو المطلب لقوله عليه السلام: «**إنهم لم يفارقونا جاهلية ولا إسلامًا**» فأهل السنة والجماعة يرعون لهم حرمتهم وقرابتهم من رسول الله ﷺ كما يحبونهم لإسلامهم وسبقهم وحسن بلائهم في نصرة دين الله عز وجل.

«**وغدير خم**»: بضم الخاء، قيل اسم رجل صباغ أضيف إليه الغدير الذي بين مكة والمدينة بالجحفة. وقيل خم اسم غيضة هناك نسب إليها الغدير، والغيضة الشجر الملتف.

وأما قوله عليه السلام لعمه: «**والذي نفسي بيده لا يؤمنون حتى يحبوكم لله ولقرابتي**» فمعناه: لا يتم إيمان أحد حتى يحب أهل بيت رسول الله ﷺ لله أولاً لأنهم من أوليائه وأهل طاعته الذين تجب محبتهم وموالاتهم فيه. وثانيًا لمكانهم من رسول الله واتصال نسبهم به.

● **قال الشيخ ابن عثيمين:**

قوله: «ويحبون أهل بيت رسول الله ﷺ ويتولونهم».

أي: ومن أصول أهل السنة والجماعة أنهم يحبون آل بيت رسول الله ﷺ؛ يحبونهم لأمرين: للإيمان، وللقرابة من رسول الله ﷺ، ولا يكرهونهم أبدًا.

ولكن لا يقولون كما قال الرافضة: كل من أحب أبا بكر وعمر؛ فقد أبغض عليًّا!! وعلى هذا؛ فلا يمكن أن نحب عليًّا حتى نبغض أبا بكر وعمر!! وكأن أبا بكر

وعمر أعداء لعلي ابن أبي طالب!! مع أنه قد تواتر النقل عن علي رضي الله عنه أنه كان يثني عليهما على المنبر.

فنحن نقول: إننا نشهد الله على محبة آل بيت الرسول ﷺ وقرابته؛ نحبهم لمحبة الله ورسوله.

- ومن أهل بيته أزواجه بنص القرآن قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا * وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا * يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا * وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا * يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا * وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢٨-٣٣]؛ فأهل البيت هنا يدخل فيها أزواج الرسول عليه الصلاة والسلام بلا ريب.

- وكذلك يدخل فيه قرابته؛ فاطمة وعلي والحسن والحسين وغيرهم كالعباس بن عبد المطلب وأبنائه.

فنحن نحبهم لقرابتهم من رسول الله عليه الصلاة والسلام، ولإيمانهم بالله.

فإن كفروا؛ فإننا لا نحبهم، ولو كانوا من أقارب الرسول عليه الصلاة والسلام؛ فأبو لهب عم الرسول عليه الصلاة والسلام لا يجوز أن نحبه بأي حال من الأحوال، بل يجب أن نكرهه لكفره ولإيذائه النبي ﷺ، وكذلك أبو طالب؛ يجب علينا أن نكرهه لكفره، لكن نحب أفعاله التي أسداها إلى الرسول عليه الصلاة والسلام من الحماية والذب عنه.

قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: «ويتولونهم» أي: يجعلونهم من أوليائهم والولي: يطلق على عدة معان؛ يطلق على الصديق، والقريب، والمتولّي للأمر، وغير ذلك من الموالاة والنصرة. وهنا يشمل النصرة والصداقة والمحبة.

قوله: ويحفظون فيهم وصية رسول الله ﷺ؛ حيث قال يوم غدير خم: «أذكركم الله في أهل بيتي»(١).

«وصية الرسول ﷺ»؛ أي: عهده الذي عهد به إلى أمته.

و«يوم غدير خم»: هو اليوم الثامن عشر من ذي الحجة. وهذا الغدير ينسب إلى رجل يسمى (خم)، وهو في الطريق الذي بين مكة والمدينة، قريب من الجحفة، نزل الرسول عليه الصلاة والسلام فيه منزلا في رجوعه من حجة الوداع، وخطب الناس، وقال: «أذكركم الله في أهل بيتي»؛ ثلاثًا؛ يعني: اذكروا الله؛ اذكروا خوفه وانتقامه إن أضعتم حق آل البيت، واذكروا رحمته وثوابه إن قمتم في حقهم.

قوله: وقال أيضًا للعباس عمه وقد اشتكى إليه أن بعض قريش يجفو بني هاشم؛ فقال: «والذي نفسي بيده؛ لا يؤمنون حتى يحبوكم لله ولقرابتي»(٢).

«أيضًا»: مصدر آض يئيض؛ أي: رجع، وهو مصدر لفعل محذوف، والمعنى: عودًا على ما سبق.

«يجفو»: يترفع ويكره.

«هاشم»: هو جد أبي الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

فأقسم ﷺ أنهم لا يؤمنون؛ أي: لا يتم إيمانهم؛ حتى يحبوكم لله، وهذه المحبة يشاركهم فيها غيرهم من المؤمنين؛ لأن الواجب على كل إنسان أن يحب كل مؤمن لله.

لكن قال: «ولقرابتي»: فهذا حب زائد على المحبة لله، ويختص به آل البيت قرابة النبي عليه الصلاة والسلام.

وفي قول العباس: «إن بعض قريش يجفو بني هاشم» دليل على أن جفاء آل البيت كان موجودًا منذ حياة النبي ﷺ، وذلك لأن الحسد من طبائع البشر؛ إلا من عصمه الله عز وجل، فكانوا يحسدون آل بيت الرسول عليه الصلاة والسلام على ما

---

(١) أخرجه مسلم (٢٤٠٨) وأحمد في «مسنده» (٤/ ٣٦٦) من حديث زيد بن أرقم ـ رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (١/ ٢٠٧) من حديث عبد المطلب بن ربيعة ـ رضي الله عنه ـ.

منَّ الله به عليهم من قرابة النبي ﷺ، فيجفونهم ولا يقومون بحقهم.

قوله: «وقال: إن الله اصطفى بني إسماعيل، واصطفى من بني إسماعيل كنانة، واصطفى من كنانة قريشًا، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»[١].

وهذا دليل على أن بني هاشم مصطفون عند الله، مختارون من خلقه.

فعقيدة أهل السنة والجماعة بالنسبة لآل البيت: أنهم يحبونهم، ويتولونهم، ويحفظون فيهم وصية الرسول ﷺ في التذكير بهم، ولا ينزلونهم فوق منزلتهم، بل يتبرؤون ممن يغلون فيهم، حتى يوصلوهم إلى حد الألوهية؛ كما فعل عبد الله بن سبأ في علي بن أبي طالب رضي الله عنه حين قال له: أنت الله! والقصة مشهورة.

و«إسماعيل»: هو ابن إبراهيم الخليل، وهو الذي أمر الله إبراهيم بذبحه، وقصته في سورة الصافات.

و«كنانة»: هو الأب الرابع عشر لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

و«قريش»: هو الأب الحادي عشر لرسول الله ﷺ، وهو فهر بن مالك، وقيل: الأب الثالث عشر، وهو النضر بن كنانة.

و«هاشم»: هو الأب الثالث لرسول الله ﷺ.

● قال الشيخ صالح الفوزان:

بين الشيخ رحمه الله في هذا مكانة أهل البيت عند أهل السنة والجماعة وأنهم (**يحبون أهل بيت رسول الله ﷺ**)، وأهل البيت: هم آل النبي ﷺ الذين حرمت عليهم الصدقة، وهم آل علي وآل جعفر وآل عقيل وآل العباس وبنو الحارث بن عبد المطلب. وأزواج النبي ﷺ وبناته من أهل بيته، كما قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ**﴾ الآية [الأحزاب: ٣٣].

فأهل السنة يحبونهم ويحترمونهم ويكرمونهم؛ لأن ذلك من احترام النبي ﷺ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٧٦) وأحمد في «مسنده» (٤/ ١٠٧) والترمذي (٣٦١٢) من حديث واثله بن الأسقع ـ رضي الله عنه.

وإكرامه، ولأن الله ورسوله قد أمرا بذلك، قال تعالىٰ: ﴿قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ [الشورىٰ: ٢٣]، وجاءت نصوص من السنة بذلك منها ما ذكره الشيخ. وذلك إذا كانوا متبعين للسنة مستقيمين علىٰ الملة كما كان عليه سلفهم كالعباس وبنيه وعلي وبنيه، أما من خالف السنة ولم يستقم علىٰ الدين فإنه لا تجوز محبته ولو كان من أهل البيت.

وقوله: (**ويتولونهم**)-أي: يحبونهم-من الولاية بفتح الواو وهي المحبة.

وقوله: (**ويحفظون فيهم وصية رسول الله ﷺ**)أي: يعملون بها ويطبقونها (**حيث قال يوم غدير خم**) الغدير: هنا هو مجمع السيل، و (**خم**) قيل: اسم رجل: نسب الغدير إليه. وقيل: هو الغيضة، أي: الشجر الملتف، نسب هذا الغدير إليها؛ لأنه واقع فيها، وهذا الغدير كان في طريق المدينة مر به ﷺ في عودته من حجة الوداع وخطب فيه فكان من خطبته ما ذكره الشيخ: «**أذكركم الله في أهل بيتي**»[(١)] أي: أذكركم ما أمر الله به في حق أهل بيتي من احترامهم وإكرامهم والقيام بحقهم.

(**وقال أيضًا: للعباس عمه**)هو العباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف (**وقد اشتكى إليه**) أي: أخبره بما يكره (**أن بعض قريش يجفو**) الجفاء: ترك البر والصلة (**فقال**) أي: النبي ﷺ: «**والذي نفسي بيده**» هذا قسم منه ﷺ «**لا يؤمنون**» أي: الإيمان الكامل الواجب «**حتى يحبوكم لله ولقرابتي**»[(٢)] أي: لأمرين:

الأول:التقرب إلىٰ الله بذلك؛ لأنهم من أوليائه.

الثاني:لكونهم قرابة رسول الله ﷺ، وفي ذلك إرضاء له وإكرام له. (**وقال**)[(٣)] النبي ﷺ مبينًا فضل بني هاشم الذين هم قرابته: «**إن الله اصطفى**» أي: اختار، والصفوة: الخيار «**بني إسماعيل**» بن إبراهيم الخليل عليهما السلام «**واصطفى من بني إسماعيل كنانة**» اسم قبيلة، أبوهم كنانة بن خزيمة «**واصطفى من كنانة قريشًا**»، وهم أولاد مضر بن كنانة «**واصطفى من قريش بني هاشم**» وهم بنو هاشم بن عبد مناف

---

(١)أخرجه مسلم (٢٤٠٨) والدارمي (٣٣١٦).

(٢)أخرجه أحمد في «مسنده» (١/ ٢٠٧) بلفظ «لا يدخل قلب امرئ إيمان حتىٰ يحبكم لله ولقرابتي».

(٣)أخرجه مسلم (٢٢٧٦) والترمذي (٣٦٠٥).

«واصطفاني من بني هاشم»، فهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان.

والشاهد من الحديث: أن فيه دليلاً على فضل العرب، وأن قريشًا أفضل العرب وأن بني هاشم أفضل قريش، وأن الرسول ﷺ أفضل بني هاشم فهو أفضل الخلق نفسًا وأفضلهم نسبًا، وفيه فضل بني هاشم الذين هم قرابة الرسول ﷺ.

* * *

[أسئلة وأجوبة نموذجية على من أصول أهل السنة حبُّ أهل البيت وولايتهم وحفظ وصية رسول الله ﷺ فيهم]

● قال الشيخ عبد العزيز المحمد السلمان:

س ـ من أهل بيت رسول الله ﷺ؟ ومن أفضلهم؟

ج ـ هم الذين حرمت عليهم الصدقة، وهم آل عليّ، وآل جعفر، وآل عقيل، وآل عباس، وبنو الحارث بن عبد المطلب، وكذلك أزواجه من أهل بيته كما دل عليه سياق آية الأحزاب، وأفضلهم علي وفاطمة والحسن والحسين الذين أدار عليهم الكساء وخصهم بالدعاء.

قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن مصعب، حدثنا الأوزاعي، حدثنا شداد بن عمار قال: دخلت على واثلة بن الأسقع وعنده قوم فذكروا عليًّا فلما قاموا قال: ألا أخبركم بما رأيت من رسول الله ﷺ قلت: بلى قال: أتيت فاطمة ـ رضي الله عنها ـ أسألها عن عليّ ـ رضي الله عنه.

فقالت: توجه إلى رسول الله ﷺ فجلست أنتظره حتى جاء رسول الله ﷺ ومعه عليّ والحسن والحسين ـ رضي الله عنهم ـ آخذًا كل واحد منهما بيده، حتى دخل فأدنى عليًّا وفاطمة ـ رضي الله عنهما ـ كل واحد منهما على فخذه.

ثم لف عليهما ثوبه ـ أو قال كساءه، ثم تلا صلى الله عليه وسلم هذه الآية: ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا﴾ وقال: «اللهم هؤلاء أهل بيتي، وأهل بيتي أحق».

قال في سلم الوصول إلى علم الأصول:

وأهل بيت المصطفى الأطهار ... وتابعيه السادة الأخيار

فكلهم في محكم القرآن ... أثنى عليهم خالق الأكوان

في الفتح والحديد والقتال وغيرها بأكمل الخصال
كذاك في التوراة والإنجيل صفاتهم معلومة التفضيل
وذكرهم في سنة المختار قد سار سير الشمس في الأقطار

س ـ ما الواجب نحو أهل بيت رسول الله ﷺ؟

ج ـ الواجب محبتهم وتولِّيهم واحترامهم وإكرامهم لله، ولقرابتهم من رسول الله ﷺ، ولإسلامهم وسبقهم وحسن بلائهم في نصرة دين الله، وغير ذلك من فضائلهم، فاحترامهم ومحبتهم والبر بهم من توقيره ﷺ واحترامه، وامتثالاً لما جاء في الكتاب والسنة من الحث على ذلك. قال تعالى: ﴿**قل لا أسألكم عليه أجرًا إلا المودة في القربى**﴾.

س ـ ما هي وصية رسول الله ﷺ في أهل بيته؟

ج ـ هي قوله ﷺ يوم غدير خُمٍّ: «**أذكركم الله في أهل بيتي**».

وقال للعباس أيضًا وقد اشتكى إليه أن بعض قريش يجفو بني هاشم فقال: «**والذي نفسي بيده لا يؤمنون حتى يحبوكم لله ولقرابتي**».

وقال: «**إن الله اصطفى بني إسماعيل، واصطفى من بني إسماعيل كنانة، واصطفى من كنانة قريشًا، واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم**»، فهذا يتضمن الحث على احترامهم وتوقيرهم والإحسان إليهم.

* * *

[من أصول أهل السنة الولاء لزوجات النبي ﷺ وخصوصًا خديجة وعائشة رضي الله عنهن أجمعين]

وَيَتَولَّوْنَ أزواجَ رَسُول اللَّه - ﷺ - أمهاتِ المؤمنينَ. يُؤمِنُونَ: بأنهنَّ أزواجُهُ في الآخرة. خُصُوصًا «خديجةَ» - رضي الله عنها - أمَّ أكثرِ أَوْلادِه، وأَوَّلُ مَن آمَنَ بِه وعَاضَدَه علَى أَمْرِه، وكَان لَهَا مِنْهُ المنزلَةُ العَاليَةُ.

والصِّدِّيقَةَ بنتَ الصِّديقِ رضي الله عنها - التي قال فيها النَّبِيُّ - ﷺ -: «فَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَام».

• الشَّرح •

● قال العلامة ناصر السعدي:

«ويتولَّونَ أزواجَ رسول الله ﷺ أمهات المؤمنين، ويؤمنون بأنهنَّ أزواجُهُ في الأخرة خصوصًا خديجة رضي الله عنها، أمُّ أكثرِ أولادِه»: فإن جميع أولاده الذُّكور والإناث منها إلاَّ إبراهيم فإنه من سَرِيَّتِه «مارية القبطية».

«وأول من آمن به وعاضدَه على أمره، وكان لها منهُ المنزلة العالية، والصدِّيقة بنت الصدِّيق رضي الله عنها التي قال فيها النبيُّ ﷺ: «فضلَ عائشة على النساء كفضلِ الثريد على سائر الطعام».

و«عائشة» و«خديجة» هما أفضل نساء النبي ﷺ. وقد اختلف العلماء أيهما أفضل؟

والتحقيق: أن لكل واحدة منهن من الفضل والخصائص ما ليس للأخرىٰ، فلخديجة من السَّبق ومعاونة النَّبي ﷺ علىٰ أمره في أول الأمر وتَثْبيته، وكون أكثر أولاد النبي ﷺ منها ما ليس لعائشة، ولعائشة من العلم والتعليم ونفع الأمة ما ليس لخديجة رضي اللَّه عنهما.

● **قال الشيخ محمد خليل هراس:**

«**وأزواجه ﷺ**»: هن من تزوجهن بنكاح فأولهن خديجة بنت خويلد رضي الله عنها تزوجها بمكة قبل البعثة وكانت سنه خمسًا وعشرين وكانت هي تكبره بخمسة عشر عامًا، ولم يتزوج عليها حتىٰ توفيت.

وقد رزق منها بكل أولاده إلا إبراهيم، وكانت أول من آمن به وقواه علىٰ احتمال أعباء الرسالة، وقد ماتت قبل الهجرة بثلاث سنين عن خمس وستين سنة، فتزوج بعدها سودة بنت زمعة، وعقد علىٰ عائشة رضي الله عنها وكانت بنت ست سنين حتىٰ إذا هاجر إلىٰ المدينة بنىٰ بها وهي بنت تسع.

ومن زوجاته أيضًا: أم سلمة رضي الله عنها تزوجها بعد زوجها أبي سلمة، وزينب بنت جحش تزوجها بعد تطليق زيد بن حارثة لها أو علىٰ الأصح زوجه الله إياها. وجويرية بنت الحارث، وصفية بنت حيي. وحفصة بنت عمر، وزينب بنت خزيمة، وكلهن أمهات المؤمنين وهن أزواجه ﷺ، في الآخرة وأفضلهن علىٰ الإطلاق خديجة وعائشة رضي الله عنهما.

● **قال الشيخ ابن عثيمين:**

قوله: «**ويتولون أزواج رسول الله ﷺ أمهات المؤمنين**».

قوله: «**أمهات المؤمنين**»: هذه صفة لـ «أزواج»؛ فأزواج النبي ﷺ أمهات لنا في الإكرام والاحترام والصلة؛ قال تعالىٰ: ﴿**النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ**﴾ [الأحزاب: ٦]؛ فنحن نتولاهن بالنصرة والدفاع عنهن واعتقاد أنهن أفضل

أزواج أهل الأرض؛ لأنهن زوجات الرسول ﷺ.

قوله: «ويؤمنون بأنهن أزواجه في الآخرة».

لأحاديث وردت في ذلك، ولقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُم وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [غافر: ٧، ٨]، فقال: ﴿وَأَزْوَاجِهِمْ﴾؛ فأثبت الزوجية لهن بعد دخول الجنة، وهذا يدل على أن زوجة الإنسان في الدنيا تكون زوجته في الآخرة إذا كانت من أهل الجنة.

قوله: «خصوصًا خديجة رضي الله عنها أم أكثر أولاده».

«خصوصًا خديجة رضي الله عنها»: «خصوصًا»: مصدر محذوف العامل؛ أي: أخص خصوصًا.

«خديجة بنت خويلد»: تزوجها النبي ﷺ أول ما تزوج، وكان عمره حينذاك خمسًا وعشرين سنة، وعمرها أربعين سنة، وكانت امرأة عاقلة، وانتفع بها ﷺ انتفاعًا كثيرًا؛ لأنها امرأة ذات عقل وذكاء، ولم يتزوج عليها أحدًا.

فكانت كما قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: «أم أكثر أولاده»: البنين والبنات، ولم يقل المؤلف: أم أولاده؛ لأن من أولاده من ليس منها، وهو إبراهيم؛ فإنه كان من مارية القبطية.

وأولاده الذين من خديجة هم ابنان وأربع بنات: القاسم، ثم عبد الله، وقال له: الطيب، والطاهر. وأما البنات: فهن: زينب، ثم أم كلثوم، ثم فاطمة، ثم رقية. وأكبر أولاده القاسم، وأكبر بناته زينب.

قوله: «وأول من آمن به وعاضده على أمره»: لا شك أنها أول من آمن به؛ لأن النبي ﷺ لما جاءها وأخبرها بما رأى في غار حراء؛ قالت: كلا؛ والله لا يخزيك الله أبدًا. وآمنت به، وذهبت به إلى ورقة بن نوفل، وقصت عليه الخبر، وقال له: إن

هذا الناموس الذي كان ينزل على موسى[١] .

«الناموس»: أي: صاحب السر.

فآمن به ورقة.

ولهذا نقول: أول من آمن به من النساء خديجة، ومن الرجال ورقة بن نوفل.

قوله: «وعاضده على أمره»: أي: ساعده، ومن تدبر السيرة؛ وجد لأم المؤمنين خديجة رضي الله عنها من معاضدة النبي ﷺ ما لم يحصل لغيرها من نسائي.

قوله: «وكان لها منه المنزلة العالية»: حتى إنه كان يذكرها بعد موتها صلوات الله وسلامه عليه، ويرسل بالشيء إلى صديقاتها، ويقول: «إنها كانت وكانت وكان لي منها ولد»[٢]؛ فكان يثني عليها، وهذا يدل على عظم منزلتها عند الرسول ﷺ.

قوله: «والصديقة بنت الصديق رضي الله عنها»:

أما كونها صديقة؛ فلكمال تصديقها لرسول الله ﷺ، ولكمال صدقها في معاملته، وصبرها على ما حصل من الأذى في قصة الإفك، ويدلك على صدقها وصدق إيمانها بالله أنه لم نزلت براءتها؛ قالت: إني لا أحمد غير الله. وهذا يدل على كمال إيمانها وصدقها.

وأما كونها بنت الصديق رضي الله عنه؛ فكذلك أيضًا؛ فإن أباها رضي الله عنه هو الصديق في هذه الأمة، بل صديق الأمم كلها؛ لأن هذه الأمة أفضل الأمم؛ فإذا كان صديق هذه الأمة؛ فهو صديق غيرها من الأمم.

قوله: «التي قال فيها النبي ﷺ: «فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»[٣].

قوله: «على النساء»: ظاهره العموم؛ أي: على جميع النساء. وقيل: إن المراد: فضل عائشة على النساء؛ أي: من أزواجه اللاتي على قيد الحياة؛ فلا تدخل

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٨١٨) ومسلم (٢٤٣٥) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٧٦٩)، ومسلم (٢٤٣١)، من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

في ذلك خديجة.

لكن ظاهر الحديث العموم؛ لأن الرسول ﷺ قال: «**كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران، وخديجة بنت خويلد، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام**»، وقد أخرجه الشيخان بدون ذكر خديجة. وهذا يدل على أنها أفضل النساء مطلقًا.

ولكن ليست أفضل من فاطمة باعتبار النسب؛ لأن فاطمة بلا شك أشرف من عائشة نسبًا.

وأما المنزلة؛ فإن عائشة رضي الله عنها لها من الفضائل العظيمة ما لم يدركه أحد غيرها من النساء.

وظاهر كلام المؤلف ـ رحمه الله ـ أن هاتين الزوجين رضي الله عنهما في منزلة واحدة؛ لأنه قال: «خصوصًا خديجة... والصديقة»، ولم يقل: ثم الصديقة.

والعلماء اختلفوا في هذه المسألة:

ـ **فقال بعض العلماء**: خديجة أفضل؛ لأن لها مزايا لم تلحقها عائشة فيها.

ـ **وقال بعض العلماء**: بل عائشة أفضل؛ لهذا الحديث، ولأن لها مزايا لم تلحقها خديجة فيها.

ـ **وفصل بعض أهل العلم؛ فقال**: إن لكل منهما مزية لم تلحقها الأخرى فيها؛ ففي أول الرسالة لا شك أن المزايا التي حصلت عليها خديجة لم تلحقها فيها عائشة، ولا يمكن أن تساويها، وبعد ذلك، وبعد موت الرسول ﷺ، حصل من عائشة من نشر العلم ونشر السنة وهداية الأمة ما لم يحصل لخديجة؛ فلا يصح أن تفضل إحداهما على الأخرى تفضيلا مطلقًا، بل نقول: هذه أفضل من وجه، وهذه أفضل من وجه، ونكون قد سلكنا مسلك العدل؛ فلم نهدر ما لهذه من المزية، ولا ما لهذه من المزية، وعند التفصيل يحصل التحصيل.

وهما وبقية أزواج الرسول في الجنة معه.

● قال الشيخ صالح الفوزان:

ذكر الشيخ رحمه الله تعالىٰ في هذه الجملة عقيدة أهل السنة والجماعة في أزواج النبي ﷺ فقال: «ويتولون أزواج النبي ﷺ» أي: يحبونهن ويوقرونهن؛ لأنهن «أمهات المؤمنين» في الاحترام والتوقير وتحريم نكاحهن علىٰ الأمة.

أما بقية الأحكام فحكمهن حكم الأجنبيات من حيث تحريم الخلوة بهن والنظر إليهن، قال الله تعالىٰ: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، فهن أمهات المؤمنين في الاحترام والتحريم لا في المحرمية.

وقد توفي ﷺ عن تسع وهن: «عائشة وحفصة وزينب بنت جحش وأم سلمة وصفية وميمونة وأم حبيبة وسودة وجويرية»، وأما خديجة فقد تزوجها قبل النبوة ولم يتزوج عليها حتىٰ ماتت، وتزوج ﷺ زينب بنت خزيمة الهلالية ولم تلبث إلا يسيراً ثم توفيت، هؤلاء جملة من دخل بهن من النساء وهن إحدىٰ عشرة رضي الله عنهن. «ويؤمنون» أي: أهل السنة والجماعة «بأنهن أزواجه في الآخرة» وفي هذا شرف لهن وفضيلة جليلة «خصوصًا خديجة رضي الله عنها» فلها من المزايا والفضائل الشيء الكثير، وقد ذكر الشيخ منها:

١ ـ أنها أم أكثر أولاده، فكل أولاده منها ما عدا إبراهيم فمن مارية القبطية.

٢ ـ أنها أول من آمن به ـ مطلقًا علىٰ قول وهو الذي ذكر الشيخ هنا ـ أو هي أول من آمن به من النساء علىٰ القول الآخر.

٣ ـ هي أول من عاضده وأعانه في أول أمره وكانت نصرتها له في أعظم أوقات الحاجة.

٤ ـ أنها كان لها منه ﷺ المنزلة العالية فكان يحبها ويذكرها كثيراً ويثني عليها.

«**والصديقة بنت الصديق رضي الله عنها**» يعني: عائشة بنت أبي بكر، و«الصديق»: هو المبالغ في الصدق، وقد لقب النبي ﷺ أبا بكر بذلك، ولعائشة رضي الله عنها فضائل كثيرة:

منها: أنها أحب أزواج النبي ﷺ إليه، وأنه لم يتزوج بكراً غيرها، وأنه ﷺ كان ينزل عليه الوحي في لحافها، وأن الله برأها مما رماها به أهل الإفك، وأنها أفقه نسائه، وكان أكابر الصحابة إذا أشكل عليهم الأمر استفتوها، وأن الرسول ﷺ توفي في بيتها بين سحرها ونحرها ودفن في بيتها، إلى غير ذلك من فضائلها.

وقد ذكر الشيخ من فضائلها هنا: أن النبي ﷺ قال فيها: «**فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام**»[(١)] و«**الثريد**»: هو أفضل الأطعمة؛ لأنه خبز ولحم، والخبز من البر، وهو أفضل الأقوات، واللحم أفضل الإدام، فإذا كان اللحم سيد الإدام، والبُرُّ سَيِّدَ القوت، ومجموعهما الثريد ـ كان الثريد أفضل الطعام.

بين الشيخ رحمه الله في هذا:

أولاً: موقف أهل السنة والجماعة من الصحابة وأهل البيت، وأنه موقف الاعتدال والوسط بين الإفراط والتفريط، والغلو والجفاء، يتولون جميع المؤمنين لاسيما السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، ويتولون أهل البيت. يعرفون قدر الصحابة وفضلهم ومناقبهم، ويرعون حقوق أهل البيت التي شرعها الله لهم.

* * *

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥٤١٩) ومسلم (٢٤٤٦).

[أسئلة وأجوبة نموذجية على الباب]

● قال الشيخ عبد العزيز المحمد السلمان:

س ـ ما موقف أهل السنة حول أزواج النبي ﷺ أمهات المؤمنين؟

ج ـ هو أنهم يتولون أزواج النبي ﷺ ويترضون عنهن ويؤمنون أنهن أزواجه في الدنيا، والآخرة وأنهن أمهات المؤمنين في الاحترام والتعظيم وتحريم نكاحهن، وأنهنَّ مطهرات مبرءات من كل سوء، ويتبرءون ممن آذاهنَّ أو سبهنَّ.

ويحرمون الطعن فيهن وقذفهن خصوصًا خديجة بنت خويلد ـ رضي الله عنها ـ أم أكثر أولاده وأول من آمن به وعاضده وناصره على أمره، وكان لها منه المنزلة العالية.

والصديقة بنت الصديق ـ رضي الله عنها ـ التي قال فيها ﷺ: «**فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام**»، وقال فيها حسان:

حصان رزان ما تزن بريبة ... وتصبح غرثى من لحوم الغوافل

حليلة خير الناس دينًا ومنصبًا ... نبي الهدى ذي المكرمات الفواضل

عقيلة حي من لؤي بن غالب ... كرام المساعي مجدهم غير زائل

مهذبة قد طيب الله خيمها ... وطهرها من كل سوء وباطل

ومن زوجاته أم سلمة رضي الله عنها ذات الهجرتين مع زوجها أبي سلمة إلى الحبشة ثم إلى المدينة.

ومنهن زينب أم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ التي زوجه الله إياها من فوق سبع سموات.

ومنهن صفية بنت حيي ـ رضي الله عنها ـ من ولد هارون بن عمران.

ومنهن جويرية بنت الحارث ـ رضي الله عنها ـ ملك بني المصطلق.

ومنهن سودة بنت زمعة ـ رضي الله عنها ـ التي كانت من أسباب الحجاب.

ومنهن أم حبيبة ـ رضي الله عنها ـ ذات الهجرتين أيضًا .

ومنهن ميمونة بنت الحارث ـ رضي الله عنها .

س ـ من أفضل نساء النبي ﷺ؟ وضح ذلك مع ذكر ما فيه من خلاف.

ج ـ أفضل نسائه عائشة وخديجة ـ رضي الله عنهما ـ وقد وقع الخلاف بين علماء السلف في التفاضل بين عائشة وخديجة ، فقال الموفق وابن حجرٍ وغيرهما : خديجة ـ رضي الله عنها .

وقال شيخ الإسلام: جهات التفضيل بين عائشة وخديجة متقاربة وكأنه رأى التوقف ، وقدم البلباني تبعًا لابن حمدان أن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أفضل .

قال ابن القيم: إن أريد بالتفضيل كثرة الثواب عند الله فذلك أمر لا يطلع عليه إلا الله ، فإن عمل القلوب أفضل من عمل الجوارح ، وإن أريد كثرة العلم فعائشة لا محالة ، وإن أريد شرف الأصل ففاطمة أيضًا لا محالة ، وهي فضيلة لا يشركها فيها غير أخواتها ، وإن أريد شرف السيادة فقد ثبت النص لفاطمة وحدها .

قال السفاريني:

وعائشة في العلم مع خديجة ... في السبق فافهم نكتة النتيجة

* * *

[من أصول أهل السنة
التبرؤ من طريقة الروافض ومن طريقة النواصب]

ويتبـرءون من: طريقـةِ «الرَّوَافِضِ» الذين يبغـضونَ الصـحابةَ ويسبونهُم.

وطريقةِ «النَّواصب»، الَّذِينَ يُؤْذون «أَهْل البيتِ»، بِقَوْلٍ أو عَمَلٍ.

• الشَّرح •

● قال العلامة ناصر السعدي:

(ويتبـرءون من طريقة الـروافض الذين يُبغـضونَ الصحـابة ويسبـونهم. ومن طريقة النواصبِ الذين يؤذون أهل البيت بقولٍ أو عملٍ).

وأول من سَمَّى «**الروافض**» بهذا اللقب «زيدُ بن علي» الذي خَرَجَ في أوائل دولة بني العباس وبايعه كثير من الشِّيعة، ولما ناظروه في أبي بكر وعمر وطلبوا منه أن يتبرأ منهما فأبى رحمه اللَّه تَفَرَّقوا عنه فقال: رفضتموني، فَمِنْ يومئذٍ قيل لهم «الرافضة» وكانوا فرقًا كثيرة، منهم الغالية ومنهم من هم دون ذلك، وفرقهم معروفة.

وأما «**النواصب**» فهم الذين نصبوا العدواة والأذية لأهل بيت النبي ﷺ وكان لهم وجود في صَدْر هذه الأمة لأَسباب وأمور سياسية معروفة ومن زمن طويل ليس لهم وجود.

● قال الشيخ محمد خليل هراس:

يريد أن أهل السنة، والجماعة يتبرءون من طريقة الروافض التي هي الغلو في علي

وأهل بيته وبغض من عداه من كبار الصحابة وسبهم وتكفيرهم . وأول من سماهم بذلك زيد بن علي رحمه الله لأنهم لما طلبوا منه أن يتبرأ من إمامة الشيخين أبي بكر وعمر ليبايعوه أبى ذلك فتفرقوا عنه فقال : رفضتموني ، فمن يومئذ قيل لهم رافضة . وهم فرق كثيرة منهم الغالية ومنهم دون ذلك .

ويتبرءون كذلك من طريقة النواصب الذين ناصبوا أهل بيت النبوة العداء لأسباب وأمور سياسية معروفة ولم يعد لهؤلاء وجود الآن .

● قال الشيخ ابن عثيمين:

قوله: «ويتبرءون من طريقة الروافض الذين يبغضون الصحابة ويسبونهم»:

الروافض: طائفة غلاة في علي ابن أبي طالب وآل البيت ، وهم من أضل أهل البدع ، وأشدهم كرهًا للصحابة رضي الله عنهم ، ومن أراد معرفة ما هم عليه من الضلال ؛ فليقرأ في كتبهم وفي كتب من رد عليهم .

وسموا روافض لأنهم رفضوا زيد بن علي بن الحسين بن علي ابن أبي طالب عندما سألوه عن أبي بكر وعمر ، فأثنى عليهما ، وقال : هما وزيرا جدي .

أما النواصب ؛ فهم الذين ينصبون العداء لآل البيت ، ويقدحون فيهم ، ويسبونهم ؛ فهم على النقيض من الروافض .

فالروافض اعتدوا على الصحابة بالقلوب والألسن .

ـ ففي القلوب يبغضون الصحابة ويكرهونهم؛ إلا من جعلوهم وسيلة لنيل مآربهم وغلوا فيهم ، وهم آل البيت .

ـ وفي الألسن يسبونهم فيلعنونهم ويقولون: إنهم ظلمة! ويقولون : إنهم ارتدوا بعد النبي ﷺ إلا قليلا ، إلى غير ذلك من الأشياء المعروفة في كتبهم .

وفي الحقيقة إن سب الصحابة رضي الله عنهم ليس جرحًا في الصحابة رضي الله عنهم فقط ، بل هو قدح في الصحابة وفي النبي ﷺ وفي شريعة الله وفي ذات الله عز وجل :

ـ أما كونه قدحًا في الصحابة؛ فواضح .

- وأما كونه قدحًا في رسول الله ﷺ؛ فحيث كان أصحابه وأمناؤه وخلفاؤه على أمته من شرار الخلق، وفيه قدح في رسول الله ﷺ من وجه آخر، وهو تكذيبه فيما أخبر به من فضائلهم ومناقبهم.

- وأما كونه قدحًا في شريعة الله؛ فلأن الواسطة بيننا وبين رسول الله ﷺ في نقل الشريعة هم الصحابة؛ فإذا سقطت عدالتهم؛ لم يبق ثقة فيما نقلوه من الشريعة.

- وأما كونه قدحًا في الله سبحانه؛ فحيث بعث نبيه ﷺ في شرار الخلق، واختارهم لصحبته وحمل شريعته ونقلها لأمته!!.

فانظر ماذا يترتب من الطوام الكبرى على سب الصحابة رضي الله عنهم.

ونحن نتبرأ من طريقة هؤلاء الروافض الذين يسبون الصحابة ويبغضونهم، ونعتقد أن محبتهم؛ لما كانوا عليه من الإيمان والتقوى ونشر العلم ونصرة النبي ﷺ.

قوله: «**وطريقة النواصب الذين يؤذون أهل البيت بقول أو عمل**».

يعني: يتبرأ أهل السنة والجماعة من طريقة النواصب.

وهؤلاء على عكس الروافض، الذين يغلون في آل البيت، حتى يخرجوهم عن طور البشرية إلى طور العصمة والولاية.

أما النواصب؛ فقابلوا البدعة ببدعة؛ فلما رأوا الرافضة يغلون في آل البيت؛ قالوا: إذاً؛ نبغض آل البيت ونسبهم؛ مقابلة لهؤلاء في الغلو في محبتهم والثناء عليهم، ودائمًا يكن الوسط هو خير الأمور، ومقابلة البدعة ببدعة لا تزيد البدعة إلا قوة.

● **قال الشيخ صالح الفوزان:**

(ويتبرءون من طريقة الروافض) الذين يسبون الصحابة ويطعنون فيهم. ويغلون في حق علي ابن أبي طالب وأهل البيت.

(ومن طريقة النواصب) الذين ينصبون العداوة لأهل البيت ويكفرونهم ويطعنون فيهم، وقد سبق بيان مذهب أهل السنة والجماعة في الصحابة وأهل البيت، ولكن الغرض من ذكره هنا مقارنته بالمذاهب المنحرفة المخالفة له.

[أسئلة وأجوبة نموذجية على من أصول أهل السنة التبرؤ من طريقة الروافض ومن طريقة النواصب]

● قال الشيخ عبد العزيز المحمد السلمان:

س ـ ما موقف أهل السنة والجماعة حول طريقة الروافض والنواصب؟

ج ـ هو أنهم يتبرءون من طريقة الروافض، وتقدم بيانها في جواب سؤال ٣٠٦، وكذلك يتبرءون من طريقة النواصب وهم الذين نصبوا العداوة لأهل البيت؛ وتبرءوا منهم وكفروهم وفسقوهم.

فأهل السنة كما تقدم بيان طريقتهم، وأنهم يتولون جميع المؤمنين، ويعرفون قدر الصحابة وفضلهم، ويرعون حقوقهم وحقوق أهل البيت، ولا يرضون بما فعله المختار بن عبيد وغيره من الكاذبين، ولا ما فعله الحجاج وغيره من الظالمين ونختم ما يتعلق بالصحابة بما قال بعضهم فيهم:

ونشهد أن الله خص رسوله ... بأصحابه الأبرار فضلاً وأيدا

فهم خير خلق الله بعد أنبيائه ... بهم يقتدي في الدين كل من اقتدى

وأفضلهم بعد النبي محمد ... أبو بكر الصديق ذو الفضل والندى

لقد صدق المختار في كل قوله ... وآمن قبل الناس حقًا ووحدًا

وفاداه يوم الغار طوعًا بنفسه ... وواساه بالأموال حتى يتجردا

ومن بعده الفاروق لا تنس فضله ... لقد كان للإسلام حصنًا مشيدًا

لقد فتح الفاروق بالسيف عنوة ... كثير بلاد المسلمين ومهدا

وأظهر دين الله بعد خفائه ... وأطفأ نار المشركين وأخمدا

وعثمان ذو النورين قد مات صائمًا ... وقد قام بالقرآن دهرًا تهجدا

وجهز جيش العسر يومًا بماله ... ووسع للمختار والصحب مسجدا

وبايع عنه المصطفى بشماله ... مبايعة الرضوان حقًا وأشهدا

ولا تنس صهر المصطفى وابن عمه فقد كان حبرا للعلوم وسيدا
وفادى رسول الله طوعًا بنفسه عشية لما بالفراش توسدا
ومن كان مولاه النبي فقد غدا عليّ له بالحق مولا ومُنْجِدا
وطلحتهم ثم الزبير وسعدهم كذا وسعيد بالسعادة أسعدا
وكان ابن عوف باذل المال منفقا وكان ابن جراح أمينًا مؤيدا
ولا تنس باقي صحبه وأهل بيته وأنصاره والتابعين على الهدى
فكلهم أثنى الإله عليهم وأثنى رسول الله أيضًا وأكدا

* * *

[من أصول أهل السنة
الإمساك عمّا شجر بين الصحابة
وأن منهم المعذورون، ومنهم المجتهد المصيب، ومنهم المجتهد المخطئ]

ويُمْسكُون عمَّا شَجَرَ بين الصَّحابة.

ويَقُولُونَ: إنَّ هَذه الآثارَ المَرْويةَ في مَساويهمْ:

منها: مَا هُو كاذبٌ.

ومنها: مَا قد زيد فيه ونَقص، وَغُيِّر عن وجهه.

والصَّحيحُ منهُ: هم فيه مَعْذُورونَ:

إمَّا مُجْتَهِدونَ مُصيبونَ.

وإمَّا مُجْتَهِدونَ مُخْطئُونَ.

وَهُم مَعَ ذَلك لا يَعْتَقدُون أَنَّ كلَّ واحد من الصَّحابة مَعْصُومٌ عن كبائرِ الإثم وصَغَائره. بلْ يَجُوزُ عليهمُ الذنوب في الجُمْلة.

ولهم منَ السَّوَابق والفَضَائلِ مَا يُوجبُ مَغْفرةَ مَا يَصْدُر منهم إنْ صَدَرَ. حَتَّى إنَّهم يُغْفَرُ لهم من السَّيِّئات مَا لاَ يُغْفرُ لمَنْ بَعْدَهُم، لأَنَّ لهم منَ الحَسَنَات التي تَمْحُو السَّيِّئات مَا لَيْس لمَنْ بَعْدَهُم.

وَقد ثبتَ بقول رسول اللَّه ـ ﷺ ـ: «أَنَّهم خَيرُ القُرُون».

وأنَّ «المُدَّ منْ أَحَدهم إذا تصدّق به؛ كان أَفْضَل منْ جَبَلِ أُحُدٍ ذَهبًا

ممن بَعْدَهم».

ثُم إذا كان قد صَدَرَ من أَحَدهم ذَنبٌ؛ فيكونُ قد تَابَ منْهُ أَوْ أَتَى بحَسَنَات تَمْحُوهُ أَو غُفرَ لَهُ بفَضْل سَابقَته أو بشَفَاعة مُحَمَّد ـ ﷺ ـ الذي هُمْ أَحَقُّ الناس بشفاعته أو ابْتُلي ببَلاء في الدُّنيا كُفِّرَ به عَنْهُ.

فَإذَا كَانَ هذا في الذُّنوب المُحَقَّقة؛ فكيفَ الأمورُ التي كانُوا فيها مُجْتَهدينَ إنْ أَصَابُوا؛ فَلَهُم أَجْرانِ، وإنْ أخطأوا؛ فَلَهُم أجْرٌ وَاحدٌ، وَالخَطَأُ مَغْفُورٌ.

ثم إنَّ القَدْرَ الذي يُنْكَرُ من فعلِ بعضهم قَليلٌ نَزْرٌ مَغْفُورٌ في جَنْبِ فَضَائل القومِ ومَحَاسنهم من الإيمان باللَّه وَرَسُوله، والجهَاد في سَبيله، والهجْرَة، والنُّصرة، والعلْم النَّافع، والعَمَل الصَّالح.

وَمن نَظَرَ في سيرة القَوْم بعلْم وبَصيرة، وَمَا مَنَّ اللَّهُ عَلَيهم به من الفَضَائل عَلمَ يَقينًا أَنَّهم خَيرُ الخَلْق بعدَ الأنبياء.

لاَ كَانَ وَلاَ يَكُونُ مثْلُهُمْ.

وأَنَّهُم هم صفوة الصَّفْوة منْ قُرُونِ هَذه الأُمة، التي هيَ خَيرُ الأُمَم وَأَكْرَمُها عَلَى اللَّه.

• الشَّرح •

• قال العلامة ناصر السعدي:

أي: وهذه الأمور إذا قُوبلت بالمَسَاوئ ـ إن فُرِضَ أن هناك مسَاوئ ـ اضمحلت

المَسَاوئ معها، ولا يُقَاربهم أحد في شيء من ذلك رضي اللّه عنهم.

وهذا كلام نفيس في غاية النفاسة ولا زيادة عليه في التحقيق وإقامة البرهان على كمال فضل الصحابة رضي الله عنهم لا يحتاج إلى شرح أو بيان.

● قال الشيخ محمد خليل هراس:

ويمسك أهل السنة والجماعة عن الخوض فيما وقع من نزاع بين الصحابة رضي الله عنهم لا سيما ما وقع بين علي وطلحة والزبير بعد مقتل عثمان وما وقع بعد ذلك بين علي ومعاوية وعمرو بن العاص وغيرهم، ويرون أن الآثار المروية في مساويهم أكثرها كذب أو محرف عن وجهه، وأما الصحيح منها فيعذرونهم فيه ويقولون: إنهم متأولون مجتهدون، وهم مع ذلك لا يدعون لهم العصمة من كبار الذنوب وصغارها ولكن ما لهم من السوابق والفضائل وصحبة رسول الله ﷺ والجهاد معه قد يوجب مغفرة ما يصدر منهم من زلات، فهم بشهادة رسول الله ﷺ خير القرون وأفضلها، ومد أحدهم أو نصيفه أفضل من جبل أحد ذهبًا يتصدق به من بعدهم فسيئاتهم مغفورة إلى جانب حسناتهم الكثيرة.

يريد المؤلف رحمه الله أن ينفي عن الصحابة رضي الله عنهم أن يكون أحدهم قد مات مصرًا على ما يوجب سخط الله عليه من الذنوب، بل إذا كان قد صدر الذنب من أحدهم فعلاً فلا يخلو عن أحد هذه الأمور التي ذكرها، فإما أن يكون قد تاب منه قبل الموت، أو أتى بحسنات تذهبه وتمحوه، أو غفر له بفضل سالفته في الإسلام كما غفر لأهل بدر وأصحاب الشجرة أو بشفاعة رسول الله ﷺ وهم أسعد الناس بشفاعته وأحقهم بها، أو ابتلي ببلاء في الدنيا في نفسه أو ماله أو ولده فكفر عنه به. فإذا كان هذا هو ما يجب اعتقاده فيهم بالنسبة إلى ما ارتكبوه من الذنوب المحققة فكيف في الأمور التي هي موضع اجتهاد والخطأ فيها مغفور؛ ثم إذا قيس هذا الذي أخطأوا فيه إلى جانب ما لهم من محاسن وفضائل لم يعد أن يكون قطرة في بحر.

فالله الذي اختار نبيه ﷺ هو الذي اختار له هؤلاء الأصحاب؛ فهم خير الخلق بعد الأنبياء والصفوة المختارة من هذه الأمة التي هي أفضل الأمم.

ومن تأمل كلام المؤلف رحمه الله في شأن الصحابة عجب أشد العجب مما يرميه به الجهلة المتعصبون وادعائهم عليه أنه يتهجم على أقدارهم ويغض من شأنهم ويخرق إجماعهم إلى آخر ما قالوه من مزاعم ومفتريات.

● قال الشيخ ابن عثيمين:

قوله: «ويمسكون عما شجر بين الصحابة»؛ يعني: عما وقع بينهم من النزاع.

فالصحابة رضي الله عنهم وقعت بينهم بعد مقتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه نزاعات واشتد الأمر بعد مقتل عثمان، فوقع بينهم ما وقع، مما أدى إلى القتال.

وهذه القضايا مشهورة، وقد وقعت - بلا شك - عن تأويل واجتهاد، كل منهم يظن أنه على حق، ولا يمكن أن نقول: إن عائشة والزبير بن العوام قاتلا عليًا رضي الله عنهم أجمعين وهم يعتقدون أنهم على باطل، وأن عليًا على حق.

واعتقادهم أنهم على حق لا يستلزم أن يكونوا قد أصابوا الحق.

ولكن إذا كانوا مخطئين، ونحن نعلم أنهم لن يقدموا على هذا الأمر إلا عن اجتهاد؛ فإنه ثبت عن النبي ﷺ أن: «**إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب؛ فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ؛ فله أجر**»(١)؛ فنقول: هم مخطئون مجتهدون؛ فلهم أجر واحد.

فهذا الذي حصل موقفنا نحن منه له جهتان: الجهة الأولى: الحكم على الفاعل، والجهة الثانية: موقفنا من الفاعل.

- أما الحكم على الفاعل؛ فقد سبق، وأن ما ندين الله به أن ما جرى بينهم؛ فهو صادر عن اجتهاد، والاجتهاد إذا وقع فيه الخطأ؛ فصاحبه معذور مغفور له.

- وأما موقفنا من الفاعل؛ فالواجب علينا الإمساك عما شجر بينهم، لماذا نتخذ من فعل هؤلاء مجالا للسب والشتم والوقيعة فيهم والبغضاء بيننا؛ ونحن في فعلنا هذا إما آثمون وإما سالمون، ولسنا غانمين أبدًا؟!

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٧٣٥٢)، ومسلم (١٧١٦) من حديث عمرو بن العاص - رضي الله عنه.

فالواجب علينا تجاه هذه الأمور أن نسكت عما جرىٰ بين الصحابة، وأن لا نطالع الأخبار أو التاريخ في هذه الأمور؛ إلا المراجعة للضرورة.

قوله: «ويقولون: إن هذه الآثار المروية في مساويهم؛ منها ما هو كذب؛ ومنها ما قد زيد فيه ونقص وغير عن وجهه الصريح».

قسم المؤلف ـ رحمه الله ـ الآثار المروية في مساويهم ثلاثة أقسام:

ـ منها ما هو كذب محض لم يقع منهم، وهذا يوجد كثيراً فيما يرويه النواصب في آل البيت وما يرويه الروافض في غير آل البيت.

ـ ومنها شيء له أصل، لكن زيد فيه ونقص وغير عن وجهه.

وهذان القسمان كلاهما يجب رده.

ـ القسم الثالث: ما هو صحيح؛ فماذا نقول فيه؟

بينه المؤلف بقوله:

«والصحيح منه هم فيه معذورون: إما مجتهدون مصيبون، وإما مجتهدون مخطئون»(١).

والمجتهد إن أصاب؛ فله أجران، وإن أخطأ؛ فله أجر واحد؛ لقول النبي صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وسلم: «إذا حكم الحاكم؛ فاجتهد، ثم أصاب؛ فله أجران، وإذا حكم، فاجتهد، ثم أخطأ؛ فله أجر».

فما جرىٰ بين معاوية وعلىٰ رضي الله عنهما صادر عن اجتهاد وتأويل.

لكن لا شك أن عليًا أقرب إلىٰ الصواب فيه من معاوية، بل قد نكاد نجزم بصوابه؛ إلا أن معاوية كان مجتهداً.

ويدل علىٰ أن عليًا أقرب إلىٰ الصواب أن النبي ﷺ قال: «ويح عمار! تقتله الفئة الباغية»(٢)؛ فكان الذي قتله أصحاب معاوية، وبهذا عرفنا أنها فئة باغية خارجة علىٰ

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٤٧) ومسلم (٢٩١٥) من حديث أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه.

الإمام، لكنهم متأولون، والصواب مع علي إما قطعًا وإما ظنًا.

- وهناك قسم رابع، وهو ما وقع منهم من سيئات حصلت لا عن اجتهاد ولا عن تأويل:

فبينه المؤلف - رحمه الله - بقوله:

«وهم مع ذلك لا يعتقدون أن كل واحد من الصحابة معصوم عن كبائر الإثم وصغائره».

لا يعتقدون ذلك؛ لقوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون»[1].

ولكن العصمة في إجماعهم؛ فلا يمكن أن يجمعوا على شيء من كبائر الذنوب وصغائرها فيستحلوها أو يفعلوها.

لكن الواحد منهم قد يفعل شيئًا من الكبائر؛ كما حصل من مسطح بن أثاثة وحسان بن ثابت وحمنة بنت جحش في قصة الإفك[2]، ولكن هذا الذي حصل تطهروا منه بإقامة الحد عليهم.

قوله: «بل يجوز عليهم الذنوب في الجملة»؛ يعني: كغيرهم من البشر.

لكن يمتازون عن غيرهم بما قال المؤلف - رحمه الله -:

«ولهم من السوابق والفضائل ما يوجب مغفرة ما يصدر منهم إن صدر».

هذا من الأسباب التي يمحوا الله بها عنهم ما فعلوه من الصغائر أو الكبائر، وهو ما لهم من السوابق والفضائل التي لم يلحقهم فيها أحد؛ فهم نصروا النبي عليه الصلاة والسلام، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم، وبذلوا رقابهم لإعلاء كلمة الله؛ فهذه توجب مغفرة ما صدر منهم، ولو كان من أعظم الذنوب، إذا لم يصل إلى الكفر.

---

(١) حسن: أخرجه الترمذي (٢٤٩٩) وابن ماجه (٤٢٥١) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه والحديث حسنه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٤٥١٥).

(٢) سبق تخريجه.

ومن ذلك قصة حاطب بن أبي بلتعة حين أرسل إلىٰ قريش يخبرهم عن مسير النبي ﷺ إليهم، حتىٰ أطلع الله نبيه علىٰ ذلك؛ فلم يصلهم الخبر، فاستأذن عمر النبي ﷺ أن يضرب عنق حاطب، فقال النبي ﷺ: **«إنه شهد بدرًا، وما يدريك؟ لعل الله اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم؛ فقد غفرت لكم!»**(١) .

قوله: حتىٰ إنه يغفر لهم من السيئات ما لا يغفر لمن بعدهم، لأن لهم من الحسنات التي تمحوا السيئات ما ليس لمن بعدهم، وقد ثبت بقول رسول الله ﷺ: أنهم خير القرون، وأن المُدَّ من أحدهم إذا تصدق به؛ كان أفضل من جبل أحد ذهبًا ممن بعدهم» .

وذلك في قوله ﷺ: **«خير الناس قرني»**(٢) ، وفي قوله: **«لا تسبوا أصحابي؛ فوالذي نفسي بيده؛ لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبًا؛ ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه»**(٣) .

قوله: «ثم إذا كان قد صدر من أحدهم ذنب؛ فيكون قد تاب منه»:

يعني: وإذا تاب منه؛ ارتفع عنه وباله ومعرته؛ لقوله تعالىٰ: ﴿**وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلا بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا**﴾ إلىٰ قوله: ﴿**إِلا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلا صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا**﴾ [الفرقان: ٦٨-٧٠]، ومن تاب من الذنب كمن لا ذنب له؛ فلا يؤثر عليه.

قوله: «أو أتى بحسنات تمحوه»؛ لقوله تعالىٰ: ﴿**إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ**﴾ [هود: ١١٤].

قوله: «أو غفر له بفضل سابقته»: لقوله تعالىٰ في الحديث القدسي في أهل بدر: **«اعملوا ما شئتم؛ فقد غفرت لكم»**.

قوله: «أو بشفاعة محمد ﷺ الذي هم أحق الناس بشفاعته».

وقد سبق أن النبي ﷺ يشفع في أمته، والصحابة رضي الله عنهم أحق الناس في ذلك.

(١، ٢، ٣) سبق تخريجهم.

قوله: «أو ابتلى ببلاء في الدنيا كفر به عنه»: فإن البلاء في الدنيا يكفر الله به السيئات؛ كما أخبر بذلك النبي ﷺ في قوله: **«ما من مسلم يصيبه أذى من مرض فما سواه؛ إلا حط الله به سيئاته؛ كما تحط الشجرة ورقها»**[1]، والأحاديث في هذا مشهورة كثيرة.

قوله: «فإذا كان هذا في الذنوب المحققة؛ فكيف الأمور التي كانوا فيها مجتهدين: إن أصابوا؛ فلهم أجران، وإن أخطئوا؛ فلهم أجر واحد، والخطأ مغفور» وسبق دليله؛ فتكون هذه من باب أولى ألا تكون سببًا للقدح فيهم والعيب.

فهذه الأسباب التي ذكرها المؤلف ـ رحمه الله ـ ترفع القدح في الصحابة، وهي قسمان:

الأول: خاص بهم، وهو ما لهم من السوابق والفضائل.

والثاني: عام، وهي التوبة، والحسنات الماحية، وشفاعة النبي ﷺ، والبلاء.

قوله: «ثم إن القدر الذي ينكر من فعل بعضهم قليل نزر مغمور في جنب فضائل القوم ومحاسنهم»:

القدر الذي ينكر من فعل بعضهم قليل جدًّا نزر أقل القليل، ولهذا قال: «مغمور في جنب فضائل القوم ومحاسنهم».

ولا شك أنه حصل من بعضهم سرقة وشرب خمر وقذف وزنا بإحصان وزنا بغير إحصان، لكن كل هذه الأشياء تكون مغمورة في جنب فضائل القوم ومحاسنهم، وبعضها أقيم فيه الحدود، فيكون كفارة.

ثم بين المؤلف ـ رحمه الله ـ شيئًا من فضائلهم ومحاسنهم بقوله:

«من الإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيله والهجرة والنصرة والعلم النافع والعمل الصالح».

فكل هذه مناقب وفضائل معلومة مشهورة، تغمر كل ما جاء من مساوئ القوم

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٦٦٠) ومسلم (٢٥٧١) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

المحققة؛ فكيف بالمساوئ غير المحققة أو التي كانوا فيها مجتهدين متأولين.

قوله: «ومن نظر في سيرة القوم بعلم وبصيرة، وما مَنَّ الله عليهم به من الفضائل؛ علم يقينًا أنهم خير الخلق بعد الأنبياء»:

هذا بالإضافة إلىٰ ما ثبت عن النبي صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وسلم من قوله: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»(١) أخرجه البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

وعلىٰ هذا نثبت خيريتهم علىٰ غيرهم من أتباع الأنبياء بالنص والنظر في أحوالهم.

فإذا نظرت بعلم وبصيرة وإنصاف في محاسن القوم وما أعطاهم الله من الفضائل؛ علمت يقينًا أنهم خير الخلق بعد الأنبياء؛ فهم خير من الحواريين أصحاب عيسىٰ، وخير من النقباء أصحاب موسىٰ، وخير من الذين آمنوا مع نوح ومع هود وغيرهم، لا يوجد أحد في أتباع الأنبياء أفضل من الصحابة رضي الله عنهم، والأمر في هذا ظاهر معلوم؛ لقوله تعالىٰ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وخيرنا الصحابة رضي الله عنهم، ولأن النبي ﷺ خير الخلق، فأصحابه خير الأصحاب بلا شك.

هذا عند أهل السنة والجماعة، أما عند الرافضة؛ فهم شر الخلق؛ إلا من استثنوا منهم.

قوله: «لا كان ولا يكون مثلهم»؛ أي: ما وجد ولا يوجد مثلهم؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «خير الناس قرني»(٢) فلا يوجد علىٰ الإطلاق مثلهم رضي الله عنهم لا سابقًا ولا لاحقًا.

قوله: «وأنهم الصفوة من قرون هذه الأمة، التي هي خير الأمم وأكرمها على الله عز وجل»:

- أما كون هذه الأمة خير الأمم؛ فلقوله تعالىٰ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ

(١، ٢) سبق تخريجهما.

تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]، ولأن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم خير الرسل؛ فلا جرم أن تكون أمته خير الأمم.

- وأما كون الصحابة رضي الله عنهم صفوة قرون الأمة؛ فلقوله ﷺ: «خير الناس قرني»، وفي لفظ: «خير أمتي قرني»[1] ، والمراد بقرنه: الصحابة، وبالذين يلونهم: التابعون، وبالذين يلونهم: تابعوا التابعين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «والاعتبار بالقرون الثلاثة بجمهور أهل القرون، وهم وسطة، وجمهور الصحابة انقرضوا بانقراض خلافة الخلفاء الأربعة، حتى إنه لم يكن بقي من أهل بدر إلا نفر قليل، وجمهور التابعين بإحسان انقرضوا في أواخر عصر أصاغر الصحابة في إمارة ابن الزبير وعبدالملك وجمهور تابعي التابعين في أواخر الدولة الأموية وأوائل الدولة العباسية».اهـ.

وكان آخر الصحابة موتًا أبو الطفيل عامر بن واثلة الليثي سنة مائة من الهجرة، وقيل: مائة وعشر.

قال الحافظ ابن حجر في «الفتح»: «واتفقوا أن آخر من كان من أتباع التابعين ممن يقبل قوله من عاش إلى حدود العشرين ومائتين».

● قال الشيخ صالح الفوزان:

بين الشيخ رحمه الله موقف أهل السنة والجماعة من الاختلاف الذي وقع بين الصحابة في وقت الفتنة والحروب التي حصلت بينهم، وموقفهم مما ينسب إلى الصحابة من مساوئ ومثالب اتخذها أعداء الله سببًا للوقيعة فيهم والنيل منهم، كما حصل من بعض المتأخرين والكتاب العصريين الذين جعلوا أنفسهم حكمًا بين أصحاب رسول الله ﷺ فصوبوا وخطَّئوا بلا دليل، بل باتباع الهوى وتقليد المغرضين الذين يحاولون الدس على المسلمين بتشكيكهم بتاريخهم المجيد، وسلفهم الصالح،

---

(١) سبق تخريجه.

الذين هم خير القرون؛ لينفذوا من ذلك إلى الطعن في الإسلام، وتفريق كلمة المسلمين.

وما أحسن ما ذكره الشيخ هنا من تجلية الحق وإيضاح الحقيقة، فقد ذكر أن موقف أهل السنة مما نسب إلى الصحابة وما شجر بينهم - أي: تنازعوا فيه - يتلخص في أمرين:

الأمر الأول: أنهم **(يمسكون عما شجر بين الصحابة)** أي: يكفون عن البحث فيه ولا يخوضون فيه؛ لما في الخوض في ذلك من توليد الإحن والحقد على أصحاب رسول الله ﷺ، وذلك من أعظم الذنوب، فطريق السلامة هو السكوت عن ذلك، وعدم التحدث به.

الأمر الثاني: الاعتذار عن الآثار المروية في مساويهم؛ لأن في ذلك دفاعًا عنهم، وردًا لكيد أعدائهم، وقد ذكر أن جملة الاعتذارات تتلخص فيما يلي:

١ - (هذه الآثار المروية في مساويهم منها ما هو كذب) قد افتراه أعداؤهم؛ ليشوهوا سمعتهم كما تفعله الرافضة قبحهم الله، والكذب لا يلتفت إليه.

٢ - هذه المساوئ المروية **(منها ما قد زيد فيه ونقص وغير عن وجهه الصحيح)** ودخله الكذب فهو محرف لا يعتمد عليه؛ لأن فضل الصحابة معلوم وعدالتهم متيقنة، فلا يترك المعلوم المتيقن لأمر محرف مشكوك فيه.

٣ - **(والصحيح منه)** أي: من هذه الآثار المروية **(هم فيه معذورون؛ إما مجتهدون مصيبون، وإما مجتهدون مخطئون)** فهو من موارد الاجتهاد التي؛ إن أصاب المجتهد فيها فله أجران، وإن أخطأ فله أجر واحد؛ لما في الصحيحين، عن أبي هريرة وعمرو ابن العاص رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: **«إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإن اجتهد وأخطأ فله أجر واحد»**[1].

٤ - أنهم بشر يجوز على أفرادهم ما يجوز على البشر من الخطأ، فأهل السنة: (لا يعتقدون أن كل واحد من الصحابة معصوم عن كبائر الإثم وصغائره، بل يجوز

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٧٣٥٢) ومسلم (١٧١٦).

عليهم الذنوب في الجملة» لكن ما يقع منهم من ذلك فله مكفرات عديدة منها:

أ- أن «لهم من السوابق والفضائل ما يوجب مغفرة ما يصدر منهم إن صدر» فما يقع من أحدهم يغتفر بجانب ماله من الحسنات العظيمة، كما في قصة حاطب لما وقع منه ما وقع في غزوة الفتح غفر له بشهوده وقعة بدر «حتى إنهم يغفر لهم من السيئات ما لا يغفر لمن بعدهم؛ لأن لهم من الحسنات التي تمحو السيئات ما ليس لمن بعدهم»، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤].

ب- أنهم تضاعف لهم الحسنات أكثر من غيرهم ولا يساويهم أحد في الفضل «وقد ثبت بقول رسول الله ﷺ أنهم خير القرون، وأن المدَّ من أحدهم إذا تصدق به كان أفضل من جبل أحد ذهبًا ممن بعدهم» أخرجه الشيخان وغيرهما أحاديث عن أبي هريرة[١] وابن مسعود[٢] وعمران بن حصين[٣]: أن رسول الله ﷺ قال: «**خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم**» الحديث، و «**القرون**»: جمع قرن، والقرن أهل زمان واحد متقارب اشتركوا في أمر من الأمور المقصودة، ويطلق القرن على المدة من الزمان.

ج- كثرة مكفرات الذنوب لديهم فإنهم يتوفر لهم من المكفرات ما لم يتوفر لغيرهم «فإذا كان قد صدر من أحدهم ذنب فيكون قد تاب منه أو أتى بحسنات تمحوه أو غفر له بفضل سابقته» أي: الأعمال الصالحة التي أسبقها قبله «أو بشفاعة محمد ﷺ الذي هم أحق الناس بشفاعته أو ابتلي ببلاء في الدنيا كفر به عنه» أي: امتحن وأصيب بمصيبة محي عنه ذلك الذنب بسببها، كما في «الصحيح»، أن رسول الله ﷺ قال: «**ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ولا غم ولا هم ولا حزن، حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه**»[٤] متفق عليه، والصحابة أولى الناس بذلك.

قال: (فإذا كان هذا في الذنوب المحققة) أي: الواقعة منهم فعلاً وأن لديهم

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٣٥٥٧).

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٢٦٥٢) ومسلم (٢٥٣٣).

(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٢٦٥١) ومسلم (٢٥٣٥).

(٤) صحيح: أخرجه البخاري (٥٦٤٢) ومسلم (٢٥٧٣).

رصيدًا من الأعمال الصالحة التي تكفرها (فكيف بالأمور التي كانوا فيها مجتهدين؟!) الاجتهاد: هو بذل الطاقة في معرفة الحكم الشرعي (إن أصابوا فلهم أجران، وإن أخطئوا فلهم أجر واحد، والخطأ مغفور) كما سبق بيان دليل ذلك قريبًا، وإذًا فما يصدر من الصحابي من خطأ على قلته هو بين أمرين:

الأول: أن يكون صدر عن اجتهاد وهو فيه مأجور وخطؤه مغفور.

والثاني: أن يكون صدر عن غير اجتهاد وعنده من الأعمال والفضائل والسوابق الخيرة ما يكفره ويمحوه.

وقوله: (ثم القدر الذي ينكر من فعل بعضهم) إلخ، هو كالتلخيص لما سبق وبيان فضائل الصحابة إجمالاً وهي:

١ ـ الإيمان بالله ورسوله وهو أفضل الأعمال.

٢ ـ الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله وهو ذروة سنام الإسلام.

٣ ـ الهجرة في سبيل الله وهي من أفضل الأعمال.

٤ ـ النصرة لدين الله قال تعالى فيهم: ﴿وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: ٨].

٥ ـ العلم النافع والعمل الصالح.

٦ ـ أنهم خير الخلق بعد الأنبياء، فأمة محمد ﷺ خير الأمم، كما قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وخير هذه الأمة صحابة رسول الله ﷺ؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «خيركم قرني، ثم الذين يلونهم» الحديث.

٧ ـ أنهم الصفوة من قرون هذه الأمة التي هي خير الأمم وأكرمها على الله، كما في الحديث الذي رواه الإمام أحمد: (أن النبي ﷺ قال: «أنتم توفون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله سبحانه»، ورواه الترمذي وابن ماجه والحاكم في «مستدركه»[1].

* * *

(١) أخرجه الترمذي (٣٠٠١) وابن ماجه (٤٢٨٨) والحاكم في «المستدرك» (٤/ ٩٤) وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٢٣٠١).

[من أصول أهل السنة
الإمساك عمَّا شجر بين الصحابة وأن من هم
المعذرون، ومنهم المجتهد المصيب، ومنهم المجتهد المخطئ]

● قال الشيخ عبد العزيز المحمد السلمان:

س - ما موقف أهل السنة والجماعة حول ما شجر بين الصحابة؟ وما حكم لعن أحد من الصحابة رضي الله عنهم؟

ج - طريقهم الإمساك والكف عمَّا شجر بينهم لما في ذلك من توليد العداوة والبغضاء والحقد على أحد الطرفين، وذلك من أعظم الذنوب، والواجب حب الجميع، والترضي عنهم والترحم عليهم، وحفظ فضائلهم، والاعتراف لهم بسوابقهم، ونشر مناقبهم لقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ ﴾ الآية.

وأما حكم لعن أحد من الصحابة فقد قال الشيخ رحمه الله: ومن لعن أحداً من أصحاب النبي ﷺ ورضي الله عنهم كمعاوية وعمرو بن العاص أو من هو أفضل من هؤلاء كأبي موسى الأشعري وأبي هريرة أو من هو أفضل من هؤلاء كطلحة والزبير وعثمان أو علي أو أبي بكر أو عائشة أو نحو هؤلاء من أصحاب النبي ﷺ ورضي الله عنهم فإنه يستحق العقوبة البليغة باتفاق المسلمين وتنازعوا هل يعاقب بالقتل أو ما دون القتل؟

وقد ثبت في الصحيح أنه ﷺ قال: «**لا تسبوا أصحابي**» الحديث واللعنة أعظم من السب.

فقد قال النبي ﷺ: «**لعن المؤمن كقتله**» وأصحابه خيار المؤمنين كما قال: «**خير القرون قرني ثم الذين يلونهم**» وكل من رآه وآمن به فله من الصحبة بقدر ذلك. اهـ.

وقال السفاريني:

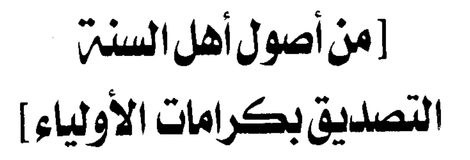
واحذر من الخوض الذي قد يزري   بفضلهم مما جرى لو تدري

فإنه عن اجتهاد قد صدر   فاقهم أذل الله من لهم هجر

وقال آخر:

ونسكت عن حرب الصحابة فالذي   جرى بينهم كان اجتهاداً مجردا

❊ ❊ ❊



ومن أصُول أهل السنَّة:

التّصْديقُ بكَرَامَات الأوْليَاء. وَمَا يُجْري اللَّهُ عَلَى أَيْديهم؛ من خَوَارق العَادات، في أنواعِ العلُوم، والمُكَاشَفَات، وأنْواعِ القُدْرة، والتَّأثيرات، وكالمأثُورِ عن سَالِف الأمم، في «سُورة الكَهْف» وغيرها.

وعن صَدْرِ هذهِ الأمةِ من الصَّحَابَةِ والتَّابعينَ وَسَائرِ فرَقِ الأُمَّة.

وَهِيَ مَوجودةٌ فيها إلى يومِ القيامة.

• الشَّرح •

• قال العلامة ناصر السعدي:

تواترت نُصوص الكتاب والسُّنة والوقائع قديمًا وحديثًا في وقوع كرامات اللَّه لأوليائه المتبعين لأنبيائهم.

وكرامتهم في الحقيقة تُفيد ثلاث قضايا:

أعظمها: الدِّلالة على كمال قدرة اللَّه ونفوذ مشيئته.

وأنه كما أن للَّه سننًا وأسبابًا تقتضي مُسَبباتها الموضوعة لها شرعًا وقدرًا فإن للَّه أيضًا سُنَنًا أُخرىٰ لا يَقَع عليها عِلْم البَشَر ولا تُدْركها أعمالهم وأسبابهم. فمعجزات الأنبياء وكرامات الأولياء، بل وأيام اللَّه وعقوباته في أعدائه الخارقة للعادة، كلها

تَدُلُّ دلالة واضحة أن الأمر كله للَّه، والتَّدبير والتقدير كله للَّه، وأن للَّه سُننًا لا يعلمها بَشَر ولا مَلَك.

فمن ذلك: قصة «أصحاب الكهف» والنوم الذي أَوْقَعهُ اللَّه بهم تلك المدة العظيمة وقَيَّض أسبابًا متنوعة لحفظ دينهم وأبدانهم كما ذكر اللَّه في قصتهم.

ومنها: ما أكرم اللَّه به «مريم بنت عمران» وأنه: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧].

وكذلك: حملها وولادتها «بعيسىٰ» عَلَىٰ ذلك الوصف الذي ذكر اللَّه وكلامه في المَهْد هذا فيه كرامة لمريم، ومعجزة لعيسىٰ ﷺ.

وهبته تعالىٰ الوَلَد «لإبراهيم» من «سارة» وهي عجوز عقيم علىٰ كِبَره كما وَهَبَ «لزكريا» «يحيىٰ» علىٰ كِبره وعقم زوجته، مُعْجِزةً للنبي وكرامةً لزوجته. وقد أَطَالَ المؤلف النَّفَس، وبَسط الكلام في هذا الموضوع في كتابه «الفُرقان بين أَوْلياء الرَّحمن وأولياء الشَّيطان» وذكر قصصًا كثيرة متوافرة تدلُّ علىٰ هذه القضية.

القضية الثانية: أن وُقُوع الكَرَامات للأولياء في الحقيقة معجزات للأنبياء؛ لأن تلك الكرامات لم تَحصل لهم إلا ببركة مُتَابعة نبيهم الذي نالوا به خيراً كثيراً من جملتها الكرامات.

القضية الثالثة: أن الكَرَامات لأولياء الله هي من البُشْرىٰ المُعَجَّلة في الحياة الدنيا كما قال تعالىٰ: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [يونس: ٦٤].

وهي كل أمر يَدُلُّ علىٰ ولايتهم وحُسْن عاقبتهم، ومن ذلك: الكرامات، ولم تزل الكرامات موجودة لم تَنْقَطع في كل وقت وزمان وقد رأىٰ الناس منها عجائب لأُمور كثيرة، ولم يُنْكِرها إلا «زنادقة الفلاسفة» وليس غريبًا عليهم؛ فإنه فَرْعٌ عن جحودهم وإنكارهم لرب العالمين وقضائه وقدره.

وقد أنكرها أيضًا طائفة من «أهل الكلام» المذموم ظنًّا منهم أَنَّ في إثباتها إبطالاً لمعجزات الأنبياء!! وهذا وهم باطل أبطله المؤلف رحمه الله في كتاب «النُّبوات»

وغيره من كتبه .

فـ «أهل السُّنَّة والجماعة» يعترفون بكرامات الله لأوليائه إجمالاً وتفصيلاً ويُثْبِتُون ذلك على وجه التَّفصيل ، كلما ورد عن المعصوم ﷺ وكلما تحقق وقوعه . ولكن قد أدخل كثير من الناس بالكرامات أموراً كثيرة اخترعوها وافتروها .

و«أهل السُّنَّة» أبعد النَّاس عن التَّصديق بالخُرَافات والكذب المفترى ، وأعرفهم بالطُّرق التي يَتَبَيَّن بها كذب الكاذبين وافتراء المفترين .

● قال الشيخ محمد خليل هراس:

وقد تواترت نصوص الكتاب والسنة ؛ ودلت الوقائع قديمًا وحديثًا على وقوع كرامات لله لأوليائه المتبعين لهدي أنبيائهم .

والكرامة: أمر خارق للعادة يجريه الله على يد ولي من أوليائه معونة له على أمر ديني أو دنيوي ، ويُفرِّقُ بينها وبين المعجزة بأن المعجزة تكون مقرونة بدعوى الرسالة بخلاف الكرامة .

ويتضمن وقوع هذه الكرامات حكم ومصالح كثيرة أهمها:

أولاً: أنها كالمعجزة تدل أعظم دلالة على كمال قدرة الله ونفوذ مشيئته ، وأنه فعال لما يريد ، وأن له فوق هذه السنن والأسباب المعتادة سننًا أخرى لا يقع عليها علم البشر ، ولا تدركها أعمالهم . فمن ذلك قصة أصحاب الكهف ، والنوم الذي أوقعه الله بهم تلك المدة الطويلة مع حفظه تعالى لأبدانهم من التحلل والفناء .

ومنها ما أكرم الله به مريم بنت عمران من إيصال الرزق إليها وهي في المحراب حتى عجب من ذلك زكريا عليه السلام ، وسألها : أنى لكِ هذا؟ وكذلك حملها بعيسى بلا أب وولادتها إياه ، وكلامه في المهد وغير ذلك .

ثانيًا: أن وقوع كرامات الأولياء هو في الحقيقة معجزة للأنبياء ، لأن تلك الكرامات لم تحصل لهم إلا ببركة متابعتهم لأنبيائهم وسيرهم على هديهم .

ثالثًا: أن كرامات الأولياء هي البشرى التي عجلها الله لهم في الدنيا ، فإن المراد بالبشرى كل أمر يدل على ولايتهم وحسن عاقبتهم ومن جملة ذلك : الكرامات .

هذا ولم تزل الكرامات موجودة لم تنقطع في هذه الأمة إلىٰ يوم القيامة والمشاهدة أكبر دليلاً، وأنكر الفلاسفة كرامات الأولياء كما أنكروا معجزات الأنبياء، وأنكر الكرامات أيضًا المعتزلة وبعض الأشاعرة بدعوىٰ التباسها بالمعجزة، وهي دعوىٰ باطلة، لأن الكرامة كما قلنا لا تقترن بدعوىٰ الرسالة.

لكن يجب التنبه إلىٰ أن ما يقوم به الدجاجلة والمشعوذون من أصحاب الطرق المبتدعة الذين يسمون أنفسهم بالمتصوفة من أعمال ومخاريق شيطانية كدخول النار وضرب أنفسهم بالسلاح والإمساك بالثعابين والإخبار بالغيب إلىٰ غير ذلك ليس من الكرامات في شيء فإن الكرامة إنما تكون لأولياء الله بحق وهؤلاء أولياء الشيطان.

● قال الشيخ عبد العزيز بن باز:

الفرق بين المعجزة والكرامة، والأحوال الشيطانية الخارقة للعادة علىٰ يد السحرة والمشعوذين.

أن المعجزة: هي ما يجري الله علىٰ أيدي الرسل والأنبياء من خوارق العادات التي يتحدون بها العباد ويختبرون بها، ويخبرون بها عن الله؛ لتصديق ما بعثهم به، ويؤيدهم بها سبحانه: كانشقاق القمر، ونزول القرآن - فإن القرآن هو أعظم معجزة لرسولٍ علىٰ الإطلاق - وحنين الجذع، ونبوع الماء من بين أصابعه. وغير ذلك من المعجزات الكثيرة.

وأما الكرامة: فهي ما يُجري الله علىٰ أيدي أوليائه المؤمنين من خوارق العادات: كالعلم والقدرة و غير ذلك كالظُّلَّةِ التي وقعت علىٰ أسيد بن الحُضير حين قراءة القرآن. وكإضاءة النور لعباد بن بشر، وأسيد بن حضير حين انصرفا من عند النبي ﷺ فلما افترقا أضاء لكل واحد منهما طرف سوطه.

وشرط كونها كرامة أن يكون من جرت علىٰ يده هذه الكرامة مستقيمًا علىٰ الإيمان، ومتابعة الشريعة؛ فإن كان خلاف ذلك فالجاري علىٰ يده من الخوارق يكون من الأحوال الشيطانية.

ثم ليعلم أن عدم حصول الكرامة لبعض المسلمين لا يدلُّ علىٰ نقص إيمانهم؛ لأن

الكرامة إنما تقع لأسباب:

منها: تقوية إيمان العبد وتثبيته: ولهذا لم ير كثير من الصحابة شيئًا من الكرامات لقوة إيمانهم وكمال يقينهم.

ومنها: إقامة الحجة على العدو: كما حصل لخالد لما أكل السم وكان قد حاصر حصنًا، فامتنعوا عليه حتىٰ يأكله، فأكله وفتح الحصن، ومثل ذلك ما جرىٰ لأبي مسلم الخراساني لما ألقاه الأسود العنسي في النار فأنجاه الله من ذلك لحاجته إلىٰ تلك الكرامة. و كقصة أم أيمن لما خرجت مهاجرة واشتد بها العطش، سمعت حسًّا من فوقها فرفعت رأسها، فإذا هي بدلو من ماء فشربت منها، ثم رفعت.

وقد تكون الكرامة ابتلاء فيسعد بها قوم ويشقىٰ بها آخرون، وقد يسعد صاحبها إن شكر، وقد يهلك إن أعجب ولم يستقم.

● قال الشيخ ابن عثيمين:

كرامات الأولياء مسألة هامة ينبغي أن يعرف الحق فيها من الباطل؛ هل هي حقيقة ثابتة، أو هي من باب التخيلات؟

فبين المؤلف ـ رحمه الله ـ قول أهل السنة فيها بقوله:

«ومن أصول أهل السنة: التصديق بكرامات الأولياء»:

فمن هم الأولياء؟

والجواب: أن الله بينهم بقوله: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «من كان مؤمنًا تقيًّا؛ كان لله وليًّا».

ليست الولاية بالدعوىٰ والتمني، الولاية إنما هي بالإيمان والتقوىٰ؛ فلو رأينا رجلا يقول: إنه ولي! ولكنه غير متق لله تعالىٰ؛ فقوله مردود عليه.

أما الكرامات؛ فهي جمع كرامة، والكرامة أمر خارق للعادة، يجريه الله تعالىٰ علىٰ يد ولي؛ تأييدًا له، أو إعانة، أو تثبيتًا، أو نصرًا للدين.

ـ فالرجل الذي أحيا الله تعالىٰ له فرسه، وهو صلة بن أشيم، بعد أن ماتت، حتىٰ وصل إلىٰ أهله، فلما وصل إلىٰ أهله؛ قال لابنه: ألق السرج عن الفرس؛ فإنها عرية! فلما ألقىٰ السرج عنها؛ سقطت ميتة. فهذه كرامة لهذا الرجل إعانة له.

ـ أما التي لنصرة الإسلام؛ فمثل الذي جرىٰ للعلاء بن الحضرمي رضي الله عنه في عبور ماء البحر، وكما جرىٰ لسعد ابن أبي وقاص رضي الله عنه في عبور نهر دجلة، وقصتهما مشهورة في التاريخ.

فالكرامة أمر خارق للعادة.

أما ما كان علىٰ وفق العادة؛ فليس بكرامة.

وهذا الأمر إنما يجريه الله علىٰ يد ولي؛ احترازًا من أمور السحر والشعوذة؛ فإنها أمور خارقة للعادة، لكنها تجري علىٰ يد غير أولياء الله، بل علىٰ يد أعداء الله؛ فلا تكون هذه كرامة.

وقد كثرت هذه الكرامات التي تدعىٰ أنها كرامات في هؤلاء المشعوذين الذين يصدون عن سبيل الله؛ فالواجب الحذر منهم ومن تلاعبهم بعقول الناس وأفكارهم.

فالكرامة ثابتة بالقرآن والسنة، والواقع سابقًا ولاحقًا.

ـ فمن الكرامات الثابتة بالقرآن والسنة لمن سبق قصة أصحاب الكهف، الذين عاشوا في قوم مشركين، وهم قد آمنوا بالله، وخافوا أن يغلبوا علىٰ أمرهم، فخرجوا من القرية مهاجرين إلىٰ الله عز وجل، فيسر الله لهم غارًا في جبل، وجه هذا الغار إلىٰ الشمال، فلا تدخل الشمس عليهم فتفسد أبدانهم ولا يحرمون منها، إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين، وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال، وهم في فجوة منه، وبقوا في هذا الكهف ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعًا، وهم نائمون، يقلبهم الله ذات اليمين وذات الشمال، في الصيف وفي الشتاء، لم يزعجهم الحر، ولم يؤلمهم البرد، ما جاعوا وما عطشوا وما ملوا من النوم. فهذه كرامة بلا شك، بقوا هكذا حتىٰ بعثهم الله وقد زال الشرك عن هذه القرية، فسلموا منه.

ـ ومن ذلك قصة مريم رضي الله عنها، أكرمها الله حيث أجاءها المخاض إلىٰ

جذع النخلة، وأمرها أن تهز بجذعها لتتساقط عليها رطبًا جنيًا.

ـ ومن ذلك قصة الرجل الذي أماته الله مائة عام ثم بعثه؛ كرامة له؛ ليتبين له قدرة الله تعالىٰ، ويزداد ثباتًا في إيمانه.

ـ أما في السنة؛ فالكرامات كثيرة، وراجع (كتاب الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل) في «صحيح البخاري»، وكتاب «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» لشيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ.

ـ وأما شهادة الواقع بثبوت الكرامات؛ فظاهر، يعلم به المرء في عصره: إما بالمشاهدة، وإما بالأخبار الصادقة.

فمذهب أهل السنة والجماعة التصديق بكرامات الأولياء.

وهناك مذهب مخالف لمذهب أهل السنة، وهو مذهب المعتزلة ومن تبعهم؛ حيث إنهم ينكرون الكرامات، ويقولون: إنك لو أثبت الكرامات؛ لاشتبه الساحر بالولي والولي بالنبي؛ لأن كل واحد منهم يأتي بخارق.

فيقال: لا يمكن الالتباس؛ لأن الكرامة علىٰ يد ولي، والولي لا يمكن أن يدعي النبوة، ولو ادعاها؛ لم يكن وليًا؛ آية النبي تكون علىٰ يد نبي، والشعوذة والسحر علىٰ يد عدو بعيد من ولاية الله، وتكون بفعله باستعانته بالشياطين، فينالها بكسبه؛ بخلاف الكرامة؛ فهي من الله تعالىٰ، لا يطلبها الولي بكسبه.

قال العلماء: كل كرامة لولي؛ فهي آية للنبي الذي اتبعه؛ لأن الكرامة شهادة من الله عز وجل أن طريق هذا الولي طريق صحيح.

وعلىٰ هذا؛ ما جرىٰ من الكرامات للأولياء من هذه الأمة؛ فإنها آيات لرسول الله ﷺ.

ولهذا قال بعض العلماء: ما من آية لنبي من الأنبياء السابقين؛ إلا ولرسول الله ﷺ مثلها.

ـ فأورد عليهم أن الرسول ﷺ لم يلق في النار فيخرج حيًا؛ كما حصل ذلك لإبراهيم عليه السلام.

فأجيب بأنه جرى ذلك لأتباع الرسول عليه الصلاة والسلام؛ كما ذكره المؤرخون عن أبي مسلم الخولاني، وإذا أكرم أتباع الرسول عليه الصلاة والسلام بجنس هذا الأمر الخارق للعادة؛ دلَّ ذلك على أن دين النبي ﷺ حق؛ لأنه مؤيد بجنس هذه الآية التي حصلت لإبراهيم عليه السلام.

- وأورد عليهم أن البحر لم يفلق للنبي ﷺ، وقد فلق لموسى عليه السلام.

فأجيب بأنه حصل لهذه الأمة فيما يتعلق في البحر شيء أعظم مما حصل لموسى عليه السلام، وهو المشي على الماء؛ كما في قصة العلاء بن الحضرمي؛ حيث مشوا على ظهر الماء، وهذا أعظم مما حصل لموسى عليه السلام؛ لأن موسى مشى على أرض يابسة.

- وأورد عليهم أن من آيات عيسى عليه السلام إحياء الموتى، ولم يقع ذلك لرسول الله ﷺ.

فأجيب بأنه وقع لأتباع الرسول عليه الصلاة والسلام؛ كما في قصة الرجل الذي مات حماره في أثناء الطريق، فدعا الله تعالى أن يحييه، فأحياه الله تعالى.

- وأورد عليهم إبراء الأكمه والأبرص.

فأجيب بأنه حصل من النبي ﷺ أن قتادة بن النعمان لما جرح في أحد، ندرت عينه حتى صارت على خده، فجاء النبي ﷺ، فأخذها بيده، ووضعها في مكانها، فصارت أحسن عينيه[1].

فهذه من أعظم الآيات.

فالآيات التي كانت للأنبياء السابقين كان من جنسها للنبي ﷺ أو لأمته، ومن أراد المزيد من ذلك؛ فليرجع إلى كتاب «البداية والنهاية في التاريخ» لابن كثير - رحمه الله -.

تنبيه:

الكرامات؛ قلنا: إنها تكون تأييداً أو تثبيتاً أو إعانة للشخص أو نصراً للحق،

---

(١) عزاه الحافظ ابن حجر في «الإصابة» (٣/ ٢١٧) للبغوي وأبو يعلى، وانظر «دلائل النبوة» للبيهقي.

ولهذا كانت الكرامات في التابعين أكثر منها في الصحابة؛ لأن الصحابة عندهم من التثبيت والتأييد والنصر ما يستغنون به عن الكرامات؛ فإن الرسول ﷺ كان بين أظهرهم، وأما التابعون؛ فإنهم دون ذلك، ولذلك كثرت الكرامات في زمنهم تأييداً لهم وتثبيتًا ونصراً للحق الذي هم عليه.

(قوله: «وما يجري الله على أيديهم من خوارق العادات».

«خوارق»: جمع خارق.

و «العادات»: جمع عادة.

وهذه الكرامات لها أربع دلالات:

أولا: بيان كمال قدرة الله عز وجل؛ حيث حصل هذا الخارق للعادة بأمر الله.

ثانيًا: تكذيب القائلين بأن الطبيعة هي التي تفعل؛ لأنه لو كانت الطبيعة هي التي تفعل؛ لكانت على نسق واحد لا يتغير؛ فإذا تغيرت العادات والطبيعة؛ دل على أن للكون مدبراً وخالقًا.

ثالثًا: أنها آية للنبي المتبوع كما أسلفنا قريبًا.

رابعًا: أن فيها تثبيتًا وكرامة لهذا الولي.

(قوله: «في أنواع العلوم والمكاشفات وأنواع القدرة والتأثيرات»؛ يعني: أن الكرامة تنقسم إلى قسمين: قسم يتعلق بالعلوم والمكاشفات، وقسم آخر يتعلق بالقدرة والتأثيرات.

- أما العلوم؛ فأن يحصل للإنسان من العلوم ما لا يحصل لغيره.

- وأما المكاشفات؛ فأن يظهر له من الأشياء التي يكشف له عنها ما لا يحصل لغيره.

- مثال الأول - العلوم -: ما ذكر عن أبي بكر: أن الله أطلعه على ما في بطن زوجته - الحمل -؛ أعلمه الله أنه أنثى[1].

- ومثال الثاني - المكاشفات -: ما حصل لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب

---

(١) أخرجه اللالكائي في «كرامات الأولياء» (٦٣)، وأوردها ابن حجر في «الإصابة» (٤/ ٢٦١).

رضي الله عنه حين كان يخطب الناس يوم الجمعة على المنبر، فسمعوه يقول: يا سارية! الجبل! فتعجبوا من هذا الكلام، ثم سألوه عن ذلك؟ فقال: إنه كشف له عن سارية بن زنيم - وهو أحد قواده في العراق - وأنه محصور من عدوه، فوجهه إلى جبل، وقال له: يا سارية! الجبل! فسمع سارية صوت عمر، وانحاز إلى الجبل، وتحصن به![1].

هذه من أمور المكاشفات؛ لأنه أمر واقع، لكنه بعيد.

- أما القدرة والتأثيرات؛ فمثل ما وقع لمريم من هزها لجذع النخل وتساقط الرطب عليها. ومثل ما وقع للذي عنده علم من الكتاب؛ حيث قال لسليمان عليه السلام: أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك.

(قوله: «والمأثور عن سالف الأمم في سورة الكهف وغيرها وعن صدر هذه الأمة من الصحابة والتابعين وسائر فرق الأمة».

الكرامات موجودة فيما سبق من الأمم، ومنها قصة أصحاب الغار الذين انطبقت عليهم الصخرة[2]، وموجودة في عهد الرسول ﷺ؛ كقصة أسيد بن حضير[3]، وتكثير الطعام عند بعض الصحابة رضي الله عنهم[4]، وموجودة في التابعين؛ مثل قصة صلة بن أشيم الذي أحيا الله له فرسه[5].

يقول شيخ الإسلام - رحمه الله - في كتاب «الفرقان»: «وهذا باب واسع؛ قد بسط الكلام على كرامات الأولياء في غير هذا الموضع، وأما ما نعرفه نحن عيانًا ونعرفه في هذا الزمان؛ فكثير».

---

(١) انظر البيهقي في «دلائل النبوة» و«البداية والنهاية» لابن كثير.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٧٧٢) ومسلم (٢٧٤٣) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٣) صحيح: أخرجه مسلم (٧٩٦) من حديث أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه.

(٤) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٠٢) ومسلم (٢٠٥٧) من حديث عبد الرحمن بن أبي بكر - رضي الله عنهما.

(٥) سبق تخريجه.

(قوله: «وهي موجودة فيها إلى يوم القيامة».

والدليل على أنها موجودة إلى يوم القيامة: سمعي وعقلي:

ـ أما السمعي؛ فإن الرسول ﷺ أخبر في قصة الدجال أنه يدعو رجلا من الناس من الشباب؛ يأتي، ويقول له: كذبت! إنما أنت المسيح الدجال الذي أخبرنا عنك رسول الله ﷺ، فيأتي الدجال، فيقتله قطعتين، فيجعل واحدة هنا وواحدة هنا رمية الغرض (يعني: بعيد ما بينهما)، ويمشي بينهما، ثم يدعوه، فيقوم يتهلل، ثم يدعوه ليقر له بالعبودية، فيقول الرجل: ما كنت فيك أشد بصيرة مني اليوم! فيريد الدجال أن يقتله؛ فلا يسلط عليه[1].

فهذه (أي: عدم تمكن الدجال من قتل ذلك الشاب) من الكرامات بلا شك.

ـ وأما العقلي؛ فيقال: ما دام سبب الكرامة هي الولاية؛ فالولاية لا تزال موجودة إلى قيام الساعة.

● قال الشيخ صالح الفوزان:

قوله: (ومن أصول أهل السنة) أي: من أصول عقيدتهم (التصديق بكرامات الأولياء).

الكرامات: جمع كرامة وهي: (ما يجري الله على أيديهم من خوارق العادات) فالكرامة: أمر خارق للعادة. أي: لمألوف الآدميين. والأولياء: جمع ولي: وهو المؤمن المتقي، كما قال تعالى: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢-٦٣]، سمي وليًا اشتقاقًا من الولاء، وهو المحبة والقرب، فولي الله: من والى الله بموافقته في محبوباته والتقرب إليه بمرضاته.

وكرامات الأولياء حق، وقد دل عليها الكتاب والسنة والآثار المتواترة عن الصحابة والتابعين.

والناس في كرامات الأولياء على ثلاثة أصناف:

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٨٨٢) ومسلم (٢٩٣٨) من حديث أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه.

الصنف الأول: من ينفيها من المبتدعة؛ كالمعتزلة والجهمية وبعض الأشاعرة.

وشبهتهم: أن الخوارق لو جاز ظهورها على أيدي الأولياء لالتبس النبي بغيره، إذ الفرق بين النبي وغيره هو المعجزة التي هي خرق العادة.

الصنف الثاني: من يغلو في إثبات الكرامة من أصحاب الطرق الصوفية والقبوريين الذين يدجلون على الناس، ويأتون بخوارق شيطانية؛ كدخول النار وضرب أنفسهم بالسلاح وإمساك الثعابين وغير ذلك مما يدعونه لأصحاب القبور من التصرفات التي يسمونها كرامات.

الصنف الثالث: الذين ذكرهم الشيخ هنا، وهم أهل السنة والجماعة، فيؤمنون بكرامات الأولياء ويثبتونها على مقتضى ما جاء في الكتاب والسنة، ويردون على من نفاها بحجة منع الاشتباه بين النبي وغيره: بأن هناك فوارق عظيمة بين الأنبياء وغيرهم غير خوارق العادات. وأن الولي لا يدعي النبوة ولو ادعاها لخرج عن الولاية وصار مدعيًا كذابًا لا وليًا، ومن سنة الله أن يفضح الكاذب، كما حصل لمسيلمة الكذاب وغيره. ويردون على من غلا في إثباتها فادعاها للمشعوذين والدجالين بأن هؤلاء ليسوا أولياء الله، وإنما هم أولياء للشيطان، وما يجري عليهم إما كذب وتدجيل، أو فتنة لهم ولغيرهم واستدراج. والله أعلم. ولشيخ الإسلام ابن تيمية في هذا الموضوع كتاب جليل اسمه: «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان».

وفي قوله: (في أنواع العلوم والمكاشفات وأنواع القدرة والتأثيرات) إشارة إلى أن الكرامة منها ما يكون من باب العلم والكشف بأن يسمع العبد ما لا يسمعه غيره أو يرى ما لا يراه غيره يقظة أو منامًا، أو يعلم ما لا يعلمه غيره، ومنها ما هو من باب القدرة والتأثير.

مثال النوع الأول: قول عمر: يا سارية الجبل وهو بالمدينة، وسارية في المشرق. وإخبار أبي بكر بأن ببطن زوجته أنثى، وإخبار عمر بمن يخرج من ولده فيكون عادلاً، وقصة صاحب موسى وعلمه بحال الغلام.

ومثال النوع الثاني: قصة الذي علم من الكتاب وإتيانه بعرش بلقيس إلى سليمان عليه السلام، وقصة أهل الكهف، وقصة مريم، وقصة خالد بن الوليد لما شرب السم ولم يحصل له منه ضرر.

وقوله: **(والمأثور عن سالف الأمم في سورة الكهف وغيرها وعن صدر هذه الأمة من الصحابة والتابعين وسائر فرق الأمة)** يشير بذلك إلى الكرامات التي وقعت وذكرت في القرآن الكريم وغيره من النقول الصحيحة، فمما ذكره الله في القرآن الكريم عن سالف الأمم ما ذكره الله عن حمل مريم بلا زوج، وما ذكر في سورة الكهف من قصة أصحاب الكهف، وقصة صاحب موسى وقصة ذي القرنين.

وكالمأثور - أي: المنقول بالسند الصحيح عن (**صدر هذه الأمة**) أي: أولها من الصحابة والتابعين كرؤية عمر لجيش سارية وهو على منبر المدينة وجيش سارية بنهاوند بالمشرق ونداءه له: يا سارية الجبل، فسمعه سارية وانتفع بهذا التوجيه وسلم من كيد العدو

وقوله: (وهي موجودة فيها إلى يوم القيامة) أي: لا تزال الكرامات موجودة في هذه الأمة إلى يوم القيامة ما وجدت فيهم الولاية بشروطها. والله أعلم.

❊ ❊ ❊

[أسئلة وأجوبة نموذجية على
من أصول أهل السنة التصديق بكرامات الأولياء]

● قال الشيخ عبد العزيز المحمد السلمان:

س ـ ما هي الكرامة؟

ج ـ هي أمر خارق للعادة غير مقرون بدعوىٰ النبوة ولا هو مقدمة، يظهر علىٰ يد عبد ظاهره الصلاح ملتزم المتابعة لنبي كلف بشريعته مصحوبًا بصحة الاعتقاد والعمل الصالح علم بها أو لم يعلم، ولا تدل علىٰ صدق من ظهرت علىٰ يديه، ولا ولايته ولا فضله علىٰ غيره لجواز سلبها، وأن تكون استدراجًا ومكرًا.

س ـ ما الفرق بين المعجزة والكرامة والأحوال الشيطانية؟

ج ـ المعجزة: هي ما يُجري الله علىٰ أيدي الرسل والأنبياء من خوارق العادات التي يتحدون بها العباد، ويخبرون بها عن الله للتصديق بما بعثهم به ويؤيدهم بها، فمن معجزات النبي ﷺ كلام الله الذي أعجز الخلق، وكانشقاق القمر، وحنين الجذع، ونبوع الماء من بين أصابعه.

وأما الكرامة: فهي ما يُجري الله علىٰ أيدي أوليائه من المؤمنين من خوارق العادات كالعلم والقدرة.

وأما الأحوال الشيطانية: فهي التي تظهر علىٰ أيدي المنحرفين ممن يدعي مع الله إلهًا آخر، كمن يدعو الأموات والأحياء معتقدًا أنهم ينفعون أو يضرون كالسحرة والكهنة والمشعوذة، لأن الكرامة لابد أن تكون أمرًا خارقًا للعادة، أتىٰ ذلك الخارق عن امرئ صالح مواظب علىٰ الطاعة، وتارك للمعاصي وقد تكون ابتلاء فيسعد بها قوم ويشقىٰ بها آخرون.

س ـ ما هو مذهب أهل السنة والجماعة في الكرامة؟

ج ـ مذهبهم التصديق الجازم بكرامات الأولياء وأنها حق.

قال السفاريني:

وكل خارق أتى عن صالح … من تابع لشرعنا وناصح

فإنها من الكرامات التي … بها نقول فاقف للأدلة

ومن نفاها من ذوي الضلال … فقد أتى من ذاك بالمحال

لأنها شهيرة ولم تزل … في كل عصر ياشقا أهل الزلل

واعلم أن وقوع الكرامات للأولياء في الحقيقة معجزات للأنبياء لأن تلك الكرامات لم تحصل لهم إلا ببركة متابعة نبيهم الذي نالوا بسببه خيراً كثيراً من جملتها الكرامات.

س ـ هل عدم الكرامة نقص في دين الإنسان ومرتبته عند الله؟

ج ـ اعلم أن عدم الخارق علماً وقدرة لا يضر المسلم في دينه؛ فمن لم ينكشف له شيء من الكونيات لا ينقصه ذلك في مرتبته عند الله بل قد يكون عدم ذلك أنفع له في دينه إذا لم يكن وجود ذلك مأموراً به أمر إيجاب ولا استحباب.

س ـ ما الذي يستفاد من الكرامة؟ وهل هي مستمرة؟ وضح ذلك.

ج ـ يستفاد منها أولاً: كمال قدرة الله ونفوذ مشيئته.

ثانيًا: أن لله سننًا وأسبابًا تقتضي مسبباتها الموضوعة لها شرعًا وقدراً وأن لله سننًا أخرىٰ لا يقع عليها علم البشر ولا تدركها أعمالهم وأسبابهم.

ثالثًا: أدلة الكرامة بالحقيقة دالة علىٰ رسالة الرسول الذي اتبعه من أتت بين يديه لأنها لم تحصل له إلا ببركة متابعته.

رابعًا: قيل، أنها من المبشرات التي يجعلها الله لمن أتت علىٰ يديه وهي باقية إلىٰ قيام الساعة.

س ـ اذكر شيئًا مما يجري الله على أيدي رسله من خوارق العادات من أنواع القدرة والتأثير والعلم والأخبار الغيبية؟

ج ـ أما العلم والأخبار الغيبية، والسماع في الرؤية فمثل إخباره ﷺ عن الأنبياء

المتقدمين وأممهم ومخاطبته لهم، وكذا إخباره عن أمور الربوبية والملائكة والجنة والنار بما يوافق الأنبياء قبله من غير تعلم منهم، ويُعلم أن ذلك موافق لِنقُول الأنبياء تارة بما في أيديهم من الكتب الظاهرة ونحو ذلك من النقل المتواتر.

وتارة بما يعلمه الخاصة من علمائهم. وأما القدرة والتأثير فكانشقاق القمر وكذا معراجه ﷺ إلى السموات وكثرة الرمي بالنجوم عند ظهوره، وكذلك إسراؤه من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وكتكثيره الماء في عين تبوك وعين الحديبية، ونبع الماء من بين أصابعه، وكذا تكثير الطعام، ونحو ذلك.

وكذلك من باب القدرة عصا موسى ﷺ وفلق البحر والقمل والضفادع والدم وناقة صالح، وإبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى لعيسى عليه السلام. كما أن من باب العلم إخبارهم بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم.

س ـ اذكر ما تستحضره من خوارق العادات التي لغير الأنبياء.

ج ـ منها ما هو من باب العلوم والمكاشفات مثل قول عمر ـ رضي الله عنه ـ في قصة سارية وهو على المنبر، ورؤيته لجيش سارية مع بعد المسافة فقال: يا سارية الجبل، تحذيراً له من العدو ومكرهم له من وراء الجبل، فسمع ساريةُ قولَه مع بُعْدِ المسافة لأن عمر بالمدينة والجيش بنهاوند وكإخبار أبي بكر أن في بطن امرأته أنثى، وإخبار عمر عمن يخرج من ولده فيكون عادلاً، وقصة صاحب موسى ـ عليه السلام ـ وعلمه بحال الغلام.

س ـ ما مثال ما كان من باب القدرة والتأثير لغير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؟

ج ـ مثل قصة أصحاب الكهف، وقصة مريم، والذي عنده علم من الكتاب وكما في قصة العلاء بن الحضرمي من الصحابة فإنه لما ذهب إلى البحرين سلكوا مفازة وعطشوا عطشاً شديداً حتى خافوا الهلاك فنزل فصلى ركعتين ثم قال يا حليم يا عليم يا عظيم اسقنا، فجاءت سحابة فأمطرت حتى ملئوا الآنية، وسقوا الركاب.

ثم انطلق إلى خليج من البحر ما خِيضَ قبل ذلك اليوم، فلم يجدوا سُفُنًا فصلى

ركعتين ثم قال يا حليم يا عليم يا عليُّ يا عظيم أجِزْنَا. ثم أخذ بعنان فرسه، ثم قال: جوزوا باسم الله.

قال أبو هريرة - رضي الله عنه - فمشينا على الماء فوالله ما ابتل لنا قدم ولا خف ولا حافر، وكان الجيش أربعة آلاف.

والطيران في الهواء كما في قصة جعفر ابن أبي طالب ذي الجناحين، وكجريان النيل بكتاب أمير المؤمنين عمر، وكشرب خالد بن الوليد السُمَّ من غير أن يحصل له ضرر.

وكما جرى لسعد ابن أبي وقاص في القادسية ومرورهم على الماء بجنودهم وأسيد بن حضير ونزول الظلة عليه بالليل فيها مثل السراج، وما جرى لأبي مسلم الخولاني لما ألقاه الأسود العنسي بالنار فأنجاه الله منها.

وأم أيمن لما خرجت مهاجرة اشتد بها العطش سمعت حسًا من فوقها فرفعت رأسها فإذا هي بدلو من ماء فشربت منها ثم رفعت، إلى غير ذلك مما يطول ذكره، وفي هذا كفاية.

❊ ❊ ❊

[من أصول أهل السنة: اتباع آثار رسول الله ﷺ واتباع سبيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار]

فَصْلٌ

ثُمَّ من طريقة أهل السُّنَّة والجماعة:

اتِّبَاعُ: آثار رسول الله ـ ﷺ ـ بَاطِنًا وَظَاهِرًا.

واتِّبَاعُ: سبيل السَّابقينَ، الأولينَ من المهاجرين والأنصار.

واتِّبَاعُ: وَصِيَّة رسُول اللَّه ـ ﷺ ـ، حَيثُ: قَالَ: «عَلَيكُم بسُنَّتي وَسُنَّة الخُلَفَاء الرَّاشدينَ المهديِّينَ منْ بَعْدي، تَمَسَّكوا بها، وَعُضُّوا عَلَيْهَا بالنَّواجذ، وَإِيَّاكُم ومُحْدَثات الأُمُور فَإنَّ كُلَّ بدْعَة ضَلالَةٌ».

ويَعْلَمُونَ: أَنَّ أَصْدَقَ الكَلاَم كَلامُ اللَّه، وخَيرَ الهَدْيِ هَدْيُ محمَّد ـ ﷺ ـ.

يُؤْثِرُونَ: كَلاَمَ اللَّه عَلَى غَيْره منْ كَلاَم أَصْنَاف النَّاس.

ويُقَدِّمُون: هَدْيَ مُحَمَّد ﷺ عَلَى هَدْيِ كُلِّ أَحَد.

ولهذا سُمُّوا: «أهلَ الكتاب والسُّنَّة».

وسُمُّوا «أهلَ الجماعة» ؛ لأن الجماعة هي الاجتماعُ وضدُّها الفرقة، وإن كان لفظ «الجماعة» قد صَارَ اسْمًا لنَفْسِ القَوْمِ المُجْتَمعينَ.

والإِجْمَاعُ: هُوَ الأَصْلُ الثَّالثُ الَّذي يُعتمدُ عَليه في العلم الدِّين.

وَهُم يَزِنُونَ بِهذه الأُصُول الثَّلاثة جَمِيعَ مَا عَلَيْـهِ النَّاسُ من أَقْوَالٍ وأعمالٍ بَاطنة أو ظَاهرة، ممَّا لَهُ تَعَلُّقٌ بالدِّينِ.

والإِجـمَاعُ الذي يَنْضَـبِطُ هُوَ مَـا كَانَ عَليـهِ «السَّلَفُ الصَّـالحُ». إِذْ بَعْدَهُم كَثُرَ الاختلافُ، وانْتَشَرَ في الأمةِ.

• الشَّرح •

● قال العلامة ناصر السعدي:

لَمَّا ذكر طريقة أهل السنة في مسائل الأُصُول المعينة ذكر طريقهم الكُلِّي في أَخْذ دينهم، أُصُوله وفُروعه، وأنهم سَلَكُوا في ذلك الصراط المستقيم والعصمة النَّافعة ـ الكتاب والسُّنَّة ـ واتَّبعوا أعظم النَّاس معرفة وعِلمًا واتِّباعًا للكتاب والسُّنَّة وهم الصَّحابة رضي اللَّه عنهم عمومًا والخلفاء الراشدون خصوصًا، فَسَلَكُوا إلى اللَّه مُسْتَصْحِبِين لهذه الأصول الجليلة، وما جاءهم مما قاله الناس وذَهَبُوا إليه من المقالات وَزَنُوه بالكتاب والسُّنَّة وإجماع الصحابة والقرون المُفَضَّلَة؛ فاستقامت طريقتهم وسَلِمُوا من بِدَع الأقوال المخالفة لما عليه الرَّسول وأصحابه في الاعتقادات كما سَلِمُوا من بِدَع الأعمال، إذ لم يَتَعَبَّدوا ولم يُشَرِّعوا إلاَّ مَا شَرَعَهُ اللَّه ورسوله.

● قال الشيخ محمد خليل هراس:

قوله: «ثم من طريقة أهل السنة»... إلخ: هذا بيان لمنهج أهل السنة والجماعة في استنباط الأحكام الدينية كلها، أصولها وفروعها بعد طريقتهم في مسائل الأصول وهذا المنهج يقوم على أصول ثلاثة:

أولها: كتاب الله عز وجل الذي هو خير الكلام وأصدقه، فهم لا يقدمون على كلام الله كلام أحد من الناس.

وثانيها: سنة رسول الله ﷺ وما أثر عنه من هدي وطريقة، لا يقدمون على ذلك هدي أحد من الناس.

وثالثها: ما وقع عليه إجماع الصدر الأول من هذه الأمة قبل التفرق والانتشار وظهور البدعة والمقالات، وما جاءهم بعد ذلك مما قاله الناس وذهبوا إليه من المقالات وزنوها بهذه الأصول الثلاثة التي هي الكتاب والسنة والإجماع، فإن وافقها قبلوه وإن خالفها ردوه أيًا كان قائله وهذا هو المنهج الوسط والصراط المستقيم الذي لا يضل سالكه ولا يشقى من اتبعه، وسط بين من يتلاعب بالنصوص فيتأول الكتاب وينكر الأحاديث الصحيحة ولا يعبأ بإجماع السلف، وبين من يخبط خبط عشواء فيتقبل كل رأي ويأخذ بكل قول لا يفرق في ذلك بين غث وسمين وسقيم.

● قال الشيخ عبد العزيز بن باز:

مراد المصنف بذلك اتباع ما أثر عن النبي ﷺ من قول أو عمل أو تقرير، وذلك هو اتباع السنة والتمسك بها.

أوجه السنة ثلاثة: قول وعمل وتقرير. وأما آثاره الحسية كموضع جلوسه وما هو عليه وما وطئه بقدمه الشريفة، أو استند إليه، أو اضطجع عليه ونحو ذلك فلا يشرع اتباعه في ذلك، بل تتبع هذه الآثار من وسائل الغلو فيه.

وقد أنكر بعض أعيان الصحابة على ابن عمر ذلك، وقطع عمر الشجرة التي بُويع النبي ﷺ تحتها لما علم أن الناس يقصدونها خوفًا من الفتنة. ولما بلغه أن ناسًا يقصدون مسجداً صلى فيه النبي ﷺ في الطريق، أنكر وقال ـ ما معناه ـ: «إنما أهلك من كان قبلكم مثل هذا، كانوا يتتبعون آثار أنبيائهم، فمن أدركته الصلاة في شيء من هذه المساجد فليصل، ومن لا فليمض ولا يقصدها».

وأما من صلى فيه صلوات التشريع فالصلاة فيه مشروعة كمسجده ﷺ، والكعبة، ومسجد قباء، والموضع الذي صلى فيه في بيت عتبان رضي الله عنه كما طلب منه ذلك ليتخذه مصلى فأجابه ﷺ على ذلك، وهكذا التبرك بشعره ﷺ وريقه وعرقه وما ماس جلده فكله لا بأس به؛ لأن السنة قد صحت بذلك، وقد قسم ﷺ

في حجة الوداع بين الناس شعر رأسه؛ لما قد جعل الله فيه من البركة، وليس هذا من الغلو الممنوع، وإنما الغلو الممنوع هو أن يعتقد فيه ﷺ ما لا يجوز، أو يصرف له شيئًا من العبادة. وأما التبرك بغيره ﷺ فالصحيح منعه لأمرين:

أحدهما: أن غيره لا يقاس به لما جعل الله فيه من الخير والبركة بخلاف غيره فلا يتحقق فيه ذلك.

الأمر الثاني: أن ذلك ربما يوقع في الغلو وأنواع الشرك، فوجب سد الذرائع بالمنع من ذلك و إنما جاز في حق النبي لمجيء النص به.

وهناك أمر ثالث أيضًا: وهو أن الصحابة لم يفعلوا مثل ذلك مع غير النبي ﷺ لا مع الصديق ولا مع عمر ولا مع غيرهما، ولو كان ذلك سائغًا أو قربة لسبقونا إليه ولم يجمعوا على تركه، فلما تركوه عُلم أن الحق ترك ذلك، وعدم إلحاق غير النبي به في ذلك.

● قال الشيخ ابن عثيمين:

قوله: «ثم من طريقة أهل السنة والجماعة اتباع آثار رسول الله ﷺ باطنًا وظاهرًا».

لما فرغ المؤلف - رحمه الله - مما يريد ذكره من طريقة أهل السنة العقدية؛ شرع في ذكر طريقتهم العملية:

قوله: «اتباع الآثار»: لا اتباع إلا بعلم؛ إذاً؛ فهم حريصون على طلب العلم؛ ليعرفوا آثار الرسول عليه الصلاة والسلام ثم يتبعوها.

فهم يتبعون آثار الرسول ﷺ في العقيدة والعبادة والأخلاق والدعوة إلى الله تعالى؛ يدعون عباد الله إلى شريعة الله في كل مناسبة، وكلما اقتضت الحكمة أن يدعوا إلى الله؛ دَعَوا إلى الله، ولكنهم لا يخبطون خبط عشواء، وإنما يدعون بالحكمة؛ يتبعون آثار الرسول عليه الصلاة والسلام في الأخلاق الحميدة في معاملة الناس باللطف واللين، وتنزيل كل إنسان منزلته؛ يتبعونه أيضًا في أخلاقه مع أهله، فتجدهم يحرصون على أن يكونوا أحسن الناس لأهليهم؛ لأن النبي ﷺ يقول:

«**خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي**»(١) .

ونحن لا نستطيع أن نحصر آثار الرسول عليه الصلاة والسلام، ولكن نقول على سبيل الإجمال في العقيدة والعبادة والخلق والدعوة: في العبادة لا يتشددون ولا يتهاونون ويتبعون ما هو أفضل.

وربما يشتغلون عن العبادة بمعاملة الخلق للمصلحة، كما كان الرسول يأتيه الوفود يشغلونه عن الصلاة؛ فيقضيها فيما بعد.

قوله: «ظاهرًا وباطنًا»: الظهور والبطون أمر نسبي: ظاهرًا فيما يظهر للناس، وباطنًا فيما يسرونه بأنفسهم. ظاهرًا في الأعمال الظاهرة، وباطنًا في أعمال القلوب..

فمثلا؛ التوكل والخوف والرجاء والإنابة والمحبة وما أشبه ذلك؛ هذه من أعمال القلوب؛ يقومون بها على الوجه المطلوب، والصلاة فيها القيام والقعود والركوع والسجود والصدقة والحج والصيام، وهذه من أعمال الجوارح؛ فهي ظاهرة.

ثم اعلم أن آثار الرسول ﷺ تنقسم إلى ثلاثة أقسام أو أكثر:

أولاً: ما فعله على سبيل التعبد؛ فهذا لا شك أننا مأمورون باتباعه؛ لقوله تعالى: ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ**﴾ [الأحزاب: ٢١] فكل شيء لا يظهر فيه أنه فعله تأثرًا بعادة أو بمقتضى جبلة وفطرة أو حصل اتفاقًا؛ فإنه على سبيل التعبد، ونحن مأمورون به.

ثانيًا: ما فعله اتفاقًا؛ فهذا لا يشرع لنا التأسي فيه؛ لأنه غير مقصود؛ كما لو قال قائل: ينبغي أن يكون قدومنا إلى مكة في الحج في اليوم الرابع من ذي الحجة! لأن الرسول ﷺ قدم مكة في اليوم الرابع من ذي الحجة. فنقول: هذا غير مشروع؛ لأن قدومه ﷺ في هذا اليوم وقع اتفاقًا.

ولو قال قائل: ينبغي إذا دفعنا من عرفة ووصلنا إلى الشعب الذي نزل فيه ﷺ

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (٣٨٩٥) وابن ماجه ١٩٧٧) من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ والحديث صححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٣٣١٤).

وبال أن ننزل ونبول ونتوضأ وضوءً خفيفًا كما فعل النبي ﷺ! فنقول: هذا لا يشرع.

وكذلك غيرها من الأمور التي وقعت اتفاقًا؛ فإنه لا يشرع التأسي فيه بذلك؛ لأنه ﷺ فعله لا على سبيل القصد للتعبد، والتأسي به تعبد.

ثالثًا: ما فعله بمقتضى العادة؛ فهل يشرع لنا التأسي به؟

الجواب: نعم؛ ينبغي لنا أن نتأسى به، لكن بجنسه لا بنوعه.

وهذه المسألة قل من يتفطن لها من الناس، يظنون أن التأسي به فيما هو على سبيل العادة بالنوع، ثم ينفون التأسي به في ذلك.

ونحن نقول: نتأسى به، لكن باعتبار الجنس؛ بمعنى أن نفعل ما تقتضيه العادة التي كان عليها الناس؛ إلا أن يمنع من ذلك مانع شرعي.

رابعًا: ما فعله بمقتضى الجبلة؛ فهذا ليس من العبادات قطعًا، لكن قد يكون عبادة من وجه؛ بأن يكون فعله على صفة معينة عبادة: كالنوم؛ فإنه بمقتضى الجبلة، لكن يسن أن يكون على اليمين، والأكل والشرب جبلة وطبيعة، ولكن قد يكون عبادة من جهة أخرى، إذا قصد به الإنسان امتثال أمر الله والتنعم بنعمه والقوة على عبادته وحفظ البدن، ثم إن صفته أيضًا تكون عبادة كالأكل باليمين، والبسملة عند البداءة، والحمدلة عند الانتهاء.

وهنا نسأل: هل اتخاذ الشعر عادة أو عبادة؟.

يرى بعض العلماء أنه عبادة، وأنه يسن للإنسان اتخاذ الشعر.

ويرى آخرون أن هذا من الأمور العادية؛ بدليل قول الرسول ﷺ للذي رآه قد حلق بعض رأسه وترك بعضه؛ فنهاهم عن ذلك، وقال: **«احلقوا كله أو ذروا كله»**[1] هذا يدل على أن اتخاذ الشعر ليس بعبادة، وإلا؛ لقال: أبقه، ولا تحلق منه شيئًا!

وهذه المسألة ينبغي التثبت فيها، ولا يحكم على شيء بأنه عبادة؛ إلا بدليل؛ لأن الأصل في العبادات المنع؛ إلا ما قام الدليل على مشروعيته.

قوله: «واتباع سبيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار»؛ أي: ومن

---

(١) أخرجه النسائي في «الكبرى» (٢٠٤٨) وأبو داود (٤١٩٥) من حديث ابن عمر رضي الله عنه.

طريقة أهل السنة اتباع . . . إلخ ؛ فهي معطوفة على «اتباع الآثار».

قوله: «السابقين»؛ يعني: إلى الأعمال الصالحة.

وقوله: «الأولين»؛ يعني: من هذه الأمة.

«والمهاجرون»: من هاجروا إلى المدينة.

«والأنصار»: أهل المدينة في عهد النبي ﷺ.

وإنما كان اتباع سبيلهم من منهج أهل السنة والجماعة؛ لأنهم أقرب إلى الصواب والحق ممن بعدهم، وكلما بعد الناس عن عهد النبوة؛ بعدوا من الحق، وكلما قرب الناس من عهد النبوة؛ قربوا من الحق، وكلما كان الإنسان أحرص على معرفة سيرة النبي ﷺ وخلفائه الراشدين؛ كان أقرب إلى الحق.

ولهذا ترى اختلاف الأمة بعد زمن الصحابة والتابعين أكثر انتشاراً وأشمل لجميع الأمور، لكن الخلاف في عهدهم كان محصوراً.

فمن طريقة أهل السنة والجماعة أن ينظروا في سبيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، فيتبعوها؛ لأن اتباعها يؤدي إلى محبتهم، مع كونهم أقرب إلى الصواب والحق؛ خلافا لمن زهد في هذه الطريقة، وصار يقول: هم رجال ونحن رجال! ولا يبالي بخلافهم!! وكأن قول أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم قول فلان وفلان من أواخر هذه الأمة!! وهذا خطأ وضلال؛ فالصحابة رضي الله عنهم أقرب إلى الصواب، وقولهم مقدم على قول غيرهم من أجل ما عندهم من الإيمان والعلم، وما عندهم من الفهم السليم والتقوى والأمانة، وما لهم من صحبة الرسول ﷺ.

قوله: «واتباع وصية رسول الله ﷺ»: حديث قال: **«عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة»**[1].

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧) والترمذي (٢٦٧٦) من حديث العرباض بن سارية وصححه الشيخ الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٤٠).

«اتباع»: معطوفة على «اتباع الآثار».

«والوصية»: العهد إلى غيره بأمر هام.

ومعنى: «عليكم بسنتي...» إلخ: الحث على التمسك بها، وأكد هذا بقوله: «وعضوا عليها بالنواجذ»، وهي أقصى الأضراس؛ فأمر بالتمسك بها باليد والعض عليها بالأضراس مبالغة في التمسك بها.

والسنة: هي الطريقة ظاهراً وباطناً.

والخلفاء الراشدون: هم الذين خلفوا النبي ﷺ في أمته علماً وعملاً ودعوة.

وأول من يدخل في هذا الوصف وأولى من يدخل فيه الخلفاء الأربعة: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي رضي الله عنهم.

ثم يأتي رجل في هذا العصر، ليس عنده من العلم شيء ويقول: أذان الجمعة الأول بدعة؛ لأنه ليس معروفاً على عهد الرسول ﷺ، ويجب أن نقتصر على الأذان الثاني فقط!

فنقول له: إن سنة عثمان رضي الله عنه سنة متبعة إذا لم تخالف سنة رسول الله ﷺ، ولم يقم أحد من الصحابة الذين هم أعلم منك وأغير على دين الله بمعارضته، وهو من الخلفاء الراشدين المهديين، الذين أمر رسول الله ﷺ باتباعهم.

ثم إن عثمان رضي الله عنه اعتمد على أصل، وهو أن بلالا يؤذن قبل الفجر في عهد النبي ﷺ، لا لصلاة الفجر، ولكن ليرجع القائم ويوقظ النائم؛ كما قال ذلك رسول الله ﷺ، فأمر عثمان بالأذان الأول يوم الجمعة، لا لحضور الإمام، ولكن لحضور الناس؛ لأن المدينة كبرت واتسعت واحتاج الناس أن يعلموا بقرب الجمعة قبل حضور الإمام؛ من أجل أن يكون حضورهم قبل حضور الإمام.

فأهل السنة والجماعة يتبعون ما أوصى به النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم في الحث على التمسك بسنته وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعده وعلى رأسهم الخلفاء الأربعة: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي رضي الله عنهم، إلا إذا خالف كلام رسول الله ﷺ مخالفة صريحة؛ فالواجب علينا أن نأخذ بكلام رسول الله ﷺ ونعتذر عن هذا الصحابي، ونقول: هذا من باب الاجتهاد المعذور فيه.

قول النبي ﷺ: «**وإياكم ومحدثات الأمور**»: «إياكم»: هذه للتحذير؛ أي: أحذركم.

و «الأمور»: بمعنى: الشئون، والمراد بها أمور الدين، أما أمور الدنيا؛ فلا تدخل في هذا الحديث؛ لأن الأصل في أمور الدنيا الحل؛ فما ابتدع منها؛ فهو حلال؛ إلا أن يدل الدليل على تحريمه. لكن أمور الدين الأصل فيها الحظر؛ فما ابتدع منها؛ فهو حرام بدعة؛ إلا بدليل من الكتاب والسنة على مشروعيته.

قال النبي عليه الصلاة والسلام: «فإن كل بدعة ضلالة»: الجملة مفرعة على الجملة التحذيرية، فيكون المراد بها هنا توكيد التحذير وبيان حكم البدعة.

«كل بدعة ضلالة»: هذا كلام عام مسوغ بأقوى لفظ دال على العموم، وهو لفظ (كل)؛ فهو تعميم محكم صدر من الرسول ﷺ، والرسول عليه الصلاة والسلام أعلم الخلق بشريعة الله، وأنصح الخلق لعباد الله، وأفصح الخلق بيانًا، وأصدقهم خبراً؛ فاجتمعت في حقه أربعة أمور: علم ونصح وفصاحة وصدق، نطق بقوله: «**كل بدعة ضلالة**».

فعلى هذا: كل من تعبد لله بعقيدة أو قول أو فعل لم يكن شريعة الله؛ فهو مبتدع.

- فالجهمية يتعبدون بعقيدتهم، ويعتقدون أنهم منزهون لله. والمعتزلة كذلك. والأشاعرة يتعبدون بما هم عليه من عقيدة باطلة.

- والذين أحدثوا أذكاراً معينة يتعبدون لله بذلك، ويعتقدون أنهم مأجورون على هذا.

- والذين أحدثوا أفعالا يتعبدون لله بها ويعتقدون أنهم مأجورون على هذا.

كل هذه الأصناف الثلاثة الذين ابتدعوا في العقيدة أو في الأقوال أو في الأفعال؛ كل بدعة من بدعهم؛ فهي ضلالة، ووصفها الرسول عليه الصلاة والسلام بالضلالة؛ لأنها مركب، ولأنها انحراف عن الحق.

والبدعة تستلزم محاذير فاسدة:

فأولاً: تستلزم تكذيب قول الله تعالى: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ**﴾ [المائدة: ٣]؛

لأنه إذا جاء ببدعة جديدة يعتبرها دينًا؛ فمقتضاه أن الدين لم يكمل.

ثانيًا: تستلزم القدح في الشريعة، وأنها ناقصة، فأكملها هذا المبتدع.

ثالثًا: تستلزم القدح في المسلمين الذين لم يأتوا بها؛ فكل من سبق هذه البدع من الناس دينهم ناقص! وهذا خطير!!

رابعًا: من لوازم هذه البدعة أن الغالب أن من اشتغل ببدعة؛ انشغل عن سنة؛ كما قال بعض السلف: «ما أحدث قوم بدعة؛ إلا هدموا مثلها من السنة».

خامسًا: أن هذه البدع توجب تفرق الأمة؛ لأن هؤلاء المبتدعة يعتقدون أنهم هم أصحاب الحق، ومن سواهم على ضلال!! وأهل الحق يقولون: أنتم على ضلال! فتتفرق قلوبهم.

فهذه مفاسد عظيمة، كلها تترتب على البدعة من حيث هي بدعة، مع أنه يتصل بهذه البدعة سفه في العقل وخلل في الدين.

وبهذا نعرف أن من قسم البدعة إلى أقسام ثلاثة أو خمسة أو ستة؛ فقد أخطأ، وخطؤه من أحد وجهين:

- إما أن لا ينطبق شرعًا وصف البدعة على ما سماه بدعة.
- وإما أن لا يكون حسنًا كما زعم.

فالنبي ﷺ قال: «كل بدعة ضلالة»؛ فقال: «كل»؛ فما الذي يخرجنا من هذا السور العظيم حتى نقسم البدع إلى أقسام؟

فإن قلت: ما تقول في قول أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه حين خرج إلى الناس وهم يصلون بإمامهم في رمضان، فقال: «نعمت البدعة هذه»[١]. فأثنى عليها، وسماها بدعة؟!

فالجواب أن نقول: ننظر إلى هذه البدعة التي ذكرها؛ هل ينطبق عليها وصف البدعة الشرعية أو لا.

فإذا نظرنا ذلك؛ وجدنا أنه لا ينطبق عليها وصف البدعة الشرعية؛ فقد ثبت أن

---

(١) أخرجه البخاري (٢٠١٠) من حديث عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه.

النبي ﷺ صلىٰ بأصحابه في رمضان ثلاث ليال، ثم تركه خوفًا من أن تفرض عليهم، فثبت أصل المشروعية، وانتفىٰ أن تكون بدعة شرعية، ولا يمكن أن نقول: إنها بدعة، والرسول ﷺ قد صلاها!!

وإنما سماها عمر رضي الله عنه بدعة، لأن الناس تركوها، وصاروا لا يصلون جماعة بإمام واحد، بل أوزاعًا؛ الرجل وحده والرجلان والثلاثة والرهط، فلما جمعهم علىٰ إمام واحد؛ صار اجتماعهم بدعة بالنسبة لما كانوا عليه أولا من هذا التفرق.

فإنه خرج رضي الله عنه ذات ليلة، فقال: لو أني جمعت الناس علىٰ إمام واحد؛ لكان أحسن، فأمر أبي بن كعب وتميمًا الداري أن يقوما للناس بإحدىٰ عشرة ركعة، فقاما للناس بإحدىٰ عشرة ركعة، فخرج ذات ليلة والناس يصلون بإمامهم، فقال: «**نعمت البدعة هذه**».

إذاً؛ هي بدعة نسبية؛ باعتبار أنها تركت ثم أنشئت مرة أخرىٰ.

فهذا وجه تسميتها ببدعة.

وأما أنها بدعة شرعية، ويثني عليها عمر رضي الله عنه؛ فكلا.

وبهذا نعرف أن كلام رسول الله ﷺ لا يعارضه كلام عمر رضي الله عنه.

فإن قلت: كيف تجمع بين هذا وبين قول الرسول ﷺ: «**من سن في الإسلام سنة حسنة؛ فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة**»[1]؛ فأثبت أن الإنسان يسن سنة حسنة في الإسلام؟

فنقول: كلام الرسول ﷺ يصدق بعضه بعضاً، ولا يتناقض؛ فيريد بالسنة الحسنة السنة المشروعة، ويكون المراد بسنها المبادرة إلىٰ فعلها.

يعرف هذا ببيان سبب الحديث، وهو أن النبي ﷺ قاله حين جاء أحد أنصار بصرة (يعني: من الدراهم)، ووضعها بين يدي النبي ﷺ حين دعا أصحابه أن يتبرعوا للرهط الذين قدموا من مضر مجتابي النمار، وهم من كبار العرب، فتمعر

---

(١) أخرجه مسلم (١٠١٧) وأحمد في «مسنده» (٤/ ٣٦١) من حديث بريدة بن عبد الله رضي الله عنه.

وجه النبي ﷺ لما رأىٰ من حالهم، فدعا إلىٰ التبرع لهم، فجاء هذا الرجل أول من جاء بهذه الصرة، فقال: «**من سن في الإسلام سنة حسنة، فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة**».

أو يقال: المراد بالسنة الحسنة ما أحدث ليكون وسيلة إلىٰ ما ثبت مشروعيته؛ كتصنيف الكتب وبناء المدارس ونحو ذلك.

وبهذا نعرف أن كلام الرسول ﷺ لا يناقض بعضه بعضًا، بل هو متفق؛ لأنه عليه الصلاة والسلام لا ينطق عن الهوىٰ.

قوله: «**ويعلمون أن أصدق الكلام كلام الله**».

هذا علمنا واعتقادنا، وأن ليس في كلام الله من كذب، بل هو أصدق الكلام، فإذا أخبر الله عن شيء بأنه كائن؛ فهو كائن، وإذا أخبر عن شيء بأنه سيكون؛ فإنه سيكون، وإذا أخبر عن شيء بأنه صفته كذا وكذا؛ فإن صفته كذا وكذا.

فلا يمكن أن يتغير الأمر عما أخبر الله به، ومن ظن التغير؛ فإنما ظنه خطأ؛ لقصوره أو تقصيره.

مثال ذلك لو قال قائل: إن الله عز وجل أخبر أن الأرض قد سطحت، فقال: ﴿**وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ**﴾ [الغاشية: ٢٠]، ونحن نشاهد أن الأرض مكورة؛ فكيف يكون خبره خلاف الواقع؟

فجوابه: أن الآية لا تخالف الواقع، ولكن فهمه خاطئ إما لقصوره أو تقصيره؛ فالأرض مكورة مسطحة، وذلك لأنها مستديرة، ولكن لكبر حجمها لا تظهر استدارتها إلا في مساحة واسعة تكون بها مسطحة وحينئذ يكون الخطأ في فهمه؛ حيث ظن أن كونها قد سطحت مخالف لكونها كروية.

فإذا كنا نؤمن أن أصدق الكلام كلام الله؛ فلازم ذلك أن يجب علينا أن نصدق بكل ما أخبر الله به في كتابه، سواء كان ذلك عن نفسه أو عن مخلوقاته.

قوله: «**وخير الهدي هدي محمد ﷺ**»[١].

---

(١) أخرجه مسلم (٨٦٧) والنسائي في «الكبرىٰ» (١٥٧٨) من حديث جابر - رضي الله عنه -.

«الهدي»: هو الطريق التي كان عليها السالك.

والطرق شتىٰ، لكن خيرها طريق النبي ﷺ فنحن نعلم ذلك ونؤمن به، نعلم أن خير الهدي هدي محمد ﷺ في العقائد والعبادات والأخلاق والمعاملات، وأن هدي محمد ﷺ ليس بقاصر؛ لا في حسنه وتمامه وانتظامه وموافقته لمصالح الخلق، ولا في أحكام الحوادث التي لم تزل ولا تزال تقع إلىٰ يوم القيامة؛ فإن هدي النبي ﷺ كامل تام؛ فهو خير الهدي؛ أهدىٰ من شريعة التوراة والإنجيل والزبور وصحف إبراهيم وجميع الهدي.

وبناء علىٰ هذه العقيدة لا نعارض قول رسول الله ﷺ بقول أحد من الناس، كائنًا من كان، حتىٰ لو جاءنا قول لأبي بكر رضي الله عنه وهو خير الأمة، وقول لرسول الله ﷺ؛ أخذنا بقول رسول ﷺ.

وأهل السنة والجماعة بنوا هذا الاعتقاد على الكتاب والسنة:

- قال الله تعالىٰ: ﴿**وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا**﴾ [النساء: ٨٧].

- وقال النبي ﷺ وهو يخطب الناس علىٰ المنبر: «**خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ**».

ولهذا تجد الذين اختلفوا في الهدي وخالفوا فيه: إما مقصرين عن شريعة الرسول ﷺ، وإما غالين فيها؛ بين متشددين وبين متهاونين، بين مفرِّط ومفرط، وهدي الرسول ﷺ يكون بين هذا وهذا.

قوله: «ويؤثرون كلام الله على كلام غيره من كلام أصناف الناس»:

«يؤثرون»؛ أي: يقدمون.

«كلام الله على كلام غيره»: من سائر أصناف الناس في الخبر والحكم؛ فأخبار الله عندهم مقدمة علىٰ خبر كل أحد.

فإذا جاءتنا أخبار عن أمم مضت وصار القرآن يكذبها؛ فإننا نكذبها.

مثال ذلك: اشتهر عند كثير من المؤرخين أن إدريس عليه السلام قبل نوح عليه السلام، وهذا كذب؛ لأن القرآن يكذبه؛ كما قال تعالىٰ: ﴿**إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ**﴾ [النساء: ١٦٣]، وإدريس من النبيين؛ كما

قال الله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٥٦] إلى أن قال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ [مريم: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [الحديد: ٢٦]؛ فلا نبي قبل نوح إلا آدم فقط.

قوله: «ويقدمون هدي محمد ﷺ على هدى كل أحد»:

«يقدمون هديه»؛ أي: طريقته وسنته التي عليها.

«على هدي كل أحد»: في العقائد والعبادات والأخلاق والمعاملات والأحوال وفي كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣]. وقوله: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

قوله: «ولهذا»: اللام في قوله: «ولهذا» للتعليل؛ أي: ومن أجل إيثارهم كلام الله وتقديم هدي رسول الله ﷺ.

«سموا أهل الكتاب والسنة»: لتصديقهما والتزامهما وإيثارهما على غيرهما. ومن خالف الكتاب والسنة، وادعى أنه من أهل الكتاب والسنة؛ فهو كاذب؛ لأن من كان من أهل شيء لا بد أن يلزمه ويلتزم به.

قوله: «وسموا أهل الجماعة؛ لأن الجماعة هي الاجتماع، وضدها الفرقة»؛ فالجماعة اسم مصدر اجتمع يجتمع اجتماعًا وجماعة؛ فالجماعة هي الاجتماع؛ فمعنى أهل الجماعة أهل الاجتماع؛ لأنهم مجتمعون على السنة، متآلفون فيها، لا يضلل بعضهم بعضًا، ولا يبدع بعضهم بعضًا؛ بخلاف أهل البدع.

قوله: «وإن كان لفظ الجماعة قد صار اسمًا لنفس القوم المجتمعين»: هذا في استعمال ثان؛ حيث صار لفظ (الجماعة) عرفًا: اسم للقوم المجتمعين.

وعلى ما قرره المؤلف - رحمه الله - تكون (الجماعة) في قولنا: «أهل السنة والجماعة»: معطوفة على (السنة)، ولهذا عبر المؤلف - رحمه الله - بقوله: «سموا أهل الجماعة»، ولم يقل: سموا جماعة؛ فكيف يكونون أهل الجماعة وهم جماعة؟!

نقول: الجماعة في الأصل: الاجتماع؛ فأهل الجماعة؛ يعني: أهل الاجتماع، لكن نقل اسم الجماعة إلى القوم المجتمعين نقلا عرفيًا.

قوله: «والإجماع هو الأصل الثالث الذي يعتمد عليه في العلم والدين»:

يعني به الدليل الثالث، لأن الأدلة أصول الأحكام؛ حيث تبنى عليها.

والأصل الأول هو الكتاب، والثاني السنة، والإجماع هو الأصل الثالث، ولهذا يسمون: أهل الكتاب والسنة والجماعة.

فهذه ثلاث أصول يعتمد عليها في العلم والدين، وهي: الكتاب، والسنة، والإجماع.

أما الكتاب والسنة؛ فأصلان ذاتيان، وأما الإجماع؛ فأصل مبني على غيره؛ إذ لا إجماع إلا بكتاب أو سنة.

أما كون الكتاب والسنة أصلا يرجع إليه؛ فأدلته كثيرة؛ منها:

- قوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩].
- قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ﴾ [المائدة: ٩٢].
- قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر: ٧].
- قوله تعالى: ﴿مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

ومن أنكر أن تكون السنة أصلا في الدليل؛ فقد أنكر أن يكون القرآن أصلا.

ولا شك عندنا في أن من قال: إن السنة لا يرجع إليها في الأحكام الشرعية؛ أنه كافر مرتد عن الإسلام؛ لأنه مكذب ومنكر للقرآن؛ فالقرآن في غير ما موضع جعل السنة أصلا يرجع إليه.

وأما الدليل على أن الإجماع أصل؛ فيقال:

أولا: هل الإجماع موجود أو غير موجود؟

قال بعض العلماء: لا إجماع موجود؛ إلا على ما فيه نص، وحينئذ؛ يستغني بالنص عن الإجماع.

فمثلا؛ لو قال قائل: العلماء مجمعون على أن الصلوات المفروضة خمس؛ فهذا صحيح، لكن ثبوت فرضيتها بالنص.

ومجمعون على تحريم الزنى؛ فهذا صحيح، لكن ثبوت تحريمه بالنص.

ومجمعون على تحريم نكاح ذوات المحارم؛ فهذا صحيح، لكن ثبوت تحريمه بالنص.

ولهذا قال الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ: من ادعى الإجماع؛ فهو كاذب، وما يدريه؟. لعلهم اختلفوا.

والمعروف عند عامة العلماء أن الإجماع موجود، وأن كونه دليلا ثابت بالقرآن والسنة:

ـ فمن ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]؛ فإن قوله: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ﴾: يدل على أن ما أجمعنا عليه لا يجب رده إلى الكتاب والسنة؛ اكتفاء بالإجماع! وهذا الاستدلال فيه شيء!!.

ـ ومن ذلك قوله: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]، فقال: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

ـ واستدلوا أيضًا بحديث: «**لا تجتمع أمتي على ضلالة**».

وهذا الحديث حسنه بعضهم وضعفه آخرون، لكن قد نقول: إن هذا، وإن كان ضعيف السند، لكن يشهد لمتنه ما سبق من النص القرآني.

فجمهور الأمة أن الإجماع دليل مستقل، وأننا إذا وجدنا مسألة فيها إجماع؛ أثبتناها بهذا الإجماع.

وكأن المؤلف ـ رحمه الله ـ يريد من هذه الجملة إثبات أن إجماع أهل السنة حجة.

قوله: «**وهم يزنون بهذه الأصول الثلاثة جميع ما عليه الناس من أقوال وأعمال باطنة أو ظاهرة مما له تعلق بالدين**».

«**الأصول الثلاثة**»: هي الكتاب والسنة والإجماع.

يعني: أن أهل السنة والجماعة يزنون بهذه الأصول الثلاثة جميع ما عليه الناس من قول أو عمل، باطن أو ظاهر، لا يعرفون أنه حق؛ وزنوه بالكتاب والسنة والإجماع؛ فإن وجد له دليل منها؛ فهو حق، وإن كان على خلافه؛ فهو باطل.

قوله: «والإجماع الذي ينضبط هو ما كان عليه السلف الصالح؛ إذ بعدهم كثر الاختلاف وانتشرت الأمة».

يعني: أن الإجماع الذي يمكن ضبطه والإحاطة به هو ما كان عليه السلف الصالح، وهم القرون الثلاثة، الصحابة والتابعون وتابعوهم.

ثم علل المؤلف - رحمه الله - بقوله: «إذ بعدهم كثر الاختلاف وانتشرت الأمة»؛ يعني: أنه كثر الاختلاف ككثرة الأهواء؛ لأن الناس تفرقوا طوائف، ولم يكونوا كلهم يريدون الحق، فاختلفت الآراء وتنوعت الأقوال.

«وانتشرت الأمة»: فصارت الإحاطة بهم من أصعب الأمور.

فشيخ الإسلام - رحمه الله - كأنه يقول: من ادعى الإجماع بعد السلف الصالح، وهم القرون الثلاثة؛ فإنه لا يصح دعواه الإجماع؛ لأن الإجماع الذي ينضبط ما كان عليه السلف الصالح، وهل يمكن أن يوجد إجماع بعد الخلاف؟ فنقول: لا إجماع مع وجود خلاف سابق ولا عبرة بخلاف بعد تحقق الإجماع.

● قال الشيخ صالح الفوزان:

لما ذكر الشيخ طريقة أهل السنة في مسائل العقيدة ذكر في هذا الفصل والذي بعده طريقتهم في عموم الدين أصوله وفروعه وأوصافهم التي تميزوا بها عن أهل البدع والمخالفات، فمن صفاتهم:

١ - (اتباع آثار النبي ﷺ باطنًا وظاهرًا) أي: سلوك طريقه والسير على منهاجه (باطنًا وظاهرًا) بخلاف المنافقين الذين يتبعونه في الظاهر دون الباطن، وآثار الرسول ﷺ: سنته، وهي ما روي عنه وأثر عنه من قول أو فعل أو تقرير. لا آثاره الحسية كمواضع جلوسه ونومه ونحو ذلك؛ لأن تتبع ذلك سبب للوقوع في الشرك، كما حصل في الأمم السابقة.

٢ - ومن صفات أهل السنة (**اتباع سبيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار**) لما خصهم الله به من العلم والفقه، فقد شاهدوا التنزيل، وسمعوا التأويل، وتلقوا عن الرسول ﷺ بدون واسطة، فهم أقرب إلى الصواب، وأحق بالاتباع بعد الرسول ﷺ. فاتباعهم يأتي بالدرجة الثانية بعد اتباع الرسول ﷺ.

فأقوال الصحابة حجة يجب اتباعها إذا لم يوجد نص عن النبي ﷺ؛ لأن طريقهم أسلم وأعلم وأحكم، لا كما يقول بعض المتأخرين: إن طريقة السلف أسلم، وطريقة الخلف أعلم وأحكم، فيتبعون طريقة الخلف، ويتركون طريقة السلف.

٣ - ومن صفات أهل السنة (**اتباع وصية رسول الله ﷺ حيث قال: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة»**[1] رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه، وقال الترمذي: حسن صحيح.

وغرض الشيخ أن يبين أن أهل السنة والجماعة يتبعون طريقة الخلفاء الراشدين على الخصوص بعد اتباعهم لطريقة السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار على وجه العموم؛ لأن النبي ﷺ أوصى باتباع طريقة الخلفاء الراشدين وصية خاصة في هذا الحديث، ففيه قرن سنة الخلفاء الراشدين بسنته عليه الصلاة والسلام، فدل على أن ما سنه الخلفاء الراشدون أو أحدهم لا يجوز العدول عنه.

(والخلفاء الراشدون): هم الخلفاء الأربعة: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ووصفوا بالراشدين؛ لأنهم عرفوا الحق واتبعوه، فالراشد: هو من عرف الحق وعمل به، وضده الغاوي: وهو من عرف الحق ولم يعمل به.

وقوله: «المهديين» أي: الذين هداهم الله إلى الحق «**تمسكوا بها**» أي: الزموها «**وعضوا عليها بالنواجذ**» كناية عن شدة التمسك بها، والنواجذ: آخر الأضراس: و«**محدثات الأمور**» هي البدع «**فإن كل بدعة ضلالة**»، والبدعة: لغة: ما ليس له مثال سابق. وشرعًا: ما لم يدل عليه دليل شرعي. فكل من أحدث شيئًا ونسبه إلى الدين

---

(١) تقدم تخريجه.

ولم يكن له دليل فهو بدعة وضلالة، سواء في العقيدة أو في الأقوال أو الأفعال.

٤ - ومن صفات أهل السنة: أنهم يعظمون كتاب الله وسنة رسوله، ويجلونهما، ويقدمونهما في الاستدلال بهما والاقتداء بهما على أقوال الناس وأعمالهم؛ لأنهم: (يعلمون أن أصدق الكلام كلام الله)، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ من الله قِيلاً﴾ [النساء: ١٢٢]، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧]، ويعلمون (أن خير الهدي هدي محمد) الهدْي: بفتح الهاء وسكون الدال: السمت والطريقة والسيرة، وقرئ بضم الهاء وفتح الدال، أي: الدلالة والإرشاد.

«ويؤثرون كلام الله على غيره من كلام أصناف الناس»: أي: يقدمونه ويأخذونه به ويتركون ما عارضه من كلام الخلق أيًا كانوا، رؤساء أو علماء أو عبادًا (ويقدمون هدي محمد ﷺ) أي: سنته وسيرته وتعليمه وإرشاده (على هدي كل أحد) من الخلق مهما عظمت مكانته إذا كان هديه يعارض هدي رسول الله ﷺ؛ وذلك عملاً بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ الآية [النساء: ٥٩].

وقوله: «ولهذا سموا أهل الكتاب والسنة»: أي: لأجل تمسكهم بكتاب الله وإيثارهم لكلامه على كلام كل أحد، وتمسكهم بهدي رسول الله وتقديمه على هدي كل أحد - سموا أهل الكتاب والسنة، لأجل ذلك لقبوا بهذا اللقب الشريف الذي يفيد اختصاصهم بهما دون غيرهم ممن حاد عن الكتاب والسنة من فرق أهل الضلال؛ كالمعتزلة والخوارج والروافض ومن وافقهم في أقوالهم أو في بعضها.

وقوله: «وسموا أهل الجماعة»: أي: كما سموا أهل الكتاب والسنة سموا (أهل الجماعة) والجماعة: ضد الفرقة؛ لأن التمسك بالكتاب والسنة يفيد الاجتماع والائتلاف قال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، فالجماعة هنا: هم المجتمعون على الحق.

٥ - فمن صفات أهل السنة الاجتماع على الأخذ بالكتاب والسنة والاتفاق على الحق والتعاون على البر والتقوى، وقد أثمر هذا وجود الإجماع، «والإجماع هو

الأصل الثالث الذي يعتمد عليه في العلم والدين» وقد عرف الأصوليون الإجماع بأنه: اتفاق علماء العصر على أمر ديني، وهو حجة قاطعة يجب العمل به.

وقوله: «وهو الأصل الثالث»: أي: بعد الأصلين الأولين وهما الكتاب والسنة.

٦ ـ من صفات أهل السنة أنهم «يزنون بهذه الأصول الثلاثة» الكتاب والسنة والإجماع «جميع ما عليه الناس من أقوال وأعمال باطنة أو ظاهرة مما له تعلق بالدين» فهم يجعلون هذه الأصول الثلاثة ميزانًا لبيان الحق من الباطل، والهدى من الضلال فيما يصدر من الناس من تصرفات قولية أو فعلية اعتقادية أو عملية «مما له تعلق بالدين» من أعمال الناس؛ كالصلاة والصيام والحج والزكاة والمعاملات وغيرها، أما ما ليس له تعلق بالدين من الأمور العادية والأمور الدنيوية فالأصل فيه الإباحة.

ثم بين الشيخ رحمه الله حقيقة الإجماع الذي يجعل أصلاً في الاستدلال فقال: «والإجماع الذي ينضبط» أي: يجزم بحصوله ووقوعه: «هو ما كان عليه السلف الصالح» لما كانوا قليلين مجتمعين في الحجاز يمكن ضبطهم ومعرفة رأيهم في القضية «وبعدهم كثر الاختلاف وانتشرت الأمة» أي: بعد السلف الصالح صار الإجماع لا ينضبط لأمرين:

أولاً: كثرة الاختلاف بحيث لا يمكن الإحاطة بأقوالهم.

ثانيًا: انتشار الأمة في أقطار الأرض بعد الفتوح بحيث لا يمكن عادة بلوغ الحادثة لكل واحد منهم ووقوفه عليها. ثم لا يمكن الجزم بأنهم أطبقوا على قول واحد فيها.

تنبيه: إنما اقتصر الشيخ رحمه الله على ذكر الأصول الثلاثة، ولم يذكر الأصل الرابع: وهو القياس؛ لأن القياس مختلف فيه كما اختلفوا في أصول أخرى مرجعها كتب الأصول.

* * *

[أسئلة وأجوبة نموذجية على من أصول أهل السنة اتباع رسول الله ﷺ واتباع سبيل السابقين الأولين من المهاجرين الأنصار]

● قال الشيخ عبد العزيز المحمد السلمان:

س ـ ما موقف أهل السنة والجماعة حول آثار النبي ﷺ؟

ج ـ آثاره ﷺ نوعان: قسم هو ما أثر عنه من قول وفعل وتقريرات، فهذا القسم يجب الأخذ به والتمسك به وأما مواضع أكله وشربه وجلوسه ونومه ونحو ذلك فلا يشرع اتباعه في ذلك بل تَتَبُّع هذه من وسائل الغلو فيه.

وقد أنكر بعض أعيان الصحابة على ابن عمر رضي الله عنهما في ذلك وقلع عمر ـ رضي الله عنه ـ الشجرة التي بويع تحتها النبي ﷺ لما علم أن الناس يقصدونها خوفًا من الفتنة.

ولما بلغه أن الناس يقصدون مسجداً صلى فيه النبي ﷺ في الطريق أنكر ذلك وقال ما معناه: إنما أهلك من كان قبلكم مثل هذا؛ كانوا يتتبعون آثار أنبيائهم، فمن أدركته الصلاة في شيء من هذه المساجد فليصل، ومن لا فليمض ولا يقصدها.

وأما ما صلى فيه صلاة التشريع فالصلاة فيه مشروعة كمسجده ﷺ والكعبة ومسجد قباء، والموضع الذي صلى فيه في بيت عثمان ـ رضي الله عنه ـ لما طلب منه ذلك ليتخذه مصلى فأجابه ﷺ على ذلك.

وهكذا التبرك بشَعْر النبي ﷺ وريقه وعرقه وما مس جسده فكله لا بأس به لأن السُّنَّة قد صحت بذلك، وقد قسم ﷺ في حجة الوداع بين الناس شعر رأسه لما قد جعل الله فيه من البركة وليس هذا من الغلو الممنوع.

وأما التبرك بغيره ﷺ فهو ممنوع لأمور:

أولاً: أن غيره ﷺ لا يقاس عليه لما جعل الله فيه من الخير والبركة بخلاف غيره فلا

يتحقق فيه ذلك .

ثانيًا: أن ذلك ربما يوقع في الغلو وأنواع الشرك فوجب سد الذرائع بالمنع من ذلك وإنما جاز في حقه ﷺ لمجيء النص به .

والأمر الثالث: أن الصحابة لم يفعلوا ذلك مع غير النبي ﷺ، لا مع الصديق ولا عمر - رضي الله عنهما - ولا مع غيرهما ، ولو كان ذلك سائغًا أو قربة لسبقونا إليه ، ولم يجمعوا على تركه فلما تركوه علم أن الحق ترك ذلك وعدم إلحاق غيره به ﷺ .

س - متى تتبع آثار أصحاب النبي ﷺ؟

ج - عند موافقتها لسنة رسول الله ﷺ وعند خفاء سنة رسول الله ﷺ أما إذا وجد النص من الكتاب أو السنة فإنه يجب اتباعه وتقديمه على رأي كل أحد . قال تعالى : ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ الآية .

وقال ابن عباس: يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء أقول: قال رسول الله ﷺ، وتقولون: قال أبو بكر وعمر؟

وقال الشافعي - رحمه الله -: أجمع العلماء على أن من استبانت له سنة رسول الله لم يكن له أن يدعها لقول أحد .

وقال مالك رحمه الله: ما منا إلا راد ومردود عليه إلا صاحب هذا القبر ﷺ، وكلام العلماء في هذا المعنى كثير .

قال بعضهم:

وقدم أحاديث الرسول ونصه	على كل قول قد أتى بإزائه
فإن جاء رأي للحديث معارض	فللرأي فاطرح واسترح من عنائه
فهل مع وجود البحر يكفي تيمم	لمن ليس معذورًا لدى فقهائه
وهل يوقد الناس المصابيح للضيا	إذا ما أتى رده الضحى بضيائه

س - من هم الخلفاء الراشدون وما وصية رسول الله ﷺ نحوهم؟

ج - هم أبو بكر وعمر وعثمان وعليّ - رضي الله عنهم - ووصيته ﷺ هي قوله :

«عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثه بدعة وكل بدعة ضلالة»، وقال: «اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر» ولو لم تقم الحجة بقولهم لما أمرنا باتباعهم وهذا هو الحق المتبع.

س ـ ما هي الأصول التي يعتمد عليها أهل السنة والجماعة في العلم والدين؟

ج ـ هي ثلاثة أصول: يعتمد عليها أهل السنة في العلم والدين وَيَزِنُون بها جميع ما عليه الناس من أعمال وأفعال باطنة وظاهرة مما له تعلق بالدين.

أولهـا: كتاب الله الذي هو خير الكلام وأصدقه الذي فيه الهدىٰ والنور، فلا يقدمون عليه كلام أحد.

والأصل الثاني: سنة رسول الله ﷺ وما أثر عنه من هدىٰ وطريقة فيتمسكون بها ولا يعدلون بها غيرها.

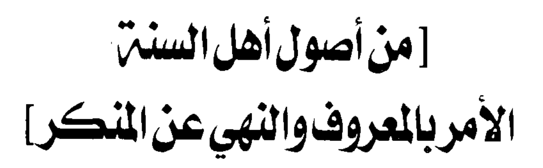
والأصل الثالث: الإجماع وهو العزم والاتفاق، واصطلاحًا: إتفاق مجتهدي الأمة في عصر واحد علىٰ أمر ديني وهو حجة قاطعة والإجماع الذي ينضبط هو ما كان عليه السلف الصالح إذ بعدهم كثر الاختلاف وانتشر في أنحاء الأرض.

قال الشيخ رحمه الله: الكتاب والسنة وافيان بجميع أمور الدين، وأما الإجماع فهو في نفسه حق لا تجمع الأمة علىٰ ضلالة، وكذلك القياس حق فإن الله بعث رسوله بالعدل وأنزل الميزان مع الكتاب، والميزان يتضمن العدل وما به يعرف العدل.

س ـ اذكر شيئًا من محاسن أهل السنة والجماعة غير ما تقدم.

ج ـ هم مع ما تقدم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويدينون بالنصيحة، ويتناصرون ويتعاونون ويتراحمون، ويحثون علىٰ مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال والإحسان إلىٰ اليتامىٰ والمساكين والأمر بالصبر علىٰ البلاء، والشكر عند الرخاء، وببر الوالدين وبصلة الأرحام وحسن الجوار.

❊ ❊ ❊



فصلٌ

ثُمَّ هُمْ مَعَ هَذِهِ الأُصُول:

يَأمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَر؛ عَلَى ما تُوجِبُهُ الشَّرِيعَةُ.

• الشَّرح •

• قال العلامة ناصر السعدي:

أي باليد ثم باللِّسان ثم بالقلب تبع القُدْرة والمصلحة.

ويَسْلُكُون أقرب طريق يَحْصُل به المقصود بالرِّفق والسُّهولة.

مَتَقَرِّبين بنصيحة الخلق إلى اللَّه.

قَاصِدين نَفْعَ الخلق وَإِيصَالهم إلى كل خير، وكَفِّهم عن كل شر.

سَاعِين في ذلك بحَسَب وُسْعِهم.

• قال الشيخ محمد خليل هراس:

قوله: «ثم هم مع هذه الأصول»... إلخ:

جمع المؤلف في هذا الفصل جماع مكارم الأخلاق التي يتخلق بها أهل السنة والجماعة من الأمر بالمعروف وهو ما عرف حسنه بالشرع والعقل، والنهي عن المنكر وهو كل قبيح عقلاً وشرعًا على حسب ما توجبه الشريعة من تلك الفريضة، كما

يفهم من قوله عليه الصلاة والسلام: «من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان» .

● قال الشيخ ابن عثيمين:

قوله ـ رحمه الله تعالى ـ: «ثم هم مع هذه الأصول يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر»:

«هم»؛ أي: أهل السنة والجماعة.

«مع هذه الأصول»: السابقة التي ذكرها قبل هذا، وهو اتباع آثار الرسول عليه الصلاة والسلام واتباع الخلفاء الراشدين وإيثارهم كلام الله وكلام رسوله على غيره واتباع إجماع المسلمين؛ مع هذه الأصول:

«يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر»:

و «المعروف»: كل ما أمر به الشرع؛ فهم يأمرون به.

و«المنكر» كل ما نهى عنه الشرع؛ فهم ينهون عنه.

لأن هذا هو ما أمر الله به في قوله: **﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾** [آل عمران: ١٠٤].

وكذلك قال النبي عليه الصلاة والسلام: **«لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يد الظالم، ولتأطرنه على الحق أطرًا»**[(١)] .

فهم يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ولا يتأخرون عن ذلك.

ولكن يشترط للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن يكونا على ما توجبه الشريعة وتقتضيه.

ولذلك شروط:

الشرط الأول: أن يكون عالمًا بحكم الشرع فيما يأمر به أو ينهى عنه؛ فلا يأمر إلا

---

(١) ضعيف: أخرجه أبو داود (٤٣٣٦) وابن ماجه (٤٠٠٦) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

والحديث ضعفه الشيخ الألباني في «الضعيفة» (١١٠٥).

بما علم أن الشرع أمر به، ولا ينهىٰ إلا عما علم أن الشرع ينهىٰ عنه، ولا يعتمد في ذلك علىٰ ذوق ولا عادة.

لقوله تعالىٰ لرسوله ﷺ: ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: ٤٨]. وقوله: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ [الإسراء: ٣٦]. وقوله: ﴿وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلاَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦].

- فلو رأىٰ شخصًا يفعل شيئًا الأصل فيه الحل؛ فإنه لا يحل له أن ينهاه عنه حتىٰ يعلم أنه حرام أو منهي عنه.

- ولو رأىٰ شخصًا ترك شيئًا يظنه الرائي عبادة؛ فإنه لا يحل له أن يأمره بالتعبد به حتىٰ يعلم أن الشرع أمر به.

الشرط الثاني: أن يعلم بحال المأمور: هل هو ممن يوجه إليه الأمر أو النهي أم لا؟. فلو رأىٰ شخصًا يشك هل هو مكلف أم لا؛ لم يأمره بما لا يؤمر به مثله حتىٰ يستفصل.

الشرط الثالث: أن يكون عالمًا بحال المأمور حال تكليفه؛ هل قام بالفعل أم لا؟

- فلو رأىٰ شخصًا داخل المسجد ثم جلس، وشك هل صلىٰ ركعتين؛ فلا ينكر عليه، ولا يأمره بهما، حتىٰ يستفصل.

ودليل ذلك أن النبي ﷺ كان يخطب يوم الجمعة، فدخل رجل، فجلس، فقال له النبي صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وسلم: «أصليت؟». قال: لا. قال: «قم فصل ركعتين وتجوز فيهما»[١].

- ولقد نقل لي أن بعض الناس يقول: يحرم أن يسجل القرآن بأشرطة؛ لأن ذلك إهانة للقرآن علىٰ زعمه!! فينهىٰ الناس أن يسجلوا القرآن علىٰ هذه الأشرطة؛ لظنه أنه منكر!!.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٧٠٥٢) ومسلم (١٨٤٣) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

فنقول له: إن المنكر أن تنهاهم عن شيء لم تعلم أنه منكر!! فلا بد أن تعلم أن هذا المنكر في دين الله.

وهذا في غير العبادات، أما العبادات؛ فإننا لو رأينا رجلا يتعبد بعبادة؛ لم يعلم أنها مما أمر الله به؛ فإننا ننهاه؛ لأن الأصل في العبادات المنع.

الشرط الرابع: أن يكون قادرًا على القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بلا ضرر يلحقه؛ فإن لحقه ضرر؛ لم يجب عليه، لكن إن صبر وقام به؛ فهو أفضل؛ لأن جميع الواجبات مشروطة بالقدرة والاستطاعة؛ لقوله تعالى: ﴿ **فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ** ﴾ [التغابن: ١٦]، وقوله: ﴿ **لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا** ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

؛ فإذا خاف إذا أمر شخصًا بمعروف أن يقتله؛ فإنه لا يلزمه أن يأمره؛ لأنه لا يستطيع ذلك، بل قد يحرم عليه حينئذ.

وقال بعض العلماء: بل يجب عليه الأمر والصبر، وإن تضرر بذلك، ما لم يصل إلى حد القتل.

لكن القول الأول أولى؛ لأن هذا الآمر إذا لحقه الضرر بحبس ونحوه؛ فإن غيره قد يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خوفًا مما حصل، حتى في حال لا يخشى منها ذلك الضرر.

وهذا ما لم يصل الأمر إلى حد يكون الأمر بالمعروف من جنس الجهاد؛ كما لو أمر بسنة ونهى عن بدعة، ولو سكت؛ لاستطال أهل البدعة على أهل السنة؛ ففي هذه الحال يجب إظهار السنة وبيان البدعة؛ لأنه من الجهاد في سبيل الله، ولا يعذر من تعين عليه بالخوف على نفسه.

الشرط الخامس: أن لا يترتب على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مفسدة أعظم من السكوت؛ فإن ترتب عليها ذلك؛ فإنه لا يلزمه، بل يجوز له أن يأمر بالمعروف أو ينهى عن المنكر.

ولهذا قال العلماء: إن إنكار المنكر ينتج منه إحدى أحوال أربعة: إما أن يزول المنكر، أو يتحول إلى أخف منه، أو إلى مثله، أو إلى أعظم منه.

- أما الحالة الأولى والثانية؛ فالإنكار واجب.

ـ وإما في الثالثة؛ فهي في محل نظر.

ـ وأما في الرابعة؛ فلا يجوز الإنكار؛ لأن المقصود بإنكار المنكر إزالته أو تخفيفه.

مثال ذلك: إذا أراد أن يأمر شخصًا بفعل إحسان، لكن يستلزم فعل هذا الإحسان ألا يصلي مع الجماعة؛ فهنا لا يجوز الأمر بهذا المعروف؛ لأنه يؤدي إلىٰ ترك واجب من أجل فعل مستحب.

وكذلك في المنكر لو كان إذا نهىٰ هذا المنكر؛ تحول الفاعل له إلىٰ فعل منكر أعظم؛ فإنه في هذه الحال لا يجوز أن ينهىٰ عن هذا المنكر دفعًا لأعلىٰ المفسدتين بأدناهما.

ويدل لهذا قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ ﴾ [الأنعام: ١٠٨]؛ فإن سب آلهة المشركين؛ لا شك أنه أمر مطلوب، لكن لما كان يترتب عليه أمر محظور أعظم من المصلحة التي تكون بسب آلهة المشركين، وهو سبهم لله تعالىٰ عدوًا بغير علم، نهىٰ الله عن سب آلهة المشركين في هذه الحال.

ولو وجدنا رجلا يشرب الخمر، وشرب الخمر منكر، فلو نهيناه عن شربه؛ لذهب يسرق أموال الناس ويستحل أعراضهم؛ فهنا لا ننهاه عن شرب الخمر؛ لأنه يترتب عليه مفسدة أعظم.

الشرط السادس: أن يكون هذا الآمر أو الناهي قائمًا بما يأمر به منتهيًا ينهىٰ عنه، وهذا علىٰ رأي بعض العلماء، فإن كان غير قائم بذلك؛ فإنه لا يأمر بالمعروف ولا ينهىٰ عن المنكر؛ لأن الله تعالىٰ قال لبني إسرائيل: ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ٤٤]؛ فإذا كان هذا الرجل لا يصلي؛ فلا يأمر غيره بالصلاة، وإن كان يشرب الخمر؛ فلا ينهىٰ غيره عنها، ولهذا قال الشاعر:

لا تنه عن خلق وتأتي مثله ... عار عليك إذا فعلت عظيم

فهم استدلوا بالأثر والنظر.

ولكن الجمهور علىٰ خلاف ذلك، وقالوا: يجب أن يأمر بالمعروف، وإن كان لا يأتيه، وينهىٰ عن المنكر، وإن كان يأتيه، وإنما وبخ الله تعالىٰ بني إسرائيل، لا علىٰ

أمرهم بالبر، ولكن على جمعهم بين الأمر بالبر ونسيان النفس.

وهذا القول هو الصحيح؛ فنقول: أنت الآن مأمور بأمرين: الأول: فعل البر، والثاني: الأمر بالبر. منهي عن أمرين: الأول: فعل المنكر، والثاني: ترك النهي عن فعله. فلا تجمع بين ترك المأمورين وفعل المنهيين؛ فإن ترك أحدهما لا يستلزم سقوط الآخر.

فهذه ستة شروط؛ منها أربعة للجواز، وهن الأول والثاني والثالث والخامس؛ على تفصيل فيه، واثنان للوجوب، وهما الرابع والسادس؛ على خلاف فيهن.

ولا يشترط أن لا يكون من أصول الآمر أو الناهي كأبيه أو أمه أو جده أو جدته، بل ربما نقول: إن هذا يتأكد أكثر؛ لأن من بر الوالدين أن ينهاهما عن فعل المعاصي ويأمرهما بفعل الطاعات.

قد يقول: أنا إذا نهيت أبي؛ غضب علي، وزعل، وهجرني؛ فماذا أصنع؟.

نقول: اصبر على هذا الذي ينالك بغضب أبيك وهجره، والعاقبة للمتقين، واتبع ملة أبيك إبراهيم عليه السلام؛ حيث عاتب أباه على الشرك؛ فقال: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾ إلى أن قال: ﴿يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا * يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا * قَالَ﴾ أي: أبوه: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٢-٤٦].

وقال إبراهيم أيضًا لأبيه آزر: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٧٤].

● قال الشيخ صالح الفوزان:

هذا الفصل كالمتمم للفصل الذي قبله، فيه بيان لصفات أهل السنة التي هي من مكملات العقيدة.

فقوله: (ثم هم) أي: أهل السنة (مع هذه الأصول) أي: التي مر ذكرها، أي: مع قيامهم بها علمًا وعملاً يتحلون بصفات هي من مكملاتها وثمراتها. فهم (يأمرون

بالمعروف وينهـون عن المنكر) كما وصفهم الله بذلك في قوله : ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران : ١١٠] .

والمعروف: هو اسم جامع لكل ما يحبه الله من الإيمان والعمل الصالح .

والمنكر: اسم جامع لكل ما يكرهه الله وينهى عنه .

(على ما توجبه الشريعة) أي: باليد ثم باللسان ثم بالقلب تبعًا للقدرة والمصلحة ، خلافًا للمعتزلة الذين يخالفون ما توجبه الشريعة في هذا، فيرون أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو الخروج على الأئمة .

* * *

[أسئلة وأجوبة نموذجية على من أصول أهل السنة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر]

● قال الشيخ عبد العزيز المحمد السلمان:

س ـ ما هو المعروف وما هو المنكر وما الأصل في وجوبهما؟

ج ـ المعروف: اسم جامع لكل ما عرف من طاعة الله والتقرب إليه والإحسان إلى الناس.

والمنكر ضده. وقيل المنكر: اسم جامع لكل ما يكرهه الله وينهى عنه، والأصل في وجوبهما قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾، وقوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾.

ومن السنة ما في صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: **«من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»**.

س ـ هل وجوبهما كفائي أو عيني؟ وضح ذلك مع ذكر ما لهما من شروط.

ج ـ وجوبهما وجوب كفائي يخاطب به الجميع ويسقط بمن يقوم به، وإن كان العالم به واحداً تعيَّن عليه، وإن كانوا جماعة لكن لا يحصل المقصود إلا بهم جميعاً تعيَّن عليهم، وأما الشروط، فقال شيخ الإسلام رحمه الله:

أولاً: لابد من العلم بالمعروف والمنكر والتميز بينهما.

الثاني: أنه لابد من العلم بحال المأمور والمنهي، ومن الصلاح أن يأتي بالأمر والنهي بالصراط المستقيم وهو أقرب الطرق إلى حصول المقصود، ولابد في ذلك من الرفق، ولابد أن يكون حليماً صبوراً على الأذى، فإنه لابد أن يحصل له أذى، فإن لم يحلم ويصبر كان ما يفسد أكثر مما يصلح، فلابد من العلم والرفق والصبر. العلم

قبل الأمر والنهي والرفق معه والصبر بعد.

قال ابن عبد القوي:

وأمرك بالمعروف والنهي يا فتى	عن المنكر اجعل فرض عين تُسدَّدِ
على عالم بالحظر والفعل لم يقم	سواه مع أمن عدوان معتدي
وبالعلما يختص ما اختص فعله	بهم وبمن يستنصرون به قدِ
وأضعفه بالقلب ثم لسانه	وأقواه إنكار الفتى الجلد باليدِ
وبالأسهل ابدأ ثم زد قدر حاجة	فإن لم يزل بالنافذ الأمر فاصدد

س ـ ما شرط افتراضه على الواحد أو الجماعة؟

ج ـ يشترط في وجوب الإنكار أن يأمن على نفسه وأهله وماله فإن خاف على نفسه سوطًا أو عصًا أو أعظم من ذلك كالسيف أو نحوه سقط عنه أمرهم ونهيهم، فإن خاف السب أو سماع الكلام السيئ لم يسقط عنه، والحزم أن لا يبالي لما ورد: «**أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر**».

وقوله: «**لا يمنعن أحدكم هيبةُ الناس أن يقول بحق إذا علمه**» ومقام الرسل وأتباعهم بالصدع بالحق معلوم مشهور من أراد الاقتداء بهم وجده.

قال ابن القيم ـ رحمه الله:

فاصدع بأمر الله لا تخش الورى	في الله واخشاه تفز بجنان
قل لي متى سلم الرسول وصحبه	والتابعون لهم على الإحسان
من جاهل ومعاند ومنافق	ومحارب بالبغي والطغيان
وتظن أنك وارث لهم وما	ذقت الأذى في نصرة الرحمن
كلا ولا جاهدت حق جهاده	في الله لا بيد ولا بلسان
منتك والله المحال النفس فاسـ	تحدث سوى ذي الرأي والحسبان
لو كنت وارثه لا ذاك الأولى	ورثوا عداه بسائر الألوان

س ـ ما هي درجات إنكار المنكر؟

ج ـ قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ إنكار المنكر له أربع درجات:

الأولى: أن يزول ويخلفه ضده.

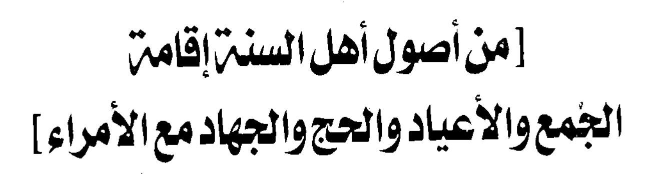
الثانية: أن يقل وإن لم يزل من جملته.

الثالثة: أن يخلفه ما هو مثله.

الرابعة: أن يخلفه ما هو شر منه.

فالدرجتان الأوليان مشروعتان، والثالثة موضع اجتهاد والرابعة محرمة.

* * *



[من أصول أهل السنة إقامة الجُمع والأعياد والحج والجهاد مع الأمراء]

وَيَرَوْنَ إقَامة: الحجِّ، والجِهَادِ، والجُمَعِ، والأَعْيادِ؛ مَعَ الأُمَراءِ؛ أَبْرارًا كَانُوا، أو فُجّارًا.

ويُحَافِظُونَ على: الجَمَاعاتِ.

• الشَّرح •

● قال العلامة ناصر السعدي:

وذلك لأن غرضهم الوَحيد: تَحْصِيل المصالح، وتكميلها، وتعطيل المفاسد أو تقليلها.

فلا يمتنعون من إعانة الظَّالم على الخير وترغيبه فيه قولاً وفعلاً، فيشاركون الوُلاة الظلمة في الخير، ويُفارِقُونهم في الشَّر، ويحرصون على الاتفاق ويَنْهون عن الافتراق.

● قال الشيخ ابن عثيمين:

(قوله: «ويرون إقامة الحج، والجهاد، والجمع، والأعياد؛ مع الأمراء؛ أبرارًا كانوا أو فجارًا».

الأبرار: جمع بر، وهو كثير الطاعة، والفجار: جمع فاجر وهو العاصي كثير المعصية.

فأهل السنة رحمهم الله يخالفون أهل البدع تمامًا؛ فيرون إقامة الحج مع الأمير،

وإن كان من أفسق عباد الله .

وكان الناس فيما سبق يجعلون على الحج أميراً ؛ كما جعل النبي ﷺ أبا بكر رضي الله عنه أميراً على الحج في العام التاسع من الهجرة ، وما زال الناس على ذلك ، يجعلون للحج أميراً قائداً يدفعون بدفعه ويقفون بوقفه ، وهذا هو المشروع ؛ لأن المسلمين يحتاجون إلى إمام يقتدون به ، أما كون كل إنسان على رأسه ؛ فإنه يحصل به فوضى واختلاف .

فهم يرون إقامة الحج مع الأمراء ، وإن كانوا فساقًا ، حتى إن كانوا يشربون الخمر في الحج ، لا يقولون : هذا إمام فاجر ، لا نقبل إمامته ؛ لأنهم يرون أن طاعة ولي الأمر واجبة ، وإن كان فاسقًا ، بشرط أن لا يخرجه فسقه إلى الكفر البواح الذي عندنا فيه من الله برهان ؛ فهذا لا طاعة له ، ويجب أن يزال عن تولي أمور المسلمين ، لكن الفجور الذي دون الفسق مهما بلغ ؛ فإن الولاية لا تزول به ، بل هي ثابتة ، والطاعة لولي الأمر واجبة في غير المعصية :

ـ خلافًا للخوارج ، الذين يرون أنه لا طاعة للإمام والأمير إذا كان عاصيًا ؛ لأن من قاعدتهم : أن الكبيرة تخرج من الملة .

ـ وخلافًا للرافضة الذين يقولون: إنه لا إمام إلا المعصوم ، وإن الأمة الإسلامية منذ غاب من يزعمون أنه الإمام المنتظر ، ليست على إمام ، ولا تبعًا لإمام ، بل هي تموت ميتة جاهلية من ذلك الوقت إلى اليوم ويقولون: إنه لا إمام إلا الإمام المعصوم ، ولا حج ولا جهاد مع أي أمير كان ؛ لأن الإمام لم يأت بعد .

لكن أهل السنة والجماعة يقولون: نحن نرى إقامة الحج مع الأمراء سواء كانوا أبرارًا أو فجارًا ، وكذلك إقامة الجهاد مع الأمير ، ولو كان فاسقًا ، ويقيمون الجهاد مع أمير لا يصلي معهم الجماعة ، بل يصلي في رحله .

فأهل السنة والجماعة لديهم بعد نظر ؛ لأن المخالفات في هذه الأمور معصية لله ورسوله ، وتجر إلى فتن عظيمة . فما الذي فتح باب الفتن والقتال بين المسلمين والاختلاف في الآراء إلا الخروج على الأئمة؟!

فيرىٰ أهل السنة والجماعة وجوب إقامة الحج والجهاد مع الأمراء، وإن كانوا فجاراً.

ولكن هذا لا يعني أن أهل السنة والجماعة لا يرون أن فعل الأمير منكر، بل يرون أنه منكر، وأن فعل الأمير للمنكر قد يكون أشد من فعل عامة الناس؛ لأن فعل الأمير للمنكر يلزم منه زيادة علىٰ إثمه محذوران عظيمان:

الأول: اقتداء الناس به وتهاونهم بهذا المنكر.

الثاني: أن الأمير إذا فعل المنكر سيقل في نفسه تغييره علىٰ الرعية أو تغيير مثله أو مقاربه.

لكن أهل السنة والجماعة يقولون: حتىٰ مع هذا الأمر المستلزم لهذين المحذورين أو لغيرهما؛ فإنه يجب علينا طاعة ولاة الأمور، وإن كانوا عصاة؛ فنقيم معهم الحج والجهاد، وكذلك الجمع؛ نقيمها مع الأمراء، ولو كانوا فجاراً.

فالأمير إذا كان يشرب الخمر مثلا، ويظلم الناس بأموالهم؛ نصلي خلفه الجمعة، وتصح الصلاة، حتىٰ إن أهل السنة والجماعة يرون صحة الجمعة خلف الأمير المبتدع إذا لم تصل بدعته إلىٰ الكفر، لأنهم يرون أن الاختلاف عليه في مثل هذه الأمور شر، ولكن لا يليق بالأمير الذي له إمامة الجمعة أن يفعل هذه المنكرات.

وكذلك أيضًا إقامة الأعياد مع الأمراء الذين يصلون بهم، أبراراً كانوا أو فجاراً.

وبهذه الطريق الهادئة يتبين أن الدين الإسلامي وسط بين الغالي فيه والجافي عنه.

فقد يقول قائل: كيف نصلي خلف هؤلاء ونتابعهم في الحج والجهاد والجمع والأعياد؟!

فنقول: لأنهم أئمتنا، ندين لهم بالسمع والطاعة:

امتثالا لأمر الله بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩].

ولأمر النبي ﷺ بقوله: «إنكم سترون بعدي أثرة وأموراً تنكرونها» قالوا: فما تأمرنا

يا رسول الله؟! قال: «**أدوا إليهم حقهم؛ وسلوا الله حقكم**»[١] . رواه مسلم وحقهم: طاعتهم في غير معصية الله.

فعن وائل بن حجر رضي الله عنه؛ قال: سأل سلمة بن يزيد الجعفي رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فقال: يا نبي الله! أرأيت إن قامت علينا أمراء يسألونا حقهم ويمنعونا حقنا؛ فما تأمرنا؟ قال: «**اسمعوا وأطيعوا؛ فإنما عليهم ما حملوا وعليكم ما حملتم**»[٢] . رواه مسلم.

وفي حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه؛ قال: بايعنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره، وأن لا ننازع الأمر أهله. قال: «**إلا أن تروا كفراً بواحًا عندكم فيه من الله برهان**»[٣] .

ولأننا لو تخلفنا عن متابعتهم؛ لشققنا عصا الطاعة الذي يترتب على شقة أمور عظيمة، ومصائب جسيمة.

والأمور التي فيها تأويل واختلاف بين العلماء إذا ارتكبها ولاة الأمور؛ لا يحل لنا منابذتهم ومخالفتهم، لكن يجب علينا مناصحتهم بقدر المستطاع فيما خالفوا فيه؛ مما لا يسوغ فيه الاجتهاد، وأما ما يسوغ فيه الاجتهاد؛ فنبحث معهم فيه بحث تقدير واحترام؛ لنبين لهم الحق، لا على سبيل الانتقاد لهم والانتصار للنفس، وأما منابذتهم وعدم طاعتهم؛ فليس من طريق أهل السنة والجماعة.

قوله: «ويحافظون على الجماعات».

أي: يحافظ أهل السنة والجماعة على الجماعات؛ أي: على إقامة الجماعة في الصلوات الخمس؛ يحافظون عليها محافظة تامة؛ بحيث إذا سمعوا النداء؛ أجابوا وصلوا مع المسلمين؛ فمن لم يحافظ على الصلوات الخمس؛ فقد فاته من صفات أهل السنة والجماعة ما فاته من هذه الجماعات.

وربما يدخل في الجماعات الاجتماع على الرأي وعدم النزاع فيه؛ فإن هذا ما

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٧٠٥٢)، ومسلم (١٧٤٣) من حديث عبد الله بن مسعود.

(٢) أخرجه مسلم (١٨٤٦) والترمذي (٢١٩٩) من حديث وائل بن حجر ـ رضي الله عنه.

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (٧٠٥٦) ومسلم (١٧٠٩) من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

أوصىٰ به النبي صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وسلم معاذ بن جبل وأبا موسىٰ رضي الله عنهما حين بعثهما إلىٰ اليمن، فقال: **«يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا، وتطاوعا ولا تختلفا»**[١] رواه البخاري.

● قال الشيخ الفوزان:

قوله: (ويرون إقامة الحج والجمع والأعياد مع الأمراء أبرارًا كانوا أو فجارًا) أي: ويعتقد أهل السنة وجوب إقامة هذه الشعائر مع ولاة أمور المسلمين **(أبرارًا كانوا أو فجارًا)** أي: سواء كانوا صالحين مستقيمين أو فساقًا، فسقًا لا يخرجهم عن الملة.

وذلك لأن غرض المسلمين من ذلك هو جمع الكلمة، والابتعاد عن الفرقة والخلاف، ولأن الوالي الفاسق لا ينعزل بفسقه ولا يجوز الخروج عليه؛ لما يترتب علىٰ ذلك من ضياع الحقوق وإراقة الدماء.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: ولعله لا يكاد يعرف طائفة خرجت علىٰ ذي سلطان إلا وكان في خروجها من الفساد أكثر من الذي في إزالته. اهـ.

وأهل السنة يخالفون في ذلك أهل البدع من الخوارج والمعتزلة والشيعة الذين يرون قتال الولاة والخروج عليهم إذا فعلوا ما هو ظلم أو ظنوه ظلمًا، ويرون ذلك من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقوله: (ويحافظون على الجماعات) أي: ومن صفات أهل السنة: أنهم يحافظون علىٰ حضور صلاة الفريضة مع الجماعة جمعة أو غيرها؛ لأن ذلك من أعظم شعائر الإسلام وطاعة الله ورسوله في ذلك، خلافًا للشيعة الذين لا يرون الصلاة إلا مع الإمام المعصوم. وخلافًا للمنافقين الذين يتخلفون عن صلاة الجماعة، وقد وردت أحاديث في فضل صلاة الجماعة والأمر بها والنهي عن تركها ليس هذا موضع ذكرها.

* * *

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٣٤٢) ومسلم (١٧٣٣) من حديث أبي بردة رضي الله عنه.

[أسئلة وأجوبة نموذجي على من أصول أهل السنة إقامة الجُمع والحج والجهاد مع الإمراء]

● قال الشيخ عبد العزيز المحمد السلمان:

س ـ ما موقف أهل السنة والجماعة حول إقامة الحج والجهاد والجمع والجماعات والأعياد مع الأمراء أبرارًا كانوا أو فجارًا؟ وضح ذلك.

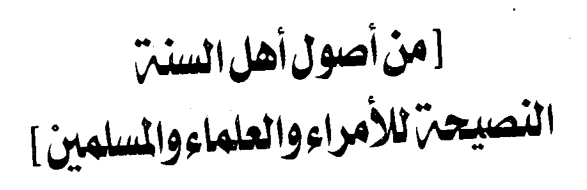
ج ـ من أصول أهل السنة أنهم يرون إقامة الحج والجهاد والجمع والجماعات والأعياد مع الأمراء أبرارًا كانوا أو فجارًا.

قال تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾. وفي الصحيح: «**إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر**» وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا: «**الجهاد واجب عليكم مع كل أمير برًا كان أو فاجرًا**» وفي الحديث الآخر: «**والجهاد ماض منذ بعثني الله عز وجل حتى يقاتل خيرُ أمتي الدجال، لا يبطله جور جائر ولا عدل عادل والإيمان بالأقدار**».

وقد كان الصحابة رضي الله عنهم يصلون خلف من يعرفون فجوره كما صلىٰ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وغيره من الصحابة خلف الوليد بن عقبة ابن أبي معيط، وقد كان يشرب الخمر، وصلىٰ مرة الصبح أربعًا، وجلده عثمان بن عفان رضي الله عنه علىٰ ذلك.

وكان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يصلي خلف الحجاج بن يوسف، وكان الصحابة والتابعون يصلون خلف ابن أبي عبيد وكان متهمًا بالإلحاد داعيًا إلىٰ الضلال.

* * *



[من أصول أهل السنة النصيحة للأمراء والعلماء والمسلمين]

وَيَدِينُونَ بـ: النَّصيحةِ للأُمَّةِ.

• الشَّرح •

● قال العلامة ناصر السعدي:

«ويُحَافِظُونَ عَلَى الجَمَاعَات، وَيَدِينُونَ بالنَّصِيحَة للأُمَّة»: وهذا كلامٌ جامع، واضحٌ، نادرٌ، جمعه في موضع واحد، لا يحتاج إلى شَرْح وإيضاح.

● قال الشيخ ابن عثيمين:

قوله: «ويدينون بالنصيحة للأمة».

«يدينون»؛ أي: يتعبدون لله تعالى بالنصيحة للأمة، ويعتقدون ذلك دينًا.

والنصح للأمة قد يكون الحامل عليه غير التعبد لله، فقد يكون الحامل عليه الغيرة، وقد يكون الحامل عليه الخوف من العقوبات، وقد يكون الحامل عليه يتخلق بالأخلاق الفاضلة التي يريد بها نفع المسلمين... إلى غير ذلك من الأسباب.

لكن هؤلاء ينصحون للأمة طاعة لله تعالى وتدينًا له؛ لقول الرسول عليه الصلاة والسلام في حديث تميم بن أوس الداري رضي الله عنه: «**الدين النصيحة، الدين النصيحة**». قالوا: لمن يا رسول الله؟ قال: «**لله، ولكتابه، ولأئمة المسلمين وعامتهم**»[1].

- فالنصيحة لله صدق الطلب في الوصول إليه.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٥٥) وأبو داود (٤٩٤٤) وأحمد في «مسنده» (٤/ ١٠٢) من حديث تميم الداري - رضي الله عنه.

ـ والنصيحة للرسول عليه الصلاة والسلام صدق الاتباع له، ويستلزم ذلك الذود عن دين الله عز وجل، الذي جاء به رسول الله ﷺ، ولهذا قال: «ولكتابه».

ـ فينصح للقرآن ببيان أنه كلام الله، وأنه منزل غير مخلوق، وأنه يجب تصديق خبره وامتثال أحكامه، وهو كذلك يعتقده في نفسه.

ـ «وأئمة المسلمين»: كل من ولاه الله أمرًا من أمور المسلمين؛ فهو إمام في ذلك الأمر، فهناك إمام عام كرئيس الدولة، وهناك إمام خاص، كالأمير والوزير والمدير والرئيس وأئمة المساجد وغيرهم.

ـ «وعامتهم»: يعني: عامة المسلمين، وهم التابعون للأئمة.

ـ ومن أعظم أئمة المسلمين العلماء، والنصيحة لعلماء المسلمين هي نشر محاسنهم، والكف عن مساوئهم، والحرص على إصابتهم الصواب، بحيث يرشدهم إذا أخطئوا، ويبين لهم الخطأ على وجه لا يخدش كرامتهم، ولا يحط من قدرهم؛ لأن تخطئة العلماء على وجه يحط من قدرهم ضرر على عموم الإسلام؛ لأن العامة إذا رأوا العلماء يضلل بعضهم بعضًا؛ سقطوا من أعينهم، وقالوا: كل هؤلاء راد ومردود عليه؛ فلا ندري من الصواب معه! فلا يأخذون بقول أي واحد منهم، لكن إذا احترم العلماء بعضهم بعضًا، وصار كل واحد يرشد أخاه سرًّا إذا أخطأ، ويعلن للناس القول الصحيح؛ فإن هذا من أعظم النصيحة لعلماء المسلمين.

وقول المؤلف ـ رحمه الله ـ: «للأمة» يشمل الأئمة والعامة؛ فأهل السنة والجماعة يدينون بالنصيحة للأمة؛ أئمتهم وعامتهم.

وكان مما يبايع الرسول عليه الصلاة والسلام أصحابه: **«والنصح لكل مسلم»**[1].

فإذا قال قائل: ما هو ميزان النصيحة للأمة؟

فالميزان هو ما أشار إليه النبي عليه الصلاة والسلام؛ بقوله: **«لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»**[2]؛ فإذا عاملت الناس هذه المعاملة؛ فهذا هو

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٧) ومسلم (٥٦) من حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٣) ومسلم (٤٠) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

تمام النصيحة.

فقبل أن تعامل صاحبك بنوع من المعاملة فكر؛ هل ترضىٰ أن يعاملك شخص بها؟ فإن كنت ترضىٰ؛ فلا تعامله!!

● قال الشيخ صالح الفوزان:

قوله: «ويدينون بالنصيحة للأمة»: أي: يرونها من الدين. وأصل النصح في اللغة: الخلوص، وشرعًا: هي إرادة الخير للمنصوح له وإرشاده إلىٰ مصالحه، فأهل السنة يريدون الخير للأمة، ويرشدونها إلىٰ ما فيه صلاحها.

ومن صفات أهل السنة: التعاون علىٰ الخير، والتألم لألم المصابين منهم.

* * *

[أسئلة وأجوبة نموذجية على من أصول أهل السنة النصيحة للأمراء والعلماء والمسلمين]

● قال الشيخ عبد العزيز المحمد السلمان:

س ـ ما معنى النصيحة، وما معنى الإدانة بها، ولمن النصيحة؟ ومن هي طريقته وما الدليل على ذلك؟

ج ـ هي حيازة الحظ للمنصوح له وقيل إخلاص النية من الغش للمنصوح له، ومعنى الإدانة بها أي التعبد بها وهي لمن ذكر في الحديث الذي رواه تميم الداري أن رسول الله ﷺ قال: «**الدين النصيحة**» قالوا: لمن يا رسول الله؟ قال: «**لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم**».

والنصيحة طريقة الرسل كما ذكر الله، قال نوح لقومه: ﴿**أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ**﴾، وقال هود: ﴿**أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ**﴾، وقال صالح: ﴿**لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ**﴾.

س ـ ما معنى النصيحة لله ولكتابه ولرسوله وضح ذلك. وعلى من ترجع مصلحة النصيحة؟

ج ـ النصيحة لله: الإيمان به، ونفي الشريك، وترك الإلحاد في أسمائه وصفاته، ووصفه بأوصاف الكمال، وتنزيهه عن النقائص، وطاعة أمره واجتناب نهيه، وموالاة من أطاعه، ومعاداة من عصاه وغير ذلك مما يجب له.

وجميع هذه الأشياء في الحقيقة ترجع مصلحتها إلى العبد فهي نصيحة لنفسه وكسب خير لها، والنصيحة لكتابه والإيمان به بأنه كلام الله، وتحليل ما حلله وتحريم ما حرمه، والاهتداء بهديه والتدبر لمعانيه، والقيام بحقوقه، والاتعاظ بمواعظه والاعتبار بزواجره... إلخ.

والنصيحة لرسوله ﷺ: تصديقه فيما جاء به ومحبته، وتقديمه فيها على النفس

والمال والولد، وتوقيره حيًا وميتًا، ومعرفه سنته ونشرها والعمل بها، وتقديم قوله على قول كل أحد كائنًا ما كان، والاجتهاد بالاهتداء بهديه والنصر لدينه.

س - ما معنى النصيحة لأئمة المسلمين ولعامتهم؟ وما المراد بأئمة المسلمين؟

ج - النصيحة للأئمة هي: إعانتهم على الحق وطاعتهم فيه وأمرهم به وتذكيرهم بحوائج العباد، ونصحهم برفق وعدل واعتقاد ولايتهم، والسمع والطاعة لهم في غير معصية الله وحث الناس على ذلك. وبذل ما يستطيعه من إرشادهم وتنبيههم إلى ما ينفعهم وينفع الناس وإلى القيام بواجبهم.

والمراد بأئمة المسلمين: قادتهم في تنظيم شئون الدنيا وفي إقامة معالم الدين ونشره بين الناس، فيدخل في ذلك الإمام الأعظم والقضاة والأمراء، وجميع من لهم ولاية عامة أو خاصة.

والنصيحة لعامتهم: إرشاد عامة المسلمين إلى مصالحهم في دنياهم وأخراهم، وكف الأذى عنهم. وتعليمهم ما جهلوا وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، وأن يحب لهم ما يحب لنفسه، ويكره لهم ما يكره لنفسه، ويسعى في ذلك بحسب الإمكان.

❊ ❊ ❊

[من أصول أهل السنة
أن المؤمنين جسدٌ واحدٌ كالبنيان يشد بعضه بعضًا]

وَيعتقدُونَ مَعنى قوله ـ ﷺ ـ: «المُؤمنُ للمُؤمنِ كالبُنْيانِ، يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا» وَشَبَّكَ بيْن أَصَابِعه ﷺ.

وقوله ﷺ: «مَثَلُ المُؤْمنينَ في تَوادِّهم وتَراحُمهم وتَعَاطُفهم؛ كَمَثَلِ الجَسَد، إذَا اشْتكَى مِنه عُضْوٌ؛ تَداعَى لَهُ سَائِرُ الجَسَدِ بالحُمَّى والسَّهَرِ».

• الشَّرح •

• قال الشيخ محمد خليل هراس:

ومن فهم صحيح لما توجبه الأخوة الإيمانية من تعاطف وتواد وتناصر كما في هذه الأحاديث التي يشبه فيها الرسول المؤمنين بالبنيان المرصوص المتماسك اللبنات أو بالجسد المترابط الأعضاء ومن دعوة إلىٰ الخير وإلىٰ مكارم الأخلاق، فهم يدعون إلىٰ الصبر علىٰ المصائب والشكر علىٰ النعماء والرضا بقضاء الله وقدره إلىٰ غير ذلك مما ذكره.

• قال الشيخ ابن عثيمين:

قوله: «ويعتقدون معني قوله ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص، يشد بعضه بعضًا»، وشبك بين أصابعه ﷺ»[1] .

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٠٢٦) ومسلم (٢٥٨٥) من حديث أبي موسىٰ الأشعري.

شبه النبي صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وسلم المؤمن لأخيه المؤمن بالبنيان الذي يشد بعضه بعضًا، حتىٰ يكون بناء محكمًا متماسكًا يشد بعضه بعضًا، ويقوىٰ به، ثم قرب هذا وأكده، فشبك بين أصابعه.

فالأصابع المتفرقة فيها ضعف؛ فإذا اشتبكت؛ قوَّىٰ بعضها بعضًا؛ فالمؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا؛ فالبنيان يمسك بعضه بعضًا، كذلك المؤمن مع أخيه إذا صار في أخيه نقص؛ فإن هذا يكمله؛ فهو مرآة أخيه إذا وجد فيه النقص؛ كمله إذا احتاج أخوه؛ ساعده، إذا مرض أخوه؛ عاده... وهكذا في كل الأحوال.

فأهل السنة والجماعة يعتقدون هذا المعنى ويطبقونه عملا.

قوله: «وقوله ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم؛ كمثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو؛ تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر»[(١)].

«قوله»: هنا معطوف علىٰ «قوله» في الحديث السابق.

«مثل المؤمنين في توادهم»: أي: مودة بعضهم بعضًا.

«وتراحمهم»: رحمة بعضهم بعضًا.

«وتعاطفهم» عطف بعضهم علىٰ بعض.

«كالجسد الواحد»: أي: أنهم يشتركون في الآمال والآلام، فيرحم بعضهم بعضًا، فإذا احتاج؛ أزال حاجته، ويعطف بعضهم علىٰ بعض باللين والرفق وغير ذلك... ويود بعضهم بعضًا، حتىٰ إن الواحد منهم إذا رأىٰ في قلبه بغضاء لأحد من إخوانه المسلمين؛ حاول أن يزيله وأن يذكر من محاسنه ما يوجب زوال هذه البغضاء.

فالجسد الواحد إذا اشتكىٰ منه عضو، ولو من أصغر الأعضاء؛ تداعىٰ له سائر الجسد؛ فإذا أوجعك أصبعك الخنصر الذي هو من أصغر الأعضاء؛ فإن الجسد كله يتألم... إذا أوجعتك الأذن؛ تألم الجسد كله.... وإذا أوجعتك العين؛ تألم الجسد كله... وغير ذلك.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٠١١) ومسلم (٢٥٨٦) من حديث النعمان بن بشر.

فهذا المثل الذي ضربه النبي عليه الصلاة والسلام مثل مصور للمعنى ومقرب له غاية التقريب.

● قال الشيخ صالح الفوزان:

فهم يعتقدون معنى قوله ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا وشبك بين أصابعه»[(١)] ، رواه البخاري ومسلم، وقوله ﷺ: «**مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر**» رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

فالحديثان يمثلان ما ينبغي أن يكون عليه المسلمون من تعاون وتراحم. وأهل السنة يعملون بمقتضاهما، وقوله: «**المؤمن للمؤمن**»، وقوله: «**مثل المؤمنين**» المراد بالإيمان هنا: الإيمان الكامل «**كالبنيان**»، هذا التمثيل يقصد منه التقريب للفهم «**يشد بعضه بعضًا**» بيان لوجه الشبه (**وشبك بين أصابعه**): تمثيل آخر يقصد منه التقريب للفهم.

قوله: «كمثل الجسد الواحد»[(٢)] : أي: بالنسبة إلى جميع أعضائه من حيث الشعور بالراحة أو التعب، «**توادهم**» أي: محبة بعضهم لبعض، «**تعاطفهم**» أي: عطف بعضهم على بعض، «**إذا اشتكى**» تألم؛ «**تداعى**» شارك بعضه البعض الآخر في الألم «**سائر الجسد**» باقيه «**بالحمى**» ما ينشأ عن الألم من حرارة الجسم، «**السهر**» عدم النوم.

وهذا الحديث خبر معناه الأمر، أي: كما أنه إذا تألم بعض جسده سرى ذلك الألم إلى جميع جسده، فكذا المؤمنون ليكونوا كنفس واحدة إذا أصاب أحدهم مصيبة يغتم جميعهم ويعملون على إزالتها، وفي هذا التشبيه تقريب للفهم وإظاهر المعاني في الصور المرئية.

❊ ❊ ❊

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٢٤٤٦) ومسلم (٢٥٨٥).

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٦٠١١) ومسلم (٢٥٨٦).

[أسئلة وأجوبة نموذجية على من أصول أهل السنة أن المؤمنين جسدٌ واحدٌ كالبنيان يشد بعضه بعضًا]

● قال الشيخ عبد العزيز المحمد السلمان:

س - ما معنى حديث: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا»؟ وما الذي يفيده الحديث وضح ذلك بمثال.

ج - هذا حديث جليل يفيد أن المؤمنين من شأنهم التناصر، والتناصح، والتكاتف والتظاهر على مصالحهم الخاصة والعامة، وأن يكونوا متراحمين، وأن يكونوا متحابين متعاطفين كما في الحديث الآخر الذي رواه البخاري ومسلم: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**»، ويفيد أن يكونوا على هذا الوصف، فكما أن البنيان المجموع من أساسات وحيطان كلية وجزئية وسقوف وعمد كل نوع من ذلك لا يقوم بمفرده قيامًا تامًا حتى ينضم بعضها إلى بعض، وإن قام فهو قيام ضعيف عرضة للعواصف والعوامل التي تزلزل البناء أو تطرحه.

فيجب على المؤمنين أن يراعوا قيام دينهم وشرائعه وما يقوم ذلك ويقويه ويزيل موانعه وعوارضه متساعدين، يرون الغاية واحدة وإن تباينت الطرق، والمقصود واحد وإن تعددت الوسائل.

ومثل قوله ﷺ إتحاد المسلمين وتعاونهم بالتشبيك بين الأصابع، ويفيد الحديث النهي عن التفرق والاختلاف والتخاذل والتباغض والتحاسد والتعادي.

س - ما معنى قوله ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعي له سائر الجسد بالحمي»؟

ج - التوادد والتراحم والتعاطف: كلها من باب التفاعل يستدعي اشتراك الجماعة في أصل الفعل، فالتراحم رحمة بعضهم بعضًا بسبب الأخوة الإيمانية والتوادد:

التواصل الجالب للمحبة كالتزاور والتهادي، والتعاطف: إعانة بعضهم بعضاً كما يعطف الثوب على الثوب يقويه.

فالنبي ﷺ يمثل المؤمنين بأنهم كالجسد الواحد، فكما أن الجسد إذا مرض منه عضو تألم جميع البدن، فكذلك المؤمنون حقيقة إذا نابت واحداً منهم نائبة شعر بألمها الباقون فسعوا حسب طاقتهم لإزالة ما أصابه فهم كشخص واحد.

وكل فرد منهم بالنسبة للمجموع كالعضو بالنسبة للشخص. قال تعالى في وصف النبي ﷺ والذين آمنوا معه بالرحمة والشدة: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ الآية.

وفي الحديث: «من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة» الحديث.

وفي الحديث الآخر: «المؤمن أخو المؤمن يكف عليه ضيعته ويحوطه من ورائه» فيؤخذ من الحديث دليل على عظم حق المسلم على أخيه، والحث على ما يكون سبباً للثلاث المذكورة في الحديث. وفيه النهي عن التقاطع والتعادي.

❊ ❊ ❊

[من أصول أهل السنة الصبر عند البلاء والشكر عند الرخاء والرضا بمر القضاء]

وَيَأْمُرُون بالصبْرِ عَلَى البَلاء، والشُّكْرِ عِنْد الرَّخاءِ، والرِّضَا بِمُرِّ القَضَاءِ.

• الشَّرح •

● قال الشيخ ابن عثيمين:

قوله: «ويأمرون بالصبر عند البلاء، والشكر عند الرخاء، والرضا بمر القضاء»:

«يأمرون»: قد يقال: إن هذه الكلمة تشمل أمر نفوسهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف: ٥٣]؛ فهم يأمرون حتى أنفسهم.

«بالصبر عند البلاء»: الصبر: هو تحمل البلاء، وحبس النفس عن التسخط بالقلب أو اللسان أو الجوارح.

والبلاء: المصيبة؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ﴾ [البقرة: ١٥٥، ١٥٦].

فالصبر يكون عند البلاء، وأفضله وأعلاه الصبر عن الصدمة الأولى، وهذا عنوان الصبر الحقيقي؛ كما قاله النبي ﷺ للمرأة التي مر بها وهي تبكي عند قبر، فقال لها: «اتقي الله، واصبري» قالت: إليك عني فإنك لم تصب بمصيبتي ولم تعرفه، فقيل لها: إنه النبي ﷺ، فأتت النبي ﷺ فلم تجد عنده بوابين، فقالت: لم

أعرفك، فقال: «إنما الصبر عند الصدمة الأولى»[١] ، أما بعد أن تبرد الصدمة؛ فإن الصبر يكون سهلا، ولا ينال به كمال الصبر.

فأهل السنة والجماعة يأمرون بالصبر عند البلاء، وما من إنسان؛ إلا يبتلى إما في نفسه وإما في أهله، وإما في ماله، وإما في صحبه، وإما في بلده، وإما في المسلمين عامة. ويكون ذلك إما في الدنيا وإما في الدين، والمصيبة في الدين أعظم بكثير من المصيبة في الدنيا.

فأهل السنة والجماعة يأمرون بالصبر عند البلاء في الأمرين:

- فأما الصبر على بلاء الدنيا؛ فأن يتحمل المصيبة كما سبق.

- وأما الصبر على بلاء الدين؛ فأن يثبت على دينه، ولا يتزعزع عنه، ولا يكن كمن قال الله تعالى فيهم: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ [العنكبوت: ١٠].

«ويأمرون»: أي: أهل السنة والجماعة.

«الشكر عند الرخاء»: الرخاء: سعة في العيش، والأمن في الوطن، فيأمرون عند ذلك بالشكر.

وأيهما أشق: الصبر على البلاء، أو الشكر عند الرخاء؟.

اختلف العلماء في ذلك؛ فقال بعضهم: إن الصبر على البلاء أشق، وقال آخرون: الشكر عند الرخاء أشق.

والصواب أن لكل واحد آفته ومشقته لأن الله تعالى قال: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ * وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ [هود: ٩، ١٠].

لكن كل منهما قد يهونه بعض التفكير: فالمصاب إذا فكر وقال: إن جزعي لا يرد المصيبة ولا يرفعها؛ فإما أن أصبر صبر الكرام، وإما أن أسلو سلو البهائم، فهان عليه

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٢٨٣) ومسلم (٩٢٦) من حديث أنس بن مالك.

الصبر، وكذلك الذي في رخاء ورغد.

لكن أهل السنة والجماعة يأمرون بهذا وهذا، بالصبر عند البلاء والشكر عند الرخاء.

«ويأمرون»: أي: أهل السنة والجماعة.

«بالرضى بمر القضاء»: الرضا أعلى من الصبر. ومر القضاء: هو ما لا يلائم طبيعة الإنسان، ولهذا عبر عنه بـ «المر».

فإذا قضى الله قضاء لا يلائم طبيعة البشر، وتأذى به؛ سمي ذلك مر القضاء؛ فهو ليس لذيذاً ولا حلواً، بل هو مر؛ فهم يأمرون بالرضا بمر القضاء.

واعلم أن مر القضاء لنا فيه نظران:

النظر الأول: باعتباره فعلا واقعًا من الله.

والنظر الثاني: باعتباره مفعولا له.

فباعتبار كونه فعلا من الله يجب علينا أن نرضى به، وألا نعترض على ربنا به؛ لأن هذا من تمام الرضا بالله ربًّا.

وأما باعتباره مفعولا له؛ فهذا يسن الرضا به، ويجب الصبر عليه.

فالمرض باعتبار كون الله قدره الرضا به واجب، وباعتبار المرض نفسه يسن الرضا به، وأما الصبر عليه؛ فهو واجب، والشكر عليه مستحب.

ولهذا نقول: المصابون لهم تجاه المصائب أربعة مقامات:

المقام الأول: السخط

والثاني: الصبر.

والثالث: الرضا.

والرابع: الشكر.

فأما السخط؛ فحرام، بل هو من كبائر الذنوب؛ مثل أن يلطم خده، أو ينتف شعره، أو يشق ثوبه، أو يقول: واثبوراه! أو يدعو على نفسه بالهلاك وغير ذلك مما

يدل على السخط؛ قال: «ليس منا من شق الجيوب، ولطم الخدود ودعا بدعوى الجاهلية»[١].

الثاني: الصبر: بأن يحبس نفسه قلبًا ولسانًا وجوارح عن التسخط؛ فهذا واجب.

الثالث: الرضا: والفرق بينه وبين الصبر: أن الصابر يتجرع المر، لكن لا يستطيع أن يتسخط؛ إلا أن هذا الشيء في نفسه صعب ومر، ويتمثل بقول الشاعر:

والصبر مثل اسمه مر مذاقته لكن عواقبه أحلى من العسل

لكن الراضي لا يذوق هذا مرًّا، بل هو مطمئن، وكأن هذا الشيء الذي أصابه لا شيء.

وجمهور العلماء على أن الرضا بالمقضي مستحب.

وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ، وهو الصحيح.

الرابع: الشكر: وهو أن يقول بلسانه وحاله:

«الحمد لله»: ويرى أن هذه المصيبة نعمة.

لكن؛ هذا المقام؛ قد يقول قائل: كيف يكون؟!.

فنقول: يكون لمن وفقه الله تعالى:

فأولا: لأنه إذا علم أن هذه المصيبة كفارة للذنب، وأن العقوبة على الذنب في الدنيا أهون من تأخير العقوبة في الآخرة؛ صارت هذه المصيبة عنده نعمة يشكر الله عليها.

وثانيًا: أن هذه المصيبة إذا صبر عليها؛ أثيب؛ لقوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾ [الزمر: ١٠].

فيشكر الله على هذه المصيبة الموجبة للأجر.

وثالثًا: أن الصبر من المقامات العالية عند أرباب السلوك، لا ينال إلا بوجود أسبابه، فيشكر الله على نيل هذا المقام.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٢٩٨) ومسلم (١٠٣) من حديث ابن مسعود.

ويُذكَر أن بعض العابدات أصيبت في أصبعها، فشكرت الله، فقيل لها في ذلك، فقالت: إن حلاوة أجرها أنستني مرارة صبرها.

فأهل السنة والجماعة رحمهم الله يأمرون بالصبر على البلاء والشكر عند الرخاء والرضا بمر القضاء.

تتمة:

القضاء يطلق على معنيين:

أحدهما: حكم الله تعالى الذي هو قضاؤه ووصفه؛ فهذا يجب الرضا به بكل حال، سواء كان قضاء دينيًا أم قضاء كونيًا؛ لأنه حكم الله تعالى، ومن تمام الرضا بربوبيته.

- فمثال القضاء الديني قضاؤه بالوجوب والتحريم والحل، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء: ٢٣].

- ومثال القضاء الكوني: قضاؤه بالرخاء والشدة والغنى والفقر والصلاح والفساد والحياة والموت، ومنه قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ ﴾ [سبأ: ١٤]، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيراً ﴾ [الإسراء: ٤].

النوع الثاني - المقضي، وهو نوعان:

الأول: المقضي شرعًا، فيجب الرضا به وقبوله، فيفعل المأمور به، ويترك المنهي عنه، ويتمتع بالحلال.

والنوع الثاني: المقضي كونًا:

- فإن من فعل الله؛ كالفقر والمرض والجدب والهلاك ونحو ذلك؛ فقد تقدم أن الرضا به سنة، لا واجب، على القول الصحيح.

- وإن كان من فعل العبد؛ جرت فيه الأحكام الخمسة؛ فالرضا بالواجب واجب، وبالمندوب مندوب، وبالمباح مباح، وبالمكروه مكروه، وبالحرام حرام.

● قال الشيخ صالح الفوزان:

ومن صفات أهل السنة: ثباتهم في مواقف الامتحان «يأمرون بالصبر عند البلاء» الصبر: لغة: الحبس، ومعناه هنا: حبس النفس عن الجزع وحبس اللسان عن التشكي والتسخط، وحبس الجوارح عن لطم الخدود وشق الجيوب.

«البلاء»: الامتحان بالمصائب والشدائد «والشكر عند الرخاء» الشكر: فعل ينبئ عن تعظيم المنعم؛ لكونه منعمًا، وهو صرف العبد ما أنعم الله به عليه في طاعته.

«الرخاء»: اتساع النعمة «والرضا بمر القضاء» الرضا: ضد السخط، والقضاء: لغة: الحكم. وعرفًا: إرادة الله المتعلقة بالأشياء على ما هي عليه. ومر القضاء: ما يجري على العبد مما يكرهه؛ كالمرض والفقر وأذى الخلق والحر والبرد والآلام.



[أسئلة وأجوبة نموذجية على من أصول أهل السنة الصبر عند البلاء والشكر عند الرخاء والرضا بمُر القضاء]

● قال الشيخ عبد العزيز المحمد السلمان:

س - بين معاني ما يلي من الكلمات الآتية: الصبر، البلاء، الشكر، الرخاء، محاسن الأعمال، مكارم الأخلاق، الرضا.

ج - الصبر لغة: الحبس.

وشرعًا: حبس النفس على ما تكره تقربًا إلى الله تعالى.

وقال ابن القيم - رحمه الله -:

هو حبس النفس عن الجزع، وحبس اللسان عن التشكِّي والتسخُّط، وحبس الجوارح عن لطم الخدود، وشق الجيوب.

قال: وسمعت شيخ الإسلام يقول: الصبر الجميل: هو الذي لا عتاب معه والهجر الجميل: هو الذي لا أذى معه. اهـ.

وقد تكاثرت الأدلة في الأمر بالصبر والحث عليه. وأقسام الصبر ثلاثة: صبر على طاعة الله، وصبر عن معاصي الله، وصبر على أقدار الله المؤلمة.

البلاء: الغم. والتكليف والبلاء يكون منحةً، ويكون محنةً.

والشكر: لغة: عرفان الإحسان ونشره.

وشرعًا: صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه لما خلق لأجله، ويتعلق بالقلب واللسان والجوارح كما قيل:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة ... يدي ولساني والضمير المحجبا

والرخاء: بالفتح سعة العيش.

والرضا: ضد السُّخْط.

ومحاسن الأعمال: جميلها، فأهل السنة يدعون إلى كل خلق فاضل ويحثون

علىٰ ذلك. والمكارم: جمع مكرمة وهي كل فائق في بابه يقال له كريم.

س - وضح حكم الرضا بالقضاء وقسم ما يحتاج إلى تقسيم. وما الذي يجب على العبد نحو ذلك؟ ومثل لما يحتاج إلى تمثيل.

ج - الرضا بالقضاء الديني الشرعي واجب وهو أساس الإسلام وقاعدة الإيمان، فيجب علىٰ العبد أن يكون راضيًا به بلا حرج ولا منازعة ولا معارضة ولا اعتراض قال تعالىٰ: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ الآية.

والرضا بالقضاء الكوني القدري الموافق لمحبة العبد وإرادته ورضاه من الصحة والغناء والعافية واللذة أمر لازم بمقتضىٰ الطبيعة لأنه ملائم للعبد محبوب له، فليس الرضا به عبودية، بل العبودية في مقابلته بالشكر والاعتراف بالمنة ووضع النعمة مواضعها التي يحب الله أن توضع فيها، وأن لا يعصىٰ المنعم بهما وأن يرىٰ النقص في جميع ذلك.

والرضا بالقضاء الكوني القدري الجاري علىٰ خلاف مراد العبد ومحبته مما لا يلائمه ولا يدخل تحت اختياره مستحب، وهو من مقامات أهل الإيمان وفي وجوبه قولان وهذا كالمرض والفقر وأذىٰ الخلق له والحر والبرد والآلام ونحو ذلك.

وأما الرضا بالقدر الجاري باختياره مما يكرهه الله ويسخطه وينهىٰ عنه كأنواع الظلم والفسوق والعصيان حرام يعاقب عليه وهو مخالف لربه تعالىٰ، فإن الله لا يرضىٰ بذلك ولا يحبه فكيف تتفق المحبة ورضا ما يسخطه الحبيب ويبغضه؟

* * *

[من أصول أهل السنة
الدعوة إلى مكارم الأخلاق]

وَيَدْعون إلى مكَارِمِ الأخْلاَقِ، ومَحَاسِنِ الأعْمَالِ.

ويَعْتَقِدُونَ مَعْنَى قَوله ـ ﷺ ـ: «أَكْمَلُ المُؤْمِنينَ إيمَانًا أَحْسَنُهم خُلُقًا» .

• الشرح •

● قال الشيخ ابن عثيمين:

(قوله: «ويدعون إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال»:

«مكارم الأخلاق»: أي: أطايبها، والكريم من كل شيء هو الطيب منه بحسب ذلك الشيء ومنه قول الرسول ﷺ لمعاذ رضي الله عنه: «إياك وكرائم أموالهم»[1] ؛ حين أمره بأخذ الزكاة من أهل اليمن.

والأخلاق: جمع خلق، وهو الصورة الباطنة في الإنسان؛ يعني: السجايا والطبائع؛ فهم يدعون إلى أن يكون الإنسان سريرته كريمة؛ فيحب الكرم والشجاعة والتحمل من الناس والصبر، وأن يلاقي الناس بوجه طلق وصدر منشرح ونفس مطمئنة؛ كل هذه من مكارم الأخلاق.

أما «محاسن الأعمال»: فهي مما يتعلق بالجوارح، ويشمل الأعمال التعبدية

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٣٤٧) ومسلم (١٩) من حديث ابن عباس.

والأعمال غير التعبدية؛ مثل البيع والشراء والإجارة؛ حيث يدعون الناس إلىٰ الصدق والنصح في الأعمال كلها، وإلىٰ تجنب الكذب والخيانة، وإذا كانوا يدعون الناس إلىٰ ذلك؛ فهم بفعله أولىٰ.

قوله: ويعتقدون معنى قوله ﷺ: «أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا»[١]

هذا الحديث ينبغي أن يكون دائمًا نصب عيني المؤمن؛ فأكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا مع الله ومع عباد الله.

ـ أما حسن الخلق مع الله: فأن تتلقىٰ أوامره بالقبول والإذعان والانشراح وعدم الملل والضجر، وأن تتلقىٰ أحكامه الكونية بالصبر والرضا وما أشبه ذلك.

ـ أما حسن الخلق مع الخَلق: فقيل: هو بذل الندىٰ، وكف الأذىٰ، وطلاقة الوجه.

بذل الندى: يعني: الكرم، وليس خاصًا بالمال، بل بالمال والجاه والنفس، وكل هذا من بذل الندىٰ.

وطلاقة الوجه: ضده العبوس.

وكذلك كف الأذى: بأن لا يؤذي أحدًا لا بالقول ولا بالفعل.

● قال الشيخ صالح الفوزان:

يهتم أهل السنة بالأخلاق فيتحلون بالأخلاق الفاضلة، ويرغبون فيها غيرهم فهم «**يدعون إلى مكارم الأخلاق**» أي: أحسنها.

و«**الأخلاق**»: جمع خُلُق، بضم الخاء واللام، وهو الصورة الباطنة، والخَلق بفتح الخاء واللام هو الصورة الظاهرة، وهو الدين والسجية والطبع، ويدعون إلىٰ «**محاسن الأعمال**» كالكرم والشجاعة والصدق والأمانة.

«**يعتقدون معنى قوله ﷺ**»: أي: يؤمنون به ويعملون بمقتضاه «**أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا**»[١] رواه أحمد والترمذي، وقال: حسن صحيح. وقوله: «**أحسنهم**

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٤٦٢٨) والترمذي (١١٦٢) من حديث أبي هريرة وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (١٢٣٠).

خلقًا»: أي: ألينهم وألطفهم وأجملهم.

ففي الحديث الحث على التخلق بأحسن الأخلاق، وفيه أن الأعمال تدخل في مسمى الإيمان، وأن الإيمان يتفاضل.

* * *

[أسئلة وأجوبة نموذجية على من أصول أهل السنة الدعوة إلى مكارم الأخلاق]

● قال الشيخ عبد العزيز المحمد السلمان:

س ـ ما معنى قول النبي ﷺ: «أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا» وما هو الخلق وما هي ثمرته؟

ج ـ الخلق: يطلق على كل صفة راسخة في النفس تصدر عنها الأفعال بسهولة من غير تكلف وهو صورة الإنسان الباطنة، وقد ورد في الحث عليه أحاديث كثيرة، ومما يُثْمِرُه حسن الخلق تيسير الأمور لصاحبه وحب الخلق له ومعونتهم له والابتعاد عن أذاه وقلة مشاكله في الحياة مع العاملين والمجالسين له واطمئنان نفسه وطيب عيشه ورضائه به.

ومن محاسن الأخلاق: الصدق والشهامة والنجدة وعزة النفس والتواضع والتثبت وعلو الهمة والعفو والبشر والرحمة والحكمة والشجاعة والوقار والصيانة والصبر والورع والحياء والسخاء والنزاهة وحفظ السر والقناعة والعفة والإيثار.

وفي الحديث: أن الأعمال داخلة في الإيمان.

وفيه: تفاضل الناس في الإيمان، والرد على من زعم أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص وأن الناس في الإيمان شيء واحد.

* * *

[من أصول أهل السنة الأمر بالعفو عمن ظلمهم]

وَيندبُـونَ إلى أن تَصِلَ من قَطَعَكَ، وتُعْطِي مَنْ حَرَمَكَ، وتـعفو عَمَّنْ ظَلَمَكَ.

• الشَّـرح •

● قال الشيخ ابن عثيمين:

قـوله: «ويندبون إلى أن تصل من قطعك، وتعطى من حـرمك، وتعـفو عـمن ظلمك»:

«يندبون»: أي: يدعون.

«أن تصـل من قـطعـك»: من الأقـارب ممن تجب صلـتهم عـليك، إذا قطعـوك؛ فـصلهم، لا تقل: مـن وصلني؛ وصلته! فإن هذا ليس بصلة؛ كـما قـال النبي عليه الصـلاة والسـلام: **«ليس الواصل بالمكافئ، إنما الواصل من إذا قطعت رحـمه؛ وصلها»**[1] فالواصل هو الذي إذا قطعت رحمه؛ وصلها.

وسأل النبي ﷺ رجلٌ، فقال: يا رسول الله! إن لي أقارب؛ أصلهم ويقطعونني، وأحسن إليهم ويسيئون إلي، وأحلم عنهم ويجهلون علي! فقال النبي ﷺ: **«إن كنت كما قلت؛ فكأنما تسفهم الملى، ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك»**[2].

«تسفهم الملى»: أي: كأنما تضع التراب أو الرماد الحار في أفواههم.

فأهل السنة يندبون إلى أن تصل من قطعك، وأن تصل من وصلك بالأولى؛ لأن

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩٩١) والترمذي (١٩٠٨) من حديث ابن عمر.

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٥٨) من حديث أبي هريرة.

من وصلك وهو قريب؛ صار له حقان: حق القرابة، وحق المكافأة؛ لقول النبي عليه الصلاة والسلام: «**من صنع إليكم معروفًا؛ فكافئوه**»[(١)].

«**وتعطى من حرمك**»: أي: من منعك، ولا تقل: منعني؛ فلا أعطيه.

«**وتعفو عمن ظلمك**»: أي: من انتقصك حقك؛ إما بالعدوان، وإما بعدم القيام بالواجب.

والظلم يدور على أمرين: اعتداء وجحود: إما أن يعتدي عليك بالضرب، وأخذ المال، وهتك العرض، وإما أن يجحدك فيمنعك حقك.

وكمال الإنسان أن يعفو عمن ظلمه.

ولكن العفو إنما يكون عند القدرة على الانتقام، فأنت تعفو مع قدرتك على الانتقام:

أولا: رجاء لمغفرة الله عز وجل ورحمته؛ فإن من عفا وأصلح؛ فأجره على الله.

ثانيًا: لإصلاح الود بينك وبين صاحبك؛ لأنك إذا قابلت إساءته بإساءة؛ استمرت الإساءة بينكما، وإذا قابلت إساءته بإحسان، عاد إلى الإحسان إليك، وخجل.

قال الله تعالى: ﴿ **وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ** ﴾ [فصلت: ٣٤].

فالعفو عند المقدرة من سمات أهل السنة والجماعة، لكن بشرط أن يكون العفو إصلاحًا؛ فإن تضمن العفو إساءة؛ فإنهم لا يندبون إلى ذلك؛ لأن الله اشترط، فقال: ﴿ **فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ** ﴾ [الشورى: ٤٠]؛ أي: كان في عفوه إصلاح، أما من كان في عفوه إساءة، أو كان سببًا للإساءة؛ فهنا نقول: لا تعف! مثل أن يعفو عن مجرم، ويكون عفوه هذا سببًا لاستمرار هذا المجرم في إجرامه؛ فترك العفو هنا أفضل، وربما يجب ترك العفو حينئذ.

---

(١) سبق تخريجه.

● قال الشيخ صالح الفوزان:

وأهل السنة يدعون إلى التعامل مع الناس بالتي هي أحسن، وإلى إيتاء ذوي الحقوق حقوقهم، ويحذرون من أضداد تلك الأخلاق من الكبر والتعدي على الناس.

فهم (يندبون) أي: يدعون (**إلى أن تصل من قطعك**) أي: تحسن إلى من أساء إليك، (**وتعطي من حرمك**) أي: تبذل العطاء وهو التبرع والهدية ونحوها لمن منع ذلك عنك؛ لأن ذلك من الإحسان، (**وتعفو عمن ظلمك**) أي: تسامح من تعدى عليك في مال أو دم أو عرض؛ لأن ذلك مما يجلب المودة ويكسب الأجر والثواب.

* * *

[أسئلة وأجوبة نموذجية على من أصول أهل السنة الأمر بالعفو عمن ظلمهم]

● قال الشيخ عبد العزيز المحمد السلمان:

س - ما معنى ما يلي من الكلمات: الحرمان، العفو، الظلم؟ وما الذي يحث عليه أهل السنة وما الدليل؟

ج - الحرمان: المنع.

العفو: الصفح والتجاوز عن الذنب.

الظلم: وضع الشيء في غير موضعه.

فأهل السنة يحثون على كل خصلة حميدة، قال الله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ وقال: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾ وقال: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾.

ومن السنة: ما روى ابن جرير وابن أبي حاتم قال: لما أنزل الله تعالى على نبيه ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ قال رسول الله ﷺ: «ما هذا يا جبريل؟» قال: «أن تصل من قطعك، وتعفو عمن ظلمك، وتعطي من حرمك».

* * *

[من أصول أهل السنة الأمر ببر الوالدين]

ويأمـرون بـبـرِّ الوالـدَيْـنِ.

• الشَّـرح •

● قال الشيخ ابن عثيمين:

قوله: «ويأمرون ببر الوالدين»: وذلك لعظم حقهما.

ولم يجعل الله لأحد حقا يلي حقه وحق رسوله إلا للوالدين، فقال: ﴿وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [النساء: ٣٦].

وحق الرسول في ضمن الأمر بعبادة الله؛ لأنه لا تتحقق العبادة حتىٰ يقوم بحق الرسول عليه الصلاة والسلام؛ بمحبته واتباع سبيله، ولهذا كان داخلا في قوله: ﴿وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا﴾، وكيف يعبد إلا الله من طريق الرسول ﷺ؟!

وإذا عبد الله علىٰ مقتضىٰ شريعة الرسول؛ فقد أدىٰ حقه.

ثم يلي ذلك حق الوالدين؛ فالوالدان تعبا علىٰ الولد، ولا سيما الأم، قال الله تعالىٰ: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ [الأحقاف: ١٥]، وفي آية أخرىٰ: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ﴾ [لقمان: ١٤]، والأم تتعب في الحمل، وعند الوضع، وبعد الوضع، وترحم صبيها أشد من رحمة الوالد له، ولهذا كانت أحق بحسن الصحبة والبر، حتىٰ من الأب.

قال رجل: يا رسول الله! من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: «أمك». قال: ثم من؟ قال: «أمك». قال: ثم من؟ قال: «أمك». ثم قال في الرابعة: «ثم أبوك»[1].

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٩٧١) ومسلم (٢٥٤٨) من حديث أبي هريرة.

والأب أيضًا يتعب في أولاده، ويضجر بضجرهم، ويفرح لفرحهم، ويسعىٰ بكل الأسباب التي فيها راحتهم وطمأنينتهم وحسن عيشهم، يضرب الفيافي والقفار من أجل تحصيل العيش له ولأولاده.

فكل من الأم والأب له حق؛ مهما عملت من العمل؛ لن تقضي حقهما، ولهذا قال الله عز وجل: ﴿وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٤]؛ فحقهم سابق؛ حيث ربياك صغيراً حين لا تملك لنفسك نفعًا ولا ضرًا؛ فواجبها البر.

والبر فرض عين بالإجماع علىٰ كل واحد من الناس، ولهذا قدمه النبي ﷺ علىٰ الجهاد في سبيل الله؛ كما في حديث ابن مسعود رضي الله عنه؛ قال: قلت: يا رسول الله! أي العمل أحب إلىٰ الله؟ قال: «**الصلاة على وقتها**» قلت: ثم أي؟ قال: «**بر الوالدين**». قلت: ثم أي؟ قال: «**الجهاد في سبيل الله**»[١].

والوالدان هما الأب والأم، أما الجد والجدة؛ فلهما بر، لكنه لا يساوي بر الأم والأب؛ لأن الجد والجدة لم يحصل لهما ما حصل للأم والأب من التعب والرعاية والملاحظة؛ فكان برهما واجبًا من باب الصلة، لكن هما أحق الأقارب بالصلة، أما البر؛ فإنه للأم والأب.

لكن؛ ما معنىٰ البر؟.

البر: إيصال الخير بقدر ما تستطيع، وكف الشر.

إيصال الخير بالمال، إيصال الخير بالخدمة، إيصال الخير بإدخال السرور عليهما؛ من طلاقة الوجه، وحسن المقال والفعال، وبكل ما فيه راحتهما.

ولهذا كان القول الراجح وجوب خدمة الأب والأم علىٰ الأولاد، إذا لم يحصل علىٰ الولد ضرر، فإن كان عليه ضرر؛ لم يجب عليه خدمتهما، اللهم إلا عند الضرورة.

ولهذا نقول: إن طاعتهما واجبة فيما فيه نفع لهما ولا ضرر علىٰ الولد فيه، أما ما فيه ضرر عليه، سواء كان ضرراً دينيًا؛ كأن يأمراه بترك واجب أو فعل محرم؛ فإنه لا

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٩٧٠) ومسلم (٨٥) من حديث ابن مسعود.

طاعة لهما في ذلك، أو كان ضرراً بدنيًا؛ فلا يجب عليه طاعتهما. أما المال؛ فيجب عليه أن يبرهما ببذله، ولو كثر، إذا لم يكن عليه ضرر، ولم تتعلق به حاجته، والأب خاصة له أن يأخذ من مال ولده ما شاء ما لم يضره.

وإذا تأملنا في أحوال الناس اليوم؛ وجدنا كثيراً منهم لا يبر بوالديه، بل هو عاق؛ تجده يحسن إلىٰ أصحابه، ولا يمل الجلوس معهم، لكن لو يجلس إلىٰ أبيه أو أمه ساعة من نهار؛ لوجدته متململاً، كأنما هو علىٰ الجمر؛ فهذا ليس ببار، بل البار من ينشرح صدره لأمه وأبيه، ويخدمهما علىٰ أهداب عينيه، ويحرص غاية الحرص علىٰ رضاهما بكل ما يستطيع.

وكما قالت العامة: «البر أسلاف»؛ فإن البر مع كونه يحصل به البار علىٰ ثواب عظيم في الآخرة؛ فإنه يجازىٰ به في الدنيا. فالبر والعقوق كما يقول العوام: «أسلاف»، أقرض؛ تستوف، إن قدمت البر؛ برك أولادك، وإن قدمت العقوق؛ عقك أولادك.

وهنا حكايات كثيرة في أن من الناس من بر والديه فبر به أولاده، وكذلك العقوق فيه حكايات تدل علىٰ أن الإنسان عقه أولاده كما عق هو آباءه.

فأهل السنة والجماعة يأمرون ببر الوالدين.

● قال الشيخ صالح الفوزان:

«ويأمرون»: أي: أهل السنة بما أمر الله به من إعطاء ذوي الحقوق حقوقهم.

«ببر الوالدين»: أي: طاعتهما في غير معصية والإحسان إليهما بالقول والفعل.

* * *

[أسئلة وأجوبة نموذجية على من أصول أهل السنة الأمر ببر الوالدين]

● قال الشيخ عبد العزيز المحمد السلمان:

س ـ ما معنى البر؟ وبأي شيء يكون بر الوالدين؟ وما الدليل على ذلك؟

ج ـ البر: الصلة والخير والاتساع في الإحسان، وبر الوالدين يكون بطاعتهما بما لا يخالف الشرع وبالإحسان إليهما وبإكرامهما وبالتواضع لهما والشفقة عليهما والتلطف بهما بأن يقول لهما قولاً حسنًا وكلامًا طيبًا مقرونًا بالاحترام والتعظيم عملاً بقوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾.

وأما الأحاديث من السنة فكثيرة شهيرة.

ولا يختص برهما في حال الحياة بل يكون بعد الموت أيضًا، فقد روى ابن ماجه أن رسول الله ﷺ سئل: هل بقي من بر أبوي شيء أبرهما به بعد موتهما؟ قال: «نعم خصال أربع: الصلاة عليهما، والاستغفار لهما، وانفاذ عهدهما، وإكرام صديقهما، وصلة الرحم التي لا رحم لك إلا من قبلهما، فهذا الذي بقي عليك من برهما بعد موتهما».

* * *

[من أصول أهل السنة الأمر بصلة الأرحام]

وصِلَـةِ الأرْحَـــامِ.

• الشَّـرح •

● قال الشيخ ابن عثيمين:

قوله: «وكذلك يأمرون بصلة الأرحام»:

ففرق بين الوالدين والأقارب الآخرين، الأقارب لهم الصلة، والوالدان لهم البر، والبر أعلى من الصلة؛ لأن البر كثرة الخير والإحسان، لكن الصلة ألا يقطع، ولهذا يقال في تارك البر: إنه عاق، ويقال فيمن لم يصل: إنه قاطع!

فصلة الأرحام واجبة، وقطعها سبب للعنة والحرمان من دخول الجنة.

قال الله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ * أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ﴾ [محمد: ٢٢، ٢٣].

وقال النبي عليه الصلاة والسلام: «**لا يدخل الجنة قاطع**»(١) . أي: قاطع رحم.

والصلة جاءت في القرآن والسنة مطلقة.

وكـــل مــــا أتى ولـم يـحـدد ... الشرع كالحرز فبالعـــرف احدد

وعلى هذا؛ يرجع إلى العرف فيها؛ فما سماه الناس صلة؛ فهو صلة، وما سماه قطيعة؛ فهو قطيعة، وهذه تختلف باختلاف الأحوال والأزمان والأمكنة والأمم.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٩٨٤) ومسلم (٢٥٦٥) من حديث جبير بن مطعم.

إذا كان الناس في حالة فقر، وأنت غني، وأقاربك فقراء؛ فصلتهم أن تعطيهم بقدر حالك.

وإذا كان الناس أغنياء، وكلهم في خير؛ فيمكن أن الذهاب إليهم في الصباح أو المساء يعد صلة.

وفي زماننا هذا الصلة بين الناس قليلة، وذلك لانشغال الناس في حوائجهم، وانشغال بعضهم عن بعض، والصلة التامة أن تبحث عن حالهم، وكيف أولادهم، وترى مشاكلهم، ولكن هذه مع الأسف مفقودة، كما أن البر التام مفقود عند كثير من الناس.

● قال الشيخ صالح الفوزان:

«وصلة الأرحام» أي: الإحسان إلى الأقربين، والأرحام: جمع رحم وهو من تجمعك به قرابة.

* * *

[من أصول أهل السنة
الأمر بالإحسان إلى الجار واليتامى
والمساكين وابن السبيل والرفق بالمملوك]

وحُسْنِ الجوارِ، والإحْسَانِ إلى اليتَامَى، والمسَاكِين، وابنِ السَّبيل. والرِّفْقِ بالمَمْلُوكِ.

• الشَّرح •

• قال الشيخ ابن عثيمين:

قوله: «وحسن الجوار»: أي: ويأمرون؛ يعني: أهل السنة والجماعة بحسن الجوار مع الجيران، والجيران هم الأقارب في المنزل، وأدناهم أولاهم بالإحسان والإكرام:

قال الله تعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾ [النساء: ٣٦]، فأوصى الله بالإحسان إلى الجار القريب، والجار البعيد.

وقال النبي ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر؛ فليكرم جاره»[١].

وقال: «إذا طبخت مرقه؛ فأكثر ماءها، وتعاهد جيرانك»[٢].

وقال: «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه»[٣].

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦١٣٥) ومسلم (٤٨) من حديث خويلد بن عمرو.

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٦٢٥) وأحمد في «مسنده» (٥/ ٤٩، ١٥٦) من حديث أبي ذر.

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٠١٤) ومسلم (٢٦٢٤) من حديث عائشة.

وقال: «**والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن**»؛ قيل: ومن يا رسول الله؟ قال: «**الذي لا يأمن جاره بوائقه**»[(١)].

إلى غير ذلك من النصوص الدالة على العناية بالجار والإحسان إليه وإكرامه.

والجار إن كان مسلمًا قريبًا؛ كان له ثلاثة حقوق: حق الإسلام، وحق القرابة، وحق الجوار.

وإن كان قريبًا جارًا؛ فله حقان: حق القرابة، وحق الجوار.

وإن كان مسلمًا غير قريب وهو جار؛ فله حقان: حق الإسلام، وحق الجوار.

وإن كان جارًا كافرًا بعيدًا؛ فله حق واحد، وهو حق الجوار.

فأهل السنة والجماعة يأمرون بحسن الجوار مطلقًا، أيًّا كان الجار، ومن كان أقرب؛ فهو أولى.

ومن المؤسف أن بعض الناس اليوم يسيئون إلى الجار أكثر مما يسيئون إلى غيره؛ فتجده يعتدي على جاره بالأخذ من ملكه وإزعاجه.

وقد ذكر الفقهاء ـ رحمهم الله ـ في آخر باب الصلح في الفقه شيئًا من أحكام الجوار، فليراجع إليه.

قوله: «والإحسان إلى اليتامى والمساكين وابن السبيل»: كذلك يأمرون؛ أي: أهل السنة والجماعة بالإحسان إلى هؤلاء الأصناف الثلاثة.

اليتامى: جمع يتيم، وهو الذي مات أبوه قبل بلوغه.

وقد أمر الله تعالى بالإحسان إلى اليتامى، وكذلك النبي ﷺ حث عليه في عدة أحاديث[(٢)].

ووجه ذلك أن اليتيم قد انكسر قلبه بفقد أبيه؛ فهو في حاجة إلى العناية والرفق. والإحسان إلى اليتامى يكون بحسب الحال.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٦٠١٦) وأحمد في «مسنده» (٤/ ٣١) من حديث أبي شريح.

(٢) منها ما أخرجه البخاري (٦٠٠٥) وأحمد في «مسنده» (٥/ ٣٣٣) من حديث سهل بن سعد ـ رضي الله عنه ـ وفيه: «أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا وقال بإصبعيه ﷺ السبابة والوسطى».

والمساكين: هم الفقراء، وهو هنا شامل للمسكين والفقير.

فالإحسان إليهم مما أمر به الشرع في آيات متعددة من القرآن، وجعل لهم حقوقًا خاصة في الفيء وغيره.

ووجه الإحسان إليهم أن الفقر أسكنهم وأضعفهم وكسر قلوبهم، فكان من محاسن الإسلام أن نحسن إليهم جبراً لما حصل لهم من النقص والانكسار.

والإحسان إلىٰ المساكين يكون بحسب الحال: فإذا كان محتاجًا إلىٰ طعامًا فالإحسان إليه بأن تطعمه، وإذا كان محتاجًا إلىٰ كسوة، فالإحسان إليه بأن تكسوه، وإلىٰ اعتبار بأن توليه اعتباراً، فإذا دخل المجلس؛ ترحب به، وتقدمه لأجل أن ترفع من معنويته.

فمن أجل هذا النقص الذي قدره الله عز وجل عليه بحكمته أمرنا عز وجل أن نحسن إليهم.

كذلك ابن السبيل، وهو المسافر، وهو هنا المسافر الذي انقطع به السفر، أو لم ينقطع؛ بخلاف الزكاة؛ لأن المسافر غريب، والغريب مستوحش، فإذا آنسته بإكرامه والإحسان إليه؛ فإن هذا مما يأمر به الشرع.

فإذا نزل ابن سبيل بك ضيفًا؛ فمن إكرامه أن تكرم ضيافته.

لكن قال بعض العلماء: إنه لا يجب إكرامه بضيافته إلا في القرىٰ دون الأمصار!.

ونحن نقول: بل هي واجبة في القرىٰ والأمصار؛ إلا أن يكون هناك سبب؛ كضيق البيت مثلاً، أو أسباب أخرىٰ تمنع أن تضيف هذا الرجل، لكن علىٰ كل حال ينبغي إذا تعذر أن تحسن الرد.

قوله: «والرفق بالمملوك»: يعني: أن أهل السنة والجماعة يأمرون بالرفق بالمملوك.

وهذا يشمل المملوك الآدمي والبهيم:

- فالرفق بالمملوك الآدمي أن تطعمه إذا طعمت، وتكسوه إذا اكتسيت، ولا تكلفه

ما لا يطيق.

- والرفق بالمملوك من البهائم سواء كانت مما تركب أو تحلب، أو تقتني؛ يختلف بحسب ما تحتاج إليه؛ ففي الشتاء تجعل في الأماكن الدافئة إذا كانت لا تتحمل البرد، وفي الصيف في الأماكن الباردة إذا كانت لا تتحمل الحر، ويؤتى لها بالطعام وبالشراب إن لم تحصل عليه بنفسها بالرعي، وإذا كانت مما تحمل؛ فلا تحمل ما لا تطيق.

وهذا يدل على كمال الشرع، وأنه لم ينس حتى البهائم، وعلى شمولية طريقة أهل السنة والجماعة.

● قال الشيخ صالح الفوزان:

«وحسن الجوار»: أي: الإحسان إلى من يسكن بجوارك ببذل المعروف وكف الأذى.

«والإحسان إلى اليتامى»: جمع يتيم، وهو لغة: المنفرد، وشرعًا: من مات أبوه قبل بلوغه، والإحسان إليهم هو برعاية أحوالهم وأموالهم والشفقة عليهم.

«والمساكين»: أي: والإحسان إلى المساكين: جمع مسكين، وهو: المحتاج الذي أسكنته الحاجة والفقر، والإحسان إليهم يكون بالتصدق عليهم والرفق بهم.

«وابن السبيل»: أي: والإحسان إلى ابن السبيل، وهو: المسافر المنقطع به الذي نفدت نفقته أو ضاعت أو سرقت، وقيل: هو الضيف.

«والرفق بالمملوك»: أي: ويأمرون بالرفق بالمملوك، وهو الرقيق، ويدخل فيه المملوك من البهائم، والرفق: ضد العنف، وهو لين الجانب.

* * *

[أسئلة وأجوبة نموذجية على من أصول أهل السنة الأمر بالإحسان إلى الجار واليتامى والمساكين وابن السبيل والرفق بالمملوك]

● قال الشيخ عبد العزيز المحمد السلمان:

س - من الجار؟ وبأي شيء يكون الإحسان إليه؟ وما الدليل على ذلك؟

ج - الجار: يطلق على الداخل في الجوار والساكن مع الإنسان في البيت، وعلى الساكن مع الإنسان في البلد، وعلى المجاور في البيت الملاصق بيته لبيتك وعلى أربعين داراً من كل جانب.

وعنه ﷺ: «**الجيران ثلاثة: جار له حق واحد، وهو المشرك له حق الجوار، وجار له حقان، وهو المسلم له حق الجوار، وحق الإسلام، وجار له ثلاثة حقوق وهو المسلم القريب له حق الجوار وحق الإسلام وحق الرحم**».

وأما الدليل فعن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: - قال رسول الله ﷺ: «**ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه**» والإحسان إليه يكون بكل ما يستطيع معه من أنواع الخير بإهداء ما تيسر وبداءته بالسلام وإظهار البشر له، وإعانته والتوسيع له في معاملته وإقراضه وعيادته وتعزيته عند المصيبة وتهنئته بما يفرحه ويستر ما انكشف له من عورة ويغض بصره عن محارمه.

ويمنع أولاده من أذى أولاد جاره، ولا يرفع المذياع في أوقات راحتهم لأنه ينشأ عنه سهرهم، ولا يَطلّ عليهم من سطح أو نافذة، ويمنع أولاده ونساءه من ذلك. ويتلطف لأولاده، ويصفح عن زلته، ويعمل ما استطاع من أعمال الخير وكف الأذى.

س - من هو اليتيم؟ وبأي شيء يكون الإحسان إليه وما الدليل على ذلك؟

ج - اليتيم: من مات أبوه ولم يبلغ، والإحسان إليه يكون بكفالته وتعليمه ورعاية حاله والتلطف به وإكرامه والشفقة عليه والعناية بأموره وتنمية ماله ونحو ذلك من

أنواع الإحسان إليه .

وقد ورد في الحث على الإحسان إليه آيات وأحاديث . أما القرآن فقوله تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ ﴾ وقال ﷺ : «**أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا**» وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما ، إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث .

س ـ من المسكين، ومن ابن السبيل وما معنى الإحسان إليهما؟

ج ـ أما المسكين: فهو الساكن لما في أيدي الناس لكونه لا يجد شيئًا وإذا أطلق دخل فيه الفقير ، وبالعكس ، وإذا ذكرا معًا كما في أصناف الزكاة فقال بعض المفسرين لآية الزكاة : إن الفقير هو المتعفف الذي لا يسأل الناس شيئًا ، والمسكين هو الذي يسأل .

وقيل: الفقير هو من به زمانة ، والمسكين الصحيح الجسم .

وأما ابن السبيل: فهو المسافر والمجتاز في بلد ليس معه شيء يستعين به على سفره ، ويكون الإحسان إلى المساكين وأبناء السبيل بأنواع الإحسان : من صدقة فريضة ونافلة ، وإعارة ، وهدية ، وتقريبهم ، والتلطف بهم ، وإكرامهم ونحو ذلك .

س ـ ما الدليل على الإحسان إلى المسكين وابن السبيل؟

ج ـ قوله تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ الآية ، وكما في آية الحقوق العشرة : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ الآية ، وكما في آية سورة براءة : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ ﴾ الآية .

وأما الأحاديث:

فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : «**الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله**» الحديث ، وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال : «**ليس المسكين بهذا الطواف الذي ترده التمرة والتمرتان واللقمة واللقمتان ولكن المسكين الذي لا يجد غني يغنيه ولا يفطن له فيتصدق عليه**» .

* * *

[من أصول أهل السنة
النهي عن مساوئ الأخلاق من الفخر والخيلاء]

وينْهَوْنَ عن: الفَخْرِ، والخُيلاءِ، والبَغْيِ، والاستطَالَةِ على الخَلْقِ بِحَقٍّ أوْ بِغَيْرِ حقٍّ.

ويأمُرُونَ بِمَعَالي الأخْلاقِ.

وينْهَوْنَ عن سِفْسَافِهَا.

• الشَّرح •

● قال الشيخ ابن عثيمين:

قوله: «**وينهون عن الفخر والخيلاء والبغي والاستطالة على الخلق بحق أو بغير حق**».

الفخر بالقول، والخيلاء بالفعل، والبغي العدوان، والاستطالة الترفع والاستعلاء.

فينهون عن الفخر: أن يتفاخر الإنسان على غيره بقوله، فيقول: أنا العالم! أنا الغني! أنا الشجاع!.

وإن زاد على ذلك أن يستطيل على الآخرين ويقول: ماذا أنتم عندي؟ فيكون هذا فيه بغي واستطالة على الخلق.

والخيلاء تكون بالأفعال؛ يتخايل في مشيته وفي وجهه وفي رفع رأسه ورقبته إذا مشى، كأنه وصل إلى السماء، والله عز وجل وبخ من هذا فعله، وقال: ﴿وَلَا تَمْشِ

﴿فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الإسراء: ٣٧].

فأهل السنة والجماعة ينهون عن هذا، ويقولون: كن متواضعًا في القول وفي الفعل، حتى في القول، لا تثن على نفسك بصفاتك الحميدة؛ إلا حيث دعت الضرورة أو الحاجة إلى ذلك؛ كقول ابن مسعود رضي الله عنه: لو أعلم أحدًا هو أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل؛ لركبت إليه[١]؛ فإنه رضي الله عنه قصد بذلك أمرين:

الأول: حث الناس على تعلم كتاب الله تعالى.

الثاني: دعوتهم للتلقي عنه.

والإنسان ذو الصفات الحميدة لا يظن أن الناس تخفى عليهم خصاله أبدًا، سواء ذكرها للناس أم لم يذكرها، بل إن الرجل إذا صار يعدد صفاته الحميدة أمام الناس؛ سقط من أعينهم؛ فاحذر هذا الأمر.

والبغي: العدوان على الغير، ومواقعه ثلاثة بينها الرسول ﷺ في قوله: **«إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام»**[٢].

فالبغي على الخلق بالأموال والدماء والأعراض.

- **في الأموال:** مثل أن يدعي ما ليس له، أو ينكر ما كان عليه، أو يأخذ ما ليس له؛ فهذا بغي على الأموال.

- **وفي الدماء:** القتل فما دونه؛ يعتدي على الإنسان بالجرح والقتل.

وفي الأعراض: يحتمل أن يراد بها الأعراض؛ يعني: السمعة، فيعتدي عليه بالغيبة التي يشوه بها سمعته، ويحتمل أن يراد بها الزنى وما دونه، والكل محرم؛ فأهل السنة والجماعة ينهون عن الاعتداء على الأموال والدماء والأعراض. وكذلك الاستطالة على الخلق؛ يعني: الاستعلاء عليهم بحق أو بغير حق

فالاستعلاء على الخلق ينهى عنه أهل السنة والجماعة، سواء كان بحق أو بغير

---

(١) أخرجه مسلم (٢٤٦٣) من حديث عبد الله بن مسعود.

(٢) أخرجه البخاري (١٧٣٩) من حديث ابن عباس.

حق، والاستعلاء هو أن الإنسان يترفع على غيره.

وحقيقة الأمر أن من شكر نعمة الله عليك أن الله إذا من عليك بفضل على غيرك من مال أو جاه أو سيادة أو علم أو غير ذلك؛ فإنه ينبغي أن تزداد تواضعًا، حتى تضيف إلى الحسن حسنى؛ لأن الذي يتواضع في موضع الرفعة هو المتواضع حقيقة.

ومعنى قوله: «بحق»؛ أي: حتى لو كان له الحق في بيان أنه عال مترفع؛ فإن أهل السنة والجماعة ينهون عن الاستعلاء والترفع.

أو يقال: إن معنى قوله: «**الاستطالة بحق**»: أن يكون أصل استطالته حقًا؛ بأن يكون قد اعتدى عليه إنسان، فيعتدي عليه أكثر.

فأهل السنة والجماعة رحمهم الله ينهون عن الاستطالة والاستعلاء على الخلق، سواء كان ذلك بحق أو بغير حق.

قوله: «**ويأمرون بمعالي الأخلاق**».

أي: ما كان عاليًا منها؛ كالصدق والعفاف وأداء الأمانة ونحو ذلك.

«**وينهون عن سفسافها**»؛ أي: رديئها؛ كالكذب والخيانة والفواحش ونحو ذلك.

● **قال الشيخ صالح الفوزان:**

(**وينهون عن الفخر**) وهو المباهاة بالمكارم والمناقب من حسب ونسب.

(**والخيلاء**) بضم الخاء: الكبر والعجب (**والبغي**) وهو: العدوان على الناس.

(**والاستطالة على الخلق**) أي: الترفع عليهم واحتقارهم والوقيعة فيهم (**بحق وبغير حق**)؛ لأن المستطيل إن استطال بحق فقد افتخر وإن استطال بغير حق فقد بغى، ولا يحل لا هذا ولا هذا.

(**ويأمرون بمعالي الأخلاق**) أي: يأمر أهل السنة بالأخلاق العالية، وهي الأخلاق الحسنة.

(**وينهون عن سفسافها**) أي: رديئها وحقيرها، والسفساف: الأمر الحقير والرديء من كل شيء، وهو ضد المعالي والمكارم وأصله ما يطير من غبار الدقيق إذا نخل والتراب إذا أثير.

[أسئلة وأجوبة نموذجية على من أصول أهل السنة النهي عن مساوئ الأخلاق من الفخر والخيلاء...]

● قال الشيخ عبد العزيز المحمد السلمان:

س ـ بين معاني ما يلي من الكلمات: الفخر، الخيلاء، البغي والاستطالة، وما هي أدلة أهل السنة والجماعة على النهي عن هذه الأشياء؟

ج ـ الفخر: التمدح بالخصال، والخيلاء: الكبر، والاستطالة على الخلق: الترفع عليهم واحتقارهم والوقيعة فيهم، البغي: التعدي، وكل مجاوزة وإفراط على المقدار الذي هو حد الشيء فهو بغي.

وأما الأدلة فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ وقال: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ الآية ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أن النبي ﷺ قال: «بينما رجل ممن كان قبلكم يجر إزاره من الخيلاء فخسف به فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة» وعن عياض بن حمار ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله أوحى إليَّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغي أحد على أحد».

قال الشاعر:

تواضع تكن كالبدر تبصر وجهه ... على صفحات الماء وهو رفيع

ولا تك كالدخان يعلو بنفسه ... إلى صفحات الجو وهو وضيع

وقال أبو الطيب:

ولو لم يعل إلى ذو محل ... تعالى الجيش وانحط القَتام

وقال ابن القيم:

وسل العياذ من التكبر والهوى ... فهما لكل الشر جامعتان

وهمـا يصـدان الفـتى عن كـل طر ... ق الخـيـر إذ في قـلبـه يلـجـان

فـتراه يمنعـه هـواه تـارة ... والكبـر أخـرى ثم يجتـمعـان

والله مـا في الـنار إلا تـابـع ... هذين فـاسـأل سـاكني النيـران

والله لـو جـردت نفـسك منهـما ... لأتـت إلـيك وفـود كـل تـهان

س ـ اذكر شيئًا من معالي الأمور وشيئًا من سفسافها.

ج ـ مثال ما كان من المعالي: العفة، الأمانة، الشجاعة، السخاء، الحياء، التقى، التواضع، العدل، الحلم، الصدق، حسن الخلق، الصبر، القناعة، علو الهمة، النزاهة. . . إلخ.

ومثال ما كان من سفسافها: الظلم، البغي، الخيانة، الكبر، الخداع، المكر، الكذب، الحسد، البخل، الجبن، الغيبة، الشح، الغش، الوقاحة، البذاءة، الفحش، الرياء، الخور، الجور، الجزع، الطمع. . . إلخ.

س ـ ما الدليل على الأمر بمعالي الأمور والنهي عن سفسافها؟

ج ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ وقوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ وقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾.

وقال أبو سفيان حينما قال له هرقل فماذا يأمركم؟ قلت: يقول: اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئًا، واتركوا ما كان يعبد آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة والصدقة والعفاف والصلة.

وعن سهل بن سعد مرفوعًا: «إن الله كريم يحب الكريم ومعالي الأخلاق ويكره سفسافها»، وعن جابر ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا «إن الله يحب مكارم الأخلاق ويكره سفسافها» والسفساف: الأمر الحقير والرديء من كل شيء.

* * *

[من أصول أهل السنة
أن الفرقة الناجية «الطائفة المنصورة»
هم مَنْ كان على مثل ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه]

وكُلُّ ما يَقُولُونَهُ وْ يفعَلُونَهُ من هذا و غيره، فإنَّما هم فيه مُتَّبِعُونَ للكتابِ والسُّنَّة.

وطريقَتُهُم: هي دينُ الإسْلامِ، الذي بعثَ اللَّهُ به مُحَمَّدًا ﷺ.

لكن لما أخبر النبيُّ - ﷺ -: «أنَّ أُمَّته ستفْتَرِقُ على ثلاثٍ وسبْعِينَ فِرْقَةٍ، كُلّها في النَّارِ إلا وَاحدةً؛ وَهيَ الجمَاعةُ» .

وفي حَديث عنهُ أنهُ قالَ: «هُمْ مَنْ كَانَ عَلَى مِثْلِ مَا أَنَا عَلَيْهِ اليوم وأَصْحَابِي» ؛ صَارَ المُتَمسِّكُونَ بالإسلامِ المَحْضِ الخَالِصِ عنِ الشَّوبِ هم أهل السُّنةِ والجماعةِ.

وفيهم: الصِّدِّيقُونَ، والشهداء، والصالحون ومنهم أعلامُ الهُدَى، ومَصَابيحُ الدُّجَى.

أُولُو المَنَاقبِ المأْثُورَةِ، والفَضَائِلِ المَذْكُورَةِ.

وفيهم: الأَبْدَالُ.

ومنهم: أئمة الدين؛ الذين أجْمَعَ المسلمونَ على هِدَايَتِهِم ودِرَايَتِهِمْ.

وَهُمُ الطَّائِفَةُ المَنْصُورةُ، الَّذينَ قالَ فيهمُ النَّبيُّ ـ ﷺ ـ: «لا تَزَالُ طَائِفَةٌ منْ أُمَّتي عَلَى الحَقِّ ظاهرينَ؛ لاَ يَضُرُّهُم مَنْ خَالَفَهُمْ ولاَ مَنْ خَذَلَهُمْ، حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ».

فنسأل اللَّهَ العظيمَ أن يجعلنا منهُم.

وأَنْ لا يُزِيغَ قُلُوبَنا بَعْدَ إِذْ هَدَانا، وأن يَهَب لَنَا مِن لَّدُنْهُ رَحْمَةً؛ إِنَّهُ هُوَ الوَهَّابُ والله أعلم.

وصلّى الله عَلَى مُحَمَّدٍ وآلِهِ وصحبه وسلِّم تسليمًا كثيرًا.

• الشَّرح •

• قال العلامة ناصر السعدي:

وهذا كلامٌ جامع، واضحٌ، نادرٌ، جمعه في موضع واحد، لا يحتاج إلى شَرْح وإيضاح.

• قال الشيخ محمد خليل هراس:

وأما قوله: «**وفيهم الصديقون إلخ**»: فالصديق صيغة مبالغة من الصدق يراد به الكثير التصديق، وأبو بكر رضي الله عنه هو الصديق الأول لهذه الأمة.

وأما «**الشهداء**»: فهو جمع شهيد وهو من قتل في المعركة.

وأما «**الأبدال**»: فهم جمع بدل وهم الذين يخلف بعضهم بعضًا في تجديد هذا الدين والدفاع عنه كما في الحديث: «**يبعث الله لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها**»، والله أعلم.

وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

● قال الشيخ ابن عثيمين:

قوله: «وكل ما يقولونه ويفعلونه من هذا وغيره؛ فإنما هم متبعون للكتاب والسنة، وطريقتهم هي دين الإسلام، الذي بعث الله به محمداً ﷺ».

«كل ما يقولونه»؛ أي: أهل السنة والجماعة

«ويفعلونه» من هذا وغيره.

«فإنما هم فيه متبعون للكتاب والسنة»: وهذه حال ينبغي أن يتنبه لها، وهو أننا كل ما نقوله وكل ما نفعله نشعر حال قوله أو فعله أننا نتبع فيه الرسول عليه الصلاة والسلام، مع الإخلاص لله؛ لتكون أقوالنا وأفعالنا كلها عبادات لله عز وجل، ولهذا يقال: إن عبادات الغافلين عادات، وعادات المنتبهين عبادات.

فالإنسان الموفق يمكن أن يحول العادات إلى عبادات، والإنسان الغافل يجعل عباداته عادات.

فليحرص المؤمن على أن يجعل أقواله وأفعاله كلها تبعًا لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ؛ لينال بذلك الأجر، ويحصل به كمال الإيمان والإنابة إلى الله عز وجل.

قوله: «لكن لما أخبر النبي ﷺ أن أمته ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة؛ كلها في النار إلا واحدة، وهي الجماعة»[1].

«أن أمته»؛ يعني: أمة الإجابة، لا أمة الدعوة؛ لأن أمة الدعوة يدخل فيها اليهود والنصارى، وهم مفترقون؛ فاليهود على إحدى وسبعين فرقة، والنصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وهذه الأمة على ثلاث وسبعين؛ كلها تنسب نفسها إلى الإسلام واتباع رسول الله ﷺ.

وقوله: «كلها في النار إلا واحدة» لا يلزم من ذلك الخلود في النار، وإنما المعنى أن عملها مما تستحق به دخول النار.

وهذا الثلاث والسبعون فرقة؛ هل وقعت الآن وتمت أو هي في المنظور؟.

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٤٥٩٧) وأحمد في «مسنده» (٤/ ١٠٢) من حديث معاوية بن سفيان. وضعفه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٢٦٤١).

أكثر الذين تكلموا على هذا الحديث قالوا: إنها وقعت وانتهت، وصاروا يقسمون أهل البدع إلى خمسة أصول رئيسية، ثم هذه الخمسة الأصول يفرعون عنها فرقًا، حتى أوصلوها إلى اثنتين وسبعين فرقة، وأبقوا فرقة واحدة، وهي أهل السنة والجماعة.

وقال بعض العلماء: إن الرسول عليه الصلاة والسلام أبهم هذه الفرق، ولا حاجة أن نتكلم فنقسم البدع الموجودة الآن إلى خمسة أصول، ثم نقسم هذه الأصول إلى فروع، حتى يتم العدد، حتى إننا نجعل الفرع أحيانًا فرقة تامة من أجل مخالفتها في فرع واحد؛ فإن هذا لا يعد فرقة مستقلة.

فالأولى أن نقول: إن هذه الفرق غير معلومة لنا، ولكننا نقول: بلا شك أنها فرق خرجت عن الصراط المستقيم؛ منها ما خرج فأبعد، ومنها ما خرج خروجًا متوسطًا، ومنها ما خرج خروجًا قريبًا، ولا نلزم بحصرها؛ لأنه ربما يخرج فرق تنتسب للأمة الإسلامية غير التي عدها العلماء؛ كما هو الواقع؛ فقد خرج فرق تنتسب إلى الإسلام من غير الفرق التي كانت قد عدت في عهد العلماء السابقين.

وعلى كل حال؛ فالرسول عليه الصلاة والسلام أخبر أن أمته أمة الإجابة ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة، كلها ضالة، وفي النار؛ إلا واحدة، وهي:

قال: «وهي الجماعة»؛ يعني: التي اجتمعت على الحق ولم تتفرق فيه.

قوله: «وفي حديث عنه أنه قال: «هم من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي»[1]؛ صار المتمسكون بالإسلام المحض الخالص عن الشوب هم أهل السنة والجماعة».

قال: وفي حديث عنه قال: «هم من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي» والذين كانوا على ما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه هم الجماعة الذين اجتمعوا على شريعته، وهم الذين امتثلوا ما وصى الله به: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]؛ فهم لم يتفرقوا، بل كانوا جماعة واحدة.

---

(١) سبق تخريجه.

قال: «صار المتمسكون بالإسلام المحض الخالص عن الشوب هم أهل السنة والجماعة»: جملة «صار» جواب الشرط في قوله: «لكن لما».

فإذا سئلنا: من أهل السنة والجماعة؟

فنقول: هم المتمسكون بالإسلام المحض الخالص عن الشوب.

وهذا التعريف من شيخ الإسلام ابن تيمية يقتضي أن الأشاعرة والماتريدية ونحوهم ليسوا من أهل السنة والجماعة؛ لأن تمسكهم مشوب بما أدخلوا فيه من البدع.

وهذا هو الصحيح؛ أنه لا يعد الأشاعرة؛ والماتريدية فيما ذهبوا إليه في أسماء الله وصفاته من أهل السنة والجماعة.

وكيف يعدون من أهل السنة والجماعة في ذلك مع مخالفتهم لأهل السنة والجماعة؟!

لأنه يقال: إما أن يكون الحق فيما ذهب إليه هؤلاء الأشاعرة والماتريدية، أو الحق فيما ذهب إليه السلف. ومن المعلوم أن الحق فيما ذهب إليه السلف؛ لأن السلف هنا هم الصحابة والتابعون وأئمة الهدى من بعدهم. فإذا كان الحق فيما ذهب إليه السلف، وهؤلاء يخالفونهم؛ صاروا ليسوا من أهل السنة والجماعة في ذلك.

قوله: «وفيهم».

أي: في أهل السنة.

«الصديقون»: جمع صديق، من الصدق، وهذه الصيغة للمبالغة، وهو الذي جاء بالصدق وصدق به؛ كما قال تعالى: ﴿**وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ**﴾ [الزمر: ٣٣]؛ فهو صادق في قصده، وصادق في قوله، وصادق في فعله.

- أما صدقه في قصده؛ فعنده تمام الإخلاص لله عز وجل، وتمام المتابعة للرسول عليه الصلاة والسلام، قد جرد الإخلاص والمتابعة، فلم يجعل لغير الله تعالى شركًا في العمل، ولم يجعل لغير سنة الرسول ﷺ اتباعًا في عمله؛ فلا شرك عنده ولا ابتداع.

ـ صادق في قوله، لا يقول إلا صدقًا، وقد ثبت عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال: «**عليكم بالصدق؛ فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقًا**»(١) .

ـ صادق في فعله؛ بمعنىٰ: أن فعله لا يخالف قوله، فإذا قال؛ فعل، وبهذا يخرج عن مشابهة المنافقين الذين يقولون ما لا يفعلون.

ـ وأيضًا يصدق بما قامت البينة علىٰ صدقه؛ فليس عنده رد للحق، لا احتقار للخلق.

ولهذا كان أبو بكر أول من سمي الصديق من هذه الأمة؛ لأنه لما أسرىٰ بالنبي عليه الصلاة والسلام، وجعل يتكلم أنه أسري به إلىٰ بيت المقدس وعرج به إلىٰ السماء؛ صار الكفار يضحكون به ويكذبونه ويقولون: كيف تذهب يا محمد في ليلة وتصل في ليلة إلىٰ ما وصلت إليه في السماء ونحن إذا ذهبنا إلىٰ الشام نبقىٰ شهرًا لم نصله وشهرًا للرجوع؟! فاتخذوا من هذا سلمًا ليكذبوا الرسول عليه الصلاة والسلام، ولما وصلوا إلىٰ أبي بكر، وقالوا: إن صاحبك يحدث ويقول كذا وكذا! قال: إن كان قال ذلك؛ فقد صدق(٢) . فمن ذلك اليوم سمي الصديق، وهو أفضل الصديقين من هذه الأمة وغيرها.

قوله: «وفيهم الشهداء» جمع شهيد؛ بمعنىٰ: شاهد.

فمن هم الشهداء؟

ـ قيل: هم العلماء؛ لأن العالم يشهد بشرع الله، ويشهد علىٰ عباد الله بأنها قامت عليهم الحجة، ولهذا يعد العالم مبلغًا عن الله عز وجل ورسوله شريعته التي جاء بها رسوله محمد ﷺ، فيكون شاهدًا بالحق علىٰ الخلق.

ـ وقيل: إن الشهيد من قتل في سبيل الله. والصحيح أن الآية عامة لهذا وهذا.

قوله: «وفيهم الصالحون»، والصالح ضد الفاسد، وهو الذي قام بحق الله وحق

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٠٧) وأبو داود (٤٩٨٠) من حديث ابن مسعود.

(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٣/ ٦٢).

عباده، وهو غير المصلح؛ فالإصلاح وصف زائد على الصلاح؛ فليس كل صالح مصلحًا، فإن من الصالحين من همه هم نفسه، ولا يهتم بغيره، وتمام الصلاح بالإصلاح.

قوله: «ومنهم أعلام الهدى ومصابيح الدجى»:

الأعلام: جمع علم، وهو في الأصل الجبل؛ قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ﴾ [الشورى: ٣٢]؛ يعني: الجبال، وسمي الجبل علماً؛ لأنه يهتدى به ويستدل به.

و«أعلام الهدى»: الذين يستدل الناس بهم ويهتدون بهديهم، وهم العلماء الربانيون؛ فإنهم هم الهداة، وهم مصابيح الدجى.

و«المصابيح»: جمع مصباح، وهو ما يستصبح به للإضاءة.

و«الدجى»: جمع دجية، وهي الظلمة؛ أي: هم مصابيح الظلم، يستضيء بهم الناس، ويمشون على نورهم.

قوله: «أولو المناقب المأثورة والفضائل المذكورة»:

«المناقب»: جمع منقبة، وهي المرتبة؛ أي: ما يبلغه الإنسان من الشرف والسؤدد.

وأما «الفضائل»: فهي جمع فضيلة، وهي الخصال الفاضلة، التي يتصف بها الإنسان من العلم والعبادة والزهد والكرم وغير ذلك؛ فالفضائل سلم للمناقب.

قوله: «وفيهم الأبدال»:

«الأبدال»: جمع بدل، وهم الذين تميزوا عن غيرهم بالعلم والعبادة، وسموا أبدالا: إما لأنهم كلما مات منهم واحد؛ خلفه بدله، أو أنهم كانوا يبدلون سيئاتهم حسنات، أو أنهم كانوا لكونهم أسوة حسنة كانوا يبدلون أعمال الناس الخاطئة إلى أعمال صائبة، أو لهذا كله وغيره.

قوله: «وفيهم أئمة الدين الذين أجمع المسلمون على هدايتهم»:

الإمام: هو القدوة.

وفي أهل السنة والجماعة أئمة الدين الذين أجمع المسلمون على هدايتهم؛ مثل: الإمام أحمد، والشافعي، ومالك، وأبي حنيفة، وسفيان الثوري، والأوزاعي، وغيرهم من الأئمة المشهورين المعروفين؛ كشيخ الإسلام ابن تيمية، وشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب.

وقوله: «أئمة الدين»: خرج به أئمة الضلال من أهل البدع، فهؤلاء ليسوا من أهل السنة والجماعة، بل هم على خلاف أهل السنة والجماعة، وهم؛ وإن سموا أئمة؛ فإن من الأئمة أئمة يدعون إلى النار؛ كما قال تعالى عن آل فرعون: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لا يُنصَرُونَ﴾ [القصص: ٤١].

قوله: «وهم الطائفة المنصورة»:

يعني: أن أهل السنة والجماعة هم الطائفة المنصورة التي نصرها الله تعالى؛ لأنهم داخلون في قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١]؛ فهم منصورون، والعاقبة لهم.

ولكن لا بد قبل النصر من معاناة وتعب وجهاد؛ لأن النصر يقتضي منصوراً ومنصوراً عليه؛ إذا؛ فلا بد من مغالبة، ولا بد من محنة، ولكن؛ كما قال ابن القيم رحمه الله:

الحقُّ مَنصُورٌ ومُمْتَحَنٌ فَلا عَجَبٌ فَهَذِي سُنَّةُ الرَّحَمَنِ

فلا يلحقك العجز والكسل إذا رأيت أن الأمور لم تتم لك بأول مرة، بل اصبر وكرر مرة بعد أخرى، واصبر على ما يقال فيك من استهزاء وسخرية؛ لأن أعداء الدين كثيرون.

لا يثني عزمك أن ترى نفسك وحيداً في الميدان؛ فأنت الجماعة وإن كنت واحداً، ما دمت على الحق، ولهذا ثق بأنك منصور إما في الدنيا وإما في الآخرة.

ثم إن النصر ليس نصر الإنسان بشخصه، بل النصر الحقيقي أن ينصر الله تعالى ما تدعو إليه من الحق، أما إذا أصيب الإنسان بذل في الدنيا؛ فإن ذلك لا ينافي النصر أبداً؛ فالنبي عليه الصلاة والسلام أوذي إيذاء عظيماً، لكن في النهاية انتصر على من آذاه، ودخل مكة منصوراً مؤزراً ظافراً بعد أن خرج منها خائفاً.

قوله: الذين قال فيهم النبي ﷺ: «**لا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة؛ لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم، حتى تقوم الساعة**»[١] .

هذا الحديث أخرجه البخاري ومسلم بنحو ما ساقه المؤلف ـ رحمه الله ـ عن عدد من الصحابة رضي الله عنهم عن النبي ﷺ.

قوله: «**لا تزال**» هذا من أفعال الاستمرار، وأفعال الاستمرار أربعة، وهي: فتئ، وانفك، وبرح، وزال، إذا دخل عليها النفي أو شبهه.

فقوله: «**لا تزال طائفة من أمتي على الحق**»: يعني: تستمر على الحق.

وهذه الطائفة غير محصورة بعدد ولا بمكان ولا بزمان، يمكن أن تكون بمكان تنصر فيه في شيء من أمور الدين، وفي مكان آخر تنصر فيه طائفة أخرى، وبمجموع الطائفتين يكون الدين باقيًا منصوراً مظفراً.

وقوله: «**لا يضرهم**»: ولم يقل: لا يؤذيهم؛ لأن الأذية قد تحصل، لكن لا تضر، وفرق بين الضرر والأذى، ولهذا قال الله تعالى في الحديث القدسي: «**يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني**»[٢] ، وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ [الأحزاب: ٥٦]، وفي الحديث القدسي: «**يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر، وأنا الدهر**»[٣] ؛ فأثبت الأذى ونفى الضرر، وهذا ممكن، ألا ترى الرجل يتأذى برائحة البصل ونحوه، ولا يتضرر بها.

وفي قوله: «**حتى تقوم الساعة**»: إشكال؛ لأنه قد ثبت في «الصحيح» أنها: «**لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض: الله، الله**»[٤] أي: حتى يمحى الإسلام كله، ولا يبقى من يعبد الله أبداً؛ فكيف قال هنا: «**حتى تقوم الساعة**»؟!

وأجاب عنه العلماء بأحد جوابين:

ـ إما أن يكون المراد حتى قرب قيام الساعة، والشيء قد يعبر به عما قرب منه إذا كان قريبًا جدًّا، وكأن هؤلاء المنصورين إذا ماتوا؛ فإن الساعة تكون قريبة جداً.

(١، ٢) سبق تخريجه.

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (٧٤٩١) ومسلم (٢٢٤٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) سبق تخريجه.

- أو يقال: إن المراد بالساعة ساعتهم.

ولكن القول الأول أصح؛ لأنه إذا قال: «حتىٰ تقوم الساعة»؛ فقد تقوم ساعتهم قبل الساعة العامة بأزمنة طويلة، وظاهر الحديث أن هذا النصر سيمتد إلىٰ آخر الدنيا؛ فالصواب أن المراد بذلك إلىٰ قرب قيام الساعة. والله أعلم.

قوله: «**فنسأل الله أن يجعلنا منهم، وأن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا، وأن يهب لنا من لدنه رحمة؛ إنه هو الوهاب، والله أعلم وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا**».

وبهذا الدعاء الجليل ختم المؤلف - رحمه الله - هذه الرسالة القليلة اللفظ الكثيرة المعنىٰ، وهي تعتبر خلاصة مذهب أهل السنة والجماعة، وفيها فوائد عظيمة، ينبغي لطالب العلم أن يحفظها.

والحمد لله رب العالمين علىٰ الإتمام، ونسأل الله أن يتم ذلك بالقبول والثواب، وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلم أجمعين.

● قال الشيخ صالح الفوزان:

(وكل ما يقولونه ويفعلونه من هذا وغيره فإنما هم فيه متبعون للكتاب والسنة) أي: كل ما يقوله ويفعله أهل السنة ويأمرون به وينهون عنه مما تقدم ذكره في هذه الرسالة وما لم يذكر، فقد استفادوه من كتاب ربهم وسنة نبيهم، لم يبتدعوه من عند أنفسهم ولم يقلدوا فيه غيرهم، فقد قال الله تعالىٰ: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦].

والأحاديث في هذا كثيرة، منها ما ذكره الشيخ.

يواصل الشيخ رحمه الله بيان مزايا أهل السنة والجماعة فبين مزيتهم العظمىٰ وهي: أن (طريقتهم دين الإسلام) أي: هو مذهبهم وطريقهم إلىٰ الله، وأنهم عند الافتراق الذي أخبر النبي ﷺ عن حدوثه في هذه الأمة ثبتوا علىٰ الإسلام، وصاروا هم الفرقة الناجية من بين تلك الفرق، وهم الجماعة الثابتة علىٰ ما كان عليه النبي ﷺ

وأصحابه، وهو الإسلام المحض الخالص من الشوائب؛ ولذلك فازوا بلقب أهل السنة والجماعة، وصار فيهم (الصديقون) المبالغون في الصدق والتصديق، (والشهداء) القتلىٰ في سبيل الله، (والصالحون) أهل الأعمال الصالحة (وفيهم أعلام الهدىٰ. . .) إلخ أي:

وفي أهل السنة العلماء الأعلام المتصفون بكل وصف حميد علمًا وعملاً (وفيهم الأبدال) وهم: الأولياء والعبّاد، سموا بذلك، قيل: لأنهم كلما مات منهم أحد أبدل بآخر، وفي رواية عن أحمد أنهم أصحاب الحديث (وفيهم أئمة الدين) أي: في أهل السنة العلماء المقتدىٰ بهم، كالأئمة الأربعة وغيرهم (وهم الطائفة المنصورة) أي: وأهل السنة هم الطائفة المذكورة في الحديث: **«لا تزال طائفة من أمتي...»**[1] الحديث. رواه البخاري ومسلم.

ثم ختم الشيخ رسالته المباركة بالدعاء والصلاة والسلام علىٰ النبي ﷺ، وهو خير ختام.

والحمد لله رب العالمين، وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمد، وعلىٰ آله وصحبه وسلم.

* * *

(١) تقدم تخريجه في أول الكتاب.

[أسئلة وأجوبة نموذجية على من أصول أهل السنة أن الفرقة الناجية «الطائفة المنصورة» هم مَن كان على مثل ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه

● قال الشيخ عبد العزيز المحمد السلمان:

س - ما طريقة أهل السنة والجماعة وهل من علامة يتميزون بها؟

ج - طريقتهم دين الإسلام الذي بعث الله به محمداً ﷺ وقال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ الآية.

والعلامة الفارقة بين أهل السنة والجماعة وغيرهم من الفرق هي ما أشار إليها النبي ﷺ بقوله: «**من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي**».

س - من هو الصديق، ومن الشهيد، ومن هم أعلام الهدى ومصابيح الدجي؟

ج - الصديق: هو الذي صدق في قوله وفعله المبالغ في الصدق أي الكثير الصدق كما تفيده الصيغة.

الشهيد: هو من قتل في المعركة.

والمراد بأعلام الهدى: العلماء، فالأعلام: جمع علم وهو ما يهتدي به إلى الطريق من جبل وغيره وسمي العالم علمًا لأنه يهتدي به كما يقال فلان جبل في العلم وكذا مصابيح الدجى المراد بهم العلماء وهذا تشبيه لعلماء السنة المهتدين وأهل الخير من المصلحين في الأمة بالجبال الشاهقة وبالمصابيح النيرة والنجوم الساطعة.

قال شيخ الإسلام في رفع الملام: يجب على المسلمين بعد موالاة الله ورسوله موالاة المؤمنين عمومًا كما نطق به القرآن خصوصًا العلماء الذين هم ورثة الأنبياء الذين جعلهم الله بمنزلة النجوم يهتدى بهم في ظلمات البر والبحر وقد أجمع

المسلمون على هدايتهم ودرايتهم. اهـ.

قال بعضهم وأظنه ابن مشرف:

سلامي على أهل الحديث فإنهم ... مصابيح علم بل نجوم سمائه

بهم يهتدي من يقتدي بعلومهم ... ويرقي بهم ذو الداء علة دائه

ويحيا بهم من مات بالجهل قلبه ... فهم كالحيا تحيا البقاع بمائه

لهم حلل قد زينتهم من الهدى ... إذا ما تردى ذو الردا بردائه

ومن يكن الوحي المطهر علمه ... فلا ريب في توفيقه واهتدائه

وما يستوي تالي الحديث ومن تلى ... زخارف من أهوائه وهُذَائِه

س ـ ما هي المناقب وما هي الفضائل وما معنى المأثورة؟

ج ـ المناقب: المفاخر، الفضائل: جمع فضيلة، وهي ضد النقيصة والرذيلة، والمأثورة: المنقولة، ومنه أثر الحديث أي نقله.

والفضل: الخير، المذكورة: الذائعة الصيت المترددة على الألسن.

والذكر: هو الصيت والشرف، وقيل في قوله تعالى: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ﴾ أي: اجعل لي ثناء حسنًا وذكرًا جميلاً وجاهًا وصيتًا وقبولاً عامًا في الأمم الآخرين»، الآخرين: الذين يأتون بعدي في الدنيا يبقى أثره إلى يوم القيامة، فمن وفقه الله للعمل الصالح وخُلِّد له ذكرًا جميلاً في الدنيا في حياته وبعد موته فقد أفلح، فالذكر الجميل عمر ثان كما قيل:

ذكر الفتى عمره الثاني وحاجته ... ما قاته وفضول العيش أشغال

وقال الآخر:

وما مات من تبقى التصانيف بعده ... مخلدةً والعلم والفضل ولده

وقال الآخر:

وما ضر من أحيا له العلم بعده ... على الدهر ذكرًا أنه ميت بال

س - من هم الأبدال؟ ومن المراد بأئمة الدين؟

ج - قيل: هم الأولياء والعباد. سموا بذلك لأنهم كلما مات واحد أبدل بآخر، ونص الإمام أحمد - رحمه الله - علىٰ أن لله أبدالاً في الأرض، قيل: من هم؟ قال: إن لم يكونوا أصحاب الحديث فلا أعرف لله أبدالاً.

وأما الأئمة في الدين: فهم العلماء المقتدىٰ بهم. قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾.

قال بعض العلماء: بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين أخذاً من هذه الآية الكريمة، والله أعلم. وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلم.

* * *

الخاتمة

اللهم إنا نسألك نفسًا مطمئنة، تؤمن بلقائك وترضى بقضائك، وتقنع بعطائك، يا أرأف الرائفين، وأرحم الراحمين.

اللهم إنا نسألك التوفيق لما تحبه من الأعمال، ونسألك صدق التوكل عليك، وحسن الظن بك يا رب العالمين.

اللهم اجعلنا من عبادك المخبتين، الغر المحجلين، الوفد المتقبلين.

اللهم إنا نسألك حياة طيبة، ونفسًا تقية، وعيشة نقية، وميتة سوية، ومردًا غير مخزٍ ولا فاضح.

اللهم اجعلنا من أهل الصلاح والنجاح والفلاح، ومن المؤيدين بنصرك وتأييدك ورضاك.

اللهم افتح لدعائنا باب القبول والإجابة واغفر لنا ولوالدينا وجميع المسلمين برحمتك يا أرحم الراحمين.

وصلى الله على محمد وآله وصحبه أجمعين.

* * *

فهرست الموضوعات



فهرست الموضوعات



من إصدارات المركز:

تيسير الكريم الرحمن

في تفسير كلام المنان

تأليف

العلامة الشيخ

عبد الرحمن بن ناصر السعدي

١٣٠٧هـ - ١٣٧٦هـ رحمه الله تعالى

قدم له

فضيلة الشيخ عبد الله بن عبد العزيز بن عقيل   فضيلة الشيخ محمد الصالح العثيمين

اعتنى به تحقيقاً ومقابلة

عبد الرحمن بن معلا اللويحق

من إصدارات المركز:



«في مذاهب الأئمة الأربعة»

تأليف

الوزير عون الدين أبي المظفر يحيى بن محمد بن هبيرة الحنبلي

المتوفى سنة ٥٦٠ هـ رحمه الله

تحقيق

د / محمد يعقوب طالب عبيدي

أستاذ مشارك في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

قسم البحث العلمي لتحقيق التراث

بمركز فجر لخدمات الطباعة والنشر والتوزيع

من إصدارات المركز:



تلخيص فضيلة الشيخ

صالح بن فوزان بن عبد الله آل فوزان

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

الجزءان

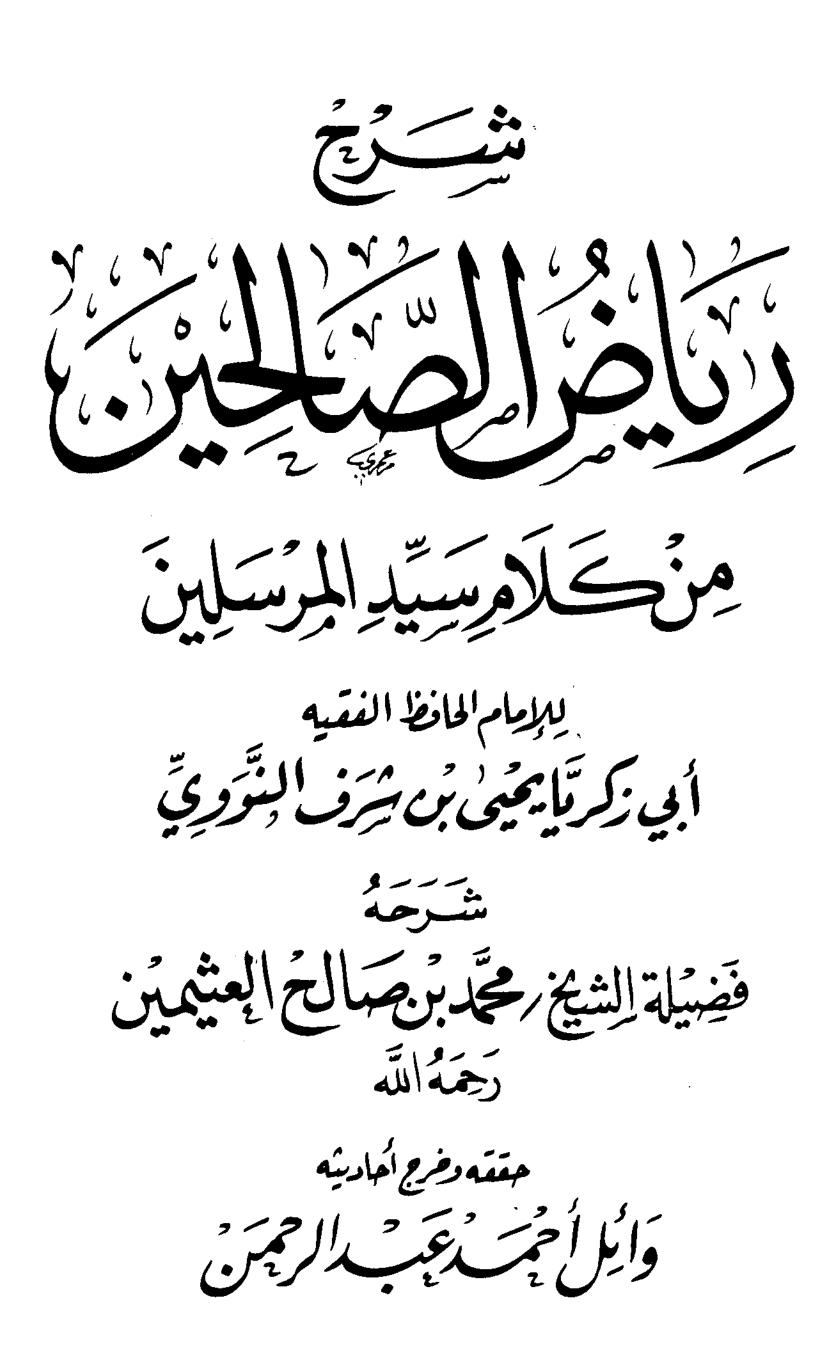
الأول والثاني

من إصدارات المركز:



جمع وترتيب
الشيخ أحمد بن عبد الرزاق الدويش

من إصدارات المركز:



من إصدارات المركز:



فضيلة الشيخ

محمد بن صالح العثيمين

رحمه الله

من إصدارات المركز:



فضيلة الشيخ

محمد بن صالح العثيمين

رحمه الله

من إصدارات المركز:

